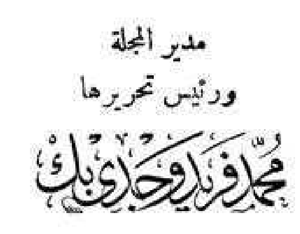
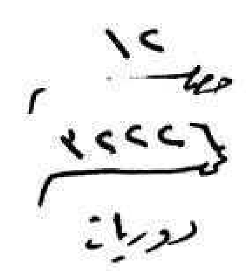
مجلة الأزهر

المجلد الحادى والعشرون

مدير المجلة
ورئيس تحريرها

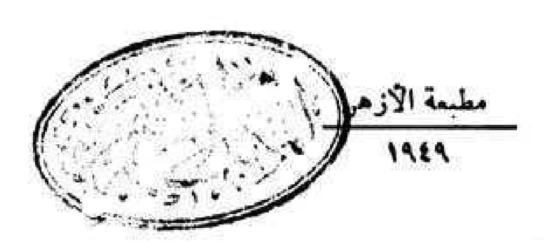




الاشتراك السنوى	
٤٠ لمصر والسودان	
٥٠ لخارج القطر المصرى	

ثمن العدد ٤٠ مليما

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر
١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة السنة الحادية والعشرين

لمجلة الأزهر

نحمدك اللهم على ما أسديت إلينا من سداد فيما نحن بسبيله من خدمة دينك الحق ، الذى شرعته هداية للخلق ، ونصلى ونسلم على رسولك محمد خاتم النبيين ، المبعوث الى الناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومتبعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فإننا بهذا العدد من مجلة الأزهر نفتتح السنة الحادية والعشرين لوجودها عاملة على خدمة الإسلام ، ماضية فى سبيلها قُدُما لا تنى ولا تفتر ، رافعة علمه عاليا فى الخافقين ، ملاقية من المسلمين فى جميع بقاع الارض تأهيلا وترحيبا . فمن كان من أهل تلك البقاع يفهم العربية ويقرؤها فقد حظى منها بأمنية كان ينشدها من قبل ولا يجدها ، فلما تحققت أقبل عليها إقبال الهيم على المورد العذب . ومن كان منهم لا يفهم العربية ولا يقرؤها ، يترقب مايترجمه بعض كتابهم منها وينشرونه فى مجلاتهم . فكانت هذه المجلة من أسباب إيقاظ القلوب فى العالم الإسلامى كله .

ويرى القراء مما تتوخاه هذه المجلة من الإكثار من نشر مقالات لنبغاء الأزهريين ، أن الأزهر أصبح لا يقل عن أية جامعة أخرى فى تنشئته كبار المفكرين الذين يستطيعون أن يؤدوا واجبهم الدينى على أتم ما يجب أن يكون عليه من بلاغة وتدليل .

وقد زدنا فى عنايتنا باللغة العربية التى خصص لها الأزهر كلية خاصة حفظاً لها من الضعف الذى كانت منيت به ، فعنينا بنشر مواضيع شتى لكثير من نبغائها ، ويرى القراء أنهم قد تفوقوا فى هذا المجال على سواهم ، وفى حفظ مكانة اللغة العربية حفظ للدين .

وإنى فى هذا المقام أرى من واجبى أن أنوه بما لجلالة الملك فاروق الأول من الفضل فى هذه النهضة الأزهرية؛ فقد حاطها جلالته بعنايته، وتعهدها برعايته، ورفع من شأنها بتوجيهاته، فكانت ثمرة هذه العناية الملكية ماهى فيه اليوم من تقدم وارتقاء. وإنا لنرجو أن يبلغ الأزهر الشأو الذى يريده له بفضل الله وكرمه.

وإنا لا ننسى أن ننوه بما لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من العناية بإبلاغ الأزهر الى الغاية المرجوة له، بما أوتى من الكياسة النادرة، والرعاية القويمة.

ولا يجوز أن نغفل هنا التنويه بذكر حضرات أصحاب الفضيلة العلماء الأعلام الذين يساهمون فى تحرير مجلة الأزهر، فإنهم يبذلون أحسن ما عندهم من المواهب العقلية والعلمية للإشادة بذكر الإسلام وبيان فضائله وبيناته؛ ويسرنا أن نخبرهم أن ما يكتبونه يقدر قدره فى البلاد الإسلامية كافة، وينقل بعضه إلى لغات أهلها وينتفع به، وينشر بين ظهرانيهم محوطا بالتقدير العظيم والعناية التامة.

فالله نسأل أن يسدد خطواتنا، وأن يهبنا من فضله قوة على القيام بحقها، فإنها وأيم الحق لمهمة يجب أن يبذل فيها كل جهد، وأن توقف عليها كل قوة منا ومن الذين يعملون معنا، والله يهدينا الى سواء السبيل ؟

محمد فريد وجدى

احتفال الازهر بالعام الهجرى

احتفل الأزهر فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر أكتوبر الجارى بأول العام الهجرى لسنة ١٣٩٦ ، فاحتشد ألوف من المحتفلين يتقدمهم سعادة المحافظ ، وكان يستقبلهم صاحبا الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام . فألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى كلمة جامعة ، تجلت فى ثوب من البيان الرفيع ، فذكر الهجرة النبوية وما دعا إليها وما آلت إليه . فوقعت من الحاضرين أجمل موقع ، وهتفوا بحياة جلالة الملك المحبوب ، ثم انصرفوا شاكرين . وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله الذى هدانا الى صراطه المستقيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، الذى بلّغ رسالات ربه فكان رحمةً للعالمين .

أما بعد : فيستقبل المسلمون اليوم فى جميع بقاع الأرض عامهم الهجرى الجديد فرحين مستبشرين ؛ لأنهم إذ يحتفلون به إنما يحتفلون بذكرى مجيدة عزيزة على المؤمنين ؛ ذكرى الهجرة النبوية المباركة التى جعلها الله فاتحة خير للإنسانية . فقد خرجت بالإنسانية من ظلمات الجهل الى نور الهداية ، وقضت على الشرك وأهله ، فعمّت المعرفة ، وعزّ الحق ، وتحررت النفوس من ذل العبودية .

وهم إذ يذكرون الهجرة المباركة يذكرون حادثا من أهم الحوادث خطرا فى مغزاه وفى أثره ؛ حادثا تجلت فيه البطولة الخالدة للنبى الأمين ، وتجلت صفات الإيثار والصبر والإيمان ، فغلب شعبا بأكمله على أمره ، ورده عن زيف معتقداته الى الحق واليقين .

ظلت الجزيرة العربية تسودها الأوهام والضلالات ، وتتخبط فى دياجير الشرك والجهالة ، الى أن أراد الله بها خيرا ، فبعث فيها سيدنا محمدا صلى الله عليه

وسلم بدين الهدى ودين الحق ، يدعو الناس الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأنقذها من ضلالها ، وأقالها من عثارها ، وهداها سواء السبيل . ولكن على ما جلبه لها من خير ، لم يلق من قومه وعشيرته إلا جحودا ونكرانا ، فجاهدهم على غيهم ، وكافحهم فى سبيل تحقيق دعوته ، واحتمل أذاهم بصبر جميل .

ولقد بدأ عليه الصلاة والسلام يدعو من الناس من يتوسم فيه الخير سراً ، حتى إذا أمر بالجهر جهر بدعوته ؛ وقد استجاب لها نفر قليل ممن أنار الله بصائرهم وشرح صدورهم للإيمان ، فآمنوا بما أنزل إليه ، ووقفوا إلى جانبه يشدون أزره . أما سواد الناس من قريش فقد عميت بصائرهم ، وران على قلوبهم غيهم ، فاشتدوا فى الحملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكادوا له ، وأسرفوا فى إيذائه « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل كيد الكائدين ، واعتداء المعتدين وظلم الباغين ، بإيمان قوى مكين ، فلم يزده أذاهم إلا استمساكا بدعوته ، ومنافحة عن عقيدته ، حتى إذا عدل المشركون عن الشدة إلى الملاينة ، وعن العداوة إلى المصانعة ، وبذلوا له الوعود ، ومنوه بالأموال والجاه والملك والشرف ، أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بقوله المأثور « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ! فزاد ذلك الموقف الكريم المشركين عنادا ، وغيا على غيهم ، وضلالا على ضلالهم ، ونالوا المسلمين بأذاهم ، غير متورعين ولا متعففين .

فلما اشتد بالمسلمين الكرب ، وعظمت عليهم البلية ، أمرهم بالهجرة من إيذاء قريش وغيرها . ولكن قريشا أبى عليها شيطانها إلا أن تزداد أذى لمحمد ، حتى بلغ بهم الكيد أن ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فيطفئوا نورا أراد الله له الإشراق ، ويقضوا على دعوة قضى الله لها القيام والانتشار .

دبّروا وأحكموا التدبير ، وانتهى رأيهم على أن يقتلوه — صلى الله عليه وسلم — واتفقوا على أن يقوم بالقتل جماعةٌ من فتيانهم الأشداء من جميع القبائل ، فينقضُّوا عليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرقَ دمه فى القبائل ،

ولا يقدر بنو عبد المطلب على الثأر له ، فأطلعه الله تعالى على ما بيّتوا له ، وأمره بالهجرة فى الليلة التى حدّدها المشركون لقتله ؛ فدبر الرسول صلى الله عليه وسلم أمر خروجه ، وبصحبته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأعانه الله على من ائتمروا به ، فغشّى على أبصارهم فلم يروه . واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه طريقه الذى رسم حتى بلغا غار ثور ، فأقاما فيه أياما ، جدت قريش فى طلبه والبحث عنه ، وبذلت غاية جهدها للّحاق به ؛ ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانىَ اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

ثم اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله الى المدينة تحفّه عناية الرحمن ، حتى إذا وصل اليها استقبله أهلها مؤمنين بدعوته ، ناصرين لدين الله . وبهذا تمت هجرة الرسول الى المدينة ، ودخلت الدعوة الإسلامية فى دور جديد ، أساسه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فربط الله بين قلوبهم ، وتضامت صفوفهم فى عزة ومنعة ، عزت على قوة قريش وصولتها ، وعم نور الله الآفاق ، وفاض على الجزيرة العربية حتى ملأ البقاع ، ودُكت معالم الشرك ، وانمحت الوثنية ، وأصبحت كلمة الله هى العليا . وهكذا تمت الهجرة المحمدية التى حفظ الله بها دينه ، وانتشر على أعقابها نور الإسلام .

وهذا هو المثل الرفيع الذى ضربه النبى الكريم فى التضحية والإيثار ، والمثابرة والاحتمال ، والصبر على الأذى .

وإنى إذ أهنىء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى المباركة ، أرجو مخلصا أن يتخذ إخوانى وأبنائى المسلمون منها عظة تنفعنا ، وتقوى إيماننا ، وتربط بين قلوبنا ، وتوحد صفوفنا ، حتى نستطيع أن نستعيد مجدنا ، ونحيى آثار أسلافنا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

ونتوجه الى الله تعالى بقلوبنا ، وبصدق نياتنا ، أن يجعل عامنا الجديد ، سعيد الطالع ، مبارك النقيبة ، متهيئاً للعالم فيه رخاء عميم ، وسلام مقيم ،

وأن يتفيأ فيه المسلمون وحدة تجمع بين قلوبهم ، وتقوى عُرى روابطهم ، فيستعيدوا فى حاضرهم مجدهم الغابر ، وعزهم التالد .

ونضرع اليه سبحانه أن يكلأ وادينا بعين رعايته ، وأن يوفق أبناءه ويؤلف بين قلوبهم الى ما فيه صالح البلاد ومجد الوطن ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم « فاروق الأول » أعز الله ملكه ، وأيده بروح من عنده .

اللهم اشرح صدره ، ويسر أمره ، وأحيه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها العباد والبلاد .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك العظيم ، المغفور له « الملك فؤاداً الأول » .

اللهم اجعله فى أعلى عليين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

اللهم وفق حكومة جلالة الملك الى ما فيه الخير العميم ، إنك نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الناموس الادبى العام

يرى المتأمل فى الوجود أن الشئون العالمية تجرى كلها متبعة سننا ثابتة لا يعتريها أقل انحراف . فالشموس فى السماء تحيط بها الكواكب تخترق مواكبها الفضاء بسرعة لا يدركها العقل ؛ وفيها من الكائنات ما لا يدخل تحت حصر ؛ وجميعها محكوم بنواميس طبيعية لا تتخلف عن عملها بأى مؤثر من المؤثرات . ويرى الرائى رأى العين أنها من النظام والإحكام والاستمرار بحيث يقف العقل حيالها دهشا ، ولا يرى بدا من الاعتراف بأنها من وضع بارئ الكون الذى وسع كل شىء علما .

هذه النواميس قد أحس بوجودها الإنسان من أول عهده بالنظر والتفكير ، واعتبر ما تحدثه أعمالا صادرة من خالق الوجود ، وهى كذلك عند المحققين ، ولكن الطائفة التى حاولت أن تنكر وجوده جل وعز ، من قدماء الفلاسفة ومحدثيهم ، اعتبروها نواميس طبيعية ، وجدت مع الكون من أزل الآزال ، وهو وهم خطير استنكره كبار المتأملين .

لسنا هنا بصدد البحث فى حقيقة النواميس ، ولا فى إثبات وجودها ، فهى ماثلة أمام أعيننا تدبر الوجود ، وتهيمن عليه ، وتحفظه من الخبط والتخاذل ؛ وإنما نحن بصدد إثبات وجود ناموس أدبى عام ، الى جانب النواميس المادية ، يقود الأعمال الإنسانية ويربها ويرقيها ، ويدأب على توجيهها الى المثل الأعلى من الوجود الإنسانى .

وجد الإنسان على هذه الأرض عاريا وبغير سلاح ، فكان همه الأول أن يقى نفسه من غوائل الوحوش الضارية ، والتقلبات الجوية المهلكة ، وأن يحصل ما يقيم أوده من ثمرات الأرض . هذه الامور كانت شغله الشاغل أمداً حتى هداه عقله الى بناء الأكواخ ، وعمل بعض ضروب السلاح من الأحجار . كل هذا كان تحت هداية مواهبه الذاتية ، وتدبيره المحدود ، وعلى طريقة التدريج

خلافا للحيوانات ، فقد خلقت فى أجسادها القوى والأسلحة التى تكفيها مؤنة الإنشاء والتدبير .

لسنا بسبيل الكلام فى هذا الموضوع ، ولكن بصدد الرقى الأدبى الذى حصله الإنسان فى مدى بضعة ألوف من السنين التى عاشها على الأرض . فقد وجد على الأرض وليس لديه أثر من أدب أو مجاملة أو حياء أو سياسة أو نزوع الى تكمل فى الأخلاق والتقاليد الخ ، مما شغل العقل الإنسانى واستوعب تفكيره آماداً طويلة ، حتى أصبح بعد أن كان على نحو ماعليه الى الآن متوحشو استراليا وافريقيا من العرى المطلق والحيوانية الباحتة ، والبهيمية الصرفة ، متجملا بأدب راق ، وتقاليد سامية ، ومعاملة مبنية على التعاطف الأخوى ، وترفع عن إتيان المنكرات علانية ، وتعالى عن ركوب الخنا جهرة . وقد وصل كثير من آحاده الى درجة الإيثار ، فيجيعون أنفسهم ليشبعوا الجائع المحتاج ، ويعرضون أنفسهم للخطر ليدفعوا الأذى عن ضعيف لا جريرة له ، بل ويلقون بأنفسهم للهلاك صيانة لعرضهم أن يدنس .

هنا نتساءل : ما الذى أدى بالإنسان الى هذه الدرجة من التصون والعفاف والورع ، إن لم يكن يوجد ناموس طبيعى يدعى بالناموس الأدبى ، حاصل على جميع مميزات النواميس الطبيعية وتبعاتها ؟

مما يدلك على أنه ناموس طبيعى ، تأثيره العام على جميع النوع البشرى فى جميع قارات العالم . فالصفات الأدبية من الحلم والوداعة والكرم والإيثار والنجدة والقناعة والترفع والحياء والتصون وحسن المعاملة والاستقامة الخ ، كلها صفات معتبرة فى جميع كتب الأخلاق عند جميع الأمم ، شرقيها وغربيها شماليها وجنوبيها أبيضها وأسودها ، وليس بعد هذا دليل على أن هذه الآداب البشرية صادرة عن ناموس طبيعى عام ، مثله كمثل جميع النواميس الطبيعية .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فإن على مخالفة مقتضيات هذا الناموس الطبيعى العام ، نتائج سيئة تقع على الهيئات التى تنحرف عنها .

إذا تقرر هذا كله فإن ما نراه من حيد الناس عن الآداب الموروثة ، وميلهم

الى التحلل منها ، يفضى الى حدوث فتن اجتماعية تنتاب الجماعات على صور شتى ، وفى نواح متعددة من مقومات حياتها .

وإذا كان هذا كله حقا لا مرية فيه ، فلا يجوز لأمة من الأمم أن تترك هذه الناحية الخطيرة من وجودها الاجتماعى لذوى الميول الحيوانية ، والنزعات الشهوانية ، فيسنوا للناس فى ألبستهم واجتماعاتهم وعاداتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، سننا تمليها عليهم الإباحة المطلقة ؛ فان هذه الإباحة المطلقة لا تستند إلا على أصل واحد ، وهو إشباع الشهوات البهيمية الى أقصى حد ، وفى أسلوب تمويهى مفضوح ، أو ذهابا مع مبادىء إلحادية وقعوا فى فخها ولم يفطنوا لمغبتها .

على أن المسألة ليست مسألة إيمان أو كفر ، فهى مسألة اجتماعية باحتة . فإن الأمم التى تريد أن تبقى وأن تزداد قوة وفتوة ، وأن تبلغ أقصى غايات المدنية ، يجب أن تتجنب ما يعدو على كيانها ، وما يؤثر على سرعة تقدمها ، وخاصة إذا كانت متخلفة عن غيرها فى ميدان الحضارة والعلم .

فإذا ظلت تتخيل أن الناموس الأدبى استعارة بيانية ، لا حقيقة عالمية ، وأن ليس وراء مخالفته من تبعة مادية ، وألقت بنفسها فى تيار التقليد لمن سبقها فى الوجود ، واعتبرت ما هى عليه من الأمور المنافية لهذا الناموس من لوازم المدنية ، فان هذه بتسكعها فى أهوائها ، وتماديها فى باطلها ، إن حصلت على شىء فلن يكون إلا مظهرا خداعا من الملبس والمأكل والعادات التى تقتبسها من الأمم التى تحتك بها ؛ أما فى الواقع فإنها بهذا التقليد الأعمى إنما تعمل لهلاكها ، وتتهافت على مبيداتها .

إنى أرى أول ما يجب على المصلحين فى مثل هذا الدور الذى تكون فيه الجماعات ، أن يعملوا على تجنيبها فى دور نهوضها ، ناحية اللهو والترف والإباحة الشائعة فى الأمم المتمدنة . وذلك بالتدليل لها على أن هذه الأمم لما بدأت ترتقى لم تكن على ما هى عليه اليوم من هذه الموبقات الاجتماعية ، وإلا لما وصلت الى هذه الدرجة من المدنية والعلم ، ولهلكت قبل أن تصل الى شىء منها .

وإنها لحقيقة يمكن التدليل عليها ؛ فإن الدولة الرومانية كانت إبان نهوضها على أخلاق وفضائل ووطنية لم تكن لها حين اعتراها الهرم ، واعتراها الضعف ، فانتشرت فيها الرذائل ، وفشت الفحشاء ، وسادت حكامها الرشوة ، واعوجاج السيرة ، وانحطاط النفس . فأضاعت هذه السفالات دولتهم ، وجعلتهم أحاديث لمن بعدهم .

وبعد هذا الاستطراد أقول : إن مارميت إليه بمقالى هذا ، ولعلى أول قائل به ، من الناحية العلمية ، هو : وجود ناموس على مثال جميع النواميس ، يدعى بالناموس الأدبى ، ينظم العلاقات بين بنى الإنسان على قواعد العقل والحكمة والأدب العالى ، وإن الدليل على وجوده نشوء آثاره فى جميع الشعوب والجماعات البشرية بعد أن لم تكن ، وأن السعى لقلب أوضاعه فى الجماعات يقابل بعقاب يعم الجماعة التى تقر هذا القلب وتعمل به ، وهذا العقاب مشاهد محسوس ممن يدرس المآسى البيتية ، والخسائر المالية ، والمفاسد الاجتماعية ، التى تنخر عظام كل هيئة اجتماعية فى جميع العصور الإنسانية ، وهى فى هذا العصر أشد منها فى جميع العصور السابقة ، وقد وصلت إلى درجة احتمال تلاشى النوع الانسانى كله بتأثير القلاقل الموجودة فى جماعاته ، والأضغان المتأججة بين حكوماته . فالذين يدفعون منا الرجال الإباحة الحيوانية ، والنساء للتجرد من الخفر والتعدى على الآداب النسوية ، ويربون أطفالهم على عدم احترام أبويهم الخ الخ ، سيلاقون وبال أمرهم فى نشوء أجيال لا تقف من الطغيان عند حد ، وتجد من العقوبات الطبيعية على تعدى حدود الناموس الأدبى ، مثل ما تجده من التعدى على أى ناموس طبيعى . والفعال فى هذا كله مدبر الوجود الأعظم ، فإنه سبحانه أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟

محمد فريد وجدى

حكم الشريعة

فى استبدال النقد بالهدى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ، أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ[1] » .

وقال تعالى : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » [2] .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا » [3] .

---

(١) البقرة : آية ١٩٦ (٢) الحج : آية ٢٧ ، ٢٨ (٣) المائدة : آية ٩٥

وقال تعالى « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

وقال تعالى : « ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » (٢) .

وقال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ، وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلَا الْهَدْيَ ، وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ » (٣) .

بهذه الآيات الكريمة ، وبما صح من أحاديث الأضحية ، تقرر فى الإسلام أن إراقة الدم نوع من أنواع القربى الى الله ، وأن هذه القربة لا تقوم إلا بذبح الحيوان وإراقة دمه ، وأن التصدق بثمنه لا يغنى ولا يقع عند الله موقع القبول فى القيام بهذا المطلوب .

وقد تضمنت الآيات الكريمة النص على الهدى تارة على سبيل التعيين دون أن يكون له بدل ، وتارة على سبيل التعيين مع الالتجاء الى البدل عند العجز عن الهدى ، وثالثة على سبيل التخيير بينه وبين غيره

كما تضمنت أن مكان الذبح فيما وجب ذبحه هو الحرم : « حتى يبلغ الهدى محله » ، « ثم محلها إلى البيت العتيق » ، « هدياً بالغ الكعبة » ، وكذلك تضمنت اعتبار البُدن والذبائح فى هذه الأماكن من شعائر الله التى تجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها أو إغفالها . وحسبنا « لا تحلوا شعائر الله » . والشعائر هى العلامات الواضحة الظاهرة التى اعتبرها الدين مظهرا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق إلا بعمل ظاهر يراه الناس فى مناسبات خاصة . وإذا أردت زيادة فى الإيضاح

---

(١) الحج : آية ٣٦ (٢) الحج : آية ٢٩ (٣) المائدة : آية ٢

فانظر الى موقف الشريعة من الأذان : إذ اعتبرته شعيرة من شعائر الدين ، يُقاتَل أهل القرية أو المدينة على تركها وإن لم تكن من الفرائض .

ألا وإن للشعائر فى نظر الإسلام مكانة الفروض المقدسة . وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء فى ذبائح الحج ، ولم نر لواحد منهم خلافا فى ذلك ، نزولا على حكم هذه الآيات الصريحة الواضحة ، وتحقيقا للغرض المقصود ، وهو التقرب الى الله بإراقة الدم ؛ ولله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء : بما يدركون حكمته ، وبما لا يدركون . وما كان اختلاف الفرائض فى عدد الركعات والكيفيات ، وتحديد الأوقات ، واختلاف مقادير الزكاة ، والكفارات ، وسائر ما دخله العد ، أو اعتبرت فيه الكيفية - إلا نوعا من هذا التعبد الذى يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة ، وهو الامتثال لأمر الرب الحكيم ، عقل معناه أو لم يعقل .

والعلماء يذكرون فى هذا المقام أن هذه القربة تذكّر بحادث الفداء الذى حصل لإبراهيم الخليل وولده عليهما السلام ، وتنبه النفوس المؤمنة إلى مبدأ التضحية فى سبيل الله وطاعته بأعز شىء لديها : « وفديناه بذبح عظيم » .

على أن فى العمل بهذه القربة سراً اقتصادياً يرجع إلى سكان البادية ، ولعله من مصداق دعوة أبيهم إبراهيم حين قال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . ذلك أن الماشية رأس مال أهل البادية ، وموسم الحج هو السوق التى تنفق فيه هذه السلعة ، عن رغبة لا مشقة فيها ، وبذا يحصلون على أرزاقهم من أعمالهم ، ومن ثمن أموالهم ، دون أن يتعرضوا لذل السؤال ، أو يترقبوا المن والعطاء .

من هذا يتضح جليا أنه لا يجوز للمسلمين أن يفكروا فى استبدال النقود بالهدى أو الأضاحى التى طلبها الشارع بذاتها ، إقامة للتصدّق بثمنها مُقامها ؛ إذ ليس القصد هو التصدق ، وإنما القصد - كما قلنا - التقرب بها نفسها . وإننا لو أبحنا لأنفسنا هذا النحو من التفكير - بناء على ما نظن من حِكَم للتشريع - لانفتح علينا باب التفكير فى التخلى عن الأعداد والكيفيات التى طلبت فى كثير من العبادات ، ولأمكن لقائل أن

يقول : إن الغرض من الصلاة هو الخضوع ومراقبة الله ، وهما معنيان يحصلان بالقلب ، وبأى مظهر من مظاهر الخضوع والمراقبة ! فليست هناك حاجة إلى ركوع أو سجود أو غيرهما من كيفيات الصلاة الخاصة ؛ وبذلك ينفتح باب الشر على مصراعيه ، ولا يقف ضرره عند حد الأضاحى وفدية الحج .

أما ما يبررون به مثل هذا التفكير من أن لحوم الذبائح تتكدس فى منى ، وتترك للتعفن المفسد للجو ، أو للنار المذهبة للأموال : فهذه الحالة - إن صحت - ليست ناشئة عن أصل التشريع الذى هو خير كله ، وإنما نشأت عن عدم التنظيم ، وعدم الإلمام بأحكام الشرع ؛ فإن الشرع لم يطالب من كل حاج أن يذبح ، ولم يوجب أن يكون الذبح - فيما يطلب فيه الذبح - فى خصوص منى ولا بجزرتها ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، فأيام النحر كلها زمن للذبح ، والحرم كله مكان للذبح ، والذبح لم يطلب عينا إلا فى حالات مخصوصة ، وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره : من صدقة أو صيام .

فلو عرف الحجاج أحكام الله على هذا الوجه فيما يختص بالدماء ، فتصدق من لم يطلب منه الذبح ، وذبح من طلب منه الذبح ، وفرقوا الذبح على الأماكن والأيام ، ثم تخيروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى ، وهيئوها بالسلخ والتقطيع - لما كان لهذه الشكوى موضع ؛ ولكن جرت سنتنا فى التفكير أن نعد الوضع الذى جرّت إليه العادات - وإن كانت فاسدة - صورة للتشريع ، فنحكم عليه بالقبح ، ثم نحاول التخلى عنه بالقضاء على أصله ، وبذلك ندخل فى باب من التغيير والتبديل فى أحكام الله ، ولا نلبث بعد ذلك أن نترك الشريعة كلها جانباً ، باستحساننا الفاسد المبنى على واقع جرّ إليه الجهل وعدم التنظيم .

وبعد : فإن الكلام فى هذا الموضوع ليس وليد اليوم ، بل سبق أن تحدث فيه المرحوم الحلباوى بك مع فضيلة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ المراغى ، فأحال علىّ فضيلته بحثه من الوجهة الفقهية الشرعية ، فعدت إلى فضيلته بعد البحث الطويل بأن الفقهاء جميعا يعتبرون التعبد فى هذه المسألة بإراقة الدماء ، دون أن أرى فى كلام واحد منهم ما يشير - ولو من بعيد - الى جواز استبدال النقود بها ؛ فاطمأن فضيلته الى هذا وأقره ، وقد عرضت على فضيلته اقتراحا هو :

أنه على فرض تكدس اللحوم — كما يقولون ، بعد مراعاة الأحكام الشرعية فى زمان الذبح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه — يجب على المسلمين — وفيهم والحمد لله موسرون كثير — أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وادخارها طيبة ، ثم توزيعها على الفقراء المحتاجين فى جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق عنها القطر الحجازى ، أو بيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين ، أو فى سبيل الله العامة . وإنى أعتقد أن هذا المشروع متى كفله العاهلان العظيمان المؤمنان : عاهل مصر ، وعاهل الحجاز ، رأينا آثاره ، وانتفع الناس بثمراته ، فى الموسم المقبل ، إن شاء الله .

هذا ما يجب أن ينزل عليه المسلمون فى فهم أحكام دينهم ، وفى تنظيم العمل بها ، والمحافظة عليها ، والسلام على من اتبع الهدى .

(مجلة الأزهر) الدين اعتقادات وتكاليف . فناحية الاعتقادات يشترط فيها عندنا تحكيم العقل ، فهو الرادع القوى للخيالات أن تسيطر على المعتقدات ، وما سمح لزعماء الأديان السابقة على الإسلام أن يُدخلوا فيها ما شاءت لهم الأهواء إلا إغفالهم تحكيم العقل ، بل زعم هؤلاء الرؤساء أن الدين لا يصح أن يخضع لحكم العقل . وما علموا أن هذا يفتح لهم باب الخيالات على مصراعيه فيحملهم رؤساؤهم ما يروق لهم أن يحملوهم من الخرافات ليقتادوهم لطاعتهم كما يقتادون العجماوات .

ولكن التكاليف لا يمكن أن يشترط فيها هذا الشرط ؛ لأن من المتدينين جهالا وأنصاف متعلمين لا يتجاوز تعقلهم ما ألفوه فى محاولاتهم المحدودة ؛ بل المتعلمون لم يصلوا من العلم إلى نهايته ليدركوا حكم جميع التكاليف الدينية ؛ فما سنّته الشريعة الإسلامية من هذه التكاليف يجب قبولها بدون مناقشة فيها ؛ ألا ترى أن الطفل لا يعقل حتى فائدة الدواء فيهرب من تعاطيه ؛ بل ربما استنكر بعض القيود الصحية وعدها من أبويه تحكما ، فلما يكبر يدرك أن أبويه كانا على حق فيما ألزماه به منها .

وقد رأينا أن نذيل هذه المقالة القيمة لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت تأييداً لقوله « ولله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء ، بما يدركون حكمته وبما لا يدركون » .

من ذخائر السنة

أهداف الهجرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

أخرج الشيخان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر إليه » .

* * *

تواتر النقل عن الأئمة فى فضل هذا الحديث ، وتعظيم قدره ، وكثرة فوائده ، وقد صدر به الإمامُ البخارى كتابه الصحيح اتباعاً لما كان يستحبّه السلف الصالح من تقديمه أمام كل شىء يبتدأ من أمور الدين ، لعموم الحاجة اليه ، وللتنبيه على مزيد الاعتناء بحسن النية ، والاهتمام بالإخلاص فى الأعمال ، وللإشارة الى أن كل عمل لا يُراد به وجه الله ، لا ثمرة له فى الدنيا ولا فى الآخرة .

واتفق كثير من الأئمة على أنه أحد الأحاديث التى يدور الدين عليها ، وأنه أصل عظيم من أصول الإسلام .

وقال عنه الحافظ ابن مهدى : لو صنّفت كتابا فى الأبواب ، لجعلت حديث عمر بن الخطاب فى الأعمال بالنيات رأس كل باب ، وينبغى لمن أراد أن يصنف كتابا أن يبدأ بهذا الحديث .

وقد قيل فى سببه ومورده : إنه لما أُمر بالهجرة من مكة الى المدينة ، تخلّف جماعة عنها ، فذمهم الله بقوله : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا » ، ولم يهاجر جماعة آخرون لفقد استطاعتهم ، فعذرهم الله ، واستثناهم بقوله : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » ، وهاجرت جماعة ثالثة ، فمدحها الله فى غير موضع من كتابه . واشتهر أنه كان بين المهاجرين رجل أراد أن يتزوج امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر لأجلها ، وتزوج بها ، وكانوا يسمونه مهاجر أم قيس ، فعُرض به ، تنفيراً عن مثل قصده .

وهذا السبب ، وإن كان خاص المورد ، لكن العبرة بعموم اللفظ . وذكر الدنيا مع المرأة من باب زيادة النص على السبب .

* * *

صُدّر الحديث بكلمتين جامعتين ، وقاعدتين شاملتين ، هما : إنما الأعمال بالنيات ، و : إنما لكل امرىء ما نوى ، ويُراد من الجملة الأولى الإخبار عن الأعمال الاختيارية بأنها لا تقع من العامل إلا عن قصد هو سبب عملها ووجودها ، وبأن صلاح العمل وفساده إنما هو بحسب النية المقتضية لإيجاده ؛ ويُراد من الجملة الثانية الإخبار عن المرء بأنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيرا ، حصل له خير ، وإن نوى شرا ، حصل له شر ؛ وبأن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وعقابه عليه بحسب نيته الفاسدة .

وليس المراد فى الجملة الأولى نفى ذات العمل ، لأن الذوات غير منفية ، إذ تقدير إنما الأعمال بالنيات : لا عمل إلا بالنية ، ولأن ذات العمل الخالى عن النية موجودة ، وإنما المراد نفى أحكامها المتعلقة بوجودها كالصحة والكمال على اختلاف التقدير فيها ، فقد قال الأئمة الثلاثة بأن التقدير فيها : إنما صحة الأعمال

بالنيات ، وأدخلوا جميع الأعمال من الصلاة والصوم والزكاة والحج والوضوء ، وغير ذلك مما تطلب فيه النية ، عملا بقضية العموم . وذهب أبو حنيفة وأصحابه الثلاثة ، والثورى ، والأوزاعى وغيرهم : إلى أن التقدير : إنما كمال الأعمال ، أو ثوابها ، أو نحو ذلك بالنيات ، لأنه هو الذى يطّرد ؛ فإن كثيرا من الأعمال يوجد ويعتبر شرعا بدونها .

وجعل بعضهم المقدر فى الجملة هو القبول ، فقال : إنما قبول الأعمال بالنيات ، لكنه تردد فى أن القبول هل ينفك عن الصحة أولا ؟ فعلى أنه ينفك هو كتقدير الكمال ، وعلى أنه لا ينفك هو كتقدير الصحة .

وقال بعضهم : لا حاجة إلى إضمار محذوف من الصحة أو الكمال ، أو نحوهما ، إذ الإضمار خلاف الأصل ، وإنما المراد حقيقة العمل الشرعى ، فلا يحتاج حينئذ إلى إضمار .

وعلى هذه التقادير جميعها ، فإن الخلاف ليس فى اشتراط النية فى المقاصد ، وإنما الخلاف فى اشتراطها فى الوسائل ، ومن ثم لم يشترطها الحنفية فى الوضوء مثلا ، لأنه مقصود لغيره لا لذاته ، فكيفما حصل ، حصل المقصود ، وصار كستر العورة ، وباقى شروط الصلاة التى لا تفتقر إلى النية .

وليس هناك تكرار بين الجملتين ؛ فإن الحكم قد ذكر بالأولى ، وأكد بالثانية ، تنبيها على شرف الإخلاص ، وتحذيرا من الرياء المانع من الخلاص ؛ وإن الجملة الثانية دلت على أن الأعمال العادية التى لا تتوقف على النية ، قد تفيد الثواب إذا نوى بها فاعلها القربة ، كما دلت على أن من نوى شيئا يحصل له ثوابه ، وإن لم يعمله لمانع شرعى كمريض تخلف عن الجماعة .

ولما كان فى تينك الجملتين نوع إجمال ، ساق الحديث عقبهما مفرعا عليهما تفصيل بعض ما تضمنتاه زيادة للإيضاح ، ونصا على صورة السبب الباعث على هذا الحديث ، فذكر مثلا من الأمثال والأعمال المتحدة فى الصورة ، المختلفة صلاحا وفسادا باختلاف المقاصد والأهداف ؛ وقد بين فيه أن من هاجر إلى دار الإسلام حبًّا لله ورسوله ، ورغبة فى تعلم دين الإسلام وإظهاره حيث كان

يعجز عنه فى دار الشرك، فهذا هو المهاجر حقا إلى الله ورسوله، وأن من كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام، ليطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فى دار الإسلام، فهجرته إلى ماهاجر إليه من ذلك؛ فالأول تاجر، والثانى خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر.

والأهداف المنشودة من الهجرة كثيرة، وهى تتنوع بتنوع الغرض منها، فالهدف فى الهجرة إلى الله ورسوله هو اتباع أمرهما، وامتثال حكمهما، وابتغاء مرضاتهما، وهو كما ترى هدف واحد، يتناول سائر أقسام الهجرة: من هجرة إلى الحبشة والمدينة، وهجرة القبائل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهجرة مانهى الله عنه؛ ومن ثم اقتصر فى جواب الشرط على إعادته بلفظه. أما الأهداف فى الهجرة لأمور الدنيا، فكثيرة لا تنحصر ومتعددة لا تقف عند حد، ولا يجمعها غرض واحد: فقد يهاجر الإنسان من أجل تجارة، أو إمارة، أو زيجة، أو تراث، أو ثأر، أو أى شأن آخر غير ذلك من شئون الدنيا ومطالب الحياة؛ ولهذا عبّر فى الجواب بقوله: فهجرته إلى ما هاجر إليه، إشارة إلى تحقير ما طلبه من أمور الدنيا، واستهانة به، كما أشار بالأول إلى تعظيم الهجرة والمهاجر إليه.

وليست كل هجرة لأمور الدنيا مذمومة مطلقا، فإن من نوى بهجرته مفارقة دار الكفر، وتزوج المرأة معا، لا تكون هجرته قبيحة، ولا غير صحيحة، بل هى ناقصة بالنسبة إلى من كانت هجرته خالصة، وإنما المذموم هو طلب المرأة فى صورة الهجرة الخالصة، فأما من طلبها مضمومة إلى الهجرة، فإنه يثاب على قصد الهجرة، لكن دون ثواب من أخلص، وكذا من طلب التزوج فقط لا على صورة الهجرة إلى الله، لأنه من الأمور المباحة التى قد يثاب فاعلها إذا قصد بها القربة كالإعفاف.

* * *

إنما: هى لتقوية الحكم الذى فى حيزها اتفاقا، ولإفادة الحصر عند المحققين، وهو إثبات الحكم للمذكور، وصرفه عما عداه؛ واختلفوا فى إفادتها الحصر،

هل هو بالمنطوق، أو بالمفهوم، أو بالوضع، أو بالعرف، أو بالحقيقة، أو بالمجاز، ورجّح بعضهم أنها بسيطة، ورجّح آخرون أنها مركبة من إن التوكيدية، وما الكافة، وهى حرف زائد.

والأعمال: جمع عمل، وهو حركة البدن بكله أو بعضه، وربما أطلق على حركة النفس، وآثر ذكر الأعمال على ذكر الأفعال، لأن لفظ العمل أخص من لفظ الفعل، فالفعل ينسب الى البهائم والجمادات، كما ينسب الى ذوى العقول، بخلاف العمل، فإنه يعتبر فيه القصد؛ وأما الصنع فهو أخص من العمل، لأنه لا يقال إلا لما كان من الإنسان بقصد واختيار بعد فكر وتحر.

والنيات: جمع نية، وهى لغة القصد، وشرعا: قصد الشىء مقترنا بفعله، فإن تراخى عنه كان عزما، أو يقال: قصد الفعل ابتغاء وجه الله، وامتثالا لأمره؛ وهى هنا محمولة على معناها اللغوى، ليطابق ما بعده من التقسيم. وجمعت باعتبار تنوعها، لأن المصدر إذا اختلفت أنواعه جمع كالعلوم، أو باعتبار مقاصد الناوى كقصده تعالى، أو تحصيل موعوده، أو اتقاء وعيده.

والنية فى كلام العلماء تقع بمعنيين: أحدهما: تمييز العبادة بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، وهذه النية هى التى ترد كثيرا فى كتب الفقهاء؛ والمعنى الثانى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده، أو لله وغيره؟، وهذه النية هى التى يتكلم فيها العارفون، وتوجد كثيرا فى كلام السلف.

والامرؤ: الرجل خاصة، وخصه بالذكر لشرفه وأصالته، وغلبة دوران الأحكام عليه؛ وقيل: يشترك فيه الرجل والمرأة، وفيه لغتان: امْرِىء، كزبرج، ومرء، كفلس، ولا جمع له من لفظه، وعينه تابعة للامه فى الحركات الثلاث، قال تعالى: «إن امرؤ هلك»، وقال: «ما كان أبوك امرأ سوء»، وقال: «لكل امرىء»؛ وفى مؤنثه أيضا لغات: امرأة، ومرأة، ومرة؛

وفى الحديث استعملت اللغة الأولى منهما من كلا النوعين ، حيث قال : « لكل امرىء » ، و : « الى امرأة » .

والهجرة : الانتقال من محل الى محل ، وأصلها هجران دار الشرك الى دار الإسلام ، كما كان يفعل المهاجرون قبل فتح مكة ، حيث كانوا يهاجرون الى الحبشة ، والى مدينة الرسول ؛ والمراد بها هنا مطلق الانتقال والتجاوز من شىء الى شىء صوريا أو معنويا . والهجرة الى الله معناها فى حقه تعالى ، إما على التشبيه البليغ ، أى كأنه هاجر إليه ، أو على حذف مضاف ، أى هاجر إلى محل رضاه وثوابه ورحمته ، أو يقال : إن الانتقال إلى الشىء عبارة عن الانتقال الى محل يجده فيه ، ووجدان كل أحد على ما يليق به ، فالمراد الانتقال الى محل قربه المعنوى وما يليق به .

والدنيا : هى ما على الأرض من الجو والهواء ، أو هى كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة ؛ وهى بضم الدال مقصورة غير منونة ، وقد تكسر وتنون ، وأنكر التنوين على القائل به ، وقيل: إنه لا يعرف فى اللغة ، والصحيح جوازه ؛ قال فى القاموس : والدنيا نقيض الآخرة ، وقد تنون ، وجمعها دُنى .

وسميت بذلك ، لدنوها إلى الزوال ، أو لسبقها الآخرة ، أو لدناءتها وخستها .

وقد ذكرت المرأة فى الحديث مع الدنيا ، وجعلت قسما قائما بذاته مقابلا لها مع أنها داخلة فى مسماها باعتبارها من أفضل متعها ؛ إشارة إلى سبب ورود الحديث من الهجرة إلى المدينة للتزوج بها ، وإيذانا بشدة فتنة المرأة ، وزيادة فى الحث على اتقاء ضررها ؛ روى البخارى ومسلم وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما تركت فى الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

بين الشريعة والقانون

نظرات فى توثيق المعـــاملات المـالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

التوثيق بالكتابة :

قلنا فيما سلف : إن علماءنا — أحسن الله إليهم — وقفوا من آية التوثيق فى الدَّين عند رأيين ؛ ففريق يرى وجوب التوثيق على وجه الإطلاق ، وفريق يرى ندب التوثيق كذلك .

وقلنا : إن كلا من الرأيين مع ما استند إليه من أدلة ، لم يسلم من التوهين ، وإن المسألة لم تزل بحاجة إلى الاجتهاد والترجيح لأحد الرأيين ، أو لما يبدو من رأى ثالث .

ونحن إذا لم نتأثر بنزعة التعصب لفريق أو التحيز لأحد المذهبين ، وإذا وقفنا أمام النصوص وجها لوجه ، واستأنسنا بروح التشريع ، وما يقصد إليه من الخير للناس ، فجائز أن نهتدى إلى رأى تستريح إليه النفس .

وقد تحدثنا فى مطلع هذه البحوث عن شأن المعاملة المالية فى حياة الناس ، ونحن نعلم إلى جانب ذلك أن الشريعة نهت عن التبذير ، وعن تعريض المال للضياع فى مثل قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفى مثل قوله عليه السلام : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات - إلى قوله - وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة الأموال » (ص ٣١٣ ج ٤ تيسير الوصول) . فإذا جاءت آية الدين صريحة فى الأمر بالكتابة والإشهاد ، محافظة على المال ، ومنعاً من التنازع ، وجب أن نسايرها فيما وجهتنا إليه صراحة ، وأن ننزل بها عند ما قصدت إليه من الأغراض ، وأن نبعد بها عما يوهن مغزاها .

بدأ الله سبحانه آية الدين بصيغة النداء « يأيها » التى يستعملها العرب فى مناداة البعيد حقيقة ، أو المنزل منزلة البعيد ، لزيادة التنبيه إلى المقصود ، ثم وصف الله عباده فى النداء بوصف الإيمان ، وفى هذا الوصف استنهاض لهم أن يحرصوا على ما وجه اليهم من التكليف ؛ فإن الإيمان الصحيح يقضى عليهم بذلك ؛ وكان ممكناً أن يخاطبهم بوصف غير ذلك مثل « يابنى آدم » ، « ياعبادى » ، « يأيها الناس » الخ ، ولكنه عدل إلى خطابهم بوصف الإيمان لإيقاظ شعورهم ، وإزالة الغفلة عن مداركهم ، ليزدادوا إقبالا على ما وراء النداء .

ثم ساق الله تعالى بعد النداء فى عرض الآية نحو اثنى عشرة صيغة من صيغ الأمر والنهى فى صدد كتابة الدين ، ومن الذى يكتب ، ومن يشهد ، ومن يملى على الكاتب من المدين أو وليه إذا كان هو ضعيفا الخ ، وكل هذه الصيغ واضح بين فى مدلوله ، فلا إجمال ، ولا تشابه ، ولا سوى هذين مما قد يخفى معه المراد .

ثم ختم الله الآية بثلاث صيغ يعتبر كل منها توجيها لما ساق من أمر ونهى ، وهى قوله تعالى « ذلكم أقسط عند الله » ، « وأقوم للشهادة » ، « وأدنى ألا ترتابوا » .

ومن هذا الأسلوب يتجه الذهن اتجاها أوليا إلى أن الاستيثاق الكتابى فى الدَّين واجب شرعا وإن لم يكن شرطا فى صحة التعامل . وليس فى الآية نص له من القوة ما لهذه النصوص أو ما يقرب من ذلك يصرفها عن الوجوب ، فإذا رأيت فقهاء المذاهب أو كثيرا من المفسرين يتجهون بعد ذلك الى القول بالندب كان قولهم ـ عندى ـ موضع الكثير من التردد ، وإن كان من بينهم علماء مذهبى ـ مع إجلالى لهم جميعا ـ وقد أسلفنا ما استند إليه القائلون بالندب . ومما زاده الحنابلة عن سواهم فى التخلص من القول بالوجوب أن عللوا للندب بقولهم : إنه أقطع للنزاع ، وأبعد من التجاحد ، ثم زادوا ثانيا فقالوا : إن الندب فى الكتابة والإشهاد خاص بماله خطر ، فأما الأشياء القليلة الخطر كحوائج البقال والعطار وشبهها فلا يستحب فيها ذلك ؛ لأن العقود فيها تكثر ، فيشق الإشهاد عليها ، وتقبح إقامة البينة عليها ، والترافع الى الحاكم من أجلها ، بخلاف الكثير . انتهى (ص ٣١١ ج ٤ مغنى) .

وليست هذه التوجهات عندى بكافية فى التغلب على ما تعطيه الآية فى قوة من الدلالة على الوجوب .

وتوضيح ما أقول من وجهين يطول فيهما السياق .

(الوجه الأول ، وفيه استطراد) : أن قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته » جزء أخير من الآية : إذ الآية ذات شقين : أحدهما فى الكتابة ، والثانى فى الرهن .

والجزء الذى معنا من الشق الثانى ، جاء بعد ذكر الرهن ، فهو بعيد نوعا عن سياق الأمر بالكتابة ، وهو من أجل موقعه هذا مؤد ـ فيما أفهم ـ لاحتمالات ثلاثة :

(ا) أن يكون كما قال الجمهور نسخا للوجوب أو بيانا من أول الأمر لأن المراد الندب ، ومع أن هذا ملتقى نظر الكثيرين ، فيبعده أن هذا الجزء جيء به بعد الانتقال من صدر آية فسيحة إلى عجزها ، وبعد استثناء التجارة الحاضرة مما يكتب ، وبعد الأمر بالاستشهاد على الكتابة ، والأمر كذلك بالإشهاد على البيع ، أى بعد الانتقال من هذا كله الى الكلام على الرهن ؛ والرهن طريق آخر من طرق التوثيق ، وذلك مما يبعد عن الذهن ارتباط هذا الجزء بما سبق أولا ؛ لا على جهة النسخ ، ولا على جهة البيان للمراد .

(ب) الاحتمال الثانى ، وهو أوجه من سابقه : أنه للحض على الأمانة فى الرهن بخصوصه إذا وقع به الاستيثاق ، إذ المفروض أن الرهن عين مالية كفيلة بسداد الدين ، وقد ترتفع قيمتها عن مقدار الدين يوما ما فيطمع فيها المرتهن ويجحدها مؤثراً حظ نفسه على مصلحة صاحبها .

وقد يهبط ثمنها عند الحلول عن مقدار الدين ، فيتخلى عنها صاحبها منكرا أنه مدين وأنها مرهونة من قبله . ولا يمنع من هذا الغرض تقدير وجود الشهود ، فإن الجمهور الذين تتجه إليهم بتلك الاحتمالات لا يرون الاستشهاد واجبا ، وعلى أصلهم هذا يجوز ألا يكون مع الرهن شهود ، أو كانوا وانعدموا ؛ فالتوثيق بالرهن مع كونه تأمينا لا يمنع احتمال التجاحد على ما صورته من جانب أحد المتعاملين ، ولا يكون الرهن كافيا فى حسن القضاء من المدين ، ولا فى حسن الاقتضاء من الدائن ، فكلاهما بحاجة إلى التذكير بالأمانة التى فى عهدته ؛ وهى الدين عند الأول ، والرهن عند الثانى ؛ وكل منهما مؤتمن من جانب صاحبه ، ومقصود بقوله تعالى « فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه » فلا يحيف الواحد بالآخر . ويساعدنى

على هذا التوجيه أن الله عبر بالموصول وهو صفة لغير مذكور ، ويصح تفسيره بكل منهما أو بما يشملهما جميعا بأن يقال : فليؤد المدين الذى اؤتمن على الدين أمانته ، أو فليؤد الدائن الذى اؤتمن على الرهن أمانته ، أو فليؤد المؤتمن أمانته ، وكلاهما مؤتمن ولا ريب ؛ فتكون صلة الموصول وهى جملة « اؤتمن » موصوفا بها كل منهما ، وحيث كان الوصف الذى نيط به الأمر وتعلق به الحكم عالقا بكل منهما ، يكون التعميم مقصودا ؛ ولو لم يكن كذلك لقال : فليؤد المدين - مثلا - أمانته . وعلى هذا الاحتمال يكون ذلك الجزء من الآية قاصراً على الرهن المقرون به فى الذكر ، ولا شأن له بنسخ الأمر أولا ، ولا ببيان أنه للندب كما يريد القائلون فى تكلف .

الاحتمال الثالث : أن نتوسع فى توجيه ذلك الجزء من الآية ، فلا نجعله خاصا بالكتابة كما ذهب القائلون بالندب ، ولا نجعله خاصا بالرهن كما قلت فى الاحتمال الثانى ، ولنا فى هذا التوسع أفهام ثلاثة :

الفهم الأول - وقد قال به ابن جرير والضحاك ، واختاره الشيخ محمد عبده - أن نجعل هذا الجزء محمولا على حالة الضرورة التى لا يتيسر فيها كتابة ولا رهن ، فتكون المداينة مستندة إلى مجرد الأمانة للضرورة التى أباحت عدم الاستيثاق .

الفهم الثانى : أن الآية اشتملت على الأمر بالاستيثاق وجوبا بالكتابة أو بالرهن بدلا منها ، ولم يقف التكليف عند هذا الحد ، بل أمر كل من المتعاملين فى الجزء الذى نتحدث عنه أن يؤدى الأمانة التى ارتبط بها التعاقد على وجه الكمال ، وأن يتق الله ربه فى الوفاء بها كذلك ؛ والمعنى : إذا تم بينكم التعاقد والاستيثاق الواجب بالكتابة أو بالرهن أو بهما معا ، فعليكم واجب آخر بعد هذا ، وهو أن يرعى كل منكم حق الأمانة فيؤدى المدين دينه ، ولا يماطل ولا يتنصل من الوثيقة بتزييفها أو الطعن عليها بأن صاحبه تلاعب فيها أو عبث بها ، ولا يتركها إن كانت عينا ، ويجحد ما عليه منكرا أصل التعامل .

وكذلك الدائن ، عليه أن يؤدى الأمانة التى عنده ، وهى الوثيقة الكتابية أو العين المرهونة ، فلا يحرف الكتابة ، ولا ينقص العين المرهونة ، ولا يخون باستعمالها استعمالا غير مسموح به ، ولا يتلكأ فى تسليم الوثيقة إلى صاحبها حين

الوفاء ، مخافة أن يثير التلكؤ نزاعا بينهما ، أو مخافة أن تبقى حتى تنتقل إلى ورثة الدائن ، فيعودوا إلى المطالبة بالدين ، أو يدّعوا ملكها إن كانت عينا .

ذلك كله ، لأن المعاملة وإن كانت موثقة بكتابة أو رهن ، مبنية على فرض الأمانة فى الجانبين ابتداء ودواماً ؛ فإن الله تعالى يأمر المتعاملين أن يؤديا الأمانة ويتقيا الله ربهما .

الفهم الثالث ، الذى يصح أن نأخذ به وهو يتفق نوعا مع توجيه حسن للشيخ رشيد رضا : أن يكون هذا الجزء من الآية مرادا منه عموم الأمانات التى تشمل ما نحن فيه وغيره ، فكأن الله عز شأنه بعد أن بين حكم الاستيثاق بالكتابة والإشهاد والرهن ، عمم فى أمره بالأمانة فى المعاملة ليشمل ما كان موثقا وما لم يتيسر توثيقه ، وما كان مؤجلا وما كان حالا ، وما كان معاوضة ، وما لم يكن معاوضة .

وفى هذا العموم تدخل الوديعة والعارية واللقطة ، وكل ما تناولته اليد بغير تعاقد ، كما دخل القرض والبيع المؤجل والناجز لما فيه من ضمان الدرك ، فكل واحد من هذه الأنواع بحاجة إلى الصدق حتى يؤدى المدين دينه فى كرم ووفاء ، ويتقاضى المستحق حقه فى رفق وحسن اقتضاء ؛ وحتى لا يكون فى البيع خلابة - غش - ولا تدليس ، ولا يتقدم أحد المتبايعين إلى صاحبه بشىء مستحق لغيره ليكون كلاهما ضامنا لعهدة ما بذله من ثمن أو مثمن ضمانا صحيحا .

وإلى هذا كله أرشدنا النبى صلوات الله عليه بما فعل فى الوثيقة التى كتبها للعداء بن خالد ، وقد باع النبى عليه السلام عبدا ، أو أمة ، على ما تقدم نقله عن الترمذى ، فكانت الوثيقة لضمان العهد فى المبيع ؛ وأرشدنا كذلك عليه السلام بقوله فى حديث جابر « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » وبقوله « إذا تبايعت فقل لا خلابة » أى اشترط عدم الغش ، وهكذا فى غير حديث .

وبذلك كله أمرنا الله سبحانه وتعالى أمرا عاما فى قوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ولهذا الإسهاب خلاصة سنعرض لها إن شاء الله وكان فى الأجل بقية .

عبرة وعظة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار
المدرس بكلية أصول الدين

تلك الحوادث والقوارع التى تنزل بالأفراد والجماعات ، ممن زاغت قلوبهم وعميت بصائرهم ، وانحدروا عن جادة الصواب ، وابتعدوا عن الحق ، جزاء وفاقا لما اكتسبت أيديهم ، وزينته لهم نفوسهم الخبيثة ، وأهواؤهم الفاسدة ـ عبرة لذوى الألباب وعظة ، لأنها تترك فى نفوس من يعلمونها مشاهدة أو سماعا أثرا يوقظهم من سباتهم ، وينبههم من غفلتهم ، ونورا يسعى بين أيديهم وأرجلهم ، ومرشدا يصرفهم عن المثالب والمهالك ، ويهديهم للتى هى أقوم وأجدى عليهم وأنفع .

من أجل ذلك ترى المزعجات والكوارث ، والآفات التى تصيب الأنفس والثمرات ، لاتكاد تعدو جيلا من الأجيال ، ولا عصرا من العصور ، ولا تكون من ساحته بمنجاة ، بل أصبحت متآخية مع الزمن ومتحالفة معه ، لا تبتعد عنه ولا يبتعد عنها ، نذيرا لأهله ، وآية لهم زاجرة ، علهم يعتبرون ويتعظون .

وترى كتاب الله الذى لا ينطق إلا بالحق ، يحدث كل العصور بما كانت عليه بعض الأمم السابقة : من حضارة وعمران ، وتطاول فى البنيان ، وجنات معروشات وغير معروشات ؛ وما أجمل هذا الحديث وأحلاه ! فهو حديث مستطاب ، يلقى السامع له بالا بأذن صاغية ، وقلب واع ، وشعور مرهف ، لأنه حديث تعلق بمحبوبه وقرة عينه وأشهى مرغوب فيه ؛ تعلق بما هو زينة الحياة الدنيا وبهجتها ، وأشرب فى كل قلب حبه والحرص عليه ، والتماس كل الطرق فى سبيل الوصول اليه ، مهما كلفه ذلك من جهد ونصب وإعياء وكلل ؛ لذلك تراه ينطبع فى نفسه ، ويستقر فى ذهنه ، ويحسب أنه بين أحضانهم يعاصرهم ويعيش معهم ، وكأنه ينعم بما ينعمون ، يستنشق طيب الهواء ، ويشرب من نمير الماء ، ويأكل فاكهة تم نضجها

وطاب مذاقها ، وبينما هو معهم فى نعمة فاكهين إذ يقرع سمعه أنهم بُدلوا بنعيمهم بؤسا وشقاء ، وبخيرهم شرا وضرا وطعاما غير مستساغ ، جزاء لهم على كفرهم وعدم شكرهم لمن أنعم عليهم بتلك النعم الجزيلة .

إذ ذاك يفيق من سباته ، ويدرك أن الحديث بشأن قوم سابقين بطروا النعمة وجحدوها ، فأزالها عنهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف ، وحالفتهم صروف الليالى وقوارعها ، ونوائب الأيام ونوازلها « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

إذ ذاك يعلم علم يقين أن كفر النعمة يوجب زوالها ، وما أحرص الناس عليها ! ويترك فى النفس أسى ولوعة ، وما أشد ذلك على النفس وأمرّه ! .

وإنك لتجد هذا يتجلى بصورة واضحة فى مثل قول الله تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمطٍ وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور [1] » .

جعلهم الله أحدوثة سائرة ، وعظة زاجرة ، ومثلا مضروبا ، ولسانا للحق ، وحجة على الباطل ، وهداية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولذلك لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبائح المشركين من الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، فى الآيات الرابعة والخامسة والسادسة من سورة الأنعام ، وعظهم بالقرون الماضية ، فقال عز من قائل « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » .

---

(١) سبأ : اسم قبيلة . ومسكنهم مأرب باليمن . جنتان : جماعتان من البساتين . العرم : المطر الشديد . والأكل : المأكول . والخمط : ثمر مر ؛ أى ذواتى أكل مر بشع . والأثل : شجر يشبه شجر الطرفاء لا ثمر له ، وهو معطوف على أكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له .

ومن ذا الذى لا يعتبر ولا يتعظ ، ولا يرعوى عن غيه وضلاله ، حينما يسمع قول الله فى شأن فرعون وقومه : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، و نَعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظَرين » .

ولمكان العبرة فى ذلك وجلالها وعظيم أمرها ، جاء هذا النوع فى كتاب الله مستفيضا ، وجاء فيه الحث على الضرب فى مناكب الأرض والسير فيها ، والنظر فى آثار الهالكين ، ليشاهدوا بأنفسهم الدليل المادى على سوء مغبة الزائغين كيف كان مصرعهم وهلاكهم ، فقال « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وكما يرشدنا القصص القرآنى الى أن كفر النعمة يوجب زوالها ، فضلا عما أعد من العذاب الشديد ، كذلك يرشدنا الى أن طاعة الله وشكره على نعمه يوجبان حفظها والمزيد منها ، فها هوذا داود عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وأناب إليه وشكره على نعمه ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، وأنعم عليه بابنه سليمان الذى ورثه ملكه وعلمه وحكمته « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير [1] » ، « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وعلى الجملة فالقصص القرآنى يقطع نياط قلوب المستهزئين ، ويخلع أفئدة العتاة المستكبرين ؛ شهر سيف التخويف والوعيد فى وجوههم ، ولوح بغصن الزيتون ولين العيش للمعتبرين المتعظين .

---

(١) أوبى معه : أى رجعى معه التسبيح . ونصب الطير بالعطف على فضلا . ألنا له الحديد أى جعلناه لينا كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير إحماء بنار ولا ضرب بمطرقة . سابغات : دروعا واسعات ـ وهو أول من اتخذها على ما قيل . وقدر فى السرد : أى قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا .

فهو يعلم دماثة الأخلاق ، ويصقل النفوس ، ويهذب الطباع ، ويُخمِدُ سورة الغضب ، ويلين العريكة ، وهو المثل الأعلى فى نشر مطارف الحكمة والآداب العالية ، وإنارة طريق الخير لمن أراد سلوكا .

هذا وإن القصة الواحدة لتذكر غير مرة فى مواطن كثيرة وفى غير سورة واحدة ، ولا يحملنك هذا على أن يأخذك العجب من تكرار فى كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لأن ذلك لمزايا وحكم سامية قصدها محكم الآيات مدبر الكائنات ، العالم ببواطن الامور وخفيات الأسرار .

قد تذكر القصة مشتملة على زيادة فى سورة ومكان لا قتضاء الحال والمقام ذلك ، وتأتى فى سورة أخرى أو فى مكان آخر من غير هذه الزيادة لاقتضاء الحال عدم ذكرها . وقد تذكر القصة فى موطن على طريق الإطناب ، وفى موطن آخر على طريق الإيجاز ، ليتجلى إعجاز القرآن ومبلغ فصاحته ، ورصانة لفظه ، وجودة نظمه على كلتا الطريقتين . وإنك لتقرأ القصة فى موضع ، ثم تقرؤها فى آخر وآخر ، وفى كل هذا تشعر كأنك تنتقل من روضة الى روضة ، تشاهد زهورا ذات ألوان تأخذ بالابصار ، تشاهد تنسيقات بديعة تسحر العيون وتملك الألباب ، تقتطف من يانع الثمار ، وتجنى من كل مالذ وطاب ، وفى كل هذا لا يمل القارىء ولا يسأم السامع ، بل تزداد الحلاوة وتظهر الطلاوة ، وتنقشع غشاوات الأبصار ، وتستنير القلوب ، وتصفو النفوس ، وتذعن العقول الجبارة ، بأن هذا كلام خلاق القوى والقـُدر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ؟

رفض النصيحة

قال سبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بهم :

يا بنى حنيفة : بُعدا لكم كما بعدت عاد وثمود ، والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه ، كأنى أسمع جَرسه ، وأبصر غبه ، ولكنكم أبيتم النصيحة ، فاجتنيتم الندامة . وإنى لما رأيتكم تتهمون النصيح ، وتسفهون الحليم ، استشعرت بكم البأس ، وخفت عليكم البلاء . والله ما منعكم التوبة ، ولا أخذكم على غرة . ولقد أمهلكم حتى مل الواعظ ، وهزىء الموعوظ .

دين

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

أولا ــ فى الفرنسية :

ا ــ قد يراد بهذا الاصطلاح نظام اجتماعى تأخذ به أنفسها طائفة من الناس يوحد بينها :

أولا ــ القيام بأنواع خاصة من الشعائر والأعمال المطردة .

ثانياً ــ الاعتقاد فى قوة أو قيمة مطلقة ، أى حقيقية بمعنى الكلمة حتى لا يمكن أن يوازن شىء مّا بها ، ويكون هذا الاعتقاد هو الغرض الذى تعمل الطائفة على تمكينه دائماً فى القلوب .

ثالثاً ــ الاتصال بقوة روحية يراها المرء أعلى منه ، قوة يتمثلها منتشرة فى الكون [وهذا مذهب الحلول] ، أو ذات كثرة ، أو متوحدة وهى حينئذ : الله .

ب ــ وقد يراد به نظام يصطنعه الفرد لنفسه ، أو بعبارة أوجز : نظام فردى : من العواطف والاعتقادات والأعمال التى تتخذ الله موضوعا لها . وفى هذا المعنى يقول إميل بوترو E. Boutroux فى كتابه « العلم والدين » ص ٣٩٢ : الدين على التحقيق هو أن يتخذ المرء ، بجانب وجهة نظر العلم ، وجهة نظر العاطفة والإيمان La foi .

وتعبير « الدين الطبيعى » (وكان يستعمل خاصة فى القرن الثامن عشر) يراد به الاعتقاد فى وجود الله وروحانية النفس وخلودها ، وطابع الالتزام للعمل

الأخلاقى، على أن يكون مصدر ذلك كله وحى الضمير والنور الداخلى الذى يثير كل إنسان . ولهذا ينقد جان جاك روسو فى كتابه « إميل » المسيحيين الذين يتكلفون أن يخلطوا بين هذا الاعتقاد، أو الدين الطبيعى ، وبين الإلحاد أو عدم الدينية .

(ج) وأخيرا ، قد يراد بكلمة « دين » احترام يجنح الى المبالغة لمبدأ أو عادة أو عاطفة أو نحو ذلك ؛ ومن ثم يقال : « دين الكلمة المعطاة » . وهذا المعنى الذى هو أقدم معانى كلمة « دين » على الاحتمال الغالب ، كان فى الماضى أكثر استعمالا منه اليوم .

(د) وإذا تركنا « لالاند » وقاموسه الضخم فى المقدمات الفلسفية ، نجد القسيس إيلى بلان « Elie Blanc » فى معجمه الفلسفى يذكر أن الدين مجموع مذاهب وعقائد تتعلق بعلاقة الإنسان بالله . وهذه المذاهب اختلفت باختلاف الأزمان والشعوب ، بل تعارضت فيما بينها فى مسائل هامة ، ومن ثم كان ما تعرف من ديانات عديدة : الوثنية ، اليهودية ، المسيحية ، والإسلام . ثم يعقب المؤلف على هذا بقوله بأنه لا يوجد فى الحق بين هذه الأديان إلا دين حق واحد ؛ وهذا الدين لم يولد كاملا ، بل كمل مع الزمن ، مثله فى ذلك مثل كثير من المذاهب المختلفة .

تعليقات :

١ ــ اشتقاق كلمة « دين » مختلف فيه ؛ فأغلب القدامى ، ومنهم القديس أغسطونيوس المتوفى عام ٤٣٠ م ، يرجعون هذه الكلمة إلى كلمة « ربط » ، ومن ثم يرون فيها معنى الصلة . والرباط سواء كان رباطاً فيه معنى الإلزام ببعض الشعائر ، أو فيه معنى الصلة بين الناس بعضهم ببعض ، أو بين الناس والآلهة أو الإله .

وفى اللغة اللاتينية ، قد تدل كلمة « دين » بصفة عامة ، على عاطفة الخوف والخشية فيما يحس به الإنسان من التزام نحو الآلهة ، والقول فى ذلك العصر بآلهة متعددين جعل عندهم كثرة فى الأديان ؛ وحين وصل الإنسان الى الاعتقاد فى إله واحد ، جرّه حتما إلى القول بدين واحد هو وحده فى نظر أصحابه الدين الحق .

ومنذ هـذا اليوم صارت كلمة « دين » تدل على هـذه النواحى الثلاث : مجموعة الحقائق التى يؤكدها الدين ، مجموعة الأعمـال الشعائرية ، العلاقـة المباشرة بين الروح والله . وهذا المعنى صار ، فى أيامنا هذه يعدل المعنى الأول والثانى .
ج . لاشيلييه J. Lachelier عن « لا لاند » .

٢ — إن الذى يكوّن حقا ماهية الدين هو التمييز بين نوعين من الوجود بين عالمين يختلف الواحد منهما عن الآخر . وهذا على ما يلوح ، هو فكرة إيكين Eucken حينما يذهب إلى أن ما هـو أساس أو ذاتى فى الدين ، فى كل صـوره وأشكاله ، هو أن نرى فى مقابل العالم الذى يحيط بنا نوعا آخـر من الوجـود .
ومن الممكن ـ كما يقول ـ أن يكون دين بغير العقيدة فى إله ، كما يثبت هذا الدينُ البوذىُّ القديم ، ولـكن كلمة « دين » تـكون كلمة لا معنى لها إذا لم نقر بوجـود عالمين ، وبوجود نوع آخر من الوجود أسمى ، بمـا لا يقدر ، من الوجود الذى نحسه .
ج . بنْـربى J. Benrubi عن « لا لاند » أيضا .

ثانياً — فى اللغة العربية :

١ — فى لسان العرب : أن الدين هو الجزاء والطاعة والعادة والإسلام .

٢ — وفى مفردات الأصفهانى : أن الدين يقال للطاعة والجـزاء واستعير للشريعة ، والدين كالملة .

٣ — ويرى الشهرستانى (حـ ١ : ٤٦ — ٤٧) أن الدين الطاعة والانقياد ، وأنه قـد يرد بمعنى الجزاء والحساب ، وأن الملـة والشريعة يتفرعان عن اجتماع الناس وحاجتهم فى سبيل خيرهم للتمانع والتعاون .

٤ — والجرجانى فى التعريفات (ص ٧٢ — ٧٣ طبع استانبول) يذهب إلى أن الدين والملة متحدان بالذات ، مختلفان بالاعتبار ؛ فالشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث إنها تجمع (أى تجمع الناس على الأخذ بها) تسمى ملة .
وقيل بينهما فرق ، وهو أن الدين من الله والملة من الرسول .

٥ — وبعد هؤلاء جميعا نجد التهانوى (الكشاف ـ مادة دين) بعد ما بين معانى الدين اللغوية ، يقول بأن الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل . ويطلق على ملة كل نبى ، وقد يختص بالإسلام . ويضاف إلى الله لصدوره عنه ، وإلى النبي لظهوره منه ، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له .

هذا ، والدين إذا لم يقيد بأنه وضع إلهى ، أى إذا لوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يطلق على الدين الحق وعلى الأديان الباطلة أيضا ، ما عدا ما لا يقر بالبعث والجزاء منها ، لأن معنى الجزاء ملاحظ فى أصل اشتقاق كلمة « دين » من « دان » على ما هو معروف . والقرآن ، حين يقول « لكم دينكم ولى دين » ، يفيد تحول كلمة « دين » للباطل أيضا من الأديان . لكن الدين الحق ليس فى رأى الشرع ، إلا ما كان وحيا من الله للمصطفين من خلقه لهداية الناس الصراط المستقيم ، بما يجيء به من العقائد والأصول التى لا يختلف فيها الرسل . ويدل لذلك قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . أى أوصيناك يا محمد وسائر الأنبياء دينا واحدا .

وبعد : من هذا الذى رأيناه فى معنى كلمة « دين » عن المفكرين الغربيين والعلماء المسلمين ، نستطيع أن نؤكد أنه ليس من اليسير تحديد هذه الكلمة تحديدا جامعا مانعا كما يقولون ، تحديدا يرضاه جميع من عرض لبيان معناها . إذاً ، لنا أن نكتفى بالقول بأن التحديد الذى نستخلصه مما سبق ونرضاه ، يجب أن يلاحظ فيه شعور المرء أو إحساسه بقوة عليا ، أو كائن أعلى عُلوًّا مطلقا ؛ وعاطفة تدفعه للإيمان به وتجعل بينه وبينه صلة وثيقة حتى لتلزمه بعبادته على مظاهر مختلفة ؛ وبعد هذا وذاك ، يقين المتدين بأن هذا الكائن الأعلى ، أو الإله ، سيدينه فى اليوم الآخر بما فعل فى هذه الحياة الدنيا ؟

الركن الشرعى للجريمة

فى الشريعة الاسلامية وفى القوانين الوضعية

سريان القانون على المكان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

القاعدة العامة فى التشريعات الحديثة ، هى : أن القوانين الجنائية إقليمية ؛ بمعنى أنها تسرى على كل من يرتكب جريمة على أرض الدولة بصرف النظر عن جنسيته ، فيستوى أن يكون من رعايا الدولة التى وقعت فيها الجريمة ، أو من رعايا دولة أخرى . وهذا المبدأ لم يسد إلا حديثا ؛ وكانت القاعدة القديمة هى : أن القوانين الجنائية شخصية ؛ أى أن قانون الدولة يسرى على رعاياها دون سواهم ، ويسرى عليهم فى أى مكان وجدوا ؛ فهو ينطبق عليهم إذا ارتكبوا جريمتهم فى دولتهم ، كما يسرى عليهم إذا ارتكبوا الجريمة فى دولة أخرى . فإذا افترضنا أن انجليزيا ارتكب جريمة فى مصر ، وجبت محاكمته فى مصر ، وخضوعه للقضاء المصرى وللقوانين المصرية ، ما دمنا نأخذ بقاعدة إقليمية القانون . أما إذا أخذنا بمبدأ شخصية القانون فليس من حق مصر أن تحاكمه ؛ بل تختص بمحاكمته الدولة التى يتبعها دون سواها .

ويرجع الأخذ بمبدأ إقليمية القانون الجنائى إلى أنه مفروض على كل شخص العلم بقانون الدولة المقيم على أرضها ؛ فإذا خالفه استحق العقاب ؛ كما أن الجريمة لا تخل إلا بأمن الدولة التى وقعت فيها ؛ ولكى يكون للعقوبة أثرها الرادع لا بد من محاكمة الجانى حيث ارتكب جريمته ؛ أما إذا عوقب فى الخارج فإن هذا الأثر قد ينعدم ، فالغالب أنه لن يشعر أحد بمحاكمته أو بالعقوبة التى وقعت عليه . وفضلا عن ذلك فإن الجريمة لا يسهل إثباتها على الجانى إلا إذا تمت المحاكمة

فى مكان ارتكابها ، حيث آثار الجريمة وشهودها ، ولو جازت محاكمة الجانى فى الخارج لتعذر إثبات الجريمة فى كثير من الأحيان .

ويترتب على الأخذ بمبدأ إقليمية القانون الجنائى أن كل دولة تختص بالعقاب على كل الجرائم التى تقع على إقليمها مهما كانت جنسية مرتكبها ، وعلى العكس من ذلك لا سلطان لها على من يرتكب جريمة خارج حدودها ولو كان من رعاياها . ولكن هذا المبدأ بنتائجه لا يؤخذ به على إطلاقه ، فكل دولة ترى أن من الواجب على رعاياها فى الخارج أن يكونوا حسنى السمعة ، وليس مما يشرفها أن يكونوا من المجرمين ؛ ولذا فإنها تعاقب رعاياها الذين يرتكبون جرائم خطرة فى الخارج متى عادوا اليها . ومن جهة أخرى فإن سهولة المواصلات بين الدول جعلت من الممكن أن يرتكب بعض الأجانب جرائم ضد دولة من الدول دون أن يدخلوا إقليمها . وقد استدعى ذلك من الدول أن تعاقب من يرتكب نوعا معينا من الجرائم المخلة بأمنها وسلامتها ، أيا كانت جنسية مرتكب الجريمة ، ولو كانت الجريمة لم ترتكب إلا خارج إقليمها .

ونذكر على سبيل المثال للقوانين الحديثة نصوص قانون العقوبات المصرى فى هذا الموضوع :

مادة ١ — تسرى أحكام هذا القانون على كل من يرتكب جريمة من الجرائم المنصوص عليها فيه .

مادة ٢ — تسرى أحكام هذا القانون أيضا على الأشخاص الآتى ذكرهم :

أولاً : كل من ارتكب فى خارج القطر فعلا يجعله فاعلا أو شريكا فى جريمة وقعت كلها أو بعضها فى القطر المصرى .

ثانيا : كل من ارتكب فى خارج القطر جريمة من الجرائم الآتية :

(ا) جناية مخلة بأمن الحكومة مما نص عليه فى البابين الأول والثانى من الكتاب الثانى من هذا القانون [1] .

---

(١) الباب الأول خاص بالجنايات المضرة بالحكومة من جهة الخارج . والباب الثانى خاص بالجنايات والجنح المضرة بالحكومة من جهة الداخل .

(ب) جناية تزوير مما نص عليه فى المادة ٢٠٦ من هذا القانون .

(ج) جناية تزييف مسكوكات مما نص عليه فى المادتين ٢٠٢ و ٢٠٣ من هذا القانون ، بشرط أن تكون المسكوكات متداولة قانونا فى القطر المصرى .

مادة ٣ — كل مصرى ارتكب وهو خارج القطر فعلا يعتبر جناية أو جنحة فى هذا القانون ، يعاقب بمقتضى أحكامه إذا عاد الى القطر المصرى ، وكان الفعل معاقبا عليه بمقتضى قانون البلد الذى ارتكب فيه .

فالمادة الأولى : تقرر القاعدة العامة وهى إقليمية القانون الجنائى ، فتقضى بأنه يسرى على كل من يرتكب جريمة نص عليها فيه ، ولم تفرق بين جنسية وأخرى ؛ فالجانى يعاقب مهما كانت جنسيته . وأما المادة الثانية : فحددت بعض الجرائم الخطرة وأعطت الدولة حق عقاب مرتكبها ولو ارتكب جريمته خارج مصر . والمادة الثالثة : تقضى بخضوع المصرى لقانون دولته إذا ارتكب جريمة فى الخارج يمكن وصفها فى مصر بأنها جناية أو جنحة ، فإذا كانت مخالفة فلا محل لعقابه ، ويشترط أن يكون الفعل الذى وقع من المصرى معتبرا جريمة فى الدولة التى وقع فيها ، أما إذا كان الفعل مباحا هناك فلا محل لعقاب المصرى ولو كان هذا الفعل معاقبا عليه فى مصر ، اللهم إلا إذا خضع المصرى بجريمته لأحكام المادة الثانية .

ويشترط وفقا لأحكام المادة الثالثة ، أن المصرى لا يعاقب على فعله الذى وقع منه فى الخارج إلا إذا عاد الى مصر ، فطالما كان فى الخارج فلا شأن لدولته به .

وواضح مما سبق أن أحكام القانون المصرى مزيج من مبدأى إقليمية القانون وشخصيته ؛ فهو إقليمى إذ أنه يسرى على كل القاطنين فى مصر ، وهو شخصى إذ يسرى على المصريين فى الخارج إذا توافرت الشروط التى تطلبتها المادة الثالثة . بل وأكثر من ذلك فإن القانون المصرى يمد سلطانه على رعاياه وغير رعاياه الموجودين فى الخارج ، متى وقعت منهم جريمة من الجرائم المنصوص عليها فى المادة الثانية .

بقى علينا أن نبين معنى إقليم الدولة ؛ ويقصد به الأرض التى تتكون منها

بحدودها السياسية المعروفة بها لدى الدول ؛ وسيادة الدولة لا تشمل أرضها فحسب ، بل تشمل الجو الذى يظلها ، وكذلك مياهها الإقليمية إذا كانت متصلة ببحر من البحار العامة . والمياه الإقليمية مقدرة فى القانون الدولى العام بثلاثة أميال بحرية .

والسفن تعد جزءا من إقليم الدولة التابعة لها السفينة طالما لم تكن فى المياه الإقليمية لدولة أخرى ، وكل إخلال بالقانون يقع على ظهرها يعتبر إخلالا بقانون الدولة التابعة لها السفينة . والعلة فى تقرير هذه القاعدة هى أن البحار العامة لا مالك لها ، وليس لدولة دون أخرى أى سلطان عليها ، وإزاء ذلك فإن القانون الذى يمكن تطبيقه على من يرتكب جريمة فى السفينة هو قانون الدولة التابعة لها السفينة ، ولا يوجد ما يرجح تطبيق قانون آخر عليه . وقد ترتب على ذلك أنه إذا كانت السفينة وقت ارتكاب الجريمة فى المياه الإقليمية لدولة من الدول فإن قانون هذه الدولة هو الذى يسرى لا قانون الدولة التى تتبعها السفينة .

هذه هى الأحكام الوضعية فى حكم سريان القانون على المكان ، ذكرناها بإيجاز ، وننتقل بعد ذلك الى بيان أحكام هذا الموضوع فى فقه الشريعة .

« يتبع »

ملاحظة (١) أثناء طبع الأجزاء السابقة من هذا البحث نشر بعضها بعددى ربيع الأول ص ٢٤٣ وربيع الثانى ص ٣٣٤ تحت عنوان مسئولية الأطباء مع أن العنوان الصحيح هو : الركن الشرعى للجريمة فى الشريعة الإسلامية وفى القوانين الوضعية .

ملاحظة (٢) وقعت بعض أخطاء مطبعية فى بحثنا « حول ميراث القاتل » المنشور بعدد رمضان الماضى ترتب على بعضها تغيير المعنى ، ومن أهمها ما وقع بالصفحة ٨٠٠ سطر ١٢ فكتب « مع بعض محارمها » والصواب على بعض محارمها . كما أنه بالسطر العشرين كتب « المجنى عليه هذه النية » والصواب « هذه النية » بحذف كلمتى المجنى عليه .

في إعجاز القرآن :

مذهب الصرفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر إلى السودان

كان العرب حين أنزل القرآن كأنما شُدوا بأمراس كتان إلى صم جندل ؛ فهم يسمعون القرآن ، ويعجبون به ، ويكادون يسجدون لفصاحته ، ويوقنون - يقين العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر ، ولكنهم يحاولون أن يحطوا من شأنه ، وأن يهوّنوا من أمره ، ويودون لو استطاعو أن يأتوا بسورة من مثله تبهرهم روعته ، ويروعهم عجزهم عن معارضته ، والكبرياء تتسلط عليهم ، وخوف غلبة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم تملأ نفوسهم ، وبوادر الإقرار بنبوته ، والإذعان لرسالته ، تبدو قريبة من نفوسهم كل القرب ، فيحاولون أن يجعلوها بعيدة كل البعد .

والعاجز المكابر ، والمأخوذ المعاند ، لا يسلك إلا ماسلكه هؤلاء الجاحدون « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهكذا أخذوا يتنقصون القرآن بهذه الكلمات الفضفاضة ، فمرة هو سحر ، وأخرى هو شعر ، وثالثة هو أساطير الأولين ؛ ثم كانت هذه الدعوى العريضة التى لا يصدقها العقل ، ولا تسعفها القوة ، وهى دعوى العاجز دائماً : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ولم لاتشاءون ؟ ! إنهم كانوا كالقمىء الهزيل أمام العملاق المفتول العضلات ، القوى البنية ، يدعوه هذا إلى النزال ، فيجيب ذاك ، بصوت

يملأ فمه ، ويخرق الأسماع ، ولا شيء غير الصوت . فهم - فى الحق - كانوا مذعنين فى قرارة أنفسهم بأنهم عاجزون ، ومدركين هذا الإعجاز فى أذواقهم ، وعلى أطراف ألسنتهم ، وربما صرح بعضهم بشيء من ذلك ، فلا يعدو الكلام الواسع الفضفاض أيضا . يقول الوليد بن المغيرة لقومه ، وكانوا بعثوه ليسمع القرآن ، ويقول فيه قالة سوء ، غير أنه انساق مع فطرته ، ونسى كفره لحظة ، وقال : « والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى : لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته » !.

ومضى القرن الأول ، وتبعه القرن الثانى ، والعلماء يمسون نواحى الإعجاز مسّاً خفيفاً ، فلما كان القرن الثالث ، واتسعت دوائر البحوث العلمية ، وكثرت الخلافات المذهبية ، وتعددت النحل ، وتفرقت الأهواء والسبل ، احتدمت المعارك ، وقويت الخصومة ، وعنف الجدل ، حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التى تبارت فيها الفحول ، وتصاولت فى رحابها الوسيعة القروم ، ونازل عقل عقلا ، وناضل لسان لسانا ، وظفرت العربية بتراث صالح من القول فى القرآن ، وبطائفة من الكتب فى الإعجاز .

وليس يعنينى فى هذا الحديث أن أسرد الوجوه التى قال بها العلماء فى الإعجاز ، وإنما يعنينى أن أرسم صورة مقربة لوجه واحد منها ، كان له أثر كبير فى نشأة علوم البلاغة ، وفى تأليف كتبها .

ومنذ بدأت أقرا فى كتب الكلام وأنا أحمل البغض والحقد لهذا المذهب والقائلين به ، وكنت أعجب أشد العجب أن يقول عالم من علماء المسلمين هذه القالة فى القرآن الكريم ، وكنت أحسب أن هذه الزلة زلة إبراهيم النظام وحده ، ولكن كان عجبى يزداد : رأيت عالماً آخر يتابع النظّام فى رأيه ومذهبه ، وعرفت أن الجاحظ والشريف المرتضى من الشيعة ، والقاضى أبا إسحق الإسفرائينى من الأشاعرة ، والإمام محمد بن حزم الظاهرى ، عرفت أن هؤلاء على رأى النظام ،

ورأيت هذا العالم الأخير يقول فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) حين يحكى هذا المذهب : « وقالت طوائف » فالقائلون به — إذن — طوائف ، لا طائفة واحدة ، ولا فرد واحد . وكنت فى بادىء الأمر أظن أن أحداً من الأشاعرة لا يقول بهذا المذهب ، وإنما هو رأى اعتزالى ، حتى رأيت فى كتاب الشهرستانى (الملل والنحل) هذا النص « والقرآن عنده — يريد الأشعرى — معجز من حيث البلاغة والنظم والفصاحة ، إذ خــيّر العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة ، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى ، وهو المنع من المعتاد ، ومن جهة الإخبار عن الغيب » . ورحت أبحث عن هذا الأشعرى فرأيت فى المواقف لعضد الدين الايجى ، وهو يحكى الأقوال فى الإعجاز « وقيل بالصرفة ، فقال الأستاذ والنظام : صرفهم الله مع قدرتهم ، وقال المرتضى : بل سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة » ويفسر السيد الشريف الجرجانى كلمة الأستاذ بأنه أبو إسحق الإسفرائينى .

عرفت أن هؤلاء العلماء الأعلام ، وهم لا يحتاجون إلى تعريف ، يقولون بهذا القول ، ثم رأيت المرحوم مصطفى صادق الرافعى يقول فى كتابه (إعجاز القرآن) عن هذا المذهب : « وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب ، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا » . « وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه « إن هو إلا سحر يؤثر » . وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » . فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشىء الواحد » . أقول : قرأت هذا فذكرت ما كنت لقنته من بعض شيوخى فى عهد الطلب ، من أن القائلين بهذا المذهب كفار ، لأنهم يجعلون القرآن فى مستوى كلام البشر ، ولكنى ذكرت أولئك العلماء القائلين به ، فوجدت المسألة لا تخلو من غرابة .

لذلك رأيت أن أتعرف كيف نشأ هذا المذهب ، وما حقيقته ، وكيف دافع عنه أصحابه ، وكيف فهمه العلماء ، وكيف ردوا عليه وناقشوه ؟ وقد خرجت من هذا البحث مقتنعاً بأن هذا المذهب عليه غبار كثيف ، وأن من الإنصاف أن نعرضه مفصلا ، لا لتدافع عنه ، ولا لنقول إنه المذهب الحق ، ولكن لنرفع شيئاً من الظلم عن القائلين به . ولأبادر القارىء فأقول : إنى لا أعتنق هذا مذهباً فى الإعجاز ، ولا أقول إنه الصواب ، وما عداه من المذاهب خطأ ، ولكنى أقول : إنه سيرى من هذا البحث أن النظام والجاحظ والإسفرائينى والمرتضى وابن حزم كانوا بعيدين عن الكفر كل البعد ، وكانوا بعيدين عن السفه ، وإنما اعتقدوا هذا المذهب تديناً ، ومبالغة منهم فى الابتعاد بالقرآن عن أن يطمع طامع فى معارضته .

كان لهذا المذهب أثره فى نشأة البلاغة العربية ، فقد ظهر القول به والعلماء ينظرون فى القرآن باحثين ومدققين ، يريدون أن يبينوا أسرار إعجازه ، وأن يضعوا أمام الناس دلائل إعجازه ، فكان من ذلك مؤلفات فى الإعجاز لها مكانتها ، وكان من ذلك أقوال مبسوطة فى كتب الكلام وكتب التفسير ، وهى ثروة وفيرة ، على أن أصحاب هذا المذهب لم يبق لهم فى الكتب إلا القول به ، أما أدلتهم ، وأما وجهة نظرهم فقلما تعثر على شىء من ذلك . مرّ الجاحظ عليه فى موضع واحد من كتابه الحيوان ، وذكره ابن حزم ، ولعله الوحيد الذى أطال فيه ، أما خصومهم فلا يخلو كتاب من كتبهم من مناقشة المذهب والرد عليه ، وإنك لتعجب بعد كل هذا من قول الرافعى : « على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشى من لدن قال به النظام ، يصوّبه فيه قوم ، ويشايعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته ، وقيامه عليه وتقلده أمره ، لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوى ، وما الى ذلك » .

وسنعرض - إن شاء الله - فى مقالاتنا الآتية إلى كل ما أومأنا إليه آنفاً ، والله الموفق للصواب .

الامام البخارى

منزلة السنة من الدين

كيف دونت السنة — نشأة البخارى وسيرته

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد فؤاد الأول بأسيوط

جدير بالمسلمين أن يذكروا لذلك الإمام الكبير فضله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. لقد حفظ الله به على الأمة السنة الثابتة الصحيحة؛ والسنةُ المحمدية هى الهداية العظمى، والحكمة البالغة، والدين الخالص، والعلم النافع. وقد اعتبرها الأئمة الأعلام المرجع والإمام الذى لا يقبل غيره، ونوه بها الإمام الشافعى فى قوله :

كل العلوم سوى القرآن معولة ... إلا الحديث وعلم الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

فلم يكن أحد من الأئمة يستطيع أن يتعدى حدودها فى مسألة من الدين حتى يعدم فيها توجيها. وقد حفظ عن كل إمام من الأربعة أنه كان يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبى.

فمنزلتها من الإسلام منزلة الروح من الجسد؛ لا إسلام لمن لم يعرفها، ولا دين لمن تنكب عنها. لقد تكفلت ببيان مجمل الكتاب، وتقييد مطلق منه، وإحكام متشابه فيه.

وهى التى علمتنا مواقيت الصلوات، وأعداد الركعات؛ وكذلك كانت فى كثير من الشعائر.

يقول الله سبحانه « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . ولكن ما السرقة التى توجب القطع ؟ وكيف يكون ذلك القطع ؟

ويقـول سبحانه « كتب عليكم الصيام » الخ الآيات ، ولكن ماذا يفعل من زل بالفطر ؟ وهل له كفارة ؟ وما تلك الكفارة ؟

ذلك وأمثاله بيّن واضح فى السنة الكريمة ؛ فهى بيان الكتاب وتفسيره . والوحى قسمان : معجز متلو وهو القرآن ، وغير معجز وهو السنة .

وفى صحيح البخارى قال عمر « لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لانجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ؛ ألا وإن الرجم على من زنا وقد أحصن إذا قامت البينة » . وفى مسند أحمد « يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكئ على أريكته يحدّث بحديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

لاجرم أن تنافس رجال الدين فى حفظها والذود عنها ، حتى يبنى عليها الدين الخالص ، وحتى يكون بمأمن من وعيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتواتر « من كذب متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

هـذا وقد اعتمد الصحابة رضى الله عنهم فى نقـل السنة على الحفظ والضبط لجودتهما إذ ذاك ، ولا سيما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن خوف الالتباس بالقرآن على مر الزمن .

ولما اتسع الإسلام ، وتفرق الصحابة وأتباعهم ، ومات الكثير منهم فى الفتوحات ، وقل الضبط ، وكاد الباطل يتلبس بالحق فى عدة عوامل مختلفة ـ احتيج الى تدوين الحديث ، وابتدأ التصنيف ، فكان عمر بن عبد العزيز الإمام العادل أول من أمر بتدوينه .

وفى مقدمة الفتح لابن حجر : إن أول من جمع فى ذلك الربيع بن صبيح وسعد بن أبى عروبة وغيرهما ، يصنفون فى كل باب على حدة ، فلما انتهى الأمر الى كبار الطبقة الثالثة ، صنف مالك الموطأ بالمدينة ، وألف ابن جريج بمكة ،

والأوزاعى بالشام . ثم تلاهم كثير من الأئمة كل بحسب ما سنح له ، فمنهم من رتب على المسانيد كأحمد وابن راهويه ، ومنهم من رتب على العلل ، ومنهم من رتب على الأبواب الفقهية ، وهؤلاء منهم من تقيد بالصحيح كالشيخين البخارى ومسلم ، ومنهم من لم يتقيد كباقى أصحاب السنن . فالبخارى أول من صنف فى الصحيح على أبواب الفقه ، وكان معروفا بالفقه فى الدين وقوة الاستنتاج ، كما تشهد بذلك عناوينه الدقيقة فى كتابه الجامع الصحيح .

نشأ البخارى وقد تمهد سبيل الرواية ، فدقق فى بعض الاشتراط بما لم يكن لغيره ؛ ولذلك كان جامعه هذا أصح الكتب بعد كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ، حتى وصف بأنه متواتر معنى .

ونشأ البخارى فى عهد قامت فيه الحركة العلمية على ساقها ، ونفقت سوقها ، وتنافس الرجال على التجارة فيها على اختلاف نزعاتهم وتنوع أصنافها ، فشهد حينا من أخريات عهد المأمون الذهبى صبيا ، إذ كانت ولادته يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ ، ولا بد أن الوسط ظل متأثرا بتلك الروح العظيمة المأمونية حينا من الدهر فى عهد المعتصم الذى بدأ البخارى يطلب فيه العلم ، وقد تغلغل فى نفسه حب العلم الدينى بالوراثة عن أبيه الصالح التقى اسماعيل بن ابراهيم ، الذى روى عن حماد ومالك ، وصحب ابن المبارك ، والذى روى عنه العراقيون ، وكانت له سمعة طيبة كريمة فى الورع والزهادة ، وكان البخارى من آيات الله فى ذكائه ، وحفظه وتحريه وشدة حرصه ، وتقلله من الدنيا ومن الإصابة منها والتنافس على جمعها ، يحدوه توفيق وتيسير عجيب ، فضلا من الله الذى رد عليه بصره ليحفظ به سُنة نبيه .

حدث البغدادى الخطيب بسنده الى السجاد قال : سمعت شيخى يقول : ذهبت عينا محمد بن اسماعيل فى صغره ، فرأت والدته فى المنام ابراهيم الخليل عليه السلام يقول : يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك أو لكثرة دعائك . . . فأصبح وقد رد الله بصره !

وأظن أن فى الطب الآن متسعا لمثل هذا الذى كان يعد من الخرافات . على أن فى قدرة الله مالا يعلم الناس ولا يحتسبون .

وقد حدث البخارى عن نفسه ببعض قصة حياته، وقد سأله محمد بن أبى حاتم: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا فى المكتب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ قال عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من المكتب بعد العشر فجعلت أختلف الى الداخلى وغيره، وقد جرى بينى وبين الداخلى أنه قال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم، فقلت يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم، فانتهرنى، فقلت: ارجع الى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه ثم خرج وقال لى: كيف هو يا غلام؟ فقلت هو الزبير عن عدى ابن ابراهيم، فأخذ القلم منى فأحكم كتابه. فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت؟ قال ابن إحدى عشرة سنة، فلما طعنت فى ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت أمى بى وبأخى أحمد الى مكة، فلما حججت رجع أخى بها وتخلفت فى طلب الحديث، فلما طعنت فى ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة، وقال: قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة إلا أنى كرهت التطويل.

ويظهر أن هذا الكتاب كان من آيات غزارة علم الرجل وسعة اطلاعه إلى حد جعل الناس تفتتن به حتى فى وضعه وجعل البخارى يعجب به، فهو يقول: لو نشر بعض أستاذى هؤلاء لم يفهموا كيف صنف كتاب التاريخ ولا عرفوه؛ صنفته ثلاث مرات.

وقد حدث البخارى أن شيخه ابن راهويه دخل بالكتاب على عبد الله بن طاهر، فقال: أيها الأمير ألا أريك سحرا؟ فنظر فيه عبد الله بن طاهر فتعجب منه وقال: لا أفهم تصنيفه!. وقال العباس بن سعيد: لو أن رجلا كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن تاريخ البخارى.

وأما جمعه لهذا الجامع الصحيح فيرجع إلى ما حدث به عن نفسه، قال: كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبى صلى الله عليه وسلم!. فوقع ذلك فى قلبى، فأخذت أجمع هذا الكتاب وجمعته من ستمائة ألف. ولله هذا الإمام الحافظ الخطير! ما كان أصفى نفسه وأقدره على

الجمع والحفظ والفقه، ونحل النصيحة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم!. وحدث البخارى وهو الثقة الثبت أنه ما أدخل فى كتابه إلا ماصح، وترك من الصحاح خوف الإطالة، وأنه ما وضع فى هذا الصحيح حديثا إلا اغتسل قبل ذلك وصلى ركعتين ... والحديث عن هذا الجامع يطول .

وكذلك الحديث عما كان من امتحانات البخارى وتجمهر كثير من البلاد لتحديه فى الحفظ والضبط؛ فذلك أمر قد يدخل فيما يقرب من الإعجاز. ومن شاء علم ذلك فليرجع إلى مقدمة الفتح وإلى تاريخ بغداد وغيرهما . وهنا نشير إلى أن للبخارى عدا الكتابين العظيمين كتبا أخرى، كالأدب المفرد، وبر الوالدين، وخلق الأفعال، والضعفاء، والمسند الكبير، والتفسير الكبير، وكتاب الفوائد .

ثم نعود بك الى بعض صفاته العظيمة التى فتحت له ذلك الفتح المبين، وجعلته فى ذلك الوضع النادر .

فقد قالوا : إنه كان غاية فى السخاء وبذل الدنيا، وكان آية فى عفة اللسان ونزاهة القول، حتى إنه قال يوما : أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبنى أنى اغتبت أحدا . فقال له بعض الشهود : إنك جرحت بعض الرواة، فقال: ذلك رواية ولم نقله من عند أنفسنا وقد قال صلى الله عليه وسلم : بئس أخو العشير .

على أنه قد كان من دأبه أن يقول فى الساقط والمتروك : فيه نظر أو سكتوا عنه . وكان البخارى صبورا غفورا، حتى إن الجارية أراقت حبره يوما فلما سألها قالت : إنه فى طريق! فقال : أنت حرة لوجه الله! .

فأما أحاديث النسك والعبادة والاستهتار فى ذكر الله وتلاوة القرآن، فقد كان فى ذلك كله المثل الأعلى للمؤمن الناسك القانت الخاشع : صلى الظهر يوما فى بستان مع جماعة من أصحابه ثم قام الى التطوع فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فاذا زنبور قد أثر فى ستة عشر موضعا حتى تورم جسده، فلما سئل فى إطالته، قال كنت فى سورة فأحببت أن أتمها . وهنا أترك للقارىء الكريم التعليق على هذا الحادث الجسيم ، وكيف أن ذلك الإمام الذكى كان يؤثر الروح

ولذتها ، ويقدر الكتاب الكريم ويقدس آياته . وقد كان فى شهر رمضان يعنى بالقرآن عناية خاصة مع تشميره فى عبادة الله ، فكان يجمع أصحابه منذ أول ليلة منه فيصلى بهم ويقرأ فى كل ركعة عشرين آية ، وكذلك الى أن يختم القرآن . وكان يقرأ فى السحر ما بين نصف القرآن وثلثه ، فيختم عند السحر فى كل ثلاث ليال ، وكان يختم فى كل يوم ختمة عند الإفطار ويقول : عند كل ختم دعوة مستجابة . على أن البخارى كان يتعهد العمل فى ليله مع ذلك القنوت والتهجد . اللذين علمت من خبرهما ، وقد حفظ عنه ذلك وعرفه أصحابه فى السفر .

قال أبو الوراق : كان أبو عبد الله (البخارى) إذا كنت معه فى سفر يجمعنا فى بيت واحد أحيانا فيقوم فى ليلة خمس عشرة مرة الى عشرين ، فى كل ذلك يأخذ القداحة ثم يورى ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها . وكان يصلى فى السفر ثلاث عشرة ركعة .

فهذا شأن مَن شغله التفكير فى العلم وتصحيح النقل والأمانة فى الرواية عن نوم الغافلين الكسالى ، فهذا نوم الإغفاء والتفكير لا نوم الإغماء والشخير . وكذلك النفوس الكبيرة :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

ونقل ما يشبه ذلك تلميذه الفربرى ، ولم يكن ذلك فى السفر ، قال : كنت عند محمد بن اسماعيل بمنزله ذات ليلة ، فأحصيت أنه قام وأسرج يستذكر أشياء ثمانى عشرة مرة . فليس كثيرا على مثله أن يصنف هذا الجامع الصحيح فى ست عشرة سنة ، لأنه المتحرى المحتاط الذى استطاع أن يخرج من ستمائة ألف حديث هذا الجوهر الثمين والكنز العظيم الذى جعله حجة بين الله وبين عباده . نفع الله الأمة بإخلاصه وبجامعه الصحيح .

فأما الخوض فى طريقة تصنيفه ، ودقة استنتاجه ، وقوة نظره ، وعلو كعبه ، وبُعد مراميه فى فهم السنة والتفريع منها ، فلذلك مجال غير هذا ، وإنما قصدت توجيه الأنظار الى ذلك الذخر العظيم ، وتلك النفحات الربانية الكريمة . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

حرية الرأى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

أما أن الحرية هى الحياة ، أو هى أقصى ما يتشهَّى الأحياء أن ينالوه ، فذلك مما لا شك فيه . ولهذا نجد الأفراد والجماعات يبذلون ما يملكون ، وينفقون أثمن ما يقتنون ، للحصول على هذه الغاية ، والوصول إلى تلك الثمرة ، فإن انتهوا إليها حمدوا السُّرَى ، وشكروا للمقادير ما أتاحت ، وللقضاء ما وهب . وإن رجعوا من المسعى بالخيبة ، ومن الدأب بالإخفاق ، سخطوا على الزمان والمكان ، وَبَرِمُوا بالكون وما فيه من باغم وناغم ، وصادح ونائح ، وصار القضاء على سعته فى نظرهم أضيق من حبالة الصياد ، وأظلم من حلك الغراب ، واعتبروا أن العيش الذى يعيشونه على هذا النمط خير منه قاع جهنم ، حيث النار ذات اللهب ، والحجارة والحطب ، والدخان الذى يكبت الأنفاس ، ويؤلم الإحساس . . .

وربما كانت عبودية الأجسام على خطر شأنها ، وعظم قدرها ، وإن كانت سجنا مرذولا ، وحداً من النشاط ممقوتا ، ليست شيئا مذكورا إلى جانب عبودية الرأى والحظر عليه ، وإقامة الأسوار والأشواك فى وجه صاحبه .

والرجل ذو الهمة الأبية ، والنفس العالية ، والطموح البعيد ، قد يقبل أن يطوَّح به فى المنفى ، وأن يُزَج به فى الدرك الأسفل من الكهوف والمغارات ، وأن يرمى به فى المفازات والأدغال مع الوحوش والهوام ، ثم لا يقبل أن يحال بينه وبين الرأى الصريح ، والمنزع الصحيح ، والعقيدة التى يذعن لها قلبه ، ويطمئن إليها وجدانه ، ولو أكره على خلاف ما يرى ، أو حمل على ما يتنافى مع هواجس نفسه ، وهواتف حسه ، لم يسعه إلا أن يدعو بدعوة يوسف عليه السلام ، حينما اضطربت به المسالك ، وضاقت عليه المآزق : « ربِّ السجنُ أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه » .

ولا يكون الحجر على الآراء، والحيلولة دون الأفكار، ومحاربة العقول، وإطفاء مصابيح النظر الصحيح، إلا حين تكون طفولة الأمم، وتخبطها فى ظلمات الجهالة، وغيابات الحيرة والعمى، ولا يمكن أن يكون حينئذ نهوض ولا رقى، ويقظة أو تقدم، وإنتاج نافع، أو إصلاح مرموق، وإنما يكون الفناء والهدم، والتدمير والتأخر ...

ولذا رأينا الإسلام يشيد بهذه « الحرية » ويقدسها، ويعلى من قدرها الى درجة ليس بعدها؛ وينعى على من يهمل بصره، ويُعَطِّل حواسه، ولا يستفيد من تلك المواهب التى خلقها الله له، ليستخدمها وينتفع بها، ويرى فيمن ينهجون ذلك النهج، ويعيشون بهذا الأسلوب، أنهم كالأنعام بل هم أضل.. ولم تقم دعوته على العنف، أو تستعن بالقوة، أو تلتجىء الى السيف والإرهاب، وإنما تركت للناس حرية النظر والتفكير، والتروى المشوب بالبحث والمقارنة، والترجيح والتفضيل، لتتركز العقيدة، ويكون الدين خاليا من اللجاجة والشك، والاضطراب والتردد، وهو لهذا يذكر الحكم مقترنا بعلته، والقضية مصحوبة بدليلها؛ والشواهد لذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى أو تستقصى...

وليس أصرح فى حرية الاختيار، وأبلغ فى اعتبار إذعان القلب، وميل الوجدان، من تلك الصورة الرائعة التى تمثلها الآية « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فإنها تضرب الرقم القياسى — كما يقولون — للديموقراطية الفكرية فى أجلى مظاهرها، وأحسن صورها... ولو أن دولة من الدول، أو جماعة من الجماعات، وضعت يدها على من يحاربها فى رأى، أو يناقضها فى عقيدة، أو يخالفها فى مبدأ، وكان منها إليه ذلك الصنيع، دون أن تجعل الظفر به مدعاة الامتنان، أو وسيلة النيل منه، لقام لها التاريخ وقعد، وطاولت بعنقها السماء كبرا وخيلاء...

وحسب المتحدث عن « حرية الرأى » فى الإسلام ما يقرؤه فى الكتاب الكريم من الآيات الداعية الى النظر... وأن من منابع التشريع فيه الاجتهاد حتى حين كان ينزل الوحى، وأن اختلاف الصحابة كان مع وجود النبى

صلى الله عليه وسلم ، وأن عمر كان إذا لم يطمئن الى الحكم راجع فيه الرسول ، وأبى أن يتلقنه من أول الأمر ، إلا أن ينقدح فى نفسه ، أو يتجلى لعينه . . . وأظن أن تباين القضايا عند الأئمة وتضارب الفهوم فى المسائل ، برهان لاشك فيه ، ودليل لا شبهة معه ، على أن الرأى مقدس ، والنظر معتبر . . .

ومن المسلم به أن الإنسان إذا عبد الله سبحانه وتعالى بما رجح دليله لديه كان من الناجين من عذابه ، البعيدين عن سخطه ، ولو كان ذلك الذى رجح لديه خطأ فى الواقع . . .

إلا أن حرية الرأى هذه لايقبلها الدين « قضية مسلمة » بل يراها أقرب الأشياء شبها بما يسمونه السلاح ذا الحدين ، فالحرية للمسلمين مكفولة ، والرأى له قداسته واحترامه ، ما دام ذلك كله لا يصل بصاحب النظر الى نقيض ما أجمعوا عليه فى أصل من الأصول ، أو ما دام غير متعارض مع نص ظاهر الدلالة . . . ولذلك كان المأثور عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أنهما إذا اشتبه عليهما أمر الكتاب والسنة ، وخفى عليهما أخذ الحكم منهما ، لم يريا الرأى من تلقاء أنفسهما ، ولكن يجمع أحدهما « أهل الذكر » فإن أجمعوا على حكم أخذ به ، وحمل الناس عليه ، وفى ذلك بُعد عن الهوى ، ومجانبة لمظنة التَّحيُّف ، خصوصا إذا كانت الفتنة ، أو شاعت الضلالة ، أو شك المعاصرون فى نزاهة المفتى ، وبراءته من الغرض . . .

ولأن علم المنطق من العلوم التى تنمّى ملكة الرأى ، وتشجع على حرية النظر ، كان بعض العلماء لا يقول بجواز الاشتغال به ، ولا سيما إذا لم يكن عند المرء حصانة من الدين ، ومناعة من العقيدة الصحيحة . وقد رأينا صواب ذلك الرأى حينما شاهدنا أولئك الذين لم يأخذوا بقسط من الهداية السليمة يتخبطون فى النظر ، ويزيغون فى الفكر ، ويسيرون كما تسير العشواء ، وجعلوا من معارفهم التى درسوها معاول يهدمون بها ما أجمع المسلمون عليه . وهم وإن كانوا « كناطح صخرة يوما ليوهنها » إلا أنهم يسمّمون عقول الناشئين ، ويصيبون أحلام المبتدئين . . . والشباب فى جيلنا الذى نعيش فيه يغره البريق ، ويخدعه البهرج ، وتسبيه مظاهر الأشياء ، لذلك

يحب من الكلمات ما كان فيه « تجديد » أو دعوة الى حرية ، أو اشتمال على مذهب مستحدث ، أو رأى غريب . . . وعذرهم فى ذلك كله واحد من أمرين : قلة محصولهم العلمى ، وكثرة الدوى الذى يطن فى آذانهم من الصحافة المستهترة ، والكتاب المائعين ، وساعد على هذا وهذا تحلل عام ، وتفكك شامل ، وانحدار خلق طاح بالأخضر واليابس ، الى حد أن صارت كلمة الجمود أو التأخر أقرب ما ينال المنصف من الداعين ، والمعتدل من الهداة المرشدين « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » . . .

وإذا كان من أدب القرآن الذى أدب به أهله إذا اشتبهت عليهم معالم الطريق أن يسترشدوا بمن يعرف مسالكه ، ويدرى مهالكه ، وأن يشاوروا من يتبصر النور ، حين لا تتبين الأمور . . . فإن من أدب أولئك الأغرار قولة ابن أبى ربيعة « إنما العاجز من لا يستبد » ، عصمنا الله من اللجاجة ، وحفظنا من الهوى ، وجعلنا من الداعين إليه ، الذائدين عن دينه ، المتمسكين بيقينه ؟

مخاطرات

قام رجل إلى عمرو بن العاص والى مصر وهو يخطب يوم الجمعة ، وقال له : يأيها الأمير من أمك ؟ فأجابه عمرو قائلا : هى النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ! فان كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه ! .

وقام رجل إلى هرون الرشيد وهو يخطب بمكة فقال : كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، فأمر به فضرب مائة صوت ؛ فبات هذا الرجل يئن الليل كله من ألم الضرب وهو يقول : الموت الموت ! . فأخبر بذلك أمير المؤمنين هرون وقيل له إنه رجل صالح . فأرسل اليه يعتذر اليه ويستحله ، فأحله .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
مبعوث الأزهر الى كلية المقاصد الإسلامية بصيدا — لبنان

الألفاظ أوعية المعانى ، ولكل معنى لفظ يدل عليه ويعبر عن طريقه الى الذهن . والألفاظ بما تحمل من المعانى ثروة بين الجميع على سواء ، لا يعن لمتكلم معنى من المعانى يريد التعبير عنه إلا وفى ألفاظ اللغة ما يسعفه . وقد كان ذلك مدعاة أن لا يفضل كلام كلاما أن لو كان الأمر فى الألفاظ المجتمعة كمثله فى الألفاظ المفردة ؛ لكن لما كان اجتماع الألفاظ مجالا لخصائص وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كان تفاضل الكلام بحسب تفاوته فى اشتماله على هذه الخصائص والزيادات ، فلا يزال الكلام يترقى بها الى أن يبلغ حد الإعجاز أو ما يقرب منه ، ولا يزال يسفل بفقدها الى أن يلتحق بأصوات العجماوات عند البلغاء ، وإن كان صحيح الإعراب عند النحاة .

لم يقتصر القرآن فى حلاوته وطلاوته وبلوغه درجة الإعجاز على أدائه المعانى مشتملة على أعلى هذه الوجوه والخصائص التى بها يطابق الكلام مقتضى الحال ؛ بل إنه أتى فى هذا الباب بشىء عجيب طريف لا يتأتى فى غيره إلا متابعة له أو اقتباساً منه : تمكين المعنى بوضع الجملة وحس الكلمة وهيئة التراكيب وأجراسها الصوتية ، وفواصل الآيات ومقاطعها ، حتى ليتناسب التعبير مع المعبر عنه ، وتساعد الجمل والكلمات بوضعها وكيفياتها على تصوير المعانى وتجسيمها .

انظر مثلا الى قوله تعالى فى سورة الرحمن « أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان » الطغيان فى الميزان : الزيادة فيه ، والإخسار له :

النقص منه ؛ وبين الزيادة والنقص طريقة وسطى هى إقامته بالقسط . الجملة الأولى نهى عن الطغيان ، والجملة الثالثة نهى عن الإخسار ، والجملة الوسطى أمر بالقسط ، وفى مجيئها وسطى فى الوضع مع أمرها بالطريقة الوسطى موافقة الوضع للمعنى ، ومحاذاة فى صورة التعبير لصورة المعبر عنه .

وقريب منه ما فى سورة هود من قول شعيب لقومه « ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم » حيث وقعت جملة الأمر بالقسط والمكيال والميزان وسطى بين جملتى النهى عن النقص .

وانظر مثلا آخر قول الله سبحانه فى سورة الشورى « يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما » كيف جاء لفظ الإناث والذكور على التنكير فى سائر الألفاظ إلا فى موضع واحد وقع فيه تعريف الذكور بأل . قد يقال إنها الفاصلة . نعم ووراء الفاصلة سر آخر : حجر الأساس ، وجيب الزاوية فى هذا الوجود ، هم الذكور : الرسالات ، الملك ، العلم ، قيادة القافلة الإنسانية ؛ يدور الأمر فى ذلك كله على كاهل الذكور . خلق الله آدم قبل حواء ، الرجال قوامون على النساء ، للذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين . لا بدع بعد ذلك أن يكون الذكور أعرف من الإناث ، وأن يكون تعريف هذا اللفظ خاصة للإشارة الى ما ذكر من متعلقات مدلوله .

وانظر مثلا آخر قول الله تعالى فى سورة الأنعام الآية ٩٩ « والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » مع قوله تعالى فى السورة نفسها الآية ١٤١ : « والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه » ففى هاتين الآيتين دلالة على أن الزيتون والرمان متشابه وغير متشابه ؛ متشابه فى اللون والحجم ، غير متشابه فى المذاق والطعم ، أوما شئت قل فى مناط التشابه وعدمه ؛ فالتركيبان فى الآيتين لمعنى واحد ، وألفاظهما واحدة ، إلا ما كان فى الآية الأولى من الاشتباه بدل التشابه ؛ والاشتباه غير التشابه فى اللفظ ونظام الحروف ، لكنه عينه فى الأصل والمعنى ، بدليل المقابلة بينهما ، وهذه المغايرة اللفظية أوجدت شبها بين اللفظين

فى تركيب واحد ، وشبها بين التركيبين فى الآيتين لمعنى واحد ، فكانت الكلمات الدالة على تشابه الزيتون والرمان نفسها متشابهة ، فكان ذلك من تصوير التعبير بصورة المعبر عنه ، ومحاذاة الصورة اللفظية للصورة المعنوية حذوك الشيء بالشيء .

وانظر مثلا آخر الى الكلمات الاربع « اثاقلتم » فى قوله تعالى فى سورة التوبة « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض » ، « أنلزمكموها » فى قوله تعالى فى سورة هود « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ، « يصطرخون » فى قوله تعالى فى سورة فاطر فى أهل جهنم « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل » ، « مصيطر » فى قوله تعالى فى سورة الغاشية « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » .

كيف أن اللفظة الأولى بما فيها من إدغام وإبدال واجتلاب همز الوصل للنطق بالساكن وثقلها فى النطق بعد ذلك كله — كانت خير تصوير لهذا الثقل المراد تصويره : ثقل البطيء الذى لا يخف لما يؤمر به ، هذا التصوير الذى لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : تثاقلتم ؟ .

وكيف أن الثانية بكثرة حركة الضمة فيها — وهى أثقل الحركات — وتكرر بعض حروفها ، كانت خير تصوير لما يكون من الثقل على الملزم بشيء هو له كاره لا تستجيب له نفسه ولا تخف ؛ هذا التصوير الذى لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : أنلزمكم إياها [1] ؟ .

وكيف أن الثالثة بغلظ جرسها وقوة منطقها وحروفها ، تصور قوة الصراخ المنبعث من جوف جهنم وأهلها هولاً وفزعا ؛ هذا التصوير الذى لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : يصرخون ؟ .

وكيف أن الرابعة تصور بقوة جرسها وحروفها ، هيمنة المسيطر على المسيطر عليه ؛ هذا التصوير الذى أعان عليه إبدال السين صاداً ، والصاد أقوى من السين .

وانظر مثلا قوله تعالى فى سورة النجم « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن

---

(١) الفصل والوصل فى هذا الضمير جائزان على سواء - ابن عقيل .

قسمة ضيزى ، فإن الكلمة الأخيرة فى أصلها غريبة ثقيلة على اللسان ، لكن مجيئها هذا المجيء جعلها من الروعة والرونق فى الذروة والسنام ، حيث كانت غرابتها أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرت ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى والتهكم فى الثانية ، وكان هذا التصوير أبلغ البلاغة وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفاصلة ، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى أسفل وإلى أعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية »[1].

ومثله قوله تعالى فى سورة آل عمران « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » « فإن النحاة يقولون إن « ما » زائدة أى فى الإعراب ، فيظن من لا بصر له أنها كذلك فى النظم مع أن فى هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد بالآية تصوير لين النبى صلى الله عليه وسلم لقومه ، وأن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد فى « ما » وضعاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها فى بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ « رحمة » مما يلفت النظر إلى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبيعى فى بلاغة الآية كما ترى »[2] .

وانظر مثلا آخر الى القرآن كله نظرة إجمالية تفحص فيها مدنيه تارة ومكيه أخرى ، فإنك واجد أن لكل قبيل فى أغلب أمره مسحة تغلب عليه ، وظاهرة تنتظمه : فالمدنى طويل السور ، طويل الآيات ، هادىء الأسلوب ، رقيق العبارات ، لين الفواصل والمقاطع ، وذلك أنسب شىء بما يتضمنه من الأحكام الشرعية ، والقوانين الفقهية والجدالات العلمية مع أهل الكتاب . . والمكى قصير السور ، قصير الآيات ، عنيف الأسلوب ، قوى الفواصل والمقاطع ، ألفاظه شديدة الجرس ، صاخب يدوى كأنه موج يهدر أو سيل ينحدر من قمم الجبال ، وذلك أنسب شىء بما تضمنه من النذر القارعة ، والزواجر الرادعة ، والمواعظ الجامعة التى يقتضيها

(١) راجع كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » للاديب سيد قطب .

(٢) ما بين القوسين من كلام الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن .

حال أهل مكة ، أهل العناد والجحود ، وقسوة القلب وجفاء الطبع . ومن عجب أن اللفظ يكون واحدا فى معنى واحد وقصة واحدة ، لكن يرد فى سورة البقرة المدنية على جهة التخفيف ، ويرد فى سورة طه المكية على جهة التشديد ، فيقول تعالى فى السورة الأولى ـ قصة آدم : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، ويقول فى السورة الثانية فى القصة نفسها « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

وانظر مثلا آخر هذه الفواصل القرآنية [١] التى تنوعت واختلف الصنيع فيها بين السورة والأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة بعضها وبعض . أما السورة الواحدة ذات الفاصلة الواحدة فإنك تجدها وفاصلتها بمقطعها وجرسها الصوتى أنسب شىء بمعناها وأسرع خطوراً بالبال إذا ذكرت السورة أو ذكرت بعض آياتها ، حتى لتنعقد فى قرارة النفوس الحافظة عملية من التداعى والارتباط بين السورة وفواصلها ، بل بين سائر الآيات والفواصل فيها ، حتى ليكون ذلك كله من عوامل استذكار الحافظ لما يوشك أن ينساه .

هذه سورة الناس تقرؤها فتكاد تصور لك بجرسها وفاصلتها وتكرر حرف السين فيها ، هذه الوسوسة التى سيقت لها السورة : وسوسة الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .

وهذه سورة القمر تقرؤها فتعطيك بجرسها وفواصلها والتزام حرف الراء الساكنة فيها وتكرر كلمة النذر ما تعطيك بمعانيها من تهديد أهل مكة وإنذارهم وقرع العصا لهم مرات ومرات [٢] .

وأما السورة الواحدة ذات الفواصل المتنوعة فى آياتها فغالبا ما يكون هذا التنوع عند تنوع المعانى وانتقال الكلام من غرض الى غرض ومن طريقة الى أخرى ، كأنما يرمز بتغير الفاصلة الى تغير ذلك .

---

(١) الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع . وقال الدانى : كلمة آخر الآية . وقال القاضى : الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى ـ الاتقان جـ٢ ص ٩٦ ط الحلبى .

(٢) الكوثر ، الاخلاص ، الفيل ، العصر ، الشمس ، القدر ، التين ، الفتح ، محمد ، المرسلات ، الجن ، الانسان ، كلها سور واحدة الفواصل وقريب منها غيرها كثير كالسور : الأحزاب ، الاسراء ، الكهف ، النساء ، الفرقان .

هناك سور بدئت بقسم ومقسم عليه ، ولا يخفى ما بين القسمين من تنوع غالبا ما تكون الفاصلة فى القسم غيرها فى المقسم عليه لاسيما إذا كان فى القسم طول والسورة أيضا طويلة كما كان عليه الحال فى السور : الذاريات ، الطور ، الصافات ، المرسلات ، النازعات ، العاديات .

أما إذا كان فى القسم قصر أو كانت السورة قصيرة ، فغالبا ما تكون الفاصلة فى القسم والمقسم عليه واحدة كما كان عليه الحال فى السور ، النجم ، الضحى ، الشمس ، التين ، العصر ، البلد .

وهذه سورة (ص) تستمر فيها الفاصلة على وتيرة متشابهة حتى الآية ٦٧ فتتغير الى وتيرة أخرى تستمر عليها حتى ختام السورة ، وفى هذا القدر الأخير من الآيات يتمحض الحديث عن قصة آدم ، وشىء من التنبيه الى ما فى القرآن من حق وعظمة .

وهذه سورة غافر ترى الفاصلة فيها على وتيرة واحدة من الآية ٢٤ الى الآية ٥٥ وترى هذه الآيات خاصة بالحديث عن رسالة موسى الى فرعون وهامان وقارون وما أجابوه به وما آل إليه أمرهم ، وما قبل هذه الآيات وما بعدها من السورة غير متخصص لا فى موضوعه ولا فى فاصلته .

وهذه سورة نوح التى وإن كانت كلها من قصة نوح إلا أنه من الآية الخامسة فيها الى نهاية السورة خلص الكلام لحكاية رفع نوح الأمر الى ربه يشكو إليه قومه وإصرارهم واستكبارهم ، يدعوه أن لا يذر على الأرض منهم ديارا ، فكان كله ذا فاصلة واحدة فيها قوة وشدة جرس مناسبة لحال غضبه على قومه .

وهذه سورة النازعات تراها من الآية ١٥ الى الآية ٢٦ ذات فاصلة تكاد تكون واحدة متميزة عما قبلها وبعدها فى نفس السورة ، كتميز الآيات نفسها بتخصيصها للحديث عن موسى وفرعون ، وهناك سور أخرى كثيرة فيما ذكرته هنا مثال لها يحتذى ومنوال ينسج عليه ، وكفى .

باب الأسئلة والفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

الحب العفيف للتزوج

« هل الحب يعد حراما ، الحب الذى يمهد لصاحبه الطريق لكى يتزوج فى النهاية من التى يريدها حتى يتم تعليمه مثلا إذا كان طالبا وبعد ذلك يتزوج بمن أراد . وفى أثناء هذا الحب لا يمسها بما يغضب الله ؛ فهل يعتبر هذا الحب حراما ؟

عبد الرحمن طلعت متولى
طالب بمدرسة النهضة الحديثة الثانوية
فاقوس — شرقية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن الحب ميل قلبى لا اختيار للمرء فيه ، فلا يتعلق به حكم شرعى بالحل أو الحرمة ؛ إنما الحكم يتعلق بسببه وبما يترتب عليه من الأعمال الاختيارية ، فإن كان سببه محرما أو ترتب عليه محرم كالخلوة بالمحبوبة قبل التزوج بها ، والسير معها فى الطرقات ، والسهر معها فى محل السهر ، وما الى ذلك من الأشياء المحظورة شرعا ـ كان الشخصان آثمين ، يستحقان عقاب الله تعالى . وإن لم يكن سببه كذلك ولم يترتب عليه شىء من ذلك وإنما كان بينهما ارتباط قلبى بقصد التزوج فى وقت مخصوص فلا شىء على واحد منهما شرعا . وبذلك علم الجواب . والله أعلم ؟

المسبحة من عظم الفيل

وجاء الى لجنة الفتوى أيضا الاستفتاء الآتى :

نرجو الإفادة عن الحكم الشرعى فى المسبحة المصنوعة من عظم الفيل (السن) ، أو من عظم الحيوانات غير مأكولة اللحم ، وذلك من حيث الطهارة والنجاسة ، وهل يؤثر حملها - إن قلنا بنجاستها - فى صحة الصلاة ؟ فإن عندنا شخصا له معرفة يسيرة ببعض المسائل العلمية يقول : إن السن والعظم يطهر بالنار ولا حرج فى حمله أثناء الصلاة ، فاعتمدنا قوله أزمانا ، ثم رأينا بعدُ إبراء للذمة أن نعرف الحكم عن طريق لجنة الفتوى . ونرجو الإجابة على وفق مذهبى الإمامين مالك والشافعى .

كفور بلشاى — عبد الحليم حماد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن مذهب المالكية أن المسبحة المصنوعة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله كالبغال - نجسة ، ولو ذكى الحيوان الذى أخذ منه العظم ، لأن الذكاة لا تفيد فى محرم الأكل . أما الفيل فيكره أكله ، فإن ذكى لأكل لحمه طهر بالذكاة بجميع أجزائه ومنها العظم . أما إذا ذكى للانتفاع بجلده فلا يطهر لحمه ؛ وإذا يكون عظمه نجسا ، ومتى كانت المسبحة مأخوذة من عظم حيوان محرم الأكل مطلقا ، أو مكروه الأكل إلا أنه لم يذك ، أو ذكى لأخذ جلده ، فهى نجسة ، والصلاة بها باطلة .

وأما مذهب الشافعى فهو أن المسبحة المأخوذة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله سواء ذكى أم لا - نجسة ، ومن هذا الحيوانات المحرم أكلها كالفيل . وإذا فتكون الصلاة بهذه المسبحة باطلة ، ولا يجوز الدخول فيها شرعا بالمسبحة .

هذا ومذهب الحنفية أن سن الفيل أو عظم الحيوان غير المأكول ما عدا

الخنزير : طاهر ، لأنه لا يحله الدم . وعلى ذلك فالمسبحة المأخوذة من سن الفيل أو عظم الميتة ، طاهرة ، والصلاة معها صحيحة . والله أعلم ؟

تبنى المسيحى للطفل المسلم

وجاء الى اللجنة أيضا هذا الاستفتاء :

ذات يوم من أيام عام ١٩٢٦ ميلادية وجد رجل مسيحى على غير ملة الإسلام طفلا حديث الولادة أمام باب منزله ، وفى قبضة يد الغلام ورقة صغيرة مكتوب بها أن اسم الطفل محمد جمعه . فتقدم صاحب الدار المسيحى الى قسم البوليس وأخطره عن الحادث ، وأظهر رغبته فى تربيته وأنه يود أن يتبناه ، فأرسل قسم البوليس الطفل الى مستشفى القصر العينى الذى قام بتسليم الطفل الى الرجل المسيحى بمقتضى طلب ثابت به أن اسم الطفل محمد جمعه ، ويلاحظ أنه لم يتقدم أى شخص للبحث عن هذا الطفل إطلاقا ، وأصبح مستشفى القصر العينى هو الذى يتولى من قبله السؤال دوريا فى فترات منتظمة عن الطفل محمد جمعه . قام الرجل المسيحى بتعميد الغلام بعد بلوغه العام الأول وتنصيره حسب أصول قواعد الديانة المسيحية ، وسماه باسم مسيحى ، كما أنه قام بدفع الكفالة العسكرية لإعفائه فى حينها . ولما كان هذا الرجل المسيحى عديم الذرية ، ولم يرزق بأولاد ، ولما كانت جنسيته يونانية ، فإنه تقدم للقنصلية اليونانية بعد بلوغ الغلام خمسة عشر عاما بإقرار يثبت به أنه تبنى هذا الغلام ، وأنه منحه اسم العائلة التى ينسب اليها ، وأنه جرده من الاسم الأصلى وهو محمد جمعه ، وأنه أضحى مسيحى الديانة . ولقد مرت الأعوام وإذا بهذا الرجل المسيحى يتنكر لهذا الغلام .

١ — فهل يعتبر التبنى للرجل المسيحى حسب الوقائع السابقة مع علمه بأن المتبنى له نسبا هو محمد جمعه تبنيا صحيحا شرعا ويقره الإسلام ؟ .

٢ — وهل فى مكنة المتبنى (الرجل المسيحى) أن يحسر عن نسبة هذا الغلام ويرده الى ملة الإسلام ؟

٣ — وهل من الجائز رفع دعوى حسبة بهذا الصدد ؟ .

٤ — وهل للفتى المتبنى أن يطلب رده للإسلام وخلاصه من التبنى ، سواء تمكن من الاهتداء الى نسبه الأصلى والتحقق منه أم لا ؟ سيد بغدادى المحامى

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن التبنى على الوجه المفهوم من السؤال لا يجوز فى نظر الإسلام ، ولا تثبت به بنوة الولد المتبنى لمن تبناه ، بل لا يزال هـذا الولد أجنبيا منه ليس عليـه ما يجب على الولد لأبيـه من الحقوق ، وليس له على من تبناه شىء من حقوق الأبناء على الآباء . قال الله تعالى « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين » أى فهم إخوانكم فى الدين ، فادعوهم إخوانا ما دام لم يعرف لهم آباء ، والولد فى نظر الإسلام مسلم من حيث نشأته ، وعليه أن يتقدم الى المحكمة الشرعية ليسجل إسلامه فى سجلاتها حتى لا يكون لمن تبناه سلطان عليه .

ويجب على المسيحى الذى تبناه أن يبين الحقيقة بالنسبة لهذا الولد ، ويخلى سبيله ليسجل إسلامه كما قلنا . وأما رفع قضية حسبة فى هـذا الموضوع فهو أمر يرجع فيه الى نظام القضاء الشرعى . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
عبد المجيد سليم

العـدل

دخل الزهرى على الوليد بن عبد الملك فقال له : ماحديث يحدثنا به أهل الشام ؟

قال الزهرى : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات .

قال الزهرى : هذا باطل يا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله ، أم خليفة غير نبى ؟ قال : بل خليفة نبى ؛ قال الزهرى : فإن الله يقـول لنبيه داود : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بمـا نسوا يوم الحساب » . فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبى خليفة ، فـما ظنك بخليفة غير نبى ؟ ! قال أمير المؤمنين : إن الناس ليغروننا عن ديننا .

الشعر الوصفى :

أبو تمام يصف

بقلم سيادة الأستاذ اليلمعى الجليل « السيد »

صدر قصيدة من الشعر الوصفى ، لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى يصف به الروض ، ثم يمتدح بسائرها الخليفة المعتصم العباسى ، يذكرنا سحر الشاعرية فيه بطراز الأدب الغربى ، فى صدق الوصف ، وجدة التشبيه .

بَيْد أن فتور التلاحم الشعرى بين أجزاء القصيدة - إلا فى وحدة القصد - باعد - فيما أحسب - بين التذوق ، وبعض الطلاوة فى الشعر !!!

بدالى من أجل هذا أن أنثر صدر قصيدة أبى تمام هذه ، وأن أخلع عليها حلة من الكتابة ، تخلع بها حلة النظم ، ليستبين المعنى فى دَلّ النثر ، أجمل منه فى عقد الشعر !!!

قال أبو تمام :

رقت حواشى الدهر فهى تَمَرْمَرُ	وغدا الثرى فى حَلْيه يتكسَّرُ
نزلت مقدمة الشتاء حميدةً	ويدُ الشتاءِ جديدةٌ لا تُكفَرُ
لولا الذى غرسَ الشتاءُ بكفه	قاسى المصيفُ هشائماً لا تُثمرُ
كم ليلة آسى البلادَ بنفسه	فيها ويوم وَبْلُهُ مُثْعَنْجِر
مَطَرٌ يذوب الصحوُ منه وبعده	صحوٌ يكادُ من الغضارةِ يَقْطُرُ
غَيْثَانِ ، فالأنواء غيثٌ ظاهرٌ	لك وجهُ والصحو غيثٌ مُضمرُ
وندى إذا ادَّهَنَتْ بهِ لِمم الثرى	خِلْتَ السحاب أتاهُ وهو مُعَذِّرُ

أربيعنا فى تِسع عشرة حِجّة ... حقاً لهنّك للربيع المزْهِرُ
ما كانت الأيام تُسلبُ بهجة ... لو أن حُسْنَ الروض كان يعمّرُ
أوَلا ترى الأشياء إن هى غُيِّرت ... سمُجت وحسن الأرض حين تغيَّرُ
يا صاحِبىّ تقصيا نظريكمُا ... ترَيا وُجوهَ الأرض كيف تَصوّرُ
ترَيا نهاراً مشمساً قد شابَهُ ... زهر الرُّبى فكأنما هو مُقمر
دنيا معاشٌ للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هى منظر !!!
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نَوراً تكاد له القلوب تَنوَّر !!!
مِن كل زاهرةٍ ترقرق بالندى ... فكأنها عينٌ إليك تحدر !!!
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخَفر !!!
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين فى حلل الربيع تبختر
مصفرةٌ محمرةٌ فكأنها ... عصبٌ تيمنُ تارةً وتمضر
من فاقعٍ غض النبات كأنه ... دُرَرٌ تشققُ قبلُ ثم تزعفر
أو ساطعٍ فى حمرةٍ فكأنما ... يدنو إليه من الهواء معصفرُ
صنع الذى لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضرُ
خلق أطلَّ من الربيع كأنه ... خلق الإمام وهَدْيه المتنشرُ

هذا صدر قصيدة أبى تمام، وقد قلت فى حله ما يأتى :

رقّت طلاوة الربيع، ورفّت حواشى الدهر فهى ترمر: رفافة، وألبس الثرى حليه من الحسن، فغدا يتكسر فى حلية الترف، أو يرف.

نزلت بواكير المصيف ومقدماته، فاتنة حميدة، ويد الشتاء برة بعدُ غضة، فهى تشكر، ولا تكفرُ !!!

أجل! إنه لولا الذى غرسه بكفه الشتاء من الغضارة والنضرة، لقاسى المصيف من الجدب، وفرقة الخصب، هشَائماً من الفراس، فلما تثمر، أو تزهر !!!

كم ليلة آسى الشتاء فيها بلاده بنفسه ، وكم يوم تسمحت فيه سماؤه ، بغيث يتفجر وبله المثعنجر ، أو يقطر .

مطر سمح ، يذوب الصحو منه ، يعقب بعده صحواً يكاد يقطر نضارة ، ويعتصر نعمة وترفاً .

هما غيثان . أما الأنواء فهى غيث ظاهر ، يبتسم لك ثغره ، وأما الصحو فهو غيث مضمر !!!

ذلك الى ندى بليل ، إذا ادهنت به لمم الثرى ، خلت السحاب إنما لاقى الثرى وهو معذِّر ، كالمقصر !!!

إيهٍ ربيعنا الغض فى تسع عشرة حجة ، أجل إنك للربيع المزهر ، والعهد الأغر

ما كانت الأيام تسلب بهجة ، أو تشكل فتنة ، لو أن حسن الروض فيها كان يعمِّر ، فلا يتغير .

إن الأشياء لتسمج كلها إذا هى تغيرت ، سوى الحسن المحض ، من الأرض فإنما ينضر حين تغير !!!

أعملا فكريكما يا صاحبي ، وتقصيا نظريكما ، فإنكما ستريان وجوه الأرض كيف تصور ، فتسحر .

نهار مشمس ، ساحر الجلوة ، قد شاب إشراقته الزهر المنور ، فكأنه ليل مقمر !!!

دنيا أيها الصاحبان معاش للورى ، حتى إذا وفد الربيع الطلق ، فإنما هى حسن أسفر ، فى منظر !!!

هذه بطون الأرض ، تصوغ لظهورها أزاهير أو نَوراً ، تشرق له القلوب حتى تكاد من حلاوة المنظر ، تنور !!!

كل زاهرة باسمة من النوار، ترقرق بالندى، وترفُّ بالنعمة، فكأنها عين تغازل عينيك، وتحـدّر اليك !!!

إن الأزاهير ليجلوها الروض آونة، ويحجبها الجميم آونة، فكأنها حين تظهر ثم تخفر، خفرة عذراء تبدو مرة، وتحجب مرة !!!

لقد غدت وهدات الروض ونجاده فئتين: تمشى كلتاهما فى حلل الربيع تيَّاهة مزهوة، تتعطر، ثم تتخطر !!!

خمائل تلك من النبت مصفـرَّة محمرة، كأنها حلل تنشر، وعصب من الوشى تيمن تارة وتمضر، أو تمصر.

تلك: أو أصفر فاقع غض النبات، كأنه درر تشقق، ثم تزعفر، فتزهر !!!

أو ساطع من الأزاهر فى حمرة، كأنما يمشى اليه معصفر من الهـواء، أو السماء !!!

صنع الخلاق البديع، الذى لولا بدائع لطفه مارف الزهر فى ثوبه الأصفر، بعد إذ هو أخضر !!!

خلق ساحر يُطل علينا من الربيع، كأنه خلق الخليفة أو محياه الأزهر، وهديه المتنشر ؟

الحسد

الحسد: تمنى زوال نعمة المحسود وحصول الحاسـد على مثلها. ومن أحسن ما قيل فيه من الشعر قول الشاعر:

إن يحسدونى فإنى غــير لائمهم … غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فــدام لى ولهم ما بى وما بهم … ومات أكثرنا غيظا بما يجـد

وقال شاعر آخر:

اصبر على حسد الحسو … د فإن صبرك قاتله

النـار تأكل بعضها … إن لم تجـد ما تأكله

فى ذكرى المولد

الكلمة التى ألقاها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود جميلة مبعوث الأزهر الى العراق ، بقاعة فيصل ، فى ذكرى المولد النبوى ، وأذيعت على الشعب العراقى .

سيدى رسول الله ! سلام عليك يوم ولدت ، وسلام عليك يوم بعثت ، وسلام عليك يوم مت ، وسلام عليك يوم تبعث حيا .

سلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، سلام لا يحده حد ، ولا تحتويه عبارة ، ولا يقيده زمان ، ولا يشمله مكان .. فلقد كنت ياخير خلق الله سلاماً على الدنيا حين بزغت شمسك على الوجود فأنارت فجاجه ، وأوضحت سبله ، وذللت مسالكه ، وسهلت أوديته ، وجعلته منة ونعمة ، وعلماً ورشاداً .

ولدت يارسول الله والعرب أسرى خرافات وعبدة أوهام ، يدينون بالأباطيل ، ويتعلقون بالترهات ، ويؤمنون بالخرافات ، ويقيمون فى جهالة جهلاء وضلالة عمياء ، يأكل القوى الضعيف ، ويظلم المبطل المحق ، ويسود المفسد المصلح ، ويتحكم جهل الجاهلين ، وإسراف المسرفين ؛ لا يعرفون عن الحق إلا ما اتصل بأنفسهم ، ولا من الإنصاف إلا ما تعلق بذويهم ، غلاظ الأكباد ، غلف القلوب ، كأنما شقت نفوسهم من الصخور ، أو قدَّت من الحديد .

ولدت يا رسول بين قوم التاث عليهم الأمر ، واشتبهت أمامهم الحقائق ، وأظلمت بهم الدنيا ، فلا فضيلة جامعة ، ولا عقيدة موحدة ، ولا غاية مرموقة يدفعون عنها ويرمون من ورائها إلى مجد يرجى أو عز يراد ؛ وإنما هى عصبية جامحة يوقظها العناد والمكابرة ، ويغريها الحقد والمهاترة ، ويذكى أوارها ، وينشر

لهيبها، تناصر بالباطل، واعتزاز بالخرافة، وإهدار للعقول، وتجاوز عن المعقول والمقبول. فضياؤك الساطع أنار الأنام، وبدد الظلام، ومحا الوثنية، ومحق الأصنام، وزلزل إيوان كسرى، وقضى على العصبية الصماء، ونادى بالسلام، وثبت الفضيلة، وقرر الوحدنية، وأقام دعائم الإيمان.

سيدى رسول الله! لقد نبتت نبتتك الطاهرة الزكية المحجوبة عن دنس المدنسين، والمصونة عن رجس الآثمين، منذ أن خلقت وتناقلتك الظهور والبطون، إلى أن طلع فجرك الصادق على الوجود، وشع نورك الوضاء على الأصقاع، فى أرض قاحلة يعز فيها الإنبات، ويقل فيها النبات، لا ماء يروى، ولا خصب يروى. ولكن نبتتك العزيزة على القدر أبت إلا أن تكون خارقة معجزة، فمدت عروقها فى الصخور، وأرسلت أفنانها على الرمال المترامية، ثم مدت طولها الباسق وظلها الوارف، ناشرة أريجها الطيب، باذلة ثمرها الشهى إلى من فى الأرض جميعا.

فيا خير نبتة نبتت فى الدنيا فى أقحل أرض عرفها الإنسان، نريد أن نطوى إليك القرون، ونستوقف من أجلك الفلك، عله يعود بنا رجعة إلى الماضى المجيد والعهد السعيد، فنستلهم المجد من الماجد، والهدى من الهادى، ونغذى النفس بوقفة عزيزة، وسط نشأة مؤمنة، وعهود موقنة، ضربت المثل العليا فى الفدائية والإخلاص والعدالة والإنصاف.

سيدى رسول الله! لقد ولدت فى خير أرومة، وانبعثت من أكرم عرق، فكنت خير مولود عرفته الأرض والسموات.

ولدت يتيما، لا ضنا من القدر بوالديك عليك، ولكن لتكون معجزة فى طفولتك كما كنت معجزة فى ولادتك، فأريتنا فى اليتم عبقرية لم تكن معروفة فى اليتامى، واليتم مضيعة منهبة، فلما وجدت يتيما، لم تقهر يتيما، وجاءت شريعتك معظمة لشئون اليتامى، منظمة لحقوقهم.

غذيت بلبن حليمة وثويبة، ونشأت فى بنى سعد، وأدركتك العناية وأظفارك ناعمة، وعودك لدن طرى، فأزالت حظ الشيطان من نفسك، وأبدلتك به رأفة ورحمة، فبقيت للمؤمنين رءوفا رحيما، فلما ترعرع عودك الذكى، وترعرعت معه

فضائلك : فضائلك النقية الطاهرة ، واشتد ساعدك ، واشتدت معه كمالاتك وكراماتك ، كنت دينا قبل أن يرسلك الله بالدين ، وكنت عقيدة قبل أن تأمر الناس بالعقيدة .

لقد جفتك الهنات ، وجانبتك الهيئات ، فلم تتُق نفسك إلى متابعة ما أحاط بالقوم من وزر وما حل بهم من عوج ، لم تقترف مااقترفه الناس حولك ، ولم تغمس يدك فى مآثم الجاهلية ، والجاهلية ُجل مافيها مآثم ، فلم تشرب خمراً ، ولم تعبد صنما ، صيانة لعقلك ، وحفظاً لنفسك ، وتحقيقاً لإنسانيتك ، وتحقيراً لشأن المقترفين والمتابعين ، وشعوراً بما ينتظرك من مهام ، وما يترقبك من إصلاح ، فسفهت أحلام قومك بفعلك قبل قولك ، ونشرت الحق بصمتك قبل نطقك ، فأرغمت الجميع على تقديرك ، فآمنوا بنبلك ، وأيقنوا بصدقك ، وأجمعوا على أمانتك ، فأنت بينهم الصادق الأمين .

هذا بيت الله المحجوج تداعت أركانه ، وتصدع بنيانه ، من تطاول الأيام ، وبعد العهود ، لامن الفيل وأصحابه ، فقد جعل الله كيدهم فى تضليل ، والبيت رمز العزة العربية ، والمجد القرشى ، فتزاحمت البطون لرفع قواعده وإقامة بنيانه ورتق صدعه ، يريد كل قبيل أن يمد فى مجده ، وأن ينزع لعزته ، وأن ينال شرف الدنيا فى هذا الموقف الجليل . ثم ها هو ذا الحجر الأسود كريم أحجار الأرض على الله ، ترنو إليه الأنظار ، وتقف عنده الأطماع ، ويطلب كل فريق أن يكون له شرف حمله ومجد وضعه ، وتزاحمت البطون واشتعلت نار التنافس ، وتولاها هوام العصبية ، وكادت تقع الملاحم المهلكة والحروب المفنية القاطعة ، لولا أن ساق القدر محمد بن عبد الله الى القوم ، فوضعوا قضيتهم فى يده ، وانتظروا منه عدلا وإنصافا ، فهو بينهم الفيصل الذى لا يرتاب فى نزاهته وطهره .

حسم محمد الأمر ، ووزع الشرف بين البطون ، ومكن جميع القبائل من حمله ، فاتصلت أفراح القوم ، وانقشعت عنهم غمة الفرقة والنزاع بحسن توجيهه ويمن تصريفه .

سيدى رسول الله ! لقد كنت مثلا من أمثلة الخير ، وصورة من صور الفضائل ، فلا أتقى منك ولا أنقى ، ولا أشجع منك ولا أكرم ، فأين منك الريح المرسلة فى العطاء ، وأين منك الليوث فى الشجاعة والإقدام !. نشأت سيداً وفيا ، وجاراً مجيرا ، وقريباً رحيما ، وعزيزاً متواضعا ، ومنصفا حكيما ، لا أشرا ولا بطراً ، ولا متكبرا ولا مرائيا . فهذا عمر بن الخطاب ينتهر يهودياً أخذ بتلابيبك يطالب دينا لم تمطله فيه ، فتوجه إلى عمر قولتك الخالدة « كان عليك أن تأمرنى بحسن الأداء ، وأن تأمره بحسن الطلب » .

أحببت المساكين وقربت الفقراء ، ورغبت عن الدنيا وقد راودتك جبالها أن تكون ذهبا ، واخترت الباقية الخالدة عن الزائلة الفانية ، فقرت عيون لا تحصى من الناس باصطحابك ، وهدأت نفوس لا تعد باقترابك ، فلم تشأ أن تجفف قلبك اللين السليم بالترف والنعيم ، وإنما شئت أن تكون فى صفوف المعدمين والمعدمين ، لتشعر بأحاسيس نفوسهم وظلمات قلوبهم ، فتعمل على إنقاذهم ، وترفع من شأنهم ، بتحديد موقفهم من أغنيائهم .

جاءت شريعتك اللامعة مقررة حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وتفضل مولاك ومولانا وهو المنعم ، فجعل حق الفقير حقه ، والتزمه دينا يوفيه مضاعفا وهو المالك ، ليخفف لوعة الفقر على نفوس الفقراء ، ويختلع براثن الحقد والحسد من قلوبهم للأغنياء ، ويجعل من الدنيا دار تعاون وتحاب وسلام ، لا دار قطيعة وكراهة وخصام .

نظرت إلى المرأة ، وهى نصف المجموعة البشرية ، فوجدتها مهدرة الحقوق تعامل معاملة السوائم والمتاع ، ففككت قيدها وأطلقت أسرها ، وجعلت لها مثل ما عليها . ومكنتها من مالها ، وقبلت تصرفاتها وشهاداتها فيما يناسبها ، وسويتها بالرجل فى تكليفها وتبليغها خبر ربها ، ثم اخترت لها أن تكون مصونة من العبث بعيدة عن الابتذال ، حرصا على مكانها من المجتمع وهى أمه ، والعرف محبب والأنساب عزيزة ، تفرق بين الحيوانية الناطقة والحيوانية الناهقة .

جئت بشريعة حددت حقوق الأفراد والجماعات ، وأوضحت العلاقة بين

المتبوعين والأتباع ، كل له وكل عليه ، لا ضرر ولا ضرار ، ولا عربى ولا عجمى ، ولا مصرى ولا عراقى ، فالمسلم أخو المسلم . إن هذه أمتكم أمة واحدة ، فلا حدود مقامة بين المسلمين ، فإن أبت الحوادث الطبيعية إلا أن تفرق فصلة السماء بينهم موحدة وكلمة الله فيهم مجمعة ، إلههم واحد ، ونبيهم واحد ، ودينهم واحد ، ودستورهم كتاب الله . قرر عقيدة الدولة وقواعد تقويمها وتقويتها ، وأسس نظامها ومبادىء عمرانها وصيانتها من عبث العابثين وإثم الآثمين .

سيدى رسول الله :

يؤسفنى أن أتجاوز القرون إلى قرنك الطاهر ، فأقف بين الأولين السابقين من المهاجرين والأنصار فأريهم صورة من صور المسلمين اليوم ، وقد انحرفوا عن سنتك ، وأهملوا تعاليمك ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتحللوا من كل فضيلة ، واتبعوا كل ناعق ، وفسدت رءوسهم كما فسدت أجسامهم ، فالتفت بهم حشرات الأرض من كل جانب تنهب أرضهم وتسلب أموالهم وتفسد أخلاقهم وتصدهم عن دينهم ، لا من قلة مستضعفة ، وإنما عن كثرة مهيضة وغثاء كغثاء السيل لا غناء به ولا نفع فيه : فاللهم وسعت رحمتك كل شىء فاكتب لنا الهداية والتوفيق ، وارزقنا السداد والرشاد ، فإنك نعم المولى ونعم النصير .

الغوغاء

نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قوم يتبعون رجلا أخذ فى ريبة ، فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى كل شر !.

وقال دعبل الشاعر :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم　　الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها　　على كثير ولكن لا أرى أحدا

السوفسطائيون فى نظر العرب

نقد حملة جائرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

لأستاذنا الدكتور محمد غلاب مكانة بين مفكرى الشرق الحديث ، وله منزلته الملحوظة عند قراء العربية ، بفضل جهاده المشكور فى النهضة الفكرية الإسلامية الحديثة . ولا غرو فالدكتور غلاب عالم أزهرى واسع الأفق ، سيال العلم ، غزير الإنتاج ؛ كما أنه شرقى نزيه لم تفقده ثقافته فى أوربا إيمانه بمدنية قومه وتاريخهم . ولعله أول باحث عربى معاصر جاهر لدينا بتلك الحقيقة المغمورة إذ أثبت بالبرهان القاطع فى كتابه القيم . (الفلسفة الشرقية) : أن نوع التفكير الحر المنظم الذى سماه اليونان بالفلسفة ، لم يكن خاصة للعقل الإغريقى وحده كما زعم المغرضون من الباحثين الغربيين ومقلديهم فى الشرق ، بل إن هذا اللون من التفكير قد نبت وازدهر أولا فى حضارة الشرق القديم ، وأفاد منه اليونان أنفسهم .

ولقد تشرفت بالتلمذة على الدكتور غلاب سنة دراسية كاملة إذ كان يدرس لنا مادتى الفلسفة الشرقية والفلسفة الإغريقية . وقد بقى فى النفس شىء من بعض ما قرره عن مدى فهم العرب للنظريات والمذاهب الأغريقية . وهاك ماقاله عن السوفسطائيين فى نظر العرب وتأثيرهم فى بعض آراء المتكلمين الإسلاميين آثرنا مناقشته فيه على صفحات (مجلة الأزهر الغراء) ليكون التحقيق فيه أتم والنفع به أعم . وما زلنا على البعد تلامذة للدكتور غلاب نتلقى عليه فى الصحف وفى مصنفاته القيمة الكثيرة ، بعد أن تلقينا عليه فى مدرجات الجامعة الأزهرية .

فى الجزء الأول من كتاب الفلسفة الإغريقية عرض الأستاذ لتحقيق آراء تلك المدرسة الإغريقية التى ظهرت فى القرن الخامس قبل المسيح وسموا أنفسهم بالسوفست ، وسماهم غيرهم بالسوفسطائية ، فأثبت أنهم على اختلاف مناهجهم قد أجمعوا على حقيقة واحدة هى إنكار الحقيقة المطلقة ، وبطلان الحكم العام .
ثم قال ص ١٤٨ :

« ولقد هاجم سقراط هذا الرأى فى عنف وأثبت أن المفاهيم ليست وليدة الألفاظ وإنما هى مدركات ذهنية ثابتة لا تتغير تبعا للكلمات، وزاد أفلاطون على ذلك أنها كائنات حقيقية لها وجود ذاتى مستقل عن الأذهان وعن المحسات، وأنها وجدت قبلهما، ويسمى هذا المذهب (الحقيقة) ؛ ولما جاء أرسطو قرر أن المفاهيم الذهنية وجودات حقيقية ولكنها تظل كامنة فى المحسات الى أن تقع عليها الحواس فتنتقل صورتها الى الأذهان، وليس لها فى غير هذين الموقفين وجود. ويجب أن يسبق وجودها فى الموضع الأول وجودها فى الثانى، ويعرف هذا المذهب (بالمفهومية). وهذا المذهب الأخير هو الذى ذاع بين فلاسفة المسلمين ومتكلميهم، فحملهم على الجزم بأن كل المفاهيم الذهنية منتزعة من المحسات، وهو رأى خاطىء.

« ونحن نرى بهذه المناسبة من الحق علينا للعلم أن نعلن هنا أننا إذا عذرنا الفلاسفة فى اندفاعهم وراء أرسطو، فلا نعذر المتكلمين الذين كان من الطبيعى أن تحول بينهم وبين اعتناق هذا الرأى الخاطىء عقيدتهم بتعلق علم الله وإرادته بالكائن قبل أن تتعلق به القدرة التنجيزية، وسابقية تعلق العلم والإرادة على تعلق القدرة التنجيزية تقتضى سابقية الكائن المعنوى الذى يتعلق به العلم على الكائن المحس، وهو على عكس رأى أرسطو.

« وياليت الأمر وقف بأولئك المتكلمين عند هذا الحد، بل إن بعضهم حين أحرجه منكرو الصفات بأنها تقتضى فى ذات البارى تركبا وتكثرا، قالوا إنها لاتقتضى ذلك لأنها أمور اعتبارية ؛ ولا ريب أن القائلين بهذا قد هووا فى مذهب السوفسطائيين وهم لايشعرون، ولو كان الأمر الذى هووا فيه غير صفات البارى لهان الأمر نوعا، ولكن هذا هو الذى كان ! . على أنى لاأدرى كيف سوغ لهؤلاء القوم منطقهم أن يتعقلوا صدور هذه الحقائق الكونية عن أمور اعتبارية مع انعقاد إجماع كل العقلاء فى الشرق والغرب على أن العلة الفاعلة يجب أن تكون أحق وأقوى وأكمل من جميع متعلقاتها المتأثرة بها، كما هو منعقد على أن الحقائق الذاتية أسمى بكثير من الأمور الاعتبارية ... » اهـ.

هكذا استطرد الدكتور غلاب فى عرض المذاهب المختلفة فى حقيقة الكليات

ووجودها حتى حمل بلا حق على المتكلمين القائلين بأن وجود الكليات اعتبارى، كما تحامل على مؤرخى الثقافة العربية لعدهم السوفسطائية ثلاثة مذاهب مختلفة. وليت شعرى بأى المذاهب كان ينبغى على المتكلمين أن يأخذوا إذا كان اختيارهم لمذهب أرسطو الصحيح المطابق للواقع أمراً معيباً ومناقضاً لعقيدتهم بتعلق العلم والإرادة قديماً، كما يدعى الدكتور غلاب!.

هنالك أربعة مذاهب فى المفاهيم الكلية، وقد فصل القول فيها الدكتور بوضوح؛ فأما مذهب السوفسطائية فبديهى البطلان، وأما سقراط فلا فرق بينه وبين أرسطو فى الموضوع؛ لأنه لا يجعل للكليات وجوداً فى غير الأذهان والمحسات. لم يبق إذن سوى مذهب الحقيقية الأفلاطونية، وهو ما أوجبه الدكتور على المتكلمين ليطابق عقيدتهم بتعلق الصفات الإلهية قديماً، كما يتبين من قوله «وسابقية تعلق العلم والإرادة على تعلق القدرة التنجيزية تقتضى سابقية الكائن المعنوى الذى يتعلق به العلم على الكائن المحس... الخ.

وفى هذه العبارة التواء وغموض؛ إذ كيف اقتضى علم الله وإرادته سابقية الكائن المعنوى وحده؟ وهل لم يتعلق العلم القديم بالجزئيات المحسوسة كذلك؟.

إن تعلق العلم والإرادة قديما بكليات الممكنات لا يعد تعلقا بجزئياتها، لتجرد الأولى من المشخصات فى الثانية، ولأنهما عند أفلاطون الذى تابعه الأستاذ متغايران مغايرة الظلال للأشكال. وكأنى بالأستاذ يريد ترديد الرأى الباطل القائل بأن علم البارى سبحانه قاصر على الكليات.

ولا مراء فى أن المفاهيم الكلية لا تدخل الى الأذهان إلا بطريق استقراء الجزئيات المحسوسة وانتزاع مابها من الصفات المشتركة الثابتة لتأليف المهايا الذهنية منها، وهذه عملية يشترك فيها العقل مع الحواس وهى أصل المعارف كلها «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون».

إذن فالقول بأن كافة المفاهيم الذهنية مصدرها الجزئيات المحسوسة، وأنها فى الحس سابقة على وجودها فى الأذهان ـ قضيتان صادقتان برهانهما الواقع نفسه، ولا يرد عليها تعلق العلم والإرادة بالأشياء قديما، لأن ما فى علم الله لا يسمى

بالمفاهيم الذهنية : وإن سبق تعلق العلم والإرادة بالحوادث لا يقتضى لكلياتها وجودا سابقا ؛ لأن أثر القديم لا يلزم بالضرورة أن يكون قديما ، وإنما تعلق العلم والإرادة بالكائنات الحادثة على أنها كائنة فى مواقيت معينة ، فالظرف الزمنى جزء من سبب وجودها . وبديهى أنه لا وجود للمسببات إلا بتمام أسبابها .

لو صح جدلا أن تعلق العلم والإرادة قديما بالممكنات يقتضى وجودا سابقا لكلياتها ، فإن هذا الوجود لا يخلو إما أن يكون شرطا للتعلق أو يكون أثرا له . . لا جائز أن يكون الأول ، لأنه لو كان للزم أحد محالين : هما انتفاء علم البارى قديما بالجزئيات الحادثة لانتفاء شرط التعلق ، أو قدم تلك الجزئيات ، وكلاهما باطل بالعقل والمشاهدة . . ولا جائز أن يكون الثانى ؛ لأنه لو صح لبطل أثر القدرة التنجيزية حيث استفادت تلك المتعلقات وجودها من التعلق القديم .

أما القول بأن صفات البارى أمور اعتبارية ، فإنه الحل المستقيم لمشكلة الصفات المعقدة ؛ لأن الله سبحانه وصف نفسه فى القرآن بكثير من صفات التنزيه والكمال ؛ وبما أن القرآن كتاب عربى غير ذى عوج ، فقد وجب فهمه وتخريج نصوصه على مقتضى قوانين اللغة ، ومن قوانينها الثابتة أن الوصف بالمشتقات يفيد قيام الصفات بالذوات ، فقد ثبت أن لله صفات ، وقد اختلف فيها المتكلمون فتغالى قوم حتى لزمهم التكثر فى الذات الإلهية والقول بتعدد القدماء ، وبالغ المعتزلة فى التجريد فلم يسلم مذهبهم من النقد والعيوب . لهذا قال أهل الحق بأن الصفات أمور اعتبارية .

وأما دعوى الأستاذ أنهم بهذا وقعوا فى السفسطة وهم لا يشعرون فمردود ، لأن بين الاعتبارية عندهم والاعتبارية عند السوفسطائية فرقا كبيراً إذ اعتبارية الشىء لديهم معناها عدم زيادة الشىء على محله بوجود زائد أو منفك : مثاله صفة الوجود فى الموجود .

وأما اعتراضه بأن العلة هاهنا تكون دون المعلول فى الوجود فمردود أيضا ؛ لأن القائلين باعتبارية الصفات لا يجعلونها وحدها مصدر الممكنات وعلتها ، بل الممكنات لديهم صادرة عن الذات الموصوفة بهاتيك الصفات الاعتبارية ، والفرق بينهما كبير . قال الأمير فى حاشيته على الجوهرة عند تعريف صفة القدرة « التأثير حقيقة للذات ، وقولهم القدرة فعالة مجاز لا كفر ... » الخ .

وبعد فليست حملة الأستاذ على المتكلمين بأقل جورا من حملته على مؤرخى الثقافة العربية ، لعدهم السوفسطائية ثلاثة مذاهب مختلفة .

المحبة الخالصة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ والإرشاد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله ناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله فتخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس » .

يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل طائفة من الناس ، اجتمعت قلوبهم ، وصفت نفوسهم ، وزكت أرواحهم .

اجتمعت قلوبهم فخفقت بالحب البريء ، وصفت نفوسهم فأشرقت بالنور الساطع ، وزكت أرواحهم فسمت إلى ذروة الفضل ، وسبحت فى عالم الأملاك .

طائفة من الناس لم يرن على أفئدتهم خبث النفاق والرياء ، ولم يطمس بصائرهم الهوى الزائف ، والزيغ الآثم ، بل أحبوا مخلصين ، وتآلفوا مستبصرين ، واستمسكت روابطهم بعروة من الحق لا تنفصم ، وبسبب من العزم لا ينقطع ، وبوشائج من الطهر لم تشبها الأدناس ، ولم تلوثها الأكدار .

طائفة من الناس ليسو بأنبياء ولا شهداء ، ولكن مكانتهم عند الله ، ومنزلتهم فى البررة الأخيار يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء ، يغبطونهم فى عجب وإعجاب ، وفى تساؤل واستشراف : بم نال هؤلاء مكانتهم ، وبم أظفروا غايتهم ، وبم طابوا واستطابوا ؟ ؟

والغبطة ليست بالحسد ، فى إثمه ورجسه ، فإنه تمنى زوال نعمة الغير ، وإنه كما يقول سيدنا رسول الله « يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » ، أما الغبطة فهى أن تفرح — أيها الغابط — للنعمة يفيضها الله على المنعم عليه ، وهى دعاء وأمنية ، بأن تنال كما نال ، وتظفر كما ظفر ، وأن تظلكما نعم الله السابغة ، ففضل الله لا يحد ، وآلاؤه لا تنتهى . . .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن مكانة هـذه الطائفة عند الله وظفرهم بهذه الغاية، فاستفسر الصحابة رضوان الله عليهم، معجبين متمنين، قالوا يا رسول الله: فتخبرنا من هم، لنحذو حذوهم، ونبلغ شأوهم. فقال صلى الله عليه وسلم: «هم قوم تحابوا بروح الله، وفي جلال الله، وعلى حب الله، ليس لبريق الذهب والفضة، ولا لمتعة من عرض زائل، أو غرض ذاهب، ولا لصلة الرحم أو القرابة، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يشير الى أسباب المحبة التي تكون لغاية، من كسب مال، أو رابطة نسب أو قرابة، فإن شأنها لا يصل مهما عزت الرابطة، وقويت الأسباب، إلى هذا الأفق السامي الذي يجتمع فيه المتحابون في الله لغير غاية من قرابة أو مال. ثم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق والمصدوق، تأكيدا لبلوغهم هذه المنزلة، وإكبارا لشأن هذه الغاية، بأن وجوههم لنور، وأنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس..

أما أن وجوههم نور، فهو نور الصفاء تشرق به جباههم، وتنبسط ببريقه أساريرهم، وتفيض به معالمهم بشرا، ووضاءة، وبهاء.

وأما أنهم على نور، فلأنهم على هـدى في مسراهم ومسعاهم، ولأنهم على تبصرة في سرهم ونجواهم، ولأنهم على وضح من الحق في أعمالهم ونواياهم. وقـد روى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء».

وأما أنهم لا يخافون إذا خاف الناس، فلأنهم آمنوا الناس فأمنوا، وسالموهم فسلموا، وتولوهم بالحنو والسمو، فكانت حياتهم إحسانا، ودعاؤهم أمانا، وغايتهم سلاما، فكرمهم الناس، وأكبرهم الناس، وأحبهم الناس، ومن أحبه الناس أحبه الله. روى الإمام مالك في الموطأ بإسناده الصحيح عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتى براق الثنايا، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل، رضي الله عنه، فلما كان من الغد هـجَّرتُ (يعني بكرت) فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته

من قِبل وجهه ، فسلمت عليه ، ثم قلت : والله إنى لأحبك ! فقال : آلله ؟ (يعنى هل حبك لله) فقلت : لله . فقال آلله ؟ فقلت : لله . فأخذنى بحبوة ردائى فجبذنى إليه فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتزاورين فىّ ، والمتباذلين فىّ » .

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه أن رجلا كان عند النبى صلى الله عليه وسلم فمر رجل به فقال : يا رسول الله إنى لأحب هذا ؛ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أأعلمته ؟ قال لا ؛ قال: أعلمه . فلحقه فقال : إنى أحبك فى الله ، فقال : أحبك الله الذى أحببتنى له . . .

وبعد : فلو أن الناس صدقوا فى حبهم ، وأخلصوا فى ولائهم ، وجعلوا لله وجهتهم ، لتساموا بمكانهم من الله ، ولحفّتهم أنوار الله ، من فوقهم ومن تحتهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولكانوا موضع الغبطة حتى من الأنبياء والشهداء . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحـــرب

قيل لعنترة : صف لنا الحرب . فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

وقال ابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد : هى رحى ثفالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثفاقها الأناة ، وزمامها الحذر . ولكل شىء من هذه ثمرة ؛ فثمرة المكر الظفر ، وثمرة الصبر التأييد ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن ، وثمرة الحذر السلامة . ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

وسأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الفارس المغوار عمرو بن معد يكرب أن يصف له الحرب ، فقال : مرة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن نكل عنها تلف . ثم أنشد :

الحرب أول ما تكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها   عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت   مكروهة للشم والتقبيـــل

الاسلام والمثل العليا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

لا تجد دينا يدعو الى المُثل العليا فى الحياة كما يدعو إليها الإسلام ؛ ولا عجب فهو دين البشرية الخالد ، وعقيدة الفكر الحر المتوثب ، وخلاصة المثل الإنسانية الكريمة ، التى ترنو اليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع تيارات التفكير الحديث ، وتتجمع مع مبادئ الحضارة والمدنية ، الصافيتين من شوْب الأهواء ، وجموح الشهوات .

ولقد جاء الإسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة ، وعقائد محرفة مضللة : فبدّل ظلام الحياة ضياء ونورا ، وجَهْلَ الناس ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا هذه النظم البالية من كل نواحى الحياة ، وجاء بأصول اجتماعية إنسانية تربط الإنسان بالمجتمع والحياة ، وتسير به الى حضارة مهذبة رائعة ، وتجمع بين المادة والروح والدين والدنيا والأولى والآخرة ؛ كما دعا الى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتتمشى مع الفطر السليمة ، والإنسانية الكريمة ، والعقول والقلوب والوجدانات ، التى لم تضللها تقاليد موروثة ، أو عادات شائعة ، أو أوهام زائفة ، أو تفكيرٌ ينأى به الخطأ عن جادة المنطق السليم .

ولقد أتت الروح الإسلامية الأولى بالمعجزات : فى الاجتماع والسياسة ،

وفى الأدب والعلم والفن ، وفى التفكير والتنظيم ، وفى شتى نواحى الحياة والحضارة . ومن أولى بذلك من الإسلام ، دين الله ، وشريعة رسوله محمد صلوات الله عليه ، ودستورُه القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ؛ وأساسه الفضيلةُ والإيثارُ والحقُّ والصدقُ والخيرُ وروحُ الجماعةِ والإنسانية العالية ، والتجرُّدُ من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ما هو منكر وقبيح ؟ .

لقد سنَّ الإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة ، وتقدم المجتمع والأمة والإنسانية ، على نحو يرضاه العقل ، ويطمئن إليه القلب والوجدان ؛ فلم لا يكون مع ذلك الداعىَ إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع ؟ .

ووجَّه الإسلام الناس جميعا الى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » كما دعا الإسلام الناس الى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خير الدنيا والآخرة ، ويرشد الى أمثل ما فى الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحد ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم ؛ وعلى رسالة واحدة ، هى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . فلم لا يكون الإسلام مع ذلك كله مثلا أعلى فى العقيدة والإيمان . ؟

وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التى تفضل جنسا على جنس ؛ يقول الله عز وجل « إنما المؤمنون إخوة » ، ويقول رسوله صلوات الله عليه « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ؛ حاربها الإسلام لأنها تنادى بالتنابذ والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد ضمهم أصل واحد « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومحا الإسلام الفروق الاجتماعية الواسعة بين الطبقات ، التى كثيرا ما تستند الى الحسب أو الجاه أو المال ؛ وجعل الفقير أخا الغنى والغنى أخا الفقير ، ودعا الأغنياء الى البذل والجود والصدقة والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال فى كل حق وخير ومعروف ؛ كما دعا الفقراء الى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا بما قسم الله ، « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » ؛ وقرر أن المال فى أيدى الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ؛ وما ينفقونه من مال على الفقراء إنما هو قرض لهم عند الله يجازيهم عليه خيرا كثيرا « وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم » . فكيف لا يكون الإسلام مع ذلك دينا عاما هو المثل الأعلى فى الاجتماع والروح الإنسانية العامة ؟

والأصول الأولى فى الأسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة والزمالة الانسانية المشتركة ، وإلى الثقافة والمدنية والحضارة والرقى ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الانسانية فى الفرد والجماعات والأمم ، كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق

والعدل ، وفى سبيل خدمة المثل الانسانية العليا التى يدعو إليها الأسلام . وهو فوق ذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؛ ودين يجمع بين المادة والروح ، ومصالح الدنيا والآخرة . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تَبْغِ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحبُّ المفسدين ، ؛ إلى غير ذلك من الأهداف والمثل العليا التى يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد : فقد حَرَّر الإسلام الإنسان من الوهم والتقليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد ؛ وحرر المرأة ، فجعل لها حقها فى الحياة ، وسواها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، واعترف لها بأهليتها للتصرف والتملك وتدبير شئون المنزل والأسرة ، والمساهمة فى أعمال الخير والبر والإحسان وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لا غنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها ؛ وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب ؛ وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان المتزعمين ؛ وحرر الأمم فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والحق والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والإيثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التى تضعف من روحها وبنيانها ، وتفسد فيها نزعات الخير ، وتقف بها عن السير والنضال فى الحياة ؛ وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والأثرة ، ومن جموح الشهوات وتقديس الماديات والجنوح الى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار والإيمان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد دون تحكيم للعقل أو وزن للأمور بميزان التفكير السليم ؛ ورفع مع ذلك كله الانسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعاه الى أن يسير الى أمثل ما فى الحياة من حق وخير وسمو ، والى أن يعمل على تقدم الحياة والانسانية بأوسع معانيها .

فما أروع الإسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى ، وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها !.

ذكرى شوقى :

عجالات فى الشوقيات

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
المـــدرس بالأزهر

لى رأى فيما يجدُّ وما ينشر من شعر الشعراء ، أو أشباه الشعراء ، الأحياء .

فإذا تمخضت حياتنا عن مُوحِيَاتٍ للقرائح ، ومُنْجِبَاتٍ لِبَنَاتِ الشعر ، ونظرت فى نتاج الناظمين من (المعاصرين) رجعت لرأيى الذى أعلنته غير مرة : وهو أننا دَفَنَّا القوافى بعد (شوقى) ! فهل يا ترى سَنَذكُرُه ؟؟!

ومن حق هذا العبقرى على من يقدرون فنه حق قدره ، أن يجعلوا من ذكراه قلائد تباهى حسان الذكريات ، ويصنعوا فرائد ترصع على جبين أيامنا المشرقات .

ونحن إذ نجلى بدع (شوقى) وملهماته ، لا نستطيع إلا أن نقتبس بعض مفاتن القريحة ، وتحليقات النبوغ ، وسحر الصناعة ، وسمو المعنى ، ودقة الحكمة ، وجلال التاريخ ، وتقديس الجمال ، مما (فى الشوقيات) .

وإنها لمفخرة (مصر) ومعجزة الشعر فى (الشرق) . ومن الوفاء أن نصدق الرأى فيمن لا يكذب الأفصاح ، وأن نفى لشخصية براها الله صانعة (بيان) وصاغها صنيعة حسن وإحسان :

ولا أكذب البارى بنى الله هيكلى
صنيعة إحسانٍ ورق حِسَانِ

أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى وأعنو إذا اقتاد الجميل عنانى

وما خلفه من مصفى القريض ، ومنخول القصيد ، وبليغ النشيد ، خليق بما قلده بيته :

فلا حكمى دعوى ولا منطقى هوى ولا مبدئى لؤم ولا قلبى وَغْد

وأفصح ما يفصح عن ذلك العبقرى ، ويكشف عن صفاء نفسه ، وإحكام يَرَاعته ، وإتقان بَرَاعته - ما جرى بين قوافيه فى رثاء (جَدَّته) .

وأحكم من تحكم فى يراع وأبلغ من تبلغ من داوة

وابرأ من تبرأ من عداء وأنزه من تنزه من شمات

وأصْوَن صائن لأخيه عِرْضاً وأحفظ حافظ عهد اللدات

وأمثل قائل للدهر خيراً وأصبر صابر للغاشيات

وعاطفة شوقى هى التى ساعدته على صدق الوفاء ، ورقة شوقى هى التى جودت وخلدت (شوقيات) الرثاء .

يأيها الدمع الوفى بَدار نقضى حقوق الرفقة الأخيار

أنا إن أهتتك فى ثراهم فالهوى والعهد أن يُبْكَوا بدمع جار

عطفا عليهم بالبكاء وبالأسى فتعهد الموتى من الإيثار

وبذلك وأمثاله سيظل شعره ، وسنبقى ما تخلف الشعراء عن (شوقى) نلوذ بالشوقيات ، ونقطف من رياحينها ، إن مسنا طائف السراء ، أو لفحنا هجير الضراء .

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكان العزاء فى أحزانه

واحتفاؤه بالمعانى الإنسانية وتصويره للأمانى الوطنية ، لا ينسينى تفرده وابتكاره وتقديسه للمعالم التاريخية : فرعونية ، وشرقية ، وعربية ، وإسلامية . ناهيك بالآثار العالمية .

وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يصن مجده فقد صان عرضا

وهو السباق الذى لا يضارع ، والوصاف الذى لا يشق له غبار ، ومن يمار فعليه أن يسمعه وهو يناجى (الهرم) أو يخاطب (أبا الهول) أو يقف معه على القصور الغرقى « ممسكا بعضها من الذعر بعضا » .

من لى بمن يعرف البيان المصور ، والأنين المتصَّـد ، والسحر المقفى ، والخَلق المنظوم ، والنغم المنضود ؟ من لى . . . !

ومن يطلب إجادة بعد إجادة شوقى حين يقول على أطلال المجادة الدارسة :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا

ويقول فيها وفى استعصائها على البلى ، واستعلاء نقشها على توهين الأزمان :

شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا

إنه شوقى الذى صنع الخلود لما ضرب به المثل فى الخلود. لقد عرف حق (التاريخ) على من يعتز بالتاريخ ، وآمن بأن الأمم لا تحيا على هباء من الماضى ، ولكنها تعيش على الطارف والتالد ، فاجلَّ الذاهب ، وقدس الحاضر .

هـذا المقام عرفته وسبقت فيه القائلين
ووقفت فى آثاركم أزن الجلال وأستبين

وجمال الآثار تزاوَج مع جمال اللغة ، ولفهما إيمان (شوقى) بسر (الضاد) ، وتدلهه بدقائقها وإدراك خصائصها ، وتمرسه واقتناصه لشواردها .

فجاء (شعر شوقى) خاليا من الضعف الذى منى به متخلفو (التجديد) ، مشغلة القاعدين عن التحصيل والتسديد .

وليتهم ساروا على رسيم (شوقى) ولم يلههم زيف المحاسن المجلوبة ! . ليتهم تكاثروا وتهالكوا على مائدة الجمال التى كانت — ولا تزال — مراداً للأول والآخر :

إنها مائدة الضاد .

إن الذى ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد

وما ينبغى لأحد أن ينكر على القلم إطلاق العنان فى الإشادة بشوقى وفنه الشاعرى ، لأنه أعطى موهبة ساقته وتساوقت مع مفاتيح السر . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

ونحن كلما طالعتنا ذكراه تسائلنا مصر ومعها الشرق، وتلفت البلاغة، وتطالبنا الأحداث : أين شوقى وهذا مكانه لما يزل شاغرا ؟!

ويجدُّ بنا الشوق الى الجواب ، وتتركنا تسائلنا فاذا كل مافيها رخاوة وهزال بما يشبه الهراء، وإذا الذى بيننا وبين المبالغ فى التسآل تحية معتذرة ورجعة الى (كرمة ابن هانى) ، وتخنقنا على ضفاف النيل عبرات لاتجففها إلا صفحات الشوقيات من الدواوين والمسرحيات ، وأما اللغة العربية وشاعرها وسميرها وسامرها فلعلها إن سألت عنه حرية فى يوم ذكراه أنْ تتلق اصداء فى طيِّها ما قاله (شوقى) يرثى به صديقا كان يسهر على إشاعة البشر فى حياته ، والإيناس فى وحشاته ، وإنه لنجيه فى غدواته وروحاته :

تسائلنى كرمتى بالنهار	وبالليل أين سميرى (حسن)
وأين النـديم الشهى الحديث	وأين الطروب اللطيف الأذن
نجى البـلابل فى عشها	وملهمها صنعة فى الفن
فقلت لها : مات واستشعرت	ليالى السرور عليه الحزن
وما هـو ميت ولكنه	بشاشة دهر محاها الزمن

الأخوان

قال الأحنف بن قيس : خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك فى المودة ، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها ، وإن كوثرت عضدك ، وإن استرفدت رفدك . وأنشد :

أخوك الذى إن تدعه لملمة	يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

ولما صارت الخلافة إلى المنصور كتب إليه رجل من إخوانه كتابا فيه هذه الأبيات :

إنا بطانتك الألى	كنا نكابد ما تكابد
ونرى فنعرف بالعـدا	وة والبعاد لمن تباعد
ونبيت من شفق عليـك	ربيئة والليل هاجد

فوقع أبو جعفر على الكتاب : صدقت ، ودعا به فألحقه بإخوانه .

الإيمـــان

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الأدب والصحافة

ليس الإيمان مقتصراً على دين دون دين ، أو على جنس دون جنس ، ولكنه شعور يشعر به الفرد أيا كان دينه أو جنسه أو وطنه . وإن الكتب العربية لتزخر بوصف مشاهد الخشوع وقصص الإيمان ، وإنا لنرى الكتّاب يقصون علينا تلك الأنباء ، أو يخطون إحساساتهم العامرة بالإيمان ، فى أسلوب قوى بليغ يشع إيمانا ، ويذوب وجدانا . وما أبلغ البوصيرى فى بردته ، وهو الذى لم يشتهر إلا بها ، ولم يكن شعره فى غيرها من عيون القصائد . وقد وقعت فى قراءتى فى كتاب « فى خطى المسيح » من تأليف ه . ف . مورتون ؛ على وصف لحاج بلغارى يزور بيت المقدس ، رأيت أن أنقله إلى العربية . ولعل من نوافل القول أن أقول إن مورتون ليس من كتاب الإنجليز الممتازين ، فان نقدتهم يرون فيه كاتبا عاديا ، كغيره من مئات الكتاب ، ولكنه فى كتابه ـ الذى ننقل عنه ـ يمتاز بروحانية التعبير وحسن الأداء ، فهو يصف رحلة قام بها إلى بيت المقدس لزور الأراضى المقدسة ، والأمر إن اقتصر على الوصف ، كان هينا ، ولكنه يبث خلال السطور مشاعره ، ويبين عن إحساساته ووجدانه ، ويرجع بذاكرته القهقرى ، قروناً وقروناً ، يذكر أو يتذكر الحوادث حين وقوعها ، فيعطينا صورة حية لعصر فذ من عصور التاريخ .

أراد الكاتب أن يدخل الهيكل المقدس حيث يوجد « قبر » المسيح . وقبر المسيح : حجرة ضيقة مرمرية ، طولها ستة أقدام ونصف ، وعرضها ستة أقدام ، لا يستطيع أكثر من شخصين أو ثلاثة أن يقفوا فيها معا ، وفى شطرها الأيمن

لوح من المرمر الأبيض يغطى الصخرة التى وضع عليها المسيح بعد « صلبه » (فيما يزعمون) .

رأى مورتون حاجا يسجد داخل « القبر » فانتظر حتى ينتهى من صلاته ليدخل اليه بدوره .

وطال انتظارى ونفد صبرى ، فأحنيت قامتى ونظرت خلال الباب المنخفض فرأيت أن الشخص الساجد إنما هو شيخ ، بلغ من العمر عتيا ، منحنى الظهر ، مهلهل الثياب ، ينتعل نعلا ضخما من اللباد . كان حاجا بلغاريا أتى فى سفينة حجاج ولربما كان يدخر حياته كلها لهذه اللحظة .

كان يسجد أمام « القبر » الرخامى ويقبله مرارا ، تتساقط من عينيه الدموع غزيرة ، فتنساب خلال تجاعيد وجهه متساقطة على الحجر ، وكانت يداه الخشنتان الكبيرتان ، وأظافره الغليظة السوداء ، من أثر عمل مكد شاق ، تلمس الرخام برفق وخشوع ، وفى عاطفة جياشة رقيقة ؛ ثم لا يلبث أن يستأنف صلاته .

وأخذ يبتهل الى الله بصوت مرتفع مرتجف ، وأنا أنظر إليه غير مستطيع فهم ما يقول . وأخرج من جيب سترته بضع وريقات متسخة وشريطا من القماش ، مسح بها جميعا « القبر » ثم عاد فأودعها جيبه .

وظننت أنى قد أجد مكانا لى بجانبه ، فأحنيت رأسى ودخلت الهيكل ، فملأنا ثلاثتنا ـ الراهب الإغريقى ، والفلاح الساجد ، وأنا ـ المكان الضيق . وكان بمكنتنا أن نظل ـ رغم ضيق المكان ـ فى راحة ودعة ، لو بقى الفلاح ساجدا ، ولكن لعل دخولى قد أزعجه ، فنهض وما زالت دموعه تتساقط ، وهمس فى أذنى ببعض الكلمات . ووقفنا ـ ثلاثتنا ـ وقد تلاصقت صدورنا ، وتلاقت أبصارنا ، وأيقنت أنى أرى فى عينى هذا الفلاح سعادة حقة .

لقد حقق حلم الحياة ، ولم أكن قد رأيت سعادة مثل سعادته من قبل ، لم أكن قد رأيت السلام والرضا مجسمين على وجه ، كما كانا على وجهه ، ووددت لو دفعت

الحياة وما أملك ، ثمنا لحديث أبادله إياه ، ولكننا ظللنا هكذا وقوفا فى « قبر » المسيح ، يهمس - هو - فى أذنى بحديث لا أفقه منه شيئاً ، ولا أستطيع إلا أن أهز له رأسى نفيا .

ولعله يئس من محادثتى ، فتحول عنى الى الراهب الإغريقى وهمس له بنفس الكلمات ، ولكن الراهب ، لم يفهم قوله قط ، فهز رأسه - أيضاً - نفياً . وعلا الضيق محيا الشيخ العجوز ورفع صوته قليلا ، ونظر إلى الدرج الرخامى نظرة سريعة ، ما لبث أن خفضها ، ثم أشار الى جبهته والى المصابيح المعلقة فوق « قبر المسيح » . وهنا فهم الراهب ما يريد ، فأومأ إيجابا ، وخفض مصباحا ، وأخذ قطعة من القطن فبللها بزيت المصباح ثم مسح بها وجه الفلاح .

وخر الشيخ العجوز راكعا على ركبتيه محولا وجهه نحو « القبر » ، غير راغب فى مبارحة المكان ، خاشعا من أثر الإيمان ، تتحسس يداه الخشنتان الكبيرتان « القبر » المرمرى ، كأنما تمسحان على شعر طفل بحنان .

وجلست حينا على مقعد حجرى ، مواجها الباب المنخفض المؤدى الى القبر ، وعاهدت الله - بينى وبين نفسى - أن أجلس هنا طيلة إقامتى فى بيت المقدس . كان الجمع الذى حولى ساكناً ، يصعد الزفرات ، ويسجد فى خشوع ، أو يقف على أطراف أصابعه فى ضوء الكنيسة الخافت ، يتحدث فيما بينه همسا ، أو يسبح الله على حبات المسابح .

وهنا تذكرت وصف « مايتلد سراد » الرائع لهذا الجمع إذ تقول :

« كانوا يقفون كالأشباح ، لا ينظرون يمينا ولا يلتفتون شمالا ، مستغرقين فى صلواتهم ، تائهين بين تأملاتهم ، غائبين فى ذكرياتهم الحزينة ، كأنما قد غاب عنهم كل شىء ، إلا الرغبة الملحة فى أن يدعوا الله ، فى قدس الأقداس هذا ، راجين العفو ، طالبين المغفرة ممن وسعت رحمته كل شىء . وإن أفكار المتعبد المتهجد ، فى هذا الضوء الخافت ، وفى هذا المكان الساكن ، لتضمحل وتتضاءل إزاء هذا الشعور الروحى ، وهذا القلق المتسامى ، حتى لتفنى الشخصية الفردية ، وتبدو جميع الماديات كأنما هى أشباح غير حقيقية » .

في قصر الرشـــــيد

سيرته في ندمائه

لحضرة الأستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

كان الرشيد لايصبر عن مصاحبة ابن أبى مريم المدنى، ولا يمل محادثته؛ لأدبه وطرائفه، ومعرفته أخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف، ومكايد المجّان، وخفة الروح، وسرعة الخاطر؛ لذلك بوأه الرشـيد مكانا فى قصره، وخلطه ببطانته ومواليه، واتخذه نديماً خاصاً له.

ففى ذات ليلة دخل الرشـيد غرفة ابن أبى مريم وقت الفجر، فوجده يغط فى نومه، فكشف عنـه غطاءه وقال له كيف أصبحت؟ فاستيقظ ابن أبى مريم قليلا وهو يظن أن مكلمه أحـد حراس أمير المؤمنين، فأجابه من غير روية: ماأصبحت بعد، اذهب ياهذا إلى عملك!. فقال له الرشيد: ويلك قم إلى الصلاة!. فأجابه ابن أبى مريم من تحت الغطاء: هذا وقت صلاة أبى الجارود [1] وأنا من أصحاب أبى يوسف. فتركه الرشيد وأرسل اليه أحد الخدم ليوقظه، فقال له: أمير المؤمنين قد قام الى الصلاة فقم. فقام ابن أبى مريم وتوضأ ودخل إلى المصلى فإذا الرشيد يقرأ فى صلاته آية: «ومالى لاأعبد الذى فطرنى»، ثم أمسك عن بقية الآية. فلاحظ عليه ابن أبى مريم بقوله: لاأدرى والله!. ففطن لها الرشيد فضحك وخرج من صلاته، والتفت إلى ابن أبى مريم وقال له محذراً: فى الصلاة أيضا؟! فأجابه ابن أبى مريم مغالطا على سبيل المزاح: ياهذا وما صنعتُ؟. فأجابه الرشيد: قطعت على صلاتى وأضحكتنى. فقال له ابن أبى مريم معتذراً: والله ماقصدت، وإنما سمعت منك كلاما غمنى حين قلت: ومالى لا أعبد الذى فطرنى، ثم أمسكت فقلت: لا أدرى والله، ما لك لا تعبد الذى فطرك!

---

(١) أبو الجارود: أحد رجال الشيعة.

فضحك الرشيد وقال له منـذراً ومؤدبا : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما ! .

ولما طلعت الغزالة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وألحف الجو الضياء ، وغنت الأطيار ؛ أرسل الرشيد فى طلب اسحاق الموصلى فأحضر ، فقال له الرشيد : غننا يا إسحاق :

أعاذل قد نهيت فما انتهيت وقد طال العتاب فما ارعويت

الخ الأبيات .

فغنى إسحاق وأطنب وأجاد ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فطرب الرشيد واستعاد الغناء ، فغاظ ذلك ابراهيم المهدى وكان حاضرا ، فقال لاسحاق : ماأصبت ياإسحاق ولا أحسنت ! . فأجابه إسحاق على الفور بقوله : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه ، وإن شئت فغنه أنت ، فإن لم أجدك أنك تخطىء فيه منـذ ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال .. ثم وجه كلامه إلى الرشيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك وأوطأتنا بساطك ، فإذا نازعنا فيها أحد بلا علم ، لم نجد بداً من الإيضاح . فقال الرشيد له مطيبا خاطره : لا لوم عليك يا إسحاق . ثم قام من المجلس كأنه قام لحاجة فى نفسه .

فانتهز هذه الفرصـة ابراهيم المهدى والتفت إلى إسحاق مخاطبا ومعنفا : ويلك ياإسحاق ، أتجترىء على فى حضرة أخى ، وتقول ما تقول يا . . .

فأجابه إسحاق مغاضبا : أنت تشتمنى ولا أقدر على إجابتك ، وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة .

وبينما هما على هذه الحال ، وإذا بالرشيد يعود إلى المجلس على أثر هذه المشادة الخطيرة . . فتقدم إبراهيم المهدى ، وجلس بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين شتمنى إسحاق ، واستخف بى ! .

فغضب الرشيد ونظر إلى إسحاق ، وقال له : ويلك يا إسحاق ، ما تقول ؟ ! .

فأجاب إسحاق خائفاً : لا أعلم ، وسل من حضر يا مولاى .

فتقدم مسرور وقص عليه كل ما حدث .

فالتفت الرشيد إلى ابراهيم وقال له : لا ذنب على إسحاق ، شتمته فعرفك أنه لا يقدر على جوابك . ارجع إلى مكانك وأعرض عن هذا حتى أنظر فى أمر إسحاق . ثم التفت اليه وقال له يا إسحاق : ويلك لا تعد لمثل هذا ! أترى لو ضربك ابراهيم أكنت أضربه وهو أخى يا جاهل ؟ أتراه لو أمر غلمانه فقتلوك أكنت أقتله بك ؟

فأجاب اسحاق وقد أوجس فى نفسه خيفة : والله يا أمير المؤمنين قتلتنى بهذا الكلام ، وإن بلغه ليقتلنى ، وما أشك فى أنه بلغه الآن !.

فرق الرشيد وعطف على إسحاق ، فأراد أن يدرك الأمر وأن يعالجه بالحسنى قبل خطورته ، فقال لاسحاق : إلى منزلك حتى أدعوك بعد . وبعث فى طلب ابراهيم المهدى ، فأحضر ، فابتدره الرشيد بقوله : أتستخف بخادمى وصنيعتى ، وابن صنيعتى وخادمى ، وصنيعة أبى ، وتقدم علىّ وتستخف بمجلسى وحضرتى هاه ! هاه ! وأنت مالك وللغناء . وما يدريك ما هو؟ ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذى غذى به وعلمه وهو فى صناعته ؟ ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه ! ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة بالخطأ والرد القبيح والتكذيب . والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فأنا برىء من المهدى ، إن أصابه أحد بمكروه ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو وقع عن دابته ، أو سقطت عليه سقيفة أو باب فجأة ، لأقتلنك به . والله والله وأنت أعلم ، قم الآن فاخرج ولا تعرض له !.

ولما كان الغد أو بعده بعث الرشيد فى طلب إسحاق ثم ابراهيم فأحضرا ، فأخذ الرشيد يمهد للصلح بينهما ، فصار ينظر إلى ابراهيم ويبتسم ، ثم ينظر إلى اسحاق ويبتسم ، ثم التفت إلى ابراهيم وقال له : إنى لأعلم محبتك لإسحاق ، وميلك اليه ، وإلى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يجىء من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحسن اليه وأكرمه ، واعرف له حقه وصله .

ثم التفت الرشيد إلى إسحاق وقال له : قم الآن إلى مولاك وابن مولاك فقبل رأسه . فامتثل إسحاق وقبل رأس إبراهيم !.

شهادة الأيام فى قضية الإمام

هذا عنوان كراسة مطبوعة تبلغ صفحاتها ثمانية وأربعين صفحة تحتوى على كلمة لصاحبها الشاعر النابه البليغ مرسى شاكر أفندى الطنطاوى ، تليها قصيدة يبلغ عدد أبياتها نحو ثلاثمائة بيت بل تزيد ، وتنتهى ببضع صفحات قيمة تبحث فى سيرة الإمام علىّ عليه السلام والحوادث التى طرأت فى أيامه ، لحضرة الوجيه ميرزا مشكى بك رفيع مشكى .

أما القصيدة فهى كما يدل عليه عنوانها « شهادة الأيام فى قضية الإمام » لم تدع صغيرة ولا كبيرة من سيرته وشمائله رضى الله عنه إلا أتت بها شعراً فى ألفاظ مختارة ، وصياغة معجبة ، وسبك بديع ، وعرض للحوادث الخطيرة ، فى نظام متسق . فهذه القصيدة قطعة من الأدب العصرى الذى يجب أن ينشر ، ويجب أن يدخر ويقرأ .

حجة المنبر

إن سيادة حسن القاياتى من أنجب المشتغلين باللغة من المعاصرين ، وهو عضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، اشتغل بالأدب على عرق ، فبلغ فيه شأواً بعيداً . وقد أهدانا برسالة مما كتبه أخيراً تحت عنوان (حجة المنبر) نحا فيها نحواً طريفاً فى الوعظ والإرشاد ، والنعى على البدع والمبتدعين ، وأنحى بقوة على اللاهين والمتمردين ، فى عبارات تلفت الذهن للفهم ، وتوقظ النفس للاتعاظ . ليست جارية على سنن الخطباء المنبريين ، ولكنها أفعل فى لفت الأنظار ، وإيقاظ القلوب ، مما اعتاد الناس أن يسمعوه فى كل جمعة حتى حفظوه . وإنا لآتون للقارىء بقطع منها ، إدلالا على باقيها ؛ قال سيادته :

أما بعد : فأين يذهب بكم أيها المسلمون عن الدين ، وسنة الهادين ؟ وكيف أنستم إلى مقتل الفضيلة ، وسطوة الرذيلة ؟ وتألفكم ضن الزمان بالإحسان ، وقعدت بكم جفوة الآمل ، عن العمل .

« أين لا أين ؟ من يتق الله حق تقاته ؟ ويعمل لمرضاته ؟ وأين من يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ؟ « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ، والزكاة مرحمة وقوتا . أين الصائمون ينعمون بين شدة للصوم وضيق ؟ والحجاج المطهرون يأتون من كل فج عميق ؟ بمثل هؤلاء يقام الدين ، ويكبر اليقين » .

كتاب النفس لارسطوطاليس

إن كتاب النفس للفيلسوف الأشهر أرسطو الملقب بأمير الشعراء بقى مرجع جميع الفلاسفة فى هذا العلم إلى القرن التاسع عشر ، وهو فى الوقت نفسه أعظم كتب أرسطو قيمة . وهو يشمل ثلاث مقالات : الأولى سرد فيها أرسطو مذاهب القدامى من الفلاسفة الذين سبقوه ، والثانية فى تعريف النفس على حسب مذهبه ، والثالثة فى الحس المشترك والتخيل والتفكير والنزوع

ولم يقتصر أرسطو على كتابه هذا ، فكتب فى مواطن أخرى من مؤلفاته ما عنّ له من الأمور المتعلقة بعلم النفس . وهو يعتبر دراسة النفس جزءا من العلم الطبيعى ، لأن النفس ، كما قال : مبدأ الكائن الحى .

وعلى هذا فإن ترجمة هذا الكتاب ونشره يعتبر من الأعمال التى تخدم بها دراسة الفلسفة أجل خدمة .

نقول هذا وبين يدينا ترجمة جليلة القدر ، منقطعة النظير لهذا الكتاب الشهير قام بها الأستاذ الجليل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى المدرس بالجامعة المصرية اعتمد فيه على (تريكو) الفرنسية ، ونظر الى جانبها فى ترجمة (هكس) . وقد رأى إتماما للفائدة أن يكاشف صديقه الأب قنواتى لمراجعة الأصل اليونانى لأنه ملم بهذه اللغة ؛ فكانا يجتمعان للمراجعة والمقابلة حتى أصلحا الترجمة ، وأصبحت أقرب الى الصحة . فجاءت هذه الترجمة بعد ما بذلت لها هذه العناية العظيمة جديرة بكتاب يعتبر أكبر مرجع لعلم النفس فى الفلسفة القديمة . ومن الجزاء الحسن لحضرة الأستاذ الدكتور الأهوانى أن يوفق الى ترجمته ليكون مكافأة له على ما بذله من العناية الفائقة بترجمة سواه من الكتب النافعة ، وإنفاق أوقاته فى تمحيصها وتهذيبها .

ولسنا بحاجة لأن نقول إن الكتاب مطبوع طبعة أنيقة على ورق غاية فى الجودة ، وقد وضع فى ذيله معجما للمصطلحات الواردة فى كتاب أرسطو بأربع لغات : الفرنسية والإنجليزية واليونانية والعربية .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر

فى احتفال الأزهر بالذكرى المئوية

لساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير

نحمد الله ونستهديه ، ونسأله التوفيق فى القول والعمل . ونصلى ونسلم على سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن « محمد على » الكبير — نضر الله وجهه ، وطيب ثراه ، وأحيا ذكراه — قيضه الله لمصر فى ظروف كانت أحوج ما تكون فيها الى عامل ينتشلها من وهدتها ، ويقيلها من عثرتها ، ويقضى على ما نشب بين أمرائها وأبنائها من خلافات وفتن أضاعت هيبة البلاد ، وقضت على ثروتها . فكان مقدمه الى مصر طالع سعد ويمن أفادت منه مصر الخير والبركات ؛ فعز سلطانها ، وقويت شوكتها ، وارتفع ذكرها ، وذاع صوتها ، وعلا نجمها ، وكثرت أموالها ، وانتظمت أحوالها ، حتى أصبحت قوية البنيان ، عظيمة السلطان ، مرهوبة الجانب .

كان محمد على عبقريا فذًا ، هيأته العناية الإلهية لحمل رسالة الإصلاح ، وتحقيق الخير للإنسانية .

نشأ — رحمه الله — فى « قوله » نشأة إسلامية ، فاعتمد على نفسه ، وجاهد الحياة وجاهدته فى جلد وصبر ، وميزته صفاته الإنسانية ، وشجاعته النادرة ، وقوة جنانه ، فبرز من بين صفوف لداته ، واسترعى الأنظار بتقواه ، وشدة مراسه واعتداله ، وانتظم فى سلك الجندية ؛ فأهله احتماله للشدائد ، وحبه المغامرة للرقى السريع ؛

وتوسم الناس فيه الخير والنجابة، وتنبأوا له بمستقبل زاهر؛ ولكنه - على ما انطوت عليه جوانحه من طموح - ما كان ليتطلع الى أفق الملك فى مصر كنانة الله فى أرضه؛ فذلك أمر خبأته العناية فى لوح الغيب لتكشف عنه فى وقت عينته. ولم تكن مصر تعرف محمد على، ولا دار بخلدها - وهى تقاسى مرارة الاستعباد، وذل الاضطهاد - أن الله قد أراد بها خيراً؛ فربط مصيرها بمصير ذلك البطل الذى اختصته عناية الله بالمجد والسؤدد، وجعل خلاصها وعزها على يديه.

ولم تطل بمصر فترة الانتظار؛ فقد كشفت الأقدار عن سرها، وأبى الله إلا أن يجمع فتى «قولة» الطموح بمصر المتعطشة إلى الحرية ليحقق مشيئته، ويتم نعمته على مصر ومحمد على.

وفى الحق كانت مصر الموطن الصالح لنماء آماله، والمنبت الطيب لترعرع أمانيه، واختار الله لمقدمه فرصة خليقة بالبطولة فى ميدان خليق بالأبطال. ذلك أن جيشا فرنسيا يقوده «الجنرال بونابرت»، نزل بأرض مصر فى صيف سنة ١٧٩٨، وصممت الدولة العثمانية — التى كانت تخضع مصر لسيادتها — على إجلاء الفرنسيين عن أرضها، فاستنفرت قواتها من جميع البلاد لرد هذا العدوان؛ فكان أن ساق الله محمد على إلى مصر ضمن الحملة الألبانية التى لبت داعى السلطان لإخراج المعتدين منها.

فى وسط هذا الجو المضطرب المكفهر، وصل - طيب الله ثراه - إلى مصر، التى شاءت إرادة الله أن تعتز به ويعتز بها، فوجدها نهباً للحزازات والمطامع الشخصية، تتقسمها الأغراض، ويكيد فيها المماليك للشعب، وتتطاحن فيها قوى مختلفة النزعات للفوز بالسيطرة والسلطان؛ فعز عليه أن يرى هذا البلد الطيب الأمين تتفرق وحدته، وتضيع صولته، وينهار بنيانه، فى إحن لا جدوى من ورائها إلا التمكين للمستعمرين؛ فعمل بثاقب فكره، ونافذ بصيرته، على أن يخلص البلاد من هذا الذل والعار، ويوجهها وجهة صالحة تنفعها وتنفعه. وما كادت مصر تخلص من الفرنسيين حتى شمر عن ساعد الجد، وقرر أن يضرب على يد الفتنة بالقضاء على الأحزاب المتنافرة ليعيد للبلاد طمأنينتها وللشعب حريته، ورأى أن يلتزم الجادة فى سياسته، وأن تقوم معاملته للشعب على أساس العدل والإنصاف، وأن يدفع الحوادث من بعيد، ويترقب النتائج فى حذر وتأهب؛

ومكن الله له فى مصر ، فأحبه الشعب لما رأى فيه من عدل ونصفة ، ودفاع عن حقوقه ؛ وزادته الحوادث المتتابعة قربا من الشعب ، كما زادت إيمان الشعب به وبقدرته على حل ما يستعصى من الأمور .

وكان علماء الأزهر هم أهل الرأى والمشورة فى البلاد ؛ إليهم يرجع الشعب كلما حزبه أمر ، أو وقعت به مظلمة . وكان العلماء عند حسن الظن بهم ، يتولون عن الشعب إبلاغ مظالمهم للوالى ، ويتوسطون لديه فى رفع مايرونه من حيف وقع بالبلاد .

عرف محمد على منزلة العلماء من الشعب ، فعقد معهم أواصر الصداقة والمودة ؛ وكان يرجع إليهم فى كل الأمور ليستشيرهم ويشير عليهم ، حتى عظمت مكانته فى نفوسهم ، ورأوا فيه مخلصهم مما هم فيه ، فعقدوا النية على أن يولوه على مصر ليخلصهم من هذه المحن والشدائد التى ما فتئت تنصب على البلاد ، وفاتحوه فى الأمر ، فكان ينصح لهم بالصبر ، ويستمهلهم عسى الله أن يأتى بالفرج ؛ ولكن الأمور كانت تنتقل من خطر إلى خطر .

وما كاد يذاع أن ولاية «جدة» قد عقدت لمحمد على ، وأنه على أهبة الرحيل من مصر ، حتى نفد صبر البلاد ، وتجمهر الناس معلنين سخطهم على الوالى ومطالبين بعزله وتولية محمد على بدله ، واجتمع العلماء وعلى رأسهم شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم وأعلنوا عزل الوالى ، وتوجهوا بجموعهم إلى قصر محمد على ، وبايعوه بالولاية ، لما توسموه فيه من العدالة والخير . فامتنع أولاً ثم رضى . فأحضروا له كركا وعليه قفطان ، وقام إليه شيخ الإسلام ، الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر مكرم ، وألبساه إياه ، ونادوا به فى المدينة والياً عليهم ، ولم يلبث الباب العالى أن نزل عند مشيئة علماء مصر وشعبها ، فوجه ولاية مصر إليه .

وهكذا أراد الله الخير لمصر على يد الأزهر وعلمائه ؛ فوجه قلوبهم لمحبة هذا المصلح الكبير ، حتى تمت النعمة الكبرى بولايته ، وكان لهم على الزمن فخر المشاركة فيما نالت مصر بفضل هذا العاهل العظيم من حضارة وعمران .

ومن حق الأزهر اليوم فى هذه الذكرى المئوية الخالدة أن يكون له شرف التنويه بمآثره . فقد عرفه الأزهر عن قرب ، واتصلت حياته بحياة علمائه الأجلاء ، وكان الأزهر وعلماؤه عونا له على تحقيق أهدافه السامية .

لم يكتف علماء الأزهر بما حققوه لبلادهم من خير باختياره والياً عليهم ؛ بل آزروه وأيدوه ونصروه، وظلوا على الولاء له حتى مكن الله له من ملك مصر .

وحين كاد له الكائدون لدى الباب العالى، وعملوا على عزله، وقف العلماء الى جانبه، واستنفروا الشعب لنصرته، وكتبوا للباب العالى وثيقتهم المشهورة يستمسكون فيها بولايته، ويعددون مآثره - قالوا : « إن محمد على باشا كافل الإقليم، وحافظ ثغوره، ومؤمّن سبله، وقاطع المعتدين؛ وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدالته، والشريعة مقامة فى أيامه، ولا يرتضون خلافه، لما رأوا فيه من عدم الظلم، والرفق بالضعفاء، وأهل القرى والأرياف . . . » .

وكان أن نزل الباب العالى عند رأيهم، فجدد ولايته، لما يتمتع به من رضى الشعب والعلماء .

وثبت العلماء على ولائهم وتعضيدهم له فى كل محنة تعرضت لها البلاد، حتى صفا له الملك، ودحر خصومه، وهزم أعداءه .

ولما انتهى له أمر مصر، وصفا له الجو، أخذ البلاد بسياسة رشيدة؛ فانتهج فى الحكم مناهج جديدة حقق بها رجاء الناس فيه، وصان أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ونهض بالبلاد نهضة ترتفع بها إلى درجات الكمال، وتبلغها شأواً من الحضارة تنافس به أمم الأرض عزة وجاها ومنعة .

ولم يأخذ محمد على نفسه فى الإصلاح بهوادة، بل تعجل الخير وسارع فى العمل، ولم يأل فى سبيل تحقيق أهدافه جهداً ولا بذلا . وكان يؤمن بنفسه وبقوته، واثقاً دائما بأن الله قد جعل التوفيق حليفه فى كل أحواله . ومما يؤثر عنه قوله « لا تعجبوا إن رأيتمونى أحياناً عجولا ؛ فقد كنت فى حياتى كلها موفقا ميمون النقيبة . لا بد أنى ولدت والطالع سعيد والنجم مبتسم، ثم لم تفارقنى بعد سعادة الطالع وابتسامة النجم » .

آمن بأن البلاد لن تنهض النهضة المرجوة لها إلا إذا جمعت بين القوة والخلق والعلم والمال؛ ولذلك أخذ نفسه بالعمل على إنشاء جيش وطنى قوى مدرب مزود

بكل مايلزمه من عـدة وعتاد ، وعلى بناء أسطول بحرى عظيم يحفظ لمصر هيبتها فى البحر ويؤمـّن تجارتها .

وعمل على أن يكون اعتماد الجيش والأسطول فى تموينهما وعتادهما على ما تقدمه لهما مصانع البلاد ؛ فتوسع فى إنشاء المصانع ، وجلب لها الخبراء ليعلموا أبناء الوطن الصناعات المختلفة ، ويدربوهم على دقة الإنتاج .

والتفت إلى موارد البلاد فعمل على تنميتها ؛ لتواجه مطالب الوطن المتزايدة ، فعنى بالزراعة عناية كبيرة ، وأدخل زراعات مختلفة أهمها القطن ، جلبت للبلاد منتجاتها ثروة لا تقدر .

وعنى بوسائل الرى والصرف ، فأنشأ الجسور والترع ، وأمر بإنشاء القناطر ؛ لضبط مياه النيل وتحويل البلاد إلى الزراعة الدائمة .

ورأى أن نجاح هذه المشروعات وتمامها لايتم على أحسن وجه وأكمله إلا إذا قام على تعهدها وتنفيذها أبناء الوطن المثقفون ؛ فاتجه إلى العناية بالتعليم ، ففتح المدارس فى أنحاء البلاد ، وشجع أبناء الشعب على الالتحاق بها ، وكان يدفعهم ـ رحمه الله ـ إلى العلم دفعاً ، تارة بالتشجيع الأدبى والمادى ، وتارة بالشدة ، حتى جعل التعليم كالتجنيد إجباريا .

وقـد وفقه الله فأعد للبلاد صفوة من خير المتعلمين الحاذقين لفنون الطب والهندسة والزراعة .

ولم يقتصر « محمد على » على التعليم فى مصر ، بل بعث البعوث إلى الخارج للتخصص فى الفنون الحربية والهندسية والطب والقانون والآداب ، وكان همه كله إحياء البلاد ، والنهوض بها فى جميع المرافق .

وفى هذا المضمار العلمى كان أبناء الأزهر هم النواة الأولى التى اعتمد عليها فى مدارسه الفنية وبعوثه ، وكانوا هم الصفوة التى قادت حركة الازدهار العلمى فى البلاد ؛ فجمعوا بين جلال الدين وعظمة العلم .

وإن الأزهر ليفخر حين يتصفح قوائم بعوث محمد على فيجد أسماء : « رفاعة الطهطاوى » ، والدكتورين « ابراهيم بك النبراوى » و« أحمد بك حسن الرشيدى » ، والمهندس الشيخ « أحمد العطار » ، والطبيب الشيخ « محمد نافع الدشطوطى » ، وغيرهم من الأعلام والنابغين .

وإذا كان محمد على قد دعته الحاجات الفنية فى المصانع والمؤسسات إلى العناية بالتعليم الفنى ، وإرسال البعوث إلى أوربا ، فإنه لم يغفل شأن الأزهر ، بل والاه برعايته ، ومدّ له فى رواق حريته ، وحافظ على نظامه التعليمى . إذ كان - رحمه الله - يدرك النفوذ الذى يتمتع به الأزهر فى البلاد الإسلامية ، وأنه مهبط الثقافة الدينية للمسلمين الضاربين فى أقطار الأرض ، ومصدر النور الذى يولون وجوههم شطره ليهديهم إلى الحق والخير . وكان محمد على متدينا حريصا على أن تبقى للأزهر زعامته الدينية .

وقـــد لقى علماء الأزهر من محمد على كل رعاية وتكريم : فاختار صفوتهم فى ديوان المشورة ، وكان يرجع اليهم فى كل ما يخص الشعب من شئون ، وكان لعلماء الأزهر اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية . وكان منهم حاذقون فى كثير من العلوم الأخرى ، من أمثال شيخ الإسلام « الدمنهورى » ، و الشيخ « حسن العطار » .

ولم يكتف محمد على بهذه النهضة تدب فى جميع النواحى ، بل فكر فى تأمين البلاد والمحافظة على سلامتها ، فقام بفتح السودان ليضم شطرى وادى النيل ، وبذل فى تعمير مدائنه ، وإقامة المرافق العامة ما لا يزال يذكر له بالخير ؛ وقام بكثير من الفتوح الأخرى فى سوريا وبلاد العرب ، ولم يكن يتغيا فى كل ذلك إلا خدمة مصر وإعلاء كلمة الإسلام .

وكان - على ما ناله من نجاح وتوفيق - دائم الذكر لأنعم الله عليه . ومما يؤثر عنه أنه قال : « إن نيلنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة ؛ وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارته يكون عين الكفران بالنعمة ؛ وهذا ما لا تقبله شيم جبلتى ، وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك » .

تلك كانت الروح المسيطرة عليه فى كل إصلاحاته : يرى فى بناء القنطرة أو إقامة المدرسة أو إنشاء المسجد أعمالا ترتفع الى مرتبة العبادة والاعتراف بأنعم الله جلت قدرته .

قال الشيخ رفاعة رافع « إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية ، وتسلطنت على قلبه ، وأخذت بمجامع لبه ؛ فكان - طيب الله ثراه - فى كل اتجاهاته العمرانية يقصد الصالح العام للمسلمين .

رحم الله محمد على ! فقد كان علماً من أعلام الإسلام ، وبطلا من أبطال التاريخ ؛ عرف كيف يخلّد اسمه على مر الايام ، وكيف يسمو بنفسه وبلاده الى الأوج .

تلك بعض مآثر مؤسس الأسرة العلوية ومنشىء مصر . ولعل أعظم مآثره خلودا ذلك العقد الفريد من الأحفاد الذين نشّأهم محمد على فأحسن تنشئتهم ، وأقامهم على رعاية مصر ، فكانوا لها أعظم الرعاة المنفذين لسياسته فى النهضة والحضارة .

وإن ننس فلن ننسى فضل إبراهيم وإسماعيل ، ولا أيادى المغفور له الملك فؤاد ؛ فقد جدد مصر ونهض بها حتى بلغت الأوج .

وهانحن أولاء نتمتع برعاية مولانا الملك المعظم فاروق الأول الذى أحيا سنة أبيه ، وسار على نهجه فى الإنشاء والتعمير والنهوض بالبلاد نهضة مباركة فى كل مرافقها .

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم :

هذه قطرات من بحر فيوض الأسرة العلوية الملكية على الأزهر ورجاله ، وصفحات من تاريخها المشرق ، الفياض بالنعم والأيادى البيضاء على مصر ، المفعم بالبطولة والنجدة والشهامة والأريحية فى إعلاء كلمة الله والنهوض بالوطن إلى الذروة ؛ فهل لى يا مولاى أن أهديها فى هذا اليوم العظيم الخالد الذى نحتفل فيه بذكرى مرور مائة عام على وفاة المغفور له محمد على باشا الكبير رأس الأسرة العلوية الملكية ، ومؤسس مجد مصر وعظمتها ـ إلى أبنائى طلاب الأزهر المتقلبين فى نعمتك ، المخلصين لسدتك ، ليتزودوا من هذه الذكرى العطرة مددا يحفزهم ، ويملأ قلوبهم الفتية بمحبة هذا البيت الكريم الذى أقام مجدهم وأحيا تاريخهم ؟

حفظك الله يا مولاى ، وأدام عرشك لتقر به أعين البلاد .

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله
وهذا دعاء للبرية شامل

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

الناموس الأدبى العام

كتبنا فى الجزء الماضى تحت هذا العنوان بحثا أثبتنا فيه أنه يوجد فى الكون إلى جانب النواميس الطبيعية المتصرفة فى الحوادث الوجودية ، ناموس أدبى عام مجاله الشؤون الأدبية ، وهذا خاص بالنوع الإنسانى وحده ، لأنه النوع الوحيد الذى خلق غير مفطور على لزوم حالة واحدة لا يبرحها فى معلوماته وعاداته .

وقلنا إن الخروج على هذا الناموس بإساءة السيرة ، وإشاعة الفسوق ، والتهتك ، والإشادة بالرذائل ، والجهر بالمنكرات ، يقع مرتكبها تحت طائلة عقوبات مناسبة لها ، وتصاب الأمة التى تشيع فيها هذه الخبائث بنكبات شديدة ، كالأمة التى تحيد عن الخضوع للنواميس الأخرى المادية سواء بسواء .

أول ما نذكره اليوم عن هذا الموضوع أن ننبه إلى أن الناموس الأدبى العام لم ينشأ فى الجماعات طفرة ، ولكن رويدا رويدا ، وهذا أقوى دليل على أنه طبيعى استدعاه النمو التدريجى للحوافظ الانسانية على توالى الأجيال ، وبقدر ما وصلت اليه العقلية البشرية من الارتقاء . ولو كان نشأ فجأة لما أمكن سريانه على المجتمعات التى كانت تتألف من آحادٍ هم الى الحيوانية أقرب منهم الى الانسانية .

ومما يدل على أن هذا التطور الأدبى للأفراد والجماعات أمر طبيعى ، دفاع أصحابه عنه بأقصى ما يملكون من حول وحيلة ، على نحو ما يبذلونه للدفاع عن شؤونهم المادية . وهذا من أقوى الأدلة على أن التسامح فى الآداب المكتسبة للمجتمع ضرورية لحياته الاجتماعية ، كما يدل دلالة قاطعة على أنه قد كتب للإنسان أن يبلغ فى عالم الآداب النفسية درجة تناسب درجته فى الشؤون المادية . فإذا حدث ما يخل بهذا التوازن بين هاتين الدرجتين تعرضت الجماعة التى تقدم على هذا الإخلال لفتن من ضروب شتى تحل بهم عقابا على ما فرطوا فى جنب آدابهم النفسية . أليس يدل ما تشهده من أحوال العالم المتمدن ، وما يحدث فيه

من صنوف المشاكل الشائكة ، على أن أولئك الأقوام الذين بلغوا مدى بعيدا فى الفتوحات العلمية ، والمواهب العقلية ، قد ارتكبوا فى ناحية من نواحى حوافظهم الأدبية انحرافا يتناسب وما يتعرضون له من الحروب الماحقة ، والفتن الكاسحة . إن هؤلاء الأقوام بعد أن اقتتلوا أربع سنوات متتالية فى حرب عامة ، عادوا قبل أن تلتئم جراحهم ، وتندمل قروحهم الى خوض غمرات حرب أخرى أشد من الأولى كان مجالها أكثر بقاع الأرض عمرانا ، فأتت على ما لا تستطيع الأمم استعاضته بعد جيل من الزمان يمضى فى سلام وارف الظلال . ثم ما كادوا يلقون سلاحهم حتى عادوا للكلام فى الحرب والصدام ، ولكن بسلاح لا يبقى ولا يذر ، يجتاح المدن والجماعات فى مثل لمح البصر ، ألا وهو القنبلة الذرية . أليس هذا من الكوارث التى يسلطها قيّم الوجود على الأمم التى تنحرف عن صراطه وتخرج على قوانينه ؟

فإذا كان الناموس الأدبى العام قد أشعر الإنسان بالعدل والرحمة والمساواة والأخوة والفضيلة ، وفطره على أن يشعر بسموها ، وعلى أن يعتبرها مُثُلا عليا فى الحياة الأفرادية والاجتماعية ، وقد قرر الانسان ذلك فى فلسفته وعلومه الاجتماعية ، أفلا يكون من الإجرام المتعدى حدود التعقل أن لا يعمل بها ، وأن يختط لنفسه خطة تدابرها ، وتعمل على طمس معالمها ، والتعفية على آثارها ؟ هيهات ! فإن ما كان طبيعياً لا يمكن ملاشاته صناعياً ، وما كان ثمرته القلاقل والفتن والشقاق ، لا يمكن أن يكون ثمرته السلام والهدوء والاستقرار .

فالأمم والحالة هذه بين عاقبتين : إما التآخى والتعاضد والتحاب ، وإما التصادم والتناحر والفناء !

نقول هذا ولسنا بيائسين من أن الأمم تحت تأثير عاملى حفظ الذات واستكمال أسباب البقاء ، ستتأدى إلى التهدّى لبواعث هذه الشرور المجتاحة ، وتستقيم على الصراط من الحياة الاجتماعية ، بنبذ كل ما يصد عن ذلك من نزغات وأهواء وعادات موروثة ، وقد يطول أمد ذلك التطور الخطير ، ولكنه على أية حال صائر لا محالة ، ويومئذ تكون الإنسانية قد وصلت إلى ذروة كمالها ، وغاية عظمتها .

ولا يجوز لنا هنا أن نغفل عن أن هذه الدرجة النهائية من الكمال، ما كانت لتتأتى من أول عهد الإنسان بالحياة، وهو لا يفترق عن الحيوانات العجم فى كبير شيء، وأن أمامه عقبات كأداء عليه أن يجتازها واحدة بعد أخرى فى أدوار متتالية، وتحت تأثير ثقافات من ضروب شتى. ولست أبالغ إذا قلت إن هذا المصير يخفى على الكثرة الساحقة من الناس، وأن من يعرفه يشك فى إمكان حصوله، ويرى أن الأرض قد تستنفد موادها الصالحة لبقاء الأحياء قبل حدوثه؛ وأن الأمم لا تلبث بسبب حروبها المتواصلة أن ترتكس الى همجية باحتة كما حدث لأمم كثيرة من أمم التاريخ التى ملكت زمام الأرض أجيالا، ثم آل أمرها إلى الزوال؛ وأن هذا هو كل حظ الإنسانية من هذه الحياة.

لكن ما يقولون صحيحا فهذا لا ينقض مهمة الدين، ولا يعدو على القول بضرورته، بل يزيد هذه المهمة تأييدا. فاذا كانت الحياة الدنيا أول مراتب الحياة الإنسانية، وأن الإنسان كلف أن يبدأ أول درجات وجوده فيها، وأن يعمل بالمثُل العليا مدة إقامته بها؛ فيكون بحاجة ماسة الى دستور أخلاقى يجرى عليه، ويتهدّى به الى الصراط السوى الذى عليه أن يجتازه دون سائر الصرُط التى تلوح له فى مدة بقائه فى هذا العالم.

* * *

وبعد: فإننا بعد أن وصلنا من بحثنا الى هذه النقطة، فلا يحسن بنا أن نهمل الإشارة إلى تلك الكارثة العقلية التى حلت بالعالم المتمدن منذ نحو مائة سنة، ولا يزال لها السلطان القاهر على القلوب، ألا وهى سيادة المذهب التشاؤمى Le Pessimisme. ومؤداه أن الحياة الانسانية رديئة رداءة لا تقبل الإصلاح، فكل الأعمال التى توجه لإصلاحها لا تكون نتيجتها إلا زيادة رداءتها. فيكون الواجب الحقيقى لكل عاقل أن يعمل على إبادة الانسانية. وقد ساعد على انتشار هذا المذهب ما يصاب به الناس من الأعراض والأمراض وأهوال الشيخوخة، وموت الأهل والإخوان، وسيادة الفاقة والبؤس على أكثر الأحياء.

انتشر هذا المذهب لدى أكثر العلماء الأوروبيين، وكاد يعم الناس هنالك، وتخطاهم الى بلاد الشرق ونشرته كتبه ومجلاته، فذاع فيه ذيوعه فى الغرب، فأصبح مثاراً لجميع ضروب الشذوذ الخلقى، والانحراف الأدبى فى جميع بلدان

العالم ، وهو أصعب ما منيت به الديانة والآداب من الصوارف عنهما ، والمزهدات فيهما ، ثقة من أهله بأنه مادام الموت نهاية كل حى ، فلا موجب لأن يتكلف الانسان آدابا لا تتفق وأهواءه ، وقيودا لا تتناسب وميوله ، لا سيما وقد عم هذا الشذوذ الخافقين ، وأصبح المراعون لهذه الآداب قلة لا يعتد بها .

وقد تأدى بنا هذا التحليل كما ترى ، إلى أن علة هذا الانحطاط الأدبى الذى يعم الناس أجمعين هو يأسهم من البقاء بعد الموت . فهم يقولون ما دام مصير الإنسان الفناء والتلاشى ، فمن الأفن[1] أن يضيق المرء على نفسه فيضن عليها بمشتهياتها لغير حكمة .

هذا هو السبب لكفر الإنسان بالأديان ، ولاستساغته ارتكاب جميع المنكرات ، واعتبارها من الملذات . ولو بقى الناس على ماهم عليه دون أن تأتيهم من الله آية جيلا آخر ، فإن ضروب الفسوق والعصيان الموجودة الآن ستتطور إلى أفحش ما يتصوره العقل من الإباحة الحيوانية ، وعند ذاك تنشأ إلى جانب هذه الأدناس الشهوانية ، ميول حيوانية أخرى تجعل من الإنسان وحشاً ضارياً لا يفكر فى غير هوى نفسه ، وتضمر وتتلاشى جميع نزعاته العلوية ، فيحاول أن يتصل بالأرض ؛ فتتنمر له لأنه ليس منها ؛ فيعمل على أن يستعيض عنها بعالم متوسط بين السماء والأرض فلا يجده بعد شدة الإحفاء فى طلبه .

فإذا بقى على ما هو عليه ، وسيبقى عليه ما دام لم يجد ما يصده عنه من مثل أعلى يرتكن اليه ، فسينتهى أمره بالتلاشى لا محالة بالعلل التى أصابته بها ميوله المادية ، وهو ما هو فيه اليوم من الحروب المجتاحة التى يشنها على مزاحميه فى الخارج ، والخلافات المذهبية التى تأتى على استقراره فى الداخل . فان لم يتداركه مبدعه رحمة منه بآية تعيده إلى رشده ، وتقفه عند حده ، فمصيره كما تنبأ به هو نفسه الفناء ولا كرامة ! ولكن الذين أوتوا العلم يقولون إنه سيخرج بمازج نفسه فيه إلى حياة إنسانية طيبة ، وسلام دائم ، وقد بدت تباشير هذه الرحمة الإلهية كما سنبينه فى العدد القادم ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

---

(١) الأفن بفتح الفاء : ضعف الرأى .

السنة التشريعية :

خضاب الشيب

لفضيلة الأستاذ الجليل للشيخ فكرى ياسين

أخرج أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس قال : مرّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجل قد خضّب بالحنّاء ، فقال : « ما أحسن هذا » ! فمرّ آخر قد خضّب بالحناء والكتم ، فقال : « هذا أحسن من هذا » . فمرّ آخر وقد خضّب بالصّفرة ، فقال : « هذا أحسن من هذا كله » !

* * *

شُغل الناس بأمر الشيب من قديم الزمان ، وأكثروا من القول فيه ، والحديث عنه ، فكتبوا فيه الفصول ، ونظموا القصائد ، ووضعوا المصنفات ، وتناولوه بالدراسة والتحليل من جميع الجوانب والنواحى .

والناس فى أمر المشيب صنفان : صنف يبغضه ، وينفر منه ، ويعتبره داهية فاجعة ، ونكبة نازلة ، وطالع شؤم ، ونذير فناء ، ويعده قذى فى العين ، وأذى فى المنظر ، فيحاول جاهدا أن يخفيه عن الناس ، ويستره عن العيون ، ويغيّره بشتّى أنواع الأصباغ والأدهان ، حتى يبدو لمن لا يعرف الحقيقة بشعره الملوّن المخضوب شابا فتيا ، وجلدا قويا ، وحتى يضم إلى هذا فى زعمه حسن الصورة ، وبهاء الطلعة .

وصنف يرحب بالشعر الأبيض ، ويتمناه ، بل وقد يعمل على استعجاله ومبادرته إليه طلبا للأغراض الدنيوية المختلفة ، فقد رأينا بعض الناس يخضبون لحاهم بالصفرة ، ويبيّضونها بالكبريت وغيره تشبها بالصالحين ، وإظهارا

للزهادة ، واستعجالا للشيخوخة ، لأجل الرياسة والتعظيم ، وإيهام الناس أنهم من كبار الشيوخ .

وقد ورد فى الشيب أحاديث كثيرة تفيد مدحه وفضله ، فروى أحمد وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشيب شيبة فى الإسلام إلا كتب الله له بها حسنة ، ورفعه بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة » . وروى غيرهما أنه قال « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » . وذلك لأن الشيب يقارنه فى الغالب حالة من التعقل والاتزان ، والشعور بالمسئولية ، وحسن التقدير للعواقب ، فتكون هذه الحالة سببا فى أن يعمل صاحبه على فعل ما ينفعه ، وترك ما يضره . من الابتعاد عن المعاصى ، والإقبال على الطاعات ، والتقرب إلى الله ، والإخلاص فى مرضاته ، فيجازيه الله على ذلك بزيادة حسناته ، ورفع درجاته ، ومحو خطيئاته ، وجعل أعماله الصالحة هداية له ، ونورا فى الدار الآخرة

والحديث الذى معنا يدل على استملاح الخضاب بالحناء وحده ، وعلى أن انضمام الكتم إليه أحسن من انفراده ، وعلى أن الاختضاب بالصفرة أحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن فى عينه من الحناء منفردا ، ومنه مع الكتم .

* * *

خَضَّب : من خَضَبه يخضبه : لونه بالحناء ونحوه ، يقال : كف خضيب ، وبنان مخضوب وخضيب ومخضب ، والخضاب : ما يختضب به .

والكتم : نبت يخلط بالحناء ، ويخضب به الشعر ، وهو النبت المعروف بالوسمة . وفى كتب الطب أنه نبت من نبات الجبال ، ورقه كورق الآس ، يخضب به مدقوقا ، وهو يخرج الصبغ أسود مائلا إلى الحمرة ، والحناء يخرج الصبغ أحمر ، فالصبغ بهما معا ، يجعل اللون بين السواد والحمرة .

والصفرة : هى أثر ما يصبغ به مما يتولد عنه اللون الأصفر مثل الورس والزعفران . روى أن ابن عمر كان يصبغ لحيته بالصفرة حتى تملأ ثيابه ، فقيل

له فى ذلك ، فقال : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها ، ولم يكن شىء أحب إليه منها ، كان يصبغ بها ثيابه حتى عمامته .

* * *

الكلام فى موضوع خضاب الشيب ، وتغيير لونه يقع فى مقامين : المقام الأول فى مشروعية الخضاب ، والمقام الثانى فيما يختضب به .

فأما الخضاب ، فقد رُويت بشأنه أحاديث تفيد مشروعيته ، كالحديث الذى معنا ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يستحسن إلا ما كان مشروعا ، وكقوله : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » ، وكرواية أحمد : أن أبا بكر جاء بأبيه أبى قحافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة يحمله ، ووضعه بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه - تكرمة لأبى بكر - فأسلم ولحيته ورأسه كالثغَامة [1] بياضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غيّروهما ، وجنّبوه السواد ؛ فذهبوا به ، فحمروه . وكرواية أم سلمة أنها أخرجت من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم . وكرواية ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصفر لحيته بالورس والزعفران .

وممن اختضب من الصحابة والتابعين وغيرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وأبو هريرة والمغيرة وابن عمر والحسن والحسين ، وجرير البجلى ، وعطاء ، وأبو وائل ، وطاوس ، وسعيد بن المسيب . ورأى أحمد بن حنبل رجلا قد خضب لحيته فقال : إنى لأرى رجلا يحيى ميتاً من السنة ، وفرح به .

ولكن إلى جانب هذا رويت أحاديث وآثار تفيد كراهة الاختضاب ، والنهى عن تغيير الشيب ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « من شاب شيبة فهى له نور إلى أن ينتفها أو يخضبها » ، وحديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكره خصالا ، وذكر منها تغيير الشيب ، وحديث أنس قال : « ما خضب

---

(١) ثغامة بثاء مثلثة مفتوحة ، ثم غين معجمة مخففة : نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به بياض الشيب ، وقيل هو شجر مبيض كأنه الثلج .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لم يبلغ منه الشيب إلا قليلا ، ولو شئت أن أعدّ شمطات [1] كن فى رأسه لفعلت .

ونقل عن جماعة من السلف أنهم لم يختضبوا ، مثل أنس ، وأبىّ بن كعب ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهم .

ومن مجموع هذا نرى أننا أمام آثار متضادة فى الظاهر ، ولا دليل لمن ادّعى النسخ فيها ، فتعيّن الجمعُ بينها ، وقد جمعوا بأن ذلك قد اختلف عندهم بحسب اختلاف الظروف والأحوال ، فمن صبغ منهم كان اللائق به الصبغ لاستبشاع شيبه ؛ ومن ترك كان اللائق به الترك لعدم الاستبشاع ؛ فمن كان فى مثل حال أبى قحافة استحب له الخضاب ، لأنه لا يحصل به الغرور لأحد ، ومن كان بخلافه لا يستحب له . قال الطبرى : الصواب أن الأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب ، وبالنهى عنه ، كلها صحيحة ، وليس فيها تناقض ، بل الأمر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبى قحافة ، والنهى لمن له شمط فقط ، واختلاف السلف فى فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم فى ذلك ، مع أن الأمر والنهى فى ذلك ليس للوجوب بالإجماع ، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه فى ذلك .

وأما ما يختضب به ، فالجمهور على مشروعية الخضاب بالحمرة والصفرة ، أما السواد ، فمن العلماء من رخص فيه فى الجهاد فقط ، ومنهم من مال إلى أن الأولى كراهته كراهة تنزيه ، ومنهم من جنح إلى أنها للتحريم ، ومنهم من فرق فى ذلك بين الرجل والمرأة ، فأجازه لها دون الرجل .

وقد رخص فيه مطلقاً ، واختضب به جمهور من السلف ، منهم عثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعقبة بن عامر ، والحسن والحسين ، وجرير وعروة ابن الزبير ، وابن سيرين ، وغيرهم . وعن عمر بن الخطاب أنه كان يأمر بالخضاب

---

(١) الشمطات : الشعرات اللاتى ظهر فيهن البياض ، والشمط : بياض شعر الرأس يخالطه سواده ، وقيل : هو فى الرجل شيب اللحية .

بالسواد ، ويقول : هو تسكين للزوجة وأهيب للعدو . وكان عنبسة بن سعيد يقول : إنما شعرك بمنزلة ثوبك ، فاصبغه بأى لون شئت ، وأحبه إلينا أحلكه .

وقد اختار هذا الرأى جماعة من أهل العلم ، وأجابوا عن حديث ابن عباس القائل : « يكون قوم يخضبون بالسواد ، لا يجدون ريح الجنة » ـ بأنه لا دلالة فيه على كراهية الخضاب بالسواد ، بل فيه الإخبار عن قوم هذه صفتهم ؛ وعن حديث جابر القائل فى شأن أبى قحافة : « وجنبوه السواد » ـ بأن ذلك فى حق من صار شيب رأسه مستبشعا ، وهذا لا يطرد فى حق كل أحد ؛ وعن حديث أبى الدرداء القائل : « من خضب بالسواد سود الله وجهه يوم القيامة » ـ بأن سنده لين .

وذكر ابن الكلبى أن أول من اختضب بالسواد من العرب عبد المطلب ابن هاشم ، وقال البدر العينى فى كتابه « عمدة القارى » : وأما أول من صبغ لحيته بالسواد ـ يعنى من الناس مطلقا ـ ففرعون موسى .

وهذا كله فى بيان حكم تغيير لون الشعر فى الرأس واللحية بالخضاب ، فأما خضاب اليدين أو الرجلين ، أو الأظافر ، بالحناء ، أو بمادة أخرى ، كما يفعل بعض الشبان والعامة ، فإن هذا لا يشرع للرجال إلا فى حالة التطبب والتداوى .

الاستئذان

استأذن رجل من بنى عامر على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان وقل له : يقول : السلام عليكم أأدخل ؟

وقال جابر بن عبد الله : استأذنت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا ، قال : أنا أنا !!

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاثة ، فإن أذن لك وإلا فارجع .

وقال على بن أبى طالب : الأولى إذن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزيمة ؛ إما أن يأذنوا وإما أن يردوا .

بين الشريعة والقانون :

نظرات فى توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

مر بنا أن الجمهور يحملون على الندب ما ورد فى آية الدين من الأمر بالتوثيق ، وكل ما ارتكزوا عليه أن قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته » إما ناسخ للوجوب المستفاد من صدر الآية ، وإما لبيان أن الأمر للندب قصداً أولياً .

وقد ناقشت رأيهم فى تفصيل مسهب ، ووعدت بإجمال ما سلف فى حديث اليوم ، وقد بان للقارىء من سالف الحديث أن قوله تعالى « فإن أمن بعضكم الخ » ليس واضحاً فى نسخ الوجوب ولا فى توجيه الأمر بالكتابة الى الندب ، ولا مقروناً بشىء يؤدى الى ما ذكر ، وأن احتماله لشىء من هذين لا يعدو أن يكون احتمالا مرجوحا ، وإذا كان كذلك فالظاهر الأقوى أن يحمل على وجه من وجوه أخرى - أحدها : إذا لم يمكن التوثيق وتحكمت الضرورة فلا مانع من التعويل على الأمانة ، وهذا ما أخذ به ابن جرير والضحاك . الوجه الثانى : أن يحمل الكلام منوطاً بالرهن وحده لشدة الحاجة فيه إلى رعاية الأمانة من جانب الدائن والمدين كما تخيرت أولا ، أو يحمل الكلام منوطاً بالكتابة والرهن معا كما سوغتُ ثانياً ، أو بهما وبسواهما من كل تعاقد وتوثيق كما توسعت ثالثاً .

وعلى أى احتمال مما قدرته يكون الوجوب المستفاد من الأمر بالكتابة أو ما يقوم مقامها فى التوثيق واضحاً مسلما ، لا مانع منه ، ولا إشكال فيه ،

ولا وجه للعدول عنه ، وذلك أوفق لمقاصد الشريعة ، وأليق بنظم الكتاب وسياقه ، وأبعد عن التكلف فى فهم الخطاب بالأمر ، وحمله على غير محمله الأصلى عند جمهرة الأصوليين من غير مقتض لذلك . فإن جنحوا إلى قول أبى سعيد الخدرى بالنسخ واجهناهم بإنكار ابن عباس للنسخ وتأكيده أن الآية محكمة ، وعلى هذا عطاء وجابر والنخعى والشعبى ، وابن جرير من كبار المفسرين ، والأصل عدم النسخ ، والنسق القرآنى يأتلف مع ذلك أكثر مما يأتلف مع ما ذهب إليه الآخرون .

وإزاء هذه التوجيهات لا ينفع القائلين بالندب على كثرتهم أن يتعللوا بأن الصحابة والتابعين لم يلزموا الاستيثاق ، فمعاذ الله أن يرى الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوَثّق المتعاملين من نفسه بالكتابة ، والرهن ، ويوثق غيره بضمانه ؛ ثم يعدلوا عن ذلك فى معاملاتهم بعد ، ولو كان للمعاملة أيامهم مالها اليوم من السعة وخطورة الشأن لتضافرت إلينا وقائعهم المثبتة للتوثيق كما علمهم أمامهم القدوة صلى الله عليه وسلم ، وكما ثبت عن ابن عمر رضى الله عنهما .

وهل كانوا يجيزون إهمال التوثيق فيما لو جرى بينهم ما يجرى بيننا الآن من ضيعات وعمارات تباع مناجزة أو نساء ، ومن صفقات ضخمة من البضائع تجتاز بحراً الى بحر ، وتمر من قطر الى قطر ، أو من محاصيل زراعية يستولى عليها التاجر نسيئة ثم لا يفى إلا بعد تصريفها وقبض ثمنها ، ومن قروض باهظة تسديها حكومة أو هيئة الى مثلها ؟

أليس إهمال التوثيق فى هاتيك الحالات إذا لم نقل بوجوبه إلا مشأمة لا تطاق ومجلبة لشر مستطير ؟

إن القول بالندب مع بعده عن ظاهر الآية لبعيد عن التبصر فى شئون الحياة الجارية بين الناس ، ولقد ذهب الحنابلة مع الذاهبين إلى القول بالندب على إطلاقه ، ومع أن الحنابلة غالبا يعتمدون على النصوص ، وأن مذهبهم أقرب المذاهب المشهورة إلى ظاهر الحديث ، لم نجد لهم نصًّا من كتاب ولا سنة يعتمدون عليه فى الانصراف عن ظاهر الآية والسنة المثبتة لوجوب الاستيثاق ، وأكثر من ذلك أن ما ذكره ابن قدامة من تعليل للندب أوفق لتعليل

الوجوب وأكثر ملاءمة له إذ يقول (ص ٣١١ ج ٤ مغنى) ولأنه — أى التوثيق — أقطع للنزاع وأبعد من التجاحد فكان أولى ا هـ وكذلك يقول الجصاص (ص ٤٨٢ ج ١) لأنه أى الأمر إرشاد وندب إلى ما فيه الحظ والمصلحة والاحتياط للدين والدنيا اهـ .

وعجيب أن يكون التوثيق عند ابن قدامة أدعى إلى قطع النزاع ومنع التجاحد وأن يكون الأمر عند الجصاص ومن إليه للإرشاد إلى مافيه الحظ والمصلحة والاحتياط للدين والدنيا ، ثم مع ذلك كله يعتبر التوثيق مندوبا فقط عند شيوخنا هؤلاء !

فإذا كان تعليلهم بهذه القوة ثم لم يقتض الوجوب فمتى يقتضيه ؟ ؟

وإن ألفاظهم التى حكيناها عنهم لتؤلف قياسا منطقيا ينتج ما نقول نحن لا ما يقولون ، إذ يقال التوثيق وسيلة إلى ترك المحظور من النزاع والتجاحد ، وما كان وسيلة إلى ترك المحظور وجب الأخذ به ، فالتوثيق يجب الأخذ به ، أو يقال فى التوثيق حظ ومصلحة واحتياط للدين والدنيا ، وما كان كذلك يوجبه العقل والدين ، فالتوثيق يوجبه العقل والدين .

ولو افترض مفترض بعد ذلك كله أن اجتهاد السلف أتاح لهم عدم التزام التوثيق ، أو تخيل أن النصوص غير قاضية بوجوب التوثيق صراحة لوجب أن يقتضيه القياس استحسانا عند أولى العلم فى عصرنا هذا ، لأن ذمم الناس اليوم على غير ما كانت من قبل ، ولأن شئون التعامل قد أخذت وضعا فى الحياة الاجتماعية لا يسمح بالارتكان إلى حسن الظن بالناس وإغفال التوثيق .

ذلك هو التطبيق الحق للنظم الإسلامية التى شرعت لمسايرة الحياة فى أزمانها وأطوارها .

ومن قبيل التأكيد لما قررت ، أسوق بعض كلمات لمن سلف ولمن خلف : فمن كلام ابن جرير الطبرى فى رده على القول بنسخ الوجوب للكتابة : لو وجب أن يكون قوله « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة » الخ ناسخا لقوله « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، لوجب أن يكون قوله

« وإن كنتم مرضى أو على سفر - إلى أن قال - فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » ناسخا للوضوء بالماء فى الحضر والسفر . اهـ .

يرى ابن جرير أن الكتابة هى الواجب ابتداء ، وأن الرهن بدل عنها عند الضرورة ، فليس لقائل أن يرى أن تشريع الرهن ناسخ لوجوب الكتابة ، وإلا لوجب أن يكون التيمم وهو مرخص به حين الضرورة ناسخا للوضوء فى الحضر والسفر ، ولم يقل قائل بذلك ، فكذلك مانحن فيه من شأن الكتابة .

ومن كلام المرحوم الشيخ محمد عبده فى رده على قولهم إن إيجاب الاستيثاق حرج والحرج مدفوع « إن هذا الضيق والحرج فى بادىء الرأى هو عين السهولة والسعة واليسر فى حقيقة الأمر ، فإن التعامل الذى لا يكتب ولا يستشهد عليه يترتب عليه مفاسد كثيرة ، منها ما يكون عن عمد إذا كان أحد المتداينين ضعيف الأمانة فيدعى بعد طول الأمد خلاف الواقع . ومنها ما يكون عن خطأ ونسيان ، فإذا ارتاب المتعاملان واختلفا ولا شىء يرجع إليه فى إزالة الريبة ورفع الخلاف من كتابة أو شهود أساء كل منهما الظن بالآخر ، ولم يسهل عليه الرجوع عن اعتقاده الى قول خصمه فلج فى خصامه وعدائه ، وكان وراء ذلك من شرور المنازعات ما يرهقهما عسرا ويرميهما بأشد الحرج ، وربما ارتكبا فى ذلك محارم كثيرة ، فما كل ما يتكرر يكون حرجا » اهـ .

يريد الأستاذ الشيخ عبده أنه لا حرج فى كتابة الدين كما لا حرج فى تكرار الوضوء على نحو ما مثل . . ثم قال :

« هبوا أن هذه الأوامر المؤكدة للندب فهل ينبغى أن يترك المسلمون جملة ما ندب إليه كتاب الله بحجة أن فيه حرجا أو بغير ذلك من الحجج حتى صار من نراه من المسلمين يعنى بكتابة ديونه ؟ فإنما يفعل ذلك لضعف ثقته بمدينه لا عملا بهداية دينه . ألا إن الحرج فى هذا كالحرج فى تحريم جميع أنواع الشرك والمعاصى ، فكما لا يجوز أن تكون مشركا بنوع ما من أنواع الشرك لا يجوز أن تفرط فى شىء من الحق ؛ والحق الذى لا مراء فيه أنه لا شىء من الحرج فى الكتابة ، فإن البلد يكفيه كاتب واحد للديون المؤجلة ، وقد رخص الله لنا فى ترك كتابة التجارة

الحاضرة .. ثم قال : « والحاصل أن ظاهر الآية وأسلوبها وطريقة تأديتها تدل على أن الأمر فيها للوجوب وإن كان الجمهور على خلافه » اهـ .

وقد علق الشيخ رشيد رضا رحمه الله على الحرج المذكور فى هذا المقام بكلام طيب مسبوق الى بعضه من شيوخنا القدامى ، فقال : « ليس المراد بالحرج والعسر المنفيين بالنص - يشير الى قوله تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » - أنه لا مشقة ولا كلفة فى شىء من التكاليف الشرعية ؛ بل المراد أنه لا شىء منها للأعنات وتجشم المشاق والإيقاع فى العسر والحرج ؛ وإنما لكل حكم منها فائدة أو فوائد ترفع الحرج والعسر ويصلح بها أمر الناس فى أنفسهم وفى شئونهم الاجتماعية ، فهى كسائر الأعمال التى عرف الناس فوائدها بالضرورة أو الاختيار والاستدلال ، فهم يعملونها وإن كان فيها مشقة ما ، طلبا لفوائدها التى هى أرجح وأجدر بالإيثار ، ثم إن وراء هذه المصلحة الخاصة فى كتابة الدين مصلحة عامة وهى جعل المسلمين أمة كتاب ونظام ، والإسلام بدأ بالعرب وهى أمة أمية ، وقد امتن الله عليها بالرسول الذى علمها الكتاب والحكمة ، ففرض كتابة الدين عليهم هو من وسائل إخراجهم من الأمية » اهـ .

وعلى وجه الإجمال فذلك كلام سديد يعزز قولى بوجوب التوثيق على ماتقدم إيضاحه .

وهذه مرحلة من البحث فى حكم التوثيق على ما أسلفت ، وخليق بنا أن نعرض بعدها لبيان القدر الذى يتعلق به ذلك الحكم ، وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله .

الضحك

مر الحسن البصرى بقوم يضحكون فى شهر رمضان ، فقال : ياقوم إن الله جعل رمضان مضمارا لخلقه يتسابقون فيه الى رحمته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ؛ فالعجب من الضاحك اللاهى فى اليوم الذى فاز فيه السابقون ، وخاب فيه المتخلفون . أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسنا إحسانه ، ومسيئا إساءته .

قرآنية البسملة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

اختلاف الأئمة فى شأن البسملة أوائل السور أهى قرآن أو ليست قرآنا مع إجماعهم على أن ما تواترت قرآنيته فهو قرآن، وما لم تتواتر قرآنيته فليس بقرآن — يعتبر بحق من مشكلات المسائل ومعضلاتها .

حقا إنه ليتبادر إلى الذهن، ويتسارع إلى الفهم أن مثل هذا الإجماع يسد الثلمة ويحوص الفتق، ولا يجعل منفذاً لخلاف ينفذ منه ، ولا بابا يقتحمه ، لأن البسملة أوائل السور إن كانت قد تواترت قرآنيتها فهى قرآن قطعا ، ولا يستسيغ أحد لنفسه أن يخالف ذلك، وينازع فيه ؛ لأن مخالفة ذلك مروق من الدين وضلال مبين ، وإن لم تكن قد تواترت قرآنيتها فليست بقرآن قطعا ، ومن يخالف ذلك يكون مبتدعا ما ليس من الدين وخارجا عليه .

وإذن لا محل لأن يكون ذلك موضوع اجتهاد واستنباط ، وأن يكون للرأى فيه مجال حتى يكون هناك جدل وخلاف فى أمر البسملة . ولكننا نجد الخلاف قائما على قدم وساق بين من يعتد بخلافهم من الأئمة الذين كرسوا حياتهم على البحث والتنقيب ، والسعى الحثيث وراء تمحيص المسائل وتنقيتها من أدران الشبه وحواجز الأشواك ، وقد ضربوا أكباد الإبل حتى أنهكوها وأنهكوا ، ومشوا فى مناكب الأرض طولا وعرضا ، وجابوا السهل منها والحزن ، والآمن منها والوعر ابتغاء العثور على درة من درر العلم وذخيرة من ذخائرها بين كنوز العلماء فى الآفاق ؛ فيلتقطونها تشييداً لصروح المسائل ، وإقامة لها على أمتن الدعائم وأقوى الأركان ، وإزالة لما عسى أن يكون من شبه وغواش تسد عليهم المسالك، وتغلق أمامهم باب البحث السليم ، والهداية إلى أقوم طريق ، غير مبالين فى كل ذلك

بما يلحقهم من إعنات وإرهاق ، وركوبهم المخاوف والمخاطر؛ بل يجدون سعادتهم فى الحصول على ضالتهم المنشودة ، وغايتهم المرجوة ، وأملهم الباسم من النهوض بأمتهم إلى التعاليم الرشيدة؛ ليقتطفوا منها ما يمكن لهم فى الأرض ويبسط نفوذهم، ويجعلهم فى منعة وأمن من تلاعب الأهواء . . .

اختلف هؤلاء الأئمة الأعلام فى شأن البسملة أوائل السور : فمن قائل إنها آية فذة أنزلت للفصل بين السور والتبرك بها ، ومن قائل إنها آية من سورة الفاتحة وغيرها للفصل ، ومن قائل إنها آية من كل سورة صدرت بها فتكون فى القرآن الكريم ثلاث عشرة آية ومائة ، ومن قائل إنها فى غير سورة النمل ليست قرآنا فلا تكون آية ولا بعض آية من السور التى صدرت بها .

ومن الخير أن نضيق دائرة البحث ونجعله واقفا عند الرأيين المتقابلين : إثبات القرآنية ونفيها ؛ لأن ذلك هو الجدير بالبحث والمعالجة فى هدوء وتريث وعدم التحامل ، كى يتيسر السبيل وينكشف الغامض ، وتزول غشاوات الشبهات التى تكتنف هذا الموضوع وتحيط بجهاته .

نرى القائلين بالقرآنية والنافين لها متفقين على أن معيار القرآنية التواتر ، وأنه لا بد منه فى ثبوت ما هو من القرآن ؛ وما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بعدم قرآنيته ، وأن قرآنيتها تواترت بعض آية فى سورة « النمل » .

ونراهم مختلفين فى تحديد معنى شرطية التواتر ؛ فالإمام مالك والأوزاعى وغيرهما يرون أن التواتر شرط فى ثبوت ما هو من القرآن فى أصله ومحله وضعا وترتيباً ؛ لأن القرآن الذى هو أصل الدين وهداية العالمين ، والمرشد إلى سواء السبيل ، والمعجز بأقصر سورة منه ، مما تتوافر الدواعى على نقله متواتراً فى جمله وتفاصيله .

والشافعية وكثير من الأصوليين يرون التواتر فيه بحسب الأصل فى إثبات القرآنية ، وليس بشرط فى محله ووضعه وترتيبه ، بل يكثر فى ذلك نقل الآحاد .

ومن هنا اختلفت وجهة نظر العلماء فى شأن البسملة .

فمن اشترطوا تواتر القرآنية فى المحل قالوا : إن البسملة فى أوائل السور ليست قرآناً ؛ لأنها لم تتواتر فى أوائل السور إلا كتابة فى المصحف وقراءة على الألسن

فى تلك المحال ، ولم يتواتر فيها أنها قرآن . والذين لم يشترطوا التواتر فى المحل قالوا : إن البسملة فى أوائل السور قرآن لأنها تواترت بحسب الأصل ، وتواتر نقلها كتابة فى المصحف وقراءة على الألسن فى تلك المحال وذلك كاف .

وبهذا ظهر أن الخلاف فى شأن البسملة مبنى على الخلاف فى تحديد معنى شرطية التواتر ؛ فلم يكن ذلك منافياً لإجماعهم على أن ما تواترت قرآنيته فهو قرآن ، وما لم تتواتر قرآنيته فليس بقرآن ، ولذلك لم يرم واحد منهم الآخر بما يشينه أو يحط من منزلته وقدرها ، وكان باب الخلاف مفتوحاً على مصراعيه ، وكان للاجتهاد مجال فسيح لما يترتب على ذلك من أحكام شرعية اجتهادية ؛ كوجوب قراءتها فى الصلاة أو عدم الوجوب ، وكعدم جواز قراءتها للجنب أو جوازها ، وكعدم جواز مسها للمحدث أو جوازها .

وإذا ما انتهينا من هذه المشكلة فإنه تواجهنا مشكلة أخرى وهى تعارض الأحاديث الكثيرة فى هذا الشأن ، وكانت مأخذاً لكل فريق وسنداً له على دعواه . فهؤلاء الأئمة : عبد الله بن المبارك والثورى والإمام الشافعى وغيرهم ممن يرون قرآنيتها يعتمدون على ما روى عن أم سلمة أنها قالت « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعد بسم الله الرحمن الرحيم آية - الحديث » . وما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم » ، وما روى عن جابر عن عبد الله « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له كيف تقول إذا قمت إلى الصلاة ؟ قال : أقول الحمد لله رب العالمين . قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم » ، وما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا قرأتم أم القرآن فلا تدعوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها » . وما روى « أن معاوية قدم المدينة فصلى بالناس صلاة يجهر بها فقرأ أم القرآن ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما قضى صلاته ناداه المهاجرون والأنصار أنسيت ؟ أين بسم الله الرحمن الرحيم حين استفتحت القرآن ؟ فأعاد معاوية الصلاة وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » . وغير ذلك كثير .

فهذه النصوص كلها صريحة فى أن البسملة قرآن ، وأنها آية من الفاتحة ،

وإذ ثبت أنها آية من الفاتحة ؛ فيثبت أنها آية من كل سورة ، إذ لا فرق بين سورة وسورة.

وقرّاء المدينة والبصرة والإمام مالك على أنها ليست آية من الفاتحة ، ولا من غيرها ، ويستندون فى ذلك الى نصوص؛ منها ما روى عن أبى هريرة وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله تعالى حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم يقول الله تعالى أثنى على عبدى ، وإذا قال مالك يوم الدين يقول الله تعالى مجدنى عبدى ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله تعالى هذا بينى وبين عبدى » . ووجه الاستدلال أنه عليه السلام لم يذكر التسمية ، ولو كانت آية من الفاتحة لذكرها ، ولأن هذا التنصيف إنما يحصل إذا قلنا إن التسمية ليست آية من الفاتحة ؛ لأنها سبع آيات ، وإذا جعلت بسم الله الرحمن الرحيم آية حصل لله أربع آيات ونصف آية وللعبد آيتان ونصف وهذا مبطل للتنصيف . ومنها ما روى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين » ، وهذا يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة . وروى عن أنس أنه قال: صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين .

فأنت ترى هذه الأحاديث التى اعتمد عليها الفريقان كيف يعارض بعضها بعضا ، وأنه لا سبيل الى الخروج من هذا المأزق إلا بالترجيح أو العدول عنها الى غيرها فى الاستدلال .

وإذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما استند اليه الفريقان ؛ فإننا نجد ما اعتمد عليه الفريق الأول خليقا بالقبول؛ لأنها بلغت فى الكثرة مبلغا يجعلها تعطى التواتر المعنوى بكون البسملة قرآنا منزلا فى أوائل السور ؛ وذلك بتعضيد بعضها بعضا .

أما ما ركن إليه الفريق الثانى ، وألقى إليه مقاليده من حديث « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى » الحديث ، فإن رواية أبى هريرة « وإذا قال العبد مالك

يوم الدين يقول الله تعالى مجدنى عبدى وهو بينى وبين عبدى ، فإنها تفيد أن البسملة قرآن ؛ لأن قوله فى مالك يوم الدين هذا بينى وبين عبدى ـ أى فى القسمة ـ إنما يكون كذلك إذا حصلت ثلاثة قبلها وثلاثة بعدها ، ويحصل ثلاثة قبلها لو كانت التسمية آية من الفاتحة . على أن لفظ النصف كما يحتمل التنصيف فى عدد الآيات ، فهو أيضا يحتمل التنصيف فى المعنى . والدليل متى تطرقه الاحتمال سقط به الاستدلال . وما روى عن عائشة رضى الله عنها من أنه عليه الصلاة والسلام كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ؛ فيحمل على أنها جعلت الحمد لله رب العالمين اسما للسورة ، والمراد أنه قرأ هذه السورة ، أو لعل الرسول صلوات الله عليه كان يسر بالبسملة فلم تسمعها . وبهذا أيضا يقال فى جانب ما روى عن أنس .

فأنت ترى بعد هذا أنه قد اتضح الأمر واستبان ، وانقشعت الشبهة ، وزال التعارض بين الأحاديث ، وأخذت كلها سبيلا واحداً لا ترى فيه عوجا ولا أمتا .

هذا وإن كتابة البسملة بخط السور فى مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم مع منعهم أن يكتب فيها ما ليس من القرآن ، يذهب بكل شبهة ويقتلعها من جذورها ، ولا يدع عندك شكا فى أنها قرآن .

وكيف يستجيز أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنفسهم إثباتها بخط السور فى مصاحفهم ، وهى لم تكن قرآناً بدون تمييز لها ولو بالمداد أو القلم ، مما يؤدى إلى التلبيس والتغرير بالمسلمين ، وحملهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً .

ثم وكيف لم يثبتوها بين الأنفال وبراءة إذا كانت للفصل بين السور ؟

ثم وكيف يجمعون على أن ما بين دفتى المصحف كلام الله ؟

على أن للشافعية أن يمنعوا دعوى عدم تواترها فى المحل ، فرب متواتر عند قوم دون آخرين ، وفى وقت دون آخر ، ولا أدل على ذلك من الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ، والوفاق التام على إثباتها فى المصاحف .

وإلى هنا قد استقام الطريق ، وأزيلت الحواجز الشائكة ، وتبددت الشبهات ، وانبلج نور الحق ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

الركن الشرعى للجريمة

فى الشريعة الاسلامية وفى القوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
قاضى محكمة سمالوط

سريان القانون على المكان :

ويمكن القول بصفة عامة إن القانون الجنائى إقليمى من وجهة نظر الشريعة، فهو يسرى على كل المقيمين على أرض الدولة الإسلامية بصرف النظر عن اختلاف أديانهم (١) كما أنه شخصى من وجهة نظر جمهور الفقهاء ، فقد ذهب الشافعى ومالك وأحمد إلى أن المسلم يلتزم أحكام الإسلام ، حيثما كان ؛ فإذا ارتكب ما يوجب الحد أو التعزير ؛ كأن سرق أو شرب خمرا أو زنى أو أكل لحم خنزير ، فإنه يقام عليه الحد متى عاد إلى دار الإسلام ، سواء وقع منه ذلك فى دار حرب ، أو دار بغى ؛ ويستندون فى ذلك إلى عموم الآيات والأخبار . ولأن كل موضع تجب فيه العبادات فى أوقاتها ، تجب فيه الحدود عند وجود أسبابها . ثم إن الذى ارتكب الجريمة : زان أو سارق أو شارب خمر أو آكل لحم خنزير ، ولا شبهة فى فعله حتى يمكن القول بسقوط الحد أو التعزير عنه (٢) .

ومذهب أبى حنيفة أنه إذا زنى المسلم أو قذف أو شرب خمرا فى دار الحرب أو فى دار البغى ، لا يقام عليه الحد ؛ ويستندون فى ذلك إلى ما روى من أن النبى

---

(١) اختلاف الفقهاء فى تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية على غير المسلمين وسنعرض لهذا الموضوع فى بحثنا القادم إن شاء الله عند الكلام عن سريان القانون على الأشخاص . نسأل الله المعونة والتوفيق .

(٢) المدونة حـ ١٦ ص ٩١ . المهذب حـ ٢ ص ٣٥٨ . المغنى حـ ١٠ ص ٧١ . الشرح الكبير حـ ١٠ ص ٦٨ - ٦٩ - ٢١٣ .

صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقام الحدود فى دار الحرب » . ويضيفون إلى ذلك أن الحدود لم تجب لذاتها ، وإنما وجبت للمقصود منها وهو الانزجار والاستيفاء ؛ فإن استحال إمكان استيفاء الحد فلا يجب الحد ، فلا يجب الحد لانعدام الفائدة من إيجابه ؛ لأن الإمام لا ولاية له على دار الحرب حتى يستطيع أن يستوفى الحدود هناك ، وإذا امتنع الاستيفاء ، امتنع الإيجاب لعدم الفائدة . وإذا لم ينعقد الفعل موجبا للحد ابتداء فلا ينقلب موجبا له بالعودة إلى دار الإسلام [1] .

وقد ترتب على هذا الخلاف خلاف آخر فرعى ؛ ذلك أن الفقهاء اختلفوا فى حكم المسلمين يخرجون غزاة فى سبيل الله فيرتكب أحدهم ما يوجب الحد ؛ فذهب أبو حنيفة إلى أنه إذا غزا الخليفة أو أمير مصر ودخل دار الحرب فله أن يقيم الحد على من زنى فى معسكره لأن المعسكر تحت ولايته فيقيم الحد على من زنى منهم كما يقيمه فى دار الإسلام . ولو زنى واحد منهم خارج المعسكر لا يقيم عليه الحد لعدم ولايته . أما إذا دخلت سرية دار الحرب فزنا رجل منهم لم يحد ، وكذا أمير العسكر لا يقيم الحد لأن أمير العسكر أو السرية مفوض إليهما تدبير الحرب لا إقامة الحدود [2] .

ويرى مالك وأبو ثور وابن المنذر أن الحد يقام فى كل موضع ، لأن أمر الله تعالى بإقامته عام مطلق فى كل مكان وزمان [3] .

وعند الشافعى الحكم كذلك ، غير أنه يرى أنه إذا لم يكن أمير الجيش الإمام أو أمير إقليم فليس له إقامة الحد حتى يأتى الإمام لأن إقامة الحدود إليه ، ويؤخر كذلك إن كان بالمسلمين حاجة إلى المحدود أو قوة به أو شغل عنه آخر .

ويرى أحمد أن الفعل فى دار الغزو يقع موجبا للحد ولكن يؤخر الاستيفاء مطلقا حتى العودة . وحجته فى ذلك ما روى بسر بن أرطاة أنه أتى برجل فى الغزو قد سرق ، فقال : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تقطع الأيدى فى الغزاة لقطعتك . كما روى سعيد بإسناده عن الأحوص بن

---

(١) البدائع حـ ٧ ص ١٣١ - ٨٠ وتبيين الحقائق حـ ٣ ص ١٨٢ ونلاحظ أنه جاء فى هامش تبيين الحقائق نقلا عن الكمال أنه قال عن الحديث « لاتقام الحدود فى دار الحرب » لم يعلم له وجود .

(٢) البدائع حـ٧ ص ١٣١ و١٣٢ . (٣) المدونة حـ ١٦ ص٩١ ، الشرح الكبير حـ ١٠ ص١٥٢ .

حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس : أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار[٤] .

ولما كان أبو حنيفة هو الذى قصر إقامة الحدود على الجرائم التى تقع فى دار الإسلام دون تلك التى تحدث فى دار الحرب أو دار البغى ، تعين علينا أن نبين معنى كل دار منها فى مذهبه ، نظرا لما يترتب على اختلاف الدار من حكم .

ومما لا شك فيه أن دار الإسلام هى الدار التى تسودها أحكام الإسلام وللمسلمين فيها السلطان والقهر . ولكن من الجائز أن تتسع رقعة دار الإسلام أو أن تضيق ، فكيف تصبح دار الكفر دار الإسلام ، وكيف تصير دار الإسلام دار كفر ؟ لا خلاف بين أبى حنيفة وصاحبيه فى أن دار الكفر تصبح دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها ؛ ولكنهم اختلفوا فى كيف تصير دار الإسلام دار كفر ؛ فقال أبو حنيفة إنها لا تصير دار كفر إلا بثلاثة شروط : أحدها : ظهور أحكام الكفر فيها . الثانى : أن تكون متاخمة لدار الكفر . والثالث : أن لا يبقى فيها مسلم ولا ذمى آمنا بالأمان الأول وهو أمان المسلمين . وحجة أبى حنيفة أن المقصود من إضافة الدار الى الإسلام والكفر ليس عين الإسلام والكفر ، وإنما المقصود هو الأمن والخوف ، ومعناه أن الأمان إن كان للمسلمين فيها على الإطلاق والخوف للكفرة على الإطلاق فهى دار الإسلام ، وإن كان الأمان فيها للكفرة على الإطلاق والخوف للمسلمين على الإطلاق فهى دار الكفر . والأحكام مبنية على الأمان والخوف لا على الإسلام والكفر ؛ ولذا يجب أن يكون اعتبار الأمان والخوف أولى . فما لم تكن للمسلمين حاجة الى الاستئمان بقى الأمن الثابت فيها على الإطلاق ، فلا تصير دار الكفر . والأمن الثابت على الإطلاق لا يزول إلا بالمتاخمة لدار الحرب ، فتوقف صيرورتها دار الحرب على وجودهما أى المتاخمة وزوال الأمان الأول .

---

(٤) الشرح الكبير ج ١٠ ص ١٥١ .

كما أن ظهور أحكام الكفر لا يتم إلا بالمنعة ولا منعة إلا بالمتاخمة وزوال الأمان الأول .

وقال أبو يوسف ومحمد إن دار الاسلام تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها بغير حاجة إلى شرط آخر ، وحجتهما فى ذلك أن قولنا دار الإسلام أو دار الكفر إضافة دار إلى الإسلام أو إلى الكفر ، وإنما تضاف الدار إلى الإسلام أو إلى الكفر لظهور الإسلام أو الكفر فيها . كما تسمى الجنة دار السلام لوجود السلامة فيها ، والنار دار البوار لوجود البوار فى النار ، وظهور الاسلام والكفر ، بظهور أحكامهما ، فإذا ظهر الكفر فى دار فقد صارت دار كفر فصحت الاضافة ، ولهذا صارت الدار دار إسلام بظهور أحكام الاسلام من غير شرط آخر ، فكذا تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها .[1]

ودار البغى هى الدار التى يكون الأمر فيها للبغاة ، والبغاة ـ كما عرفهم صاحب البدائع ـ هم الخوارج وهم قوم يرون أن كل ذنب كفر ، كبيرة كانت أم صغيرة ، يخرجون على إمام اهل العدل ويستحلون القتال والدماء والأموال بهذا التأويل ، ولهم منعة وقوة[2] . وقد عرفوا فى كتاب تبيين الحقائق ، بأنهم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق[3] .

ومما يتصل بتحديد إقليم الدولة بيان حكم الجرائم التى ترتكب على السفن ، ومن رأينا أنه ليس فى الشريعة ما يتعارض مع إعطاء الجرائم التى ترتكب على السفن فى عرض البحار نفس الحكم المعطى لها فى القوانين الوضعية . أى أن السفينة تعتبر جزءا من الدولة التابعة لها ؛ فإذا فرضنا أن جريمة وقعت على سفينة تابعة للدولة الإسلامية ، فتعتبر وكأنها وقعت على أرض الدولة الإسلامية ، إذا كانت السفينة فى البحار العامة أو فى المياه الاقليمية للدولة الإسلامية ؛ أما إذا كانت السفينة وقت ارتكاب الجريمة فى المياه الاقليمية لدولة أخرى فإن الجريمة تعتبر واقعة على أرض الدولة الأخيرة .

---

(١) البدائع جـ ٧ صـ ١٣ و ١٣١ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٤٠ .

(٣) تبيين الحقائق جـ ٣ صـ ٢٩٣ .

هذه هى الأحكام التى ذكرها فقهاء الشريعة الغراء فى سريان القانون على المكان ، وإذا أردنا مقارنتها بالأحكام الوضعية وجدنا أن أبا حنيفة يأخذ بمبدأ إقليمية القانون دون سواه . فلا شأن له بالجرائم التى تقع خارج دار الإسلام ، ولو كان الجانى مسلماً . وأما الشافعى وأحمد ومالك فيرون — كقاعدة عامة — أن القانون الجنائى يسرى على كل المقيمين على أرض الدولة الإسلامية ، وهم بهذا يأخذون بمبدأ إقليمية القانون الجنائى ، ولكنهم يختلفون عن أبى حنيفة فى أنهم يأخذون أيضاً بمبدأ شخصية القانون الجنائى ، إذ يرون أن المسلم يلتزم أحكام الإسلام حيثما كان ، فإذا وقع منه ما يستوجب الحد أو التعزير أخذ بجريمته متى عاد إلى دار الإسلام . ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن عقاب المسلم الذى يرتكب جريمة فى الخارج لايتم إلا إذا عاد إلى دار الإسلام ، وهذا هو ما تقضى به المادة الثالثة من قانون العقوبات المصرى ، فهى تعلق العقاب على عودة المصرى إلى مصر .

بقيت مسألة أخيرة نرى بيان حكمها ، وهى : هل يجوز أن تطبق أحكام الإسلام على غير المسلمين الذين يرتكبون خارج دار الإسلام جرائم يرى فيها ولى الأمر اعتداء على المجتمع الإسلامى ؟ إن القواعد التى سبق ذكرها لا تسمح بذلك ، فالجريمة لم تقع فى دار الإسلام ، كما أن مرتكبها غير مسلم . وقد جاء فى تفسير القرطبى « إنه لا خلاف فى إسقاط ما فعله الكافر الحربى حال كفره فى دار الحرب [1] » . ولكننا مع هذا نرى أنه ليس فى قواعد الشريعة ما يمنع من أن يمتد سلطان المسلمين إلى غير المسلمين الذين يرتكبون جرائم خطرة تمس نظام الدولة وكيانها ، ولو ارتكبوا جريمتهم خارج دار الإسلام .

وإن الأحكام التى ذكرها الفقهاء فى سريان القانون على المكان كلها أحكام اجتهادية وليس هناك ما يمنع من الخروج عليها فى بعض الأحيان طالما كنا لا نخالف أساسا من أسس الدين . ولم نذهب بعيداً وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاقب بعض المشركين الذين وقع منهم ما اعتبره اعتداء على الإسلام والمسلمين ، وقد ارتكب هؤلاء المشركون جرائمهم بمكة أثناء هجرته عليه السلام ووجوده بالمدينة ؛ فأهدر عليه الصلاة والسلام دمهم رغم أنه لم يكن له سلطان

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٤٠٣

على مكة فى ذلك الحين . وقعت الجريمة فى مكة من غير المسلمين فعاقبهم عليه الصلاة والسلام . ومن ذلك ما روى أنه عند فتح مكة عهد عليه الصلاة والسلام إلى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم من قريش ، واستثنى من ذلك نفراً أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، ومن هؤلاء هبار بن الأسود والحويرث بن نقيذ بن وهب — وقد نسب إلى هبار أنه عرض لزينب بنت الرسول عليه السلام حين هاجرت من مكة إلى المدينة ، وكانت حاملا ، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها ، ولم تزل مريضة من أثر ذلك حتى ماتت ؛ وقد اشترك الحويرث فى هذه الجريمة ، كما أنه ارتكب جريمة مماثلة هى نخسه الجمل الذى يحمل فاطمة وأم كلثوم بنتى النبى عليه الصلاة والسلام فرمى بهما الجمل الأرض . وممن أهدر دمهم أيضا وحشى بن حرب الذى قتل حمزة عم النبى عليه الصلاة والسلام . ومنهم هند بنت عتبة زوج أبى سفيان التى مثلت بقتلى أحد ثم بقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . وكذلك منهم كعب بن زهير بن أبى سلمى الذى كان يهجو النبى صلى الله عليه وسلم فى شعره . ومنهم عكرمه بن أبى جهل ، والحارث بن هشام شقيق أبى جهل ، وزهير بن أمية المخزومى ، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، وقد لقى المسلمون على أيديهم أذى كثيرا .

وبعد أن فتح الرسول عليه الصلاة والسلام مكة عفا عن هؤلاء جميعا ما عدا الحويرث فقد قتله على رضى الله عنه[1] . وإن عفوه عليه الصلاة والسلام عنهم لا يقلل شيئا من القاعدة الشرعية التى يمكن استخلاصها من هذه الحوادث ؛ لأنه لا يملك العفو إلا من يملك العقاب ، كما أن العفو لم يحصل إلا بعد أن أهدر الرسول عليه الصلاة والسلام دمهم . وإن ما وقع من الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن القياس عليه وإعطاء ولى الأمر حق عقاب غير المسلمين على بعض الجرائم الخطيرة ولو ارتكبوها فى غير دار الإسلام ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن ما حصل فى هذه القضايا كان استثناء لا يصح القياس عليه .

وهكذا نجد الشريعة مرنة لينة فيها من الأحكام ما يناسب كل عصر ومكان . ولا عجب فى ذلك فهى شرع الله فى هذه الدنيا إلى أن يرث الأرض ومن عليها ؟

(١) القضايا الكبرى فى الاسلام ص ٤٤ وما بعدها ، وقد وضح هذه القضايا وغيرها وذكر أن ما قضى به فيها استثناء لا يجوز القياس عليه .

فى علم الكلام و دراسة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

---

١ ــ مدخل لدراسة علم الكلام الإسلامى :

هذا الكتاب ، الذى ظهر هذا العام بباريس باللغة الفرنسية ، ثمرة ناضجة من ثمرات الاتصال بين المسيحيين والمسلمين طلابا وأساتذة ، وهو كتاب ضخم يقع فى أكثر من ٥٠٠ صفحة ، ويعتبر بحق محاولة جادة لدراسة علم الكلام المقارن : إذ يهدف إلى تنظيم جهود علماء الكلام المسلمين والمسيحيين ، فى سبيل حل مشاكل هذا العلم ، ومقارنة بعضها ببعض . وقد قدمه للقراء فى الغرب مسيو « ماسينيون » شيخ المستشرقين والأستاذ بالكوليج دى فرانس بباريس وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر .

وهذا العمل الكبير تأليف مسيو « لويس جارديه » الفرنسى المتخصص فى الدراسات الإسلامية وبما كتب عن الغزالى وابن سينا ، والأب « قنواتى » الأستاذ الدومينكانى المصرى والمعروف جداً فى وسط الأزهر والجامعة العالمى والعضو « بلجنة ابن سينا » بوزارة المعارف والجامعة العربية .

وقد حرص المؤلفان على أن يحددا ، فى مقدمة الكتاب ، الأهداف التى عملا على الوصول إليها وهى ثلاث ، وإن كان جماعها فهم علم الكلام على ما هو عليه الآن :

١ ــ دراسة علم الكلام الإسلامى من ناحية قيمته الذاتية ، وهذا ما وصلا إليه بعد الرجوع للمراجع المعتبرة باللغة العربية ، وبعد الاتصال بكثير من رجالات هذا العلم فى الأزهر وغير الأزهر ، وفى هذه الناحية حاولا بنجاح فهم تكوّن مسائل العلم الكبرى ، ونظرياته السائدة ، ونموّ هذه وتلك ، مع مقارنات تاريخية زمنية فى المسيحية والإسلام .

٢ ـــ العناية ببيان ودراسة العلاقات الهامة التى تربط بين علم الكلام (تكونه ونموه) وبين التاريخ السياسى والدينى والثقافى للإسلام ؛ ذلك بأنه إن كان من المهم معرفة تسلسل النظريات والمدارس المختلفة فى هذا العلم ، فمن المهم جدا أيضا أن نعرف ما لكل من هذه النظريات والمدارس ؛ من أثر ودلالة فى تاريخ العالم الإسلامى .

٣ ـــ تجلية الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية فى هذا الجانب من وجهة نظر كل منهما ، وتوضيح ما يجمع بينهما من نواح مشتركة تدعو للمقارنة الموضوعية حقا ، وهذا هو موضوع علم الكلام المقارن بصفة خاصة . بذلك يتعرف كل من علماء الكلام فى المسيحية والإسلام الى الآخر ، وهذا ما عمل المؤلفان له فى هذا الكتاب .

ولا يمكن للقارىء إلا أن يبتهج لظهور هذا الكتاب الذى يدرس الإسلام حسب هذه الخطة ، دراسة موضوعية لا تحيز فيها ، وفى تبحر ومنهاج علمى دقيق . ذلك خير مما كان فى الماضى من جدل عقيم ، ساهم ـــ بكل أسف ـــ فى العمل على توتر العلاقة بين المثقفين فى المسيحية والإسلام ، حتى صار كل اتصال عقلى بينهم مستحيلا أو يكاد .

حقا ، ليس من الخير فى شىء للمسيحية أو الإسلام أن يتعصب كل من الجانبين على الآخر ، بل الخير كل الخير فى التعاون الوثيق بينهما لمحاربة الإلحاد والملحدين الذين يموج بهم العالم موجا حتى صار شرهم باديا وخطيرا .

إننا نثنى على هذا الكتاب القيم وعلى مؤلفيه الفاضلين ، وندعو الأزهر أن يكون من حظه نقله سريعا للعربية لتعريف دارس علم الكلام عندنا بجهود علماء اللاهوت المسيحيين فى سبيل حل مشاكل هذا العلم ؛ هذه المشاكل التى أحسوا بها قبلنا بحكم الزمن ، وأخذوا فى علاجها ووضع حلول لها .

٢ ـــ رأى فى دراسة علم الكلام فى الأزهر :

وهنا أرى الفرصة للتقدم برأى فى علم الكلام ودراسته حسب الأوضاع التى نعرفها اليوم بالأزهر .

علم الكلام ، كما يقول ابن خلدون ، « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعين المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » . أو بعبارة أخرى ، هو علم الغرض منه بيان العقائد الدينية كما ورد بها الكتاب والسنة الصحيحة ، والاستدلال لها والدفاع عنها .

ومعنى هذا أن هذا العلم يجب أن يلاحظ فيه أمران :

(ا) القيام على أدلة تتناسب وعقليات من تتوجه إليهم .

(ب) الرد على الفرق المخالفة ، ولكن التى لها وجود فى الزمن الذى نعيش فيه .

بعد هذا نقول :

إن الأدلة التى كان يحصل بها اقتناع وتسليم فيما مضى من الأزمان ، قد لا يحصل بها هذا فى الزمن الحاضر بعد تقدم العلم ، وبخاصة العلم الطبيعى ، الذى لا يسلّم إلا بما يقع فى دائرة التجربة والاختبار .

وإن الشاب اليوم الذى ضم إلى ثقافته الشرقية الإسلامية طرفا من علم الغرب الطبيعى المادى ، ليس من العقل أن نصطنع فى الجدل معه ما كان أسلافنا يصطنعون من الأدلة فى الجدل مع مخالفيهم المعاصرين لهم فى ذلك الزمن البعيد ، أيام كان الإسلام قوىّ الأسْر شديد العنفوان .

وإنّ كتب علم الكلام التى يشق بدراستها طلاب الأزهر ، والتى ينفقون فى فك غامضها قدرا كبيرا من طاقتهم العقلية ، إنما تتعرض لمن أصبحنا لا نحس لهم وجودا من أرباب المقالات المخالفة للدين الحق وعقائده الصحيحة ، ومن العجب أن نعكف على جدل قوم لا نكاد نحس لهم ركزا ، وأن نترك أمثال القاديانية والبهائية ، ولهم من النشاط الدينى ومن الدعاوة لمذاهبهم ما هو معروف فى أوربا وأمريكا !

إن على علماء الكلام أو التوحيد ، على الأزهر وكلية أصول الدين ، أن يطبّوا لداء الإلحاد الذى يقوم — فى رأى أصحابه — على أساس من علم العصر ، والذى نراه استشرى بين جانب كبير من الشبان المثقفين ثقافة علمية عالية . وإنى لأعرف

كثيرا من هؤلاء الشبان ؛ عرفتهم فى باريس ولندن ، وعرفتهم هنا بمصر إنهم ليقولون بأنه لم يقم لديهم دليل على وجود الله ، ويرون أن تفسير الوجود أو العالم ميسور دون اللجوء إلى فرض وجود الله . وإذا سألتهم عن الشبهات التى تحول بينهم وبين الوصول لليقين بوجود الله ، وإذا أخذت فى الجدل معهم مستعينا بكل ما عرفت من كتب علم الكلام ، لم تصل منهم إلى ما تريد ، وطالبوك بأدلة تستند إلى حقائق أو مقررات العلم الحديث .

وإن على علماء الكلام ، على الأزهر وكلية أصول الدين ، أن يتركوا الفرق الدابرة التى صارت تاريخا من التاريخ ، وأن يأخذوا فى دراسة الفرق أو الطوائف التى تحيا فى هذا الزمن ولها آراء لا تتفق والحق ، ولها نشاط جبار لا يقارن بما نحن عليه من ركود . فإذا استقامت لهم هذه الدراسة ، أخذوا فى الرد عليهم ، والجدل معهم ، والاحتجاج لدين الله الحق وعقائده الصحيحة بأدلة تتناسب وعقلية هذا العصر .

بدون هذا ، يكون علم الكلام علماً إثمه أكبر من نفعه ؛ ونكون جناة على طلابنا الذين نذشّئهم لغير زماننا ، ونعدّهم لقتال خصوم لم يعد لهم وجود ، ونسلّحهم بأسلحة لا تقوى - مع هذا - على النضال .

ولعل هذا الذى نحسّه هو الذى دفع العلامة المغفور له الشيخ حسين والى إلى أن يقول (١) بأن هذا العلم حدث فى زمن كانت الحاجة ماسة فيه إلى الرد على خصوم الإسلام من الدهريّين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة . أما الآن ، وقد ذهبت تلك الخصوم وجاء خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذاهب حاضراً ، وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله إذا بيّنه الراد على وجهه . وليس من الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة ، وترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك . فضلا عن ذلك ، فإن تلك الكتب ، كتب علم التوحيد ، فيها حجب كثيفة تمنع النور وتُحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتقاد ثابت صحيح .

وبعد : فلسنا بهذا نريد أن نقرل ، كما قال زميل لنا فاضل فى مجلة

---

(١) كتاب التوحيد جـ ١ صـ ٧٧ - ٧٨ .

رسالة الإسلام ، بأن « علم الكلام ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو انحراف عن سواء السبيل » ؛ كما أننا لسنا ندعو بما قلنا إلى عدم دراسة علم الكلام . إن المراد لنا بيان أن دراسة هذا العلم فى هذا الزمن على الوضع الذى كان عليه فى الماضى ، كتباً ومشاكل وأدلة ، لا خير فيه ، بل ربما أدى إلى شر كثير . بينما لو جعلنا هذا العلم يساير التطور العلمى ، فجددنا فى مشاكله وفى الفرق التى يرد عليها وفى الأدلة التى يستند إليها ، لكان حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ أداة لا بد منها ، أداة يكون فيها خير كثير فى هداية الضالين وتثبيت عقائد الدين ؟

الكفاف

قال على بن أبى طالب أمير المؤمنين : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك .

وجاء فى كتاب الهند : لا ينبغى للملتمس أن يلتمس من العيش إلا الكفاف الذى به يدفع الحاجة عن نفسه ، وما سوى ذلك إنما هو زيادة فى تعبه وغمه .

وقال حكيم : أقل الدنيا يكفى ، وأكثرها لا يكفى .

وقال محمود الوراق :

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى كى تنال الغنى وليس تعصى الله كى تفتقر

الحسين بن منصور الحلاج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

كان هذا الرجل أعجوبة من أعاجيب الوجود ، وكان آية من آيات الله على ما اختص به عباده المتفانين فى حبه وعلى ما ميز به أولياءه ؛ مما يقع فى حد الفتنة فى الناس حتى يهلكوا فى كثير منهم كما هلك الناس فى المسيح ابن مريم من قبل بالغلو . على أن بعض الناس يهلك فيهم كما هلك بعض الناس فى عيسى بن مريم بالقلى والضغن ؛ فالحسين بن منصور الحلاج رجل من أولئك الذين خالفوا متعارف الناس فى مألوفاتهم ، والذين خالفوا متعارف الناس فى اتجاهاتهم ، والذين خرجوا بالناس عن السنة الكونية ، بخرق العادات والوصول إلى كثير من المحالات مما تجد تفصيله فى الكتب ، وكان ذلك على أثر رياضات شهدها الخاصة ، وشهدها العامة ، وجرى الحديث بها بين أبناء العصر عامة : فقد روى له من صور الجهاد والمصابرة والتحامل على النفس ما عرف فى سير المتفانين فى ذات الله ، ثم ظهرت بعد ذلك الاتهامات له بالسحر ، وظهر بعد ذلك التقول عليه فيما نظن ، وظهر الدس فى كتبه ، كما ظهر فى كتب محى الدين بن عربى وغيره .

ولست أريد بذلك أن أقطع فى شأنه بعقيدة كما ترى من احتياطى فى العبارة ولا أن أحمل القارىء الكريم على مذهب فى حكمه ؛ فإن العلم عند الله . ونحن نعلم أو نظن أن الحسين بن منصور الحلاج سلك مسلك الزهادة والجهاد ، ونعلم أو نظن أنه خالط سيد الصوفية أبا القاسم الجنيد ، وأخذ عنه كثيراً من التهذيب والسلوك ، وأنه خالط غيره من الرجال أمثال الثورى وغيره ، وشهد له كثير من أهل البصائر ، ومن المعاصرين والمتأخرين ؛ ناهيك بالإمام القشيرى صاحب الرسالة الصوفية ذات الأثر العجيب فى التهذيب ، وناهيك بالإمام المؤرخ

الميزان ابن خلكان ، وناهيك بالشعرانى الجامع بين العلم الظاهر الغزير والمعارف الربانية والأسرار القدسية . كل هؤلاء لقد شهدوا للرجل كما شهد غيرهم من معايير الرجال ، ومن أهل النظر والاستبصار .

ومهما يكن فإننا سنعرض عليك صورة من صور المتصوفة ، وما كان لهم من مسلك واتجاه ، وما كان يجرى عليهم من محن وأحداث ، وفى كل شىء من التاريخ معتبر وفى كل شىء عظة وذكرى لمن كان له قلب أو لقى السمع وهو شهيد .

شهد الحسين بن منصور الحلاج العصر الثانى العباسى ؛ فعاصر المعتضد بالله ، وعاصر المقتدر بالله ، وفى عهده قتل ، وله فيه حوادث ، وفى أيامه ازدهر التصوف وظهر فيه كثير من كملة رجاله ، وقد صحب المترجم كثيرا منهم كما أسلفت عليك ، ويظهر من نقل كلامه ورواية آثاره أنه كان أديبا علما وشاعرا صوفيا معرقا فى المعانى الثرة الغزيرة ، وهو من النوع الصوفى الذى غلا بالشطح وإظهار المخبأ المستور من العلم كمحيي الدين بن عربى وابن سبعين ، وهو بخلاف النوع الآخر من أمثال الغزالى صاحب الاحياء والقشيرى صاحب الرسالة . وما نرى إلا أنه قتل ظلما ، وأنه قتل مستشهدا فى سبيل الله ، وأنه عند الموت كان يدين بخالص العبادة لله ، ويذكر مواجيده وهيامه فى ذات الله .

وقد روى أنه سئل وهو مصلوب عن التصوف فقال للسائل : أهونه ما ترى . وقد حدث خادمه عنه قال : لما كانت الليلة التى وعد فيها من الغد بالقتل ، قلت : ياسيدى أوصنى ، قال : عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك ، فلما كان من الغد أخرج للقتل فقال : حسب الواحد إفراد الواحد له . ثم خرج يتبختر فى قيده ويقول :

نديمى غير منسوب	إلى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشر	ب ؛ فعل الضيف للضيف
فلما دارت الكاسات	دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح	مع التنين فى الصيف

ثم قال : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ثم ما نطق بعد ذلك بشىء حتى قتل . ولله ذلك الثبات ، ولله

ذلك الهيام فى ذات الله على ما به من خلط وشطح لايدريه أو يشاطره فى مراميه إلا أمثاله ممن فتح الله أعينهم .

وبعد : فسأجمل لك شيئا من تاريخ حياته مسلسلا ، بعد إذ تعجلت لك بحكمى مرتكزا على رءوس النواحى الدائرة فى كل أطواره ؛ قالوا : إنه ولد بالبصرة فى موضع يقال له الطور ، وتلمذ لسهل بن عبد الله التسترى ، وشقيق البلخى . ويقول الشعرانى تبعا لابن خلكان والبغدادى الخطيب : إنه صحب الجنيد [1] والنودى [2] وعمرو بن عثمان المكى [3] والقوطى وغيرهم .

وصرح البغدادى أن ذلك كان بعد أن دخل بغداد قادما إليها من واسط التى نشأ فيها بعد أن بدأ حياته فى مولده (الطور) .

وببغداد كان ظهور أمره ، فكان يلبس المسوح أحيانا ، ويمشى بخرقتين أحيانا ؛ شأن الزاهدين المتصوفة ؛ وقدم بغداد وعمره ثمانى عشرة سنة ، فأقام مع عمرو المكى ثمانية عشر شهرا ، ثم تزوج بأم الحسين بنت أبى يعقوب الاقطع .

ثم إنه خرج الى مكة ، فجاور بها سنة ، ورجع الى بغداد مع جماعة من الفقراء الصوفية ، فقصد الجنيد بن محمد وسأله عن مسألة فلم يجبه ونسبه الى الادعاء فاستوحش ورجع الى تستر وأقام نحوا من سنة ووقع له عند الناس قبول عظيم حتى حسده ـ كما يقول البغدادى بروايته ـ جميع من فى وقته ، وكان عمرو بن عثمان المكى لايزال يكتب اليه ، ويتكلم فيه بالعظائم ، لانه تزوج من بغداد على خلاف أمره . وتقول هذه الرواية إن ذلك التشنيع دفعه الى أن تجرد ورمى لباس الصوفية ، ولبس قباء وأخذ فى صحبة أهل الدنيا ثم خرج وغاب خمس سنين انتهى فيها الى خراسان وما وراء النهر ؛ ثم رجع الى فارس ، فأخذ يتكلم على الناس ويدعو الى الله ، فلقب فى فارس بأبى عبد الله الزاهد ، وقد صنف هنا لك عدة تصانيف ،

---

(١) اسمه الجنيد وكنيته أبو محمد ، ويعرف بسيد الطائفة ، توفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ

(٢) هو النودى بالنون وكان من أقران الجنيد ولم يكن فى وقته أحسن منه طريقة ولاألطف كلاما

(٣) كان من أصحاب الجنيد وانتهت إليه الأمامة فى الأصول والطريق . توفى سنة ٢٩١

ولكنهم لم يذكروا ما هي ؟ وهنا لك كان يتكلم على أسرار الناس ، وما في قلوبهم ، فسمي حلاج الأسرار ، وصار الحلاج لقبه . ونحن نشك في أن ههنا قطعة مدسوسة لا تلائم جنبتي الكلام ولا تتفق مع حال رجل بلغ ذلك المقام : وهي أنه تجرد وصحب أهل الدنيا . فأي داع كان يدعوه الى ذلك ؟ إن ما ذكروه من الطعن عليه ، وإن زهده في طريق الله لا يصلح داعيا الى ذلك ، ولا هو منه بسبيل . بل لعله جدير في المنطق السليم أن يزيده تمسكا . ومهما يكن فقد عطفت نهاية الحديث بما رده سيرته الأولى وكفى .

ثم قال الراوي : إنه مازال ينتقل من بلد إلى بلد حتى دخل مكة ثانية ، وخرج منها ومعه خلق كثير ، ولبس المرقعة والفوطة ، وحسده أبو يعقوب النهرجوري [1] . وتكلم فيه بالسوء . ثم إنه خرج إلى بلاد الشرك فقصد إلى الهند ثم خراسان وغيرها ، ودعا الخلق إلى الله وصنف لهم كتباً ، ثم كثرت فيه الأقاويل بعد رجوعه من هذه السفرة ؛ فقام وحج ثالثاً وجاور سنتين ثم رجع ، وتغير عما كان عليه ، واقتنى العقار ببغداد وبنى داراً ودعا الناس إلى معنى له ، ثم خرج عليه محمد بن داود وجماعة من أهل العلم ، وكثر اللغط حوله فقيل ساحر وقيل مجنون ، وأصر الكثير على أنه واصل ذو كرامات وأحوال ، ولكن السعاة سعوا به إلى السلطان فأخذه وحبسه .

وتقول رواية أخرى في سبب تسميته الحلاج إنه دخل واسط فتقدم إلى حلاج ووجهه في عمل له فقال له : إني مشغول بقطني ، فقال : اذهب حتى أعينك ، فذهب الرجل ورجع فإذا القطن كله محلوج فسمي الحلاج اه .

ومما رواه البغدادي في تاريخه ، وهو ذو دلالة صادقة على أن الحلاج ممن لهم قدم صدق في التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، ما حدث به عليّ التوزي قال : رأيت الحلاج ثلاث مرات في ثلاث سنين ، فأول ما رأيته أنني عثرت به بعد محاولة طويلة على بعض جبال أصفهان ، وعليه مرقعة وبيده ركوة ، فلما رآني قال : علي التوزي ثم قال :

---

(١) اسحق بن محمد صحب الجنيد وتصوف توفي سنة ٣٣٠ هـ .

لئن أمسيت فى ثوبى عـديم لقد بليـا على حر كريم
فلا يغررك إن أبصرت حالا مغيرة عن الحـال القـديم
فلى نفس ستتلف أو سترقى لعمرك بى إلى أمر جسيم

ثم فارقنى وقال نلتقى إن شاء الله.

فلما كان بعد سنة أخرى سعيت إليه وهو بالخان من بغداد فرأيته وعليه صوف أبيض، فلما رآنى قال: على التوزى؟ قلت نعم، فقال: الصحبة، ثم قال:

دنيا تغـالطنى كأنـ ـى لست أعلم حالهـا
حظر المليـك حرامها وأنا احتميت حلالها
فوجـدتها محتاجة فوهبت لذتهـا لها

ثم أخذ بيدى وخرجت من الخان، ثم قال: أريد أن أمضى إلى قوم لاتحملهم، ولايحملونك، ولكن نلتقى، وملأ كفى دنينيرات، ثم غاب عنى. وقيل لى بعد سنة إنه ببغداد؛ فجئته فقيل لى: السلطان يطلبه، فبينا أنا فى الكوخ رأيته فى يوم حار، وعليه فوطة رملية يختفى بها، فلما رآنى بكى وقال:

متى سهرت عينى لغيرك أوبكت فـلا أعطيت ما منيت وتمنت
وان أضمرت نفسى سـواك فلا رعت رياض المنى من جنتيك وجنت

ثم قال: يا على النجاء. أرجو أن يجمع الله بيننا إن شاء الله.

وقد ذكروا أنه أول ما دخل مكة جلس فى صحن المسجد سنة لا يبرح إلا للطهارة أو للطواف ولا يبالى بالشمس ولا بالمطر، وكان يحمل اليه كل عشية كوز ماء للشرب وقرص من أقراص مكة فيأخذ القرص ويعض أربع عضات من جوانبه ويشرب شربتين من المـاء: شربة قبل الطعام وشربة بعده، ثم يضع باقى القرص على رأس الكوز فيحمل من عنده.

ثم صار يجلس على أبى قبيس فقصد إليـه جماعة من أهـل الفضل منهم أبو عبد الله المغربى فإذا هو جالس كذلك فى الشمس والعرق يسيل منه على تلك الصخرة فرجع بأصحابه وقال لبعضهم: إن عشت ترى ما يلقى هذا لأن الله يبتليه بلاء لا يطيقه. قعد بحمقه يتصبر مع الله.

وذكر أنه لمـا كان فى نسكه بالبصرة وهو موضع الإعجـاب من متصوفيها

حملت إليه دراهم ليوزعها فسترها فى المسجد ؛ فلما توافد عليه الفقراء وزعها عليهم فأشاعوا أنه يقلب التراب دراهم ، ونسبوا اليه المعجزات (كذا) فخرج من البصرة بعد أن برم بذلك ، والإشاعات لا تزال حافة من حوله . والحديث عنه من هذه الناحية يطول جداً . على أن هناك ناحية أخرى تلطخ وجه كل هذه المحامد كما أشرت لك : ناحية تقول إنه ساحر محتال ، وإنه تعلم السحر بالهند ؛ فكان يصنع به العجائب ويشفى من الأمراض ، ويوهم استحضار كل بعيد غير مقدور ، والوصول إلى كل متمنى أو مشتهى . فقد نسبوا إليه فى ذلك الشىء الكثير ، وتحدثوا عنه بكل مبشع منفر .

ونحن نكرر القول أننا نرجح صدق الرجل وإخلاصه ، وأنه كان فى رياضة عميقة ، وهذه الرياضة العميقة وضعته فى مقامات وأحوال كانت تضح عليه كثيرا من الشطاح وما يوهم وحدة الوجود وما يوهم الإشراك بالله أحيانا كالذى نسب اليه من قوله « ما فى الجبة إلا الله » وما إلى ذلك . على أن فى كثير من ذلك دسا وتزويرا نشأ من حسد وبغى فى معاصريه من أهل الدنيا الذين كرهوا أن يسبقهم إلى إقبال الناس إنسان .

وإنى لا أزال كلما ذكرت كلمته التى قالها ، وهو يساق إلى الموت ، وهو يخطر فى مشيته ، ويتيه عند صعقته « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » لا أزال كلما ذكرت هذه الكلمة خشع منى القلب ، ولان منى الجلد ، وأحنت منى الرأس ، وغشيتنى غاشية من العزوف عن الدنيا والإعراض عما فيها من زخرف ؛ لأن فيها ثباتا على الحق ، ولأن فيها نورا من الحق ، ولأن فيها شهودا للحق فى ساعة تضل فيها العقول ، ويطيش فيها كل حليم ؛ ولا أزال كلما ذكرتها ، دعت إلى نفسى أختها من كلمة الحسين بن على وقد أخبر بمن قتل من أصحابه فاغرورقت عيناه ثم قال « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » أو كلمة الذى وقف فى المعركة واحتدم النزال فألقى بتمرات كان يأكلها وقال « وعجلت اليك رب لترضى » ، وغير هؤلاء من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وجاهدوا فى الله حق جهاده . فكل من أساء الرأى فى مثل الحسين بعد هذا فلعله إلى الضلال أدنى منه إلى الرشاد ، وإن له لأسوة فى الأنبياء والصالحين من قبله .

السيرة المحمدية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

السيرة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - مادة خصبة للدرس والتحليل ، والشرح والبيان ، وقد تناولها بالكتابة أدباء من العرب والعجم ، واختلف منحى كلا الطرفين ، وتباين نظر كل من الفريقين ، والمؤرخون من غير المسلمين حينما كانوا يخوضون فيها ، لم يكونوا يقصدون من هذا الخوض تسجيل الحوادث ، وإثبات الوقائع ، وتوقيت المفاجآت التى صادفت ذلك الرجل باعتباره داعية من دعاة الإصلاح ، ودهاقين السياسة ، وأبطال التطورات الفكرية ، والأحداث الاجتماعية ، إنما كانوا يكتبون بريشة الفلسفة ، وأقلام الحكمة ، وعلى ضوء من إشعاعات علم النفس فى أحدث نظرياته ، وأجد آرائه التى لم يجد بعدها ما ينازعها ، أو يتعارض معها .

أما المسلمون — مع الأسف — إلا قليلا منهم ، فإنهم عنوا بها من ناحية شمائل صاحبها ، وبالغوا أولم يبالغوا فيما لا يترك فى ذهن القارىء سوى الندم على ضياع الوقت فى هدف ما كان أجدره أن يضيّعه فى غيره ، أو يوفر على نفسه راحته ونظره ، وجهده وتفكيره . ولعل السر فى ذلك أن معظم ما بأيدينا من تلك المؤلفات يرجع إلى عهود تدلى ّ اللغة ، وانحطاط أساليب البيان ، وأن النزعة التى كانت تسيطر على الكتاب — حينئذ — نزعة قصصية ، تميل إلى أن تخلع على الموضوع ثوب الرواية ، وتكسوه برداء التمثيل ، بحيث يكون له ظلال وألوان .

ولو أن تلك العناية انصرفت إلى خلق موضوعات ، وابتكار معان ، يتصيدها الأديب من تلك الزوايا ، وفى خلال السطور ، لكان منها دروس نافعة للشباب

الطامح ، والمصلحين الاجتماعيين ، من أولئك الذين يحاولون محاولة اليأس حتى إذا ما وجدوا إعراضاً ، أو صادفوا فتوراً ، ألقوا بسلاحهم ، وكفكفوا من دعوتهم ، وأخفتوا من أصواتهم ، ثم راحوا يحيلون على أسماعهم تلك النغمة « عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم » وأخذوا يتصورون أن فتح تلك القلوب المغلقة ، والعيون المغمضة ، رابع المستحيلات على من يمى وجدانه به ، أو يطمع نفسه فيه .

مع أنهم حينما يُمرُّون على أدمغتهم لوحة سينمائية لما لاقاه رسولهم الكريم من العنف والإيذاء ، والعنت والمشقة ، والكيدوالمكر ، والتآمر والتربص ، والمطاردة والسفه ، والتنفير والكراهية ، والمهانة والازدراء ، يعلمون حق العلم أنهم يعيشون على هامش الحياة ، أو يجاهدون جهاد الأطفال ، لاجهاد الأبطال ، وأن الزعيم أو السياسى إذا لم يجعل حياته منذ أول يوم يحس فيه بمعنى الحياة نصباً دائباً ، وعناء دائماً ، وتعباً متواصلا ، وتضحية مستمرة ، لايذكره الناس بالخير ، ولا يسجل التاريخ اسمه فى عداد المصلحين « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » .

وإذا كان بعض المحدثين من المتأدبين يروضون يراعاتهم على هذا النمط من الكتابة التى ننشدها للسيرة المحمدية ، مستعينين بالزخرف البيانى ، والأسلوب البلاغى ، والجرس القصصى ، فإننا نرجو أن يتولى تلك القيادة « رجال الدين » لأنهم أقدر على أن يبرزوا السيرة فى معرض قشب من الجمال والروعة ، والسحر والبراعة ، والإبداع والأنق ، والخلابة فى الحسن ، والمهارة فى التصوير ، لا لأنهم جهابذة الأدب ، وأساطين البيان ، وملوك الفصاحة ، ولكن شيئاً واحداً لابد من توفره لمؤرخ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ربما كانوا هم أعرف به ممن عداهم من أهل اللسن والمنطق ، ذلك هو فقه الدين ، الذى انطوت عليه تلك الحقبة المباركة من السنين والأعوام ، ولا أعنى بالفقه هذا الذى تضمنته الكتب مما يعرف بالعبادات والمعاملات ، إنما أعنى به حكمة التشريع ، وأسرار هاتيك التكاليف .

فمحمد يموت أبوه وأمه ، وينشأ تلك النشأة فى رحاب الضنك والفقر

« ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » ثم لا يزال يدرج فى مدارج الكمال فإذا هو مختار العناية الإلهية المهمة العظمى ، وعلى الرغم من إذعان قريش لفضله ونبله ، وأدبه وخلقه ، وحلمه وعقله ، تأبى عليه ذلك الاختيار ، وتستصغره أن يكون هو من دونهم صاحب هذا الشرف ، وحامل أعباء أمانة السماء إلى أهل الأرض « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ثم يكون ذلك فاتحة تخبطهم ، وابتداء غوايتهم ، وطليعة تمردهم ، ومطلع عنادهم الآثم ، وفجورهم الظالم ، وطغيانهم المبين . . . ويترك لهم موطنه الحبيب ، ومولده العزيز « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » .

ولم يكد يستوطن دار الهجرة حتى يلاقى من رحابة صدور الأنصار ، واستعدادهم لتلقى دعوته بالقبول ، ما ينسيه ما تجرعه من قوم أرهقوه وكادوا له ، وحملوه على الفرار ، وساقوه إلى ذل الغربة ، ومضاضة البعد .. وهو حين يستوثق من القوة ، ويتأكد من الغلبة ، ويوقن بالنصر ، يكر إلى البلد الذى لفظه ، والقوم الذين طاردوه ، لا ليتشفى بالفتح ، أو ينتقم بالغزو ، ولكن ليعلمهم درسا من العفو عند المقدرة ، والصفح عن المذنب ، والتجاوز عن هفوات المسيء ، وقد محت حزازته ، وأذهبت حفيظته « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

وقد كان مع الشدائد التى تحملها ، والمتاعب التى صادفها ، والأهوال التى تقحمها ، والأذى الذى استهدف له ، لا يرى إلا أنه فرد عادى يحتاج إلى رعاية الله إياه ، وحفظه له ، وعنايته به « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

وما قصدت إلى التاريخ كما يقصد المؤرخون ، فإن ذلك أمر شبع منه تلامذة المدارس حتى بشموا ؛ بل أردت ما وراء التاريخ ، وأرجو أن أكون وصلت إلى ما أهدف إليه من جعل « السيرة » وسيلة لا غاية ، وروحا لا جسما ، ولبابا لا قشورا ، والمجال فسيح ، والميدان واسع ، والموضوعات التى يقصد إليها الكاتب أكثر من أن يأتى عليها مقال ، أو يحصيها إحصاء صحيحا حديث عابر ، وتفكير خاطف ، وكتابة عاجلة . وإذا كان الشعراء يجعلون من الحبة قبة ، ويخلقون من لا شيء شيئا ، فما أحوجنا بصدد هذه « الدعوة الجديدة » أن نستعين

بالتصوير الشعرى ، وأن نستعيده للوصول إلى هذه الغاية النبيلة ، والمقصد الأسمى ، وقد رأينا أمثلة لذلك رائعة مما عالجه هؤلاء فى قصائدهم كشوقى وغيره من فرسان القريض .. ولا علينا إذا جردنا لتلك الحملة أقلاما مسددة ، وبيانا مصوّبا ، وأدبا عاليا ، وبلاغة سامية ، فإن الأدب ينقاد له الجامح ، ويلين به الشامس ، ويخضع لإرادته الأبى ، وإلا فما بال أبى بكر وقد أدهشه بيان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذه سحر ألفاظه يقول : بأبى أنت وأمى لقد طوّفت فى المجامع ، واستمعت إلى الخطباء والشعراء ، فلم أر أفصح بياناً ، ولا أقوم لساناً منك يا رسول الله ، فيقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . . !!

حكم منثورة

قال عمر بن الخطاب : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وفى المأثور : خير من العجب بالطاعة أن لا تأتى طاعة .

ضاحك معترف بذنبه ، خير من باك مدل على ربه .

سيئة تسيئك ، خير من حسنة تعجبك .

وقال الحسن : ذم الرجل لنفسه فى العلانية مدح لها فى السريرة .

وقال حكيم : من ذكر عيوب نفسه فقد زكاها .

وقال معاوية لرجل : من سيد قومك ؟ قال الرجل : أنا . فقال معاوية : لو كنت كذلك لم تقله .

وفى الحديث : إياكم والشرك الأصغر . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الرياء .

وقال لقمان لابنه : احذر واحدة وهى أهل للحذر . قال : وما هى ؟ قال : إياك أن ترى الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر .

وفى الحديث : من أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كنت تضمر حبه لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

نذير من الغرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

يعلم كثير منا ما يلقى الناصحون فى مصر وبخاصة علماء الأزهر من مصاعب فى سبيل دعواتهم الإصلاحية ، والتنبيه إلى الكوارث التى تنزل بالمجتمع المصرى من كثير من وسائل الترفيه واللهو ، ومن روايات السينما والتمثيل بوجه خاص ، لا لأنها أصبحت من مألوفات الحياة ، بل من ضرورياتها لدى بعض النـاس . ويلمس كثير منا خطر هذه الروايات على أولئك الشبان والشابات ممن يحول دون تبصرهم فى العواقب ووزنها بميزان المنطق والعقل شيطان العاطفة ، وفورة الشباب ، وللعاطفة شيطان قوى قاهر ، وللشباب سلطان سلط قادر .

ولا شك أن بعض ما تغمرنا به المدنيـة الحديثة من الأشرطة السينمائية والروايات التمثيلية له خطر على أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا التى نعتز بها ، ويعترف بقدرها وحسن أثرها فى سلامة الأسرة والمجتمع أهل النظر والغيرة من المصريين والأجانب .

ولا شك أيضاً فى أن بعض هذه الأشرطة ـ وبخاصة التى تعرض للمسائل الجنسية ـ توجه الشباب وجهة لا يرتاح لها أهلهم ، ولا ترضى عنها أمتهم ، وتعرضهم للانهيار الخلقى ، وتفتح لهم سبل الغواية ، وترشدهم إلى وسائل الحصول إلى غاياتهم الدنيئة ، وترسم لهم طرق الفرار من المسئوليات الأدبية والقانونية .

وليس مما يحتاج إلى دليل أن كثيراً من العلاقات الآثمة بين الشبان والشابات التى انتهت بنتائج خطيرة تسببت فى كثير من الأحيان عن مشاهدة الأشرطة السينمائية الماجنة التى تفيض بقصص الحب الداعر والغرام الفاجر ، وتدفع إلى الانزلاق فى مواطن الغواية ، بما تزين من لذائذ الحب ، وتشرح من أسباب الهيام ، وقلما تخلو رواية من الروايات من ذكر الهوى والهيام ، واللوعة والغرام ؛ بل إنه

فى الغـالب لحمتها وسداها ، ومبدؤهـا ومنتهاها . وناهيك بآثار ذلك فى نفوس الشباب ، وإلهاب غرائزهم ، وإثارة عواطفهم . ولو أن ناصحا أبان عن هذا الخطر لأولئك المفتونين بوسائل اللهو وبروايات السينما والتمثيل بوجـه خاص ، لهزوا أكتافهم ، وأنغضوا رءوسهم ، واستهزءوا به وتضاحكوا منه ، ونسبوه إلى الأجيال السابقة والتاريخ البعيد ، واتهموه بالتزمت والتعنت والحذلقة والتفلسف وما إلى ذلك مما حفظوه ليجادلوا به عند الحاجة عذراً واهيا وحجة داحضة .

ولـكن قد يُقنع هؤلاء أن نروى لهم عن الغرب ما لمسه الغرب من أخطار هذه الأشرطة على ناشئتهم ، ممـا دعا عقلاءهم أن ينذروا قومهم به ، وأن يحذروا ناشئتهم منه ، وقاية لمجتمعهم أن يتفكك ، ولأخلاقهم أن تنحل .

وها هو ذا نذير من نذر الغرب ، ننقله عن صحيفة من صحفهم الرشيدة ، لعل فيه لهؤلاء المفتونين ولغيرهم عبرة تستيقظ لهـا عقولهم ، وترشد بها نفوسهم ، وتبعثهم على أن يحاسبوا أنفسهم وأبناءهم ، فيقفوا من هذه الروايات موقف المتبصر الحذر لأخلاقهم وأخلاق المجتمع .

ذكرت جريدة المصرى لمراسلها فى لندن أن جريدة « افننج استاندد » نشرت مقـالا طويلا حذرت فيه من عواقب الاندفاع فى التربية الجنسية خصوصاً بين الأطفـال الذين لم يتجاوزوا الخـامسة عشرة من عمرهم ، وقالت : إن أكثر من فاجعة حلت بالشعب الانجليزى نتيجة لعدم التبصر وترك التعاليم الدينية جانبا والاندفاع وراء علماء العصر الحديث والداعين إلى التحرر .

ودللت الجريدة على صحة ماذهبت إليه فى قرية « ارثون ريفرز » وقالت : لقد ظلت هذه القرية تعيش فى سلام إلى عهد قريب أو إلى اليوم الذى عرض فيه فلم سينمائى عن التربية الجنسية ، فلم يكد يعرض هذا الفلم على فتيات القرية وفتيانها حتى بدأت الدعائم التى شيد عليها مجتمع القرية تهتز وتـكاد تسقط فوق رءوس أهلها ، ولقد حدث الزلزال عند ماتردد فى أنحاء القرية أن فتاة غير متزوجة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها قد وضعت طفلا وانتشر الخبر بسرعة فى القرية !.

وأجرى تحقيق دقيق أسفر عن اكتشاف حقائق روعت السكان وأدخلت الذعر فى قلوبهم . فقد تبين أن ٤٧ فتى تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسابعة

عشرة قد ارتكبوا فى اليوم التالى لعرض الفلم السينمائى المذكور أعمالا خارجة عن العرف ، مع فتيات لم يتجاوزن الخامسة عشرة من عمرهن . وقال النائب العام فى تأثر ظاهر : إن هـذا الفلم قد ترك أثراً فى نفوس الأطفال .

هـذا بعض ما نشرته جريدة المصرى نقلا عن الجريدة المذكورة مما يسمح وقار مجـلة الأزهر بنشره فقط ، نسوقه كدليل بالواقع — وليس بعد الواقع دليل — لا لنقنع به هؤلاء المفتونين بمظاهر المدنية الحديثة فحسب ، بل لننذر به آباء الفتيات والفتيان بالخطر الذى يتهدد أبناءهم من الإسراف فى مشاهدة ما يعرض من الروايات دون تمييز لما لا يحسن مشاهدته منها وما يحسن ، ضنا بمستقبلهم ، واحتفاظاً بهم عدة للوطن وذخراً للأمة .

فى الحروب

قيل للقائد المشهور المهلب بن أبى صفرة : ما أعجب ما رأيت فى حرب الأزارقة ؟ وكان من قواد القواد على عهد عبد الملك بن مروان ، فأجاب : فتى كان يخرج إلينا منهم فى كل غداة فيقف فيقول :

وسائلة بالغيب عنى ولو درت مقارعتى الأبطال طال نحيبها
إذا ما التقينا كنت أول فارس يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شىء إلا أقعده ، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك .

وقال : هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟
قال : ما سلمت من ذعر نبه على حيلة ، ولم يغشنى ذعر سلبنى رأيى .

قال هشام : هذه والله البسالة ! .

وقيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنا مائة لم نكثر فنتكل ، ولم نقل فنذل .

وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيراً فى الحرب بقول حصين بن الحمام :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وقالت الخنساء :

يهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لهـا

مكانة علم الأخلاق من الفلسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

روى ابن أبي أصيبعه في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء أن «فلوطرخس» قال: إن فيثاغورث أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم [1]. وقال «بارتلمي سانتهلير» في مقدمة كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس ترجمة عميد الفلسفة في الشرق أستاذنا الجليل «أحمد لطفي السيد باشا» قال: إن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية «سيفونيا» أجاب بأنه فيلسوف، وهو اسم لم يسمع من قبل.

وعلى ذلك يكون فيثاغورث أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم، وأول من أطلق كلمة فيلسوف على من يتأمل ظواهر الكون الإلهية الأبدية الأولية التي لا تتغير. وقد يكون من الحسن أن أنقل هنا كلمة فيثاغورث نفسه واضع هذا الاسم ففيها تحديد لمعنى الفلسفة والفيلسوف، قال:

«حال الناس في الحياة يسعون فيها يشبه حال الجمهور يتقاطرون إلى الأعياد الرسمية؛ ففي جمعيات الجمهور الفسيحة لكل واحد من الساعين إليها أغراض مختلفة، أحدهم يقصدها ليبيع فيها بضائعه مدفوعا بحب الكسب، وآخر لا يقوده إليها إلا حب المجد، والرغبة في أن ينال قصب السبق في القوة أو في المهارة، وطائفة أشرف من هؤلاء لا يظهرون فيها إلا لمشاهدة جمال محال تلك الاجتماعات، وعجائب الصناعة المعروضة لأنظار الجميع؛ كذلك في الحياة للناس الذين تضمهم الجمعية الإنسانية مشاغل متباينة؛ فمنهم المجرورون بجواذب الثروة والتمتع التي لا تقاوم، وآخرون مملوك عليهم أمرهم بالطمع في السلطان والشرف وهما لا ينالان إلا بالحروب الحادة، والمنافسات التي تسفك الدماء

---

(١) ج ١ ص ٤٣ الطبعة الأولى بالمطبعة الوهبية (٢) ص ٧٨

ولكن الغرض الأسمى للرجل هو إمعان النظر فيما فى هذا الكون من الجمال المتنوع الذى يقدمه لأنظارنا ، وبذلك يستحق عنوان فيلسوف . فمن الحسن أن ينظر المرء إلى أقطار السموات الفسيحة ، يتتبع سير الأفلاك التى تتحرك فيها على قدر غاية فى النظام ، ولكنه لا يستطاع فهمه جيدا إلا بالمبدأ المعقول المجرد الذى يسير الكون ، ويحصى كل شىء عدداً ومقياساً ؛ فالحكمة تنحصر فى التعرف بقدر الممكن لهذه الظواهر الإلهية الأبدية الأولية التى لا تتغير . والفلسفة ليست إلا التتبع المستمر لهذه الدراسة الشريفة التى تنير الناس وتصلحهم » .

والسبب الذى دفع فيثاغورث إلى وضع هذا الاسم ، هو اعتقاده أنه لا ينبغى أن تضاف الحكمة لغير الله ؛ فالحكيم وحده هو الله ؛ ولذلك استبدل كلمة حكيم بكلمة فلسفة ، فدعا نفسه فيلسوفا أى محبا للحكمة . وكان اليونان الأولون الذين عنوا بالبحث عن حقيقة المادة التى وجد منها هذا الكون كطاليس الملطى ـ نسبة إلى بلدة يقال لها ملطية فى آسيا الصغرى ، وفى هذه البلدة انبثق أول شعاع من أشعة الفكر الفلسفى ـ و « أنكسمندر » ، وأنكسمينيس » كانوا يسمون أنفسهم « حكماء » فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى وضع هذا الاسم .

وعلى ذلك أيضاً تكون كلمة فلسفة كلمة يونانية ، ومشتقة من كلمتين اثنتين: الكلمة الأولى « فيلوس » ومعناها محبة . والثانية « سوفيا » ، ومعناها الحكمة . فيكون إذن معنى الفلسفة : هو محبة الحكمة . ومعنى الفيلسوف : محب الحكمة . وعرفتها اللغة العربية لما ترجمت إليها كتب اليونان . ومما يذكر عن فيثا غورث هذا أنه أخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام ، وكان يدعى أنه استفاد ما استفاد من مشكاة النبوة . ويحدد بعض المؤرخين مدة إقامة فيثاغورث بمصر باثنين وعشرين عاما اتصل فيها بكهنة مصر كما اتصل بالمجوس فى بابل لما أسره عسكر قمبيز وسيق إليها . ولما رجع الى وطنه ـ جزيرة ساموس [1] ـ وهو متقدم فى السن ، أى كانت سنه ستا وخمسين سنة على قول بعض المترجمين له فتح فيه مدرسة وظل السموسيون الفخورون

---

[١] Samos

بمواطنهم ، يعقدون مداولاتهم السياسية قرونا عدة بعد ذلك فى مجلس نصف حلق مسمى باسم فيثاغورث . ويؤثر عنه أنه كان يقول : « كما أن بدء وجودنا وخلقنا من الله سبحانه هكذا ينبغى أن تكون نفوسنا منصرفة الى الله » وكان يقول : « الأقوال الكثيرة فى الله علامة تقصير الإنسان عن معرفته » .

أما أين ، ومتى ، وكيف نشأت الفلسفة ؛ فأقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليونانى « الألياذة والأودسه » المنسوبتان لهوميروس الذى يقول عنه بعض المؤرخين : إنه ولد وعاش يقيناً على شطوط آسيا الصغرى ، وفى جزرها قبل الميلاد بنحو ألف عام . وإذا رجعنا إلى هاتين القصيدتين ؛ لنحكم بهما على الفكر اليونانى فى ذلك الوقت استطعنا أن نقول : إنه كان يجرى وراء الخيال أكثر مما يجرى وراء العقل ؛ فهو يفسر ظواهر الكون بتشبيهات فيها سذاجة وإسراف . وإلا فكيف نفسر أن الأرض إله ، وأن هذا الإله ولد الجبال الشاهقة والسماء المزدانة بالكواكب ، ثم تزوجت الأرض من السماء المحيطة بها من كل جانب فولد لها إقيانوس والأنهار ، وأن أقيانوس هو المصدر الأول للأشياء .

وكيف نفسر أن الآلهة وكلهم فى صور بشرية يؤلفون حكومة ملكية على رأسها « زيوس [1] » لايرعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه .

نسير إلى الأمام قليلا إلى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ فتسمع « هزيود » فى ديوانه « الأعمال والأيام » ينطق بكلام تسوده فكرة عامة هى فكرة العدالة ، فيقول : « السمك والوحش والطير يفترس بعضها بعضاً ؛ لأن العدالة معدومة بينها ، أما الناس فقد منحهم « زيوس » العدالة وهى خير وأبقى ، ويتقدم بنا الزمن فنرى فى اليونان رجالا نبغوا ، أشهرهم الحكماء السبعة ، وسواء ثبتت قصتهم أم لم تثبت ، فنهم سولون (٦٤٠—٥٥٨ ق.م) ذلك المشرع العظيم ، فلقد وضع قوانين يدير الناس أفعالهم على مقتضاها . منها :

١ — كل إنسان ثبت عليه أنه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة واتهم بذلك ثلاث مرات ؛ فإنه يفضح على رءوس الأشهاد ، وكذلك كل ولد يبذر فى أمواله ويحرم

[١] Zeus

أبويه من القوت إلا إذا لم يعلماه صنعة ، بخلاف الوالد إذا بخل بالإنفاق على ولده فإنه لا يعاقب بهذه العقوبة .

٢ — كل من اجتمع بالنساء المتبرجات الزوانى وعاشرهن لا يكون من أرباب مشورة الوعظ أصلا ؛ لأنه لا يؤتمن على الأهالى .

٣ — كل من سكر من أرباب المشورة يعاقب بالقتل .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى عد الحكماء السبعة فإنهم لم يختلفوا فى جعل طاليس (٦٢٤ ق م ٥٥٠ ق م) منهم ، بل اتفقوا على أنه أول فيلسوف عرفته الدنيا ، وقد حقق التاريخ وجوده فى جيش أحد ملوك « ليديا » ، وهو أول من حاول تفسير الكون لا بالأساطير والخرافات ، بل على أساس علمى ، وسواء نجح فى محاولته أم لم ينجح : فقد وضع الأساس بمحاولته الوصول الى حقيقة المادة التى وجد منها هذا الكون وانتهى الى أنها هى الماء .

وبعده بقليل جاء فيثا غورث (٥٨٢ — ٤٩٧ ق م) نخطت به الفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد ؛ ذلك أنه انتهى إلى أن هذه المادة هى العدد لا الماء كما قال طاليس أو كما قالت مدرسة « يونيا » . وإذا كان طاليس قد جعل حقيقة الكون شيئاً مادياً هو الماء ، وخطا فيثا غورث فى مدرسته بالفلسفة خطوة نحو التفكير المجرد بقوله : إن أصل الكون هو العدد ، ويبنى على هذا أن الواحد أصل الوجود . إذا كانت الفلسفة فى يونيا بدأت مادية تعتمد على الحواس وحدها فى الوصول إلى حقيقة الكون ، ودفعها بعد ذلك فيثا غورث دفعة الى الفكر المجرد ؛ إذا كان ذلك كذلك ؛ فقد قيض الله للفلسفة من يدفعها الى الأمام دفعة قوية فى المدرسة الأيليه نحو التجريد على يد رئيسها — اكسينوفان (٥٧٠ ق م) فقد وافق الفيثا غوريين على أن الواحد هو الأصل ، غير أنه لم يعجبه ذلك الواحد الحسابى ، بل جعل هذا الواحد هو الإله الذى لا يتعدد [1] .

نترك هؤلاء الثلاثة طاليس ، وفيثاغورث ، واكسينوفان ، الذين هم من آسيا الصغرى ، والذين هم تقريباً متعاصرون فى رقعة لا تتجاوز الأبعاد بينها خمسة وعشرين فرسخاً ، نتركهم الى سقراط الذى يعتبره الجميع واضع علم الأخلاق

---

[١] قصة الفلسفة اليونانية لصاحب العزة أحمد بك أمين والأستاذ زكى نجيب محمود .

بمعناه الصحيح . جاء سقراط فألهم هذا المبدأ « تعرف نفسك بنفسك » وكان يفتخر فى آخر حياته بأنه لا يحيد عنه ، وكان يرى من المضحك أن الإنسان يجد من الوقت ما ينفقه فى الأشياء الخارجة عنه : فله الفضل الأول فى أنه وسع دائرة الفلسفة ؛ فجعلها بعد أن كانت قبله قاصرة على تفهم العالم أصبحت بفضله تتجه الى تفهم الإنسان والعالم . أحس سقراط بتدهور الحياة الخلقية التى كان يحياها معاصروه ؛ فحاول أن يكشف لجيله ما حاوله جميع الأخلاقيين من بعده أن يكشفوه لأجيالهم ، أعنى المبادىء الخلقية المسلم بصحتها ، وانتهى الى أن الفضيلة أو الحياة الخلقية وليدة المعرفة ، أى أنها أمور يمكن تعليمها وتعلمها [١] .

وجه سقراط الفلسفة من البحث فى أصل الكون الى البحث فى الإنسان أيضا ، والبحث فى الإنسان من ناحية عصمة الذهن عن الخطأ فى التفكير يأتى علم المنطق ، ومن ناحية ما هو عليه يأتى علم النفس ؛ ومن ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان يأتى علم الأخلاق ، إلى آخر العلوم الفلسفية التى تتخذ الإنسان لها موضوعا ، فعلم الأخلاق على ذلك جزء من الفلسفة ، وجزء له خطره فى هذه الحياة .

ولقد كانت الفلسفة فى العصور القديمة تشمل جميع العلوم بلا استثناء . فالإلهيات ، والطبيعيات وجميع العلوم بما فيها الهيئة والهندسة والحساب والموسيقى كل ذلك كان من مباحث الفلسفة وكل ذلك تبع الفلسفة وناصرها ، وكذلك كان الحال أيضا فى العصور الوسطى ، ولكن فى الأجيال الحديثة أخذت العلوم تنمو شيئاً فشيئاً حتى اعتزلت الفلسفة ، وانقسمت المعارف البشرية على نفسها ، وتشعبت أقسامها إلى فروع خاصة متباينة . فهذا علم الطبيعة ، أو الرياضة ، أو الطب ، أو الفلك ، وبعد أن كانت كل هذه العلوم مباحث لشىء واحد هو الفلسفة أصبحت علوما مستقلة كما تراها اليوم . كل قد أخذ لنفسه ناحية يعالجها ويختصها بالبحث والدرس ، وتغير كل ذلك ، ولكن الفيلسوف لم يتغير ، فإنه سيبقى دائماً هو الذى يتأمل فى الأشياء ويلاحظها ليفهمها ويفهم نفسه والناس ؟

---

[١] المدخل الى الفلسفة تأليف « أزفلد كوليه » ترجمة أبو العلا عفيفى .

الهجرة النبوية

لفضيلة الأستاذ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

سائل الأفقَ عن سناه المنضَّرْ | أىّ صبح على محياه أسفرْ ؟
وسل الطير عاكفاتٍ على الرو | ض تغاديه بالنشيد المعطّر
ضجَّ فى سمعها الغداة هتاف الـ | ـسكون ينساب بين ناى ومزهر
فسرت فى مسارب الأفق تختا | ل حنانا إلى الربيع المدثّر
نشوةٌ تغمر الحياة وذكرى | تستفز الوجود فى كل مظهر
وقف العالَمُ المحطّمُ حيرا | نَ قلوبا إلى السموات تجأرْ
وعيوناً تسائل الغيبَ ماذا | من وراء الهلال يخفى ويظهر ؟
ربِّ زاغت عقولنا فشططنا | واعتززنا بنصلنا فتكسّرْ
وإذا جرّد الحسامَ ضعيفٌ | فعلى نفسه يصول ويشهر
ربِّ ضلت آمالنا فابعث النو | رَ نسرْ فى هداك لا نتعثر
ربِّ ضاقت صدورنا فاكشف الكر | بَ ويسّر من أمرنا ما تعسر
ربِّ حارت عيوننا فى نواحى الأ | فق فارحم عناء طرف تحيّر
كم تغنى بالعبقرية قدمٌ | يتسامى وهماً إلى عرش عبقر
وادّعى المجد والبطولة وانٍ | راح كالليث بالبطولة يزأر

ألقيت فى احتفال نادى كلية اللغة العربية بذكرى الهجرة الشريفة .

ذاك صوت التاريخ فلتسمع الد　　نيا لصوت من السماء تحدّر
هجرة المصطفى ورجع صداها　　كل مجد حيالها ليس يُذكر

* * *

مَن ترُى ذلك الغريب بأرض　　هى أوطانه وبالأهل تزخر
أنكرته والحق فيها غريبٌ　　ليس بدعا أن يستباح ويُنكر
أرهف الليل سمعه لخطاه　　هامساتٍ مما يخاف ويحذر
واحتواه الظلام سراً من الله　　عليه عين العناية تسهر
ورمال البيداء مستبقاتٌ　　وقع أقدامه زحاما لتظفر
كاد إشراقُه يدل عليه　　بمحيّاً فى فحمة الليل أقمر
والفضاء الفسيح يُنبىء عنه　　بأريجٍ يفوح منه وعبهر
ربّ أنت النصير إن عقنى الأهل　　ومن يعتصم بحبلك يُنصر
وطن الحق موطنى فلك الأمر　　كما شئت والقضاء المقدر

* * *

من ترُى ذلك الذى غيّر التا　　ريخ فتحاً وهز كسرى وقيصر ؟
مَن ترُى الفارس الذى أفزع الأر　　ض وفى كفه اللواء المنشّر
من ترُى الفاتح الذى طالع الوا　　دى بجيش من الشعاب مجرر
ذاكِ أمّ القرى طريدُك بالأمس　　ومن يصطبر على البأس يظفر
إن للحق ساعة يقهر البا　　طلَ فيها مهما طغى وتجبّر
اسمعى يا شعابَ مكة هذى　　هتفة النصر للنبىّ المؤزّرْ
واشهدى يا سماء قد زُلزل الشر　　ودوت فى الأفق : الله أكبر !

* * *

أيها الشرق هذه قصة المجـ　　ـد فلا يزدهيك مجدٌ مزوّرْ
قد وعاها الإسلام عاما فعاماً　　عظةَ الدهر والمفاخر تؤثَر

يا رفاق الصبا تحيةَ ظامٍ للقاكم يزجى السلام المعطر
قد أذابَ الحنين والشوق منه خافقاً من بعادكم يتفطَّر
ولهذى الذكرى الشريفةِ فضلٌ ويدٌ فى اجتماعنا اليوم تُشكر
جمعتنا كالطير بعد شتاتٍ وأتاحت لنا اللقاءَ الميسَّر
فى ظلال النادى الحبيب التقينا وهو أندى وِردٍ وأكرمُ مصدر
واستعدنا بساحه ذكرياتٍ فى سجلّ الأيام تَطوى وتُنشَر
فرقتْنا الحياةُ فى سبل العيـ ش وكنا فى ظل أيك منضّر
معهدٌ قد وفى لنا وعققنا هُ وما زال وافياً ما تنكر
وأبٌ صادق المحبة برٌّ صاغه الله من حنانٍ وصوّر
قد تجافى أبناؤه وجفوْه ومن العهد ما يصان ويُخفَر
وإذا المرء عقّ معهدَه لم يُرجَ منه خيرٌ لقومٍ ومعشر

* * *

يا صحابى هذا الندىّ صداكم فاجعلوه لصوتكم خير منبر
وابذلوا صرحه ليُعلن عنكم وارفعوه يكن لكم خير مظهر
واقصدوه فى كل حين ليُزهى بتلاقيكمو جميعا ويفخر
كل قومٍ فى مصرَ من غير نادٍ لا ينالون أىّ حق مقرّر
نسبٌ ينتمى إليه بنوه لا تضيعوا أنساب معهدٍ جوهر
كلل الله بالنجاح مساعيـه ولا زال بالشبيبة أنضر

الصنع البديعي في مدرسة السكاكي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ احمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

كان المنحى الذى نحاه عبد القاهر الجرجانى بأصباغ البديع ، أمثل المناحى وأجلها ، وأعودها على هذا العلم بأحمد النتائج وأطيبها ، إذ سلك به كما أسلفت مسلك المباحث التى يتقوّم منها أخواه : المعانى والبيان ، وجعل الحسن فيه ذاتيا أصيلا ، يتم الغرض بوجوده وينعدم بعدمه ، وأبرزه فى معرض سليم العبارة مشرق الديباجة ، قوى التصوير ، ينبىء عن ذوق أدبى معدوم النظير ، وقوة فى التحليل والغوص على أسرار الأساليب ليس لها فى بابها مثيل . فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجرى أخذ البديع كزميليه ينحدر رويدا رويدا الى هاوية الإسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التى أبرزته فى معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر فى قيود ضيقة قدّها له المنطق ، وصاغتها له الفلسفة ، حتى صار همّ العلماء — مؤلفين أو دارسين — مقصورا على عدّ ألوانه ، والاكتفاء بتحديدها كما تحد الكلمات اللغوية ، ثم سوق الأمثلة التقليدية التى يتوارثونها كابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب التى ألفت فيه بعد السكاكى كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها استغنى به عما عداه ، وذلك ما لم يكن له ظل فى المدرسة الأولى . وقد زاده تعثرا على مرّ الزمن وقوعه فريسة للشارحين والمحشين ، والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران فى العناية بالجدل الذى لا يفيد وافتراض الاعتراضات والشُّبه . ثم الاشتطاط فى الإجابة عنها ، وما الى ذلك مما قضى على البديع ، وذهب بروعته الأدبية ، وأورده موارد العقم والجمود .

وكان زعيم هذه الحلبة، وممهد هذه الطريقة - سراج الدين أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، شهد له ابن فضل الله في المسالك قال: « ذو علوم سعى إليها فحصّل طرائقها، وحضر تحت جناحه طوابقها، واهتز للمعاني اهتزاز الغصن للبارح، ولزّ من تقدمه في الزمان لزّ الجذع الضارح، فأضحى الفضل كله يزم بعنانه، ويذم السيف ونصله بسنانه [1] »، وقال أبو حيان في الارتشاف: « كان علامة بارعا في فنون شتى خصوصا المعاني والبيان ... [2] »، وقد نهل السكاكي وعل من إملاء موارد عصره، فتلقى الفقه عن سديد بن محمد الخياطي، ومحمود بن صاعد الحارثي شيخ الإسلام، وهما من علماء الفقه على مذهب أبي حنيفة، سوى أن الذين ترجموا له على وفرتهم لم يعرضوا لشيخه في العربية، ولعلهم أغفلوا الاشارة إلية اعتماداً على تصريح السكاكي به في غير موطن من المفتاح؛ فقد قال: « وأرى أن شيخنا الحاتمي ذلك الإمام في أنواع من الغرر الذي لم يسمع بمثله في الأولين، ولن يسمع به في الآخرين، كساه الله حلل الرضوان، وأسكنه حلل الروح والريحان، كان يرى هذا الرأي [3] ». ولا نعرف من أمر الحاتمي أكثر مما ذكره السكاكي، ولم يتناوله أحد من شارحي القسم الثالث من المفتاح سوى أن سعد الدين التفتازاني قال في شرح ذلك القسم: « إن الحاتمي يلقب شرف الدين ». وهكذا تجد السكاكي يطريه، ويشيد بعلمه، ويشهد له بالتفوق والتبريز في غير موضع من كتابه؛ ولا ننسى إفادته من كتب السابقين ولا سيما كتابا عبد القاهر الجرجاني.

وأيًّا ما كان فقد نبغ السكاكي في فنون شتى، وخلّف آثارا كثيرة. وكان من أخطرها شأناً، وأبعدها صيتاً كتاب « مفتاح العلوم » الذي رزق من الشهرة والرّواج واشتغال الناس به اختصاراً وشرحاً وتقريراً ونظما، ما لم يرزقه كتاب كان قبله أو بعده من كتب العربية؛ أما الباعث على تأليفه فذلك ما يحدثنا

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي ٤٢٥ .

(٢) بغية الوعاة ٤٢٥ .

(٣) مفتاح العلوم ٢١٨ .

به السكاكى ؛ يقول : « واعلم أن علم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع وشىء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف الثمام ، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ فى العربية وسلوك جادة الصواب فيها ، اعترض دونك منه أنواع تلق لأدناها عرق القربة ، ولا سيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبلك منها ما لا يبعد أن يرجعك القهقرى . . . » وهكذا يستمر فى الكشف عن الحوافز التى أيقظت همته ، وشحذت عزيمته ، إلى أن يقول : « ورأيت أذكياء أهل زمانى الفاضلين الكاملى الفضل قد طال إلحاحهم علىّ فى أن أصنف لهم مختصراً يحظيهم بأوفر حظ منه ، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكى ، صنفت هذا ، وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميعُ المطالب العلمية ، وسميته مفتاح العلوم » .

وقد استودع السكاكى كتابه المفتاح من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رآه لا بد منه للأديب ، فضمّنه علم الصرف بتمامه ، وبين أنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة ، وقد كشف عنها القناع ؛ ثم أورد علم النحو كاملا غير منقوص ، وبيّن أن تمامه بعلمى المعانى والبيان ، ثم بين أن تمام علم المعانى بعلمى الحدّ والاستدلال فأتى بهما . ولمّا كان التدرّب فى علمى المعانى والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر أوردهما فى كتابه ، ثم لما كان صاحب النظم يفتقر إلى علمى العروض والقوافى ثنى عنان القلم إلى إيرادهما ، ثم أشار إلى أنه ما ضمّن كتابه كل أولئك إلا بعد تمييز بعضها عن بعض التمييز المناسب ، وتلخيص الكلام على حسب مقتضى المقام والتمهيد لكل من ذلك بأصول لائقة ، وإيراد الحجج المناسبة ، وتقرير ما صادف من آراء السلف بقدر ما تحتمله من التقرير ، مع الإشارة الى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفتنة لم يعرض لها أحد من قبله .

هذا ، وقد قسم السكاكى كتابه إلى ثلاثة أقسام .

أما القسم الأول : ففى علم الصرف ، وأما الثانى ففى علم النحو ، وأما الثالث

فى علمى المعانى والبيان ، ولكن الذى نال الحظ الأوفر من الشهرة ، ورزق سعادة الجد وحسن الطالع ، واستحوذ على موفور العناية من الناس ، وكان محل الرضا ، ومهوى الأنفس ، وموطن القداسة والإجلال منذ ظهر إلى الوجود إلى زماننا الحاضر ، بل إلى أن تقوم الساعة ، هو القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان ، ذلك أنه نحا بالبلاغة نحوا جديدا لم ينح على هذا الوجه من قبله ، فجرى على طريقة من الضبط والتقسيم ، والتجديد والتدرج فى توليد المسائل اللاحقة عن المسائل السابقة ، والإحالة على قواعد العلوم الأخرى ، والكشف عن سر انحصار العلم فى أبوابه ، أو الباب فى مسائله .

واقرأ إن شئت فصلا عقده لضبط معاقد علم المعانى [1] ، واستعرض هذا القسم من الكتاب تره قد أمعن فى الغوص بقواعد البلاغة إلى أعمق بحار العلوم العقلية من منطق وفلسفة ، وجرى فى ذلك إلى غاية بعيدة المدى ، مترامية الأطراف ، كانت أولى الخطوات الواسعة بعد قدامة بن جعفر فى النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذى نرى عليه البلاغة الآن .

واقرأ للتدليل على ذلك مثالا من أمثلة كثيرة قوله فى المقدمة : « وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف ، لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر تقدما استحقه » ومثالا آخر : قال : فى أول علم المعانى : « ولما كان علم البيان شعبة من علم المعانى لا ينفصل عنه إلا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لاجرم آثرنا تأخيره » . ومثالا ثالثا : « وأما الحالة التى تقتضى وصف المعرف وهى إذا كان الوصف مبينا له كاشفا عنه كما إذا قلت الجسم الطويل العريض العميق محتاج إلى فراغ يشغله » .

وهكذا إذا قرأت ما اخترعه فى الجامع بين الجملتين من باب الفصل والوصل ، وما ابتدعه فى تقسيم وجه الشبه من باب التشبيه حيث بناه على قواعد الحس المشترك ، وما قدمه بين يدى علم البيان من حديث الدلالات العجماوات ، اطمأننت إلى صدق ما نقول من أن السكاكى أول جان على هذه العلوم بسلاح

[١] المفتاح ٧٠

المنطق والفلسفة على هذا النحو المسرف الغالى الذى رأينا بذوره الأولى عند قدامة بن جعفر فى نقد الشعر، فأمعن فيه السكاكى، واستسمن ورمه، واستحلى مذاقه، حتى ساغ لى أن أحكم مطمئنا إلى هذا الحكم — بأن البلاغة قد ودعت عصرها الذهبى الحافل بالذوق الأدبى بانطواء صفحة أستاذها الذى بز السابقين، وأخمل اللاحقين: الشيخ عبد القاهر الجرجانى.

وقد صادفت هذه الطريقة رواجا عند المتأخرين، فأسرفوا فى استخدامها حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق، والفلسفة، وعلم الكلام، وما إلى ذلك؛ فأما البلاغة فالعفاء عليها وسط هذه الأخلاط، أو قل إن شئت: فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف بين هذه السحب المتراكمة، يبدو قليلا ثم يختفى كثيرا.

كان ذلك شأن الذين خلفوا السكاكى وتملأوا من طريقته إلا قليلا ممن رحم الله فى أوقات قليلة.

اقرأ قول سعد الدين التفتازانى فى المطول بعد أن أفاض بما فتح الله عليه فى شرح مقدمة علم البيان: «هذا هو الكلام فى شرح مقدمة علم البيان على ما اخترعه السكاكى، وأنت خبير بما فيه من الاضطراب؛ والأقرب أن يقال علم البيان علم يبحث فيه عن التشبيه، والمجاز، والكناية: ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التى أوردها فى صدر هذا الفن»[1]. واقرأ قوله كذلك فى التعليق على أقسام التشبيه: «وأعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة، قليلة الجدوى، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين، فلله درّ الإمام عبد القاهر، وإحاطته بأسرار كلام العرب، وخواصّ تراكيب البلغاء، فأنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها»[2].

أما أسلوب السكاكى فقد كان برزخا بين المتقدمين الذين جمعوا فى منحاهم بين العلم والعمل، وبين المتأخرين الذين أوردوا البلاغة موارد العلوم الجدلية

---

[١] المطول ٣٠٩ - ٣١٠ [٢] المطول ١٣٩.

النظرية، واكتفوا منها بتحديد الألوان كما تحد ألوان العروض أو ألفاظ اللغة، وجروا فى هذا الميدان شوطا بعيدا متسابقين فى الاختصار المخل، أو الإطناب الممل، والجرى وراء مالا يجدى البلاغة أو يفيدها من قريب أو من بعيد؛ لذلك كان السكاكى كثيرا ما ينزع إلى الغموض والالتواء، ويكثر من الجمل المعترضة التى تضطر القارىء إلى الوقوف حيالها زمنا قد يطول، مستوحيا فكره فى حلها باذلا جهده فى الجمع بين تلك الجمل وهذه التراكيب المتناكرة المتنافرة.

ولعل ذلك هو السر فى أنه أول كتاب فى العربية استنفد الجهود الكثيرة، وشغل الأقلام العديدة فى الشرح والتبيين، والتوضيح والتقرير، وقد أحس السكاكى نفسه بالغموض يشيع فى جنبات كتابه، فعزم على إملاء حواش على هذا الكتاب لبسط ما أجمله، وتوضيح ما أبهمه.

اقرأ قوله فى مقدمة مفتاحه «وهأنا بمل حواشى جارية مجرى الشرح للمواضع المشكلة، مستكشفة عن لطائف المباحث المهملة، مطلعة على مزيد تفاصيل فى أماكن تمس الحاجة إليها»(١). ذلك ما صرح به السكاكى بنفسه فى كتابه، غير أن من عرضوا للكتاب بالاختصار أو الشرح لم يذكروا شيئا عن هذه الحواشى، ولعل المنية عاجلته قبل أن يبر بهذا الوعد، وينجز هذا العزم.

نقول هذا للحقيقة والتاريخ، وذلك لاينسينا ما أفادته البلاغة على يد السكاكى من حسن التنسيق والتبويب، والدقة فى التقسيم، والمهارة فى التفصيل، وإتقان التمييز بين مباحث علم المعانى وعلم البيان، فإن هذا مما يحمده تاريخ البلاغة للسكاكى، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إنه لو سلم هذا القسم من مزجه بالعلوم العقلية، ومن إخضاعه للمجادلات الافتراضية، لكان هذا من خير المؤلفات البلاغية التى تعين من حرموا السليقة الأدبية على فهم كتابى عبد القاهر الجرجانى.

أما لماذا حصر السكاكى البلاغة فى علمى المعانى والبيان ولم يجعل البديع علما على حدة واستقلال، فذلك ما سنعالجه فى كلمة تأتى إن شاء الله؟

---

(١) مفتاح العلوم ٣

الالتزامات المركبة

لفضيلة الأستاذ الجليل صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

بينا فيما سبق الالتزام فى حد ذاته ، ولكن هذا الالتزام قد يقيد فى بعض الأحيان بقيد من القيود ، ويسمى فى مثل هذه الحالة بالالتزام المركب . وهذا القيد قد يكون شرطاً أو أجلا أو تخييراً أو بدلا أو تضامنا .

الشرط : هو تعليق الالتزام على أمر محتمل الوقوع . فإذا تحقق الشرط تحقق المشروط . وهو على نوعين : توقيفى أو فاسخ . فالتوقيفى ما يترتب على تحققه ووقوعه نشوء الالتزام ووجوده . والفاسخ ما يترتب على تحققه سقوط الالتزام الذى كان قائما وزواله مع جميع آثاره .

فمثال التوقيفى أن يتعاقد شخص مع شركة تأمين الحريق ؛ نلتزم الشركة بدفع مبلغ معين من المال إذا حصل حريق ؛ فوقوع الحريق أمر احتمالى ؛ فإذا وقع الحريق وجب على الشركة دفع المبلغ المتفق عليه . ومثال الشرط الفاسخ بيع الوفاء وهو أن يبيع زيد لعمرو دارا ويشترط زيد على عمرو أن البيع يكون مفسوخا إذا رد الثمن فى مدة معينة ؛ فإذا رد الثمن فى المدة المتفق عليها انفسخ البيع .

والشرط قد يؤثر فى صحة الالتزام فيبطله أو يجعله فاسدا غير صحيح . فما يؤثر فى صحة الالتزام : الشرط المستحيل عقلا أو عادة بأن كان غير ممكن كلمس السماء مثلا . ومثل هذا الشرط يبطل عقود المعاوضات إذا كان شرطاً توقيفيا ، ويعتبر لغوا بالنسبة لعقود التبرعات ، فيصح العقد ويلغو الشرط . وإن كان الشرط فاسخا فإنه يعتبر لغواً بالنسبة لجميع العقود .

وكذلك الشرط المخالف للقانون أو للنظام العام أو الآداب الفاضلة ، يبطل عقود المعاوضات ويكون لغوا بالنسبة لعقود التبرعات .

وأيضاً مما يؤثر فى صحة الالتزام الشرط الإرادى، وهو الذى يوكل فيه الأمر المشروط لإرادة المدين، يعنى أن تنفيذ الالتزام مرهون بإرادة المدين واختياره إن شاء نفذ وإلا فلا، كتعهد ببيع دارى إذا أردت أنا. فمثل هذا الشرط يؤثر فى صحة الالتزام ويبطله إن كان شرطاً توقيفيا ويكون لغوا إن كان شرطا فاسخاً فيصح الالتزام ويلغو الشرط، ومع هذا إن كان الشرط الإرادى قد ترك لإرادة المدين والظروف الأحوال كتعهد شخص بعمل شىء عند القدرة عليه، أو إذا تحسنت الأحوال والظروف وما أشبه ذلك، فإن الشرط يكون صحيحاً جائزاً.

آثار الشرط: طالما أن الشرط التوقيفى لم يتحقق ويحصل فحق الدائن ما زال معدوما، وكذا لا يجوز له أن يطالب مدينه بالوفاء، كما أن للمدين حق استرداد ما دفعه خطأ قبل حلول الشرط، ومع هذا فللدائن حق اتخاذ الإجراءات اللازمة لأجل المحافظة على حقوقه.

وتنتقل حقوق الدائن لورثته إذا حصلت وفاته قبل تحقق الشرط

وأما إذا تحقق الشرط فقد نشأ الالتزام ووجد، وترجع آثاره إلى يوم التعاقد.

وأما إذا تخلف الشرط بأن لم يتحقق وقوعه كما إذا شرط التعهد بزواج فلان فمات فلان هذا، فإن التعهد يعتبر كأن لم يكن وكأنه لم يوجد التزام. هذا إن كان الشرط توقيفيا وإلا فالالتزام باق وقائم إن كان شرطا فاسخا.

الأجل: هو أمر مستقبل محتم الوقوع يترتب على تحققه وجوب تنفيذ الالتزام أو عدم تنفيذه. فهو نوعان: توقيفى وفاسخ. فالتوقيفى هو ما يترتب عليه تأجيل تنفيذ الالتزام، والفاسخ ما يترتب على وجوده زوال الالتزام وانعدامه.

وفائدة الأجل قد ترجع إلى المدين وحده، وعلى هذا يجوز له التنازل عنه؛ فيصح له الوفاء بما تعهد به قبل حلول الأجل، وقد ترجع الفائدة للدائن والمدين معا. وفى هذه الحالة لا يستطيع المدين التنازل عنه إلا برضا الدائن أو أن يدفع له تعويضا.

سقوط الأجل: إذا أفلس المدين أو أضعف التأمينات المتفق عليها بينه وبين الدائن فإن الأجل يسقط ويجب الوفاء بالالتزام وتنفيذه فوراً.

وهناك نوع من الأجل يُسمى بالأجل القضائى أو بالمهلة القضائية وهو ما

يمنحه القاضي للمدين لأجل الوفاء بالتزامه، ولكن في حدود وشروط بحيث لا يترتب على المنح ضرر بالدائن .

الفرق بين الأجل والشرط : الأجل أمر محتم الوقوع ، وأما الشرط فأمر محتمل الوقوع ، كما ان الالتزام في الأجل موجود وقائم ، وإنما التنفيذ هو الذي يؤخر فقط إلى حلول الأجل ، وأما في الشرط فالالتزام غير قائم في التوقيفي وعلى خطر الزوال في الفاسخ . ومن الفروق أيضا أنه لا يجوز للمدين استرداد ما دفعه خطأ قبل حلول الأجل التوقيفي بخلاف ذلك في الشرط التوقيفي ، وأخيراً إن الشرط له أثر رجعي يرجع ليوم التعاقد ، وأما الأجل فأثره في المستقبل .

الالتزامات التخييرية : هي التي يكون فيها محل الالتزام أموراً متعددة تبرأ ذمة المدين بالوفاء بواحد منها على حسب اختياره ورغبته ؛ كأن يتعهد بإعطاء قنطار من القطن أو ثلاثة أرادب من القمح ، فذمة المدين تبرأ بالوفاء بواحد منها .

وحكم الالتزام التخييري أن الخيار يكون للمدين ، إلا إذا وجد نص قانوني أو اتفاق على أن الخيار للدائن .

ويلاحظ : أنه إذا كان أحد الأمرين المخير بينهما مخالفاً للقانون أو غير مشروع أو هلك ، وكان في هذه الحالة الخيار للمدين ، فيتعين الوفاء بالأمر الآخر . ولكن إذا كان الخيار للدائن وهلك أحد الأمرين المخير بينهما فللدائن طلب التعويض أو الوفاء بالأمر الآخر . وأما إذا هلكت الأشياء جميعها فللدائن طلب التعويض لأي واحد منها .

الالتزامات البدلية : هي ما كان فيها محل الالتزام شيئاً معيناً بذاته ، ولكن يُرخص للمدين أن يُبرىء ذمته بالوفاء بإعطاء شيء بدله ؛ كأن يوصي شخص لغير وارثه بعقار ، ولكن يُرخص لورثته بأن يعطوا بدلا عنه مبلغاً معيناً من المال . وكهلاك الرهن ، فإنه يجب على المدين أن يقدم فوراً رهنا آخر بدل الهالك .

والفرق بين الالتزامين التخييري والبدلي ، أن فيه جميع الأشياء ، بينما في الالتزام البدلي شيء معين بذاته ، لكن تبرأ ذمة المدين بإعطاء شيء آخر بدله ، كما أنه لا يجوز للدائن أن لا يطالب إلا بالشيء الأصلي ، فلو هلك هذا الشيء بآفة سماوية برئت ذمة المدين ، وليس للدائن أن يطالب بالبدل ، كما أنه إذا كان الشيء الأصلي محظوراً بطل الالتزام كله .

الشعر في عصر إسماعيل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسين الفار
المدرس بقسم البحوث الإسلامية بالأزهر

لقد شاعت النهضة فى كل مرافق الحياة فى ذلك العصر، وامتدت إلى جميع نواحيها، وأثمرت تلك الغراس التى بذر بذورها «محمد على» وتعهدها «إسماعيل» فدنت قطوفها، وطاب جناها، وآتت أكلها، وأخصب مرعاها، فغذت العقول وثقفت الألباب، وفسحت أمامها أفق النضوج، ومجال التفكير، واتسع نطاق العلوم الجديدة والفنون الحديثة فى هذه الديار، وكانت العربية الدائرة على ألسنتهم إبان ذلك غير كافية فى ترجمة هذه العلوم ونقل تلك الفنون؛ فولوا وجوههم شطر كتب الأقدمين التماساً لبعض الألفاظ الفنية، والمصطلحات العلمية، فإذا عزهم ذلك فطروا هم مصطلحات وابتكروا ألفاظاً. على أن تلك الأغراض العلمية والفنية التى لفتتهم إلى كتب الأقدمين، نفخت فيهم روح التطلع إلى آثار السابقين عامة، ولاسيما ما كان منها فى أبواب اللغة والأدب فراعهم نسجها وراقهم بيانها، وهالهم أسلوبها وبهرهم شأنها، فأكبوا على دراستها، وطبعوا طائفة منها، وكان فى مقدمة ما طبعوه كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع. ومنذ ذلك الوقت أخذت النهضة الأدبية تسير سيراً حثيثاً نحو إحياء الأدب القديم، والتوفر على مراجعته؛ فسرت روح الحياة إلى كتب الأدب العربىّ العريق بما فيه من شعر جاهلى وإسلامى، وأموى وعباسى، فى أنضج عصور العربية وأزهاها؛ ولكن ذلك كله لم يزحزح الشعراء الكلفين بالقديم قيد أنملة عما التزموه من أغراض ورثوها فألفوها: من مديح ورثاء ونسيب متكلف أو هجاء، ولم يصرفهم عما أسرفوا فيه من اقتناص جناس أو مقابلة، وتصيدٍ تورية أو مشاكلة.

يقتسرون الكلام على ذلك اقتساراً ويضمنونه بعض أنواع البديع عنوة واقتداراً غير مكتفين بما يرسله الخاطر إرسالا ، أو تدثر به قرائحهم عفواً وارتجالا .

وإذا بالبارودى رحمه الله ينهض بالشعر نهضة أحيت دولته ، ويثب به وثبة ردت صولته ؛ فأرسله جزل العبارة ، فخم الأسلوب ؛ فأسر به الألباب ، وسحر القلوب ، وطار به فى سماء المتقدمين ، وحلق فى أفق الجاهليين والاسلاميين ؛ فحفز حب المنافسة أو الرغبة فى الاحتذاء ، بعض معاصريه من الشعراء ، الى محاولة أن يفروا فريه ، وأن يرقوا رقيه ، وكان لابد لهم لكى يعدوا أنفسهم للجولان فى تلك الحلبة والصيال فى ذلك الميدان ، من استظهار أشعار الفحول السالفين : من جاهليين وإسلاميين ، فسمت مداركهم ، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم ، ونبل قريضهم وقلت هناتهم ، وأخذوا يتحرزون عن التماس المحسنات البديعية والجهد فى إيرادها ، وسوق بعض الأبيات لمجرد اصطيادها ، جريا على ما كان مألوفا بين إخوانهم السابقين والمعاصرين ، فتحللوا من هذا كله ، ونسجوا على منوال الأقدمين ؛ فأتى نسجهم متلاحماً ، مشرق الديباجة لحمته الجزالة والرصانة ، وسداه الرقة والإبانة .

هذا وإن البارودىّ مع سموِّ أدبه وعلوِّ كعبه ، لم يَعْدُ أغراض السابقين ، ولم يرم إلى غير أهداف الأقدمين : من غزل ونسيب ، ومديح أو تشبيب . أو إطراء أو هجاء ، أو فخر أو رثاء ، ووصف الى حد ما ، أو بكاء ديار ، ووقوف بدِمَنٍ وآثار . فإذا كانت أغراض الشعر قد اتسعت بعد ذلك رقعتها ، وبسقت على مرِّ الأيام دوحتها ، وتفرعت أفنانها ، وتشعبت أغصانها ، فلقد كان كل هذا رويداً رويدا ، وسار الشعر فى تلك السبيل وئيدا فلم يستطع مجاراة النثر الذى كان أسبق تطورا ، وأقوى منه الى مسرع الارتقاء سيرا إذ هو قوام التفاهم بين الناس تحفزه إليه ضرورة مطردة ، وتدفع إليه حاجة لازبة خالدة . وأما الشعر فهو شيء كمالى ليس فيما يعرض للناس من شئون ملجىءٌ إليه ، ولا فيما يدور بينهم من أسباب حامل عليه ، وما جنح له بعض الأدباء إلا لتسجيل عاطفة تساورهم ، أو خيال درَّت به خواطرهم ، أو للتسرية عن النفس بشكاة فاضت بها قلوبهم ، أو حرقة أقضت بها جنوبهم ، وقد يزوِّرون له رداء العاطفة حتى فى المدح والهجاء ، والتهنئة والرثاء ، أو غيرها من أغراض ، وليس معنى هذا أنه لايأتى فيما تحفز إليه ضرورة

أو تدفع إليه حاجة : لا فلقد تدعو إليه بعض عظائم الأمور ، وقد تحمل على النفاسة جلى المواقف : كتأريث نار الحماسة ، واستثارة كامن الشجاعة ، وإلهاب مشاعر الناس ، وبعث روح الحمية فى نفوسهم ، واستنهاض هممهم ، وشحذ عزائمهم لخوض غمار حرب أو رد عادية عدو ، أو لتثبيت دولة ، والذود عن حياضها ، والكفاح دون حرمها وأرباضها ، والإبانة عن حجتها ، والتزام محجتها أو لمناهضة دولة أخرى والخروج على سلطانها ، والتمرد عليها والإنقاص من شأنها ، أو حث الناس على المساهمة فى عمل نافع يعم خيره ، أو يخص أثره .

ولكنّ هذه البواعث اليسيرة التى تحمل آونةً عليه ، وتدفع أحياناً إليه ، كانت غير كافية لأن تريم به من مكانه ، أو تعدل به عن مَيْدانه ؛ فترتفع به فى مرتبة الاحتياج إليه الى مكانة النثر الذى لا غنى للناس عنه ، ولا بد لهم منه ؛ فكان النهوض الأدبىُّ بالنثر تالياً للنهضة العلمية ؛ لقيام الحاجة الى ترجمة المعانى ونقل المدلولات وتحديد الألفاظ الفنية ، واستخراج المصطلحات العلمية ، فكان النثر بطبيعة الحال أسبق من الشعر توثباً ، وأسرع منه نهوضاً ؛ إذ لبث الشعر يتعثّر فى أذيال الجمود والتكلف حتى أتاح الله له البارودىّ ، كما أسلفنا ، فرفع لواءه ، وشاد بناءه ، وتبعه قومٌ توفروا على الأدب القديم حباً فى مجاراته ، وتوسلا الى محاكاته ، فأضفى عليهم القديم رداءه ، وأسبغ عليهم حسنه ورُواءه ، ولكنهم أسرفوا فى المحافظة على ألفاظه ومبانيه ، والتزام الجرى فى حيز أغراضه ومعانيه ، برغم أن بعض هؤلاء قد اطلع على ثقافات الغربيين ونهل وعلّ من آداب اللاتينيين ، وليس ينكر فضل هؤلاء فى إنهاض الشعر بعد طول ركوده ، والدأب على انتشاله من وهدة خموده ، ولكنّ إخواناً لهم آخرين قد طاروا الى مثل سمائهم ، وحلّقوا فى مثل جوائهم ، إلا أنهم فاقوهم بما عُنوا به من التجديد والابتكار ، وبما نزعوا اليه من كل طريف أتاح للشعر العربى الانتعاش والازدهار ؛ فهم مع علو كعبهم فى الآداب العربية قد روّوْا نفوسهم من الآداب الغربية والثقافة الأوروبية ؛ فزجوا على حد تعبير بعض الأدباء « بين الثقافتين ، وتخرجوا فى المدرستين » ا هـ .

فجلبوا لنا من فردوس أدب الغربيين جماً وفيراً من أزاهيره ، وأجروا فى بحار آدابنا العربية فيضاً غزيراً من سلسله ونميره ، وفسحوا ما شاء الله لهم

أن يفسحوا من رقعة أغراض الشعر العربى ؛ فجالوا به فى كل مجال ركض فيه الشعر الأوروبى ؛ فأتوا به على كل ما أتى عليه الغربيون بشعرهم من وصف لآخر ما تمخض عنه العلم الحديث من ابتكار واختراع ، ومنتهى ما وصل إليه العقل البشرى من تفنن وابتداع .

فمن وصف لسفينة البخار ، إلى إشادة بالطيارة والقطار ، ومن جولات فى الحجاب والسفور ، الى تغن بحكم الشورى و « الدستور » ؛ ومن زهو بالبوارج التركية . الى إعجاب بالأهرام المصرية ، ومن خوض كذلك فى تكليل « أنقرة » الى حديث عن مدينة الاسكندر أو مجد القاهرة . ثم الى تأنيب « لكرومر » أو نقد لمشروع « ملنر » الى افتخار بالجامعة وتنويه بالأزهر . ومن تعريج على الجانب القصصى . بهذا الفتح الجديد ابتكار الشعر التمثيلى جرى هؤلاء المجددون فى تلكم الميادين ، ولم يألوا جهداً فى افتراع أروع المعانى من بنات أفكارهم ، وأبرع الأساليب من عرائس ابتكارهم ، وكان لا بد لأصحابنا هؤلاء وقد زاحموا الغربيين بمناكبهم ، ونافسوهم فى مرامى قريضهم وأخيلة أدبهم ، من التقاط ألفاظ أعجمية ، وإقحام كلمات أجنبية ، كما فى أسماء الأماكن والأشخاص حين لا ترجمة لها فلا محيد عنها . والأمثلة على ذلك قائمة « فى قصيد » مسجد أيا « صوفيا » أو قصر « يلدز » أو جسر « البسفور » أو غاب « بولونيا » وعلى رمس « نابليون » وذكرى « كرنارفون » وكذا « توت عنخ أمون » . الخ . .

هذا وإن أشعر أولئك المجددين غير مدافع ، ذلك الذى انتهى اليه لواء إمارة القريض بلا منازع ، شاعر الملوك والأمراء وأمير الشعر وسيد الشعراء « أحمد شوقى بك » الذى دانت له دولة الأدباء ، وعنت لعبقريته الفذة وجوه الشعراء ، فبايعوه فى حفل رسمى بالإمارة عليهم جميعا فى إشادة وتنويه واحتفاء ، واعتزاز بتيكم العبقرية النادرة وإعجاب وخيلاء .

وبمشيئة الله سبحانه سأحاول فى مقال تال أن أعرض لجانب من شاعرية هذا الأمير الجليل : أمير شعراء هذا العصر ، ومفخرة القريض فى كل جيل ، والله المستعان ؟

الاسلام دين الأمن والعمران

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاعى
مفتش الوعظ

لله سبحانه فى مملكته نظامه ، وله حكمته وأحكامه : أراد لها العمران فخلق فيها بنى الإنسان ، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان ، ليؤدوا رسالتهم الإنسانية فى هذا الكون على مقتضى ما يليق بهم كذوى عقول وأسماع وأبصار ، يدركون بها سر الحياة ، وقيمة الوجود ، وحقيقة العمل « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » « وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

رسم للناس طريق الخير ، وهيأ لهم سبيل التوفيق ، وحذرهم مما يعود على أفرادهم ومجتمعهم بالأذى والضرر مما ينغص عليهم الحياة ، ويكدر صفو العيش ، ويباعد ما بين القلوب ، حتى إن جميع الديانات التى نزل بها وحى السماء لتحث كل مؤمن بها على المحبة والرحمة ، والإيثار والعدل ، والصفح والتسامح ، وما إلى ذلك من صفات الإنسانية الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، كى يسلم المجتمع من آفات التفرق والانحلال التى تودى بالقوة ثم بالعزة والكرامة ، وتنتهى بالخذلان والفشل ، « أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار » .

ولقد جاءت الحنيفية السمحة بما شرع للأفراد والجماعات والأمم كيف تكون مسئولية كل إزاء أنفسهم وإزاء الغير بما لا لبس فيه ولا إبهام ، كى يسير

العالم قدما فى سبيل الحياة الصحيحة ، لامّا أطرافه ، مستجمعا قواه ، هادفا إلى أطيب العواقب ، وأشرف الغايات ، وما كان للإسلام ، ـ ومعناه معلوم من لفظه ومفهوم من سيرة أهله ـ أن يحل ما حرم الله ، وينشر الفوضى بين المسلمين .

ولقد كان عقلاء الأمة المصرية الإسلامية يشفقون على أفرادنا وجماعتنا مما رمتنا به بعض الأمم من علل وأمراض ، لم تألفها الأمة ولا الأفراد ولم يقرها الإسلام ، حتى ظهرت فينا أخيراً تلك البدعة الممقوتة النكراء ، بدعة القتل والاغتيال ، فانخلعت منها القلوب وأحسسنا الخطر الداهم ، وتوقعنا الشر المستطير ، ما لم يفىء أولئك اللاعبون بالنار ومستقبل الأمة إلى عقولهم ويرجعوا عن غيهم ، ألا إنهم ليأتون شر أنواع الاعتداء بهدم ما سوّى الله بيديه ، وإلحاق الفناء بمن لهم حق الحياة التى هيأها الله لهم .

إن جريمة القتل جريمة لا يعدلها فى الذنوب سوى الشرك بالله « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » وهل يوجد مؤمن يفكر فى قتل إنسان بعد ما يسمع قول النبى الكريم « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم النار » ؛ وعن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان على دم امرىء مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله » وروى عن عبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سأل سائل ، فقال : يا ابن عباس هل للقاتل توبة ؟ فقال له ابن عباس ، كالمتعجب من مسألته : ماذا تقول ؟! مرتين أو ثلاثا ، ثم قال ابن عباس : ويحك ، وأنى له توبة ؟! سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يأتى المقتول معلقا رأسه بإحدى يديه ، متلببا قاتله بيده الأخرى ، فيقول الله تعالى : تعست ، ويذهب به إلى النار » .

إن أول جريمة على وجه الأرض ، اهتزت لها جنبات الكون هى قتل أحد أولاد آدم أخاه ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الفعلة الشنعاء ، فصور اللين والتسامح فى جانب المقتول ، والقسوة والوحشية فى جانب القاتل ، قال « لأقتلنك »

فأجابه المقتول فى وداعة المؤمن وتسامح الكريم : « لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدىَ إليك لأقتلك ؛ إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكونَ من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، ولعظم شناعة جريمة القتل بين الله فى كتابه أنه « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

إن أول حادث فتح باب الفتنة على مصراعيه فى الإسلام ، وفرق بين المسلمين ومزق وحدتهم ، وأضعف قوتهم هو قتل الإمام العادل عمر بن الخطاب ، ولم يقتله مسلم ، لأن دين المسلم يمنعه من ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ، بل قتله رجل مجوسى اسمه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ، بتدبير سيء من رجل موتور ذى سلطان مخلوع اسمه الهرمزان ، وأن عمر العظيم حين طعن سأل من حوله : هل اشترك أحد من المسلمين فى قتله ؟ فأجابوه : كلا يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : الحمد لله الذى عصم أمة محمد من أن يشترك أحد منهم فى قتل عمر ، وإنما سأل عمر سؤاله السابق لعلمه أن بعض صغار الأحلام قد يكون لهم رأى فى الحكام ، يدخل عليهم من تأويل فاسد لا يقرهم عليه الإسلام الذى حث على استتباب الأمن والنظام ، فأراد عمر رضى الله عنه تذكير المسلمين بمثل قول النبى صلى الله عليه وسلم « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإن من خرج من السلطان شبراً مات ميتة الجاهلية » ؛ وعن أبى هنيدة وائل بن حجر رضى الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا نبى الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ما حملتم » .

هذا أيها المسلمون حكم الله ورسوله ، فلا يظنن الإسلام ظالم بالاعتداء على الناس باسمه ، فإنما هو سلم وسلام وتسليم فى حدود بينة ، وقواعد مرسومة ، فلا تعرضوا أنفسكم للضياع والفشل ، وبلادكم للفوضى والاضطراب ، وخافوا يوماً يجعل الولدان شيباً .

ما ذنب الأسر تنكب بفقد عائلها الذى كان الأمل المرجى ، والعماد الذى عليه بعد الله تعالى المعول ؟! سلوا اليتامى والأرامل والثاكلات تذرفوا شناعة الجرم وعظم المصيبة ؛ ليت شعرى ، كيف يكون الجواب ! ثم ماذا جنى أهل الجناة يتعرضون للنكبات ، والهموم والأحزان على أيدى أحب الناس إليهم من صغار العقول سفهاء الأحلام ، أولئك الذين يتركون لخيالات أهليهم ، كيف تكون عقبى أولئك الأغرار ، جزاء ما أقدموا عليه من اعتداء أثيم وإجرام شنيع .

وإنى لتعرونى من الهول هزة كلما تصورت أن أولئك الأغرار الذين ينفخ الشيطان فيهم حتى يأتوا فعلتهم الشنعاء ، سيقعون فى شر الأسى والندم حين تطبق عليهم أيدى العدالة ، فتخور منهم القوى ، وتنحل العزائم والأعصاب ، وتطيش الأحلام وهم فى مقتبل العمر وزهرة الصبا ، تطفىء مصابيحهم وتذبل زهراتهم ، وقد كانوا لدى الأهل والأمة بين الجفون وطيات الجوانح ، تضىء بهم الحياة وتشرق الأيام ، فأصبحوا فى عداد المجرمين ، ينتظرون شر المصائب وأخوف العواقب ، مشيعين بالسخط والازدراء ، على حين كان أمامهم من ميادين المجد والعظمة ما يخلد لهم أطيب الذكر وأشرف الأثر .

أيها الشباب ! إليكم نصيحة خالصة لوجه الله : أنتم عدة الأمة ورجاؤها وأملها ، فتسلحوا ليومكم بالعلم والعرفان والمحبة ، كى تكونوا جنودا صالحين ، تؤدون رسالة الإصلاح والعمران ، حين يهيء لكم الوطن ميادين العمل ، ويبوئكم مقاعد الجد والنشاط ؛ هناك تتجهون بكل قواكم وتفكيركم وتجربتكم إلى ما يعلى شأن الوطن ، ويرفع صرحه ويدعم بنيانه ؛ وهنالك تكون التضحية بكل مايطلب الوطن منكم من نفس ومال وبنين ، أما أن تقضوا على أنفسكم والعاملين لصالحكم من أهل وطنكم ؛ فذلك هو الإفلاس والانتحار ، والعمل ضد الوطن وتهيئة الجو للأعداء ، وهو ما أعيذكم بالله منه ، وأرجو ألا يكون له أثر بينكم ، كى يصفو الجو وتطمئن القلوب ، وتستقيم الأمور ، ويكبت الأعداء ، وتنتهى بنا الحال إلى أشرف المقاصد وأفضل الغايات ؟

دعوة الى تعميم اللغة العربية

لحضرة الأستاذ محمد حسن الأعظمى
عميد كلية اللغة العربية ، والأمين العام لمؤتمر العالم الإسلامى الدائم
والجمعية العربية العامة فى الباكستان

لماذا دعوت إلى اللغة العربية لتكون لغة المسلمين جميعا ؟

جهاد عشرين عاما متواصلة لا أفاخر به ، ولكنى أحمد الله عليه ، وأستزيده التوفيق منه . قال مستر غاندى يوما : إن من الخير لسكان الهند أن لا يلجأوا إلى اللغة الأوردية ؛ لأن فيها أحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم ، وعلينا أن نختار اللغة المحفوظة عن الأمهات فقط وهى « سنسكرتية » ، وما كدت أطلع على هذا فى صحف الهند العامة حتى أسرعت فى اليوم التالى إلى الإجابة ، وقلت لمستر غاندى : إن المسلمين ليس لهم أمهات سوى أزواج نبيهم عليه أفضل صلاة وسلام ؛ وهن أمهات المؤمنين ، ولغة أولئك الأمهات هى اللسان العربى المبين . ولما أذاع المستر غاندى مرة أخرى نداء يدعو فيه إلى توحيد اللغة بين المسلمين والهنادك أجبته : بأن ذلك لا يمكن إلا بأن نتعلم لغتكم « سنسكرتيه » مع لغتنا العربية وعليكم أن تسلكوا إلى الوحدة هذه السبيل نفسها أيضا . ثم تكون النتيجة الحتمية لهذا هى العودة إلى الأوردية مرة أخرى ، فهى مزيج من اللغتين معا إلا قليلا من الفارسية والتركية . وإذا لم تصنعوا ذلك فماذا أنتم فاعلون إذا اصطدمتم بلغات تربو على المائتين بين العشائر الهندوكية المتناثرة فى أقطار الهند ؟ النتيجة الحتمية لهذا التعصب ضد الأوردية والعربية الاعتماد على أن تلجأوا إلى اللغة الإنجليزية للتفاهم والمكاتبات ، وهذا هو الذى حدث فعلا ؛ فقد تخلص هؤلاء من الاستعمار العسكرى ، ليقعوا تحت سيطرة روحية من نسيج هذه اللغة الأجنبية عنهم . فإن كنت فى ريب من هذا أيها القارىء ؛ فامض إلى إحدى السفارات الهندية لدى أى الحكومات شئت ؛ فإنك واجد فيما بين أفرادها سلطان اللغة الإنجليزية حاكما

على قلوب الموظفين نافذ الكلمات في أذواقهم وحديثهم ومخاطباتهم . وإنها لهي عبودية الروح فى غشاء رقيق من حرية الجسد .

أما أنا فقد رأيت أن أمضى على سنن الطريق مسترشدا بيقينى وإيمانى واثقاً من أنني فيما أدعو إليه سيلاقينى النصر والفوز . تركت الجدل الكلامى وأخذت فى إنشاء الجمعية العربية العامة فى الهند ، وأتبعتها بإنشاء مدارس ليلية شبيهة بالمدارس والوحدات الليلية التى يعرف الجميع نشاطها بمصر ، وكنت ومن معى من المؤمنين بفكرتى مثالا من النشاط الذى لم نكن فيه أقل من الغيورين على محاربة اللغة العربية واستبدال حروفها ، وإخراج ألفاظها .

ولكى نستبعد فكرة التعصب القبلى دعونا إليها كلغة القرآن والإسلام . أما الآثار الأدبية لهذه الحركة المباركة ؛ فقد كان منها كتاب المعجم الأعظم الجامع بين اللغتين العربية والأوردية إلى جانب عشرات من الكتب المدرسية ، وكانت حيدر آباد مركزاً هاماً إلى ذلك الحين لنشر العربية ؛ إذ كان يوجد بحيدر آباد مائة ألف أو يزيدون من العرب أو من أصول عربية ؛ فلقيت الدعوة تشجيعاً وإقبالا رائعاً ، وقام على رئاسة هذا النشاط أحد سلاطين المكلا العرب . وما كدنا نقطع من مراحل الزمن سنة حتى انتشرت المدارس الليلية فى جميع مناطق المدينة ، وشكلت الفروع المختلفة فى الضواحى والأقاليم المتاخمة ، وأنشئت كلية للغة العربية لتقوم بالتعليم على أسس دراسية قويمة . ولكى يمتطع هذا النشاط مدى بعيداً قررنا إلقاء محاضرات أسبوعية فى حفلات متنقلة بين مختلف أحياء المدينة ، وكنا نرى إقبال الجمهور المتزايد يجعل الأمكنة تضيق بزوارها ، ولما كانت تلك الحفلات أدبية مشجعة على مواصلة الكفاح العلمى والأدبى رأينا أن نجرى مسابقات دورية تمنح فيها المكافآت والجوائز . ومما يثير العجب أن آخر الفائزين فى آخر مسابقة بلغوا مائة من بينهم خمس وسبعون من الفتيات ، وقد جرت المسابقة فى الكتابة الإنشائية ، وفن الخطابة والإلقاء . وحاولت أيضاً فى سبيل تيسير هذا التعليم أن أدعو إلى استبدال خط النسخ العربى المحض بالخط العادى الأوردى .

أما حيدر آباد ومراكز الهند الأخرى بعد التقسيم فهى فى ستار مغلق دونى الآن ؛ فقد وليت وجهى شطر الوطن الإسلامى الباكستانى ، ولقيت فيها

الدعوة مكاناً خصيباً ؛ فلعلى أستمد هذه الروح نحو تعليم العربية من إيمان شعب الباكستان الذى تشرف فيه الحكومة نفسها على الجمعية العامة للغة العربية . وأصبح خط النسخ العربى خطاً رسمياً فى مكاتبات الدولة وأعمالها العامة .

واللغة العربية مادة إجبارية فى مواد التعليم الثانوى ، كما خصص ركن من الإذاعة للغة العربية أيضا . وحضرات أصحاب المعالى الوزراء فى الباكستان وفى مقدمتهم صاحب المعالى وزير المعارف العمومية « فضل الرحمن » مقبلون بأنفسهم على تعلم هذه اللغة . ولعل بعض القراء يذكر أن فخامة حاكم البنجاب « السردار عبد الرب نشتر » هو الذى يرأس أكثر الحفلات العربية ويلقى فيها خطبه المرتجلة فى عبارات سليمة ، وليس هذا كل شىء ؛ فإن الخطوة المباركة الحقيقية هى وصولنا إلى ذلك القرار الحكيم الذى وافق عليه مؤتمر العالم الاسلامى الدائم : اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين ، وكتابة جميع لغات العالم الاسلامى بخط النسخ العربى ؛ كما ألقيت أكثر خطب المؤتمر فى كراتشى باللغة العربية . وإذا كنا نحن الباكستانيين قد بذلنا هذا الجهد المتواضع لتعميم العربية الفصحى وإحياء تراثها المجيد ؛ فإنى أهيب بالناطقين بالضاد فى الممالك العربية أن يجعلوا واجبهم الأول تعميم اللغة العربية الفصحى فى مخاطباتهم ، وأن لا يقصروها على مكاتباتهم فى دواوين الحكومة ، وعلى أعمدة الصحف . فعلى كل من يجيد العربية أن يخاطب بها غيره فى المكتب والطريق وفى الأندية والأسواق وفى التعامل التجارى والتبادل الثقافى . وسيقول قائل إن الطريق شاق والمطلب عسير . وأقول لهؤلاء : ليس بين العامية الدارجة والعربية الفصحى سوى تصحيح كلمات ، وإعراب جمل ، وصدق فى التوجه قبل كل شىء ، وما هو إلا قليل من التدريب يتلوه النصر القريب .

كثيراً ما رأيت طلاب البعثات الوافدة إلى مصر والأزهر ، يعودون مزودين باللغة العامية ، وما هجروا أوطانهم إلا للغة العربية السليمة الفصحى .

وقد بدأنا نحصل الغرامة المفروضة فى أعضاء المؤتمر الإسلامى على كل من يلجأ إلى غير العربية الفصحى أثناء كلامه .

ويتجه نظرى الآن إلى الكعبة العلمية الإسلامية ؛ أعنى (الأزهر الشريف) ليبدأ هذه الخطوة من جانبه بين أساتذة المعاهد وطلابها ، فهل يتحقق أملى ؟!

فى الأدب المصرى الحديث

تقــدير للمصادر

بحث للمستشرق الانجليزى
الأستاذ
ج . هيورث دن J. Heyworth Dunne
الأستاذ بجامعة لندن

تعريب
نور الدين شريبه
خريج كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر

والتيموريان : محمد ، ومحمود ، يقدمان مادة جذابة لدراسة الحياة المصرية . وكتاب محمد تيمور (ما تراه العيون)[1] يشمل صوراً كثيرة عن الحياة العادية. أما محمود — وقد درس (موباسان Maupassant)[2] . و (تشيكوف Chekhov)[3] - قد أنشأ مدرسة للأقصوصة المصرية ، احتذى حذوها غيره من الكتاب ، فى جميع الأقطار الناطقة بالضاد[4] . والتيموريان ، بانتمائهما إلى بيت من البيوت العريقة ، قد جرّا الأرستقراطية إلى الميدان الأدبى ، وهو عامل

---

[١] محمد تيمور : ما تراه العيون : القاهرة سنة ١٩٢٧ . وكتابه : المسرح المصرى ، القاهرة سنة ١٩٢٣ يشتمل على ثلاث روايات ، ووصف للحياة المسرحية .

[٢] جى دى موباسان قصاص فرنسى ، ولد فى (شاتو دى ميرومزنيل Château de Miromesnil) وهو كاتب موهوب ، صريح ، لاذع النقد ، واقعى إلى أبعد الحدود . وله مؤلفات كثيرة ، منها : الصديق الجميل ، قوى كالموت ، قلبنا ، حياة ، بييروجان . ولد سنة ١٨٥٠ وتوفى سنة ١٨٩٣ . [المترجم] .

[٣] أنطون بافلوفتش تشيكوف [١٨٦٠ - ١٩٠٤] ولد فى تاجانروج على ساحل بحر الخزف بروسيا ، واشتهر بمسرحياته وقصصه القصيرة ، وله مكانة ممتازة فى الأدب الروسى .

[٤] محمود تيمور : أبو على عامل أرتست ، القاهرة سنة ١٩٣٤ ، الأطلال، القاهرة سنة ١٩٣٤، الشيخ عفا الله ، القاهرة سنة ١٩٣٦ ، قلب غانيـة ، القاهرة سنة ١٩٣٧ ، نداء المجهول ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ، وقصص أخرى .

مهم فى حياة مصر . ومؤلفات محمود لاتصور تصويراً صادقاً نواحى الحياة المصرية فحسب ، بل إنها بديعة التأليف ، تدل على أن كاتبها فنان مجود .

وليس فى الأدب العربى الحديث كتاب أشد تأثيراً فى النفس ، وأصدق تعبيراً واتصالا بالحياة ، من كتاب طه حسين (الأيام)[١]، قصة طفولته . فبناء الحياة العائلية قد وصف أبدع وصف وأدقه فى هذا الكتاب ، وخاصة المناظر المنتزعة من الحياة المدرسية .

ووصفه الفريد لرجال الدين دقيق صحيح . وقد نقل هذا الكتاب إلى الإنجليزية نقلا [٢] رديئاً ؛ فإن قصور المترجم وإقفاره ، قد جعله يفشل فشلا ذريعاً ، فى نقل السلاسة اللذيذة التى يتميز بها أسلوب طه حسين النثرى . وقد أنتج قلم طه حسين كتباً أخرى ، أكثرها يعالج النقد الأدبى والتاريخ ، وأخص بالذكر كتابه (مستقبل الثقافة) [٣] ، وقراءتها خير مدخل لدراسة الأدب العربى الحديث .

وتوفيق الحكيم كاتب معاصر ، له أتباع كثيرون ، ولا يشك أحد فى ألمعيته . وقصته (عودة الروح) [٤] ، من خير الدراسات عن الحياة السياسية والاجتماعية المصرية ، خلال سنى الثورة ، التى قامت بزعامة زغلول باشا . وبموازنة هذه القصة (بحديث عيسى بن هشام) للمويلحى[٥] ـ وهو من نتاج القرن التاسع عشر ـ يستطيع الإنسان أن يلمس التغيرات الاجتماعية الكبيرة التى حدثت خلال القرن والنصف الماضيين ؛ كما فعل صلاح الدين ذهنى فى كتابه (مصر بين الاحتلال

---

[١] طه حسين : كتاب الأيام ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

[٢] An Egyptian Childhood : The Autobiography of Taha Hussein by E. H. Paxton - London 1932.

[٣] طه حسين : مستقبل الثقافة ، فى مجلدين القاهرة سنة ١٩٣٨ .

[٤] توفيق الحكيم : عودة الروح ، فى مجلدين ، القاهرة سنة ١٩٢٣ ، وانظر كذلك مسرحياته فى مجلدين طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ .

[٥] محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام ، القاهرة سنة ١٩٢٣ ، وطبعات أخرى .

والثورة [١]) . وتكشف لنا دراسة هذين الكتابين أيضاً عن نمو اللغة ؛ فرونة أسلوب توفيق الحكيم ، وسهولة لغته التى يستعملها فى التعبير عن أفكاره ، تتعارض أصالة مع جمود أسلوب الكتاب القديم . ومؤلف توفيق الحكيم الآخر - وما أكثر مؤلفاته - ألا وهو (يوميات نائب فى الأرياف [٢]) هو دراسة اجتماعية فذة ؛ وصف فيها ما يقابله النائب فى الأرياف من شخصيات ، وما لهذه الشخصيات من خصائص ؛ كضابط الشرطة المغامر ، والخفير ، والمأمور .

ومن الكتاب البارعين المنفلوطى « أبو المقالة المصرية » . ولكتبه أهمية فى دراسة المجتمع والسياسة فى مصر . وقطعه مفيدة للمتأدبين الناشئين ، ولكن أسلوبه سوداوى ، رصين ، قد فات أوانه [٣] .

أما محمد أمين حسونة ، فهو على نقيضه : فكره متوثب ، وله مقدرة فائقة على تصوير الحياة المصرية فى الأقصوصة [٤] . وسهير القلماوى كاتبة ناشئة ، تبشر بمستقبل زاهر ، رغم نظرتها الصارمة الجادة ، والتزامها العربية الفصحى ، على ما فى ذلك من جهد . وكتابها الذى صدر بعنوان (أحاديث جدتى [٥]) وصف لطيف لحياة الأسرة .

ولحسين شفيق المصرى كتاب ، هو (الحاج درويش وأم اسماعيل [٦]) ، قام على نشره ابن أخته ، عبد السلام على نور ، الذى نال شهرة فائقة فى أوروبا ، لزخارفه البديعة فى الخشب والمعدن . واشتغل حسين شفيق المصرى رئيس تحرير لبعض المجلات التى تصدر بالعامية ؛ وكان مشهوراً بالفكاهة ، عرفه بها الخاص والعام ، كما أن له إنتاجا هو (الناس) .

---

[١] صلاح الدين ذهنى : مصر بين الاحتلال والثورة ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ، وكتابه رئيس التحرير القاهرة سنة ١٩٣٨ .

[٢] توفيق الحكيم : يوميات نائب فى الأرياف ، القاهرة سنة ١٩٣٧ .

[٣] مصطفى المنفلوطى : النظرات ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة سنة ١٩١٠ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٠ بالقاهرة ، العبرات ، القاهرة سنة ١٩١٥ للانتقام ، القاهرة سنة ١٩٢٣ .

[٤] محمد أمين حسونة : وراء البحار ، القاهرة سنة ١٩٣٦ ، الورد الأبيض ، القاهرة سنة ١٩٣٣

[٥] سهير القلماوى ، أحاديث جدتى ، القاهرة سنة ١٩٣٥ .

[٦] حسن شفيق المصرى : الحاج درويش وأم اسماعيل ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

و(مذكرات فتوة [١]) لحسنى يوسف ؛ وكتاب حنفى أبو محمود (مذكرات عربجى [٢]) وكتاب عبد الله حبيب (المغفل [٣]) ، صور صادقة للنواحى الشعبية فى الحياة المصرية .

وللمجلات الدورية سهم وافر ، فى معاونة الكتاب المحدثين فى مصر .

و (الرسالة) التى يصدرها أحمد حسن الزيات ؛ و (الثقافة) التى يصدرها أحمد أمين ، هما أبرز مجلتين أدبيتين أسبوعيتين الآن .

وأحمد أمين كاتب واسع الثقافة ، وأديب ضليع فى العربية ؛ وله مؤلفات عديدة عن تاريخ الإسلام وحضارته . ونصيبه كبير فى جعل مصر مركزاً من مراكز الدراسات الفكرية فى العالم العربى . وقد اختار أحمد أمين ، فى كتابه (فيض الخاطر [٤]) ، خير المقالات التى نشرها فى شتى النواحى : من علم ، ودين ، وحضارة ، وآداب سلوك ، ومادية ، وإصلاح ، وموسيقى ؛ كما تشتمل كذلك على صور للحياة اليومية ، مثل مقالته عن النجار المصرى . وهو من ناحية كونه مؤرخاً قد تعلم الشىء الكثير من الغرب . وقد خطا هو وجورجى زيدان خطوات واسعة بدراسة التاريخ ، فى اللغة العربية الحديثة .

أما جورجى زيدان فقد أصدر كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) سنة ١٩٠٢ وكتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١ [٥] ؛ مع أن الحكومة المصرية ، فى سنة ١٨٩٣ فقط ، قد أرغمت على أن تطلب إلى (فان ديك Van Dyek) وهو أمريكى وإلى (فيليبيدس Philipides) وهو يونانى ؛ أن يعدا كتاباً فى تاريخ العرب وآدابهم ، ليستعمل فى المدارس المصرية [٦] .

ومن خيرة الأدباء فى العصر الحديث عبد العزيز البشرى ، ابن سليم البشرى ،

---

[١] حسنى يوسف : مذكرات فتوة ، ثلاث مجلدات ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

[٢] حنفى أبو محمود : مذكرات عربجى ، القاهرة سنة ١٩٣١ .

[٣] عبد الله حبيب : المغفل سنة ١٩٣٠ .

[٤] أحمد أمين : فيض الخاطر ، ستة أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٣٨ — سنة ١٩٤٦ ؛ وانظر كذلك له : فجر الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ، وضحى الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

[٥] جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة سنة ١٩١٣ ، تاريخ آداب اللغة العربية فى أربع مجلدات القاهرة سنة ١٩١١ .

[٦] أدوار فان ديك وقسطنطين فيليبيدس : تاريخ العرب وآدابهم ، القاهرة سنة ١٨٩٣ .

أحد شيوخ الأزهر. وكتابه (المختار[١]) يشمل صوراً كثيرة عن الحياة المصرية.

وعباس العقاد كاتب مبدع، وناقد أدبي؛ تعالج مقالاته المجموعة نمو الحياة الأدبية في مصر[٢]. وفكرى أباظة، وهو عضو فى البرلمان، وناقد دقيق للحياة المصرية، وقد أصدر حديثاً سلسلة فذة من المقالات عن الشاب الحديث[٣]. وابنة الشاطىء تتبوأ مركز الناطق بلسان الفلاح. فمقالاتها، وكتبها[٤] عن هذا الموضوع لا غنى عنها.

ومريت بطرس غالى أصدر سنة ١٩٢٨ كتاب (سياسة الغد[٥])، الذى يعتبر من أمتع الدراسات الاجتماعية، التي ظهرت فى أى لغة؛ ومن المؤلم ألا يكون لهذا الكتاب طبعة انجليزية حديثة، تنشر على الناس. وفى نفس السنة أصدر حافظ عفيفى باشا (على هامش السياسة[٦])؛ وبعده بعام أصدر عبد الحميد فهمى مطر (التعليم والعاطلون[٧])؛ وهو يعالج مشكلة من المشاكل الحيوية فى مصر.

* * *

ولعل هذا التقدير القصير للمصادر، يقدم فكرة عامة عن الجهود الأدبية، التى يبذلها المصريون؛ وعن التقدم السريع الذى تم لهم. ومن العسير أن يفهم المرء كيف أن كاتباً مثل (جورج يونج Georges Young) يمكن أن يكتب سنة ١٩٢٧ أن مصر لا لغة لها، ولا أدب، ولا أساطير نبعت من ذاتها[٨]؟! وليس هو الكاتب الوحيد الذى وقع فى هذه الأحكام الخاطئة؟

---

[١] عبد العزيز البشرى: المختار، مجلدين، القاهرة سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٧.

[٢] عباس العقاد: ساعات بين الكتب، القاهرة سنة ١٩٢٩، مطالعات، القاهرة سنة ١٩٢٤، وكتب أخرى.

[٣] فكرى أباظة: الضاحك الباكى، القاهرة سنة ١٩٣٣، ولفكرى عدة مقالات منشورة فى المصورة.

[٤] ابنة الشاطىء: الريف المصرى، القاهرة سنة ١٩٣٥، وكتب أخرى.

[٥] مريت بطرس غالى: سياسة الغد، القاهرة سنة ١٩٣٨.

[٦] حافظ باشا عفيفى: على هامش السياسة، القاهرة سنة ١٩٣٨؛ وانظر كذلك، الانكليز فى بلادهم، القاهرة سنة ١٩٣٩.

[٧] عبد الحميد فهمى مطر: التعليم والعاطلون، القاهرة سنة ١٩٣٩.

[٨] Georges Young: Modern Egypt, London 1927, P.X.

حكومة الرسول بعد هجرته الى المدينة

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن

كانت بلاد العرب وما عداها من دول العالم فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد مسرحاً لحروب دامية وخلافات مذهبية شديدة تقطع أوصالها ، كما كانت ترزح تحت أعباء الجهالة والضلال ، وكانت بلاد العرب بصفة خاصة فى فوضى شاملة : يعبد أهلها الأوثان ، ويئدون البنات ، ويرتكبون أخش المنكرات ؛ فلما اقتضت مشيئة الله أن يصلح هذا العالم وينقذه مما كان يتخبط فيه ، أرسل سيدنا محمد بن عبد الله فى سن الاربعين بالهدى والفرقان الى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فعارضه أشراف مكة ومشركوها فى بادىء الأمر بهوادة . فلما أحسوا أن أتباعه فى ازدياد ، ولما رأوه يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم بدءوا يعارضونه بعنف ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، يدفعهم الى ذلك خوفهم من انهيار زعامتهم الدينية ، ومن ضياع الثروة التى تعود عليهم من وجود الأوثان حول الكعبة . ولما لم يحتمل أصحابه أذى قريش أمرهم بالهجرة الى الحبشة ، ولكن قريشاً استمرت فى إيذائها للرسول وأتباعه ، ونالت من المصطفى عليه السلام بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة ما لم تنله قبل ذلك ، حتى اضطر الرسول الى الهجرة بأصحابه إلى المدينة .

وكان أول أمر اتجه إليه نظر الرسول بعد أن استقر بالمدينة أن يبنى مسجداً للمسلمين ليقيموا فيه شعائر دينهم ، وليكون لهم بمثابة ندى يجتمعون فيه ليقضى رسول الله بينهم ، ويعلمهم أصول دينهم ، ويشاورهم فيما يهمهم من شئون الدين والدنيا ، وليستقبل فيه سفراء القبائل ووفود العرب ، من أجل ذلك سأل الرسول عن المكان الذى بركت فيه الناقة ، فأخبر أنه ليتيمين فى حجر معاذ بن

عفراء ، فاشتراه منه وأخذ يبنى فيه مسجده ومساكنه ، وكان يشترك فى عملية البناء بنفسه ، لكى يشجع المسلمين على العمل ، ولما فرغ عليه السلام من بناء مسجده ومساكنه انتقل من دار أبى أيوب إلى مساكنه بجوار المسجد .

وبوصول الرسول إلى يثرب ، صار بها أربع فئات من السكان ، كل منها تنظر إليه من وجهة نظر خاصة ، حسبما تقضى به مصلحتها ؛ فهناك المهاجرون الذين فروا بدينهم من أذى القرشيين بمكة ، وهناك الأنصار الذين اعتنقوا الإسلام من أهل يثرب ، وقد ألف الإسلام بين هاتين الفئتين ، وجعلهم أعضاء فى أسرة واحدة . وأما الفئة الثالثة فهى اليهود ، وهم بقايا بنى إسرائيل مع من تهود من العرب ، وقد استقبل هؤلاء الرسول استقبالا حسناً ، قصد استمالته إليهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب ، كى تقف فى وجه النصرانية التى أجلتهم عن فلسطين وطنهم القومى وأرض المعاد . وأما الفئة الرابعة والأخيرة فهى فئة المشركين من سائر الأوس والخزرج الذين آثروا البقاء على وثنيتهم ، وإن كان نفر منهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وهم المنافقون الذين نعتهم المولى جل وعلا بقوله : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » ، وقد كان خطر هؤلاء على الرسول وصحبه جسيما ، لكنه رضى منهم بظاهرهم ، وصبر عليهم حتى يقضى الله فيهم أمراً كان مفعولا .

فى تلك الآونة بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم طورا جديدا ، هو أخطر أطوار حياته وأبعدها أثراً فى نشر الدعوة التى تلقاها من ربه ، إذ أصبح عليه أن يحكم المسلمين ، ويسوى أمورهم ، وينظم شئونهم ، ويقود جيشهم إذا تهدد كيانهم خطر ، أو إذا شنوا الحرب على أى عدو كائن لهم ، وقد قام بكل تلك المهام الخطيرة على وجه يدهش العقول ويحير الألباب . وقد كان أول ما اهتم له الرسول أن ينظم صفوف المسلمين ويوكد وحدتهم كى يقضى على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم ؛ ولذا دعاهم إلى أن يتآخوا فى الله أخوين أخوين ، وجعل يؤاخى بين مهاجر وأنصارى . . . وهكذا ، وأحيانا نادرة آخى بين مهاجرين ، وجعل لهذا الإخاء حكم الدم والنسب ، وبه ازدادت وحدة المسلمين توكيدا ، وقد أظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ما تلقوه منهم بالشكر ، فشاطروهم فى أموالهم ،

وأفسحوا لهم فى ديارهم ، فامتدحهم الله على ذلك بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وبعد ذلك أخذ بعض المهاجرين يشتغل بالتجارة ، على حين احترف آخرون الزراعة . وأما فقراء المسلمين الذين لم تساعدهم أحوالهم على اكتساب عيشهم بأنفسهم فقد أفرد لهم الرسول صُفّة فى المسجد يبيتون فيها ، وجعل لهم رزقا فى مال المسلمين الذين آتاهم الله رزقا حسنا ، وسماهم أهل الصفة .

وبعد أن أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدة المسلمين على هذا النحو وأصلح أمر معاشهم ، أخذ يعمل على جعل يثرب وحدة سياسية نظامية ، وعلى توفير الطمأنينة لأتباعه وكفالة حرية العقيدة والرأى لهم ولغيرهم ؛ لأن هذه الحرية هى وحدها الكفيلة بانتصار الحق وبتقدم العالم نحو الكمال ؛ وتحقيقا لهذا سار على سياسة تفاهم مع اليهود ، وبذلك تألف قلوبهم وتحالف معهم ، وكتب بينه وبينهم كتاب موادعة وادعهم فيه وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . وهذا الكتاب وثيقة سياسية هامة ، تعتبر فتحا جديداً فى الحياة السياسية والدينية فى تلك العصور ، كما تعتبر عملا سياسيا ودبلوماسيا رائعاً يدل بأجلى بيان على عظم مقدرة الرسول السياسية وبعد نظره وصائب رأيه .

وأهم بنود هذه الوثيقة : أن الرسول عليه السلام أكد فيها أن المسلمين على اختلاف شعوبهم وتعدد قبائلهم أمة واحدة ، وأوجب التعاون والتضامن بين أفرادها على أساس أن الأخوة فى الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القربى ، وهذا هو الإخاء الإنسانى فى أسمى معانيه ، لا ذلك الإخاء الذى يتمشدق به أهل الغرب الذين صرعتهم شهواتهم الدنيوية فهم يقتتلون على مذبحها فى كل آن ، كما جعل ذلك الكتاب لجماعة المسلمين ، باعتبارها جماعة ذات شخصية دينية وسياسية ، حقوقا على أفرادها أخصها السهر على الأمن والضرب على يد المفسد المخل بالنظام أيا كانت مكانته ومهما كانت صلته بالحاكم ، وكذلك شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من ناحية الحقوق العامة ، وكفل لهم حريتهم الدينية ، والتمتع بما للمسلمين من حقوق ، كما فتح الطريق أمام الراغبين منهم فى الإسلام . كما فرض ذلك

العهد على اليهود أن يشتركوا مع المسلمين فى الإنفاق ما داموا محاربين ، وأن يساعدوهم فى دفع ديات القتلى والغرامات الحربية وما إلى ذلك . وبعد ذلك كله جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حكما يُرجَع إليه للفصل فيما قد يقع من خلافات يخشى ضررها بين المتعاقدين فى هذه الوثيقة (١) .

بهذه الوثيقة وما سبقها من خطوات ، استتب لرسول الله الأمر فى المدينة ، وأمن ـ ولو بصفة مؤقتة ـ كيد اليهود ، وبدأ ينشر بين أصحابه تعاليم دينه الحنيف ؛ ففرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وتبين الحلال من الحرام ، ونظر الرسول فى أمر الصلاة ، وكيف يجمع المسلمين لأدائها ، وأهمه ذلك كثيرا حتى وقفه الله الى اختيار الأذان وسيلة لذلك ، واستمر الرسول يقيم الحضارة الإسلامية على أسس سلمية ودعائم قوية . أقواها بلا شك ذلك الإخاء الإنسانى الذى يصل بالإنسان إلى أقصى غايات البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة ؛ أضف إلى ذلك العدل المطلق الذى يستوى أمامه الغنى والفقير والشريف والحقير والكبير والصغير ، ويتوج هذه الدعائم تلك المساواة الشاملة التى جاء بها الدين الحنيف والتى لا تفرق بين غنى وفقير ، ولا بين سيد وعبد ، ولا بين شريف ووضيع : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » يضاف الى تلك المثل العليا ما دعا إليه الإسلام من التعاطف والتراحم بين المسلمين ، وضربه لذلك الأمثلة الواضحة « مثل المسلمين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وفوق كل ذلك كان الرسول لا يبرم أمرا إلا بعد أن يستشير فيه أصحابه ويعمل حسب رأى الأغلبية ، ولو كان معارضا لرأيه الخاص ، وهو فى ذلك يأتمر بأمره تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » أضف إلى ذلك أن الرسول كان لا يدع فرصة تمر به إلا دعا أصحابه الى التحلى بمكارم الأخلاق والتخلى عن الدنايا وسفساف الأمور .

على هذا النحو أقام المصطفى عليه السلام فى المدينة المنورة حكومة ديمقراطية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، ووضع أسس الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى

---

(١) من أراد الاستزادة من نصوص هذه الوثيقة فليقرأها فى سيرة ابن هشام حـ ١ وفى كتاب تاريخ الاسلام السياسى حـ ١ .

معانيها جميعا ، قبل الثورة الفرنسية بنحو اثنى عشر قرنا ، فى الوقت الذى كانت أوربا فيه غارقة فى بحار لجية من الضلالة والجهالة . وبهذه السياسة الحكيمة الرشيدة وضع أسس الدولة الإسلامية الناشئة التى أخذت تنمو وتزداد بأسا وقوة يوما بعد يوم ، حتى دانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها بالطاعة لرسول الله فى حياته ، ثم رفرف العلم الإسلامى فى عهد خلفائه على ربوع فسيحة وأقطار نائية ، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وامتد سلطانهم من حدود الهند والصين فى أقصى المشرق حتى بلاد الأندلس ، وجبال البرانس فى أقصى المغرب .

وبعد أن استقر الأمن للنبى وأصحابه فى المدينة ، وقوى مركزهم فيها على النحو السابق ، أخذ يوجه همته الى إظهار قوته وبأسه لقريش وغيرها من القبائل العربية حتى لايستهينوا بأمر المسلمين ، ولذا بدأ بإرسال عدة سرايا لاستطلاع قوة قريش وإرهابها . ثم فرض الله بعد ذلك الجهاد على المسلمين للدفاع عن عقيدتهم ضد من يحاول الوقوف فى طريقها ، وبدأ الرسول يشتبك مع قريش فى سلسلة من الغزوات والحروب ، بدأت بغزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة ، وانتهت بفتح مكة ودخول أهلها فى دين الله أفواجا فى السنة الثامنة للهجرة .

الحاجـــــة

دخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال : « أتيتك فى حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين ، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين . » أراد إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها ، لأنى وضعت الطلبة فى موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لئيما بمنعك ، وكنت أنا لئيما بسوء اختيارى لك . فأخذ أبو تمام هذا المعنى وقال :

عيـــاس إنك للئيم وإننى مذ صرتَ موضع مطلبى للئيم

قال : ما حاجتك أبا عبد الله ؟ قال : أن يكتب إلى أبى موسى بن عبد الملك فى تعجيل أرزاقه . فأجابه إلى طلبه . فأنشد سوار يقول :

فبـابك أيمن أبوابهـم ودارك مأهـــولة عامره
وكفك حين ترى المجتديـــن أندى من الليلة الماطره

الشيوعية والإسلام طرفا نقيض

لحضرة الأستاذ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقى

جاء بالعدد رقم ٢٢٩٤٧ من جريدة الأهرام الصادر بتاريخ ١٩٤٩/٧/٣٠ ما يأتى :

نيويورك — لمراسل الأهرام الخاص — نشرت صحيفة نيويورك تايمز ، فى عددين قريبين أنباء تثير النفس عما يلقاه المسلمون فى روسيا السوفيتية من عنت واضطهاد . فذكرت استناداً إلى مصادر شتى أنه لم يكد يبقى اليوم من السكان المسلمين فى مناطق آسيا الوسطى من الاتحاد السوفيتى ، بما فيها جمهوريتا الكزك والتركمان ، وأن معظم مدرسى الفقه الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى قد نفوا إلى سيبريا أو اضطروا إلى التستر والتخفى . وقد فرض على المسلمين فى أثناء الحرب أن يتسلحوا ويحاربوا فى الجيش الروسى دفاعا عن الاتحاد السوفيتى ففعلوا ، فكان جزاؤهم النفى والعبودية والموت ، ونظمت الحكومة السوفيتية حملة غرضها القضاء على ما تزعمه « أسطورة » الصلة الثقافية بين آسيا الوسطى السوفيتية وشعوب إيران وتركيا والبلاد العربية ؛ وقد نشر كاتب سوفيتى يدعى كليموفيتش فى « المجلة الأدبية » سلسلة من المقالات هاجم فيها العلماء الروس والمسلمين الذين اتهموا بميلهم إلى مبادىء الجامعة العربية أو الجامعة الإسلامية أو الجامعة التركية أو الجامعة الإيرانية ، وذلك لأنهم حرصوا فى كتاباتهم على القول بأن الثقافات القديمة والحديثة بين شعوب آسيا الوسطى السوفيتية ، قد تأثرت تأثرا كبيراً بالثقافات الإسلامية فى البلاد الواقعة إلى الجنوب من الاتحاد السوفيتى .

هذا مختصر الأنباء التى نشرتها نيويورك تايمز ، وقد عقبت عليها فى افتتاحية بليغة قالت فيها : « إن الرسائل التى تنبىء بالمتاعب التى يلقاها المسلمون فى الاتحاد السوفيتى لا تبعث الدهشة فى أحد من الذين يعرفون حقيقة الإسلام ، فطبيعة

العقيدة الإسلامية تأبى أن تؤيد مذهب الماركسية الستالينية ، فلا بد إذن من أن تضطهد الدولة الماركسية أصحابها .

« و المسلمون أهل إيمان صادق وورع صحيح ، فهم على العموم لا يكتفون بالإيمان الفاتر ، أو بالتظاهر بالإيمان ، بل قد طبعت نفوسهم بحرارة الإيمان الصادق ، ومعظم قوة الإسلام يرتد إلى هذا الإخلاص ، وهذا الصدق فى نظرته الروحية . والمسلم لايقتصر إيمانه على أن حياته فى يد الله ، عز وجل ، بل يؤمن أيضاً بأنه يحيا حياته بين يدى الله ، وصلاة المسلم ليست دعاء وحسب ، بل هى شهادة . وقد قال أحد الفلاسفة : « ليس الإسلام إيماناً وحسب ، بل هو حياة أيضاً .

« وقد ظن بعض الشيوعيين أنه قد يسهل تحويل المسلمين إلى الماركسية ؛ لحرصهم حرصاً شديداً على إخاء الناس ، ولكنهم نسوا أن هذا الحرص على الإخاء ينبع من الإيمان بالله ، فالناس إخوان ؛ لا لأن هناك مذهباً اقتصادياً يجمع بينهم ، بل هم إخوان لأنهم جميعاً مؤمنون .

« وإذن فديانة كالإسلام لا يمكن أن تتفق مع مذهب الجدل المادى ، ولن تجد مسلما حقا يستطيع أن يكون أيضاً ماركسياً حقاً ، وما أكثر المسلمين الذين يستمكسون حقاً بإيمانهم ؛ أما وخلق المسلم هو هذا الخلق المكين ، فلا عجب أن يراهم حكام الاتحاد السوفيتى بعين غير عين الرضى » .

التقاضى

من أبلغ ضروب التقاضى أن ترى وجه دائنك . ولذلك قال المهلب بن أبى صفرة ، وهو من كبار قواد الدولة الأموية : يابنى إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلّما ، فكفى بذلك تقاضيا . وقال الشاعر :

أروح بتسليمى عليك وأغتدى   وحسبك بالتسليم منى تقاضيا

وقال آخر :

كفاك مخبرا وجهى بشأنى   وحسبك أن أراك وأن ترانى
وما ظنى بأن يعنيه أمرى   ويعلم حاجتى ويرى مكانى

الأدب تحت راية القرآن

لفضيلة الأستاذ أحمد شاهين

الفن على اختلاف أنواعه ما هو إلا تعبير جميل عما بين عواطف الفنان المرهف الحس وبين بيئته وظروفه من فاعل قوى وتجاوب مستمر. فإن تم هذا التعبير بالكلام الجميل (أى البليغ) فهو الأدب ، وإن تحقق من تأليف الألوان وتشخيص الأشكال فهو التصوير أو الحفر ؛ وإن وقع باستعمال آلات الطرب وتأليف الألحان وتناسق الأصوات الجميلة فهو (الموسيقى) . والأول وأعنى به الأدب من حيث تأثير القرآن فيه بتكييف أساليبه وتحديد أهدافه ـ هو موضوعنا اليوم .

وإذا كان الأدب صدى التجاوب بين نفس الأديب وبيئته وظروفه ، كان الأدب مرآة تتراءى فيها معالم الحياة فى البيئة ، كما أنه من ناحية أخرى يشف عن مزاج الأديب ونزعاته ، ومميزات شخصيته .

فأما النفس الزكية فإن أدبها دائما يكون فيضا من الآراء السديدة ، والفضائل السامية كالزهرة الجميلة لا تنفح إلا بالعبير الطيب والعطر الذكى . وأما النفس المريضة فمهما تم لها من وسائل الصناعة الفنية ، فإن نتاجها لا يشف إلا عن ألوان من الشهوات والنزوات المستهترة : (وكل إناء بالذى فيه ينضح) .

واعتبار الأدب بالفضائل والمثل الأعلى قبل اعتباره بالجمال الفنى ـ هو المقياس الأدبى الذى وضعه القرآن الكريم ؛ ويقابله المقياس الجاهلى الذى لا يقيم وزنا للفضائل فى تقدير الأثر الأدبى إذا كانت الصناعة المحكمة والجمال الفنى فيه المقدمة على كل اعتبار . وقد سئل (الحطيئة) من أشعر العرب ؟ قال : الملك الضليل . قيل له : ثم من ؟ قال : الغلام القتيل . قيل : ثم من ؟ قال صاحب هذه العصا ؛ يعنى نفسه . فأنت تراه يجارى جمهور الأدباء الجاهليين فى

تقديم امرىء القيس للزعامة، على ما في شعره من الخلاعة والعبث، ولا يرى في شعره المقذع في الهجاء والطعن على الناس بالباطل لفوات عطاء أو نيل أرب ما يغض من قيمة أدبه، أو ينزل به عن مرتبة الصدارة والامتياز. وكذلك كان الأدب الجاهلي أكثره يدور حول أغراض شخصية أو قبلية صغيرة: كالمفاخرة بمناقب العشيرة، والمكاثرة بعديدها، والمدح المغالى فيه بأجر، أو الهجاء على فواته، أو التشبيب بجمال النساء بأساليب لا تخلو من طيش ومساس بالحرمات.

فلما أشرق الإسلام في قلب الجزيرة عنى القرآن الكريم بتوجيه الأدب عامة والشعر خاصة إلى أهداف إنسانية: من الحق والخير، والقيم السامية، ونعى على شعراء الجاهلية إمعانهم في الأوهام الكاذبة، وتخبطهم في الخيال الجامح، وإهمالهم في تحرى الصدق والحقيقة، واستثنى منهم الشعراء المثاليين الذين استجابوا لداعي الله وآمنوا برسوله، وجعلوا أدبهم في خدمة الحق والدفاع عن العقيدة المقدسة: «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون». الآيات من سورة «الشعراء».

وهكذا وضع القرآن الكريم للأدب مقياساً جديداً قوامه الحقيقة والفضيلة والمثل الأعلى. وفي توضيحه قال الرسول صلوات الله عليه كما نقل ابن رشيق في كتابه (العمدة): «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه». وليس في توجيه القرآن الشعر إلى الحقيقة والفضائل إهمال لعنصريه الأساسين: الجمال الفني، والخيال البديع. فقد بين الرسول أن الجمال والإبداع لابد منهما ليكون للأدب تأثيره السحرى على النفوس والعواطف، ولكنه يشترط مع عنصر الحقيقة والصواب. وهذا معنى الحديث الشريف «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا»، كما أنه لا يمنع تجميل الشعر بالخيال البديع ما دام غير ضال ولا مبالغ، ولا فيه مساس بحرمات الناس وأخلاقهم كما ترى في «بانت سعاد» التي أنشدها كعب بن زهير بين يدى الرسول عليه السلام، وفيها يقول:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

فهو لا يحرم الغزل العنيف، والتغريد بالعواطف النزيهة والحب البرىء؛ ولا يجيز المغالاة الخرقاء أو اللغو الفارغ والحشو المرذول. وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه «ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون» قال المبرد «وقوله عليه السلام: الثرثارون يعنى الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق. وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء، يقال عين ثرثارة. وقوله عليه السلام: المتفيهقون إنما هو بمنزلة الثرثارون توكيد له. ومتفيهق: متفيعل من قولهم فهق الغدير يفهق إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد. ومن التكلف الممقوت فى نظر الدين مغالاة الشاعر وتجاوزه الحد؛ وقد أنشد النابغة الجعدى بين يدى رسول الله قصيدته التى قال فيها:

علونا السماء عفة وتكرماً وإنا لنبغى فوق ذلك مظهراً

فغضب النبى عليه السلام وقال: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنة بك يا رسول الله. فقال له النبى عليه السلام: أجل إن شاء الله. ولا يختص التكلف المرذول بأساليب الكلام ولفظه، ولكن استهجن تكلف العواطف والمشاعر؛ فقد حضّ الرسول على إهمال الشعراء المتملقين الذين لا يمدحون أو يذمون عن عقيدة. وفى الحديث «احسوا فى وجه المداحين التراب».

وإنما يمدح الإنسان أو يذم بما هو فيه فحسب، حتى لقد أمر النبى شعراء المسلمين عند ما يردون على شعراء المشركين افتراءهم على الرسول وطعنهم على الإسلام، أن يتحروا عن عيوبهم عند العارفين بها أمثال أبى بكر رضى الله عنه لكى لا يفتروا عليهم إذا تبادلوا معهم الهجاء وتراشقوا التهم. فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة «بنى رسول الله لحسان فى المسجد منبرا ينشد عليه الشعر، وقال لحسان «اهجهم (يعنى قريشا) فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام! اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات». فأنت ترى أن هذا الهجاء ليس من نوعه عند الجاهليين كذب وافتراء على الناس، وإنما هو نقد خالص رخص فيه القرآن للبرىء المعتدى عليه فى الدفاع عن نفسه؛ قال تعالى «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما». أما الهجاء

بلا حق فممنوع قطعا بنص القرآن . قال سبحانه « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » . وعندما تفاقم شر الحطيئة فى هجاء الناس والطعن عليهم حبسه عمر وهدده بقطع لسانه ، ثم عفا عنه حين أقلع وبعث يستعطفه بقوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر

وقصارى القول أن الواقعية فى الأدب هى المفضلة فى توجيه القرآن الأدبى . وأقوم الأدباء قيلا ، وأهداهم سبيلا ، من تحرى الصدق ، وقال الحق ، ونطق بالحكمة والموعظة الحسنة . وكان الرسول يعجب بشعر لبيد بن ربيعة لما فيه من الحكمة العالية . وروى محمد بن بشار بسنده إلى أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد »

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... ...

أخرجه الترمذى فى الشمائل ، وأخرج عن عائشة أنه عليه السلام كان يتمثل بشعر ابن رواحة وبقول طرفة : [ويأتيك بالأخبار من لم تزود]

بعد ما تبين تستطيع أن تلخص مميزات التوجيه القرآنى للأدب عموما وللشعر خاصة فيما يأتى : (١) لابد لكل عمل فنى وأدبى من غاية سامية ومثل أعلى (٢) الغايات السامية والمثل العليا فى الأدب لا تختلف عنها فى كافة الأعمال الأخرى ، وهى ما حددها الدين : من التوحيد ، والعدل ، والرحمة ، وخدمة الصالح العام الخ (٣) الحقيقة دائما مقدمة على الخيال ، وكلما كان حظ الأثر الأدبى من الحقيقة أكثر كانت قيمته أعلى وأثمن (٤) الجمال الفنى والخيال البديع المعقول واستلهام للعواطف الخيرة والميول البريئة ـ مقومات أساسية فى كيان الأدب لابد منها (٥) لا يجوز للأدب أبداً أن يتحلل من الاعتبارات الخلقية أو يمس الآداب والحرمات أو يخرج على القيم السامية للمجتمع .

أما قيمة هذا التوجيه الأدبى الاسلامى والموازنة بينه وبين ما عداه من الاتجاهات والمقاييس الفنية القديمة والحديثة ، فوعدنا به غير هذا البحث فى فرصة أخرى ، وعسى أن يكون قريبا .

الأجوبة المسكتة

من الموضوعات ما هو طريف لا تمل قراءته ، ولا تسأم إعادته ؛ فإذا كان فوق ذلك مفيداً بلغ الغاية من النفع . من هذا الصنف كتاب (الأجوبة المسكتة) لصاحب العزة الأديب النابه « أحمد صابر بك » ، فقد أودع مؤلفه كل ما عثر عليه فى كتب الأدب ، من جواب مسكت . والجواب المسكت لا يتأتى كل وقت ، ولا يتسنى لكل متكلم ، فهو طراز من الكلام يجىء عفواً ، لمن استأهلوا ذلك من المستندين إلى ذخر ثمين فى قلوبهم ، من الحكمة وفصل الخطاب ؛ وقد صرح برأيه فيه إمام البلاغة الجاحظ فقال :

« إن الأجوبة المسكتة هى أصعب الكلام مركباً ، وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكا ، لأن صاحبها يعجل مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، حيث يروم فى بديهته ، نقض ما أبرم القائل فى رويته ، ويفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويسد على خصمه واضح المحجة » .

والخلاف بيننا أننا : نقول « يجىء عفواً للمستندين إلى ذخر ثمين من الحكمة وفصل الخطاب » ، وهو يقول إنه يجىء بعد مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، ولا نرى الوقت يسمح بهما أثناء التكلم .

وإننا لنشكر الأستاذ المؤلف على ما جمع من درر غوال ، لا تقوم بمال ، وما أمد به الأدب العربى من شذرات ، كانت موزعة فى عشرات من الكتب ، فجمعها فى كتاب . وهو يوجد بمكتبة السيد محمد الحلبى ، وثمنه أربعون قرشاً .

البيان الفاصل بين الحق والباطل

الإنسان فى حياته الدنيا متنازع بين داعيين : داعى الحق ، وداعى الباطل ؛ فالأول يدعوه لما فيه صلاحه وفلاحه ، ولما به تقدمه نحو غايته المرجوة ، ووصوله إلى مثله الأعلى ، وحفظه فى أثناء حياته الأرضية من علل النكوص على عقبيه ، والنكول عن غايتيه ، ومن شرور الفتن الغائلة ، وسموم الآثام القاتلة ؛ والثانى يورطه فى المهالك ، ويزج به فى المضانك ، ويسول له ارتكاب المآثم ، وغشيان المظالم ، ولا يزال بصاحبه يصده عن الخير ، ويجره إلى الشر حتى يجعله عبرة للمعتبرين . وقد بين الله فى كتابه الكريم ، ما هو حق وما هو باطل من العقائد

والأعمال، وفصلها تفصيلا، حتى لا يقع فيها من يسول له الشيطان ركوبها، فيوبقه كما يفعل بشيعته فى كل حين. فجاء الفاضل النبيل، المؤلف النابه الجليل الأستاذ «على فكرى»، فجمع ما ورد فى الحق والباطل فى الكتاب والسنة، ورتبها أحسن ترتيب، وبوبها أكمل تبويب، وطبعها فى كتاب، فما لبث أن نفدت طبعته الأولى، فرأت دار إحياء الكتب التى طبعته أولا أن تعيد طبعه ثانيا. فنرجو لهذا الكتاب الذيوع والانتشار؛ فإنه خير مايحفظ الإنسانية لصاحبها، ويهديه إلى طريق الفضيلة التى ينشدها، ويرده عن الباطل الذى يهدمه، ردا رفيقا، ولكن مؤثراً. فنشكر لحضرة المؤلف عنايته بنشر أمثال هذه الكتب التى تؤدى للإنسانية أجل خدمة، وتمدها بأمضى سلاح، للتخلص من شرور الحياة وآلامها.

مؤلفات أحمد تيمور باشا

من أحسن ما عنى به الغيورون على المؤلفات الطريفة، مؤلفات العالم الجليل أحمد تيمور باشا رحمه الله وأجزل جزاءه، فقد أدى للغة العربية خدماً جليلة لم يقم بها سواه، منها كتاب (ضبط الأعلام) فقد كانوا يقرءون أسماء كثير من الشعراء ورجال التاريخ على غير حقيقتها، كابن الزبعرى والطرماح وغيرهما، مما يعد بالمئات، فعنى تيمور باشا بضبطها فسدت، فراغاً فى المطبوعات العربية لم يملأه غيره،

ومنها كتاب (البرقيات). قال رحمه الله فى مقدمته: «من مزايا اللغة العربية أنها تحتوى كلمات تدل فى إطلاق واحد على معان متعددة نحو (ربع) أى رفع الحجر باليد امتحانا للقوة. ثم قال: وإنما سميتها بذلك لما فى التعبير بها من الإيجاز المطلوب فى الرسائل البرقية، فأتى وضعه لها مئات من الكلمات وشرحها شرحا وافياً، وحلاها بالشكل خشية أن يلحن القارىء لها فلا يتم له المقصود منها وهو الانتفاع.

ومن تلك المؤلفات (الأمثال العامية، والكنايات العامية) فهى تقع فى نحو ستمائة صفحة، أتى فيهما رحمه الله بما كنا لا نعرفه منها. وهى مؤلفات تحتاج لجهود متواصلة، وتحقيقات شاقة. ومما يسر محبي الاطلاع أن انتدب للإشراف على طبع هذه الكتب الكاتب الألمعى الكبير صاحب العزة خليل ثابت بك. فجاءت على أحسن مايمكن أن يكون طبعاً وورقاً؛ فنشكر له هذه الخدمة الادبية، شكراً مضافاً إلى شكرنا له على ما قام به من خدم صحفية ممتازة سنين طويلة.

تطلب هذه الكتب من مكتبة الخانجى.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث الأستاذ الأكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ظهر اليوم (١٩٤٩/٩/٢١) وزير يوغوسلافيا المفوض الجديد ، ومعه شيخ علماء يوغوسلافيا ، ووفد من العلماء؛ وقد رحب بهم الأستاذ الأكبر وتمنى لهم طيب الإقامة ، وقد قدمهم لفضيلته الوزير المفوض قائلا : إنه سعيد أن يزور الجامع الأزهر العتيد ذا الصوت البعيد فى جميع أنحاء العالم، وسعيد أن يزور شيخ الأزهر ليوطد الصلات الوثيقة بين مسلمى يوغوسلافيا ممثلين فى وفد العلماء ، وبين الأزهر الشريف . ثم قال : إن المسلمين كلهم فى يوغوسلافيا يتطلعون الى الأزهر ، لأنه مصدر العلم والثقافة الدينية .

فشكره فضيلة الأستاذ الأكبر على هذه التحيات .

وسأل الأستاذ الأكبر شيخَ علماء يوغوسلافيا عن حال المسلمين هناك ، فقال شيخ العلماء : إن المسلمين بخير ، وهم يتمتعون بحقوقهم الدينية والمدنية كبقية المواطنين ، ولهم مدارسهم التعليمية والدينية .

وسأل الأستاذ الأكبر عن المدارس الدينية ومستوى الثقافة فيها ، فقال شيخ العلماء : إن مدة التعليم فى المدارس ثمان سنوات ، والطلبة يدرسون فيها الفقه والأصول والحديث والبيان والبديع ، والمذهب السائد هناك هو

المذهب الحنفى . . . وهناك مدارس لتعليم اللغة العربية ولكنها ما تزال فى حاجة الى النهوض .

فقال الأستاذ الأكبر : إن خير ما يسره أن يعنى المسلمون بشئون دينهم ، وأن يحرصوا على تعليم أولادهم أصول الدين ، ليطبعوهم على التدين منذ نعومة أظفارهم ، وإنه يلاحظ أن مدة التعليم فى المدارس الدينية قصيرة ، وهى تحتاج إلى فترة أطول ليتم نضج المتعلمين فيها ، وهو يوصى فضيلة شيخ العلماء أن يعمل على زيادة مدة الدراسة أربع سنوات أخرى ؛ لأن هذه هى أقل مدة يمكن فيها استيعاب العلوم الدينية والعربية . فوعد شيخ العلماء بأن يعمل على تنفيذ نصيحة الأستاذ الأكبر .

وسأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن تعداد المسلمين فى يوغسلافيا ، فقال شيخ العلماء : إن عددهم يربو على المليونين .

وسأل الأستاذ الأكبر عما إذا كان فى يوغوسلافيا محاكم شرعية ، فقال شيخ العلماء : كان فى يوغوسلافيا محاكم شرعية تقوم بالفصل فى مسائل الطلاق والزواج والمواريث الخاصة بالمسلمين ، ولكنها ألغيت أخيرا بعد تعديل نظام يوغوسلافيا .

ووجه الأستاذ الأكبر السؤال عن أسباب إلغاء المحاكم الشرعية إلى الوزير المفوض . فأجاب سعادته : إن حكومة يوغسلافيا رغبت حين عدلت دستورها أن تجعل حرية التقاضى لجميع المواطنين واحدة ، فألغت كل المحاكم الطائفية ومنها المحاكم الشرعية ، وجعلت التقاضى كله أمام محكمة الشعب الوطنية . وقد روعى احترام حقوق المسلمين ، فخصص قضاة مسلمون للنظر فى مسائل الأحوال الشخصية الخاصة بهم . وحكومة يوغوسلافيا الآن حكومة وطنية لا تفرق إطلاقا فى المعاملات الدينية .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه مع احترامه لوجهة نظر الحكومة اليوغوسلافية يأسف لإلغاء المحاكم الشرعية ، ويود أن تعيد الحكومة اليوغوسلافية النظر

فى أمر إلغائها . واتجه الأستاذ الأكبر إلى العلماء وقال : إنى أرجو أن تعملوا على إعادة هـذه المحاكم ، وأن تختاروا لها الأكفاء من القضاة ، لتكون هـذه المحاكم أنموذجا يحتذى فى تحرى الدقة والعدالة .

ثم قال الأستاذ الأكبر للوزير المفوض : لقد تحدثت إلى سلفك حين زارنى منذ عام عن تقريرات وصلتنى عن اضطهادات وقعت على المسلمين فى يوغوسلافيا ، وطلبت إليه أن يتحرى صحة هذه الوقائع ، وبودى أن أقف منك اليوم على هذه الحالة بالتفصيل ، لأطمئن على مستقبل أبنائى المسلمين فى يوغوسلافيا .

فقال الوزير : إنه يشكر الأستاذ الأكبر أن أتاح له هذه الفرصة ليتحدث بصراحة عن معاملة الحكومة اليوغوسلافية للسلين ، وقال : إنه يريد أن يستمع الأستاذ الأكبر لرأى علماء المسلمين أولا فى هـذه المعاملة ، وها هم شهود على ما يتمتع به العلماء من معاملة طيبة ، ونفى صحة ما وصل إلى الأستاذ الأكبر من تقارير عن اضطهاد للسلمين ، وقال : إن الحكومة اليوغوسلافية لا تضطهد أحدا لسبب دينى ، فحرية التدين مكفولة للجميع ، وإذا كان بعض المسلمين قد وقعت عليهم عقوبات فليس هذا مرده الى الدين ، وإنما لأنهم ارتكبوا مخالفات خطيرة ضد الدولة ، وشأنهم فى ذلك شأن غيرهم من بقية الطوائف .

وقال شيخ العلماء : إن كل ما يقال عن تعذيب المسلمين واضطهادهم لأسباب دينية هو محض افتراء ؛ فالمسلمون يتمتعون بحمد الله بكل رعاية وعناية من الحكومة اليوغوسلافية ، والحكومة تشجع الهيئات الدينية ، وتعاون على إنشاء المدارس ، وليس للسلمين ما يشكون منه ؛ أما ما تسامع الى الأستاذ الأكبر من عقوبات وقعت ببعض العلماء ، فسببها تآمرهم مع غيرهم على قلب نظام الحكم فى الدولة ، ومع ذلك ومع عدم رضائى عن هذا المسلك ، فقد توسطت لدى الحكومة فى تخفيف العقوبات عليهم ، وقبلت الحكومة رجائى .

فقال الأستاذ الأكبر : لقد أردت بذكر هذه التقارير التى وصلتنى أن أتبين وجه الحق فيها ، وأن أطمئن ويطمئن معى العالم الإسلامى على أن إخوانى وأبنائى

المسلمين فى يوغوسلافيا ، لا يضطهدون بسبب عقائدهم الدينية ، وما دام الأمر كما ذكر شيخ العلماء وذكر سعادة الوزير ، من رعاية لشئون المسلمين وكفالة لحقوقهم ، فقد ارتحت لهذا البيان . وإنى لأرجو أن يتحقق للمسلمين فى يوغوسلافيا كل ما نرجوه لهم من تندم . ونصيحتى لهم أن يجمعوا كلمتهم ، ويستمسكوا بدينهم ، لتتحقق لهم كل أمانيهم . ورجا الأستاذ الأكبر شيخ العلماء أن يحمل تحياته ودعواته لأبنائه المسلمين جميعا .

وقال الوزير المفوض : إنه يود أن يؤكد للأستاذ الأكبر أن المسلمين فى يوغوسلافيا أحسن حالا منهم فى أى وقت مضى ، وأن عناية الحكومة بنشر التعليم فى جنوب الصرب ومقدونيا عناية فائقة ، وأن المدارس فى البقاع الإسلامية قد نشطت وزاد عددها ، وأن الحكومة ـ فضلا عن هذا وتشجيعا للتعليم الدينى تفكر فى ربط الصلات بين مسلمى يوغوسلافيا والأزهر ، وسيخرج هذا التفكير إلى حيز التنفيذ حين توفد الحكومة بعثة من أبناء المسلمين للتعلم فى الأزهر والتخصص فى العلوم الدينية والعربية ، وبذلك تكون أول بعثة تفد إلى الأزهر من يوغوسلافيا بعد الحرب ، وبهذا تتحقق الروابط الثقافية الوثيقة بيننا وبين مصر ، ويومها يرى العالم الإسلامى ويدرك أن الشائعات المغرضة التى تكثر هنا وهناك عن سوء معاملة المسلمين لا أساس لها من الصحة إطلاقا .

فقال الأستاذ الأكبر : إنى أرحب دائما بالتعاون الثقافى بين الأمم ، لأنه دعامة قوية فى تحقيق التفاهم وربط الصلات الوثيقة بين الشعوب .

ويسرنى أن يعود أبناء مسلمى يوغوسلافيا إلى رحاب الأزهر ، لينهلوا من معارفه ، ويرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم . وإن الأزهر بفضل التوجيه السامى لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول الذى يحرص على نشر نور العلم فى جميع الأقطار ، وعلى ربط المسلمين فى جميع بلاد العالم فى الشرق والغرب برباط وثيق من المحبة والتعاون ـ ليرحب بأى بعثة تفد من يوغوسلافيا لطلب العلم ، وستجد البعثة القادمة ما تجده البعوث الإسلامية جميعا من عطف الفاروق العظيم ورعايته ، مما ييسر لها أمورها ، ويعينها على طلب العلم ؛ فقد حرص

جلالته أدام الله ملكه ، على أن يوفر من جيبه الخاص لأبناء البعوث الإسلامية كل وسائل العيش والإقامة ، لينصرفوا مطمئنين إلى أداء رسالتهم التى وفدوا من أجلها ، وهى التزود بالعلم ، والتبحر فى الدين .

وشكر الوزير للأستاذ الأكبر هذا العطف ، وأثنى على أريحية الملك العظيم ، وقال : إننى حين تشرفت بالمثول بين يدى جلالته حدثنى حفظه الله عن اهتمامه بالتعاون الثقافى بين الأمم ، وعن رغبته فى قيام التبادل الثقافى بين مصر ويوغوسلافيا . وقد أكدت لجلالته أن يوغوسلافيا حريصة على إنماء صلاتها بمصر وعلى التعاون معها ثقافياً ، وقد أبلغت حكومتى رغبات جلالته ، وسأبلغها مقترحات الأستاذ الأكبر ، وترحيب الأزهر بالبعثات التى تفد من أبناء مسلمى يوغوسلافيا ، وأرجو فى وقت قريب أن تتخذ الترتيبات لإرسال هـــذه البعثة حتى تتحقق الصلة بين الأزهر ويوغوسلافيا .

واستطرد الحديث إلى الطلاب اليوغسلافيين الذين وفدوا إلى مصر قبل الحرب ، وطالب الأستاذ الأكبر سعادة الوزير أن يعنى بأمرهم ، وأن يوفر لهم من المساعدات ما يمكنهم من طلب العلم هادئة نفوسهم . وقال الوزير : إن أحداً من هؤلاء الطلاب لم يتقدم إليه ، ووعد بالنظر فى شأن من يتقـدم إليه منهم ، وبحث حالته .

وكرر الوزير الشكر للأستاذ الأكبر على أن أتاح لهم هذه الفرصة لزيارته ، واستأذن مع وفد العلماء منصرفين ، فودعهما الأستاذ الأكبر شاكرا راجيا لهم سفرا ميمونا إلى الأقطار الحجازية .

هذا وقد قدم الوفد إلى الأستاذ الأكبر هدية نفيسة من صناعة يوغوسلافيا هى طقم فاخر للقهوة مموه بالذهب . وقد تقبل الأستاذ الأكبر الهدية شاكراً .

حديث حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

مع مراسل وكالة الأنباء الإسلامية بمناسبة احتفال حكومة الباكستان بتأسيس أربع جمعيات ثقافية

---

١ — تحتفل حكومة الباكستان بتأسيس أربع جمعيات ثقافية لتوطيد العلاقات بينها وبين العالم العربى والإسلامى، فهل تتفضلون بتوجيه كلمة فى هذه المناسبة عن شعوركم نحو هذه الجماعات، وعما توصون به لتوسيع نطاق أعمالها ؟

— إن كل عمل غايته نشر الثقافة فى البلاد الإسلامية والعربية، يملؤنى غبطة وسروراً؛ إذ ما أحوجنا إلى أن ننير أذهان أبنائنا فى العالم الإسلامى، وأن نوحد بين ثقافاتهم وأن نوجههم توجيهاً صالحاً يقوم على المحبة لدين الله، والإخلاص لتعاليم الإسلام؛ ولا ريب أن ديننا الحنيف يدعونا دائماً إلى التأمل والنظر فى ملكوت الأرض والسماء، ويطالبنا بأن نتسلح بالمعرفة، وأن نتزود بالثقافة الكاملة، لنستطيع أن نواجه الحياة فى قوة وعزم، ولنستعين على إدراك أسرار الكون، ومجاراة الحياة، وفهم غوامضها؛ ولا شك أن العمل على توحيد الثقافة فى البلاد الإسلامية والعربية، عمل جليل الشأن، لأنه يقرب بين أفكار هذه الأمم، ويربطها برباط وثيق من وحدة الفكر والشعور يزيد برباط الإيمان بينهم قوة وتوثيقاً.

والعالم الإسلامى والعربى اليوم لا بد له أن يتكتل وتجتمع كلمته على أساس من المحبة الخالصة لله، ليقف قويا بإيمانه، معتزا بثقافته وتعاليمه فى وجه كل تيارات العدوان التى تتناوش العالم الآن.

وإنى إذ أهنىء حكومة الباكستان على هذه الخطوة المباركة فى سبيل التقريب الثقافى بينها وبين الشعوب الإسلامية والعربية، أرجو أن تظل هذه الروح جميع

أبنائى وإخوانى المسلمين فى جميع أقطار الأرض ، لنمكن لكلمة الله ، ونحقق هدفنا الأسمى فى أن نعيد للإسلام عظمته ومجده . ونصيحتى لأبناء المسلمين فى الباكستان أن يقبلوا على تشجيع هذه الجمعيات الثقافية ماديا وأدبيا لتزدهر وتصبح نواة لحركة نهضة ثقافية تعم دولة الباكستان الجديدة ، وترسى لها تقاليد قوية فى خدمة العلم والمعرفة . كما أنصحهم جميعاً بالإقبال على العلم والتزود من المعارف ؛ لأن الثقافة والمعرفة فى عصرنا الحديث هما أداتا التقدم والسلطان ، فإذا اجتمع لنا دين قويم وعلم صحيح ، استطعنا أن نعيد مجد الإسلام والعروبة ، وأن نجعل كلمتنا هى العليا بإذن الله . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

٢ — ما هو مدى تعاون الأزهر مع الشعوب الإسلامية ، وما مظاهره ؟

— إن الأزهر منذ نشأته هو الحلقة التى تربط الشعوب الإسلامية بعضها ببعض ؛ إذ يفد إليه طالبو العلم من المسلمين من جميع بقاع الأرض ليتزودوا من معارفه وحكمته ، ويعودوا إلى بلادهم ليرشدوا قومهم وينيروا أمامهم سبل الهداية . ولا عجب فى ذلك ؛ فالأزهر هو معقل الدراسات الإسلامية : من فقه ، وحديث ، وتفسير ، وعلوم الكلام ؛ بل هو المعقل الذى حفظ تراث الدين واللغة من نحو ألف سنة ، برغم كل التقلبات والحوادث التى وقعت فى مدى هذه السنوات . وقد ظل علماء الأزهر عاكفين على الدراسة والتأليف فى جامعهم العتيق ، وتركوا للعلم والدين زادا من المعرفة لن ينفد على الأيام .

فأنت ترى معنا أن الازهر قد أحيا علوم الدين واللغة ، ونهض بها نهضة واسعة أفاد منها المسلمون جميعا ، وتأثروا بها فى ثقافتهم وتآليفهم : ولذلك فإن طابع الأزهر مميز فى كل البقاع ، وتلامذته الذين اغترفوا من منهله وانطبعوا بتعاليمه هم الذين يوجهون الحياة العامة فى البلاد العربية والإسلامية .

للأزهر إذاً فضل جمع أبناء المسلمين فى صعيد واحد بما فتح لهم من أبواب ، وما يسر لهم من أسباب تعينهم على طلب العلم ، وتمكنهم من الجلوس جنبا الى جنب ، سنوات طويلة فى حلقات الدرس ، فتملأ قلوبهم بالمحبة الصادقة والتعاون الوثيق ، وتشرب نفوسهم بروح الإخاء والألفة ، حتى إذا عادوا الى بلادهم ذكروا معهدهم العتيد ، وكانوا رسل سلام وهداية وتوفيق .

وللأزهر فضل توحيد الثقافة الإسلامية ومناهج دراستها ، فإن أبناءه الذين تعلموا فيه قد انبثوا فى جميع بقاع الأرض يؤدون رسالته ويعملون على نهجه ، ويذيعون آراءه وأفكاره ، وطرق بحثه ووسائل إرشاده ؛ ومن هنا تأثرت بهم الحياة العامة فى الشعوب الإسلامية ، وقويت عن طريق جهودهم الدعوة الدينية . ويكفى لتقدر عظم هذا التأثير أن تعلم أن الأزهر ظل وحده مدى قرون طويلة ، هو حامل مشعل الهداية والثقافة فى العالم الإسلامى ، وأن كل حركات النهضة العلمية والثقافية خرجت منه وتغذت من أبنائه .

أما الأزهر الآن فقد جرى على هذه التقاليد الطيبة ، وزاد عليها فى التوسع والتنظيم للبعوث الإسلامية الوافدة إليه . وقد كان للمغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ فضل توجيه الأزهر الى هذه الناحية النافعة ، بما قدم من معونات أدبية ومادية خلدت ذكره فى ثبت العاملين المصلحين ، ثم كان لحرص صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول راعى العلم والعلماء على أن يظل الأزهر مثابة الوافدين من جميع بقاع الأرض ، أكبر الأثر فى تشجيع البعوث الإسلامية على الوفود ؛ فقد تفضل جلالته فشمل هذه البعوث برعايته ، وأمر أن تكون نفقتها من جيبه الخاص . وفى الأزهر الآن نحو ألف وسبعمائة طالب من البلاد الإسلامية : من الصين والهند وأندونيسيا وجاوه وألبانيا ويوغوسلافيا وتركيا وروسيا والمغرب وجنوب أفريقيا والشام والعراق وإيران وغيرها ، كلهم متمتعون بفضل الفاروق ورعايته ، وكلهم يدرسون ويعملون متكاتفين لخدمة العلم والدين . هذا المؤتمر الاسلامى الكبير الدائم لا شك له أثره فى التقريب بين الشعوب الإسلامية فى الفكر والشعور ، والتوحيد بينها فى الثقافة ، وربطها جميعا برباط الوحدة والمحبة فى دين الله .

وقد حرص الأزهر من ناحية أخرى ـ بفضل عناية جلالة الفاروق وتوجيهه ـ على إشاعة الثقافة الإسلامية ، بين الشعوب عامة ، فأرسل بعثات من أساتذته ومتخرجيه إلى كل البلاد العربية والإسلامية ، ليعملوا على نشر كتاب الله وسنة رسوله ، ويوجهوا الثقافة الوجهة الإسلامية الصالحة . وإنك لواجد

اليوم فى كل عواصم البلاد العربية والإسلامية بعوثاً علمية نشطة نواتها أبناء الأزهر وعلماؤه، ينشرون علم الأزهر فى الآفاق، ويربطون بين شعوبها برباط المحبة والمعرفة.

ولم يقف جهد البعوث الأزهرية عند حدود البلاد العربية والإسلامية، بل حرصنا على أن يكون للأزهر فضل السبق فى دعوة الشعوب التى لما يصل إليها نور الهداية الى كتاب الله وسنة رسوله، فأرسلنا البعوث الى جنوب وشرق إفريقيا للدعوة والإرشاد؛ ونحن بسبيل إرسال بعوث أخرى الى أنحاء متفرقة، لتؤدى رسالتنا فى خدمة العلم والدين كاملة، والله يوفقنا جميعاً ويهدينا سواء السبيل: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيق إلا بالله».

هذا من الناحية الثقافية والتعليمية، أما من الناحية العامة فإن الأزهر يؤيد من كل قلبه الشعوب الإسلامية والعربية فى نهضاتها، ويساهم فى الدعوة لقضاياها والحث على معونتها، وما موقفنا من مسألة فلسطين ببعيد، فقد دعونا لقضيتها وجاهدنا فى سبيلها، وجمعنا المال لمعونتها، وما زلنا إلى اليوم نرقب حركاتها فى سبيل التحرر من قيود الاستعمار الصهيونى. والله المسئول أن يحقق آمال المسلمين والعرب فى نصرها واستقلالها، ويعين أصحاب الجلالة ملوك العرب، وأصحاب الفخامة رؤساء الحكومات العربية والإسلامية فى جهادهم الذى بدءوه ضد الصهيونيين، وأن يكتب لهم النصر والتأييد.

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»

صفة رسول الله في التوراة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

أخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قرأت فى التوراة صفة النبى صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله : عبدى ، ورسولى ، سمّيته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يَجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ، ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ».

* * *

حفلت الكتب السماوية القديمة ، والنبوات السابقة عند أهل الكتاب بالحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، والبشارة بنبوّته ، وذكره بنعته وصفته وعلاماته ، ودعوته ، وصفة أمته ، ووقت مخرجه ، وما إلى ذلك ، وأشار القرآن الكريم إلى هذا فى طرف من آياته الشريفة ، فقال : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ؛ وقال : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر » .

ولما حضر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بين يدى النجاشى ، وقرءوا القرآن ، وسمعه القسيسون والرهبان ، انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق ، فذلك قول القرآن الكريم : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .... » الآيات .

ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصا به صلى الله عليه وسلم ، ما أشار إليه الحديث الذى معنا ، فقد عرض له بذكر اسمه ووصفه ، وبعض شيمه وفضائله ، وأخلاقه وشمائله ، وبيان زمن انتقاله إلى ربه ، وأنه لن يكون إلا بعد أن تتحقق

المهمة المنوطة به، ويكمل العمل المطلوب منه، وهو إقامة الدين الصحيح، وإعلاء كلمة الله، وتخليص العقيدة الدينية مما طرأ عليها من شرك، وخالطها من عوج، ودخل فيها من تغيير وتبديل، وأن هذا لا يتم إلا بوجود الاعتقاد الجازم، وإظهار شعار الحق، وإعلان أمارة الصدق؛ والنطق بكلمة التوحيد المتضمنة للإيمان به تعالى، والتصديق بما جاء به رسوله، مما يؤيده قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحق، وحسابه على الله»، فإن هذا الحديث تقرير وتعبير عن الإجابة إلى الإيمان بالله تعالى، والتصديق بجميع ما جاء به الرسول، كما ورد ذلك صريحا فى الرواية الأخرى القائلة: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بى، وبما جئت به».

واختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله، ظاهر فى مشركى العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحد، لأنهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام، وقوتل عليه، أما غيرهم ممن يقر بالتوحيد كأهل الكتاب، فإنه لا يُكتفى فى عصمته بقوله: لا إله إلا الله، لأنه كان يقولها فى كفره، وهى من اعتقاده، بل لابد فيها مع هذا من الإيمان بكل ما جاء به الرسول، كما جاء فى الحديث الآخر: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة».

* * *

التوراة: هو الكتاب الذى ورثوه عن موسى، والجمهور على أن معناه الضياء والنور، لأن هذه اللفظة مشتقة من وَرَى الزندُ ووَرِى: إذا خرجت نارُه. وقيل: لفظة التوراة مأخوذة من التورية، وهى التعريض بالشىء، والكتمان لغيره، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح، وهذا كله إذا جرينا على تقدير أن اللفظة عربية، أما إذا كانت عبرانية، أو سريانية، كما قيل بكل، فلا معنى لهذا الاشتقاق على الحقيقة، لأن الاشتقاق من ألفاظ أخر أعجمية مما لا مجال لإثباته.

ومحمد: هو أشهر أسمائه صلى الله عليه وسلم، وهو اسم مفعول من حمّد فهو محمّد، إذا كان كثير الخصال التى يحمد عليها، وهو من المضاعف للمبالغة،

لأنه هو الذى يحمد أكثر مما يحمد غيره من البشر ، وهو الاسم الذى سمى به فى التوراة صريحاً ، على ما حققه العلامة ابن القيم فى كتابه « جلاء الأفهام » ، وبيَّن فيه غلط أبى القاسم السهيلى ، حيث ذكر أن اسمه فى التوراة أحمد .

وذكر أصحاب السير والمغازى أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم قيل لجده عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟ فقال : محمداً ، فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ ، فقال : إنى أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم . وذلك لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب فى منامه ، وعُبرت له بمولود يخرج من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلهذا سمّاه محمداً .

وقال القاضى عياض : لم يسمّ بمحمد أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ، وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ومحمد بن سلمة الأنصارى ، ومحمد بن البراء الكندى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، لا سابع لهم ، ويقال : إن أول من سمّى محمدا محمد بن سفيان بن مجاشع ، واليمن تقول : بل محمد بن ليحمد الأزدى . ثم إن الله حمى كل من تسمّى به أن يدعى النبوة ، أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل أحدا فى أمره ، حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم ينازع فيهما .

ورسوله : من الرِّسل ، وأصله الانبعاث ، فالرسول المنبعث ، ويقال تارة للقول المتحمَّل ، وتارة لمتحمِّل القول ، ورُسل الله تارة يراد بها الأنبيا كقوله « إنه لقول رسول كريم » ، وتارة يراد بها الأنبياء كقوله : « وما محمد إلا رسول » ، والإرسال يقال فى الإنسان ، وفى الأشياء المحبوبة والمكروهة ، وقد يكون بالتسخير كإرسال الريح والمطر ، وببعث من له اختيار كإرسال الرسل ، وبالتخلية وترك المنع كإرسال الشياطين على الكافرين .

والعبد : من العبادة ، وهو على جملة أضرب : عبد بحكم الشرع ، وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه ، وعبد بالإيجاد ، وذلك ليس إلا لله تعالى ، وعبد

بالعبادة والخدمة، والناس فى هذا ضربان، عبد لله مخلصاً، وعبد للدنيا وأغراضها. وجمع العبد الذى هو مسترق عبيد، وجمع العبد الذى هو العابد عباد فالعبيد إذا أضيف إلى الله تعالى أعم من العباد.

والمتوكل: من التوكل، وهو اعتماد القلب على الله فى حصول ما ينفع العبد، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه، وقد كان صلى الله عليه وسلم أحق الناس باسم المتوكل، لأنه توكل على الله فى إقامة الدين توكلا لم يشركه فيه غيره. والتوكل يقال على ضربين: توكلت لفلان بمعنى توليت له، ووكلته فتوكل لى، وتوكلت عليه بمعنى أعتمده، وواكل فلان، إذا ضيّع أمره متكلا على غيره، وتواكل القوم: إذا اتكل كل على الآخر، والتوكيل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبا عنك، والوكيل: فعيل بمعنى المفعول.

والفظ: الكريه الخلُق، مستعار من الفظ الذى هو ماء الكرش، وذلك مكروه شربه، لا يتناول إلا فى أشد ضرورة، قال تعالى: «ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك».

والغليظ: الخشن، والغلظة ضد الرقة، وأصله أن يستعمل فى الأجسام، لكن قد يستعار للمعانى كالكبير والكثير؛ قال تعالى «وليجدوا فيكم غلظة» أى خشونة، واستغلظ: تهيأ لذلك.

وصخّاب: من الصَّخَب، وهو شدة الصوت، يقال: صَخِب فهو صخاب وصَخِب وصخوب وصخبان، وتصاخبوا: تصايحوا وتضاربوا، واصطخاب الطير: اختلاط أصواتها.

والأسواق: جمع سوق. وهو الموضع الذى يجلب إليه المتاع للبيع، قال تعالى: «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق».

ويجزى: من الجزاء، وهو ما فيه الغناء والكفاية من المقابلة إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

والسيئة: الفعلة القبيحة، وهى ضد الحسنة، وتقع على ضربين: أحدهما بحسب اعتبار العقل والشرع، نحو: «ومن جاء بالسيئة، فلا يجزى إلا مثلها»،

وثانيهما بحسب اعتبار الطبع ، وذلك مايستثقله الطبع ، نحو : « وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » .

ويعفو : من العفو ، وهو التجافى عن الذنب ، وعفوت عنه : قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه ، فالمفعول فى الحقيقة متروك ، وعن متعلق بمضمر ، وقولهم فى الدعاء : أسألك العفو والعافية أى ترك العقوبة والسلامة .

ويصفح : من الصفح الذى هو ترك التثريب ، وهو أبلغ من العفو ، فإنه قد يعفو الإنسان ، ولا يصفح ، وصفحت عنه : أوليته منى صفحة جميلة ، معرضاً عن ذنبه ، أو لقيت صفحته متجافياً عنه ، أو تجاوزت الصفحة التى أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها ، والمصافحة : الإفضاء بصفحة اليد .

وأقبضه : من القبض ، وهو تناول الشىء بجميع الكف ، ويستعار لتحصيل الشىء وإن لم يكن فيه مراعاة الكف ، كقولك : قبضت الدار من فلان ، أى حزتها ، ويكنى بالقبض عن الموت ، فيقال : قبضه الله ، ومنه الذى معنا ، والانقباض : جمع الأطراف ، ويستعمل فى ترك التبسط .

وأقيم : من الإقامة ، وهى الثبات فى المكان ، وإقامة الشىء توفيته حقه ، قال تعالى : « قل يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » أى توفون حقوقهما بالعلم والعمل .

والملة : من أمللت الكتاب ، وهى كالدين اسم لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا بها إلى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين : أن الملة لا تضاف إلا إلى النبى الذى تسند إليه ، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى آحاد أمة النبى ، ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها ، ويقال الملة اعتباراً بالشىء الذى شرعه الله ، ويقال الدين اعتباراً بمن يقيمه ، إذ كان معناه الطاعة ، والمراد بإقامة الملة فى الحديث توفيتها حقوقها ، والرجوع بها إلى ما يجب أن تكون عليه من استقامة واعتدال .

والعوجاء : المخالفة لحال الانتصاب والاستقامه ، والعوَج يقال فى المنتصب

الذى يدرك بالبصر سهلا ، كالحائط والعصا ، والعِوَج يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كالدين والمعاش ، والأعوج يكنى به عن سوء الخلق .

* * *

ذكر كثير من العلماء - أخذاً من قول الحديث : « بأن يقولوا : لا إله إلا الله » أن فيه دليلا على أن الاعتقاد الجازم كاف فى الإيمان ، وأنه لا يجب تعلم الأدلة ، ولا جعلها شرطاً فى تحقق الإسلام ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المعتزلة وبعض المتكلمين . قال النووى : قد تظاهرت الأحاديث الصحيحة التى يحصل من عمومها العلم القطعى بأن التصديق الجازم كاف .

وذكروا أيضاً أنه يصح أن يؤخذ من الحديث اشتراط التلفظ بكلمة الشهادة فى الحكم بالإسلام ، وترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد ، الملتزمين للشرائع .

مجاهدة النفس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

وقال عون بن عبد الله : إذا عصتك نفسك فيما كرهت ، فلا تطعها فيما أحبت ، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك .

وقال الأحنف بن قيس : من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم .

وقال بعض الحكماء : من رضى عن نفسه أسخط الناس عليه .

وقال آخر : من قوى على نفسه تناهى فى القوة ، ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروءة .

عبدة الأهواء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

يقول أهل العلم : إن من المقاصد التى جاءت لها الشرائع ، إشعار الناس بأنهم عبيد لله اختياراً ، كما أنهم عبيد له اضطرارا .

ومعنى هذا : أن الناس جميعاً مخلوقون لله عز وجل ، وأنهم معتمدون فى بقائهم مدة ما يعيشون على فضل الله ورحمته وإمداده ، فإذا انقطع عنهم هذا الفضل وذلك الإمداد طرفة عين هلكوا ، وأصبح علمهم وتجاربهم ومالهم من حيل أو عمل باطلا لا يغنى عنهم فتيلا ، ولا ينفعهم نقيراً ؛ وهم لذلك عبيد لله فى الواقع ، لا يرجع الأمر فى ذلك إلى اختيار منهم ، فهم مربوطون بهذا الكون لا ينفكون عنه ، مأخوذون بسنته رضوا أم أبوا .

ومن جهة أخرى هم خاضعون لإرادة الله فى وجودهم وهيئاتهم ، ودرجات عقولهم وحظوظهم ؛ فإن أحدا لم يوجد فى هذه الحياة باختيار منه ، ولم يختر الهيئة التى صُوِّر عليها من طول أو قصر ، أو جمال أو دمامة ، أو قوة أو ضعف ؛ وإن أحداً لم يختر لنفسه أن يكون على درجة كذا من العقل ، أو أن يكون ذا قسط معين من حظوظ الحياة ، فالحياة تجرى على ما أراده الله لها ، والناس يجرون كما خلقهم الله ، والكل خاضعون خضوعا فعليا اضطراريا لما هم عليه ، أو لما هم فيه ، لا يحاولون ولا يستطيعون منه فكاكا .

هذا الخضوع الواقعى الاضطرارى هو عبودية الناس ، بل عبودية كل شىء لله سبحانه خلقاً وتكويناً ؛ أما العبودية التى قصدت الشرائع أن يشعر بها الناس :

فهي عبودية الطوع والاختيار ، وذلك إنما يكون بالنزول على حكم الله ، مع الثقة بأنه الخير والحق والرشاد .

* * *

إن النفوس البشرية نزاعة دائما الى اتباع الهوى ، فقد فطرت على ما تسميه « بالأنانية » فكل امرىء يريد أن يكون هو الفائز بأكبر قسط من متاع الدنيا ، وكل امرىء يريد أن يكون هو الناجى من جميع آلامها وصعابها ، وهو لهذا ينظر الى الأشياء بعين نفسه ، ويزن الضار والنافع بمقدار ما يعود عليه هو من النفع والضرر ، وقلما يخرج الإنسان على هذه الطبيعة ، وإن تحمل وتجمل وتهذب ولبس ثوب الإيثار ، فانه سيظل فى أسر هذه الطبيعة ولو بعقله الباطن ، وتصرفاته « اللاشعورية » ؛ ولهذا لم يكن بد من أن يحال بين هذه الطبيعة السارية فى جنس الإنسان ، وإفساد هذا الكون ؛ ولهذا كانت الشرائع ، وكان أهم شىء فيها هو محاربة « الهوى » لأن الانسان إذا تحرر من هواه ، فقد تحرر من أخطر أنواع الشرك بالألوهية ، وألقى بنفسه بين أحضان الإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، وكان عبداً لله اختياراً كما هو عبد له اضطرارا .

وإننا لنجد فى القرآن الكريم بيانا واضحا لهذا المعنى ؛ فالله سبحانه وتعالى يصف « الهوى » بأنه إله إذ يقول : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ؛ وذلك تصوير بليغ لانسياق الإنسان واندفاعه وراء ميوله ورغباته ؛ كما يندفع العابد فى تحقيق أمر معبوده ، طلبا لرضاه ، وتقربا إليه .

وقد يتصل بهذا أيضا قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » فإن هذه الآية إذا نُظر فيها مع قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » تبين أنها تشير إلى خطر الأهواء وشدة إفسادها للسموات والأرض إذا حكّمت ، فإن الله لم يذكر فساد السموات والأرض على هذا النحو إلا حين تحدث عن التعدد فى الألوهية ، واتباع الحق أهواء المبطلين .

وقد حذر الله من هذا الفساد نبيا ملِكا من أنبيائه الكرام ، هو داود عليه السلام إذ يقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وإذا كان مُلك الله ـ جل جلاله ـ وهو السموات والأرض ومن فيهن وما لا يعلم إلا الله معرضا لأشد الفساد إذا اتبع الحق أهواء المبطلين ؛ فأولى بذلك ملك الناس ولو كانوا ملوكا أنبياء .

وقد صرنا إلى زمان اتّبعت فيه الأهواء ، وسيطرت على الدول والأمم فيه النزعات والمذاهب البشرية ، فمن نازية الى فاشية الى ماركسية الى ديمقراطيه تتلون بلون الانجليز تارة ، وبلون الفرنسيس تارة ، وبلون الامريكان أحيانا ، بل يكون لها معنى فى الغرب ، ومعنى فى الشرق ، ويعرفها المستعمِرون على وجه ، والمستعمَرون على وجه آخر ، أو على وجوه أخر ، وهكذا ظلمات من الأهواء بعضها فوق بعض ، والشعوب تتلظى بنيران المتخاصمين عليها ، والمتعصبين لها ، فلا تفيق من حرب إلا إلى حرب ، ولا تعالج مشكلة إلا لتقع فى مشكلات ، وكلما امتد الزمان بهذه الأهواء المتضاربة ، والنحل المتغالبة ، افتنّ أصحابها فى ابتكار وسائل الهلاك والدمار ، والحرب الغازيّة تتلوها « القنبلة الذرية » ثم حروب الأمراض والأوباء تبث فى الناس فتعمى بها الابصار ، وتشوى بها الجلود والأبشار ، وينتقل بها سكان الأكواخ والقصور ، الى الأرماس والقبور . ذلك وما يعانيه الناس من الفاقة والضيق ، والخوف والعوز ، أشد عليهم وأنكى من هذا الموت المرتقب ؛ فإنه مامن شعب الآن إلا وقد ضوت منه الجسوم ، وخوت البطون ، وشحبت الوجوه ، واضطربت الاعصاب ، وغامت العيون ، وكأنما هى سنو يوسف غير أنها ليست سبعا ، وقد مضى منها حتى اليوم عشر ، ولا يدرى أحد إلا الله إلام تمتد ، وهل تخف حدتها أو تشتد .

لعمرى ما نكبت البشرية بذلك إلا من اتباع الأهواء ، وازورار الناس عن أن يكونو عبيداً لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً .

إن أمر الناس والأديان اليوم دائر بين أمة خلعت رداءها ، ونبذت أحكامها وتكاليفها ، وتحللت منها علانية فى غير خفاء ولا تورع ، وأمة تمسكت بها رسماً لا حقيقة ، واحتفظت بها كتقليد ورثته فأبقت على صورته ؛ ولا تكاد تجد

أمة تتمسك بدينها، وتبنى جميع أمورها عليه، وتدير شئونها حسب رسومه. ومن عجب أنهم يعتبرون ذلك رقياً فى الحياة، وتخلصاً من آثار القرون الأولى، وانفلاتاً من قيود الرجعية؛ وإذا رأوا داعياً إلى الدين، ومنذراً ينذرهم لعلهم يرجعون، سخروا منه، ورموا بأباطيلهم فى وجهه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا «أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم»!

لقد قلت وما زلت أقول: «إن العالم لفى حاجة الى دعوة صادقة مخلصة ترسم له سبل الحياة السعيدة، وتضع له أسس الاستقرار والسكينة، وتجمع فى تعاليمها بين المادية والروحية؛ فلا تسمح لإحداهما بأن تطغى على الأخرى، ويشعر فى ظلالها كل فرد بأنه لبنة فى بناء المجتمع، وتأخذ الفطرة الصافية فيها حظها الطبيعى فى كل ناحية من نواحى الحياة، فلا أثرة ولا استئثار، ولا معاندة لما طبع الله عليه العالم من التفاوت فى المال، والمواهب والاختصاص، ولا تحكم ولا تمرد، ولا عصبية لجنس على جنس، ولا امتياز للون على لون، ولا غمط لحق، ولا انتصار لباطل، ولا ترويج لرذيلة، ولا تنكُّر لفضيلة. ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقه المنقذة إلا فى «الإسلام»، ولو ظل قرونا من الدهر ينظر الى «الكتلتين»، ويرجع البصر كرتين. فليت شعرى إلام يقبع المسلمون فى ديارهم وأوطانهم منكمشين يطرقها عليهم الطارقون، فإما فتحوها لهم كارهين، وإما ظلوا من ورائها خائفين يترقبون!.

ألا إنهم لأرباب دعوة، وأصحاب فكرة، ودعوتهم هى النور المبين الذى به تمحى ظلمات الجهل والشرك والهوى والفساد، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التى حار فيها المتطببون؛ فليخوضوا بدعوتهم كل مخاض، وليعرضوها على العقول بيضاء نقية: كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وليلقوا بها فى وجوه أهل الباطل وما اصطنعوا من دعوات الهوى والضلال، فإن الحق سيزهق الباطل، وإن عصا موسى ستلقف ما يأفكون.



في العدل والجور

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

فى كتاب الله سبحانه « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وفى السنة النبوية الكريمة « عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة » وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فان العبادة توجيه سليم ، وتهذيب عظيم ؛ ليكون الإنسان خليفة فى الأرض ، قائماً بالقسط ، حتى يحيا الناس حياة طيبة فى دنياهم ، وحتى يسعدوا بجوار الله الكريم فى آخرتهم .

شهد بذلك الكتاب والسنة ، فإن كتاب الله سبحانه يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . ويذكر أنه فرض الصيام لتهذيبه « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ويذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأن الزكاة طهرة وزكاة للنفوس « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، والسنة وزير الكتاب ونصيره . فإنها تقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » و « من لم تنهه صلاته فلا صلاة له » . وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها . فقال : لا خير فيها وهى من أهل النار . وما أكثر ذلك المعنى فى الدين . وجماعه فى قول الله سبحانه « أوَ من كان ميتا فأحييناه

وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ، . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » . ولهذا قال العلماء إن أحكام الشريعة الإسلامية دائرة حول أمرين : جلب المنافع ودرء المفاسد . ولعل أساس ذلك كله العدل ، فهو الميزان الذى وضع الله لعباده ، لا تصلح حياة إلا عليه ، ولا يقوم نظام إلا به . وهو القسطاس الذى أراد الله سبحانه لعباده ، فما عبَد الله من تنكب عنه ، ولا عرف الله من أنكره .

إن العبادة الحق خشوع فى القلب ، واتصال بالرب . ولن يكون خشوع واتصال إلا ومعه ميزان واعتدال ، ولقد ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين » .

وما كان الله ليقبل شخصاً فى ملكوت السماء حتى ينزل على حكم الحق ، ويكون هواه فى كنف القسط والعدل ، لا تميل به شهوة ، ولا تستهويه نفس جامحة .

إن العبادة الحق دين قيم ، ولا دين إلا بالعدل فى القضية ، والمساواة بين الرعية ، على اختلاف جهات الرعاية ، ولو كان الراعى مالكا لما يقضى فيه . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن جاءه يشهده على هبة لأحد أبنائه : هل وهبت لأخيه ؟ قال لا ، قال : فأشهد غيرى ، لا أشهد على زور ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم .

إنه لا دين حتى يكون عدل تعمر به الأرض ، ويأمن به الخائف من الخوف ، وحتى يرحم الكبير الصغير ، ويوقر الصغير الكبير ، ويتعاون الكل مع الكل ، ولذا يظهر ذلك المعنى حق الظهور فى عهد النبيين والخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين . وأخبر رسول الله أن تمام هذا الدين يتمثل فى أن يسير السائر مسافة كذا وكذا لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . فالدين الصحيح يتمثل فى العدل ، والعدل يتمثل فى السلام والأمن . والعدل من أمثل صفات النبيين والمصلحين ؛ ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم لمن شك فى عدله : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ! يشير بذلك إلى أنه أحق بالعدل ، لأنه أحق الناس بالدين .

وفى الكتاب والسنة كثير من التوجيهات ذات الدلالة على أن مرضاة الله فى العدل وسخطه فى البغى ، فهو ينتقم من الظالمين ، وينصف المظلومين ولو بعد حين .

لقد كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم فخسف الله به وبداره الأرض . ولقد علا فرعون فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، واستكبر هو وجنوده فأخذهم الله سبحانه فنبذهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .

وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فدمرهم الله وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وكل أخبار الأمم السالفة فى قصص القرآن تدور حول الظلم والطغيان وجزاء الظالمين . لقد ردد هذا المعنى فى الكتاب بما هو جدير أن يكون عظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وكذلك سارت السنة تساند الكتاب الكريم وتستمده ؛ فقال السيد الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الحية لتأرز الى جحرها من ظلم ابن آدم » ثم تلا « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » الآية ؛ وقال السيد الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم تلا « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » وفى الحديث الصحيح « إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أعلم ، فمن قضيت له بشىء من مال أخيه فإنما أقتطع له قطعة من جهنم » .

وإذا كان الرضا فى العدل والسخط فى الظلم ، فإن العدل خير من العبادة مع الظلم ، وعدل يوم واحد خير من عبادة ستين سنة ؛ لأن العبادة بدونه غير مثمرة ولا مؤدية لما هو المقصود . وإذا كانت السنة الكريمة قد نصت على عدد معين وهو الستون من السنين ، فإن العدد فى ألفاظ الدين لا يراد به التحديد ولكنه للتأثير والتسديد ؛ فما أكثر العدد فى ألفاظه من غير قصد إلى ظاهر دلالته .

وبعد : فإن الدين ليس صورا من العبادات فى صلاة وصوم ، وتحريك الشفة بما يوهم أنك من خيرة القوم ، وإنما الدين إيمان يخالط السويداء ، ونور من الله يقتحم فى النفس إلى كل داء ، فيشفى الصدور ، ويخرج منها كل بغى وزور ، ويبدد كل رعونة فى الإنسان المسكين ، كما يبدد الفجر ظلام الليل البهيم : يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم .

إن الدين إصلاح فى الأرض ، وسعى بين الناس بالخير ، ونصَفة للمظلوم ، وأخذ بناصر كل مكلوم ، ومسح برأس البائس ، وتخفيف من آلام المحروم اليائس ، وطهر وصفاء ، وصدق ووفاء ، وجهاد فى سبيل الحق ، وحمل للنفس على المذهب الأشق ، لتقف فى حيز الصراط المستقيم ، ولا تغلو أو تهبط ، فكلْ طريق ذميم . ذلك هو العدل الذى وضع الله لعباده .

والعدل إنما يصح فى نفس تخشى الله ، أو تخاف التلف أو الشقاء . والأول هو العدل الإسلامى الذى تعبَّد الله به عباده ، والثانى هو العدل النظرى الذى قصد اليه الحكيم بقوله : الملك يبقى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم . فكفر مع ذلك العدل النظرى أسعد للملك ، وأبقى له من إيمان لا عدل معه . وفى ذلك تعزيز للحديث الذى جاء فى صدر هذا المقال ، والذى يدور حوله . وقد ظهر للقارىء الكريم أن الحديث عن العدل الدينى الذى يكون منزعه مراقبة الله ، وخشيته . فهو من غير ريب وليد التدين ، ونتيجة التحنث[1] . فكلما صفا القلب لله ، وتعرف إلى ساحة مولاه ، بإدمان الاستغفار ، والقيام بالأسحار ، وتلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق فى رضاه ـ كانت الاستقامة والاتزان ، والنفع والحنان ، والإصلاح والإحسان، وذلك هو العدل والميزان ؛ وإن خبث القلب بالفسوق والعصيان . وعشا عن ذكر الرحمن ، أثمت الجوارح فلا تخرج إلا نكدا ، ولا ترضى أحدا ، ثم تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

إن العدل فى ذاته معنى واسع فسيح ، فهو يكون مع من فوقك ، ومع من دونك ، ومع من يساويك ؛ وتفصيل ذلك فى كتب الأخلاق . والعدل معنى غامض فى جزئياته محفوف بمخاطر الهوى . والهوى إله يعبد . ولذلك عز تحققه ، ورفع إلاَّ من قليل النزوع إليه . فخلط الناس وخبطوا ، وغلوا واشتطوا . فليس هناك إلا فى النادر العزيز من ينصف من ابنه أو أبيه ، و من يحكم لخصمه ومعاديه ، ولكن الكتاب ينطق بالحق « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» .

---

(١) أما المشرك بالله فهو فى الدين أظلم الظالمين . قال الله سبحانه « إن الشرك لظلم عظيم »

وقد عرف ذلك أولو العزم ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ووضع ربا عمه العباس قبل كل الناس .
وعرفه عمر فأخرج ابنه من ولاية المسلمين لئلا يكون اثنان فى بيت الخطاب يليان ذلك الجانب الخطير . رحم الله عمر . وهل يقول الله سبحانه فى كتابه « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » إلا والعدل معنى غامض ، ومرام عزيز . « وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

أفبعد هذا يستطيع إنسان أن يستهين بالعدل ولا يضعه من الدين فى السنام ، ويقر بأن عدل ساعة خير من عبادة كثير من الأعوام .

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم سبعة يأمنون يوم يخاف الناس ، ويستظلون بظل العرش يوم لا ظل إلا ظل الله ؛ فبدأ بالإمام العادل لأنه إمام هؤلاء ومقدمهم . ولولا خطورة العدل وبالغ أثره فى إصلاح الحياة ، وغمرها بالخير والسعادة ؛ لولا ذلك لما كان ذلك الوضع من الرسول الحكيم ، والنبى الكريم . وهل كان الصديقون من المؤمنين يتحرجون من الولاية ، وينفرون من قبول القضاء ، إلا لما رأوا من خطورة ما استهدفوا له وتعرضوا لمزالقه . سجن الإمام الأعظم أبو حنيفة على أن يلى القضاء وضرب بالسياط ، فاحتمل كل ذلك فى جنب الله ، لأنه رأى القضاء مظنة الظلم ، والظلم معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

أين ذلك العدل الذى جعل عمر وهو الأمير الشديد فى الحق ، القاسى فى التحامل على كل مشتط ، ينام فى الطريق بلا سلاح ولا حارس ، لا يبالى فى الله أن يؤلم أى كبير ، ولا يستثنى من درته أى وال أو أمير ، الضعيف عنده قوى حتى يأخذ له بحقه ، والقوى ضعيف حتى يأخذ الحق منه .

إن كل فساد فى الأرض وشق لعصا الطاعة ، ومشاقة للجماعة ، وقتل وفتك ونقض للعهد ، وتعد للحد ، وتظاهر بالإثم والعدوان ، واضطراب فى نظام العمران - إن كل ذلك من الجور بين الناس . « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » . بل إن كل قحط وجدب ، وضيق وضنك ، وجوع

وخوف ، وبلاء وانتقام من الملك العلام ـ هو من التظالم . بين العباد ، وبما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون .

وإن كل خير ورشد ، وصفاء وود ، وتعاون وتساند ، وهدوء سائد وإخاء وإصلاح . هو من تنسم ريح العدل الرخاء ، ووضع كل شيء فى وضعه غير ناب ولا قلق .

ولم يجمع الناس على تقدير فضيلة إجماعهم على تقدير فضيلة العدل التى هى القلب النابض لجميع الفضائل ، ولا أجمعوا على إنكار رذيلة إجماعهم على إنكار الجور والمظالم . فكيف لا يكون عدل يوم يقوم فيه معوج ، ويغاث فيه ملهوف ، خيرا من كثير من العبادة التى يقصر خيرها على صاحبها ولا يتعدى الى سواه .

لقد ضرب الله سبحانه وتعالى المثل للعدل فى أدق صوره حتى فى أتفه شيء وأحقره عنده وهو الدنيا ، فجعلها بين الناس دولا ، لهذا زمان ولهذا زمان ، فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد ، وكان النظام كما قال القائل :

إذا ما الدهر جر على أناس   كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

بل كان أدق من هذا ، فجعل الايام قسمة للشخص الواحد ، فيوم لك ويوم عليك . ذلك عدل الله وحكمه فى السماء . فتى يرضى عباد الله أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما . ويارحمة السماء لمن فى الأرض .

المهابة

أحسن ما قيل فى التهيب قول الشاعر :

بنفسى من لو مر برد بنانه   على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شيء وهبته   فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وقال آخر :

أهاشم يافتى دين ودنيا   ومن هو فى اللباب من اللباب
أهابك أن أبوح بذات نفسى   وتركى للعتاب من العتاب

لا تعارض فى آيات الكتاب الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار
المدرس بكلية أصول الدين

ينطق بالحق، ويخبر بالحكمة، ويلهم النفوس تقواها، ويرشدها إلى خيرها وهداها؛ كتاب أحكمت آياته، وتسامت معانيه وألفاظه، لا تجد من بينها تعارضاً ولا اختلافا، ولا تهافتاً ولا اضطرابا، بل تجد دقة فى الوضع، وجمالا فى التصوير، وإحكاما وإتقانا، وأسلوبا يبهر العقول، وتخاذل أمامه كل أسلوب. عنت له الوجوه، وخشعت عنده القلوب، وخرت أمامه أساطين البلاغة والفصاحة.

وكيف لا يكون كذلك وهو من لدن حكيم خبير، جاء بالآيات البينات والدلائل الواضحات، والروعة والجلال. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً».

وما تمشدق به الملحدون الذين لم يتذوقوا طعم الإيمان ولم يجدوا حلاوته، من دعوى وجود اختلاف وتعارض بين بعض آياته، فذلك يرجع إلى أحد أمرين: إما للعناد والمكابرة وتلمس أتفه الشبه التى لا تلبث أن تزول بمجرد النظر الصحيح؛ وإما للجهل بأساليب الكتاب العزيز التى لا يعرفها إلا من مارس البلاغة والبراعة، وعرف ضروب التفنن فى أساليبها، وتذوق مزاياها وخصائصها.

وإنى أسوق أقوى ما تمسكوا بخيوطه، وتعلقوا بأهدابه، مبيناً أنها خيوط عنكبوت لا تتماسك ولا تقوى على حماية من يعتمد عليها، ولا تحفظه من التردى فى حفرة باطله.

ورد من بين آيات الكتاب آيات تنطق أن خلق الأرض تقدم خلق السموات، وأن خلقهما استغرق ثمانية أيام؛ وآيات تنطق أن خلق السموات تقدم خلق الأرض، وأن خلقهما استغرق ستة أيام مع أنه لا يوم إذ ذاك.

ويبدو للناظر فى ظاهر ذلك ما يوهم الاختلاف والتعارض. لذلك كان من الخير أن نعرض لتلك الآيات بالبيان حتى تسفر الحقيقة مشرقة الوجه واضحة الجبين لا يعلوها غبار ولا يلحقها شين.

ورد قول الله تعالى من سورة النازعات «أأنتم أشد خلقاً أم السماء: بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها» صريحا فى معناه واضحاً فى دلالته على أن خلق السماء تقدم خلق الأرض، حيث ذكر خلق السماء وما يتعلق بها، ثم ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها، ثم أردف ذلك بقوله «والأرض بعد ذلك دحاها» أى بعد أن خلق السماء وما يتعلق بها دحا الأرض وبسطها. بينما نجد الآيات من سورة فصلت «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين... إلى قوله: فقضاهن سبع سموات» تفيد بظاهرها أن خلق الأرض تقدم خلق السموات، خصوصاً الإتيان بكلمة (ثم) التى هى للترتيب بعد الفراغ من ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها، وتفيد أن خلق الأرض كان فى يومين لقوله «خلق الأرض فى يومين» وأن خلق ما يتعلق بالأرض كان فى أربعة أيام، لقوله «وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام» وأن خلق السماء كان فى يومين، فتكون مدة خلق الأرض والسماء ثمانية أيام لا ستة.

ومن هنا اختلف العلماء فى طريق العلاج لحل هذه المشاكل: فرأى بعضهم أن خلق الأرض تقدم خلق السماء كما هو منطوق قول الله تعالى «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها».

فأنت ترى هذه الآيات قد تحدثت عن خلق الأرض وما يتعلق بها أولا، ثم جاءت كلمة ثم التى هى للترتيب مع التراخى الزمانى، وتحدثت عن خلق السماء وما يتعلق بها ثانيا.

وما ورد من سورة النازعات من قوله «والأرض بعد ذلك دحاها» بعد ذكر خلق السماء وما يتعلق بها أولا؛ فمعناه أنه تعالى خلق الأرض أولا

ثم خلق السماء، ثم قصد إلى الأرض فدحاها وبسطها . وبذلك لا يكون هناك تعارض ولا اختلاف بين الآيات . وهذا يوافق المروى عن ابن عباس، فقد روى البخارى أن ابن عباس سئل عن التعارض الحاصل بين قول الله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » وبين قول الله تعالى « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. إلى قوله : طائعين » فأجاب بأنه تعالى خلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء فى يومين آخرين، ثم دحا الأرض . ودحوها أن أخرج فيها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام فى يومين آخرين، فذلك قوله : « دحاها » .

ولما كان هذا لا يساعده النظم الكريم ولا تقتضيه جزالته، بل تنافيه، لأن الآيات ذكرت خلق الأرض فى يومين، وذكرت خلق ما يتعلق بالأرض من خلق الجبال والأشجار والنبات والحيوان فى يومين آخرين، وذلك لا سبيل إليه إلا بعد أن تصير الأرض مدحوة ومبسوطة، وبعد ذلك قال « ثم استوى إلى السماء » فليس من شك فى أن ذلك يقتضى أن يكون خلق السماء بعد دحو الأرض وبسطها . وهو يطابق ما ورد من سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » ؛ إذ لا يكون خلق ما فى الأرض جميعا بدون أن تكون مدحوة ومبسوطة - لما كان الأمر كذلك رأى بعض العلماء أن خلق السماء تقدم خلق الأرض كما هو منطوق قول الله تعالى من سورة النازعات « والأرض بعد ذلك دحاها » أى بعد المتقدم ذكره « أأنتم أشد خلقا أم السماء، بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها، وأخرج ضحاها » .

يعضد هذا ويقويه قول الله تعالى من سورة الأعراف « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » . وقوله من سورة هود « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » ومن سورة ق « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » لأنها تتحدث عن مبدأ الفطرة . ومن حسن السبك وجودة النظم أن ما يذكر أولا يكون ظاهراً فى أنه هو المخلوق أولا، وقد ذكر خلق السماء فى هذه الآيات قبل ذكر خلق الأرض، وأن قول الله تعالى فى سورة فصلت

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان » بعد أن ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها لا يستلزم تقدم خلق الأرض على خلق السماء ، لأن كلمة (ثم) سيقت لغرض تعداد النعم لا لغرض إفادة ترتيب الخلق ، أو يقال إن التقدير ثم كان قد استوى إلى السماء ، كما فى قوله تعالى « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » إذ معناه إن يكن سرق . وأنت خبير بأن قصد تعداد النعم لا يمنع إفادة (ثم) الترتيب ، لأن هذا هو معناها ، كما أن تقدير كلمة كان أى ثم كان قد استوى ، يتنافى مع ما عليه القرآن من البلاغة واستقامة معانيه ، لما تقتضيه كلمة (ثم) من التأخير ، وما تقتضيه كلمة كان من التقديم ، وفى ذلك من التنافى مالا يخفى .

وواضح أن القول بتقدم خلق السماء على الأرض ليس بالحصيف ولا بذى الرأى السديد ، وإن عُزى إلى قتادة وارتآه كثير من العلماء ، لأنه يتنافى مع جزالة النظم الكريم ، وتتهافت معه معانى الآيات . ألا ترى إلى قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » كناية عن إيجاد السماء والأرض . فلو تقدم خلق السماء خلق الأرض لكان قوله « ائتيا طوعاً أو كرهاً » مقتضياً إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل . ومثل هذا يكون بمعزل عن ساحة كتاب اختص بمزايا لا يدانيه فيها سواه .

والذى يصح أن يكون جديراً بالقبول فى هذا الموضوع : أن يحمل الخلق فى قوله تعالى « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . . الآيات » على التقدير والقضاء لا على الإيجاد والحصول ، أى قدر وجود الأرض وحكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين ؛ وبذلك تتلاشى شبهة : كيف كان ذلك فى أيام مع أنه لا يوم إذ ذاك ، ضرورة أن اليوم يمتاز عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها ولا شمس ولا قمر . « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » أى قدر وقضى أن يكثر خيرها بخلق أصناف الحيوانات وأنواع النبات على ما تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه مصلحة العباد « فى أربعة أيام » أى فى تتمة أربعة أيام مقدار يومين آخرين منضمين الى مقدار يومى خلق الأرض ، فتكون مدة خلق الأرض وما يتعلق بها مقدار أربعة أيام ، وتكون مدة خلق السماء يومين ، وبذلك تتعلق آيات فصلت بالآيات الناطقة أنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام .

ثم شرع سبحانه وتعالى فى بيان التكوين والإيجاد بقوله : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات » ، اى ثم قصد إلى السماء فقال لها وللأرض التى قدر حصولها وحصول ما فيها كونا وإحداثا وفقا لما قدرنا وأردنا فكانتا على ما اقتضته حكمته البالغة من كمال الإحكام والإتقان وجمال التصوير . وهذا تمثيل وتصوير لكمال قدرته تعالى وأنه لا يمتنع عليه تعالى شىء مما قدره وتعلقت قدرته بحصوله وإيجاده . وبهذا انحسر اللثام واتضح المقام أن (ثم) إنما هى للترتيب بين التقدير والإيجاد ، لا بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء . ولا أدل على ذلك من أن هذه الآيات إنما سيقت للتدليل على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن أن يكون له شريك ونِدّ ، لأن مبدع هذه الكائنات وهذه الأجرام العظيمة ، وتلك النعم الجزيلة ، لا يصح فى العقول السليمة أن يكون له أنداد وأن يكفر ، بل هو المستحق لأن يعبد ويشكر دون سواه .

وإنك لترى على هذا كيف تجاوبت أطراف النظم ، وتعانقت آياته ، ولمعت من بينها شواهد البيان ومخايل الأساليب العالية ، وظهرت جزالته واستقامت معانيه مع الروعة والجلال ؟

الرفق

قال النبي صلى الله عليه وسلم : من أعطى حظه من الرفق ، فقد أعطى حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله .

قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه وهو أمير المؤمنين : يا أبت مالك لا تنفذ الأمور فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى وبك القدور . فقال له عمر : لا تعجل يا بنى فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكون فتنة .

مفردات فلسفية

حرية

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

لا يجد الباحث شيئا كثيرا عن هذا الحرف أو المصطلح، فى المعاجم العربية للغة، أو المعاجم الخاصة بالمصطلحات وتعاريفها، مما يجد مثله فى المعاجم الأجنبية. أعنى فيما يتصل بتحديد معنى كلمة «حرية» فى نواحى استعمالاتها المختلفة: النفسية، الأخلاقية، السياسية، الاجتماعية، وغيرها. بل إنى لم أجد فيما رجعت إليه من معاجم اللغة ما يدل على أن العرب استعملوا هذا المصطلح فى بعض ما نستعمله فيه اليوم.

١ — ففى اللسان: الحر: نقيض العبد، والحرة: نقيض الأمة. ومنه حديث عمر للنساء اللاتى كن يخرجن الى المسجد: لأرد كن حرائر؛ أى لألزمكن البيوت فلا تخرجن إلى المسجد، لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر دون الإماء.

وفيه أيضا: الحر من الناس: أخيارهم وأفاضلهم. ويقال: هو من حرية قومه، أى من خالصهم.

٢ — ولا يتعرض الجرجانى فى تعريفاته لهذا الحرف إلا فى اصطلاح أهل الحقيقة، أى المتصوفة. وهى فى هذه الناحية: الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار. يريد أن يقول بأن الحرية هى عدم تعلق القلب بغير الله، بحيث لا يكون لغيره أى سلطان عليه.

٣ — والتهانوى فى كشافه يعرّف الحرية لدى الفقهاء بأنها خلوص حكمى يظهر فى حق الآدمى لانقطاع حق الغير عنه. ومثل هذا التعريف نجده فى كتب الفقه، كما فى درر الحكام لمنلا خسرو القاضى الحنفى حـ ٢ ص ٢ .

ثم إذا أراد أن يعرّفها عند المتصوفة يذكر، عن مجمع السلوك، بأن الحرية عند السالكين انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى بالكلية.

فإذا تركنا المصادر العربية، إلى المراجع الغربية، نجد بيانا طيبا للمعنى الأولى الذى كان لكلمة «حرية»، ثم للمعانى العديدة المختلفة التى أخذتها بعد أن اتسع مدلولها وامتد مضمونها هنا وهناك. وهذا المعنى الأولىّ هو، على ما نرى، المعنى الذى نجده فى كتب الفقه عندنا، وفى المعاجم العربية المختلفة.

على هذا المعنى الأولىّ يراد بالإنسان الحر، الإنسان الذى ليس رقيقا أو أسيراً. فالحرية هى حالة من يعمل ما يريد، لا ما يراد منه، أى أنها عدم الالتزام الأجنبى عن الإنسان.

وبعد أن اتسع مدلولها، كما قلنا، صارت تدل على هذه المعانى الآتية :

١ — المعنى العام :

ا — حالة الكائن (l'être) الذى لا يعانى أى إكراه أو إلزام من كائن أو موجود آخر، والذى يعمل حسب إرادته وطبيعته. وفى هذا يقول «أوجست كُونت»، فى كتابه التعليم المسيحى الوضعى Catéchisme positive : حينما يسقط جسم من الأجسام، نجد حريته تظهر فى هبوطه حسب طبيعته نحو مركز الأرض، فى سرعة تتناسب والزمن، إلا إذا اعترضه ما يغير من هذه الحركة الذاتية. وكذلك الأمر فى العالم أو النظام الحيوى l'ordre vital ؛ إذ نجد كل عمل أو وظيفة نباتية أو حيوانية توصف بالحرية إذا كانت تتم حسب ما يتعلق بها من قوانين، دون أى عائق داخلى أو خارجى.

٢ — المعنى السياسى والاجتماعى :

ب — فى هذه الناحية يراد «بالحرية» فَقْدُ الإكراه الاجتماعى الذى يُفرض على الشخص. وإذاً، فالمرء حرٌ فى أن يعمل كل ما يحرمه القانون،

وحر فى ألا يعمل كل ما لا يأمر به . ومن هنا نجد المادة الحادية عشرة من إعلان حقوق الإنسان الذى صدر عام ١٧٨٩ م تقرر : « أن حرية التعبير عن الفكر والآراء حق من حقوق الإنسان ، حق أعلى ما يكون قيمة وخطرا ؛ فكل مواطن له أن يتكلم ويذيع بحرية كل ما يريد ، على أن يكون بحسبُ مسئولا عما يكون من سوء استعمال هذه الحرية فى الحالات المحددة بالقانون » .

« والحريات السياسية » هى الحقوق المعترف بها للشخص ، باعتبارها حقوقا تحدّ من سلطان الحكومة : حرية الضمير والعقيدة ، الحرية الشخصية ، حرية الاجتماع ، حرية وضع دستور ، الحكم بواسطة ممثلين للأمة يُختارون بالانتخاب . . . إلخ .

٣ ــ المعنى النفسى والأخلاقى

حـ ــ الحرية هنا ضدٌّ لعدم الضمير ، للاندفاع بلا تفكير ، للمسئولية الأخلاقية أو القانونية .

إنه يراد بها حالة المرء الذى سواء كان يفعل الخير أو الشر ، يعزم بعد تفكير ، يعرف تماما ما يأتى وما يذر ؛ حالة من يعرف ما يريد ، ولماذا يريده ؛ حالة الذى لا يعمل إلا حسب ما يُقدِّر من أسباب . وفى هذا يقول ماريون Marion فى كتابه التضامن الأخلاقى De la solidarité moralé : إذا كان الشخص الحر هو الذى يملك نفسه بالتفكير ، الذى يعرف ما فى قدرته من نشاط كما يعرف الوجوه التى يتفق فيها هذا النشاط أو هذه القوة ، والذى يقدر العواقب ويقارن ويحكم فى مختلف الظواهر التى يمكن أن تتحقق عن قوته ونشاطه ـ إذا كان الرجل الحرّ هو من هذا شأنه ، يكون واضحاً أن حريته تتبع ظروفا وعوامل مختلفة ، وتختلف طبعا لسبب هذه الظروف والعوامل .

ى ــ وإذا أخذنا كلمة « حرية » فى مقابلة الهوى والعواطف العنيفة ، والجهل والبواعث السطحية ، يكون المراد بها حالة الإنسان الذى يحقق فى أعماله طبيعته الحقة ، هذه الطبيعة التى أهم خصائصها الذاتية العقلُ والأخلاقية .

بهذا المعنى تكون كلمة « حرية » مصطلحا أخلاقيا تماما ، وتدل على حالة مثالية تكون فيها الطبيعة الإنسانية محكومة بما فيها من عنصر كله خير وسمو ، كما يرى الرواقيون وسبينوزا .

وفى هذا يقول لِيبنتز Leibniz بأن الله وحده هو الحر تماما ، وبأن الكائنات العلوية المخلوقة les esprits لاتكون كذلك إلا بمقدار ماتكون فوق مستوى الشهوات والأهواء . كما يقول أُوجِسْت كُونت ، فى المرجع السابق : « أحسن ما يمكن أن يكون لنا من حرية ، هو أن نعمل بقدر ما فى استطاعتنا على علوّ الميول الطيبة على السيئة » .

هـ — وأخيرا ، الحرية تقابل الجبر ، فيكون المراد بها حينئذ القدرة على العمل بدون أن يكون لذلك سبب أو علة غير هذه القدرة . وفى هذا يقول بُوسْويِه Boussuet ، فى الفصل الثانى من رسالته فى حرية الإنسان فى أعماله : « كلما بحثت فى نفسى عن السبب الذى يحدد ما أفعل ، كلما أحسست أنه لا شىء لدى من هذا إلا إرادتى وحدها . إنى لأحس ، من هذا ، حريتى بوضوح ، هذه الحرية التى ليست إلا الاختيار لهذا العمل دون ذاك ؛ وهذا ما جعلنى أفهم أنى فُطرت على صورة الله ... » .

« للبحث بقية »

نصيحة أبرويز

قال أبرويز ملك الفرس لصاحب بيت المال : إنى لا أعذرك فى خيانة درهم ، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف ، لأنك إنما تحقن دمك ، وتقيم أمانتك ، فإن خنت قليلا خنت كثيراً ، واحترس من خصلتين : النقصان فيما تأخذ ، والزيادة فيما تعطى . واعلم أنى لم أجعلك على دخائر الملك وعماد المملكة ، والقوة على العدو ، إلا وأنت آمن موضعه الذى هو فيه ، وخواتمه التى هى عليك . فحقق ظنى باختيارى إياك ، أحقق ظنك فى رجائك إياى ، ولا تتعوض بخير شراً ، ولا برفعة ضعة ، ولا سلامة ندامة .

نظام الأسرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا أقصد فى هذه الكلمة الحديث عن « نظام الأسرة » فى العصور المختلفة ، ولا الحديث — كذلك — عن تطور ذلك النظام فى أطواره المتنوعة ، فإن هذا البحث أجدر بالمؤرخ الاجتماعى . إنما أقصد — فقط — إلى عيوب « الأسرة » فى الوقت الذى نزعم لأنفسنا فيه التمدين والرقى ، والتقدم والحضارة والتوثب للحياة الصحيحة ؛ كما يجب أن تكون . وسنعرف معرفة لا يداخلها الريب ، ولا يعتريها الشك ، أننا نتخبط فى ليل من التقاليد ، وبحر متلاطم من ظلمات عادات ليست من الدين ، ولا من الأخلاق الفاضلة ، أو من التربية السديدة ، إنما هى مزيج من الفوضى والفساد ، والتردى والإسفاف والانحدار والتهور ، والفضول والاستهتار ، مما أدى بنا إلى أن صرنا حثالة الشعوب والجماعات .

ولو أننا التزمنا هداية القرآن الكريم ، وإرشاد السنة المطهرة ، لكان لنا شأن آخر ، من الترابط والوئام ، والأدب والسلوك ، والإباء والترفع . وقد تكفل الإسلام بما يجب أن يلتزمه كل من الرجل والمرأة من الاختلاط وعدم الاختلاط ، وغض البصر أو إرساله ، وإبداء الزينة وإخفائها ، وما سوى ذلك كله مما يضمن للأفراد العفاف والطهر والنزاهة ، والشرف والاتزان والنبل ، فأبينا إلا أن نطرحه كله وراء ظهورنا ، زاعمين أن الخير فيما نأتى ، والفضيلة فيما يصدر عنا من أفعال ، ولم نلتفت إلى جانب ذلك من تفكك « الأسرة » ، وكثرة ما يعتورها من مشاكل ، ويصادفها من عقبات ،

ويطرأ عليها من محن ، أو تتعرض له من أرزاء . . . مع أن أسباب هذا كله الانحراف عن الجادة ، والميل عن السنن الصحيح .

والحجاب منذ أن زال مما بين الذكر والأنثى ، ولعبت الغريزة الجنسية دورها المشئوم بين الأفراد والجماعات ، والإنسانية تعانى من التشرد والفرقة ، والنزاع والخصومة ، والنفور والكراهية ، والإهمال والتهاون ، الى درجة أن افتنّ الناس فى الآثام ، وبرعوا فى الشرور ، ونبغوا فى الإجرام ، وامتلأت السجون بالمقترفين ، والملاجىء بالأيتام ، والمشافى بالمرضى . . والإحصاءات للمشاكل الزوجية وقضايا الطلاق ، التى تغص بها المحاكم الشرعية الآن يدل التتبع والاستقراء أن أكثر أصحابها من هؤلاء الذين أرخوا العنان لشهواتهم ، وتجاوزوا نطاق الدين فيما يلتزمه من آداب ويحتمه من تقاليد وعادات .

وقد كنت إذا قرأت قوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها » أقول إن الفعل هنا مأخوذ من السكون بمعنى عدم الاضطراب ، فإن الرجل حينما ترميه الأحداث بمكروه ، أو تقصده الأيام بنازلة أو يشتد به لفح الحر ، أو تمسه قرقرة البرد ، لا يسرى عنه إلا أن يسكن الى المرأة تمسحه ، وتخفف ما أصابه ، وهنالك ينسى ما لاقى من عنت ، أو صادف من مكروه . وقديما تغنى بذلك الشعراء ، وتحدث الفلاسفة . ولعل أبلغ ما تكون المودة والرحمة ، والميل والحب ، إذا ما أحس المجهود بالعطف ، وتأكد المكدود من الرعاية ، وأدرك المتعب شيئا من العناية فى تلك اللحظة . ولكننى بعد أن أدركت خطر انصراف البعول عن البيت ، وهجر الأزواج للمنازل ، الى مقهى عام ، أو منتدى جامع ، لا يعرفون من أمر الأبناء والأمهات بمقدار ما يعرفون عن المقهى أو المنتدى ، علمت أن استقرار رب الأسرة فيما بينها يرعاها ويحفظها ، ويهديها ويرشدها ، ويؤنسها ويسليها ، لا يعوض بمال ولا يقوم بالدنيا وما فيها .

ولا يقصد الحديث الشريف بقوله « والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيتها راعية ومسئولة عن رعيتها » شيئا وراء هذا المعنى ، فإن اجتماعهما للتشاور ، والتفافهما للسمر ، وتجاذبهما لأطراف الحديث ، وتبادلهما للرأى ،

مع كونه ينمى الحب القائم بينهما ، ويزكى الوشيجة الحاصلة بإفضاء بعضهما إلى بعض - يعطى للأطفال دروسا نافعة من التقدير والاحترام ، والتدبر والتروى ، والسياسة والحزم ، والكياسة والبصر ، والفهم والتعقل ، بحيث ينشأ الناشىء وفيه الاستعداد لأن يسبح فى محيط ذلك المجتمع الصاخب بالأصوات ، الملىء بالأفراد .

وفيما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل عليه ابن أم مكتوم وكان معه عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، فأشار عليهما بالتنحى ، فلم يريا مفارقة المجلس لرجل أعمى لا يرى منهما ما يثير فيه رغبة إليهما ، فقال لهما « أفعمياوان أنتما » ! وكان ذلك دستورا عاليا ، وأدبا فياضا ، وسلوكا قويما .

أما الأسرة العصرية الآخذة بأسباب المدنية أو الهمجية فحدث عن سفورها ولا حرج ؛ فإنه سفور لم يقف إلى حد أن رفع من وجهها الحياء ، ونزع من قلبها الأدب ، ومن رأسها المهابة ، فهى لا تتحرج حراما ، ولا تهيب محظورا ، بل صار أهون ما عندها أن تكون كذلك . . وسرت عدوى تلك القحة إلى أولادها الذكور ، فصارت فيهم الخنوثة والطراوة والميوعة والانحلال ، وأصبح الطفل مع أخته فى البيت لا يكاد يدرك العقل بينهما فوارق الذكورة والانوثة ، لأنهما سواء فى الحركة والإشارة ، والحديث والنطق ، والميل والهوى ، والرغبة والطموح ، فضلا عن أشياء وأشياء ، نسأل الله منها اللطف والرحمة .

نصيحة أبوين

لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر أمير المؤمنين قد ولاه عليها ، دخل على أمه هند فقالت له : يا بنى : إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته .

ثم دخل معاوية على أبيه أبى سفيان فقال له : يا بنى إن هؤلاء من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ؛ وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لتنفست فيه .

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ .

أعلام الأزهر

ابراهيم الهلباوى بك

المتوفى سنة (١٣٥٩ هـ) (١٩٤٠ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بمعهد القاهرة

نجم (الهلباوى) من إحدى أسر الغربية العريقة فى المجد ؛ وإن كانت رقيقة الحال ، فلما يفع ألحق بالأزهر ، فتلقى به علوم الدين واللغة ؛ وكان معروفاً بين أقرانه بالذكاء وحدة الذهن والصبر على البحث ، والمثابرة على الاطلاع ، كما عرف بجرأة الرأى ولجاج الخصومة مع شيوخه إذا اختلف معهم فى الرأى .

ولما وفد الى مصر (السيد جمال الدين الأفغانى) كان الهلباوى أحد التلامذة الذين هرعوا إليه ، فانتفع بعلمه واهتدى بتوجيهه ، وتفجرت ملكة البيان فيه بما هيأ له الأفغانى من الخطابة والحوار ؛ وبما جرأه عليه من المجاهرة بالرأى والذود عنه .

ولم يتح للهلباوى أن يتم دراسته بالأزهر ؛ ولكنه ظل على صلة بزعمائه ورجالاته ، فهو فى دروس الأفغانى مع أذكياء الأزهر ونابغيه (كالإمام) و (سعد زغلول) و (الشيخ عبد الكريم سليمان) .

وحين فوض للشيخ محمد عبده أن يشرف على تحرير الوقائع ، اختار الهلباوى فيمن اختارهم لمعاونته فى تحريرها ، غير أنه فصل من التحرير لأمر ما [1] وقد شغل عدة وظائف ، كان من أهمها وظيفة كاتم السر لمجلس النواب والمستشار

---

(١) تاريخ الوقائع المصرية لابراهيم عبده ص ١٩٢

القضائي لوزارة الأوقاف ، ووكالة الجمعية الخيرية الإسلامية التي شادها الإمام ودعمها سعد وقاسم أمين وحسين عاصم .

ولما شبت الثورة العرابية ، كان من أنصارها الثائرين ، وخطبائها الفحول ، وقد حكم عليه بالنفي إلى النيل الأبيض ؛ ليقضي بقية عمره هناك ، ولكن بعضهم شفع له لدى الخديوي توفيق ، فعفا عنه بعد أن ظل في السجن بضعة شهور .

ومن ثم انضم إلى طائفة اتخذت المحاماة مهنة لها ، فظل يمارسها ويدوي صوته ، ويذيع صيته من براعته النادرة ، وقوته التي لم تتح إلا لقليل من المحامين ، وفي سنة ١٩٢٦م انتخب لعضوية مجلس النواب عن دائرة « نكلا العنب » ، ثم انتخب نقيباً للمحامين سنة ١٩٣٨م .

ولما تألف الوفد المصري برياسة (سعـــد زغلول) كان الهلباوي أحد السياسيين البارزين ، ثم لم يلبث أن اختلف مع سعد ، والتأم مع حزب الأحرار الدستوريين ، وكان يخطب في ناديه في مناسبات مختلفة .

صفاته وأخلاقه :

كان رحمه الله طويلا فارع الطول ، عظيم الهامة ، قوي الجسم ، مفتول العضل ، أبيض الوجه في حمرة ، عنيدا يلج في عناده ، ويسرف في خصومته ، ولا يبالي بمن يخاصمه ، وكان شديد العقل ، حاضر البديهة ، قوي الذاكرة حتى إنه ليقص عليك جلائل الأعمال وتوافهها من سنين تقضت دون أن ينسى واقعة ، أو يحرف في حادثة .

والهلباوي محدث نادر ، عاصر أحداثا جساما ، وصاحب محنا سياسية ، كان وثيق الصلة بها ، فهو يحدثك عنها حديث مكابد ، ويرويها رواية خبير شاهد ، فكأنه رهط مجتمع من الرواة الثقاة .

« وكنت تستمع إلى حديثه ، فتدرك أنه يحمل في صدره تاريخ جيل لم يدون في كتاب »[1] . وكان رحمه الله تعالى على جانب عظيم من البر والعطف ، وقد

(١) من مقال للأستاذ أحمد أمين بك في العدد (٢١٤) من مجلة الثقافة .

ضرب مثلا من يره أنه صادف ذا حاجة على بابه فى يوم ما ، فشغله الحديث معه عن أن يقرأ خدمه السلام عند انصرافه فلما تذكر ذلك وكان قد بلغ بسيارته (عابدين) أمر السائق ، فقفل راجعا ، ليقول لهم إنه نسى السلام عليهم .

خطابته :

الهلباوى خطيب فذ ، عرف بأسلوبه وطريقته ، وامتاز بطلاقة لسانه ، وقوة حجته ، حين يخطب تطالعك منه عدة شخصيات ، فهو رجل التاريخ الذى عاصر أحداثه وصنعت على عينيه ، وهو رجل القانون الذى نشأ فى مهاده ، وصاحب أطوار التشريع حتى آخر مراحله ، وهو رجل الأدب المتمكن من العربية ، النافذ إلى أعمق أسرارها ، الذى يعرف سر التراكيب ، وموضع البلاغات ، وموطن الإقناع ، وهو الفكه الظريف الذى يغير على العامية متى شاء ، فيقتبس من أمثالها وفكاهاتها ما يطرب ويمتع .

كان جهورى الصوت ، فصيح اللغة ، مشوق العبارة ، يلوح للسامعين بنكتته فيطربون لها ، ويقبلون عليها ، فيهتبل هذه الفرصة ، ليلقى بما يحب من المعانى ، وما يريد من الأغراض .

وكان فى هجوم متلاحق على سامعيه ، متدفقا فى بيانه ، لا يكاد يخلص من غاية حتى يدخل بهم فى غيرها ، ولا يوشك أن ينتهى من غرض حتى يصله بآخر ، والسامعون فى كل ذلك مشوقون مأخوذون بسحره ، مشدودون إليه شدا .

وكان متمكنا من القول ، متصرفا فى فنونه ، فمرة يحلو ومرة يمر ، وطورا تسمعه هادئا كالنسيم ، وآخر يزأر كالأسد الهائج .

« وكان إذا خطب خطب بكله ؛ بلسانه وبعقله ، وبنخاعه وبعصبه ، وبرأسه وبيديه وبرجليه أيضا ، وله صياح يقد أصفق الحناجر ، ثم تدلى عن المنبر بعد أربع ساعات كاملات فى هذا البلاء وهو أشد وأفتى من أكثر من سمعوه ، إن لم يكن أفتى ممن سمعوه جميعا » [1] .

هذا إلى حضور بديهته ، وقوة ذاكرته ، وصفاء ذهنه ، وشدة أسره .

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه « فى المرآة » ص ٣٨

دفاعه :

كان الهلباوى خارقا فى دفاعه، قويا جبارا، لايكاد يلحقه فى براعته إلا أقل من القليل من أقرانه، وقد اجتمعت له أسباب الدفاع كلها؛ فقد نشأ فى الأزهر وكان أحد أدبائه القادرين على الجدل، الراسخين فى المنطق، الذين يقهرون بالحجة الغلابة والبرهان النافذ، لايخفى عليه من ملابسات القضية شيء أو يخلطه بشيء آخر. وقد استمكن من مواد القانون فصرفها فى كل مقام، واتكأ عليها فى كل موطن، على قوة فى الاستشهاد بها، وأعانته طلاقة لسانه، وغزارة بيانه، وفصاحة عبارته، وحضور بديهته على اتصال القول، وفصاحة العرض، والتصرف فى المواقف، بتفطن غريب لا يدع منفذا إليه.

وكان فى دفاعه قوة من قوى الطبيعة الغلابة، وأقوى ما تراه فى المواقف الشاذة التى تعجز المتوسطين من المحامين؛ أرأيت إليه حين يدافع عن قاذف فى حق الخديو وهو مستشار للخديو؟ ثم أرأيت إليه حينما يلتمس شفيق منصور والوردانى معونته وقد كانا يناصبانه العداء؟

كان خارقا فى مثل هذه المواقف التى لم تألف غيره من المحامين. سأله رئيس المحكمة: كم ساعة تكفيك؟ فقال: لا أستطيع أن أضبط زمام عبارتى ما لم أفرغ من التعبير عن أفكارى، فلا أعدك الآن بشيء.

وكان حريصا على النزاهة فى الدفاع، لا يحاول الدفاع عن قضية ما لم يجد لها من الحق حظاً؛ حكى صديق عنه فى دراسته قضية لم يتمتع فيها بعدل موكلته أن قال: إن من سوء حظ هذه السيده أنها وكلتنى! فأجابه: بل من حسن حظها. قال: كيف؟ قال: لأنها ضمنت ألا تكون عليها.

ومن عجب أنه قد يتعرض للدفاع عن قضايا ذات بال وبينه وبين الدفاع لحظات لدراسة القضية، ثم يقف من الدفاع عنها موقف ذى الحجة الغلاب.

كان يوما على مائدة «البرنس حسين» ثم استأذنه فى الانصراف لأنه مسافر للدفاع فى قضية، فطلب إليه (البرنس) أن يحدثه فيها، فقال له: إننى لم أقرأها

وسأقرأها فى القطار ، ثم مضت الأيام وراح المحامون الأهليون يطوفون بعرش السلطان ليهنئوه ، فقال لهم : ذاكروا قضاياكم ولا تقرءوها كالهلباوى فى القطار ! ويقول الهلباوى فى ذلك : ليت (أفندينا) كان يعرف أننى قرأت هذه القضية فى طريق من « كفر الدوار » الى قنا مرات ومرات !

وإنك ليهولك أن تسمعه حينما يقاطعه خصمه ، إذ ذاك يتفجر غضبه وتقدح بالشر عيناه ، ويدوى صوته حتى يكاد يقد الآذان ، ثم يرجع الى الوراء بصدره ، ويشمخ الى السماء بهامته ، ويدق على المنصة دقات عنيفة ؛ ولخصمه الويل والثبور ! كان يعمد الى القضية فيكيفها ، ويتملأ من دقائقها ، فإذا انتهى من ذلك انقادت له وأصبحت ملء خواطره وفيض بيانه .

وكان جذابا الى حد غريب فى دفاعه ، فهو يضم السامعين إليه ضما ، وينفعلون معه انفعالا ؛ وتنظر الى القاضى المعجب فيخيل إليك أنه ليس فى موقف الحكم ، بل فى جانب المتهم . وهو الى هـذا حاضر البديهة سريع النكتة ؛ عرض عليه رئيس المحكمة لطول إسهابه فى الدفاع كوب ماء ؛ فقال : « أعطها للخصم الذى نشف ريقه » .

تولى الهلباوى الدفاع فى أخطر القضايا المصرية فى العصر الحاضر ، فكان فارس حلبتها ، ودافع عن المحاماة ، التى كان شرفها ونخارها ، وعمل على تكوين نقابة لها .

موقفه من حادث دنشواى :

تبدو فى تاريخ الهلباوى نقطة حالكة السواد ؛ فقد وقف من الأمة المصرية موقفا غير كريم ، وتحدى شعور الشعب المصرى كله فى وقت بلغ الغيظ والحزن بالأمة مداه ؛ فقـد رضى لنفسه أن يقف موقف المدعى العمومى فى هذه القضية الدامية ، أى أنه أساغ أن يجمع الأدلة من هنا وهناك ليثبت اعتداء المصريين من (دنشواى) على الإنجليز ، وواتاه من الغلظة والقسوة ما تذوب له الأكباد ، وأمعن فى خصومة المتهمين المصريين ، ونظم الشعراء فى ذلك قصائدهم ، وكان مما قاله المرحوم حافظ بك ابراهيم فى هـذا مخاطبا « الهلباوى بك » :

أيها المدعى العمومى مهلا بعض هـــذا فقد بلغت المرادا

قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنجلك الإسعادا

فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد « مصر » فقد شفيت الفؤادا

لاجرى النيل فى نواحيك يامصـــر ولا جادك الحيا حيث جادا [1]

أنت أنبت ذلك النبت يامصـــر فأضحى عليك شوكا قتادا [2]

أنت أنبت ناعقا قام بالأمـــس فأدمى القلوب والأكبادا [3]

إيه يامدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا [4]

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

كتابته :

أما كتابة الهلباوى فإنها دون خطابته ودفاعه شأنا ، غير أنه اتجه فيها إلى السهولة والوضوح ، وجانب الزخرف والصنعة ، وكان أحد الأدباء الذين حرروا الكتابة من السجع والتكلف ، وتوخوا بها الفكرة وأودعوها أغراضا جليلة ، واتخذوها وسيلة للإصلاح فى مختلف شئونه .

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر ، يخاطب مصر بأنها أحسنت إلى بعض أبنائها وبرت بهم وأساؤا إليها وجحدوا نعمتها .

(٣) الناعق : المدعى العمومى فى هذه القضية ، والنعيق (بالعين المهملة ، وفى كتب اللغة بالغين المعجمة أفصح) : صياح الغراب .

(٤) المدره : خطيب القوم والمتكلم عنهم .

العز بن عبد السلام

٥٧٧ — ٦٦٠ هـ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر إلى السودان

نشأته وتصرفه : هو عبد العزيز بن عبد السلام بن حسن بن محمد ابن مهذب السلمى ، ولد فى دمشق ، وتفقه على فخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين الحرستانى ؛ وبعد أن درس الحديث والنحو والأصول رحل إلى بغداد فأقام بها أشهراً ، وكان له تلامذة نجباء؛ منهم شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، والإمام علاء الدين أبو الحسن الباجى ، وقد ولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموى فى دمشق ، وفى هذه الفترة أزال كثيراً من البدع ، ودرس بالزواية الغزالية بجامع دمشق ، وطار صيته فى الآفاق ، وارتفعت مكانته حتى راسله بعض ملوك عصره وأحبوا لقاءه ، ثم عاد إلى مصر مغاضبا للصالح اسماعيل فقدمها سنة ٦٣٩ هـ فتلقاه أهلها ولاسيما الصالح نجم الدين أيوب أحسن لقاء ، وولاه الخطابة فى جامع عمرو ، والقضاء بمصر وبالوجه القبلى ، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة فى مصر والقاهرة ، ثم عزل نفسه عن القضاء ، وعزله الصالح عن الخطابة خوفا من التشنيع عليه ، ثم فوض إليه السلطان تدريس الشافعية فى المدرسة الصالحية حين تم بناؤها ، وقد توفى العز فى عهد الظاهر بيبرس (فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٦٠) .

علمه وفضله : كان إمام عصره بلا منازعة ، وقد لقبه تلميذه ابن دقيق العيد بسلطان العلماء ، وحدث حين نزل مصر أن امتنع حافظ مصر عبد العظيم المنذرى من الفتيا ، وقال : كنا نفتى قبل حضوره ، أما بعد مجيئه فمنصب الفتيا متعين فيه . وقد بلغ مرتبة الاجتهاد فصار يفتى بما يؤدى إليه اجتهاده . وكان جمال الدين

ابن الحاجب يقول : ابن عبد السلام أفقه من الغزالى . وهـذه القصة تدلنا أبلغ الدلالة على سعة علمه وكثرة اطلاعه ؛ روى التاج السبكى فى طبقات الشافعية قال : « وحكى أن شخصاً جاء إليه وقال له : رأيتك فى النوم تنشد :

وكنتُ كذى رجلين : رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش من العمر ثلاثا وثمانين سنة ؛ فإن هذا الشعر لكثير عزة ، ولا نسبة بينى وبينه غير السن ؛ أنا سُنى وهو شيعى ، وأنا لست بقصير وهو قصير ، ولست بشاعر وهو شاعر ، وأنا سلمى وهو ليس بسلمى ، لكنه عاش هذا القدر . قلت : فكان الأمر كما قال رحمه الله ، انتهى ما ذكره التاج . وأنا أقول : إن هذه القصة لو رويت عن رجل ممن تخصصوا فى دراسة الأدب العربى لكانت دليلا أى دليل على سعة علمه ؛ فإن معرفة هذه الدقائق فى حياة هـذا الشاعر تخفى على كثيرين من المعنيين بدراسة الأدب ، فما بالنا بعالم لم تكن دراسة الآداب من صناعته . وكتُبه التى كتبها للسطان موسى الأشرف فى مسألة الخلاف بين الحنابلة وغيرهم فى موضوع الحرف والصوت لها دلالتها على تمكن الرجل من علمه ، وثقته بنفسه .

وقد كان لعز المثل الأعلى للعالم العـامل . فإنا إذا تصفحنا حياة العلماء ، ودرسنا تراجمهم ، عز علينا أن نجد له نظيرا ، وما أصدق ما قيل فيه : لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثله علما وورعا وقياماً فى الحق ، وشجاعة ، وقوة جنان ، وسلاطة لسان .

نشأ فقيراً ، ولكنه كان يحمل بين جنبيه نفسا لاتعترف بالعظمة إلا لخالقها ، وكأنه كان يضع رأسه على كفه لا يبالى من اختطفها ، وبذلك هان عليه كل شىء فى سبيل دينه . وقد سأله تلميذه الباجى بعد رجوعه من عند السلطان الصالح أيوب ، وما كان من العز من الإغلاظ للسلطان والجرأة عليه ؛ سأله البـاجى : كيف الحال ؟ فأجاب : يابنى استحضرت هيبة الله فصار السلطان قدامى كالقط !

وقصصه مع سـلاطين عصره وأمرائه معروفة مشهورة ، وقد قام بأمر لم يسمع بمثله ؛ وذلك أنه صح عنده أن أمراء المملكة لا يزالون على حال الرق ، فاعتزم بيعهم ورد أثمانهم إلى بيت مال المسلمين ، وما بالى بغضبهم ، ولا بغضب

السلطان ، وأصر على موقفه حتى اضطر أن يخرج من مصر . ولكن السلطان سار إليه بنفسه وترضاه حين رأى أنه لم تبق امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له تخلف عن الخروج وراءه ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار . وبقى العز فى موقفه حتى جاءه نائب السلطنة إلى بيته ليقتله ، فأخبره ابنه الخبر . فقال يابنى : أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ! وقد انتصر ، ونفذ ماعزم عليه ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى فى أثمانهم ، وقبضها ، وصرفها فى وجه الخير ! .

ولعل أبلغ الأحداث فى حياة الشيخ ، وأدلها على عزة نفسه ، وثقته بربه ، تلك القصة المشهورة التى لا يزال يتناقلها العلماء ؛ ذلك أن الصالح إسماعيل حين غضب من الشيخ ، وأمر بخروجه من الشام ، وصار الشيخ فى نصف الطريق ، بعث إليه الصالح من يرجعه ، فأخذ الرسول يترضاه ويقول له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لاغير . وهنا تعلن نفس الشيخ عن معدنها الكريم ، وتجرى على لسانه تلك الكلمات الحرة الحاسمة ، فيقول : يامسكين ، والله ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ! أنتم فى واد ، وأنا فى واد ! والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ! . ومع كل هذا فقد كان السلاطين يحبونه ويحبون الاجتماع به ، حتى روى أنه لما توفى فى عهد الظاهر بيبرس حزن عليه حزنا شديداً ، وقال : سبحان الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا فى دولتى ! . وشهد جنازته ، وصلى عليه ، وحمل نعشه ، وحضر دفنه .

وكان العز كريما عفيفاً ، متسامحاً فيما يمس شخصه ، لا يغضب إلا لله ، مهيباً مقبول الصورة ؛ حتى أنه كان كثير الصدقات ، وأنه ربما قطع من عمامته وأعطى فقيراً يسأله . أما أحاديث عفته فمستفيضة ، وطالما رد هدايا الملوك . ويقال إنه لما مرض مرض الوفاة أرسل السلطان اليه ، وقال : عين مناصبك لمن تريد من أولادك . فقال عز الدين . ما فيهم من يصلح ! وهذه المدرسه الصالحية تصلح للقاضى تاج الدين ففوضت اليه . وهذا موقف شبيه بموقف سيدنا عمر بن الخطاب حين قيل له : لو أنك عهدت الى عبد الله فإنه لها أهل فى دينه وفضله وقديم إسلامه ! فقال : بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد

صلى الله عليه وسلم ، ولو ددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على ! ؛ وبموقف الخليفة الشاب معاوية بن يزيد بن معاوية حين ألح عليه الناس ، وقالوا له : لو عهدت إلى رجل من أهل بيتك ، واستخلفت خليفة ! قال : لم أنتفع بها حياً فلا أتقلدها ميتاً ، لا يذهب بنو أمية بحلاوتها ، وأتجرع مرارتها !. هكذا كانوا فأين نحن منهم الآن ؟ على أن أفضل ما راعنى فى أخلاق الشيخ تمسكه بالحق ، وهضمه لنفسه ، وتواضعه ؛ حكى القاضى عز الدين الهكارى ابن خطيب الأشمونين فى مصنف له ذكر فيه سيرة الشيخ أن عز الدين أفتى مرة بشىء ثم ظهر له أنه أخطأ فنادى فى مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ !. وتلك لعمرى أفضل أخلاق العلماء ، وما زلنا ننوء بتنفج بعض العلماء وادعاءاتهم وبجادلتهم عن الباطل ، وهم يعلمون ! !.

جهاده : أفردت هذا الموضوع بعنوان لما رأيته صورة بارزة فى حياة الشيخ عز الدين ، وقد كان للشيخ جهادان : جهاد بالسيف ، وجهاد باللسان ؛ شهد معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ مجاهداً فى سبيل الله . أما جهاده بلسانه فحياته كلها مثل أىّ مثل لذلك ، ومواقفه من سلاطين عصره أكبر دليل على هذا الجهاد الشاق الأليم . على أنه قد ترك كلمات مدونة لمن يأتى بعده من العلماء . وقد لاحظت أنه لا يترك فرصة يتحدث فيها عن الجهاد الواجب على العلماء إلا انتهزها . ذكر فى رسالته التى بعث بها إلى السلطان الأشرف موسى بن الملك العادل هذه العبارة : « والجهاد ضربان : ضرب بالجدل والبيان ، وضرب بالسيف والسنان ، والعلماء ورثة الأنبياء ، فيجب عليهم من البيان ما وجب على الأنبياء. وفى رسالة أخرى : ولكن قد أمرنا الله بالجهاد فى نصرة دينه ، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه ؛ فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين ، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين ؛ فمن ناضل عن الله وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله ، ويحفظه من جميع الأنام ، بعينه التى لا تنام ، ويعزه بعزه الذى لا يضام ، ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . وفى هذه الرسالة : وعلى الجملة ينبغى لكل عالم إذا أذل الحق ، وأهمل الصواب ، أن يبذل جهده فى نصره ، وأن يجعل نفسه

بالذل والخمول أولى منهما ، وإن عز الحق فظهر الصواب أن يستظل بظلهما ، وأن يكتفى باليسير من رشاش غيرهما :

قليل منك ينفعنى ولكن قليلك لا يقال له قليل

والمخاطرة بالنفوس مشروعة فى إعزاز الدين ، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر فى صفوف المشركين ؛ وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة ؛ فمن خشى على نفسه سقط عنه الوجوب ، وبقى الاستحباب ؛ ومن قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب ، . والحق أن العز أعطى علماء عصره درساً قاسياً ؛ فقد خذلوه فى موقفه من الحنابلة أمام السلطان ، وكان كثير منهم فى مجلس السلطان ، وكلهم على مذهب العز ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتلطفوا بإعلام السلطان أن ما قاله العز مذهبهم ، ومذهب أهل الحق ، بل اكتفوا بأن طلبوا من السلطان العفو ، وذلك يوم الذنب .

وشتان بين موقف هؤلاء وموقف رجل يكتب للسلطان فيبتدىء رسالته بهذه العبارات : « بسم الله الرحمن الرحيم ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . أما بعد حمد الله الذى جلت قدرته ، وعلت كلمته ، وعمت رحمته ، وسبقت نقمته ، فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه ، وأكرمهم لديه : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . واستمر على هذا المنوال حتى استشاط السلطان غضباً ، وتيقن أعداء الشيخ أنه مقتول لا محالة .

« يتبع »

كلمات

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب . ولمداد ماجرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .



لحضرة الأستاذ عبد المنعم الصايغ
مفتش الآداب بالأزهر

نهى الإسلام أكثر من مرة عن إثارة الحروب بين الشعوب بغية التوسع وبسط السلطان ؛ ذلك العامل الذى ظل مصدر إغراء باشعالها منذ بدأ الإنسان حياته فى هذا العالم

وإننا لنرى اليوم أن الرغبة فى اغتصاب الحقوق هى التى جعلت الأمم المتمدينة تطمع فى بسط نفوذها على غيرها من الشعوب الأخرى ، متذرعة فى ذلك بما تبديه من مختلف الأسباب ، وما تأتى به من حجج تبرر بها اعتداءها . وإن الإسلام لا يرضى عن حرب هدفها الجشع والاغتصاب ، ويشترط أن يتوافر لإشعالها واحد من ثلاثة أسباب :

أولا : أن يكون الباعث عليها منع الاضطراب ، وأن يراد بها درء ما تتعرض له البلاد من غزو الأعداء .

ثانيا : أن يلجأ اليها دفاعا عن النفس والمال عند كل اعتداء .

ثالثا : أن يستعان بها على أن يتمتع كل مسلم بعقيدته الدينية مهما أحاطت به عوامل الإغراء .

أما السببان الأولان ؛ فليسا فى حاجة إلى إيضاح ، لأن كلا منهما غنى عن البيان .

وأما السبب الثالث ؛ فأمر يجد فيه أعداء الإسلام مساغا لهم فى التحامل على العقيدة الإسلامية ، وفاتهم أن القرآن الكريم قد بين الحروب المرغوب فيها ، وأوضح للإنسان كثيرا من التعاليم السامية ؛ فقال تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، وجاء القرآن يدعو إلى حرية الفكر والعمل ، وحماية العقيدة من كل عدوان ، فالمسلم ملزم بمحاربة كل من يتدخل فى حرية عقيدته الدينية ، سواء أكان من بنى جلدته

أو من أقربائه ، أو كان غير مسلم . وأوجب الإسلام على أبنائه أن يمنعوا كل اعتداء يوجه إلى المعابد غير الإسلامية . وقد أخذ المسلمون بهذا المبدأ فى كل ما فتحوه من بلاد وأمصار . وكان النبى (صلوات الله عليه) يخوض غمار الحروب مع أعداء الإسلام ، وبعد أن تضع الحرب أوزارها كان يعقد معهم معاهدات يحترمها ويقدرها قدرها .

ولقد ترك لنا باحترامه لما أبرم من عهود ومواثيق ، هديا نهتدى به فى حياتنا ونسترشد به فى أمورنا .

قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » . « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

جاءت هذه الآية كتنبيه للمسلمين ، بأن أعداء دينهم سيسارعون إلى مهاجمتهم . ولم يكد يمر على هجرة النبى صلى الله عليه وسلم عام ، حتى وقعت غزوة بدر الكبرى ، فتقابل الفريقان عند بدر التى تبعد عن المدينة ثلاثين ميلا تقريبا ، وهناك قتل معظم جيش الأعداء ، وفر قليلون إلى مكة يحملون إليها أسوأ الأنباء . وكان من نتائج الفزع الذى ابتلى به الكفار ، أن نشبت بينهم وبين المسلمين حرب أخرى بلغ عدد جيش الكفار فيها ثلاثة آلاف مقاتل . وترك النبى - عليه أفضل الصلاة والسلام - المدينة لملاقاة أعداء الدين ، ومع أن المسلمين لم يكتب لهم النصر هذه المرة فى موقعة أحد ، لم يظفر هؤلاء هم الآخرون بغنم ذى قيمة . ولهذا وطدوا العزم ، وأصروا على سحق الإسلام نهائيا : فعقدوا معاهدات مع بعض القبائل ، وحاصروا المدينة بجيش كبير ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، ولم تقع بين الفريقين حرب نظامية ، ولكن عاصفة رملية قاسية هبت ذات ليلة فزلزلت خيام الأعداء ، واقتلعتها واطفأت أنوارهم ؛ فتملكهم الذعر وولوا الأدبار .

ومع أن هؤلاء الكفار كانوا بعد حصار المدنية أضعف من أن يعقدوا حلفا آخر بينهم ، إلا أن الاندحار الذى منوا به ، أثار روح الحرب فى جميع بلاد

العرب ، وسرعان ما أحاط الكفار بالمسلمين من كل جانب ، وفى ذلك كله جاء القرآن الكريم بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » وقوله جل شأنه : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

فكل هذه الآيات تبيح الحرب فى حالة الدفاع عن النفس ، وهى تبين لنا جليا أن واجب المسلمين ألا يستمروا فى الحرب إن عدل العدو عن مواصلة القتال . قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » وقال تعالى « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

وعقدت قبائل كثيرة معاهدات مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وما كانوا يقصدون من إبرامها إلا أن يخدعوا المسلمين ؛ كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم حيث يقول : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » وبرهن الكافرون أكثر من مرة على أنهم لم يكونوا لعهدهم حافظين ؛ قال تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » وقوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

وفى هذه الآيات ما يزيد الموضوع إيضاحا ، وما يبين العقاب المعد لهؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بما قطعوه على أنفسهم من عهود ومواثيق ، وكان طبيعياً أن يستأنف المسلمون مخاصمتهم لهؤلاء الذين تحللوا من تعهداتهم ، ودأبوا فى الكيد لهم ، ومع أن هؤلاء المشركين لم يكونوا جديرين بأن يجدوا من المسلمين فرصة لنجاتهم ، إلا أنهم منحوا هذه الفرصة ، وفى هذا يقول الله تعالى « فإن تابوا

وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ، وفى ذكر الآيات الآتية ما يبين منزلة الحرب فى نظر الإسلام ؛ قال تعالى « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » .

وحمادى القول : أن العالم فى مسيس الحاجة إلى توجيه صالح وآداب طيبة فى حروبه . ولقد جاء الإسلام بما يحقق هذه الأمانى ، فحرم كل حرب يرجى من إشعالها كسب فى أملاك الأمم ؛ كما نهى عن إثارة الحروب التى تهدف ـ تحت ستار الدين ـ لبلوغ نفس الغرض . وجاء الإسلام لنشر السلام فى العالم كما يستفاد من اسمه ، ومنع أن يستل سيف من غمده بغير حق ، ودون قصد ، وأوصى لإشعال نار الحرب بأن يستند الراغبون فى إعلانها الى أسباب عادلة .

الحجاب

قال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبدالله بن عبد كان فحجبنى فكتبت إليه .

إنى أتيتك للتسليم أمس فلم ... تأذن عليك لى الأستار والحجب
وقد علمت بأنى لم أرد ولا ... والله ما رد إلا العلم والأدب

قال فأجابنى ابن عبد كان بقوله :

لو كنت كافيت بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدب
ليس الحجاب بمقص منك يا أملى ... إن السماء ترجى حين تحتجب

ووقف بباب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه فكتب إليه .

على أى باب أطلب الإذن بعد ما ... حجبت على باب الذى أنا حاجبه

ووقف أبو العتاهية الشاعر المشهور إلى باب بعض الهاشميين ، فطلب الإذن فقيل له تكون لك عودة فقال :

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم ... سأصرف وجهى حيث تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم

الحكماء السبعة

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

كان الإغريق القدماء يمجدون الحكمة ويعدونها أسمى شيء فى الحياة، كما شاع فى الهند تقديس الآلهة، وفى إيطاليا فى عصر النهضة احترام الفن. ولم يكن أبطال اليونان قديسين أو فنانين بل حكماء. وأرفع الحكماء شأناً، وأفضلهم منزلة من حسنت سيرته فى الناس، وعبر عن العمل الصالح بالحكمة الصائبة والقول الذى يذهب مذهب الأمثال السائرة. ولقد جرت الحكمة من أفواه هذه الطائفة، فأصبحت فى أهل الإغريق أمثلة تحفظ وتروى، ومواعظ للقدوة والاعتبار، بل آيات سطرت على أبواب أبولون فى دلفى.

عاش الحكماء السبعة فى النصف الأخير من القرن السابع وأوائل السادس قبل الميلاد، وهم يمثلون الحكمة العملية فى صدر الحضارة اليونانية.

وصفهم ديكارخوس [1] فقال: ليس الحكماء السبعة فلاسفة أو حكماء، بل هم قوم فى غاية الذكاء، وجهوا عنايتهم إلى تنظيم الأحوال العامة.

ولست أدرى أعرفهم العرب فى الإسلام أم لا؟ نعنى أسماء الحكماء السبعة وصفاتهم وأقوالهم، وأنهم يمثلون أول ظهور الحكمة أو الفلسفة. وقد ذكر القفطى فى أخبار الحكماء «أساطين الحكمة» تكلم عنهم عندما تعرض لانباذقليس فقال إنه: «حكيم كبير من حكماء اليونان، وهو أول الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة، وأقدمهم زماناً. والخمسة هم: أبيذقليس هذا ثم فيثاغورس ثم سقراط ثم أفلاطون ثم أرسطاطاليس». ولم نقع على نص

---

(١) ديكارخوس Dicaerchus من مسينا فى صقلية، عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد، وهو فيلسوف وجغرافى ومؤرخ، أخذ العلم على أرسطو وثاوفراسطس. أنفق معظم حياته فى اليونان وفى بلوبونيز بوجه خاص. له كتب كثيرة لم يبق منها إلا أجزاء. وأهم كتبه تاريخ اليونان.

آخر فى الفهرست أو طبقات الأطباء، أو كتب فلاسفة العرب يدل على أنهم عرفوا الحكماء السبعة. نقول: وليس فيثاغورس حكيما بل هو متأخر عن الحكماء السبعة، وإليه يعزى القول «لست حكيما ولكنى مؤثر للحكمة». والمؤثر الحكمة هو الفيلسوف. كأن الفلسفة فى اليونان نشأت فى أحضان الحكمة العملية التى جرت على لسان الحكماء السبعة.

ويختلف المؤرخون فى أسمائهم. وأقدم ثبت نعرفه هو ما سجله أفلاطون عنهم فى محاورة بروتاجوراس. وهم: طاليس، وبياس، وكلوبولس، وخيلون، وبتاقوس، وسولون، وميسون.

وذكر وِل ْ ديورانت فى كتابه «حضارة الإغريق» أن هرميبوس[1] قال: الحكماء السبعة يبلغ عددهم الحقيق سبعة عشر، لأن كل مدينة من مدن الإغريق كانت تصطنع حكيما وتذكر سبعة، إلا أنهم اتفقوا على سبعة، هم: طاليس من ملطية، وسولون من أثينا، وبياس من برين، وبتاقوس من ميثيلين، وبرياندر من كورنثة، وخيلون من إسبرطة، وكليوبوس من رودس.

وذكرهم ديوجين لايوس[2] فقال: طاليس، سولون، برياندر، كلوبولس، خيلون، بياس، بتاقوس. وهذا يشبه ما ذكره هرميبوس.

وأضاف ديوجين إلى هؤلاء السبعة المجمع عليهم عدداً من الأسماء، منهم: أناخارسس Anacharsis، ميسون، فريسيدس Pherecydes، إبيمنيدس Ebimenides، بسستراتوس Pesistratus.

وقد ذهب بعضهم إلى أسماء أخرى، إما بدافع الوطنية، أو التحزب السياسى، حتى لقد جمع ديوجين أسماءهم من شتى المصادر فبلغوا ثلاثة وعشرين.

والإجماع على أربعة منهم: طاليس، وبياس، وبتاقوس، وسولون.

---

(١) هرميبوس Hermippus شاعر كوميدى معاصر لبركليس عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد

(٢) مؤرخ من لايرس فى صقلية. عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد، له كتاب سيرة الفلاسفة

طاليس : فيلسوف طبيعى من مدينة ملطية ، وهو رأس الفلسفة الأيونيـة . عرفه العرب : ولن نطيل فى الحديث عنه .

بياس Bias من مدينـة برين Priene على خليج ملطية فى غرب آسيا الصغرى ، وكانت مدينة مشهورة فى القرن السادس ، وازدهر فيها بياس ، واشتهر حول ٥٧٠ ق . م . وكان خطيباً أمام المحاكم فى أثينا . وأشار ديوجين إلى شهرته فى المحاكم . وكان نظام التقاضى فى أثينا على ضربين : الاحتكام إلى محكم يفصل بما يراه على هواه ، فإن لم يقبل المتخاصمان رفعا الأمر إلى ساحة القضاء . ولم تكن المحاكم تقبل القضايا الصغيرة أو تلك التى لم يفصل فيها بالتحكيم . وتقدم القضايا مدونة مسبية ، ويعتمد الخصم على محام يقنع المحكمة بزلاقة لسانه ، وحسن بيانه وقوة إقناعه ، وبراعته فى الخطابة . ومن أشهرهم بياس . له حكم تروى ، منها قوله : « من لم يصبر على الزمان عاش بائساً » .

بتاقوس Pittacus من جزيرة أيوليـا إحدى جزر لسبوس التى اشتهرت بالثروة والأدب . وفى الجزيرة خمس مدن أكبرها عدداً وأوفرها ثروة ميتلين Mytilene بسبب اشتغالها بالتجارة ، مثل : ملطية وساموس وإنسوس .

وفى آخر القرن السابع تحالفت طبقة التجار مع الشعب على الأشراف ، فانتزعوا منهم السلطة ، وسلموا زمام الحكم لبتاقوس ، ونصبوه حاكما مستبدا عشر سنوات ، فاجتمع له من السلطان ما يشبه ذلك الذى اجتمع فى يد صـديقه سولون أحد الحكماء السبعة ، والمشرع المشهور المعروف .

ونسج التاريخ حول الحكماء السبعة كثيرا من الأقاصيص ، تجمع بينهم ، وتنطق الحكمة على لسانهم .

ويقال : إنهم قابلوا مجتمعين سبسيلوس فى رواية ، وبرياندر فى رواية أخرى ، وكروسس فى رواية ثالثة . وتمت هذه المقابلات فى دلفى .

وجعل بلوتارك من الاجتماع الذى وقع فى كورنثة برئاسة برياندر موضوعا للحوار .

ومن أشهر قصصهم تلك التى تحدثنا عن الكرسى الذهبى الذى استخرجه الصيادون من البحر ، ثم تنازعوا على امتلاكه ، فذهبوا إلى دلفى فأنبأتهم الكاهنة أن يكون من نصيب « أحكم رجل » . ودار الكرسى على جميع الحكماء ، ثم عاد إلى أبولون فى دلفى .

وهذا ما فعله سقراط فيما بعد حين سئل : ماذا يعرف ؟ فأجاب : إنى لا أعرف شيئاً .

ويقال : إن الحكماء السبعة عند زيارتهم دلفى وهبوه أول ثمار حكمتهم « اعرف نفسك » و « لا تسرف » . وقد دونتا بعد ذلك على باب المعبد .

ولا ريب فى أن هاتين الحكمتين من وضع الكهنة ، حتى إذا ما ارتفع شأن الحكماء السبعة فى العصور المتأخرة ، عزا الناس إليهم كل حكمة .

وقد تنسب بعض هذه الحكم المأثورة إلى واحد بعينه ، مثل « لا تسرف » فإنها تنسب إلى سولون ، واعرف نفسك » إلى خيلون أو طاليس .

ويصف أفلاطون حكمهم بأنها : أقوال قصار ، وعبارات موجزة .

وجمع فى القرن الخامس بعد الميلاد يوحنا ستوبايوس بعض هذه المأثورات المنسوبة إليهم ، وهى تدور حول الفضائل ، مثل ضبط النفس ، والأمانة ، والجد ، والصدق ، وطاعة القوانين ، واحترام الآباء .

ومن العسير نسبة كل حكمة إلى صاحبها .

يقال : إن برياندر صاحب القول المأثور « الشورى أفضل من الاستبداد » .

وكان الغرض من هذه الحكم هداية المواطن فى الحياة .

وقد أصبح للحكمتين المسطورتين على باب معبد دلفى أثر فى الفلسفة ؛ إذ أخذ سقراط « اعرف نفسك » وجعلها أساساً لفلسفته فى الفضيلة . وأخذ أرسطو حكمة « لا تسرف » وجعلها أساساً لفلسفته الأخلاقية فى أن الفضيلة وسط بين طرفين ؟



الكلمة التى ألقاها فضيلة الأستاذ الشيخ محمود جميلة مبعوث الأزهر إلى العراق بقاعة فيصل بمناسبة الإسراء وأذيعت على الشعب العراقى

أيها السادة :

هذه ذكرى مجيدة نُحْيِيها ونُحَيِّيها ، لا مؤتسين ولا مقتدين ، ولا مبتدعين ولا مخترعين ؛ ولكنها تذكرة للذاكرين وتنبيه للغافلين ، فإن القلوب قد تحجرت والنفوس قد تمردت ؛ ولعلنا بذلك نحول الركب ونصحح الوضع ، ونستميل الأفئدة اللاهية ، والعقول النائية ، إلى هذه المجالس النافعة ، نتذاكر فيها الله ، ونتحدث عن رسول الله . والحديث عن رسول الله حديث شهى ؛ لأنه حديث عن الحق ؛ حديث عن النور ؛ حديث عن العلم ؛ حديث عن العدالة والمساواة ؛ حديث عن العظمة الإنسانية التى لا تعتمد على منصب ولا جاه ، ولا ترتكز على مال وأهل .

أيها السادة :

لقد أسرى الله بعبده ونعم العبد ! أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، فكانت رحلة بين حرمين ، وجولة بين مسجدين ، وسفرة بين قبلتين ، رافق فيها أمين أمينا ، وصاحب فيها كريم كريما ، سارت النورانية الملكية فى ركاب البشرية القدسية ، فكان من ذلك ركب الله ، يتوجه إلى الله ، لا فى مكان محصور ولا فى زمان مقدور ، ولم تكن الأرض إذ ذاك قد عرفت طائرة تقطع الأجواء ، أو قاطرة تنهب الغبراء ، ولكنها عرفت من أبدع الأرض والسماء ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى . فها هى ذى يد القدرة تحمل محمدا وركبه وتطوى بهم الفيافى والقفار وتتمثل العير ، وتعرض الصور أمام الحضرة النبوية ليرى الرسول الأمين فى آيات ربه قيمة دعوته ، وخطر رسالته ، فيزداد رأفة على رأفته ، ورحمة على رحمته ،

فيُـلحف فى دعوته ، ويمعن فى حجته ، ويتفانى فى إنقاذ أمته : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليـه توكلت وهو رب العرش العظيم » . وفى بيت المقدس ، وفى ثالث بيت من بيوت الله التى تشد إليها الرحال ، وفى القبلة الأولى التى بدأت عليها الأمة ـ كان استقبال محمد استقبالا باهرا معجزا ، سلم فيه العقل الحكم إلى النقل ، فهو وحده الفيصل ، ومنه نستمد الإيمـان : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . وهنا تجلت الـكرامات ، وبرزت المعجزات ، وأحيا الله الأموات وتقدم المصطفى على المصطفَين وبدأت رحلة جديدة لم تشهدها البشرية منذ هبطت البشرية ، لا من أرض إلى أرض ، ولا من شرق إلى غرب ، وإنما هى من أرض إلى سماء .

رحلة كرم الله فيها الوالد فى شخص ولده ، فكانت تتميما للنعمة وتأكيداً للتوبة ، ومظهراً من مظاهر الرضى . لقد هبط آدم من عليائه لمـا نسى العهد وفقد العزم ، فظمىء وجاع وعرى وشقى ، وكان له ألا يجوع ولا يعرى ، ولا يظمأ ولا يضحى ؛ وصعد محمد إلى السماء ، فكان ذلك رمزاً لرفعة البشرية بعـد هبوطها ، وكمالها بعد ترجرجها .

أيها السادة :

نزل آدم عليه السلام الى الأرض ، وصعد محمد الى السماء ، وكلاهما قد قطع أجواز الفضاء ، واجتازت طبقات الهواء ، وقـدرة المسيطر على الوجـود تولت آدم فى هبوطه كما تولت محمداً فى صعوده ، ولا خفة ولا كثافة أمام خالق الخفة والـكثافة « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

عرج برسول الله وتدرج فى مراتب الـكمال ، وأخذ ينتقل فى المنازل ويسمو فى الدرجات ، وسط مهرجان تفضلت به العناية الإلهية ، شاركت فيه الأرض السماء ، والأموات الأحياء ؛ ولا زالت ترتفع به مكانته وتتقدم به منزلته ، حتى وقف كل مخلوق ، وتنحى كل مرموق ، ورفعت الأسـتار ، وتـكشفت الأسرار ، وظهرت الأنوار ، وتجلى الستار ، وفنى الحبيب فى الحبيب ، وكان وعى وكشف ، وصحوة ويقظة ، ثم دنا فتدلى ، فـكان قاب قوسين أو أدنى ، وما زاغ البصر

وما طغى. وهنا رأى وسمع؛ رأى آيات ربه الكبرى، وسمع كلام ربه الأعلى، رؤية وسمعا يليقان بالتنزيه والتكريم، ويناسبان التسبيح والتعظيم. عند ذلك أوحى الله لعبده بعد أن أسرى بعبده، فنعم العبد، ونعم المعبود! تكريم لم يصبه مخلوق، وتقديس لم يصل اليه موجود؛ فهو وحده الذى حظى بالحضرة، وتمتع بالنظرة، فنسى مشاق دعوته، وخلاف أمته، فكان ترفيها وتخفيفاً، وتحميداً وتقديسا.

أيها السادة:

فى هذا المقام الكريم، وفى هذا الموقف الرهيب، صدرت إرادة كريمة، وأمر إلهى، بتكليف الأمة بالصلاة، وهى الناهية عن الفحشاء والمنكر، وهى عماد الدين، من أقامها فقد أقامه، ومن هدمها هدمه، فنالت الصلاة بذلك شرفا سبقت به غيرها من العبادات، واعتزت به من بين سائر المأمورات. أفيليق بعبد مؤمن بالله ومصدق بمحمد بن عبد الله أن يضيع الصلوات ويتبع الشهوات! اللهم إن ذلك هو الخسران المبين.

بعد هذا تحرك الركب آيباً بعد هذا التكريم، وقافلا بعد هذا التعظيم، إلى مقره من البلد الحرام. فسبحانك اللهم سبحانك! جلت قدرتك، وعظم شأنك.

أيها السادة:

هذه منزلة رسولنا الكريم من رب العالمين، فقد شرح الله صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأيده بالمعجزات والخوارق، وعلمه مالم يكن يعلم.

سيدى رسول:

قدمتك العناية الإلهية، والرحمة الربانية، إلى البشرية الضالة، والإنسانية التائهة، بين أرباب متفرقة، ونظم متخلخلة، وأصول متداعية، لتقيم من أركانها وترفع من قواعدها، وتأخذ بيدها الى الطريق السوى، قدمتك حراً طليقاً ترى الحق حقاً والباطل باطلا بصفاء فى نفسك ونور فى قلبك، لم يغيره فيك قتامة محيطك، وعتامة عصرك، فقلت حقاً، ونطقت صدقا، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ورسمت للناس طريق الحق، فلا عذر لمعتذر، ولا حجة لجاحد، بل لله الحجة البالغة «ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة».

والآن وقد اجتمعنا لإحياء أعظم الليالى التى كانت لرسولنا الأكرم، ونبينا الأجل ـ نضرع إلى الله العلى أن يوجه الأمة لإحياء سنته، وتأييد دعوته، ونشر دينه، وبث تعاليمه. عند ذلك يعود لنا عز سُلبناه، ومجد فقدناه، وخلق جافيناه، ويتحقق وعد الله « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز ».

قبل أن أبرح مكانى هذا أتقدم إلى الشعب العراقى الكريم، خصوصا الجمعيات الدينية، بشكرى وشكر إخوانى على ما حيانا به هذا الشعب من صنوف الإكرام، لا لأشخاصنا، ولكن لمعهدنا العزيز الذى غالب الأيام فغلبها، وصارع القرون فصرعها، ثم هو يحمل مشعل الإسلام ويقوم بتبليغ الدعوة، وهو مفتوح الأبواب لكل مسلم يريد أن يرتشف من حياضه، وأن ينهل من مورده. وسنبلغ تحية أهل العراق إلى من بالأزهر جميعاً من المسلمين؛ سنبلغها الى العراقى والمصرى والسورى والأردنى والحجازى والهندى والصينى والعجمى والسومالى والسودانى والجاوى والسنغالى والمغربى، والى غيرهم ممن غاب عن الذاكرة وند عن الحافظة، كل أولئك يحلون به مكانا سهلا ومنزلا كريماً. أمد الله فى حياة من يمد فى حياة الأزهر، ووفق المسلمين للعمل بدينهم واتباع سنة نبيهم ؟

جود عبيد الله بن عباس

كان من مشهورى الأجواد، قيل: إنه أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، فقال: يا بن عباس إن لى عندك يداً، وقد احتجت إليها، فصعّد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه، ثم قال له: مايدك عندنا؟ قال: رأيتك واقفاً بزمزم وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت. قال: إنى لأذكر ذلك وأنه يتردد بين خاطرى وفكرى، ثم قال لقيمه: ماعندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها إليه، وما أراها تفى بحق يده عندنا. قال: فأعطاه ثلاثين ألفاً. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه. فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم شفعك به وبأبيك.

الدنيا والدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ بالأزهر

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه ، قلت : يا رسول الله وما بوائقه ؟ قال « غشمه وظلمه ، ولا يكسب مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركهُ خلف ظهره إلا كان زاده الى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

فى وضع هذا النور المحمدى الذى يشع من حديثه صلى الله عليه وسلم ، يجلى لنا الصادق المصدوق من جمال هذا الدين ، وسماحة تعاليمه ، وجلال توجيهه ، ألوانا صادقة من حسن الخلق ، وسلامة القلب ، وعفة اللسان ، وكف الأذى ، والتورع عن الكسب الحرام ؛ كما يجلى لنا صلى الله عليه وسلم من نواحى الافتتان بالدنيا تملك الغرور للنفس ، والشره فى جمع المال ، والعمل على إنمائه من الكسب الخبيث ، ومرض القلب بما يكمن فيه من أدواء الحقد والضغينة ، وبذاءة اللسان ، وما تجر اليه من أذى ، وتطاول ، وزور ، وبهتان . ثم يوجه النبى صلى الله عليه وسلم أمته الى ملاحقة السيئة بالحسنة ، لتُذهب من ظلمتها ، وتطهر من خبثها .

ولقد بين هذا الحديث الشريف أن الذى منحه الله نعمة الدين ، فقام فى نطاق حدوده وأحكامه ، يهذب نفسه ، ويحترم غيره ، ويرعى حرمات الناس ، فذلك هو الذى أحبه الله .

أما نعمة الدنيا من مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو قوة ، فإن الله تعالى يعطيها من يحب ومن لا يحب .

يعطيها من يحب ؛ ليزداد المحبوب بها شكراً لله ، واستجابة لأمره ، وامتثالا لنهيه ، فيبذل صاحب المال من ماله ، ويبذل صاحب الجاه من نفسه ، ويعدل صاحب المنصب فيما يقوم عليه ، ويروض صاحب القوة نفسه على لين الجانب وخفض الجناح .

ويعطى الله هذه النعم فى الدنيا لمن لا يحب ؛ استدراجا منه تعالى لهؤلاء الأئمة المستكبرين ، فيزداد جامع المال حرصاً وشرهاً ، ويطغى صاحب الجاه كبراً وصلفاً ، ويتعدى صاحب المنصب حواجز العدل والرحمة ظلماً وعدواناً ، ويبطش صاحب القوة بالضعفاء تجبراً وقسوة ؛ وكذلك كل من أوتى نعمة الله فلم يصنها ، ومُنحها فلم يشكرها ، أفسح الله له فى مجال نعمته ، حتى يكون أخذه أليما ، وعذابه شديداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الله يعطى العبد ما يحب ، وهو مقيم على معصيته فذلك منه استدراج » ثم تلا قوله تعالى « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون » .

والإبلاس : هو الحزن المفاجىء من شدة اليأس ، ثم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم بياناً مؤكداً بالقسم بالله الذى نفسه بيده : أن الإسلام ليس بالدعوى تُدعى ، ولا بالكلمة ينطق بها المسلم ؛ ولكنه سلامة القلب ، وسلامة اللسان .

فالقلب الفاجر ، والنفس المظلمة ، والجوارح التى تجترح الآثام والمنكرات ، لا تكون عنواناً على الإسلام .

واللسان المندلع بنار الشر ، فى الوقيعة ، والزور ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والأذى ، لا يكون لسان مسلم يخشى الله ويرعى حدود الله .

كما أن من يدعى الإيمان ولا يأمنه حتى أقرب الناس اليه وهو جاره ، بل يلحقه منه الظلم والطغيان ، والغشم والسفه ـ لا يكون مستجيباً لأمر الله ، ولا موسوما بعلامة المؤمنين .

والكسب الحرام يفرح به من يغتر بالعرض الزائل ، ويتخذه مغنما ، غير متورع عن رشوة مضللة ، أو غش يغبن به الناس ، أو يمين فاجرة يروج بها سلعة ، ولا والله لا يتذوق بهذا المال الحرام إلا مرارة وحرارة : مرارة من كراهية الناس ، وحرارة من عذاب الله ، ولن يجد فيه بركة الإنفاق ، ولا يتذوق منه حسن التقبل ، ولا يجمع به إلا وقود التهلكة فى سخط الله وسوء المنقلب !.

أما بعد .

فليس لهذا الدين الا البر والمرحمة ، وليس لسعادة الدنيا إلا أن نخضعها للحق ، يرضاه الله ، وتطمئن به النفس ، ويحبه الناس .

وليس لمتع الحياة فى غير هذا النطاق الذى شرعه الله جمال ، ولا حسن ، ولا بقاء ؛ ولكنه الفضل ، والجلال ، والجمال ، والعزة ، لمن استجاب لله ، واتقى وصدق بالحسنى ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

حلم معاوية

قال معاوية لأبى الجهم العدوى : أنا أكبر أم أنت ؟ فأجابه لقد أكلت فى عرس أمك يا أمير المؤمنين . قال معاوية : عند أى زواجها ؟ قال عند حفص بن المغيرة .

فقال معاوية : يا أبا الجهم إياك والسلطان ، فإنه يغضب غضب الصبى ، ويأخذ أخذ الأسد . وأبو الجهم هذا هو الذى قال فى معاوية :

نغضبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا
نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا

وقدم عقبة الأزدى على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات :

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعا يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية وقال : ما جرأك على ؟ قال نصحتك إذ غشوك وصدقتك إذ كذبوك . فقال له معاوية : ما أظنك إلا صادقا وقضى حاجته .

ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة

فى ظلمات من الجهل ، وحيرة فى العقول ، وفوضى لا مثيل لها فى الحياة ؛ ولد محمد صلوات الله عليه فى مكة ، كما يولد الهلال الذى تسير به دورة الأيام فيصبح بدرا منيرا .

ونشأ فى بيئة جاهلية ، لا تعرف لونا من ألوان المعرفة أو النظام أو الحضارة ، ولا تؤمن بمبادىء حق أو خير أو حرية أو مساواة أو إخاء .

وأنكر محمد فى طفولته وشبابه ما تعارف عليه قومه من عقائد وأوهام ، وتقاليد وعادات وأخلاق ونظم : لأنها جميعها تنكر الله ، وتنكر المعانى الفاضلة والمثل العليا فى الحياة ، وتسير بالجماعة إلى الفوضى والهمجية ، أو قل إلى الفناء والانهيار ، فلا تعرف دعوة حق ، ولا تؤمن بفضيلة إنسانية ، ولا تقدس إلا العصبية وحب الدماء وصدع الشمل ؛ ثم سافر الى الشام حيث رسالة المسيح لابد أن تكون قد عملت عملها فى تهذيب شعب المسيح ، فرأى ويا لهول ما رأى : رأى التوحيد ينقلب شركا ، والدين يستحيل عصبية حمقاء تسرف فى البطش والانتقام ، والرحمة التى دعا اليها المسيح تصير ضعفا وهوانا عند قوم ، وبغيا وعدوانا عند آخرين .

رثى محمد لهذه الإنسانية المعذبة ، وسار فى حياته على مثال رفيع فى الخلق والآداب وصلته بالمجتمع ، وأخذ يتطلع بصره فى حيرة الى هداية السماء لتنقذ البشر من حياتهم : حياة الهمجية ، والاستبداد والطغيان ، والظلم والفوضى .

وفى لحظة رهيبة خالدة فى تاريخ الإنسانية نزل عليه الوحى برسالة من السماء، ليبلغها الناس كافة، وليستقيم بها ما اعوج من أمور البشر وحياتهم وعقائدهم.

وبعد قليل كان محمد قد وأد الوثنية فى جزيرة العرب، ونشر مكانها التوحيد والحرية والحق والآخاء والمساواة، وبدأ يصبغهم بصبغة جديدة من ألوان الحضارة ومظاهرها، وأخذت تنمو هذه الصبغة حتى صارت مدنية زاهرة فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، وشتى عواصم العالم الإسلامى التى كان يشع منها نور الحضارة والمعرفة والرقى، وهكذا صدقت نبوءة المسيح «عندما يأخذنى الله من العالم، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله؛ فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى، حينئذ يرحم الله العالم، ويرسل رسوله الذى خلق كل شىء لأجله: الذى سيأتى من الجنوب، وسيبيد الأصنام وعبدة الاصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتى برحمة الله»[1] «ويعلم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله آبانا إبراهيم»[2]

ولقد كان ميلاد محمد صلوات الله عليه بحق ميلاد الحرية والآخاء والمساواة والحضارة، وشهد بذلك المفكرون فى الغرب:

قال «كاين تيلر»: الإسلام أفاد التمدن أكثر من النصرانية، ونشر علم الآخاء والمساواة».

وقال «بوسورث سميث»: كان محمد موفقا توفيقا فريدا فى بابه، لم يحدثنا التاريخ عن مثله؛ فجمع بين زعامات ثلاث: هى زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة، وبرغم أنه كان أميا؛ فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات، هو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم؛ كمعجزة هى دليل العقل والحكمة أكثر من أى معجزة غيرها».

وقال اللورد «هدلى»: «رسالة محمد رسالة إلهية صادقة لاريب، فيها هدى

---

(١) الفصل السادس والتسعون من انجيل القديس برنابا أحد الحواريين وهو أقرب الأناجيل إلى الصحة.

(٢) الفصل السابع والتسعون من المرجع نفسه.

للمتقين أوحى الله بها إليه ، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراة ، مكملة لكتاب المسيح . كان محمد داعياً إلى الرحمة والعدل ، والكرم والشجاعة ، والصبر على المكاره والصدق ، يعتقد أن الدين هو أقرب الأشياء إلى العقل وإلى الطبيعة ، وأن الإنسان ما هو إلا مظهر من مظاهر الله ؛ وكان محمد غيوراً متحمساً ، وكانت غيرته وتحمسه لغرض نبيل ومعنى سام » .

وسوى ذلك من شهادة « توماس كارليل » و « تولستوى » و « جوته » وسواهم من أفذاذ الفكر الأوروبى الحديث .

قامت على مبادىء محمد صلوات الله عليه دولة عظيمة لم تكن الشمس تغيب عنها ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة لا زالت محل إعجاب الباحثين والمفكرين ، وهى نواة الحضارة الأوروبية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل أقطار الأمم القديمة : من هنود ، وفارسيين ، وصيفيين ، وإغريقيين ، ورومانيين ، ومصريين إلى العالم الحديث ؛ ولولا مجهود المفكرين المسلمين : لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها .

قامت هذه الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ؛ وعلى الديمقراطية النبيلة التى بلغت على يد الفاروق عمر ، أسمى ما تبلغه الإنسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر والرأى والعقيدة ، حتى لقد تجاورت الأديان الثلاثة فى أملاك إمبراطورية المسلمين ، فلم نسمع إلا عدلا ورحمة ، وتعاوناً وحباً ، وتقديساً لحرية الدين والعقيدة .

والتسامح الدينى ، واحترام أهل الديانات السماوية الأخرى أمر ظاهر واضح فى حياة الرسول وخلفائه ، فلقد أمّن محمد صلوات الله عليه نصارى نجران على حرياتهم الدينية ، كما فعل الفاروق مع نصارى الشام ، إلى غير ذلك من الشواهد والمثل .

ومبادىء محمد ودعوته ورسالته إن هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد والكتاب الحى الباقى والقانون السماوى الأعظم ، القرآن الكريم .

وتقرأ فى القرآن فتجد حربا لاهوادة فيها على الشرك والوثنية ، وتحريراً للعقل الإنسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وإيمانا لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة ، وغرساً للفضائل الإنسانية ، والمثل العليا فى نفوس الناس

كافة ، ومحاربة للرذائل والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الإجتماعية فى كل شىء وكل ناحية .

وتجد فيه إيقاظا للضمائر ، وإحياء للنفوس ، وبعثاً للفكر البشرى من رقدته ، وتجد فيه ثورة على الطغيان والاستبداد ، وعلى التعصب للأفكار الخاطئة ، والمبادىء الضالة ، والعصبيات الجائرة .

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولا فضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة أو إنسان على إنسان ، إلا بالأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته ، والناس كلهم من أصل واحد وأب واحد « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ؛ وهكذا قبر الإسلام ورسوله الجمود والتعَصُّبَ القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك «الإنسانية والعالميّة » بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

ووضح القرآن صلة الإنسان بربه ، وشرع له العبادات والطاعات التى تقربه إلى الله ، كما وضع النظم المثلى التى تسير عليها الأسرة والمجتمع والامة والإنسانية لخير الحياة والحضارة والبشرية والناس كافة .

وهكذا غرس محمد صلوات الله عليه بيديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والزمالة الإنسانية والمساواة والآخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ ، وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ينعمون بعدلها وحكمتها ، ويُغَذُّون أنفسهم بمبادئها وأفكارها وثقافتها ، ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

وهل الحضارة إلا آثار الرقى الإنسانى ، ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحى الحياة ؟

وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والإنسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، وتنوء الحياة بدَيْن محمد الفادح عليها ، ويبهتُ الفكر حين يجد أن هذا الأمىّ العربى قد بَدَّل سَيْرَ التاريخ ،

وحوَّلَ مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لايدريان كيف يشكران فضل هذا الرسول العظيم .

إن ميلاد محمد ميلاد الحضارة ، وبحق ما أقول ؛ فلم تكن الحضارات القديمة : من صينية ، وهندية ، وفارسية ، وفرعونية ، وإغريقية ، ورومانيه إلا جسما خالياً من الروح ، وبدءَ نواة لحركة التقدم والرقى الإنسانى ، فالتقدم فى ناحية يقابله ضعف غريب فى نواح ، فالمرأة فى الحضارة الرومانية كالرقيق تباع وتشرى ، والحاكم فى شتى هذه الحضارات هو المالك للدولة ، ومرافقها ، ومواردها وللرعية نفسها ، حتى لقد قال ملك مصر : « أنا ربكم الأعلى » ؛ على أن هذه الحضارات مع ماقامت عليه من شتى المبادىء والأسس والنظم الخاطئة ، لم تستطع أن تحارب الجهل والفقر والهمجية والوثنية إلا فى بقع صغيرة محدودة ، أما أغلب أرجاء العالم فكانت تعيش فى ظلام دامس ، وضلال شامل ، وخوف مفزع ، وفقر مدقع ، ووحشية قاسية ، وفى ظل تقاليد وعادات ونظم شبيهة بشريعة الإنسان الأول ، الذى لم يعرف للحياة معنى ، ولا للثقافة والعدل والحرية قيمة .

أما الحضارة الإسلامية التى غرسها محمد ، فقد نظمت الحياة فى كل ناحية من نواحيها ، وهذبتها ، وسارت بالإنسانية إلى غاياتها النبيلة ، ومثلها الرفيعة ، وحررت الفكر الإنسانىّ من قيوده وأوهامه . وامتازت بروحانيتها المشرقة ، وإيمانها المطلق بمبادىء الخير ، واشتراكيتها العادلة التى جعلت الفقير أخا للغنى والغنى أخا للفقير ، والتى ساوت بين شتى الطبقات والجماعات والعناصر .

فأين هذا من حضارة الغرب التى حاربت الحق والعدل ، وجعلت بعض الشعوب قواما على الآخرين ، ونشرت أفكار الاستعمار والأثرة والأنانية ، وعددت ألوان الخصومات والخلافات بين الناس ، وأشقت الإنسانية بما افتنت فيه من ابتكار وسائل التدمير والإهلاك ، وبما سارت عليه من شنّ الحروب المروعة كل حين على نظام لم تر العين أفظع منه ؟ .

وأين هذا من حضارة الغرب بماديتها الظالمة وتفرقتها بين الألوان والأجناس ، وقتلها للشعوب المتأخرة أدبيا وماديا وروحيا ، لتبقى إلى الأبد مستعمرة ذليلة ؟

اللهم إن محمدا قد شرع للحياة والحضارة والإنسانية أعظم ما عرف من نظم ، وأسمى ما شوهد من تشريع ، ولكن الناس ضلوا سبيلك ، وكفروا بدينك ، وآثروا متعة اليوم على سعادة الأبد .

قوانين الفكر الضرورية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

الفكر هو أجل موهبة وهبنا الله إياها ، والذى به يمتاز الانسان عن غيره من من أنواع الحيوان ، وهو الذى تتشكل به حياة الانسان فى جميع نواحيها العلمية والعملية ، ولقدقال علماء النفس : إن التفكير فى الانسان طبيعى كالغريزة . ولكن ليس معنى هذا أنه متساو فى جميع الأفراد والجماعات ؛ فهو يختلف تبعا لاختلاف درجة التمدين والحضارة .

والفكر هو العمل العقلى الذى به نكتسب العلم . والغرض الأسمى من التفكير هو الوصول إلى الحقيقة بطريقة منطقية ، والمنطق كما هو معروف عبارة عن مجموعة قواعد ، مثل : قواعد الرياضة ، ولذلك أفرغ علماء المنطق تلك القواعد فى مجموعة أبسط منها ، وسموها بالقوانين الأساسية أو الضرورية للتفكير ، وهى عبارة عن ثلاثة قوانين سنتكلم عنها فيما يلى

١ — قانون الذاتية

ويمكن وصفه فى عبارة « ا هى ا » ، أى أنه أثناء إثبات أى برهان نستعمل كل لفظ فى معنى واحد لايتغير ، ومن هنا جاءت تسمية العرب له بقانون «الهوهوية» . ولكن لا توجد هناك أدنى صعوبة فى فهم قضايا مثل « ا هى ا » أو « ب هى ب » ومثل هذه القضايا لا يفيد حكما على الإطلاق ؛ لأنه إذا كان معنى « ا هى ا » عدم وجود اختلافات مطلقة بين جانبى هذا الحكم ، فهذا لايفيدنا بشىء ما ، ويجب ألا نقبله بحال ، فهو كما يقول العلامة هيجل - بحق - مخالف لشكل الحكم وذلك لأنه يعنى أنه يقول شيئا ، وهو فى الحقيقة لايقول شيئا ما . وفى الواقع أنه لايثبت الذاتية

لأن الذاتية إذا خلت من عناصر الاختلاف ، فلا يكون لها معنى على الاطلاق ، فلا يمكن أن نقول عن شيء أنه هو هو شيء آخر ، فلا بد إذن من وجود عناصر تغير فى نفس هذا الشيء ، أو أن نبحث فيه من ناحية اختلاف خاصة ، وبناء عليه استبدلت الصورة التى وضعها العلامة ليبنتز ، والتى أشرنا اليها قبلا وهى « ا هى ا » بصورة أخرى هى « ا هى ب » وهى التى يستعملها أغلب المناطقة ، فنقول مثلا « الذهب أصفر » ولا نعنى بهـذا أن كل الأشياء التى تحمل اللون الأصفر تسمى ذهبا ، ولا نعنى كذلك أن الذهب هو كل أصفر . والمراد بعبارة « ا هى ا » هى أن نفهم « ا » على أنها قضية أو حد له مفهوم ، ويحسن أن نفسر هذه العبارة باعتبار تطبيقها على حدود قضية ، فالإنسان إذا فكر فى شيء ما ، إما أن يكون هذا الشيء متمايزاً عن شيء آخر أو مشتركا معه فى بعض الصفات ، وفى حالة اشتراكه فى جميع الصفات لابد أن يختلف عنه فى صفتى الزمانية والمكانية ، فالذاتية الخالصة لاتوجد إذن بل توجدهناك أشياء متشابهة فى بعض الصفات أو جميعها ما عدا صفتى الزمانية والمكانية ، وهما اللتان يعوّل عليهما فى التفرقة بين الشيئين .

والذاتيـة فى الحكم تعنى أنه إذا كانت القضية صادقة ، ظلت على الدوام صادقة ، وإذا كانت كاذبة ظلت على الدوام كاذبة ؛ فقولى مثلا إن طربوشى لونه أحمر ، لا يمكن أن يأتى يوم يكون طربوشى فيه أبيضاً ، وذاتية الحكم هو المعتبر عند جمهور المناطقة الحديثين . ولقـد قال العلامة برادلى « إنه إذا صدق الحكم ظل على الدوام صادقا ، وإذا كذب ظل على الدوام كاذبا ، فإن الحقيقة مستقلة ليست عنى فحسب ؛ بل عن كل تغير وكل أمر عرضى ، وليس فى الإمكان أن يحدث أى تغير فى الزمان أو فى المكان تغيراً فى صدق أو كذب الحكم » .

فالحكم فى القضية يشير إلى حقيقة من الحقائق ، وهو إما أن يكون صادقا أو كاذبا ، ومحتويات هذا الحكم تكون ثابتة غير متغيرة ؛ لأنه يتضمن الحقيقة ، فيصبح بذلك تفكيرنا صحيح ، ويكون قانون الذاتية مبدأ أساسيا للمنطق الذى هو علم التفكير الصحيح . وإذا داخلنـا الشك فى صحة خطوة واحدة من خطوات التفكير ؛ فإن محتويات هـذا الحكم تتغير ، وعليه فإنه يمكن القول إنه لا يمكن التسليم بحكم وإنكاره فى وقت واحد ، أو إنه لا يمكننا إثبات حكم ونفيه فى آن

واحد ، وإذا قلنا كذلك نكون قد عبرنا عن قانون الذاتية بقانون التناقض ، هذان القانونان المتكاملان الذى يعبر أحدهما عن الناحية الإيجابية من القضية ، والثانى عن الناحية السلبية ، الأول ينص على أنه اذا كان الحكم صادقا ، كان صادقا واذا كان كاذبا كان كاذبا ، والثانى ينص على أنه لا يمكن أن يكون الحكم صادقا وكاذبا فى آن واحد ، فالمعنيان متكاملان إذا خطر ببال الانسان المعنى الأول ؛ خطر بباله المعنى الآخر أيضا .

ولقد قال العلامة « سيجوارت » : إنه من الأفضل أن نعرف هذا القانون بأنه القائل بوحدة الحكم فى القضية ، أى أن الحقيقة شىء واحد ثابت لا يتغير .

ويرى العالم « ميل » أن الحقيقة الواحدة يمكن أن يعبر عنها بعبارة مختلفة ، ويقول فى ذلك عبارته المشهورة « إن الحقيقة التى تبدو فى عبارة ما ، هى نفس الحقيقة التى تبدو فى عبارة غيرها تحمل نفس المعنى »

وميل بعبارته هذه يؤكد الناحية اللغوية من القضية ، فلا عبرة عنده بالألفاظ ، فالحقيقة الواحدة يمكن التعبير عنها بعبارات مختلفة فى لغات مختلفة .

٢ — قانون التناقض .

وهذا القانون يشرح العلاقة بين حكمين ، لا يصدقان معاً ، ولا يكذبان معاً ، أو على الأصح إن هذا القانون يقرر العلاقة بين حكمين لا يصدقان معا ، لأن الذى يقرر العلاقة بين حكمين لايكذبان معا هو قانون الامتناع . وقانون التناقض فى تقريره العلاقة بين حكمين لا يصدقان معا يكون دقيقا وقريبا جداً من طبيعة الفكر ، لأنه لايثبت شيئا إلا إذا صاحب هذا الإثبات إنكار شىء آخر . أى أن الشىء لايكون موجوداً ولا موجوداً فى آن واحد ، أو أن محمداً لايكون موجوداً ولا موجود فى وقت واحد ، فإذا كان موجوداً فى الحجرة مثلا ، لابد أن يكون غير موجوداً فى الشارع ، وقولنا فى « وقت واحد » تدل أكبر دليل على أن التناقض لا يكون تناقضا بالمعنى الصحيح إلا إذا اتحد الموضوع والزمن فى القضيتين . ويقول العلامة « هاملتون » إن قانون التناقض هو أساس النفى المنطق ، وذلك لأنه استعمله ، وأراد أن يظهر به أهمية النفى ، ويجعل هذا العلامة قانون التناقض ضروريا بجانب قانون الذاتيه ؛ لأنه يعصم الذهن من الوقوع فى الخطأ ، ويقول إن إنكار

قانون التناقض هو سبيل الوقوع فى الخطأ . ويقول العلامة « سيجوارت » إن قانون التناقض - ولو أنه يقول إن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا - يصدق فى القضية الواحدة ، مثال ذلك (لا يمكن أن تكون لا (فى القضية الواحدة إلا إذا نظرنا إليها من ناحية أنها تخالف (.

وقال العلامة ميل : إن هذا القانون مكتسب من التجربة لأنه يعتقد أن النفى والإثبات حالتان تتوالدان فى العقل من التجارب والمشاهدات ، فالإنسان مثلا يشاهد فى تجاربه الشىء ونقيضه أو ضده ، فهو يشاهد النور والظلمة أى لا يدرك النور إلا إذا أدرك الظلمة ، ولا يدرك الغنى إلا إذا أدرك الفقر ، أى أنه يدرك الأمور الإيجابية والسلبية ، وبهذا الادراك يكون فكرة عن المتناقضات وهى ما يسميها ميل بقانون التناقض .

إلا أن الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى يرى أن فى رأى العلامة ميل هذا شيئا من الضعف أو الخطأ ويوجه إليه اعتراضين .

الأول : إذا سلمنا مع ميل بأن أساس قانون التناقض قائم على طبيعة الحكم ، فبما أن غاية كل حكم هى الوصول إلى الحقيقة والصدق ، وتأييد صدق القضية يتطلب نفى نقيض لها ، يترتب على ذلك أن نكون قد خرجنا بالنفى والإثبات من عملية عقلية بسيطة دون وجود أى تعميم ألبته .

الثانى : وله ناحيتان ، أولا كون العقل - معتمدا على الخبر - لا يدرك الشىء إلا إذا أدرك نقيضه ، هذه مسألة من مسائل علم النفس . ثانيا : أن ميل قد خلط بين قوله إن العقل لا يستطيع ادراك النور إلا إذا أدرك الظلمة ، وبين قوله إنه لا يمكن أن تكون الحجرة مضيئة ومظلمة فى وقت واحد .

٣ — قانون الامتناع :

وهو الذى يقول : إن القضيتين المتناقضتين لا تكذبان معا ، ولما كان قانون التناقض يقول : إن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا ، فإنه يظهر من ذلك أن القانونين متكاملان .

وهذا القانون يمنع وجود حد وسط بين حدين متناقضين ؛ فمثلا أبيض ولا أبيض لا يوجد بينهما حد وسط ، فالقضية إما أن تكون صادقة أو كاذبة ولا يوجد حد وسط بينهما .

وينظر العلامة «سيجوارت» إلى قانون الامتناع ، كقانون يعتمد على قانون التناقض ، وقانون النفي الثنائي الذى يقول إن نفي النفي إثبات ، فانكارنا لنفي محمول ما عن موضوع ذلك المحمول يساوى إثبات هذا المحمول نفسه لهذا الموضوع نفسه والاستنتاج يتبع كالآتي :

ا التي تساوي ب هي حـ ، اَ التي تساوي ب هي حـ .

فقانون التناقض يقول : بكذب إحدى هاتين القضيتين ، لأننا نرى أنه فى حالة إثبات القضية الأولى إنكار للثانية ، وفى حالة إثبات الثانية إنكار للأولى . وحسب قانون الامتناع نرى أنه فى حالة إنكار القضية الأولى إثبات للثانية ، وفى حالة إنكار الثانية إثبات للأولى . وهذه الحالة الأخيرة تتبع قانون النفي المزدوج . وهنا يظهر مبدأ العلامة سيجوارت للنفي المزدوج بوضوح هذا المبدأ الذى يبدو أثره واضحا فى استنتاج قانون الامتناع .

ولكن بعد كل الذى ذكرنا ، نريد أن نتساءل ، هل من ضرورة لقانون الامتناع ؟ ادعى بعض المناطقة عدم ضرورة هذا القانون للأسباب الآتية :

١ — إنهم خلطوا بين النقيضين والضدين ، فقالوا : إن هناك حد وسط بين أكبر وأصغر ، وهذا مسلم به فى قانون الامتناع ولكن الذى لا يمكن أن نسلم به هو وجود حد وسط بين أكبر ولا أكبر ، فهم لم يدركوا العلاقة بين أكبر وأصغر ، هل هى علاقة تضاد أم هى علاقة تناقض . ولهذا السبب ينبه العلاقه «هاملتون» الى أن القضيتين المتناقضتين يجب أن تتقابلا فى الكم والكيف معا ، وليس فى الكم فقط حتى تتلافى الأخطاء والاختلاط الذى طالما يوقعنا فيه قانون الامتناع .

٢ — بلغ بهم أنهم توهموا وجود حد وسط بين النقيضين ، كأن نقول مثلا فى حالة طالب ، إنه راسب أو غير راسب قبل ظهور النتيجة وحكمها على الطالب

بالرسوب أو غير الرسوب ، ولكن ظهور النتيجة ليس له أى علاقة ، فراسب وغير راسب لا يوجد بينهما حد وسط .

٣ — قد يقع إبهام فى اللغة نفسها ، فيخيل أن لفظين من الألفاظ متناقضين فى حين أنهما غير متناقضين ؛ فمثلا أبيض ، ولا أبيض أحيانا نفهم أن لا أبيض معناها أسود ، فيوجد حد وسط بينهما ، أما أبيض ولا أبيض فلا يوجد بينهما حد وسط مطلقا .

يتبين إذن أنه يجب أن تفرق بين المتضادات والمتناقضات لمنع الوقوع فى الخطأ . بقى أن تقول : إن العلامة ميل يقول : إن قانون الامتناع لا يتحقق إلا فى حالة واحدة ، وهى الحالة التى يكون فيها الحمل معقولا ، فاذا لم يكن معقولا ؛ كقولى الفضيلة تتمدد بالحرارة مثلا فان قانون الامتناع لا يسرى .

وبعد فهذا عرض مختصر لقوانين الفكر الأساسية أو الضرورية ، يظهر منه أنها مترابطة تمام الترابط ، أى لا يمكن فصل أحدها عن الآخر بأى حال من الأحوال ، فقانون الذاتية ، وقانون التناقض متكاملان ، لا يفهم أحدهما بدون الآخر ، ويمكن النظر إليهما باعتبارهما حالتى الإثبات والنفى لقضية واحدة ، وقانون التناقض والامتناع ، يكمل أحدهما الآخر أيضاً أى أن هذه القوانين الثلاثة متكاملة .

وأخيراً يتبين من عرضنا أن هذه القوانين أساسية لدرجة أننا لا نستطيع أن نخطو أى خطوة فى التفكير بدون افتراض صحتها ، ولقد اعتبرها بعض المناطقة أساساً لكل استدلال منطقى ، وتظهر قيمتها فى الاستدلال الآتى ، وهو الحكم على الكلى بالحكم على الجزئى ، مثل قولنا : كل إنسان فان ، ومحمد إنسان إذن محمد فان . فالإنسان حد وسط نستطيع بالحكم عليه بالفناء الحكم على محمد بالفناء . وكلمة « الإنسان » يجب أن تكون هى هى فى كلتا الحالتين ، ولو كانت بالقضية الأولى غيرها فى الثانية لا يصح الاستدلال ، مثل قولنا : كل معدن عنصر بسيط ، والنحاس الأصفر معدن ، إذن النحاس الأصفر عنصر بسيط . فهذا خطأ لأن معدن فى المقدمة الأولى ليست معدن فى المقدمة الثانية ؟

محاضرات فى الأزهر الشريف

ألقاها داعى الدعاة مناظراً أبا العلاء المعرى منذ ألف عام

لحضرة الأستاذ محمد حسن الأعظمى
عميد كلية اللغة العربية
بكراتشى — الباكستان

إن المتتبع لتاريخ الفاطميين لتبهره من بين الشخصيات الكبرى تلك العبقرية الفذة ، التى تصور لنا المؤيد الشيرازى داعى دعاة الفاطميين . فنحن أمام رجل أقام أكثر حياته ، وأنفق زهرة شبابه بإيران ، فإذا بذلك الرجل نفسه يكتب بالعربية ؛ كأحسن ما جادت به قرائح أبنائها : من أدب راق ، وبيان ساحر ، وأسلوب ممتع .

لقد حلّق الشيرازى فى أفق سام من البلاغة ، ولم ينحدر عن ذلك الأفق ، ولم نر له كبوة تعثر فيها جواد قلمه ، بل رأيناه فى كل مواقفه ، قوى المراس شديد النضال ، ووجدناه فى كل مناظراته سليم الحجة يأخذ أفواه الطريق على خصومه فلا يترك لهم فجوة يتخلصون منها . وتجولنا معه فى سيرته التى كتبها ، فلمسنا فيه الجرأة والعزيمة والنفس القوية وأنه ليغشى مجالس الملوك والوزراء فلا تبدو منه رعشة التهيب ولا استسلام الرجل . ثم تغرب عن دياره فما راعته الغربة ولا أسلمته إلى سكينة وخشوع . وألقى محاضراته بالأزهر ودار الحكمة وسجلها فوصلت إلينا بعد أن خلصت من عبث العصور المتقلبة ، فإذا بنا نسمع فى لغة الشيرازى بيان أبرع الكتاب فى بغداد والأندلس . وقبل أن نقدم للقارىء نموذجا من محاضراته التى تبلغ ثمانمائة ، نحب ألا يفوتنا تقديمه شاعراً ، ولكن لا يسعنا اليوم الخوض فى شعره وقصائده ، فإن له ديوانا يأتى الكلام عنه فى فرصة أخرى ، ونحن نجتزىء ببضعة أبيات بعث بها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، لما عمل

بعض الحساد على احتجاب الخليفة عنه أثناء قدومه إلى مصر ، وإجابة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى بضعف عدد أبياته ، وإجابة المستنصر بخطه على هذه الصورة فتبين لنا ما كان يتمتع به الشيرازى من المنزلة العالية والقدر الرفيع . وإليك الأبيات وجوابها .

كتب المؤيد الشيرازى :

أقسم لو أنك توجتنى بتاج كسرى ملك المشرق
وأنلتنى [1] كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يامولاى أن نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة شيب فودىّ مع المفرق

فأجاب المستنصر بالله بخطه :

ياحجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملا لأفق بودنا وارجع إلى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه فصدّنا صدّ أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخراً فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى

أما محاضراته فإننا سنقـــدم منها المحاضرة الأولى بنصها ، وكذلك بعض المحاضرات الأخرى بعد حذف مقدمة الحمد والثناء ومنها نتبين كيف كان اعتداد الرجل بقيمة العقل ، كما نستدل على أن هذا المذهب لايعترف بوجود الاستعارات والمجازات فى القرآن . وقد أثيرت هذه المسألة فى عصور مختلفة تناولها أصحاب المطولات فى علوم البلاغة والبيان ؛ وليس مقصدنا من نشر هذه المحاضرات إلا تقديم أمثلة للأدب والعلم فى عصر من العصور التاريخية فى مصر ، ويحسن بنا قبل

---

(١) فى النسخة الخطية « وتلتنى »

ذلك التنويه ، بأن للشيرازى مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها : كتاب الابتداء والانتهاء ، وكتاب المسألة والجواب ، وكتاب نهج العبادة ، وشرح المعاد ، والمسائل السبعون ، ونهج الهداية للمهتدين ، وأساس التأويل بالفارسية ، والسبح السبع ، والإيضاح والتبصير فى فضل يوم القدير - وتأويل الأرواح ، والمجالس المستنصرية . وقد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة ، إنما كانت ملخصاً لدروس طويلة فيما يظهر ؛ فلعله كان يكتبها بعد إلقاء الدرس وتفهيمه على سبيل التسجيل والحفظ ؛ لنكت هامة ليتنفع القارىء ، كما استفاد السامع . ونرجو أن نوالى نشر أمثلة من محاضراته :

الحمد لله الذى نظم بين الانسان والبهائم أن خلقهم من طين ، ثم جعل نسلهما من ماء مهين ، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ، ما عرج به أعلا المعارج من الفضل والعلياء ، فصار ممن قال الله سبحانه فيه - ومن أصدق منه قيلا - « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، فاستنزل بتدبيره الطير من الهواء واستخلص الحدث من لج الماء واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعا ، فمنها ما انتفع بلحومها ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعا ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصورا فى سرادق فكره ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصورا فى سرادق ملكته وأسره ، فهذا منفوعه الذى نفعه الله به فى الدار الأولى ، ثم جعله سلما يرتقى به الى دائم البقاء فى الدار الآخرى ، فلولا نور استبصاره بالعقل ، لما كانت رسالة عن مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد خير رسول ؛ استنار بنور سراجه ، وسار على واضح منهاجه ، وعلى وصيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلا معراجه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله ممن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم ، إن قوما من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه

على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التي هي أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة على غير العقل موضوعها . وفى سوى موقعه وقوعها ، فلو أنهم أنعموا النظر ، وجردوا من شوب العصبية والهوى الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شىء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله ، إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه ، لاشتشاط من ذلك غضبا ، ولقام له مكذبا ، وفى مثل هذه المواجهة مستذنبا ، فكيف يرضون للأنبياء الذين هم سادات دينهم ، والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلهم بمثله مقابل لكرهوه . أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله كله مع أولى الألباب بقول الله تعالى : « فاتقوا الله يا أولى الألباب » وقوله « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية ، ليس لها برهان من العقل عند الرسول عليه السلام ، الآتى بها نفسه أو كون البرهان عنده ، فلم يشعر به ، فإن كان لا برهان لها عنده فهو فحش ؛ فلو أن سائلا سأله عن العلة التى اقتضت أن يجعل الصلاة خمسا ، ولا يجعلها ستا ، فكان يقول لا أدرى ، لكفاه طعنا أن يأتى بشىء لا يدرى العلة فيه إذا سئل عنها ، وان كان لها برهان عند نفسه عقلى ـ والبرهان مما يحمل الأقوال والأفعال ـ ثم لم يظهره فلم يقم إذن بحق البلاغ ، وهذا منتف عن الرسول عليه السلام ، لأنه بلغ وقال فى النادى : « اللهم اشهد انى بلغت » وسوى هذا فمعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكلف تكليف الشريعة إلا ذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه على غير عقل ، لأن ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل ، وما السبب فى تولية العقل أولا وعزله آخرا ؟ ولما لا تكون التولية آخرا ككونها أولا ، أو العزل أولا ككونه آخرا ؟ وهذا مما لا خفاء به على منصف .

والمعلوم أن الفلاسفة يدّعون العلوم العقلية والأمور الحقيقية ، وأن المسلمين يكفرونهم مع ذلك ، لانقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم أنهم غنوا عن الأنبياء فى معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة اليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحصين الدماء والأموال ، ومنع القوى عن الضعيف . واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التى منها

العقليات التي يدعونها فى علوم الأنبياء اجتمعت، ومنها تشعبت وتفرعت، وتصديقهم قول الله سبحانه «ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين»، وقوله جل جلاله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء». فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام، يسأله عن الملائكة، والعرش، والكرسى، والجنة، والنار، وأوضاع شريعته: من صلاتها، وزكاتها، وصومها، وحجها، وجهادها، من حيث يدل عليه البرهان العقلى، أكان يقول النبى صلى الله عليه وسلم، لا قبل لى ببرهان ذلك! حاشا لله. وقول آخر مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم إنه قال «أول ما خلق الله تعالى العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أجل منك، بك أثيب، وبك أعاقب». فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها فلا ثواب لها، ولا عقاب على مقتضى الخبر «بك أثيب وبك أعاقب».

معشر المؤمنين: دعوا أهل الفرقة والخلاف، فإنهم أشياع غى بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء». وتمسكوا فى دينكم بالأدلة، واعرفوا المواقيت بالأهلة، وأصلحوا أموالكم، وطهروا سربالكم، واحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم الى الحقائق أبصارا والناس عنها عمون، وكشف لكم حجبا فأنتم فى رياضها تتنعمون، واجروا فى مضمار التائبين العابدين، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين، وكونوا دعاة الى أئمتكم بحسن الأفعال صامتين، وقوموا أناء الليل قانتين. جعلكم الله من الذين اذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وأوزعكم شكر عارفيه، إذ ألف بين قلوبكم؛ فأصبحتم بنعمته اخوانا، والحمد لله القاهر سلطانه، الباهر برهانه، العظيم شأنه، الواسع احسانه، وصلى الله على محمد المنزل عليه فرقانه، المزلزل للشرك بنيانه، وعلى وصيه الذى هو مستودع علمه وترجمانه على بن أبى طالب بيده يد الحق، والناطق بلسانه لسانه، وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه وسلم تسليما، وحسبنا الله ونعم الوكيل».



لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

تذكرت هذه الآية ، وما توحى به من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم . مع جماعة المؤمنين بأنهم أشداء أقوياء على عدوهم ، لا يعرفون فى مغالبتهم هوادة ، ولا يتسرب الى قلوبهم من جراء ذلك رأفة ولا رحمة ، لأن ذلك هو الحق ، ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، وأنهم فيما بينهم لا يعرفون غير الرحمة بأكمل معناها وأجلى مظهر لها ، وهى ضالتهم المنشودة وغايتهم المرجوة ، وأنهم لا يعرفون فتورا فى طاعة الله ، وتنفيذ أوامر ربهم الكريم وخالقهم العظيم ؛ يتمثل لك ذلك فى ركوعهم وسجودهم لله وحده ، وأنهم لا يقصدون من وراء ذلك غير الفضل والرضوان والرحمة والغفران ، وأنك تعرفهم من غير عناء ولا تعب ، تعرفهم بما وضع الله فى وجوههم من نور حباهم الله به من أثر السجود الذى كان لله خالصا . وفيهم يقول الله تعالى « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » .

* * *

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم من أنفسهم رسولا ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

فهذه الآية الكريمة تصور لنا أنه مِنّة من الله كريمة ، وعطية منه عظيمة ، وأشعرتنا بأنه من المؤمنين ، وأن المؤمنين منه ، وأنه جاء لهدايتهم وإرشادهم

وإنقاذهم مما هم فيه من الشرك والوثنية ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، .

* * *

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، .

وهذه الآية تحدثنا بأنه مصدر الرأفة والرحمة لجماعة المؤمنين ، وأنه شديد الحرص على ما يهمهم ، وما يعنيهم وما يعود عليهم بالنفع العام ، ويعز عليه أن ينال أحداً من المؤمنين شيء من العنت وما يشق عليهم من العمل .

* * *

« يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا ، .

وإن هذه الآية تعطيك صورة عن مقدار قربه من الله العلى القدير ، وأن الله يناديه بلقب يدل على سموه وعلو منزلته ، ويبين له مهمته التى أرسل لأجلها من الدعوة إلى الله والبشارة السارة التى يحملها لجماعة المؤمنين ، وأن يتجه فى مهمته اتجاها حقاً ، ولا يسمع لأعدائها قولا ، ولا يحفل بما يكيدون له من الأذى ، وعليه أن يترك الأمر لمولاه الذى أحاطه بعنايته الربانية . والله نعم الوكيل .

* * *

« قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، .

وبهذه الآية تذكرت رسالته العامة ودعوته الشاملة ، وأنه أرسل إلى الناس كافة صلوات الله وسلامه عليه ، وأن الله اختصه بذلك عن جميع الرسل ، فإن الرسول كان يرسل إلى قومه خاصة ، وذلك فضل عظيم وامتياز خاص لم ينله أحد سواه . وحسبه قول الله له « وكان فضل الله عليك عظيما ، . وكان صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، فلا رسالة بعد رسالته ، ولا نبوة بعد نبوته ، ولا هداية بعد هدايته ؟

ذكرى ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

تعنى الأمم بتكريم عظمائها لأنهم أعلام هدايتها وبناة مجدها ومصدر عزها وهناءتها . وإذا نظرنا الى رسولنا الأعظم وجدناه فارس هذه الحلبة وسابقها المجلى . فقد وصل الى غاية تقصر عنها الهمم ، وتنقطع دونها العزائم . فهو فى الإصلاح أرسخ قدما ، وأرفع شأناً ؛ وفى الهداية أنبل قصداً ، وأجل أثراً . وليس هديه مقصوراً على طائفة محدودة أو أمة معدودة ، بل أهداه إلى العالم بأسره ، وصار للإنسانية رُباناً ماهراً ، وقائداً حازما ، وراعياً رحيما ، وملاذاً حصيناً . فلم يكن فضله عليه السلام خاصاً بمن كملت آدميته باتباعه ، بل شمل أيضاً من حرم شرف الانتساب اليه . لذا كان الواجب أن يكون الاحتفال بمولده عالمياً ، يقف الكل فيه من واهب الجميل موقف الحمد والوفاء ، ما داموا قد عجزوا عن المكافأة والجزاء .

هو النبى الذى لولا هــدايته   لكان أعلم من فى الأرض كالهمج

فليس المسلمون فى حاجة إلى أن يجهدوا أنفسهم فى الاستدلال على رسالة نبيهم ، بل عليهم أن يوجهوا الأذهان فقط الى ما تركه من الهدى القيم والأثر الخالد ، حيث خلص العالم من شر مستطير وضلال بعيد ، ونشر تعاليمه فى قوم متخاذلين متناحرين ، بأسهم بينهم شديد ، حجبت عنهم أنوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية فجعل منهم فى أقل من ربع قرن دولة متينة متماسكة البناء ، مرهوبة السلطان ، وصار رجالها قادة العالم وسادة الشعوب ، وتنافس ملوك الأرض فى التزلف

لحكامها ، ومنحها القرآن وسام الشرف والخلود حيث قال تنويهاً بشأنها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن هذا الانقلاب الفذ ، والتطور الاجتماعى الهائل لهو آية كبرى ، ومعجزة باهرة ، وما كان ليحدث فى عدة قرون لو اجتمع عليه فلاسفة العالم « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

تكفى نظرة عابرة للماضى القريب الذى سبق وجوده عليه السلام ؛ فقد كانت خريطة الدنيا مشوهة الصورة ، ممسوخة الخلق ، متباينة الوضع ، منطمسة المعالم ، وكان أهلها أجساماً دامية ، وأشلاء ممزقة ، وأشباحا بالية ، وأعجازاً خاوية ؛ قبض على ناصية الحكم بينهم دولتان غاشمتان : دولة الفرس ودولة الروم ، اغتصب ملوكهما سلطان العالم ، وقتلوا مشيئة الأمم ، وسلبوا إرادتها ، وسخروها فى أغراضهم الآثمة ، وشهواتهم الدافقة ، وفرضوا عليها من الضرائب ما أثقل كاهلها ، وجعلها ترسف فى أغلال الذل والاستعباد ، تئن فلا تجد سميعاً ، وتستصرخ فلا تلقى مغيثا ، وحجبوا عنها نور العلم مخافة أن يبصرها بحقوقها ، فتشتعل فيها نار الثورة على سادتها الذين لا يصفو عيشهم إلا بأن يتخبط أتباعهم فى ظلام دامس ، وجهالة عمياء ، وذلك شأن المستعمرين فى جميع الأزمنة .

وليت الوازع الدينى كان قائما حتى يحد من جبروت الطغاة ويرشد أولئك التعساء ، ولكن النصرانية فى ذلك العهد قد هان على الناس أمرها ، وتضاءل سلطانها ، وتحولت فى نفوس أصحابها إلى وثنية مرذولة هى أشبه ما تكون بالجاهلية الأولى ، فانتهكت الحرمات تحت ستارها ، وديست الأعراض بحجة الدفاع عنها ، وانحط البشر إلى هاوية صاروا فيها أخس من الأنعام ، فعبدوا غير خالقهم ، وقدسوا من الصور والرسوم ما تمجه الأذواق السليمة وتأباه الفطر الصافية .

برم الناس جميعا بقسوة الحياة ، وغلت مراجل الغيظ من فواجعها التى تخلع القلوب ، وتذيبها حسرة وكمدا ، فتاقوا إلى من يذهب عنهم رجسهم ، ويخلصهم من تلك الآصار التى قصمت ظهورهم ، وعطلت مواهبهم ، وجعلت عيشهم جحيما مستعرا ، وشقاء مقيما .

استجاب الله تضرعهم، ورحم ضعفهم، وأسبغ نعمته عليهم بميلاد نبيه فى تلك الآونة العصيبة، وتجلت قدرته فى خلقه، فبعث نوره الباهر من بلد أطفئت فيه مصابيح العلم، وغاضت ينابيع المعرفة، واصطفاه طيب العنصر نقى الجوهر، وزوده بالخلق الماجد والكمال الفائق، حتى يستطيع القيام بتلك المهمة الخطيرة التى ندبه الإله لها، وعلم أنه وحده الذى يحسن أداءها والوفاء بحقها، وإنما اختار الله نبيه من تلك البيئة التى هى أبعد البيئات عن المدنية والحضارة، ليكون ذلك معجزة كبرى، وآية عظمى على صدق رسالته.

ولما بلغ أشده اصطفاه من يعلم حيث يجعل رسالته لزعامة العالم كله، ونشر النور الإلهى بين أرجائه، وبعث الحياة الماجدة فى عروقه، ليسمو إلى الاتصال بخالقه، ويصلح لعمارة الكون واستثمار ما أودعه الله فيه من هبات وأسرار. صدع الرسول بأمر ربه ودعا القوم إلى الاعتصام بجلال الإيمان، ليتخلصوا من أرجاس الشرك وأدران الوثنية، ويترفعوا عن دنس الخضوع لغير الله، وينعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة، وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق والفطرة البشرية: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت»، وأحالهم إلى ما ركز فى نفوسهم وما تدركه حواسهم. أصغى إليه أهل الحزم والرأى، فبهرهم جلال حكمته ونفاذ عظته، فأسرعوا إلى الانضواء تحت لوائه، والتفانى فى سبيل نصرته؛ وأما أهل الأهواء فأخلدوا إلى الأرض وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، وسلطوا على النبى وأصحابه من صنوف الإيذاء ما تنفطر له القلوب وتخر الجبال هدا، وجدوا فى إيقاظ الفتن حوله وتأليب العرب عليه وتنفير الناس من دعوته ووضع العقبات فى سبيلها، وعاملوه مع أقاربه معاملة المنبوذين، وحاصروهم حصار اقتصاديا كما يفعل اليوم فى عصر هذه المدنية العاتية الطائشة.

أرجأ الرسول أمر هؤلاء الغافلين وانتقل بالدعوة إلى محيط أكثر اتساعا وأجل إنتاجا، فأينع ثمر الإسلام ونما حزبه، وانهارت جعجعة الباطل وارتفع صوت الحق، فأصبح يدوى فى الآفاق يوقظ راكد الشعور ويحيى ميت الهمم. فرح المؤمنون بنصر الله وعمرت محبته قلوبهم، فسخروا جوارحهم فى مرضاته وصار

هواهم تبعاً لما جاء به نبيهم، فتمنوا حياة كريمة يستمتعون فيها بعزة الإيمان، ويخضعون لسلطان الدين، فولى الرسول وجهه شطر المجتمع، وأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، وصد عنه الأيدى الأثيمة التى تعبث بجماله، وحطم معاول الهدم التى تقوض أركانه، ونصب فيه ميزان العدالة، وأعلنه قاعدة المساواة بين الأفراد، فثل عروش الطغاة الذين كانوا يستغلون الضعفاء اعتماداً على شرف زائف وجاه موهوم. وعنى بمقومات المدنية الصالحة؛ فبعث روح النهضة قويا جباراً قد اتسع أفقه، وتنوعت مظاهره، وانتظم جميع شئون الحياة، ولم يمض غير قليل، حتى أصبحت للمسلمين دولة فتية قاهرة، تخشع لهيبتها الجبابرة، وترهب سطوتها القياصرة والأكاسرة «ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز».

هذا هو رسولنا الأكرم، الذى كان أملا باسما للوجود كله، فملأه حكمة ورشدا وفضلا ونبلا، وهؤلاء صحابته الأمجاد الذين كانوا جنود الحق، فسعد العالم بعزمهم، وسجل لهم التاريخ أروع صفحات البطولة والإقدام. وهذا ماضينا الذى نباهى به الأمم فيغشاها جلاله، ويبهرها نوره فتقف منه موقف الإعجاب والإكبار.

وما أحوجنا إلى أن نذكر ذلك كله فى تلك الظروف العصيبة، فنعتصم بحبل الله، ونستمسك بهدى الرسول، وتجتمع قلوبنا فنسعى جاهدين فى إرجاع سالف عزنا وغابر مجدنا، ونكون جبهة قوية أمام أعداء العروبة والإسلام الذين يحاولون بين آن وآخر أن يوهنوا من عزمنا، ويفتوا فى عضدنا، ويفتحوا ثغرة بين صفوفنا لينفذوا منها حيث يشاءون.

والله المسئول أن يجمع الشمل، ويرأب الصدع، ويمدنا بروح من عنده، إنه نعم المولى ونعم النصير؟

الحسن لا يترك

خرج الحسن البصرى وسعيد بن جبير يشيعان جنازة، فسمع سعيد أصوات النوائح، فهم بالانصراف إنكاراً لهذا المنكر. فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسنا، أسرع ذلك فى دينك.



أدب الحديث

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل عجلان
المدرس بالأزهر

من حديث أبى هريرة فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . وأخرج الطبرانى عن أنس رضوان الله عليه أن النبى صلوات الله عليه قال « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه » . وأخرج ابن أبى الدنيا عن عمرو بن دينار أن رجلا تكلم عند رسول الله فأكثر الكلام فقال له « كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى ، فقال : أما كان فى ذلك ما يرد كلامك » ! .

ما جعل الدين على الناس من حرج فى الكلام الخير والحديث المجدى ، مادام فى موضعه وعلى سنن الأدب وطريق الاعتدال ، لايخالط بالهزر أو يفسد بالزور ، أو يجر الى ضرر ، أو يشيع الفساد ، أو يؤذى غائبا أو حاضرا . ولكن أناسا وسعوا لأنفسهم فى خلابة القول ، وأطلقوا ألسنتهم بمحرف الكلم ، وراحوا يزوقون ويشيعون المغرى من الأخبار طمعا فى أن يحمدوا بما لايحمد عند العقلاء ؛ فإذا لقيك أحد منهم أو نزل فى مجلس ، اندفع الحديث من فه وتهدر من أشداقه فى استخفاف يزرى وإطالة تمل وهذر يقضى على جمال اللقاء ويزهق روح الاجتماع بما يحتطب من قول وما يزين من أخبار ، حتى إذا قرأ فى وجهك استنكار الغرابة فى قوله ، أو استحالته أو بعده عن الواقع ، أقسم بالله جهد أيمانه ليستهوى التفاتك ويوقظ انتباهك ويقول ويطيل ، وقد يعجبك قوله ، فإذا تولى سعى فى حديث آخر وأخرجه على لون ثان فى طراوة

جذابة، ونفذ به إلى المسامع والمجالس بين الأفراد والجماعات، وهو لا يرتد عن الثرثرة، سواء فى الطريق أو المقهى أو الترام أو البيت أو العمل، مع من يعرف ومن لا يعرف، ينساق فى فضوله لا يفرق بين سامع وسامع ولا بين مكان ومكان، ومن الناس من يتفاصح ومنهم من يتعالم ويرضى حاجة نفسه من الثرثرة والتشادق والتغرير بالسامع، وليكن من أشد الناس مقتاً فى نظر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القائل فيه « أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » أى المتكلفون. ولقد حذرهم وحذرنا منهم فقال « إياى والتشادق ».

ومن ذا الذى لا يضيق بمن ينطلق فى كلامه يطمعه تكلف الإصغاء ولا يصده الانصراف، بل يغالب ولا يدع لك أن تفهمه أو تفهم عنه، لا يقبل إلا أن يقول فتسمع وإن كان حديثه هراء لا غناء فيه، فإذا حاولت أن تصرفه أو تسأل غيره ممن يجالسك اقتحم سور الأدب وأجاب غير متحرز عن الزلل ولا خائف سقطات اللسان يجادل بعلم وبغير علم، ويمارى فى الحق وبالباطل، ويحاول الظفر بمهوى الأنظار.

وبهذا وأمثاله كثر فى مجالسنا لغو القول، وسيطر المزاح الشاق واللهو المنحرف، وراجت الشائعات، وقل أن يخلو مجتمع من التهاتر والتنابز وتطيير البهتان، مما يعقب الضرر والخصومات، لأن الألسنة لا تخزن، ومعايير الكلام طائشة.

وخير الكلام ما قل وهدف الى غرض نافع، لحرص على الصدق، ورام أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، وكان مساجلة بين المتكلم والواعى، على أن يتباعدا عن هجر الكلام، وقبيح الألفاظ، وسفساف الأخبار، ومنحرف الآراء. والخير كل الخير فى أن يعقل المرء لسانه، إلا عن حق يوضحه، أو باطل يدحضه، أو حكمة ينشرها، أو نعمة يذكرها، وأن يحفظ القول إلا لداع يجعل الحديث فى موضعه وحين فرصته، وإلا كان الصمت ألزم، والسكوت أجدى وأنفع، وبذلك يكسب الإنسان صفو المحبة، ويأمن سوء المغبة، ويلبس ثوب الوقار، ويكفى مؤنة الاعتذار. وصدق رسول الله إذ قال: « يامعاذ: أنت سالم ما سكت، فإذا تكلمت فعليك أولك ».

وإلى المستمع جميل المأثور « لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له . . . » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس « يعجبني جمالك . قال : وما جمال الرجل يا رسول الله ؟ قال لسانك » .

* * *

فإلى الذين يحرفون الكلم عن موضعه ، وإلى الذين يقولون مالا يفعلون ، ويعدون ولا يفون ، ويمنون ولا ينجحون ، ويسرفون على أنفسهم والمستمع اليهم فى الأقوال بما يعلمون ومالا يعلمون ، ويمهرون فى ترويج الشائعات ، ويقطعون الليل والنهار فى القيل والقال ، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات فى أحاديثهم ، ويهمزون ويلمزون ، ويمشون بالغيبة والنميمة ، ويفترون على الناس زور القول - إلى هؤلاء نسوق قول المولى « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقوله : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » وقول الله « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » .

وعلى الذين يستمعون إلى من يغفلون عن أدب الحديث أن يصموا آذانهم ، حتى لا يقعوا فى الإثم بالاستماع إلى كل هماز مشاء بنميم .

ورحم الله من أخذ نفسه بأدب الدين ، وعقد لسانه إلا فى مواطن الخير ، حتى لا يتردى فى بلاء المنطق ، وصدق الله « إليه يصعد الكلم الطيب » .

منطق رسول الله

قال الجاحظ يصف منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف ، لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسّر بالتوفيق .

الإسلام في سيراليون (*)

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب والصحافة

من حديث ألقاه السيد « م . س . مصطفى » فى اجتماع كبير عقد احتفالا بمولد الرسول عليه السلام فى مساء اليوم الثامن من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ ، ونشرته مجلة « المفكر الجديد » لسان حال جمعية شباب الهلال : م : ٢ ، ع . ٤ مارس أبريل سنة ١٩٤٧ .

إن السر فى تقدم الجماعات إنما يكمن فى صلتها بتاريخها ، فالجماعة التى تجهل تاريخها ليس لها غرض تسعى إليه ، وروح الإحياء والنهضة فيها ضعيفة ؛ ولهذا سأسرد تاريخ الإسلام فى سيراليون ، وهو تاريخ يشمل فترة من الزمان تزيد عن مائة وخمسين عاما :

(*) سيراليون مستعمرة بريطانية بين غينيا الفرنسية وجمهورية ليبريا ، تقع على خط العرض الثامن شمال خط الاستواء فى غرب أفريقية ، سكانها حوالى ثلاثة ملايين نسمة معظمهم من المسلمين .

وإن تاريخ الاسلام بها لقصة خالدة لنضال مجيد ، يعيد الى الأذهان تاريخ الأديان كلها . وهذا التاريخ فوق ذلك كله صرخة مدوية لقوم لم يهنوا أو يضعفوا بل ثبتوا وقاوموا ، فانتصروا ، وولوا وجوههم قبل الأمم الاسلامية .

وإن مصر أم الثقافة ، وأزهرها حصن الدين وسياج الايمان ومعقل الاسلام والمسلمين ، التى يتربع على عرشها الفاروق العظيم ، لأولى البلاد بأن تمد يدها ، وأن تضىء بنور علمها ظلامات الجهل هناك .

كان العرب منذ أقدم العصور من أعظم تجار البحار ، وقد فتحوا الطريق إلى أفريقيا فى أواخر القرن السابع ، حينما غزوا شمالها ، ثم امتد نفوذهم مع تجارتهم ورسالتهم التبشيرية عبر الصحارى ، وعلى طول الساحل الغربى لأفريقيا ، وما حل القرن الثانى عشر حتى اعتنق الشعب « الفولانى » — الكبير العدد ، والقاطن على أعلى نهر النيجر — الدينَ الإسلامى ، وما لبثت البعثات الإسلامية أن حولت « الهوزا » سكان نيجريا الشمالية إلى الإسلام فى القرن الثالث عشر ، وأنشأوا هنالك مبادىء مدنية جديدة تقوم على الصناعة المعدنية ، كما أوجدوا نظاما سياسيا دقيقا . ولما كانت الغابات الاستوائية الكثيفة عقبة كأداء ، فقد ساد الإسلام على العموم فى شمال نيجريا ، وما لبث أن انتشر فيما بعد نحو الجنوب بين « اليوربيين » على أيدى تجار العرب والهوزا المتجولين .

وجاء الإسلام إلى الأرض المعروفة الآن باسم محمية سيراليون على أيدى التجار الفولانيين والماندجيين المتجولين القادمين من غينيا الفرنسية . وعلى الرغم من أننا لانعرف التواريخ التى تمكننا من تحديد الزمن الذى دخل الإسلام فيه سيراليون ، إلا أن المؤرخين غير المسلمين يعترفون بوجود عناصر إسلامية فى داخل البلاد قبل أن تبدأ جمعية التبشير الكنسية عملها فى المستعمرة عام ١٨٠٤ ، كما نجد أن أقدم مكان للعبادة هو مسجد بنتى ، ويقع على مسافة أربعة وعشرين ميلا شمالى بورت لوكو ، وهو مسجد بناه الفولانيون .

كان هؤلاء التجار الفولانيون والماندجيون يتعاملون فى الذهب ، ويتاجرون بنشاط فى الماشية وبعض أدوات الزينة من صنع أيديهم ، يحملونها إلى المستعمرة حيث يبيعونها . أما أهم مراكز المسلمين الأوائل فى محمية سيراليون فكانت فى كابالا وماكنى وكامبيا وبورت لوكو فى الشمال ، وبندمبو وكينيما ، وبوجهوم فى الجنوب . ويقص علينا تاريخ الجاليفيين القصير الذى يبدأ من عام ١٧٠٠ م . أخبارا عن « مورانا » و « مومو كاى كاى » و « الأمين جبوتو » ، وهم الذين بنوا مدن جورينج ، وسوليما ، وكورانكو على التوالى فى محمية سيراليون . ونلاحظ أن الاسمين الأول والثانى هما اللفظان المستعملان للاسمين الإسلاميين : « عمران » « محمد » . أما الاسم الثالث « الأمين » فقد ظل كما هو دون تغيير . ثم نجد أن أحد

الموقعين على المعاهدة رقم ١ بتاريخ ٢٢ أغسطس سنة ١٧٨٨ كان اسمه « دودر » من المستعمرة ، وهو اسم محرف عن الاسم الإسلامى « داود » . وإذا ما عرفنا أن النظامية المسيحية (١) قد دخلت المستعمرة عام ١٧٩٢ على أيدى بعض النازحين من نوفاسكوتشيا (٢) ، فإنه يتضح أشد الوضوح أن الإسلام قد جاء إلى سيراليون قبل أى دين آخر غيره .

فإذا رجعنا إلى تاريخ المستعمرة ثانية ، رأينا أن من بين الأسرى الذين أخذوا من سفن العبيد - التى اعتقلت فى عرض البحار منذ ١٨١٠ وما بعدها - رجالا ونساء مسلمين من قبيلة « يوروبا » كانوا يودون استيطان سيراليون . ووجد المستوطنون المسلمون الجدد أنه يصعب عليهم أن يعيشوا بين المارون والنوفاسكتشيين ؛ إذ إن هؤلاء كانوا يحتقرونهم .

واضطر المسلمون إلى الهجرة إلى حدود بلدة فرى تاون [المدينة الحرة] الغربية ، والتى يفصلها عنها نهر نيقولا ، وهكذا نشأت ضاحيتا « فورا باى » و « فولا » وصارتا من أهم مراكز المستوطنين المسلمين ، وبنى هؤلاء فيها مساجد مؤقتة ، ثم انضم إليهم معتنقون جدد للإسلام - من القرى المجاورة - وانتشر الإسلام وذاع بسرعة جعلت ممثلى الجمعية المسيحية الكنسية يتقدمون فى يونية سنة ١٨٣٩ إلى الحكومة شاكين سرعة انتشار الإسلام بين سكان المستعمرة الأفريقيين المحررين ، فرفع حاكم المستعمرة « دورتى » الأمر إلى وزير المستعمرات وكتب إليه يقول :

« إن المتحولين [يريد المسلمين] قد ثبتوا أقدامهم فى ضواحى فرى تاون الشمالية الشرقية وعلى الأخص فى مكانين هما « فورا باى » و « فولا » وأقاموا فيهما مسجدين كبيرين مرموقين . . . »

---

(١) Methodism فرقة مسيحية أنشأها جون وزلى (١٧٢٩ فى أكسفورد) تمتاز بصرامة النظام فيها والمراعاة الدقيقة للقواعد الأخلاقية .

(٢) اسكتلندا الجديدة : مقاطعة فى كندا .

ولما كنا ننادى - الآن وفى هذا القرن العشرين - بالتعاون والتفاهم بيننا وبين أصدقائنا المسيحيين ، فى سبيل تقدمنا ومنفعتنا المشتركة ، فلست أرى من الملائم أن أذكر بقية كتاب الحاكم « دورتى » إلى وزير المستعمرات ، ويكفى أن أقول إن ما أوصى به « دورتى » الوزيرَ من إخراج المسلمين جميعاً من المستعمرة إلى مكان سحيق ، قد ووفق عليه . وجمع الحاكم « دورتى » هؤلاء المؤمنين فى قلعة ثورنتون ثم أنبأهم بمشروعه ، فرحبوا بما قال ، معلنين أنهم يفضلون النفى على أن يرتدوا عن دينهم ! . ومنحهم الحاكم مهلة قدرها ثلاثة أشهر يزيلون فيها ممتلكاتهم وينقلونها . ولكن : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ، فقد نقل دورتى قبل أن تنتهى المهلة . وجاء غيره ، فنظر للمسألة كلها نظرة جديدة ، وسحبت وزارة المستعمرات اقتراح دورتى ، فكان فى ذلك خزى منظمى هذا المشروع وإخفاق تدبيرهم .

وقبيل هذا الحادث حُرق مسجد فى « فوراباى » ، وهدم آخر فى « فولا » ، وسجن الآباء المسلمون لدعوتهم المؤمنين إلى الصلاة ، فهاجر بعض السكان حوالى عام ١٨٤٣ الى أبردين .

وعلى الرغم من هذا الاضطهاد كله ، فقد سار الإسلام حثيثا نحو التقدم والانتشار فى المستعمرة ، واستطاع أتباعه أن يبنوا مساجد ومدارس دائمة ، هى تلك التى ينعمون بها الآن . وهكذا نرى أنه بينما كان المستوطنون اليوربيون المسلمون يبذلون جهدهم فى سبيل كسب مسلمين جدد ، كان الفولانيون والمانديجيون يهدون المحمية إلى الدين الحق .

ورأى الآباء المسلمون — حوالى عام ١٨٤١ ، فى فوراباى وفولا — أن يرسلوا أبناءهم إلى دنجراية فى فوتا ليحصلوا على ثقافة أعلى فى اللغة العربية والشريعة والأصول الإسلامية .

وإن هذا النجاح العجيب ، الذى حققه هؤلاء المسلمون الأوائل إنما يرجع — كلية — إلى التضحيات العظيمة التى بذلوها ، فقد ضحوا بالراحة والثروة والجاه ليقوم الإسلام على أساس متين فى هذه البلاد .

لقد جاء الإسلام حقا إلى سيراليون قبل أن تجىء المسيحية ، ولكن المسلمين لم يصلوا إلى ما تهدف إليه المثل الإسلامية علمياً أو اجتماعيا أو سياسيا ، وعلينا نحن أن نقوم بنصيبنا الكامل فى النضال فى سبيل نشر التعليم الإسلامى الملائم لنا .

إننا فى حاجة ملحة شديدة إلى تعلم اللغة العربية والثقافة الإسلامية ؛ إذ لن نكون دونهما مسلمين صادقين ، ويجب على كل مسلم أن يبذل ما يستطيع — أدبيا وماديا — فى سبيل رفعة الإسلام فى سيراليون حتى نجعل ، تاريخ الإسلام فى سيراليون ، إرثا كبيراً للأجيال القادمة .

فضل الأدب

قال شبيب بن شبة : اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل ، ودليل على المروءة ، وصاحب فى الغربة ، ومؤنس فى الوحشة ، وصلة فى المجالس .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب ؛ فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

وقال بعض الحكماء : اعلم أن جاها بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال ، وجاها بالأدب غير زائل عنك .



في قصر الرشيد

لحضرة الأستاذ حسن خطاب الوكيل

بيّنا فيما مضى كيف كانت سيرة الرشيد فى ندمائه، وكيف أنها انتهت بالصلح بين أخيه إبراهيم المهدى وبين إسحاق الموصلى. فإنه لما قام إسحاق وقبل رأس إبراهيم المهدى ترضية له فيما فرط منه، التفت الرشيد إلى إسحاق وطلب منه الغناء تيمنا بالصفاء، فقال يا إسحاق غننا :

قل لمن صد عاتبا ... ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعبا

* * *

هل إلى نظرة إليك سبيل ... يروى منها الصدى ويشفى العليل
إن ما قل منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب قليل

* * *

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فذلك شىء ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى ... بخيلا له حتى الممات خليل
وإنى رأيت البخل يذرى بأهله ... فأكرمت نفسى أن يقال بخيل
فعالى فعال المكثرين تجملا ... ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل

* * *

فلما سمع الرشيد ما نوه له إسحاق فيما غناه ابتسم وقال : لاتخف إن شاء الله، لله در أبيات تأتينا بها : ما أشد أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها. ثم نادى ياغلام أعطه خمسين ألف درهم. فسر إسحاق بمدح الرشيد لغنائه وحسن عطائه

فقال — وصفك يا أمير المؤمنين لشعرى أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة . فضحك الرشيد ضحكا عاليا ثم قال اجعلوها لهذا مائة ألف درهم . فانطلق إسحاق فى الغناء فغنى بيتا من الشعر سبق أن غناه أبوه إبراهيم الموصلى وطرب منه الرشيد وأجازه عليه :

سلى هل قلانى من عشير صحبته   وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيق

فطرب منه الرشيد واستعاده ثم قال : يا إسحاق كأنى فى نفسك وقد ذكرت حديث أبيك ، وإنى أعطيته ألف دينار على هذا الصوت فطمعت أنت فى الجائزة .

فأجابه إسحاق : والله ياسيدى ما أخطأت مافى نفسى . فأجابه الرشيد : قد أخذ أبوك ثمنه مرة فلا تطمع . فقال إسحاق : ياسيدى أخذ أبى منك أكثر من مائة ألف دينار ، ما رأيتك ذكرت منها غير هذا لضعف حظى . فاستغرب الرشيد ما سمع من إسحاق ، فقال : ويحك أكثر من مائة ألف دينار ! فقال إسحاق : إى والله . فصمت الرشيد لحظة ثم قال : أستغفر الله من ذلك ، فما خلف منها ؟ فقال إسحاق خلف على خمسة آلاف دينار دينا عليه قضيتها عنه . فقال الرشيد : ما أدرى أينا أشد تفريطاً وتضييعاً ، والله المستعان .

وبينا الرشيد فى مجلسه هذا إذا بالبريد يحمل اليه خطابا من سجين له شأن فى الدولة وقد طال سجنه ، فإذا فى الخطاب - إلى أمير المؤمنين من محمد بن الليث : ياأمير المؤمنين إن يحيى بن خالد وابنه لا يغنيان عنك من الله شيئا ، وقد جعلتهما يا أمير المؤمنين فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا أوقفت بين يديه وسألك عما عملت فى عباده وبلاده ، فقلت يارب إنى استكفيت يحيى أمور عبادك ؟ أتراك تحتج بحجة يرضى بها الله ؟ .

فأرسل الرشيد فى طلب يحيى بن خالد ، فلما حضر سأله الرشيد : أتعرف محمد ابن الليث ؟ فأجاب يحيى : نعم أعرفه . فقال له الرشيد : أى الرجال هو ؟ فأحس يحيى بأن تحقيقا يجرى ؛ فقال : هو متهم على الإسلام . فقال له الرشيد : شددوا عليه فى السجن . ولم يلبث الرشيد أن طلب محمد بن الليث ، فلما مثل بين يديه قال له : أتحبنى يا محمد ؟ فقال له : لا والله يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : وتقول لى هذا ؟ فأجابه ابن الليث : نعم وضعت فى رجلى الأكبال ، وحلت بينى وبين

العيال ، بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله ، ويحب الإلحـــاد وأهله ، فكيف أحبك ؟ فلما رأى الرشيد صدقه وصراحته قال : حلوا عنـه الأغلال ، فأطلقوا سراحه ، ثم سأله مرة أخرى : أتحبني يا محمـد الآن ؟ فأجابه ابن الليث : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولـكن قد ذهب ما فى قلبي . فرقّ له الرشيد ، ومنحه مائة ألف درهم ، فلما أحضرت عاد إلى سؤاله : أتحبني يا محمد ؟ فأجابه : أما الآن فنعم ، قد أنعمت عليّ وأحسنت إليّ . فطابت نفس الرشيد وقال : انتقم الله لك ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك .

وبينما الحال على هذا ، إذ دخل أحد الحراس يطلب إذنا بدخول العباس ابن محمد ، فأذن له . فلما سلم بالخلافة إذا وراءه خادم له يحمل غالية (إناء من فضة به عنبر ومسك) هدية للخليفة . ثم تقـدم بالـكلام فقال : يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ، جئتك بغالية ليس لأحد مثلها ؛ أما عنبرها فمن عنبر بحر عدن ؛ وأما بانُها فمن عند العطار المدني المعروف بجودة عمله ؛ وأما مركبها فإنسان بالبصرة عالم بتأليفها ، حاذق بتركيبها : زد على ذلك المسـك والزعفران . فإن رأى أمير المؤمنين أن يمن عليّ بقبولها فعل .

هنالك التفت الرشيد إلى خاقان خادمه وقال : يا خاقان ! اكشف لنا عن هذه الغالية . فإذا هي برنية من فضة وبها ملعقة قد غرست فى المسك والعنبر وما الى ذلك من أجزاء الطيب .

ولـما كان ابن أبي مريم مضحك الخليفة لا يفارق قصر الرشيد ، وكان حاضر الهدية ومهديها ، وقد ساءه ما سمع من المدح والإطناب فى وصفها ، قال للرشيد : هبها لى يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : هي لك ، فغاظ ذلك العباس بن محمد ، وحقد على ابن أبي مريم ، وقال له ! ويلك عمدت إلى شيء ثمين منعته نفسي ، وآثرت به سيدي فتأخذه أنت ! فأجابه ابن أبي مريم سترى أن لا يدهن بها إلا أنا ، وجعل يأخذ ما تصل اليه يده ، ويدلك بها أطرافه ووجهه . فلما رأى الرشيد فعله ضحك ضحكا عاليا ، وكذا الحراس ، وكان كل من لا يملك ضبط نفسه يولى هاربا ، ثم التفت ابن أبي مريم الى العباس بن محمد وقال له : أنت شيخ أحمق ، تجيء الى أمير المؤمنين وتمدح عنده غالية ؟ فما كان من العباس بن محمد إلا أن استأذن وخرج .

بسم الله الرحمن الرحيم

ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الأزهر في مناسبة المولد النبوى الشريف

منذ أربعة عشر قرنا واثنين وعشرين عاما تقريبا ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، والعالم إذ ذاك فى حيرة شاملة ، مما يعانيه من اضطراب شمل جميع نواحيه ، وفوضى غيرت ناموسه ، وغدت تسيطر على كل شىء فيه ، فالأمور تقاس بمقياس المنافع الذاتية ، والفضائل لم يبق منها إلا اسمها ؛ الضعيف يخضع لنداء القوى ، ويلبى ما يأمر به ، لا عدل هناك يوقف الجائرين عند حد ، ويقتص للضعيف من القوى ، ولا إنصاف يضع حدا للمظالم والطغيان .

وهكذا كان العالم يموج فى بحر لجى ، ظلمات بعضها فوق بعض ، ينشد حياة جديدة ، ولكنه لا يدرى كيف تتم ، ويشعر بالظلم والجور ، ولكنه لا يدرى ما الفكاك منهما ، ويرجو الأمن والسلام ، ولكنه لا يدرى كيف يحققهما ؛ ويتشوف إلى منقذ قوى ، يضع عنه هذه الأغلال والآصار التى عليه ، ولكنه لا يعرف كيف السبيل إلى ذلك ، ويتوق إلى مصلح يقيل الإنسانية ، مما تعانيه من امتهان ، ولكنه لا يهتدى إليه . . .

وبين هذه الآلام التى تجثم على صدر العالم ، ويضيق بها ذرعا ، والآمال التى يرجو أن تتحقق بين عشية وضحاها ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يدرى أحد من العالم أن هذا المولود سيحقق الله على يديه للبشر السعادة والمتعة ،

والعز والسؤدد ، وأن الله سيصطفيه لرسالة تضيء للعالم طريقه ، وتهديه إلى أقوم السبل ، وأنه سيدعو إلى دين جديد ، يسعد البشرية ، ويسوى بين القوى والضعيف ، ويخلص الناس من جبروت الطغاة ، لا يدعو إلا إلى الفضائل ، ويقضى على عوامل الفساد التى استشرت .

نعم لم يكن يدرى أحد من العالم ، أن هذا المولود هو الذى سيكون على يديه فكاك أسرهم ، وصلاحهم .

وظل العالم كما هو ؛ يبغى الإصلاح ، ويتشوف إلى الخلاص ، ومحمد يشب ويترعرع ، فنشأ على مثال خاص ، لم ينعم بما نعموا به ، من والد يحنو عليه ويرعاه ، فقد مات أبوه عبد الله وهو لما يزل فى بطن أمه ، ولم يلبث أن فقد أمه وهو فى السادسة من عمره ، وكفله بعد وفاة أمه جده عبد المطلب ، ثم بعد جده عمه أبو طالب ، وعمره إذ ذاك ثمانى سنوات .

وقد شاء الله ، أن يحرم محمد صلى الله عليه وسلم ، من حنان أبويه ، حتى يحنو على المحرومين قاطبة ، يحنو على المحرومين من الآباء والأمهات ، ويحنو على الذين أبى عليهم مجتمعهم إلا أن يظلوا محرومين .

وهكذا كان الحنو ظاهرا فى كل تصرفاته ، صلى الله عليه وسلم ، فى نشأته وفى شبابه ، وقبل بعثته ؛ وبعدها أصبح صفة ملازمة من صفاته ، صلى الله عليه وسلم ؛ قال تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

ومضى محمد إلى ميدان الرجولة ، ونفسه لم تدن به يوما ، أو تصرفه عن غير الجد والعبادة ، والتفكير فى الكون ، والعزوف عما وجد عليه قومه ، من عبادة للأوثان ، وتقديس لها ، وكان ينصرف عنهم إلى غار حراء متعبدا حتى جاءه الوحى .

بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى الأربعين من عمره ، وظل ثلاث عشرة سنة بمكة بعد بعثته ، يدعوها إلى الدين الجديد ، ووجد فيها من صنوف

الإيذاء والاضطهاد ، ما لا يقوى على احتماله بشر ، ولكنه لم يهن ولم يضعف ، ولم ينصرف عن الدعوة ، برغم ما صنعته قريش ، وما ابتكرته من ضروب الإيذاء ، وصنوف الاضطهاد ، ولم ينج الرسول صلى الله عليه وسلم من شرهم إلا بهجرته إلى المدينة .

وهناك أذن الله للدعوة أن تنتشر فى الآفاق ، وأن يدخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد ثمانية أعوام من الهجرة - قاهراً الشرك والجبروت ، متسامحا مع الذين تآمروا على قتله بالامس .

يضيق بى المقام لو حاولت فى هذه العجالة ، أن أتناول حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما نال العالم على يديه من إصلاح فى مختلف نواحى الحياة ، ما كان يقدر له أن يتمتع بها ، لولا بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وحسبى فى هذا المقام أن أقول : إن الإنسانية مدينة لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من نظم وتعاليم ، وما وضعه من أسس فى التشريع ، تقصر عنها عقول البشر ، وما حققه لها من معان سامية ، ساوت بين الناس ، ولم تجعل لعربى فضلا على عجمى إلا بالتقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

بهذه المبادىء والتشريعات الإلهية ، كفل محمد صلى الله عليه وسلم لبنى الإنسان السعادة والعزة والمنعة ، وهيأ لهم حياة كريمة ، ينعمون بها فى الدنيا ، ويؤجرون عليها فى الآخرة .

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليكون دينا عاما للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكنا بتواصل أممها ، وتعارف جماعاتها ، وتبادل تجاراتها وثقافاتها ، وقد اطرد هذا التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بوادر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال ، وصارت وحدة الدين أمرا لابد منه ، بل أضحت فى حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد فى الشؤون الإنسانية . وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق فى مطالبها ووسائلها وغاياتها ، فإن تخالفت فى بعضها فإنما هو تخالف عرضى سببه تخالفها فى درجات ثقافاتها ، وتباينها فى أساليب تفكيرها . ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات ، تأثيرا خطيرا فى المباعدة بين الشعوب ، ولكن الكوارث الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم ، للعيش فى بلاد البعض الآخر ، تحت ضغط العوامل الاقتصادية ، كل ذلك أثر فى عقلية الجماعات البشرية ، وأضعف من شدة الروابط الجنسية ، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب ، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب .

فالوحدة العالمية فى طريق التكون ، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية ، أو منازعات استعمارية ؛ بل تكلم كبار المتصرفين فى شؤون الأمم ، فى توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات ، مما يكثر فى بعض المستعمرات دون البعض الآخر ، على الأمم التى تحتاج إليها ، قطعا لذرائع الخلافات الدولية التى تجر الى الحروب الوحشية .

بل حدث ما هو أبلغ من ذلك فى موضوع الوحدة العالمية ، وهو نشوء رأى جديد لم يكن له أثر فى العالم الإنسانى ، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل ، فتنظر فى مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة

الواحدة فى مصلحة أمتها . وقد نادت بهذا المبدأ منذ سنتين جماعة فى أمريكا ، وصرح رجالات من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجمَّاعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الانسانى طبيعى محض ، ولا يحول دون تحققه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الأجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل فى مصائر الأحوال ، ير أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجيا بانتشار اللغات ، وبترجمة المؤلفات ، وبتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تقوى يوما بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطيارات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التى كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوما بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها فى ساعات معدودة . وقد تتحسن هذه الأداة الى حد بعيد حتى تصبح المساوف الشاسعة التى تفصل بلاد العالم كأنها قرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها فى اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا الى أى مآل تؤول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والأشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التى لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، الى ما يضع حدا لمتابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحميهم غوائل أنفسهم ؟

إذا صح كل هذا فلا محيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تتسرب اليهم . وتجىء وحدة التربية والتعليم فتكتسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام

العتيقة ، فتهيأ الفطر لقبول دين عام يكون من السمو فى العقائد ، والتنزه عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة فى أرفع معانيها ، فتتجه الأفكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولا ، وقد صارح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع مايرجو الناس أن يجدوه فى الدين العام من الأصول والوسائل ، لما ساورك شك فى أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت فى بيان الأسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو فى التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم فى تجريد الناس من العقائد ، وفى اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج فى تقديرها للوجود وقواه وعوالمه . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب فى أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، اتضح للعلم فى هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين فى جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهراً للوساوس ، ولكن تعبيراً عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أى حينما تحقق بعد بذل جهود مضنية فى البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى فى هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثقافة وعلم ، لتتابع رقيها فى عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء فى كل أمة متمدنة عشرات من السنين فى تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التنويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالأرواح التى تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين فى تمحيص هذه البحوث الأسلوب العلمى على أكمل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التى توسلوا بها ، فى مؤلفات قيمة لاسبيل إلى تجريحها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة فى أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم فى كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يجمل بنا أن نسرد للقارىء ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادىء الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكا أن الإسلام هو الدين الذى لا محيص عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرقى العقلى ، والتقدم العلمى ، وأنه سيصبح فى آخر الزمان دين العالم كافة ، فإليك بإيجاز :

(١) الإسلام لا يضع لرقى الإنسان العقلى والمادى حدا .

(٢) ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضا لا يصح أن يلتفت اليه .

(٣) ويحضه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيرا من العبادة .

(٤) ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركا .

(٥) ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .

(٦) ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .

فالإسلام بهذه المبادىء الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الحيلولة بين المفكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظم بما هو أفضل منها ، أو على تهيئة أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا محيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . وهو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحا أمام أهله لبلوغ المُثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانقسامات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً .

محمد فريد وجدى

السنة التشريعية :



الشعر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

أخرج البخارى ، وأبو داود ، وابن ماجه . أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن من الشعر حكمة » .

* * *

يُفهم من هذا الحديث : أن بعض الشعر حكمة ، وبعضه ليس كذلك ، كما تشير إلى هذا قضيّة من التبعيضية المذكورة فى الكلام ، فإذا كان فى الشعر مدح الله ورسوله ، وذكر الله وتعظيمه ، ووحدانيته وإيثار طاعته ، والاستسلام له والحث على الخير ، وفعل البر والمعروف ، والزهد والمواعظ ، والدعوة إلى المحامد والمكارم ، ونحو ذلك ، فهو حكمة وهو حسن يرغب فيه ؛ وإذا كان فيه كذب وإفك ، وتلبيس وتضليل ، وغش وتمويه ، وهجر وفحش ونحوها ، فهو قبيح ومذموم يرغب عنه ، ويحذر منه ، قالت عائشة : الشعر منه حسن ، ومنه قبيح ، فخذ الحسن ودع القبيح . وعن ابن عمر : الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

والشعر فى الأصل : اسم للعلم الدقيق ، ومنه ليت شعرى ، ثم صار يستعمل فى العرف اسما للكلام الموزون المقفى قصدا ، وما وقع منه موزونا اتفاقا ومصادفة لا يسمى شعرا . والشاعر : هو المختص بصناعة الشعر ، وسمّى شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، وقيل : أصل الشِّعر : الشَّعَر — بفتحتين — يقال : شعَرت : أصبت الشَّعر ، وشَعَرت بكذا : علمت علما دقيقا كإصابة الشَّعَر ،

وقد يعبّر بالشعر عن الكذب، وبالشاعر عن الكاذب، ومن ثم سمّوا الأدلة الكاذبة شعرا، وقالوا فى الشعر: أعذبه أكذبه، وقال بعض المغالين: لم يُر متديّن صادق اللهجة مفلقا فى شعره. ولما قال بعض الكفار عن النبى صلى الله عليه وسلم: إنه شاعر، قيل: إنما أرادوا بذلك أنه كاذب، لأن أكثر ما يأتى به الشاعر كذب. وقال الله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون».

والأكثر على أن الرجز نوع من الشعر، وقيل: لا يسمى شعرا، لأنه يقال: راجز، ولا يقال: شاعر، ولما كان الحداء فى الغالب إنما يكون بالرجز، وفى القليل بغيره من الشعر، ألحقوه به.

والحكمة: هى القول الصادق المطابق للحق، وقيل: أصل الحكمة المنع، فمعنى الحديث: إن من الشعر كلاما نافعا، يمنع من السفه.

ويتلخص ما قاله العلماء، فى حكم الشعر فى الإسلام، فى مذهبين: فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقا، قليله وكثيره، حسنه وقبيحه، واحتجوا بمثل ما نسب إلى ابن مسعود من قوله: الشعر مزامير الشياطين، وبمثل ما نسب إلى مسروق من أنه تمثل بأول بيت شعر، ثم سكت، فقيل له، فقال: أخاف أن أجد فى صحيفتى شعرا؛ وبما رُوى عن أبى أمامة أن إبليس لما أهبط إلى الأرض قال: رب اجعل لى قرآناً، قال: قرآنك الشعر؛ وبما رُوى عن ابن عمر: من قال ثلاثة أبيات من الشعر من تلقاء نفسه لم يدخل الفردوس. وهذه كلها أخبار واهية، وآثار ضعيفة لا يحتج بها ولا يعول عليها وأما حديث أبى سعيد الخدرى القائل: بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج، إذْ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلىء جوف رجل قيحا، خير له من أن يمتلىء شعراً» ـ فمحمول على الشعر المذموم، أو الغالب على صاحبه، المستولى عليه، الشاغل له عن الطاعات، والعبادات، الصارف له عن العلوم النافعة، والأعمال المفيدة، أو المتّخذ منه وسيلة للارتزاق، والتكسب والشغب، أو على أن هذا الشاعر كان كافراً،

أو على أن هذه واقعة حال ، يتطرق إليها الاحتمال ولا عموم لها ، فلا حجة فيها ، أو أن الذين خوطبوا بذلك كانوا فى غاية الإقبال عليه ، والانقطاع له ، فزجرهم عنه ، ليقبلوا على القرآن ، وعلى ذكر الله وعبادته ، فمن أخذ من ذلك بما أمر به لم يضره ما بقى عنده مما سوى ذلك .

وأما الكافة من العلماء ، فذهبوا إلى إباحة الشعر ، ما لم يكن فيه فحش ، أو هجو ، أو إغراق فى المدح ، أو كذب محض ، أو تغزل بمعين ، أو ما إلى ذلك ، فقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم الشعر ، وأنشد بين يديه ، وقال : إن من الشعر لحكمة ، وكانت عائشة تنشد :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وفى الصحيحين ، أنهم لما قدموا المدينة ، توعك أبو بكر وبلال ، وكان بها وباء ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبَّح فى أهله والموت أدنى من شِراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى ، يرفع عقيرته ، ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنّة وهل يبدون لى شامة وطفيل

ولما أخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منه إلا أن قال : « اللهم حبب إلينا المدينة ، كحبنا مكة أو أشد » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه ، ينافح عن رسول الله ، أو يفاخر ، وكان الرسول يقول : « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ، ما نافح أو فاخر عن رسول الله » ، ولما أنشده النابغة شعره ، قال له صلى الله عليه وسلم : « لا يفضض الله فاك » . وكان أصحابه ينشدون عنده الأشعار وهو يبتسم ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبى الصلت ، كل ذلك يقول : هيه ، هيه ، ثم قال : إن كاد فى شعره ليُسلم .

وقد أنشد الشعر الخلفاءُ ، وفضلاءُ السلف ، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه ، وإنما أنكروا المذموم منه ، وهو الفحش ونحوه . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك إذا كان كذلك .

ولما نزل قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وهم يبكون ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أننا شعراء ، فقال : اقرءوا ما بعدها : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وانتصروا من بعد ما ظُلموا » .

وحمل المفسرون الشعراءَ في هذه الآية على الذين يهجون الناس بغير حق ، ويمدحونهم بما ليس فيهم ، ويبالغون في ذلك ، حتى يخرجوا عن جادة الحق والإنصاف ، ويخالفوا أحكام الشريعة ، ويأتوا في أشعارهم بالأكاذيب ، والأباطيل ، وبما ينافي الأخلاق والآداب والفضائل ، وعلى شعراء المشركين الذين يتبعهم غواة الناس ، ومردة الشياطين ، وعصاة الجن ، ويروون شعرهم ، لأن الغاوي لا يتبع إلا غاويا مثله ، أما الشعر الممدوح المتفق مع أحكام الدين وقواعد الأخلاق فلا مذمة فيه .

* * *

لا خلاف في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم ينشيء الشعر ولم يقرضه ، وأنه ما كان يليق به ذلك ، وقد نفى الله هذا عنه في كتابه حيث قال : « وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له » ، وإنما الخلاف في جواز تمثله صلى الله عليه وسلم بشيء من الشعر ، وإنشاده إياه ، حاكيا له عن غيره ، فالبعض على أن ذلك لا يجوز ، حتى إنه لما تمثل صلى الله عليه وسلم بقول عبد الله بن رواحة :

هل أنتِ إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

قال هذا البعض : إن التاء في « دميت ولقيت » مكسورة في الرجز ، ساكنة في الحديث ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم تعمد إسكانها ليخرج عن الشعر ، وإن كان الإسكان لا يخرج الكلام عن الشعر ، وإنما يحوله إلى ضرب آخر منه ، من ضروب الكامل .

والصحيح أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم أن يتمثل بالشعر ، وأن ينشده حاكياً له عن غيره . أخرج البخارى فى الادب المفرد ، أنه قيل لعائشة : أكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل من شعر ابن رواحة :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج ابن أبى شيبة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يبنى المسجد ، وعبد الله ابن رواحة يقول : أفلح من يعالج المساجدا ، فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة : يتلو القرآن قائما وقاعداً ، فيقولها الرسول أيضاً ؛ وكان ينقل اللَّبِن مع القوم فى بناء المسجد ويقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ربّنا وأطهر

وقال مرة أخرى :

لا هم إن العيش عيش الآخره فارحم الانصار والمهاجره

وأخرج الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

* * *

استُدل بقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة خيبر :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

على جواز وقوع الكلام منه منظوما ، من غير قصد إلى ذلك ، ولا يُسمّى مثل ذلك شعراً ، ولا القائل به شاعراً ، وقد وقع كثير مثله فى القرآن الكريم ، لكن أغلب ما جاء منه أشطار أبيات ، والقليل منه وقع وزن بيت تام ، فن الأشطار مما هو من البحر الطويل قوله :

وإن شئتمو تحيوا أميتوا نفوسكم ولا تقتلوا النفس التى حرم الله

ومن السريع :

يأهل دين الله بشراكمو أقر مولاكم به عينكم
إذ أنزل الله على المصطفى اليوم أكملت لكم دينكم

ومن المضارع :

وضارعْ أهلَ خير تنلْ من رب يقينا
جناناً مزخرفات وهم فيها خالدون

ومن المجتث :

اجتث قلبي بذنبي والله خيراً يريد
وكيف أخشى ذنوبي وهو الغفور الودود

ومن التام مما هو من بحر الرمل قوله :

مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات

ومن مجزوء الرمل :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

ومن الوافر :

ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين

ومن الكامل :

يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك

ومن الخفيف :

أريت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيما

وقد عنى بهذا النوع كثير من المؤلفين ، وأوردوا منه فى مؤلفاتهم طائفة كبيرة مما فى القرآن ، واستخرجوا منه ما جاء فيه على أوزان البحور اتفاقا ، فليرجع إليها من أراد .

لا تيأسوا من روح الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

أشد ما تصاب به الأمم والجماعات من نكبات ، هو يأسها من نفسها ، وشعورها بأن أمورها قد وصلت من السوء إلى حد لا يستطاع معه إصلاحها ، وأن كبوتها قد وصلت بها إلى الحضيض ، فلا نهوض لها من بعدها ، وأن كل يوم يمضى عليها هو شر من سابقه ، وخير من لاحقه .

شعور الأمة أو الجماعة بهذا ، وامتلاء نفوسها به ، من شأنه أن يفت فى عضدها ، وأن يصوّر لها المستقبل فى صورة قاتمة مظلمة ، وأن يساعد على تقويض بنيانها ، ويعجل بآخرتها ، وزوالها من الوجود .

والأمر فى الأفراد وإن كان كذلك ، لكنه أقل خطراً ، وأضعف أثراً ، وأيسر علاجا : فإن الفرد إذا يئس لم تمت بموته الأمة ، ولم تضطرب باضطرابه شئونها العامة ؛ وهانحن أولاء نرى أفراداً ييأسون ؛ فيستسلمون للموت الأدبى ، أو يقدمون على الانتحار ، فيذهبون إلى حيث اختاروا لأنفسهم ، ولا تكاد الأمة أو الحياة الاجتماعية تشعر بهم .

وقد يجد الأفراد من أمتهم ، أو أسرتهم ، أو أصحابهم ، أو ذوى المروءة فى مجتمعهم ، من يأخذ بأيديهم ، وينتزعهم من بين أحضان اليأس ، ويفتح أمامهم مجال الأمل والعمل ؛ أما الأمم والجماعات ، فإنها إذا فقدت الثقة بنفسها ، ويئست من استقامة أحوالها وقدرتها على معالجة أمراضها ، لم تلبث أن تدخل فى سكرات الموت ، وتعالج منها الكروب والأهوال حتى تموت ، ولن تجد من يحول بينها وبين هذا المصير ؛ ذلك بأن « عجلة الإنقاذ » لابد أن تأتيها من غيرها ، ولم تعهد فى تاريخ البشرية — إذا استثنينا عهود الفتح الإسلامى العادل — أمة تدفعها

إنسانيتها إلى التقدم لغيرها من الأمم بنية صادقة ، وباعث شريف مخلص ، هو مجرد الرغبة فى إنقاذها من الخطر الذى يتهددها ، وإن زعم ذلك أهل السياسة من دهاقين أوربا وأمريكا وأشباههم من الطامعين .

لم يرتفع مستوى الإنسانية الى هذا الحد ، ولم يصل الضمير البشرى بعد إلى هذه المرتبة ، وما من أمة اليوم تمد عينيها إلى غيرها من الامم ، إلا وهى تبطن منفعتها هى ، ومصالح أبنائها أو المتسلطين فيها ، وقل مثل ذلك فى الجماعات أو الهيئات ، فإن إحداها لا يمكن أن تمد يدها لإنقاذ سواها مما يعانى ، إلا إذا كان ذلك لمصلحة تعود عليها هى ، بأن تقوّى من مبادئها ، أو تُضعف من قوة خصومها ومنافسيها ؛ والأحزاب الساسية مَثَلٌ لذلك واضح ، فإننا لا نرى حزبا يتقدم لمؤازرة حزب آخر ، بنية تقويته وتأييده وتخليصه مما يعانيه ، إلا حيث يحسب أن ذلك قهر لخصومه ، أو تقوية له ، فيجعل ذلك قنطرة لأغراضه ، ووسيلة ينال بها ما يهدف إليه .

لا شك إذن فى أن التماس الإنقاذ من « الغير » إن صح أن يؤدى الى خير فى شأن الأفراد ، فإنه لن يؤدى الى خير فى شأن الأمم والجماعات .

ولهذا كان الخطر شديداً حين تشعر الامة والجماعة باليأس من إصلاحها ، واستقامة شئونها ، وتفقد الثقة بنفسها .

* * *

فى أمم الشرق الآن غِرْبانٌ ما تزال تنعب فى كل صباح ومساء ، ونعيبها مقلق للنفوس ، مميت للأمل فى القلوب ، يصوّر للناس حياتهم فى صورة كريهة ، ويخيّل إليهم أن شئون العرب والمسلمين قد فسدت فساداً لم يعد معه أمل فى الإصلاح ، وأن المسلمين الاولين قد ذهبوا بالمثل الطيبة فى الإيمان والخلق والتضحية والإيثار ، فلم يتركوا وراءهم حظاً منها لغيرهم ، وأن العزة التى كانت للآباء قد زالت حيث لا رجعة ، وأن الموت الزؤام هو نصيب اللاحقين ، كما كانت الحياة السعيدة القوية هى نصيب السابقين .

لست أريد أن أحداً من الناس ينادى بذلك حرفيا ، ويقوله لفظا أو معنى ، وإنما أصف شأنهم فى تضخيم الامور ، وتفظيع المساوئ ، والبكاء الملح على المجد

الضائع ، والعزة المفقودة ، والكرامة الذاهبة ، والأخلاق التي دنست ، والتقاليد التي أهملت ، والرزايا التي تتابعت ، فهذه النظرة التشاؤمية بمثابة القول الصريح بأنه لا سبيل لأهل هذا الجيل أن يدركوا شأو الأجيال قبلهم ، أو يدانوها ؛ وفيها إيحاء قوى بأننا ضعفاء وعاجزون ، وأننا مهما حاولنا أن نعمل أعمالهم ، أو تنهض كما نهضوا ، فلن نصل إلى ذلك ولن نقارب .

إن هذا لن يكون داعيا إلى ملافاة النقص ، ومضاعفة الجهد ، وإنما هو دعوة إلى اليأس والإذعان والتسليم ، فيه تثبيط للعزائم ، وإرجاف على النفوس الوثابة الطلعة ، ولو أن امرأ ظل يردد على مسامع ولده أنه قاصر متخلف ، وأن عقله راكد ، وجهده ضئيل ، وأن فلانا من إخوته أو أبناء عمومته أو خؤولته خير منه عقلا ، وأذكى قلبا ، وأحرص على أداء واجبه ، وأقرب إلى درك النجاح ، في مستقبله القريب والبعيد ؛ لو أن أحداً ظل يقول ذلك لابنه وهو يربيه ويحاول أن يبعث في نفسه الرغبة والعمل والنشاط ، لما كان إلا مسيئا إليه ، مميتا مواهبه قاتلا فيه الهمة والعزيمة والثقة بالنفس ، ناشراً اليأس في أقطار قلبه ، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا

***

إن المسلمين بخير وإن عدت عليهم العوادى ، ونزلت بساحتهم الأحداث ، وما كان ضعفهم وتخلفهم إلا تمحيصاً وتهذيباً سيخرجون منه إن شاء الله أقوياء ذوى عزة ومنعة ، وإن فيهم الآن لدلائل نهضة في العلم والقوة والسياسة والتضحية تبشر بمستقبل سعيد ، وحياة طيبة ، فليترفق الكتاب والخطباء والدعاة بأنفسهم وأهليهم ، وليعترفوا بنواحي القوة والحيوية والنهوض في أمتهم ، وليصوروا لهم المستقبل في صورة جميلة ، تشرح الصدور ، وتحيي ميت الآمال ، وتثير العزائم والهمم إلى التدرج في مدارج الكمال ، والانبعاث في طريق التقدم .

ولا يحسبن أحد أنني أدعو إلى غض العيون ، وسد الآذان عن نواحي النقص ، فإن ذلك أيضاً من أسباب الضياع والانحلال ، ولكن علينا أن نصف الداء ، ونصف العلاج ، فإننا إذا تعامينا عن الداء سرى فينا وأهلكنا ، وإذا استسلمنا له ، وهولنا فيه ، وشغلنا أنفسنا باستفظاعه ، وتأمل وجوه الخطر فيه ،

ضعفنا عن مقاومته ، وأعانه علينا هزالٌ يصيب الهمم ، وضعضعة تسرى إلى العزائم ، وتتغلغل فى الأعمال ، وإجداب فى الفكر يسرى من الكبير إلى الصغير ، ومن الصغير إلى الكبير ، ويمر فى كل طبقة ، ويجول فى كل دائرة ، وكفى فى بيان شناعة ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وإذا كنت أرجو من الكتاب وأهل القيادة والتوجيه فى الأمة ، أن يفطنوا إلى ذلك ، ويعملوا على إحياء الآمال فى نفوس الناس ، فإنى أوجه ذلك أيضاً إلى أساتذتى وإخوانى وأبنائى من الأزهريين ، فقد سرى إليهم أن ضعفاً شديداً قد استولى على العلم والدين والخلق ، وأن الأزهر لم يعد يجد مكانا له بين أهل الرأى والقيادة : فأصبح محصورا بين كلياته ومعاهده ، يدرس ما يدرس ، ويهمل ما يهمل ، ويجرى فى كل ذلك على سنن من التباطؤ والتكاسل ، لا يدفعه عنه دافع ، ولا يعبأ به عابىء ، سرى إليهم ذلك ، وظنوا أن مصلحة العلم والدرس مضيعة بين التراخى والإهمال ، فيئسوا أو كادوا ، وصار كبارهم يتحدثون بما كان من علم الماضين ودأبهم وقوة إيمانهم ، ويشكون مر الشكوى من انصراف القلوب ، وانحلال العزائم ، وضعف الأخلاق ، وصار المحدثون منهم يفعلون ما يشاءون ، ويأتون من الأمر ما يأتون ، ويدعون منه ما يدعون ، لا يدفعهم إلى ذلك دافع من العلم والتكمل بالدرس والمعرفة ، ولكن دافع من الرغبة فى مستقبل مادى يضاهئون به غيرهم من أهل المعاهد والجامعات الأخرى ، كأن المستقبل يضمن بالقوانين والقرارات ، لا بالتمكن من العلم ، وإقناع الأمة بكفاية الخريجين .

نعم صرنا إلى ذلك كله ، والأمر فيه خطير إذا لم يُتدارك ، ولكن لا ينبغى أن نيأس ، ولا ينبغى أن ننسى أن ظروف الحياة الدراسية والفكرية فى البلاد قد تطورت ، وخير لنا أن نعالج أسباب الضعف بالحزم والقوة والصبر وتوسيد كل أمر إلى من يصلح له ، ويستقيم به ، فإن أكبر الإصلاح أن يباشر الأمور أهل الإصلاح ، أما أن نندب ونستغيث ونتصور الأمور تصوُّرَ المشدوهين المغَلَّبين ، ونتربص أن يصلح الله الأحوال ، بأمر من السماء يتنزل به جبريل أو سواه من ملائكة الرحمن ، فسيطول تربصنا ، وتكثر متاعبنا ، ولن يجدينا الصياح ولا العويل .

نظرات فى توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

القدر الذى يتعلق به التوثيق الواجب :

يقول ابن قدامة : « ويختص ذلك — أى التوثيق — بما له خطر ، فأما الأشياء القليلة الخطر ، كحوائج البقال والعطار وشبهها ، فلا يستحب فيها ، لأن العقود فيها تكثر ، فيشق الإشهاد عليها ، وتقبح إقامة البينة عليها والترافع إلى الحاكم ، بخلاف الكثير » .

فابن قدامة ، ومن ذهب هو مذهبهم ، فى ندب الاستيثاق ، يخصون الندب بما كان كثيرا ، وأما القليل : فيقبح عندهم التوثيق فيه ، لما ذكروه من كثرة التعاقد فيه ، ومشقة التوثيق فى هذه الكثرة ، وهذه تفرقة بين الكثير والقليل من عندياتهم ، تخالف الظاهر من عموم الأمر ، وتخالف قول سعيد بن جبير : أشهدوا على حقوقكم ، إذا كان فيها أجل ؛ ومن قوله : أشهد على حقك ، على كل حال . فلم يتعرض لتفصيل ، بين قليل وكثير ، فكان دليلا على التعميم كذلك .

وأوضح من هذا فى الدلالة على التعميم ، قول ابن جريج : سئل عطاء : أيشهد الرجل على أن بايع بنصف درهم ؟ قال : نعم ؛ هو تأويل قوله تعالى : « وأشهدوا إذا تبايعتم » ، وكذلك روى المغيرة عن إبراهيم قال : يشهد ولو على سُفْتجة بقل — حزمة — وإن لم يبين فى هذا النقل مَن إبراهيم ؟ وذلك كله يتمشى ظاهرا مع ما روى عن ابن عمر أنه كان يشهد على البيع المنجز ، إذ لم ينقلوا عنه تفرقة بين القليل والكثير .

فنحن الآن بين ثلاثة آراء فى تقدير الدين ، أو الثمن الذى يؤخذ فيه بالتوثيق .

(١) رأى يتجه الى وجوبه فى القليل والكثير ، كما نقل عن عطاء .

(٢) ورأى يذهب الى الندب فى القليل والكثير ، وهم : أحمد والجمهور ، وقد حكاه الجصاص وسواه .

(٣) والرأى الثالث : ما نقلته عن ابن قدامة ومن يوافقه من ندب التوثيق فى الكثير ، وقبحه فى القليل لحاجة العطار والبقال .

والناظر فى هذه الآراء يلمح من بينها أن للعرف دخلا فى التقدير ، وترجيح رأى على رأى ، فالقول بالوجوب لا يطرد فى كل جليل وصغير ، وإلا كان إعناتا ، وضغطا على الناس ، فى إنجاز المصالح التى يرعاها الإسلام ، ويقصد إلى تيسيرها . والقول بالندب عامة لم يستقم ، وقد توسعت فى تفنيده سابقا .

والقول بقبح الاستيثاق فى القليل على ما يرى ابن قدامة وموافقوه لا يطرد فى كل قليل ، إذ القليل يختلف باختلاف العرف ، وحالة المتعاملين ، فالرغيف والليمونة والبطيخة ، وأقة من الفاكهة ، من القليل الذى لا يبلغ مبلغ الاهتمام به عند أواسط الناس ، مما يتناولونه فى حوائجهم ، كصندوق من الصابون ، وعدل من الأرز ، ووسق من التمر ، وثوب من القماش ، أو ما قارب هذا كيلا أو وزنا . فكلام ابن قدامة مبنى على مراعاة العرف ، والموازنة بين قليل تافه ، وقليل بالإضافة الى الخطير . وإذا رجعنا الى الآية الكريمة ، وما نقل من الآثار ، مع الاستئناس بأعراف الناس ، أمكن أن نستظهر وجوبا ، وندبا ، وإباحة ؛ فالوجوب يستفاد من صيغ الأمر فى أول الآية ، وهو يتعلق بما كان خطيرا عرفا ، والندب يتعلق بما لم يكن تافها ولا خطيرا ، والإباحة تتعلق بالتجارة الحاضرة التى نص القرآن على استثنائها من الأمر بالتوثيق . وبيان هذا التفصيل من وجهين :

١ ـــ الوجه الأول : وهو يتفق فى مغزاه مع كلام الشيخ محمد عبده ، أن آية الدين جاءت بعد آيات الربا ، ولما كان فى آيات الربا نهى عن قليله وكثيره ، وفيها تحذير شديد ، وإنكار ووعيد ، وفيها تنبيه إلى الموعظة ، وأمر بإنظار

المعسر حتى يتمكن ، وحث على التصدق بالعفو عن المعسر الذى لا يجد ، وفيها حث على التقوى وتذكير باليوم الآخر .

أقول : لما كانت آيات الربا بهذه المثابة ، وكانت حافلة بالتوجيهات الآنفة ، كان من شأنها أن تصرف الناس عن التشبث بالدين ، وترغبهم عن التعلق بالأموال ، وتوهمهم أن الشريعة تجنح بهم إلى التساهل كثيرا فى الحقوق ، وخاصة إذا راعينا أن الصحابة كانوا يستمعون القول ، فيسبق بعضهم بعضا الى المبالغة فى الطاعة أكثر مما يطلب إليهم ، ونحن لا ننسى أن ابن عمر وآخرين ، سمعوا وعظا من النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل الصدقة والصوم والصلاة ، فاعتزم كل منهم أن يلازم عبادة تخيرها ، ويتجنب زوجه ، والاشتغال بالدنيا ، لولا أن صرفهم النبى عليه السلام عن الافراط ، وعلمهم أن هناك حقوقا أخرى للبدن ، وللزوجة والأولاد ولمودة الناس ، وعلمهم أنها حقوق تراعيها الشريعة أكثر مما زعموا . ولا ننس كذلك أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه رغب أن يتصدق بماله كله ، فمنعه النبى صلوات الله عليه عن الكل الى الثلث ، وقال له فى المشهور : « إنك أن تترك ورثتك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

أقول : لما كان فيما سبق من آيات الربا ، ما يوهم غير المقصود ، اقتضت الحكمة أن تكون آية الدين ، محببة للناس فى المال ، مشيرة الى فضله ، حاثة على صيانته ، وعدم التفريط فيه ، إذ فى التهاون مضيعة للأولاد ، وتعرض للأفلاس ومذلة الحاجة .

وقد كشف عن هذه المعانى ، حديث النبى صلى الله عليه وسلم : « نعما المال الصالح للعبد الصالح » . رواه أحمد والطبرانى وكذلك قوله عليه السلام : « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة الأموال » .

لذلك كانت صيغ الأمر فى صدر الآية ، لإيجاب الاستيثاق فى الديون ، وصرفهم عما توهموا ، غير أنه لا يعقل أن تكون الديون التى جرى فيها الربا بينهم ، ولم يكونوا يُنظرون المدين فيها ، والتى نزلت بسببها آية التوثيق ، لا يعقل أن تكون درهما أو درهمات ، وإنما المعقول والمعهود أن تكون مما يتعلق به

الحرص ، ويعتد بشأنه ، ويمكن استغلاله بالربا أو بسواه ، وأن تكون ديونا يعجز عنها المدين أو يكاد ، ويكون الأنظار بها رفقا .

وبهذا الاعتبار يترجح عندى الى شبه اليقين ، أن التوثيق المأمور به في الآية الى قوله : ولا تسأموا ، واجب فى الديون التى كانوا يهتمون بها ولا يزالون ، دون التافه اليسير .

قد يقال : إن الحمل على هذا يتضح لو كانت آيات الربا والدين نزلت دفعة واحدة ، كما هى مرتبة فى التلاوة ، حتى يكون بينهما ارتباط فى السياق ، ويكون الوهم الناشىء من الأولى مدفوعا بالثانية ، وتكون الثانية من الأولى بمنزلة البيان الذى اتحد مع المبين ، فى وقت نزوله ، والحاجة اليه .

والجواب : أن فى هذا أقوالا ، وقد رجح السيوطى القول باتحاد هذه الآيات فى وقت النزول ، وذلك فى كتاب الإتقان ، حينما عرض للروايات المختلفة فى آخر ما نزل من القرآن ؛ هل آخر ما نزل هو آية الربا ، أو آية الدين ، أو ما توسط بينهما ، من قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » ؟ فقال : ولا منافاة عندى بين هذه الروايات ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ، ولأنها قصة واحدة فأخبر كل من الرواة المختلفين عن بعض ما نزل ، بأنه آخر ما نزل ، وذلك صحيح . انتهى كلام السيوطى .

وإلى كلام السيوطى أطمئن ، وعليه أعتمد فى الإجابة عن السؤال الذى افترضه ، وبهذا يظهر وجه التناسق بين الآيتين ، ويتضح ما قلت : من أن الصيغ الأولى ، لإيجاب التوثيق فى الديون الخطيرة ، دفعاً لما ينشأ من آيات الربا .

ورب معترض على هذا الوجه يقول : إذا سلمنا لك أن آيات الربا ، وما فيها من زجر ووعيد منشأ للوهم الذى اقتضى الأمر بالتوثيق لدفعه ؛ فالمقبول أن نترك صيغ التوثيق على وتيرة واحدة فى الإيجاب أو الندب ، كما صنع الأولون ؛ من غير تقسيم منك لها إلى ما يدل على وجوب ، وما يدل على ندب ، ولكنك تجاوزت هذا ؛ فحملت صدر الآية على إيجاب التوثيق فيما كان ذا شأن من الديون ، وهذا تخصيص للفظ العام بخصوص السبب وهو خلاف القاعدة المسلم بها « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » أو تخصيص بلا مخصص .

والجواب : أولا — أن الوهم الناشىء سبب فى ربط الآيتين ببعضهما ، وليس وحده سبب النزول . ولم أقل بذلك ، فلا يقال إننى خصصت العام بسبب خاص .

وأما سبب النزول ؛ فأمور عدة : منها دفع ذلك الوهم ، وإقرار المسلمين على ما كان معمولا به من السلم على ما أشار إليه المفسرون ، وبيان ما يلزم فى الشاهد وفى الكاتب وفى المحل : من الأمانة ، والتحرى وما إليهما مما تضمنته الآية . ولا مانع من مراعاة أمور عدة ، يكون بمجموعها سبب النزول .

والجواب : ثانيا — أنى لم أعتبر صيغ التوثيق فى صدر الآية عامة فى كل دين ، كما اعتبرها السابقون ، حتى يعترض على بما سلف ؛ بل أفهم أن المقصود منها لأول وهلة هو إيجاب الاستياق فيما كان ذا بال من الديون والحقوق ، أيا كان نوعه : من قرض ، أو عرض سلع ، أو ثمن مبيع ، أو أجرة عمل ؛ فالجواب الأول : على التسليم بعموم صيغ التوثيق ، والثانى : على المنع .

أما نقد الخطير من غيره ، وتمييز هذا من ذاك ، فموكول إلى العرف بين الناس ، حسبما تقضى عوائدهم وأحوالهم ، ونحن نرى ونعلم أن خمسة ، وعشرة جنيهات ، قد تعتبر دينا تافها عند الناس ، وخطيرا عند آخرين ، ممن يقع الشجار بينهم ، لاختلافهم على خمسين قرشا . وقد قدرته الشريعة فى مواضع ، كنصاب الزكاة ، وقدر ما يجب فيه ، وكالدية ، والكفارات ، وكالنصاب الموجب للقطع فى السرقات .

أما التعامل الذى لا يقف نظامه وتطوره عند حد ، فإلى العرف نحتكم فى شأنه ، ونرجع فى تقديره . كما نحتكم إليه فى تقدير المهر ، والنفقات ، وقيم المتلفات ، وبالعرف نهتدى فى تقدير ما يجب ، وما لا يجب الاستيثاق فيه ؛ وقد أقرت الشريعة العمل بالعرف الصحيح ، كأصل من أصولها ، تيسيرا على الناس ، وإفساحا لهم فى مجال الحياة ، فرجوعنا إليه يعتبر عملا بأصل مشروع .

ذلك كله أحد الوجهين فى تفصيل ما استظهرته ، من تقسيم التوثيق : إلى واجب ، ومندوب ، ومباح . وموعدنا العدد القادم ، إن شاء الله .

القتل غيلة في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ فى كلية اللغة العربية

يحملنى على الكتابة فى هذا الموضوع ، أن بعض من كتب فى السيرة النبوية من علماء أوربا ، يستنكر ما حصل من النبى صلى الله عليه وسلم من الأمر باغتيال كعب بن الأشرف اليهودى وغيره ، لأنهم يدعون أن فى هذا القتل شيئاً من الغدر ، فلا يصح أن تقره شريعة من الشرائع ، ولأن هذا أيضاً ليس من شأن الحكومات مع الأفراد ، بل الذى من شأنها أن تأخذهم علنا بحكم القانون ، فمن يستحق القتل أخذ به علنا ، أما الاغتيال فهو من شأن بعض الأفراد مع بعض ، ويجب أن يؤخذوا عليه بالعقاب ، لما فيه من الاعتداء على سلطة الحكم .

وإذا أردنا أن نعرف الحكم الحقيقى لهذا القتل فى الإسلام ، وجب أن ننظر نظرة إجمالية فى السيرة النبوية إلى وقوعه فيها ، لنعرف الأسباب الصحيحة التى أدت إليه ، ونعطيه الحكم الصحيح الذى يليق بهذا الدين العادل ، ويليق بما جاء به ، من إيثار النظام على الفوضى ، وكان من حسن بلائه فى ذلك أن أقر حكم القانون فى بلاد العرب ، فخضعت له بعد أن كانت فى جاهليتها لا تخضع لشىء ، وكان كل فرد فيها يأخذ حقه بنفسه من غيره ، فتضيع فى ذلك حقوق الضعفاء ، ويكون الحق للقوة وحدها .

لقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاث عشرة سنة ، كان فيها فى قلة وضعف ، وقد أوذى فيها أتباعه أشد أذى ، وعذبوا فيها أقسى عذاب ، وقد قتل فى هذا العذاب بعضهم ، وممن قتل منهم سمية أم عمار بن ياسر ، رضى الله عنهم ، عذبها آل المغيرة على إسلامها لترجع عنه ، فكانت تأبى إلا الإسلام ، وتحتمل فيه عذابهم ، حتى ماتت تحته ؛ وكذلك مات فيه زوجها ياسر .

وقد انتهت هذه المدة على طولها فى مكة ، فلم يحاول أحد من المسلمين أن يثأر لما حصل لهم من التعذيب والقتل باغتيال واحد ممن كانوا يعذبونهم أو يقتلونهم ، مع أن هذا كان سهلا عليهم ، لأنه لم يكن فى مكة حكومة منظمة ، تحمى أهلها من حوادث الاغتيال ، ولكن الإسلام دعوة سلمية بريئة ، فهو إنما يأخذ الناس علنا بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ولا يدخل فى دعوته أخذ الناس إليها بأية وسيلة من وسائل الإرهاب ، كاغتيال خصوم الدعوة ونحوه ، مما يخيفهم من مناوأتها ، ويحملهم على الانضمام إليها ، خوفا من شر أهلها ، وهذا أيضاً إلى أن الإسلام ، دين سياسة ، ولم يكن من حسن السياسة اغتيال أحد ممن كان يعذب المسلمين ، ويقتلهم فى مكة ، لأنهم كانوا فى ضعف وقلة ، فلو اقتصوا لواحد منهم بهذه الوسيلة ، لتفاقم الخطب عليهم ، ولعمد خصومهم إلى قتلهم جميعا ، فلا تجد دعوتهم أحدا يؤمن بها ، وهنا يكون الانتقام الإلهى بآية من آيات العذاب ، فتقضى على خصوم هذه الدعوة ، كما قضوا على أنصارها ، ومثل هذا لم يكن مراداً لدعوة الإسلام الخالدة ، وإنما كان يراد أخذ خصومها بالوسائل السلمية ، إلى أن يؤمنوا بها ، وتبقى دعوة خالدة ، إلى ما يشاء الله أن تبقى .

ثم كان بعد ذلك أن انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فمكث فيها عشر سنين إلى وفاته ، وقد انقسم أهلها عليه قسمين : قسم آمن به إيمانا صادقا ، وناصره على أعدائه بنفسه وماله ، وقد كان هذا القسم يشمل جمهور أهل المدينة ؛ وقسم نافق فى الإسلام ، فأبطن الكفر وأظهر التسليم للدعوة ، ولم يخلص للمسلمين كما أخلص لأعدائهم ، فكان يحسب من المسلمين لإظهاره الإسلام ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل منه هذا الخضوع الظاهرى مع علمه بما يبطنه من الكفر ، ويجرى عليه أحكام المسلمين الصادقين ، لأنه أمر أن يحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولكنه كان مع هــذا يذم النفاق والمنافقين ، من غير أن يخص بهذا الذم شخصا منهم ، ليحذر المسلمون الصادقون دسائسهم ، ولا يتأثروا بشىء من مؤامراتهم فى السر .

وقد كان هؤلاء المنافقون يلحقون بدسائسهم ومؤامراتهم ، كثيراً من الأذى بالمسلمين ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يكتفى بإفساد هذه المؤمرات عليهم ، ولا يأخذهم بالقتال كما كان يأخذ من يجاهره بالعداء ، ويصارحه

بالقتال ؛ لأن الإسلام لا يقاتل إلا من يقاتله من أعدائه ، ولهذا يؤثر السلم مع من يسالمه منهم ، ولو لم يكن مخلصاً فى إظهار السلم ، كما قال تعالى فى سورة الأنفال : « وإنْ جنحُوا للسلم ، فاجنحْ لها ، وتوكلْ على الله ، إنّهُ هُوَ السميعُ العليمُ ، وإنْ يريدُوا أن يخدعوكَ ، فإنّ حسبكَ اللهُ ، هُوَ الذى أيّدكَ بنصرهِ وبالمؤمنينَ » الآيتين ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .

وقد مكث هؤلاء المنافقون يناوئون الإسلام فى المدينة سراً ، ويخدمون أعداءه بالتجسس لهم على المسلمين ، فإذا بلغ النبى صلى الله عليه وسلم شىء من مناوأتهم أتوا إليه ، فتبرأوا مما بلغه ، فيكتفى منهم بذلك ، وهو يعلم كذبهم ، ولا تحدثه نفسه بأن يتخلص منهم بطريقة تناسب نفاقهم ، بأن يأمر باغتيالهم فى السر ، فيتخلص منهم بهذه الطريقة التى يلجأ إليها من يقبل مثلها فى دعوته ، وقد استأذنه عمر بن الخطاب يوماً فى أن يقتل عبد الله بن أبىّ رئيس المنافقين ، فنهاه عن ذلك وقال له : فكيف ياعمر إذا تحدث الناس : أن محمدا يقتل أصحابه ! . وكذلك روى عدِىُّ بن الخيار : أن رجلا سارّ النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يدروا ما ساره ، حتى جهر رسول الله ، فإذا هو يستأذنه فى قتل رجل من المنافقين ، فقال له : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة له . فقال له : أليس يصلى ؟ قال : بلى ، ولا صلاة له . فقال له : « أولئك الذين نهانى الله عنهم » .

وإنما لم يلجأ النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذه الوسيلة مع أولئك المنافقين ، لما سبق من أنها لا تدخل فى دعوته ، ولأنهم دخلوا فى حكمه ظاهراً ، فيجب أن يؤخذوا على جرائمهم بما يليق بشأن الحكومات مع أفرادها بقطع النظر عن دياناتهم وعقائدهم ، فإذا ثبتت عليهم جريمة أخذوا بها علناً ، وللحاكم أن يغضى عن بعض هذه الجرائم لمصلحة توجب الإغضاء عنها ، ولا يصح أن يؤخذوا على جرائمهم بوسيلة من الوسائل السرية ، لأن مثل هذا ينشر الفساد فى الوطن ، وهو سلاح ذو حدين ، فإذا لجأت إليه الحكومة فى معاقبة أفراد رعيتها ، لجؤوا إليه أيضاً فى الثأر من رجالها ، وفى هذا يختفى وجه الحق ، ولا يظهر كما يظهر فى أخذ الناس علناً بحكم القانون .

وبهذه النظرة الإجمالية فى السيرة النبوية ، يمكننا أن نحكم بأن الإسلام

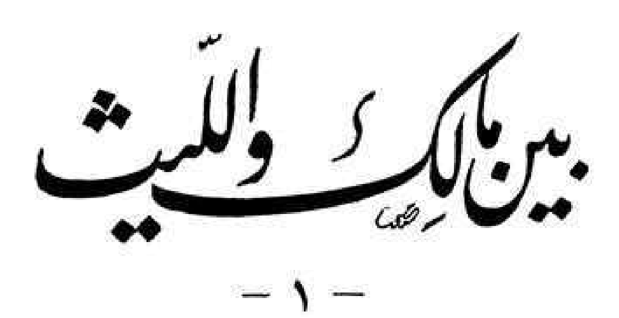
لا يبيح اللجوء إلى الاغتيال بين أبناء الوطن الواحد لسبب من الأسباب ، بل يجب أن يكون الحكم بين أبناء الوطن الواحد للقانون وحده ، وأن يكون أخذ الناس به فى العلن لا فى السر .

والذى حدث من الاغتيال بإذن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بين أبناء الوطن الواحد ، وإنما حدث لنفرين أو ثلاثة من أعداء المسلمين ، ولم يكن للمسلمين سلطة عليهم ، حتى يمكنهم أن يأخذوهم بحكم القانون ، ويقتصوا منهم علناً ، كما يقتص من كل فرد يخضع للحكم .

ومن هؤلاء الاثنين أو الثلاثة ، كعب بن الأشرف اليهودى ، وقد كان من أشد الناس عداوة للمسلمين ، حتى بلغ من أمره أنه لما بلغه قتل أشراف قريش فى غزوة بدر ، قال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — بشيرا النصر إلى أهل المدينة — وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها .

وكان لكعب سطوة كبيرة بين أهل الحجاز ، وكان له مال كثير ، يقلب به العرب ، وكان يقول الشعر ، فأخذ يحرض بشعره العرب على المسلمين ، ولم يكتف بهذا التحريض الذى قد يحتمل من عدو ، بل أخذ يشبب بنساء المسلمين ، ويرميهن بالسوء ، وكان لا يخشى أمر المسلمين ، لما كان له من الحصون التى يحتمى بها ، والأتباع الذين يقاتلون عنه .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يؤخذ بحكم القانون فى سلم ، وإنما هى الحرب التى يمكن الثأر بها منه ، وللحرب وسائلها التى تؤدى إلى أغراضها ، وقد يستباح فيها من الخدعة وغيرها مالا يستباح فى السلم ؛ وقد كان جمهور اليهود ، الى هذا الوقت ، فى سلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ما عدا كعبا وأتباعه ؛ فرأى من حسن السياسة أن يأخذه بهذه الوسيلة التى لا تثير أحداً ، وآثرها على حرب قد تجمع حول كعب من العرب واليهود ما هو فى غنى عنه ، والمهم فى هذا أن كعبا كان عدوا للمسلمين ، ويستحق القتل ، وأنه لم يكن للمسلمين سلطة عليه حتى يأخذوه باسم القانون فى العلن ، ولا يضر بعد هذا أن يكون قد أخذ بالقتل غيلة أو غيره ، لأن الحرب يستباح فيها قتل الأعداء ؛ فإذا قتل واحد منهم غيلة كان من الحق أخذ هذا على عدوه .



بين مالك والليث

— ١ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد

يطيب لنا أن نذكر الناس اليوم بإمامين جليلين ، هما مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، والليث بن سعد إمام مصر كنانة الله فى أرضه ؛ وقد قام بينهما قديما جدل حول مسائل دينية ، وكان نقاش وحجاج أضفيا عليه ثوبا من الاحترام المتبادل رغم ما فى هذا الجدل من شدة بلغت الذروة . ولعل فى هذا ما يحمل الناس على انتهاج طريق الحكمة والسداد عند تبادل الآراء ، والدفاع عن وجهات النظر المختلفة فى شتى شئون الحياة ؛ فإن ذلك أدعى الى صون علاقات الود، وأدنى الى دوام المحبة ، وأقرب الى الوصول الى الحق .

وقبل أن نسوق هذا الجدل ، نحب أن نترجم لكلا الإمامين فيما يلى :

مالك بن أنس

نسبه :

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو الأصبحى المدنى ، إمام دار الهجرة أحد الأئمة الأربعة . وإليه تنسب المالكية ، ويكنى بأبى عبد الله . والأصبحى بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الباء الموحدة ، نسبة الى ذى أصبح ، واسمه الحارث ، من أجداد مالك ، وينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان وهى قبيلة كبيرة باليمن .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بالمدينة سنة ٩٣ هـ ولما شب حفظ القرآن ومالت نفسه الى طلب العلم . ويحدث مالك عن ذلك فيقول : قلت لأمى : أأذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم فألبستنى ثيابا مشمرة ، ووضعت الطويلة على رأسى ، وعممتنى فوقها ، ثم قالت : اذهب فاكتب الآن . وكانت تقول : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ، وكان مالك يختلف إلى ربيعة وإلى ابن هرمز يسمع منهما ويسألهما ؛ كما أخذ القراءة عن نافع بن أبى نعيم ، وسمع الزهرى ونافعا مولى ابن أبى عمر . ولقد صبر مالك على طلب العلم ولاقى فى سبيل ذلك الشدائد . قال ابن القاسم : أفضى طلب العلم بمالك الى أن نقض سقف بيته ، فباع خشبه ، ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك وقد تمهر مالك فى علوم شتى وخاصة الحديث والفقه . وقد روى عنه أنه قال : كتبت بيدى مائة ألف حديث . وقال أيضا : كنت آتى سعيد بن المسيب وعروة والقاسم وأبا سلمة وحميدا وسالما ؛ فأدور عليهم أسمع من كل واحد من الخمسين حديثا الى المائة ثم أنصرف ، وقد حفظت كله من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا . قال ابن عيينة : ما رأيت أجود أخذا للعلم من مالك ، وما كان أشد انتقاءه للرجال والعلماء .

وقال أيضاً : دارت مسألة فى مجلس ربيعة وتكلم فيها ربيعة ، فقال مالك : ما تقول يا أبا عثمان ؟ فرد عليه ربيعة رداً ما يسر أحداً أن يقال له ، ومالك ساكت احتراماً لشيخه ، ثم انصرف وجاء وقت الظهر ، فصلى بالمسجد وجلس وحده بعيداً عن مجلس ربيعة ، فجلس إليه قوم فحدثهم ، فلما كان الغد اجتمع إليه خلق كثير ، ثم صار يجلس إلى الناس يحدثهم ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وعرفت له الأمانة فى النقل والرواية ، وبالناس يومئذ حياة ويقظة . قال ابن عبد الحكم : أفتى مالك مع يحيى بن سعيد وربيعة ونافع ، وهم شيوخه . وقال مصعب : كان لمالك حلقة فى حياة نافع ، أكبر من حلقة نافع ، وكان مالك يقول : ما جلست للفتيا والتعليم حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم . وقال : لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلا .

علمه وصلاحه :

أسلفنا القول فى شهادة بعض أكابر العلماء فى ذكاء مالك ونبوغه ، ومنهم شيوخه ، والواقع أن مالكا عرف بالتبحر فى العلم منذ صباه ، وكان علمه مقرونا بكثير من التواضع ، والصلاح والأمانة ، مع إحاطة بالكتاب والسنة ، والفقه وأصوله ، مع صدق الرواية والتثبت فيها ، وحسن التوثيق ، حتى أجمع الناس عليه فى عصره ، واقتدى به الأكابر .

ولقد كان شيوخ أهل المدينة يقولون : مابقى على ظهر الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك . ويقول ابن مهدى : ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك . وقال أبو داود : أصح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، ثم مالك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، ثم مالك عن أبى الزناد الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ولم يذكر سلسلة أخرى عن غير مالك . وقال : مراسيل مالك أصح من مراسيل سعيد بن المسيب ، ومن مراسيل الحسن البصرى ، ومالك أصح الناس مرسلا . وقال سفيان : إذا قال مالك بلغنى ، فهو إسناد قوى . وناظر محمد بن الحسن الشيبانى الإمام الشافعى يوما فقال : أيهما أعلم : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ يعنى أبا حنيفة ، ومالكا رضى الله عنهما ، قال الشافعى : قلت على الإنصاف ؟ قال : نعم ، قلت : فأنشدتك الله من أعلم بالقرآن : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ قال محمد : اللهم صاحبكم ، قلت : فأنشدك الله من أعلم بحديث رسول الله ، صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال : اللهم صاحبكم ، قال الشافعى رضى الله عنه : فلم يبق إلا القياس والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء ، فسكت محمد . وكان مالك معروفا بالصلاح والتقوى ، يشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضى الحقوق ، ويجلس فى المسجد فيجتمع اليه أصحابه ، فيعطى كلا مسألته ، وكان شديد التحرى فى حديثه وفتياه ، لا يحدث إلا عن ثقة ، ولا يفتى إلا عن يقين ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، فقد كان مهيبا نبيلا جليلا ، لايعترى مجلسه شىء من المراء واللغط ، ولا رفع الصوت . وحسبك فى مهابته وجلاله : أن هارون الرشيد الخليفة العباسى كتب اليه ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : العلم يؤتى !

فقصد الرشيد إلى منزله فجلس واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن من إجلال رسول الله إجلال العلم، فجلس بين يديه مستويا، فحدثه. وعرف عن مالك أنه إذا أراد أن يحدث توضأ، وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته، وتمكن فى جلسته، فسئل عن ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان لا يركب فى المدينة، حتى مع تقدم سنه وضعفه، ويقول: لا أركب فى مدينة دفنت فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان مالك لا يقول إلا ما يعتقد: سئل يوما عن يمين المكره، فقال: لا تلزم. فوشى به إلى جعفر بن سليمان والى المدينة عم المنصور العباسى، وقالوا: إن مالكا لا يرى إيمان بيعتكم لازمة، فاستدعاه وجرده، وضربه سبعين سوطا انخلعت فيها كتفه، وكأنما كانت هذه السياط تيجان مجد، وأوسمة شرف، فقد علت منزلته فى نفوس الناس، وازداد قدره.

تلاميذه:

تتلمذ لمالك جمهرة من أكابر العلماء، وما عرف عن عالم تتلمذ له كثير من شيوخه وأكابر أقرانه سوى مالك. وقد عد القاضى عياض من تتلمذوا له من هؤلاء وهؤلاء فنيفوا على الألف من مشاهير العلماء سوى من لم يشتهر، أو لم يعرف. فمن شيوخه الذين رووا عنه: محمد بن مسلم الزهرى، وقد مات قبل موت مالك بخمس وخمسين سنة، وربيعة بن أبى عبد الرحمن، وقد توفى قبل مالك بست وثلاثين سنة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وقد توفى قبل مالك بثلاث وأربعين سنة، وموسى بن عقبة وهشام بن عروة، ونافع بن أبى نعيم الأنصارى، ومحمد ابن عجلان، وسالم بن أبى أمية، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب، وعبد الملك ابن جريج، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازى، وسليمان بن مهران الأعمش.

ومن أقرانه: سفيان بن سعيد الثورى، والليث بن سعد المصرى، والأوزاعى، وحماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، وحماد بن سلمة، وأبو حنيفة وابنه حماد، وأبو يوسف القاضى، وشريك بن عبد الله القاضى، والإمام الشافعى، وبعدهم عبد الله بن المبارك، ومحمد بن الحسن، وموسى بن طارق القاضى، والوليد بن سليم، ومن أصحابه عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد

العزيز، وزياد بن عبد الرحمن القرطبي، ويحيي بن يحيي بن كثير الليثي، وأبو الحسن علي بن زياد التونسي، وأسد بن الفرات، وعبد الملك بن عبد العزيز الماجشون.

مؤلفاته:

أشهر مؤلفات مالك: الموطأ. وسبب تأليفه أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتابا أحملهم عليه، وجنبه شدائد عبد الله بن عمر، ورُخص عبد الله بن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود. فقال مالك: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى البلاد، فأفتى كل فى مصره بما رأى. ويروى: أن الذى كلمه فى ذلك هو المهدى، وأن مالكا أبى أن يحمل الناس على مذهبه، ثم وضع الموطأ. قال أبو زرعة: لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التى فى الموطأ أنها كلها صحاح لم يحنث.

ولمالك مؤلفات جليلة، مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة غير الموطأ؛ من أشهرها رسالة فى القدر، والرد على القدرية وهى تدل على سعة علمه، ومنها كتاب فى النحو، وحساب مدار الزمان، ومنها رسالته فى الأقضية فى عشرة أجزاء، ورسالته إلى أبى غسان محمد بن المطرف فى الفتوى، وكتابه المشهور إلى هارون الرشيد فى الآداب والمواعظ، وكتابه فى تفسير غريب القرآن، ورسالته إلى الليث بن سعد فى إجماع أهل المدينة وغيرها.

أدلته الاجتهادية.

يستند مالك فى مذهبه على الكتاب والسنة والاجماع، والقياس إذا لم يكن هناك نص من كتاب، أو سنة، ويعطى عمل أهل المدينة أهمية كبرى، لا سيما أئمتهم، وفى مقدمتهم أبو بكر، وعمر. وقد يرد الحديث لأنه لم يجر عليه العمل، ويقول: إن عدم عمل أهل المدينة به دليل على أن هناك ما ينسخه. ونازعه فى ذلك كثير من فقهاء الأمصار، ومنهم الليث بن سعد المصرى. ويقول مالك بالمصالح المرسلة، وهى أمور لم يشهد لها من الشرع دليل ببطلان، أو باعتبار، وذلك كضرب المتهم بالسرقة للاستنطاق؛ أجازه مالك لأن مصلحة المسروق منه تقتضيه، ومنها طلاق المفقود زوجها إذا تضررت بالعزوبة،

وانتظرت أربع سنين بعد انقطاع خبره ، يطلقها الحاكم عند مالك ثم تتزوج . أخذ في ذلك برأى عمر . ومن ذلك عدة المطلقة ونفقتها تدعى عدم الحيض . قال مالك : تعتد ثلاثة أشهر ، ثم تنتظر تسعة أشهر مدة الحمل ، فالمجموع سنة ، ولا نفقة لها أكثر من ذلك . وله غير ذلك .

وفاته :

توفي رحمه الله ، سنة **١٧٩** ه بالمدينة المنورة ، وصلى عليه عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عباس ، وكان والياً بعد أبيه على المدينة ، ومشى في جنازته وحمل نعشه.

« يتبع »

العلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : كن عالما أو متعلماً ، ولا تكن الثالثة فتهلك .

وقال عبد الله بن عباس : منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال .

وقال هو أيضاً : ذللت طالباً ، فعززت مطلوبا .

وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه ، قال كفاك بترك طلب العلم إضاعة له .

وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل لا يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم .

وقال شاعر :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل

وقال آخر :

تعلم فليس المرء يخلق عالماً وما عالم أمراً كمن هو جاهله

مفردات فلسفية

حرية (تتمة)

نقد و تعليق

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

نقد :

١ — المعنى : أو المعنى العام لكلمة حرية ، وهو حالة من لا يعانى إكراها ، ومن يتصرف حسب إرادته وطبيعته ، يراد عادة فيما يختص بالأعمال الإنسانية ، ويسمى هذا النوع من الحرية بالحرية الطبيعية ، وهى التى تنقص المريض والأسير ونحوهما .

والتعريف هنا غير جامع ؛ لأن حالة من لا يستطيع فعل ما يريد لنوع أدبى أو مصلحى من الإكراه يدخل غالبا فى نفس هذا النوع من الحرية . ومن مُثل ذلك الرجل الذى لا يستطيع أن ينتخب فى الناحية التى يهواها مخافة أن تضيع عليه فائدة ، والمريض الذى لا يستطيع عمل ما يريد مخافة ازدياد المرض ، لا بسبب عدم الاستطاعة الطبيعية أى الجسدية . إذاً يكون الأوفق التعبير عن هذا الضرب من الحرية بالحرية الخارجية ، لا الحرية الطبيعية .

٢ — الحرية بالمعنى السياسى لا يمكن أن تعرَّف بعدم أى إكراه يمكن أن يقع على الإنسان . فإن هذا المعنى لا يتفق بحال مع وجود الجماعة التى لها من الحقوق ما يجب أن يرعاه الفرد ؛ فلا يستطيع لهذا أحيانا فعل ما يريد . إن الحرية بهذا المعنى تكون إباحة وانطلاقا بلا ضابط ، لا حرية بالمعنى الصحيح .

الحرية السياسية هى إذاً عدم أى إكراه غير مشروع ، ولا يتفق مع طبائع الأمور « anormale » . وفى هذا يقول دُور كايم « Durkheim » فى كتابه

قسمة العمل الاجتماعى ص ٤٢٩ ، هذا الإكراه الذى يمنعنا من أن نُرضى دون قيد أو حدّ رغباتنا، حتى ما كان منها غير معقول ، لا يصح أن يختلط بالإكراه الحق الذى يحرمنا من وسائل نيل ما نستحقه على عملنا من جزاء عادل ، .

تعليق :

يرى الأستاذ هيمُون « Hemon » أن الحرية بالمعنى النفسى والأخلاق هى سيطرة المرء على نفسه ، وذلك بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى . وفى هذا المعنى لدى الرواقيين يقول إيبكتيت « Epictète » (فى كتابه : المختصر) : « يكون سيدا لهذا الشخص أو ذاك من يستطيع أن يعطيه أو أن يحرمه الأشياء التى يطلبها ، من يستطيع أن ينزل به ما يخاف أو أن يجعله بنجوة منه ؛ إذاً فالذى يريد أن يكون حرا عليه ألا يرجو أو يخاف شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقا » .

وفى هذا المعنى يحاور هذا الفيلسوف الرواقى تلميذا له فيقول :

— هل يستطيع أحد أن يكرهك على عمل ما لا تريد ؟

— نعم هذا من الممكن ؛ لأنى إذا هُدّدت بالموت أو السجن فعلت مالا أريد .

— ولكن إذا كنت تحتقر الموت والسجن ، هل تهتم بهذا التهديد فيجعلك تقوم على ما لا تريد ؟

— لا ، طبعا .

— بعد هذا هل ترى احتقار الموت من الواجب عليك ؟

— نعم ، بلا ريب .

— إذاً ، فإرادتك حرة دائماً .

ونحن وإن تنافى مقام تحديد معنى كلمة حرية ومدلولاتها المختلفة باختلاف الفلاسفة والنواحى التى استعملت فيها ، لا يسعنا إلا أن ندعو للتمثل بهذا الفيلسوف فى هذه الناحية .

* * *

ومهما يكن من المعانى التى اتخذتها كلمة « حرية » فى أول الأمر ، وبعد

أن اتسع مدلولها بتطور الزمن واختلاف الأفهام ، فإن هذه المعانى - التى رجعنا فيها إلى المعاجم العربيه والأجنبية ؛ وبخاصة قاموس « لالاند » الذى هو أساسنا دائماً - ترجع ، كما نرى إلى قدرة المرء على أن يفعل مايريد ، غير مقيد بشيء خارج عن نفسه إلا بالقانون ، ورعاية حق غيره من الأفراد ، وحق الصالح العام .

ومما يجب أن يلاحظ فى رأينا أن الحرية وإن كانت حقا طبيعيا للإنسان ، وفى هـذا يقول عمر بن الخطاب القولة التى نسبت إليه : « لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ! الحرية وإن كان كذلك إلا أنها - بكل أسف - قـد لا تتفق وسلطان الطبيعة العام ، هـذا السلطان الذى يتمثل فى ميل الطبيعة إلى أن يسيطر القوى على الضعيف . ومن ثم تكون الحرية نصرا كبيرا وصلت إليه الإنسانية بعد كفاح وبلاء عظيمين .

كما نلاحظ أن الإسلام اعترف منذ ظهوره بهـذا الحق الطبيعى للإنسان بما هو إنسان ، وذلك حين يقول القرآن فى سورة « البقرة » : « لا إكراه فى الدين » فهـذا تحرير لوجدان الإنسان وضميره ، ويتبع ذلك دائما تحرير فكره وعقله ثم تحرير مظاهر ذلك من عمله .

على أن الذى يمنع المرء عادة من أن يكون حرا ليس هو السلطة القائمة وحدها ، بل هو أنه يجعل نفسه - راضيا - أسير ما يرجوه من خير ، وما يخشاه من شر ، إن أعطى لنفسه حريته ، فخالف بما يقول ويعمل مايريد الرئيس منه ؛ ومن ثم ، نرى أن للمرء نفسه - الى حد كبير - أن يجعل نفسه حرا أو رقيقا .

وأخيراً ، لعل من الخير أن نختم هـذا البحث بالإشارة إلى بعض ما ذكره « سْبِينُوزا » فى رسالته السياسية عن الحرية .

إنه يرى أنه ليس للدولة أن تحدّ من حرية الفرد إلا بمقدار ما تخشى من ذلك على كيانها ، وأنه بمقدار ما تقل رقابة الدولة على العقل بمقدار ما تكون عليه الدولة والرعية من صلاح ؛ ولهذا ليس أخطر من أن يمتد سلطان الحكومة إلى عقول الناس وتفكيرهم ونفوسهم ، وأن الهدف أو الغاية التى يجب أن تعمل الدولة لها أن تكفل الحرية لكل المواطنين ، فإن المرء متى ظفر بهذه الحرية لا يكترث بعد هذا بأى ضرب من ضروب الحكومات يسود .



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

حسناوات

يجرى هذا الجمع لحسناء فى الصحف كثيراً . فنى مجلة « الاثنين » الصادرة فى يوم ١٩٤٨/٢/٢٣ : « هذا الكهل عاش مائة عام وعشرة ، لترشمه هؤلاء الحسناوات » . وقد جرى بحث فيه من الوجهة العربيّة ؛ فالمعروف أن ما كان من الصفات على فعلاء لا يجمع بالألف والتاء ، فلا يقال فى حمراء : حمراوات ، ولا فى سوداء سوداوات ؛ وذلك أن الجمع بالألف والتاء يتبع الجمع بالواو والنون ، فما جمع بالواو والنون جمع مؤنثه بالألف والتاء ، وما لا يجمع بالواو والنون لا يجمع مؤنثه بالألف والتاء ، فلما لم يقل أحمرون ، لا يقال : حمراوات .

وقد عدّ الحريرى فى درة الغواص من أوهام الخاصة وأغلاطهم قولهم : بيضاوات فى جمع بيضاء وسوداوات فى جمع سوداء ؛ قال[1] : « لأن العرب لم تجمع فعلاء التى هى مؤنث أفعل بالألف والتاء ، وإنما جمعته على فُعْل » .

وقد رأيت أن أتوسّع فى بحث هذه المسألة ، لأن الحاجة لجمع فعلاء قد تعرض للكتّاب والناطقين . ويذكر أهل اللغة ضربين لفعْلاء الصفة ، وقد أعرضت هنا عن فعلاء الاسم ، كصحراء ، لأنه لا خلاف فى جمعه بالألف والتاء ، وكذا لو سميت امرأة بسوداء ، لا ينازعك أحد أن تقول فى جمعها : سوداوات . ففعلاء الصفة ضربان : ١ ـــ فعلاء مذكرها أفعل ، وهذا هو

---

(١) انظر كشف الطرة للألوسى ص ١٥٣ .

الطريق الملحوب والمهيع فى فعلاء ، كحمراء وخضراء وما إلى ذلك . وهذه يرى أكثر النحاة ألا تجمع بالألف والتاء ، كما يرى أن مذكرها أفعل لا يجمع بالواو والنون ، وإنما يجمعان على فُعْل ؛ فأحمر وحمراء جمعهما حُمْر ، وهكذا ما ماثلهما ؛ وهؤلاء يحكمون بالشذوذ فى قول الشاعر[1] :

وما وجدت بنات بنى نزار حلائل أسودين وأحمرينـــا

ومن النحويين فريق يجيز ما حظره الآخرون ، فلا بأس عندهم فى جمع حمراء على حمراوات . وقد نسب الرضى[2] فى شرح الكافية هذا الرأى إلى ابن كَيْسان ، وهو ممن خلط بين مذهبى البصريين والكوفيين ، وكان صاحب اختيارات . ونسبه المرادى فى شرح التسهيل إلى الفرّاء وجعله قياس قول الكوفيين عامة ، إذ يجيزون فى مذكره الجمع بالواو والنون ؛ قال : « فلا يقال حمراوات كما لا يجمع مذكرها بالواو والنون . وأجاز الفرّاء سوداوات ، وهو قياس قول الكوفيين فى جمع أسود بالواو والنون » . وقد استند هؤلاء المجيزون إلى قول الشاعر السابق « حلائل أسودين وأحمرينا » ، ولم يروا شذوذه كما رآه السابقون ، وهم جمهور البصريين . وواضح أنا إذا أخذنا برأى هؤلاء المجيزين فقد وجدنا مخرجا واسعا فى تصحيح حسناوات .

٢ ــ والضرب الثانى : فعلاء صفة لا مذكر لها . وقد عقد ابن سيده فى المخصص[3] لهذا الضرب عدة فصول . ومن هذا الضرب حسناء التى أتحدث عنها ؛ إذ لا يقال فى مذكرها أحسن ، إنما أحسن صيغة تفضيل ، ومؤنثه الحسنى ، وجمعه الأحاسن ؛ قال صاحب اللسان : « قالوا امرأة حسناء ، ولم يقولوا رجل أحسن . قال ثعلب : وكان ينبغى أن يقال ؛ لأن القياس يوجب ذلك . وهو اسم أنث من غير تذكير ؛ كما قالوا غلام أمرد ، ولم يقولوا جارية مرداء » .

---

(١) نسبه صاحب الخزانة إلى الأعور الكلبى يرد به على الكميت الأسدى فى زرايته على القحطانيين وانتصاره لمضر ؛ انظر الخزانة ص ٨٦ ج ١ طبعة بولاق .

(٢) انظر شرح الكافية ص ١٨٧ ج ٢ .

(٣) ص ٣ ٥ وما بعدها ج ١٦ .

ومن هـذا القبيل حلة شوكاء للجديدة ، لا يقال ثوب أشوك ، وكذلك امرأة عجزاء ، ورتقاء ، وعذراء ، وهذه لا مذكر لها من قِبل الخلقـة والطبع . وإن أردت استقصاء ذلك فارجع إلى المخـّصص .

وأقول فى هذا الضرب : إن المجيز للجمع بالألف والتاء فى الضرب الأول يجيز هذا لا محالة ، وأما المـانعون فى الضرب الأول فهم فى هذا الضرب فريقان :

(ا) ففريق يرى المنع ، وهم الـكثرة ، ويستندون فى ذلك إلى الحمـل على الأكثر ، وهو فعلاء التى مذكرها أفعل ، ومن سنن العرب حمـل الأقل على الأكثر فى الظواهر اللغوية ، ومن ذلك أن أكمر وآدر يمنعان الصرف وإن لم يرد لهما مؤنث حتى يدرى أهو مختوم بالتاء أم لا ، حملا على الأكثر فى ذلك وهو غير المختوم بالتاء . فلا يقال عند هؤلاء : حسناوات ، ولا عجزاوات ، ولا عذراوات .

(ب) وفريق يرى أن منع الجمع بالألف والتاء لمنع جمع المذكر بالواو والنون ، وهذا الضرب لـما لم يكن له مذكر ، لا يتحقق هذا المـانع ، فيجوز الجمع بالألف والتاء ، وإمام هؤلاء ابن مالك .

وقد أيد ابن مالك قياسه هذا بالسماع ؛ فقد قال العرب فى خيفاء : خيفاوات ، وفى دكاء دكاوات . يقال : ناقة خيفاء ، أى واسعة جلد الضرع ، ونوق خيفاوات وخيف ؛ قال صاحب اللسان : الأولى نادرة ، لأن فعلاوات إنمـا هى للاسم أو الصفة الغالبة غلبة الاسم ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس فى الخضراوات صدقة » . وترى فى الحـكم بندور هذه الصيغة مغمزا فى استدلال ابن مالك : على أن له أن يقول : إن النادر إذا كان له وجه من القياس صح القياس عليه ، كما قاس سيبويه على شنئى ، ولم يرد من بابه غيره . والدكاء يقع وصفا للأكمة المنبسطة ، ويذكر صاحب اللسان أيضاً أن هذا نادر ، وهذا لا يحجر على ابن مالك فى قياسه لـما أسلفت .

وإنى أسوق إليك كلام ابن مالك فى شرح التسهيل ؛ قال بعـد أن ذكر ما يجمع بالألف والتـاء : « واستثنيت فعلى وفعلاء المقابلين لفعلان وأفعل ، فإنهما لا يجمعان بالألف والتـاء كما لم يجمع مذكرهما بالواو والنـون . ولا يلزم

هـذا المنع فيما كان من الصفات على فعلاء ولا مذكر لهـا على أفعل ؛ نحو قولهم : امرأة عجزاء ، وديمة هطلاء ، وحلة شوكاء ؛ لأن منع الألف والتـاء من نحو حمراء تابع لمنع الواو والنون من أحمـر ، وذلك مفقود فى عجزاء وأخواتها ؛ فـلا منع من جمعها بالألف والتـاء . على أن الجمع بالألف والتاء مسموع فى خَيْفاء ، وهى النـاقة التى خِيفَت أى اتسع جـلد ضرعها ، وكـذا سمع فى دكاء وهى الأكمة المنبسطة ، وكلاهما نظير ما ذكرت فى عجزاء وهطلاء وشوكاء ، فى أنهن صفات لا مقابل لهـا على أفعل . فثبت ما أشرت إليـــه والحمـد لله » .

على أن هـذه المسألة لا يزال فيهـا بقية من البحث وفضل من النظر . فإن حسناء كلمـة شائعة عنـد العرب ، ولم يرد عنهم فى جمعها حُسْن ولا حسناوات ، وإنمـا يقولون : نساء حسان ؛ قال فى اللسان : « وجمع الحسناء من النساء حسان ، ولا نظير لهـا إلا عجفاء وعجاف » . وفى الحق أن هذا ليس بجمع قياسى لفعلاء ، وإنمـا هـو من باب الاستغناء فى البـاب بشىء من باب آخر . فقـد جعلوا للحسناء جمع مرادفها حسـنة . فقالوا : حسان ، كما جعـلوا العجفاء جمـع مرادفها عجف ، فقالوا عجاف . وقـد دعاهم إلى ذلك أن يجعلوا عجافا مقابل سِمان ونظيرها فى الوزن . وهم ممـا يحملون الشىء على ضـده ، كما قالوا : رضى عليه ، حملا على سخط عليـه . فـكذلك قالوا : حسان فى جمع حسناء كما قالوا قبـاح . وفى قوله تعـالى : « فيهن خـيرات حسان » فالظاهر أن حساناً جمع حسناء ، لا حسنة .

ومن المقرر عند أصحاب هذا الشأن أن ما استغنى العرب عنه بغيره اطرح ووجب اتباعهم فيـه . فهذا يقودنا إلى حظر حسناوات والتزام حسان ، وهذا هو الوجه فى هذه الكلمة ، وإن كان لنـا ممـا سلف من الآراء مخرج نتجوز به ونتوسع فى استعمال حسناوات .

علّل لمـا تقول :

يجرى هـذا الاستعمال كثيرا فى الأسئلة التى توضع لاختبار الطلاب فى

مراحل التعليم ؛ فيقال : أجب عن كذا وعلل لما تقول ، أى اذكر علته ووجهه . والمعلل فى مصطلح آداب البحث هو المدعى الذى وظيفته أن يقيم الدليل على دعواه ويستدل ويذكر علته ، ويقابله المانع أو السائل ، وهو الذى يطلب الدليل ، ويبحث فى العلة التى ينصبها المعلل . وقد تحدث بعض المعنيين بالعربية فى عربية هذا الأسلوب ، فأردت أن أذكر نبذة تتعلق به .

فيقال : علّل الشارب إذا سقاه مرة بعد أخرى . والأصل فى هذا العَلَل ، وهو الشرب للمرة الثانية وهو ضد النَّهل ، وهو الشرب للمرة الأولى ، يقال : سقيته عللا بعد نهل ، ويقال : علل الصبى إذا ألهاه عن البكاء بما يقدم إليه من حلوى وغيرها ، وكذلك يقال فى كل تسلية ؛ قال جرير :

تُعلّل — وهى ساغبة — بنيها بأنفاس من الشبِم القَراح

وقال خِداش بن زهير :

كذبت عليكم أو عدونى وعلّلوا بى الارض والأقوام قردان موظبا

يقول : هدّدونى واهجونى وألهوا بهجائكم إيّاى الارض والاقوام ياقردان الموطن المسمّى موظب ، وهو مكان يكثر فيه القردان ، والقِردان واحدها قُرَاد ، وهو دوَيبّة يلصق بالبعير ويَعَضّه .

ويقول الشاعر :

خليلىّ هبّا علّلانى وانظرا إلى البرق ما يفرى سنا وتبسّما

يقول : عللانى أى حدثانى وألهيانى بالحديث .

وقد يعرض للباحث أن يسأل عن صلة العلة للسبب أو الدليل بالعَلَل . وبيان ذلك : أن العلة تأتى فى معنى المرض ؛ وكأن ذلك فى الأصل للحمّى تعتاد الإنسان بعرقها و رُحَضائها ، فكأنما تسقيه ذلك ، ثم أطلق على كل مرض . واستعملت العلة فى الحدث يشغل صاحبه عن حاجته كأنما هو مرض يكف صاحبه عن مزاولة أعماله ومعالجة أسباب عيشه . واستعملت العلة أيضا فى العذر يعتذر به الإنسان عن لوم يوجّه إليه فى التقصير فى بعض الأمر ، والأصل فيه المرض ؛ فإن المريض يسقط عنه اللوم والمعتبة ، والله تعالى يقول :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » . ولما كان العذر سببا يتمسك به المعتذر أطلق العلة على السبب ؛ وتقول عائشة رضى الله عنها فى حديث لها عن أخيها عبد الرحمن : كان عبد الرحمن يضرب رجلى بعلة الراحلة أى بسببها : يظهر أنه يضرب رجل الراحلة وإنما يضرب رجل عائشة رضى الله عنها . وأطلق العلة من هذا على الدليل يستدل به المدعى إذا كان سببا فى تمكين ما يقول ويدعى .

وبعد هذا أقول : إن ذكر التعليل فى معنى ذكر العلة لانراه فى المعاجم باديا سافرا ، فالذى فيها هو المعنى السابق وما يمت إليه . ومن ثم أنكر بعض الباحثين هذا الاستعمال الذى صدرت به البحث . غير أن صاحب اللسان أورد فى المادة هذا النص — وهو عن المحكم — : « المعلل : دافع جابى الخراج بالعلل » فترى أن المعلل من يذكر العلل ، وعلى ذلك يقال : علل أى ذكر العلة أو العلل ، وهو ما نريد . فإن قال قائل : إن الوارد هو الوصف ، فأما الفعل فلا نراه فى عبارة ابن سيده . قلت : إن الوصف إذا ورد كان مؤذنا بقيام الفعل . ويقول ابن جنى : « [1] قال لى أبو على — بالشام — : إذا صحت الصفة فالفعل فى الكف » .

ومما يؤنس لما نحن فيه أنه ورد الاعتلال فى معنى ذكر العلة ؛ ويقول الفارابى — على ما فى المصباح — : اعتل إذا تمسك بحجته . وقال [2] أبو قيس ابن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذر

وليس بها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر

فقوله : تعتل عن إتيانهن أى تعتذر بذكر وجه تخلفها عن زيارتهن . فظهر أن التعليل فى معنى ذكر العلة له وجه صحيح . والله أعلم .

---

(١) الخصائص ص ١٣٧

(٢) انظر الأغانى ص ١٦٦ ج ١٥

البيان لا المعجزة

لحضرة صاحب السماحة «السيد»

خليقة حميدة قديمة فى علماء الدين ورجالاته ، لا المحدثة فيهم ولا المنتزعة ؛ تلك أنهم كلما تلقوا أثارةً من وحى السماء وحوار النبى صلوات الله عليه ، تلقوهما باليمين والعقد المتين ، واستمسكوا منهما بالحقيقة الصلبة ، لا بالتجوز ولا التسمح ، حراسةً للدين و بُغيا اليقين ، وقد تنزلت بالاستعارة والكناية ، آية ، وصَلح وَحيُ المجاز ، أو جاز .

نضَّرَ الله أشياخنا وأسلافنا الأصوليين ، فقد كانوا ألين أخذاً ، وأرفق تفهماً ، قالوا — على التمثيل — : إن الأمر الشرعى للوجوب ، ثم تلفتوا ناحيةً ، فأصابوا أموراً فى طلبها هوادة وترفق ، فقالوا إلا حين تقول الشواهد والدلائل : لا وُجُوب . أما حلاوةُ الشمائل كلها ، وترفُ النفوس والأفئدة بجملته ، فذاك أن الأصوليين وقد استمعوا الى آية التفسح فى المجالس ، وهى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس ، فافسحوا يفسح الله لكم » يقولون : إن الأمر للوجوب الشرعى ، أجل ، ولكنه فى مثل هذه الآية للأدب الاجتماعى ، والرقه النفسية .

تجلت علينا السيرة النبوية بحديثين أو خبرين عن النبى صلوات الله عليه ، أحدهما فى هجرته ، والثانى فى غزاته ، أخذ علماءُ الدين فيهما بالأشدِّ من جدِّ القول وجوهر الحقيقة ، دُون طُلاوة البيان ، وبشاشة الكناية ، والتسمُّح الأدبى .

إن بِنا بعد هذا أن نعرض نبأ هذين الحديثين فى حُلّته وحِليته ، لنظر أىّ الرأيين أمثل ؟ الحقيقة أم الكناية ؟ ، وأيهما أنبلُ وأرقُّ : المعجزة أم البيان ؟ ؛ أما الخبرُ الأول : فذاك ما خرَّجهُ مسلم فى صحيحه ، وغير مسلم ، قال : « إن النبى صلوات الله عليه ، حين هبط المدينة فى هجرته ، أتاه عُتْبان

ابن مالك، وعباس بن عُبادة، فى رجال من بنى سالم بن عوف، وأخذ بزمام ناقته، فقال: يا رسول الله، أقِم عندنا فى العَدد والعُدّة، فقال: «خلّوا عنها فإنها مأمورة (١)»، وما زالت الناقة سائرة، حتى أتت دارَ بنى مالك بن النجار، حتى بركت على باب مسجده، والنبى لم ينزل عنها، فقامت ثانية، وسارت غير بعيد، ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت الى خلفها وبركت!».

هذا حديث الهجرة، يرى العلماء فيه مسحة من المعجزة، فى مقالة النبى صلوات الله عليه «دعوها فإنها مأمورة»، وفى بُرُوكها حيث نزل على بنى النجار، يَرَون أنها أبت البُرُوك من ذات نفسها، ثم من ذات نفسها بركت بعد ذلك، حيث يريد الله والنبى صلوات الله عليه. ويقول البيان العربى وسحر المجاز: كلا، ليس فى المقال شىء من هذا كله، وأن النبوّة قائمة بغير هذه من المعجزات، وبينة الآيات.

إن البيان العربى ليُسمى الشىء باسم متصل به ملابس له، وما هو بسبب منه، وعلاقات المجاز لا تُعَد، فقد عَنَى النبى نفسه حين قال «دعوها فإنها مأمورة»؛ ذلك أنه هو المأمور لا هى، إما بوحىٍ من الله، وإمّا بوحْىٍ من الصالح، ورياضة المصالح؛ يقول الشاعر فى مثل هذا، وأعجب أن يكون فى ذكر الناقة:

جاءت إليك قلقاً وَضِينُها مخالفا دينَ النصارى دينُها

وإنما جاء بها صاحبها، وإنما المخالف لدين النصارى إنما هو دينه هو، لا دينها هى. وقال شاعر آخر، وأكبر العجب أنه فى الناقة كذلك:

سمعت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح انتجعى بلالا

وإنما انتجع هو بلالا لا ناقته. ويقول شاعر آخر فى تسمية الشىء بما يدانيه، أو يلاقيه ويلابسه:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

قيل: ثيابه جسمه، أجل هى كما قيل. هذا هو الحديث الأول؛ أما الحديث الثانى فذاك حديث القَليب الذى ألقيت فيه أشلاء الصناديد من قريش بعد القتل فى بدر.

---

(١) ليست هذه الجملة فى أصل الحديث.

حديث القَليب :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن رسول الله صلوات الله عليه كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، فو الذى بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التى حد رسول الله صلوات الله عليه حتى انتهى إليهم حين ألقوا فى القليب ، فنادى : ياعتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ، يأهل القليب : هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا ، بئس العشيرة كنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ! فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله كيف يسمعون ؟ وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ قال النبى : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يقدرون أن يجيبوا » .

تلك قصة أهل القَليب ، قَليب بدر ، الذى ألقيت فيه صناديد قريش حين قتلوا . أما الدين فقد أرسلته السماء ، فتلقته بارتياحها الأرض ، وقامت به المعجزات حتى راعت ، شهدها الثقلان ، وغمض عندها القمران ! ، أما المعجزة فلا يجمل أن نقول فيها هذا حديث معجزة ، فإنما هى خارق ، إن كثرت عادت قاعدة أو إلفا ، فلم تكن معجزة ولا آية ، وانقلبت الآية ! .

لسنا بسبيل أن نجحد حياة الموتى ـ معاذة الله ـ ولا أن نستنكر إسماع النبى لمن فى القبور أو القليب ، فإن هذا حق قائم ، وهو لُب الدين ، معقد الإيمان : ولكننا نستنكر أن يكون هذا ـ دون ما ذكرناه ـ مغزى السيد الرسول صلوات الله عليه فى هذا النداء لأصحاب القليب ، وإنما هو خطاب العظة والحكمة ، لا لأسرَى الموت والفناء ، بل للأحياء ! .

إن النبى صلوات الله عليه حين خاطب أهل القليب فى بدر ، فقرّعهم بالحجة القائمة من النصر المؤزّر ، لم يعمد إلى إبانة معجزة ، ولا قصد إلى آية ، ولكن سجية تلك فى العظماء أن يتطربوا ، وترناحهم استبانة الحق ، وتجلى الحكمة ؛ فإن هم خاطبوا الموتى ، فإنما يخاطبون فيهم الأحياء للحكمة والعظة وشفا النفس بقومة الدعوة وتبلج اليقين . . . إن حديث الناقة فى الهجرة النبوية ، وخطاب أهل القليب فى بدر ، إنما هو إذنٌ للبيان لا المعجزة والآية ، إن فى ذلك لآية .

الشريعة الإسلامية وقانون من أين لك هذا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

من أين لك هذا ؟ عنوان قانون تصدره الحكومة الآن تعالج به الفساد الذى أشاعه فى الأداة الحكومية ذوو الضمائر المدخولة ، والذمم الضعيفة ؛ فضعفت ثقة الناس بها ، وساءت ظنونهم فيها ، وألجأتهم إلى أن يسلكوا فى إنجاز شئونهم مسالك الريب التى سنها أولئك المجرمون ، وهى مسالك قذرة ، لا تشرف بها الحكومة ، ولا تشرف بها الأمة . وقد ابتليت مصر ببعض حكام طغى على نفوسهم سلطان المادة ، وغشى أعينهم بريقها ، فأفقدهم الأمانة والشرف ، ومراقبة الله والواجب ؛ فاندفعوا يجمعون الأموال من طرق غير مشروعة متوسلين إلى ذلك بجاههم الحكومى ونفوذهم الرسمى ، وكانوا بذلك عاملا من عوامل الفساد الخلقى والاجتماعى ، فأغروا من دونهم أن ينهج نهجهم ، ووجد داء الرشوة سبيله إلى الدواوين ، وانعقدت فى جو الموظفين سحب السحت والحرام ، فلجأت الحكومة إلى مكافحة هذا الشر بذلك القانون ؛ لتستقيم الأداة الحكومية ، وليطمئن الجمهور إلى مصالحه وشئونه .

وضعف الخلق وفساد الذمم داء قلما سلمت منه أمة وخلا منه عصر ، إلا أن ظروف الحياة قد تضاعف من أثره وتزيد من خطره ؛ فتلجأ الحكومات إلى سن القوانين لمكافحته ، والوقاية منه ، وليس ببعيد أن يكون بعض ملوك قدماء المصريين قد ألجأته الظروف إلى سن مثل ذلك القانون ، كما قال بعض الكتاب ؛ فقد ذكر أن هناك قانوناً يعرف بقانون « أمازيس » وهو يقضى على كل مصرى أن يذهب مرة فى كل عام إلى شيخ قريته أو بلدته ، ويثبت له أنه يعيش فى حدود موارده من طريق شريف ، فإذا عجز عن إثبات ذلك ، كان قصاصه الإعدام .

وقد عرف الإسلام أصول ذلك القانون فى كتاب الله وسنة رسوله ، وعرف

تفاصيله فى أعمال الرسول وأعمال الخلفاء والتابعين والصالحين من الولاة من بعدهم ، وعنى الإسلام بموضوعه أشد العناية ، فدعا إلى اختيار الحكام ممن عرف بالعدالة والنزاهة ، وسلامة الدين والخلق ، وحذر من اختيارهم لداعى القرابة والمودة ؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا لمودة ، أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله ، وخان المؤمنين » ، وحذر الحكام من استغلال نفوذهم ، والإفادة من جاههم الرسمى فى مصالحهم الخاصة ، وبالغ فى تحذيرهم من ذلك مبالغة صرفت كثيراً من الصالحين عن الولاية والحكم ؛ بل لقد كان بعضهم يؤثر الضرب والسجن على الحكم ؛ كما فعل أبو حنيفة ومحمد رضى الله عنهما . وفى القرآن الكريم من أصول ذلك القانون قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعاً بصيراً » فالعمل الذى وكل إلى الموظف أيا كان نوعه وجعل له فى نظيره مرتب يتقاضاه عنه ، أمانة يأمره الله بأدائها على وجه كامل ولا يحل له أن يأخذ من الأفراد شيئا وراء مرتبه ؛ لا على سبيل الهدية أو الاكرام ، أو نحو ذلك من العناوين التى لا تغير من حقيقة موضوعه شيئاً ؛ فهو سحت ورشوة ، وحرام مهما تزين بعنوان . وقد حكم النبى صلى الله عليه وسلم بمصادرة الأموال التى جمعت من طريق استغلال النفوذ الحكومى والجاه الرسمى ، وضمها إلى مال الدولة ، كما يقضى بذلك بعض موادالقانون المراد وضعه .

فعن أبى حميد الساعدى ، رضى الله عنه ، قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللُّتْبِية على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت إلى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ! . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فأنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها

شيئاً بغير حقه إلا جاء الله يحمله يوم القيامة ! فلأعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار! ثم رفع يدية إلى السماء حتى رئى بياض إبطيه، وهو يقول: «ألا هل بلغت!» قال العينى شارح البخارى فى شرحه لهذا الحديث: وفيه أن ما أهدى إلى العمال وخدمة السلطان بسبب السلطة، أنه لبيت المال. وقيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: أفقرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم، وكان فى مرض الموت. فقال: أدخلوهم على، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: والله يابنى، ما منعتكم حقا هو لكم، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، فقوموا عنى!.

وأوجب الإسلام فصل الموظف الذى يدنس شرف الوظيفة بالرشوة، فنص الفقهاء على استحقاقه العزل بها، وحرموا الاستقراض والإعارة ممن لهم شئون ستعرض عليه للنظر فيها، مبالغة فى ضمان سير العدالة فيها.

والأحاديث ونصوص الفقهاء وأعمال قضاة الإسلام حول موضوع هذا القانون كثيرة، سواء منها ما يتعلق بناحية التشريع، أو ناحية التطبيق، وهى تبين بحق، حرص الإسلام على سلامة الأداة الحكومية، تحقيقاً للعدالة والثقة فى نفوس أرباب المصالح؛ وتبين يقظة ولاة الأمور فى الإسلام، وتقديرهم لخطورة استغلال النفوذ، وسوء أثره فى أخلاق المجتمع؛ فليس هذا القانون ببعيد عن روح الإسلام وشريعته، وأعمال قضاته، وإن خاله بعض الناس كذلك، والبعيد عنه إنما هى الصياغة والأسلوب فحسب، بل ربما كانت نظرة الإسلام إلى هؤلاء الخائنين أشد صرامة من نظرة القانون الحديث.

هذا، ولنا على عنوان القانون ملاحظة لفظية، هى ثقل هذا العنوان اللفظى على السمع والذوق، وربما يشركنى فيها كثير من الناس؛ وأكبر الظن أن واضعى القانون حرصوا على ترجمته من بعض اللغات الأجنبية، ترجمة لفظية، وكان يمكن بشيء من التنبه اختيار عنوان يؤدى هذا المعنى، وليس فيه ذلك الثقل فيسمى مثلا: قانون الثروة المجهولة، أو الثروة غير المشروعة، أو ما يشابه هذه العناوين، خفة على السمع والذوق؟



المتوفى سنة ٩٤ هـ .

عصره . إلمامة بمنزلته وتقـــدير الناس له . أهم المؤثرات في شخصيته . عهد التعلم . عهد التعليم . صور من ناحيته العلمية .

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

عهد السلف الأولين الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل المبين في قوله : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[1] ـ عهد كان له فضل التوفيق من الله سبحانه إلى سداد القول ، وسداد العمل ، وإلى عمران الحياة بما هو سعادة للحياة وبر بأنفسهم وبالناس أجمعين .

كان الناس إذ ذاك ، وليس بهم حرص على عَرض هـذا الأدنى ، ولا بهم طمع في نيل المناصب ، أو الإبقاء عليها ؛ وإنما تقطع أعناق الرجال المطامع . وكان علماؤهم بمنزلة من العزة والمهابة ، تحسدهم عليها الملوك الصيد ، وإذا حاول كبير أن ينال منها أذله الله ، ورده خاسئاً وهو حسير .

فياليت شعرى أين هؤلاء وما استنوه لنا من عز أقعس وطهر لا يتدنس ! أين هؤلاء ؟ وأيةً سلكوا ؟ لقد طارت بهم عنقاء مُغرِب ، وعز مطلبهم في كل شرق ومغرب . فما بقيت إلا ذكرى قد توقظ الهاوين منا في دركات الغفلة والتمادى في الفضول ، كما يوقظ نائم حسير منهوك قد بعد عهده بالنوم ؛ فلا يوقظ إلا ليعاود النوم ، ولكن الإلحاح في الإبساس[2] ، ربما جاء بالدرة وأنقذ من شر كبير .

---

(١) صحيح متفق عليه .

(٢) أبس الناقة دعاها للحلب متلطفا . والدرة بالكسر : اللبن وأنصابه .

كان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من أهل القرن الأول من أولئك الخيار الذين استمسكوا بحبل الله المتين ، وجمدوا على تقاليد الدين ، وأخذوا أنفسهم بما سمعوا من الرسول ومن أصحاب الرسول فاتبعوا أحسنه .

وهو من التابعين الذين يقول فيهم الله سبحانه فى كتابه « والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات » الآية . بل هو سيد التابعين ؛ كما تواترت النقول عن السلف ، وكما سترى فى الشهادة له [1] ، وتقدير المعاصرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

كان الحبر الإسلامى العظيم عبد الله بن عمر بن الخطاب . يعجب به كثيراً ، ويحيل عليه فى الفتاوى ، ويقول : سلوا هذا فإنه عالم ، فإذا نقل إليه حكمه يقول : ألم أخبركم ؟ ! بل كان يرجع إليه بنفسه يسأله عن أقضيه أبيه عمر ، فلو لم تكن إلا هذه لابن المسيب ، لكفت فى فضله .

* * *

شاء الله سبحانه أن يكون ابن المسيب فى هذه المكانة ؛ فأنبته بالمدينة نباتا حسنا من أب وجد صحابيين ؛ فقد كان أبوه المسيب صحابياً ، وكان جده حزن صحابيا ، يقولون إنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أنت سهل ، فقال : بل أنا حزن ثلاث مرات . قال سعيد : فما زلنا نعرف تلك الحزونة فينا . ونشأ سعيد منذ عهد العدالة الشاملة والخلق الفاضل العظيم ، عهد عمر بن الخطاب ؛ فقد ولد لسنتين من خلافته على المشهور فى الرواية ، وكان عهداً يتفاضل الناس فيه بالتقوى ، ويوزنون بما عندهم من علم نافع ؛ وعمل صالح ، فأحب العلم ووهب له وقته وكده ، وهو حافظ كانوا يتحدثون أنه لا يسمع شيئاً إلا وعاه ، واتصل بالصحابة واختلف إليهم ، يأخذ من معارفهم ، وأدبهم ويحاكيهم فى تهذيبهم ونبلهم ، ويروى عنهم ما كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم .

فأسند ـ كما يقول ابن الجوزى ـ عن عمر وعثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص وأبى بن كعب ، وعمار بن ياسر ، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر ، وأبى الدرداء ،

---

(١) يريدون أنهم سيدهم فى المعارف والفقه الإسلامى ، وإلا فقد ورد فى الحديث الصحيح « خير التابعين أويس » أخرجه مسلم .

وعقبة بن عامر وصهيب وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وسلمان وأنس بن مالك ، وابن عباس ، وعمر بن أبي سلمة ، وعائشة ، وأم سلمة .

وقد اتصل بأبي هريرة وزوجه ابنته ، ولزمه ، فكان أعلم الناس بحديثه ، وأخذ تعبير الرؤيا عن أسماء بنت أبي بكر ؛ فكان من آيات الله وفي مثل منزلة ابن سيرين ؛ إلا أن شهرته بالفقه زاحمت إتقانه في التعبير . كل هذه البيئات الصالحة والاتصالات المثمرة ، مع ذلك الاستعداد الخصيب في ابن المسيب ، سمت به وارتفعت بمكانته ، ووصلت به إلى تلك المزايا ، وخلعت عليه تلك الألقاب الفخمة « سيد التابعين ، وأنبل التابعين ، وإمام الفقهاء » ، وما إلى ذلك مما ينعته به العلماء . قال أحمد بن حنبل يوما : سعيد أفضل التابعين ، فقيل له : فسعيد عن عمر حجة ، قال : « فإذا لم يقبل سعيد عن عمر فمن يقبل » ، وإنما سأل السائل أحمد هذا السؤال ؛ لأن سعيداً كان صغير السن في عهد عمر فاستبعد أن يسمع من عمر ، ولكن الثقة بسعيد جعلته في منزلة القبول ، حتى اعتبر العلماء مراسيله من الصحاح .

هذا وإنك تستطيع أن تقول : إن أكبر هذه العوامل أثراً في تكوين سعيد بعد استعداده الكريم — صحبته أبا هريرة ولزومه إياه ؛ كما كان أبو هريرة يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر الصحابة رواية ، أو من أكثرهم ، وقد كان من أثره فيه أنه اقتدى به في تزويج ابنته أحد تلامذته الفقراء وإيثاره بها على الوليد بن عبد الملك الأمير .

على أنه استطاع بالمحاولة والتنقيب أن يجمع فقه الصحابة وأقضيتهم ، يسأل عنها ويرويها حتى صار أعلم الناس بها ، وحتى قال عن نفسه : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان مني . ولعل ذلك لأنه جمع متفرقات ما عند أجلاء الصحابة في عهده ؛ فكان مرجعاً حتى للصحابة أنفسهم يأخذون عنه ، ويثقون بنقله عن إخوانهم رضي الله عنهم .

* ٥ *

ولعلك إذا سمعت كلمة الفقه ، فهمت فيها ذلك المعنى الطارئ الذي ينصرف إلى معرفة الأحكام الشرعية على وجه يصح به نظام الحياة وتسقط به المطالبات ، وإلى دراسة الأنكحة ، وصور الطلاق والإيلاء واللعان ، والتغلغل

فى التفريع على قواعد الرهن والسلم والصرف ، وهذا غير صحيح ؛ فإن الفقه عند السلف كان أسمى من هذا معنى وأنبل مقصدا ؛ لقد كان راجعا الى فهم الدين فهما يهذب النفس ، ويوجهها الى البر والخير ، ويدل على عيوبها ومداخل الشيطان إليها وطرق محاربته ومجاهدة النفس لتنجو من غوائله . قال الإمام الغزالى فى الإحياء [1] ، وهو يحدث عما دخل الألفاظ من التغيير :

« إنهم تصرفوا فى لفظ الفقه بالتخصيص ، فقد قصر على معرفة الفروع فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها ، ولقد كان اسم الفقه فى العهد الأول يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل : « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة ؛ بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه . . . » وأفاض الغزالى فى هذا المعنى .

هذا هو الفقه الذى أجاده سعيد ، والذى كان سيد عصره فيه . وهذا هو الفقه الذى كان له أكبر الأثر فى قنوت ابن المسيب ، وإعراضه عن الدنيا وإقباله على الآخرة ، والذى جعله يلزم المسجد النبوى ، ويواصل الخطى إليه ولا يتخلف فيه عن جماعة ، ولا ينظر فى الصلاة إلى قفا أحد ؛ لأنه يصلى فى الصف الأول أربعين سنة . وهو الذى جعله يتابع الصوم ، وجعله لا يقبل من أحد شيئا ، وجعله لا يقارن على كظة ظالم [2] ولا سغب مظلوم ، وجعله لا يقبل أن يسام خطة ليست فى مرضاة الله ولا طاعته ، وهو الذى جعل سعيد بن المسيب ينظر إلى الخليفة والأمير نظرته إلى المرذول الحقير ، لا فضل لأحد عنده إلا بطاعة الله ، ولا يسمع قول أحد لا يدعو إلى سنة رسول الله . فهو لا يبايع للوليد وهشام ابنى الخليفة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وإن عرض على السيف وإن جردوطيف به . وهو لا يزوج ابنته من الأمير ولى العهد لأنه لغير وجه الله .

---

(١) ص ٥٤ جـ ١ طبع لجنة نشر الثقافة .

(٢) الكظة بالكسر : البطنة .

ولا يلتمس به ما عند الله . لكنه يزوجها لأبى وداعة الطالب الفقير ؛ يزوجها لمن يرضى خلقه ودينه ، ويعرضها عليه بنفسه ويسلمها إليه بنفسه . بعد أن يصلى بها ركعتين ، ثم يبعث إليه بنفقته وما يحتاج إليه ، ولماذا يصاهر الخليفة والقرآن يقول : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » لماذا يصاهر الخليفة ، وقد أعرض عن الدنيا وطلب ما عند الله ، والخليفة يقربه من الدنيا ويباعده عما عند الله ! . وسأفصل لك هذه الصور بما يضع أمام عينك المثل الصالح للعالم الصالح ولرجل الدين الصحيح .

وبعد ، فإن المتتبع لتاريخ هذا الإمام يستطيع أن يقسم حياته شطرين : شطر التعلم والاستفادة ، وشطر التعليم والإفادة .

أما الشطر الأول فتستطيع أن تحيط به إحاطة عابرة ، إذا علمت أنه منذ نشأته فى هذا الوسط الكريم ، ماونى فى طلب العلم يأخذه من أصوله ويصعد اليه فى قممه ممن ذكرت لك من الصحابة ، وهو الشاب المتوقد الطموح ؛ يعينه على ذلك صفاء نفس ، وطهر من كل دنس ، وقلب حافظ ، وتفرغ كان يحفزه إلى الرحلة فى طلب الحديث الواحد الأيام والشهور . على أنه كان قليل الرحلة فى طلب العلم ؛ لأنه فى ذلك العهد موفور بالمدينة مقر الخلافة ومؤئل العلية من أصحاب محمد ؛ فهى تموج بالعلماء الربانيين الذى نصبوا أنفسهم لتبليغ دين محمد صلى الله عليه وسلم ، يبينون الكتاب للناس ولا يكتمونه ، وينقلون الحديث والفقه ولا يدخرونه ، ففيم رحلته وهو بين بحار العلم المتلاطمة ، وبين أنوار الإسلام المتلالئة من المهاجرين والأنصار . رحم الله الجميع وجعلنا لنا فيهم الأسوة الكريمة . فما زال ابن المسيب فى ذلك الجانب ، حتى صار كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، وتضاعف إحسان الله سبحانه إليه ، فكان إمام التابعين ، تضرب اليه آباط الإبل ، وهو فى ذلك الحين المثل الأعلى للمؤمن الصالح والمسلم المحافظ .

ثم يبتدى الطور الثانى من حياته ، وهو طور الإفتاء ونصب نفسه للتعليم إيمانا واحتسابا ، يعكف أكثر وقته على مسجد الرسول بين صلاة وتعليم ، ولا يعرف بالتحديد ذلك الوقت ولا نص عليه ، ولكننا نرجح أن ذلك كان فى المدة

بين خلافة معاوية وابنه، ومهما يكن فقد ألقى عصا التسيار لا يعرف الطريق إلا ما بين مسجده ومثواه، مع نه يتجر فى الزيت؛ فلا تلهيه التجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة، ويجمع من المال ما يصون به عرضه، ويكرم به نفسه عن بنى مروان، ويحسن به إلى الفقراء قصداً لا إلحافا، وإجمالا لا تغلغلا.

ويمكن تحديد أمره فى ذلك الطور بأنه عكف على التعليم والنسك لله، وإيثار عبادته على كل ما سواه، لا يثنيه عن ذلك ثان. على أنه امتحن فى دينه بما يترخص فى مثله كثير من رجال الدين، فما لانت له قناة، ولا عدل عما يعرف أنه الحق ولو كان السيف على رقبته؛ إذا قال: لا لم يستطع أحد أن يقول نعم، وإذا قال نعم فما أهنأها وما ألذ موقعها، قال: لا لعبد الملك بن مروان أكثر من مرة فما استطاع أن يصرفه عن مبدئه. وقال: نعم لأبى وداعة فدوت فى أرجاء المدينة وهزت أركانها. وعلى الجملة لقد ظهرت تلك النواحى الثلاث فى الإمام ظهورا جليا لا يقبل لبسا ولا غموضا: العلم الغزير الذى جعله مرجعا للملوك والرعية، والنسك لله مع الزهد فى الدنيا ومظاهرها الخلابة، والصبر على الحق والجهاد فى سبيله حتى يظهره الله أو يهلك دونه. وإليك صورا من كل ناحية منها:

فأما علمه وسعة أفقه فى الدين، فيتجلى فيما أشرت لك إليه من ثقة الناس به، وتهافتهم على الاغتراف من بحره، سواء فى ذلك التابعون وغيرهم من أهل العلم حتى الصحابة أنفسهم.

روى ابن سعد فى طبقاته بسنده أن سعيدا كان يقول: ما بقى أحد أعلم بأقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان منى. وأن سعيدا كان يفتى والصحابة شهود، وأن مكحولا كان يقول: ما حدثتكم به فعن سعيد ابن المسيب والشعبى، وأن ميمون بن مهران قال: دخلت المدينة فسألت من أفقهها؟ فدفعت إلى ابن المسيب، وأن عمر بن عبد العزيز كان لا يفتى بقضاء حتى يسأل ابن المسيب. وقال يوماً: ما من أحد إلا يأتينى بعلمه إلا سعيد بن المسيب فإنى أوتى بعلمه. وأرسل إليه يوما رسوله يسأله عن مسألة، فذهب الرسول إليه واستدعاه إلى عمر، فقال له عمر: إن الرسول لم يفهم، إنما أرسلته إليك ليسألك عن كذا!.

(يتبع)



الذوق في القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ورد الذوق فى القرآن بمعنى الحس والإدراك ، ومن ذلك ما يقول الله عز وجل لفرعون يوم القيامة توبيخاً له على تعاليه وجبروته ، وكبريائه وعتوه ، وألوهيته وسلطانه ، وغطرسته وجهله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » وقوله أيضاً « فذاقوا وبال أمرهم » . . .

وقد اتفق العلماء على أن يقولوا « الذوق الأدبى » أو يقولوا الذوق مجردة من الوصف ، وفى كلتا الحالين يقصدون من الذوق معنى أدق من الأدب ، وأوسع من التخلق ، وأسمى من اللباقة . وإذا صح أن يكون لكل شىء فلسفة يقصد بها إلى لبابه الخالص ، ورواوقه المصفى ، ومحضه الصراح ، وصميمه الجيد ، وخياره المنتقى ، فإنهم يعمدون حين يطلقون تلك الكلمة إلى أروع معانى الأدب ، وأرق مكارم الأخلاق . . .

والذوق كالجمال لا تحده ضوابط ، ولا ترسمه قواعد ، ولا يكشف عن حقيقته تعريف ، يدرك الناس آثاره ولا يستطيعون تكييفه ، يشيرون إلى هذا المعنى إذ يقولون « والذوق شىء ليس فى الكتب ، لأنه لو كان كذلك لأمكن تحصيله وتأتى للمعدم منه أن يتحلى به . . . إلا أنه وإن خلا من القواعد التى يلم بها الطالب ، وعرى عن المسائل التى يكد فى فهمها المستفيد ، ففى صوره من العبر وأمثلته من الشواهد ، وألوانه من الآيات ، وجزئياته من الدلائل ، ما يجعلنا نجزم بأنه « هدى الله يهدى به من يشاء من عباده » .

وللعرب قبل نزول القرآن إليهم ، ونشر رايته فيهم ، وسريانه إلى أفئدتهم وتغلغله فى عقيدتهم ، أساليب من الخطاب ، وأنماط من الحديث كلها يدل على جفوة الطباع ، وخشونة التعبير .

ولعلنا لا ننسى أول موقف وقفه محمد صلى الله عليه وسلم يعلن فيهم دعوة السماء، ويبلغهم رسالة الله، ويأخذ بيدهم إلى حيث يتجهون إلى صراط العزيز الحميد، يوم نادى على الصفا والمروة «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» وكان من أحد قرابته أنه قال له تبًّالك ألهذا جمعتنا ؟! وهو رد — كما ترى — لا يجدر به أن يصدر من إنسان عادى فضلا عن رجل تضمه وإياه صلة، ويربطه به نسب، وتقضى أبسط قواعد الأدب عليه أن يجامله ويتلطف معه، إن لم يقف إلى جانبه يناصره ويؤازره، ويسانده ويعاضده، ويحميه ممن يرميه.

ومن العجب الغريب أنهم مع شدة لددهم، وقوة حجتهم، ووفرة منطقهم وتمام فصاحتهم، يتخبطون فى الجدل، ويتنكبون السبيل فى المناظرة ويقولون: «أساطير الأولين اكتتبها»، «ويقول الذين كفروا لست مرسلا»، ويرمونه بالجنون أو يتهمونه بالسحر، ثم لا يكتفون بذلك حتى يضيفوا إليه ما يدل على الحماقة ويسجل عليهم الطيش «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، وهو ترجمة لإحساسهم المتبلد، وشعورهم الجامد، ووجدانهم المظلم وعطنهم الضيق، وطريقهم الملتوى وتفكيرهم المضطرب.

ولو أنك قارنته بما يرد عليهم، ويتقدم به القرآن بين يديهم «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»، لوجدت مدى ما يسمو إليه أدب الخطاب، ويعرج فيه أسلوب الجدل؛ لأنه لو جابههم بالخطأ، ورماهم بالتعسف، ووصفهم بالغواية، لكان زيادة على الهجاء الذى يهجوهم به، واللمز الذى يوقعهم فيه، يهيج حفائظهم، ويثير كامن غضبهم، ويوقظ الجاهلية الأولى فى نفوسهم.. إلى جانب أن الحديث على صورة الشك — هكذا — ربما يبعث على التروى والنظر، والبحث والاستنباط، وهو الهدف الذى تهدف إليه الآية «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». وفى قصة إبراهيم عليه السلام ما يدل عل أن الرسالة كلها لم تكن ترمى بالقول على عواهنه، أو ترسل الدعوة على سجيتها دون أن يكون هنالك فكر سديد، ونظر رشيد، ومجال من التدبر بعيد.

ونحن لا نتبين «الذوق» فى القرآن تمام البيان إلا حين نقابل بعض عباراته بعباراتهم، أو جمله بجملهم، ولا سيما إذا اشتدت لجاجة الخصام، وحمى وطيس المناظرة، فرأيته ساعتئذ هادئ الأسلوب، رزين التفكير، سرى المنطق،

جم الأدب ، لا تحامل فيه ، ولا تحيز معه ، يقول الحق وهو يهدى السبيل ، مقترنا ذلك كله بالذوق واللطف .

وما أظن التصور والإدراك ، والشعور والإحساس ، والخيال والوجدان ، تحيط بدقة رسم وحكمة تعبير ، لما يكون بين الرجل والمرأة من مداخلة وعشرة ، ومخالطة وأنس ، ومودة وحب ، وتعاون وانتفاع ، أكثر من الآية « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » فهى تطوى معانى كان التصريح بها يتنافى مع اللياقة ، وينبو عن الأدب ، ولا يتفق والكرامة ، وفى الوقت نفسه تستدر عطف كل من الزوجين على الآخر ، ليغضى له ، ويتسامح معه ، ويتطابق الذوق فى « أفضى بعضكم إلى بعض » بالذوق فى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » فإنهما مع اختلاف السياق ، وتباين الغرض ، يتلاقيان فى جمال الكناية ، ويشتركان فى حسن الإشارة ، ودقة الأداء ولطف المرمى ، فلا يسىء كلاهما أخاه ، ولا يفشى سره ، ولا يختلق عليه الذنوب . . .

أما « عفا الله عنك لم أذنت لهم » فعيار جديد من الذوق ، وطريقة مستحدثة من الأدب ، ولون انفرد به الحكيم الخبير ، ولا يذعن لذلك الحكم ، أو يؤمن معنا بتلك الدعوى إلا من يستحضر فى ذهنه غزوة تبوك التى سماها الكتاب العزيز « ساعة العسرة » لما فيها من الحر والجوع ، والقيظ والجدب ، والكسل والفتور ، والتوانى والغفلة ، والنفاق والكذب ، والدهاء والمكر ، والخداع والتمويه . وأى لباقة خطاب ، وكياسة تصوير ، وبراعة إبداع ، وخلابة منطق ، تلك التى تلين ذلك اللين فى موطن الشدة ، وترق الى ذلك الحد فلا تستولى عليها حدّة ؟ اللهم إنه حديث السماء ، الى صاحب الحوض واللواء . . .

وما أردت بهذه الكلمة بحثا يُستقصى ، أو أمثلة تُحصى ؛ فإن القرآن كله معين لا ينضب ، وبحر زاخر باللؤلؤ ، وكنز لا يفنى له ثراء ، ولكننى فقط أردت أن أفتتح حديثاً عسانى أن أوفّق الى استطراده ، أو يُسَهّل الله لغيرى سبيل امتداده ، فى وقت نحن أشد ما نكون حاجة الى كتابنا نستلهمه ونستهديه ، ونجتلى الخير مما فيه . رزقنا الله السداد ، وكتب لنا الهداية ، وجعلنا ممن يتذوقون القرآن ، وينتفعون بآياته البينات ، وعظاته البالغات ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أعلام الأزهر

الشيخ على الليثى

المتوفى سنة (١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو الشيخ على بن حسن بن على ، ولد فى « بولاق مصر » سنة ١٢٣٦ هـ ، وتوفى والده وهو حدث يافع ، فانتقلت به أمه إلى جهة « الإمام الليث » ، فكان يطلب العلم بالأزهر ثم يعود إليها للمبيت بها ، وظل على ذلك بضع سنين ، ثم قدم إلى مصر الشيخ « السنوسى الكبير » قاصداً الحج ، فاتصل به وحج معه ، ولما رجع « السنوسى » إلى مصر لم يدعه بل استصحبه إلى « جغبوب » ولبث بها مدة يطلب العلم ويفيد ، حتى فارق « السنوسى » وعاد إلى مصر ، فاتصل بوالدة « عباس باشا » الوالى ، فألحقته بوظيفة متواضعة فى القصر ، وازدلف إلى الأمير « أحمد باشا رفعت » بن « ابراهيم باشا » الكبير فأدناه منه ، ومكنه من تقليب النظر فى خزانة كتبه ، فأفاد منها سعة أفق وخصب مادة .

ومن الطريف أن سفره إلى المغرب كان سبباً فى اتهامه بمعرفة الكهانة والعرافة ، حتى إذا ولى « سعيد باشا » على مصر أمر بنفى هؤلاء الذين يحتالون على الناس إلى السودان ، فكان المترجم من بينهم ، وقد ظل بالسودان حتى عفا الخديو عنه ، فعاد إلى مصر .

وقد طارت شهرة الليثى وذاع صيته ، وعرف بحضور البديهة ، وحسن المنادمة ، فلما ولى « اسماعيل باشا » على مصر قربه إليه ، واتخذ منه ومن الشيخ « على أبى النصر المنفلوطى » نديمين له ، يستمتع بشعرهما ، ويستطيب حديثهما .

فلما عزل « اسماعيل » وخلفه « توفيق » درج على ما كان عليه سلفه من إيثار « الليثى » وإجلاله واصطفائه ، حتى إذا شبت الثورة العرابية كان « الليثى » بين من خاضوا غمارها ، وأججوا جمراتها ، ولكن « توفيقا » شمله بعفوه ، وصفح عن زلته ، وهش له ، إذ تبرأ بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

كل حال لضـــده يتحولْ فالزم الصبر إذ عليه المعولْ

بل إنه بعد أن تبرأ من الفتنة العرابية ، وأبان عذره فى مسايرة العرابيين ، زاد قربا من نفس توفيق ، وأحله مكانة ترمقها الأبصار ، وترنو اليها العيون ؛ فقد شيد لنفسه قصرا « بحلوان » ، وكان يتردد عليه مرتين فى كل شهر ، يركب من حلوان سفينة بخارية تقله الى ضيعة « الليثى » « شرق إطفيح » فيؤاكله ويقيم عنده ، ومن ثم عُنى الليثى بهذه الضيعة ، فغرس بها أطيب الكروم والأشجار ، وأقام بها قصراً أنيقا يكون للأمير واتباعه نُزلاً .

وقد كانت هذه الضيعة مقصدا للأدباء ، وكعبة للشعراء والعلماء ، يجدون فيها غذاء للروح والجسد ، من ثمار فاكهته وطيب مفاكهته ، وقد كان مسرفا فى كرمه حتى إن ضيفانه ليقيمون عنده أياما وأشهرا .

ولما نزل بمصر « السلطان برغش » ملك « زنجبار » ، ندبه الخديو اسماعيل لمرافقته ومجالسته ، فارتاح السلطان لخلته وخفة روحه وعذوبة حديثه ، حتى إنه لما عاد الى بلاده كان يمنحه الهدايا الفاخرة كل عام مما تمتاز به هذه البلاد من عنبر وغيره ، فيكون لأصدقاء الليثى وخلطائه من هدايا السلطان نصيب .

وإذ قضى « اسماعيل » تقلص العطف الكريم الذى كان « الليثى » فى ظلاله ، وانقبض « عباس » عنه ، ولم يكن لليثى من خصب جنابه بعض ما كان له

من اسمـاعيل ، فعكف على ضيعته ، يستغل زرعها ، ويدمن الاطلاع فى مكتبته الضخمة التى ما زال يضم إليها من الأسفار النادرة ، وأمهات الكتب الأدبيـة ما طبع منها وما استنسخ حتى كانت من أوفى الخزانات وأحفلها علماً وأدباً ، ولم يزل كذلك الى أن تآمرت عليـه العلل فناء بها أشهرا حتى قضى فى العاشر من شعبان سنة ١٣١٣ هـ فانطوت به صفحة من الأنس والصفاء وطول المتاع .

مناادمتـه :

كان الليثى خفيف الروح ، عذب الحـديث ، حسن المحاضرة ، سريع البديهة ، مواتى الجـواب ، معروفا بطيب السـمر ، ورقة المنادمة ، حتى أطلق عليـه « سيدالندماء » .

والمنـادمة فن دقيق يعتمد على مواهب وفطر خاصة ، ويحتاج فى تنـاوله الى لباقة وكياسة ، وتفطن إلى مواطن النكتة ، وموقعها من النفوس ، وتفرس فيما يطيب من القول ، ويلذ لسامعه ؛ هذا إلى سرعة البديهة ، والحذق فى معرفة الطبائع ، والبصر بمختلف الأخلاق ، وتمييز كل موقف من صاحبه ، والتملؤ من أدب المفاكهـة ، والإلمـام بمـا يهش له السامع فى شتى أحواله ، وما يرفه به عن نفسه إذا غشيها المـلال ؛ على أن النديم قـد تحاك حوله الدسائس لتصرف عن جمال نكتته ، وتصد عن التبسم والبشاشة له ، وقد يرتصد له بعض الخبثـاء فيفسد عليـه غرضه بالتصريح أو الإيمـاء ؛ فإذا لم يـكن حاضر البديهة ، مواتى الجواب ، لبقاً فى الأخذ بالشىء والانصراف عنه ، قادراً على الانتقال من حديث الى حديث ، ومن مقام الى مقام ، فشل فى جو السرور والمفاكهة الذى يهيئه ويشرق الأنس منه .

وقد كان كل ذلك من مواهب الليثى فى منادمته ، فإنه ليجمع إلى طلاقة لسانه ، وفيض خاطره ، وحـلاوة حديثه ، وحسن بصره بمواطن الحـديث ، وتهديه إلى مايحسن أن يأخذ به من القول وما يدع ، روائعَ من الأدب وأطايب من البيان ، يصرفها فى كل مجلس ، ويديرها فى كل مناسبة ، ويعرضها إذا استشرفت

لها الأسماع واهتزت لها العواطف والوجدانات ، فيملأ النفوس أنسا وراحة ، والقلوب بهجة ولذة .

« ولا نحسب أن فى شعراء الجيل الماضى شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان يمثلها الشيخ على الليثى الذى ارتقى فى هذه الصناعة ، حتى نادم اسماعيل وتوفيقا ، وبقى من نوادره ودعاباته ما يذكره المتأدبون والمعنيّون بأخبار القصور حتى فى أقصى الصعيد » (١)

وقد بلغ من شغف إسماعيل به أن أعدّ له ولصاحبه الشيخ على أبى النصر المنفلوطى قاعة خاصة بديوانه يجلس بها كأنه أحد رجال القصر الذين توكل اليهم أعماله ، وكما قلنا من قبل إن « توفيقاً » كان ينزل بضيعته حباً لمنادمته ، وإيثاراً لمفاكهته .

ولم يؤثر فيما نقل الينا عن نوادر الليثى ونكاته أنه فرط فى كرامته أو أغضى على هيبته على ما تتحيّفه هذه الصناعات من أقدار الناس ، فقد ظل « عالماً » من علماء الازهر ، لم تجرح هذه الصناعة كبرياءه ، ولم تتدلّ به إلى ما يتدلّى إليه المضحكون والمهالثون .

وقد خلّف الليثى من نوادره وأدبه الضاحك الباسم ما فيه أبلغ المتع واللذاذات ، وما هو فى هذا الأدب الرقيق غرة وجمال ، ولكنه ذهب أشتاتا لم يعن بجمعه ، أو يخلد بإيثاره . وكان فى مثله ـ لو حواه كتاب ـ ماتستروح به نفوس ، وتبتهج به صدور ، وتتبدّد كآبة ، ويذهب ملال .

طرف من نوادره :

كان أحد الكبراء يفرغ بالمدية تفاحة ليشرب فيها فانقصفت المدية خلال ذلك ، فرنا إلى الليثى كأنما يطلب القول منه ، فاذا به يرتجل البيتين :

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد ص ١٠٣

عزت على الندماء حتى إنهم تخذوا لها كاسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بدية لان الحـــديد كرامة للراح

وهما آية على صفاء ذهنه ، وحضور بديهته ، واستجابة الشعر له .

ودخل يوما ومعه الشيخ « على أبو النصر المنفلوطى » على « الخديو اسماعيل » وهو منقبض ، وكان الرجلان طويلى القامة ، دميمى الخلقة ، فاحمى السواد ، فلما أبصرهما « اسماعيل » أخذ يقلب فيهما الطرف ، وينظر إلى طولهما وعرضهما ، فما إن رآه الليثى كذلك حتى شرع يقلب كفاً على كف ، فقال له اسماعيل : « ما بالك تفعل هذا ؟ » قال « أفكر فى أمر أقوله إذا صفح عنه مولاى مقدما » قال « قد صفحت فقل » قال : «أرانى أستغرب ما الذى أعجب به مولاى فى مدخنتين مثلى وزميلى هذا ! » فضحك الخديو وسرى عنه .

ولما أمر اسماعيل أن يكتب على حجرات موظفى القصر لافتات تشير إلى وظيفة من فيها ، أشار « المهردار » أحد كبار رجال القصر بأن يكتب على حجرة الشعراء التى كان الليثى بها « إنما نطعمكم لوجه الله » وإذ سأل الليثى عمن أشار بذلك قيل له إنه « المهردار » فأراد أن ينتقم لنفسه ، فانتهز فرصة جلوسه مع الخديو وحضور المهردار وقال للخديو : إن حادثة وقعت لى اليوم ، فقال : ما هى ؟ قال صغتها زجلا ، قال : وما هو ؟ قال :

لىّ طاحونة فى البلد غلبت منها وعقلى دار
علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهر دار

ومرّ به كبير من رجال القصر فحياه تحية الغربيين بخفض رأسه ، فلم يرقه ذلك ، فهز رأسه كمن يقول لا ، فشكا الأول للخديو زراية الليثى به ، فلما سأله الخديو عما صنع معه ، قال : يهز رأسه كأنه يقول تناطحنى ، فقلت له : لا !

« يتبع »

تأثر الشعر العربي برسالة الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

كان للشعر فى نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة؛ فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم، واللسان الناطق بمالهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل وعز شامخ. ما من حرب تقوم بينهم إلا كان الذى هاج نارها وأوقد سعيرها وشب لظاها الشعر، وما من مسلم ينشر على الناس أعلامه ويشملهم وارف ظلاله إلا كان الشعر أساسه وباعثه والداعى إليه.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن والشعر الدافع، الذى يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغيبة، ويحتال به على ما يبغى من غرض. ولا تعمر مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، كانت قد تحرفت فى غالب أمرها عن الوضع الكريم الذى يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة، والخلق القويم الذى تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع. فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويكشفها أشنع تكشيف ويهتك الحرمات ويخرق الحجب والأستار، ويثير العصبية ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويبعثهم على التقاطع والتدابر والتنافر.

فكان بهذا السمت وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التى منيت بها الحياة العربية، ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة فى القول والفعل والأدب الذى يليق بالمسلم؛ فحرم على الناس الفواحش ما ظهر

منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيء الظن وخداعه وغروره، ودعا أولياءه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان فى ذلك ما يؤذى نفس مسلم.

أمات الإسلام فيهم روح العصبية، وأخمد فى نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس أو يذكر بالخصومات أو يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر؛ لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات. من هنا وجد الشعراء الذين دخلوا فى الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه، وجدوا أدبا غير الأدب، وروحا غير الروح وأسلوبا فى الخطاب غير الأساليب التى اعتادوها، وطرائق غير الطرائق التى ألفوها، ونحوا من بلاغة الكلام السمح العفيف تندق أعناقهم، وتتقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده.

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من المعانى والصور قد قطعت، وأن ما كان يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عف لفظه وشرف معناه. من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التى أجادوها، وأبدعوا فيها إلى المعانى التى يقرها الدين الجديد ويرتضيها؛ بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر فى الإسلام، لأن الله أبدل به خيرا منه. فإن لبيداً لم يؤثر عنه فى الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وفاه أجله، وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدث من الشعر فى الإسلام؛ فقال: أن أبدلنى بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومشربه فى الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتختلف فيها أخيلة الشعراء. هذا التحول قد عاد على الشعر بشىء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية

وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، ويقتنص كل فكرة تتهيأ أمامه فى أى موضوع وفى أى ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ولا يلتئم مع عقيدته .

فهذا الحطيئة لم يرق الإسلام له طبعا ، ولم يهذب له نفساً ، ولم يغير له من سمت ، ولم يعدل له من سلوك ؛ فبقى شعره على ما كان عليه جاهلى النزعة زاخراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع ؛ حتى لقد حبسه عمر ابن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه ، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية ، ولم تر له بعد ذلك شعراً قويا إلا قوله فى منافحة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه فى الجاهلية من القوة إلى الضعف .

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعانى التى لا تتفق وجلاله ، ولا تناسب وقاره وكماله ، ولم يغض من شأن الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلائق لا يرضاها الدين، ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

أما ما عدا ذلك فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينصت للشعر ، ويستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حساناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

ولقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى تميم - بعد فتح مكة - ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشعراء إذا لم يؤنس القزع [1]

---

(١) القزع : السحاب .

ثم ترى الناس تأتينا سراتهم   من كل أرض هُوِيًّا ثم نصطنع

فلما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حساناً بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال الأقرع بن حابس حد رجال الوفد : والله إن هذا الرجل (يعنى محمداً) لمؤتًى له [1] . لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا .

فنحن نرى أن الشعر حين أخلص فى وجهته ، وسلم مما كان يدنسه من هتك الأعراض ، وكشف الأستار ، كان من أسلحة الدعوة الجديدة ، والألسنة المجاهدة المكافحة فى سبيل تثبت دعائمها واستقرار قوائمها ، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر فى هذه الفترة التى صلحت فيها الأخلاق ، وتطهرت القلوب ، واستنارت الأفئدة ، وأظل الناس عهد وادع ، يجمله حسن الأدب ، وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة سمحة لا تعرف الفحش ، ولا تحب الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهى رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودعوته الحقة ، إلى معاملة الناس أكرم معاملة .

أما من بقى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد : فقد نعى عليه الأسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب ؛ لأن لسانه ظل سادرا فى غيه ممعنا فى كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجا من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمه

---

(١) أى مسهل له فى أمره .

ورهطاً من الأنصار ؛ فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود ، لأنه شبب بنساء المسلمين . وهذا ضابىء بن الحارث البرجمى هجا بعض بنى جدول بن نهشل فأفحش فى هجائهم ، حتى رمى أمهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه . وقال له : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حى لأحسبنه نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوما بكلب قبلك . ولقد حبس عمر النجاشى الشاعر الذى هجا بنى العجلان رهط ابن مقبل بقوله .

وما سمى العجلان إلا بقولهم خذ العقب وأحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش فى هجو الزبرقان بن بدر ، وهدده بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه ، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر .

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات .

طلب الرزق

قال عمر بن الخطاب للقراء وهم أهل العلم : يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وقال عمرو بن العاص : اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .

وذكر رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى العبادة والقوة على العمل ، وقالوا : صحبناه فى سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينفتل من صلاة ولا يفطر من صيام .

فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : فمن كان يمونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا . قال النبى عليه السلام : كلكم أعبد منه .



زها حول ٥٨٥ ق . م

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١ — المصادر

طاليس أول فلاسفة اليونان ، ورأس الحكماء السبعة . طارت شهرته حتى حكى العرب أنه « حكيم مشهور فى زمانه ، وأقاويله مذكورة وآراؤه فى الفلسفة بين أهلها مشهورة » كما يقول القفطى .

ويحتاج التحقيق العلمى لحياة طاليس وآرائه أن نبدأ بتحقيق المصادر التى كتبت عنه وبيان مرتبة صحتها وثقتها .

أقدم مصدر هو هيرودوت ، المؤرخ اليونانى الملقب بأبى التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م) وهو أقرب مصدر إلى طاليس ، ولكنه عاش بعده بقرن من الزمان تقريبا ، وبذلك لا نجد مؤرخا معاصرا له يحكى لنا مذهبه . ويسجل هيرودوت فى تاريخه أن طاليس تنبأ بكسوف الشمس الذى كان حداً للحرب بين الليديين والميديين . ثم نصيحته لمدن أيونيا بتكوين حلف برئاسة تيوس . ثم النظرية القائلة بأن فيضان النيل يرجع إلى هطول الأمطار التى تنقلها الرياح الشرقية . ثم الرواية القائلة بأنه نصح كروسس أن ينقل جيشه عبر نهر هاليس بعد تغيير المجرى .

المصدر الثانى أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) وهو يروى قصة وقوعه فى بئر حين كان يتأمل النجوم ، وقوله : إن كل شىء مملوء بالآلهة .

(*) وترسم بالتاء أو الثاء فيقال تاليس أو ثاليس .

المصدر الثالث، وهو الأهم من الناحية الفلسفية أرسطو (٣٨٤- ٣٢٢) يقول عنه فى كتاب « ما بعد الطبيعة » : إنه مؤسس الفلسفة، ويسجل مذهبه فى أن المادة الأولى هى الماء. وفى كتاب « السماء » إن الأرض تطفو فوق الماء؛ وفى كتاب « النفس » إن كل شىء مملوء بالآلهة، وإن المغناطيس فيه حياة لأنه يجذب الحديد ، وفى « السياسة » قصة الفيلسوف الذى حصل على الثروة باحتكار معاصر الزيتون .

يأتى بعد ذلك مصادر متأخرة، ويسمى أصحابها بالرواة Doxographers وأشهرهم ديوجين لا يرس (القرن الثالث قبل الميلاد) الذى يروى لنا قصة حياته . ثم جالينوس الطبيب (١٣٠ — ٢٠٠) وإيتوس Aetius من مؤرخى الفلسفة فى القرن الرابع ، ثم سمبلقيوس من القرن السادس وهو أحد شراح أرسطو ، ثم سويداس Suidas من مؤرخى القرن العاشر الميلادى .

ويقرر هؤلاء المتأخرون أنه كان فلكيا ورياضيا، وأنه عرف العلة الحقيقية لكسوف الشمس ، وأنه أول من كشف الدب الأصغر ، وأنه نقل علم الهندسة عن المصريين إلى بلاد الإغريق ، وعرف بعد السفينة وهى فى عرض البحر ، وارتفاع الهرم من قياس ظله ، واهتدى إلى بعض النظريات الخاصة بالمثلث والدائرة .

فنحن نرى أن جميع المصادر متأخرة عن زمن حياته بوقت طويل مما يفسح المجال للإنتحال وإلى نسبة كثير من الآراء إليه ونسج الأقاصيص حوله .

ونحن لا نعرف هل دوّن آراءه أو لا . ويذهب بعضهم إلى أنه لم يدون ولم يترك شيئاً مسطورا ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه ألف كتاباً بعنوان الفلك الأسود Nautical Astronomy ، ويعزو إليه بعضهم كتاباً فى الاعتدالين ، والبعض الآخر كتابا فى العلل الأولى . أما كتاب الفلك فقد نظمه شعرا . ويروى جالينوس عن كتاب العلل قوله « الماء هو المادة الأولى ومنه نشأ كل شىء . ولقد أوضحنا ذلك فى المقالة الأولى » . وتحدثنا رواية أخرى أن أنكسمندر هو أول من دون فى الفلسفة ، وله كتاب فى الطبيعة . ولا يشير أرسطو إلى أى مرجع عند ذكر طاليس ، ولا يدرى لماذا يجعل الماء مبدأ .

جملة القول إما أن طاليس لم يكتب على الاطلاق ، وهذا هو الأرجح ، وإما أن كتبه ضاعت منذ عهد بعيد .

٢ — أصله ونشأته :

ليس مولده معروفا ، وقد حدده بعض المؤرخين مثل زلر[١] Zeller بأنه ٦٢٤ قبل الميلاد وجعل وفاته عام ٥٤٦ . ولست أدرى كيف اهتدى هؤلاء المؤرخون إلى هذا التاريخ ، وكيف حددوا مولده ووفاته . أما برنت[٢] Burnet فقد اهتدى إلى أنه كان يعيش عام ٥٨٥ ق. م. وهو العام الذى قلنا إنه زها فيه ، من معرفته بكسوف الشمس ، وقد حسب علماء الفلك أن ذلك الكسوف وقع فى ٢٨ مايو ٥٨٥ قبل الميلاد ورجحوا إمكان رؤيته من آسيا الصغرى . وهذا التاريخ هو نفس التاريخ الذى يجعله أبولودورس ، وهو مؤرخ يونانى من القرن الثانى قبل الميلاد ، لازدهار طاليس .

نشأ فى ملطية من أعمال آسيا الصغرى ، وكانت مدينة تجارية انتشر فيها الرقيق كأغلب المدن الإغريقية ، وظهر فيها صراع بين طبقة الأغنياء والفقراء . ويحدثنا التاريخ أن الشعب فى ملطية انتصر فى أول الأمر ووضع السيف فى رقاب زوجات النبلاء وأطفالهم . ثم استولى الأشراف على الحكم وحرقوا خصومهم أحياء فأضاءوا الساحات العامة بأجساد البشر . وقد تقلبت الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مدينة ملطية خــلال القرنين السابع والسادس ، إذ كان الحكم فى أول الأمر فى أيدى أصحاب الأراضى من الأشراف ، ثم اغتصبه منهم الأغنياء من التجار ، إلى أن حكمها طاغية يستند إلى تأييد الشعب . وعقدت ملطية أواصر الصداقة مع جيرانها وبخاصة ليديا فى حكم الملك كروسس Croesus . ونحن نذكر كيف حدثتنا الأساطير أن كروسس رعى الحكمة اليونانية فى زمانه ، وأنه دعا الحكماء السبعة إلى لقائه . وأكبر الظن أن صحبة طاليس وهو أول الحكماء السبعة لكروسس فى حربه ضد بتريا ، كى يشرف على الأمور الهندسية ، وإنشاء القناطر ، هى التى أذاعت القول برعاية الحكماء السبعة .

ويفسر برنت ما يذهب إليه هيرودوت من أن طاليس من أصل فينيق بأنه

---

(١) Zeller : Outlines of the Hist. of Gr. Phil. P. 26-28

(٢) Burnet : Early Gr. Phil. P. 40-50

أدخل بعض تحسينات على الملاحة اكتسبها من الفينيقيين . ثم إن اسم والده ويدعى إكزاميس Examyes لا يدل على أصل سامى ، بل هو من كاريا Karia ، وهى من أيونيا .

طاليس فى مصر :

وليس من المؤكد أن طاليس رحل إلى مصر ودرس فيها ، ولو أن الأرجح أنه فعل ذلك ، إذ ينسب إليه تفسير فيضان النيل ، وأن مرجع ذلك إلى الرياح الموسمية . ويقال إن أرسطو ألف كتابا فى فيضان النيل عرفه شراحه ، وذكر فيه نظريات ثلاث للفيضان الأولى لطاليس ، والثانية لاتيمينس ، والثالثة لانكساجوراس .

ويقال أيضا : إنه اكتسب العلم بالهندسة من المصريين وحمله معه إلى اليونان ، ويحكى برقليس فى شرحه للكتاب الأول من أوقليدس أن طاليس كان يعرف كثيرا من النظريات : منها تساوى المثلثين إذا اشتركا فى ضلع وتساوت الزاويتان المتجاورتان ، وكان يستفيد من هذه النظرية فى قياس بعد السفينة فى عرض البحر . وأنه عرف ارتفاع الهرم بحساب رياضى ، لا بحساب عملى كما كان المأثور عند قدماء المصريين .

ويقول فريمان [1] Freeman : إنه تعلم الهندسة من المصريين وكان كأسلافه تلميذ أهل مصر وبابل ؛ لذلك كان الفضل فى امتيازه فى علم الفلك والهندسة إلى غيره . ولما كان علم المصريين والكلدانيين لا يتعدى جمع المشاهدات ، واستخدام العلم لأغراض دينية وعملية ، فقد تلقف طاليس هذه المشاهدات ، والتجارب ثم نظمها تنظيما علمياً ، واستخرج منها المبادىء العامة . وليس معنى ذلك أن العلم عند طاليس كان خالصاً نقياً بريئاً عن المنفعة ، فقد نظر فى الهندسة البحرية لفائدة الملاحة وذلك بدراسة الرياح والظواهر الجوية .

فلسفته :

يذهب بعض المؤرخين إلى أن طاليس أول العلماء ، كما ذهب البعض الآخر إلى أنه أول الفلاسفة أو الحكماء . ولا ينبغى أن يروعنا هذا الخلاف ؛ لأن العلم

(١) (R)Freeman : Companionto pre-Socratic Philosophers P. 49-55

والفلسفة كانا شيئاً واحدا فى ذلك الزمن القديم . على أن ظهور « أول » للفلاسفة أو العلماء فجأة أمر يدعو إلى التساؤل فلا بد أن يكون قد سبقه غيره ، وقد عنيت مدرسة أرسطو وشراحه بذكر المتقدمين على طاليس ؛ كما ذكروا طاليس متصلا بالبحث العلمى وقدموه على سلفه .

ويقول أرسطو عنه : إنه « مؤسس هذا الضرب من الفلسفة » يريد الفلسفة التى تضع المشكلة وتحاول الجواب عنها . مثال ذلك : « ما الحقيقة الموجودة وراء الظواهر ؟»وفى مثل هذه الأسئلة تتجلى أصالته . لقد أجاب طاليس عن هذا السؤال قائلا : إن الحقيقة هى « الماء » كمادة أولى ؛ لأنه كان يعتقد أن المادة واحدة وليست متعددة . وجميع فلاسفة ملطية ماديون .

لماذا آثر الماء على غيره ؟

يقول أرسطو : إنه آثر ذلك لأنه رأى الدور الهام الذى يقوم به الماء فى غذاء الحياة ، حتى لقد تخرج الحرارة منه ما دام الكائن الحى حارا . والماء كذلك جوهر البذور .

ويعترض بعض المحدثين ، مثل : برنت Burnet على أرسطو بقولهم : إن علم الحياة لم يكن متقدماً فى عصر طاليس ، وإن قوله بالماء يرجع إلى النظر فى الظواهر الجوية . فاختياره الماء ناشىء عن هذا النظر ، وتلك الدراسة . فقد رأى تبدل الماء ثلجاً وبخارا وضباباً ؛ أما البخار فقد عده الطبيعيون الأولون هواء ، ووحدوا بينه وبين الرياح والنفس والحياة . ومع ذلك فقد كانت للطبيعيين الأولين نظرات صائبة فى علم الحياة . فهذا أنكسمندر تلميذ طاليس يذهب إلى أن أصل الحياة ناشىء من الرطوبة . ولا يغيب عن بالنا أن طاليس اهتم بفيضان النيل ، وأثر ذلك فى الإنبات والنماء ، ولا ريب فللماء مدخل فى الحياة ، ولقد قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

ويحدثنا أرسطو أن طاليس ربما كان قد تأثر بالأساطير اليونانية القائلة بأن « أوقيانوس » Ocean و تيث Tethys كانا أول كل شىء . ولعله تأثر بأساطير قدماء المصريين ، الذين ساد فيهم مذهب يجعل الماء أصل الكون . وليس ذلك ببعيد على من استقى علمه عنهم .

وله رأى فى الكون : فهو يقول إن الأرض تسبح فوق الماء . وهذه محاولة لتفسير علاقة الأرض بغيرها من الأجرام السماوية . ويقول أرسطو إن طاليس اختار الماء ليحمل الأرض ؛ لأن كثيراً من الأشياء كالخشب تقوم فى الماء لا فى الهواء . ويحكى «سنكا» قول طاليس إن الأرض تعوم فى الماء كالسفينة ، فإذا تقاذفتها المياه أحسسنا بالزلازل . وليس ببعيد أن طاليس كان يذهب الى أن الأرض تنمو فى الماء ، لأن النمو يتوقف على الرطوبة .

وأخيراً يعزو أفلاطون وأرسطو إلى طاليس قوله « كل شىء مملوء بالآلهة ، وإن فى المغناطيس روحا تجذب الحديد . وأقام على مذهبه فى أن النفس أو الحياة هى التى تحرك الأشياء . فإذا صح قول طاليس فهو من المؤلهة الذين كانوا يعتقدون فى وحدة الوجود ، أى أن الله والعالم شىء واحد ، وأنه موجود فى كل شىء . وقد سرت هذه الفكرة عنه ، حتى عده العرب مؤلهاً . قال القفطى « وهو أول من قال إن الوجود لا موجد له إلا الله تعالى العظيم » .

وشاعت عن طاليس أقاصيص كثيرة ، منها ما حكاه أرسطو فى كتاب السياسة قال : « يروى أن طاليس رأى بما عنده من معرفة فى علم التنجيم والفلك أن موسم الزيتون سوف يكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء جميع معاصر الزيتون الموجودة فى ملطية . فلما حان موسم عصر الزيتون واحتاج الناس الى المعاصر فرض عليهم ما شاء من شروط ورفع الأجر وضاعفه مبيناً أن الفلاسفة إذا شاءوا جمع المال كان لهم ذلك » ومغزى القصة أن الفيلسوف مشغول عن جمع المال بالتفكير والتأمل وطلب الحقيقة .

وقيل : إنه أول الحكماء السبعة ، ونسبوا اليه أنه راعى العزوبة والعزوف عن الولد ، فى مقابل سولون الذى كان راعى الأسرة والزواج والولد . ويقال إن سولون زاره فى ملطية . وينبغى أن ننظر بعين الشك الى الحكم التى أجراها المؤرخون على لسانه .

وقيل إنه توفى فى سن كبيرة من الحر والعطش وزحمة الناس عند مشاهدة مباراة فى البطولة الرياضية .

العز بن عبد السلام

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن العمارى
مبعوث الأزهر إلى السودان

عمله فى البلاغة :

يجهل كثير من العلماء بل من دارسى البلاغة خاصة أن ابن عبد السلام من زمرة علماء البلاغة ولكننا نعده أنموذجا وحده ، وإذا كان عبد القاهر وأبو يعقوب وأضرابهما ألفوا فى البلاغة على أنها قواعد ورسوم ، فإن ابن عبد السلام شغلته فكرة واحدة أخذ يدافع عنها ، ويناضل دونها ، ويقيم البراهين عليها ، تلك هى وجود المجاز فى القرآن ، والخصومة حول هذا الموضوع قديمة ؛ فقد أنكر وقوع المجاز جماعة : منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية ، وابن حائك ، وناس من جملة الصوفية وبعض من المالكية ، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، وأن العدول إليه من ضيق الحقيقة ، والقرآن منزه عن الأول ، والثانى محال على الله تعالى ، وقد نشط العلماء من قديم للرد على تلك الشبه ودحضها ، فألف موزج السدوسى فى الرد على من نفى المجاز فى القرآن ، وسخر الجاحظ فى غير موضع من كتبه من هؤلاء ، وصنف فيه سلطان العلماء كتابه المسمى « الإشارة الى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز » . ولا شك أن جمهور العلماء على وقوع المجاز فى القرآن وفى كلام العرب ، وأما شبهة الظاهرية فناشئة من عدم التفرقة بين المجاز والكذب ، وعدم الوقوف على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الحقيقة سهلة ميسورة ، وإنما

الشأن فى تقريب المعنى ، وتجميل الأسلوب ، وضرب المثل ، وروعة الاستعارة .
ومن سخرية الجاحظ بهؤلاء ما جاء فى كتابه «الحيوان» عند الحديث عن النحل قال :
« وقد طعن ناس من الملحدين ، وبعض من لا علم له بوجوه اللغة ، وتوسع العرب فى لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحى ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شىء ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبنى بيوت النحل منه ، ثم ينقل من الأشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك إلا أن مواضع الشمع وآثاره أخفى وأقل ، فليس بقىء ولا رجيع ، ولا دخل للنحلة فى بطن قط ، وفى القرآن قول الله عز وجل « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

ولو كان إنما ذهب الى أنه شىء يلتقط من الأشجار كالصموغ وما يتولد من طباع الأنداء والأهواء والأشجار إنما تمازجت لما كان فى ذلك عجب إلا بقدر ما نجده فى أمور كثيرة ، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية أن فى النحل أنبياء لقوله عز وجل « وأوحى ربك الى النحل » ، وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء لقوله عز وجل « وإذ أوحيت الى الحواريين » ، وما خالف أن يكون فى النحل أنبياء بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العام « وأوحى ربك الى النحل » ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول إطلاقا ، وبعد فان كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين وألا تكونوا مسلمين فلم تجعلون الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل ، وأما قوله عز وجل « يخرج من بطونها شراب » فالعسل ليس بشراب وإنما يحول بالماء شرابا أو بالماء نبيذا فسماه كما ترى شرابا إذ كان مما يجىء منه الشراب ، وقد جاز فى كلام العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة

بطونها وأجوافها ، ومتى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم ، وبأسبابه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيل وضواحى نجد هؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان أو طعن عليه من هذه الجهة [1] » . وهكذا يصخب الجاحظ ، ويهدر ويهزأ ويسخر ، ولعله ألف كتابه (نظم القرآن) لهذا الغرض ، وقد جاء فى كتابه الحيوان فقرات عن كتاب يبدو أنه هو هذا الكتاب قال « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة » .

أما ابن عبد السلام فهو يجرى الى غايته فى هدوء وصمت ، دون أن يتعرض لمن يجادلهم ويرد عليهم ، حتى أنه ترك النص فى أول الكتاب على الغرض الذى ألفه من أجله ، ومع ذلك فهو يصل إلى الغاية ، ويقرطس الهدف ، وقد أعانه على ذلك فهم عميق لمقاصد القرآن وأغراضه ، وخبرة واسعة بالتأويل وعلم جم بأساليب العرب ، وتصرفها فى لغتها ، وذهنية مواتية مسعفة .

يظهر أثر كل ذلك فى كتابه ، فهو يتتبع القرآن آية آية ، ويذكر ما يكون فى الآى من حذف ، وما يترتب على ذلك من مجاز ، وربما عمد إلى المجاز وحده فاستخرجه من الآية ، ويعرض كثيرا للمسائل البلاغية غير المجازيه ، وقد تحدث عن كل ألوان المجاز فذكر المجاز المرسل وعلاقاته ، والمجاز العقلى وعلاقاته ، وتحدث عن الاستعارة ، وذكر المجاز فى الحروف والمجاز فى الأفعال ، وقد ألف كتابه قبل أن تقعد البلاغة على طريقة السكاكى فتراه يجمع كل شبيه إلى شبيهه ، فهو مثلا يتحدث عن خروج حروف الاستفهام إلى معان مجازيه عند الكلام على الاستعارة فى الحرف ، كما يتحدث عن الالتفات فى الفعل عند الكلام على الاستعارة التبعية فى الأفعال ، وهذه أحسن من طريقة السكاكى وتابعيه الذين وزعوا هذه المباحث فى أبواب متفرقة ، بعضها فى علم المعانى ، وبعضها فى علم البيان .

(١) فى هذا النص كلمات غير واضحة لعلها من خطأ الطبع ، ولم اهتد الى تصحيحها .

وقد سلك ابن عبد السلام فى بيان الحذف فى القرآن طريقين ، فابتدأ أولا بذكر نوع المحذوف ، فهذا فصل لحذف المبتدأ ، وذاك لحذف جواب الشرط ، وثالث لحذف المضاف إليه وهكذا . . ، ثم يعود فيعرض ، فيرتب سور القرآن ويذكر ما فى كل سورة من حذف ، ويتخلل هذا البحث قواعد بلاغية فيقول مثلا : حذف المعمولات ضربان : ما يصير الفعل فيه كاللازم الذى لا مفعول له ؛ كقوله « والله يحيي ويميت » والثانى ما ليس كذلك ؛ كقوله « الذى خلق فسوى » أما قوله تعالى : « أضحك وأبكى » فيحتمل الأمرين ، وهو فى هذا الموضع — كعادته فى كل موضع — يذكر شواهد كثيرة من القرآن ، وقد جرى على قاعدة فى تقدير المحذوف عبر عنها فى قوله : « تقدير ما ظهر فى القرآن أولى فى بابه من كل تقدير » وذكر أمثلة منها قوله تعالى : « فمن ينصرنى من الله إن عصيته » ؟ تقديره فمن يمنعنى من بأس الله إن عصيته ؛ لأنه قد ظهر فى قوله فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا . ويكاد كتابه يكون استقصاء لمواضع الحذف فى القرآن ، فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة لمن يتقحم مزالق التأويل ، ويتهيب مزال التفسير ، ومع ذلك فالكتاب يتضمن قواعد بلاغية ذات بال ، وقد تناولها المؤلف تناولا سهلا لا تعقيد فيه ، ولا لجلجة ولا اضطراب . من ذلك قوله : « وأما وصف الفاعل والمفعول بالمصدر ، فقد قيل إنه من مجاز الحذف ، وقيل إنه من مجاز المبالغة فى الصفة ، ويجوز أن يكون بعض ذلك من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به ؛ كالتعبير بالأمر عن المأمور به وبالهزء عن المهزوء به ؛ لأنهما قولان عبر بهما عن متعلقهما ، وكذلك التعبير بالسمع عن المسموع وقد يكون بين محلى الحقيقة والمجاز تعلقات متنوعه يصح التجوز بكل واحد منها على ما سنذكره فى صفات الرب سبحانه وتعالى ، ومن أمثلته فى هذا الموضع « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى الماء السائل « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع » المطر الراجع فى كل عام والنبات الصادع للأرض « إنه لقول فصل » . ومنها قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا أدكرت فإنما هى إقبال وإدبار

أى هى ذات إقبال وإدبار ، ثم يقول ولك أن تقدر مثل هذا فى جميع ما ذكرناه .

وهنا نراه استشهد ببيت من الشعر ، وليست الشواهد من هذا النوع مستفيضة في الكتاب ، ولكنه يذكر منها جملة صالحة .

وقد يتناول الآية فيذكر ما فيها من أنواع البيان . يقول في قوله تعالى : « الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ، أي بمشيئة ربهم أو بأمر ربهم إياك بذلك ، فالإذن من مجاز الملازمة - أي المجاز المرسل - والظلمات والنور من مجاز المشابهة - يعني الاستعارة - ونسبه الإخراج إليه صلى الله عليه وسلم من مجاز نسبة الفعل إلى سببه كما ذكرناه آنفا - يعني المجاز العقلي - . وقد لاحظت أنه يتفق في كثير من القواعد مع عبد القاهر ، إلا أن هناك دلائل كثيرة على أنه لم يطلع على كتابيه في البلاغة ، وحسبنا أن عبد القاهر ذكر الاستعارة والعلاقة وما إليهما من الألفاظ الاصطلاحية ولا أثر لها في كتاب ابن عبد السلام ، على أنه لو اطلع على دلائل الإعجاز لكان له فيما أعتقد منهج آخر في تقدير بعض المحذوفات ، ولكان لهذا الكتاب نسيم في كتابه على الأقل ، أما السكاكي فكان معاصرا للمؤلف على أن طريقيهما مختلفان جد الاختلاف .

وكما يذكر بعض القواعد الهامة ، يعمد إلى نوع آخر له قدره في دراسة البيان ، ذلك أنه يذكر الكلمة ترد في القرآن الكريم فيذكر ما استعملت فيه من أنواع المجاز ، ومن أمثلة ذلك كلمة « الركن » يقول : فهو حقيقة في أركان البناء التي يعتمد عليها ، ثم يتجوز به عن العشيرة المعتمد عليها في النصر تشبيهاً للاعتماد عليها باعتماد البناء على الأركان ، ومنه قوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » ويتجوز به عن القوة لأن المرء يعتمد على قوته في مثل قوله تعالى « فتولى بركنه » ، أي بقوته ، وفي مثل قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني

وقد يتجوز به عن الجنود الذين يرجى نصرهم للاعتماد عليهم في مثل قوله : « فتولى بركنه » على قول آخر . وناحية ثالثة في هذا الكتاب . وذلك أنه إذا أخذ في معنى من المجاز استقصاه ، ومن أمثلة ذلك - وهي كثيرة - حديثه عن « التهكم » يقول : وأنواع التهكمات كثيرة منها قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » ومنها قول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فعجلنا قراكم قبيل الصبح مرواة طحونا

ومنها قول العرب : عتابك السيف . وقول الشاعر : « تحية بينهم ضرب وجيع » ومنها قوله سبحانه وتعالى : « فأثابكم غماً بغم » ومنها قوله : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » والمراد بالثواب هنا العقاب ، وقوله : « هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » أى عقوبة عند الله ، فان الثواب هو الجزاء بالخير ، فإذا أطلق لفظ الثواب على الشركان تهكما واستهزاء ، ومنها قوله « وأن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، أما قوله يستغيثوا فحقيقة معناه يطلبون الغوث من شدة العطش ، وأما قوله يغاثوا فتهكم واستهزاء بهم إذ لا غوث فيما يشوى الوجوه ، ومنها قوله : « فبشرهم بعذاب أليم » ، وأما قوله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » فان البشارة فيه باقية فيه على حقيقتها ؛ لأن الله بشر المؤمنين بأنه يأجرهم أجراً كبيراً ، وبأن يعذب أعداءهم عذاباً أليما ، ومن أخبر بعقوبة عدوه وإهانته كان ذلك إهانة له .

ولا ينسى أن يتحدث عن التشبيه وضروبه ، وعن الكناية وتعريفها وأمثلتها ، وكونها من الحقيقة أو من المجاز ، وعن المجاز على المجاز ، والجمع بين الحقيقة والمجاز ، وقد رأيت العلامة الصبان استند على رأيه فى الجمع بين الحقيقة والمجاز عند الحديث عن التضمين فى باب تعدى الفعل ولزومه ، وفى الكتاب بعض الفوائد النحوية والصرفية ، ولكنها قليلة ، وبحوث أخرى لا تتعلق بالبلاغة ، كالكلام عن بيان اللغات التى نزل بها القرآن وعن مقاصد القرآن ، وعن جملة من المواعظ ، وفى ختام القول نقول مع قاضى أسوان شمس الدين عمر بن عبد العزيز ابن الفضل تلميذ العز :

جاوزت حد المدح حتى لم يطق نظما لفضلك للورى نظام
فعليك يا عبد العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلام



لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى الراجحى
مبعوث الأزهر في كلية المقاصد الإسلامية صيدا ـ لبنان

إننى سأخوض فى قصص القرآن على طريقتى الخاصة التى طالما نوهت بها على صفحات هذه المجلة للقرآن : المعانى واحدة أو كالواحدة ، لكنها تذكر فى أكثر من موضع بعبارات تختلف إيجازا وإطنابا ، وتقديما وتأخيرا ، وذكرا وحذفا ونحو ذلك .

لقد تناولنا فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من غير القصص تتجلى فيها هذه الظاهرة ، وتناولنا كذلك فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة ، ونريد فى هذه الجولة أن نتناول بهذه الطريقة فئات من الآيات فى أكثر من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة .

وإذا كان ذلك كذلك وكان قصص الرسل يحكى أقوالا قيلت من الرسل لأقوامهم ، وأقوالا قيلت من الأقوام لرسلهم ، ثم يبين ما آل إليه هذا الصراع مع التعليق عليه [1] ، فإننا سوف نجعل كل قبيل من هذه الفئات الثلاث مرحلة من مراحل البحث ، فقعد فى كل مرحلة ما يتراءى لنا من مفارقات فى الآيات التى تنضوى تحت لوائها وتخضع لموضوع بحثنا ، مما يتفق ويفترق ؛ أما مايفترق ولا يتفق أو يتفق ولا يفترق فليس لبحثنا فيه ، وليس له فى بحثنا كبير مجال .

المرحلة الأولى فى الآيات التى تحكى أقوال الأنبياء لأقوامهم وفيها مفارقات :

---

(١) راجع القصص فى السور : الاعراف ، هود ، الشعراء ، المؤمنون ، وغيرها فانك واجده وهو لا يكاد يخرج بك عن ذلك .

المفارقة الأولى : قصة نوح سـورة الأعراف : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله . قصة نوح سورة المؤمنون : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله .

قصة هود سـورة الأعراف : وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله .

» » » هود : وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله.

» صالح » الأعراف : وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله

» » » هود : وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله

» شعيب » الأعراف : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله

» » » هود : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله

» » » العنكبوت : وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال ياقوم اعبدوا الله

» نوح » نوح : إنا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال ياقوم اعبدوا الله .

أقوال الرسل لأقوامهم حكيت تارة على سبيل الاستئناف ، وأخرى على سبيل العطف بحرف الفاء ، فإذا كان كل من الفصل على تقدير سؤال والوصل بالعطف بالفاء جائزا بلاغة فى أى موضع من هذه المواضع ، فهل من مرجح لوجود كل طريقة حيث وجدت ؟ الجواب : نعم ، ومرجح عظيم . فإن قصة نوح أصل لهذه القصص كلها ، خارجا لأنه أول رسول ، وحكاية لأنها تصدرتها فى هذه السور وغيرها . ولما كان الذكر أصلا والحذف فرعا . كان اطراد الوصل بحرف الفاء فى قصة نوح مع اطراد حذفه فى غيرها ، من وقوع الأصل فى الأصل والفرع فى الفرع . ومن توابع ذلك أنه أطرد فيها التصريح بفعل الإرسال وتبعه اطراد التصريح بحرف الفاء لعطف القول على الإرسال دون شىء من ذلك كله فى بقية القصص . ومن وجه آخر : قد كان نوح فى تبليغه الرسالة أعنف وأنشط من جميع هذه الرسل ، وحرف الفاء أشد مناسبة لهذه المعانى لإفادته المسارعة . . . ومن وجه ثالث : كان تقدم قصة نوح على سائر القصص مدعاة لذهن السامع ، بعد إحاطته بما فيها من معان وحين يشرف على ما بعدها من القصص ، أن يستشرف

ويتشوف لمعرفة حال ما بعد نوح فكان ذلك فى معنى سؤال يناسبه الاستئناف إجابة عليه [١] .

لم يشذ عن هذا التخريج ويخرج عن هذه القاعدة إلا قصة نوح فى سورة نوح ؛ فقد حكى القول فيها بطريقة الاستئناف دون العطف ؛ وقصة شعيب فى سورة العنكبوت فقد حكى القول فيها بطريقة العطف دون الاستئناف . ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ لأن للقصة فى الموضعين نسيجا آخر جعل المدى يطول بين فعل الإرسال والقول فى قصة نوح ، فكان الفصل أنسب ، وجعل قصة شعيب تضغط ويهدف فيها إلى النهاية التى حكيت بحرف الفاء المترادف فى قوله تعالى « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » فكان حرف الفاء فى صدرها أنسب .

المفارقة الثانية : سورة الأعراف قصة نوح : « قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون » .

وفى سورة الأعراف قصة هود : « قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » . . هذان القولان من نوح وهود لقوميهما ، يشتد بينهما التشابه ومظاهر الاقتران فيهما نحصرها فيما يلى مع الإجابة عليها .

أولا : يقول نوح : ليس بى ضلالة ، ويقول هود : ليس بى سفاهة وجوابه أن كلا منظور فيه إلى السابق . فقول نوح سبقه قول قومه له : إنا لنراك فى ضلال

---

(١) تركز هذه الاجابات على مسائل لا تسوغ الافاضة فيها أثناء هذه الدراسة إنما يرجع الى تحقيقها فى مظانها ، وذلك ككون كل من الوصل والفصل جائزاً بلاغة فى هذه المواضع وكون الذكر أصلا بالنسبة للحذف ، وكون قصة نوح أصلا بالنسبة لغيرها خارجا وحكاية ، وكون نوح كان أمضى فى رسالته وأكثر مجادلة يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهرا .

مبين ، وقول هود سبقه قول قومه له : إنا لنراك فى سفاهة . فاشتغل كل نبى بنفى ما رمى به حذوك الشىء بالشىء . ولكن لماذا رمى نوح بالضلال ، وهود بالسفاهة ؟ كلام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير سورة الأعراف أن هوداً كان يدعوهم إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام ، ويبين أنها باطلة لا تملك شيئاً ، فكذبوه فى دعوته ، ونسبوه إلى السفاهة والتطاول على الأصنام والقدح فى ذاتها وذات من عبدها منهم ومن آبائهم . أما نوح فكان يقول ذلك لقومه ويزداد أنه يأخذ فى صنع السفينة فوق البر ، فلأنهم لم يكن لهم عهد بالسفن ، أو لأنه كان يصنعها حيث لا ماء ، فلم يفقهوا سر عمله ، رموه بالضلال ، وهى كلمة منتشرة المواقع شاملة لكل خطأ فكأنهم أرادوا أنه ضال عن الصواب فى كل ما يأتى ويذر . هكذا يؤخذ من كلام الرازى . لكن الذى نعرفه ، وتدل عليه القصة فى سورة هود . أن نوحا لم يأخذ فى صنع السفينة إلا بعد اليأس من قومه وانتهاء أدوار المجادلات والمقاولات ، فلا جرم قد كان رميه بالضلال قبل الأخذ فى صنع السفينة . فالأظهر عندى ـ إذا كان لمثلى عند ـ أن اختلاف الضلال مع السفاهة لاختلافه فى ذاته عمن حكى عنهم ، واختلافه فى ذاته مما لا سؤال فيه لأن كل قوم كما بدا لهم تكلموا ، وبما قذف الشيطان فى نفوسهم نطقوا . هذا من وجه ، ومن وجه آخر لعله أوجه : أن الرمى بالضلال أعلى فى الطغيان من الرمى بالسفاهة على ما سبق بيانه فى كلام الرازى ، وقوم نوح كما نطق القرآن عنهم ، كانوا هم أظلم وأطغى ، . لكن ما بال السفاهة بالتاء فى قول قوم هود له : إنا لنراك فى سفاهة ؟ والضلال بدونها فى قول قوم نوح له : إنا لنراك فى ضلال ؟ . هلا سوّى بينهما تذكيرا أو تأنيثا أو عكس الحال ، وكل ذلك جائز عربية ؟ الجواب أنه إن جاز عربية فإنه لايجوز بلاغة ، فكل طريقة بموضعها أصابت المحز لا تصلح فى غير موضعها ، ولا يصلح غيرها فى موضعها . فالضلال أعم وأدل على المراد من الضلالة لإيهامها الوحدة ، والسفاهة أبلغ وأدل على المراد من السفه لأنها مصدر مضموم العين ، وهو مصدر مكسور العين ، ومضمومها يفيد من قوة الاتصاف وملازمة الصفة للموصوف مالا يفيده مكسورها حتى لتقول كتب اللغة ، وهذا

الباب للأوصاف الخلقية ، وهي التي لها مكث . ولك أن تحول كل فعل ثلاثي الى هذا الباب للدلالة على أن معناه صار كالغريزة لصاحبه [1] » .

ثانيا : يقول نوح لقومه : وأنصح لكم، ويقول هود لقومه : وأنا لكم ناصح . فالأولى جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث مرة بعد أخرى ، والثانية جملة ، اسمية تفيد الثبوت ؛ وذلك لأن نوحا رمي بالضلال وهو من صفات الأفعال التي تتجدد ويتنقل صاحبها من فعل إلى فعل ، وهوداً رمي بالسفاهة وهي أشبه بالملكات الثابتة ، فكان رد كل شبهة على شاكلتها ؛ وإما لأن نوحا كان أمضى كما مضى في تبليغ الدعوة وتجديد النصح لقومه ليلا ونهارا وسراً وجهارا .

ثالثاً : يقول نوح لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . ويقول هود لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء . . الخ

ففي مقالة نوح دون مقالة هود قوله : ولتتقوا ولعلكم ترحمون . ويقول الفخر الرازي فيها : إنه حيث سبق ذكرها في قصة نوح علم أن الإنذار عاقبته التقوى والرحمة لمن انتفع به ، فحصل الاستغناء عن إعادة ذلك في قصة هود التالية لها . وأولى منه أن نقول : إنه سبق للتقوى ذكر في نفس قصة هود في مقالته الأولى لقومه ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فأغنى ذلك عن إعادتها وليس لها سابق ذكر في أقوال نوح لقومه ، كما أن قول نوح لقومه : ولكم ترحمون ، قريب من قول هود لقومه : لعلكم تفلحون ، عقب تذكيره لهم بما اختصوا به دون قوم نوح من كونهم خلفاء قوم نوح في الأرض وزادهم الله بسطة في الخلق والآلاء .

---

(1) شذا العرف في فن الصرف للشيخ الحلاوي ؛ التقسيم الثالث للفعل بحسب التجرد والزيادة .



تجاوب الشعور

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

حديث شريف

هذه صفة تضع الإنسانية على أقوم أوضاعها ، وتجيء منها فى أهم مميزاتها ، وهى تعبرّ عن أنبل مافى الإنسان من شعور ، وأدق ما فيه من حس ، وما يسمو به عن رتبة الأحياء الأخرى ، حتى قيل : « الإنسان حيوان ذو عطف » وبذلك اعتبرت خاصة مميزة له ، رافعة للشركة ، ومما لا ريب فيه ، أن الإنسان حيوان بغيض إذا كان لا يشعر بمكان هـذا الشعور ، أو تجرد منه ، فالإنسان لا يشعر بالفردية وحدها ، وإنما يجد تمامه فى هذه الصفة ، ولذلك قيل : « الإنسان مدنى بطبعه » . فهذا الشعور فى حدوده تكتمل عليه الإنسانية فى حدودها ، فلولا المشاركة الوجدانية التى تخفف من حـدة أنانيته الجارفة ؛ لكان الإنسان أسوأ أثراً من أى حيوان آخر : وهو بين الأنانية وهذا الشعور فى مد وجزر : بين الشر والخير ، والبـاطل والحق ، إذا انتصر أحد الشعورين تبعه لازمه بدون تخلف أو انفكاك ، ولن تجد إنساناً فاضلا إلا وعنده أوفى قسط من هذا الشعور السامى ؛ فهو روح إلهى فى طبيعة بشرية ، ومعنى غيبى فى حروف من أشباح الوجود ، وكذلك تعطى يدُ الله بعضَ المعـالم الحية سراً من أسرارها ، يكون لها به ما للأحجار الكريمة من البهجة والرواء ، وتمسحه بميسم نورها ، فيبدو درة وضيئة فى حدود المادة المظلمة ، وهذا بعض من إعجاز الله فى الخلق ، أو جانب من دلائل القدرة الغيبية فى الناس .

وهذه المعالم الحية تشتق من طينة الإنسان وطبيعته ؛ لتبلغ بهم العظة ، وتتم فيهم حجة الله ، وهؤلاء يكونون من النوع الإنسانى كمعنى الإنسانية ، فيهم حقيقته وفيهم معناه السامى ، وهذا السر فى إكبار الجماعة لأولئك الرموز البشريين ؛ لأن فيهم ما توزع فى الجماعة على مثل عدسة البلور تجمع خيوط النور وتضمها فى بؤرة ؛ لتعكس شكلا متجانسا من أشكال متفاوتة ، فهذا المعنى السامى وذلك الشعور النبيل هو مدار العظمة والشخصية ، وإن لم يتضح فى ظاهرة أو ظاهرات محدودة ، ولم يتحدد كما لو وضعت عليه اليد ، فلم يزل يغزو القلوب ، ويقتحم من النفوس مناطقها الخفية .

ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى أقام كل تعاليمه الروحية والزمنية على أساس من هذا الشعور ، وزاد مبالغة فى الاعتداد به ، أن جعله قاعدة الإيمان ، فإذا كان الإسلام فى أعمال الظواهر قد بنى على خمس ، فإنه فى المنطقة الإيمانية لا يقوم إلا على تحقق هذا الشعور ؛ فالنبى صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فهو يجعل تمام الإيمان وكماله موقوفا على أن يحب المؤمن للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه ، والإنسان لا يحب أن يكون إلا حيث السعادة والهناءة ، والطمأنينة والسكينة .

فالإسلام أقام تعاليمه على النفع ، وتبادل الحب ، والاستواء فى أسباب الإخاء ؛ ليضع التصميم الصحيح للحياة البشرية ، وقد استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يقدم للعالم أجمع فى وقت وجيز هذا الأنموذج المحكم ، فكان فى تجانسه ونظامه شيئاً مدهشاً ، وطريفاً معجباً بلغ من الإتقان غايته ، ومن الكمال نهايته وحين قدر لهذا العالم أن يفتح عينيه على حقائقه سارع الناس فى دين الله أفواجا .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجرير بن عبد الله البجلى وقد جاء يبايعه على شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله : « والنصح لكل مسلم » فجعل المشاركة الشعورية صنوا لكلمة الشهادة ، ولعل دينا من الأديان لم يبالغ فى اعتبار هذا الجانب مثل دين محمد صلوات الله عليه ، وهكذا جاءت صحابته فى دقة الشعور نحو الغير كالموازين لا يفوتها منه شىء ، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وفى قصص عمر رضى الله عنه عبرة وذكرى ، وخطة فوق مناهج الناس .

وندع الآن الحديث للرواة فيما حفظوا من آثار فى هذا الجانب ، فقد روى ابن عساكر فى التاريخ الكبير عن أبى هشام :

أن سائلا خرج يتخطى أزقة المدينة ، حتى أتى باب الحسين رضى الله عنه ، فقرع الباب ، وأنشأ يقول :

لم يخب اليوم مَنْ رجاك ومن حرك من خلف بابك الحلقه
أنت ذو الجود أنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفسقه

وكان الحسين عليه السلام واقفا يصلى ؛ فخفف من صلاته ، وخرج إلى الأعرابى ، فرأى عليه أثر ضر وفاقة ، فرجع ونادى بخادمه ، فأجابه : لبيك يابن رسول الله ! قال : ما تبقى معك من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتنى بتفرقتها فى أهل بيتك ، فقال : هاتها ، فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابى وهو يقول :

خذها فإنى إليك معتذر واعلم بأنى عليك ذو شفقه

فأخذها الأعرابى وولى وهو يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

مطهرون نقيات جيوبهم تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا
أنتم أنتم الأعلون عندكم علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علويا حين تنسبه فما له فى جميع الناس مفتخر

كما روى أنه عليه السلام دخل على أسامة بن زيد وهو مريض ؛ فسمعه يقول : واغماه ! ، فقال له الحسين : وما غمك يا أخى ، قال : دينى وهو ستون ألف درهم ، فقال الحسين : هو علىّ . قال : إنى أخشى أن أموت . فقال : لن تموت حتى أقضيها عنك ، فقضاها قبل موته .

ولعل هذه أصدق صورة تعكس علينا ما نهدف إليه ، فقد تأثر إلى حد كبير بهذه العاطفة ، وشعر بشعور أسامة رضى الله عنه . فهو يشارك الناس ما يقع فى وجدانهم ، ويحس بنفس الإحساس الذى يمر فى سماوة نفوسهم ، فيألم إذا تألموا ، ويسر إذا سروا .

وهذا أعرابى يأتى مسجد رسول الله ، فيعقل ناقته بباب المسجد ويدخل ، وكان الحسين رضى الله عنه جالساً فيه ، كما كان عبد الله بن الزبير جالساً فى ناحية

منه ، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى ، فوقف الأعرابي على عتبة وسلم فرد عليه السلام ، فقال الأعرابي : إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ! فرفع رأسه الى غلامه وقال له : إدفع اليه مائة درهم . فقال الأعرابي : ما أريد إلا الدية تماما ، ثم تركه ووقف على عبد الله بن الزبير وقال مثل ما قال لعتبة ، فقال عبد الله لغلامه : إدفع اليه مائتي درهم . فقال له : ما أريد إلا الدية تماما وتركه ، وأتى الحسين ، فسلم عليه وقال : يا بن رسول الله ! إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطي شيئا ! .

وهنا يتجلى أنبل شعور ، وأجمل إحساس في سيد الناس وابن سيدهم ، فيأمر له بعشرة آلاف درهم ليقضي بها دينه ، وبأخرى مثلها ؛ ليلم بها شعثه ، ويحسن بها حاله ، وينفق منها على عياله .

فهو يعطيه لاجودا فحسب ، وإنما مواساة منه ، ومشاركة له في ملمة نزلت به « وإن حقا على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض كما يألم الجسد إذا تألم عضو منه » .

وكأني بالمسلم الحق وله اتصالات تربطه بكل الناس ، وله في قلبه جهاز مرهف حساس يشعره بشعورهم ، فيواسي المكلوم ، وينصر المظلوم ، ويعطي المحروم ، ويبذل المعروف ، ويغيث الملهوف .

وإني لأرى أن الذي لم يتمتع بهذا الشعور النبيل أصم النفس ، لم يتصل باطنه بنعمة الوجود ، فهو يعيش في عالم مهجور قفر ليس فيه حي ولا حياة ، أنكر مايحسه الناس . فأنكر الناس ما يحسه ، وبعد عنهم فبعدوا عنه ، وعاش في وحدة قاتلة ، لا يجد من يسليه أو يبكيه ، ونسى أو تناسى أن الشريعة الغراء بالغت في وجوب محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطا في الإيمان « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

وما أجمل أن نرجع إلى تعاليم ديننا ، وسنة نبينا « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

مجالات فى الأدب :

لمحات خالدة

بقلم الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بمعهد القاهرة

فى البيان المخلد والإشراق المصنع ، والتعابير الموشاة والألفاظ المتخيرة عند أدباء العرب . صور لماحة وضاءة نابضة بالحيوية تلمس فى موحياتها صبغة الإنسانية ولون العالمية المجددة ما بقيت الحياة والأحياء .

وإذا عرف التراث العربى بخصائص المجلّين فى التنوق اللفظى والإبداع التعبيرى وصوغ « القوالب » التى تجرى على الألسنة وتعلق بالأسماع وتلبى « تداعى المناسبات » فى كل موقف نفسى أو مدرج فكرى إذا عرف التراث بهذا وبغيره من المميزات ، فإننا نظلم الماضين من عباقرتنا ومفنّنى الخلود فى أدب العرب عامة والإسلام خاصة . إذا أغفلنا حكمنا وتابعنا فيه خطوات الأقلام التى تعبر دون أن تتعمق فى مسائل العبقرية الخلاقة ، والقريحة الثرة من منابع غاصة بموارد تغذى النفس وتروى العاطفة وتلهب الحماس وتقيم وتقوم الفكر ، وأخيرا تمسح عن الكاتبين سحائب أرهقت حقول نتاجهم من جهامة الزوابع المغرضة والعواصف المحتربة بين معارك المتعصبين ضد الأدب العربى .

والأدب الصراح — يعلم الله — براء من معايير تقوم على التحيف والسبح قرب شواطىء تحتضن الضحل من المعانى والأفكار ، والكدر من الأغراض الهزيلة والأهداف السطحية فيما يهم الفرد ويحزب الجماعة .

* * *

وإنى لواضع أمام القارىء قدراً مقبوساً من أثر الجاحظ ، وهو معروف بغزارة الترادف ، وإطالة اللفظ فى تكاثر بيانى ، وتدفق مطنب مطيل .

واخترت من براعة الجاحظ متعمداً الإصرار على أن المطنب الصناع لا ينسى ما وراء أثره من تظليل الصورة النفسية، وإرسال أشعاع الجمال فيها إلى مدى فسيح يريح المتأمل فى «الإطار»، والمتروى فى أصل الفكرة، والمتأسى بالغرض الأول عنده، إذا كان على بينة مقتدرة.

وعندى وعندك أيها القارىء: إذا ضقنا بالزمان وأهله، وأردنا ذمه لنروح عن صدرنا طوفنا مع الجاحظ، وكتبنا بما خطه فى رسالة يبث فيها شكاته: «كتبت إليك وحالى حال من كشفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره ومخرج أمره، وقل عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبة إخائه لاستحالة زماننا وفساد أيامنا. وقِدْماً كان من قدم الحياء على نفسه، وحكم الصدق فى قوله، وآثر الحق فى أموره، ونبذ المشتبهات عليه من شئونه تمت له السلامة، وفاز بوفور حظ العافية، وحمد مغبة مكروه العاقبة. فنظرنا إذ حال عندنا حكمه وتحولت دولته، فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال والقصد فى الطلب بترك استعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأى، إذ صارت الحظوة الباسقة والنعمة السابغة فى لؤم المشيئة وثناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء، ومُلاَبسة معرة العار، ثم نظرنا فى تعقب المتعقب لقولنا والكاشر لحجتنا، فأقمنا له علما واضحا، وشاهداً قائما، ومنارا بينا، إذ وجدنا فيه من السفولية الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرح، والخلف المصرح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفة، وضعف اليقين والاستثبات، وسرعة الغضب والجراءة، قد استكمل سروره، واعتدلت أموره، وفاز بالسهم الأغلب، والحظ الأوفر، والقدر الرفيع».

وينساب الجاحظ معبراً ومصوراً حتى يعطيك من طرف ريشته ما تعيش فيه، وما تجد فى روحه وريحانه أو شواظه ونيرانه ما يكون لك منه العزاء.

ولا تستطيع أن تنكر الاشتراك معه فى الدوافع وإن اختلف الزمان وبعد ما بينك وبينه من شقة العصر والأوان، لأن النفس البشرية هى النفس ولذلك

تجدك معه ، وتجده معك ، وترددان معاً بعد الاتفاق ، فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة ضده ، ووجدنا العقل يشقى به قرينه كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه » .

* * *

وكلنا ومعنا الجاحظ نرجع فى تداعى المعانى ونستهدى من الشعر ما يجمع ويجمعنا على النشيد الذى صاغه المتألم المتأمل . صاغه لنفسه وصاغه لنا فى زمنه وزماننا :

تحامق مع الحمق إذا ما لقيتهم ولاقهم بالجهل فعل أخى الجهل
وخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

* * *

وتلك شنشنة المتألم كلما دخل فى واد ترحم فى جدبه على خصوبة الماضى ، ولعن ما يرعاه من أشواك وما يدمى أقدامه وأنامله فى ملاعب قضت عليه الحياة والأحياء أن يدرج فى جوانبها ، أراد أم لم يرد ناح أم غنى .

وبمثل هذا الشاهد — وما أكثر أشباهه — تجدنا فى حاجة إلى أدبنا القديم وفى حاجة ملحة إلى أن نخلع عن أعيننا « المنظار الأسود » الذى شوه أمام الكاتبين دسم الموائد المنمقة والطرائف المعتقة حتى ولو كانت القوارير من فضة والدنان من عسجد وكانت قرارات الكاسات من تهاويل عبقر وترتيل الحور .

* * *

والرأى عندى أن زادنا الأدبى ونشأة أبنائنا فى حاجة إلى النبع الأصيل ، وإن كنا لاندافع محدث جداول تصب فى محيط الحياة الجديدة التى ألمت بنا فى تقارب المدنيات وتلاقى الحيوات فى عصر خضع للسرعة وشد فى عجلات « الآلة » وأجنحة المحلقات على بساط الريح .

* * *

وعلينا أن نحفظ موادنا الخَامَّة إذا شكلناها بمُحدَث الفن مما لا يقطع عليها إصالة العلقة بالتربة الشرقية والمهد العربي والإرضاع الإسلامي : لأننا إذا قطعنا الوشائج — كما يصنع بعض الكاتبين — ضعنا فى خضم لا ساحل نأوى إليه ولا عاصم لنا إلا الاهتداء بالنجم المعجز والفلق الذى لا ينطفى ضياؤه وهو « القرآن الكريم » .

بذلك يعود القلم العربي المحدث إلى مائدة كانت دسما لأولنا ولا تزال غضة شهية لمن يتحلق حواليها وتطوف ليقطف من ثمارها الدانية .

* * *

ولله سر فى أن يكون أدبنا نسيج وحده مهما تعددت محاسن الآداب الأخرى ، فإننا نتفرد بركائه أسستها السماء ورفعت قواعدها فطرة الرسول الذى لا ينطق عن الهوى وما خلفه من أدب إنما هو قبس من التنزيل وكل شاد لا يطرب إلا إذا ورد معين الخلود ، وسلك بعد ذلك مسلكا ذالا محدثا أو مهيعا مُعَبَّداً .

أبو الشمقمق

أبو الشمقمق شاعر أديب ، يعتبر من ظرفاء أهل الأدب ، وله فى وصف حاله وفاقته أشعار طريفة يتناقلها المعنيون بالأدب ، وكان ملازما بيته فى أطمار مسحوقة وأهدام بالية . كان يزوره كثير من العارفين بفضله ، ويستملحون أحاديثه ويتناقلونها للتندر بها . كان من عادته إذا طرق عليه الباب أن يقف خلفه فينظر من بعض فرجه ليرى من الذى طرقه ، فإن رآه محبا له صادق المودة ، فتح له وأدخله ، وإلا أصر على الصمت حتى ينصرف الطارق يأسا من لقائه .

وقد أكثر فى شعره من وصف حاله ، فمن ذلك قوله :

أنا فى حال تعالى الله ربى أى حال

ليس لى شىء إذا قيـ ل لمن ذا قلت ذا لى

ولقد أهزلت حتى محت الشمس خيالى

ولقد أفلست حتى حل أكلى لعيالى

فتح القسطنطينية

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن
المدرس بالمدارس الثانوية

إن حادث فتح القسطنطينية فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى على يد السلطان محمد الفاتح يعتبر من الحوادث الحاسمة فى التاريخ؛ لأنه كانت له آثار ونتائج بعيدة المدى. ولكى ندرك مدى خطورة ذلك الحادث ينبغى أن نعرف شيئاً عن أهمية تلك المدينة، تطل هذه المدينة العتيدة على مضيق البسفور الذى يفصل البحر الأبيض عن البحر الأسود، كما يعتبر أضيق منطقة يمكن منها الاتصال بين أوربا وآسيا؛ ولذلك تعتبر القسطنطينية بهذا الموقع الفريد أخطر نقطة استراتيجية فى منطقة الشرق الأدنى بأسرها، وقد كانت هذه المدينة تسمى بيزنطة، وبدأ نجمها فى الصعود عند ما جعلها الأمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة للدولة الرومانية فى مطالع القرن الرابع الميلادى. ولما انقسمت الدولة الرومانية الكبرى فى أواخر ذلك القرن إلى قسمين لكل منهما أمبراطور خاص، أصبحت القسطنطينية عاصمة الجزء الشرقى من الدولة، والذى صار يعرف بالدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية. وإلى هـــذا الموقع الممتاز يرجع الفضل فى بقاء القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية زهاء عشرة قرون بعد سقوط الدولة الرومانية فى الغرب، وإليه أيضاً يرجع الفضل فى بقائها عاصمة للدولة العلية زهاء خمسة قرون. وهذا الموقع المنيع يفسر لنا لماذا كانت سياسة روسيا طيلة العصور الحديثة سواء فى عهد القياصرة أو فى عهد البلشفية تعمل بكل ما أوتيت من قوة للاستيلاء على القسطنطينية لكى تصل بوساطتها إلى البحار الدفيئة.

وإن هذا الحادث الخطير وإن كان قد تحقق فى القرن الخامس عشر إلا أن بداية التفكير فيه ترجع إلى ما قبل ذلك بثمانية قرون عندما حاول معاوية بن

أبي سفيان سنة ٦٥٣ م غزو القسطنطينية ولم ينقذها من تلك المحاولة سوى مصرع الخليفة عثمان والفتنة التي أعقبته ، ثم قام المسلمون بعد ذلك بعدة محاولات لتحقيق ذلك الغرض كان أهمها جميعاً ما حدث في مستهل القرن الثامن في عهد سليمان ابن عبد الملك سنة ٧١٧ م . وكان إخفاق هذه المحاولة ذا آثار عميقة في الدولة الإسلامية ، وقد ساعد الدولة البيزنطية على صد هذه المحاولات جميعاً مناعة مركز القسطنطينية وثراؤها وقوة أسطولها وحماس أهلها في الدفاع عنها ، فلما قامت الدولة العثمانية جعل سلاطينها فتح القسطنطينية قبلة أنظارهم ، وما زالوا يعملون لذلك الغرض بإلحاح حتى أتيح لمحمد الفاتح سابع سلاطينهم أن يحقق هذا الحلم ويتوج جبينه بإكليل ذلك النصر الذي هز الشرق والغرب .

العوامل التي سهلت الفتح :

إن الأحوال الواضحة في الدولة البيزنطية إبان عهد العثمانيين والظروف المحيطة ، كان لها أثر أي أثر في تسهيل فتحها ، وإن الحملة الصليبية الرابعة وما تمخض عنها من إقامة دولة لاتينية في القسطنطينية استمرت زهاء ستين عاما (من سنة ١٢٠٤ - ١٢٦١ م) قد أثر في كيان الدولة البيزنطية فأضعف أسطولها وأفقدها السيادة التجارية في البحر الأبيض ، فلما عادت الدولة بعد ذلك إلى عاصمتها لم تجد المال الكافي ولا القوة البحرية اللازمة لتأمين سيادتها مما مكن العثمانيين من أن يسلخوا من جسم الدولة أجزاء كبيرة بالتدريج حتى انتهى الأمر بأن أصبحت الدولة قاصرة على العاصمة العتيدة وشقة صغيرة من الأرض حولها .

الاستعداد للقتال :

بعد أن تربع محمد الثاني على عرش آل عثمان ، ووطد أركان الأمن داخل حدود دولته المترامية الأطراف ، أخذ يرنو ببصره نحو القسطنطينية العظيمة ويعد العدة للاستيلاء عليها ، وكان محمد شاباً مقداماً طموحا بعيد النظر ينفذ إلى غايته نفاذ السهم إلى الرمية ، كما كان يعرف كيف يحتفظ بسره لنفسه ، حتى لقد أثر عنه أنه قال : لو أن شعرة من ذقنه عرفت ما تضم عليه جوانحه لبادر بانتزاعها .

وقد كان السبب الذي حدا به إلى مبادرة بيزنطة بالشر أن آخر أباطرتها قسطنطين باليولوجوس انتهز فرصة ثورة نشبت ضد السلطان في آسيا الصغرى ،

وأرسل إليه يطلب زيادة نفقة أمير عثمانى كان فى أسره ، وإلا فإنه سيساعد ذلك الأمير على المطالبة بالعرش العثمانى ، فحقدها السلطان على الامبراطور ، وبمجرد إخماده الثورة ، شرع فى بناء حصن على الجانب الأوربى من البسفور فى أضيق مكان منه على مبعدة من القسطنطينية بنحو خمسة أميال ، ولما احتج الامبراطور على خرق حياد تلك المنطقة ، لم يأبه السلطان لاحتجاجه ، وبذا أصبحت الحرب بين الدولتين واقعة لا محالة ، فقضت كلتاهما خريف سنة ١٤٥٢ فى إعداد معدات الحرب هجوماً ودفاعاً .

حصار القسطنطينية :

بعد أن تمت استعدادات الجانبين كاشف السلطان وزراءه ومستشاريه بعزمه على اقتحام القسطنطينية ، وأمر آلاف العمال بإعداد العربات اللازمة لنقل المدافع إلى ميدان القتال وتمهيد الطرق الصالحة لسيرها . وفى فبراير سنة ١٤٥٣ سار كرادجا باشا على رأس طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف جندى تتقدمهم المدافع الثقيلة تجرها العربات ، وفى الثالث والعشرين من هذا الشهر أقلع السلطان من عاصمته هدريانوبل على رأس جحفل جرار سار يتهادى فى موكبه ، حتى وصل فى السادس من إبريل إلى ضواحى القسطنطينية . وفى اليوم التالى أعلن السلطان بداية حصارها ، وتخير الأماكن الصالحة لنصب مدافعه التى بلغ عددها ٦٩ ، كما رابط أسطوله فى بحر مرمرة مستعدا لشد أزر الجيش البرى ، وابتدأت المدافع تصب على أسوار المدينة وابلا من قذائفها ، حتى استطاعت أن تحدث بها بعض الثغرات . ولكن المدافعين كانوا يسرعون إلى ترميمها قبل استفحال خطرها ، أو ساعدهم على ذلك أن المدافع كانت تضطر إلى التوقف بعض الوقت حتى لا تنصهر فوهاتها ، وبينما المدافعون فى هذا اليأس القاتل إذ وصلتهم من جزيرة خيوس إمدادات فى خمس سفن حربية استطاعت أن تشق طريقها إلى القرن الذهبى تحت سمع الأسطول التركى وبصره ، وتمكنت من دخول الميناء سالمة بعد معركة طاحنة مع كثير من سفن الأسطول التركى .

وغضب السلطان لهذا الحادث ، ولكن اليأس لم يتسرب إلى نفسه الوثابة فلما أعياه اقتحام القرن الذهبى المحصن بالسلاسل المنيعة ، صمم على نقل جزء من

الأسطول برا بطريقة هندسية جريئة تشهد له بالمقدرة الفائقة والعبقرية النادرة ؛ ذلك أنه مهد طريقا ووضع عليه كتلا خشبية عظيمة ملساء فى مسافة الخمسة الأميال المحصورة بين البسفور والقرن الذهبى ، ثم أمر بدفع المراكب على ذلك الطريق وجذبها حتى وصلت سالمة إلى الخليج ، وتم ذلك كله فى الليل دون إثارة ضجة أو ضوضاء ، حتى أصبح البيزنطيون فى صبيحة الثالث والعشرين من إبريل فإذا هم يفاجئون برؤية السفن العثمانية داخل سلاسل القرن الذهبى ، فصعقتهم هذه المفاجأة الهائلة ، وأيقنوا بقرب نهايتهم المحتومة .

مركز المدافعين :

وأمام كل هذه الاستعدادات الجبارة كان مركز القسطنطينية المنيع وأسوارها الضخمة المتداعية فى بعض أجزائها ، لا تغنى عنها شيئا أمام السلطان وجحافله ، وخاصة إذا علمنا أن المدافعين على قلة عددهم كانوا منقسمين شيعا وأحزابا ، وأعمتهم الخلافات المذهبية إلى حد دفع الغراندوق نوتارس زعيم الأرثوذكس والذى أسندت إليه القيادة ، إلى أن يقول فى صراحة إنه يفضل أن يرى عمامة السلطان فى القسطنطينية على أن يرى فيها قلنسوة البابا . من أجل ذلك كله لم تنفع البسالة العظيمة والجرأة النادرة التى أبداها حنا غستنيانى القائد الجنوى فى الدفاع عن القسطنطينية وترميم الثغرات التى تحدثها قذائف المهاجمين إلا فى تأخير أمد سقوطها .

الهجوم الأخير :

بعد ذلك أخلد معسكر السلطان إلى الهدوء فترة من الزمن ، بعد أن استمر قصف مدافعه نحو ستة أسابيع ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ؛ ذلك أن السلطان أعد عدته للهجوم الحاسم على العاصمة ، واستثار حماسة جنوده إلى أقصى حد عندما أعلن إليهم أن كل ما تقع عليه أيديهم فى المدينة ملك لهم ما عدا الأراضى والمبانى . وفى صبيحة التاسع والعشرين من مايو بدأ الهجوم واندفع العثمانيون كالأمواج المتلاطمة صوب أسوار المدينة ، وبدأ قصف المدافع تتجاوب أصداؤه من البر والبحر ، وشرع الجنود يتسلقون أسوار المدينة غير آبهين للموت

الذى كان يترصدهم ، وأخيرا وبعد لأى استطاعوا أن يوسعوا الثغرة التى أحدثوها عند باب القديس رومانوس وتدافعوا إليها ، وفى تلك الأثناء خر حنا غستنيانى جريحا كما صرع الامبراطور وهو يدافع عن أسوار عاصمته بنفسه . فكان هذا مما فت فى أعضاد المدافعين وأدى إلى تراخيهم فى الدفاع فلم يأت الظهر حتى كانت المدينة قد استسلمت للبطل المهاجم الذى سمى منذ تلك اللحظة محمدا الفاتح ، واجتنى ثمار النصر الذى طالما اشرأبت إليه الأعناق ، وعند العصر تهادى موكبه الظافر يشق شوارع المدينة حتى وصل إلى كنيسة القديسة أيا صوفيا ، وكان أفراد حاشيته قد هيئوها ليؤدى فيها صلاة المغرب ، وعندما وصل إليها دخلها مطأطىء الرأس عارى القدمين وأدى صلاة المغرب .

وبعد ذلك أباح السلطان المدينة لجنده ثلاثة أيام برأ بوعده ، ثم أعاد إليها النظام والهدوء ، وأعلن أنه حامى الكنيسة الإغريقية ، وأن شخص الامبراطور اليونانى مصون مقدس معافى ومن معه من كبار موظفى الكنيسة ، وأن جميع اليونانيين فى حل من استعمال كنائسهم وإقامة طقوسهم الدينية من غير تعرض لهم أو تدخل فى شئونهم الدينية ، وبذلك طمأن رعاياه المسيحيين وأمنهم على أرواحهم ومنحهم الحرية الدينية ، وهذا تسامح جميل يذكر للفاتح العظيم بالفخر والثناء مما جعل مؤرخى الفرنج أنفسهم يعترفون - والفضل ما شهدت به الأعداء - بأن فتح القسطنطينية على يد الأتراك لم يحدث بها من الدمار مثل ما حاق بها على يد اللاتين فى مستهل القرن الثالث عشر .

القسطنطينية : عاصمة العثمانيين : أخذ محمد الفاتح بعد ذلك يغرى أغنياء رجال دولته بالرحيل الى القسطنطينية ، ومنحهم الأرض اللازمة لبناء منازلهم ونقل مقر حكمه إليها ، وهكذا سقطت عاصمة البيزنطيين التليدة - بعد أن استمرت حاضرة لهم زهاء أحد عشر قرناً - فى يد المسلمين ولكنها لم تسقط فى يدهم لتندثر وتمحى من عالم الوجود ، بل لتبعث فى ثوب جديد وتصبح عاصمة الامبراطورية التركية العظيمة زهاء خمسة قرون ، وهكذا استأنفت حياتها كأعظم مدن الشرق قاطبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

فى عيد الميلاد الملكى

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الأزهر فى احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكى

فى يوم السبت الحادى عشر من شهر فبراير احتفل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » أعزه الله وأمده بتأييده ؛ فاحتشد فى الرواق العباسى بالأزهر المعمور عقب صلاة العصر جمهور غفير من كبار رجال الحكومة ، وأصحاب الفضيلة العلماء وحضرات الوجهاء والأعيان وطلاب العلم ؛ فنهض فضيلته فى الساعة الثالثة والنصف خطيباً فألقى كلمة جمعت من مناقب حضرة صاحب الجلالة ما تحدثت به الركبان ، وسرى ذكره فى الخافقين ، فى عبارات بليغة ، وأسلوب بديع ، فكان لها أجمل وقع فى الأسماع ، وأبلغ تأثير فى النفوس ، وختمها بالدعاء لجلالته بدوام التوفيق والسداد ، وللمغفور له والده العظيم بالرحمة والرضوان . وانصرف المحتفلون يرجون لجلالة الملك طول البقاء ، ودوام التوفيق لإبلاغه متمنياته العالية من إيصال بلاده إلى أرفع مكانات السؤدد والعمران .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه .

تبارك الله أحسن الخالقين : منّ سبحانه وتعالى على وادى النيل السعيد ، فى هذا اليوم المشرق الغرة ، الميمون الطالع ، بمولد الملك الكريم ، فاروق العظيم ؛

ففاض على الوادى نور ملأه إشراقاً وبهاءً ، وبهجة وسناء ، وتوالت عليه النعم ؛ فاتحدت كلمة أبنائه ، وتوحدت صفوفهم ، وحظيت البلاد باستقلالها ، ونعمت بسيادتها . ولما تربع حفظه الله على عرش مصر ؛ ملك قلوب أبنائها بمآثره ، ومس بيده العبقرية شئونها ، فسرى الخير واليمن فى جميع أوصالها ، ودبت الحياة الفتية فى كل أجزائها ، فهبت وثابة تستبق المجد ، وتنافس أعلى الأمم حضارة ورقيا .

وفى الحق إن فيض الفاروق ومننه قد أحيت الوادى ونهضت به نهضة رفيعة فى كل مرافقه ومناحيه ؛ فأينما تول وجهك فثَم نعمة للفاروق العظيم . ففى التعليم قطعت البلاد شوطا لم تكن لتبلغه لولا توجيه الفاروق ورعايته ؛ وفى الزراعة والصناعة وغيرهما تقدمت البلاد تقدماً عظيما حتى أصبحت لها مكانة مرموقة بين الأمم ؛ وما كانت لتسمو إلى هذا الأوج لولا عناية الفاروق وحرصه على أن تسامى بلاده أعرق الأمم حضارة ومجدا .

أما الأزهر وهو مَثابة الدين ، فقد لقى من عناية جلالته وعطفه وحَدَبه ما وطد دعائمه ، وثبت أركانه ، ووسع آفاقه ، وأعلى صوته ، وشَعَّب معاهده ، حتى انتشر التعليم الدينى فى جميع أنحاء البلاد ، وجاوزها إلى الأقطار العربية ، والبلاد الإسلامية فى شتى بقاع الأرض ، وحتى أصبح الناس فى الخافقين ولا حديث لهم إلا أنعم الفاروق وأياديه البيضاء على العلم والدين . ولقد وسع عطف جلالته أبناء البلاد الإسلامية جميعا ، وأظلهم بظله الوارف ، وأمر بأن يفتح الأزهر أبوابه لأبناء المسلمين من شتى بقاع الأرض ؛ ليتعلموا ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم ؛ ووفر لهم معونة مالية سخية تعينهم على طلب العلم ؛ وتلك منة عظمى طوق بها الفاروق جيد الدهر ، وملك بها قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أصبح اسمه الكريم بفضل هذه الرعاية السامية ، عنوانا على البر والرحمة والأخوة الإسلامية .

أما رعاية جلالته للدين وحرصه على نشره ، فإنه ـ شهد الله ـ قد أحيا سنن السلف الصالح فى الإقبال على العلم والدين ؛ ومصر كلها ، بل العالم الإسلامى أجمع ، يشهد أن جلالته قد فجر فيه عيون العلم والمعرفة ، وأمر بتوجيه بعوث العلماء إلى كل الأقطار للدعوة للحق ، وهداية الناس ، ونشر تعاليم الإسلام .

وفى كل يوم يطالعنا حفظه الله بمنة جديدة يطوق بها أعناقنا نحن رجال الدين ؛ فقد رأى - أعزه الله - أن يكون تعميم الدين والقرآن الكريم فى جميع المدارس مادة أساسية ؛ لينشأ الجيل كله على رعاية فضائل الدين والتمسك بأحكامه . وما كادت هذه البشرى تزف إلى الشعب الحريص على دينه المتمسك بعقائده حتى أتبع المنة بمنة عظمى خالدة : هى أمره حفظه الله بجمع الصحاح من السنة النبوية المطهرة وترتيبها وفهرستها وطبعها على نفقة جلالته ، وتيسيرهما لجميع المسلمين فى شتى بقاع العالم ، فأتم الفاروق بهذه النعمة السامية رسالة والده العظيم المغفور له الملك فؤاد الأول ، طيب الله ثراه !

صاحب الجلالة ! إن مصر فى هذا اليوم السعيد لتباهى الأمم بما حباها الله من فضل رعايتك وفيض نوالك . فقد سطرت بجليل أعمالك وعظيم مآثرك صفحة خالدة فى تاريخها ، هى فى الحق أبهى صفحاتها وأجلها قدراً . وإن أياديك الغر على الوادى السعيد ، ومننك على أبنائه المخلصين لسدتك ، المتقلبين فى نعمتك الذاكرين لآلائك ، لأجل من أن يحصيها عد أو يفى بشكرها ما تردده آناء الليل وأطراف النهار قلوبهم من توسل ودعاء إلى الله أن يحفظ عرشك ويصون ملكك ، ويبقيك ركنا حصينا للدين وذخراً للوطن .

حفظك الله يا مولاى ورعاك وسدد خطاك ، ووفق حكومتك إلى ما فيه خير البلاد ، وأعاد أمثال أمثال هذا العيد على الأمة المصرية والشعوب الإسلامية فى ظل عرشك الممدود وعطفك الشامل .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك المعظم ، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاداً الأول . اللهم اجعله فى أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدين والدنيا معاً

> ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه

وقر فى نفوس أكثر الناس ، ومنهم بعض المسلمين ، أن الأديان لا تؤدى إلى المدنية ، وأنها تؤثر شظف العيش على رغده ، وأنها تقف جهود أهلها على العبادات وقمع الرغبات . وهذا خطأ محض ، وبُعد عن فهم مرامى الأديان ، وخاصة الإسلام . فقد شرعت الأديان لحفظ نظام الجماعات ، ونهج طرق السعادة الصحيحة لهم ، وهى لا تنحصر فى كثرة المال ولا فى قلته كما يظنه أكثر الناس ، ولكنها تتوقف على فقه معنى الحياة البشرية ، وعلى معرفة الأصول التى توصل إلى إبلاغها الى غايتها التى وضعت لها ؛ فكم من غنى لم يذق للسعادة طعما ، ومن مُقل وصل إلى نهايتها البعيدة ، والعكس صحيح أيضا . بل التناهى فى الإقلال شر على أصحابه من التناهى فى الاستكثار . وقد تعوذ النبى صلى الله عليه وسلم من الفقر ، ودعا ربه أن يجعل رزقه ورزق آله كفافا .

نعود إلى موضوعنا الرئيسى فنقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم على تخيره لنفسه الكفاف على الغنى لم يحتقر الثراء ، كيف وقد عبر الله عنه بكلمة الخير فى قوله تعالى : « إن ترك خيرا الوصية » ، وقد كان فى أصحابه ذوو مال وفير فلم يأمرهم بتبديده ، وقد أفاده مالهم فى مواطن كثيرة ، فتولى عثمان مرة تجهيز جيش برمته من ماله الخاص ، وأنفق عبد الرحمن بن عوف مالا عِدًّا فى سبيل تأييد الإسلام ؛ ولولا هذه الأموال الطائلة لقصرت الكتائب الإسلامية فى القيام بمهامها فى الدفاع عن حوزتها .

وقد عنى الإسلام ، فى عهد حاجة جماعته للمال ، بتدبير إنفاقه ؛ فقد جاءه أحد

أصحابه يستأذنه فى الخروج عن ماله فى سبيل الله ، فقال له لا تفعل بل الثلث والثلث كثير . إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس .

وقد جعل ذلك أصلا فى شريعته ، فقرر أنه لا يجوز لأحد أن يوصى فى سبيل الله بأكثر من ثلث ماله .

وقد نهى عن تبذير المال وسوء استعماله ، وجعل للكرم حدا معقولا فقال تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » وهذا تأنيب قارص يشعر بأن تدبير المال من الأمور الهامة فى الإسلام .

لما نزل قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ظن الناس أن كنز الأموال حرام فى الإسلام ، فأفضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث بين فيه حد الكنز من هذه الآية ، فقال : « ما أديت زكاته فليس بكنز » فأصبح ادخار المال وحفظه ، مهما بلغ مقداره مباحا للمسلمين ، والدليل الواقعى على ذلك أن كثيرين من الصحابة كانت لهم أموال طائلة ، وعايشوا النبى على هذه الحال ، وكانوا من خيرة صحابته .

ومن الأدلة العملية على ذلك : أن أبا ذر رضى الله عنه ، كان يرى أن ادخار المال غير جائز ، وأخذ يبث مذهبه هذا فى الناس ، وكان بالشام ، ووالبها معاوية ابن أبى سفيان إذ ذاك ، فشكاه إلى عثمان رضى الله عنه ، فاستقدمه ونهاه عن ذلك ، فأصر على رأيه ، فنفاه إلى الرَبَذة ، وهى قرية بقرب المدينة ، فلبث بها إلى أن توفى .

هذه القصة تدل على حرص أولياء الأمر المسلمين من شيوع المذاهب المجتاحة للثروة العمومية للأمة الإسلامية . وفى نفى أبى ذر الغِفارى ، وهو من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثال كبير الدلالة على هذا الحرص . وما ذلك إلا لأن المال أساس التعامل للجماعات ، وقوام المقاومة فى تنازع البقاء . وقد حث الكتاب الكريم على البذل فى سبيل الله ، وفى إمداد الفقراء بما يمكنهم من الحياة ، فإن لم يكن للأمة مال ، وكانت منه فى إقلال ، فماذا تبذل

فى سبيل الله ، وبأى شىء تمد المعوزين من أبنائها ، وتهىء لهم وسائل العمل والحياة ؟ هذه أمور بديهية ، لا تتقاضانا التدليل على صحتها . لذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين بطلب السعة فى الرزق من جميع مظانها ، فى عبارات مؤثرة ؛ فقال : « لعثرة فى كد حلال على عيِّل محجوب ، أفضل عند الله من ضرب بسيف حولا كاملا ، لا يجف دما مع إمام عادل » .

وأمر بالجد فى طلب الرزق وعدم التكاسل عنه ، فقال : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » ، وحث على استثمار الأرض فقال : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » .

وحرض على التجارة فقال : « أوصيكم بالتجار خيراً فإنهم بُرُد الآفاق ، وأمناء الله فى الأرض » . هذا وكتب الحديث ملأى بأمثال هذه الكلم النوابغ مما لم يرد مثله فى كتاب دينى لأمة من أمم العالم .

ومما هو غاية الغايات فى هذا الباب ما رواه المحدثون من أن النبى عليه الصلاة والسلام دخل عليه قوم فقالوا له : يا رسول الله لا يدانيك فى العبادة إلا رجل عندنا يصوم النهار ويقوم الليل ، لا يشغله شىء غير العبادة . فقال لهم النبى : « فمن يمونه ؟ » قالوا : يا رسول الله كلنا نمونه ، فقال لهم النبى : كلكم أفضل منه » !

فالذين يتخيلون أن الدين مقطعة عن الأعمال التى تعود بالنفع على الأفراد والجماعات ، إنما يجردون الدين من معناه الصحيح ، فإن الدين شرع ليصل بين الإنسان وبارئه ليستمد منه روحا علوية توجهه إلى ما خلق له من إنسانية كريمة وحياة شريفة ، ورقى معنوى يصل به إلى غاية ما قدر له فى وجوده الدنيوى من سمو فى الخلق ، وعلو فى النفس ، وكرامة فى الوجود ، وإبداع فيما وكل إليه من خلافته فى الأرض ، لا أنه خلقه ليعيش معطلا مواهبه الأدبية ، مكتفيا بما حسنه له الوهم من إيثار البطالة ، والرضا بالجهالة .

إن الإسلام دين المدنية الصحيحة ، والمعيشة الهنيئة ، فى حدود الحكمة ، وحيز الفضيلة . فهو لا يحرم إلا ما يحرمه العلم الصحيح ، ولا يحل إلا ما يحله الطبع السليم ، فإذا كان يحرم على أهله الخمر والميسر والزنا والقتل والغيبة والنميمة والكذب والنفاق والسرقة والرشوة والخداع الخ الخ ، فذلك لأنها مفسدة

للأفراد والجماعات ، مجلبة للشرور والآفات ، وهو يحل كل ما عدا هذه الصفات الذميمة ؛ ولا يطالب الإنسان إلا بالاعتدال فيها ؛ لذلك تأدى المسلمون فى أول عهدهم إلى بلوغ جميع أغراضهم الاجتماعية بأسرع مما سجله التاريخ لكل الامم التى آلت اليها الخلافة فى الأرض ، حتى من ناحية المدنية المادية ، فقد بلغوا فيها أوجا أدهش مؤرخى الفرنجة ، ووصفوها بأنها لاتقل عن المدنية الحالية رونقا . وإنا لناقلون لك ذلك عن العلماء الغربيين أنفسهم ؛ ليكون الوصف لغرابته أكثر إقناعا للمتشككين ، وأشد وقعاً على المنكرين .

قال العلامة (دريبر) Draper المدرس بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) قال فى المقارنة بين مدنيتى أوروبا فى ذلك العهد ومدنية العرب :

« إن أوروبا فى ذلك العهد (عهد مدنية العرب) كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة . وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ؛ فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم . وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف البيوت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل ضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذاء المطابخ أمام بيوتهم أكواما وأكداسا تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة ، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسماً .

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .

« هذه الجهالة كان أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين للصلاة ، ولم يلتفتوا لأمر النظافة ، فكانت تفتك بهم الأوباء فتكا ذريعاً » انتهى كلام الأستاذ دريبر .

هذه كانت حالة أوروبا فى أعظم مدنها حضارة على عهد البعثة المحمدية ، آلت إليها بسبب ما أصابها من التدهور تحت سلطان رجال الدين فيها . فقارن بين هذه الحالة ، وبين ما آلت اليه حالة مدن الأندلس (اسبانيا) التى استولى عليها المسلمون فى القرن الأول من الهجرة وسرّوا عليها النظم الإسلامية . قال الأستاذ (دريبر) نفسه فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« لم تكن أوروبا فى مدنيتها العصرية بأعلى ذوقاً ، ولا أرفع مدنية ، ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبُسُط ، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد ، وتهوّى صيفاً بالنسمات المعطرة ، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهراً . وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء ، وينابيع مياه عذبة .

« وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات التى كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب . وكانوا بدل النهم ، وإدمان السكر فى المآدب الليلية ، كجيرانهم الاوربيين ، يجملون مآدبهم بالقناعة . وكانت الخمر محرمة عليهم ، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تمشيهم فى الليالى المقمرة فى حدائقهم البالغة منتهى الجمال ، أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال يسمعون قصة مسلية ، أو يتجادلون فى موضوع فلسفى ، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها ، بقولهم : إنها لو كانت منزهة عن الآلام وعن الإصابات لنسوا حياتهم الأخروية . وكانوا يوفقون بين جهودهم فى هذه الحياة ، وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة » .

انتهى ماقاله الأستاذ (دريبر) . فقدر بعد ذلك مبلغ ما أفاده الإسلام لذويه من نعمتى الوجود المادية والأدبية ، وتحقق مما يفيده هذا الدين لأهله من خير المعاش والمعاد . أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : لنا الدين والدنيا معاً ؟

محمد فريد وجدى

السنة التشريعية :



الحداء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المفتش بالأزهر

أخرج البخارى عن أنس بن مالك قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له ، فحدا الحادى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ارفق يا أنجشة — ويحك — بالقوارير » !

* * *

جرت عادة الإبل أنها إذا سمعت الحداء استهوتها أنغامه ، وهزتها ألحانه ، وتأثرت به تأثرا تستخف معه الأحمال الثقيلة ، وتستقصر فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيها من النشاط والقوة والشوق والحنين ما يسكرها ويولهها ، فتراها حتى ولو طالت عليها البوادى ، واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال ـ تمد أعناقها ، وتنصب آذانها مصغية إلى صوت الحادى ، ومنصتة إلى نغمات الحداء ، وهى مسرعة فى خطوها وجادة فى سيرها ، وربما تتلف نفسها من شدة السير وثقل الحمل ، وهى لا تشعر ، تأثرا بما ملأها من طرب وهيام ؛ كما أنه قد ينشأ عن كثرة اهتزازها ، وتلاحق خطواتها ما يزعج الراكب ، ويتعبه ، وما لا يؤمن معه على النساء والضعفاء من السقوط .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، ومعه نساؤه وسواق يسوق بهن ويحدو ، يقال له : أنجشة ، وكان حسن الصوت ، فقال له عليه السلام : ارفق يا أنجشة بالقوارير . وقد سمى النساء قوارير ، لضعف عزائمهن ، تشبيها لهن

بالقوارير من الزجاج فى رقتها وضعفها وإسراع الانكسار إليها ، والنساء يُشبهن بالقوارير فى الرقة واللطافة وضعف البنية ، وقيل : شبههن بالقوارير لسرعة إنقلابهن عن الرضا ، وقلة دوامهن على الوفاء ؛ كالقوارير يسرع إليها الكسر ، ولاتقبل الجبر .

واختلف فى المراد من هذه التسمية على قولين : فأصحهما أن أنجشة كان حسن الصوت ، وكان يحدو بهن وينشد شيئا من القريض والرجز ، وما فيه تشبيب ، فلم يأمن أن يفتنهن ، ويقع فى قلوبهن حداؤه ، فأمره بالكف عن ذلك ؛ وهذا هو الأشبه بمقصوده صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى اللفظ ، وبما يدل عليه كلام أبى قلابة المذكور فى رواية أخرى ، إذ يقول : تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه ، يريد قوله فى تلك الرواية :سوقك بالقوارير .

والقول الثانى : أن المراد من تسمية النساء بالقوارير : الرفق فى السير ؛ لأن الإبل إذا سمعت الحداء ، اشتدت فى المشى ، واستلذته ، فأزعجت الراكب وأتعبته ، فنهاه عن ذلك ، وطلب إليه أن يتلطف فى سوقه بهن ، كتلطفه فى السوق بالقوارير لو كانت محمولة على الإبل ؛ لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة ، ويخاف عليهن الضرر والسقوط ، ولأنه إذا تمهلت المطايا ، ومشت رويدا ، اطمأن النساء فى رحالهن ، وأَمِنَّ مما يصيبهن من أذى ومكروه . وقال أصحاب هذا القول : إن هذا من الاستعارة البديعة ، لأن القوارير أسرع شىء تكسيرا ، فأفادت الكناية بالقوارير عن النساء من الحض على الرفق بهن فى السير ما لم تفده الحقيقة ، فيما لو قال : ارفق بالنساء . قال فى الكواكب : هذه استعارة لطيفة بليغة ، فلم تعاب ؟ ثم قال : ولعل أبا قلابة نظر إلى أن شرط الاستعارة أن يكون وجه الشبه جليا بين الأقوام ، وليس بين القارورة والمرأة وجه شبه ظاهر عندهم . والحق أنه كلام فى غاية الحسن ، والسلامة من العيوب ، ولا يلزم فى الاستعارة أن يكون جلاء وجه الشبه من حيث ذاتهما ، بل يكفى الجلاء الحاصل من القرائن ، وهو هنا كذلك .

وقيل : إن أبا قلابة قال هذا لأهل العراق ، لما كان عندهم من التكلف ، ومعارضة الحق بالباطل . وقيل : إن قصده من كلامه أن هذه الاستعارة تحسن من مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغة ، ولو صدرت من غيره ممن لا بلاغة له ، لعبتموها .

* * *

الحداء : سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء ، وهو من حدا الإبل ، وحدا بها : ساقها ، والحادى : المتغنى عند السوق . ويقال : إن أول من حدا الإبل عبد لمضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ، كان فى إبل لمضر ، فقصّر ، فضربه مضر على يده فأوجعه ، فجعل يتألم ويقول : يا يداه ، يا يداه ! وكان حسن الصوت ، فأسرعت الإبل فى السير لما سمعته ، فكان ذلك مبدأ الحداء .

وارفق : من الرِّفق ، وهو اللطف وحسن الصنيع ، يقال : رفق به وعليه رفقا ، وأرفقه : رفق به ونفعه . وترفق به : رفق ، والرَّفيق : ضدّ الأخرق .

وأَنْجَشَة ـ بفتح الهمزة ، وسكون النون ، وفتح الجيم ، ووقع فى بعض الروايات أنجش بالترخيم ـ هو غلام أسود للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان حبشيا يكنى أبا مارية ، وذكروه فى الصحابة ، وذكر أبو عمر فى الاستيعاب أنه كان يسوق أو يقود بنساء النبى صلى الله عليه وسلم فى عام حجة الوداع ، وكان حسن الصوت ، وكان إذا حدا أعنقت الإبل ، وأخرج الطبرانى أنه كان ممن نفاهم النبى صلى الله عليه وسلم من المخنثين .

ويحك : كلمة ترحم وتوجع ، وهو منصوب على المصدرية ، وقد ترفع وتضاف ، ولا تضاف ، يقال : ويح زيد ، وويحا له ، وويح له . وقال سيبويه : ويل : كلمة تقال لمن وقع فى هلكة ، وويح : زجر لمن أشرف على الوقوع فى هلكة . وقال الفراء : ويل وويح وويس بمعنى ، وقيل : وَيح : كلمة لمن وقع فى هلكة لا يستحقها ، فيرثى له ، ويترحم عليه ، وويل : ضده . وقال بعض أهل اللغة : لا يراد بهذه الألفاظ حقيقة الدعاء ، وإنما يراد بها المدح والتعجب ،

وجاء فى القاموس أن ويح أصلها وى ، فوصلت بحاء مرة ، فقيل : ويح ، وبلام مرة ، فقيل : ويل ، وبباء مرة ، فقيل : ويب ، وبسين مرة ، فقيل : ويس .

والقوارير : جمع قارورة ، وهى الزجاجة ، وسميت بذلك لاستقرار الشراب فيها .

* * *

نقل ابن عبد البر الاتفاق على إباحة الحداء ، وفى كلام بعض الحنابلة ما يشعر بوجود خلاف فيه ، والمانعون له محجوجون بالنصوص الكثيرة المفيدة لمدح الصوت الحسن ، ومشروعية الحداء ، وذلك مثل قوله تعالى فى معرض الامتنان على عباده : « يزيد فى الخلق ما يشاء » ، فقيل إنه هو الصوت الحسن ، وقوله : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، فإنه يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ؛ ومثل خبر : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت » ، وخبر أبى موسى الأشعرى فى معرض المدح : « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » ، ومثل حديث أنس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدى له فى السفر ، وأن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال » . وقال أهل العلم : لم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة رضى الله عنهم ، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ ، مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة .

وألحقوا بالحداء فى الحكم غناء الحجيج ، وهو المشتمل على التشويق إلى حج بيت الله تعالى بذكر الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر الكريمة ، والمشاهد العظيمة ، ووصف البادية وغيرها ، ووصف الثواب على ذلك ، والغناء الذى يحرض به أهل الجهاد على الغزو ، إذا كان الغرض منه تشجيع النفوس ، وتحريك النشاط على القتال ، والتمدح بالبسالة والنجدة ، وإثارة الهمة والحمية ، وغناء الأم لتسكيت ولدها فى المهد ، والغناء فى أوقات السرور

إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء فى أيام العيد وفى العرس ، وفى وقت قدوم الغائب ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن العزيز .

واستدل بجواز الحداء على جواز غناء الركبان المسمى النصب ، وهو ضرب من النشيد بصوت فيه تمطيط ، واستدل به قوم على جواز الغناء مطلقا بالألحان التى تشتمل عليه الموسيقى . وقال الماوردى : اختلف فيه ، فأباحه قوم مطلقاً ، وكرهه قوم مطلقاً ، وكرهه مالك والشافعى فى أصح القولين . ونقل عن أبى حنيفة المنع ، وكذا أكثر الحنابلة . ونقل ابن طاهر فى «كتاب السماع» الجواز عن كثير من الصحابة . وقال ابن عبد البر : الغناء الممنوع ما فيه تمطيط ، وإفساد لوزن الشعر ، طلباً للطرب ، وخروجا من مذاهب العرب ، وإنما وردت الرخصة فى الضرب الأول دون ألحان العجم ، وهو الضرب الذى لم يزل يرخص فيه البعض من غير نكير ، إلا فى حالتين : أن يكثر منه جداً ، وأن يصحبه ما يمنع منه .

واحتج المبيحون له بأن فيه ترويحاً للنفس ، فإن فعله صاحبه ليقوى على الطاعة فهو مطيع ، وإن فعله ليقوى على المعصية فهو عاص ، وإلا فهو مثل التنزه فى البستان ، والتفرج على المارة .

وقال الغزالى : الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات ، وسائر الحيوانات ؛ أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب ، فلا ينبغى أن يحرم ، بل هو حلال بالنص والقياس . ثم أخذ فى بيان ذلك ، وبيان شروط الإباحة وظروفها ، وأوقاتها ودرجاتها وملابساتها ، وأطال بما لا يتسع المجال لذكره هنا ، فلينظر هناك .

يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد المدنى
المفتش بالأزهر

من المعروف أن القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، وإنما نزل منجما فى أكثر من عشرين عاما فى مكة والمدينة ، وقد عنى العلماء ببيان مكيه ومدنيه ، وكان مما ذكروه أن هناك سورا نزلت فى مكة ، وألحق بها بعض آيات نزلت بالمدينة ، وأن عكس هذا حاصل أيضا ، فهناك سور نزلت فى المدينة ، وألحق بها بعض آيات نزلت فى مكة ؛ غير أن هذا العلم قد دخله كثير من الخلط والاضطراب ، فأدى ذلك الى تقرير أمور لا يطمئن إليها القلب ولا يثق بها ضمير الباحث العلمى .

اعتمد أهل الشأن فى ذلك على الروايات التى تروى ، وعلى الاجتهاد المستند إلى تلك الروايات أو إلى ماهو معروف مذكور فى السير والمغازى ؛ والروايات تختلف ، فمنها القوى ومنها الضعيف ؛ وتتعارض فربما أثبتت إحدى الروايات أن آية كذا مدنية ، وأثبتت أخرى أن هذه الآية بعينها مكية ؛ وقد وقع فى بعض حوادث السيرة وأخبار المغازى شىء من الاضطراب تبعه اضطراب فيما يروى استنادا إليها ، أو أخذا منها ؛ ثم الاجتهاد يختلف فترى فيه آراء مختلفة ، وترجيحات متعددة ، حتى أصبح هذا الأمر فى كثير من المواطن أعقد من ذنب الضب .

والسبيل إلى تبين وجه الحق فى ذلك هو التمحيص والموازنة بين الروايات قوة وضعفا ، ومراجعة آراء المجتهدين المستنبطين حتى يتبين ما يقبل من ذلك ومالا يقبل ولكن هذا أمر صعب دقيق ، والميل فيه إلى ناحية بعينها يستلزم علما جما ، وبحثا عميقا ، ولونا من ألوان المثابرة العلمية فى مدى طويل من الزمان والجهد ، وقد ازداد ذلك فى زماننا صعوبة ، لانصراف الهمم إلى غيره ، أو لإ كدائها عنه .

وقد اقتحمت اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول الآن ميدانا ما كان لها أن تقتحمه ؛ ذلك أنها عنيت بأن تنبه بين يدى كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فتراها مثلا تقول « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا فمدنية » ، ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعا ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغى أن يوضع مثله هذا الوضع بين يدى السور ، فإن كثيراً من الناس يظن أن ذلك أمر مسلم ، وحكم متفق عليه ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تتنبه إلى ما فى بعض الروايات التى تعتمد عليها من مقال ، ونحن نورد هنا أمثلة مما جاء بين يدى السور الكريمة من ترجيحات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

١ — فمن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ ، وهى قوله تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » ، فهذه الآية مدنية فى الرواية التى اعتمدت عليها اللجنة ، مع أن بعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » ، فظاهر أن قوله « ولو جاءتهم » مبالغة على قوله « لا يؤمنون » فكيف يتصور أن كل واحد منهما نزل فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الأصل المبالغ عليه ؟

٢ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكيه إلا آيتى ٥٨ ، ٧١ فمدنية ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبرهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا » .

هذه آية ٥٨ وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » ، وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الأنبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبرهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فمن الواضح

أن الاشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم فى مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة فى المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » هذه هى الآية الواحدة والسبعون المستثناة أى أنها مدنية مع أن بعدها قوله تعالى « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولها حسب ترتيب ورودهما فى المصحف ؛ لأن الآية الثانية استثناء من حكم الآية الأولى ، فلا يستساغ القول بأن الاستثناء وقع فى وقت ، والمستثنى منه وقع فى وقت ، ولا سيما إذا كان المتأخر هو المستثنى منه .

٣ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة الفرقان أنها مكية إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ وهذه الآيات قد جاءت بين عدة آيات فى آخر السورة وصف بها عباد الرحمن ، وذلك قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما (٦٥) إنها ساءت مستقرا ومقاما (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٧١) والذين لا يشهدون الزور . . . » الخ

فانظر كيف تحكم هذه الرواية على بعض الأوصاف التى جاءت فى نسق واحد بحكم يقتضى أن الله جل جلاله قد بدا له زيادة فى أوصاف عباد الرحمن التى قررها فى مكة بصورة خبرية ، فاستدركها فى المدينة فأضاف اليها هذه الآيات الثلاث — تعالى الله !

٤ — ومن ذلك ما جاء عن سورة الروم من أنها مكية إلا آية ١٧ فمدنية .

وآية ١٧ هى قوله تعالى « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وقد

جاء بعدها « وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » فهى أختها وقرينتها فى المعنى تكمل إحداهما الأخرى، ولا ندرى ما الحكمة التى قضت بفصل هذه عن تلك فى النزول كما يقولون !.

٥ — ومن ذلك استثناء الآية ٥٤ من سورة الزخرف المكية، وهى قوله تعالى « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ».

وقد جاء ذلك فى أثناء قصة موسى وفرعون إذ يقول الله عز وجل : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين » الى أن يقول « ونادى فرعون فى قومه، قال : ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٥٦) ».

فتريدنا هذه الرواية على أن نأخذ الآية الرابعة والخمسين بخصوصها دون ما قبلها وما بعدها فى هذه القصة الواحدة فنعدها من المدنى .

٦ — وشبيه بذلك ما كتبوه عن سورة يوسف، فهى مكية كلها إلا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، فمدنية .

ومعنى ذلك أن الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ مكية وهى قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا » إلى قوله : « كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم » وإن قوله بعد ذلك مباشرة « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » مدنى ، وقد جاءه بعده مباشرة أيضا آيات مكية أخرى هى : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » إلى آخر السورة ، والضمير فى «قالوا» للإخوة . فانظر كيف يحملوننا على أن نفهم أن ضميرا فى آية مكية يعود على مذكور فى آية مدنية ! وكيف اقتطعوا جملة من قصة لها تمام الاتصال بها فى المعنى ، ففرقوا بينهما فى الوطن إلى هذا الحد !

يجب أن تجرد المصاحف من أمثال هذه الروايات ، فلا يوضع بجانب المتواتر المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كلام غـــير محرر . وروايات كثيرا ما تضطرب معانيها ، وهى كما يقول الشاعر :

بلى شىء يوافق بعض شىء وأحيانا وباطـــله كثير !

فلندَع كتاب الله مصونا فى المصحف ، ولنزو ما نشاء من الأقوال والآراء بعيدا عنه ، حيث يكون خاضعا للبحث والتمحيص .

إن الحكومة المصرية هى التى ألفت هـذه اللجنة ، وقد اعتمدت عملها بعد أن وافقت عليه مشيخة الأزهر ، واشتهر المصحف منذ ذلك الوقت بنسبته إلى المغفور له الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه ، فأول ما نخشاه أن يظن ظان أن هذه الأحكام المسجلة بين يدى كل سورة أحكام نهائية قد فرغ البحث منها ، وسلم العلماء بصحتها ، حتى اعتمدتها الدولة وصبغت عليها ثوب « الرسمية » ، وفى هذا من التضليل والضلال ما فيه .

الاستدلال بالضمير

كتب حكيم إلى حكيم : إذا أردت معرفة مالك عندى ، فضع يدك على صدرك ، فكما تجدنى كذلك أجدك .

وقال غيره : إياكم ومن تبغضه قلوبكم ، فإن القلوب تجازى القلوب .

وقال ذو الإصبع :

لا أسأل الناس عما فى ضمائرهم ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

وقال محمود الوراق :

لا تسألن المرء عما عنده واستمل ما فى قلبه من قلبكا

نقول هذا قد يصح إذا كان القلب سليما من همزات الشياطين ، صافيا نقيا تنطبع فيه الأمور المعنوية كما تنطبع الصور فى المرآة . وأين مثل هـذه القلوب إلا للأنبياء والصديقين والحكماء ، أما العامة ومن فى حكمهم فقلوبهم مغشاة بالأهواء ، صدئة بالظنون والأوهام ، فلا يجوز أن يوثق بما تصوره لأصحابها ، ومن يفعل ضللته ولا كرامة .

الإصلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

للمصلحين الاجتماعيين — على اختلاف نزعاتهم — غاية واحدة : هي النهوض بالمجتمع البشرى ، والوصول به إلى أقصى درجات الكمال الإنسانى ؛ غير أنهم سلكوا فى سيرهم طريقتين مختلفتين ، فانقسموا إلى فريقين : فريق يسعى للإصلاح من ناحية الروح ، وفريق يسعى إليه من ناحية المادة .

فالروحيون يرون أن الروح هو الجزء الأهم فى الإنسان ، فهو الأجدر بالعناية والرعاية والخدمة ؛ لذلك كان الدين عندهم هو الوسيلةَ إلى إصلاح البشرية ، ثقةً منهم بأن الإنسان لا يطمئن فى الحياة ، ولا يتغلب على صعابها ، إلا إذا امتلأ قلبه إيمانا ، وعمرت نفسه بالتدين الذى يرافقه فى خلوته ، فيزجره ويعصمه من الشر والإجرام ، من غير قانون يخشاه ، ويعزيه فى حرمانه ، فيجعله راضياً ؛ وبذلك تحقق له السعادة التى تعجز عن تحصيلها الأموال الطائلة ، والقوى الهائلة ؛ بل العلوم والمعارف .

يرى الروحيون أن الإصلاح الاجتماعى إنما يكون عن طريق تهذيب النفوس ، وتطهير القلوب من الأحقاد والأضغان ، ومن الأنانية والعدوان ، وبغرس المحبة والميل إلى الخير فى النفوس ، وتوجيهها إلى الله تعالى ، الذى يحفظ المؤمن من كل ما يخشى ، ويحقق له كل ما يطلب .

هذا ما قام به الروحيون فى خدمة البشرية ، ولهم فضلهم ، والإنسانية مدينة لهم بما صنعوا ؛ فقد عملوا لتهذيب النفوس ، وتطهير القلوب ، وإنارة العقول ،

وإيقاظ الضمير الإنسانى ، الذى يقود إلى الخير ، ويصد عن الشر ؛ وهذا حسن من رجال الدين ، يذكر لهم دائماً مقرونا بالإعجاب والتقدير .

غير أن فريقاً من الروحيين قد غلا فى دعوته ، واندفع فى طريقه حتى جاوز الغاية ، فحقر من شأن المادة ، ودعا الناس إلى الانصراف عنها ، والعزوف عن الدنيا ، والزهد فيها ، وصرف الوقت كلها : ليله ونهاره ، فى تغذية روحه بالعبادة ؛ فانصرف الناس بذلك عن العمل فى الدنيا .

ومنهم من عبث بالعقول ؛ فعاقها عن التفكير ، ودعا إلى التقليد المطلق ، وقاد الأفكار إلى اعتقاد الخرافات والضلال ، وهؤلاء قد أساءوا إلى البشرية بما ألحقوا بها من بالغ الضرر ، وإلى الدين بما أحدثوا فيه من تحريف وتشويه .

لقد كان ذلك سببا فى ثورة بعض المفكرين على الدين ، ومناهضة الروحيين ، وانتشار النزعة المادية ، وإعلان أهلها العصيان والتمرد على الأديان ، فاتهموا الشرائع السماوية بأنها غل فى عنق الإنسان ، وقيد يعوقه عن السير الى الأمام .

وصفوا الدين بأنه مخدر ، ورموا أهله بالجمود ، والاستسلام الى الخيال والأوهام ، واتهموا زعماءه وقادته بأنهم يدعون الناس إلى الكسل والخمول والتواكل ، ويقتلون فيهم روح العمل ، ويغرسون فيهم الأثرة وحب الذات ؛ لأنهم يحملونهم على طلب السعادة لأنفسهم بالعبادات ، ناسين أن عليهم حقا للعالم الذى يعيشون فيه ، ويتمتعون فيه بكل خير ، ولا يقدمون له من الخدمة شيئا ما ؛ وتلك هى الأنانية بعينها .

ومن ثم تنكر الماديون للأديان ، وطاردوا رجالها ، وأغلقوا المعابد ، وفصل بعضهم الدين عن الدولة ، وأغمضوا أعينهم عن الروحيات .

هؤلاء هم الماديون ، أصحاب المذهب الثانى ، الذى يعالج المجتمع عن طريق المادة ؛ اعتمدوا فى معالجة المشاكل الاجتماعية على وسائل مادية بحتة ، فعملوا على توفير الثروة فى البلاد ، وزيادة الغلة والإنتاج الزراعى والصناعى ، وتنظيم توزيعها ، وسن القوانين التى تؤدى إلى ازدهار العمران ، وإيجاد نوع من العدالة

يضمن للعامل والصانع عيشة طيبة ؛ وفى مقدمة ما يهتمون به إنشاء الملاجىء، والمدارس والمصحات.

أسلموا للعلم قيادهم، وجعلوه أداة استنبطوا بها مكنونات المادة من أسرار وقوى، استخدموها لخير الإنسانية ؛ هدفهم إسعاد الإنسانية عن طريق الغنى والمعرفة والقوة. وهم بذلك يعملون للقضاء على الأعداء الثلاثة : الفقر، والجهل، والمرض.

ظن هؤلاء الماديون أنهم بخدمة الجانب المادى للإنسان، يحققون للمجتمع مثله الأعلى : السعادة المنشودة ؛ وما دروا أن العلم والمال وحدهما لا يغنيان الإنسان، ولا يحققان له شيئا من هناءة الروح، واطمئنان النفس ؛ بل كثيرا ما يسببان للإنسان الشقاء بما يجلبان عليه من مهلكات التفرق المفضى إلى الحروب المدمرة التى تقضى عليه وعلى علمه وماله.

وحسبنا دليلا على ذلك ما حدث فى هذا القرن من وقوع حربين عظيمتين، كان العلم والمال أمضى أسلحتهما.

وضح لنا مما بيناه أن كل واحد من المذهبين لا يستقل على انفراد بإصلاح المجتمع ؛ لهذا يمكننا أن نطرح جانبا النزعة المادية المتطرفة، كما نطرح النزعة الروحية المتطرفة. وهنا نقف بالإصلاح الاجتماعى موقفاً وسطاً، فلا نميل به مع الغلاة من الفريقين ؛ بل الخير كل الخير فى الأخذ بالمادة إلى قدر مقدور، والاستمساك بعرى الدين فى حدود تعاليمه الصحيحة.

نستطيع إذن أن نوافق الماديين إلى حدما : نقرهم على ضرورة استخدام العلوم والانتفاع بثمارها من المخترعات التى تقوم فى المصانع مقام اليد العاملة، فتزيد الإنتاج الصناعى والزراعى، وتحمل عن الإنسان ما يتكبد من عناء ؛ ونوافقهم أيضا على إقامة المؤسسات اللازمة لإصلاح المجتمع من المدارس، والمصانع، والملاجىء والمساكن الصحية، وإنشاء القرى على نظام جديد، وتعميم نظام التعاون فيها.

نستطيع أن نوافقهم على هذا كله، ولكننا ننكر عليهم شططهم إلى حد الخروج

على الدين ، والثورة على القوانين السماوية التى ثبتت صلاحيتها لكل زمان ومكان كنظام الميراث ، ونظام الأسرة ، واحترام الملكية .

أما استخدام العلوم والانتفاع بثمارها ، فهو أمر نقره أيضا ، إذ لا يصادم العلم الصحيح الدين أبدا ، بل الدين يحث عليه ، ويرفع من شأنه ، ولا يقف حجر عثرة فى سبيله .

ومن الأصول العامة التى جرى عليها العمل بين المسلمين ، أنه إذا أوهم ظاهر النص معارضته للعقل ، أو لأصل من أصول العلم ، وجب تأويله بما يجمع بينهما . ومثال ذلك ما جاء فى الكتاب العزيز من قوله تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه » ، وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، وقوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » ، أى بسطها .

لا يعقل أن يكون لله وجه أو يد ، وقد أثبت العلم أن الأرض كروية . فعمد المسلمون — أتباعا للأصل المقرر فى دينهم — إلى تأويل هذه الألفاظ : أولوا الوجه بالذات ، واليد بالقدرة . وقالوا : إن المراد بالدحو البسط فيما يراه الرائى لا فى الشكل الكلى ، فلا ينافى هذا أن الأرض كروية .

والاستمساك بعرى الدين فى حدود تعاليمه الدينية يحملنا على النهوض بالإصلاحات الاجتماعية ، والقيام بالمشروعات العمرانية ؛ لأن الدين الإسلامى يعمل على إصلاح شئون الناس فى دينهم ودنياهم على السواء ، قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وفى الآثار الصحيحة : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

يحث الإسلام على العمل ، ويحارب البطالة والكسل ، ويرغب فى مزاولة الصناعة والتجارة . روى عن المقداد رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » ، قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » . وقال : صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وفى الآثار الصحيحة أيضا : « إن الله يحب

التاجر الصدوق ، والصانع الناصح ، ونظر عمر إلى أبى رافع ، وهو يقرأ ويصوغ ، فقال : يا أبا رافع ! ، أنت خير منى : تؤدى حق الله وحق مواليك ، .
قال الله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » وقال تعالى : « فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه » .

ليس الدين الإسلامى دينا روحيا فحسب ، بل هو دين جِدّ وعمل كذلك ؛ يدل لهذا أن الشريعة الإسلامية نظمت للناس شئون حياتهم الاجتماعية بما سنت لهم من الأحكام والقوانين الاقتصادية والزراعية والتجارية ، وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها .

فهناك قوانين لتنظيم البيع والشراء ، والإجارة والسلَم ، والقرض والقراض ، والمزارعة والشركة ، والزواج والطلاق ، والعدة والنفقات وغيرها .

لقد رسم الإسلام سياسة المجتمع البشرى ، على أحكم خطة وأحسن تقويم . جاءت الشريعة الإسلامية بمبادىء وأحكام ترمى الى تدعيم بناء المجتمع ورقابته ، والى علاج ما ينتابه من أمراض وعلل ؛ مبادىء لو استمسك بها الناس لعاشوا فى أمن ودعة ، ولظلوا فى رغد من العيش ، وبسطة من الهناءة والنعيم ، والغبطة والسعادة .

أمر الدين الإسلامى بعموم الفضائل ، ونهى عن جميع الرذائل . ودعا إلى التآخى والتواصل ، وحذر من التدابر والتقاطع ، وقرر حفظ النفس ، والدين ، والمال والعقل والنسب ، أمور خمسة قرر الدين الإسلامى حفظها والذود عنها ؛ إبقاء على كيان المجتمع ؛ لأن فى بقائها بقاءه ، وفى إهمالها انحلاله وفناءه .

وقد سمى الأصوليون هذه الأشياء الخمسة بالكليات الخمس ؛ لأن كل الأديان السماوية اتفقت على أن تحافظ عليها . وفى سبيل المحافظة على هذه الأمور شرع الإسلام القصاص لحفظ النفس ، والجهاد لحفظ الدين ، والحدود المختلفة لحفظ المال والعقل والنسب .

[تتبع]

الدين والأخلاق

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدى إليه ، ويُعنى ببيان الشر وتبغيضه إلينا . والأخلاق كما تقول المعاجم ، والكتب العلمية التى تبحث فى هذا الفرع من فروع الفلسفة ، هى مجموعة القواعد التى بها نعمل الخير ، ونتجنب الشر . أو مجموعة قواعد السيرة الطيبة المحمودة ، القواعد التى يقبلها الناس عامة فى كل عصر وزمان .

فإذا كان الأمر كذلك ، كان من الطبيعى أن تكون صلة قوية بين الدين والأخلاق ، بل كان من الطبيعى أن تكون الأخلاق تابعة للدين . وهذا حقاً ، ما يعرفه تاريخ الفكر فى القديم والحديث .

نرى هذه الصلة الوثيقة فيما نعرف من تفكير قدماء المصريين والهنود والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين أتباع الديانات الوحيية : اليهودية والمسيحية والإسلام . ذلك بأن الغاية من الدين ، وبخاصة ما كان سماويا منه ، إصلاح الإنسان والإنسانية ؛ وليست الأخلاق إلا هذا .

كان المصريون القدامى كما نعرف ، يدينون بحياة أخرى ، يسأل فيها المرء عما عمل فى حياته الأولى ، فكان من هذا : حرصهم على أن يكونوا أخيارا ، وفى كتاب « الموتى » على ذلك شاهد وشاهد .

ولدى الهنود ، نرى أن عقيدتهم فى خلود الروح والتناسخ ، ووحدة الوجود ، قد استتبعت أخلاقا تقوم على الإعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى رياضة النفس بالزهد والتأمل فى عزلة وسكون ، كما تقوم أيضاً على حب الناس والكائنات جميعاً .

وفى فارس موطن دين « زرادُشت » الذى يقوم على الاعتقاد بإلهين : إله للخير ، وإله للشر ، نجد مذهباً فى الأخلاق أساسه ، أن فى الإنسان صراعا

---

* المراد : الدين عامة ، والأخلاق عامة ، أى جنس كل منهما .

دائما بين مبدأين : مبدأ النور والخير ، ومبدأ الظلام والشر . ومن ذلك أن على الإنسان أن يعمل على نصرة مبدأ الخير ، وذلك باتباعه سبيل الفضيلة ، حتى ينتصر الخير فى يوم آت لا ريب فيه .

هذا فى الديانات الوضعية الفلسفية ، والأمر فى الديانات السماوية أوضح من أن نحتاج للحديث فيه . فى كتب هذه الديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، نرى صلة الأخلاق وثيقة جداً بالدين ، بل نجد الأخلاق جزءاً من الدين ، وليس فى هذا شىء من العجب .

إن الله العليم الحكيم هو الذى أرسل رسل هذه الأديان كلها مبشرين ومنذرين ، هادين بوحيه إلى الصراط المستقيم ، مرشدين الناس إلى سعادة الآخرة والأولى . وهذه السعادة تكون بالعقيدة الحقة الصالحة ، كما تكون بالأخلاق الطيبة المحمودة ، وبهذا كله نزل الوحى وجاء الشرع . وإن كان الباحث يجد فى غير عناء المثل العليا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها فى هذا الدين عن ذاك ، باختلاف عصور الوحى والرسالات .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن أخلاق هذه الديانات تقوم على الترغيب والترهيب ، على الترغيب فى الخير بما وعدت من الثواب عليه ، وعلى الترهيب من الشر بما رتبت عليه من عقاب . ولم تر أن تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة الإنسان والإنسانية ، ولا أن تبغض فى الشر ببيان ما هو عليه من قبح فى نفسه وتناف لكرامة الإنسان كإنسان .

كما من الضرورى أيضاً الإشارة إلى ما لوحظ من أن كثيراً من الملحدين ، الذين لا يؤمنون بإله خالق ولا بحياة أخرى يكون فيها الجزاء على أخلاق فاضلة ، وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية . بينما كثير من المؤمنين بهذا الدين السماوى أو ذلك ، لا يعرفون من الخير إلا اسمه ، ولا تتفق أعمالهم مع أقوالهم وعقيدتهم الدينية .

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعا بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين إلى محاولة فصل الأخلاق عن الدين ؛ وذلك بتعليل أحكامها عقلياً ، والبحث عن أسباب أو مبادىء أخرى تدفع للخير وتحبب فيه وتبعد عن الشر

وتجعله بغيضاً ، دون حاجة للُّجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر ، وبذلك يؤمن بالأخلاق المتدين والملحد على السواء .

* * *

وإن أصحاب هذا الرأى ، أو إن رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم « إميل دوركايم » الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بأن من الممكن فصل الأخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية فى مبادئها ووسائلها ؛ كما يرون بأن هذا من الخير ، إذ يعين على الوصول للغرض الذى تهدف إليه الأخلاق .

إنهم يرون بأن كون هذا العمل خيراً والآخر شرا ليس إلا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب أن يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للّجوء للدين أو فلسفة ما بعد الطبيعة . ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب أو غيره موضع شك أو عجب ، بعد ما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة والنفس ، هذا التقدم الذى فهم به الإنسان الكون ، ودانت له عناصر الوجود أو كادت !

فإذا كان الأمر هكذا فى غير الأخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك فى الأخلاق ! ولم نحتاج - فى رأى دوركايم - فى سبيل تثبيت الأخلاق فى العقول والطباع ، أن نلجأ إلى طرق يعزّ على العقل إدراكها ، أن نلجأ إلى الدين أو ما بعد الطبيعة !

على أنه لا يصح فى سبيل جعل الأخلاق عقلية أن نحذف منها كل ما جاء عن الدين ، وإلا صارت أخلاقا هزيلة ليس لها من أساس . إن الواجب أن نبحث المبادىء الأخلاقية التى جاءت عن السماء ، وأن نحدد بعد هذا طبيعتها الخاصة ، وأن نعبر عن هذه المبادىء بلغة علمية عقلية .

ثم للأخلاق طابع قدسى خاص ، طابع الرأى لا يمكن عدم الاعتراف به أو الخروج عنه ، حتى إنه قد يُقبل أن يلحد المرء فى دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يُقبل بحال أن يلحد فى الأخلاق . وهذا الطابع هو ما يجعل للأخلاق قوتها وأثرها الكبير على المعلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب إذاً الاحتفاظ به ، — ولكن فيما يقول دوركايم — ليس من الضروري رده للدين أو لمبادىء مما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا فى سهولة ويسر . وقد يمكن هذا التفسير بإسناده إلى ما يجب للإنسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك .

ونتيجة ذلك كله ، أن يكون فى الإمكان أن نغرس فى الطباع حب الخير لأنه جميل فى نفسه ، وكراهة الشر لأنه قبيح بغيض فى نفسه ، دون ضرورة للجوء للترغيب والترهيب . ومن مثل هذا المبدأ العام أن يفهم الإنسان أن من حقه وكرامته على نفسه أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يكذب ولا يكون جبانا مثلا ، وأن يفهم كذلك أن من واجبه لغيره أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يغشه أو يخدعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ أو ذاك غرس الخير وحب الفضيلة فى الطباع بعد أن يقتنع العقل تماما أن ذلك جميل وحسن ومحبوب لذاته .

* * *

وأخيرا ، فإن فصل الأخلاق عن الدين لتكون علما عقليا ، أى اللجوء إلى العقل للتحبيب فى الخير والتنفير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير على غير المؤمن بالدين ، الدين الذى يلجأ فى التحبيب إلى الفضيلة والتنفير من الرذيلة إلى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب .

إلا أنه قد يلاحظ مع هذا أيضا أن ربط الأخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علما عقليا ، وذلك بتفسير الأصول التى تستند إليها والمبادىء التى تقول بها تفسيرا عقليا ، كما هو الشأن فى كل ما جاء به الدين من أحكام وتشريع .

إن القرآن كان حكيما كل الحكمة بما أكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر . ذلك ضرورى أول الأمر حتى يعتاد المرء عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ؛ وحينئذ ليحله لنفسه ، وينتهى عن الشر لنفسه ، لا للثواب ولا للعقاب .

ثم حتى هذه الأيام ، لم يصل الفلاسفة والمفكرون فى هذه الناحية ، مع الرغبة وطول البحث ، إلى شىء آخر غير الدين يمكن أن تستند اليه الأخلاق ، ويكون له طابع القدسية والإلزام الذى نجده للدين ؛ هذا الطابع الذى هو جد ضرورى للأخلاق ، حتى فى رأى هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين العقليين .

العبرة فى ذكريات العظماء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« العلم علمان : علم فى القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على ابن آدم » .

تمر بالناس الذكريات فى جلالها وعظمتها ، فترتلها ألسنة الدهر ، وتسطرها أقلام الخلود ، وتشيد بها العوالم والمعالم ، قوة لا تضعف ، وعزمة لا تفتر ، وسراجا لا يخبو ، ونبعا لا يغيض ، فما يزال هذا الزمان يرددها ويمجدها حتى يقف دولابه فى هذه الحياة الدنيا ، ثم يتحرك فى دورة أخرى ، ولون جديد بعد هذه الحياة يوم يقوم الناس لرب العالمين . . .

فهل يفيد الناس من هذه الذكريات . ما يتركز فى القلب عبرة ، وما يتمثل فى الحياة عظة ، تسمو بالنفس إلى ذروة المجد ، وتسبح بها فى آفاق العظمة بين جلال وجمال .

* * *

ذكريات العظماء أعلام خفاقة ، تلوح للرائين إن استبصروا واستذكروا ، وشدوا على قلوبكم برباط المعرفة ، واستلهموا وحيها الناطق بالحق ، والصادق فى الفضل ، والمعلم للمكرمات ، فتكون عبرتكم ، وتكون أسوتكم ، ويطيب منكم ما تسرون وما تعلنون .

ذكريات العظماء روضات تفوح بنشرها وتزهو بثمرها ، ويستمتع بأفنانها النضرة نفوس المستروحين ، وقلوب المتعشقين .

طافت بنا فيما طافت من الذكريات الكريمة العظيمة ، ذكرى سيد الكائنات المصطفى المختار ، المصفى من كدورة الشوائب ، فى شبابه وفتوته ، فى السن التى تكدرها نزوات الهوى الجامح ، وتعكرها نزعات الفتنة العابثة العاتية ، فهل استخلص الشباب من هذا الطهر المذاب فى قلب محمد بن عبد الله لونا من عظمة الشباب حين يسمو بنفسه عن النزق ، ويأبى بعزمه أن يخضعه اللهو ، ويشمخ بأنفه أن يسوقه السفهاء الى مساقاة ملاذهم وشهواتهم ، ثم تطالعنا فى ذكرى شمائله صلى الله عليه وسلم أمانته ووفاؤه وصدقه ، حتى ليلقب بين أهل مكة بالصادق الأمين ، وحتى لتطلب إليه شريكته فى التجارة ، السيدة خديجة بنت خويلد أن يكون شريكها فى الحياة ، لتتخذه زوجا مثاليا ، تتذوق من نبله وبره جميل الأخلاق ، وكريم الصفات .

فهل يتعفف التجار فى هذا الزمان ، عن الكذب ، والخيانة ، والجشع ؛ ليتذوق الناس منهم حلال الكسب ، وعدالة الربح ، والقناعة بالقليل .

وتطالعنا فى سيرته العاطرة صلى الله عليه وسلم شجاعته ، وثقته وقوة عزيمته ، فلقد خرج من بيته ليلة اعتزامه الهجرة من مكة الى المدينة ، وحول البيت سيوف مسلولة ، وسواعد مفتولة ، وعصبة تملكتهم الحمية الجاهلية ، يريدون أن يفتكوا به ، ويضربوه ضربة رجل واحد ، فلا والله ما جبن ولا تخور ، ولا ضعف ، ولا ضعفت ثقته بربه ، بل خرج على القوم ، واليقين كفاء عزمته ، وقوة الثقة تملأ جنبيه ، وتركهم فى سخرية الساخرين ، وهزء المستهزئين . . .

فهل يستيقظ جبناء العزائم ، وضعفاء الهمم ، والفاقدون الثقة بالله ، فيسترجعوا عزائمهم ويملأوا قلوبهم إيمانا وأمنا ؛ ليجعلهم الله من حزبه ، وأن حزب الله هم الغالبون .

فأما ما يملأ فم الزمان من التحدث بجوده وبذله صلى الله عليه وسلم ، وحدبه على الفقراء والمساكين ؛ فذلك مالا يجهله أحد من الأولين والآخرين ، فلقد كان يعطى عطاء من لايخشى الفقر ، ويبذل مما يملك حتى لايدع لنفسه كثيراً ولا قليلا ، ولقد طابق خُبره خبره ، وهو الذى يقول : « السخى قريب من الله عز وجل ،

قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد عن الله عز وجل ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار ».

ولقد أهديت إليه صلى الله عليه وسلم شاة مذبوحة فقال لعائشة : « أطعمينا منها وأعطى الفقراء » . ثم خرج لبعض شأنه ، فلما عاد قال : ياعائشة هل بقى من الشاة شىء ؟ قالت رضى الله عنها : ما بقى إلا كتفها . فقال علية الصلاة والسلام : « كلها بقى إلا كتفها » ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الذى أخذه الفقراء هو المدخر عند الله وإن الجزء الذى بقى منها ليأكله لا يعد فى الباقيات . وصدق الله العظيم « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

فهل يعتبر أصحاب الأموال فينا . فيقدمون مما ملكت أيديهم ، لغوثة الملهوف وفرجة المكروب ، ورحمة البائس المسكين .

هل يعلمون أن ما يملكون إنما هو ملك الله وأنهم ليسوا إلا خلفاء فيه . قال تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، وأنهم هم الرابحون بما بذلوا وما عطفوا « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وما أجمل قول الشاعر فى هذا المعنى :

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل	فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته	فلا متانى بذلى ولا مسعدى بُخْلى
أرونى بخيلا طال عمراً ببخله	وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

* * *

أما بعد :

فإن العبرة فى هذه الذكريات الكريمات واضحة ماثلة ، ولا نريد أن تمر بالناس هذه الذكريات ، كلاماً يردد ، أو مظاهر تتعدد . . بل نريدها ذكريات تتركز فى القلوب معانيها ، وتستقر فى النفوس والمشاعر مراميها ، فمتى انطبع بها الوجدان ، وتحركت منها الحواس ، كانت الذكرى بالغة ، وكان الأثر بها قوياً ، صادقاً كريماً « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهـــدى ، أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » .

مكارم الأخلاق

بين الأدب والفلسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

فضيلة العدالة :

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والتساوى ، والعدل والتعديل : التسوية والتقديم .

وإلى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التى يراد بها تلك الملكة النفسية المعدودة عند الأخلاقيين من أمهات الفضائل الإنسانية . والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الأخلاقيين ، وبين المعنى اللغوى السابق واضح بين ؛ لأن الاعتدال النفسى الذى سماه الأخلاقيون عدالة ـ وعدلا هو أيضا صورة من الاستقامة والاستواء والتساوى . وحسبنا أن نوضح هذا بمظهر القاضى المتصف بالعدالة ؛ إذ ترى بمجلسه صورة من التعادل والانسجام يسوى فيه بين الخصمين فى النظرة والإشارة وشتى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد إلا للحق وفى سبيل الحق ؛ فيبدو بمجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة ـ وفى مقابل العدالة والعدل والاعتدال ـ نجد الظلم والجور والجنف أو ما هو بهذا المعنى .

وهذه الفضيلة عند الأخلاقيين نوعان : عدالة كلية ـ وعدالة جزئية خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكلية اعتدال الملكات الانسانية فى مجموعها ما بين عقلية ـ وغضبية ـ وشهوية . بحيث لا يطغى بعضها على بعض . فالقوة العاقلة تسوس القوتين الآخريين وتمسك بزمامهما وتصرف أمرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب أن تطغى وتثور لأتفه الأسباب أو لغير سبب ؛ فيغدو صاحبها كلباً عقورا وسبعا ضاريا يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ؛ حتى يبلغ من العدوان غايته أو يلقى حتفه ـ ولا تدع كذلك لقوة الشهوة أن تثور وتطغى وتتخطى القيود والحدود ؛ فيصبح صاحبها بهيمة من البهم السائبة يتلوث بكل وضر ، ويتمرغ فى كل دنس ، ويلغ فى كل حمأة . وبعض الأخلاقيين يسمى النفس التى تنحرف

هذا الانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة إلى الخنزير الذى هو أقذر وأشره ما عرف من أنواع الحيوان .

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها بأن تطغى على هاتين القوتين : فتعطلهما عما أوجدتا من أجله فى الطبيعة الإنسانية ، لأن طغيان قوة العقل وإفراطها فى قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء إلى الرهبنة والتأبل الذى هو إماتة للرغبات الجنسية وإفراط فى التقشف والحرمان . وطغيانها على قوة الغضب والإفراط فى كبحها ، ينحرف بالمرء إلى الجبانة والانكماش والمهانة . وفى هـذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الإنسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا .

أما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملكات ، فهو أن تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث فى حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمام للغضب والشهوة ولا يبالغ فى كبحهما إلى حد التعطيل ، ولا تقصر هى فى الاستزادة من العلم والحكمة ؛ وبذا تبلغ الشخصية الإنسانية كمال وجودها وتتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التى هى كنز الحكمة وأصل الفضائل السامية وسلم الوصول إلى السعادة .

ذاك هو مجمل ما شرعته عبقرية أفلاطون وأستاذه سقراط زعيمى تعاليم الحكمة اليونانية فى القرنين الخامس والرابع ق . م . ليكون منارة هدى للإنسانية فى مهمه الحياة الطامس الأعلام .

وفوق ما تقدم ، حاول أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » تحقيق هـذا النوع من العـدالة الكلية فى بناء المجتمع المثالى الذى حاول بشتى النظريات أن يضع أسسه وقواعده . ومجمل وصاياه فى ذلك أن توضع الطبقة الحاكمة فى مكانة القوة العاقلة — وطبقة الجند فى مكانة القوة الغضبية — والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وأن يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملكات الإنسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة الحاكمة بالعسف والظلم على الطبقتين الأخريين ولا تترك الزمام للجند يعتدون بسبب وبغير سبب ؛ بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل أسباب الحياة من حلها وحرامها .

فإذا تيسر لمجتمع أن يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ؛ فإنه سيحقق لنفسه أعظم ما يمكن من السعادة . وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ؛ وما نظن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التى تلقيت بها هذه التعاليم على مر أربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى أيامنا هذه التى ما تزال ترمقها بالإجلال والإعجاب ، وقديما شاد عليها الأخلاقيون الإسلاميون أبدع تعاليمهم الأخلاقية .

وأما العدالة الجزئية الخاصة : فهى التى تعرف عند الأخلاقيين والسياسيين باسم « العدل » تلك الكلمة التى يراد بها الإنصاف فى توزيع الحقوق بين الأفراد والجماعات ، وهذا هو العدل السياسى الذى يظهر لنا على الأخص فى تصرفات الحكام والمسئولين من موظفى الدولة .

وهذه الفضيلة الجزئية العملية هى التى أثارت اهتمام أرسطو معلم الفلسفة الأول ، ولها كرس جانبا هاما من صفحات كتابه الخالد « علم الأخلاق إلى نيقوماخوس » وأثنى على المتصفين بها من المسئولين عن الحقوق أفرادا وجماعات ، وخص بالإعجاب تلك الصورة السامية التى تبدو فى سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق إنصافهم الأغيار بعضهم من بعض . وما أبدع قول أرسطو فى تمجيد العدل : « فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالإعجاب » .

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمى الجاف الذى لا يقيم للعواطف وزنا — لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل أن ينقلب شاعرا يبدى إعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع .

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الأدبى ودقته ولطفه لن يتنبهوا إلى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأى إعجاب فى طلوع الشمس وغروبها ؟ إن الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من الناس دون أن تثير فيهم شيئاً من الإعجاب . . . ولو علموا أن طلوع الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التى عرفت بها فى مواعيدها لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلا تمييز بين كائن وكائن ، إنما هو ضرب من العدل معدوم النظير — لعذروا أرسطوا فى تعبيره ، ولعلموا أنه هو أيضا فى إعجابه بالعدل إلى هذا الحد كان آية فى العدل . وفقنا الله أفراداً وجماعات إلى العلم بالعدل ومكانته والتحلى به وهدانا سواء السبيل .

مراقبة الدائن أموال مدينه

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

للدائن حق عام على جميع أموال مدينه الحاضرة والمستقبلة . ويتمثل هذا الحق فى رهن وضمان عامين لهذه الأموال . وليس هذا الضمان ضمانا خاصا يترتب عليه حرمان المدين من إدارة أمواله والتصرف فيها .

ولا يجوز للمدين أن يلحق أو يسبب ضعفا لهذا الضمان العام ، كالالتجاء إلى تهريب ماله . ولذا منح القانون المدنى الدائن وسائل لحماية حقوقه والمحافظة عليها . وتتلخص هذه الوسائل فى ثلاثة أمور :

أولا — الدعوى غير المباشرة وهى دعوى يرفعها الدائن باسم مدينه نيابة عنه ، لأن المدين حينما يكون مثقلا بالديون فكثيراً ما يهمل فى رفع الدعاوى التى يتوصل بها للمحافظة على أمواله ، إذ يعلم فى قرارة نفسه أن مآل هذه الأموال تكون فى النهاية لدائنه فلا يهتم بها . فالدائن والحالة هذه يرى أن حقوقه تتعرض للضياع . ولذا أجاز له المشرع رفع دعاوى مدينه التى كان عليه أن يرفعها وأهمل فيها . ويلاحظ أن الدائن لا يرفع هذه الدعاوى باسمه هو وإنما باسم مدينه ، ولهذا السبب تسمى هذه الدعاوى بالدعاوى غير المباشرة .

ويشترط لرفع الدعوى غير المباشرة :

(١) أن تكون هناك مصلحة للدائن فى رفعها .

(٢) وأن لا تكون لهذه الدعوى صفة متعلقة بشخص المدين كدعاوى الأحوال الشخصية ، مثل دعوى إثبات أو دعوى النكاح أو الطلاق أو نحو ذلك .

(٣) وأن لا تكون لها صفة أدبية أو معنوية متعلقة بشخص المدين كالمطالبة بتعويض للمدين بسبب إهانة لحقت به مثلا .

(٤) وأن لا تكون من الدعاوى التى موضوعها مال لا يجوز للدائن التنفيذ عليه كنفقة المدين .

ويلاحظ أنه ليس للدائن فى رفع الدعوى غير المباشرة حقوق أكثر من حقوق مدينه . فللشخص المرفوع ضده الدعوى أن يحتج بجميع الدفوع التى كان يصح أن يحتج بها ضد المدين أن لو رفع هذا الأخير الدعوى . اللهم إلا إذا كانت هذه الدفوع مشوبة بالغش والتدليس .

فإذا رفع المدين الدعوى لا يجوز للدائن أن يرفعها حيث قد قام المدين بما يجب عليه . وإنما يجوز للدائن التدخل فى الدعوى خشية أن يلحقه ضرر .

والحكم الذى يصدر فى الدعوى غير المباشرة لمصلحة الدائن يترتب عليه دخول المال فى ملكية المدين ، ويستفيد منه جميع دائنى المدين بلا فرق بين من رفع الدعوى ومن لم يرفعها .

ثانيا — دعوى إبطال التصرفات أو الدعوى البوليصية ، نسبة لواضعها بولص أحد فقهاء الرومان . وقد نقلها المشرع الفرنسى عن القانون الرومانى ، وأخذها القانون المصرى عن القانون الفرنسى . والغرض من هذه الدعوى إبطال تصرفات المدين الضارة بالدائن . وهى دعوى شخصية للدائن أن يرفعها باسمه هو لا باسم مدينه ضد من تصرّف له المدين ، ويستفيد منها الدائن وحده دون سائر الغرماء الذين لم يرفعوها . وإذن فهى دعوى مباشرة .

ويشترط لرفع هذه الدعوى أن يكون دين الدائن سابقا على تاريخ تصرف المدين ، ودلت القرائن والظروف على أن الغرض من هذه التصرفات هو الإضرار بالدائن ، ومع هذا يجوز رفعها بالنسبة للتصرفات السابقة على تاريخ الدين إذا تبين أن هذه التصرفات قد قصد بها الغش والتدليس والإضرار بالدائن ؛ وذلك كأن يتفاوض شخص مع آخر لإقراضه مالا فى الوقت الذى يقوم بإجراء تصرفات خفية ، حتى إذا ما تم القرض اتضح للدائن أن المدين قد تصرف فى أمواله فلا يجد المقرض ما يضمن به حقه ضد المدين . وهنا تفصيل لا يتسع المقام لذكره .

ويشترط أيضاً لقبول هذه الدعوى : أن يكون هناك تدليس أو سوء نية من جانب المدين . ويرى بعض الفقهـاء أنه يجب زيادة على ذلك ، لزوم توفر الإضرار بالدائن .

ويلاحظ أن هذه الشروط خاصة بالتصرفات التى لها عوض ، أما التى ليس فى مقابلها عوض فيكتفى فيها بشرط الضرر كالهبة .

ويترتب على الحكم الصادر بإبطال تصرفات المدين ، أن المال يدخل فى ملك المدين ، وأن الدائن رافع الدعوى هو الذى يستفيد منها وحده دون سائر الغرماء . وحق الدائن فى رفع الدعوى مقيد ، فلو أدّى الدين للدائن توقف دعواه ، إذ لا مصلحة له فى السير فيها .

وأثر الحكم لا يتعدى غير طرفى الخصومة ، فالعقد يبقى صحيحاً بين المدين والمتصرف الذى رفعت ضده الدعوى من الدائن .

كما أن للمتصرف له الحق فى طلب التعويض من المدين .

ثالثاً — دعوى الصورية : الصورية عبارة عن تصرف يخالف الحقيقة والواقع ، توصلا لغرض مشروع أو غير مشروع كالهبة فى صورة بيع .

والغرض من دعوى الصورية هو الحصول على الحكم بصورية التصرف وإلغائه ، وليست جميع التصرفات الصورية قابلة للحكم بصوريتها إلا إذا ألحقت بالدائن الذى له فى هذه الحالة رفع الدعوى .

ودعوى الصورية تشبه دعوى الإبطال من حيث إنه يتوصل بالحكم بصورية التصرف إلى إلغاء هذا التصرف ، كدعوى الإبطال وتختلف دعوى الصورية عن دعوى الإبطال من جهة أن موضوع هذه الأخيره تصرف حقيقى وجدى ، بينما أن موضوع دعوى الصورية غير حقيقى . كما أن دعوى الصورية لا تستلزم توفر شروط دعوى الإبطال . ويرى بعض الفقهاء أنه يجب فى دعوى الصورية توفر الضرر بالدائن . وأيضا لا يشترط فى دعوى الصورية أسبقية الدين على تاريخ التصرف . وأخيرا أنه لا يجوز رفع دعوى الإبطال إذا تصرف المتصرف له فى المال ، اللهم إلا إذا توفرت شروط دعوى الإبطال بالنسبة للمتصرفين لها الأول والثانى .

إثبات الصورية : لا تثبت الصورية بين المتعاقدين إلا كتابة ، وهذا ما يسمى بورقة الضد . اللهم إلا إذا كان التصرف مخالفا للقانون أو للنظام العام ، فإن

الصورية تثبت بجميع الطرق القانونية. وأما بالنسبة لغير المتعاقدين فتثبت الصورية بكافة الطرق القانونية بما فيها البينة والشهود.

الفقة الاسلامى: إذا رجعنا الى فقه أبى حنيفة ، لا نجد فيه ما يدل صراحة على وجود مثل هذه الدعاوى ، ومع ذلك توجد وسائل لتحقيق الغاية وتشبه هذه الدعاوى فى بعض الأحوال والصور ؛ فمن ذلك ما ورد بتصرفات المريض مرض الموت ؛ فإنه إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبى بثمن أقل من ثمن المثل الذى هو أكثر من ثلث التركة نفذ البيع ووجب على المشترى إكمال الثمن إذا لم تجز الورثة الثمن المدفوع.

وكذلك إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبى بثمن دون ثمن المثل ثم مات مديوناً ، وكانت تركته مستغرقة ، فلأصحاب الديون تكليف المشترى بإبلاغ قيمة ما اشتراه إلى ثمن المثل ، وإكماله وأدائه ، فإن لم يفعل بطل البيع. وواضح أن هذا هو عين دعوى الإبطال السابقة.

وكذلك إذا وهب المستغرق تركته بالديون أمواله لوارثه أو لغيره ثم توفى فللغرماء أن يدخلوا أمواله فى قسمتهم إن لم يمضوا الهبة ، ومعنى هذا أن هذه الهبة يصح إبطالها ، ولا نزاع أن هذا هو عين دعوى الإبطال.

فمن هذه الأحكام يتبين أن هناك نوع مراقبة من الدائن لأموال مدينه ، ولكن هذه الأحكام خاصة بالمريض مرض الموت الذى تصرف فيها وهو مريض وتوفى ، ولكن مع هذا فإن الفقه الحنفى قد قرر مبدأ المراقبة لأموال المدين الضارة بالدائن.

وهناك وسيلة أخرى وهى أن للغرماء أن يطلبوا من الحاكم الحجر على مدينهم الذى يعرض ماله للضياع وبذا تضيع حقوقهم قبله ، ولكن هذا الحجر مقصور على الأموال الحاضرة دون المستقبلة ، إذ له بالنسبة لهذه الآخرة حق التصرف فيها كما يشاء. وللموضوع أبحاث دقيقة لا يتسع لها هذا المقام.



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

انتظرنى بين الظهر إلى العصر

يجرى هذا الأسلوب كثيراً . وهو يخالف ما يذكره علماء النحو ؛ أن لفظ بين لابد أن يضاف إلى متعدد أو ما فى معنى المتعدد . تقول : جلست بين زيد وعمرو ، أو بين الرجلين ، أو بين القوم . وفى شرح درة [1] الغواص الممزوج بها : « (بين تقتضى الاشتراك ، فلا تدخل إلا على مثنى أو مجموع) كقولك : المال بين الأخوين ، والدار بين الأخوة (أو ما يؤدى مؤدى ذلك ، كأحد الذى همزته أصلية) ويختص بالنفى وشبهه ، كما فى قوله تعالى : لانفرق بين أحدمن رسله (وكذلك المشار بها إلى متعدد) كما فى قوله تعالى ؛ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وقوله تعالى : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) . . » فقوله مذبذبين بين ذلك ، أى الكفر والإيمان ، وأشار إليهما بالمفرد لتأولهما بالمذكور ؛ وقوله : لافارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أى بين الفارض والبكر ، وقد لوحظ تأولهما بالمذكور كذلك . ويرى [2] أبو حيان فى الآية الأخيرة أن الكلام من باب الاكتفاء ، أى عوان بين ذلك وهذا ، وذلك : إشارة إلى فارض ، وهذا : إشارة إلى بكر ، ولكن فى هذا الرأى مجالا للتعقيب ؛ فإن المشار إليهما مؤنثان فكان واجباً ـــ لو صح هذا ـــ أن يؤتى بإشارة المؤنث ، ولا مناص من التأويل . وخير من هذا ما يراه بعضهم أن ذا الإشارية يشار بها إلى المتعدد كما قال لبيد :

---

(١) انظر شرح الدرة للألوسى ص ١٣٦   (٢) انظر البحر المحيط ص ٢٥٢ ج ١ .

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وقال شيخ الإسلام [١] زكريا فى آية البقرة : « إن قلت بين تقتضى شيئين فأكثر ، فكيف دخلت على (ذلك) وهو مفرد ؟ قلت (ذلك) يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع . ومنه قوله تعالى « قل [٢] بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا « وإن تصبروا [٣] وتتقوا » الآية « زين للناس [٤] حب الشهوات » الآية ، فالمعنى عوان بين الفارض والبكر » وظاهر هذا أنه لا حاجة إلى التأويل وإن قال [٥] الرضى إنه يشار بذا إلى المثنى والمجموع بتأويله بالمذكور .

وقد كان من أثر التزام إضافة بين إلى المتعدد أن أول النحاة قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقالوا : إن المعنى : بين أجزاء الدخول .

وأعود بعد هذا إلى المثال الذى صدرت به البحث فأقول : إنه فيما يبدو لا وجه له ، ولا مسوغ يجيزه . وإنى أرى أن هذا الأسلوب صحيح وأن الغاية والانتهاء فيه تقوم مقام العطف ، فبذلك يكون التعدد الذى تقتضيه بين . فإذا قلت : سرت بين الظهر الى العصر ، فكأنك قلت : سرت بين الظهر والعصر ، وقد أفادت الى معنى لا يستفاد لو أتينا بالأسلوب على وجهه ، وهو استمرار السير الى العصر ، فأما إذا قلت : سرت بين الظهر والعصر فلا يفى الكلام بهذا الغرض . وقد جاء عن العرب قولهم : مُطرنا ما بين زُبالة [٦] فالثعلبيّة ، فلما رأى النحاة [٧] هذا على غير ما قننوا وأصّلوا قالوا : إن المراد : مطرنا

---

(١) انظر كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » المطبوع على هامش تفسير الخطيب ص ٤٣ ج ١ .

(٢) الآية ٥٨ من سورة يونس

(٣) الآية ١٨٦ من آل عمران .

(٤) الآية ١٤ من آل عمران .

(٥) شرح الرضى على الكافية ص ٣٤ ج ٢ .

(٦) زبالة والثعلبية منزلان فى الطريق من الكوفة إلى مكة .

(٧) انظر شرح الرضى على الكافية ص ٣٦٦ ج ٢

ما بين زُبالة إلى الثعلبية ، وهذا قاض منهم بأن الأسلوب الأخير غير منكر وغير متنافر مع قواعدهم . ومردّ هذا إلى المعنى وما يتم به من التعدد ؛ وإذا قيل ما سبق : أى مطرنا ما بين زبالة فالثعلبية أو ما بين زبالة إلى الثعلبية أفاد ذلك اتصال المطر بين هذين الموطنين ، ولا تحصل هذه الفائدة لو قيل : بين زبالة والثعلبية . وقال النابغة [1] الجعدىّ :

أيا دار سلمى بالحَرورية اسلمى إلى جانب الصَّمان فالمتثلم
أقامت به البردين ثم تذكّرت منازلها بين الدَّخول فجُرثُم
ومسكَنها بين الفُرَات إلى اللوى إلى شُعَب تَرعى بهن فعَيْهم

— أراد بالبردين طرفى الشتاء — فتراه قال : بين الفرات إلى اللوى ، ولم ير فى ذلك حرجا ، لما كان ذلك يؤدى مؤدى ما بين الفرات واللوى ، ويزيد الفائدة التى ذكرها وهى ترددها فى السكنى بين هذه المواطن بين الفرات واللوى .

وجاء فى الحديث [2] : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح وأحدنا يعرف جليسه ، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة » فقال الكرمانى [3] : « فإن قلت : لفظ بين يقتضى دخوله على متعدّد ، فكان القياس أن يقال : والمائة بدون حرف الانتهاء ؛ قلت : تقديره : ما بين الستين وفوقها إلى المائة » وهذا تكلف لا داعى إليه ، والرأى أن التعدد حاصل فى المعنى والحكم ، وهذا محسب فى هذا الأمر ، وجاء أيضا فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [4] « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » ويتكلف شراح الحديث فى هذا أيضا فيقولون : إن المعنى : كما بين أجزاء صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهذا بعيد عن سياق الكلام ؛ فإن المراد حصر الزمن بين العصر والغروب . وجاء أيضا فى الحديث [5] : « وكانوا يصلون العشاء فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل » وهذا جار على ما رأيت دون حاجة إلى تأويل . ويقول ابن القوطية فى أفعاله : « أمسينا : صرنا فى المَساء ، وهو ما بين الظهر إلى المغرب » .

(١) انظر الخزانة ص ٦ ج ٤ . (٢) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة .
(٣) انظر شرح العينى على البخارى ص ٥٣٣ ج ٢ (٤) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة
(٥) صحيح البخارى ، باب النوم قبل العشاء .

والقارىء بعد هذا — فيما أرى — يخرج باستساغة المثال الذى هو موضوع البحث .

اذهب إلى فلان، قل له كذا

يجرى هذا الأسلوب، وينكره بعض الباحثين، ويوجب فيه العطف بالفاء، فيقال : اذهب إلى فلان فقل له كذا . ويذكر هؤلاء أن الوارد فى العربية هو أسلوب العطف ؛ كقوله تعالى : «اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى»، وقوله تعالى «يأيها المدثر قم فأنذر» . ويعيب هؤلاء على شوقى قوله :

قف ناج أهرام الجلال وناد　　هل من بُنَاتِك مجلس أو ناد

ويقولون : إن الأسلوب الصحيح أن يقول : قف فناج .

وفى الحق أن هذا الأسلوب يجرى على ضربين :

١ — فضرب يكون الثانى فيه بسبب من الأول، فيجعل بدل اشتمال منه، كما تقول : قم لأبيك عظّمه، وهذا لا شىء فيه، ومنه قول شوقى :

قم للمعلم وفّه التبجيلا　　كاد المعلم أن يكون رسولا

ومما ورد قديما من هذا الضرب قول عبد يغوث بن وقّاص الحارثى :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل　　لخيلى : كُرِّى، نفّسى عن رجاليا

وهو من قصيدته التى مطلعها :

ألا لا تلومانى، كفى اللوم ما بيا　　فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

فقوله : نفسى عن رجاليا بدل من قوله كرى ، إذ كان التنفيس عن رجاله من لوازم كر خيله ومستتبعاته .

ومما يقرب من هذا وإن كان الفعل الثانى فى صيغة النهى قول الشاعر :

أقول له : ارحل، لا تقيمن عندنا　　وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

فقوله : لا تقيمن بدل اشتمال من قوله : ارحل ، ولهذا أتى بالجملة الثانية مفصولة غير موصولة بالعاطف، إذ كانت فى معنى الجملة الأولى، فكان بين الجملتين كمال الاتصال، كما هو مقرر فى البلاغة .

ب ـ والضرب الثانى ألا يكون الحديث الثانى من مستلزمات الحديث الأول كما فى المثال الذى صدرنا به البحث ، وهذا موضع الإنكار والنقد . وأرى أن له وجها ومخرجا فى العربية ؛ وذلك أن تكون الجملة الثانية واقعة موقع الاستئناف البيانى ، إذ كانت فى موضع الجواب عن سؤال ينشأ عن الجملة الأولى . فاذا قلت لغلامك : اذهب الى فلان ، فهنا مظنة أن يخطر بباله السؤال عما عسى أن يبلغه إياه ، فتقول له فى الجواب عن هذا : قل له كذا . وعلى هذا يكون المقام أيضا للفصل ، إذ يكون هذا من مواضع شبه كمال الاتصال .

وقد جاء من هذا الضرب قوله تعالى « تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » وما ورد فى حديث [1] أم سلمة رضى الله عنها « أنها قالت : فأرسلت إليه ـ تريد الرسول عليه الصلاة والسلام ـ الجارية ، فقلت : قومى بجنبه قولى له : تقول لك أم سلمة . . . » ورد قولى دون فاء فى بعض الروايات واقتصر عليها الحافظ ابن حجر ، ويقول القسطلانى بعد أن أورد الرواية السابقة : « ولأبى الوقت والأصيلى : فقولى » وورد الحديث أيضا فى صحيح مسلم بلفظ « فقولى » وأيا ما كان الأمر فإن رواية « قولى » رواية صحيحة لم ينكرها أحد ، وقد رجعت الى كتاب ابن مالك « شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح » الذى يذكر فيه ما ورد فى صحيح البخارى من الحديث مباينا فى ظاهر الأمر لما يقرره علماء العربية فلم أره تعرض لهذا .

ومن هذا الضرب قول محمد بن بشير الخارجى فى رثاء أبى عبيدة بن عبد الله ابن ربيعة يخاطب ابنته هندا زوج عبد الله بن الحسن :

فقومى اضربى عينيك يا هند لن ترى أبا مثله تسمو إليه المفاخر

وإذا كان هـذا البحث يصحح المثال الذى هو موضع البحث ، بان صحة قول شوقى :

قف ناج أهرام الجـلال وناد هل من بناتك مجلس أوناد

وكان بمنجاة من اللوم والعيب بيته .

---

[١] انظر الحديث فى أبواب السهو فى آخر كتاب الصلاة من صحيح البخارى .

[٢] وانظر الأغانى ص ١٥٧ ج ١٤ .

سعيد بن المسيب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

— ٢ —

ولقد كان قتادة رضى الله عنه من أحبار التابعين وممن يرجع إليهم فى التأويل وتروى عنهم السنة ، وكان أحفظ أهل زمانه كما قالوا . وقتادة هذا كان من المولعين بابن المسيب ، يلزمه الأيام والليالى يأخذ عنه . روى أبو نعيم فى الحلية أنه لزمه أربعة أيام يأخذ عنه ، ونقل أنه أقام عنده ثمانية أيام وفى الثامن قال له : ارتحل عنى فقد أنزفتنى .

وقال قتادة : أتيت ابن المسيب ، وقد ألبس ثياب شعر ، وأقيم فى الشمس ، فقلت لقائدى : أدننى منه ، فجعلت أسأله خوفاً أن يفوتنى وهو يجيبنى والناس يتعجبون . هذا وإن له لمسانيد كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وقد تألق اسمه فى شيوخ البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة السنة الأثبات .

وفى تاريخ ابن كثير ، كثير من الأخبار المنوهة بناحيته العلمية ، ومن أعرقها فى التصوير قول الإمام الزهرى إمام المحدثين : جالسته سبع حجج ، وأنا لا أعلم عند أحد علما غيره . وقول مكحول : طفت الأرض كلها فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقول على المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه ، وإذا قال مضت السنة فحسبك به ، وهو عندى أجل التابعين . وقول أبى حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة . فأما علمه بتأويل الأحلام ، فإن ما روى له منه يبلغ منى العجب ، فهو يؤول الرؤيا

تأويلا دقيقاً ، لا يتخلف مع غرابة ذلك التأويل ، وربما أول حيواناً أو شيئاً بشخص معين فيقع كما يقول .

جاءه رجل فقال : إنى رأيت حمامة وقعت على منارة المسجد ، فقال : يتزوج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فكان !

وروى ابن سعد عن عمر بن حبيب بن قليع : كنت جالساً عند سعيد بن المسيب ، وقد ضاقت على الدنيا وركبتنى ديون ، فجاء رجل ، فقال : رأيت رؤيا . قال : ماهى ! قال : أخذت عبد الملك بن مروان فأضجعته إلى الأرض ؛ ثم بطحته فأوقدت فى ظهره أربعة أوتاد . قال : ماأنت رأيتها ؟ قال : بلى . قال سعيد : مارأيتها لا أخبرك أو تخبرنى . قال ابن الزبير ، رآها وهو بعثنى إليك ، قال : إن صدقت قتل عبد الملك ابن الزبير . وخرج من صلبه أربعة كلهم يكون خليفة . قال الرجل : فذهبت إلى عبد الملك فأخبرته فسر سروراً عظيما ، وسألنى عن حال سعيد ، ثم قضى دينى وأغدق على . وقال رجل فى مجلسه : رأيت كأن عبد الملك بن مروان يبول فى قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم أربع مرات ، فقال : إن صدقت قام من صلبه أربعة خلفاء ، وهكذا تجد الكثير مما نقل عنه فى هذا الباب مما يصوره لك تصويراً صحيحاً ، حتى لا ترى أنه أقل منزلة فى ذلك من ابن سيرين الذى كان له الصيت الذائع فيه .

بخ بخ لك يا بن المسيب ! لقد كنا نجهل من أمرك الشىء الكثير ، فإذا أنت من مفاخر هذه الأمة ، وإذا أنت جدير أن يقول فيك الصحابى الجليل عبد الله ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره . ولقد يتصل بذلك ما نقل عن الإمام من جمل وعبارات ومحاورات بليغات لها دلالتها على ما كان له من بصر وصدق نظر وغزارة مادة وصفاء نفس . فمن ذلك ما روى أبو نعيم فى الحلية : أنه لما جرد ليضرب يوم أحجم عن البيعة لولى العهد رأته امرأة فقالت : هذا مقام الخزى فقال : من الخزى فررنا .

وحدث ابن عيينة أنه سمع سعيداً يقول : « إن الدنيا نذلة وهى إلى كل نذل ميل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها من غير وجهها ، ووضعها فى غير

سبيلها . هذه حكم لو تدبرها الناس لرضى المقل بإقلاله ، ولتحرى المكثر فى جمعه لماله ، ولحاسب نفسه كيف تنفق ؟ وفى أى سبيل تضع المال ؟ .

وكان يقول لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار عليهم فى قلوبكم ، حتى لا تحبط أعمالكم .

وروى على بن زيد عنه أنه قال : ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من قبل النساء . ولقد بلغت ثمانين سنة وما شيء أخوف عندى من النساء ، وكان سعيد ابن المسيب يقول : يد الله فوق عباده ، فمن رفع نفسه وضعه الله . ومن وضعها رفعه الله . الناس تحت كنفه يعملون بأعمالهم ؛ فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته .

ونقل الشعرانى فى طبقاته عنه : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله . وحكى الشعرانى أنه كان يقول إذا دخل الليل لنفسه : قومى يا مأوى كل شر ، والله لأدعنك تزحفين زحف البعير فكان يصبح وقدماه منتفختان ، فيقول لنفسه : بذا أمرت ولذا خلقت . ولعل فى هذا بعض مايلقى لك ضوءا على ما كان فى ابن المسيب من تقوى ونسك ، وهو الناحية الثانية التى أشرت إليها سابقا . والناحية الثالثة صبره على المحنة وشراؤه نفسه ابتغاء مرضاة الله . وهما ناحيتان مشرقتان فى تاريخ العلم والعلماء ، تتمثلان أروع تمثل فى سعيد ، وفيهما أعظم العظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأما الناحية الثانية من نواحى ابن المسيب النسك والزهادة ، فإن المتتبع لتاريخه يلمس أنه منها بالمحل الأول ، والوضع الذى لا يجهل . لقد نسك حتى أعيت مجاراته ، وقنت حتى عزت مداناته ، وتحامل على نفسه فنزلت على حكم الجهاد الصادق . كان قلبه معلقاً بالمساجد ، فسلك فى المحافظة على الصلوات فى الجماعة مسلكا انفرد بالتوفيق له ، لقد حدث عن نفسه ، وحدث الرواة عنه أنه واظب على صلاة الجماعة أربعين سنة لا يشذ منها وقت ، يستميت فى سبيل ذلك ويضحى فيه بأغلى ما عنده ، واعتلت عينه يوما فقيل له : لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة ووجدت ريح البرية لنفعك ذلك ، قال : فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح

ونصح له بعض خلصائه أن يمتنع عن شهود الجماعة أيام امتنع عن البيعة للوليد؛ حتى لا يعرض نفسه للسخط ، وكان الأمير يكتفى بأن يبعث إليه فى المسجد فلا يجده ، فلما قيل له ذلك ، وأنا أسمع الأذان : حى على الصلاة حى على الفلاح لايكون ذلك أبداً ؛ بل إنه كان ينتظر الصلاة قبل وقتها عملا بالسنة ، ومسارعة إلى الخير وعمل الجنة ، ويقول فى ذلك : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد ، وما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ، ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا اليه مشتاق. بخ بخ لك يا بن المسيب ! إن من عَبَد الله كأنه يراه لم يكن أحب إلى نفسه من هذه الصلاة . نسأل الله أن يحققنا بتلك المقامات ، وأن يجعلنا من أهلها .

وكان لايدع أن يقرأ القرآن فى سفره وحضره ، وفى رواحه وغدوته ، يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويحفظ به دينه وخلقه . ومما حدث به ابن حرملة عنه قال : حفظت صلاة ابن المسيب وعمله بالنهار ؛ فسألت مولاه عن عمله بالليل فقال : كان لا يدع أن يقرأ بـ(ص) فلما مر بالسجدة سجد ، وسجدت الشجرة معه ، فسمعتها تقول : اللهم أعطنى بهذه السجدة أجراً ، وضع بها عنى وزراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود !

وقد صلى الفجر كما قال الرواة بوضوء العشاء خمسين سنة . وعرف عنه أنه كان يتابع الصوم ويسرده سرداً ، ولم يكن شرها ولا متشهيا ، فقد كان يفطر فى المسجد من شراب يؤتى له به من بيته .

وكذلك كان حجاجاً عجاجاً أشق نفسه ليسعدها بكثرة الخروج إلى البيت العتيق ، وقضاء المناسك يعاود ذلك أربعين مرة . وكان يذهب فى العبادة مذهباً صحيحاً لا يحفل فيها بالظواهر والمظاهر ؛ بل يعمد بالناس إلى ما يؤسسها أساساً مدعما وإلى مايخرج به الخير مجسما . قيل له ، وقد رأى قوماً يصلون فيكثرون بين الظهر والعصر : ألا تتعبد مع هؤلاء ، هـذه هى العبادة لو تقوى على ما يقوى عليه هؤلاء ! فقال : إنما العبادة التفكر فى أمر الله والورع عن محارم الله وأداء الفرائض . فأساس الدين عند هـذا الإمام علم نافع ، وخوف وازع ، والتقرب إلى الله بأحب شيء إليه ، وهو ما افترض على العباد . فأما هذه النوافل فإنها

لا تقبل إلا بعد تحقق تلك النواحي على أصح الوجوه ، ولقد تستطيع أن تدرك مبلغ هذه النواحي من الإمام وتقديمه لها بما كان من حرصه على المكتوبة واحتفاله بها ، مع خوفه من النساء ، واستعاذته بالله من فتنتهن . لقد كان يقول : ما شيء أخوف عندي من النساء وقد بلغت السبعين . وأما تفكره في أمر الله ، فحدث عن البحر ولا حرج .

وفي هذه المناسبة أستطيع أن أنتقل بك إلى الناحية الثالثة من نواحيه ، وهي جموده على التمسك وأخذ نفسه بالعزيمة بلا رخصة ولا هوادة ، وإرخاص نفسه في ذات الله فيمن يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . لقد كان عفاً إلى أبعد حدود العفة ، لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ؛ بل كان لا يقبل الشربة إلا من بيته حتى وهو صائم عند الإفطار .

وكان لابن المسيب عطاء في بيت المال ، يبلغ نيفا وثلاثين ألفا ، فلما دعى لأخذها قال : لاحاجة لي فيها ، ولا في بني مروان ، حتى ألقى الله تعالى فيحكم بيني وبينهم . وأتاه ابن عمه بأربعة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها . على أنه كان يجمع المال من حله ليصون وجهه ، ويحفظ عرضه فكان يتجر في الزيت ، ومات عن نحو ثلاثة آلاف دينار ، وكان قبل موته يقول : اللهم إنك تعلم أنني لم أجمع هذا المال إلا لأحفظ به وجهي وأصون به عرضي . وأعود به على جيراني وأهلي . على أنه كان سمحا لا ينازع أحداً شيئاً ، ولا يخاصم أحداً في شيء ، فلو أن أحداً ادعى رداءه لنزعه إليه ؛ ذلك أنه كان مهذباً صديقاً وخاشعاً يدعو إلى الله ويدل على جنابه الرحيب .

ولقد كان من آثار تشدده في الدين وإرخاص نفسه في ذات الله أنه كان ينظر الى الملوك والأمراء نظرته الى سائر الدهماء ، فلا هو بالخاطب لودهم ولا المتهافت على دنياهم . لقد صلى أمامه الحجاج يوما صلاة فجعل لايحسن ركوعها ولا سجودها . فأخذ كفاً من حصباء فحصبه بها ، قال الحجاج : فما زلت أحسن الصلاة بعدها . ثم ما كان يبعث إليه ولا يهيجه . وذهب الخليفة عبد الملك إلى المدينة ووقف له على باب المسجد . وأرسل إليه فرفض لقاءه مع إغلاظ الرسول له . حتى قال للرسول : إن الخليفة ليست له عندي حاجة وإن تكن له

حاجة فهى غير مقضية . ولما يئس الخليفة من لقائه ، قال : رحم الله أبا محمد يأبى إلا صلابة !

وحدث ميمون بن مهران : إن عبد الملك قدم المدينة واستيقظ يوماً من قائلته فقال لحاجبه : أنظر هل ترى أحداً من حداثى فى المسجد النبوى ؟ فذهب فلم يجد إلا هذا الشيخ الكبير ؛ فأشار إليه بأصبعه فلم يتحرك ؛ فأتاه الحاجب وأغلظ له فقال الشيخ : وما حاجتك . قال : إن أمير المؤمنين . . . فقال الشيخ : لست من حداث أمير المؤمنين . ولقد فعل مثل ذلك مع الوليد بن عبد الملك بمسجد المدينة فرفض لقاءه ، وهما معاً داخل المسجد ؛ فَهَمّ الوليد به ولكنه نصح فانتصح . ولقد رفض البيعة لهذا الولد وأخيه هشام ، وهدد وعرض على السيف ، وضرب خمسين سوطاً ، وطيف به فى الأسواق ما عدل به شى من ذلك عن رأيه وعزمه . وبعد فهل ترى أدل على صدق العزم والثبات على الحق من قصة ابنته وزواجه ؟ لقد حاول الخليفة أن يزوجها من ابنه الوليد ، فقال : لا بملء فيه ، ونشأ عن ذلك أن ضرب وأهين فى ذات الله ، فأما أبو وداعة الطالب الفقير فقد عرضت عليه عرضا ثم زفت إليه زفا ، ثم دفعت إليه النفقة ، وهى قصة شريفة طريفة أوردها العلماء من المؤرخين والصوفية . قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدنى أياما فلما جئته قال : أين كنت ؟ قال : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين ! فقال : أنا . ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وزوجنى على درهمين ، فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر وكان خبزا وزيتاً فإذا بآت يقرع الباب فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . فأفكرت فى كل إنسان إلا سعيد بن المسيب ، فأنه لم ير منذ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد ، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب ، فقلت : يا أبا محمد ألا أرسلت إلى فآتيك ، فقال : لأنت أحق أن تؤتى ، قلت : فما تأمر قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك . فإذا هى قائمة من خلفه فدفعها وذهب ؛ فسقطت من الحياء ثم تقدمت إلى القصعة فأخفيتها ، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءونى فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : ويحكم ! زوجنى

ابن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ! قلت : نعم وها هى فى الدار . . . وطالت القصة ، ثم يقول أبو وداعة : إننى حين دخلت وجدت أجمل الناس ، وأحفظهم لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسوله ، وأعرفهم بحق الزوج ، قال : فمكث سعيد شهرا لا يأتيني ولا آتيه ثم عدت إلى مجلسه ، ولما عدت وجه إلى بعشرين ألف درهم .

رحمك الله يا أبا محمد ! ماذا يكتب القلم فيك وأية ناحية يسلك من نواحيك ؟! أعلمك وعرفانك ؟ أم تقاك وإيمانك ؟ أم صلابتك فى الحق وإرخاص نفسك فى ذات الله . . . ؟ لقد كنت من الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجلها حين تنافسوا فى عاجلها ، يهدمون الدنيا فيبنون بها آخرتهم . ويبيعونها فيشترون ما بقى لهم . قد أحبوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة . بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، فلا يرون نائلا مع ما نالوا ، ولا يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

المطل

كتب الجاحظ الى رجل وعده : أما بعد فإن شجرة وعدك قد أورقت ، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل . والسلام .

وقال المهلب بن أبى صفرة القائد الإسلامى المشهور لبنيه : يا بَنى إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلما ، فكفى بذلك تقاضيا .

أخذها شاعر فقال :

أروح بتسليمى عليك وأغتدى   وحسبك بالتسليم منى تقاضيا

وقال شاعر آخر :

أروح مخبرا وجهى بشانى   وحسبك أن أراك وأن ترانى
وما ظنى بأن يعييه أمرى   ويعلم حاجتى ويرى مكانى

بين الشريعة والقانون :

نظرات في توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

ذكرت أحد الوجهين مفصلا في إيضاح ما استظهرته من تقسيم التوثيق إلى : واجب ، ومندوب ، ومباح . والوجه الثاني - وهو من قبيل الاستئناس - منطوق الآية ونسقها اللفظي ؛ وذلك أن الله تعالى يقول « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ولفظا : بدين ، وإلى أجل مسمى ، لم يذكرا احتياطا بل لغرض مقصود ، فما هو ذلك الغرض ؟

يقول كثير من المفسرين : إن لفظ « تداينتم » مشترك لفظي بين معنيين : تجازيتم - أي يجازي بعضكم بعضا أمراً بأمر ، وتعاملتم بالدين ، فلفظ « بدين » ذكر لدفع ذلك الاشتراك وتمحيض اللفظ للتعامل بالدين . هذا كلامهم ، وهو عندي غير متعين ولا قوي ؛ ذلك لأن سياق الآيات في الربا والدين واحد على ما هو الظاهر المعقول ، وهو ما رجحه السيوطي ، واطمأننت إليه ، فالاشتراك في لفظ « تداينتم » مدفوع بالسياق ، واللفظ متمحض للتعامل بالدين في هذا المقام ، فليس بحاجة إلى ضميمة أخرى تمحضه ، ومن أجل هذا اعتبر القرطبي أن لفظ « بدين » ذكر لتوكيد ما استفيد من سابقه ، فهو معنا في أن السياق دال على المعنى المراد من هذا اللفظ ، ولم يَدَعْه مشتركا . . . كما قال آخرون : إنه ذكر لبيان المراد نصا ، ولا مانع فيما أفهم من القول بأنه ذكر للتنويه على أهمية الدين الذي يطلب التوثيق فيه على سبيل الإيجاب . . . ويساعدنا على هذا الفهم ذكره منونا لا معرفا ؛ إذ التنوين كثيراً ما يكون للتعظيم كما هو معروف ، فكأن الآية تقول : إذا تداينتم بدين ذي خطر فاكتبوه وجوبا ، ولولا قصر ذلك الوصف الملحوظ في تنوينه ، لكان التعريف أولى وأدل على التعميم في جنس الديون

خطيرها وصغيرها ، وحيث لم يذكر معرفا فللغرض الذى أسلفته ، وإلا كان ذكر اللفظ « بدين » بعد دلالة السياق عليه أبعد عن التأسيس وأشبه بالنافلة ..
فإذا سلم لى ما قلته ، وضح أن لفظة « بدين » مما يرجح قولى فيما أنا بسبيله .
وكذا قوله تعالى « إلى أجل مسمى » فمن المفسرين من يراه ذكر لمراعاة السلم الذى هو فى رأيهم سبب النزول ، وإن كانت الآية شاملة لغير دين السلم ، ومن المفسرين من يراه ذكر لبيان أن الدين منه مؤجل ومنه غير مؤجل ، وأن الأجل ينبغى تقديره كما أقرته الآية ، وأن الأجل المجهول غير معتد به فى حجة التعامل .

وعندى — حتى مع التسليم بهذه التوجيهات — أن فى ذكر الأجل تنويها آخر على أن الدين الذى تحثنا الشريعة على توثيقه ، هو ما كان ذا شأن فى اعتبار الناس وعرفهم ؛ وذلك أن الدين الذى يتعلق به اهتمام الدائن والمدين حتى يضربا له أجلا معينا هو فى العادة غير التافه ، فذكر الأجل المسمى للإشارة إلى ذلك الوصف المراعى ، وليس يمنع من هذا الاعتبار أن يكون لما ذكروا ، والنكت كما يقول البلاغيون لا تتزاحم .

وعلى هذا فالمستفاد من ذكر الأجل المسمى ثلاثة أغراض :

الأول - إقرار المسلمين على السلم الذى كان معهودا من قبل ، وعلى عموم المداينة بالأجل فيما يجوز التأجيل فيه ، على ما بيَّن الفقهاء حين كلامهم على الربويات وغيرها .

الغرض الثانى — لفت الناس إلى أن الأجل المعتد به فى الديون هو الأجل المسمى دون المجهول حيث نيط الأمر بالكتابة بالمؤجل إلى أجل مسمى ، وهذا من قبيل الاستدلال بإشارة النص .

الغرض الثالث — إشعار الناس بأن الدين المأمور بتوثيقه وتسمية أجله هو ما يرونه فيما بينهم ويتطلعون إلى استيفائه .

هذا الوجه المفصل ، والوجه الذى بينته فى المقال السابق ، يرجحان ما تخيرته من إيجاب التوثيق فى الدين الخطير .

وأما ندب التوثيق أو إباحته فى غير الخطير فأخذهما من قوله تعالى : « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيرا إلى أجله » ومن قوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » .

الندب — : يقول القرطبى : أولا ، لا تسأموا معناه لا تملوا « صغيراً

أو كبيراً ، حالان من الضمير فى تكتبوه ، وقدم الصغير اهتماما بشأنه ، وهذا النهى عن السآمة إنما جاء لتردد المداينة عندهم ، فخيف عليهم أن يملوا الكتب ، ويقول أحدهم هذا قليل لا أحتاج إلى كتبه ، فأكد تعالى التحصين فى القليل والكثير ، قال علماؤنا : إلا ما كان من قيراط ونحوه لنزارته وعدم تشوف النفس اليه إقراراً وإنكارا (ص ٤٠١ جـ ٣ قرطبى) .

وكلام القرطبي هذا يلائم قول القائلين بإيجاب التوثيق مطلقا ، وخاصة قوله « وقدم الصغير اهتماما به » ، وقوله « فأكد التحصين فى القليل والكثير » .

ولكن اختيار القرطبي معروف مما سبق ، إذ نقلنا عنه تأييده للقول بندب الاستيثاق على وجه العموم ، وقوله فى صفحة ٣٨٣ج ٣ : وهذا هو القول الصحيح .

فكأن القول بالإيجاب فى أى نوع من الديون لا يرقى عنده إلى درجة الصحة ، وعلى ذلك يكون كلامه هنا منزلا على ما قرره آنفاً من ندب الاستيثاق ، وإن كان تحصينه مؤكداً فى القليل والكثير ، ويكون النهى عن السآمة من التوثيق محمولا فى اعتباره على نهى الكراهة ، ويكون استثناء علمائنا على ما حكاه للقيراط ونحوه مما لا تتشوف النفس إليه استثناء من الندب . ورجوعاً إلى ما سبق لى ترجيحه من إيجاب التوثيق فى الخطير من الديون وما يلتحق بها أرى ويرى القارىء معى أن تسوية القرطبي بين الدين الكبير والدين الصغير فى تأكيد التحصين مجرد متابعة لظاهر الصيغة ، وانسياق منه إلى تدعيم ما ذهبوا إليه من عموم الندب ، ولكن ذلك لا يسهل التسليم به على إطلاقه ، إذ الأظهر أن توثيق الصغير أمر مستحب ، وأن الله تعالى مع تخفيفه عنا بعدم إيجاب التوثيق فيه رغبنا فى تحصينه تأكيداً للاستحباب الذى لم يبلغ درجة الوجوب ، وكان من تأكيد الاستحباب فيه أن جمع الله بينه وبين الكبير فى حيز النهى الدال على خطورة المخالفة ، غير أن النهى فى جانب الكبير يدل على حرمة الترك بسبب السآمة ، وفى جانب الصغير يدل على الكراهة فحسب ، وقد سوغ ذلك الجمع بينهما أن الحكمة من التوثيق ، تتحقق فى الجانبين ، وهو ما صرح به فى قوله سبحانه « ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » ، ولولا الحرج والمشقة وإرهاق الناس بما لا يطيقون لوجب التوثيق فى الكل ، كما يقول آخرون

ولكن المصلحة فى توثيق الصغير، مع وضوحها والتسليم بها، لا تبلغ مضرة التكليف به لكثرته واقتضائه العنت والتعسير على الناس مما يخالف رفق الشريعة بالناس. ولعل فى تعبير المولى سبحانه بقوله «ولا تسأموا» توجيهاً إلى ذلك، فإن السأم يعترى المرء من غير قصد ولا اختيار، وصرفه عن النفس مستطاع فيما لا يكثر ولا يتردد بين الناس فى غالب أوقاتهم، فمعقول أن يكلف الله عبده بعدم السأم فيما يمكنه أن يدفع السأم فيه، وموطن ذلك هو الأمور القليلة الوقوع بالنسبة إلى غيرها وهى الديون الخطيرة. أما ما يكثر سبب السأم فيه، وهو الديون اليسيرة الفاشية فدفع السأم فيه عسير، ونهينا عن السأم إنما يكون للتنزيه، ولا يعقل أن يكون للحظر ما دام غير مقدور لنا دائماً. وعلى هذا يكون النهى فى الآية للكراهة وللحظر جميعاً، فللكراهة فى جانب توثيق الديون اليسيرة، وللحظر فى جانب توثيق الديون الكبيرة.

وذلك كما يقال: لا تقطع مودة أصحابك، وذوى رحمك، فذلك نهى فى أسلوب عربى مألوف، ولكن حكمه فى الجانبين لا يستوى، فقطيعة الأصحاب لا تساوى فى الحرج عند الله قطيعة الأرحام، وهو استعمال سائغ على أى حال، سواء أكان استعمالا للنهى فى حقيقته ومجازه على رأى من يجيز ذلك، أم كان من قبيل عموم المجاز على رأى آخرين، أم كان حقيقة فى المعنيين عند غير هؤلاء وهؤلاء.

الإباحة — سبق أن حكينا عن القرطبى ما نقله عن علمائنا من استثناء القيراط ونحوه مما يعد نزرا، ولا تتشوف النفس إليه، فذلك عندهم مطروح من مدلول لفظ «صغيراً»، ولا يتعلق به بتوثيقه ندب، وكأن شيوخنا أولئك اعتمدوا فى تخصيصهم للصغير بشىء دون شىء على العرف الصحيح المستمد من العمومات «وما جعل عليكم فى الدين من حرج»، «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»، «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»، فذلك العرف هو الذى وجه أفهامهم إلى استثناء القيراط ونحوه، وهذا ما نص ابن قدامة الحنبلى على قبح التوثيق فيه؛ لأنه فى اعتباره اشتغال بالتافه، وتعرض للمقاضاة فيما تأباه المروءة.

ولكن اتجاه شيوخنا إلى عدم توثيق هذا التافه الذى لا تتشوف النفس إليه، لا يعتبر تحريما ولا كراهة وإنما هو اختيار لا يمنع إباحة التوثيق فيه، ولا يكون

حراما ولا مكروها شرعا لو أن امرأ من الناس أو أناسا كثيرين جروا على الاستيثاق فى القيراط ونحوه ما استثناه علماؤنا، وفى حاجة البقال والعطار مما مثل به ابن قدامة، والأمر فى ذلك منوط بالرضا وطيب النفس، إذ أن عدم تعلق الطلب به كما فهم شيوخنا إنما كان للتخفيف، فإذا لم يكن تبرم ولا غضاضة فلا حرج على من أراد أن يفعل.

وإذا سلمّ لى ما ذكرته هنا تبين أن فى هذا الجزء من الآية «ولا تسأموا الخ» ما يعطى الإيجاب والندب نصا ويفيد الإباحة مفهوما، والأخذ بالمفهوم مقول به على رجحان، فالإيجاب فى الخطير عرفا، والندب فى الصغير الذى لم ينهض إلى مكانة الخطير، ولم ينزل إلى درجة التافه، والإباحة فيما كان هيناً، كثمن الرطل من الصابون والأقة من الفاكهة، وما إلى ذلك مما هو فى حدود القيراط الذى مثل به علماؤنا الأولون. وإذا كان للعرف وزن واعتبار عند أشياخنا فيما فهموا ونقلناه عنهم فى هذا الصدد، فنحن نرى فى عرف الناس اليوم ما يشهد لما نقول، فالبقال والقصاب والفاكهى والكواء، وأمثال هؤلاء قد يتعاملون مع كثير من الناس بالأجل، وهم يقيدون بالكتابة مايتناوله الحرفاء (العملاء) مرة بعدمرة، وهوفى كل مرة تافه؛ ولا يكون ذا خطر إلا بعد الاسترسال فى الأخذ وضم بعضه إلى بعض.. ولا يقال إن ذلك يجرى بلا استيثاق، فإن الغالب أن الحريف يوقع هو أو رسوله على دفتر معد بيد البائع، أو يأذن للبائع بتقييد مراته فى دفتره، ثم يوقع الحريف من حين إلى حين على ذلك الدفتر، توثيقا للبائع فيما اجتمع له، وهذا بعينه توثيق فى أثمان تافهة، وهو فى جوهره توثيق شرعى وإن كانت صوره أحيانا على غير الضابط الشرعى، فهل يقال: إن ذلك مما تأباه المروءة كما يقول ابن قدامة؟ أظن لا. وقد وضح أن العرف هو الذى يوجه الناس إلى رسم المعاملات، وقد يُرى حسنا عند قوم ما لم يكن حسنا عند آخرين، والمرجع فى إجازة هذا وعدم إجازته إلى الضوابط العامة الشرعية، والضوابط لا تضرب حول الناس سورا من حديد.

وتدعيما لما ذهبت إليه من تقسيم التوثيق إلى قسم ثالث هو المباح، سأعرض فى ذلك لقول الله عز شأنه «إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم. الآية» ولعل فى الأجل بقية.

رسالة الحياة وكيف تؤدى

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعى
مفتش الوعظ بالأزهر

أنشأ الله الكون على أبدع نظام ، وأحكم صنع حيّر الأفهام ، ودوخ العقول ؛ فالأفهام تقف دونه حائرة ، والعقول تخر بين يديه ساجدة . فالسماء والأرض وما بينهما ، والشمس والقمر والنجوم كل يؤدى وظيفة فى الحياة على نظام ثابت يوصل إلى غاية عظيمة .

هذه المخلوقات لها رسالة خلقها الله لها ، فهى تؤديها على أتم وجه . دون توقف أو اصطدام . « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .

هذا الكون الذى خلقه الله على تلك الصورة وهذا النظام البديع ، سخره للإنسان ووكل إليه عمارته والعمل فيه ؛ ليحيا حياة النعيم والسعادة . وقد حث الله على التفكير فى الأرض والسماء والماء والهواء ؛ لاستنباط ما يسعد بنى الإنسان ويرقى الإنسانية إلى مراقى الفلاح والكمال .

فرسالة الإنسان فى الحياة رسالة عظيمة لا يدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار النعمة التى أنعم الله بها عليه ، فهو خلق عظيم ما استجاب لخالقه ولبى دعوة بارئه ؛ فسار على نظام العبودية الحقة ، وسبح فى فلك الطاعة لا يريم عنه ولا يتحول ، كما أن الشمس والقمر كل فى فلك يسبحون . فيؤدى رسالته فى الحياة فى ظل هذه العبودية ، فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإتقان والكمال دون إفراط أو تفريط ، فإن حاد

عن ذلك فهو مفرط فى حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين . وهو بعدُ مسئول بين يدى الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ثم هو مجازى بما يعمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

فالعالم — رجل الدين — رسالته فى الحياة : تهذيب النفوس ، ومعالجة القلوب ، وبيان سبل الخير والترغيب فى سلوكها ، وطرق الشر والتنفير من ولوجها ، ونشر العلم ، وتيسير فهمه ، والرفق بالجاهل ، ولين الجانب للمتعلم ، والجد فى نشر الفضائل ، وبث النصائح ، مستعذبا الصعاب فى سبيل ذلك لا يثنيه عن قول الحق ترغيب أو ترهيب ، يفعل الخير قبل أن يوصى بفعله ، وينأى عن الفساد قبل أن ينهى عن فعله ، فهو قدوة فى علمه وعمله وخلقه ، لا يتملق إلا مولاه ولا يذل إلا لخالقه ، يستمد عظمته من عظمة رسالته ، وغناه من قناعته ، وثقته برازقه : شعاره الذى يعتز به قول الإمام الشافعى رحمه الله فى الزهد والقناعة والتعفف عما فى أيدى الناس :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

والحاكم رسالته أن يعدل فى الرعية ، ويقسم بالسوية ، لا يفرق بين قريب وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ويرعى شئون الناس بالقسطاس ، ويسهر على مصالحهم ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويضرب البغاة والظلمة والمفسدين فى الأرض ، ويشجع المحسنين العاملين لمصلحة الأمة ، ويؤلف بين المتخاصمين ، ويعمل على توحيد كلمة الأمة وجمع صفوفها ؛ حتى لا يكيد العدو للأمة وهى متفرقة ، فيذهب ريحها .

ومن رسالة الحاكم إشاعة الأمن فى البلاد ، ونشر التعليم ، والمحافظة على الصحة العامة ، ومحاربة الفاقة بإيجاد الأعمال للمتعطلين ، والإنفاق على العجزة ، ومن فى حكمهم من الأطفال والأرامل .

والمحكوم رسالته فى الحياة أن يكون للحاكم العادل عونا على تأدية رسالته ،

فيطيع أوامره ، وينفذ القوانين ، ويعينه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، كما يعينه على اقتلاع جذور الفساد من المجتمع ، وتنمية سبل الخير .

أما من وكل إليه تربية النشء فرسالته فى الحياة غرس الوطنية فى قلوب تلاميذه ، وتهذيبهم وتغذية أرواحهم بالعلوم ، وتبصيرهم بشئون دينهم ودنياهم ، وتنشئتهم على العزة والكرامة وحب الخير والمروءة والإقدام ، والتخلق بما يكسبهم الثناء والمجد .

وكذلك كل عالم فى فن من الفنون عليه أن يبذل جهده ، لينفع بفنه أمته ، فيحاول أن يفكر ويخترع ما يعود على الأمة بالخير فى زراعتها وتجارتها وصناعتها ، كما يفكر فى تقوية مركز أمته أمام الدول لتكون مسموعة الكلمة مرفوعة اللواء .

وكل من يستطيع نفع بلاده ولا يفعل فقد فرط فى أداء رسالته . وكل من يستطيع معونة الناس الذين يحتاجون إلى المعونة ولا يفعل ، فقد فرط كذلك فى أداء رسالته . فالأطباء تتصل رسالتهم بالإنسانية الكاملة ، والرحمة بالضعفاء ، فهم مسئولون عن تخفيف آلام المرضى والقيام على علاجهم ، ولا يصح أن يدخل فى حسابهم غنى المريض وفقره ، فالطبيب إنسان جعل الله رسالته فى الحياة تخفيف الآلام ، ومداواة الأسقام ، فإذا رأى ذلك ثم وقف جامدا حتى يأخذ المال ولو ممن لا يملكه ، فإنه حينئذ يحجم عن أداء رسالته السامية للإنسانية ، ويلصق بنفسه أنه تاجر ينتهز الفرصة ويستغل الحاجة ؛ بل إنه حينئذ إنسان نزعت من قلبه الرحمة ، وهى إنما تنزع من قلوب الأشقياء .

والغنى الذى يسمع بأذنه شكوى الجائع ، ويرى بعينيه عرى العارى أو يعلم من أمر جيرانه ما هم فيه من حاجة ومتربة ، ثم لا تتحرك يده إلى جيبه ليطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويقضى حاجة المحتاج ، لهو كذلك فى غفلة عن رسالته ، ومتسربل بالكفر بنعمة خالقه . وهكذا كل من الزارع والتاجر والصانع ، كل فى عمله : رسالتهم أن يقوم كل واحد بعمله خير قيام ؛ فيهتم الزارع بالغراس ويلتمس الوسائل الحديثة للاستنبات ، ويبذل جهوده فى حقله لينتج إنتاجا حسنا ؛ كما يهتم التاجر باستجلاب البضائع ، وتيسير الحوائج للناس ، متوخيا فى ذلك

المصلحة العامة للناس دون أن يستغلهم أو يغشهم أو يدلس عليهم . وكذلك الصانع يتقن صنعته ، ويحاول أن يكون دائما فى تقدم مع حرصه على الصدق ، والأمانة والوفاء .

لو أدى كل فرد رسالته على ماينبغى ، وفكر أنه تحت عين الله ينظر اليه ويراه ، وأنه إن أحسن فى عمله أحسن الله إليه وضاعف له ، وأن كل عمل سواء كان دينيا أو دنيويا خاصا أو عاما متى أخلص المرء فيه النية وأتقنه ابتغاء وجه ربه فسيجد من توفيق الله له وتيسيره له فى الدنيا وثوابه وكرامته فى دارالمقامة ، ما لا يقدر قدره إلا الله .

ولو أدى كل فرد رسالته فى الحياة ، وقام بأداء الناحية التى هيأه الله لها أداء حسنا ، لتحققت السعادة للجميع ، وتلك هى الغاية التى يريدها الإسلام فيما أتى به من تشريع وأحكام . وهى رسالة القرآن الذى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له المسلمون الأولون ، فعزوا بعد ذل ، وسعدوا بعد شقاء ، وأصبحوا المثل الأعلى للأمم الحية الناهضة : لأن كل واحد منهم كان يشعر بالمسئولية فى أداء الرسالة التى كلف بها ، والواجب الذى عليه لله وللناس .

الجود

قال أكثم بن صيفى حكيم العرب : ذللوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها إلى المحامد ، وعلموها المكارم ، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم ، وصلوا من رغب إليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل ، فتتعجلوا الفقر .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغنى وماكنت تعدو الذى تصنع

لا يريد الشاعر فيما يظهر أن ينفق الإنسان كل ما يجمعه فلا يدخر للنوائب حصة منه ، بل يريد أن يجود الإنسان منه ليبارك له فيه .

في كتاب الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

كذب من يزعم أن الحديث فى إعجاز القرآن ينتهى إلى حد ، أو يصل إلى غاية ، أو ينضب له معين ، بل إن القارىء فيه ، المتأمل لمعانيه ، كلما أمعن النظر ، وأطال التأمل ، وأغرق فى التفكير ، بدا له منه العجب ، وظهرت الغرائب ، وأيقن أنه يُعطى منه ما يُعطاه الواقف على شاطىء المحيط من الرذاذ حينما يقذفه بالحجر . . .

وهذه قضية فرغ الباحثون منها ، وانتهوا إلى تقرير الصواب فيها ، وكأن الإعجاز هو الإعجاز حتى فى تقريب هيكله ، وتصوير هيولاه ، ليظل الناس يكدون ويجدون ، ويعانون ويقاسون ، ويدأبون فى التحصيل ، ويكدحون فى الطلب ، إلى أن تقوم الساعة ، ويطوى الله الأرض ومن عليها . . . وهو يتحدى البشر فى جميع النواحى معلناً بذلك أنه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » لا يستطيعون أن يسبروا غوره ، ولا أن يدركوا كنهه ، ولا أن يعرفوا ما تضمنه من عبر ، أو احتواه من عظات « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فلا أفصحهم بياناً ، وأقومهم لساناً ، وأعذبهم كلماً ، وأروعهم حكماً ، وأقدرهم على تأليف الحجج ، وزخرفة الأدلة ، وترتيب المنطق ، يقف له فى الطريق ، أو يعارضه فيما يقول ، اللهم إلا محاولات العاجز ، ومصاولات الضعيف ، وليست المسألة أكثر من أن يتفرغ له الذهن ، وينقطع له التفكير ، ويستجم الخاطر ، فإنه — حينئذ — لا يشك فى أنه أمام قدرة باهرة ظاهرة ، تسجد لها العقول الجبارة ، وتذعن لسلطان سطوتها الأفكار الكبيرة . . .

وقد جرت التقاليد أن العرب وهم دهاقين القول ، وجهابذة الكلام ، وصيارفة الحديث ، لا يُعرف الرجل منهم إلاَّ بناحية من البلاغة يجيدها ، وأسلوب من الفصاحة يتقنه ، ولا يستجيدون واحداً منهم فى كل الأغراض ، ولا فى جميع الأحوال ، ولذلك كان المأثور عنهم أن يقولوا : « عنترة إذا ركب ، والأعشى إذا طرب » ، وقد اشتهر بعض الناس بأبواب خاصة من الشعر لا يحسنون إلا فيها ، ولا يجلون إلا فى ميادينها . فهذا شاعر الرثاء ، وذاك شاعر الاعتذار ، وذلك شاعر الهجاء ، وهكذا دواليك لا يتوفر لواحد أن يجرى فى كل مضمار ، أو يسبق فى كل شوط .

ولكن القرآن كان من إعجازه التصرف فى كل فن ، والإجادة فى كل ناحية .

والنبى صلى الله عليه وسلم كرمه ربه أحسن تكريم ، واحتفل به فى مناسبات مختلفة من تلك المناسبات التى كانت تقتضى نزول جبريل عليه بالوحى ، لا يشك فى ذلك مكابر ، ولا يمارى جاحد ، إلا أنى لم أطرب لذلك كما طربت حينما قرأت « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وليس ذلك لسلاسة الألفاظ ، وقوة التركيب وتناسق الجمل ، وخفة الحروف على اللسان ، وعدم كراهيتها فى السمع ، وغير ذلك مما يتعرض له علماء البلاغة ، ويهتم بالبحث عنه أمثال عبد القاهر الجرجانى وأبو هلال العسكرى .

ولكننى نظرت إلى نوافذ أخرى شاهدت منها أشياء وأشياء تشع عنها الآية الكريمة ، هى فيما يرى الرائى ظلال وأطياف ، وألوان وصور ، وأرواح ومعان ، ولب اللب ، وخلاصة الخلاصات .

وما حاجة الناس الى أن يحملوا حملا عنيفا ليجعلوا الرسول منهم بهذه المثابة وتلك المكانة ، ويبذلوا له من الاحترام والتقديس ، والحفاوة والإعظام ، والمهابة والأدب ، ما هو أشبه بالتكاليف الواجبة ، أو الطاعات المفروضة ، وهو لا يعدو أن يكون مبلغاً لما أنزل الله عليه ، وناقلا لما يوحيه إليه ، وهم إنما يعبدون الله وحده ، لا يشركون به شيئاً .

إلا أنى أيقنت أن المعلم الذى تنعدم مهابته من النفوس ، وتذهب مكانته من القلوب ، ويفقد صلته بتلاميذه ، بحيث لا يكون هنالك ود متبادل وتقدير متوفر ؛ لا يرجى نفعه ، ولا يثمر ثمره ، ولا يؤدى عمله على الوجه الأكمل ، أو يفيد الفائدة المطلوبة ؛ ولهذا كان يؤثر عن بعض العلماء قوله « ذللت طالباً فعززت مطلوبا » .

وقد كان جماعة من المنافقين ، يبالغون فى إعنات النبى صلى الله عليه وسلم ، والكيد له متخذين لهذا شتى الصور ، وألوان النكايات ، من عدم خضوعهم للكتاب الذى نسخ الله به جميع الكتب ، وعدم اكتراثهم بالرسول الذى جعله سبحانه خاتم الرسل ، يرددون اسم التوراة والإنجيل وغير ذلك من الصحف التى ذهبت معالمها ، والأسفار التى تغيرت حقائقها ، يريدون أن يتحاكموا إليها فى الخصومة ، ويستنيروا بها فى حسم النزاع ، وهى أوهام وترهات ، ودعاوى كاذبات ، وخرافات ما بعدها خرافات ؛ لذلك جاءت « فلا وربك لا يؤمنون » وهى تقصد الى أن إيمانهم مشروط بتحكيمه فيما شجر بينهم ، وألا يكون فى صدورهم حرج من ذلك ، ويسلموا تسليما .

وقد كانت العرب مع بداوتها وبساطتها ، وجفوتها وغلظتها ، تقدس السيادة والسلطان ، وتعتز بالهيل والهيلمان ، ولم يكن هنا لك ما يقضى على كبريائهم ، وَيُخَفف من غلوائهم ، ويطامن من غطرستهم ، إلا أن يتحكم فيهم سواهم ، ويتولى الفصل فيما شجر بينهم غيرهم ، وهو إذا كان من هؤلاء الذين لم يشتهروا بالثراء والنعمة ، والغنى واليسار ، والعزة والجاه ، كان ذلك أدعى إلى النكاية بهم ، والازراء عليهم .

وربما كان سر الإعجاز ، وسحر البلاغة ، إلى جانب كون الآية تهدف إلى غرض اجتماعى نبيل ، ومقصد من مقاصد التربية شريف ، ونظام من نظم الحياة العمرانية ، يجب ألا يغفل توفره فى القدوة من الاحترام والإجلال ، والتعظيم والحفاوة ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإذعان له ، والاستفادة من تعاليمه ، والقبول لما يبشر به من هداية ورحمة — أنها تضمنت معنى الدين كله ، وروح الشريعة جماء ، وليس فى رسالة الرسل ، وتعاليم الأنبياء ، وراء تطبيق ما جاءوا به من

الوحى ، ونزل عليهم من الأحكام ، والتزام ما أمرنا به من التكاليف ، وخضوع هواجسنا وأفكارنا ، وحركاتنا وسكوننا ، وأقوالنا وأعمالنا ، ورضانا وغضبنا ، وفرحنا وسخطنا ، لكل ذلك بحيث لا يكون فينا تململ وقلق ، واضطراب واشمئزاز ، تمتثل بالجوارح دون القلوب ، وتنقاد فى الظاهر دون الباطن ، كأولئك الذين وصفتهم الآية ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، . . أو نجعل همنا فى الجدل والمناقشة ، والبحث والمناظرة ، فما ظهرت حكمة مشروعيته قبلناه على العين والرأس ، وما لم تظهر حكمته رفضناه . . فإن ذلك إلحاد ومروق ، وعصيان وفسوق ، يتنافى مع العبودية التى تستوجب الإذعان والخضوع ، والامتثال والتسليم ، والانقياد والتفويض ...
أما المنفذ الذى نصل منـــه إلى ذلك التكريم للنبى صلى الله عليه وسلم فتلك الإضافات ، وإسناد الفعل إليه ، مع أنه واسطة العقد . . ولعل أبرز نواحى الإعجاز هنا أن الكلمة على قصرها طوت تحتها معانى طويلة ، ولفت آدابا جمة ، وتلك الأمثال نضربها للناس ، .

للشعر سلطان

قال الأديب الكبير صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه : دخلت على أبى العباس القائد فأنشدته :

الله جرد للنـــدى والباس	سيفا فقـــلده أبا العباس
ملك إذا استقبلت غرة وجهه	قبض الرجاء إليك روح الباس
وبه عليك من الحياء سكينة	ومحبة تجرى من الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده	ألقى عليـــه محبـة للنـاس

ثم سألته حاجة فيها بعض الغلظ فتلكأ علىّ ، فأخذت مسحاة من بين يديه فوقعت فيها على البديهة :

ما ضر عنـدك حاجتى ما هزها	عذرا إذا أعطيت نفسك قـدرها
أنظر إلى عرض البلاد وطولها	أو لست أكرم أهلها وأبرها
حاشى لجودك أن يوعر حاجتى	ثقتى بجودك سهلت لى وعرها
لا يجتنى حلو المحامد ماجـــد	حتى يذوق من المطالب مرها



الشيخ على الليثى

المتوفى سنة (١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

شـــعره :

خلف الليثى ديوان شعر ضخما لدى صهره الأستاذ « محمد سعودى أفندى » الخبير ، ولـكنه أبى أن يطبعه لعلم أهله وخاصته بأن الشاعر لعن من يقدم على طبعه . ولعل الليثى فعل ذلك تحرجا من نشر ماعسى أن يكون قد تورط فيه ؛ كشأن أكثر الشعراء ، من دعابة أو غلو فى مديح أو ذم أو نحو ذلك ، فلقد كان فى الرجل تقية وورع ، فهو يخشى حسابه على مانظم ، ولوكانت هذه الثروة الشعرية لشاعر غيره ممن يغريهم المظهر والشهرة ، لجاز أن يحرص على طبع شعره وتدوينه والمفاخرة به .

ولو تهيأ لنـا الاطلاع على هـذا الديوان والتفرس فيما حواه من شعر ، وفيما بين دفتيه من قصائد نظمها فى أغراض مختلفة ، وألوان متنوعة ؛ لاستطعنا أن ندرس شعره دراسة بحث وتقص ؛ ولـكن احتجاب ديوانه ألقى على شعره ستارا كثيفا من الغموض والإبهام ، وجعل الحكم عليه مقرونا بالعناء والجهد ، وذلك مما دفعنا دفعا إلى مراجعة الصحف القديمة والمجلات المعاصرة له ، وتتبع

الكتب الأدبية المختلفة مما عساه أن يضم طرفا من شعره ، وخبرا من خبره ، ونستطيع بعد أن تعبت أناملنا من التصفح والتقليب وبعد العثور على جمهرة من قصائده المتنوعة ؛ أن نحكم على شعره جملة بأنه فى المنزلة الوسطى من منازل الشعراء [1] .

وكان القدر الأعظم من شعره فى المدائح ؛ فلقد اصطفاه اسماعيل ، وأضفى عليه لقب شاعر « الخديو » ولازمه ونادمه ، كما أدناه توفيق وأحله مكانة من نفسه ، وقد دعاه ذلك إلى أن ينظم فيهما مدائحه ملتمساً لها شتى المناسبات ؛ آية على ولائه ، ودليلا على وفائه ، كما مدح المصطفين لهذين الأميرين من ذى جاه أو شفاعة أو حظوة لديهما ، وكان الليثى حريصا فى هذه المدائح وخاصه مالإسماعيل وتوفيق على أن يجودها ويكسوها حلة من الروعة وجمال الشعر ، ولكنه على كل يدور فيها جميعا مع تباين أسبابها على معان متقاربة ، وطريقة متشابهة ، فهو يبدأ بالغزل متأنقاً فى صوغه لينتقل منه إلى مدح الأمير حاشدا من معانيه وألوانه ما شاء له الأسلوب ، وما واتته القريحة ، واستتبع مدحه الأميرين الذى هو ثمرة لصلته بهما وحد بهما عليه أن يقول مهنئا ، أو مواسياً أو معزيا ، فان وفاءه الباعث على على الإطراء والمديح هو نفسه الدافع على قرض الشعر فى كل ما جل أو هان من مختلف المناسبات .

ولقد جهدت فيما تتبعته من الشعر كى أعثر على المنادمة فى شعره ، وأتبين أثر هذا الفن لأرى ما أبدع منه فى نظمه ، فلم يواتنى منه شىء ، فلعلها كانت منادمة مجلس وسمر يصورها حديثا يرويه ، وقصة يسوقها ، ونكتة يرسلها ، ونادرة يفاكه بها ، وبديهة مواتية لا تستلزم الشعر أسلوبا ولا أداة .

نماذج من شعره

مما قاله فى عيد جلوس الخديو عباس الثانى :

خل الملام فقلبى ليس بالسالى	يا عاذلا لج فى لومى لتضلالى
دعنى ووجدى وما ألقاه من وصب	أبيت أرعى الدياجى بائس الحال

(١) المفصل ج ٢ ص ٣٢٩ .

ظننت لومك يثنى قلب ذى شجن … هيهات لومك لم يخطر على بالى
أنا الوفى وقلبى ليس يشغله … عما عليه انطوى تنميق عذال
أرح فؤادك واحذر ما أكابده … أما نظرت إلى سقمى وإعلالى
دمع يسيل وقلب ذاب من كمد … وفكرة شتتها لوعة البال
عدتك حالى لا ذقت الهوى أبداً … ولا رمتك اللواحى فيه بالقال

إلى أن قال :

قد قال لى القلب كم حملتنى نصبا … من الغرام وقد ضاعفت أثقالى
هلا التفت وألزمت اليراع بما … يخف عنى به وجدى وبلبالى
فقلت يا قلب صادفت المراد فذا … عيد الجلوس الخديو المفرد العالى
عباس مصر الذى ضاءت بغرته … أرجاؤها وغدت روضاً لحلال
صفو النفوس بتشريف النفوس بدا … كالبدر يعطى ائتناسا عند إهلال
فادخل بنا فى تهانيه بموسمه … وإن تعاظم فاسلك نهج إجمال

ثم قال :

هذا الأبى الذى أمضت عزائمه … ما أوهن اللب من قول وأفعال
زند الشبيبة يورى رأى مكتهل … منه ويهدى لرشد عند تسآل
فيه لرائيه إيناس ومرحمة … وكم لراجيه منه نور آمال

فهذه أبيات تبتدىء بالغزل على عادة الشعراء ، ثم تنتقل إلى ذكر الممدوح بما شاع المدح به ، وما ألف نظم الإطراء فيه ، وهى وإن كانت أقرب إلى التجويد ، فى نظمها وصوغها ، لا تحمل من روعة الشعر ، والطابع الشخصى ما يسمو بصاحبها إلى مصاف المجيدين :

ومما قاله فى ليلة عرس :

لله ليلات أنس عن سنًى سفرت … وبالمراد إلى أسمى حمى وصلت

كأنها ليلة القدر التى نزلت ... فيها الملائك والدنيا بها ابتهجت

سرت بحسن صفاها مصر وازدهرت ... يا طيب عين بمرآها قد اكتحلت

فما رأى مثلها الرائى فقد شرفت ... فى خير دار بها الأفراح قد رسمت

دار بسدتها الأمجاد واردة ... مثل الظماء فكم علت وكم نهلت

إن شئت قل جنة أو جنة وجنىً ... فيها الغياث وفيها الغيث مذ بنيت

نعم سويداك أو سود العيون بما ... يروح الفكر فاللذات قد حضرت

وارع المثانى وراع العندليب بها ... فيوسف الحسن أعطاها الذى طلبت

إلى أن يقول :

ولا أصرح بالداعى ولى أمل ... يشيده من حلى أوصافه كملت

فاهنأ فهذا القران السعد أرخه ... شمس البهاء بمحمود الصفا اقترنت

٤٠٠ ٣٩ ١٠٠ ٢٠٢ ١١٥١

فهذه مظاهر للحسن والسرور ، والأنس والبهجة حشدها الشاعر حشداً ، ونظمها بصورة تقليدية لا أرى فيها روحا للشعر العذب الرائع ، على أنه عنى فيها بالزخرف والطلاء ، فأشار إلى الاقتباس فى « ليلة القدر التى نزلت فيها الملائكة » وجنس بين « جنة » و « جنى » و « الغياث » و « الغيث » و « سويداك » و « سواد العيون » و « ارع » و « راع » وبذل لذلك شيئاً من جهده وطلبه ، ثم ختم أبياته بالتاريخ الذى فتن به معاصروه والسابقون عليهم ، وحرص عليه هو أيضاً . ومن ولوعه بالمحسنات البديعية ، وتكلفها وسعيه لها ما قاله للشيخ الأنبابى ينفى ماوشى به إليه :

نبئت أنى قد ذكرت بحضرة ... تسمو بكوكب عصره « الإنبابى »

وعذلت أن لم أهد ساحة مجده ... غرر التهانى عذل من أنبا بى

ولقـــد نبا بى عن سمو مقامه ... عز المهابة وازدحام الباب

فغدوت أدعو الله أن يرقى إلى ... أسمى المعالى فى أعز جناب

كيما يعز الدين منه بناصر وتقر عين الشافعى بمهاب
فبمثله الإسلام يظهر نوره وتقوم حجته على المرتاب
لا زال شيخ المسلمين محجبا بمهابة الإعزاز والإرهاب
حتى يقول العلم : سدت مؤرخا بولى الأزهر شيخه « الإنبابى »
سنة ١٣٠٤ ٤٨ ٢٤٤ ٩١٥ ٩٧

فقد كلف بالتجنيس فى قوله « الإنبابى » فأدارها غير مرة ، مما (نبابها) ووضعها موضع القلق ، كما شد الجناس فى قوله « بمهابة » و « الإرهاب » وختم بالتاريخ كدأبه .

ومن أبياته الرقيقة ما قاله حين زارته سائحة أمريكية وهو فى ضيعته « بالصف »

وزائرة زارت على غير موعد غريبة دار تنتحى كل مورد
تبدى لنا وقت الظهيرة نورها ونحن على روض زها بالتورد
من اللاء لم يدخلن مصر لحاجة سوى رؤية الآثار فى كل مشهد
لها فى « أمركا » انتساب ودارها « ببستن » إذ تعزى لمسقط مولد
تحيت وقالت والمترجم بيننا : لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندى
فقلنا ونور البشر أزهر بيننا : على الرحب والإقبال مشكورة اليد
ودارت أحاديث التساؤل بيننا فجاءت بدُر من حديث منضد

إلى أن قال :

عن البحر حدث إذ وردنا وقد غدا بصفو يصافينا فياطيب مورد
سفينتنا تعلو على فلك السما بما حل فيها من شموس وفرقد[1]
هناك مراد العين والسمع والهوى مع العفة العلياء فى كل مقصد
فقمنا وودعنا القلوب فهل درت بما نابنا عند الوداع الممهد[2]

(١) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .

(٢) الممهد : المهيأ .

النبي والشعر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ربه فى أمة شديدة العناد قوية البأس ، عرفت بالصلابة وقوة الشكيمة ، وعنف الخصومة ، وشدة العارضة والحرص على ما ألفت ، والبقاء على ما اعتادت ، والتمادى فى الباطل ، والإصرار على ماهم فيه من عمى القلوب وظلام العقول ، كلما دعاهم إلى فضيلة كذبوا وجحدوا ، وكابروا وعاندوا ، وقالوا « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » .

ولقد أنزل الله على رسوله القرآن المبين ، والعرب إذ ذاك أمراء البيان وأعلام البلاغة ، واللسن المقاول ، الذين اكتملت فطرتهم ونضجت فصاحتهم ودق إحساسهم الأدبى ، وامتلكوا ناصية اللغة امتلاكا عجيبا ، ولكنهم رأوا طرازا من البيان شق عليهم أن يجاروه ، ونحوا من الكلام عز عليهم أن يعارضوه ، فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وتشعبت منهم الأوهام فى كل بيداء ، وأخذتهم الحيرة فى حقيقته ، واستغرقهم التأمل فى طبيعته ؛ قالوا : إنه سحر ساحر أو شعر شاعر أو كهانة كاهن أو أساطير الأولين وذكريات الغابرين . ولكن الله أكذبهم فى زعمهم وخطأهم فى ظنهم وسفههم فى أوهامهم ، وسجل عليهم عجزهم عن إقامة حجة على الرسول ، وقصورهم فى التماس مطعن فيه ، بأنه أمى لا يقرأ الكتب ولا يخط باليمين « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون » .

كذلك كان من تمام الحجة على قريش وكمال البرهان وبالغ التأييد ، أن الله تعالى صرف نبيه عن الشعر وقوله ، فلم يؤثر عنه من لدن طفولته ، ولم يعرف عنه

فى شبابه أو نشأته أنه قال الشعر مستجيباً لخوالج نفسه أو منافحا عن قومه أو مشاركا لشعرائهم فيما تهدر به طبائعهم أو تنتضح به ملكاتهم، مع سمو فطرته وصفاء موهبته، ورسوخ عرقه فى البلاغة.

وتلك حكمة جليلة ليس وراءها حكمة، وتدبير جميل لا يهيئه إلا علام الغيوب، فإن قريشا قد اتهمته بالشعر ليوهنوا من حجته ويغضوا من دعوته ويقللوا لدى الناس من أهميته، حتى ينسبوا ما فى القرآن من جمال النظم وسامى البلاغة وروعة الأسلوب وإشراق البيان الى روعة الشعر وخيال الشعراء « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ».

والله جل شأنه إذ يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم « وما علمناه الشعر وما ينبغى له »، إنما يدحض باطلهم ويسفه أحلامهم ويزرى بآرائهم فيما يظنون، وينفى كذلك عن الرسول ما يتعاطاه الشعراء وما يأخذون فيه من قول يستفز النفس أو انسياق وراء الخيال أو خضوع لنزوات النفس، مما يؤدى إلى كشف عرض أو هتك ستر أو استباحة حرمة ؛ وذلك كله مما ينافى النبوة ولا يلائم ما للرسالة من وقار وهيبة واتجاه صادق الى إصلاح القلوب وتهذيب الألسنة.

ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لما نشأت بغضت الىَّ الأوثان وبغض إلى الشعر، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله ثم لم أعد.

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على أن يبعد عن ميدان الشعر ومنافسات الشعراء، ورغبته القوية أن ينأى بنفسه عن المعترك الذى يصولون فيه، وبالغ تحصينه لطبيعته المتوثبة الشفافة، لا ينشد الشعر ؛ فإذا تمثل أو استشهد فإنه لا يقيم وزن البيت. وقد تعرض له حاجة إلى الإنشاد فيأخذ فى الإنشاد من البيت حتى إذا حاولت الطبيعة عنده أن تستقيم وتعتدل وتأخذ حظها من الرواية لوى بها عن قصدها وصرفها عن وجهتها وقدم أو أخر فى البيت حتى يحطم هيكل الشعر ويصدع كبرياءه أنشد بيت طرفة بن العبد هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وصحته « ويأتيك بالأخبار من لم تزود ».

وقال : «أصدق كلمة قالها لبيد» : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .
ولم يتم البيت :

وأنشد بيت العباس بن مرداس هكذا : أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة . فقال الناس «بين عيينة والأقرع» ، فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم بين الأقرع وعيينة ، ولم يستقم له الوزن . وكثيرا ما كانت تذكره بعض الحادثات ببيت من الشعر ، فلا ينشده ، وإنما يذكر به أصحابه أو يشير إليه .

حدث أن أصاب الناسَ جدب وامتنع نزول المطر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يسقيهم ، فصلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله ، فلم ترتد إليه يداه حتى جادت السماء بماء منهمر . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : يرحم الله أبا طالب ، لو كان حيا لسره من ينشدنا قوله .
فأنشدوه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ولما فتح الله على المسلمين مكة ، ورأى صلى الله عليه وسلم النساء يلطمن الخيل ويضربن وجوههن ، التفت إلى أبي بكر ، وقال : ماذا قال حسان ؟ فقال : يا رسول الله إنه قال :

تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء

فهـــذا واضح صريح في أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم ينشد الشعر أو يقم وزنه .

على أنهم اتفقوا على أن الرسول قد جرى على لسانه من الكلام ، ما عد موافقا لبحر من بحور الشعر وهو الرجز منهوكه ومشطوره .

فالمنهوك كقوله في رواية البراء أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم على بغلة بيضاء يوم أحد وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

والمشطور كقوله صلى الله عليه وسلم في رواية جندب أنه دميت أصبعه فقال

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وهذا لا يقدح فى عصمته من قول الشعر ومنعه منه ، إذ أن اللسان يجرى عفوا بما يمكن أن يعد فى حكم الموزون من غير قصد إلى الوزن ولا رغبة فى إقامته أو اتجاه إلى سلكه فى نظام الشعر .

وأمامنا القرآن الكريم ، وقد نفى الله عنه الشعر وأكد لهم أنه ليس بقول شاعر ؛ قد جاءت فيه آيات اتفق لها الوزن ، ولكنه لم يقصد فيها ولم تطلب إقامته .

فمما جاء فيه متفقا مع الوزن قوله جل شأنه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله تعالى : « وجفان كالجواب وقدور راسيات » فإنهما يوافقان الرمل . الآية الأولى من مجزوء المسبغ ، والثانية من مجزوء الصحيح .

وقوله تعالى « من تزكى فإنما يتزكى لنفسه » من مجزوء الخفيف . وقوله « ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » من الوافر .

وذلك وزن يجيء عرضا فى الكلام من غير ارتصاد له أو احتشاد لإقامته ، وهو يتفق لكل متكلم . ثم الرجز الذى جرى ببعض كلامه صلى الله عليه وسلم موافقا له ليس فى حقيقته شعراً ، وإنما هو سلم وتمهيد للشعر ، ولم يجعله العرب من الشعر إلا أنه كان الأصل فى اهتدائهم إلى الشعر . ثم أخذ فيه الشعراء بعد ذلك وأجروه مُجرى القصيد فجعلته العادة شعرا . أما الحقيقة فهو وزن كأوزان السجع ، يستطيعه كل متكلم من غير كد ذهن ولا إعنات فكر ولا إجهاد طبيعة ، وهو مع ذلك كله لم يتفق للرسول صلى الله عليه وسلم فيه أكثر من بيت واحد ، ولم يتمثل منه كذلك بأكثر من البيت الواحد كإنشاده بيت أمية بن أبى الصلت :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

وإنما كان ذلك فى الرَّجز خاصة دون جميع أوزان الشعر ، لما قدمنا ، ولأن الشطرين منه كالشطر الواحد فى الوزن والقافية ، لا يبين أحدهما من الآخر وبخاصة فى المشطور والمنهوك .

يقول الأستاذ الرافعى « والذى عندنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنع إقامة وزن الشعر فى إنشاده إلا لأنه منع من إنشائه ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه فطرته القوية ، فمر فى الإنشاء وخرج بذلك لامحالة إلى القول والاتساع

وإلى أن يكون شاعرا، ولو كان شاعرا لذهب مذاهب العرب التى تبعث عليها طبيعة أرضهم، ولتكلف لها ونافس فيها، ثم لجاراهم فى ذلك إلى غايته حتى لايكون دونهم فيما تستوقد له الحمية، وما هو من طبع المنافسة والمغالبة. وهذا أمر يدفع بعضه إلى بعض، ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة وعما هو أزكى بالنبوة وأشبه بفضائل القرآن، ولذلك قال تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين».

على أنا نحب هنا أن نقرر أمراً لا بد من تقريره وإبانته حتى لا يلتبس علينا أمر بأمر، ولا يشتبه صبح بليل: ذلك أن امتناع النبي صلى الله عليه وسلم، أو منعه من الشعر، لم يكن تهجينا لشأنه، ولا تحقيراً لأمره، ولا إزراء برسالته، وإنما لما بينا سابقاً من الأسرار، وفيما عدا ذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم الشعر وقال: «إن من الشعر لحكمة»، وقد سمعه وأثاب عليه، ورخص فى سماعه وروايته؛ بل كان له شعراء ينافحون عن دعوته ويذودون عن حوضه ويحامون عن رسالته، وهو القائل للأنصار: مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم. وكان يقول لحسان، وهو يهجو المشركين: «قل وروح القدس معك، فإن شعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام».

ولقد جاءه كعب بن زهير بعد أن أساء واستعطفه بقصيدته «بانت سعاد» التى يقول فيها:

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا عنه وخلع عليه بردته.

وكان يستمع إلى الخنساء ويستزيدها من شعرها بقوله: هيه ياخناس!.

وسمع شعر قتيلة أخت النضر بن الحارث الذى قتله؛ سمع قولها:

ما كان ضرك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنضر أقرب من قتلتَ قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال: لو سمعت هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه. وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعرف للشعر حقه، ويقدر له ما يؤدى من رسالة كريمة، وما يتجه إليه من غاية شريفة.

الصنع البديعي في مدرسة السكاكي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

صلة البديع بالبلاغة عند السكاكي :

للسكاكي صنيع لم يسبق إليه في تاريخ التأليف من حيث إقامة الحواجز الفاصلة بين العلوم التي اشتمل عليها المفتاح ، فقد عرض للفروق بين هذه العلوم جميعاً في مقدمة كتابه ، قال بعد أن أشار إلى اشتمال الكتاب على ثلاثة أقسام : « والذي اقتضى عندي هذا هو أن الغرض الأقوم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب ، وأردت أن أحصل هذا الغرض ، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها ، لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة الأنواع مذيّلة بأنواع أخر مما لا بد من معرفته في غرضك لتقف عليه ، ثم الاستعمال بيدك ، وإنما أغنت هذه : لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة : المفرد ، والتأليف ، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له ، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم . فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير .

« ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو حكم المفرد والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه ، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف ، لا جرم أنا قدمنا البعض على البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتبا استحقه طبعا [1] » على هذا النحو من الضبط ، وعلى تلك الطريقة من التمييز والفصل ، مضى السكاكي في تأليفه ، فاستحلى مذاقها المتأخرون حتى كان ما كان مما أنت به خبير !

---

(١) مفتاح العلوم ٣ .

أما القسم الثالث الذى اشتمل على علمى المعانى والبيان ، فقد رتبه على مقدمة لبيان حدى العلمين والغرض منهما وفصلين لضبط معاقدهما والكلام على مسائلهما . والسكاكى أول من أطلق اسم « علم المعانى » على المباحث الخاصة التى بحثها فيه ، ولا يخدش هذه الأولية ما نرجحه من أنه اقتبس ذلك الاسم من تعريف النظم وشرح الغرض منه عند عبد القاهر ، وكذلك كان السكاكى أول من أطلق على مباحث : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، اسم « علم البيان »[1]

بل هو أول من فرق بين مباحث هذين العلمين على هذا الوجه من الضبط والتحديد ، وأول من حكم على علم البيان بأنه متنزل من علم المعانى منزلة المركب من المفرد ، فينبغى أن يتأخر علم البيان عن علم المعانى .

وقد عرف السكاكى البلاغة بقوله : « هى[2] بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، على وجهها » ، ثم أشار إلى طرفيها الأعلى والأسفل ، وإلى ما بينهما من مراتب متفاوتة ، ثم نوّع الفصاحة إلى نوعين : نوع راجع إلى المعنى ونوع راجع إلى اللفظ ، ثم خلص من ذلك قال[3] : « وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها ، مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها ، لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها ، وهى قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ » ثم مضى فى سوق ما تيسر له سوقه من النوعين مما تجده قارا فى موطنه من كتابه ، وليس له فيها من جديد سوى إطلاق اسم « سوق المعلوم مساق غيره » على ما كان يعرف عند المتقدمين باسم « تجاهل العارف » ، وكأنه لم يحب أن يطلق عليه اسم تجاهل العارف لوروده فى القرآن الكريم ، ثم تراه بعد ذلك يسير سيرته من الإيجاز ، والاكتفاء بتحديد الألوان ، وإردافها بمثال واحد ، أو مثالين دون أن يشير كما أشار عبد القاهر أو أبو هلال مثلا إلى أسرار الأساليب والكشف عن جمالها وروعتها ، وكذلك تراه بعد أن فرغ من سرد القسم اللفظى يذيله بقوله :

---

(١) وهذا لاينافى ما جاء فى مقدمة الكشاف للزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ حيث صرح بما يفيد أن المعانى علم ، والبيان علم آخر . إذ أن ذلك كان على عرف المتقدمين الذين لم يقيموا بينهما مثل هذه الحواجز . كما فعل السكاكى .

(٢) مفتاح العلوم - ١٧٥

(٣) مفتاح العلوم - ١٧٩

« وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى ، لا أن تكون المعانى لها توابع ، أعنى ألا تكون متكلفة ، ثم قال : ويورد الأصحاب هاهنا أنواعا مثل كون الحروف منقوطة ، أو غير منقوطة ، أو البعض منقوطا ، أو البعض غير منقوط بالسوية ، فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت » .

على هذا النحو الذى رأيت عرض السكاكى للبديع وقسم ألوانه إلى قسمين : معنوى ولفظى ، وهو مسبوق بهذا التقسيم وبتلك الألوان كما أسلفنا ، وليس له من جديد إلا ما حدثناك عنه مما ليس له كبير خطر فى جوهر العلم ولبابه ، وقد نال البديع من طريقة السكاكى فى القسم الثالث هذا السرد القائم على الاكتفاء بتعديد الألوان ، وتحديدها وإزجائها بمثال أو مثالين مجانبا طريق سلفه ممن جمعوا بين البحث العلمى ، وحسن العرض الأدبى فى البديع .

إلا أننا نلحظ هاهنا أن السكاكى ـ وقد فصل بين علمى المعانى والبيان وأطلق عليهما هذين الاسمين ـ لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين : بل على أنها تشارك مسائلهما فى تزيين الكلام بأبهى الحلل ، والوصول به إلى أعلى درجات التحسين ، ولم يشر السكاكى إلى أن هناك فرقا بين هذه الألوان وبين غيرها من مباحث هذين العلمين ؛ بل تراه يذكر ضمن هذه المحسنات الالتفات ، والإيجاز ، والأطناب ، وينبه القارىء إلى أن هذه الألوان ، قد سلف الحديث عنها فى علم المعانى .

ونظرة إلى تحديد السكاكى لهذين العلمين تقفنا على مبلغ عذره فى هذا الصنيع ، فقد عرف المعانى بقوله : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره [1] » .

ثم عرف البيان بقوله : « هو معرفة إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه » [2] ثم حصر علم المعانى فى مسائله التى عرض لها ، وكذلك علم البيان ، فهذا الحصر بعد ذاك التحديد للعلمين جعل هذه

---

(١) مفتاح العلوم ٧٠ (٢) مفتاح العلوم ثمرة ٧٠

المحسنات البديعية لا تندرج ضمن مسائل العلمين : ولما كان تعريفه البلاغة بقوله : « هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » شاملا لهذه المحسنات جعلها متضافرة مع مسائل العلمين فى البلوغ بالكلام إلى أعلى درجات التحسين والتزيين . فكأن السكاكى يشير بهذا الصنيع إلى أن من هذه المحسنات ما يمكن رجوعه إلى علم المعانى كالطباق ونحوه ، على أنه قسم آخر منه راجع إلى الجملة من حيث هى جملة ، وليس راجعا إلى أجزائها كما هو الشأن فى جمهور مباحث المعانى ، ومنها ما يمكن أن يسلك فى عقد البيان كالمشاكلة ونحوها ، وإن كانت هناك فوارق يسيرة ليست فى الصميم من السهل إزالتها أو غض النظر عنها .

ولقائل أن يقول : إن السكاكى بعد أن انتهى من علمى المعانى والبيان ، عرض لتعريف البلاغة والفصاحة ، وهاتان من قبيل المقدمات لهذين العلمين ، ولا ينفى عنهما هذا الاسم تأخير السكاكى لهما ووضعهما فى ذيلهما ، ثم ضم إليهما هذه المحسنات كما ترى ، وهذا الصنيع يشير إلى أن المحسنات البديعية من قبيل المقدمات التى لا بد منها لطالب علمى المعانى والبيان ، فهلاّ اعتبرتها كذلك ؟

وأنا أقول : إن هذا احتمال قريب الخطور ، سهل المأخذ من صنيع السكاكى ، ولا مانع عندى من جعلها من قبيل المقدمات التى لا بد منها فى البلاغة ، أو توزيعها على مسائل العلمين ، ذلك ما سنكشف عنه فى القسم الثانى من هذا البحث بمشيئة الله تعالى .

هذا وقد لقى كتاب المفتاح ــ ولا سيما القسم الثالث منه ــ عناية لم يسبقه إليها كتاب من كتب البلاغة ؛ قال ابن خلدون فى أثناء حديثه عن علم البيان : « ثم لم تزل[1] مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى بالمفتاح فى النحو والتصريف والبيان[2] فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذ

---

[١] مقدمة ابن خلدون ٥٥٢ :

[٢] المراد به ما يشمل المعانى والبيان على بعض الاصطلاحات .

المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هى المتداولة لهذا العهد ؛ كما فعله السكاكى فى كتاب « التبيين » وابن مالك فى كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزوينى فى كتاب « الإيضاح » والتلخيص » ، وهو أصغر حجما من الإيضاح ، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم منه أكثر من غيره » .

وكما كان السكاكى أول الجناة المسرفين على علم البلاغة بإخضاعه للعلوم العقلية ، فأضاع بهجته ، وأخلق ديباجته ، كان أول الجناة عليه بإلجائه إلى مضايق الاختصار ، ووسمه بميسم التعمية والإلغاز ؛ ذلك أنه عمد إلى القسم الثالث فاختصره فى كتاب دعاه « التبيان » ففتح بذلك باب الاختصار لمن بعده ؛ كما فتح باب التحشية كما أسلفنا فى الكلمة السابقة ، حتى وصلت البلاغة إلى هذا الحد الذى يثير الضحك ، ويبعث على التندر . ومرد ذلك كله إلى من أوردها تلك الموارد وهو السكاكى .

وإذا كان القسم الثالث قد استنفد هذه الجهود فى الاختصار ، فقد استنفد أخرى فى نظمه ، وأخرى فى شرحه . وقد أحصى صاحب كشف الظنون عدداً وافراً من المؤلفات يمثل هذه الطوائف الثلاث .

وبعد : فبالقسم الثالث من المفتاح تنقطع الصلة بين المتقدمين الذين غلبت عليهم الصبغة الأدبية ، وبين المتأخرين الذين غلبت عليهم الصبغة النظرية ، وتمضى البلاغة مثقلة بأعباء المنطق والفلسفة ، والكلام ، وفى ذيلها البديع فى طريق الاختصار المخل الذى لا يشبع نهمة ولا يبل أواماً ولا يربى ذوقا ، أو فى طريق الشرح السخيف ، أو التحشية الرديئة ، أو التقرير الممل ، وما إلى ذلك مما أبعدها عن موارد الصفو ، وأوردها مواطن الكدر ، وبقى الأمر كذلك منذ أوائل القرن السابع الهجرى إلى يومنا هذا ، حتى مرنت الأذهان على العجمة ، وأصبح من آية الحذق والتمهر احراز قصب السبق فى تحصيل تلك الطرائق . فإن صاح صائح فى رواد هذه الموارد العقيم : أن ارجعوا بالبلاغة إلى عهود الصفو والإشراق ، وجانبوا عهود الكدر والإظلام ؛ حتى تتربى أذواقكم وتنضج سلائقكم ، رموه بالأفن وحكموا عليه بالزيغ وسلكوه فى نظام الملاحدة . نقول ذلك والشواهد على ما نقول ماثلة حاضرة .

موضوع علم الأخلاق

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يقول « بارتلمى سانتهلير » فى مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطوطاليس :
« ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب بعينه ، مهما أجيدت ومهما بلغت من الحق ، ولكن من الأفعال ما هو مقر عليه عند جميع الناس ، وبين أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادىء مسلمة عند الجميع ، وتقع على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها فى أغلب الأحيان .

« فالبحث عن هذه المبادىء وترتيبها واستنباطها ، وتبين كل حقيقتها وكل أهميتها العملية ، وبيان الواجبات التى توجبها على الإنسان بجميع النتائج التى تترتب عليها . هذا هو موضوع علم الأخلاق ، انتهى كلامه .

فما هى هذه المبادىء العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتى تقع أفعال الإنسان على مقتضاها ، من حيث لا يشعر الفاعل لها فى غالب الأحيان ، والتى يدور عليها علم الأخلاق ؟

أهى السنن الكونية الطبيعية ؛ كسنن الجاذبية ، والنور ، والحرارة ؟

كلا ، فهذه السنن الطبيعية ، وإن كانت عامة ثابتة ، ومسلمة عند جميع الناس ، إلا أنها خارجة عن إرادتنا ، فليس فى وسع إنسان أن يبدل الصيف بالشتاء ، ولا أن يمنع الشمس من الشروق ، ولا الحديد من أن يتمدد بالحرارة ، ولا أن يجعل التفاحة حين تنفصل من الشجرة ترتفع إلى أعلى بدل أن تسقط إلى أسفل ، فما هى إذاً ؟

أهى هذه السنن الاجتماعية التى فرضتها على الدولة لمصلحة المواطنين ، تنظم بها علاقات الناس المشتركة المتبادلة بينهم فى هذه الحياة ؟

كلا . فهذه السنن وإن تعلقت إرادتنا بها ، إلا أنها غير عامة ولا ثابتة ، بل هي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهي في بلاد غيرها في الأخرى ، وهي اليوم غيرها بالأمس .

إذاً ، فما هي هذه المبادىء العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتي تقع أفعالنا على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان ؟

هذه المبادى التي يدور عليها علم الأخلاق هي شريعة الحق والواجب ، وهي شريعة عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان . فالحق واحد لا يختلف فيه اثنان ، وإن حصل خلاف بين الناس ، فإنما هو خلاف في فهم الحق لا في الحق ذاته ، تبعاً لاختلاف الناس في العقلية والذكاء ، والظروف المحيطة بهم في هذه الحياة ، ومعنى كونها عامة ، أنها موجودة في كل الضمائر ، وإن اختلفت قوة وضعفاً .

ومعنى كونها ثابتة : أنها غير متغيرة ، بل هي صالحة لكل زمان ومكان .

وهذا المبدأ ، أو هذه الشريعة ، أو هذا القانون الأخلاقي ليس من وضعنا بل هو قانون يناجي عقولنا ولكنه ليس إيمانا . ونحن لا نستطيع أن ننكره ، ولا أن نلزمه الصمت ، ولكننا نستطيع أن نخالف نصائحه القوية الحقة ما دامت لنا إرادة حرة . ومن هنا نشأت مسئولية الإنسان أمام القدير الصانع لهذا القانون .

ولما كانت اللغة سابقة على علم النحو ، كذلك موضوع علم الأخلاق كان قبل أن يبحث فيه علم الأخلاق ، جاء هذا العلم فاجتهد في استنباط قواعد يهتدي بها الإنسان في أفعاله وأقواله . وأول من حاول ذلك هو سقراط [1] الذي يعتبره

---

[1] ولد سقراط في أثينا حول سنة « ٤٧٠ » ق م من أب يحترف صناعة التماثيل وأم قابلة . احترف حرفة أبيه ، ولبث يزاولها حينا قصيراً قيل إنه صنع خلاله مجموعة ضئيلة من التماثيل عرضت فيا بعد في « الأكروبوليس » بأثينا ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التي أعتبرها رسالته في الحياة وكان يعيش في أثينا ، ولبث فيها ولم يغادرها قط إلا حين اضطرته ظروف الحياة أن ينخرط في سلك الجيش ، وظل مشتغلا بالفلسفة حتى أتهم في سن السبعين بانكار آلهة اليونان والدعوة إلى آلهة جديدة وأنه يفسد عقول الشبان فحكم عليه بالاعدام فأعدم . وكان يعلن أنه لا يعرف شيئاً . وليس حكيا ولكنه فيلسوف « محب للحكمة » وكثيراً ما كان يقول : « أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أني لا أعرف شيئاً » .

الجميع واضع علم الأخلاق ، فحاول أن يكشف لجيله ما حاول جميع الأخلاقيين من بعده أن يكشفوه لأجيالهم ، أعنى : المبادىء الخلقية العامة المسلم بصحتها .

فعلم الأخلاق إذاً يوضح لنا الحياة الأخلاقية التى تحياها الروح فى عالمها . ولقد وصف أفلاطون حياة الروح فى جهادها قال : « فلنتصور أن كل واحد منا هو ماكينة حية خارجة من يد الآلهة ، فالشهوات التى نحسها هى كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته ، وبتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة .

وهذا هو ما يقرر الفرق بين الفضيلة والرذيلة . ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا ألا نطاوع إلا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديداً كل ما عداه من الخيوط الأخرى ، ذلك هو خيط الذهب المقدس : ضبط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبغى أن يكون الحكم للعقل ما دام أنه هو محل الحكمة ، وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها . ولا ينبغى البتة أن يصغى المرء فى نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن صوت العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب أنفسنا .

ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف ، أو بالثروة ، أو بالجاه والسلطان ذلك ليس إلا نقصاً فيما يجب من تشريف ما فى نفسه من الجهة القدسيه ، وتفريطاً منه فى إكرام نفسه . فإن إكرامها الحقيقى ينحصر فى الدأب على تنمية الفضيلة فيها ، وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذى يجعلها تجبن عن احتمال المشقات الضرورية ، ومن الجزع حتى عند لقاء الموت بل حمايتها أيضاً من جواذب الجميل ؛ فإن الجميل لا ينبغى أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ما على سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة ، وإن المرء إذا لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان مورداً نفسه ذلك الكائن القدسى موارد العار والاحتقار .

وحيث إن الحياة الأخلاقية تنحصر فى الدأب على تنمية الفضيلة ، وإن الانسان يستطيع أن يخالف أوامر العقل المستقيم ما دامت له إرادة حرة ، فموضوع علم الأخلاق إذاً هو أفعال الإنسان الإرادية أو الأفعال التى لم تتعلق إرادة الإنسان بها ، ولكنها نشأت عن سوء التقدير كمن يحفر حفرة فى الطريق وينسى أن يضع عليها علامة تحذر الناس من الخطر ، فإنه مسئول عما ينجم عنها من أذى . يبحث

علم الأخلاق فى هذه الأعمال وما يتصل ويترتب عليها من ثواب أو عقاب ، فأعمال الإنسان كلها ، عمومية كانت أو خصوصية تدخل فى دائرة علم الأخلاق مادامت له إرادة حرة ولم يسيء التقدير فى شيء ؛ ولهذا لا يسأل الإنسان عن جماله أو بشاعته أو ذكائه أو غباوته ؛ كما لا يسأل عن فعل ليس له فيه اختيار ومن هنا نفهم الحكمة فى أن الشريعة الإسلامية لا تسأل الصبى غير المميز ولا المجنون لرفع التكليف عنهما « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وإذا كان علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعا هو أعمال الإنسان الإرادية وما يتصل بها ، لا الأعمال التى لم تتعلق إرادة الإنسان بها ولكنها نشأت من سوء التقدير ، فهل يتخذ لنفسه أيضا من موضوعاته وساوس النفس على معنى أن الإنسان إذا وقع فى نفسه شيء ولم تعمل به جوارحه فهل يحاسب عليه أو لا ؟

اتفق العلماء على أن الأمور التى تخطر بالبال مما يكرهها الإنسان ولا يمكنه إزالتها عن النفس لا يؤخذ بها ، لأنها تجرى مجرى تكليف ما لا يطاق . وأما الخواطر التى يوطن الإنسان نفسه عليها ، ويعزم على إدخالها فى الوجود فقد قيل : إنه يؤاخذ بها لقوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع وأنه من أفعال القلوب . وقيل : إن كل ما كان فى القلب مما لا يدخل فى العمل فإنه محل العفو ، لما روى أنه صلوات الله عليه قال بعد نزول قوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » : إن الله تجاوز لأمتى ما حدثوا به أنفسهم مالم يعملوا أو يتكلموا .

نعم ظاهر قول الكتاب العزيز : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ، ظاهره يدل على أن الانسان يسأل عما يقع فى نفسه ولم تعمل به جوارحه . ومن يرى هذا الظاهر يقول : بأن هذه الآية قد نسخت بقوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، ومن لا يراه يفسر الإبداء بإظهار العمل ، والإخفاء بعمله خفية ، وعلى ذلك فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

« وبعد » ، فيرى بعض علماء الأخلاق أن سرعة أهل هذا العصر فى هدم الأخلاق أكبر من سرعتهم فى تحصيلها ، وإذا كان الأمر كذلك فأنجع دواء لذلك هو ضبط النفس ، فضبط النفس معناه ثبات الأخلاق وتمكنها .

هدى الإسلام في الزواج

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

> عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل . قال جابر : فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها ، حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها فتزوجتها . رواه أحمد وأبو داود .

عم البلاد شر مستطير ، وداء خطير تفشى بيننا ، وملأ السهل والحزن ، حتى شمل الناس جميعاً إلا من عصم الله ، فلا تكاد تجد مكانا بمنأى عن هذا الوباء ، ولا بلدا بنجوة منه ؛ ذلك ما يدعونه « بالخاطبة » ، وهى امرأة اتخذت لها من التزويج لمن يريد الزواج مهنة ، ومن الجمع بين الشبان والشابات باسم الخطبة حرفة ، نظير أجر معين من الطرفين ، وما يغدقانه عليها من هدايا وتحف ، مع أنه كان جديراً ألا يوثق بما تبديه من خبر ، ولا بما تدعيه من معرفة ، وما تخترعه من أوصاف ، وماتحيكه من أباطيل ، فإنها لاترعى فى ذلك مصلحة حقة ، ولا ترقب ضميرا ، ولا يهمها غير ما تدره عليها هذه الحرفة من ربح ، أو ما تجنيه من ورائها من أجر .

فكل فتاة عندها كريمة المحتد ، سليلة المجد ، ربيبة الشرف ، عنها يؤخذ الخلق الكريم ، والأدب القويم ، وعندها تغض العيون ، وتخشع الأبصار إجلالا وهيبة ، بل إن اللسان ليعجز عن أن يعبر عما حوته من جمال ، وما اشتملت عليه من محاسن الشيم ، وجميل الصفات ؛ وكل فتى عندها إليه تنتهى المروءة والكرم ، والشجاعة والعزة والرجولة والشهامة ، والإباءة والشمم ، وإنه ليحمل أخلاق

الملائكة ، وطهارة القديسين ، وإنه لصفوة الخلق ونادرة الفلك ، هذا حديثها لكل خاطب وخاطبة ، وما صدقت فى الأولى ، ولقد كذبت فى الثانية .

فإذا وقعت الواقعة ، وتكشف الأمر أو الخطب ، وبدت الحقيقة لذى عينين واضحة جلية ، لا زيف عليها ولا غبار حولها من زخرف القول ونسج الخيال ، هنا يستبين كذب ما اختلقته من صفات ، وما اخترعته من نعوت ومميزات ، وما وقر فى الأسماع من الأمانى العذاب ، وما استقر فى الأفئدة والقلوب من حلو الآمال ومعسول الأحلام .

هذه الخاطبة التى لا خلاق يزجرها ، ولا دين يردعها ، إنما تغرر بشبابنا وتلحق أشد الضرر بفتياتنا ، وتمهد بذلك لبناء أسرة تموت فى مهدها ، وتحفر بيدها قبرها ، وتبنى لحدها ، مخلفة وراءها المشاكل والإحن والضغائن والأحقاد ، تاركة ثمرة هذا الزواج تعج بهم الشوارع والطرقات حفاة عراة ، يتداخلون كخراف القطيع إذا عصفت بها الريح أو قسى البرد .

وكثيرا ما تتخذ من بيتها مكان لقاء ، وعش غرام ووكر هيام ومهد فتنة ؛ حيث يلتقى الخطيبان ، ويتردد المحبان ، وتتناجى ظامئة وعطشان : كريمة العنصر وابن المجد المؤثل ، وعندئذ كم تقع من مآسى وتحدث من فواجع تفضح الأسر ، وتهتك الأعراض ، وتمزق الحرمات .

إن الويل أشنع الويل لمن يسمح لمثل هذه المحترفة أن تدخل بيته ؛ فإنها هادمته لا محالة بما تشيعه فيه من فساد ، وما تجره عليه من أحداث ونكبات ، وها نحن أولاء نرى أنه ما من زواج تم على هذه الطريقة إلا وكانت نهايته المحتومة الطلاق أو الفراق ؛ ذلك أنه لم يقم على أسس سليمة ، ومعرفة تامة ووفاق ووئام ، وتكافؤ بين الزوجين من الناحية الخلقية والاجتماعية والمادية والمعنوية .

وهكذا كل بناء يقوم على غير ما شرع الله ، فإن مآله الزوال السريع ، والبوار ولو بعد حين ، وإنها بهذا لا تسىء إلى الزجين فحسب ، وإنما تسىء إلى الأمة كافة وتهدم بناءها ، وتثل نظامها ، وتنشر فيها أقبح الأمراض الاجتماعية ،

وأشدها فتكا ، وأمضها إيلاما ؛ إنها من غير شك ولا ريب لا تقترف جناية ضد فرد أو أسرة ، وإنما تعم جنايتها على الأمة والوطن ، وما كان أغنانا أن نقع فريسة لأمثال هؤلاء المحترفات المضلات ؛ فإن الإسلام دين السماحة والحرية والمرونة ، قد بين السبيل القويم والطريق المستقيم ، وما فرط فى شىء ، ولا أغفل أمرا ، فإنه إذ يجيز لك أن تبعث من تثق بخبرها ، ليستطلع ما هنالك مما لم تكن تعلمه ، وما قد تكون عليه المخطوبة من جمال أو دمامة أو نحو ذلك ؛ روى أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث أم سليم إلى امرأة فقال : أنظرى إلى عرقوبيها وشمى معاطفها [١] — وفى رواية — وشمى عوارضها — يبيح أن يرى الخاطب من ألقى الله فى قلبه أن يخطبها ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : فاذهب فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً [٢] ؛ أخرجه مسلم فى صحيحه .

وروى عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أنه خطب امرأة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما [٣] . رواه الخمسة إلا أبا داود .

وروى عن موسى بن عبد الله عن أبى حميد أو حميدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر منها ، إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة ، وإن كانت لا تعلم .

فقد دلت هذه الآثار دلالة واضحة على أنه يندب تقديم النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها وهو قول جماهير العلماء ، والمفهوم أن النظر إليها إنما يكون بحضور محرم منها ، وإلا فالخلوة بالأجنبية محظورة ومحرمة ، كما أن النظر إليها محظور كذلك إلا فى مثل هذه الحالة ؛ لما ورد فيها مما ذكرناه من أحاديث .

---

(١) المعاطف ناحيتا العنق ، والعوارض الأسنان التى فى عرض الفم وهى ما بين الثنايا والأضراس واحدها عارض والمراد اختبار رائحة النكهة .

(٢) قيل عمش وقيل صغر .

(٣) أى تحصل الموافقة والملاءمة بينكما .

والقدر الذى ينظر إليه الوجه والكفان؛ لأنه برؤية الوجه يستدل على الجمال أو ضده، وباليدين على خصوبة البدن أو عدمها. وقال الأوزاعى: ينظر إلى مواضع اللحم. والحديث مطلق فينظر إلى ما يحصل له المقصود بالنظر إليه، ويدل على فهم الصحابة لذلك ما رواه عبد الرازق، وسعيد بن منصور: أن عمر خطب إلى على ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها فقال: أبعث بها إليك فإن رضيت فهى امرأتك فأرسل بها إليه، فكشف عن ساقها، فقالت: «لولا إنك أمير المؤمنين لصككت عينك[1]».

ولا يشترط رضا المرأة بذلك النظر، بل له ان يفعل ذلك على غفلة منها كما فعله جابر «فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها فتزوجتها» قال أصحاب الشافعى: ينبغى أن يكون نظره إليها قبل الخطبة حتى إن كرهها تركها من غير إيذاء بخلافه بعد الخطبة، ويثبت مثل هذا الحكم للمرأة فإن لها أن تنظر إلى خاطبها؛ فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها.

هذا هو موقف الإسلام من هذه المسألة الشائكة، وتلك تعاليمه الرشيدة، وسننه الواضحة ترسم السبل الصحيحة لاختيار الزوجة التى تتناسب مع الزوج من شتى نواحيها، ثم تمنح هذا الحق نفسه للزوجة حتى تقوم الحياة بينهما على أتم وفاق وأهدى سبيل لا إفراط ولا تفريط؛ فهو يشخص الداء ويمنح الدواء، أما مانحن عليه اليوم، أو ما عليه أغلب الناس من ترك الأمر فى مثل هذه المسألة الخطيرة إلى رأى امرأة تاجرة، أو لعلها فاجرة، أو أن يترك الشاب والشابة يذهبان أنى يشاءان بحجة الخطبة والاختيار — فهو عبث واضطراب وإتباع لخطوات الشيطان وإغضاب لله وخروج على سنة رسول الله، هذا هو الهدى، وماذا بعد الهدى غير الضلال.

---

(١) نيل الأوطار ج ٦، ص: ٩٥.



تدمير أورشليم *

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب والصحافة

تعانى مدينة القدس الآن أزمة حادة ؛ إذ يحاول اليهود اغتصابها من العرب لتكون عاصمة لدولتهم الزائلة ، وسبق لهم أن سلطوا عليها مدافعهم ونيرانهم ، فأصلوها من عدوانهم ألواناً ، وليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ ، فإن القدس [أو أورشليم] طالما قاست من نير تعصبهم . وهذه صورة قديمة أهديها لجيشنا الباسل

نحن الآن في العام السادس والستين الميلادى ، وقد انقضى على رفع المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — حوالى ست وثلاثون عاماً ، قد تنقص قليلا أو تزيد قليلا ، ومسرح الحوادث هي أرض فلسطين ، تلك الأرض الدامية التى شهدت منذ فجر التاريخ أروع الحوادث وأمرها ، وأملأها دماً ، وأكثرها قسوة ، ومكاننا بالتحديد هو أورشليم أو بيت المقدس .

كان الرومان — إذ ذاك — هم سادة العالم ، وهم بالتالى سادة بلاد الشام وحكامها ، وكان سكان فلسطين من اليهود — وهم قوم متعصبون لا يقبلون نظاماً — قد ثاروا في أورشليم وأخرجوا منها حاميتها الرومانية المكونة من الفياق العاشر ، ورجاله من مضايق صقلية ، امتازوا بالشجاعة وعرفوا بالجسارة . ورأى الإمبراطور أن يلقن هؤلاء الحمقى درساً يرد إليهم عقولهم ، ويكون عبرة لغيرهم من المحكومين ، فجهز جيشاً أمّر عليه فسباشيان [ومعه ابنه طيطس] ، فانحدر على فلسطين كالسيل العرم ، يقود جيشاً من أقوى الجيوش التى أعدها الرومان .

(*) عن هـ . ف . مورتون : خطى المسيح : الطبعة الثالثة عشر — نيويورك ١٩٤٥ ؛ من ص ٢٤ — ٣٨ ، الفصل السادس من الباب الأول .

وكانت أول معركة خاضها عند « الجليل » ، التى تطل على بحيرة ساحرة المنظر ، فأحال مياهها الزرقاء الصافية ، حمراء قانية من كثرة ما سكب فيها من دماء اليهود ، الذين ترددت صيحاتهم وأناتهم على سفوح التلال وهم يولون الأدبار ، أو يسقطون صرعى الحراب وقتلى السيوف ، على هذه السفوح التى طالما استمعت إلى خطب المسيح وأقواله . وأسر الرومان من اليهود ستة آلاف من خيرة شبابهم أرسلوهم عبيدا جثيا تحت أقدام قيصر .

وتطورت الحوادث — آنئذ — فى روما نفسها ، فقتل الأمبراطور «نيرون» ، واثنان غيره ، ثم نودى بقائدنا فسباشيان امبراطورا فى قيصرية ، فترك فلسطين متجها نحو روما ، تاركا وراءه ابنه طيطس ليضطلع بمهمة إخضاع اليهود وإذلالهم .

كان طيطس فى الثلاثين من عمره حينما وقف - سنة سبعين ميلادية - أمام أسوار أورشليم على رأس جيش يتراوح عدده بين ستين وثمانين ألفا من الجنود الأشداء ، وبدأت المدينة تقاسى أهوال الحصار ، وتعانى فى الوقت ذاته هولا أكبر ، هو هول الحرب الأهلية ؛ فقد احتل المتعصبون والمتطرفون ورجال العصابات من اليهود بعض أحياء المدينة ، وأخذوا يشنون هجمات وحشية على أحيائها الأخرى ، حتى جرت الدماء فى الطرقات ، ولم يكن فى المدينة غير اليهود ، فإن المسيحيين ، وقد علموا بنبوءة نبيهم قبل أربعين عاما هجروا أورشليم ، إلى إحدى ضواحى «الجليل» ، كانت تدعى «بيلا» ، وهى الآن «خربة الفحل» .

وصمد اليهود للحصار ، ورفضوا الإذعان ، تحت إرهاب المتعصبين منهم ، وسرت المجاعة فيهم سريان النار فى الهشيم ، فقاسوا منها أهوالا ، وأخذوا يقذفون بالمئات ممن ماتوا جوعا من فوق أسوار المدينة حتى ملّوا ، فكدسوا الجثث فى القاعات وداخل المنازل الكبيرة ، وتسلل كثيرون خلال الأسوار فى ظلام الليل ، فكان الرومان يصلبونهم ، بمعدل خمسمائة شخص فى اليوم حتى ندرت الأخشاب ، وبدت التلال موحشة من منظر الصلبان الخشبية المحملة بالجثث .

واشتد الجوع فى القدس ، فكان اليهود يخرجون ، متسللين على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة ، تسبقهم الشائعات بأنهم ابتلعوا ذهبهم فى بطونهم —

وكأنما ابتلعوا لعنة وعذابا — فكان الجنود يتربصون لهم ، ويتصيدونهم فى الظلام يشقون بطونهم ابتغاء الذهب ، فقتلوا فى ليلة واحدة ، بهذه الطريقة البشعة ألفين ، وهال الأمر القائد - فقضى بالموت على كل من تثبت أدانته بمثل هـذه الجريمة ، وعلى الرغم من ذلك ، ظـل الجنود يمـارسون هـذه الهواية بحثاً عن الذهب فى أحشاء اليهود .

وتغيرت معالم المكان وتبدلت ، حتى كتب « جوزيفوس » - المؤرخ اليهودى المعروف - وكان أسيرا لدى الرومان ، يقول « لم يكن أى أجنبى ممن - رأوا يهودية أو غيرها من ضواحى المدينة الجميلة الرائعة - لم يكن يستطيع إلا أن ينوح ويبكى حزنا لما أصابها من تغيير . فإن الحرب قد أزالت كل معالم الجمال وأحالتها صعيدا زلقا ، بل إن أى فرد رأى المكان من قبل ، لم يكن ليعرفه الآن بعد ما حل به من أمر » .

وبلغ الجوع بالسكان ذروته ، فصار الأب يختطف طعام أطفاله ، وسارت امرأة تملك مليونا من الدينارات تلتقط حبات القمح المتناثرة فى الطرق . وتخاصم الأصدقاء متقاتلين على ما قد يوجد من فتات ، وأخذ الناس يجمعون أى شىء - أى شىء يجدونه - فيمضغونه ، إسكاتا لصراخ إمعائهم .

ويروى « جوزيفوس » قصة مريعة عن أم ذبحت وليدها ثم جعلت من لحمه شواء أكلت نصفه ، وخبأت النصف الآخر ، ولما أتى الدهماء على رائحة الشواء ، وعلموا بحقيقة الأمر ، خرجوا مسرعين ترتعد أطرافهم هلعا وجزعا من ذلك الهول الشديد .

واستنفد طيطس جميع حيله ليحمل اليهود على التسليم ، فقد ركبوا رءوسهم ، ولم يزدهم الجوع والحرمان والفوضى إلا عنادا ، أرسل اليهم رسله يطلبون إليهم الإذعان فأبوا ، فجمع القمح وأنواع الطعام ، ووضعه على مرأى منهم ، إمعانا فى تعذيبهم النفسى ، ثم أجرى عرضا لجيشه ، وقد ارتدى الجنود أفخر الحلل وأزهى الثياب ، وحملوا على سواعدهم القوية خير أسلحتهم ، وارتقى اليهود أسوار المدينة يشاهدون العرض فى خوف ورعب ، ولكنهم لم يذعنوا ، ولم ير طيطس بدا من أن يستأنف هجومه .

وشق الرومان بخيلهم ورجلهم الطريق فاحتلوا قلعة « أنطونيا » ، وكانت تقع بجانب القاعة التى سلم فيها « بيلاطس » المسيحَ إلى قضاته .

ثم تابع الرومان هجومهم ، ودار القتال حول المعبد ، وتساقط اليهود قتلى ، ولكنهم لم ينضوا السلاح إيمانا منهم بأن جيهوفا « الله » سيأتى لنجدتهم إنقاذا لمعبده من الدمار . وتقدم الرومان خطوة بخطوة فوق جثث اليهود ، حتى دخلوا قدس الاقداس فى المعبد ، وحمل الغضب وحُمَّى القتال أحد الجنود الرومان فأخذ مشعلا وقذف به إحدى النوافذ المذهبة فى ذلك المعبد ، الذى كان آية فى الفن ، وأحد عجائب العالم ، فسرت النيران تندلع بقوة .

وحاول القائد أن يمنع ما حدث ، ولكن عنف المعركة ، وشهوة القتل التى تملكت الجنود — يدفعهم كرههم لليهود ، ويحدوهم حبهم لنهب وسلب الاموال والكنوز — جعلتهم يندفعون ، فإذا ما أتى طيطس يأمر أو يحاول وقف مسرى النيران - وهو يقف ملتاعا متحسرا ، إذ يرى المعبد العجيب الصنع ، طعمة سائغة للنيران - لم يجد أذنا تعى أو تسمع .

ووقع نصف المدينة فى أيدى الرومان ، بينما تصاعدت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان من المعبد ، وتراجع المتعصبون من اليهود يبغون استئناف القتال ، فوقف القائد الرومانى يحاول ثنيهم ، واعداً بمنحهم الحياة . واليهود هم اليهود ، رأوها فرصة سانحة للمساومة ، فساوموا ، حتى ضاق الصدر ونفد الصبر ، فأصدر القائد أمره للجنود أن : احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود ودماؤهم وأعراضهم حلال لكم . وقذف المنجنيق بأحجاره ولهبه ، وتطايرت السهام تصيب الصدور ، وسددت الرماح إلى النحور وأعملت السيوف فى الرقاب .

وأمعن الجنود فى القتل حتى ضاقت بالقتل نفوسهم ، وجمعوا من الغنائم ما بشمت به أطماعهم ، وامتلأت أرض المدينة المقدسة بجثث القتلى وأشلائهم ، وتصاعد الدخان من كل مكان ، ودكت المدينة دكا ، حتى سويت بالارض هدما وتخريبا ، وتحققت نبوءة عيسى بن مريم حين قال : « ستلقى هذه الأرض بؤساً وعنتاً ، وسيحل الغضب على أهلها . . . سيسقطون صرعى على حد السيف ، ويسيرون عبيداً إلى كل مصر ، وستطأ أورشليمَ الاقدام » .

مذهب الصرفة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر فى السودان

هذا المذهب ينسب الى الشيخ ابراهيم بن سيار النظام العالم المعتزلى الكبير ، فلا نجد كتابا من الكتب يذكر هذا المذهب وينسبه إلا نسبه للنظام ، على أنه أول من قال به ، وناضل دونه ، بل إن الخاطر لينصرف عند ذكر هذا المذهب الى النظّام ، بل كلما ذكر النظام ورد عليه مذهب الصرفة ، فيكاد يكون رأى النظام وحده ، بل يكان يكون أظهر آراء النظام .

ولكن هل كان ابراهيم أول من قال بهذا المذهب ؟ إن المذهب على ما فهمه العلماء ، وهو أنه يتضمن أن العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظما ، ليس من ابتداع النظام ، ولا هو أبو عذره ، وإنما جرى الكلام بهذا على ألسنة قوم قبله ، ومن أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار ، الذى يرجع إليه الفضل فى انتشار الاعتزال ببغداد بشخصيته الزاهدة ، وبقوة لسانه ، وفصاحته ، وقدرته على الوعظ ، وحسن القصص ، ويلقبونه (راهب المعتزلة) فهو يقول هذه المقالة [1] ويبعد أن يكون نفى الإعجاز عن القرآن ، كما يقول الكاتب الكبير المرحوم صادق الرافعى ، وإنما المستساغ ، والذى يقبله العقل ، وتميل إليه النفس مايقوله الأستاذ أحمد أمين [2] (ولعله كان يرى كبعض المعتزلة أن الإعجاز أتى من ناحية معانيه الدينية ، وإخباره بالمغيبات) .

ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخلصين فى الدفاع عن القرآن ، أنه لا يقول بإعجازه ، ولو أنه قال ما دخل فى حسابنا ، ولا حساب أحد ممن عاصروه ، خصوصاً أنه لم ينقل أحد عن المزدار أنه كان ينفى الإعجاز عن

---

[1] الشهرستانى ج ١ ص ٧٦ [2] ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٤٥

القرآن ، أما ما يقوله الشهرستانى عن زاهد المعتزلة وراهبهم من أنه كان كثير التكفير للناس ، ويوافقه عليه الأستاذان الرافعى وأمين . فأظن المبالغة فيه واضحة ، بل إنها مبالغة أقرب إلى الفكاهة منها بالجد الصراح ، وحسبنا هذه القصة التى ذكرها الشهرستانى من أنه كان يمعن فى تكفير الناس (حتى سأله إبراهيم بن السند مرة عن أهل الأرض جميعا فأكفرهم ، فقال له إبراهيم : الجنة التى عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة من أصحابك) .

وما أشك فى أن هذه الحكاية من تشنيعات خصوم المعتزلة عليهم ، وكم لهم من تشنيعات — كما سنذكره قريباً — . وممن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن (الجعد بن درهم) مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال إنهم قادرون على أحسن منه ، وهذا رجل ساقط من الحساب ، فليس النظام — إذن — أول قائل بهذا الرأى فلم اختص به ؟ يقول الرافعى « غير أن النظام هو الذى بالغ فى القول بالصرفة حتى عرفت به » .

وهو تعليل مقبول لو كان له ما يدعمه ، فأما لم نقرأ للنظام دفاعا عن هذا المذهب ، بل نقل المذهب غامضاً ، مما حمل بعض علماء القرن السابع الهجرى (هو على ابن حمزة صاحب كتاب الطراز) أن يقول : إن المذهب يحتمل أكثر من تفسير لما فيه من الإجمال والغموض .

ولما كانت الكتب التى طالعتها لا تكفى فى الجزم بخلو مطبوعاتنا من رأى النظام مفصلا ، فقد رجعت إلى كتاب (ابرهيم بين سيار النظام) للدكتور عبد الهادى أبو ريدة ، وفتشت فيه لعلى أجده اطلع على شىء يتعلق بهذا المذهب أكثر مما رأيته فيما بين يدى من كتب مشهورة ، فلم أجده ظفر بشىء ، بل صرح بأن آراء النظام ، بل وآراء المعتزلة جملة أخذت من كتب خصومهم ، ولا يوجد للمعتزلة كتب فيها تدوين مذاهبهم ، والاحتجاج لها ، فرجعت مؤمنا بأن احتجاج النظام لهذا المذهب لم ينقل منه شىء ، بل ذهب كل قول له فيه كما ذهب كثير من آراء المعتزلة واحتجاجاتهم ، ولولا أنى رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب فى كتاب الحيوان لكان لى مندوحة فى الشك والتردد الكثير فى نسبة المذهب للنظام . وهنا مسائل لابد من الحديث عنها :

(أولاها) أن النظام كان باتفاق القدامى والمحدثين ، الأصدقاء والأعداء . قوى الحجة ، فصيح اللسان ، ناصع البيان ، واسع الثقافة ، يقول الجاحظ : « يقولون فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام » . ويقول : « لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل وأصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » ، ويقول أبو الحسين الخياط عن دين النظام ودفاعه عن الدين : « إن إبراهيم وأشباهه حاطوا التوحيد ونصروه ، وذبوا عنه ، وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ، ووضع الكتب عليهم ، إذ شُغل أهل الدنيا بلذاتها ، وجمع حطامها » .

ويحكى عن النظام أنه قال عند احتضاره ، ما يصرح بأنه يتبرأ من كل دين غير دين التوحيد ، وأنه ما اعتقد مذهباً إلا بعد ما اعتقد أن فيه رضا الله ، ثم يعقب الخياط على القصة بقوله « وهذه هى سبيل أهل الخوف لله ، والمعرفة به ، والله تعالى شاكر لهم ذلك » .

وقد يقال إن كلام الجاحظ من قبيل امتداح التلميذ لأستاذه ، وكلام الخياط من باب حب المعتزلى للمعتزلى ، وهو حب كان يضرب به المثل قديماً ، ومع أننا نربأ بالجاحظ أن يحمله الاحترام لأستاذه على هذه الشهادة - وأمثالها كثير فى كتبه - وبالخياط أن يعميه التعصب المذهبى إلى هذا الحد ، ننقل شهادات أخرى لا سبيل إلى الطعن فيها . فالرافعى الذى ذهب فى تنقص مذهب الصرفة مذهباً جعله يقول إنه يشبه قول العرب فى القرآن ، إنه سحر ، يقول عن النظام : « حتى جاء رأيه فى مذهب الصرفة دون قدره ، بل دون علمه ، بل دون لسانه » .

والأستاذ الكبير أحمد بك أمين ، وهو رجل بعيد عن فتنة الكلام ، وعصبية المذهب يقول « كان النظام آية فى النبوغ ، حدة ذهن ، وصفاء قريحة ، واستقلال فى التفكير ، وسعة اطلاع ، وغوص على المعانى الدقيقة ، وصياغة لها فى أحسن لفظ ، وأجمل بيان » ويقول الدكتور أبو ريدة بعد ما تتبع النظام فى كل نواحيه ، ودرسه دراسة وافية عميقة « ولا مراء فى أن النظام كان صاحب الفضل الأكبر

فى التغلب على المحنة التى تعرض لها الإسلام فى عصره ، حين بدأت الثقافات الأجنبية والمذاهب الدينية ، والفلسفة المخالفة تغزو عقول المسلمين ، وحين بدأت نزعة الموالى الداخلين فى الإسلام تتيقظ فى نفوسهم ، فنهض للذب عن الدين ، وكان أحذق من تكلم فى عصره ، وأحرز أعظم النجاح فيما نهض له » .

وبجانب هذه الأقوال نجد أقوالا كثيرة أخرى تشهد بكفره وزندقته وسوء سلوكه ، ومن أجمعها قول ابن حجر « ما فى القدرية أجمع منه لأنواع الكفر ، ومع زيغه وضلاله كان أفسق خلق الله » ، وهو داء قديم !

(ثانيها) أن المعتزلة نكبوا أعظم نكبة حين ضاعت كل مؤلفاتهم ، ومنذ أن دالت دولتهم فى القرن الثالث الهجرى لم تقم لهم قائمة حتى الآن ، وظلت آراؤهم طوال هذه العصور تلوكها ألسنة خصومهم ، وتتناولها بالتحرير والتبديل والتغيير ، ولا منكر عليهم ، ولا معارض لهم ، ولا مدافع عن نظريات المعتزلة ووجهة أنظارهم ، حتى فى عصرنا الحاضر — وإن تحرر فيه الفكر — لا تدرس آراء المعتزلة إلا فى كتب ألفها أصحابها للرد على نظرياتهم ، مع الاعتقاد سلفا بأنها باطلة ؛ والناشئة يدرسونها على هذا الأساس ، ولا نعرف فى هذا التاريخ الطويل أحداً استطاع أن يجهر بمذهب الاعتزال إلا ناله الأذى والضر ، فطبعى أن تتأثر آراء المعتزلة ، وأن تتأثر النقول عنهم بهذه النظرة .

على أن النظام كان نصيبه من هذا أوفى نصيب ، فقد رمى بأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ورُمى بالفسق والزيغ والإلحاد ، ويذكر الخطيب البغدادى فى كتابه أصول الدين « أن النظام أعجب بقول البراهمة فى إبطال النبوات ، ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك ، فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه ، وأنكر معجزات النبى من نحو انشقاق القمر ليتوصل بذلك الى إنكار النبوة » .

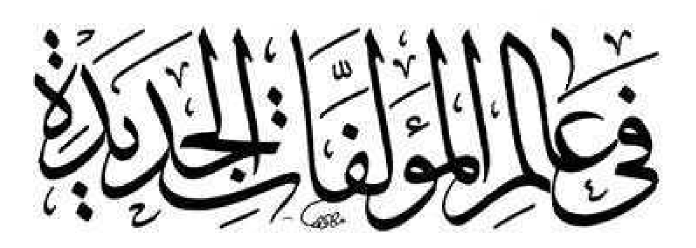
(ثالثها) أن المعتزلة ابتلوا برجل يقول عنه عبد الرحيم العباسى فى كتابه (معاهد التنصيص) نقلا عن الطبرى : إنه كان لا يثبت على مذهب ، ولا يستقر على حال ، حتى إنه صنف لليهود كتاب البصيرة ، ردا على الإسلام ، لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغنى من يهود سامرا . فلما قبض المال ، رام نقضها ، حتى أعطوه مائة درهم أخرى ، فأمسك عن النقض . قلت : وما أشبهه ببهلول مجنون الكوفة ،

فقد كان يغنى بقيراط ويسكت بدانق ، ويقول العباسى أيضاً نقلا عن البلخى فى كتابه (محاسن خراسان) : إنه كان فى أول أمره حسن السيرة ، حميد المذهب ، كثير الحياء . ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له ، وكان علمه أكثر من عقله .

ويقول عنه الرافعى : « إنه كان رجلا غلبت عليه شقوة الكلام فبسط لسانه فى مناقضة الشريعة ، وذهب يزعم ويفترى ، وقد أمعن فى سخفه ، فلا تدرى أجعل إلهه هواه ، أم جعل إلهه فى فمه » . هذا رجل يتاجر بدينه وعقله ، وكان واسع الأفق فى الكذب والاختراع ، وحكاية الخرافات عن أصحاب الفرق ، وهو أبو الحسين أحمد بن يحيى المشهور بابن الراوندى ، وقد رمى المعتزلة منه بداهية دهياء ، فقد كان على مذهبهم ، ثم جفوه وطردوه من مجالسهم ، وقسوا عليه ، فألف كتاباً سماه (فضيحة المعتزلة) وقد انبرى للرد عليه عالم من علمائهم هو أبو الحسين الخياط فألف كتابه (الانتصار) وإنما عنيت هنا بالحديث عن ابن الراوندى لأنه الذى نقل عن النظام قوله بالصرفة ، حكى صاحب الانتصار « وزعم صاحب الكتاب — يريد ابن الراوندى — أن النظام يقول بالصرفة فى إعجاز القرآن » والذى نفهمه من العبارة أن الخياط ينكر أن يكون النظام قائلا بهذا المذهب ، فهو يسنده بلفظ (الزعم) ولكن الذى يلفت النظر أن الخياط مر على المسألة مراً سريعا ، فلم ينفها ولم يثبتها ويحتج لها ، فبقى فى النفس منها شىء ، وقد حكى الشهرستانى أن ابن الراوندى ينسب للجاحظ قوله فى القرآن : إنه جسم يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة أنثى .

والرجل وإن كان يبدو فى حكاياته الكذب واضحاً جلياً ، لكن من يسمع يخل ، وقد صادف كتابه هوًى فى نفوس خصوم المعتزلة فقالوا : رجل منهم يحكى عنهم فهو أعرف الناس بهم ، فلا شك أنه يحكى حقا ، ويقول صدقا .

وأعود فأقول إنه لولا ما ذكره الجاحظ من حديث عن هذا المذهب لكان يمكن للباحث أن يؤكد أنه مذهب نسب للنظام ولكن فى كتب خصومه ، على أن الجاحظ ذكره ولم ينسبه لأستاذه ، ولا ذكر له فيه قولا ، وسننظر فيما كتبه الجاحظ ، وسنعرف منه حقيقة هذا المذهب على ما يراه هو ، ونعرف احتجاجه له فى حديثنا التالى إن شاء الله .



خلاصة الكلام فى أركان الاسلام

هذا الكتاب لحضرة المفضال الأستاذ (على فكرى بك) ، وهو كما يدل عليه اسمه يشتمل على شرح ما أجمل فى الحديث الكريم وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » وقد أهداه إلى حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقع فى ثلاثمائة وست وثمانين صفحة بالقطع الكبير ، مطبوع طبعا متقنا على ورق صقيل جيد . وقد سلك حضرة المؤلف فى شرحه طريقته المحببة ، وهى إيراد كل ركن من الأركان الخمسة وسرد ما ورد فيه من الآيات والأحاديث ، وشرحها شرحا مستوعبا جميع تفصيلاتها بحيث لا يحتاج القارىء لغيره فى تفهمها .

ومما حلى الكتاب وأجزل فوائده إتيانه بخطب منبرية فى المناسبات لكبار الخطباء ، وبيان واف شامل للسفر إلى الحج من أول خروج الحاج من منزله إلى أن يعود اليه ، لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما يلزمه من الضروريات ، وما يقتضيه السفر إليه ، من الأهب والحاجات ، وما يجب أن يعرفه من الأماكن التى ينزل إليها ، والدعوات التى يدعو بها فى زيارة آثارها مما لا يوجد فى كتاب سواه ، فالحاصل على هذا الكتاب لا يحتاج إلى شىء : مما يلزم الحاج إلى البيت الحرام ، وقبر النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد صدرت منه الطبعة الأولى وجدير به أن تصدر منه عشرات الطبعات .

قواعد الاملاء، تجديد وتوضيح

فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد سلمو المدرس بمعهد دمياط من محبي التجديد، والتجديد أساس التقدم، والباعث على بلوغ الغايات البعيدة فى العلوم والصناعات، وما بلغ آباؤنا الأولون ما بلغوه من التقدم السريع، حتى أدهشوا العالم واعتبروا بحق واضعى الأصول الراسخة للمدنية الحاضرة إلا بتحليهم بروح التجديد، فلم يقفوا منه عند حد. وما انحط مستوى وجودنا المدنى إلا لما غلبت علينا روح الوقوف والتعصب لكل قديم. وقد أرسل أستاذنا الشاب بعدة مقترحات إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية وفيها أساليب لتيسير القراءة مشاركة منه فى المباراة التى أعلنها المجمع فى هذا الشأن. وقد توصل بأسلوبه إلى اختصار مئات القوالب فى الطباعة العربية إلى عشرات فقط حتى مع شكل جميع الحروف. مع تجنب الاختلاط والاشتباه فى رسم الحروف، وإيضاحها وبيانها بأقرب الطرق وأوجزها.

وقد وفق أيضاً إلى عمل شكل جديد صالح لوضعه فوق الحروف ولوضعه بينها فى صلب الكلمة.

ووفق أيضاً إلى طريقة تلغى تعقيد القواعد الإملائية. كل هذا، كما يقول، مع إحكام الصلة إحكاماً تاماً بين القديم والجديد مع الاحتفاظ بميزة الاختصار فى الكتابة العربية.

قال الأستاذ المؤلف فى آخر رسالته:

« وقد وصلت فى بحثى إلى النتائج الآتية: (١) زيادة نوع جديد من الشعر. (٢) تيسير معرفة تصريفات الأبحر فى النوع الأول. (٣) قرب الصلة بين الإسم ومسماه. (٤) أبحر النوع الأول أحد عشر لا ستة عشر. (٥) سر الجمال فى النظم العربى هو قوانين الكون العامة ».

فنحن ننتظر أن يعلن المجمع اللغوى عن نتيجة المسابقة لنطلع على ما وفق إليه المؤلف وعلى سائر ماذكره بصدد ذلك. وإننا لنشجعه على إنماء ملكته التجديدية بنشر كل مايوفق اليه من ذلك، فلأن يكون الأزهر مصدر التجديدات فذلك مما يزيده رفعة فى نظر المسلمين، ويجعل لرجاله مكانة ممتازة فى قلوب جميع الناطقين بالضاد.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث الأستاذ الأكبر

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر « الهرفون كوال » سفير النمسا السابق فى الدول الشرقية بمناسبة عودته إلى النمسا بعد إقامته فى الشرق مدة الحرب الأخيرة ، والهر كوال من المهتمين بالدراسات الإسلامية والتاريخية ، وله مؤلفات عن تركيا والشرق ، وهو معروف فوق ذلك بميوله الشرقية ، وصادق عواطفه نحو الشعوب الإسلامية ؛ عرف وعاشر كثيرا من رجالها ؛ بل إن له فى مصر صهرا ونسبا .

وقد دار بينه وبين الأستاذ الأكبر حديث طويل ، شمل بعض ذكرياته القديمة أثناء عمله السياسى فى بلاده وفى البلاد الشرقية التى مثل فيها حكومته ، وقد سأل الأستاذُ الأكبر سعادةَ السفير عن حال المسلمين فى النمسا ، ومركزهم الاجتماعى وعلاقتهم بالحكومة والمواطنين . فقال : إن مركز المسلمين فى النمسا مركز ممتاز ، وهم موضع احترام الحكومة والشعب ، وهم متمتعون بحرياتهم فى جميع نواحى الحياة ، ويتولون كل مناصب الحكومة بلا تفريق بينهم وبين المواطنين ، وإنه قد بذل جهودا كثيرة لمساعدتهم إبان عمله فى النمسا ؛ فحصل من حكومته على وعد ببناء مسجد ، وكادت الفكرة تتحقق لولا أن حالت دونها ظروف الحرب .

فرجا الأستاذ الأكبر سعادة الوزير أن يعمل على إحياء هذه الفكرة حين عودته . وسأله عن نظام الجامعات فى النمسا ؛ فأنبأه الوزير أن من بين الكليات واحدة لأصول الدين ، وأنه يتمنى أن تنصلح الأمور فتحتل الدراسات الإسلامية مكانها بين هذه الكليات . وأوضح الوزير رغبته الصادقة فى أن يكون لشيخ الإسلام ولجامعته العظيمة أكبر الأثر فى درء الخطر الشيوعى عن شعوب

الإسلام . فأجابه الأستاذ الأكبر : إن تعاليم الإسلام تجعل شعوبه أبعد ما تكون عن ذلك الخطر الهدام ، فمبادىء الإسلام أقوى درع لأصحابه من ذلك الشر ؛ إذ أن نظام الزكاة فى الإسلام قد ضمن التكافل الاجتماعى للمسلمين ، بما فرضه للفقراء والمحتاجين من نصيب فى أموال الأغنياء . وأكد الأستاذ الأكبر أن علماء المسلمين يعملون دائبين على غرس المبادىء الإسلامية فى قلوب الشعوب الإسلامية ، ويقومون على رعايتها وتنفيذها ؛ وبذلك يحمون البلاد الإسلامية والعربية عن ذلك الخطر الهدام .

وألمح الوزير إلى حوادث فلسطين التى يرى بين طياتها خطر البلاشفة وسماسرتهم من اليهود ، وأنه يتمنى أن يقى الله الشرق العربى كله عواقب هذه الفتنة . فطمأنه فضيلة الأستاذ الأكبر بما وعد الله عباده من تعذيب اليهود ، وتشريدهم فى أنحاء الأرض . وأنه يحمد الله الكريم الذى جعل زمام مصر زعيمة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية إلى ملك مؤمن بعدالة قضية الإسلام والشرق ، حريص على توجيه الشعب إلى أهداف خيره وخير الإنسانية جميعاً ، ومن كمال إنسانية الفاروق وبره اهتمامه العظيم بتعليم الطلاب ، من جميع شعوب الإسلام فى الجامعة الأزهرية ، ينفق عليهم من ماله الخاص ، ويرعاهم بعنايته السامية .

فقال سعادة الوزير : إنه يغبط مصر وبقية الشعوب الإسلامية على حظها فى رعاية الفاروق العظيم بقضاياها ، ويتمنى للعرب النجاح والتوفيق فى جهادهم ضد الصهيونية .

فشكر له الأستاذ الأكبر هذه التمنيات قائلا : إن الله معنا ، وقد وعدنا فى كتابه العزيز بالنصر ؛ إذ قال تعالى فى وصف اليهود : « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » .

واستأذن السفير من الأستاذ الأكبر فى زيارة الجامع الأزهر والمكتبة ، فأذن له وودعه شاكراً . وكان مع سعادة السفير الأستاذ الدكتور « أحمد بدوى » أستاذ الآثار القديمة بكلية الآداب ، وتولى مهمة الترجمة عن الألمانية التى كان يتكلم بها سعادة السفير .

زيارة جلالة ملك الأفغان للأزهر

فى الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد ١٢ مارس سنة ١٩٥٠ ، تفضل حضرة صاحب الجلالة ملك الأفغان « محمد ظاهر شاه » بزيارة الأزهر، وكان فى استقباله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، شيخ الجامع الأزهر، يحف به أجلاء العلماء وكبار الموظفين ، وبعد أن حياهم مصافحة ، صعد إلى الطابق الأعلى حيث مكتب الأستاذ الأكبر ، وأمضى فيه برهة مع فضيلته وكبار مستقبليه ، كان فيها محل الإجلال والتعظيم ، ثم نهض لزيارة كلية الشريعة ، فاستقبله فيها حضرات المدرسين ، يتقدمهم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون شيخها الجليل ، فاستمع جلالته فيها لأربعة دروس ، وهنالك حياه شيخها بكلمة بليغة بيّن فيها المهمة الخطيرة التى تقوم بها هذه الكلية ، ثم قصد من هناك إلى مسجد الإمام أبى عبد الله الحسين ، ولبث فيه نحو ربع ساعة .

ثم انتقل منه إلى الجامع الأزهر حيث أدى فريضة الظهر ، وزار مكتبته العامة ، فاستقبله فيها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى مديرها وحضرات معاونيه ، واستعرض فيها المصاحف الأثرية وبعض المؤلفات النادرة .

ومن هنالك استقل جلالته السيارة الملكية تتبعها سيارات الحاشية ، وتحيط بها وتتقدمها موتوسيكلات الحرس المصرى ، قاصداً سراى الزعفران حيث يقيم فيها ضيفا لحضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب .

وهذا نص الكلمة القيمة التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة بين يدى حضرة صاحب الجلالة ملك الأفغان :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر فى شخص كلية الشريعة ، يحيّى أساتذته وطلابه جلالتكم تحية طيبة مباركة ، تليق بمقامكم السامى ، وجلال ملككم العظيم ، ومكانة شعبكم الوفى المعروف بالشجاعة والإقدام والتمسك بتعاليم الإسلام . ويرحبون كل الترحيب بتشريف جلالتكم لكلية الشريعة ، التى امتازت بدراسة علوم الشريعة الغراء أصولها وفروعها ، وبالتفضل بالاستماع الى دروس أساتذتها . ويغتبطون الاغتباط كله بهذا التفضل العظيم ، ويعلنون سرورهم وابتهاجهم بهذه الزيارة الكريمة المباركة ، التى تتجلى فيها آيات وحدة المسلمين وأخوتهم ، ويسطع منها نور تعاطفهم وتراحمهم ؛ كما أنها تحمل فى ثناياها ما اشتهر عن جلالتكم من قوة فى الدين ، ومتانةٍ فى الخلق ، ومحبة للعلم وإكرام لأهله .

وإنى يا صاحب الجلالة وجميع أساتذة الكلية وموظفيها وطلابها ، لنعد هذه اللفتة الملكية والتوجيه السامى إلى تخصيص كلية الشريعة بهذه الزيارة الميمونة ، مفخرةً عظمى ومنحة ملكية سامية نعتز بها ، ونذكر يومها دائماً إن شاء الله تعالى ذكر الأيام السعيدة ، والأعياد المباركة ، وستكون حافزة للجميع على القيام بواجبهم ، كما أننا نعتبرها تكريماً للشريعة الغراء وللقائمين بتدريسها فى أشخاصنا .

فباسمى واسم جميع أساتذة الكلية وطلابها أرفع لمقام جلالتكم بيد الإجلال والتكريم ، والاحترام والتعظيم أسمى آيات الشكر على تفضل جلالتكم بتشريف كلية الشريعة وزيارتها ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ ذاتكم الكريمة ، وأن يديم التوفيق لجلالتكم ، والسرور والاغتباط لشعبكم الكريم بعدلكم الشامل ، وإحسانكم العميم ، ورعايتكم السامية لجميع أفراده .

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر قائم منذ ألف عام على حفظ الشريعة الغراء ، وما تحتاج اليه من علوم ، ونشرها بين المسلمين فى جميع الأقطار ، ولقد كان محل عناية الملوك والسلاطين بالديار المصرية ، وفى القرن الأخير زادت العناية به بفضل الأسرة العلوية المالكة . وقد تضاعفت العناية به والرعاية له ، والاهتمام بشئونه مادياً وأدبياً فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول - طيب الله ثراه - وأعلى درجته فى عليين ، وقد ترسم خطاه نجله حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول - أيده الله بنصر من عنده ، وأعز ملكه وأدام توفيقه - فأعيد بتوجيههما السامى ، وأمرهما الكريم تنظيم الأزهر تنظيما شاملا كاملا ، وأنشئت فيه ثلاث كليات : كلية الشريعة التى تتشرف اليوم بزيارة جلالتكم ، وكلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية . وفى عهدهما وبأمرهما الكريم تضاعف إنشاء المعاهد الدينية التابعة للأزهر فى الأقاليم ؛ حتى كادت تعم جميع مديريات المملكة المصرية .

وأنشىء فيه قسم للوعظ والإرشاد ينتظم عددا كبيرا من أساتذته المتخصصين يجوبون البلاد للدعوة والإرشاد . وأرسلت البعوث من أساتذته لكثير من البلاد الإسلامية يعلمون فى مدارسها ويعظون أهلها . وزادت مخصصاته حتى أربت على المليون من الجنيهات ، وأنشئت مدينة الجامعة التى منها هذه الدار المخصصة لكلية الشريعة ، والقاعة الكبرى المخصصة للمحاضرات ، والعمائر الكبرى المخصصة لسكنى الطلاب ، وسيتبعها غيرها من مبانى تلك المدينة .

والجامع الأزهر الآن بكلياته ومعاهده يضم أكثر من ألف ومائتين من المدرسين ، وأكثر من عشرين ألفا من الطلاب : من أبناء مصر ومن البعوث التى وفدت إليه من سائر الأقطار الإسلامية ؛ يتلقون العلوم الشرعية والعلوم العربية والعلوم العقلية وغيرها ، والجميع فى موضع الرعاية والعناية من حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ورجال حكومته السنية . وبخاصة طلاب البعوث الإسلامية ، فقد هيئت لهم بأمر جلالة مولانا الملك المعظم المساكن اللائقة بهم ، وأغدق عليهم جلالته من بره ، فخصصت لهم المرتبات التى تكفى لنفقاتهم .

وقد تخرج كثير من طلبة البعوث الإسلامية من هذه الكلية ، ورجعوا إلى بلادهم وشغلوا مناصب عليا نذكر منهم السيد النبيل ، محمد هاشم المجددى ، نجل التقى الصالح الغيور على الدين معالى الوزير السيد ، محمد صادق المجددى ، الذى أحب المصريين وأحبوه . ولا تزال الكلية ترحب بالوافدين من بلاد الأفغان وغيرها من البلاد الإسلامية .

هذا وإنى أبتهل إلى الله العلى القدير أن يلم شمل المسلمين ، ويعلى كلمتهم ويقوى شوكتهم ، ويوفقهم جميعا إلى الاعتصام بحبله المتين فى ظل أصحاب الجلالة والفخامة ملوكهم ورؤسائهم . . آمين .

والسلام على جلالتكم ورحمة الله .

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

المدنية كلمة مشتقة من « مدّن المدائن » أى بناها ومصرها ، و « تمدّن » أى تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة .

ولكن للمدنية فى عرف العلماء الاجتماعيين معنى أوسع مما مر ، فهى تعنى عندهم الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، وبهذا فقد اكتسبت المدنية معنى أرفع من معناها اللغوى ، إذ اعتبرت مثلا أعلى للحياة البشرية تتدرج إليه الأمم تحت تأثير رقيها العلمى والعقلى والنفسى والاجتماعى.

وجاء الفلاسفة فقرروا أن الإنسان مدنى بطبعه ، أى أنه مفطور على الارتقاء ، وعلى بلوغ غايات بعيدة من السمو العلمى والأدبى والصناعى ، وهم بهذا القول ما فعلوا شيئاً غير حكاية الواقع المحسوس ، فإن الإنسان خلق مجردا من جميع ما يلزمه من ضروريات العيش ، وفروع العلم ، وضروب الفنون والوسائل ، ولم يصل بعد إلى غاية مداه ! بلغ كل هذا بدوافع ذاتية ، وحوافز نفسانية ، وقوى مودعة فيه ، لاتنى تدفعه إلى الاستزادة مما هو فيه حتى قدّر بعض الحكماء أنه سيصل إلى مستوى من الترقى لا يجول بخيال إنسان .

لسنا بصدد الكلام عن قابليات الإنسان ومواهبه النفسية ، ولكننا بسبيل بيان ما فى الدين الإسلامى من عناصر المدنية ، تبرئة له من التهمة التى يشيعها الماديون من أن الأديان عدوة طبيعية للحضارة الإنسانية ، ما أخذ بها قوم إلا أصبحوا أعداء لكل ارتقاء مادى ، وهبطوا إلى حضيض الشعوب البدائية .

للمدنية ككل الشؤون الاجتماعية عناصر يتألف منه كيانها ، تؤثر فى الجماعات البشرية فتؤديها إلى شكل من الوجود يتناسب والبيئة المحيطة بها . وللديانات تعاليم خاصة بها ، تارة يتفق بعضها وتلك العناصر فترتقى الأمم الآخذة بها ، وتصل إلى مدى بعيد من التحضر ؛ وتارة لا يتفق بعضها الآخر وتلك العناصر ،

فتتدهور عن مستواها الأول ، ولاتزال تمعن فى التدهور حتى تصل إلى الحضيض ، فتفنى فى جثمان أمم أخرى .

وبعد ، فقد جاء الإسلام إلى العرب وهم لم يصلوا بعد إلى درجة أمة ، وذلك بسبب قحولة بلادهم ، وحرمان أرضهم من الأنهار ، وما درجوا عليه وألفوه من الحياة القبيلية آمادا طويلة ، فوقفوا بسبب تلك الحالة عن الترقى الأدبى والمادى أجيالا طويلة ؛ وما وصل إلى شىء من ذلك من قبائلهم لم يلبث إلا قليلا حتى تلاشى ، وعاد إلى مثل ما كانوا عليه من البداوة والجاهلية حتى ظهر الإسلام ، وما إن دخلوا فيه ، وجروا على تعاليمه ، حتى تطوروا إلى درجة أمة موثقة الأواصر ، موحّدة المبادىء ؛ ولم يمض عليهم غير جيلين حتى رأيناهم قد أصبحوا للبشرية قادة فى العلم والفلسفة والصناعة ؛ وامتد ملكهم إلى نحو ربع الكرة الأرضية ، وهو ملك لم يتَيَسّر لأمة قبلهم ولا بعدهم إلى يومنا هذا ، حكموه بعدل وإنصاف يضرب بهما المثل إلى عهدنا الراهن ، فكيف يتفق للعرب أن يطفروا إلى هذه المنزلة من التمدن العالى ، إن لم يكن فى الدين الذى دخلوا فيه ، وهو الإسلام عناصر لتلك الحالة الرفيعة التى تأدوا اليها ؟

هذا أمر لامعدى عنه ، فما هى هذه العناصر ؟

(أولها) إحكام أواصر الاجتماع ، وتوثيق عرى الوحدة ، إلى الحد الذى تتلاشى فيه الفوارق الشخصية ، فيصبح معه المجتمع كالفرد الواحد تحركه إرادة عامة ، وتدبره روح واحدة ، وتدفعه إلى غاية مشتركة هى السعادة الكلية التى يحظى بالمتاع بها ، والعيش فى كنفها ، جميع الأفراد على حد سواء ، على مثال أعضاء الجسم الواحد يستمتع كل عضو بنصيبه من سلامته دون أن ينقص منها شىء ؛ وقد وصل المسلمون الأولون إلى هذه الدرجة الممتازة من الاجتماع بفضل المبادىء الإسلامية ، وبتأثير الروح المحمدية ، فكان أثرهما فى أمة لا عهد لها باجتماع من أغرب الظواهر العمرانية ، وأدعاها إلى الدهش والحيرة . أصبح المجتمع الإسلامى جسداً واحداً تحركه روح واحـــدة على وجه لم يعهد له مثيل فى مجتمع آخر ؛ حتى روى أن صحابياً منهم حمل قدحاً من الماء ليروى صدى بعض الجرحى فى موقعة ، وكان منهم كثيرون يجودون بأرواحهم ، فلما اقترب منه

أشار إليه أن يقدم القدح للذى يليه ، فلما قدمه إليه أشار له هذا ليعطيها لواحد آخر ، فلما انتهى إليه آثر على نفسه جريحاً آخر بالقرب منه ، وهكذا صار حامل القدح يتردد به بين الجرحى ، وكل منهم يؤثر على نفسه غيره حتى ماتوا جميعاً عطاشا ولم يصب واحد منهم قطرة . وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم حالة أصحابه من الناحية الاجتماعية فقال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وقال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » وقال ابن عباس : « لقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار حتى خشينا أنه سيورثه » .

هذا التماسك الاجتماعى من أوليات عناصر المدنية ، لأن الأفراد إذا تكاتفوا على حفظ كيان الاجتماع ، ووثقوا بأن وجوده غير مهدد بالتفكك ، لم يحصروا همهم كله فى وجودهم الشخصى وضرورياته من مأكل وملبس ، بل يحل محله كيانهم العام ، ويشغلهم ما هو بحاجة إليه من استصلاح بيئته ، وتوفير مقوماتها ، ومن ترقية جماعته وتمهيد سبل حياتها ، وتنمية عددها ، واكتشاف وسائل تقويتها ، فتشتغل على هذا الوجه عقول أذكيائها ، وأولى العلم منها بالأمور الفنية ، والاكتشافات الصناعية ، والتطوع لأجل الأغراض العمومية . وقد تشتد هذه العاطفة الاجتماعية حتى تصل إلى الاستهانة بالحياة الشخصية ، فى سبيل كشف جغرافى ، أو تركيب كيمائى ، أو تحقيق طبى ، ولو أردنا أن نسرد أسماء من لقوا حتوفهم جريا وراء هذه المقاصد العامة لاضطررنا إلى الإطالة .

والحياة القبيلية لا تتوافر فيها البواعث النفسية الدافعة للترقى الأدبى والمادى ، لأنها لقلة عدد أفرادها ، وعدم طمأنينتها على وجودها ، بسبب الإغارات المتوالية عليها من جيرانها ، تطغى لديها عاطفة الدفاع عن النفس والأهل والولد على كل عاطفة ذات آثار عامة ، فلا تشتغل بال رجالها بغير التسلح والوقوف موقف المتربص لكل مفاجأة عدوانية تقع فى ليل أو نهار ؛ وجماعةٌ هذه حالتها من توقع المباغتات ، وتخوف الغارات ، لايدور بخلد آحادها غيرَ همٍّ واحد ، وهو الدفاع عن النفس ،

فلهذا السبب لا تصادف فى القبائل واحدة تخطت دور الحياة البدائية ولو مكثت على حالتها ألف سنة .

وما حمى المسلمين من شر التفرق بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم غير ما عُنى به الإسلام من توثيق أواصر الاجتماع ، وإحكام عرى الوحـــدة العامة . وقد جرت العادة وخاصة فى الجماعات القريبة العهد بالوجود ، أنها عقب موت موجدها تتداعى إلى الانحلال ، انصياعا لتسويلات أركان حربه من القواد الكبار ، فتقع بينهم الشحناء ، وتشب نيران الحروب آمادا طويلة لا تجنى الشعوب والأفراد من ورائها غير القلاقل والفتن ؛ فتتلاشى طيباتها ، وينتشر فيها البؤس واليأس ، ثم تنتهى إلى ما قدر لها من مغبة غير محمودة . كما حـــدث بعد وفاة الاسكندر المقدونى ، فقد اتفق له فتح ممالك برمتها عقب حروب موفقة ، فلما وافاه أجله اقتسم قواده ملكه بينهم والسيوف مصلتة فى أيديهم ، ووقعت الشعوب بسبب ذلك فى فتن كقطع الليل المظلم ، ثم انتهى الأمر بتلاشى ذلك الملك العظيم .

ولكن المسلمين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ولوا عليهم واحـدا منهم ، ولم يؤد ذلك فى أمة كانت بالأمس مؤلفـة من قبائل شتى إلى انقسام يفضى إلى فتنة ، غير جماعات ارتدت عن الإسلام لم تلبث أن عادت إلى حظيرته كما كانت . ولما توفى خليفته طلب المسلمون اليه أن يختار لخلافته أولاهم بها ، فكان ما أرادوا وسمعوا له وأطاعوا ، وفتحوا سورية ومصر وبلاد الفرس على عهده . وتوالى الخلفاء وتوالت الفتوح حتى أصبح ملك المسلمين تساوى مساحته ربع الكرة الأرضية ، فى مدى نحو قرن واحد . وفى أثناء ذلك نشطت العقول لإيتاء ثمراتها ، وتحركت الهمم للتبريز فى ميدانها ؛ ولم يمض غير قرن آخر حتى بلغ المسلمون من المدنية إلى المستوى الرفيع الذى بيناه فى مقالنا السابق . وفيما يلى من المقالات نأتى على بقية عناصر المدنية ومكانتها من الأصول الإسلامية ، وآثارها على المسلمين حتى بلغوا بها الأوج الذى أدهش العالم تحت هداية القرآن والتربية المحمدية .

محمد فريد وجدى

السنة التشريعية :

من خصال الفطرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خمس من الفطرة : الاستحداد ، والختان ، وقص الشارب ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار » .

* * *

عرض هذا الحديث لبيان حكم الشريعة فى بعض خصال الفطرة ، وأوضح أن هذه الخصال إذا فعلت ، اتصف فاعلها بالفطرة ، التى فطر الله العباد عليها ، ورغّبهم فيها ، واستحبها لهم ، ليكونوا على أكمل صفة ، وأشرف صورة .

وقد ثبت فى أحاديث أخرى صحيحة أن هذه الخصال تزيد على الخمس المذكورة فى الحديث الذى معنا ، وقد بلغ بها ابن العربى ثلاثين خصلة ، وقال غيره : إنها تزيد على ذلك كثيرا ، وذكروا منها غير الخمس المتقدمة : الوضوء ، والاستنشاق ، والاستنثار ، والاستنجاء والسواك ، وغسل الجمعة ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، وغسل البراجم ، والانتضاح ، والتعطير ، والنكاح ، والحجامة ، والحياء ، والحلم ، وغير ذلك ، والظاهر أن الاختلاف بين الأحاديث الواردة بهذا الشأن إنما هو بحسب المقامات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر من هذه الخصال فى كل مقام ما يليق بالمخاطبين .

* * *

الفطرة : من الفَطْر ، وهو الشق طولا ، ويطلق على الوهى ، وعلى الاختراع ، وعلى الإيجاد ، وتطلق الفطرة على الخلقة المبتدأة ، وعلى الجبلة ، وعلى الدين . وفطرة الله : هى ماركز فى الإنسان من قوته على معرفة الإيمان ، وإلى هذا المعنى

يشير قوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » ، أى أن كل أحد لو ترك فى وقت ولادته وما يؤديه إليه نظره لأداه إلى الدين الحق ، وهو التوحيد . ويؤيده أيضا قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله » ، وإليه يشير فى بقية الحديث ، حيث عقبه بقوله : « فأبواه يهودانه أو ينصرانه » .

وذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالفطرة فى الحديث : السنة القديمة التى اختارها الأنبياء ، واتفقت عليها الشرائع ، وكأنها أمر جبلى فطروا عليه ، وقالت طائفة : المراد بها الدين .

والاستحداد : هو استعمال الحديدة فى حلق الشعر من مكان مخصوص من الجسد ، وفى التعبير بهذه اللفظة كناية طريفة عما يستحيا من ذكره إذا حصل بها الإفهام ، وأغنت عن التصريح . وقال النووى وغيره : السنة فى إزالة شعر العانة الحلق بالموسى فى حق الرجل والمرأة معا ، ولكن الحق أن أصل السنة يتأدى بالإزالة بكل مزيل من حلق وقص ونتف وتنوّر وغيرها ، وإنما ذكر الحلق ، لكونه الأغلب ، والاستحداد سنة بالاتفاق .

والختان : مصدر ختن بمعنى قطع ، والختْن : قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص ، والختان ما ينتهى إليه القطع من الصبى والجارية وهو اسم لفعل الخاتن أيضا . وختان الصبى : قطع الجلدة التى تغطى الحشفة ، وختان البنت : قطع جلدة تكون فى أعلى عضوها فوق المدخل كالنواة ، أو كعرف الديك ، ويسمى ختان الغلام إعذارا ، وختان الفتاة خفضا ، وقال بعضهم : كلام أهل اللغة يقتضى تسمية الكل إعذارا ، والخفض يختص بالأنثى ، وأفاد ابن الحاج فى المدخل أنه اختلف فى النساء ، هل يخفضن عموما ، أو يفرق بين نساء المشرق فيخفضن ، ونساء المغرب فلا يخفضن ، لعدم الفضلة المشروع قطعها منهن ، بخلاف نساء المشرق ؟ كما أفاد أن السنة إظهار ختان الذكر ، وإخفاء ختان الأنثى ، واختلف فى حكم الختان ، فعن العترة والشافعى وكثير من العلماء أنه واجب فى حق الرجال والنساء ، وعن مالك وأبى حنيفة وغيرهما أنه سنة فيهما . وللختان وقتان : وقت وجوب ، ووقت استحباب ، فوقت الوجوب البلوغ ، ووقت الاستحباب قبله ، والاختيار أنه فى اليوم السابع من بعد الولادة ، وقيل : من يوم الولادة ، فإن

أخّر ، ففى الأربعين يوما ، فإن أخّر ، ففى السنة السابعة ، فإن بلغ وكان نضوا نحيفا يُعلم من حالة أنه إذا ختن تلف ، سقط الوجوب ، ويستحب ألاّ يؤخّر عن وقت الاستحباب إلا لعذر . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ختن الحسن والحسين لسبعة أيام ، ونقل مشروعية الدعوة إلى ختان الغلام .

وقص الشارب : أصل القص تتبع الأثر ، ويطلق على إيراد الخبر تاما على من لم يحضره ، وعلى قطع شيء من شيء بآلة مخصوصة ، والمراد به هنا : قطع الشعر النابت على الشفة العليا من غير استئصال ، وهو المسمى بالشارب ، ولفظ القص هو المذكور فى أكثر الأحاديث كما هنا ، وجاء فى بعضها لفظ الحلق والتقصير والجزّ والإحفاء . قال بعض الفقهاء : وكل هذه ألفاظ تدل على أن المطلوب هو المبالغة فى الإزالة . وقال الطحاوى : ذهب قوم من أهل المدينة إلى أن قص الشارب هو المختار على الإحفاء ، وخالفهم فى ذلك آخرون فقالوا : بل يستحب إحفاء الشوارب ، ونراه أفضل من قصها .

وقد شرع ذلك مخالفة للمجوس ، ومنعا من التشويش على الآكل ، واتقاء لزهومة المأكول التى تعلق بالشارب ، واستتماما لمعنى الجمال والنظافة . وحكى عن بعضهم : أنه لا يرى بأسا فى إبقاء الشوارب فى الحرب إرهابا للعدو . ويستحب فى قص الشارب أن يبدأ باليمين ، ويخيّر بين أن يقص ذلك بنفسه ، أو يوليه غيره لحصول المقصود بفعله ، ومَن لايحسن الأخذ من الشارب بنفسه ، يباح له أن يستعين بغيره بقدر الحاجة ، ويلتحق به مَن لا يجد مرآة ينظر فيها وجهه عند أخذ شاربه . وهو سنة بالاتفاق ، ويتأدى أصلها بقص الشارب بالمقص وبغيره ، ونقل عن ابن حزم القول بوجوب قص الشارب .

ونتف الإبْط : إزالة ما نبت فى باطن المنكب من الشعر بهذا الوجه ، والإبْط يذكر وقد يؤنث ، وتأبط الشيء : وضعه تحت إبْطه ، وهو سنة بالاتفاق . والسنة تتأدى بالحلق أيضاً ، ولكن لما كان هذا المكان محلا للرائحة الكريهة التى تنشأ من الوسخ الذى يجتمع فيه بالعرق ، فيتلبد ويهيج ، استحب النتف الذى يضعفه ، فتخف الرائحة بذلك ، بخلاف الحلق ؛ فإنه يقوى أصل الشعر ، ويغلظ جرمه ، ولهذا يصف الأطباء تكرار حلق الشعر فى المواضع التى يراد قوته فيها ، والإبط إذا قوى فيه الشعر وغلظ جرمه ، كان أفوح للرائحة الكريهة لمن يقاربها ، فناسب أن يسن فيه النتف المضعف لأصله ، المقلل للرائحة الكريهة .

وتقليم الأظفار : إزالة ما طال منها عن اللحم بمقص أو سكين أو غيرهما من الآلات ، ويكره ذلك بالأسنان ، والتقليم من القلم ، وهو القطع ، والأظفار جمع ظفر ، وإنما جمع ووحد السابق ؛ لأن الأظفار متعددة فى اليدين والرجلين ، والمعنى فيه أن الوسخ يجتمع تحتها فيستقذر ، وقد ينتهى إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله فى الطهارة ، والمستحب الاستقصاء فى الإزالة إلى حد لا يدخل منه ضرر على الإصبع وهو سنة بالاتفاق ، ولم يثبت فى ترتيب الأصابع عند القص شىء من الأحاديث ، ولكن ذكر النووى فى شرح مسلم أنه يستحب البداءة بمسبحة اليمنى ، ثم بالوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر ، ثم الإبهام ، وفى اليسرى بإبهامها إلى الخنصر ، ولم يذكر النووى مستنداً لهذا الاستحباب ، وتقليم الأظفار لا يتوقت بوقت ، والضابط فيه الاحتياج إليه ، فأى وقت يحتاج إليه الإنسان يفعله ، وقد استحب بعضهم دفن ما يقص من الشعر والظفر ، لكونها أجزاء من الآدمى .

* * *

قد يبدو لبعض الناس أن هذه الخصال ليست جوهرية ، وأنها ليست بمكان من الأهمية ، ولكن الواقع أنه يتعلق بها كثير من المصالح الدينية والدنيوية الجديرة بكل اعتبار وتقدير ، وهذه المصالح تدرك بالتتبع ، وتعرف بالتجربة ، فمنها تحسين الهيئـــة ، وتنظيف البدن جملة وتفصيلا ، والاحتياط للطهارتين ، والإحسان إلى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة ، ومخالفة شعار الكفار من المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان ، وامتثال أمر الشارع ، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » لما فى المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك ، إذ كأنه قيل : قد حسنت صوركم ، فلا تشوهوها بما يقبحها ، أو حافظوا على ما يستمر به حسنها ، وفى المحافظة عليها محافظة على المروءة ، وعلى التآلف المطلوب ، لأن الإنسان إذا بدا فى هيئة جميلة ، كان ذلك أدعى لانبساط النفس إليه ، وسرورها بمرآه ، فينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويقبل قوله ، ويحمد رأيه ، وإذا بدا فى هيئة مشوشة مشوهة أثار ذلك فى النفوس الاشمئزاز منه ، والازورار عنه ، والاحتقار له ، ولا يسمع له قول ، ولا يقام له وزن ، ولا تقدر له رغبة ، ولا ترعى له كرامة ، بسبب إهماله وتهاونه فيما ينبغى أن يكون عليه من نظافة الجسم ، وحسن السمت ، وجمال الهندام .

حكمة التفاوت بين الناس

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى

المفتش بالأزهر

سأل سائل عن معنى قوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » مع ثبوت التفاوت فى هذا الخلق على صور شتى ، بيان ذلك : أننا نرى الأرض الواحدة تنبت نوعاً من الثمر بذره واحد ، وغذاؤه واحد ، ويسقى بماء واحد ، ومع ذلك نرى تفاوتاً فى خلقه ، فهذه الثمرة حلوة ناضرة قوية فى تكوينها ، كأنما أدركتها عناية خاصة من بين أخواتها ، وتلك الثمرة ضعيفة ضئيلة حائلة اللون ، فاسدة الطعم ، متغيرة الرائحة ، حتى يكاد الناظر إليها يحسبها جنساً آخر غير الأولى وهى فى الحقيقة منها ولعلها أختها فى غصنها ، وبين هاتين ثمرات أخرى متفاوتات يقرب بعضها من الأولى وبعضها من الأخرى ، وقد جعل الله تعالى هذا التفاوت آية من آيات قدرته ، ونبه العقول إليه حيث يقول : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وكذلك نرى بعض البلاد يفضل بعضاً بما له من موقع حسن ، ومناخ حسن ، وبعضها يمتاز بجودة أرضه ، وصلاحية تربته للإنبات والزرع وإخراج الطيبات ، أو بما تنطوى عليه هذه الأرض من منابع الغنى ، وكنوز الثروة ، وإلى هذا يشير الله عز وجل بقوله « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا » فقوله « بإذن ربه » معناه بخلقه وتقديره وما فضله به على غيره ، فهذا نوع آخر من التفاوت .

والناس أكثر المخلوقات تفاوتاً ، فنهم الجميل ومنهم الدميم ، ومنهم الذكى ومنهم الغبى ، ومنهم الضعيف ومنهم القوى ، ومنهم الشجاع ومنهم الجبان ، ومنهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الرَّضِىُّ فى أخلاقه ، المحمود فى أفعاله ، ومنهم الجافى الغليظ الذى لا يطاق .

وإننا لنجد الأسرة الواحدة من رجل وامرأة يثمران أبناء وبنات يصل أمرهم فى التفاوت الخَلْق والخُلق الى مدى بعيد ، يُظن معه أن لا صلة بينهم .

وإلى هذا الاختلاف يشير القرآن الكريم فى كثير من آياته ، إذ يقول : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفى الله التفاوت بقوله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ؟

والجواب : أن التفاوت المنفى فى الآية غير التفاوت المثبت فى الآيات الاخرى ، وذلك أن الأشياء كلها متساوية غير متفاوته من حيث إنها جميعا مصنوعة بالحكمة مقدرة على سننها معطاة خلْقها، وما تصلح به وعليه فى نفسها ، وفى غيرها ، كما أنها مختلفة غير متساوية من حيث إنها أنواع يختص كل نوع بفائدة ، وأفراد يمتاز كل فرد بميزة ، والحكمة تقتضى هذا التفاوت ولا سيما فى الإنسان ؛ فلو أن الناس جميعا كانوا على شاكلة واحدة لبطل التعاون ، واختل نظام الحياة ، ذلك بأن الإنسان - كما يقولون - مدنى بطبعه يحتاج إلى من يعاونه ويقوم عنه ببعض شئونه ، فإنا لو تصورنا إنسانا منفردا ليس معه غيره لتصورناه مستوحشا كئيبا ناقص التصرف ، معطل المواهب ، مغلوبا على أمره ، لا يستطيع أن يصل إلى ما يصلح به أمره كإنسان . ولو أن الناس كانوا جميعا على غرار واحد فى الخلق والعلم والقوى والملكات والرزق والحظ ، لبطل التعاون أيضا ، واختل نظام الحياة ، فإن كل واحد يرى أنه كغيره ، ولا يعترف بفضل عليه لمن سواه ، فتبطل الآمال ، وتتعطل الأعمال ، وتموت الرغبات ، ولا تبقى الحياة ميدانا للتزاحم والتسابق ؛ لأن كل امرىء فيها آمن على نفسه وماله

ورزقه، متمتع فيها بحظه، لاتفاوت بينه وبين غيره، وليس هناك ما يدعوه إلى نشدان الكمال، أو التطلع إلى منزلة لم يبلغها، وهو يرنو ببصره إليها، وبهذا يصبح كل واحد فى الناس كأنه فرد برأسه، لم يخلق أحد سواه، لأنه وإن كان مجتمعا فيما ترى العين، يعيش بين أفراد من جنسه، ويروح ويغدو معهم، لكنه منقطع عنهم بآماله ورغباته، معتزل حياتهم، متجنب معترك النشاط والسعى والعمل.

لهذا كان من مقتضى الحكمة، أن يكون الناس فى سائر أحوالهم متفاوتين غير متساوين، وأن يحسن هـذا من الأعمال والصنائع مالا يحسنه ذاك، وأن يمنح هذا من المواهب والقوى مالا يمنحه ذاك، ليظل كل منهم معلقاً بمن سواه مشاركا له فى القيام ببعض أعبائه، متعاوناً معه فى عمارة الأرض، وتحقيق الخلافة فيها، مقبلا على ذلك برغبة فيه وميل إليه، وطمع فيما وراءه؛ وقد يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: «فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون». وقوله عز وجل: «قل كل يعمل على شاكلته»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له». فإننا لنرى كل ذى صنعة متمسكا بها، حريصاً عليها، وإن كابد فيها المتاعب، ولابس المشاق، ونرى كل صنف من الناس راضياً بنوعه، فلا الذكر يتمنى أن يكون أنثى ولا الأنثى تتمنى أن تكون ذكراً. وكل امرىء حريص على أن يصل إلى أحسن الحالات فيما يسر له، وفطر عليه.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المصلحة المترتبة على تفاوت الناس، واختلاف هممهم ومطالبهم وقواهم وتباين طبقاتهم بقوله فيما يروى عنه: «لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا».

هذا المعنى الواضح البين من شأنه أن يفتح عيون الناس على حقيقة يجب التسليم بها، والرضوخ لحكمها، هى أن كل نظام يبنى على مايخالف تلك السنة، ويحاول الناس فيه التسوية بين الأفراد، وقسمة الحظوظ بينهم على سواء، هو نظام فاسد عليل، لايمكن أن يبقى ولو أيدته القوة، وطنطنت به الدعاوات والخطب والكتب.

فليعلم ذلك أحلاس «الشيوعية»، ومروجو فتنتها، والمرجفون على الناس بها، وليسمعوا قول الله عز وجل فى كتابه الكريم: «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون».

بين الشريعة والقانون :

نظرات فى توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

أسلفنا لك أن التوثيق كما يكون واجبا أو مندوبا يكون مباحا، ويشهد لى بذلك فى حديث اليوم قوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم » .

قال القرطبى فى تفسير هذا : إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة ، أو إلا أن تكون المبايعة تجارة حاضرة الخ . . . ولما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك ورفع الجناح فيه فى كل مبايعة بنقد ... ا هـ .

فالتجارة الحاضرة معناها عند القرطبى ما كان البيع فيها منجزا بنقد ، وكلامه هذا متفق مع ظاهر الاستثناء ، إذ كان النهى عن سآمة الكتابة للدين . فإذا جيء بعده بالتجارة الحاضرة مستثناة من ذلك النهى كان الاستثناء منقطعا كما قالوا ، وكان حكمها غير حكم الدين ، كما هو مقتضى الاستثناء .

وإذا لم يكن التوثيق فى التجارة المنجزة مطلوبا لا إيجابا ولا ندبا ، ولم يكن منهيا عنه لا تحريما ولا كراهة ، فلم يبق إلا أن يكون مباحا .

ومدلول الاستثناء قد تأكد صراحة بقوله تعالى : « فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » . فنفى الجناح إبقاء للحال على أصله من الإباحة ، ولا يمنع ذلك أن يكون توثيقها مستحسنا فى ذاته لاعتبارات أخرى كضمان عهدة المبيع أو ثمنه ، وهو ما يعرف بضمان الدرك .

فمن شاء فى التجارة الحاضرة المدارة بين الأيدى فليوثق وليستوثق بالكتابة أو ما يقوم مقامها ، ومن لا فلا ، وذلك ما قصدت إثباته فيما قصدت أن أواجه به من قال بالوجوب مطلقا ، ومن قال بالندب مطلقا .

ومع أن القرطبى كما سبق ذهب إلى أن التجارة الحاضرة المستثناة من طلب

التوثيق ، هى ما كان البيع فيه بنقد ، فقد عقب على كلامه فى ذلك بتفصيل يتضمن أن المستثنى من التوثيق ، إنما يكون فى قليل ، كالمطعوم ونحوه ، وفيما كان ناجزا حصل فيه التقابض وانفصل كل من المتبايعين عن صاحبه .

أما ما يكون ذا شأن ، كالرباع والأرض والحيوان ، مما لا يقبل البينونة ، ولا يغاب عليه فيحسن الكتب فيه ويلحق بالدين فى ذلك ، فكلام القرطبى يقتضى أن هذا النوع الأخير ، وإن كان تجارة حاضرة فلا يتناوله الاستثناء ويحسن فيه الكتب حيث لم يحصل فيه تقابض ، وبين كلامه أولا وأخيرا مغايرة فى تفسير التجارة الحاضرة المستثناة ، فهى مرة البيع الناجز ، ومرة القليل ، كالمطعوم ونحوه . والذى أستظهره وأميل إليه : أن التجارة الحاضرة المستثناة تشمل ما كان منجزا بالفعل ، وما لم يكن منجزا بالفعل مما يديره التجار بينهم أخذا وعطاء ، ولم يكن مؤجلا إلى أجل مسمى وإن بلغ من القدر ما بلغ . ومثال ذلك : أن تذهب إلى الصائغ مثلا لابتياع حلى منه فإذا لم يجده عنده استمده من جاره وباع لك وقبض منك ، وبعد وقت ما يعطى جاره ثمن ما أخذ منه على حسب اصطلاحهم الجارى بينهم ، وذلك يجرى فى كثير من أنواع التجارات المنقولة ؛ فهذه الصورة وأمثالها تسمى تجارة حاضرة يديرها التجار بينهم وليست منجزة بالفعل ؛ إذ لم تقترن بالتقابض وليست مؤجلة إلى أجل مسمى ، ومع أن فيها شبها بالدين فاعتبارها منجزة أقرب ؛ حيث لم تؤجل ولم يطلب فيها التوثيق شرعا ، وتلك هى التى يتناولها الاستثناء تناولا أوليا ، ونظرا إلى ما فيها من شبه بالدين يكون الاستثناء متصلا ؛ إذ المستثنى منه دين مطلوب توثيقه ، والمستثنى تجارة تشبه الدين ، عفى عن الناس فى طلب توثيقها تخفيفاً ، وتيسيرا مراعاة لأن التجارة مبنية على سرعة الإنجاز ، وعدم التريث ، أو إغفال إدارتها للاشتغال بالتوثيق فى أمر لاتشتد الحاجة إلى توثيقه ، لأنه معتبر كالناجز حيث لاتأجيل فيه .

ذلك الفرع أولى بالاستثناء من المنجز الذى ذهب إليه القرطبى ، إذ لا يعتبر دينا ولا شبه دين ، ولا معنى لإقحام المنجز فى مقام الاستثناء من الدين ، وللمنجز كلام يخصه فى الإشهاد على البيع ، فكيف نعرض له هنا ونتكلف استثناءه من حكم الدين وهو أجنبى عنه ؟

ذلك النوع أولى بالاستثناء ، بل هو المقصود بالذات فيما أرجح ، وإلا فلا إرفاق

بالناس فى حالاتهم التى صورتها بالمثال إذا لم تكن التجارة الحاضرة التى تدار فى البين كما فسرتها ، وذلك أمر فاش فى الأسواق والمتاجر كما يرى من خالط وتعرف .

والمصلحة التى اقتضت التوثيق فى الديون هى التى اقتضت التسامح فى هذه الحال من أحوال التجار والتجارة . والذى ننتهى إليه من هذا السياق هو أن الله تعالى أوجب التوثيق وأكد الطلب فى صيغ كثيرة ، وذلك يوحى أنه لا فرق بين التجارة الحاضرة وغيرها ، ولما كانت التجارة الحاضرة بحاجة إلى شىء من الهوادة لانتهاز الفرص فيها ، نص الله تعالى على إخراجها من طلب التوثيق فيها بالكتابة وجعل الناس فى خيار من ذلك تشجيعا لهم على التعاون وتدارك الأرباح .

ووصف التجارة المستثناة بالحاضرة ليس حتما أن تكون القليلة أو المنجزة التى انفصل فيها المتبايعان كما يقول القرطبى ، وقد وضح ماجنحت إليه فى تحديدها .

وخرج بوصف الحاضرة التجارة الغائبة عن محل العقد ، كما إذا وقع البيع فى بضاعة غائبة ريثما تنتقل وتصل من جهة الى جهة على نحو ما يقع بين التجار ، فتلك لاحقة بالسلم أو غيره من المداينات ، فحكمها على الأصل وليست من المستثنى .

وخرج بوصف « تديرونها بينكم » التجارة التى لا تدار فى البين ، كالتى يجرى فيها التبادل بين تاجر فى جهة وتاجر آخر فى جهة نائية بواسطة البريد أو الجمرك يقوم عنهما فى التسليم والتسلم ، وكذلك التى تجرى بين تاجر وغير تاجر من سواد الناس ، فكلا النوعين ليس من المستثنى لخلوهما من الوصفين ؛ ولأن الشأن فيهما ليس على التعجل وانتهاز الفرصة كالتى ذكرنا .

وقد بان أن الاستثناء أولا ونفى الجناح فى عدم الكتب ثانيا إيذان بالإباحة يكاد يكون فى قوة المنصوص عليه بشأن إباحة التوثيق فيها .

والإباحة هى القسم الكاشف الذى سلف لى أن صرحت بقصدى إلى إثباته ؛ وفى ذلك اطمئنان وكفى .

هذا وقد استوعبت كلام جمهرة من المفسرين الذين تبسطوا فى القول ، وأفسحوا مجال الفهم للآيات واستنباط ما فيها من الأحكام ، فلم أر لواحد منهم كلاما جديدا بعد عن كلام القرطبى وابن جرير ، ولم أر لواحد منهم حظرا يمنع أن يفهم فاهم ماذهبت إليه من أن القول بإيجاب التوثيق لا يطرد فى كل شىء ، وأن القول بالندب لا يطرد فى كل شىء .

وأن للعرف دخلا فى توجيه النصوص الكريمة لآية الدين وتطبيقها ، وتنويع التوثيق إلى واجب ومندوب ومباح ، وضبط المعاملة على ما ينبغى من ذلك .

الإصلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٢ —

عنى الإسلام بالأسرة ؛ لأن الأمة مجموعة من الأسرة ، والأسرة صورة مصغرة من الأمة ؛ فإذا تألفت الأمة من أسر قوية كانت قوية ، وإن تألفت من أسر ضعيفة كانت ضعيفة . وإن لم تكن هناك أسرة فليست هناك أمة ؛ لذلك عنى الإسلام بتوطيد دعائم الأسرة ؛ فسن لها نظاما قويما ، يحفظ كيانها ، ويشد عضدها ، ويقوى أواصرها ، ويضمن لها حياة سعيدة حميدة موفقة . ربط الزوجين برباط من السماء ، وجعل لكل منهما على الآخر حقوقا قررها الشارع وبيّنها ، كما جعل للوالدين على أولادهم حقوقا ، وللأولاد على والديهم حقوقا ، وسن لهم نظام الميراث ، ليؤكد الصلة بينهم ، ويقوى الرابطة فيهم ، وأمر الآباء بالعدل بين أبنائهم حتى في القبل كي لا تتولد في قلوبهم الضغينة من الصغر ، ولينشأوا على الشعور بالحب المتبادل بينهم منذ الطفولة . أى شيء ترمى إليه الشريعة الإسلامية من وراء هذا كله سوى خير البشر وإسعاده ، وحياطة المجتمع الإنسانى ، وتثبيت دعائمه حتى لا ينهار .

ومن الأمور التى قررها الدين الإسلامى حفظ المال بشتى الوسائل ، فشرع قطع يد السارق ، وأجاز دفع الصائل حتى الموت . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ » قال : « فلا تعطه مالك » فقال : « أرأيت إن قاتلنى ؟ » قال : « قاتله » قال : « أرأيت إن قتلنى ؟ » قال : « فأنت شهيد » قال « أرأيت إن قتلته ؟ » قال : « هو فى النار » رواه مسلم وأحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد » متفق عليه . وفى لفظ « من أريد ماله بغير حق ، فقاتل فقُتل ، فهو شهيد » .

من هذه الأحاديث الصحيحة نعـلم أن الدين الإسلامى يحترم الملكية ولا يهدرها ، ويجعل لصاحب المـال الحق كل الحق فى الذود عن ماله ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدى وسفك دمه .

نعم اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الناس متفاوتين فى الثروه : « والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ، « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سُخريا » .

والمعنى أنه سبحانه وتعالى لم يفوض قسمة أسباب معيشة الخلق إليهم لعلمه بعجزهم عن تدبيرها ، فقسم الأرزاق قسمة تقتضيها مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة فى الرزق وسائر مبادىء المعاش ، فمن ضعيف وقوى ، وفقير وغنى ، وخادم ومخدوم ، وحاكم ومحكوم . « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » أى يصرّف بعضهم بعضا فى مصالحهم ، ويستخدموهم فى مهامهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم ، لا لكمال فى الموسع ، ولا لنقص فى المقتر ، ولو فوض ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا ؛ إذ لو كانوا فى مستوى واحد من المعيشة لاختل التوازن ، وتعطل دولاب الحياة . على أن الدين الإسلامى لم يترك للغنى ماله من غير أن يجعل للفقراء والمساكين نصيبا فيه ، يسد منه عوزهم ، ويطعم جائعهم ، يكسى عاريهم ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها » وقال تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وقال تعـالى : « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » .

فى هذه الآيات ، وفى الأحاديث الصحيحة الكثيرة الدليل القـاطع على أن هناك حقاً مقررا ، وفريضه مفروضة ، تجب على كل مالك بلغ ماله النصاب . وقد فصلت الشريعة الإسلامية ذلك كله مسهبا فى باب الزكاة .

فرض الله على الأغنياء نصيباً فى أموالهم ، يؤدى للفقراء والمساكين وغيرهم ، وهو نصيب لا يتحيف مال الغنى ، ولا يقصر عن الوفاء بحاجة الفقير ، فلو أن الغنى شعر بواجبه ، وحسنت نيته ، ورقت عاطفته ، وحاسب نفسه ، فأدى إلى

الفقير حقه في ماله ، ما رأينا فقيرا يتلوى من الجوع . ولو أن أولى الأمر قاموا باستخلاص هـذا الحق ممن وجب عليهم ، وأوصلوه إلى ذويه لما كان بيننا عارٍ ولا جائع ولا محروم .

لقد كانت هذه سبيل حكومات المسلمين في صدر الإسلام ، فقاتل أبو بكر وعمر مانعي الزكاة ، واستخلصوها من أيديهم لبيت المال ، واستمر الأمر على ذلك قرونا عديدة ، فما سمعنا بشيء من حرب الطبقات طيلة هذه القرون الزاهية بالحضارة والعمران من الخليج الفارسي إلى شواطيء المحيط الأطلسي . وما كان ذلك كله إلا بفضل التشريع السماوي إذ ذاك ؛ شرع الله الذي خلق الداء وقدر له الدواء .

ومن أجلّ المبادىء التي عنى بها الإسلام فكرة الإخوة الإنسانية ، فقد نبه القرآن الكريم إلى وحدة الأبوين ، الداعية إلى التعاون والتعارف والتناصر والتحاب بين بني الإنسان ، ونهى عن التفاخر بالأنساب ، ووضع مقياس التفاضل بين الناس ، فجعله التقوى لا الجنس ، ولا المال ولا القوة .

قال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : « يأيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

ومن مبادىء الإسلام السامية إحسان معاشرة المسلمين لغيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا في حالة العدوان ، وفي القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وقد عمل رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وخلفاؤه من بعده ، على وفق هـذه المبادىء السامية حتى أبيح الإصهار إلى أهل الكتاب ، مع ترك الحرية للزوجة ، وعدم منعها من إقامة شعائر دينها .

ومن أسمى مبادئه إقامة العدل بين الناس حتى غير المسلمين منهم ؛ قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء

والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ، وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ؛ اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

لقد عرف الشرق بروحيته ، وأنه مهبط الوحى ، ومنبع الديانات ، ومبعث النبوات ، وموطن الفضائل ، فيه غرست ، وفيه نمت وترعرعت .

عرف الشرق بهذا ، بينما عرف الغرب بمادته ، وأنه مشرق العلوم ، ومهد الاختراعات ، ومنبع الاكتشافات . وهذا ما حمل بعض الناس على أن يجعل تقدم الغرب نتيجة لمادته وتأخر الشرق نتيجة لروحيته ، فأخذ ينظر إلى الغرب نظرة إعظام وإكبار ، وإلى الشرق نظرة ازدراء واحتقار . وإن نظرة واحدة إلى الشرق : إلى الجزء الممتد منه بين المحيط الأطلسى غرباً ، وحدود الصين شرقا ، ترينا كيف استفادت الإنسانية من الروحية ، وكيف أثرت الروحية فى الأجناس المختلفة ، فأزالت مابينها من فوارق جنسية ، وقطعت مابينها من حواجز طبيعية .

فهذه مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، ومصر ، والسودان ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وتركيا ، وشرق الأردن ، وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، والهند ، وأفغانستان ، وأندونيسيا ، وتركستان ؛ أمم متعددة ، وألسنة مختلفة ، وألوان متغايرة ، وطبائع متباينة .

ومع هذا قد أصبحت هذه الأمم كلها أمة واحدة بفضل الروحية التى أذابت هذه الاختلافات ، فحولتها إلى أمر جامع يدفع الكل بقوة واحدة لا تختلف .

جعلت ساكن مراكش يحس بإحساس ساكن أندونيسيا : يألم لألمه ، ويفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، كأنما الجميع أسرة واحدة ، بل أعضاء جسم واحد ، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر البدن بالحمى والسهر ، يسود الجميع شعور واحد : هو أن الإنسانية وحدة موزعة على أقطار الأرض ؛ فليس لأمة أن تعتدى على أرض أمة أخرى ، أو تحاول تسخيرها أو استغلالها أو التسلط عليها ؛ بل يجب أن يعيش الجمع القليل كالجمع الكثير ، والضعيف كالقوى ، فى تحرز من الخوف والعوز والعدوان .

ولهذا نجد بين أمم الشرق من التحاب والتواد ورغبة كل منها فى خير الأخرى ما تقر به عين الإنسان .

أما الغرب الغالى فى ماديته ، فإنه يجنى المر من ثمارها ، فقد قطعت أوصاله ، وجعلته شيعاً متنافرة ، وأحلت بينها العداوة والبغضاء والحسد ، يتربص بعضها ببعض الدوائر ، ويحاول أن يبنى مجده على أنقاض غيره . وليس هذا بين الأمم التى تباعدت أصولها فحسب ؛ بل بين الأمم التى يجمعها أصل واحد .

فهذه الدول التى تنتهى إلى الأصل اللاتينى فى أوربا ، كالتى تنتهى إلى الأصل الجرمانى ، نرى بينهما من النزاع والصراع ، ما قضى على وحدة الأصل ، وجعل من الأخوين عدوين ، يتمنى كل منهما لأخيه الهلاك والدمار .

إذا حكمنا على الغرب هذا الحكم ، فإن ذلك ليس على سبيل التعميم ، فأنا لا أعتقد أن الأمم الغربية كلها مادية ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا يمكنه أن يكون مادياً صرفاً ، فهنالك مايزال المثل الأعلى للنشاط الإنسانى روحياً ؛ فالأوربى ينفق عمره فى فهم المعارف ، وخدمة الوطن والإنسانية . والمادى مهما غلا فى ماديته لا يمكن أن ينكر أو يتجاهل ما يترتب على عمله من خدمة البشرية .

وقد لاحظت — وأنا فى فرنسا — فى أوساط كثيرة اتجاها روحيا يزداد على مر الأيام ، ويتسع نطاقه ، وشاهدت كثيراً من المتدينين يصدرون فى أعمالهم عن روح دينية عميقة ، بل شاهدت فى غير المتدينين استعداداً عظيما لفهم الروحية والاعتراف بفضلها ، والأخذ بها ، ويعتقد الكثيرون منهم أن ما أصاب الإنسانية من الويلات إنما هو نتيجة ترك الدين ، ولهذا أخذ الميل إلى الدين يتجدد ويقوى ، والشعور الدينى يزداد ويعظم فى النفوس إلى حد أن تألفت أحزاب سياسية أطلقت عليها أسماء دينية .

وإنا ليسرنا أن نرى الشرق ينهض عاملا على مجاراة الغرب أخذاً بأسباب مدنيته بما فيها من مادية لابد منها ، كما يسرنا أن نسجل للغرب سريان الروحية فى حضارته المادية .

يسرنا أن نرى هذا التوفيق الجديد بين الدين والعلم ، بين الروح والمادة . وهذا يبشر بخير عظيم تجنيه الإنسانية من وراء هذا التوفيق .

التقليد وخطره

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

ا — التقليد ظاهرة اجتماعية .

ب — يكون فى الخير والشر ، ولا بد منه للطفل .

حـ — يكون من الفرد والجماعة .

من الظواهر الاجتماعية التى نراها فى كل عصر وبيئة من زمان ومكان ، ظاهرة التقليد . وإذا كان لكل ظاهرة سبب أو أسباب تظهر بظهورها وتذهب بذهابها ، فإن السبب الأول للتقليد هو الاجتماع .

إنه إذا اجتمع بضعة أفراد فى فصل من فصول المدرسة ، أو عمل من الأعمال مهما كان ذلك العمل ، وجدنا بعضهم يتبع فى بعض ما يعمل البعض الآخر ، ويكون هذا بدافع المحاكاة التى لا يلتفت أول الأمر لتعليلها ، أو بسبب ما يحسّ به المقلّد من ضعف فى نفسه ، ومن قوة فيمن اتخذه قدوة له فى بعض ما يأتى أو يذر من أموره .

وقد يجتمع فى فرد واحد ، وفى وقت واحد ، هذه الظاهرة وضدها . نعنى أنه قد يكون الشخص الواحد مقلدا فى بعض ما يفعل لآبائه وأسلافه وللعلية من قومه المعاصرين له ، وإن اعتقد أنه من المستقلين فى الفكر والرأى ، ومن المحافظين على هذا الاستقلال والمعتزّين به ، وهذا ، كما هو واضح ، من الغرابة بمكان .

ولنضرب لذلك بعض الأمثال من تاريخنا المعروف فى القديم والحديث :

جاء الرسول الكريم محمد بن عبد الله بدين جديد يريد أن يقيم عليه عالما جديدا ، غير الأديان التى ألفتها أمم ذلك العصر القديم . وكان هذا الدين يتطلب ممن يريد اتباعه هجر ضلالات الدين الغابر التى كان عليها أسلافه الماضون ، وآباؤه ولداته المعاصرون .

وكان أن وازنت فئة قليلة أول الأمر ، بين ما كانوا عليه من وثنية ترين على الصدر وتلغى العقل ، وبين ما يدعو إليه الدين الجديد من عبادة إله واحد تقوم الأدلة على وجوده ويصل إليه العقل بتفكيره . وخرجت هذه الفئة من الموازنة نابذة الماضى وتقليده ، مؤمنة بالرسالة الجديدة .

لكن الأكثرين رأوا أول الأمر أيضاً ، أن فى الدخول فى الإسلام تسفيها لأحلام أسلافهم ، وتخطئة لتفكيرهم ، واتباعا لفتى رقيق الحال ضعيف الجانب من فتيانهم ، وإن كان من أشرفهم قبيلة وأوسطهم نسباً . ومن ذلك جمدوا على ما ورثوه من عقيدة ودين ، مع وضوح ما فى ذلك من باطل حتى ليقول بعضهم :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

ويقول أيضاً :

فوالله لولا أن تجىء بِسُبَّة تُجرّ على أشياخنا فى المحافل
لكُنّا اتبعناه على كل حالةٍ من القول جدا غير قول التهازُل
لقد علموا أن ابننا لا مكذَّب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

وكانوا مع هذا ، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؛ إذ نأوا بأنفسهم عن ذل التقليد وصَغار الاتباع .

هكذا ، كانوا يعتقدون ، مع أنهم فى واقع الأمر ، إذا حللنا موقفهم إلى أسبابه الأولى ، ليسوا إلا مقلدين للآباء فيما ورثوا من دين ، وليسوا إلا بعيدين عن الاستقلال فى التفكير والرأى ؛ هذا الاستقلال فى الرأى والفكر الذى كان السبب فى سبق من سبق للإسلام ونبذ ما كان عليه من دين الأسلاف .

ومن هذا كانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ؛ فيرد عليهم الرسول بقوله : «قال أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » !

إذاً هذه الحالة وأمثالها ، وإن ظُنَّ فيها الاستقلال فى الرأى ، هى مما اختلط فيه الجانبان ، بل هى أدنى إلى التقليد ، ومن ثم كان نعيُ القرآن على من تأخر عن الإسلام استمساكا بدين الآباء ، بل إننا لنرى أن إسلام كثير من هؤلاء عام الفتح - وقد كثر المسلمون وقوى الإسلام وأخذ سبيله إلى الانتشار - كان تقليدا أيضا واتباعا للرأى الغالب .

على أنه لا عيب فى التقليد فى الحق من الرأى والخير من العمل . ذلك بأن التقليد يكون فى الخير كما يكون فى الشر ، ومن ثم كان أثر القُدَى الصالحة الطيبة ؛ والقُدَى الطالحة الخبيثة فى تنشئة الطفل وتربيته .

يقلد الطفل والناشىء فى فجر حياته أبويه وإخوته الكبار فيما يعملون ، وفى بعض ذلك خير كما فى بعضه شر . ثم يقلد لداته ورفقاءه فى كثير مما يرى منهم . ثم يقلد أخيرا معلميه ويتخذ من بعضهم مُثله العليا .

هذا النوع من التقليد : تقليد الصغير فى المنزل ، والمتعلم فى المدرسة ، والشاب فى المصنع ، أمر لا بد منه ولا حيلة فيه . إنه ضرورى حقا ليصل الصغير إلى معرفة كثير من الأمور . ثم لينفذ من ذلك إلى تكميل نفسه فيما بعد . وهذا بمعرفة أن له شخصية يجب أن تتكوَّن ، وأن تكون مستقلة بمقدار ما يمكن أن يكون هذا الاستقلال ، وبمعرفة أن له عقلا يجب أن يفكر ليدرك أن هذا العمل شر فى نفسه ، وإن أجمع عليه أبواه ومعلموه والناس جميعاً ، وأن ذاك العمل الآخر خير فى نفسه ، وإن كان قليل الأنصار .

والنتيجة لهذا وذاك : أن ينأى عن التقليد وأن يأخذ فى الاستقلال فى الرأى والتفكير والعمل ، مع الحذر أن يقع فى الإغراب فيما يرى ؛ لأنه إغراب ، لا لأنه حق وخير .

ومن الواضح بعد هذا ، أن التقليد فى هذه المرحلة بصفة خاصة سنة من سنن الطبيعة لا بد أن ننزل على حكمها ، ثم علينا متى تقدمت بنا السن والعقل أن نحد منها ، وبمقدار ما نحد منها تتكون الشخصية ويظهر الاستقلال .

والتقليد ، كما نراه فى المرحلة أو المراحل الأولى من حياة الفرد الذى لا يزال فى دور تكوين الشخصية ، نراه كذلك فى حياة الجماعات فى أول أمرها ، وفى حياة الهيئات التى تحس من نفسها الضعف ، ويعوزها الابتكار والأصالة فى التفكير والعمل ، وفى حياة الأمة التى ترى نفسها دون غيرها حضارة ورقيا . وهو فى هذا كله قد يكون فى الخير ، كما قد يكون فى غير الخير ، والمثل لذلك جد معروفة .

ولكن لعل من الطريف أن نشير الى تقليد كلية دار العلوم لكلية الآداب فى الكثير من أمورها ، ثم تقليد كلية اللغة عندنا فى الأزهر لدار العلوم ، ثم تقليد كلية أصول الدين لكلية اللغة ، والدور الآن دور كلية الشريعة ! .

ومثال آخر من تقليد الهيئات والجماعات : كان الأزهر كما نعرف جميعا إلى مفتتح هذا القرن العشرين طليقا فى دراساته وامتحاناته ، يتلقى الطالب العلم الذى يحب على من يحب من الشيوخ ، ثم يتقدم الى الامتحان متى احس من نفسه القدرة والكفاءة .

ثم أرادت الحكومة وشيوخه إصلاحه كما زعموا ، فأدخل عليه كثير من القيود حتى أصبحنا هذه الأيام ، وإذا به يقلد وزارة المعارف فى كل شىء تقريبا ، وبهذا فقد الكثير من أصالته !

أما تقليد الأمة كلها فى كثير من أمورنا العامة ، فأوضح من أن يحتاج لأن يُدل عليه . ومع هذا فإنى أشير إشارات عابرة إلى أثر ذلك فى التعليم والدستور والقوانين ونظم القضاء . وليس ببعيد منا ما كان من فرض قانون مدنى جديد ، قدمه واضعه بعد أن صاغه من مِزَقٍ مختلفة من قوانين الغرب ، متناسيا أن ما به تصلح أمة فى الغرب ، قد لا تصلح به أمة فى الشرق لاختلاف ظروف الزمان والمكان والدين أيضا . [للبحث بقية]



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد

— ٢ —

الإمام الليث بن سعد يعتبر مفخرة مصر فى أواخر القرن الأول للهجرة ؛ إذ كان إماما حجة ثبتا فى الفقه والحديث ، كما كان من سادات أهل زمانه حفظاً وفضلا وكرما ، كما اشتهر برفعة القدر وعلو المكانة ، فقد أدرك نيفاً وخمسين رجلا من التابعين ونهل من علمهم وفضلهم الكثير ، ولم يترك وسيلة فى سبيل العلم إلا أخذ بها ، فقد شد رحاله إلى الحجاز ليغترف من بحار علمائه ، كما طوف بأرض العراق باحثاً منقباً عن العلم والعلماء ؛ ليضم من علومهم إلى علمه الفياض . وهو لذلك كان نهما فى العلم لا يشبع ، وظامئاً إلى ورده لا يروى ، وهو فى ذلك كله يبحث عن الكمال فى العلم ، والقصد إلى بلوغ الغاية فى علوم الدين ، فتم له ما أراد إذ كان أفضل أهل زمانه فقها وحديثا وحفظا وفضلا كما أسلفنا ؛ حتى أصبح إمام مصر وفقيهها غير منازع .

مولده ونشأته : ولد رضى الله عنه ببلدة قلقشندة (إحدى قرى مديرية القليوبية) سنة أربع وتسعين للهجرة . ثم حفظ القرآن الكريم وتفقه على شيوخ مصر وأخذ عنهم ، وإليهم يرجع الفضل فى تثقيفه ثم نبوغه فى الفقه والحديث ، فقد كان يقوم عليه علماء المدينة وعلماء الشام وهو شاب فيناظرهم جميعاً ثم يحوز قصب السبق ، مما جعلهم يعترفون بفضله وغزارة علمه ، ويدعونه إماما إرهاصا منهم بما سيأتى به المستقبل .

شهادة الأئمة بسعة علمه : شهد له الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه بأنه أفقه من مالك بن أنس . كما شهد له الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه بأنه ليس فى المصريين من هو أثبت من الليث بن سعد ، وأنه كثير العلم صحيح الحديث . كما شهد له يحي بن بكير بذلك ولكن كانت الحظوة لمالك ، وهو فوق ذلك من شيوخ الإمام البخارى راوى الحديث ، وأساتذته . كل ذلك يدل على سعة علمه وعظم فضله ، وعلو كعبه فى علوم الدين . ومن رسالته التى سننشرها بعد تؤخذ طريقته التى كان يؤثرها فى البحث العلمى .

مكانته عند الخلفاء والولاة : ولسعة علمه ورجاحة عقله وبعد نظره وسديد رأيه كان الأمراء بمصر لا يقطعون أمراً دونه ، كما كان يوصى الخلفاء بالأخذ عنه ليقينهم أن ليس فى زمانه أعلم منه ، كما أن الحادثة التى وقعت بينه وبين أمير المؤمنين هارون الرشيد تدل على رسوخه فى العلم وعلو قدره فى الإفتاء ؛ فقد جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا ، ثم كتب إلى البلدان فاستحضروا علماءها اليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس وهو الليث بن سعد ، فسأله قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدنينى أمير المؤمنين فأدناه ، فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال أمسك يا أمير المؤمنين . فأمسك . فقال : قل : إنى أخاف مقام ربى ، فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليست بجنة واحدة . عند ذلك سمع التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال له الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرما . وأية مكانة لإمام أعظم من هذه المكانة ، وأى قدر أعلى من هذا القدر وأكرم إلا أن يكون صاحبهما الإمام الليث بعلمه وفقهه وبصره النافذ لبواطن الأمور ؟

كرمه وسخاؤه : ولهذه المكانة العظمى التى بلغها فى العلم أغدق عليه الخلفاء والولاة العطايا : فاكتظت بها داره وامتلأت بها رحابه ، حتى أصبح من ذوى الثراء الواسع والمال الوافر ، فقد بلغ دخله السنوى مائة ألف دينار ، إلا أنه لم يكنزها ويوصد دونها الأبواب ، بل أخذ يوزعها على الفقراء والمساكين حتى لم تجب عليه الزكاة ، لأنها لم تمض عليها سنة كاملة وهى فى حوزته ، بل كان ينفقها فى كرم واسع وسخاء منقطع النظير .

أرسل له الامام مالك رضى الله عنه يطلب قليلا من العصفر لصبغ ثياب تلاميذه ، فأرسل اليه مقدارا من العصفر يقول الامام مالك فى وصفه : إنه صبغ منه ثياب تلاميذه وثيابه وثياب جيرانه وما بقى بيع بألف دينار ، كما أهدى اليه الإمام مالك طبقا من تمر المدينة فأعاده اليه مملوءا بالذهب ، كما كان يهب للإمام مالك كل سنة ألف دينار ، وذلك سخاء دونه كل سخاء ، كما كان مضرب المثل فى الكرم والإحسان ، حتى إنه كان ينفق على سبعين بيتا من بيوت الأرامل ، فيحيل عسرها وكآبتها يسرا وسرورا ، وقد جاءته امرأة تطلب رطلا من العسل لمرض زوجها فأمر الخادم بإعطائها قنطارا ، فقال له يا إمام : إنها طلبت رطلا . فقال : هى سألت بقدرها ونحن نعطيها بقدرنا .

كل هذا يدلنا على أنه كان مطبوعا على الكرم ، مجبولا على السخاء والجود ، وأنه كان يمضى فى ذلك بحب خالط نفسه واستولى على قلبه ووجدانه جعله يحسن حبا فى الإحسان ، ماضيا فى ذلك على سنة النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم .

ورعه وزهده : ومع أنه كان ينافس الريح كرما وسخاء ، كان لا ينال من موائده إلا الفتات ، وهذا منتهى الزهد ، إذ لا يمتنع عن اللذائذ وأنواع الترف ثم يقدمها هدية للناس إلا من بلغ من الزهد غايته ومن التقشف نهايته ؛ ذلك إلى صلاحه الذى يحدثنا هو عنه حيث يقول : « والذى نفسى بيده إنى لأعرف رجلا لم يفعل محرما قط ، يعنى نفسه . على أن قول الشافعى فى رثائه « لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم قبلك : العلم والعمل والزهد والكرم » يدل على ما طبعت عليه نفسه من التفانى فى الله والعزوف عن مفاتن الحياة .

وفاته رضى الله عنه : عمر الإمام الليث حياة طويلة مديدة قضاها فى نشر العلم والصلاح والتقوى ، فقد توفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، وعمره إحدى وثمانين سنة . رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين والعلم وأهله خير الجزاء .

ورسالة الإمام الليث بن سعد المصرى إلى الإمام مالك بن أنس المدنى آية من آيات النبل ، وسمو الأدب فى البحث والمناظرة ، على ما فيها من قرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، ولست تشعر حين تقرأ هذه الرسالة بشىء يمس الكرامة أو تلمح ما يؤذى الشعور .

قال الليث رحمه الله :

« سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ـ عافانا الله ، وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ـ ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فيها جميلا إلا أنى لم أذكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق علىّ الخوف على نفسى لاعتماد من قبل على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيهم فيما اتفقوا عليه منى ؛ والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له .

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرى أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه

فكما ذكرت وأما ما ذكرت من قول الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ؛ بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال وقد عرفت أيضا عيب إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، لم يجمع منهم إمام قط فى ليلة مطر وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ويأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برتوة » خطوة ، وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح .

وكان أبو ذر بمصر والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص — وبحمص سبعون من أهل بدر وبأجناد المسلمين كلها — وبالعراق ابن مسعود وحذيفة

ابن اليمان وعمران بن حصين ، ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه سنين وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والجد فى إقامة الدين والإصابة فى الرأى والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب إليه زريق بن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه : إنا كنا نقضى بذاك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين . ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا .

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لإمرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، ومن ذلك قولهم فى الإيلاء : إنه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف وأن مرت الأربعة الأشهر وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذى كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الإيلاء الذى ذكره الله فى كتابه لا يحل للمولى إذا بلغ الأجل إلا أن يفىء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون أن لبث بعد الأربعة الأشهر التى سن الله فى كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قالوا فى الإيلاء : إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة بائنة . وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب : إذا مضت الأربعة الأشهر

فهى تطليقة وله الرجعة فى العدة — ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهى تطليقة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا فهى تطليقة . وقضى بذلك عبد الملك بن مروان . وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقوله . وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا بانت منه،ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها ، إلا أن يرد عليها فى مجلسه فيقول : إنما ملكتك واحدة فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته — ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول : أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات . وكان ربيعه يقول ذلك . وإن تزوجت المرأة الحرة عبدا فاشترته فمثل ذلك — وقد بلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها وقد كنت كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتابى فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت إليك فى شىء مما أنكره .

وفيما أوردت فيه على رأيك وذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة فأعظمت ذلك : لأن الخطبة فى الاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول ردائه ثم نزل فصلى . وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو ابن حزم وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه .

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين فى المال أنه لا تجب عليهما الصدقة، حتى يكون لكل واحد منهما ماتجب فيه الصدقة . وفى كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان ذلك يعمل به فى ولاية عمر ابن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذى حدثنا به يحى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره .

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول : إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشترى طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه ،وكان

الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً ، أو أنفق المشترى منها شيئاً فليست بعينها .

ومن ذلك أنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث، والأمة كلها على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقيا لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغي لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالفه الأمة أجمعين .

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتابة إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل لك فإنى أسر بذلك . كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله .

الجود

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصطناع المعروف يقى مصارع السوء » . وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » أى رديئها .

قال الحسن والحسين رضى الله عنهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت فى بذل المال . قال بأبى وأمى أنتما ، إن الله قد عودنى أن يتفضل على ، وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى .

وقال المأمون لمحمد بن عبد الله المهلبى : أنت متلاف . قال : منع الجود سوء الظن بالمعبود ، يقول الله عز وجل : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » .



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

الأذين الأيسر ، والأذين الأيمن

يذكر هذان التعبيران فى تشريح القلب . وهما ترجمتان لتعبيرين أفرنجيين . فالأذين الأيمن ترجمة Oreillette droite ، والأذين الأيسر ترجمة Oreillette gauche فى الفرنسية . والذى يعنينا فى هذا الموطن التنبيه على أن صيغة الأذين بالتذكير لا تصح فى العربية ، وأن الواجب فيها الأذينة . وذلك أنه يراد تصغير الأذن ، والأذن مؤنث البتة ، فلا بد من اختتام مصغرها بالتاء ، كما يقال فى تصغير عين : عيينة وسن سُنينة . فالوجه أن يقال : الأذينة اليمنى ، والأذينة اليسرى ، ومن أعلام العرب أذينة ، وهو تصغير أذن سمى به مصغّرا ، ولو سميت رجلا بأذن ثم صغّرته قلت : أذين إذ إنك إنما صغّرت متذكراً ، كما لو سميت رجلا بعين ، تقول فى تصغيره : عُيَين ، قال سيبويه فى الكتاب : « وإذا سميت رجلا بعين أو أذن فتحقيره بغيرها ، وتدع الهاء هنا . . . ويونس يدخل الهاء ويحتج بأذينة وإنما سمى بمحقر » ، وأذينة من ملوك العماليق . وعروة بن أذينة شاعر غزل رقيق أموى ، وكان مع هذا من العلماء والمحدثين فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يقول فى الغزل :

إن التى زعمت فؤادك ملّها	خلقت هواك ، كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها	بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيّتها فقلت لصاحبى	ما كان أكثرها لنا وأقلها

وهذه الأبيات من غزل حماسة أبى تمام .

لفته إلى الواجب عليه

يرى القراء هذا الاستعمال كثيراً فى المقالات والأخبار، وفيه قرن اللفت ومشتقاته بالحرف إلى، ويراد توجيه الشيء نحو أمر معيّن. وفى اصطلاح الدواوين عبارة «لفت نظر الموظّف» ويراد به تنبيهه على هفوة فرطت منه، وإنذاره ألا يعود إليها.

ويرى بعض المعنيين بالعربية إنكار هذا إذ لم يرد فى المأثور عن العرب، ولا ذكره أصحاب المعاجم. وإنما الوارد قرن هذه المادة بالحرف عن، ويراد حينئذ الصَّرْف والثَّنْى واللىّ. فيقال لفته عن السفر أى لواه عنه وصرفه. وفى الكتاب العزيز فى سورة يونس: «قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين».

ويبدو أن معنى الصرف عن الشيء فى هذه المادة جاء من قِبل الحرف عَنْ، ولا موجب للزوم هذا الحرف، وإن وردت المادّة به، فإذا قرنت المادة بالحرف إلى كان معناها التوجيه والتسديد: وذلك أن اللفت فى الأصل الصرف واللى، يقول فى المصباح: «لفته لفتا – من باب ضرب – : صرفه إلى ذات اليمين والشمال»، وأنت إذا صرفت إنساناً نحو شيء فقد وجهته إليه. وكما أن الصرف يقرن بعن وإلى فكذلك اللفت الذى هو بمعناه. ومما يؤيد ذلك ورود التفت نحوه، والتفت إليه، والتفت مطاوع لفت، وورود المطاوع فرع أصله وفهو دليل عليه. وفى اللغة أفعال يختلف معناها بالحرف، من ذلك رغب. يقال: رغب فيه ورغب عنه، وعدل، وتولىّ، يقال: تولى الكافر عن الإيمان، وفى الكتاب العزيز ثم تولىّ إلى الظلّ.

ومما يستأنس به فى هذا المقام قول أبى العلاء المعرى:

أقر السلام على عبد السلام فلى جيد إلى نحوه ما زال ملفوتا

فتراه استعمل ملفوتا مع إلى، وملفوت وصف من لفت. وأبو العلاء من هو فى البصر بالعربية والبجح بها وإحسان تأثّرها واحتذائها.

تفضلتم سعادتكم بمنحى كذا ، تفضلوا سعادتكم بقبول التحية

يجرى هذا الأسلوب فى مقامات الخطاب إظهارا لمرتبة المخاطب وتكريمه ، ودرجته فى الشرف والمجد فى هذا العصر .

فيقال لمن كان من ذوى المكانة الدينية : أمرتم فضيلتكم ، ولصاحب المقام الرفيع : أمرتم رفعتكم ، ولمن كان من الوزراء : أمرتم معاليكم ، ويقال : أمرتم عزتكم أو سعادتكم لمن يتمتع برتب خاصة فى سُلَّم الرقى والسمو فى الحياة الاجتماعية . وقد مضت السُّنّة فى العربية أن يخاطب العظيم بالحديث عنه كأنه غائب ولا يواجه بالخطاب . فكان يقال : يأمر أمير المؤمنين لى بكذا ، أو يبذل لى الأمير كذا ، كأنما العظيم أرفع أن يناله المتحدّث بخطابه ، فهو فى منزلة سامية لا يسمو إليها أحد ، فإنما قُصاره أن يتحدث عنه كأنه غائب . ويعدّ البلاغيون هذا المقام من مواطن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . ولو جرى الأمر على هذه السنة العتيدة لقيل : تفضّلتْ سعادتكم أو أمرتْ فضيلتكم أو رأتْ معاليكم ، أو تتفضل عزتكم بقبول التحية وهكذا . وإسناد الأحداث إلى السعادة والحضرة والمعالى مجاز عقلى معروف أمره وقد احتذى هـذا الأستاذ أحمد السكندرى عليه رحمة الله ورضوانه ، فهو يقول فى الاحتفال بافتتاح الدور الثانى للمجمع اللغوى : (١) « تعرف حضراتكم أنه لا يتسنى لأية جماعة أن تعمل عملا متواليا بدون طريقة توحّد عمل أفرادها ، وهذه الطريقة يمكن التخريج عليها مع الفعل المضارع نحو تتفضلون حضراتكم ، بإجراء الكلام على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فحضراتكم فاعل والواو علامة الجمع نحو تفضلوا سعادتكم .

وقد استحكم الأسلوب الذى صدرت به المثال فى أقلام الكتاب ، ويكاد يكون من العسير ثنيهم عما اعتادوا ، وصرفهم عما درجوا عليه ، فلا مناص من تخريجه وبحثه من ناحية العربية .

وهنا يعرض للباحث مسائل فى هذا المثال — تفضلوا سعادتكم — فهل سعادتكم مرفوع أو منصوب ؟ وإذا كان مرفوعا فما رافعه ، وإذا كان منصوبا فما ناصبه ؟

---

(١) مجلة المجمع ص ٥ ج ٢

ويبدو أنه يجوز الوجهان : الرفع والنصب .

فالرفع على أن « سعادتكم » بدل اشتمال من الضمير . ومن المقرر فى النحو أن إبدال الظاهر من ضميرى الحاضر — ضميرى المتكلم والمخاطب — يجوز فى بدل الاشتمال ، كقول الشاعر [1] :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفيتنى حلمى مضاعا

فقوله حلمى بدل اشتمال من الياء فى ألفيتنى وهى ضمير المتكلم . ومن هذا قول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقوله : مجدُنا بدل اشتمال من الضمير « نا » وهو ضمير المتكلم . ومن أمثلة ابن مالك فى الألفية : إنك ابتهاجك استمالا ، ولا يعترض على هذا التخريج بأن الفعل فى تفضلوا أمر وهو لا يرفع الظاهر لأنه يغتفر فى الثوانى مالا يغتفر فى الأوائل ، أو أن العامل محذوف مدلول عليه بما قبله أى ليتفضل كما قيل فى قوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » والوجه الأول أجدر بالاتباع ، فرب شىء يصح تبعاً ولا يصح استقلالا .

ولا يصح أن يخرج سعادتكم على أنه عطف بيان . وذلك أن عطف البيان لا يكون ضميرا ولا تابعاً للضمير ، لأن عطف البيان فى الجوامد نظير النعت فى المشتقات فكما لا ينعت الضمير لا يعطف عليه عطف بيان فهذا توجيه الرفع .

وأما النصب فإنه يكون على الاختصاص . فسعادتكم نصب بفعل محذوف وجوبا تقديره أُخص . والمخصوص هنا مضاف على حد قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

---

(١) نسبه سيبويه فى الكتاب إلى رجل من بجيلة أو خثعم ، وتبعه ابن السراج . وعزاه الفراء والزجاج الى عدى بن زيد . قال صاحب الخزانة : وهو الصحيح . وانظر الكتاب ص ٧٨ ج ٢ والخزانة ٢/٣٦٨ .

ميناء الإسكندرية ميناء جميلة

قد يرى القارىء استعمال الميناء مؤنثا . وفى كتاب المطالعة للمدارس الابتدائية - وهو عمل جلّة من الأساتذة - فى الحديث عن السويس « ولها ميناء تُسمى » بور توفيق » والمعروف فى الميناء أنه مذكّر . قال فى اللسان فى ونى : « والميناء : مرفأ السفن ، يمدّ ويقصر ، والمدّ أكثر . سمى بذلك لأن السفن تنى فيه أى تفتر عن جريها » فتراه أعاد الضمير عليه مذكراً . ومما يقطع بتذكيره قول كثير عزة - أورده فى اللسان فى المادة - :

فلما استقلت ملمناخ جمالها . وأشرفن بالأحمال قلت : سفين
تأطرن بالميناء ، ثم جزعنه وقد لج من أحمالهن شحون

فقوله ملمناخ أى من المناخ . وقوله : تأطرن أى تثنين وتعطفن ، وجزعنه : قطعنه ، ولج ، هكذا فى بعض التراجم فى اللسان وفى بعضها لح بالحاء المهملة أى ضاق وازدحم ، وشحون قال ابن سيده : يجوز أن يكون مصدر شحن ، وأن يكون جمع شحنة نادراً ، وشحنة السفينة ملئها ، والبيت الثانى من وصف سفين كما ترى ، يشبه الجمال عليها الرحال ، وهى تسير فى الصحراء فى سهولة ويسر بسفين مشحونة بالمتاع تثبت بالميناء ثم قطعنه . فترى كيف رجع الضمير على الميناء مذكراً فى قوله : ثم جزعنه .

كثرة اللئام

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .
وقالت الحكماء : الكرام فى اللئام كالغرة فى الفرس .

وقد بالغ ابن حازم فقال :

وقالوا لو مدحت فتى كريماً فقلت وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومر بى خمسون حولا وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم هول ولا أحد يعود على عديم

على هامش الأدب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

دعا داع أن ارتاض فى رياض الأدب العربى القديم ، والأدب العربى فينان الغياض بهى الرياض ، طرائفه تطرب الأذن ، وتمتع العين وتخفف لوعة الملتاع ، وتجلو هم الحزين وتملأ صدره ببرد العزاء والصبر . على أن فيه الحكمة الحكيمة السائرة فى البوادى والأمصار ، الدائرة مع الأعصر والأجيال ، يتمثل بها الحاضر والبادى ، ويطرب لها رب الفلسفة والشادى ، فهى حكمة الفطرة وثمرة الامتحانات والتجربة .

وقد انتهى بى المطاف إلى ركن من أركانها تضوع شذاه وطاب نشره ؛ فأغرى الطرف به والتملى من محاسنه ، فأطلت الوقوف عنده التماسا للمتعة الأدبية ، واقتناصا للفائدة العلمية ، ثم أحسست بالرغبة فى الحديث عنه : ذلك هو ركن الطغرائى فى رياض الأدب العربى ؛ والطغرائى كما يعلم الأدباء ، شاعر له مكانه فى تاريخ الأدب ، فهو شاعر مشرق الديباجة رصين اللفظ قوى المعنى واضح الغرض موفور الحكمة ، شاعت حكمته فى شعره وبخاصة فى قصيدته المعروفة بلامية العجم ، وما أخذ الطغرائى مكانه بين الشعراء ، ولا شاع ذكره وعلا قدره إلا بها .

والطغرائى هو الذى يقول :

وأكثر الناس من تشقى بصحبته ... ومصطلى النار لا يخلو من الشرر
تشابهوا فى طبـــاع الشر بينهم ... على اختلاف من الأهواء والصور
فلا تروض إنصافا وقد شهدت ... مخالب الليث أن الظلم فى الفطر

والعيش كالماء قد يصفو لشاربه حينا ويشرب أحيانا على الكدر
حمنا عليه فلما طاب موردنا أقامنا الخوف بين الورد والصدر

* * *

وليس من قصدى فى هذه الكلمة أن أترجم للطغرائى . وأعدد أغراضه التى طرقها فى شعره وسجلها فى ديوانه ، فذلك لون من الحديث صار مكررا مملولا ، وإنما القصد من حديثى إلى تسجيل بعض الخواطر التى عرضت لى أثناء قراءتى شرح الصفدى على لامية الطغرائى ، وقد لا يعلم كثير من الناس أن هذه اللامية قد حظيت بعناية العلماء والأدباء قديما وحديثا ، ولست أعنى بهؤلاء علماء العربية وأدباءها فحسب ، ولكنى أعنى بهم مع ذلك علماء الإفرنج وأدباءهم فقد ترجمت إلى اللغة اللاتينية مرارا ، وتناولها علماء العربية بالتعليق والشرح ؛ فصار لها كثير من الشروح فى عصور مختلفة ومن أشهرها « الغيث المسجم فى شرح لامية العجم » للصفدى .

ولا شك أن لامية العجم قطعة أدبية خالدة بحكمتها ، رائعة بمعناها وفنها الأدبى لا يكاد يخطئك فى كل بيت منها تشبيه رقيق أو مجاز دقيق ، أو استعارة موفقة أو كناية معجبة ، ولا يفوتك فى جملتها نوع من أنواع البديع المعروفة ، ولكنك تعجب إذ ترى الصفدى يصمت عنها ويطول صمته حتى نهاية شرحه ، فلا يشير إلى شىء منها ، وعهدنا بشراح الأدب أن يجعلوا من شروحهم فرصة للتنافس ، ومجالا للتطبيق العلمى والدلالة على المقدرة الفنية ، وصنيعه فى الناحية اللغوية صنيعه فى الناحية البلاغية ، وسلوكه فيها سلوك الخائف الحذر المتوقع لهجوم العلماء ولوم النقاد ، وطريقته اللغوية فى شرحه أشبه شىء بطريقة أصحاب المعاجم ، فهو يشرح اللفظ بلفظ مثله لا يكاد يتجاوزه .

وليس كذلك طريق اللغويين الأدباء كالمبرد والقالى ومن على مذهبهم ، فهم يقرنون النظير بنظيره توضيحا له وإبانة عنه ، ومما يلاحظ على الصفدى فى شرحه إيجازه فى عباراته من معانى الأبيات ، وتناوله إياه تناول ضعفة المترجمين الذين يستبدلون اللفظ بلفظ آخر ، غافلين عن حسن الصياغة وانسجام العبارة ، والفقه

الأدبى للأبيات ، وقد حاول أن يسد ذلك النقص فاستعان فى بيان المعانى بما يشابهها فى شعر الشعراء ونثر الكتاب ، فاستطرد واستطرد وكأنه فى ذلك يحاول أن يقنعنا بمكانه من الأدب والأدباء فأخطأه التقدير .

* * *

قصور الصفدى فى هذه النواحى فى شرحه للامية وهى العناصر الضرورية فى شرح الأدب ، ومقياس الأدب فى الأديب ، يسوغ لنا الحكم عليه بالتخلف عن صفوف الأدباء ، فإذا أضيف إلى ذلك ماشغل به نفسه من الفضول والاستطراد إلى ذكر فصول من علوم قد يتصل بعضها بالأدب ، فيمكن الاعتذار منه كالنحو والصرف ولا يتصل بعضها الآخر بالأدب كالفلسفه والفلك والطب ، فيضعف وجه العذر منه صح حكمنا عليه بما ذكرنا .

وثمة أشياء نأخذها على الصفدى ، ويشترك فى مؤاخذته ببعضها جمهرة الناس ، ويحس الأدباء خاصة ببعضها الآخر ، فما يشترك العامة فى استهجانه لمجافاته الذوق وصلته بالآداب العامة تعرضه للأدب المكشوف وتكلفه له رواية وإنشاداً .

وليس بنا حاجة إلى ذكر شىء منه هنا ، ومما يحسه الأدباء ويضيقون به تكلفه السجع وحرصه عليه ، حتى جاء أكثره مستكرهاً مرذولا ، يدفع بعضه بعضاً ، وينكر أواخره أوائله ، وجملة ما ذكره من شعر الشعراء استطراد خفيف فى ميزان الأدب ورابطته به رابطة ضعيفة ، وما أبعد الأدب عن الاستعارات المستغلقة والكنايات البعيدة ، وعن أنواع البديع تقسر على مواطنها قسراً ، وتستكره على أماكنها استكراهاً ، ليظفر قائلها بلقب الشاعر أو الكاتب ظلماً وزورا .

هذه خواطر بدت لى أثناء قراءة شرح الصفدى على اللامية ، وهى تبين مكان الشرح من كتب الأدب ، كما تبين مقدار دقة صاحب كشف الظنون فى صحة حكمه عليه إذ يقول : وشرحها « لامية العجم » الصفدى بشرح سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » بشرح ذكر فيه شيئاً كثيراً على طريق الاستطراد فصار شرحاً مشحوناً بغرائب الجد والهزل وأحسن المجاميع » .

فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا عن هذا الشرح : إنه ليس شرحاً أدبياً كما يفهم الأدباء من شروح الأدب ، وإنما هو مجموعة من طرائف الأدب ، جده وهزله وفصول من علوم شتى أكثرها من علم النحو ، أضاف بعضها إلى بعض لأدنى مناسبة كما يقول النحويون ، وهى بعمل الأخبار من الحفاظ أشبه منها بعمل الأديب ، وهى مناسبة كل المناسبة لتكوين الصفدى واستعداده الشخصى ، فالصفدى مؤرخ أخبارى حافظ مكانه بين المؤرخين والحفاظ ، لا بين الأدباء ، فقد ألف فى التاريخ كثيراً ، وجمع فى غيره من الفنون ، إلا أن ناحيته التاريخية : أظهر وهو بها أشد .

وقد توفى الطغرائى سنة ٥١٣ هـ . وتوفى الصفدى سنة ٧٦٤ هـ رحمهما الله ورحم أسلافنا خدمة العلم ، وأسبغ عليهم من رضوانه ، وأستغفره من خطئى وسوء تقديرى .

البخل

قال زياد : كفى بالبخل عاراً أنه اسم لم يقع فى حمد قط ، وكفى بالجود مجداً أنه اسم لم يقع فى ذم قط .

وقال شاعر :

ألا ترانى وقد قطعتنى عذلا ماذا من الفضل بين البخل والجود ؟
إن لم يكن ورق يوما أراح به للخابطين فإنى لين العود
لا يعدم السائلون الخير أفعله إما نوالا وإما حسن مردود

يريد بالورق المال والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة أى الحيوانات التى تسيب لا توكل ولا تركب وفاء لنذر ، فجعل الشاعر طالب الرزق مثل خابط الشجر لإسقاط ورقه .

في مشاكل المجتمع :



طالب العلم بين ماضيه وحاضره

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

طالب العلم الدينى فى ماضيه من اتجه إلى المعارف الإسلامية برمته ، وأقبل عليها إقبالا تاما لايصرفه عن ذلك محاولة دنيا يصيبها ، أو امرأة يتعرض لها ، أو فتنة تلهيه عنها ، قد اتخذ من مسكنه معهدا لايفتر فيه عن التحصيل . ومن مراحه ومغداه إلى العلم السبيل ، ومن خلق الإسلام والتصوف عدة وعوناً ، ومن الحرص والجد وصحبة الشيوخ والتمسح بهم منجاة ومسلكا ، قد ذل طالباً فعز مطلوباً . واستغنى بالله والعلم فأمسى محبوبا .

ويظل يصغى للحديث بأذنه وبقلبه ولعله أدرى به

وهكذا كان أبناء الأزهر نخرج بهم رجالا من الذين سعدوا وسعد بهم تاريخه ، كانوا من خبايا الدهر فأصبحوا يحكمون على الدهر ، كانت أسر الكثرة منهم فقيرة مغمورة فصاروا لها مجدا .

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

فليت شعرى ما الذى رفع هؤلاء ، ووصل بهم إلى ذلك المجد الشامخ ؟ إنه العلم والتحصيل والدرس الطويل ، والاحتيال لصيد العلم وجمعه فى نهم مقبول .

أولئك الذين كانت تقتحمهم الأبصار ، وتنبو عنهم الأنظار ، هم الذين سعدت بهم الملوك فلم يحل عيشهم إلا فى رضاهم ، ولم يستروحوا روح الجنة إلا فى معشرهم ، ولم ينفضوا غبار الألم من الدنيا وتمليانها إلا فى خلس العيش معهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليس .

لقد طالما وفد على الأزهر الكريم قوم شرح الله صدورهم للإسلام ، فحاطهم بلطفه وصنعهم على عينه ولفتهم إلى وجهه ، فنظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وعشقوا العلم عشقاً أنحل أبدانهم وقرح أجفانهم ، وجافى عن المضاجع جنوبهم فى تنافس حميد وتعاون مجيد ، ثبت على الحق أقدامهم وحبس على البحث والتنقيب أنظارهم ، مجالسهم حلق العلم حول شيوخهم يتلقطون فيها الدرر ، ويمخضون فيها الفكر ويباركون فيها الإنسانية ويدرحون بها البهيمية ثم يقومون وقد ملأوا الأوعية معارف ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وميزهم به على كثير من عباده المؤمنين ؛ فإذا آبوا إلى مثاويهم فما أسعد الأوبة ، إنهم يتعجلون بما يقيم أصلابهم ؛ ليعودوا إلى ما به تعلقت قلوبهم ، فيجددون حلق العلم بعضهم مع شيوخ يتطوعون بترشيحهم فيما هم بسبيله ، وبعضهم مع بعضهم ليرشحوا أنفسهم لدروس الغد ، حتى يستطيعوا أن يعوا عن الشيوخ ما يقولون ، ليرسخ فى أذهانهم ، ويحتل مكان الخلود فى عقولهم ، والعلم صعب يعوزه الأخذ والرد والمد والشد ، وهم بعد تلك الحلق فى جهاد أنفسهم يستعيدون ما جمعوا ، ويستزيدون مما أخذوا ، والعلم بحر لاساحل له لايحل إعطاءك حتى تحل سؤاله .

فسل أولئك الذين كانوا يربطون أنفسهم فى سوارى المسجد خشية أن يقصدهم النعاس ، وسل أولئك الذين كانوا يتناوبون النوم حتى لا يستغرقوا فى الغفلات ، وسل أولئك الذين كانوا يهبون فى ساعات الصفو بالأسحار ، يتعرضون لنفحات الله ، ويجلون قلوبهم بالتماس رضاه ، حتى تنطبع فيها الحقائق ، أو سل عنهم لتعلم مبلغ جهادهم وأنهم ما وصلوا حتى بذلوا ، وما نالوا إلا بعد أن جالوا وصالوا ، ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل ، على أنهم قد أخلصوا لأساتذة كرام قد محضوهم النصيحة ، ونقحوا لهم لباب الشريعة ، ووفروا أنفسهم للاستزادة من العلم والمعرفة شرابا مختلفا ألوانه ، يباكرونهم بالغذاء العقلى ، ويبادلونهم ذلك الحب

السماوى ، فبحب الأساتذة لأبنائهم توفرت أسباب التمحيص ، وأجتمعت وسائل الإفادة المثمرة ، وعبدت سبل العلم وعذبت مناهلة ، وبحب الأبناء أساتذتهم خضعت نفوسهم وخشعت قلوبهم ، وتقبلت عقولهم ، فأفادوا معارف مباركة ميمونة ، لقد أسلموا قيادهم لأولئك الشيوخ ، واستسهلوا منهم كل صعب ، واستحلوا منهم كل مرير ، حتى كانوا يرضون منهم مايرضى العبد من سيده ، وحتى كانوا يتسابقون إلى أحذيتهم يحملونها ، ويرون فى ذلك الفتوح والسعادة لأن الذل فى هذا السبيل هو العز كل العز .

كان لطلاب الازهر كما يقول الأستاذ الزيات كلف به لاينتهى ، وثقة برجاله لاتحد ، وانقطاع إلى جواره لايبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة ، وتجديد حبل الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون من حلقات التعليم بالقاهرة : إلا إلى حلقات التعليم فى الريف . وطلاب الأزهر القديم اليوم لايزالون يذكرون ما لشيوخهم من الحب والتجلة ، كانوا يتحلقون حول حلق الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الأمام عراك وصخب ، حتى إذا ما أقبل الشيخ خشعت الأصوات وسكنت الحركات ، حتى كأن شيئاً علق بالأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ، وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى فى عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر [1] .

لقد كان الطلاب يتنافسون فى العلم ، ويكاثرون بالعلم ، ويفرحون بالعلم وينتصر بعضهم على بعض بالعلم . ويتناقلون فيه ما يقول بعض واصفيه .

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى ... من وصل غانية وطول عناق
وتمايلى طربا لحل عويصة ... خير من الدوكات والعشاق

كان الجامع الازهر فى جميع أوقاته كعبة لا ينقطع وافدها ، ولا الدوى بالعلم فى جميع أرجائها ولا تخلو من قارىء وناظر ، ومكب على الدفاتر ، وراكع وساجد . فجزاهم الله بما صبروا أن بدل ذلهم عزا وفقرهم غنى ، وضعفهم قوة ، وجعل كلمتهم العليا ، وأخضع لهم الدنيا فلسان حالهم .

(١) ١٨٥ وحى الرسالة .

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أو مأنا إلى الناس وقفوا

وقد أدركنا من ذلك العهد الكريم جانباً ، واتصلنا ببقية صالحة ممن كانت أسماؤهم تجلجل ، وذكراهم تدوى حتى ملأت سمع الأرض ، ولقد كنت ممن يحرصون على التمسح بهم ، والتزاحم على دروسهم ، قبل دروسهم وأنا أتمثل .

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان من أولئك حضرات الأئمة الأعلام طيب الله ثراهم : الشيخ محمد بخيت المطيعى ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ السمالوطى ، والشيخ سيد المرصفى رضى الله عن الجميع وأحسن جزاءهم ، فكنت أوفر من صفوة حياتى زمناً أسمع فيه منهم وآخذ عنهم ، وكان يجمعنى مع شيوخى التلمذة لهم ، وانتهاز الفرصة فى بقائهم ، تقديراً لما حملوا من علم غزير ، وإيماناً بما وصلوا إليه من معارف قد تعز بفقدهم .

وكان والدى رحمه الله ينهج نهج أولئك الأئمة ، فيدأب على خدمة العلم فى المسجد وفى المنزل ، وفى المدينة والقرية ، ويحملنى على صحبته والأخذ عنه ، وحضور دروسه التى كان يعقدها فى أشهر الأجازات فى الفقه والمنطق والبلاغة وغيرها ، وغرس ذلك فى نفسى معانى لا أزال أبكى على فقدها فى أبنائنا اليوم ، أولئك الذين صرفتهم شواغل المجتمع الصاخب حتى صغرت وطابهم ، وخلت عقولهم ؛ وصدأت قلوبهم ، فاستثقلوا العلم وجافوه وصاروا يشكون فى غير شكوى ، وينفرون فى غير نفرة ، ويحاولون أن يحملوا أنفسهم على المجتمع حملا - أصلح الله بالهم ، ورد إليهم رشادهم - إنهم يشكون أحياناً من مناهج الدراسة . وصعوبة الكتب لأنهم لا يوفونها حقها من التفرغ والإقبال . وقد كنا نحضر لأول عهدنا بالعلم أوجه إعراب البسملة على جميع وجوهها ، مما تعى به أفهامنا ، وتضيق عنه مداركنا ، ولكنا نحمل أنفسنا عليه ونحفظ ما أعى فهمه ؛ حتى يحين وقته ، ما يحول ذلك دون الصبر والرضا والإيمان بعظم المطلوب .

فالذنب إذاً يا طلاب العلم ، ليس ذنب المناهج ، ولا طرق التعليم ، وإنما هو ذنب التشاغل والتكاسل ، والقذف بأنفسكم فى ذلك المجتمع الصاخب ، هو ذنب الغرور والطيش من أبنائنا الذين يزعمون أنهم يملكون قيادة الأمور ، ويديرون

دفة الشئون ، والتحكم فى مصائر الرجال والحكومات بإسقاط أو إنهاض ، وإلا فمن للدرس والتحصيل ، ومن للتهذب والتكميل ؟ وإن كتب الأزهر بالذات كتب مركزة ، وثقافات عالية مركبة ، ومجموعة يدخل بعضها على بعض . ويحتاج بعضها إلى بعض ؛ فمن قصر فى شىء منها بدا ضعفه وظهر عجزه .

أما نحن فما كنا نفكر فى تلك المناهج ؛ بل كنا نحاول أن نطلب المزيد ونتنافس فى ذلك ، لنصل من قلوب الأساتذة إلى موضع الحب كل بقدر طاقته ، وكان لنا أستاذ بحاثة فى مادة الأصول ، وكان يعلم مقدار حرصى على القراءة والاستزادة ، فربما جاء قبل البـــدء فى الدرس ، فسألنى عن رأيى فى مسألة ، وعما قرأت فيها من المواد لعله يجد عندى مزيداً يزيده هدى ، فإن العلم بحث وتنقيب ، ولقد كان لذلك أثره فى تربية ملكة الاستقلال وفى تكوين الشجاعة المهذبة الجيدة ، وفى إطالة النفس فى المناقشة البريئة .

كان لنا أستاذ يشار إليه ويعول فى علوم الشريعة وفى مادة الأصول عليه — شفاه الله — وكان يقرأ لنا كتاب الأحكام فى الأصول ، فرأى يوماً أن فى الكتاب خطأ مطبعياً بزيادة كلمة « لا » أو نقصها — لا أذكر بالتحديد — وكنت قد فهمت الكتاب على وضعه ولم أشعر فيه بخلل . فناقشت شيخى وكنت قليل المناقشة جداً ما لم يلح الداعى إليها ، وطال أمد المناقشة حتى ردعنى شيخى ، فسلمت فى أدب وحياء وأنا مقتنع بفهمى ، فلما كان اليوم الثانى جاء الشيخ ، وكان أول ما بدأ به أن سأل عنى ، فلبيت دعوته الكريمة ، فبسم لى وتهلل فى وجهى ، ودعا لى بخير ، ثم قال : الحق ما قلت فتضاعف خجلى ، وزاد تقديرى لشيخى ، على أنها كانت وسام شرف ، وشارة فخار أنزلتنى من نفوس إخوانى أكرم منزل .

ولئن ذهبت أسرد لك أيها القارىء الكريم كثيراً من مظاهر الحرص والدأب فى عهدنا ، وهو عهد قريب لرأيت العجب ولرثيت لما صارت إليه الحال اليوم من إعراض وصدود ، ومن جرأة واستهانة بالواجب .

يا طلبة العلم ! لعل كثيراً منكم قد قرأ ما وصف به الهمزانى العلم ، وهو وصف يعجبنى كثيرا إذ يقول : « وجدته بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى فى المنام ، ولا يضبط باللجام ولا يورث عن الأعمام : فتوسلت إليه بافتراش

المدر واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ورأيته لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا فى النفس، وطائر لا يخدعه إلا قنص اللفظ، ولا يعلقه إلا شرك الحفظ، فحررته بالدرس، ثم استرحت من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى التعليق، واستعنت على ذلك بالتوفيق».

ياطلبة العلم! نحن الآن فى زمن نراكم فيه كما قال الأول:

فلسنا كعهد الدار ياأم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وإنه ليحز فى نفسى ويبكينى لكم، أن أحاطت برقابكم السلاسل، من تلك الشواغل فتوليتم فى الأمة الشئون، وشغلتم أنفسكم بما كان وما يكون، حتى ضاع العمر سدى، ومضت فترة الشباب بددا، لقد غركم أن تسمعوا الثناء ممن لا يعنيه أمركم ولا يرجو مستقبلكم، فهل يرضى أحبتكم من أهل وعشيرة أن تنفقوا العمر فى ذلك الفضول، وأن تنحرف بكم عن الجادة خابطات الميول؟ لا لعمر الله!.

ياطلبة العلم! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فزكاها وكملها، جددوا خلايا العلم فى عقولكم قبل أن تأكلها الجهالة، وأزيلوا الران عن قلوبكم لا تفتك بها الضلالة!. لا تعملوا للنجاح فى الامتحان، فإن علم الامتحان كالسراب ليس بشىء مستقر؛ ولكن اعملوا للنجاح فى الحياة كما كان أساتذتكم الذين أنبأتكم بعض أنبائهم.

يا ليت شعرى متى تزول هذه الأسداد التى صدت أبناءنا عن سبل العلم الصحيح، والتربية الصالحة المشرقة، ويا ليت شعرى متى تدركنا عناية الله سبحانه فنعود بالطالب إلى تلك النفس الزكية، وتلك الشخصية العامرة بالدين، المعتزة بالله رب العالمين، المثرية من معارف الإسلام والأدب، الحافلة بمختلف علوم العرب؛ فيطلب العلم للعلم، ويأخذه عن الأشياخ الذين سلكوا سبيله فعرفوا أصيله ودخيله، وأخضعوه بكثرة الرد، واستحوذوا عليه بعد طول مد وشد؛ حتى يقروا عين الزمن، ويشدوا بحق أزر الدين والوطن.

اللهم لطفا بعيالك طلاب الأزهر معقل الدين وعلوم العرب؛ فبصرهم بالحق، واهدهم إلى الرشد ولا تحق عليهم كلمة الجهل يوم تقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.

اللهم أقشع عنا هذه الغيابات. وتدارك بألطافك الخفيات. يا أرحم الراحمين

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل؟

غلبة عالم سني على دولة المأمون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

قد عاد للفلسفة تقديرها فى الأزهر وكلياته ، وصارت تدرس فيه دراسة جديدة تخضع للنقد الحديث ، ولا تتأثر بشيء من التعصب الذى كانت تلقاه الفلسفة قديما ، فعرف للفلسفة فضلها فى النهوض بالأمم ، وعرف للفلاسفة فضلهم فى الاجتهاد فى النهوض بالعلم ، ونظر إلى أخطائهم فى الفلسفة كما ينظر إلى كل خطأ من البشر ، فكل من ينظر ويفكر يصيب ويخطىء ، ولا يصح أن يمنعنا خطؤه من الانتفاع بصوابه ، ولا أن يحملنا على مجافاة العلوم التى وقع فيها ، إذا كانت نافعة لنا ، ولا يمكننا الاستغناء عنها .

وكان المأمون بن الرشيد يعرف هذا الفضل للفلسفة ، فأقبل على طلب علومها من مواضعها ، واستخراجها من معادنها ، وأتحف فى سبيلها ملوك الروم بالهدايا الخطيرة ، وطلب ما عندهم من كتب الفلاسفة ، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، فاختار لها مهرة المترجمين ، وكلفهم بنقلها إلى العربية ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم فى تعلمها ، فنفقت سوق الفلسفة فى زمانه ، وتنافس فى علومها أولو النباهة فى عصره ، لما كانوا يرونه من تقديمه لأصحابها ، واختصاصه بأهلها ، فكان يخلو بهم ، ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية ، وفى عهده كان نقل فرع الإلهيات من الفلسفة إلى العربية ، وكان النقل قبله مقصورا على الطبيعيات والرياضيات ، فتكاملت بهذا أقسام الفلسفة ، وقد كان الفيلسوف قديما لا ينال هذا اللقب إلا إذا أحاط بها كلها .

وقد كان المسلمون فى ذلك الزمن منقسمين إلى أهل سنة ومعتزلة ، وكان مذهب الاعتزال مذهب بعض الخاصة فى الدولة ، أما مذهب أهل السنة فكان مذهب كثير من الخاصة ، كما كان مذهب جمهور العامة ، فوضع المعتزلة أيديهم فى يد المأمون ، ولم يروا فيما يقوم به من ذلك خطرا على الدين ، أما أهل السنة فرأوا فى هذا خلاف ما يراه المعتزلة ، وتجافوا من أجله المأمون ودولته ، وأخذوا ينفرون العامة منه ، ويؤلبونهم عليه ، حتى اشتد العداء بينه وبينهم ، ووصل إلى نهايته فى مسألة القول بخلق القرآن ، فقد اتخذها المأمون فرصة للتنكيل بأهل السنة ، وكان فى الحقيقة يشفى غليله من مناوأتهم له فى موقفه من علوم الفلسفة .

وهنا يبدو غريبا أن يكون لواحد من أهل السنة أكبر سلطان فى دولة المأمون ، فيخرج هذا السنى على إجماع أهل مذهبه طائعا مختارا ، ويرضى المأمون أن يكون له فى دولته ذلك السلطان ، مع أنه كان يميل فى دينه إلى مذهب المعتزلة والشيعة ، وهذا إلى إيثاره مذاهب الفلسفة وشغفه بها ، وكانت فى ذلك الوقت من أشد ما يمقته أهل السنة .

ولكن هذا الذى يبدو غريبا هو الذى كان ، وإذا كان يبدو غريبا فى ذلك الزمن فإنه هو الذى كان يجب أن يكون فيما نرى الآن ، وقد كان ذلك العالم السنى هو الإمام العظيم أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن بن سمعان بن مشنج التميمى الأسيدى المروزى ، من ولد أكثم بن صيفى التميمى حكيم العرب فى الجاهلية ، وكان الإمام يحيى يمثله من هذه الناحية فى الإسلام ، وعنه ورث ذلك الفضل والنبل ، وتلك البراعة والكياسة .

وقد ترجم له ابن خلكان فقال : كان فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، ذكره الدارقطنى فى أصحاب الشافعى رضى الله عنه . وقال الخطيب فى تاريخ بغداد : كان يحيى بن أكثم سليما من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنة ، سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة ، وغيرهما ، وروى عنه أبو عيسى الترمذى وغيره ، وقال طلحة بن محمد بن جعفر فى حقه : يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ، وقد اشتهر أمره ، وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس

فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ، واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن المعارضة ، قائم بكل معضلة .

ثم ذكر ابن خلكان مبدأ اتصاله بالمأمون فقال : أراد المأمون أن يولى رجلا على القضاء ، فوصف له يحيى بن أكثم ، فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دميم الخلق ، فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سلنى إن كان القصد علمى لا خَلقى . فسأله عن المسألة المعروفة فى الميراث بالمأمونية ، وهى أبوان وابنتان ، لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلفت من فى المسألة ، فلما سأله عنها قال له : يا أمير المؤمنين ، آلميت رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة ؛ فقلده القضاء . وهذه المسألة إن كان الميت الأول رجلا تصح المسألتان من أربعة وخمسين ، وإن كانت امرأة لم يرث الجد فى المسألة الثانية شيئاً ، لأنه أبو أم . فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهما .

فلما اتصل يحيى بن أكثم بالمأمون غلب عليه ، حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً ، لأنه عرف بما برع فيه من العلوم من فضل يحيى وما هو عليه من العلم والفضل ما أخذ بمجامع قلبه ، فلم يقتصر على تقليده قضاء القضاة ، بل قلده تدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم ، حتى قيل : إنه لا يعلم أحد غلب على سلطانه فى زمانه إلا يحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبى دواد ، وكان يحيى من أهل السنة كما سبق ، وكان أحمد من زعماء المعتزلة ، وهذا من حسن سياسة المأمون ، إذ كان يقصد من هذا أن يرضى بسياسته الحزبين الكبيرين فى دولته ، فاختار منهما ذينك السياسيين العظيمين ، وقد سئل بعض البلغاء عنهما أيهما أنبل ، فقال : كان أحمد يجدّ مع جاريته وابنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

وقد كان ليحيى بن أكثم مع المأمون مواقف نبيلة دافع فيها عن مذهب أهل السنة ، وتفهم فيها بحسن سياسته وكياسته ، وأهمها هذان الموقفان :

١ ــ حدث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشام ، فأمر فنودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكثم لى ولأبى العيناء : بكرا غداً إليه ، فإن

رأيتما للقول وجها فقولا ، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك ، ويقول وهو مغتاظ : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه ، وأنا أنهى عنهما ! ومن أنت يا جعل — يعنى عمر — حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله عنه ! . قال : فأومأ أبو العيناء إلى وقال : رجل يقول فى عمر ابن الخطاب ما يقول نكلمه نحن ! فأمسكنا حتى جاء يحيى بن أكثم ، فجلس فجلسنا .

فقال المأمون ليحيى : مالى أراك متغيرا ؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام . قال : وما حدث فيه ؟ قال : النداء بتحليل الزنا . قال : الزنا ؟ قال : نعم ، المتعة زنا . قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » إلى قوله « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ، يا أمير المؤمنين ، زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا . قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ، ولها شرائطها ؟ قال : لا . قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين ، وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين ، روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها . فالتفت إلينا المأمون فقال : أمحفوظ هذا من حديث الزهرى ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين ، رواه جماعة ، منهم مالك رضى الله عنه . فقال : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة . فنادوا بها ، وكان ليحيى بهذا يوم فى الإسلام لم يكن لأحد مثله .

٢ — كان ثمامة بن أشرس وغيره من زعماء المعتزلة قد زينوا للمأمون أن يكتب بلعن معاوية رضى الله عنه ، فهم أن يكتب بذلك كتاباً يقرأ على الناس ، فجفل العامة من ذلك ، ولم يثنه عنه إلا يحيى بن أكثم ، فإنه دخل عليه فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ؟ والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير . فركن المأمون إلى رأيه ، وأعرض عن لعن معاوية ، ولم يستمع لثمامة وغيره من المعتزلة .

فيا ليت علماء أهل السنة كلهم وقفوا من المأمون هذا الموقف الذى آثره يحيى بن أكثم ، فلو أنهم وقفوا ذلك الموقف منه ، لاجتمعوا على خطة نافعة للمسلمين فيما آثره من علوم الفلسفة ، ولسارت هذه العلوم بخلوص النية من الفريقين فى طريق قاصد لا إفراط فيه ولا تفريط ، فاستقامت بها أمور المسلمين وسبقوا بها أوربا بنحو خمسة قرون ، فكنا نحن السابقين الآن بهذه القرون وكانت هى اللاحقة ، ولم تكن هى السابقة الآن ونحن اللاحقون ! .

ولكن جمهور أهل السنة آثروا أن يقفوا من علوم الفلسفة موقف العداء ، ولم يحاولوا أن يجتمعوا فيها على رأى وسط هم والمأمون ، إلى أن أتى المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، فمال إلى مذهبهم فيها ، ونهى الناس عن النظر والجدال ، وأمرهم بالتسليم والتقليد ، ومنعهم من الاشتغال بالفلسفة ، فانتقل الحال فيها من الإفراط إلى التفريط ، وحرم المسلمون فى أمرها من الطريق الوسط الذى كان فيه خيرهم ، وكانت فيه مصلحتهم فى دنياهم وأخراهم .

حكم منثورة

قال حكيم : إذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه .

قيمة كل امرىء ما يحسنه . وقال الحسن محمد بن لنكك البصرى :

عدينا فى زماننا عن حديث المكارم
من كفى الناس شره فهو فى جود حاتم

وقال أبو الطيب المتنبى :

إنا لفى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

عمر بن الخطاب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا أقصد بهذا العنوان الحديث عن « عمر بن الخطاب » من الناحية التاريخية ، فأُعنَى بتسجيل أعماله ، وسَردِ وقائعه ، وتعداد أياديه على العمران والحضارة والنظام والإدارة ، والسياسة والملك ، فإن ذلك كله مبسوط على أكمل وجه من البسط والبيان ، والشرح والإيضاح ، لا يعوزه أن أزيد فيه حرفا ، أو أضيف إليه كلمة ، ولا سيما مع شهرة صاحبه فى الخالدين ، ونباهة شأنه فى العالمين .

وإذا كان لأصحاب الفنون غرام خاص ببعض الصور يستهوى فنهم ويثير إلهامهم ويوقظ عبقريتهم ؛ ليجعلوا منها ظلالا ، ويضموا إليها ألوانا ، ويقفوا منها موقفاً يبعث على الدهش والعجب ، والغرابة والتأمل ، فإن المتأدبين الذين يخلقون من « الحبة قبة » يجدون فى هذا الرجل مجالات فسيحة ومعانى رائعة ونواحى بارزة توحى بالكتابة الخصبة ، وتعطى أمثلة من خير ما تكون الأمثال جمالا وحسنا .

وليس ذلك فى عدله النادر وذكائه اللماح ، فربما كان فى المعاصرين له أو المتأخرين عنه من كان يدانيه إن كان لا يساويه أو يجرى فى مضماره ويترسم لآثاره وغريزة « التقليد والمحاكاة » تحمل على أن يجىء الحافر على الحافر ، والقدم فى موضع القدم ، ولهذا يقول الرسول صلوات الله عليه : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه » .

ولا غضاضة على الشخصية الشامخة أن يكون لها قدوة تأخذ بيدها إلى حيث تسمو إلى الغاية المرموقة ، وتصعد إلى القمة العالية ، وتُحلّق فى أفق من العظمة بعيد . . .

وحديث المتحدثين عنه يبتدئ من حيث ينتهى ، وينتهى من حيث يبتدئ ، أشبه بكتاب ضخم ، وسفر عظيم ، تروعك صحائفه أينما قلبتها ، وتأخذك سطورها كلما قرأتها . . .

لذلك فلا تكون الكتابة فيه إلا « على الهامش » لا تصيب كبد الحقيقة بمقدار ما تحوم حولها ، وتدور فى محيطها ، ثم لا يعدم القارىء أن يرى منها أطيافا من تلك الصورة التى أبدعها الخالق البارئ ، وأجاد صنعها اللطيف الخبير .

وأول ما يحملك على تقديس عمر واحترامه ذلك المعنى الذى لا يتأتى فى الكثير ولا فى القليل لأبطال الفتح ، وعظماء الإصلاح ، وهو الثقة المتناهية بنفسه إلى درجة أن يعرضها على مشرحة « النقد العام » إذ يقول فى خطبة من خطبه : « إن رأيتم فى اعوجاجا فقوموه » ، كأنما يتحدى المعاندين ، ويقطع الحجة على الجاحدين ، وهى منزلة من الإيمان لا يصل إليها إلا من زكت نفوسهم ، وطهرت أرواحهم ، وخلصت سرائرهم ، وعمرت قلوبهم بالله سبحانه ، ومتى بلغ المسلم هذا الحد سخر من الحياة ومظاهرها الخلابة ، وزخرفها الكاذب ، ومتاعها الخادع ، وسرابها المغرى .

وهكذا كان يفعل حين يبعث بالعامل أو القائد ويوصيه بالتقوى والعدل ، ويفهمه أنه لم يرسل به إلى أحد ليظلم أو ليقسو أو ليكون جباراً فى الأرض . .

ولعل من سيرته أصدق شاهد للقيام بالقسط المطلوب فى الآية « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فإنه كان قاسيا على ولديه — عبد الله وعبيد الله — حينما علم أن أبا موسى الأشعرى اختصهما بمال من خراج العراق يتجران فيه على أن يدفعا الأصل ويأخذا الربح ، وأمرهما أن يردا الأصل والربح ، حتى لا تحوم الشبهة حوله ولا حول أحد من أهله .

والناس يتحدثون فى هذه الأيام عن قانون « من أين لك هذا » ويذكرون أنه رضى الله عنه أول حاكم حاسب عماله وكبار المسئولين فى دولته عن ثرواتهم من أى طريق اكتسبوها ، فإن اطمأن إلى أنها من غير جاههم المجلوب ، وسلطانهم المكسوب ، أقرهم على الملكية ، وترك لهم سبيل الاستحقاق ، وإلا جعلها غنيمة للشعب فى « بيت المال » .

وهنا لك جانب من جوانب حياته ينبىء عن الثورة المتوثبة ، والطموح المتطلع ، وددت لو تيقظ له الكاتبون فى تاريخ الأفراد والجماعات ، ليعرفوا منه إلى أى مدى كان هذا الخليفة صلبا صلابة لا تجعله إمعة من الإمعات ، ولا نكرة من النكرات ، ينقاد من غير تبصر ، ويقلد دون تفكير ، فما كان يفعل الفعل ، ولا يقدم على الأمر ، إلا وقد تجلت له خوافيه ، ووضحت أعجازه وهواديه . وفى قصة إسلامه وكيف كانت عصبيته للشرك ، ورسوخ قدميه فى الكفر ، ثم تحول ذلك كله إلى غيرة على الإسلام ، وتمسك بالقرآن وحماسة للنبى وإعلاء لكلمة الله وإشاعة للذعر والخوف والجبن والضعف والبأس والرهبة فى قريش التى كانت تصد عن الدعوة ، وتكيد للمؤمنين ما يدل على أن القلب الكبير ، والنفس العالية ، والبيئة الصالحة ، إذا ما نمى فيها الغراس ، وأينع الثمر ، وأورق الشجر كانت جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وهو يذكرنا ببعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم حين يصور ما بعثه الله به من الهدى والعلم بالغيث الكثير الذى أصاب تربة نقية « قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب » . وقد عبد الله بن مسعود إذ يقول فيه : كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة . . . والإيمان الذى ملأ نفسه حتى فاض من جوانبها ، هو الذى حمله أن يقف من على بن أبى طالب هذا الموقف العنيف الشديد لما تلكأ عن مبايعة أبى بكر ، غير ناظر إلى قرابته القريبة من النبى وزواجه بابنته ، وهو — كذلك — الذى جعله يقمع الفتنة ، ويقضى على جراثيم الشر ، فيمد يده إلى ابن أبى قحافة ليَتَقَىَّ الناس على أثره مبايعين ، ثم يظل كالجندى المجهول فى معاونته ، مكتفياً بقوله له ، كلما بدا سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وصواب وجهته ، ورشاد أمره « لقد كنت أولى بها منى يا عمر » .

وأحب ألا يغفل العصريون من أنصار حرية الرأى أو التجديد هذا الرجل كإمام من أئمة هذه المذاهب ، ولكنه فى حدود معقولة ، لا تنكرها الفلسفة ، ولا يأباها المنطق ، أو يتجافاها العلم الصحيح ، فإنه مع نزول الوحى ، ووجود النبى يهمين على التشريع ، ويصرف شئون المسلمين ، ويقضى فيما يجدلهم من نزاع ،

ويحدث من خلاف ، ويطرأ من مسائل ، يأبى إلا أن يناقش النصوص ، ويعترض على الأحكام ، ويرى الرأى ، ويقترح فى الدين الاقتراحات ، ويجيء جبريل موافقاً له ، فيثير ذلك إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يسعه إلا أن يقول « لو كان فى هذه الأمة محدثون لكان عمر » .

وإذا كان التجديد من المتأخر لا من المتقدم ، فقد كان غريباً أن يكون وابنه عبد الله على طرفى نقيض ، يتمسك الوالد بالرأى إذا انقدح فى ذهنه وامتلأ به يقينه وربما عطل النص معه وتناءى الآية فى سبيله ؛ كما حدث فى عام المجاعة ويقف الولد عند النص لا يحيد عنه ولا يجاوزه إلى سواه ، ويبالغ فى ذلك حتى يستظل بشجرة الرضوان لأن عندها كانت المبايعة المعروفة باسمها ويكون قطع أبيه لها إيلاما له وشديدا عليه .

الدنيا

ذم رجل الدنيا بحضرة على رضى الله عنه فقال له :

« الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؟ فيا أيها الذام لها المعلل نفسه بغرورها ، متى خدعتك الدنيا ، أم بماذا استذمت إليك ؟ أبمصرع آبائك فى البلى ، أم بمضجع أمهاتك فى الثرى ؟ كم مرضت بكفيك ، وكم عللت بيديك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف الأطباء ، غداة لا ينفعه بكاؤك ، ولا يغنى عنه دواؤك ! »



الشيخ حسين المرصفي

المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية

هو الشيخ حسين المرصفي نسبة إلى مُرصفا ، بلدة بالقليوبية أنجبت بجمهرة من أعلام الفقه واللغة والأدب ، وكان والده الشيخ أحمد حسين المرصفي ، من أئمة العلم فى عصره .

ولد المترجم له فى مصر ونشأ بها ، وبعد أن أتم حفظ القرآن التحق بالجامع الأزهر ، فتلقى العلم على كبار شيوخه ، وما زال يَـلدُ ويبحث حتى صار من العلماء الفحول ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر أمهات الكتب فى العلوم العربية كمغنى اللبيب فى النحو لابن هشام .

وكان رحمه الله مكفوف البصر ، وقد عرف منذ صغره بحدة الذهن ، وتوقد الذكاء ، وإذا صح ما قيل من أن والده حفظ القرآن فى ستة أشهر فإن ذكاءه موروث عن أبيه ، وكان إلى جانب ذلك جاداً مثابراً شديد التوافر على كتب الأدب يرتوى من محاسنها ، ويستظهر من روائعها ، لم يسترح إلى الأدب الشائع فى عصره ، ولم يرقه نهجه ، « بل كان من أوائل من تفطنوا فى هذه البلاد إلى قدر الأدب القديم »[1] .

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ٣٩٨ .

وكان من حبه للأدب العربي القديم ، وقدرته على تفهم أسراره ، وتذوق بلاغته ، يقرأ كثيراً في كتب البلاغة العربية ، ودواوين الشعراء الفحول . ويبذل جهده في استظهار ما يهتزله ، ويجيل قلمه على غرار مايبهره من هذه الآداب حتى استقام له بيانه الرصين .

وكان إلى جانب هواه بالأدب شديد الميل إلى العلوم العربية ، دائم البحث في أسرارها وتفهم دقائقها واكتناه خفاياها حتى صار في العلم بها حجة ثبتا .

وقد « قرأ الخط العربي والفرنسي في أقرب زمن مع انكفاف بصره وهو حروف اصطلح عليها اصطلاحا جديدا تدرك بالجس باليد »[1] .

وتولى تدريس الأدب وعلوم العربية بمدرسة دار العلوم وتخرج على يديه طليعة الناهضين من أبنائها الشعراء والأدباء .

أثره في النهضة الأدبية :

« الشيخ حسين المرصفي ، شيخ الأدباء في ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم : فقد تخرج عليه طلائع النابهين في هذه المدرسة من أمثال حفني بك ناصف وأترابه .

وكان قبلة الشعراء والأدباء ينهلون من علمه وأدبه ، وينتفعون بتوجيهه وإرشاده ، صاحبه ولازمه أعيان البيان العربي فعرضوا عليه منظومهم ومنثورهم ؛ فنقح ما شاء له ذوقه وعلمه ، وهذب كثيرا من بيانهم ، وراضهم على ما تهدى إليه من الأدب العربي القديم الرصين .

انتفع بتوجيهه «عبد الله فكرى باشا» فكان أحد تلامذته الذين أفادوا منه .

بل إن « البارودى » نفسه وهو زعيم النهضة الشعرية ورافع لوائها في العصر الحاضر كان أحد تلامذته الذين صاحبوه ولازموه ، علّم المرصفي زعيم الشعراء اللغة العربية الفصيحة ، وهداه إلى الأساليب المجودة الفحلة ، وعرض عليه شعره فهذبت قريحته التي صقلها الأدب العربي وطبعها بطابعه الجميل ، وإن لصلة

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٤٠ .

البارودى به لحديثنا طريفا تمر به سراعا ولكننا أفضنا فيه حيث تكلمنا عن شعر الأزهر وكيف أن الأزهريين كانوا أساتذة زعماء الشعر فى العصر الحاضر .

وكان من أثره فى الأدب فصوله الممتعة التى كان ينشرها فى صحيفة « روضة المدارس » ، فقد رسم بها للأدب أمثل الطرق فى ممارسة البيان العربى الجزل ، وكان قدوة الكاتبين بطريقته العذبة التى تجمع بين الجزالة والسهولة .

أما أسلوبه فطلى رصين ، واضح فصيح ، لا يلم بالسجع إلا لماما ، ولا تستهويه الصيغة التى يكلف بها أصحاب الأدب الفارغ فيسترون بزخرفها نقص أدبهم وفراغه ، وهو فى سلاسته وترتيبه المنطقى أقرب ما يكون شبهاً « بابن خلدون » فى مقدمته ، فهو بحق « من أولئك الأفذاذ الأعلام الذين ردوا على اللغة فى العصر الحديث ما كان لها من البهاء القديم فى العصر القديم » [1] .

ومن حديث المرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » عنه قوله « ويقوم ذلك الكاتب الأديب المجدد حقاً فيلفت جمهرة الأدباء عن ذلك الأدب الضامر ، ويوجه أذهانهم وأذواقهم جميعاً الى الخالص المنتخل من أدب العرب فى جاهليتهم وفى إسلامهم ، ويبعث لهم شعر أبى نواس وأبى تمام والبحترى وغيرهم من فحول الشعراء ، كما يدل على بيان ابن المقفع والجاحظ والصولى وأحمد بن يوسف وأضرابهم من متقدمى الكتاب ، فسرعان ما يصفو البيان ويحلو ، وسرعان ما يجزل القول ويعلو ، وسرعان ما تنفرج آفاق الكلام ، وتنبسط أسلات الأقلام فى كل مقام ؛ وناهيك بغرس يخرج من ثماره إبراهيم المويلحى فى الكتاب ومحمود سامى البارودى فى الشعراء » [2] .

آثاره ومؤلفاته :

ألف كتاب « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » ، وهو كتاب جليل القدر لا يستغنى عنه أديب ، وقد شاع الانتفاع بما فيه من الآداب والعلوم ، ولا يزال منتجع الأدباء إلى يومنا هذا ، والكتاب جزآن يقع الثانى منهما فى صفحات تربى على ثلاثة أمثال الجزء الأول .

(١) المنتخب من أدب العرب حـ ٢ ص ٥٨٣ هامش .

(٢) المختار حـ ١ ص ٤١ .

« والوسيلة الأدبية » مجموعة من الآداب والعلوم المختلفة من نحو وصرف وفقه لغة وبيان ومعان وبديع وتاريخ ، ساقها المؤلف لتعليم الكتابة الإنشائية وترويض الملكات البيانية على غرارها ونهجها العربى الصحيح .

وهو يتبع فى هذه الكتابة طريقة الشرح والإفاضة والتتابع والاستطراد ، فإذا ألم ببحث على وفى جوانبه ، وبسط فى آفاقه ، ولم يدع فيه ما يحتاج إليه الباحث المتعقب ، وإذا أورد قصيدة أو رسالة أو خطبة شرح معانيها اللغوية شرحا دقيقا متمكنا ، ثم بين مراد الأديب بما قاله ، وتعرض له بشىء من أخباره وآثاره ، وقد يستطرد فيقرن المعنى بمشابه له أو مقارب منه أو مضاد له ، يفيض فى كل ذلك بأسلوب رصين واضح فصيح .

وقد عمد فيما اختاره من آثار أدبية إلى روائع الأدب : من شعر ونثر وخطب ورسائل ، فهو حسن الذوق فى كل ما يهتدى إليه ، غزير المادة بما يفيض فيه ، قريب الشبه فى مسلكه بالكتب التى هى أصول للأدب من أمثال « الأمالى » و « الكامل » و « العقد » إلا أنه لم تغلب عليه ناحية خاصة تستأثر به ، وتدعه ضعيفا فى غيرها مما يقوم عليه بحثه وشرحه ، ونقده وتعليقه ، وإنما هو فى هذه النواحى جميعا المتمكن الذى يعدل بينها .

والوسيلة بجزئيها تتضمن تمهيدا وأربعة مقاصد ، يشتمل كل منها على فصول ومقالات ، فالتمهيد فى بيان فضل العلم وتقسيم العلوم وتعريفات لعلوم العربية والأدب مع إفاضة بذكر الأمثلة ، والمقصد الأول فى العقل وشرح أنواع المعقول ، والمقصد الثانى فى تعريف اللغة وبيان الداعى لوضع علوم العربية ونهايته نهاية الجزء الأول ، والمقصد الثالث وهو أول الجزء الثانى يحتوى فنون البلاغة بإسهاب وشرح وإفاضه مع دقة وتحليل ، والمقصد الرابع وهو أوسع المقاصد وأكثرها بسطا : يتضمن المكاتبة والتربية الأدبية والأدعية التى جرى السلف على استعمالها فى مكاتباتهم ، وفى مكاتبات النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ومكاتبة الملوك والأمراء والأدباء وفى الأمثال العربية وغير ذلك من البحوث الأدبية الممتعة ، وقد ختم الجزء الثانى بكلمة ضافيـه عن المرحوم عبد الله فكرى باشا . ومن أهم ما حواه الجزء الثانى حديثه عن البارودى الشاعر العظيم .

والكتاب مطبوع بمطبعة المدارس الملكية بمصر من سنة ١٢٨٩ - ١٢٩٢ هـ .

وله كتاب « الكلم الثمان » : وهو رسالة شرح فيها كلمات جرت على ألسنة الناس فى عهده ، وكثر ترديدهم لها ، ولهجوا بذكرها مما دعاه إلى بسطها وتبينها كلفظ « الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية والإنسان والمربى ، وكيف يجب أن يكون وما به تكون التربيه ، كتبها بأسلوبه الرصين الرشيق ، وهى مطبوعة بالمطبعة الشرقية بمصر سنة ١٢٩٨ .

وله أيضا كتاب « دليل المسترشد فى الإنشاء » : وهو كتاب وضعه لتعليم طرق الإنشاء وأساليبها ، وكيفية افتتاح المراسلات والمكاتبات والموضوعات الإنشائية المختلفة ، وأورد فيه طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومكاتبات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكتب خلفائه الراشدين إلى القياصرة والأكاسرة والعرب خاصتهم وعامتهم ، وجمهرة من القصائد والمقاطيع لمشهورى الشعراء من الطبقات الأولى الثلاث .

والكتاب يتضمن مقدمة تحتوى ما يحتاج إليه المنشىء من معرفة مبادىء العلوم وتمييز بعضها عن بعض ، ثم يحتوى بحوثا قيمة فى تعريف الكتابة وبيان طرق التعليم والأغراض التى يحاول المنشىء أن تحسن بها صناعته ويجود بها إنشاؤه ، والكتاب مخطوط لم يطبع .

نماذج من إنشائه : كتب فى التخلق ببعض الأخلاق فقال :

« غير خاف أن التخلق بالكبر والخيلاء والعجب ، والتعاظم على الناس بما أفضل الله به على الإنسان ، من علم وجاه ومال أمر غير حسن ، لما جبلت عليه النفوس من الإباء والنفرة عمن يتعاظم عليها ، فما أكثر ما بُدِّل حسن الود والتآلف ، بأشنع العداوة والتنافر ، لكن لذلك موضع يكون فيه حسناً .

وبيانه : أن من المشاهد كون النوع الإنسانى محتاجا فى حسن تعيشه ، وتحصيل أغراضه إلى ألفة ومودة وإنصاف ، بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، فإذا خرج بعض الناس عن الجمعية ، وسعى فى الأرض بالفساد ، وجب على الناس تأديبه بما يعيده إلى الصلاح ، وربما كان التكبر والزهو عليه أنكى له وأرجى لمتاب فكره ، وانحيازه إلى حيز الاستقامة ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فارساً من أصحابه يمشى بين الصفين مختالا ، يميل يميناً وشمالا . فقال « هذه مشية يكرهها الله تعالى إلا فى هذا الموضع » فقد علمنا أن للتكبر موضعاً يكون فيه حسناً » .

من ضلالات الشعوذة :



معرفة الغيب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الإيمان الحق حين تخالط بشاشته القلوب ، وتمازج طهارته الأفئدة ، وتسطع أشعته على البصائر فتملؤها نوراً وحكمة .

هذا الإيمان يهدى الناس فى حياتهم إلى النهج الواضح ، ويدلهم على السبيل اللاحب ، ويغرس فى أعماقهم الثقة برب العالمين ، والاطمئنان إلى عدالة أحكم الحاكمين ، ويخلص عقائدهم من الزيغ والضلالات ، ويطهر نفوسهم من الأوهام والخرافات ، ويحذرها من البدع والآفات .

ومحال أن يصح إيمان فى نفس مؤمن ثم يلتوى قصده ، ويضطرب نهجه ، وتختل حياته .

أما حين يضعف الإيمان فى النفوس ، ويهن سلطانه على القلوب ، وتقل ثقة الناس بخالقهم ، وتتخلل حياتهم فترات صدود عن الأعمال ، وانصراف عن الواجبات ، فإن الأوهام تجد فيهم حينئذ مرتعاً خصيباً ، وتصادف لديهم مجالا رحيباً .

والدارس لطباع الناس وعاداتهم ، والناظر فيما يشيع بينهم من المعتقدات والتقاليد ، يرى أن البدعة لا تقوى إلا عند ضعيف الإيمان ، وأن الخرافة لا تتأصل جذورها إلا عند قليل الثقة بسنة الله فى الكون .

من الأوهام الضالة الخبيثة التى توارثها الناس جيلا بعد جيل ، وخضعوا لها قبيلا إثر قبيل ، والتى أثرت أسوأ تأثير فى حياتهم وأعمالهم ، وجعلت أمورهم

تعتل ، وأوضاعهم تختل ، وأفسدت عليهم عقائدهم وتفكيرهم . اعتقاد كثير من الناس أن فى بنى آدم من يستطيعون استشفاف الغيب ، واستكناه المجهول ، واستطلاع ما وراء الحجب ، مما يستعجلون معرفته ، ويشتهون الوقوف عليه ، بل إن فيمن لم يهذبهم العلم الصحيح ، والمعرفة الناضجة ، من يعتقد أن فى بعض الأناس من يقدرون على التحكم فى مجرى القدر ، واتجاه القضاء ، فيحولونه من نحس إلى سعد ، ومن شؤم إلى يمن ، ومن سوء حظ إلى حسن طالع ، وأن فيهم من يستخدم الجن فى قضاء المصالح ، وتدبير الأمور ، وشفاء المريض ، وإسقام الصحيح ، وتوثيق الصلة بين اثنين ، أو فصم عرى المودة ، وبتر أسباب الألفة بين المتحابين . وأنهم يستطيعون أن يسهلوا للناس ما عسر من أمرهم ، وييسروا عليهم ماشق من أمور الدنيا ومظاهر العيش ، وهكذا مما لا يقبله منطق ويسيغه عقل ، ولا يقره إدراك صحيح وتفكير مستقيم .

وأول مايبده الإنسان فى هذه المشكلة التى أخبت الناس إليها ، أن من أضفوا عليهم هذه الألوهية أناس يجفوهم حسن السمت ، وجمال المظهر وعلائم الاستقرار والاستغناء . فهم من شظف العيش وكلب الفقر ، وقذارة المظهر ، وشقاء الحياة على جانب كبير . فهل من المعقول أن يُسعِدَ هؤلاء الناس وهم أشقياء ؟ يجلبون لهم أسباب النفع أو يدفعون مظاهر الضر ، وهم لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً !

أما كان الأجدر بهؤلاء الدجالين المضلين أن يستغلوا علمهم فى رفاهية أنفسهم ونعيمها وكفايتها ، بدل أن يعيشوا على هــــذا الاتجار الرخيص والارتزاق الدنيء .

فى كل ناحية من نواحى الحياة نجد لهذه المعابث والضلالات أثرا قبيحاً ، نجد رضى بها ، واستسلاما لها ، أفسد على الناس أمرهم ، وكدر صفوهم وأخرهم أشنع تأخير .

فى الأمراض ، فى المنازعات والقضايا ، فى الحب والبغض ، فى الحمل والولادة ، فى إطالة الأعمار ، فى الأرزاق ، فى كل شيء يحرص عليه المرء نجد الخرافة الشاذة قد تسربت إليه وعدت عليه ، ونجد الناس قد لجئوا إلى من يلتقط لهم غيب

السماء ويستشف لهم علم ما فى للغد ؛ بل ويجعل طيرهم يجرى يمينا ونحوسهم تتحول إلى سعود .

إن الشاعر الجاهلى الذى لم يدرك دينا ، ولم يسطع عليه الإسلام بنوره كان يقول :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

والله تعالى يقول « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » ويقول جل شأنه : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ولو أدرك هؤلاء البسطاء ما يصيبهم من شر ، وما يدخل على حياتهم من اضطراب وخلل من جراء هذه الأوهام الضارة وهذا الصغار الممقوت لأشفقوا على أنفسهم من هذا الضلال المبين .

ولكن الجهل حين يعمى القلوب ويظلم الضمائر ، يسبب للحياة الفساد ، ويضفى عليها العذاب والشقوة ؛ وبدلا من أن يطلب الانسان غناه ويهتدى إلى حاجته من الطريق السوى الذى شرعه الله وهو الجهاد والعمل ، يهمل السعى ويتردى فى هوة الكسل ، لأن رجالا من الدجالين الذين مرضت قلوبهم ، وخربت ضمائرهم وران الجهل والظلام على نفوسهم ، يستخدم له الجن فى فتح أبواب الرزق وتيسير سبيل الغنى ، وهكذا يظل تائها فى ضلاله ، ممعنا فى خداعه حتى يتمكن منه الفقر ويقتله اضطراب الحياة .

وقد يركب بعضهم سبيل الظلم ، ويعمد الى الإضرار بالناس ، والتمادى فى خصوماته ، لأن نصابا من هؤلاء وعده باستخدام الجن فى التأثير على القضاء ، ويمرض المريض فلا يظهر من الرغبة فى استدعاء الطبيب بمقدار ما يتهافت فى استفتاء هؤلاء المشعوذين .

ولقد يسرق بعض المتاع من بيت ، فلا تكون هناك حيلة ولا توجد وسيلة ، الا أن يلجأ أصحابها إلى دجال يكشف لهم عن الغيب ، فربما أشار بجهله الى جار أو دل بسوء ظنه على قريب ، فاذا بالعداوات تشب والخصومات تعنف والصلات تتمزق والروابط تتفكك ، ويعيش هؤلاء فى الويل والهلاك ، لم تكفهم مصيبتهم

فيما سرق؛ بل زادوا عليها مصيبة أخرى هي خلق المشكلات واشتجار الخصومات.
ليت شعري أي علم هذا الذي اختص به من دون الناس جميعا هذا الصنف من الخلق؟ ومن أي كتاب أخذوه وفي أي مدرسة أو أي جامعة تعلموه؟ ولماذا لا تسخر الجن والشياطين إلا لهؤلاء الدجالين الذين تلازمهم القذارة، ويستبد بهم الجهل ويستولى عليهم شظف العيش، وتحوجهم الحياة إلى الارتزاق من هذا السبيل.

إن الله تعالى يقول: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين». ويعصى هؤلاء الجهلة ربهم، ويأخذهم الغرور وخداع الناس فيقولون بل نحن نعلم الغيب. وكذبوا فإن خاتم الأنبياء وأفضل الرسل قد أمره الله أن يقول للناس: «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون».

وهؤلاء يدعون أنهم يعلمون ما في الأرحام، ويطيلون الأعمار ويكتبون للناس السلامة من الآفات والأمراض، ويعلمون متى يموت الإنسان، وإذا شاءوا أخروا هذا الميعاد بعض التأخير مع أن المولى جل شأنه يقول: «إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت. إن الله عليم خبير».

لقد قيل: إن ملكا أراد الغزو فأعد له عدته، واتخذ أهبته، وقبل أن يشخص إلى عدوه بيوم، جاءه أحد المنجمين وطلب إليه ألا يغزو هذا العام: لأن جيوشه ستنهزم إذا غزا؛ فصدق الجند وآمن الناس، ووقع الملك في حيرة وارتباك، إن خالف هذا الدجال، ثار الجند وحملوا لواء التمرد والعصيان، وإن سكت عن الغزو استضعفه الأعداء ونالوا من هيبته؛ فلم يجد بدا من السكوت على ألم ومضض، ثم أرسل عند الفجر إلى الدجال من قتله وأراحه منه، فلما أصبح الناس وجدوه مقتولا. فقال لهم الملك: لو علم هذا الرجل الغيب لعرف مصيره، وأدرك في أي يوم منيته. ثم خرج بجيشه فغزا عدوه وانتصر عليه نصرا مبينا.

إن رسل الله قد حرصوا على أن يفهم الناس عنهم أنهم مبلغون ومبشرون ومنذرون ، لا يعلمون الغيب ولا يدخلون فى علم الله ، وإذا كان رسل الله لايعلمون غيبه فهل يعلمه صعلوك من صعاليك الناس ؟ وهذا كلام الله على لسان نوح يتبرأ من هذا الادعاء : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك » ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ، ويقول أيضاً : « من أتى كاهنا فسأله حجبت عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدقه بما قال كفر » .

فهل بعد تلك الآيات الدامغة والبراهين الساطعة ، يدعى أفاك أنه يعلم الغيب بنفسه أو باستخدام الجن : ذلك جهل مطبق بدين الله ، وجهل مطبق بعالم الجن وماله من خصائص ومميزات .

إن الجن عالم آخر وخلق من خلق الله لا صلة لنا به ولا تأثير لنا عليه ، نحن لا نفهم لغته ولا ندرى كنهه ولا قدرة لنا على الاتصال به : لأن الحواجز التى جعلها الله بيننا وبينه يستحيل أن تزول بحيلة أو براعة أو قدرة على كتابة الطلاسم والمعميات أو إقامة الزارات .

ولنفرض المستحيل من أنه يمكن لبعض الناس أن يتصلوا بالجن ويستخدموهم . فمن أين للجن معرفة الغيب وعلم مالم يقع . والله تعالى يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » .

إن الإنسان لعجيب فى أطواره وأحواله ، عجيب فى تفكيره وتصوره ، يحجب الله عن علمه الغيب لحكمة جليلة وسر بديع ، فيحتال على المولى بالجن ويستعين بالشياطين والعفاريت ؛ لإظهار ما أخفاه الله وكشف ماستره . يا لبلاهة العقول وبلادة الإدراك !

أن أعظم دليل يسوقه القرآن على جهل الجن بالغيب ما حكاه المولى عن نبيه سليمان ومعجزة تسخير الجن له : فإنها لم تعمل إلا الصناعات التى يعرفها بنو آدم من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم

عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين . فالجن جهلوا موت سليمان وهو أمامهم يمرون عليه فى الصباح وفى المساء . أبعد هذا دليل قاطع وبرهان ساطع ؟ .

يجب أن يعرف الناس العقائد السليمة ، ويرجعوا إلى الدين الصحيح ، ويدركوا أن سنن الله فى الكون واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وسبيله فى عباده سوى لا عوج فيه ولا التواء .

وبذلك يعيشون فى أمان واطمئنان يعمهم دائماً الخـــير ، وتظلهم أسمى ألوان السعادة .

قوة معاوية وحلمه

مرض معاوية بن أبى سفيان مرضاً شديداً فأرجف مصقلة بن هبيرة وساعده قوم على ذلك ، ثم تماثل وهم فى إرجافهم . فحمل زياد مصقلة الى معاوية وكتب إليه أنه يرجف به ويسلط أقواما على أن يحذو حذوه ، وذلك ليرى رأيه فيه . فلما دخل مصقلة على معاوية قال له ادن منى . فلما دنا منه أخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة على الأرض . فقال معاوية :

أبقى الحوادث من خليـ ... ـلك مثل جندلة المراجم

صلبا إذا خار الرجا ... ل أبلّ ممتنع الشكائم

قد رامنى الأعداء قبـ ... ـلك فامتنعت من المظالم

فقال له مصقلة : يا أمير المؤمنين قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك حلما وكلأ ومرعى لأوليائك ، وسما ناقعا لأعدائك . كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ، وأنت أمير المؤمنين .

ثم نهض مصقلة ، فوصله معاوية (أى أعطاه صلة) وأذن له فى الانصراف الى الكوفة . فقيل له كيف تركت معاوية ؟ فقال زعمتم أنه لما به ، والله لقد غمزنى غمزة كاد يحطمنى ، وجذبنى جذبة كاد يكسر عضوا منى .

المعاهدة الإسلامية

بين الأغنياء والفقراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

اقتضت حكمته تعالى ألا يكون الناس أمة واحدة فى الغنى والثروة ، ففضل بعضهم على بعض فى الرزق ، وبسط العطاء لفريق وقدر على آخر ؛ وذلك خاضع لسنته الكونية فى عباده حيث أوجدهم فى الحياة الدنيا ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وجعل لهذا الابتلاء ألوانا متعددة وصورا متنوعة ، فقد يكون بما وهب من نعمة أو بما قضى من نقمة « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » هذا ، وإن تفاوت الأشخاص فى العطاء الإلهى يجعلهم أيضا فيما بينهم مظهرا من مظاهر ذلك الابتلاء « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » .

فأراد تعالى أن يختبر الغنى بالمال ؛ ليعلم هل يعتز بربه فحسب ويقدره حق قدره ؛ فيبذل المال فى مرضاته ويسخره فى طاعته ، ويجعل منه موردا عذبا للسائل والمحروم ؟ أم أنه يأخذه الصلف بماله ويدفعه الحرص الآثم إلى أن يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، ويتردى فى هاوية من الضلال البعيد ، فيكفر بنعمة ربه ويقول فى عتو واستكبار « إنما أوتيته على علم عندى » .

وكما اختبر جلت حكمته الغنى بالمال اختبر الفقير بالحرمان منه ، ليتميز الراسخ فى إيمانه الصابر على ابتلاء ربه ، الواثق بعونه وإمداده ، من هذا المنافق الهلوع الذى « يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » . ولما كانت الصلة بين الغنى والفقير

هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع والدعامة القويمة التى يرتكز عليها بناؤه ، وتشيد صروحه ، عنى الإسلام بتلك الصلة عناية فائقة ، وأحاطها بكل أنواع التقديس والرعاية . وما كان له وهو البلسم الشافى لأمراض القلوب ، أن يهمل تلك العلاقة ويجعلها نهبة لنزعات الشر وعواصف الفساد ، وتستطيع أن تجزم - من غير إسراف - أن تلك الرابطة لم تظفر فى تشريع ما بمثل ما ظفرت به فى الإسلام ، وليس ذلك بدعا فهو دين الإنسانية الخالد ، وحرمها الآمن ، وحصنها المكين الذى يحفظها من المذاهب الهدامة ، ويدفع عنها أعاصير الفتن ومعاول الهدم والدمار .

وإنك لو استقصيت الآيات والأحاديث التى وردت فى رعاية تلك الصلة ، لحسبت أنها وحدها المقصود من رسالة الإسلام .

حسبك أن تذكر أن آيات الزكاة والصدقة تربى على الخمسين ، وأنك قلما تجد سورة ليس فيها ذكر الفقير والمسكين وإثارة العاطفة للحدب عليهما ، وما ل ركن من أركان الاسلام مثل هذه العناية والاهتمام ، وما ذلك كله إلا لأن إغفال تلك الصلة ينجم عنه خطر داهم ، وشر مستطير ، انظر إلى قوله عليه السلام : « واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » .

لكن الإسلام قد حل هذه المشكلة حلا فطريا عادلا ، وشرع لها علاجا حاسما اجتث به جذور الشر ، وصرع الفقر فى مهده ، وأحكم أواصر المودة بين الأغنياء والفقراء ، فأصبحوا بنعم الله إخوانا ، يتنافسون فى رعاية تلك المعاهدة المقدسية ؛ لأن كل واجب والتزام يتبعه حق وامتياز ، فقد أوجب على الفقير أن يحترم ملك الغنى ، فلا يدفعه عن ماله ، ولا يحد من إرادته . ولا ينقصه حرية التصرف ، ولا يحول بينه وبين العمل المشروع لزيادة المال وتنمية الثروة .

كل ذلك فى نظير أن يستمتع الفقير بزكاة مفروضة على الغنى فى ماله : هى ركن من أركان الإسلام التى يقوم عليها بناؤه ؛ وبالتهاون فى أدائها يصير ذلك البناء عرضة للزوال والانهيار .

ليست الزكاة فرعا ولا نافلة ، والنسب الواجبة فيها تسعف الفقير ، وترفه عنه ولا تجحف بالغنى ؛ لأنها ليست شيئا مذكورا بجانب ما يقذف به الأغنياء فى الترف الماجن واللهو الآثم .

لقد بالغ الإسلام فى الوصية بهذه المعاهدة ، فحض على رعايتها بكل عبارة ناجعة وأسلوب أخاذ ، وألهب جذوة الحماس لتنفيذها والوفاء بحقها ، وحذر عاقبة التفريط فى شرط من شروطها ، فقال تعالى مبينا حرمة مال الغير : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » وبذلك منع الفقير من الاعتداء على مال الغنى ، وأبلغ من ذلك أن الله تعالى لم يطالبه بالكف عن العدوان فقط ؛ بل طلب منه أن يحافظ عليه لمحافظته على ماله تماما ؛ لأن المسلمين كنفس واحدة فمال البعض مال للكل ، لأن المال عصب الدولة التى يتفيأ الكل ظلالها ، ويقطف ثمراتها ، فكان لزاما على الجميع أن يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » ومما يملأ النفس روعة وجلالا ، أن الوصية لم تقتصر على كف العدوان وتسخير الحواس فى المحافظة على مال الغنى ؛ بل طلب أيضا من الفقير أن يطهر قلبه من حسده والحقد عليه ، ولم يسمح له أن يصغى إلى خاطر الشر وأمنية السوء « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » .

أى تشريع يرعى المال لصاحبه بمثل هذه الصيانة والإحكام ؟

تلك هى وصية الإسلام لأحد الطرفين ، أما الطرف الآخر فقد سلك معه مسلكا حكيما ، يهز أوتار القلوب فيجعلها تواقة للبذل والعطاء مستبشرة بالإحسان والمواساة . ونجمل ذلك فيما يأتى .

(١) آذنه أن ماله ملك لله ، وأنه فقط نائب عنه فى الإشراف عليه ؛ فلا يجمل به أن يعصى المالك فى ملكه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

(٢) قضى على ما يتردد فى نفسه من أن الإنفاق مذهب للمال ، فبين له أن ذلك هو المعراج لكسب رضوان الله ومضاعفة المال « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » .

(٣) سمى الإحسان قرضا له تعالى يأخذه ليرده بربح وفير « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . وما قيمة امرىء يبخل بإقراض بعض المال لواهبه الذى سيرده حتما أضعافا مضاعفة ؟

(٤) أعلمه أن بقاء الزكاة فى المال من غير إخراج وسيلة لتلفه وزواله؛ يقول عليه السلام: « ما خالطت الصدقة مالا إلا أهلكته ».

(٥) أخبره أن الصدقة تحفظ المال وصاحبه من جميع الآفات؛ قال عليه السلام « الصدقة تدفع البلاء ».

(٦) حذره من البخل وصور له ما ينجم عنه من العواقب الوخيمة، التى تسلب صاحبها لذة الأمن والطمأنينة، وتجعله غرضا لفتنة جامحة وبلاء شامل يقول عليه السلام: « ويل للأغنياء من الفقراء ».

(٧) جعله مهددا بالفناء والاستئصال إن هو قبض يده عن الإنفاق فى أبواب البر « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغنى وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »، إلى غير ذلك من التعاليم والوصايا.

من هذا يتبين أن النظام الإسلامى يجعل بين الغنى والفقير نسبا موصولا، وإخاء قويما وتجاوبا روحيا، يتبادلان المودة والوفاء والأنس والصفاء، فيحس الفقير أن ما نقصه من المال قد عوّض له بإحسان الغنى، ويستمتع الغنى بما بقى من ماله مغتبطا بلذة الأمن مبتهجا بإخلاص الفقير الذى أسره بالإحسان، فصار هائما بملك المال والرجال.

لم يقتصر الإسلام فى رعاية تلك الصلة عند هذا الحد؛ بل جعل للفقير موردا دائما فى مال الغنى؛ كما ترى ذلك ماثلا فى كفارة الحنث فى اليمين، وكفارة العود فى الظهار، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الفطر فى رمضان، وكفارة المحظورات فى الإحرام للحج، وزكاة الفطر ولحوم الضحايا، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحض على الجود فى كل مناسبة كريمة، ترفع من شأن الأمة وتنهض بها إلى أوج العزة والكمال.

أيها المسلمون: إن هذه التعاليم القدسية لا تؤتى أكلها بمجرد بحثها ودراستها، بل لابد أن تكون جزءا من النسيج العقلى، تغزو القلوب متحكمة فيها، والضمائر مهيمنة عليها، فلا يتصرف الشخص إلا بباعث منها، ولا يصدر إلا عن وحيها.

ويجب أن يجتمع الحكام والمحكومون على احترامها وتقديسها ، وأخذ النفوس بقانونها ، وتصبح تشريعا عمليا ترهب بسلطانها من لم يعمر قلبه جلالها ، وتحدثه نفسه بخيانتها .

عندئذ حدث عن هذه الآثار القيمة ما شئت أن تحدث ، ففيها تحقيق لفكرة التأمين الاجتماعى التى هى هدف كل حكومة رشيدة ، وفيها قضاء على المذاهب المتطرفة التى تهدد كيان الدول ، وتحاول أن تأتى عليه من القواعد ، وتجعله هشيما تذروه الرياح . ولعلاج ذلك تلاقى الحكومات من صنوف العنت ما يجعل أملها فى تخفيف الويلات شاق الحصول عزيز المنال .

فى هذه الآثار الطيبة هزيمة قاهرة لأعداء الإنسانية الثلاثة ، الفقر والمرض والجهل ، إذ يتوفر لدينا المال الذى هو الدعامة فى قضاء الحاجات وطب الأجسام وتثقيف العقول .

وفيها أيضا إقامة لأخوة شاملة جامعة طالما تاق اليها الفلاسفة والمصلحون . والله أسأل أن يوفق قادة الأمة إلى العمل بشرع الله الحكيم ، والاستمساك بهديه الرشيد ونصرة دينه القويم « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

شذرات من كلام الامام

قال على رضى الله عنه : رأى الشيخ أحب الىّ من مشهد الغلام — الناس أعداء ما جهلوا — بقية عمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك بها ما أفات ، ويحيى ما أمات — الدنيا بالأموال ، والآخرة بالأعمال — لا تخافن إلا ذنبك ، ولا ترجون إلا ربك — وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم — الناس من خوف الذل فى الذل — من أيقن بالخلف جاد بالعطية — بقية السيف أنمى عددا ، وأنجب ولدا .

الدين والسياسة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

كان العرب قبل الإسلام يعيشون فى ظلام الفوضى والاضطراب والفساد ، لا رابطة تربطهم ، ولا نظام يجمعهم ، ولا دين ينير لهم سبل الحياة ، ولا قانون يهذب عندهم ما اضطرب من أمر الدنيا ، وما انتثر من نظام الاجتماع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، ولا يردون الحقوق إلى أربابها ، ولا يعيدون الودائع إلى أصحابها ، وليس فيهم تقديس لدماء الناس وأموالهم ، ولا احترام لحرمهم وأعراضهم ؛ فالأموال تنهب ، والمحارم تستباح ، والعهود تنقض ، والذمار يخفر ، ويُعتدى على الآمن فى وضح النهار ، دون رهبة لسلطان قانون ، ولا خشية من صولة حاكم .

فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، دعاهم إلى خير الدنيا والآخرة ، وسعادة الحياة والممات ؛ فهذب أوضاعهم ، وعدل نظامهم ، وجمع شتاتهم ، وجعلهم أمة واحدة مترابطة متآلفة ، قوية الدعائم ، راسخة البنيان ثابتة الأركان بما سن لهم من الشرائع ، وما أشاع فيهم من الآداب ، وما أوجب عليهم أن يتبعوه من القوانين ، ويخضعوا له من الأنظمة .

أصلح الإسلام قلوبهم ، وهذب أخلاقهم ، وصقل آدابهم ، وخلق من هذه الأمة الشامسة العصية ، المتناكرة المتنافرة التى تتأبى على النظام ، وتتمرد على قواعد الاجتماع ، أمة كريمة عفيفة مهذبة لا تعرف الجفوة ، ولا تحب الغلظة ، ولا تبغى على أحد ، ولا تظلم مخلوقا . وكان شعارهم فى ذلك قول الله جل شأنه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . كذلك شرع الإسلام للناس ما ينفعهم فى حياتهم ،

ويحفظهم من الفساد والفوضى فى دنياهم . فلم يدع ناحية إلا أضفى عليها النور ، وبسط عليها النظام ، وجعل السيادة فيها للقانون .

وإن نظرة واحدة إلى ما شرعه القرآن من أنظمة ، وما دعا إليه من آداب كريمة ، وسنن قويمة تجعل المرء يؤمن من أعماق قلبه أن الإسلام جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، تقودهم إلى الخير ، وتوجههم إلى الغايات المثلى ، وتدلهم على السعادة الحقة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ولسنا الآن بصدد أن نفصّل ما سنه الإسلام من شرائع : لإصلاح نظام الحياة ، وتهذيب كل ناحية من نواحيها ، وتأمين الناس حتى لا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يأكل أحد مال أحد أو يلغ فى عرضه أو يكشف ستره ، أو يهتك حرمته ، فذلك أمر يطول الحديث فيه ؛ ولكننى أقتطف زهرة فواحة من بعض النواحى ، وفيها غنية لكل عاقل يلازمه النظر الصحيح والإدراك السليم ، ودلالة أبلغ الدلالة على أن الإسلام دين ودولة ، أدب وسياسة ، عبادة ومعاملة ، نظام يربط العبد بربه ، ويصل الإنسان بأخيه الإنسان صلة كريمة لا بغى فيها ولا عدوان ، وليس الإسلام كما يصفه بعض المفتونين ، ضعاف العقول قصار النظر ممّن راجت عندهم شبه الباطل ، ونفقت لديهم وساوس المضلّين من أن الإسلام لا شأن له بالدنيا ، ولا ينبغى له أن يدخل فى نظام الاجتماع .

لو أتيح لهؤلاء حظ من التعقل والإنصاف ، ولو تجردوا ساعة من شهواتهم وأهوائهم ؛ لأدركوا أن الإسلام فى أجمل صوره ، وأقدس مظاهره ليس له من هدف إلا أن يكون العبد قوى الإيمان بربه ، عظيم الثقة فى خالقه ، وأن يكون مع ذلك فى هذه الأمة عضوا من جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى : فلينظر هؤلاء الى ما سنه القرآن من أحكام تصلح كل مظهر من مظاهر الحياة .

فنى المعاملات التى تقوم بين الناس ، يشرع لنا رب العالمين أحكم القوانين وأبدع النظم التى تجنبنا الفوضى ، وتقينا شر الفساد « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم

يدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وفى الزواج يقول تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ويضع لنا دستورا فيمن حرم علينا من النساء فيقول : « حرمت عليكم أمهاتكم » الآيات ، وفى المواريث يقول : ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد » الآيات .

ويدعو إلى المحافظة على الأموال فيقول جل شأنه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » ويحرص أشد الحرص على صيانة الدماء فيقول : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » . « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » .

ويضع القصاص فيقول : « كتب عليكم القصاص فى القتلى » ويشرع الحدود فيقول : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

ويدعو إلى الوفاء بالعقود واحترام العهود حتى مع المعاهدين ومَن دخلوا فى ذمة المسلمين « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وهكذا فى كل ناحية : تشريع محكم ، ونظام دقيق ، وحكم هادىء رفيق ، لا عنف فيه ولا قسوة ولا ظلم ولا إجحاف ، ولا يشعر أحد بما يشق عليه أو يعسر ما دام يؤدى واجبه ويقوم بتبعاته .

فهل بعد هذا نظام يحفظ كيان المجتمع من التهدم ، ويصونه من الانحلال والتدهور ؟ وهل بعد هذا القانون المهذب السمح قانون يمكن أن يؤخذ به الناس ، وتسير عليه الجماعات ويصلح به شأن الدنيا ؟ .

هل بعد هـذا النظام الدقيق الشامل الذى أصلح ظاهر الناس وباطنهم وعلانيتهم وسرهم ، يطمع طامع أن يُوجدَ قانون آخر يهذب الجماعة ، ويلم شعثها ويجمع شتاتها ؟ .

لقد خلق الإسلام من العرب دولة قوية شامخة ، وأمة فتية ناهضة ، نشرت العدل والنظام ، ورفعت لواء الحق والأمن ، وحملت نبراس الفضائل ، فتطامنت الأمم لسلطانها ودانت لعظمتها ، ودخل الناس فى نظامها طائعين مختارين . وفى ذلك عبرة لمن تحدثهم نفوسهم أن الإسلام دين ليس له شأن بالدولة ، وعبادة لا تتصل بالسياسة . ادعاء مريض ، وتفكير سقيم ونظر كليل ، لا يعرف الحقائق الدامغة ، ولا يبصر ما تحفل به صحائف التاريخ من مجد أثيل وجاه عريض .

لقـد كان الإسلام دينا ودولة ، يقدس الناس قوانينه ، ويحترمون نظامه ؛ ويرهبون القائم عليه ، ويأخذون أنفسهم بطاعته ولو كان عبدا حبشيا ؛ فأمن فى ظله الخائف ، وشبع الجائع ، واكتسى العارى ، وأنصف المظلوم ، وجبر المهيض ؛ فامتدت رقعته الى أبعد الآفاق والحدود ، لأن الناس لم يكونوا يعرفون هذه الكلمات الجوفاء ، التى يرددها البعض دون أن يدركوا مدى ما تبعثه من فرقة ، ولا ما تحدثه من انقسام ، وما تجره من ضعف خلق وتخاذل اجتماعى .

الإسلام نظام للدين والدنيا ، وشريعة تهذب أمور الناس فى حياتهم ، وتهديهم إلى الفوز والنجاة فى آخرتهم .

وما الدين إلا نظام للحياة إذا سار الأنام على منواله سعدوا

ولقد تهدد المولى جل شأنه من يحيد عن سنته وينأى عن شريعته بالعذاب الأليم ، والشر الدائم المقيم « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » ، « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

فهل بعد هذه الآيات البينات ، وتلك الحجج الواضحات الدامغات ، يقول ضال أو يتشدق مفتون ، ما للإسلام والدولة ؟ وماله وسياسة الأمة ؟ فليشعر الناس قلوبهم ، وليشربوا نفوسهم آداب الإسلام وسماحته ، وستكون لهم حينذاك المكانة التى لا تدانيها مكانة ، والمنزلة التى لا تسمو إليها منزلة .

من طابع الشعر الجاهلي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عونى
المدرس بكلية اللغة العربية

إن وعوثة الصحراء، وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو - كل أولئك طبع الشعر الجاهلى بطابع خاص، ومازه بسمة ظاهرة.

لهذا كانت له مزايا لم توجد فى سواه، وقد يكون أبرز هذه المزايا، وأولاها بالحديث، الصدق فى تصوير العاطفة، وتمثيل الطبيعة؛ فقلما تجد فيه كلفا بالزخرف أو تكلفا فى الأداء، ولذلك كثر فيه الإيجاز وقل المجاز وندرت المبالغة، فلا يقولون من الكلام إلا ما يخطر لهم، ولا يصورونه إلا كما يتمثل لمخيلتهم، والقاعدة فى النظم عندهم بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن أبى سلمى وهو قوله:

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فإذا تيم أحدهم الحب مثلا وأراد التعبير عن شوقه وهيامه، وصف ما يشعر به كما هو، فلا يغالى مثلا فى وصفه بالضعف، فيزعم أنه استحال إلى خيال أوطيف كما يفعل المتنبى إذ يقول:

كفى بجسمى نحو لا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

أو يزعم أن الشوق أضناه وأفناه، حتى لم يبق فيه غير خواطر تجول؛ كما يقول الجوهرى:

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى ... فلو شئت أن أبكى بكيت تفكرا

أو يبلغ فى بكائه وزفيره، فيدعى أنه غرق فى بحر دمعه، أو احترق بنار زفيره، وإنما يقول كما قال ابن الدمينة:

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأشياعي إليك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلة فأفنيت علاتي فماذا أقول ؟
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي إليك وصول

فلا يسمع محب هذه الأبيات وأمثالها إلا رأى الشاعر يعبر عن شعور صادق ، وإذا رثى أحدهم ميتا لا يوهم السامع أن السماء طبقت على الأرض ، وأن الشمس كسفت ، والدنيا لبست الحداد ، وإنما يقول كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرا :

ألا يا صخر إن أبكيت عيني فقد أضحكتني دهرا طويلا
بكيتك في نساء معولات وكنت أحق من أبدى العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا ؟
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وإذا أراد أن يهجو توخى الحقيقة ولم يعد الواقع في الهجاء كما يقول يزيد ابن قنافة يهجو حاتما :

لعمري وما عمري عليّ بهين لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم
غداة أتى كالثور أحرج فاتقى بجبهته أقتاله وهو قائم
كأن بصحراء المُرَيط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم
أعارتك رجليها وهافي لبها وقد جردت بيض المتون صوارم

وهذا على غير ما صار اليه الشعر بعدُ من البذاء والفحش ، وحسبك مقذعات أبي نواس وبشار بن برد ومن على شاكلتهما دليلا على التوقح فيه إلى حد الإفراط .

على أن أشد الهجاء عندهم ما كان أعفه وأصدقه ، ومن لطيف تجافيهم عن الهجاء ما قاله صخر بن عمرو السلمي يرثي أخاه معاوية وقد قيل له : اهج قَتَلَتَه ، فتعفف وقال :

وقالوا ألا تهجو فوارس هاشم ... ومالى وإهداء الخنا ثم ماليا
أبى الهجوَ أنى قد أصابوا كريمتى ... وأن ليس إهداء الخنا من شماليا

فقد عبر عن الهجو بإهداء الخنا ، وهو تعبير جميل يدل على مدى تحرجهم عن الهجاء .

فإذا اضطر العربى إلى ذكر ما يعد ذكره بذاء وقبحا ، فعل ذلك لا تهتكا ، بل وصفا للحقيقة ، وبيانا للواقع ولا يعد وهما .

قيل لأعرابى : ما لك لا تطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق ، فصار مثلا .

كذلك إذا تحمس أحدهم أو تفاخر فلا يجعل نفسه أو قومه فى عداد الآلهة ، وإذا مدح فلا يغلو فى مدحه غلو القائل :

وأخفْتَ أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

وإذا وصف حادثة ، أو وصف حيوانا أو امرأة ، تحرى على الجملة تصوير الطبيعة كما هى ، ومثلها بلا مغالاة فى المجاز أو الكناية كما يفعل المتأخرون .

وهكذا فشاعرهم مندفع فى كل ذلك بدافع الطبيعة ، لا يفكر فى غير ملموس بين يديه ، ومنظور أمام عينيه ، وعاطفة بين جنبيه ، وشعيرة تختلج فى صدره ، وصورة مطبوعة فى مخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته ؛ ولا يتطلع إلى ما وراءها ، ولا يتخطى إلى غير مشهوده ومعقوله ؛ لذلك جاء الشعر العربى مثالا صادقا لبداوتهم وحضارتهم .

ذلك أن العرب فى جاهليتهم فطروا على السذاجة ، والبعد عن التعمل والتصنع فى كل شىء حتى فى مواطنهم ، فكانوا لا يتوطنون صقعا خاصا يأوون إليه ؛ بل كانوا يحملون منازلهم على متونهم ؛ لا يحملون ضيما ، ولا يقيمون على خسف ؛ قال شاعرهم :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك ... وإن مالك كانت كرام المعا ن

فتمكنت الحرية من طباعهم ، وكانت الشجاعة الأدبية من أبين صفاتهم ، وأوضح سماتهم حتى ظهرت فى أقوالهم وأفكارهم وأشعارهم .

يدلك على ذلك ما ظهر من حريتهم فى أقوالهم منذ صدر الإسلام ، يوم كان أحدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس ، وإذا رأى فيه اعوجاجا أو انحرافا انتقده فى وجهه ، والخليفة يومئذ لا ينكر عليه انتقاده ، ولا يرى فيه غرابة . ومما يلى تعلم مبلغ تمكن تلك الحرية والجرأة من طباعهم .

تزوج صحابى بابنة خالة له فى خلافة عمر بن الخطاب ، وأمهرها عشرة آلاف درهم ، فلما علم ذلك إلى عمر ، فقام وخطب الناس يوم جمعة فقال رضى الله عنه :

أيها الناس ليس فيكم من هو أكرم على الله من ابن عم الرسول ، وليست فيكم من هى أكرم على الله من زوجه البتول ، حتى يدفع أحدكم عشرة آلاف درهم مهراً ، وهو يعلم أن فراش البتول إهاب كبش ، ووسادتها حشوليف . فقاطعته عجوز فى الجماعة بحمية وجرأة قائلة : تبالك ياعمر ! وكررتها ثلاثا بكل ماتملك من قوة صوت . فارتعدت فرائص عمر، ثم قالت : أين أنت ياحامى لواء الإسلام من قوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » الآية فتقاطرت عيناه بالدموع حتى بللت موقفه على المنبر، وأجاب من فوره :أصابت امرأة وأخطأ عمر — رددها ثلاثا . ثم قال تقدمتك الناس علما ورشدا حتى العجائز ! ثم نزل منكس الرأس .

فانظر إلى أى حد وصلت هذه الجرأة ، حتى على من كان تعنو له الأقيال والأكاسرة ، ولكن هكذا أبت الطبيعة العربية إلا أن تظهر فى ثوبها الحقيق .

فليس ببدع أن يكون الشعر الجاهلى أفضل أنواع الشعر القديم لأنه — على سذاجته — يمثل لنا طبيعة الإنسان وعواطفه كما مر ، ويهيج فينا عاطفة الشمم والرغبة فى فضائل الرجولة، وأنه لا ينبغى أن تقف فى سبيلها رغبة أو رهبة، كما ينبغى أن يتطامن سلطان الحكم لنصيحة الحق حيثما كان .

مجالات فى الأدب العربى :

ألوانٌ أُهملتْ ..!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بالأزهر

كانت التعابير المأثورة من مقول القبيلة أو ثائرها ، ثم من الخليفة أو قائده ، تحمل خصائص الإيجاز المشافه والاقناع الخطابى المؤثر ، مما يدخل إلى الأسماع سريعا ويتدفق على اللسان فى المحتربات السياسية والاشتباكات المتشاجنة فى الرأى ، وكأنها المثل أو الحكمة ، أو السائر من بيت فى قصيدة ، أو عين فى مقطوعة .

فلما استقرت حضارة الامبراطوريات الإسلامية ، وجعلت القرائح حقلها الصحف ترسل فى مجاريها الرسالة الإخوانية أو الرسالة السياسية أو الفكرة الاجتماعية أو ولاية عهد أو منشور سياسة فى التأييد أو الاثارة ، وجد فن التنوق البيانى والإبداع الإنشائى عند كتاب المقامة كالبديع والحريرى .

وتمكن القلم الذى ينقد المجتمع ، ويحلل النفوس ويبسط مرايا المحاسن والمساوىء وارتقى هذا اللون على يد « الجاحظ » الصناع .

وبدأت المكتبة العربية تذخر من مخلفات عباقرة الإسلام آثارا قلمية لا تزال ولا تزال فى دثارها ، تتكشف عن ملامح خالدة تربط فيما عالجته بين الماضى والحاضر ، وتصدق إن نحن تلمسنا مصداقها فى حياتنا الحاضرة ، لأن النفس الانسانية فى كل عصر لا تختلف فى الخصائص الأصيلة ، واختلافها فى مقتضيات البيئة وتطور الزمان ، وكل ذلك عارض تمطره متبدلات الحضارات ، وأما الأعماق من حب وبغض ، ومن سمو وضعة ، ومن مهاوى الغرائز ومثالب ، فكل أولئك تجد فيه ملتقيات تتشكل فى زى المعاصرة ، والمعادن عند ما تصهر تخلف بقايا

تكاد تتحد ، وهنا يستعيد المفتن فوات الماضى ويظفر منه بما يبنى عليه المستقبل ، وهذا مكان التأسى ومهد التعلق بالماضى ، ومراد القلم المتبصر المنصرف الذى لا ينكر قديمه ولا يجن بجديده .

ومن بدع القدامى تحلية المنثور من فن القلم بفرائد من الشعر تنساق فى مسارب الفكرة ، وتمضى بين الرسالة أو الخطبة أو المقامة أو المقالة فى التماعة الإشراقة ، وانطلاق الابتسامة ، مُحَلّية ، مُحَلّيه ، متمكنة فى تتاج العبقريين كالجاحظ والبديع والصابى ، مزينة كالخال على خد الحسناء فى أقلام المصنعين كالقاضى الفاضل ومن لف لفه من كتاب مدرسته .

ويبدو لى أن كتاب الأندلس فى حاجة إلى التفرد بإشادة ، لأنهم بالغوا فى اللجوء إلى الشعر والإكثار من حصائده المتنخلة المتخيرة ، لأن كتاب الأندلس كانوا من الرقة ومن الشاعرية على حظ موفور ، بل ربما كان الكاتب فى هزات قلبه يمتح من مسايل الشاعرية ، ويرسل الألفاظ فى تخايل الأثواب الشاعرة المقدودة من اللحمة العاطفية . وفى رسالتى ابن زيدون ما يقنع الشاك ويرضى المتصدى للاستدلال .

وساعد الأندلسيين على هذا النهج : جمال الطبيعة فى بلادهم ، ومفاتن الجمال الصامت والناطق فى فردوسهم الضائع وجنتهم الدانية القطوف .

وفى عصرنا الحديث عرف الأدب العربى أقلاما منها المغفور لهم « محمد السباعى » و « حافظ ابرهيم » فى النثر ، والمويلحى فى حديث (عيسى بن هشام) .

ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد ، وإنما الذى يهمنا هو انصراف الأقلام عن تلك الشنشنة وهذه السنة .

وأستطيع أن أعزو ذلك لقلة التحصيل عند حملة الأقلام ، أو تطور الدوافع والدواعى عند من يكتبون .

وربما قال المعتذر إن انسلاك الشعر فى منثور القول كان للتطور فى أسلوب الكاتبين ، وإننا أضحينا فى زمن يخضع الأدب فيه الى مطالب « الآلة » ، وأكثر الكتاب يعيشون على حقول « الصحافة » ، والصحافة لا تريد غير الأسلوب

التقريرى والبيان « الخبرى » . وتلك هى الطامة التى ستجنى على فنيّة الأسلوب ، وإن روجت له وكثرت منه وأشاعته وقربته من عوام « القراء » وأشباه المثقفين .

والمهم عندى أننا فقدنا لوناً من الأساليب التى جمعت دقة الفكرة وجمال التعبير وشاعرية الأداء ، وكفَـفَـتْ فى طواياها بدائع من الشعر وطرائف من النظم مقبوسة من الحكمة أو مقطوفة من الرأى أو مقطوعة من الغزل .

وظنى أننا سنعود فى عهد قريب ، بعد أن نجد الجفاف يسيطر على ما يخلقه القلم الناثر بسبب مجافاة التشبيه المطرب ، والكناية المخدرة ، والاستعارة اللماحة ، ومعاداة التخلية ببيت من الشعر أو بمقطوعة من النظم ؛

نعم سنعود الى بدائع الجمال التعبيرى ، والافتنان فى إخراج الفكرة وتظليل أثوابها ، بعد أن عريناها فخرجت وجمالها يقضى عليه ما يعد « كالجدرى » فى وجه الحسناء ، أو كالصدأ حف بالمعدن النفيس .

ونصيحتى إلى الشادين فى الأدب : أن يعكفوا على زاد الأدب العربى من منثور ، ومنظوم ، وأن يرعوا حقه يوم تمدهم ثقافتهم من موائد الغرب ، فاذا استطاعوا أن يحفظوا حق ماضيهم إذا أضافوا من الجديد الغربى ، كان لهم مقام صدق ، وكان لهم القدح المعلى ، واستطاعت صناعتهم أو استطاع أثرهم أن يباهى ويتقدم بخطاه الى سدة الخلود ، فان ارتد عن هذه السدة فلا أقل من ان يجد مدرجه فى الحياة الشرقية التى تقر ما تحلل بالشعار الشرقى وتسربل بالدثار العربى .

حماسة

نسبت إلى على بن أبى طالب عليه السلام هذه الأبيات :

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدما

فيوردها فى الصف حتى تردها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما

جزى الله قوما قاتلوا فى لقائهم ... لدى الروع قوما ما أعز وأكرم

وأطيبَ أخبار وأفضلَ شيمة ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما

قلت : نسب هذا إلى الإمام وفيه تشكيك ؛ لأنه كان كثيرا ماينسب إليه مالم يقله بسبب إكبار الناس لأقواله .

الخيال الشعرى

للشيخ أحمد محمد صقر
الطالب بكلية اللغة العربية

يمتاز الشعر من الفنون الأخرى بحاجته إلى الخيال ، وينفرد عن أنواع الأدب بأن الخيال لازم له دونها جميعاً . . فالكاتب يستطيع أن يجد طريقه إلى النفوس بوسيلة غير الخيال ، والقاصُّ يستطيع أن ينسج من الواقع ثوباً جذاباً لقصته ؛ بل ربما كان القصص الواقعى أقرب إلى النفوس مما عداه .

ولكن الشعر لا يروج إلا حيث يكون الخيال موفوراً ، ولا يلذ للناس إلا إذا طاف بهم على صور تنتزعها المخيلة من شىء غامض ، يدق مأخذه ، ويبعد لأول نظرة اقترانه بالحس . وإذا كنا نسمعهم يصفون الشعر ، بأن أعذبه أكذبه ، فما ذاك إلا لأن الخيال عمدته ، وما أوتى الشاعر حظاً كبيراً من التخيل ، فإنه بالغ ما أراد من التأثير ؛ فإذا فقد هذا العنصر ، برد الشعر ومال إلى الغثاثة ، بل أصبح بالنظم أشبه ! وروعة الخيال تأتى الشعر من طرفيه ، فإما أن يبلغ الذروة فى الرقى فيهز النفس ويتغلغل فيها ، وإما أن يبلغ الغاية فى الهزل فيهزها أيضاً ؛ فإن وقع وسطا بين الغايتين ، خرج عن الشعرية وانضاف إلى الاعتدال ، فلم يرقص الجوانح ولم يبعث الوجدان . ذلك أن الشعر لا يخاطب العقل ، وإنما يخاطب الشعور ، ولا يجرى مع المنطق ، بل يجرى مع العاطفة ، ولا يساير القواعد والأصول ، بل ينطلق إلى ما وراء القواعد والأصول ؛ فلا يخضع للقيود لأن الأحاسيس لا قيود لها ؛ فليس من الشعر فى شىء تلك الحكم والمواعظ والفلسفة والنظريات ، وقد أحسن نقاد الشعر حينما نفوا عن المتنبى والمعرى وأمثالهما أن يسموا شعراء ، ورأوا أحقية البحترى بهذه التسمية . وبعيد

ما بين إنسان يستوحى المنطق ويحلق فى أجواء أرسطو وأفلاطون؛ وبين آخر يسبح فى تأثير الروض ويطوف بالنفوس والعواطف يستلهمها، وليس هذا إغماضاً لشأن العلوم فليست الغاية مقارنة بين شعر وعلم، فكل همنا أن نتحدث عن الخيال وقيمته فى الشعر.. وسواء أكان هذا الخيال مخترعا أم محككا مفترعاً.. فقد يسبق الشاعر بالابتكار، ولكن المتأخر يولّد ويزيد ويقلب وينتزع، ويلح على المعنى، حتى يضيف إليه شيئاً جديداً، فيعد ذلك له فضلا لا يقل عن فضل المبتكر.

وقد ابتلى المتأخرون من الشعراء بتأخر زمانهم وجُدّ القدماء بتقدم عهدهم؛ فاقتطفوا أزهار المعانى وتركوا أشواكها للمتأخرين، ونهلوا من مناهلها وهى صفو لم تكن مطروقة ولا مرنقة، فجاء من بعدهم يقلدونهم حينا فيظهر فيهم أثر التقليد، وتعلوهم علامات الانقطاع والبهر. ويجددون أحيانا أخرى فيأتون بالعجاب الذى تنقطع أعناق القدماء دونه، فيتخذ المتعصبون من النقدة جديدهم دليلا على الإفلاس، وتقليدهم دليلا على عظمة القدماء، ثم يصير الأمر إلى عرض قضية الخيال الشعرى على محكمة الهوى؛ فيحكمون على الخيال حكما يفيض تجنيا وظلما، فيقولون: «إن العقل البشرى سائر نحو الارتقاء إلا من حيث الخيال الشعرى فإنه لا يزال فى مكانه، هذا هو ميروس لا يزال نابغة الشعراء وقد مر عليه نحو ثلاثة آلاف من السنين، والناس يتقدمون فى كل شيء: وامرؤ القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى، وغيرهم من الجاهليين لا يزالون من نوابغ الشعراء إلى الآن.» ونحن ننكر أن يكون الخيال الشعرى صورة للعقل البشرى، إذ أن العقل شيء والخيال شيء آخر؛ فإن الخيال إذا خضع للعقل ضاق ولحقه المسخ والتشويه، فهو تابع للإحساس معتمد على القلب والعواطف والوجدان؛ وننكر كذلك أن يكون الخيال الشعرى واقفاً حيث تركه امرؤ القيس وأهل عصره!

ولكنهم يحكمون على الخيال الشعرى بالارتكاس بناء على شيئين:

أولهما: اعتراف المتأخرين بفضل السابقين، وتقليدهم إياهم مع ظهور عجزهم فى هذا التقليد وتلك المحاكاة، واعتبار القدماء فوق مراتب الطعن والتجريح.

ثانيهما : أن الزمن كلما تأخر بالناس ضاقت مخيلاتهم ، واتجهوا إلى المادية وغلبت عليهم تلك النزعة .

ودَفعُ هذين الدليلين ليس من الصعوبة بمكان ، وما علينا إلا أن نتخذ الشعر العربى مجالا للتطبيق والبحث ، فإنه لا يضير المتأخرين تقديسهم للجاهليين ؛ لأنهم إنما يحترمون السليقة ويعظمون الفطرة ، ويعترفون للملكة بالفضل ؛ فهذا الاعتراف علىّ ؛ لأننا ما زلنا إلى اليوم نعتبر القدماء مثابة للفصاحة ، ونحتج بمأثوراتهم لصحة الكلام واستنباط القواعـــد . وجاء الأمويون فرفعوا من قدر الجاهليين ، وأشعلوا نار العصبية العربية ، وأحيوا عادات الجاهلية ، وَحَرَصوا على رواية أخبارها ، فانساق شعراء عصرهم وراء هذا التيار . فلما جاء العباسيون وحدثت تلك الثورة الأدبية الكبرى ، على أثر ذلك الانقلاب الاجتماعى بالانتقال من البداوة إلى الحضارة ، جدّد الشعراء وطافوا بأخيلتهم حول كل بعيد المنال ؛ فحققوا للشعر مالم يحلم به ، وجعلوه مادة أساسية فى الحياة اليومية ، وارتقى خيالهم الشعرى ارتقاء يُحسُّه كل منصف ، ويعترف به كل باحث مدقق .

وما ظنك بالإنسانية حين ترتقى فى كل مرافقها ، ويطلع الناس على صور لم يشهدوها من قبل ، وتتفتح أعينهم على مشاهد تفجر بحور الشعر فى الضلوع ، وتشق الأكام عن زهر المعانى ، وتبعث الخيال غضا نضيرا .. ؟ أهو الشاعر يخلق البيئة أم البيئة هى التى تخلقه ؟ إن البيئة كانت فى العصر العباسى خلاقة تبعث الهزيل فتياً .. وتجبر الخيال الشعرى على الارتقاء عما كان عليه قبل ذلك . فما بضاعة الجاهلى التى يستمدها خياله .. ؟ إنها الناقة والكلب .. والرمال والجبال والسماء ، بعثته على الخيال والتصور ؛ أفيكون من الإنصاف فى شىء أن نحكم بضيق الخيال بعد ذلك ؛ لأن البيئة اتسعت ودواعى التصور ازدادت ؟ ثم هذا التلاقح بين العرب والأجانب والخلاط بين البدو والحضر ، الذى من شأنه تنمية الحس وتلطيف الذوق ، وخصب المعانى .. أيكون كذلك مبعث جمود ، وسبيل موت ؟ فى الحق إن الخيال ارتقى والشعر تلون بألوان الحياة ، فلا سبيل إلى الإنكار ، أما صيرورة الناس إلى المادية ، وتلك تضعف الخيال وتهبط به

من سمائه إلى حضيضها ، فمتى كان الناس كلهم ماديين ؟ ومتى كان الشعراء يذهبون هذا المذهب فشعرهم ليس شعرا وإنما هو شيء آخر ؛ لأن الروحية مدد للخيال الشعرى ، وإذا بردت برد الشعر وتضاءلت قيمته الشعرية الفنية ، ولم يكن كل الناس على شاكلة واحدة فى يوم من الأيام .

فلا تزال للشعر حصونه المنيعة من نفوس الشعراء ، يرتفع فيها عن وهدة المادية ، ويستعلى بها على طبيعة الجمود ، ولا يقف عند الحدود والسدود ؛ وعصرنا الحاضر عصر آلى حقا ، ولكنه مع ذلك ملىء بالاتجاهات الشعرية ، والخيالات البديعة ؛ إذ الفرد الواحد يستطيع أن يكون أمة كاملة ، لامتزاج العالم بامتزاج الثقافات وتلاقح الأفكار ، وفى ذلك كله للخيال الشعرى مدد يزيده ارتقاء ، ويعوضه من استهلاك المعانى جدة ونضارة . وإذا كان الشعراء فى هذه الحقبة لا يؤمنون بالأساطير التى آمن بها هوميروس ، ولا يعجبون بالخرافات التى أعجب بها الجاهليون ، فإن ذلك لا يضيرهم ولا يحد من خيالهم ، ولا يزالون يرتقون بهذا الخيال ، فالشاعر الحق يسبق الزمن بتصوره ، ويرتفع عن معشره بوجدانه .

الرجال قليلون

قال ابراهيم بن السندى : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها : كان لا يجف لبده ، ولا يستريح قلبه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الرجال ، وإدخال المرافق على الضعفاء ، فقلت له : أخبرنى عن الحالة التى خففت عليك النصب ، وهونت عليك التعب فى القيام بحوائج الناس ما هى ؟ قال : والله سمعت تغريد الطير بالأسحار فى فروع الأشجار ، وسمعت خفق أوتار العيدان ، وترجيع أصوات القيان ، فما طربت من صوت قط طربى من ثناء حسن ، بلسان حسن ، على رجل قد أحسن ، ومن شكر حر لمنعم حر ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر .

قال ابراهيم : فقلت له لله أبوك فقد حشيت كرما .



طرف من حياته الداخلية

لحضرة الأستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

من أشهر الحوادث فى تاريخ العباسيين مقتل الوزير جعفر البرمكى . فلقد كان أثيراً عند هرون الرشيد ، محبباً إليه ومقربا منه ، وقد اتخذه وزيراً بعد أبيه ، وأطلق يده فى كبريات الأمور وصغرياتها ، ثم فوجىء الناس بخبر مقتله ، فدهشوا ولم يقفوا من ذلك الأمر على سبب .

ولكن المقربين من الخليفة كانوا يلاحظون منه أحياناً ما ينبهم إلى برمه به ، واستثقاله له كأنه وقف منه على دخيلة سوء . من ذلك ما تدل عليه القصة التالية :

بينا الرشيد فى مجلسه ، إذ دخل عليه أحد قواده . فقال له الخليفة : ما وراءك ؟ فأجابه القائد : لقد ظفرنا الليلة بيحيى بن عبد الله ! فالتفت الرشيد إلى جعفر البرمكى وقال له : خذ هذا عندك ، واحتفظ به فى محبس ، ثم سله عن طلبه للخلافة ، وحذره مغبة الخروج علينا ، وتول ذلك بنفسك .

فقام جعفر بما عهده إليه أمير المؤمنين ، وسأله عما نسب إليه . فقال له يحيى : اتق الله يا جعفر فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ! فصدقه جعفر وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، فقد صدقتك . فأجابه يحيى : وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد إليك أو لغيرك ؟ فقال له جعفر : إنى مرسل معك من يبلغك مأمنك . فاطمأن يحيى ومضى حيث غاب عن أعين الرقباء ...

وانقضى وقت من الزمان ، وإذا بأحد الجواسيس يستأذن على الرشيد . فلم يأذن له لأنه مشغول عنه ، فأرسل الجاسوس رقعة فيها : يا أمير المؤمنين نصيحة فادع بى إليك ، فأرسل إليه الرشيد بهرثمة أحد قواده ليسأله عن نصيحته ، فأبى الجاسوس أن يبوح له بشىء ، وقال له : إن الذى عندى لسر من أسرار الخليفة . فقال الرشيد : لا يبرح الرجل حتى أفرغ له . ثم قال بعد قليل : إلىّ بالرجل . فلما مثل بين يديه رأى بعض أبناء الخليفة ، وبعض حراسه . فقال أخلنى يا أمير المؤمنين على أن تؤمننى . فقال الرشيد: انصرفوا يافتيان ، وإنى مبلغك مأمنك ، ومحسن إليك . فتقدم الجاسوس وقال : كنت بحلوان فى خان من خاناتها فإذا أنا بيحيى بن عبدالله ابن حسن فى دراعة من صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرحلون إذا رحل ، يوهمون من رآهم أنهم لا يعرفون يحيى ، وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن تعرض له أحد .

فأراد الرشيد أن يتعرف حقيقة الأمر ، فسأله: أو تعرف يحيى بن عبد الله ؟ فأجابه الجاسوس : أعرفه قديما ؛ وذلك الذى حقق معرفتى به بالأمس . فقال له الرشيد : صفه لى . فأجاب : إنه مربوع أسمر رقيق السمرة حسن العينين عظيم البطن . فقال الرشيد : صدقت هو ذاك فما سمعته يقول ؟ فأجاب الجاسوس : ما سمعته يقول شيئاً غير أنى رأيته يصلى ، ورأيت غلاما من غلمانه أعرفه قديما جالسا على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتى بثوب غسيل فألقاه فى عنقه ، ونزع عنه جبة الصوف . فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر وأنا أرمقه ، أطال فى الأوليين ، وخفف فى الأخيرتين ، فأعجب الرشيد بوصف الرجل وقال له : لله أبوك نعم تلك صلاة العصر وذاك وقتها عند القوم ، أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك ! فمن أنت ؟ فأجاب الجاسوس: أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة ، وأصلى من مرو ، ومولدى بمدينة السلام .

فسأله الرشيد : كيف احتمالك لمكروه تمتحن به فى طاعتى ؟ فأجاب : أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كن بمكانك حتى أرجع إليك ، ثم عاد وبيده كيس قد ملىء بالدنانير ، وأعطاه له وقال له : دعنى وما أدبر فيك . ثم فكر مليا ونادى ياغلام ، فدخل اثنان من حراسه ، فقال لهما : اصفعا ابن اللخناء

وأخرجاه إلى من بالدار وعمامته فى عنقه ، وقولا : هذا جزاء من يسعى ببطانة أمير المؤمنين .

ولما كان ما حدث هو من الأهمية بمكان ، وفيه سلامة الدولة ،أراد الرشيد أن يخطو خطوة خطيرة ويتثبت من حقيقة ماوصل اليه بنفسه ، فدعا وزيره جعفر ليتغدى معه ، وليستدرجه فى الأمر . فلما أحضر فإذا به يحمل معه البريد والتوقيعات . فسأله الرشيد : ماذا قلت بصدد مذنب عفونا عنه . فأجابه جعفر قلت يا مولاى العدل أوقعه ، والعفو أطلقه .

ثم قال له : وماذا قلت للوالى الذى شكا منه الناس كثيرا ؟ . فأجاب جعفر كتبت اليه : قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت ، وإما عُزلت . فسأله الرشيد : وماذا قلت لأصحاب الشكوى منه ؟ هلا ذكرت لهم عين الخليفة تكلؤكم ، ونظره يعمكم .

هذا وما زال الرشيد يستدرجه تارة بمدح بعض أصناف الطعام ، وتارة بظرف الحديث ، إلى أن فاجأه مفاجأة خطيرة بقوله « ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ » فأجاب جعفر : هو بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال . فاسترسل الرشيد فى سؤاله بأن قال له بحياتى ! فارتبك جعفر ، وعرف أن الرشيد قد علم بأنه أطلق سراح يحيى . فأجاب قائلا : لا وحياتك يا سيدى ، ولكنى علمت أن لا مكروه من إطلاقه فأطلقته . فقال له الرشيد مغالطا : إنك ما عدوت ما كان فى نفسى . ولما هم جعفر بالانصراف أتبعه الرشيد نظره حتى كاد يتوارى عن بصره ، وقال متمتما : قتلنى الله إن لم أقتلك ! . أما الوزير جعفر فتوجس خيفة من الرشيد ؛ فأراد أن يتعرف ذلك بغيره لا بنفسه فقال لصديق له يدعى زيد بن على : يا زيد إنى استربت بأمر هذا الرجل ، وإنى أردت أن أعتبر ذلك بغيرى ، فكنت أنت فارمق ذلك من يومك هذا ، وأعلمنى بما ترى منه . فقال له صاحبه وهو يحاوره : أفعل ذلك . ثم توجه إلى قصر الرشيد حيث السمر والغناء ، فلما نهض الرشيد من مجلسه خرج زيد بن على مسرعا حتى سار إلى شجر فى طريق جعفر ، واختفى فيه ومر جعفر ومن معه فى الندماء حتى إذا

قرب من مكان صديقه ، قال : اخرج يافلان وأخبرنى بما عندك : فدهش صديقه وقال : حتى تخبرنى أنت كيف علمت أنى هاهنا . فأجابه جعفر عرفت عنايتك بما أعنى به ، وأنك لم تكن لتنصرف حتى تعلمنى بما رأيت منه ، وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً هنا فى مثل هذا الوقت ، وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع ، فقضيت بأنك فيه فهات ما عندك . فقال زيد : رأيت الخليفة يهزل إذا جددت ، ويجد إذا هزلت ليكيدك بذلك ، فأعجب جعفر بذكاء صاحبه وقوة فراسته وقال له : هو كذلك عندى .

لفت نظر

قرظنا كتابين لحضرة الأستاذ النابه على فكرى بك أحدهما فى عدد صفر وعنوانه « البيان الفاصل بين الحق والباطل » ذكرنا فيه أن نسخته التى بين أيدينا من طبعته الثانية ، والحقيقة أنها من طبعته الأولى ولم يطبع للمرة الثانية بعد .

وقرظنا فى عدد جمادى الأولى كتابه الذى عنوانه « خلاصة الكلام فى أركان الإسلام » وقلنا : « وقد صدرت منه طبعته الأولى » نعنى التى بين أيدينا ، والحقيقة أنها طبعته الثانية . فرأينا أن نصحح هذا الخطأ .

بسم الله الرحمن الرحيم

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

الرابطة المادية والرابطة الأدبية

قلنا فى العدد الذى سلف : إن أول عناصر المدنية إحكام أواصر الاجتماع فى الجماعة ، واليوم نقول : إن كل اجتماع لا بد له من رابطتين ، إحداهما ذات أغراض مادية ، والأخرى ذات غايات أدبية ؛ فالرابطة الأولى تقتضيها الحاجات الجسدية ، إذ لابد للمجتمعين أن يكون لهم محاولات لتحصيل ما يوفى بضرورياتهم الجثمانية ، وهذه المحاولات لصعوبتها تستدعى التضافر على إيجادها ، ولا تغنى فيها الجهود الفردية ، فهى رابطة حيوية قوية ؛ إذ لا تقوم الحياة الجُمَّاعية إلا بها ، وهى ضرورية تعنى بها الجماعة عنايتها بحياتها ، وتبيع فى سبيل صيانتها وجودها الدنيوى رخيصاً ، وهى تتولد تولدا آلياً فى نفسيةالجماعات دون أن تحتاج لدعوة .

والرابطة الأدبية هى من ضروريات الحياة البشرية أيضا ، ولم تصادف جماعة مجردة منها فى مدى الأدوار التاريخية كلها ، وهى تتألف من أصول ومبادىء يوحى إليها بها محصولها العلمى مناسبةً لمداركها العقلية ومواهبها النفسية ؛ فهى تحكم على الوجود وقواه وأحداثه وانقلاباته ، وعلى الإنسان وحياته وتطوراته ومُثُله العليا ومصيره ، تحت ضوء ما ورثته عن أسلافها من دين ، وما طرأ عليها من عادات وتقاليد .

والرابطة المادية كما تتولد آليا ، تتطور الأدبية آليا كذلك ، دون أن تحدث فى الجماعة أى اضطراب ، لأن المحاولات المادية من شأنها أن تتشعب تحت ضغط

الحوائل والحاجات ، فتقبل الجماعات تطوراتها كوسائل إنقاذ من العنت والرَّهق ؛ وعلى خلاف ذلك الرابطة الأدبية ، فإنها لتعلقها بالعقائد الدينية ، والعادات القومية ، والتقاليد الاجتماعية ، تستعصى على التطور ، وتتألب على دفعه . فإن دفع العلم والتهذيب العقلى فريقا إلى قبوله ، أدى ذلك إلى انقسام الجماعة شطرين فى الميول والمُثُل العليا ؛ وقد يتفاقم أمره فيؤدى إلى الثورات المسلحة ، فيقتل بعض الجماعة بعضا غير آبهين بما يصيب أمتهم من الوهن ، وبما يعرض وجودها للخطر .

وقد تكون مظاهر هذه الثورات اجتماعية باحتة ، ولكنها ترجع بالتحليل إلى عوامل أدبية ، كشعور الطبقة العاملة بحيف واقع عليها من ناحية الطبقة القابضة على زمام الثروة العمومية ، وعدم معاملتها بروح العدالة التى تقتضيها الأخوة القومية . فالعوامل الأدبية فى الجماعات هى الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع ، فإذا لم تكن مرنة مسايرة لحركات التطور الشعورى والأدبى للنفوس البشرية ، فلا يعقل أن يستقر نظام أو تزدهر مدنية .

ومن يتأمل فى كثير من أحوال الجماعات الأوروبية ، التى بلغت مدى بعيدا فى المدنية ، يأخذه العجب مما آلت إليه من اضطراب شئونها ، واختلاف ميول شعوبها ؛ حتى لم يوفق بعضها لإقامة حكومة تثبت أمام هذه الأعاصير من القلاقل بضعة أشهر . والسبب فى ذلك تحول طرأ على مبادئها الأدبية تحت تأثير خطباء من ذوى اللسن والخلابة الكلامية ، حشوا عقولهم ، إن حقا وإن باطلا ، بأن العدل يقتضى أن يكون نصيبهم من ربح الأعمال التى يقومون بها ، يكفيهم ويكفى من يعولونهم الحاجة . وما لم يعطوا أجورهم على هذا الوجه ، فلا يفتأون يعتصبون ويضطربون ، بل يثورون حتى تجاب مطالبهم . فانظر كيف أثر هذا التحول فى المبدأ على الجماعات ، حتى جعلها فى أمر مريج لامخلص منه إلا حدوث إصلاح عام للمبدأ نفسه ، تتقى به هذه الزعازع . وكيف يمكن أن يتم إصلاح تستقر الأمور عليه على طريقة الارتجال ، وهو إذا أرضى فريقا أسخط فريقا آخر لا يقل عن

الأول إثارة للقلاقل والارتباكات ؟ فانظر إلى أى حد يضطرب نظام الجماعات تحت تأثير المبادىء والأصول ؟ ثم انظر إلى أى حال من الدقة والاتزان يجب أن تكون تلك المبادىء والأصول ، لتعيش فى ظلالها الأمة أجيالا متوالية قرونا كثيرة ، لتصل إلى مدنية تستفيد منها البشرية انتقالات مادية وأدبية ؟ .

فلنرجع الآن بعد بسط هذه المقدمة إلى موضوعنا الأصلى وهو : « عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية » فنقول : العنصر الثانى بعد توثيق أواصر الاجتماع هو :

فرض « رابطة أدبية » على الجماعة تضمن حقوق الأفراد ، وتعين واجباتهم ، وتحدد دوائر نشاطهم ، وتكون من المرونة وقبول التطور بحيث لا تصطدم فى أدوار وجودهم ، بما يتأدون إليه من ترقيات مادية وأدبية ، بل تسايرهم فى تلك الأدوار ، وتماشيهم فى طريقهم إلى المُثُل العليا من جميع محاولاتهم ، بما يناسب جميع طبقاتها ، ويوائم حوافز نفسياتها ، فتعيش وهى مركبة من طوائف شتى ، فى نطاق هذه الرابطة ، كأعضاء الكائن الحى ، تتكافل جميعها على إبلاغه الغاية القصوى مما قُدِّر له من ارتقاء وبقاء .

لا يعرف فى تاريخ العالم الإنسانى بأن رابطة اجتماعية قامت على هذا النحو غير الرابطة الإسلامية ، فقد جاءت فى كل هذه الشئون البشرية بالنهايات التى ليس وراءها مرمى ، تاركة فهم مكانتها من السمو للأجيال المقبلة : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . ولذلك أوصلت الأمة التى تولتها إلى أرفع المكانات الاجتماعية ، دون أن يحتاج أهلها إلى تعديل عوج فى أصولها ، أو تبديل نص من نصوصها . خلافا لجميع الأمم التى وصلت إلى غايات بعيدة فى مدنيتها ، فإن روابطها بدأت ساذجة جائرة ، ليس للضعفاء فيها حق يحترم ، ولا للمساواة فيها مبدأ يلتزم ، بل كان السلطان كله للقوة والغلب ، فكانت فى كل مرحلة من مراحل وجودها تجد نفسها فى معمعان ثورة بين الأقوياء والضعفاء ، تنتهى عادة بخيال من حقوق ينالها هؤلاء بعد جهاد عنيف ، ولا يزالون ينشدون هذه المساواة ، ولم ينالوها كاملة إلى يومنا هذا .

ألا تعجب أن أكبر العقول البشرية عجزت عن قبول مبدأ المساواة في الحقوق الوطنيـة ، فقرر أفلاطون شيخ الفلسفة ، وتلميذه أرسطو أميرها ، أن العمال وأرباب الصنائع يجب أن يكونوا مجردين من الحقوق الوطنيـة . أما السود من العبيد ومن على شاكلتهم ، فلا يجوز أن يعتقد أن لهم أرواحا إنسانية خالدة كأرواح البيض ، فهم بعد موتهم يستحيلون إلى تراب كما تستحيل إليه أجساد الحيوانات العجم ؟

ولما خلفت هـذه المدنية اليونانية المدنية الرومانية ، جرت على شاكلتها فى معاملة سواد الأمم ، فاعتبرتهم مسخرين للكبراء وأصحاب الثروات ، ومضت فى ذلك قدُماً حتى ضج العامة من فداحة ما عوملوا به من الامتهان والظلم ، وفضلوا أن يهيموا على وجوههم فى القفار على أن يصبروا على إذلال لا تطيقه الطبيعة البشرية . فاضطر الخاصة أن يرضخوا لهم ببعض مطالبهم ، فعادوا مغلوبين على أمرهم ، ينتهزون كل فرصة للشغب والخروج عن الطاعة ، وما زالوا على ما كانوا عليه من سوء الحال حتى تألبت القبائل الهائجة المجاورة للامبراطورية الرومانية فى إيطاليا على إبادتها فبادت فى سنة (٣٩٥) م وتلتها فى الزوال الامبراطورية الرومانية الغربيـــة حين فتح الأتراك القسطنطينية عاصمتها فى سنة (١٤٥٣) م بعد أن كانوا جردوها من جميع ممتلكاتها الأوروبية .

أما الرابطة الإسلامية فقد خلصت من جميع العلل الاجتماعية ، فلم تنطو على أصل يناقض العقل أو يدابر العدل ، أو يؤدى إلى اصطدام الطبقات والأجناس فى دور من أدوار الاجتماع ، أو يقف حائلا بين الجماعة والترقى فى مرحلة من مراحل حياتها الطويلة ، أو يمكن تأويله لمصلحة فريق دون فريق ، وهذا الأمر الجلل من الآيات الخالدة ، يدل على أنه وحى من مدبر الوجود والكائنات ، لا أنه ثمرة تفكير فلسفى ، أو تدبير علمى ؛ فقد سبق زمان وحيه بما لا يقدر من الأجيال ، وجاوز حدود الطاقة العلمية والفلسفية لعهد تشريعه بما لا يتخيله إنسان .

ألا تعجب أنه بينا كانت أرقى فلسفة فى العـالم ، تقرر أن الصناع والعمال لا يستأهلون أن يعترف لهم بالحقوق الوطنية ، وأن الأرقاء مثلهم كمثل الحيوانات

العَجْم لا أرواح لهم تبقى بعد موتهم ، كان الإسلام يسوى بين جميع الطبقات في الحقوق الوطنية ، ومنهم العبيد السود ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بتقوى الله وعمل صالح » ! وجرى العمل على ذلك من ذاك العهد ، فعين رسول الله بلالا ، وكان عبداً حبشياً ، والياً على المدينة وفيها أبو بكر وعمر ، وجمهور كبير من كبراء الصحابة ، وولى غيره قائداً لجيش كان من جنوده الصديق والفاروق وغيرهما من أجلاء المسلمين ! هذا عجيب حقاً ، وهذه المساواة فى الحقوق ، كانت إحدى الأسباب التى صانت وحدة المسلمين من التفكك ، وحمتهم من الاضطرابات الثورية ، فى مدى قرون متوالية . فهى بهذا الاعتبار ، كما كانت من أوثق حوافظ الترابط الاجتماعى ، كانت كذلك من أقوى عناصر المدنية ، ومن أشدها شحذاً للهمم فى الذهاب بها إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه ؛ لأن المدنية تستمد إبداعها المادى من الصناعات اليدوية ، فإذا كان رجال هذه الصناعات يجدون أنفسهم محرومين من الحقوق الوطنية ، فلا يجدون من البواعث على الإتقان والابتكار ما يجده المتمتعون بجميع الحقوق الاجتماعية : لذلك لم يكد يخلف المسلمون الأولون من سبقهم من الأمم فى الخلافة العالمية ؛ حتى نهضت الصناعات اليدوية نهضة فجائية بزوا بها جميع الأمم التى تقدمتهم فى الوجود ، وصارت بلادهم مثابة لطلاب العلم والحكمة والصنائع ، يقتبسون منها ما يسدون به حاجتهم الاجتماعية . واستمر الحال على هذا المنوال مئات من السنين . فإذا كانت الشعوب الإسلامية قد تدهورت إلى ما هى عليه الآن من الناحية الإبداعية والفنية ، فإنما كان ذلك لأسباب انحراف المسلمين عن الصراط السوى الذى قام عليه أسلافهم ؛ أما وقد أدركوا ذلك الآن ، وبدأوا يستقيمون على الطريق السوى الذى كان يسلكه أوائلهم فى الدين والدنيا ، فسيصلون إن شاء الله إلى مثل ما كانوا عليه من السبق إلى كل غاية كريمة .

نأتى إن شاء الله فى مقالاتنا المقبلة على بقية عناصر المدنية .

محمد فريد وجدى

السنة التشريعية :

الرجبية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

أخرج أحمد والنسائى، والبيهقى والحاكم وصححاه من حديث الحارث بن عمرو أنه لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فقال رجل : يا رسول الله ، العَتائر والفرائع ، قال : « من شاء عَتَر ، ومن شاء لم يَعتِر ، ومن شاء فَرَع ، ومن شاء لم يَفْرع » .

* * *

كان من عادات العرب فى الجاهلية أنهم يذبحون فى العشر الأول من شهر رجب ذبيحة ، يتقربون بها لأصنامهم ، يسمونها « العَتِيرة » ، وكانوا يسمونها « الرجبية » أيضا ، كما وقع ذلك فى حديث مخنف بن محمد بن سليم ، ولفظه : «هل تدرون ما العتيرة ؟ ، هى التى تسمونها الرجبية » وسميت عتيرة ـ بوزن عظيمة ـ أخذا مما كان يفعل من الذبح ، وهو العتر ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة ، وسميت رجبية لحصول ذلك فى شهر رجب . قال النووى : واتفق العلماء على تفسير العتيرة بهذا المعنى المتقدم ، ولكن قيل : العتيرة نذر كان ينذره من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأساً فى رجب . وقيل : هى أن الرجل كان يقول فى الجاهلية : إن بلغت إبلى مائة عترت منها عتيرة .

وكذلك كان من عاداتهم أنهم يذبحون أول النِّتاج لطواغيتهم ، ويسمونه « الفَرَع » ، ويقال فيه « الفَرَعة » أيضاً بالهاء ، واختلفوا فى تفسيره ، فأكثر أهل اللغة وجماعة من أهل العلم على أنه أول نِتاج البهيمة ، كانوا يذبحونه ، ولا يأكلونه رجاء البركة فى الأم ، وكثرة نسلها ، وهؤلاء نظروا فى تفسيرهم هذ إلى اعتبار أول نتاج الدابة على انفرادها . فأما من نظروا إلى اعتبار نتاج الجميع ففسروه بأنه أول النتاج للإبل ، وبهذا فسره البخارى ومسلم ، وغيرهما من أصحاب

السن . وقيل : هو أول النتاج لمن بلغت إبله مائة . قال أبو مالك : كان الرجل إذا بلغت إبله مائة ، قدّم بَكرا ، فنحره لصنمه ، ويسمونه فَرَعا . وقد أطلق الفرع أيضاً على الطعام الذى يصنع لنتاج الإبل ، كالخرس للولادة .

* * *

اختلفت الأحاديث الواردة فى حكم العتيرة والفَرَع ، فنها ما يدل على عدم مشروعيتها فى الإسلام ، كحديث أبى هريرة المتفق عليه ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا فَرَع ولا عتيرة » ، وكرواية أحمد والنسائى : أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الفرع والعتيرة .

ومنها ما يدل على مشروعيتهما ، ولكنها ظاهرة فى عدم الوجوب ، وخالية من الدلالة على ما ينفى الاستحباب أو يثبته ، كالحديث الذى معنا .

ومنها ما يدل على المشروعية أيضا ، ولكن فى صورة الوجوب ، كحديث مخنف : « على كل أهل بيت فى كل عام أضحية وعتيرة » ، وحديث نبيشة : « قال رجل : يا رسول الله ، إنا كنا نعتر عتيرة فى الجاهلية فى رجب ، فما تأمرنا ؟ قال : اذبحوا لله فى أى شهر كان ، قال : إنا كنا نفرع فى الجاهلية ، قال : فى كل سائمة فرع ، تغذوه ماشيتك ، حتى إذا استحمل ذبحته ، فتصدقت بلحمه ، فإن ذلك خير » وحديث عائشة : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرعة من كل خمسين واحدة » ، وحديث عمرو بن شعيب : « سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الفرع ، فقال : الفرع حق ، وأن تتركوه حتى يكون بكرا ، أو ابن مخاض ، أو ابن لبون فتعطيه أرملة ، أو تحمل عليه فى سبيل الله خير من أن تذبحه فيلزق لحمه بوبره ، وتكفأ إناءك ، وتوله ناقتك » [1]

وإزاء هذا التعارض الواضح بين ظاهر الأحاديث ، تعددت أقوال العلماء فى هذا الشأن ، فذهب جماعة منهم إلى أن الأحاديث المانعة من مشروعية العتيرة

---

(١) يعنى بذلك أن ذبحه فى هذه الحالة يذهب لبن الناقة ويفجعها ، وذلك أنهم كانوا يذبحونه حين يولد ، ولا شبع فيه ، فيلزق لحمه بوبره ، ويكون صاحبه كأنما أكفأ إناءه ، وأراق لبنه ، فينبغى أن يترك حتى يكبر ، ليطيب لحمه ، ويستمتع بابن أمه ، ولا يشق عليها مفارقته ، لأنه يكون قد استغنى عنها .

والفرع ناسخة للأحاديث المثبتة لها . وذكر القاضى عياض : أن جماهير العلماء على النسخ ، وبه جزم الحازمى ، ولكنه تعقب بأن النسخ لا يتم ، ولا يجوز الجزم به إلا إذا ثبت تأخر تاريخ ما قيل إنه ناسخ عما قيل إنه منسوخ ، ولم يثبت ذلك .

وذهب جماعة آخرون إلى أن أعدل الأقوال هو الجمع بين هذه الأحاديث المتعارضة فى الظاهر ، وذلك بأن تحمل الأحاديث القاضية بالمنع من العتيرة والفرع على نفى الوجوب ، وتحمل الأحاديث الأخرى المفيدة للوجوب على الاستحباب فيكون معنى حديث : « لا فرع ، ولا عتيرة » ـــ لا فرع واجب ، ولا عتيرة واجبة . أو يُحمل معناه على نفى ما كانوا يذبحون لأصنامهم فى رجب ، أو على أن الفرع والعتيرة ، ليسا كالأضحية فى تأكد الاستحباب ، أو فى ثواب إراقة الدم ، لأن تفرقة اللحم على المساكين برّ وصدقة . فالحديث على هذا لم يُفد إلا نفى الوجوب ، أو أنه لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما ، وإنما أبطل صفة من كل منهما ، فأبطل من العتيرة خصوص الذبح فى شهر رجب ، وأبطل من الفرع كونه يذبح أول ما يولد ، كما أشير إلى ذلك فى حديث : « الفرع حق » ، فإنهم لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن حكم ما كانوا يصنعونه فى الجاهلية خوفا من أن يكره فى الإسلام ، أعلمهم أنه لا كراهة عليهم فيه ، وأمرهم استحبابا أن يغذوه ويتركوه حتى يحمل عليه فى سبيل الله . وأما قوله : « حق » ، فمعناه أنه ليس بباطل ، وهو كلام عربى خرج على جواب السائل .

وأما الحديث الذى معنا ، فهو وإن كان صريحا فى عدم الوجوب ، ومسكوتا فيه عن نفى الاستحباب أو إثباته ، إلا أنه يمكن أخذ الاستحباب من دلائل أخرى كحديث أبى داود : أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن العتيرة فحسنها ، وحديث أحمد والنسائى عن أبى رزين العقيلى قال : « يا رسول الله ، إنا كنا نذبح ذبائح فى رجب ، فنأكل منها ، ونطعم من جاءنا ، فقال له : « لا بأس بذلك » .

ونقل الطحاوى عن ابن عون أنه كان يفعله ، ومال ابن المنذر إلى هذا ، وقال : كانت العرب تفعلهما ، وفعلهما بعض أهل الإسلام بالإذن ، ثم نهى عنهما ، والنهى لا يكون إلا عن شىء كان يفعل ، وما قال أحد إنه نهى عنهما ، ثم أذن فى فعلهما ، ثم نقل عن العلماء تركهما إلا ابن سيرين .

ويرى بعض أهل العلم أنه يصح فى حديث تحسين العتيرة ، وحديث أبى رزين العقيلى أن يعتبرا كالقرينة الصارفة للأحاديث المقتضيه للوجوب عنه إلى الاستحباب .

وأما ما جاء فى رواية لأحمد والنسائى من أنه صلى الله عليه وسلم ، نهى عن الفرع والعتيرة ، وأن معنى النهى الحقيقى هو التحريم ، فإن هذا لا يؤثر فى الجمع بين الأحاديث السابقه بالطريقه التى ذكرناها ، لأن النهى يبقى على معناه الحقيقى إذا لم توجد قرينه تصرفه عنه ، ومتى وجدت هذه القرينه أخرجته عن هذا المعنى ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الاحاديث التى يصح أن تكون قرينة على ذلك . على أنه يمكن أن يحمل النهى على معنى آخر ، وهو أن يحمل موجها إلى ما كانوا يذبحونه فى الجاهلية لأصنامهم ، وحينئذ يكون النهى باقيا على معناه الحقيقى ، ويكون غير متناول لما ذبح من الفرع والعتيرة ، ولغير ذلك مما فيه وجه قربة . ومما يكون الذبح فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى براً بالفقراء ، وسداً لحاجاتهم . ومن هذا استدل الشافعى بقوله عليه الصلاة والسلام : « اذبحوا لله فى أى شهر كان » على مشروعية الذبح فى كل شهر إن أمكن ، وقال فى سنن حرملة : إنها إن تيسرت فى كل شهر كان حسنا ، لما يعود على الفقراء من البر والمنفعة .

أدب جعفر

كان جعفر بن محمد من آل البيت ، يقول : إنى لأملق أحياناً ، فأتاجر الله فربحنى . وقال رضى الله عنه : « من تخلق بالخلق الجميل ، وله خلق سوء أصيل ، فتخلقه لا محالة زائل ، وهو إلى خلقه الأول آيل ، كطلى الذهب على النحاس ، ينسحق وتظهر صفرته للناس .

وهذا كقول العرجى :

يا أيها المتحلى غير شيمتـــه ومن خلائقه الاقصار والملق
ارجع إلى خلقك المعروف وأرض به إن التخلق يأتى دونه الخلق

وكان يقول : ما توسل إلىَّ أحد بوسيلة هى أقرب إلى من يد سلفت منى إليه ، أتبعها أختها لتحسن ربها وحفظها ، لأن منع الأواخر ، يقطع لسان الأوائل .

ناحية من أسلوب القرآن في القصص

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

اختلف الناس فى « ذى القرنين » المذكور فى قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا » : من هو ؟ فقال بعض العلماء : إنه هو الإسكندر الأكبر اليونانى ، ملك مقدونيا المشهور فى التاريخ ، ومن هؤلاء الإمام الرازى ، فقد أطال فى الاحتجاج لذلك مستدلا بوجوه منها : أن مُلكاً كهذا الملك الواسع ، الذى بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال ، لا شك أنه على خلاف العادات ، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر ، وألا يبقى مخفياً مستتراً ، والملك الذى اشتهر فى كتب التاريخ ، أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ، ليس إلا الاسكندر ، ثم انتهى الرازى إلى ما يشبه الجزم بهذا الرأى حيث يقول : « فوجب أن يكون المراد بذى القرنين هو هو » - يريد الاسكندر الأكبر - لكنه أورد بعد هذا إشكالا لم يحله ، هو أنه كان تلميذاً لارسطو الحكيم ، وكان على مذهبه ، وتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ، وذلك مالا سبيل إليه .

وقد حاول النيسابورى الرد على هذا بأن مذهب الفلاسفة ليس بباطل كله ، فربما كان الإسكندر على الحق الذى فيه دون الباطل .

وبعض المفسرين يرى غير ذلك ، ومنهم من يرى أنه كان نبياً ، يوحى إليه بدليل قوله تعالى : « قلنا ياذا القرنين » ، وقد رد ذلك بأن القول فى القرآن كثيراً ما يراد به غير الخطاب اللفظى كالوحى ، ومن ذلك قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » ، وقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » . فمعنى قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » : ألهمناه ذلك .

والذى أميل اليه أن ذا القرنين المذكور فى القرآن هو الاسكندر الأكبر ، كما ذكر الرازى والنيسابورى وغيرهما للأدلة التى استدلوا بها ، أما الإشكال الذى ذكره الإمام الرازى ، فإنه لا يقوم عقبة فى طريق هذا الرأى ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يصرح عن ذى القرنين بأكثر من أنه قد مكن له فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سبباً ، وهذا قدر لا يدل على أنه كان رجلا مثالياً فى دينه وعقيدته .

وكل ما يمكن التمسك به فى تعزيز أنه كان متصفاً بصفات أهل الإيمان ، هو ما جاء فى قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أمامن ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً » .

وفى رأيى أن هذه المحاورة وما فيها من الأقوال ، ليست على ظاهرها المفيد صدور ذلك من ذى القرنين لفظاً ونطقاً ، وإنما هى تصوير لحديث نفسه وإلهام الله إياه بما يفعل ، ولا شك أن الملوك حين يفتحون بلداً أو إقليما ، تدور فى خواطرهم أحاديث نفسية عما يفعلون بالمغلوبين ، وقد علمنا من تاريخ الاسكندر أنه كان حكيما ، أو أنه كان واسع العقل متصلا بالفلسفة ، فمن الطبيعى وهذا شأنه أن الله قذف فى روعه هذه المعانى التى تحدثت عنها الآية ، ويسرها إلى نفسه ، فكان له مرحلتان فى التأمل ، أولاهما : أنه بحكم الفتح والغلب قادر على أن يعذب هؤلاء القوم أو يعفو عنهم ؛ الثانية : أنه يحسن به أن يفرّق بين من ظلم فيعذبه ، ومن لم يظلم فيعفو عنه .

فالآية تفسر هذا الحديث النفسى ، ولكن بأسلوب القرآن الذى يعبر عن خلجات النفوس ، وخواطر الأشخاص تعبيراً فيه مزج بين ما يكون من الناس ، وما يكون من الله ، يراد منه الإشعار بأن الأمر كله لله ، وأن هذا تيسير الله وفعله وتوجيهه ، فهو يجرى قول الله الذى هو بمعنى سنته وتيسيره ، وتهيئته على لسان من يقص عنه ، لأنه أدار هذا المعنى فى نفسه ، أو لأنه سخره لتحقيقه ، وما كان القول المنسوب إلى ذى القرنين إلا قولا لله فى الحقيقة ، فهو الذى يقرر بسنته وتيسيره وتوجيهه لعباده ، أن الظالم يقع فى الدنيا تحت سلطان من يعذبه

وينتقم منه ، وفى الآخرة يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا ، وأن المؤمن الذى يعمل الصالحات ، له فى الآخرة جزاء الحسنى ، وله فى الدنيا التيسير ، وأن يحيا حيـــاة طيبة « وسنقول له من أمرنا يسرا » أى سنجعل أمره ميسراً هادئاً لا صعوبة فيه . وشبيه بهذا قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » ولا أجد فرقاً بين قوله تعالى « فسنقول له من أمرنا يسرا » وقوله جل علاه : «فسنيسره لليسرى» وعلى هذا يكون الكلام كله فى الآية ، منسوباً إلى ذى القرنين ، لأنه حديث تحدث به نفسه على الإجمال ، وهو من حيث المعنى والتعبير عنه بهذه الصورة المركزة المكملة ، التى فيها الحديث عن جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وعن التيسير لليسر قول من الله أضافه إلى من صدر عنه الفعل ، وكان مظهراً لتحقيق مضمونه .

وهذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثير ، وأمره يختلط على من لا يلتفت ، ومما يوضحه قوله تعالى فى آخر هذه القصة « قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا » فقد مزج فى هذه الآيات بين ما يمكن أن يكون صادرا من ذى القرنين وهو « هذا رحمة من ربى » إلى « وكان وعد ربى حقا » وبين ما هو صادر من الله جل علاه ، وهو قوله « وتركنا بعضهم » الخ ، فالقرآن يسوق ذلك كله ، ولا يعبأ بتحقيق إسناد الأقوال الى مصادرها ، لأنه لا يريد إلا أن يفهم الناس معنى القول فى ذاته ، سواء أفهموا أنه صادر منه تعالى ابتداء ، أو حكاية عن مصدر آخر لم يكن إلا مظهراً لتحقق قول الله وسنة الله والله قائل بلسانه .

ولعل مما يقرب هذا المعنى ما جاء فى قصة الهدهد وسليمان إذ يقول الله تعالى حكاية عن الهدهد : « إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » .

فمع الاعتراف بأن الكلام المروى على ألسنة الطير أو الحيوان ، قد يأخذ فى معنى نسبته حكما غير الكلام الذى يروى عن الناس ، فإنى أكاد أجزم بأن الأمر فى الحالتين واحد ، من حيث عناية القرآن بإبراز المعنى فى ذاته وتتميمه ، دون أن يعبأ بتحديد مصدر القول : أهو المتحدث عنه فى القصة أم الله جل جلاله ، وهنا نجد الكلام منساقا على ظاهر يحمل من يقف عند حرفيته على أن ذلك كله من كلام الهدهد ، مع أنه من حيث المعنى يشتمل على أصول دينية ، كثيرا ما يتكلم فيها القرآن صادرة من الله جل جلاله ، وليتأمل القارىء قوله تعالى: « يسجدون للشمس من دون الله » الخ .

ومما يقرب ذلك أيضاً قوله تعالى فيما حكاه عن الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ، وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » .

فلست أقول : إنه لم يصدر قول من الجن والكلام على التصوير والتمثيل - لست أقول ذلك وإلا لكنت حاكما بخلاف الظاهر فى أمر غيبى أخبرنا الله تعالى به ، وإنما أقول : إن الجن صدر منهم كلام كما قال الله ، ولكن السياق قد يبدو منه أن هذا الكلام كله من قول الجن ، لأنها جمل متعاطفة تتصل بمعنى واحد ، بينما نجد فى بعض هذا الكلام قرينة لفظية على أنه من كلام الله لا من كلامهم ، هى قوله « لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » الخ فهذا يؤيد المعنى الذى أردت تقريره ، ويدل على أن القرآن يسترسل فى تتميم المعانى ، وهو بصدد الحكاية عن بعض عنهم ، وقد وُجدت فى هذه الآية قرينة لفظية ، وفى آيات أخرى قد لا توجد مثل هذه القرينة اللفظية .

هذا فهم أقرره ولست محتذيا فيه أحداً قبلى ، وأرجو أن يفتح الله لى فيه أبوابا من التمثيل غير ما قدمت ، ويوفقنى إلى تتبعه وترسيخه .

وأحسب أن هذا التخريج أولى ما يحل به إشكال الإمام الرازى رحمه الله .

من توجيهات القرآن

«ا» قد أفلح من تزكى
«ب» فلا تزكوا أنفسكم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

---

١ – مقدمة : شىء من الفطنة ينبه قارىء القرآن الكريم إلى ما بين آياته من توجيهات أكيدة إلى تربية الخلق ، وتكوين الشخصية المعنوية فى الفرد وفى الجماعة .

والقرآن حينما يعرض للخلق لا يكون حديثه عن أمر ثانوى ، أو فى غرض تبعى ، وإنما يكون معنياً بالغاية الفضلى التى بها يرتبط نظام المجتمع ، والتى لأجلها كانت رسالة الأنبياء ولأجلها كان التشريع . وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، تلك الغاية هى : إصلاح الخلق والاعتماد على الأخلاق فى تكوين الشخصية المعنوية للفرد وللجماعة ، تكوينا تتمثل فيه الإنسانية الرفيعة ، وتستقيم إلى جانبه الحياة فى أوضاعها الصحيحة .

قيام النظم على سلامة الأخلاق ، وصلاح الحياة بصلاحها : مبدأ فطرى ليس من عمل إنسان ولا من مصطلحات الجماعة ، ولم تجر سنة الله يوما فى خلقه أن يستقيم شأنهم على فساد الخلق ، أو يطيب لهم عيش وتروق لهم الحياة على هرج وعبث .

هذا مبدأ ساير الزمن ونهضت تحوم حوله العقول من تاريخ قديم ، وما عملت الفلسفة الأخلاقية فى أطوارها المختلفة ، ومناهجها المتعاقبة سوى التحليق حول الخلق ، وتجميع قواها لبحث الخلق وتبسيطه ، وتقسيمه وتحديده جملة وتفصيلا ، والإبانة عن أثره فى حياة الناس إيجابا أو سلبا .

فإن يكن الخلق منبعاً من منابع الفلسفة ، وإليه الورد وعنه الصدر لعقول ناضجة وأفكار نابهة ـ وإن يكن لفلاسفة الأخلاق جهود مضنية فى استقصاء الخلق والإلمام به ، أو تكن لهم جهود مشكورة فى توجيه الناس إلى حسن الخلق ومحاولة أخذهم به ، فكل ذلك استجابة للفطرة فيما دعت إليه ، من إقامة النظم على أساس الخلق ، والاعتصام به من ربكة الهمجية ومتاعب الفوضى .

ونظرة إلى الفلسفة الأخلاقية فى أوسع حدودها — وأن لم أكن من دارسيها — وإلى جهود الفلاسفة فى أروع صوت لها ، تريك أن شيئاً من هذا على فرض صوابه كله لا يزيد ولا يبعد عما جاء فى القرآن الكريم ، . وإنما ترفق القرآن فعمد إلى الجوهر وذكر ما ذكر من أنواع الأخلاق بأسمائها فى بساطة وإيضاح ، وترك للعلم تفصيل ما هنالك مما تجىء به الفلسفه الرزينة .

وترفق القرآن فيسر ودعا إلى التيسير فى توجيه الناس نحو الخلق ، وترك للعقول الحصيفة اختيار ما تقضى به الضرورات المصلحية من وسائل أخرى .

وما ترك القرآن فى محتوياته شيئاً من مقومات الحياة الكريمة ، إلا اشتمله إن لم يكن تفصيلا فإجمالا ، والقرآن حين يجمل يعتمد على السنة وبيان الرسول ، ثم على أولى العلم من أهل الذكر فى مختلف الأزمان ، وقد فرض الله علينا أن نرجع إلى رسوله ليبين لنا ما نزل إلينا ، وفرض على رسوله أن يبلغ ويبين ، وفرض الله علينا وعلى أهل الذكر من بعد أن نتفاهم ونتعرف .

فإذا لم يصادفنا إزاء هذا الكلام جدل ومكابرة ، أمكن أن ندرك حقاً قول الله سبحانه « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

٢ — ونحن الآن فيما تهيأنا للحديث عنه أمام آيتين من كتاب الله يختلف أسلوبهما ويتحد مرماهما .

(ا) فأولاهما : وعد من الله بالفلاح لمن تزكى ، ووعد الله فى غنى عن التأكيد، ولكنه مع ذلك جاء فى آيتنا مؤكدا بلفظ قد ، ليكون من وراء التأكيد اطمئنان ، وليكون بدل الشك يقين ، ويكون الاقتناع حاسما لنزعة الجدل فى الانسان، « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » فهنا دعوة إلى التزكية ، والمتزكى مفلح على التأكيد .

(ب) وفى الآية الثانية : نهى عن التزكية ، والنهى على أصله يقتضى تحريم الفعل المنهى عنه ، فتزكية النفس محظورة ، والمزكى لنفسه آثم خاسر ، وهذا فى ظاهره إشكال ، ومثله مألوف فى الدراسة الأزهرية فيما ترى ! ما التزكية التى تطلب إلينا مرة وننهى عنها أخرى ؟

التزكية من الزكاة ، وهو فى لغة العرب النماء والزيادة ، وكما يكون النماء أو الزيادة فى الأمور الحية تكون فى المعنويات ؛ وهنا يرادفها الطهر من الادناس ، والسمو عن النقائص ، ووضع النفس حيث يطيب موضعها ، ويرتفع قدرها لتأخذ بين الناس نصيبها من الكرامة ، وعند الله حظها من رضوان ؛ ذلك هو معنى التزكية ، وهو معنى لا يرغب عنه ، فكيف تنهى عنه بعد أن دعينا إليه ؟

وجوابنا : أن الوصف الخلقى له قيمته حسبما يسلك اليه المرء سبيله ، فيكون آخذا به دائبا عليه حتى ليرقى به - أو يكاد - من تطبع إلى طبع ، ومن تصنع إلى عقيدة وديدن .

وحينما يبلغ المرء هذا المبلغ فى جانب الخير والعمل المحمود ، يكون أوفى على الغاية ، واستقر فى وضع كريم ، وفى حكمه من يحاول توجيه نفسه ويتحاشى الفعل البغيض ، ويجاهد ما استطاع فى مناصرة عقله على هواه ، ومغالبة الخير على سواه ، ولو لم يصل الى أن يكون طبعا أصيلا فيه . فكلا هذين مصداق من تزكى فربأ بنفسه عما يشين قدره ، ويجرح سمعته أو ينقص دينه . وتلك هى التزكية التى دعينا اليها ، وحثنا القرآن عليها ، ووعد بالفلاح من أخذ بها ، ولم ينحرف عنها .

وهناك أناس ، قعدت بهم الهمة عن تكميل أنفسهم ، وصدهم الكسل عن المحاولة ، وطاب لهم أن يعيشوا على نقص فى خلقهم ، ولكن الأنانية تدفع بهم إلى الخداع ، فيخلعون على أنفسهم مدائح ليست فيهم ، وينتحلون مكارم لم تعرف عنهم ، ويزجون بأشخاصهم فى عداد أهل الخير ، وليسوا من أهل الخير فى أسبقية ، بل ولا فى شىء .

فهذه تزكية للنفس ولكنها مكذوبة ، وهى خدعة يراد منها الدخول إلى قلوب الناس ، حتى يمنحوهم الثناء ، ويضفوا عليهم شيئا من الإجلال .

هذه التزكية اللسانية الباطلة هى التى نهى الله عنها ، وحظرها علينا ، لأن من ورائها خطرا يمس صاحبها ويتعداه إلى سواه .

صاحب هذه الخدعة مصروف عن التفكير فى تكميل ما به من نقص ، وعلاج ما فيه من مرض خلق ؛ فهو سادر فى غفلة ، وسار فى ظلمة ليل .

وصاحب هذه الخدعة يستدرج الناس إلى تمجيده ، وقد يغتر بذكراه من لم يعرف شأنه على الحقيقة فيقع فى أحبولة من شره ، ويكتوى بشواظ من ناره .
واحد من هؤلاء الأدعياء يكفى للتنغيص على جماعة ، بل لإفساد الحياة بين قوم وجماعة من أولئك المخادعين كفيلة بالغض من شأن أمة كريمة ، والهبوط بسمعتها ، واستفزاز الخصوم وغير الخصوم إلى سوء القالة فيها .

لهذا الخطر الذى قد يستهين به أناس ، ندد القرآن بالأدعياء ، ونهى عن تزكية النفس بالقول ؛ حتى عمم فى النهى وتناول به الأخيار من أهل الخير ؛ فهم كذلك منهيون عن تزكية النفس على هذا النحو المرذول ، مخافة أن يمسهم غرور أو يعلق بهم رياء .

وانظر إلى النهى وإلى ما اقترن به ؛ فالله تعالى يقول « فلا تزكوا أنفسكم » ثم يقول « هو أعلم بمن اتقى » يعنى أريحوا واستريحوا من ثنائكم على أنفسكم ، فثوب الرياء يشف عما تحته ، وشهادتكم لا ترفع من شأنكم ، وكل منكم مجزى بعمله .

وقد تظاهرت آيات أخرى من كتاب الله مع الآيتين هنا فيما تضمنتاه من توجيه إلى العمل الجدى، والتنحى عن زخرف القول وباطل الدعوة، مما يعتبر فى ميزان العقل هزلا وضعة وسفها، فمن قبيل الآية الأولى قوله عز شأنه «قد أفلح من زكاها» ويأبى الله تعالى إلا أن يقرر هذا الوعد بوعيد لمن كانوا من الفريق الآخر إذ يقول: «وقد خاب من دساها» يعنى دنسها وهبط بها. ومن قبيل الآية الأولى كذلك «ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه».

ومما يظاهر الآية الثانية قوله تبارك شأنه: «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ولهم عذاب أليم» فذلك شأن من يعمل القبيح ويود أن يذكر بالخير.

ونحن فيما نشهد نرى اللص والمحتال والعربيد وأرباب النقائص، يحب كل منهم أن يوصف بغير ما فيه: مما يعرف بمركب النقص دون أن يحاولوا التنزه عن تلك المهانات التى يتحمل المجتمع غرمها ويعانى ألمها.

لذلك حرص الإسلام على استئصال الرذيلة من أصولها، ودرء المفاسد بسد أبوابها؛ لئلا تتأصل وتصبح داء عياء، وهو غير بعيد منا اليوم.

ومما يصور لنا هذا التوجيه أصدق تصوير قول النبى عليه السلام: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل أو العبد - يصدق ويتحرى الصدق؛ حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» يعنى يصدق العبد فى أول أمره أو يكذب؛ فإذا تمادى ودأب أصبح طبعا أصيلا فيه، وعلى مقتضاه يسير؛ فيجزى عليه بالخير عند الله أو يؤاخذ، وهكذا، وهذا باب واسع المدخل فسيح الأرجاء، وسنعود إليه مرة أخرى إن شاء الله وكان فى الأجل بقية.

السيرافي

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمدين الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اسمه وكنيته ونسبه :

أجمعت المصادر التي بين أيدينا على بيان اسمه وكنيته ونسبه :

أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزُبان السيرافي . من أصل فارسي . وكان أبوه مجوسيا ، يسمى بِهزاد ، فأسلم بعد ابنه ، فسماه ابنه هذا « عبد الله » .

تاريخ ومكان ولادته:

أجمع المؤرخون على أنه ولد بسيراف ، فرضة على الخليج الفارسي ، إليها نسب ، وبها اشتهر . أما تاريخ ميلاده فلم يعلم بالضبط ، فابن النديم وياقوت اقتصرا على قولهما : إنه ولد قبل سنة ٢٩٠ هجرية . ثم ذكر ياقوت نقلا عن على ابن عيسى أن السيرافي ولد سنة ٢٨٠ هجرية . ويؤخذ من كلام ابن خلكان أنه ولد في سنة ٢٨٤ هـ ؛ لأنه قال : إنه مات سنة ٣٦٨ هـ عن أربعة وثمانين عاما ، ومعنى هذا أنه ولد سنة ٢٨٤ هجرية . ونستطيع أن نؤكد أن ماجاء بكتاب السيوطي « بغية الوعاة » من أنه ولد قبل سنة ٢٧٠ هجرية ، خطأ من الناسخ أو من الطابع ، حيث كتب ٧٠ بدلا من ٩٠ .

نشأته العلميــة:

بدأ السيرافي دراسته بمسقط رأسه « سيراف » ، فحفظ القرآن ، وتعلم مبادىء الفقه واللغة ، ثم ترك سيراف ولما يبلغ العشرين من عمره ، وعبر البحر إلى عمَان ،

حيث تفرغ فيها لدراسة الفقه الحنفى ، ثم عاد إلى سيراف ، ومنها إلى عسكر مُكرم — مدينة من مدن الأهواز — حيث درس علم الكلام على أبى محمد بن عمر الصيمَرى . ثم سافر إلى بغداد حيث أتم دراسته ، وقضى بها بقية عمره ، مفتيا وقاضيا ومدرسا .

أشياخه

درس السيرافى علم الكلام على أبى محمد بن عمر الصيمَرى ، واللغة على أبى بكر بن دريد ، والنحو على أبى بكر بن السراج ، والقرآن على أبى بكر بن مجاهد ، والتفسير على أبى بكر بن زياد النيسابورى ، وعلى أبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى .

مكانته العلمية:

كان السيرافى مبرزا فى علوم اللغة والنحو والفقه والتفسير والحديث ، والفرائض والعروض والقوافى والحساب . وقد تصدر لتدريسها جميعها فى بغداد ، وأخذ عنه بعض أشياخه ، فقد قرأ عليه النحو أبو بكر بن مجاهد وابن دريد ، وأخذ عنه القرآن والحساب ابن السراج ومبرمان . وكانت له شهرة خاصة بشرح كتاب سيبويه ، فكان العلماء يسافرون إلى بغداد من جميع البلدان الإسلامية حتى من الأندلس ، ليشهدوا مجالسه ، ويغترفوا من مناهل علمه .

وكان متبحراً فى فقه الحنفية ، فظل مفتيا بمسجد الرُّصافة ببغداد مدة أربعين سنة على رأى بعض المؤرخين ، أو خمسين على رأى بعض آخر ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر على ذلة . وكان يجتهد أحيانا ، فيفتى بما لا يتفق ومذهب الحنفية .

وكان ينوب فى القضاء عن أبى محمد بن معروف ، فى الجانب الشرقى ببغداد ، ثم فى بغداد جميعها ، ثم فى الجانب الشرقى فقط . وكان حسن الخط ؛ طلب للعمل بديوان الإنشاء فأبى .

صلاحه وتقواه :

كان السيرافى — رحمه الله — مثلا عاليا للعالم العامل ، جمع بين شرف العلم وحلية العمل ، كان تقيا نقيا يكثر من قراءة القرآن ، ومن الصلاة بالليل ، والصيام بالنهار ، وقد قيل إنه صام أربعين سنة ، وما قرىء عليه شىء فيه ذكر الموت والبعث إلا بكى . وكان زاهدا فى الدنيا ، لا يقبل هدايا العظماء ؛ بل لم يأخذ أجرا على فتوى أفتاها ، ولا على درس علمه ، ولا على قضاء قضاه .

وكان — رحمه الله — ورعا ، لا يأكل إلا من كسب يده ، فكان لا يذهب إلى الحكم ، أو إلى إلقاء درس قبل أن ينسخ عشر ورقات من مخطوط يبيعها بما ينفقه على نفسه .

وقد طارت شهرته فى جميع البلدان الإسلامية ، فكانت الرسائل تأتيه من ملوكها ووزرائها وعظمائها ، يستفتونه فى مسائل علمية ، ويخاطبونه بعبارات التبجيل ، ويلقبونه بالإمام ، وبشيخ الإسلام ، وبشيخ الشيوخ ، وبالشيخ الجليل .

غير أنه كان ككل عظيم نابغة ، له خصوم ومنافسون ، وحساد يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وقد ذكر لنا المؤرخون اثنين من منافسيه : أحدهما أبو على الفارسى النحوى المشهور المتوفى سنة ٣٧٧ ، فقد حنق على أبى سعيد لما شرح كتاب سيبويه ، وجعل الفارسى وأصحابه يبحثون عن نسخة من شرح الكتاب لانتقاده ، وإظهار عيوب وأخطاء يكون فى إشهارها تشهير بالسيرافى وحط من قدره ، ولكنهم لم يوفقوا إلى العثور على المخطوط إلا فى السنة التى مات فيها السيرافى ، عثروا عليه بألفى درهم ، وقد جدوا فى البحث عن عيوب وأخطاء الكتاب ، فما كانوا من المهتدين .

والثانى هو أبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ، المتوفى سنة ٣٥٦هـ فقد هجا السيرافى بهذين البيتين :

لست صدرا ولا قرأت على صد ر ولا علمك البكى بشاف

لعن الله كل نحو وشعر وعروض يجىء من سيراف

مؤلفاته :

ينسب مؤرخو السيرافى إليه الكتب الآتية.

(١) شرح كتاب سيبويه . ومنه نسخ خطية بالمكتبة الملكية المصرية ، إحداها بخط عبد اللطيف البغدادى الرحالة الشهير . وقد انتفع بهذا الشرح المستشرق الألمانى « جهن » فى ترجمة كتابة سيبويه إلى اللغة الألمانية ، الترجمة المطبوعة ببرلين سنة ١٨٩٤ م . وقد حلى كتاب سيبويه بنبذ من هذا الشرح فى طبعة المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٦ ه .

(٢) شرح مقصورة ابن دريد .

(٣) ألفات الوصل والقطع .

(٤) شرح شواهد كتاب سيبويه .

(٥) المدخل لكتاب سيبويه .

(٦) الإقناع ، فى النحو ، كتاب لم يتمه السيرافى ؛ لكن أتمه ابنه يوسف من بعده .

(٧) كتاب الوقف والابتدا . كتاب يتعلق بقراءة القرآن .

(٨) صنعة الشعر والبلاغة .

(٩) أخبار النحاة البصريين . طبع فى بيروت سنة ١٩٣٦ م مع تعليقات للمستشرق . ف . كرنكو . وقد صرح السيوطى فى مقدمة كتابه « بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه » أنه اطلع على هذا الكتاب واستعان به فى مؤلفه .

(١٠) كتاب جزيرة العرب ، كتاب اعتمد عليه ياقوت فى تأليف كتابه « معجم البلدان » .

التقليد وخطره

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

(تتمة)

* التقليد فى الأمور العامة
* التقليد فى العلم والدرس
* النتيجة العامة للبحث

من البلاء المبين أن يتعدى التقليد من الفرد للجماعات المختلفة ، وإلى هذه الأمة ممثلة فى الأداة التى تدير أمورها العامة ، وهى ما تعارفنا على تسميته بالحكومة .

وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن المغلوب مُولَع دائما بتقليد الغالب ؛ إذ يعتقد فيه التفوق فى التقاليد والعوائد ومذاهب الحياة ، وأن هذا هو السبب فى ظهوره عليه . وهذا مع صحته فى الماضى والحاضر ، لا يمنع من القول بأن الإفراط فى تقليد أوربا فى عامة شئوننا ، لايجعل منا أمة لها شخصيتها التى يجب أن تقوم على ما تحرص عليه من دين ولغة وتاريخ وتقاليد خاصة بنا .

إن من البلاء المبين أن تقليدنا للغرب لم يقف على الأفراد ، أو على ما هو ضرورى من الأمور كالصناعات والنواحى الفنية ؛ ولكن تعدى هذا وذاك إلى العادات والتقاليد التى ترجع فى أسسها إلى الدين ، كما سبق أن تعدى إلى الشرائع والقانون .

وفى الناحية العلمية ، تدور فى الأزهر فى حلقة مفرغة من التقليد ، لا تدرى آخرها من أولها . نجد هذا الكتاب فى هذا العلم أو ذاك لا يختلف عن الآخر إلا بشىء من التغيير فى الوضع والترتيب . أما الأفكار والآراء فهى هى ، قد

جمدنا عليها فلا نبغى بها بديلا ، بل صرنا من التقليد إلى أننا لا نستطيع الوصول إلى هذا البديل لو أردناه !

وكان من هذا أن ندر بيننا الكتاب الممتازون والفقهاء المشرعون ، مع كثرة من يحذق فينا علوم اللغة والفقه ! وأن صار لنا كثير من العلماء بالمنطق والتوحيد ، وليس لنا من حاول إصلاح المنطق القديم كما حصل فى أوربا ؛ ولا من حاول أن يجعل علم الكلام علما يتناسب وعقليات العصر ويهتدى به الضال !

وكان من هذا أيضا أننا نجمع على أن الإسلام دين الله الحق الصالح لكل زمان ومكان ، ومع هذا لم نحاول حتى الآن عرضه كما يجب : عقيدة وتشريعا وأخلاقا واجتماعا واقتصادا . أقول ، واقتصادا ، عامدا ، لأن الإسلام ، وهو دين شامل عام ، وفىّ هذه الناحية حقها ، هذه الناحية التى تفرق العالم اليوم معسكرين متعاديين ، وله طرقه الحكيمة الناجعة فى معالجة مشكلة الطبقات ، وما تجره من مشاكل الفقر والجهل والمرض . وعلينا نحن استخراج مذهبه فى هذه الناحيه لنقى العالم — على الأقل الشرق والإسلامى — خطر الشيوعية والانحلال وحرب الطبقات ، ولكننا نكتفى فى هذا السبيل بدعاوى عريضة نرسلها وقرارات نصدرها .

يا قوم ! إن الأمر خطير ، ولا يحل هذه المشاكل قرارات تصدرها لجنة الفتوى أو الأزهر كله بهيئاته المختلفة .

علينا ألا نكتفى بالدعاوى ، وبالركون إلى الموجود من المؤلفات فى الإسلام ، نقلبها بين أيدينا كأننا نقلب جسما ، لا حياة فيه تنفع فى هذا الزمن ، علينا أن نكتب كتبا جديدة ، نعرض فيها الإسلام من تلك النواحى ، ونبين فيها كيف يجب أن نعمل لتحقيق العدالة الاجتماعية ؛ فإنه لا تزول هذه الفوضى ، ولا يمكن أن نتقى الشيوعية إلا بالقضاء على سبيلها الوحيد وهو الظلم الاجتماعى ، فتلك سنة الله التى لا تبديل لها .

بذلك نكون قد أدينا واجبا كبيرا للأمة وللإنسانية كلها ، وبذلك نستطيع أن نكون صالحين للتعاون مع ممثلى المسيحية : لتكوين جبهة لمحاربة الإلحاد والمبادىء الهدامة . أما بالعكوف على القديم وحده ، وبالتقليد فى كل شىء حتى

فى التفكير ومناهج الدرس ، فلن نستطيع أن نصل إلى خير ، ونكون جناة على أمتنا وأبنائنا جناية يثقل علينا حملها ووزرها .

إنها جناية أن نجمد على ما ورثناه عن أسلافنا من تراث ، فلا نتناوله بالتعديل والتغيير ، مستهدين بتقدم العلم وحاجات العصر ، ولو مُنى أجدادنا العظام بما مُنينا به منذ قرون من جمود وتقليد ، لما كان لنا اليوم إلا مذهب واحد فى الفقه والتشريع ، وعلوم الكلام واللغة والتفسير مثلا .

إن من الواجب أن نرفع الصوت بأن كل من تقدمنا فى الحياة ، ما عدا الأنبياء والمرسلين فيما أرسلوا من أجله ، يصيبون ويخطئون ، فلا معنى إذاً للتقليد فى كل شىء ، ولعل بعضنا يكون أفهم للأمر ، وأقرب للحق وأهدى للصواب من كثير من هؤلاء السابقين . ومن أجل هذا ، يكون واجباً على كل منا أن يستعمل عقله فيما وُهب له من أجله ، وأن يطلب لنفسه الاستقلال فى الرأى الذى يتبعه الاستقلال فى الشخصية ، وإلا كان مقصراً فى طلب الكمال الذى جعل الله له وسائله .

***

هذا ، وإذا كان لكل حديث نهاية ، ولكل بحث غاية يهدف إليها ، فإنى أحب أن أجمل هذه الغاية أو النتيجة فى كلمات :

١ — لو لم يكن من غرائز الإنسان أو من طبيعته التقليد ، لكان عسيراً كل العسر ، إن لم نقل متعذراً فى كثير من الأحيان ، أن يصل الإنسان إلى كثير من المعارف وإتقان كثير من الأعمال . ولولا هذه الظاهرة الطبيعية ، لعز على المربى أن يبلغ بطفله أو تلميذه إلى ما يريد له من كمال .

٢ — ولكن ينبغى أن نحذر فى الإفادة من هذه الغريزة ، فلا نسرف فى التقليد ، وبخاصة فيما لا نعلم علم اليقين أنه خير ، فذلك إثمه أكبر من نفعه ، وحسبنا أنه ينتهى بمحو شخصية المقلد ، وصيرورته تابعاً لغيره فى تفكيره وطرائق حياته الاجتماعية على الأقل .

وما ينبغى لأحد منا أن يتعلل بما يذكره بعض رجال المذاهب الأخلاقية ، من أن سعادة المرء فى أن يحسن التكيف بما تكون عليه بيئته ، أى فى القدرة

على هذا التكيف وإحسانه فى غير عنت أو مشقة . ما ينبغى لنا ذلك ، لأنه فرق كبير بين رعاية البيئة أو الوسط الاجتماعى فيما هو خير ، وبين الانطباع بهذا الوسط خيره وشره ، كما هو ملحوظ فى حالات كثيرة فى هذه الأيام . إن منا من يغير رأيه فى هذه المسألة أو تلك ، بعدد ما يغير من مجالسه أو جلسائه مع غيره .

٣ — من الواجب ، ونحن فى نهضة اجتماعية ، ألا يكون الواحد منا مادة تنفعل بغيره ، وبما يكون من ذلك الغير من أحداث ؛ بل يجب أن يكون المرء فى نفسه قوة تفعل ، قوة لها أثرها الطيب هنا وهناك .

* * *

إن عامة الغربيين يرون فينا ، معشر الشرقيين ، جماعات لم يَعُدْ لها كيان مستقل ولا شخصية خاصة ، ما دام الكل يرى فى الغرب مثله الأعلى يقلده فى أكثر طرائق الحياة ؛ أما الخاصة من رجال الغرب ، أعنى العلماء الذين لهم بصر يتجاوز ظواهر الأمور إلى حقائقها ، فيرون أن هذا الاتباع من الشرق للغرب اتباع ظاهرى ، وأن للشرق وراء هذا روحه الخاصة به ، هذه الروح التى لاتلبث أن تظهر من جديد ناصعة ، قوية يفيد منها الشرق والغرب معاً ، بعد أن صار هذا الأخير ـ وقد أنهكت قواه الفلسفةُ المادية ـ بحاجة إلى بعث جديد يقوم على روح جديد ، يلتمسونها لدى الشرق والإسلام .

فلنبين إذاً لعامة الغربيين خطأ ما يعتقدون من أن الشرق أضاع روحه وشخصيته فى تقليد الغرب ، ولنحقق للخاصة منهم ، وهم العلماء الذين لهم بصر نافذ ، ما يعملون على التماسه لدينا من خصائص فى الطابع والشخصية والروح ، لا قوام للشرق بدونها ، ولا غنى للغرب عن الإفادة منها .

بهذا يعود من الممكن لنا أن نحتفظ بما لنا من كيان خاص ، ونساعد العالم على اجتياز المحنة التى تطحنه طحناً هذه الأيام ، ونكون قد ساهمنا فى تقدم العالم وسعادته ، والله ولىُّ التوفيق .

مكارم الأخلاق

بين الفلسفة والأدب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الفصل الثانى

وفضيلة العدالة صفة إنسانية تتفاضل وتتفاوت تبعاً لأسبابها ومقوماتها فى النفس الإنسانية .

وهذه الأسباب والمقومات ، إما أن تكون أموراً كسبية إرادية ، كالتعليم والتهذيب فى شتى ضروبه وأشكاله ، وإما أن تكون أمورا جبلية وهبات لادخل للكسب فيها ، كرقة الطباع ، ودماثة الخلق التى تظهر أحياناً مبكرة فى الطفولة الإنسانية ، إما بعامل الوراثة ، أو بعوامل أخرى علمها عند مبدعها وخالقها تعالى .

ولابد لكمال فضيلة العدالة من تضافر هذه الأسباب والمقومات جميعاً ، لإخراج شخصية إنسانية ، كاملة العلم ، موفورة الذكاء والانتباه ، مهذبة الغرائز ، تدرك تمام الإدراك ، الغاية التى خلقت لها والطريق الموصل إليها ، وتثق كل الثقة فى المثل العليا ومراميها السامية ، وتفرق بين مطالب الأنانية الفردية ، ومبادىء الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وترتبط مع مجتمعها برباط وثيق من « الشعور المتبادل » أو ما يسميه علماء النفس وعلماء الاجتماع : « المشاركة الوجدانية » ، عالمة تمام العلم بما لها على المجتمع ، وما للمجتمع عليها من حقوق وواجبات ، وتشعر شعورا واضحاً مطردا بما للإنسانية من قيم ذاتية .

أما عندما تنعدم تلك الأسباب والمقومات كلها أو بعضها ، فإن صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الإنسانية ، فتنزل من درك الى درك ، حتى تنحط إلى مستوى البهيمية والوحشية ، شأن الهمج الطغاة ، الذين لا يعيشون على أديم الارض ، إلا ليمثلوا تنازع البقاء بأخس الوسائل وأقبح المظاهر . وهذه الحال

هى ما يسميها بعض الكتاب : « شريعة الغاب » . وعندى أن شريعة الغاب تظلم ، إذ يشبه بها ذلك النوع البشع من السلوك الإنسانى . إن حيوان الغاب لا يعدو غالباً إلا بدافع الحاجة الملحة ، والجوع المستمر ؛ على حين أن الظالمين من بنى البشر يندفعون إلى ذلك بعامل بطر الغنى وأشر القوة « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

وإن الذين تستهويهم شياطين الجهل والغرور والإدلال بالقوة والجاه والوصول ليحسبون أنفسهم دائماً ، خلقا آخر لا يمتون إلى العالم المحيط بهم بصلة ولا يربطهم به سبب ولا نسب . ولو رجع أولئك الأغرار إلى طبيعتهم العاقلة وأجادوا التبصر والفهم ، لأدركوا تماما أنهم مرضى الجهل والهوس والكبرياء وحب الظهور والتعالى الكاذب ، الذى يخيل إليهم أن الإنسانية كلها تحت مواطىء أقدامهم ، وعلى أشلائها يجب أن تحتك هاماتهم بنجوم السماء ؛ شأن فرعون إذ قال : « يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات؛ فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا . وكذلك زين لفرعون سوء عمله . . . »

ولو أحسنوا التبصر أكثر فأكثر ، لعلموا أن هذا الشذوذ الخلق الغبى الوخيم الأعمى ليس إلا مرضا لا يخفى على ذوى البصائر من مخالطيهم ومواطنيهم ، وإن من بين الأنظار المصوبة إليهم أنظار ساخرين وضاحكين ومستهزئين ، بينما يظن البلهاء أنها جميعاً أنظار مكبرين ومعجبين .

ولو أمعنوا فى التأمل لعلموا أنهم لو اقتطعوا وأفردوا إفراد البعير المبعد عن أولئك الذين يحتقرونهم ، ويعتدون على قدسية حقوقهم من إخوانهم ومواطنيهم ؛ لماتوا هزالا وكانوا أحقر من قلامة ظفر . . . نعم . لو أمعنوا فى التأمل وأدركوا ذلك لهانت عليهم أنفسهم وقدروها حق قدرها ، ووقر فى نفوسهم أنهم كبقية الخلق ، من طين وماء ، وأن عليهم للناس حقوقا بقدر ما لهم من واجبات ، وأن العدالة خير ميزان ينصفهم من الناس وينصف الناس منهم ؛ فيعيشوا سعداء ويعيش بهم مجتمعهم سعيدا قرير العين ، تسعهم جميعاً رحمة الله وتفيض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

وليست فضيلة العدالة ـ لسوء حظ الإنسانية ـ بالفضيلة التى يسهل الحصول عليها ، ويتأتى الوصول إليها بأيسر الأسباب وأهون الكلف . إنها ، على الضد

من ذلك ، وعرة المرتقى عالية الذروة . هى فضيلة الحكماء الحقيقيين ، وصفة الأمراء النابهين ، وتاج الملوك الموفقين ، وحلية الرؤساء البارزين ، وسلاح الساسة الناجحين . ولابد للحصول عليها من منبت شريف ونسب زكى ووراثة نقية من الشوائب ، وهمة نزاعة الى المعالى . أما الظلم فما أيسره وأكثره . إنه كأشواك أودية العوسج ، يكاد يسد على الإنسانية مسالكها ، وينغص عيشها ويقض مضجعها .

أما أثر العدالة فى الجمعيات الإنسانية ؛ فإن التاريخ يرينا بملء أعيننا أنها أم العمران ، ودعامة النجاح وسبيل التقدم فى مدارج الحضارة ، وأوثق وسيلة لبلوغ الأمم أوج العظمة والمجد الباذخ ؛ كما أن الظلم كان ولايزال سبب الفشل والخراب والانحطاط والضعف والتدهور إلى حضيض الهون .

ولقد ضرب الله سبحانه لنا فى كتابه الكريم ، أمثال أمم بادت وانقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسى فضيلة العدالة السامية « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ؛ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ؛ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

كذلك أدال الله من دول بلغت أوج المجد ، ثم فسدت طوية أهلها فتظالموا وتقاطعوا وتقاسموا على أنفسهم كالقياصرة والأكاسرة الذين محا الله ملكهم ، وخلص العالم من طغيانهم ؛ إذ أرسل عليهم جنود عدله حملة لواء الإسلام ، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكانت عدالة الإسلام خير وسيلة لفض جموعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوى إليه المظلومون من عامتهم وخاصتهم ، والظلم مرتعه وبيل وخيم لا يبقى ولا يذر .

كانت العدالة أساس التعاليم المحمدية السامية ، ورباط مجتمعها الوثيق ، يقوم فيه الرسول الكريم بأعظم وأسمى قدوة عرفت لمعلم أخلاق على مر القرون . كان يعدل بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر « لا فضل لعربى على عجمى

إلا بالتقوى » . رسالة تضمن الحق لكل من تثبت له صفة الإنسانية . لا تفاخر ولا تطاول ولا تعاظم إلا بالعمل الصالح المتواضع والخلق السامى الركين ، سماحة وصبر وعفو ومياسرة وهدى وإرشاد لا ظلم ولا انتقام ولا طغيان .

وكان خليفته الأول أبو بكر رضى الله عنه الناسج على منواله ، والسائر على هديه ، والذى يرى القوى ضعيفاً حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قوياً حتى يأخذ الحق له ، والذى يرى نفسه مسئولا حتى عن عدوان ذئب على شاة لأحد الرعية ، ولو كان بأقصى مملكة الإسلام الواسعة . وهل بعد هذا دقة فى الشعور بالمسئولية واستشعار العدالة ؟

أما عمر بن الخطاب عليه رضوان ربه ، فكان أبعد الخلفاء فى ذلك غوراً وأخلدهم سيرة . إن صحائف تاريخه الناصع تروى لنا أنه ما كان يسمح لنفسه يوما أن تستشعر لها ميزة على أحد من رعاياه . كان يسمع اللوم والتقريع من كل من ينقده نقداً عادلا لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ، ولا بين كبير وصغير . وحسبنا عدالة بحاكم كان يسهر الليل جواب آفاق ، والناس نيام ، ليستوضح أحوال الرعية ، ويلمس بنفسه من وراء الحوائط آلام البائسين ، ويقف على خلات المعوزين ، غير منتظر منهم ولا من أعوانه إيصالها إليه فى مجلس عدله . لأن من الناس من يقنع بؤسه ، ويستر جرحه النزاف تصونا وضنا بالكرامة ؛ ومن الأعوان ، مهما أخلصوا من لا يشعر بمثل ما يشعر هو به من عظم الوزر وجلال المسئولية ، فمن ذا الذى يستطيع أن يميط له اللثام عن كل شاردة وواردة من آلام رعيته ، إلا أن تكون نفسه الحساسة بمواضع الآلام ؟ ولرب بؤس فى الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع . وبهذا كان أكثر من أب حدب على أبناء يعدون بالملايين .

ومن أبدع ما يروى عن عدله الدقيق : أن بعض رعاياه ، كانوا ينزلون بداره ضيوفا ؛ فيصيبون من طعامه الذى يقدم له ما يجعلهم يأسفون على حظهم ، لفوات ما كانوا يقدرون أنهم سينالونه على مائدة خليفة واسع السلطان من الطيبات .

ولكنهم لو علموا أن رجل العدالة رجل قلب لا رجل بطن ، وأن له من لذة الإيمان بالعدل ما تنفه معه أطايب المطاعم والمشارب ، وجميع لذات الدنيا ؛ لما عجبوا ولا دهشوا .

ولقد كان أقرب خطر الرعية من يده القوية خطام أهله وعشيرته الأدنين ؛ يتخذهم هدفا لمرمى العدالة ، يراه الناس ، فيأتسون ويؤمنون ويعملون ويخلصون. وأية ثقة بعد الثقة بحاكم يقدم عند الشدائد نفسه وأهله ، ويقدم عند المغانم سواهم . ليقيم حجة العدالة ناصعة سافرة كالشمس الطلقة رأد الضحى ؟ ومن يُرد عجائب عدله فليرجع الى صفحات التاريخ فإنها عجب الدهر .

ومن بديع مأثور التاريخ فى هذا المعنى ما روى من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى العادل ، كان يقتر على نفسه حتى لا يمس درهما من مال الدولة بغير حقه . وراق له يوما أن يستخبر خادمه بعض ما لا يعلم من أحوال الرعية فقال له : « ماذا يقول الناس فينا بعد أن صار هذا الأمر إلينا ؟ » فأجابه الخادم فى حدة وغيظ : « وماذا يقولون ؟ والله لقد كنا قبل هذه الخلافة أسعد حالا منا بعدها » . وهنا بدا للخليفة الصالح أن خادمه يكابد من العيش ما لا قبل له بمثله ، فأحسن اليه وسرحه سراحا جميلا ، وقال له : « أنت حر مطلق وسأبقى أنا فيها حتى يكتب لى الله عنها مصرفا » . وقد بقى فيها ما شاء الله أن يبقى دون أن يحيد عن سبيله القويم ؛ حتى وافاه أجله، رضى الله عنه وأرضاه .

ومن الطرائف فى تحرى العدل ما روى : أن المأمون الخليفة العباسى كان يوما يماشى قاضيه على طريق فى بستانه ، وكان القاضى يستره من الشمس بظلة ، فلما أرادا الرجوع ، حاول القاضى أن يظل ناحية الشمس ليبقى ستاراً له ، فأبى المأمون إلا أن يكون ستاراً للقاضى واحدة بواحدة . فقال له القاضى : « يا أمير المؤمنين لو استطعت أن أقيك بنفسى من حر النار لفعلت » فقال المأمون رحمه الله : « نعم ؛ ولكن ليس ذلك من كرم الصحبة » .

وبعد ، فهل يحسن بعاقل يحترم نفسه وإنسانيته أن يجهل قيمة العدالة ، وما لها من آثار صالحة فى سعادة الأفراد والمجتمعات ؟

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية : تقتضيها علاقة المرء بأهله ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بذوى قرابته ، والرئيس بمرءوسيه ، والحاكم بمحكوميه ، وكل مواطن مع مواطنيه، حتى يكون السبيل أهدى والطريق أقوم . نسأله تعالى الهداية .

الطفولة الضائعة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير المكتبة الأزهرية

لا أتوجه بكلمتى هذه إلى الحكومة ؛ فأنبهها إلى ضرورة العناية بهؤلاء الأطفال، الذين قدر لهم لأسباب كثيرة أن يشردوا فى حياتهم ، ويهيموا على وجوههم فى مسالك الأرض حيارى محرومين من نعمة الرعاية والتوجيه ؛ ولا أتوجه إلى وزارة الشئون فألفت نظرها إلى وجوب جمع هؤلاء الأطفال، والاضطلاع بتربيتهم وتعليمهم فى مدارس خاصة ؛ ليكونوا بعد ذلك أعضاء نافعين فى جسم الوطن، بدل أن يكونوا أداة إجرام وإفساد تهدد أمنه وتشوه جماله ؛ ولا أتوجه إلى مصلحة السياحة ، فأدلها على مواطن الخطر على سمعة الوطن إذا وقعت أنظار السائحين عليهم، يستجدونهم ويتعبون أنظارهم وأنفسهم بمناظرهم وهيئاتهم؛ لا أتوجه إلى هذه الجهات فهى جد عليمة بمشكلتهم ، دائمة البحث عن علاجها ؛ وإنما أتوجه بكلمتى هذه إلى أصحاب الشأن الأول ، والمسئولين بالأصالة عنهم ، وأعنى بهم أولياء أمور هؤلاء الأطفال ، الذين خلقوا هذه المشكلة بدافع من شهواتهم الوقتية ، غافلين عن مسئولية الآباء نحو أبنائهم دينا ومروءة ؛ أتوجه اليهم لأحدثهم باسم الدين لا باسم القانون ، والدين أنجع وأبعد تأثيرا فى نفوسهم من القانون .

أحدثهم باسم الدين ، فأقول لهم : إن الدين أوجب عليكم العناية بأطفالكم ، والجهاد فى سبيل معاشهم وتعليمهم ، وأوجب عليكم أن تؤثروهم على أنفسكم ، ووعدكم على هذا الجهاد المعونة فى الدنيا والجزاء فى الآخرة .

إنا لنعلم أن كثيراً من أولياء أمور هؤلاء الأطفال ، يؤثر نفسه على أبنائه

بما قدر له من رزق! وليته يؤثرها عليهم فيما يورثه خيرا فى صحته أو عقله أو خلقه! لكنه يؤثرها فى شهواته الوضيعة، وفى لذات تورثه ضيق اليد ومرض الجسم، وذل الحاجة. كثير من أولياء أمورهم يكد يومه ثم يذهب بما جمعه لا إلى منزله وأولاده، ينجز لهم ضروراتهم المعاشية، بل يذهب إلى أوكار المخدرات أو مواطن الفجور، يمتع نفسه ويرضى مزاجه؛ كما يقولون، ثم يخرج كفافا وعليه آثام كثيرة فى حق نفسه وحق أولاده وحق أمته، ويدفع بأبنائه إلى طرق الذل والمهانة، يسرقون ويستجدون ويجرمون، ويدفع بزوجه كذلك إلى الامتهان بالخدمة ومسالك الريبة.

إلى هؤلاء نقول: إن الدين جعل عليكم مسئولية العناية بأبنائكم فى معاشهم ومعادهم، وإنه سيحاسبكم عليهم ويعاقبكم على التفريط فيهم، وإهمال شئونهم، ويجزل جزاءكم على الجهاد فى تربيتهم والإنفاق عليهم، وإعدادهم للمستقبل الكريم.

وبشر الذين يجاهدون فى معاش أطفالهم وتربيتهم تربية صالحة، بأقرب المنازل عند الله؛ فمن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»، وقال: «من حسنت صلاته، وكثر عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين كان معى فى الجنة كهاتين - يعنى أصبعيه -»، وقال: «من كان له ثلاث بنات، فأنفق عليهن، وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه، أوجب الله له الجنة، البتة البتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر له»، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها، فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن الله قد أوجب لها به الجنة، أو أعتقها به من النار».

وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه فى الغزو: تعلمون عملا هو أفضل مما نحن فيه؟ قالوا ما نعلم ذلك. قال أنا أعلم. قالوا فما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل، فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين، فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه.

وأنذر الذين يهملون أطفالهم ويضيعونهم بالعقاب على ذلك الإثم ، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته » . وتقول لهم باسم الدين : إن الدين لم يجعل شأن الزواج رهنا بهوى النفس ، وسلطان العاطفة ؛ فيتزوج الرجل متى شاء بمن شاء : بل قيده بقيود كثيرة من أهمها القدرة على المهر والإنفاق ، ومطالب العيش . وطلب إلى الفقير الذى لا يجد ما ينفقه على زوجه وعياله ، أن ينتظر إلى الميسرة ، حتى لا يضطره ضيق اليد إلى الكسب الحرام والوقوع فى الحرج والإعنات ، فقال تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .

وقد أباح بعض العلماء منع الحمل بسبب الخوف من كثرة الحرج ، بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ، ودخول مداخل السوء ، فإن قلة الحرج معين على الدين .

بمثل هذه الآيات والأحاديث وأقوال العلماء نتحدث إلى أولياء أمور الأطفال ، لنوقظ فى نفوسهم العاطفة الدينية نحو أبنائهم ، حتى يستشعروا المسئولية التى ألقتها الشريعة على كواهلهم فى سبيل تربيتهم ، وإعدادهم لحياة كريمة ، يرضاها الاسلام لأهله .

هذا وإن إخواننا الوعاظ أقدر منا على الحديث ، وأبعد أثرا ، فنرجو أن يتحدثوا إليهم فى الأحياء المناسبة ، والأوقات المناسبة ، كما نرجو أن يستجيب هؤلاء لدعوة الدين بعد أن استعصوا على دعوة القانون .

الدنيا

قال أبو نواس :

وما نحن إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

فكان المأمون يقول : « لو قيل للدنيا صنى نفسك ما عدت هذا البيت »

صنائع المعروف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفيا تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف » .

رسول الله ، وإمام هذه الأمة ، سيدنا المصطفى المختار ، يحيط هذه الأمة بسياج من الفضل ، ويوثق بين أفرادها برباط من المحبة ، ويجمعها على ألفة لاتنفصم ، يفيض عليهم من نور النبوة ، ويلبسهم من نسيج الحكمة ، وينثر عليهم من عذوبة ألفاظه ، وسحر بيانه ، وجوامع كلمه ، ألوانا فيها متعة السمع والنفس والفؤاد ، وفيها عزة الدنيا وسعادة الآخرة .

صنائع المعروف تقى مصارع السوء .

ومن من الناس لا يستجيب لهذا التوجيه الحازم ؟ فإن فى الحياة مزالق وعثرات ، وإن فى الحياة أحداثا تقرع على المطمئن بابه ، ثم تثب ، فتدفع فى عنف وتصرع دون إشفاق ، والذى يقف هذه القوارع ، ويدفع تلك المصارع ، إنما هى صنائع المعروف ، فهى الوقاية من لفحات هذه المهلكات ، وهى العصمة من تلك الكبوات القاصمات .

فإذا كانت هناك يد تمتد بالعطاء فى الخفاء ، ليست بذات منّ ولا رياء ، وإذا صدق البر بالأقارب ، وتتابعت صلة الأرحام ، وإذا أغيث الملهوفون ، وفرج المكروبون وانتصف للمظلومين ، وأخذ على أيدى الظالمين ، كانت تلك صدقات ، وكانت هذه صنائع ، تقيل المتعثر من عثاره ، وتكفل النجاة من هذه الأحداث .

وصدق رسول الله « كل معروف صدقة » فليست الصدقة قاصرة على بذل المال ، بل الصدقة مال وجاه ، والصدقة حب وعطف ، والصدقة تزاور وتآلف ، والصدقة عدل ونصفة ، والصدقة كف عن الأذى ، ورد عن الشر .

روى البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يجد ، قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ، قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : قيل له أرأيت إن لم يستطع قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت إن لم يفعل ، قال يمسك عن الشر فإنها صدقة » .

فها هو ذا : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد اعتبر كلا من هذه الأعمال صدقة .

وما دام كل معروف صدقة ، فالمتصدقون هم أهل المعروف ، هم الذين استجابوا لدعوة الحق ، واستطابوا محبة الخلق ، عرفهم الناس فى الدنيا أبرارا أخيارا ، يصلون فلا يقطعون ، ويبذلون فلا يمسكون ، ويواسون فلا يتبرمون ، وهؤلاء هم أهل المعروف فى الآخرة ، يشهدهم المخلوقون وهم فى رحمة من الله ورضوان ، جزاء ما عملوا ، وكفاء ما بذلوا « وما تفعلوا من خير فلن تكفروه ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

* * *

أما أهل المنكر فى الدنيا ، أما الذين أظلمت نفوسهم ، وقست قلوبهم ، وعبست أساريرهم ، وساءت أفعالهم وأقوالهم ، فبدلوا من الوصلة قطيعة ، ومن البر فجورا ، وأحالوا الوفاء نقضا ، والولاء بغضا ؛

أما هؤلاء الذين ولغوا فى الأموال ، فلم يشبعهم حرام ولا حلال ، والذين ذهبوا فى الأعراض ، فلم تقعدهم فضيحة ولا نكال ، أما الذين أنكرتهم الدنيا ، لأنهم تنكروا لأهلها بالبغى والعدوان ، والطمع والجشع ، فهم أهل المنكر فى الآخرة ، لا يجدون من المال إلا حرمانا ، ولا من القوة إلا هوانا ، ولا من الأمن إلا ذعرا ، ولا من الأمل إلا خسرا ، « ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

* * *

ثم يختتم الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، قوله بأعظم بشرى يتلقاها الناس ، بأن أول من يدخل الجنة أهل المعروف ، يمتعون فيها بذلك النعيم الدائم الذى لا ينقضى ، وبهذه الألوان من التكريم ، الذى يلقونه بين يدى ربهم ، فى جنة عرضها السموات والأرض « يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الآرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

وبعد :

فهذه صفات أهل البر ، لمن شاء أن يحتذيها ، وتلك ثمار الخير لمن رغب أن يجتنيها ؛ فإنها جمال الدنيا وعزة الآخرة .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

إذا أعجبتك خصال امرىء ... فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على الفضل والمكرمات ... إذا رمتها حاجب يحجبك

الأدب الديني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابرهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

خطر بذهني هذا العنوان وودت أن أكتب فيه كلمة ، وقد ترددت بادىء ذى بدء ؛ لأن الأدب هو الأدب فى كل شرعة ومنهاج ، وأسلوب وتفكير ، ولون وتصوير ، فلا يمتاز الدين بطابع من الكتابة على غيره من أنواع السلوك أو الأخلاق .

ولا يعدو الأدب أن يكون ديباجة طلية ، وبيانا سريا ، وألفاظا مختارة ، وجملا متماسكة ، وليس لمتعشق للقراءة ، راغب فى الاستفادة ، متعطش إلى الفهم والتحصيل ، أن يقول هذا شعر يعالج عقيدة ، أو ينتصر لمذهب ، أو يدعو إلى غاية .

وإذا كان هجاء ابن الرومى وحماد وبشار والمتنبي لم يمنع القارىء أن يتناقله ، ويقف على أطلال حسنه ، ورسوم جماله ؛ فإن المتأدب يجب عليه أن ينشد الأدب فى كل دين وملة ، وعلم وفن ، وكتاب وكاتب ، وزمان ومكان ، وجيل وقبيل .

وهكذا قضية المنطق ، ودعوى الحقيقة ، وديدن أصحاب ما يجب أن يكون ، وقد عرف عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يحب هذا النوع من الأدب ، ويرغب فيه ، ويثيب أصحابه عليه ، وإذا لم يكن الشعر يحث على فضيلة من الفضائل ، ويُبَغّض فى رذيلة من الرذائل ، نفر منه ، ولوى أذنيه عنه ، وكان يطارد الهجّائين ويتوعدهم ، وينذرهم بالويل والثبور ، إذا لم يكونوا سلما وسلاما على الناس ، وربما كان النبى صلى الله عليه وسلم — كذلك — من أصحاب هذا المذهب فيما كان يستنشده عائشة رضى الله عنها ، وفى قوله « إن أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » .

إلا أن القوم دأبوا على أن ينفروا من « الأدب الدينى » ، كما ينفرون من الدين نفسه ، كأنه رجعية وجمود ، وتأخر وانحطاط ، ولا يعنى بهذا الطابع من الأدب إلا الذين يرتزقون من التواشيح ، يغنون بها فى الأذكار ، أو البردة والهمزية يتبركون بهما عقب الصلوات ، وفى ساعات التجلى ، حيث تطيب الخلوة ، ويحسن الانفراد ، ويلذ للمكدود الوحدة والانقطاع ؛ وعلى ذلك فإنه يجب اطّراح قصائد الكميت بن زيد الأسدى فى آل البيت ، ونبذ ما كان يسميه بعض أسلافنا الأزهريين « فن المديح » من تلك الروائع النبوية التى كانت ذوباً من العاطفة ، وصوباً من الإحساس ، وفيضاً من الشعور ، ونوراً من الإيمان ، والتى بلغ من العناية بدراستها ، والاحتفال بشرحها أن كانوا يعقدون لها الحلق ، ويتخيرون لها الأوقات ، ويهشون للاجتماع لها ، ويفرحون بالأستاذ الذى يجلجل صوته ببيانها والكشف عن غامضها .

وكانت هى البقية الباقية من الأدب فى الأزهر ؛ بل كانت هى المشرق الذى منه تطلع الشمس ، والأفق الذى عنه ينجلى الضياء ، استطاعت أن ترينا فحولا فى البلاغة ، وأساطين فى الشعر ، وجهابذة فى صياغة الألفاظ ، وتنميق الجمل .

والتراجم التى بين أيدينا لأعلام النهضة الفكرية فى العصر الأخير بعد اعتداء التتار ، وسقوط الخلافة ، للذين نهلوا من هذا المعين ، وساروا على هذا الدرب ، ولو ظلت العنايه بهذه القصائد كما كانت ، والاهتمام بها على هذا الوجه ، يضيفها الطلاب إلى « مجموع المتون » على غرار أسلافهم ، وطريقه أشياخهم : لظلوا حملة اللواء ، ولكن فلسفة الجهل ، وغطرسة التخبط ، وعماية الضلال ، وحمى التجديد ، حينما سرت عدواها إلى صفوفهم ، وتغلغلت جراثيمها فى دمائهم ، بغضت إليهم كل قديم ، وشوهت فى نظرهم كل عتيق : فتمردوا على التاريخ ، وتطاولوا على الماضى ، وتجافوا ما يصلهم بالجدود ، وينسبهم إلى الأسلاف ، حتى الأدب مادام من هذا الطراز ، وعلى هذه الوتيرة ، ولا أعلم فيما أعلم سببا لهذا البغض ؛ ودافعا لهذه الكراهية ، يتجاوز تلك المعانى ، مع أن أصدق مثال لهذا الأدب الذى

يتنصلون منه ، ويقطعون أسبابهم عنه ، ويباعدون ما بينهم وبينه ، القرآن ، وهو الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؛ سجد له العرب بعد ما تحدوه فعجزوا ، وعارضوه فلم يستطيعوا ، وجروا فى مضماره فكبوا ، وهم سادة البلاغة ، وملوك اللسن ، ودهاقين المنطق ، وصيارفة القول .

وشوقى وهو إمام المعاصرين ، وسيد المجددين ، لم يسجل اسمه فى الخالدين ، ويعلى شأنه فى السابقين ، أكثر من تلك الناحية فى شعره التى ينتصر فيها للعقيدة ، ويدافع عن الحق ، ويؤيد الواجب .

وإذا صح ما يقوله بعض الناس ، من أن الأدب هو التصوير الجميل للمعانى الرائعة ، فإن فى الدين خلالا كريمة ، وسجايا فاضلة ، ومزايا حميدة ، وسلوكاً نبيلا ، وتشريعاً حكيما ، كثيراً ما نجد فى دقة تصويرها ، وحسن التعبير عنها ما يسمو بالأدب إلى أبعد آفاقه ، وأوسع حدوده ، وأجمل معانيه . . . ولقد كنت منذ حين أبالغ فى إعجابى بقول النابغة يعتذر للنعمان : « فإنك كالليل الذى هو مدركى » حتى تذوقت قول الله جل جلاله « وأحاطت به خطيئته » فأيقنت أن ذلك هو السحر البابلى ، والديباج الخسروانى ، وأن ما عداه فضول ، وقول مفضول ؛ على أن الأجانب الذين ينقلون عنهم ، ويترسمون خطاهم ، يمجدون « أدب الكنيسة » ويحلونه من نفوسهم فى مكان الإعزاز والاحترام ، والقداسة والتعظيم ، ويعتقدون أنه غنى بالخيال ، خصب بالتفكير ، يتدارسونه ويتناقلونه ، ويؤدبون به أبناءهم وبناتهم ، كأنه وحى من السماء يلتفون حوله ، ويجتمعون على مائدته ، فهل يصيخ الناشئون إلى هذا الرجاء ، فيعودوا إلى الامتياح من ذلك النبع الصافى ، والمورد العذب ، تاركين وراء ظهورهم ما يقول الملاحدة من أن الأدب الدينى ، أدب يدعو إلى الجمود ، ويحمل على الرجعية ، ويسوق إلى حصر الجمال فى أضيق صوره ، وأحقر ألوانه ، خصوصاً هؤلاء الذين يعدون أنفسهم للذود عن الدين ، والدفاع عن حوزته ، فإنهم أمس به ، وأحوج إليه ، وأولى من غيرهم أن يحملوا رسالته .

أعلام الأزهر

المنفلوطى

١٨٧٦ — ١٩٢٤ م

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

« السيد مصطفى لطفى » بن « محمد المنفلوطى » ، ولد فى سنة (١٨٧٦ م) بمدينة « منفلوط » ، وإليها ينتسب ، وقد انحدر من أسرة عريضة ، عرفت بالوجاهة والحسب ، وتوارثت القضاء الشرعى ونقابة الصوفية زهاء مائتى عام ، أما أبوه فعربى واضح النسب يمتد إلى « الحسين بن على » رضى الله عنهما ، وأما أمه فهى وثيقة القرابة بأسرة « الجوربجى » التركية الضاربة فى الشرف والمجد .

حفظ القرآن بالمكتب ، ثم اتجه إلى الأزهر فتلقى علومه به ، وكان معروفا بين أقرانه بحدة الذكاء ، وسلامة الذوق ، وصفاء الفكر ، وقد نزع إلى طريقة ارتضاها لنفسه غير الطريقة التى درج عليها أبناء الأزهر ، فكان يطالع الدروس على طريقة يخلص منها الى تحرير الفكرة ، وتحديد الجوهر ، غير مبال بما يعترضه من جدل ونزاع لفظى ، وأكب فى صباه على كتب الأدب يغذى هواه ، ويروى فطرته ، فقد نشأ شغوفا بالأدب مفطورا على التقليب فى آثاره ، والتروى من روائعه ومحاسنه ، ودرس فيما درس طائفة من كتب الطبيعة والحكمة والأخلاق ، وأقبل على الأشعار يحفظها والشوارد يتصيدها ، ونظم الشعر ، وحرر الرسائل .

وذاع صيته بين الناس ، وبين الأزهريين خاصة ، فقربه الإمام المرحوم « الشيخ محمد عبده » ، ووجد فى ظلاله التوجيه النافع ، والهدى الموفق ، وما لبث « المنفلوطى » أن اتسع له صدر الإمام فلازمه وصاحبه ، وتردد على درسه وغشى منزله ،

ودامت هذه الصلة الوثيقة عشر سنين ، كانت « للمنفلوطى » غذاء لروحه ، وتوجيها لفكره ، وتعبيداً لطريق حياته ، وأثمرت صلته بالإمام معرفته بالمرحوم « سعد زغلول باشا » فهش له ، وقدر مواهبه ، وتفطن لما شب عليه من صفاء القريحة ، وسلاسة الأسلوب ، فقربه ورعاه .

وقد بلغ من حب « المنفلوطى » للإمام وتعلقه به أنه انتبذ مكانا قصياً الى أهله « بمنفلوط » حين استأثر الله بالإمام وأظلمت الدنيا فى محياه ، وابتأس حين أوحشت حياته من لقائه .

ثم بدد عزلته النائية التى بكى فيها أستاذه وموجهه « الشيخ محمد عبده » فراسل « المؤيد » برسائله الممتعة التى طالما أتلع الناس إليها أعناقهم ، واستشرفوا للقائها ، وتزاحموا على ورودها .

وقد كانت ترد إليه رسائل من أقاصى البلدان تسأله أن يعالج موضوعا ، أو يجلى حادثا ، أو يعلق على أمر ذى بال ، والناس لمطلعها مشوقون .

وقد تأثر « المنفلوطى » بالشيخ « محمد عبده » فطبع بطابعه ، ونهل من شعوره ، وانصرف منصرفه فى معالجة الشئون وتناول الإصلاح الوطنى والخلقى والاجتماعى .

« ويتجلى تأثره به فى الحملة التى شن غارتها على المفاسد التى دخلت على الإسلام ، وفى دعوته إلى الإصلاح ، تلك الدعوة التى اصطبغت بالصبغة التى نجدها فى كثير من كتابات الشيخ محمد عبده [1] » .

وقد نسب اليه فى أثناء طلبه العلم بالأزهر أنه هجا الخديو السابق بقصيدة نشرتها إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه بالسجن ، وقضى به مدة عقوبته ، ثم شفع له بعض المقربين لدى الخديو فعفا عنه ، ويرى بعض الأدباء أن القصيدة من عمل غيره ونسبت له .

ولما ولى «سعد باشا» نظارة المعارف عينه محرراً عربيا لها ، فأصلح من أسلوب الكتابة بها ، وأشرف على لغة الكتبة وتعهدهم بالرعاية والإرشاد ، حتى إذا

---

(١) الاسلام والتجديد ص ٢٠٦

ما حول « سعد » إلى نظارة الحقانية استصحبه معه لمثل هذا العمل ، فكان له فضل عظيم فى ترقية الكتابة وتقدم لغتها ، وتخلصها من الركة والعجمة والضعف بقدر ما وسعته الجهود ، وبعد عامين فصل من هذا العمل .

ولما انعقد « البرلمان » عين « كاتم سره » ، وكان القدر قد أراد أن تنطفىء شعلته ، فمضى إلى ربه فى العقد الخامس من عمره عام ١٩٢٤ م

وكان رحمه الله عالى النفس ، عزيزاً متوفرا ، يجافى صغائر الأمور ، ولا يتعلق إلا بجلائل الأعمال ، نزاعا إلى الحرية ، عيوفا عن كل ما يدنس صفحته ، كريم الخلق ، طيب السريرة ، فى تواضع جم ، وكرم نفاح .

وقد عاش طول حياته لم يلوث يده بأجر على ما كان يكتبه ، على جلالة شأنه ، ونباهة ذكره ، وما يهيئه من الرفعة وعلو المكانة لمن يحظى بقلمه مؤيداً ومعاضداً .

وقد اجتمعت عليه عداوات ، وأرثت أحقاد ، من طول ما لقيه من الشهرة بأدبه ، وبعد الصيت بقلمه وتألبت عليه الأقلام تنوشه وتنهشه حقدا وموجدة ، وهو ثابت كالطود ، موفور الحــــلم والأناة ، واسع العفو والإغضاء ، فكان كما قال :

إذا ما سفيه نالنى منه نائل ... من الذم لم يحرج بموقفه صدرى
أعود إلى نفسى فإن كان صادقا ... عتبت على نفسى وأصلحت من أمرى
وإلا فما ذنبى إلى الناس أن طغى ... هواها فما ترضى بخير ولا شر

وقد صور المرحوم « أحمد شوقى بك » أمير الشعراء خصومة حساده ، وكلفهم بتتبعه ، وأنصف حلمه وسعة صدره وعفوه عن خصومه اللد ، فقال فى رثائه له :

سكن الأحبة والعدا ، وفرغت من ... حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
كم غارة شنوا عليك دفعتها ... تصل الجهود فكنت خير دفاع
والجهد موت فى الحياة ثماره ... والجهد بعد الموت غير مضاع
فاذا مضى الجيل المراض صدوره ... وأتى السليم جوانب الأضلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعنده ... نقد تنزه عن هوى ونزاع

أدب المنفلوطي :

لقي الأدب « بالمنفلوطي » حياة جديدة ، وتهيأت له بقلمه جدة وروعة ، فأينع وانتعش ، كان رشيق القلم ، عذب البيان ، فصيح التعبير ، مشرق الديباجة ، محكم الرصف ، متين النسج ، وكان مرهف الحس ، دقيق التفطن لمواطن البلاغة ، طروباً للتعبير الفخم ، والتركيب المنسجم ، يحتفل بأسلوبه ، ويجود في صياغته ، « إذا هبطت عليه سجعة فذاك ، وإلا لم يتكلف طلبها ولم يتعمل » [1] .

وإذا جاز أن يكون الأدب العربي المعاصر قبل « المنفلوطي » دائرا على اللفظ ، يغفل الفكرة فلا يتوضاها ، ويغضي عن المعنى فلا ينفذ إلى روائعه ، فإن « المنفلوطي » « كان أحد أولئك الأدباء القلائل ، الذين أدخلوا المعنى والقصد في الإنشاء العربي ، بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضل به الكاتبون عن كل قصد » [2]

وقد حدث عنه المستعرب « أغناطيوس » فيما قاله عن الأدب العربي الحديث ورجاله ، فقال : « امتاز مصطفى لطفي المنفلوطي ، وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً ، بما بذله من الجهود الموفقة ، لابتكار أسلوب جديد شائق ، ويمكننا أن نقول : إنه نجح نجاحاً كبيرا عن جدارة واستحقاق » [3] .

وكان « المنفلوطي » صاحب طريقة في الأدب ، وذا مكان ملحوظ فيه ، ولقد بهر الناس أدبه ، وفتنهم روعته وجذبتهم طريقته السهلة المشرقة المتدفقة ، حتى كان محفوظ التلاميذ ، مرقوب المتأدبين ، وكان بحيث لو لم يذكر « المنفلوطي » مع ما يكتبه ، لنمّ أسلوبه عنه ، وهدى إشراقه إليه .

ومن أهم ما يسّر له هذه المكانة ، بعد روائع أسلوبه الذاتية ، بروز شخصيته فيما يكتب ويصور ، حتى قال له المرحوم « سعد زغلول باشا » : « إني لأرى لك في كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيرا في أقلام الكاتبين » .

وكان رفيع الأدب في كل ما يكتب ، فلم يسف في مقال ، ولم يتدل في موضوع ، بل كان « الكاتب الفريد الذي يحافظ على أسلوبه في جميع حالاته وشئونه ، سواء في ذلك المعاني المطروقة لكتاب العربية الأولى ، أو التي لم

---

(١) المفصل ح ١ ص ٣٨٨ (٢) مراجعات العقاد ص ٢٧٠

(٣) ترجم الأستاذ أمين حسونة النواوي هذا البحث في مجلة الرسالة ص ٨٦ ج ٢ ، السنة الرابعة

يكتبوا عنها شيئاً ، ولم يرسموا لها أسلوباً ، مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته ؛ لا عارية من عواريه ، [١] .

ولم يكن مفتوناً بالصنعة ، متهافتاً على تجويد الأسلوب ، بل كان طبعه يغلب صناعته ، ولم تكن الصنعة لتخلق أديباً ، كالمنفلوطى ، فى نباهة شأنه ، وروعة أدبه ، ولو رجحت الصنعة فى أدبه لضل فى ثناياها الغرض ، وغمرت الفكرة ، وعزّ عليك أن تجد له هذه الأفكار الحية ، وتلك الموضوعات الاجتماعية التى يتهم فيها وينجد ، والتى عبر فيها عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، ومسارح الفكر والشعور ، وصور بها الآلام والأحزان صورة يرتسم فيها الأسى ، حتى كان من أشد الأدباء تأثراً بالأدب الغربى ، واصطباغا بصبغته .

وأول مابهر الناس من أدبه ، وفتنهم من جمال أسلوبه ، مانشره من «نظراته» فى صحيفة «المؤيد» سنة (١٩٠٨م) فقد اهتزت لها القلوب والأسماع ، «ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، ومالا يزول فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليها إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب[٢] » .

هذه «النظرات» التى كان الأدباء يتشوفون إليها «ويعدون لها أيام الأسبوع يوما بعد يوم ، ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع ؛ والظامىء فى المهمه القفر ، من الغيث الهامع[٣] » .

امتازت هذه المقالات بطابعها الأنيق ، ومعالجتها شئوناً مختلفة بأسلوب رشيق «جمع بين الأدب العالى وإرضاء الذوق ، لأنها كتبت بلغة موسيقية صافية ، فكانت بمثابة الوحى يهبط على جمهور تعود قراءة أدب الكلفة والتصنع ، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً بين قراء العربية من بغداد إلى مراكش وهذا مما يدل على أنهم ألفوا فيها شيئاً قيما ، كما كانت تمثل الشعور الذى تردد صداه فى العالم الإسلامى أبلغ تمثيل[٤] » .

---

(١) أشهر مشاهير أدباء الشرق للسندوبى ج ٢ ص ١٨٦

(٢) أحمد حسن الزيات : من مقال له فى «الرسالة» السنة الخامسة العدد ٢١٠

(٣) أشهر مشاهير أدباء الشرق للسندوبى ج ٢ ص ١٨١

(٤) من مقال لمستعرب انجليزى فى مجلة «أسلاميك كلتشر»

كان « المنفلوطى » رحمه الله رحيم الفؤاد ، رقيق العاطفة ، يهتز لكل مأساة ، ويبتئس لكل كارثة ، وتسيل عبراته على ما تقع عليه العين من شقوة أو بأساء ، ومن ثم كتب فى البؤس والمأساة فبلغ مالم يبلغه أحد ، وصور ما يختلج فى الأفئدة من هموم وأحزان ، بقلم باك ، وبراعة دامية وقال فيه عارفوه ومن صاحبوه : إنه لم يكتب إلا عن فيض شعوره وحسه ، وإن كتاباته صورة حقيقية لنفسه .

المنفلوطى القصصى :

ثم إن « المنفلوطى » تناول القصة فمهد لها فى الأدب العربى طريقا ، وفسح لها فى فنونه مكانا ، وبلغ بها منزلة سامقة ، وذلك لأنه « كان يستعين بإخوانه ممن يعرف لغة أجنبية فيستوحيه معانى القصة فإذا ما استعرت فى نفسه صاغها بعبارته الساحرة ، وزانها بقالبه الجميل [١] » .

ولم يكن يتقيد إذ ذاك بعبارات المؤلف ومعانيه .

ولهذه الطريقة حسنات أهمها أنها تمكن الناقل من إظهار ما لديه من شخصية ومقدرة وعبقرية ؛ ولكنها من الجهة الأخرى « تخطىء الغرض الأصلى إذا كان الغرض نقل الأثر الغربى الى اللغة العربية » [٢] فالقصص التى ينقلها المنفلوطى بهذه المثابة قد تبعد عن الأصل فى ترجمتها ، أما إذا اعتبرت من وضعه على أنه استعان بواضعها الغربى فهى من جهده الذى يفاخر به .

وأيا ما كان فقد كانت القصص والروايات التى تناولها « المنفلوطى » مرآة تنطبع عليها العيوب والمآسى الخلقية والاجتماعية بأسلوب مؤثر وعبارة فصيحة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نقول : إن « المنفلوطى » فى عصره كان أبرع القصاص وأنبغ الروائيين ، فإنه لا ريب من خير من عبر هذه الطريق ، ومن طلائع الذين أودعوها خيال الغرب ، وذلك لا يعفيه من ضعف الأداة والتحريف فى التعبير أحيانا . [يتبع]

(١) مذكرة المرحوم الأستاذ محمود مصطفى فى الأدب الأندلسى والمعاصر وما بينهما ص ٣٤٩ .

(٢) مجلة الهلال العدد الصادر فى ١٢ من شعبان سنة ١٣٣٨ هـ أول مايو سنة ١٩٢٠ م .

اللسان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه
ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه
حديث شريف

وسيلة الحكم على إنسان وتعرف ماينطوى عليه من خير أو شر، وما يحوى من صلاح أو فساد إنما تتأتى من منطقه وتهيأ من لسانه.

فقوة القلب أو ضعفه، وسداد الرأى أو خطله، وعمق التفكير أو ضحولته، ووثوق العزم أو تفككه، وصدق الإيمان أو كذبه: كل ذلك مخبوء وراء أحجبة لا يهتكها إلا اللسان، ولا يكشف سرها ويذيع خبرها سوى المنطق والبيان.

فاللسان أداة التعبير عن النفس، وترجمان خيرها وشرها وتقواها وفجورها، وهداها وضلالها، وصلاحها وفسادها؛ لذلك كان حسن اللسان عنوان قوة الإيمان وطهارة الجنان، ورقة الوجدان، وكان اعتدال المنطق وصدقه وإخلاصه دليل صفاء القلب، ونقاء الضمير وحسن التفكير.

ولا يتعقد المنطق إلا من تعقد النفس وظلمة القلب وفساد النية وخبث الطوية، ولا يسوء اللسان إلا من سوء الخلق واعتلال الطبع وطغيان الفساد الداخلى على ظاهر الأعضاء.

عناية الإسلام بتقويم اللسان وتهذيبه: هى عنايته بحفظ كيان الإنسان وإسعاده وإصلاح دنياه وآخرته؛ فالمرء بأصغرية قلبه ولسانه؛ إذا صلح القلب صلح الجسم كله، وإذا استقام اللسان استقامت أمـــور الحياة جميعا.

ولا يمكن أن تحسن علاقة المرء بأخيه، ولا أن يعظم ارتباطه بالناس إلا حين يكفيهم شر قوله، وسوء خلقه وزلات لسانه، ولا تتولد الأحقاد والأضغان بين

الناس ، ولا تشب العداوات وتتأصل الخصومات بينهم إلا حين يفقدون السيطرة على ألسنتهم ، والقدرة على أعصابهم ، ولا يملكون ضبط ما يصدر عنهم من قول ، أو يتحدر منهم من حديث ، ولقد صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » .

فالكلمة ينطق بها الإنسان من غير وعى ولا تدبر ؛ ربما أكسبته شقاء وأورثته تعبا وعناء ، وجرت عليه الأحقاد والأضغان ، وخلقت له فى نفوس الناس صورة مجللة بالبغض والكراهة ، وقديما قالوا : إن البلاء موكل بالمنطق .

وهل يثير الفتن ، ويهيج العدوات بين الناس إلا حصائد اللسان وزلاته ، وسوء المنطق وآفاته ، فكم من كلمة بدرت من المرء عفوا ، فإذا بها تولد العداوات الفاجرة ، والخصومات الغادرة ، والأحقاد الثائرة ، وتشب المهاترات وتثير المنازعات. ولو خلصت من جفوة الخطاب وسلمت من خشونة القول ؛ لما أثارت هذه الفتن الغاشمة ، وبعثت تلك الثورات الطاغية الظالمة .

ومن هنا نظر الإسلام إلى الذى ساء لسانه نظرة مزرية مهينة ، وعده من أهل النار ، وإن صلى وصام وتعبد وتهجد ، وقام قانتا بالعشى والأسحار « قيل : يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل ، وتصوم النهار ولكنها سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها. فقال صلى الله عليه وسلم : لا خير فيها ، هى من أهل النار » .

أيفهم هؤلاء الذين لا يزنون منطقا يصدر عنهم بميزان الحكمة والعقل ، ولا يجملون حديثا يصدر منهم بحلية الأدب وجمال الصدق ، أن منطق الدين يمقتهم أشد المقت ، وأوضاع الحياة ، ومجامع الناس وحساب القلوب ، وخلجات النفوس تزدريهم أقبح ازدراء . والرجل الذى يخف عليه لسانه ويفلت من يده زمامه ؛ فيخوض فى كل عرض ، ويلغ فى كل حرمة ، وينشر على الملأ ما خفى من أمور الناس ، وما استكن من أحوالهم ، لا بد أن ينضب ما عنده من حياء ، وينفد ما فيه من إنسانية ، ويفقد ما لديه من كرامة ، ويتولد فى نفسه استخفاف بالخلق واستهتار بالمجتمع ، وثورة على الأخلاق والآداب ؛ فلا يتقيد بوعد ، ولا يتمسك بعهد ، ولا يحفل بما يقذفه لسانه من كلام ، يقول ويؤكد ، ويعزم ويصمم ، ويعلن بلسانه حتى يظن الناس أن هذا القول الموثق لا ينقض ، وذلك الكلام الجازم لا يحل ؛ حتى إذا حان وقت الجد وآن أوان العمل ، رأينا كيف تستحيل النار المشتعلة

إلى رماد ، وينقلب الحماس المندفع إلى فتور وتراجع ، ويتغير الأقدام السريع إلى إدبار شنيع ونكوص ذريع ، وذهبنا نتحسس قوله الجازم ونرى أين مكانه ؛ فإذا هو أصوات جوفاء ذهبت مع الريح فى كل مذهب ، ولم يبق لها حتى فى نفسه مكان ولا أثر .

كل ذلك من ضعف الإيمان ، وتحلل الأخلاق وهوان الدين على النفوس ، ونزول قيم الرجولة نزولا خسيسا .

والله تعالى مقت هذه الخلة ونعى على أصحابها ، وأزرى بصنيعهم فقال جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وما شوه جمال الحياة ، وكدر صفو العلائق ، ومزق الروابط وهتك أواصر المودة ، وقطع وشائج الألفة والإخاء ، إلا هؤلاء الذين تتملكهم شهواتهم ، وتستبد بهم نزواتهم ، وتطغى عليهم فلتات ألسنتهم وشرور منطقهم : فترى قولهم دائما يسبق تفكيرهم ، وخطوهم يتقدم تقديرهم ، وهذرهم أكثر من جدهم ، وخطأهم أضعاف إصابتهم ، ومع ذلك فهم سادرون فى غيهم ، متمادون فى عمايتهم لا يدعون أديما إلا مزقوه ، ولا عرضا إلا شوهوه ، ولا حرمة إلا هتكوها دون تحرج ولا رقابة لضمير ! ولو أصاب هؤلاء حظا من الإدراك ونصيبا من التعقل ؛ لعلموا أنهم أبعد الناس عن رحمة رب العالمين ، وأنآهم عن محبة خاتم النبيين الذى يقول صلى الله عليه وسلم : « إلا أخبركم بأبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة : الثرثارون المتفيهقون »

وهذا عقبة بن عامر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجاة ؛ فيجيبه بكلمة تبدل ظلام الحياة نوراً وحكمة ؛ إذ يقول : «أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك » وفى الحديث الشريف : إن لسان المؤمن وراء قلبه ، فإذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ؛ فإذا هم بشىء أمضاه بلسانه ، ولم يتدبره بقلبه . هناك أنماط أخرى من الناس مرنوا على نوع من المنطق معسول ، وتعودوا على لون من الكلام خادع ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، حديثهم جذاب ، وكلامهم سائغ خلاب ، وظاهرهم لامع براق ، ووراء ذلك قلوب قاسية لا تعرف الخشية ،

ولا المراقبة ، ونفوس عاتية لا تداخلها الرحمة ونيات خبيثة ، ضربت عليها الظلمة ، وصاحبها المكر والخداع والختل ، ومازجها التعقد والالتواء « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

وما أفسد الأوضاع وبدل النظام فوضى ، والعدل جوراً ، وأحل الخصام محل السلام ، وقتل الكفاية إلا ما تعتاده بعض الألسنة من ألوان الملق ، وأنواع الرياء ، وقدرتها على إضمار البغض وإظهار الحب ، ونسج حلل الثناء مما يخترعه الوهم ويزينه الخيال ، ويغتر ضعاف العقول بما يسمعون ، فيظنون به الصدق ، ويتوهمون فيه الإخلاص ؛ حتى تنكشف لهم الأيام وتسفر الأحداث عما كان يستقر في أطواء النفوس من خداع ، ويكمن في أعماق القلوب من نفاق ورياء .

ومن الناس من صغرت همتهم ، وضعفت عزيمتهم ، وقعدت بهم الأسباب ، وتخلفت عنهم القدرة ؛ فتعلقوا بحبال رئيس ، أوحطوا رحالهم على جاه عظيم ، ثم حاولوا بعد ذلك أن يتملقوا رغبته ويسايروا هواه ، فتراهم دائماً أسرع إلى إشارته وأقرب إلى نظرته ، وأشد تطوعا بالوقيعة ، وأكثر تبرعا بالدسيسة ، يزينون القبيح ويحسنون الكريه ، ويقبحون كل نافع ، ويحقرون كل عظيم ، ويصغرون كل جليل . لا يقدعهم خلق ولا يزعهم دين ، ولا يكفهم عن هذا العبث والصغار ضمير ، وكم كابد الناس من هذه المآسي ، وقاسوا من تلك المخازي ، وشربوا من مرها ما آلم النفوس وأدمى القلوب ؛ مع أنه لا يحمل إنسان هذا الخلق ، ولا يتسم أحد بهذه الخلائق إلا شانه الله ، وأظهر شأنه وفضحه بين الناس ، وجعله بينهم عبرة ومثلة ، وإن طال الأمد بغشه وخداعه .

ألا ليت شعري هل يفهم هؤلاء الخادعون الغاشون أنهم يسيئون إلى أنفسهم ، وإلى الناس جميعاً أشنع الإساءة ؟ وألا يعلمون أن اللسان إذا اعتاد السوء ، وألف المنكر ، ومرن على الإباحة والتحلل ؛ اندفع في كل تيار وجرى في كل مجال ، وألف أشد الألفة أن يستغل كل سر مكنون ، وينشر كل خبر مدفون ؛ بل أصبح فضيحة متنقلة ، يكشف العورات ويذيع السوءات ، ويبتكر عن الناس من المساوىء ما يجعله مادة للحديث ، وأداة للهو والتسلية من غير إبقاء على دين ولا احترام لخلق ، ورحم

الله أبا بكر الصديق ورضى عنه ؛ فإنه مع شدة يقينه وقوة إيمانه الذى لو وزن بإيمان الأمة لرجحه ، كان يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد . وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم : معلم الأمة ونبى الرحمة يقول : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » ، وكان يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه » .

إن المؤمن سمح النفس ، صادق الحديث ، مهذب الكلام ، عذب اللسان ليس بفحاش ولا نمام ؛ يقول بعد أن يفكر وينطق بعد أن يتدبر ، لا يشارك فى مالا يعنيه ، ولا يدخل فى مالا يهمه ؛ فإذا حسن إيمان العبد حسن لسانه ، وتهذب خلقه ، ولان منطقه ، وطالع الناس بما يحبه له الإسلام من صدق القول ، وعفة المنطق ولين الكلام . نسأل الله العصمة من أغلاط اللسان والسلامة من آفات الكلام .

قريش

قريش هى القبيلة العربية الماجدة التى اختار الله أن يجعل منها خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم ، قال الجاحظ إمام البلاغة يصفها :

قد علم الناس كيف كان كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحبيرها ؛ وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحلم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حُب المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتاليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدرة بعد غدره ، وهل غفلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره ؟

أطياف من الأندلس :

الطبيعة في شعر ابن زيدون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

لا شك فى أن الشعراء الأندلسيين كانوا أفصح الألسنة التى هتفت بالطبيعة ، وأعذب الأوتار التى رجعت عن شدوها ، وأشجى البلابل التى شدت بمفاتنها ومجاليها ، وتغنت على رباها ومغانيها . ولا بدع فالأندلس عروس البلاد ، وفتنة الوجود ، وأغنية الزمان . « طبيعة ترسل النسمات أنفاساً موسيقية تؤخذ شعراً ، وتلفظ ألحاناً » . طبيعة ، هى الشعر فلو لم تجد من تلهمه النطق بها لكانت أفصح من الشعراء . فنى رباها المشرفة ، ووديانها المنبسطة ، وأنهارها الدافقة ، ومغانيها الباسمة ، وخمائلها الجميلة ، وأدواحها الظليلة ، وفى رفيف المروج كالأهداب على عيونها العذاب ، والتفاف أنهارها كالأساور على معاصم الهضاب ، فى كل ذلك ، وفى بعض ذلك ما يفتح مغالق النفس ، ويوقظ غوافى الحس ، ويلهم الشعر ، ويحلق بالخيال .

بيد أن شعراء الطبيعة فى الأندلس وغيرها يختلفون فى إحساسهم بها ، ويتباينون فى تصورهم لها ، وتصويرهم لمباهجها ومفاتنها ، وليس كل شاد بالطبيعة خليقاً أن يعد من شعرائها ، ومن ثم قل فى الشعراء من هو جدير بلقب « شاعر الطبيعة » على كثرة الشعراء الذين تغنوا بها . فنحن نقرأ قول ابن سهل الإسرائيلى :

أنظر إلى لون الأصيل كأنه ... لا شك، لون مودع لفراق

وقوله :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ... والطل ينثر فى رباها جوهرا
هاجت، فخلت الزهر كافورا بها ... وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
والنهر ما بين الرياض تخاله ... سيفا تعلق فى نجاد أخضرا

ونقرأ قول ابن عمار :

والروض كالحسنا كساه زهره ... وشيا، وقلده نداه جوهرا

وقول ابن خفاجة :

وأراكة ضربت سماء فوقنا ... تندى وأفلاك الكئوس تدار
وكأنها وكأن جدول مائها ... حسناء شد بخصرها زنار

فنجد كلا منهم قد فتن بمظاهر الطبيعة، وأخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها، وهو لا يعدو أن يصف من الألوان والزراكش ما قد يجد مثله فى ألوان الحلى، ونقوش الطنافس والجدران ؛ وكأنه ينظر إلى دمية فاتنة يروقه وجهها المشرق وحسنها المفاض، ولا يفتش عما وراء ذلك من طوية وإحساس، ونحن نريد أن نتجاوز هذا الجمال الحسى، وأن نفتش عن سر آخر فى الطبيعة وراء ألوانها الخرس ونقوشها الصم، نريد أن نتجاوز تشبيه اللون باللون، والطعم بالطعم، والرائحة بالرائحة، وأن نخلق فى الطبيعة الحياة، ونمنحها الحس والشعور حتى تخاطبنا كما نخاطبها، وتشعر بنا كما نشعر بها، وتعطف علينا كما نعطف عليها.

ولقد نجد من بين الشعراء من يمنحها هذه الحياة وذلك الشعور، كما يقول ابن سهل :

والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد شمرت ذيل الوداع لتنهضا

فيعطى الشمس حياة الإنسان، حتى إنها لتنظر وتشعر بالوداع، فتشمر ذيلها للنهوض، وكما يقول ابن خفاجة فى زهرة :

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا ... عليها حلى حمرا وأردية خضرا

أو كما يقول :

والفجر ينظر من وراء غمامة   عن مقلة كحلت بها زرقاء
والليل مشمط الذوائب كبرة   خرف يدب على عصا الجوزاء .

ولكن هذه الحياة وإن كانت خطوة فى سبيل السمو الذى نبتغيه ، ليست كل شىء . جميل أن نعد تشبيه حمرة الورد بالخد ، والزهر بالكافور ، والنهر المتعطف بالسوار الجامد ، إلى هذه الحياة التى تدب فى الشمس والفجر والليل ، ولكن لماذا لا تشعر الطبيعة بنا وقد رزقت هذه الحياة كما شعرنا نحن بها ؟ هذه هى الخطوة الأخيرة التى نهدف إليها .

إن ابن خفاجة ، وإن كان قد تخصص فى الطبيعة ، ووقف عليها نفسه من دون شعراء عصره ، لم يخط هـذه الخطوة ، فقد كانت نظراته تقود عقله إلى مظاهر الطبيعة كما يقولون ، وكانت هـــذه المظاهر تروح وتغدو بين نظره وعقله لا تتجاوزهما ، فكل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل فى جمال الالوان ، وتناسق الأشياء . أما نفسه فما كانت تنفعل بشىء من هـذه المناظر أو تتفاعل معه ، وليس أدل على هـذا من أنه كان ينظر الى الطبيعة من جانب واحد ، هو جانب البهجة والسرور ، فجاء شعره كله ضاحكا مغرقاً فى الضحك ، مرحا موغلا فى المرح .

ولقد يقال إنه صورة لحياته النفسية المملوءة بالهدوء والسرور والإعجاب بالجمال ، فنقول : هل سلمت حياته النفسية على الدوام مما يعلق بالنفوس عادة من الحب والبغض والحزن والألم ؟ ثم يبقى بعد هـذا أنه لم يتفاعل مع الطبيعة على الصورة التى نريدها ، فهى لم تفرح لفرحه ، ولم تساجله البهجة والإعجاب .

أما الطبيعة التى تُسَحب وتُنَاجى ، ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها ، بما فيها من حياة وإحساس ، ونفس تخف إلى نفس ، تساجلها العطف ، وتجاذبها المودة ، فهى الطبيعة عند ابن زيدون ، ذلك الشاعر الأندلسى الذى امتزج بها كل الامتزاج ، بعد أن نفث فيها الحياة والشعور ، فأجابته وأجابها ، وأخذ منها وأخذت منه ، وعطف عليها وعطفت عليه ، حتى كانت مظاهرها مسخرة لهواه وحبه :

الهـــوى فى طلوع تلك النجوم والمنى فى هبـــوب ذاك النسيم

ومفسرة لآلامه ومشاعره :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبـــا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيـــا كان يحيينا .

ويشتد امتزاجهما حتى يعبر عنها وتعبر عنه ، ويلبسها وتلبسه ، وتستقر معانيها فى نفسه كما تستقر معانيه فى نفسها ، فيقول :

أنا غرسٌ فى ثرى العلياء لو أبطأت سقياك عنه لذبل
جفانٌ هو الليل ادلهمّ ظلامه فلا كوكب للعذر فى أفقه يسرى
حمائم شكوى صبّحتك هوادلاً تناديك من أفنان آدابى الهدل

فتجاوبه هى الأخرى وتستعير منه ، فيكون اعتلال النسيم رقة لحاله ، ويجول رقراق الندى فى أعين الزهر رثاء له :

إنى ذكرتك بالزهـــراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنما رق لى فاعتلّ إشفاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال النـــدى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بى ، فجال الدمع رقراقا .

وكان كل شىء فى الطبيعة يذكره بليلاه : البرق بثناياها ، والقمر بمحياها ، وشدو الحمائم برنين عقدها :

وإنى ليستهوينى البرق صبوة الى برق ثغر، إن بدا كاد يخطف
وتذكرنى العقدَ المرنّ جمانه مرنّاتُ وُرقٍ فى ذرا الأيك تهتف.

وهذه صورة رائعة ترينا الحياة فى الطبيعة كما نراها فى الانسان:

بدتْ فى لِداتٍ كزهر النجوم حسان التحلى ملاح العطل
مشين يهادين زهر الربا بيانع زهر الصبا المقتبل
فمن قضب تنثنى بريح ومن قضب تنثنى بدلّ
ومن زهرات تندى بمسك ومن زهرات تنـــدى بطل .

ولولا هذا النسب الوثيق وذلك التجاوب في الاحساس بينها وبينه ، ما راح يعتب عليها في سكوتها على محنته ، وينعى عليها لأنها لم ترث حظه وتندب جاهه ومنصبه :

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليـــل مأتما لتندب فى الآفاق ما ضاع من نثلى
ولو أنصفتنى وهى أشكال همتى لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى .

وكان يرى فيمن يحب ما يراه فى الطبيعة من أفانين الوشى والزهر :

ياروضةً طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حيـــاة تملينا بزهرتها مُنًى ضروباً ولذات أفانينا

ويمثّل الطبيعة يجملها الحب كما يقول فى ورقة آس :

ورامشة يشفى العليل نسيمها مضمخة الأنفاس طيبة النشر
أشار بها نحوى بنان منعّم لأغيد مكحول المدامع بالسحر
سرت نضرة من عهدها فى غصونها وعُلّت بمسك من شمائله الزهر .

ويمثّل الحب تجمله الطبيعة وترعاه :

أين أيامنا وأين ليـــال كرياض لبسن أفواف زهر
حين نغدو إلى جداول زرق يتغلغلن فى حـــدائق خضر
فى هضاب مجلوة الحسن حمر وبواد مصقولة النبت عُفْر .

وقد ظفرت قرطبة من هـذا التمثيل بأوفى نصيب ، حيث صور جناتها ومعاهدها وتربها ورياحها تصويراً تمثله بالعين والنفس معا :

نهـارك وضاح وليلك ضحيان وتربك مصبوح وغصنك نشوان
وأرضك تكسى حين جوك عريان ورياك روح للنفوس وريحان
وحسب الأمانى ظلك المتفيأ

وكم مشهد عنـد العقيق وجسره قعدنا على حمر النبات وصفره
وظبى يسقّينا سلافة خمـــره حكى جسدى فى السقم رقة خصره .

وما كان فى هـذا الوصف وأمثاله مفتوناً فقط بالألوان ، يؤلف بينها وبين أشتات الحسن دون أن يكون لذلك صلة بحسه ونفسه ، وإنما تناولها على أنها

مظاهر لجمال الحب فى ظلال الطبيعة ، أو لجمال الطبيعة فى ظلال الحب ، ولذلك لا يذكر هذه المظاهر الحسية بألوانها وزراكشها ، إلا فى معرض الذكرى والحنين لعهد مضى وزمان تقدم ؛ فبين هذه المظاهر ونفسه عهد وثيق ، وسبب مكين ، وهذه اليقظة الحسية ، تصاحبها يقظة فى الشعور الباطنى ، تسرى به فى كل مسرى .

وإنك لتحس هذه الصلة بين نفسه والطبيعة ، فى أنه يتمثل ربيعها فى نفسه ، وإن لم تقع عليه عينه ، فليس الربيع ما تبصره العين وإن بدا ، ولكن ما تحسه النفس وإن ولى ؛ وليس الربيع عنده فترة من الزمن ، أو ظواهر من الوشى والألوان ، وإنما ينفذ إلى صميمه ولبابه ، الذى لا يقاس بالأيام والفصول ، والذى تستشعره النفس ، وتتفتح له بأزاهير المنى والنشوة :

أدرها فقد حسن المجلس   وقد آن أن تترع الأكؤس
ولا بأس إن كان ولى الربيع   إذا لم تجد فقده الأنفس .

وهكذا فتنت الطبيعة ابن زيدون واستولت على حسه ، واستبدت بكل نفثة من نفثاته ، وخاطر من خواطره ، حتى اصطبغ بها كل فن من فنون شعره ، كما يقول فى المدح :

أغر إذا شمنا سحائب جوده   تهلل وجه واستهلت أنامل
لديه رياض للسجايا أنيقة   تغلغل فيها للعطايا جداول

وكما يقول فى الرثاء :

وعاهد ذاك القبر عهد غمامة   إذا استعبرت فى تربة ابتسم الزهر .

وكأنه فى هذا وأمثاله لتوثق الصلة بينه وبين الطبيعة يريد أن يعقد هذه الصلة دائماً بينها وبين الناس كما عقدها بينها وبين نفسه .

هذا هو ابن زيدون فى الطبيعة وهذه هى الطبيعة فى نفس ابن زيدون . ألا تشعر بأنها منحته أكثر مما منحت غيره ، وأنها كشفت له عن سرائرها وأسرارها حتى تجلت له على حقيقتها ؟

إنه لكذلك وإنه لخليق من أجل هذا بلقب « شاعر الطبيعة » ؟

الإسلام في وحدته وتعاليمه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أحمد جميلة
المدرس بكلية اللغة العربية

الإسلام الحق عقيدة وعمل ، والعقيدة إذعان وقبول ، والعمل مظهر ظاهري ترتسم فيه العقيدة ويتحقق به الامتثال ، وهما متلازمان روح وجسم ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ما دامت ترجى حياته ويطلب بقاؤه . والنظر في الكون أول مبادىء الوصول متى صح النظر ، وتابعته الفكر والعبر « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » .

ونفسك التي بين جنبيك من أعقد ما يرنو إليه بصرك : مخفيها مجهول وظاهرها مستور ، وكلما أمعنت فيها ببصرك ، وتأملتها ببصيرتك وقفت منها على سر خفي ، ينتقل بك إلى نور جلي ، حتى تصل إلى ربك العلي « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

ومن نظر عرف ، ومن عرف تيقن ، ومن تيقن آمن ، ومن آمن اهتدى ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه . ومن سلك سبيل الهداية فاض الخير على جوانبه ، فيتشكل ظاهره بمظاهر الحق ، وتتقيد جوارحه بتكاليف رب العالمين . لا عصيان ولا اختراع ولا مخالفة ولا ابتداع ، فأمر الحلال والحرام بين ، وإذا ما اشتبه شيء رجعنا فيه إلى الله في كتابه ، وإلى رسوله في سنته : ذلك خير وأحسن تأويلا .

ومن يمعن النظر في الوجود ، ويتأمله بقلب بصير ، يرى في الإسلام ديناً يجلي الظلمات ، ويقي العثرات ويدفع الشبهات ، وينشر الحق ويهدي إلى سواء السبيل ، لا إفراط ولا تفريط ولا ظاهر منقطعا عن باطن ، ولا باطن منفرداً عن ظاهر ،

وإنما هو دين واحد لرب واحد ، نزل على نبى واحد ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المؤمنين بلسان عربى مبين .

فدعوة الإسلام ناصعة بينة ، وتعاليمه واضحة خالدة ، فهو نور الله القوى بعث به رسوله الأمين ، ليبدد غياهب الجهل ، ويكشف عن سوءات الظلم ، ويمحو آثام الشرك ، ويحقق للإنسان ما هو جدير به من كمال ، فيحرر رقبته من ربقة العبودية الزائفة ، ويظهر كرامته بإخلاص الدين لمن خلقه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

لقد نزلت بالإنسان وساوسه وأوهامه إلى الدرك الأسفل ؛ فتردى فى الهاوية واتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، فأصمه عن سماع الحق وأعمى بصره عن رؤية آياته ، فنحت الحجر بيده وعبده ، وأوقد النار وقصدها بدعائه ، وبنى بيده ما يطوف به ، ويقيم فيه يترقب قضاء الحوائج ، وانفراج الصعاب أو يضلل به خلق الله ؛ فيبتز أموالهم بغير حق ملغيا عقله مذلا إنسانيته ، مهدرا فطرته متجاوزا حدوده ، لم يتأدب مع مبدعه وخالقه « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » . فهذا الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله ، أو هذا النور الذى حمل مشعله النبى العربى الذى حاول ويحاول كثير ممن صارحوه العداء وهم أهون عليه ، أو ممن شايعوه نهارا وكفروا به ليلا وهم أشد قسوة وأكبر خطرا — أن يغضوا من شأنه ويقللوا من قيمته بما ينوعون من أساليب ، ويفيضون من أحاديث ، « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

بلغ الرسول دعوته كما تلقاها عن ربه لا مبتدعا ولا مختلقا ، « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

بلغنا الصادق الحق عن الحق بلاغا عاما لا انتقار فيه ولا اختصاص « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » فدعوته عامة ، ورسالته عامة ، وكل مكلف بلغته عليه أن يتعرفها من مظانها متى استطاع السبيل إلى ذلك ، لأنه مدعو بها ومأخوذ فيها ومحاسب عليها .

ففاطمة بنت محمد سيد خلق الله، وأفضل خلق الله على جلة قدرها، وقوة إيمانها ومنزلتها. يقول لها أبوها: «لا أغنى عنك من الله شيئا»، ويقول فى جموع حاشدة من البدو والحضر والأحرار والعبيد، والرؤساء والمرءوسين والأنصار المهاجرين، ـ والعصبية الجامحة لازالت حرارتها فى قلوب القوم ـ: «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» كلمة هدت من كبريائهم فبددت الظنون، وقضت على الأوهام وقطعت الشكوك، ووحدت الأمر وأجهزت على الأباطيل والخرافات، وردت أمر العباد إلى بارئها. فلله الدين الخالص وفى كتابه دستور الأمة، وفى سنة نبيه بيان لمراميه وشرح لمعانيه. إنا نحن نزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم.

فالإسلام المنجى من عذاب الله، توحيد لا يشوبه شرك لا فى مظهره ولا فى مخبره، وإيمان بما أنزل الله من كتاب وأرسل من رسول، وتصديق بالملائكة والبعث، وبما وراء ذلك من اتباع للأمر واجتناب للنهى.

وقد وحد الإسلام فى خطابة بين المكلفين، فلا سيد ولا مسود، ولا تابع ولا متبوع، وليس لكائن من كان أن يدعى لنفسه منزلة دينية من ربه، تمكنه من التصرف فى عباد الله بغير ما أنزل الله، فيحل لهم أو يحرم، أو يجلب النفع أو يدفع أو ينزل السوء أو يكشف «ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا».

وليس فى الإسلام أسرار ثورتها الآباء للأبناء، والشيوخ للأتباع، وإنما سر الإسلام يواتيك متى تابعت نبيك، وأخلصت قصدك، وطهرت قلبك، وراقبت ربك، فيتجلى عليك ويتولاك، وهو يتولى الصالحين. فالدين كله لله ومبلغه خاتم رسل الله، والناس أمام الدعوة سواسية، لاقريب ولا بعيد، ولا عالم ولا جاهل، والتفاوت إنما هو فى فهم ما اشتبه من الأمور، وأشكل من الحوادث وهذه وظيفة العلماء من هذه الأمة، أما يعلم ضرورة من الدين: كتوحيد الخالق وتصديق الرسل، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وتحريم الربا والزنا والقمار والغيبه، وقطع الرحم وايذاء الجار إلى غير ذلك مما يتساوى المسلمون

فى معرفته — فهم مخاطبون بالدعوة إليه ومطالبون بالمحافظة عليه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر».

فالدعوة لهذه الأمور عامة من الناس وإلى الناس، فلا يعرف الإسلام جماعة تحتكر تعاليمه أو تحتبس قوانينه، أو تتحكم فى أصوله، فتبدل وتغير طبقا لأهوائها وشهواتها، وإنما يعرف الإسلام «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا».

هذه تعاليم الإسلام نقية طاهرة بعيدة عن المدنسات والمحطمات، كل ما فيها بر وإصلاح، واستقامة وإنصاف، قد حفظ بما شرع من أصول تثبت دعائم الحق، وتزلزل أقدام الباطل للفرد كيانه وللمجتمع وجوده.

وها هو ذا الإسلام يجمعنا تحت لواء واحد، ويدعونا إلى مقصد واحد، لا يعترف بفروق جنسيه أو حدود أقليمية، وإنما جعل أرض المسلمين وطناً للمسلمين، يذبون عنها كل مغتصب، ويصدون عنها كل طامع.

وها هو ذا الإسلام يناهض من أعداء عديدين، يقفون له بالمرصاد، ويختلفون فيما بينهم على كل شىء، ويتفقون على الكيد له، يودون بجدع الأنف أن تمحى رقعته من الوجود، وأن تطمس خريطته من العالم، وليس للمسلمين خلاص إلا بتوحيد جهادهم وجهودهم، وتمسكهم بعروة دينهم: فلا يتخذوا من خصوم الله وخصومهم أولياء يلقون اليهم بالمودة، ولا يمكنوا للدخلاء مهما جودوا الطلاء وأحسنوا العرض، فإن ما وصلنا إليه من مهانة ولحقنا من بوار، كان بتفريطنا فى صلاتنا، وتساهلنا فى روابطنا ومقوماتنا، ولا أبخس فى الحياة ممن ضيع دينه ودنياه، فلم يصب بهرج المترفين ولا نعيم المتقين.

الإيــلاء

مثل من احترام الإسلام للمرأة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

الشريعة الإسلامية تحترم المرأة ، وتحميها من ظلم الرجل ، ومن مظاهر ذلك أن أزالت أو أمرت بإزالة عادة مذمومة ركبها العرب ، ومشوا عليها حتى جاء الإسلام ؛ ذلك أن بعض العرب كان يتزوج المرأة ، ثم هو لا يحب أن تبقى له زوجة ، ولا هو يحب أن يتزوجها غيره . فماذا يصنع ؟ يحلف ألا يقربها ، ويبقيها عنده فى الضرر ، ويتركها على ذلك . فلما جاء الإسلام أمهل من يحلف على زوجته ألا يقربها ، أمهله أربعة أشهر يتروى فيها ، ويتأمل ، فإن رأى المصلحة فى ترك هذه المضارة يرجع إلى زوجته وهى امرأته ، وإن رأى المصلحة فى مفارقتها ، يفارقها لتتزوج غيره إن شاءت ؛ ولذلك يقول الكتاب العزيز : « الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فأن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » .

ومدلول الإيلاء فى اللغة : الحلف . يقال : آلى يؤلى إيلاء ، وهو والقسم ، واليمين ، والحلف كلها بمعنى ، والتربص : الانتظار يقال : تربص بفلان انتظر به خيراً أو شراً يحل به ، والفيئه : الرجوع . يقال : فاء المولى من امرأته : كفر عن يمينه ورجع إليها . وعزم الطلاق . فسره ابن عباس : بانقضاء الأربعة الأشهر .

والإيلاء فى عرف الشرع هو الحلف على الامتناع من وطء الزوجة مطلقا ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر . وكان الإيلاء طلاقا فى الجاهلية فغير الشرع حكمه . ولكن هل كان طلاقا فى الجاهلية يبيح للمرأة أن تتزوج ؟ يقول سعيد بن المسيب : « كان الرجل الذى لا يريد المرأة ، ولا يحب أن يتزوجها غيره ؛ يحلف ألا يقربها ، وكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بعل ، وهذا القول صريح فى أن المولى منها

كانت تترك كالمعلقة . هذه عادة من عادات العرب ،كان الغرض منها مضارة المرأة ، ومكثت المرأة تئن من هذه العادة الممقوته ؛ حتى جاء الإسلام بإنسانيته فأنصفها ، ورفع عنها الظلم الذى كانت تلقاه من عنت الرجل وقسوته . وها هنا أبحاث :

أولا : إذا حنث الرجل فى يمينه ورجع إلى امرأته هل عليه كفارة أولا ؟

يرى بعض الفقهاء أن هذا اليمين وأمثاله لا كفارة له ؛ بل كفارته نفس الحنث فيه . والقاعدة عندهم : « أن كل حانث فى يمين فى المقام عليها ضرر لا كفارة عليه فى حنثه فيها ، بل كفارته نفس الحنث فيها » وهؤلاء يفسرون غفران الله فى الآية بغفران الكفارة . ويسندون هذا الرأى للحسن رضى الله عنه فإنه كان يقول : إذا فاء فلا كفارة عليه .

ويقول آخرون : إذا فاء المولى فعليه الكفارة . ويروون عن ابن عباس قوله : للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر هو الرجل يحلف لامرأته بالله لا ينكحها ، فيتربص أربعة أشهر ، فإن هو نكحها كفر يمينه بإطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ويُروى أيضا أن سعيد ابن المسيب كان يرى هذا الرأى . وهؤلاء يقرون غفران الله بأسقاط العقوبة فى العاجل والآجل .

ثانيا : هل يقع الطلاق بنفسه بمضى الأجل الذى ضربه الأسلام وهو انقضاء الأربعة الأشهر ؟ أو انقضاؤها يعطى المرأة فقط حق أن تطالب زوجها بالفيئة ، أو الطلاق ؛ فإن امتنع الزوج منهما طلق عليه القاضى ؟

بالأول قال أبو حنيفة . والذين يرون أن الطلاق يقع بنفسه يقولون : إن قول الله تعالى « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » هو تفصيل للحكم المتقدم كما تقول : أنا نزيلكم هذا الشهر ، فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره ، وإلا لم أقم ولم أتحول . وأيضا يقولون : إن الإيلاء طلاق فى نفسه . فالطلاق إشارة إليه . وأيضا الغالب أن العازم للطلاق ، والضرار ، وترك الفيئة لا يخلو من حديث نفس ، وذلك هو الذى يسمعه الله كما يسمع وسوسة الشيطان « فإن الله سميع عليم » .

وبالثانى — وهو أن الطلاق لا يقع بنفسه — قال الشافعى ، والذين يرون

هذا الرأى يقولون : إن الفاء فى قوله : « فإن فاءوا » تقتضى كون ما بعدها من حكمى الفيئة والطلاق مشروعاً متراخياً عن انقضاء الأربعة الأشهر ، وأيضاً قول الله تعالى : « وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » صريح فى أن وقوع الطلاق إنما يكون بإيقاع الزوج ، وفى أن الزوج لابد أن يصدر عنه شىء يكون مسموعاً ، وما ذاك إلا إيقاع الطلاق .

ثالثاً : هل الطلاق الذى يلحق المرأة بمضى هذا الأجل هو تطليقة واحدة بائنة تملك المرأة به نفسها ؟ أو هو طلاق رجعى يملك الزوج فيها الرجعة ؟ وهل لها على كلا الرأيين عدة ؟

أما العدة فمحل اتفاق ، وأما نوع الطلاق فمحل خلاف . يرى قوم أنه طلاق بائن تملك المرأة به نفسها ، ويستند هؤلاء إلى ما يروى عن عبد الله بن أنيس « أراد من أهله ما يريد الرجل من أهله فأبت ، فحلف ألا يقربها ، فطرأ على الناس بعث من الغد فخرج فغاب ستة أشهر ، ثم قدم فأتى أهله ما يرى أن عليه بأساً ، فخرج إلى القوم فحدثهم بسخطه على أهله حيث خرج ، وبرضاه عنهم حين قدم . فقال القوم : فإنها قد حرمت عليك . فأتى ابن مسعود فسأله عن ذلك : فقال ابن مسعود : أما علمت أنها حرمت عليك ؟ قال : لا . قال : فانطلق فاستأذن عليها ، فإنها ستنكر ذلك ، ثم أخبرها أن يمينك التى كنت حلفت عليها صارت طلاقاً ، وأخبرها أنها واحدة ، وأنها أملك بنفسها . فإن شاءت خطبتها ، فكانت عندك على ثنتين . وإلا فهى أملك بنفسها .

ويروى عن ابن عباس أيضاً مثل هذا الرأى ، وقبيصة بن ذؤيب أيضاً كان يقول : هى تطليقة واحدة بائنة ، وتأتنف العدة وهى أملك بأمرها .

وإذا كان ابن عباس ، وابن مسعود ، وقبيصة بن ذؤيب ممن يرون هذا الرأى ؛ فيروى عن أبى يونس السقوى أن سعيد بن المسيب قال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق . قال : لعلك ممن يقول : إذا مضت أربعة أشهر فقد بانت ؟! لا ، ولو مضت أربع سنين ، ويروى أيضا عن غيره أنه كان يقول : إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة ، وتستقبل عدتها وزوجها أحق برجعتها .

رابعا : هل يشترط فى الإيلاء أن يقع فى حال غضب أولا ؟

يشترط بعض الفقهاء فى الإيلاء أن يقع فى حال غضب ، وسندهم فى ذلك ما يروى عن رجل توفى أخوه وترك ابنا له صغيرا ، فقال لامرأته : أرضعيه ، فقالت : إنى أخشى أن تغيلهما ـ الغَـيْلُ : اللبن ترضعه المرأة ولدها وهى تؤتى ، أو وهى حامل . وفى الحديث لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ـ فحلف ألا يقربها حتى تفطمهما ، ففعل حتى فطمتهما ، فخرج ابن أخى عطية إلى المجلس فقالوا : لحسن ماغذى أبوعطية ابن أخيه . قال :كلا زعمت أم عطية أنى أغيلهما، فحلفت ألا أقربها حتى تفطمهما . فقالوا له : قد حرمت عليك امرأتك . فذكرت ذلك لعلى رضى الله عنه . فقال على : إنما أردت الخير وإنما الإيلاء فى الغضب . وفى رواية أخرى يقول على رضى الله عنه : الإيلاء ما أريد به الإيلاء . ويروون عن ابن عباس قوله : لا إيلا إلا بغضب .

ويقول آخرون : كل يمين حلف بها الرجل فى مساءة امرأته فهى إيلاء منها على الجماع ، حلف أو غيره فى رضا حلف أو سخط . وحجتهم عموم الآية ، وأن الله تعالى ذكره لم يخصص من قوله : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » بعضا دون بعض ؛ بل عم به كل مول ومقسم .

وعلى كل فالإسلام نصير المرأة ، اعتبرها كائنا بشريا لاشيئاً من الأشياء ، كما كانت تعتبرها الشرائع الأخرى . كانت تقتل خشية الإملاق ، وكانت لا ترث ؛ بل كانت تورث هى كما يورث المتاع ، فأعطاها حق الحياة وحق الملك ، وعاملها على أنها كائن عاقل رشيد . وإذا كنا نرى اليوم من يضار المرأة ويتفنن فى إيذائها ، ويخرجه غضبه عن طوره ، فيهجر امرأته مدة قد تطول أو تقصر ، فقد رأينا حكم الشريعة الإسلامية فى أن ضربت لذلك أجلا إذا تخطيناه وقعنا فى الحرج والإثم ، وإذا كان الايلاء مثلا من احترام الإسلام للمرأة ، فغيره فى شرعة الإسلام كثير وكثير .

العقيدة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس بكلية الشريعة

قال رسول الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». التدين فطرة فطر الله الناس عليها، فابن الغابة وابن المدينة وابن البادية وابن الحاضرة، كل أولئك ينشأون على اعتقاد أن هناك قدرة قوية تسير هذا العالم، وتدبر أموره، وتنظم شئونه، قوى يلتمسها الإنسان فيما حوله من الكائنات، فأما قصار النظر فوقفوا عند المحسوس، أو اطمأنوا إلى ما عليه الآباء والجدود، وأما أولئك الذين أنار الله بصائرهم فلم يقفوا عند حدود المرئيات، بل تغلغلوا بعقولهم إلى ما وراء ذلك حتى وصلوا إلى الحق، وقد صور الله سبحانه حيرة الإنسان فى طريق وصوله إلى الحق، بما ذكره فى قصة إبراهيم عليه السلام، حينما كان يحاور قومه ليرشدهم إلى الإله الحق على طريقة الاستقراء المعروفة عند المربين، قال سبحانه: «فلما جن عليه الليل رآى كوكباً، قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رآى القمر بازغا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رآى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت، قال ياقوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين».

ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون إلا بالمحسوس، ويكفرون بما وراءه، وجدنا منهم من عَبَد الجماد والحجر، وقدس الحيوان والشجر، وسجد للشمس والقمر، بل إن بعضا من الناس ألغى عقله، فصنع الحجر بيده ثم خر له ساجدا، وقرب إليه القرابين، وتزلف إليه بجميع أنواع الزلفى، وما ذلك إلا لافتتانه بالمحسوس أو انقياده إلى التقليد الأعمى.

لهذا لم يدع الله الناس إلى عقولهم فحسب ، لأنه كثيرا ماتطغى عليها الأهواء وتعميها ظروف البيئة ؛ بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لكى لا يكون للناس على الله حجة ، وكانت المهمة الأولى للأنبياء والمرسلين ومن على طريقتهم من العلماء والمرشدين : هى إصلاح مافى عقائد الناس من خطأ ، وإرشاد العقول إلى طريق الحق والصواب ، وإرجاع الناس إلى فطرهم السليمة التى أفسدتها البيئة، وطغت عليها الأهواء « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » فمحمد صلى الله عليه وسلم أرسله الله على حين فترة من الرسل ، طمست فيها الشرائع ، وبدلت فيها العقائد ، واحتكر الدين قوم أغلقوا على أنفسهم الصوامع والبيع ، وباعدوا بينهم وبين الناس ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فجدد ما اندرس من هذه الشرائع ، وأرشد الناس إلى العقيدة الصحيحة ، وجعل العلم حقا مشاعا للجميع ، فرض تعلمه على كل مسلم ومسلمة ، وأطلق العقول من قيودها ، وأيقظ الأفكار من سباتها ، وهيأ الإنسانية لحياة حرة كريمة .

وليس الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كلمة تقال ، أو حركات ورسوما ، وإنما هو عقيدة صحيحة متغلغلة فى سويداء القلوب ، متسلطة على الجوارح والأعضاء ، فدينه عقيدة تؤيدها الأقوال والأفعال .

والعقيدة هى الأساس لهذا الدين فمهما اتصف الإنسان بكريم الخلال ، أو قدم من صالح الأعمال من غير أن يكون صحيح العقيدة ثابت اليقين ، يكن كمن يبنى على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم .

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد » .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى

بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ؛ حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » .

إذا كان هذا هو شأن العقيدة فى الدين ، فلا عجب أن كان تصحيح العقائد أول مهام الانبياء والمرسلين ، وخلفائهم من العلماء العاملين . ولا عذر لأحد فى الجهل بأصول دينه مع توفر أسباب العلم ، وكثرة وسائله ؛ فواجبك الأول أيها المسلم والمسلمة أن تنظر فى عقيدتك ، وترى أهى صحيحة أم فاسدة . والعقيدة الإسلامية لا التواء فيها ولا غموض ، ولا لبس فيها ولا تعقيد ، بل هى فطرتك التى فطر الله الناس عليها ، ليس فيها تعاليم سرية ، لا تلقن إلا من وراء الحجب والأستار ؛ بل هى واضحة المعالم نيرة الطرق ، متفقة مع العقول السليمة والبصائر النيرة .

وأساس هذه العقيدة هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ومعنى إيمانك بالله تعالى أن يعتقد قلبك اعتقاداً جازما لاشك فيه ، أن لهذا العالم إلها ليس كمثله شيء ، واحداً فى ذاته وصفاته وأفعاله ، قادراً مريداً سميعا بصيراً متصفاً بكل صفات الكمال ، منزها عن كل صفات النقصان ، وأن كل من سواه مفتقر إليه فى كل أموره وأنه غنى عن كل ما عداه . . . والإيمان بالله على هذا الوجه هو النور الذى يهدى الناس إلى سبل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو رأس كل خير وأساس كل فضل ، وعصمة للأنسان عند الرخاء ، وعدة له عند البلاء ، ومن حرم الإيمان بالله تعالى ، فهو فى ظلمات بعضها فوق بعض : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا ، كأنما يصعد فى السماء ؛ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

وإذا كان هذا هو شأن الإيمان بالله تعالى بالنسبة إلى الأفراد ، فهو للأمم حماية لها من الافكار الهدامة والنزعات المتطرفة ، وسياج لها من فساد الاخلاق ، فكل أمة فشا فيها الإلحاد والكفر بالله ، تحللت أخلاقها ، وتفرقت كلمتها بتفرق أهوائها ، فكل آرائها تكون صادرة عن الهوى والغرض ، وما أكثر الأهواء والأغراض !! لهذا كان الإيمان بالله تعالى رأس الأديان السماوية كلها . .

ولقد أقام الله البراهين القطعية على وجوده ووحدانيته، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص، ولا أقول لك التمس هذه الأدلة من كتب الفلاسفة والمتكلمين، ولكن أقول لك التمسها من كتاب هذا الكون البديع. فكل ماتراه عينك، أو تسمعه أذنك أو تلمسه يدك، أو يذوقه فمك أو يشمه أنفك دليل على الإله القادر الحكيم.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وليبدأ الإنسان بالنظر إلى نفسه، وما أودع فيه من قوى ظاهرة وباطنة، «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»، ثم لينظر نظرة أخرى إلى ما حوله من كائنات علوية وسفلية، فإنه مع تباين أجناسها، وتعدد أنواعها، واختلاف أشكالها وألوانها، وخصائصها ومميزاتها، تجدها كلها مرتبطة بأوثق رباط، وأحكم الصلات، فتجد الأرض مرتبطة بالسماء، والسماء مرتبطة بالأرض، والهواء مرتبطاً بالماء، والماء مرتبطاً بالهواء، والحيوان مرتبطاً بالنبات، والنبات مرتبطا بالحيوان، والكل مسخر للإنسان: «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شىء». فهل يكون كل ذلك عن طريق المصادفة البحته، مع هذا الإتقان والإحكام؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! ثم إن كان كل شىء قد وجد بطبيعته، فمن الذى ربطه بين أنواع الموجودات؟ ومن الذى خالف بين أفراد النوع الواحد مع اتحاد الأسباب والمؤثرات؟ هل تقذف الطبيعة إلى الوجود إلا شكلا واحداً للنوع الواحد، كالآلة لا تقذف إلا نموذجاً واحداً، لما تخرجه من المصنوعات، أفلا يدل ذلك كله على الصانع الحكيم، الذى يدبر شئون هذا العالم وينظم أموره: «ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين»، «وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان، وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون».

فهذا الكون ما هو إلا سفر كله آيات على صحة عقيدتك أيها المسلم والمسلمة فى الله تعالى فلا تلتمس فى سواه دليلا.

وكلما تقدم العلم وتيسرت وسائله، تكشفت لنا أدلة جديدة تؤيد هذه العقيدة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فهذه هى الذرة قد انكشف لنا شىء من سرها. من الذى أودع فيها تلك القوة الجبارة، وجعل كل ذرة مع صغر حجمها وتفاهة شأنها، مثل مجموعة شمسية فى كواكبها وأفلاكها؟ فليتقدم العلم ما شاء له الإنسان أن يتقدم، فلن يكون إلا حجة للدين، وبرهانا على وجود رب العالمين.

لعل أحدا من المسلمين الآن لا يشك فى وجود الله تعالى، اللهم إلا أن تكون طبيعته قد فسدت وبصيرته قد عميت، وهؤلاء قد خلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم، وليس إنكارهم عن حجة أو شبه حجة؛ ولكن عن مرض فى نفوسهم.

وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأمثال هؤلاء قد وجدوا فى كل أمة، وفى كل زمان كمكروبات الأمراض المختلفة متى وجدت البيئة التى تناسبها، فتكت بالناس فتكها الذريع؛ لكنها لا تؤثر فى من عنده مناعة فى بنيته. فلنحم عقولنا وعقول أبنائنا من سموم هذه المكروبات البشرية.

وإذا كان مما يُسر له أن أكثر المسلمين صحيحوا العقيدة فى الله تعالى، إلا أنه مما يؤسف له أن أكثرهم لا تظهر عليهم آثار هذه العقيدة، فبينما تراهم يعتقدون بأن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين، إذا بك ترى كثيراً منهم يلتمسون الرزق من غيره ويطلبونه من سواه. وبينما يعتقدون أنه وحده هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، إذا بهم يضرعون فى الشدة إلى غيره، ويلتمسون كشف الضر من سواه، وبينما يعتقدون بأنه سبحانه حكيم فى أفعاله وأحكامه تراهم إذا نزلت بهم نازلة سخطوا وجزعوا، وإذا نهاهم عن منكر أو أمرهم بمعروف لم يمتثلوا؛ بل منهم من يرى الحكمة فى غير ما حكم الله، وهؤلاء لاحظ لهم من الإسلام إلا أن يتسموا بأسماء المسلمين، ويدفنوا فى قبور المسلمين، والعقيدة مالم يكن لها سلطان فى القلوب كانت فكرة مجردة، وشتان بين العقيدة والفكرة. ونعوذ بالله من فكر بلا عمل، كما نعوذ به من عمل على جهل.



أدب الجوار

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

جعل الله الحياة متشابكة المصالح متعددة المنافع ، متشعبة النواحى ، لا يستطيع النهوض بها فرد ، ولا القيام بأعبائها إنسان ، مهما أوتى من قوة العزم ، وشجاعة الجسم ، وسعة الحيلة ونفاذ البصيرة . وهل يستطيع شخص أن يقوم بشئون حياته وحده ، ونحن نشاهد ، ونبصر بعيوننا تعدد مشاكلها ، وقسوة مطالبها ، وشدة متاعبها ، وكلما انتهى المرء من علاج أمر فيها ، راعه وأزعجه أمر آخر ، لا قبل له به ، ولا طاقة له عليه ، ولا حيلة إلا أن يقف عاجزا حائرا مضطربا .

هذه الحياة المعقدة المتشابكة ، لا يسهل على الإنسان شدتها ، ولا يلين له قسوتها إلا تعاونه مع غيره تعاونا يسوده الإخلاص ، وتزينه مراقبة الله عز وجل ، واتفاقه مع سواه من بنى جنسه ، اتفاقا أساسه شرف النفس ، ورقة الحس ، وخلوص القلب ، ونقاء الضمير ، وصفاء السريرة ، والبعد عما حرم الله .

ألا وإن أعظم مظاهر التعاون والتساند ، ما يكون بين الجار وجاره من حسن التآلف ، وصدق الترابط ، وتوثق الإخاء ، وإحكام روابط الألفة ، ووشائج المودة .

فجارك أقرب الناس إليك ، وأسمعهم لصيحتك ، وأسعفهم لنصرتك ، يسعفك وقت الشدة ، ويخف إليك حين النازلة ، يحاول أن يخفف عنك من الكرب ، وييسر عليك ما نزل من النوب ، بما يبذل من مساعدة سريعة ومعونة عاجلة ، يحتاجه المرء فى أشد ساعات الليل ظلاماً وأكثرها حلكة ؛ فلا يعز عليه طلبه ، ولا يعسر عليه حضوره ، فالحاجة إليه شديدة ملحة ، وعشرته طويلة مستديمة .

من هنا جاء الإسلام بآداب وتعاليم تؤكد الروابط ، وتحكم الصلات ،

وتقوى الألفة ، والمحبة بين الجار وجاره ، أمر الدين بحسن الجوار ، وحث عليه حثا قويا مؤكدا ؛ ليقوم النفع والانتفاع ، والتعاون بين الجيرة على أساس متين من الحب ، وصدق المودة ، ودعا دعوة جازمة صريحة إلى بذل الخير للجار ، وكف الأذى عنه ، قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم شديد العناية بالجار ، كثير العطف عليه والوصية به ، يبذل لجاره من خالص ماله ، ومن إخلاص قلبه ، وسماحة نفسه ومن عاطفته وحبه ، ما يطلق الألسنة بالدعاء والشكر ، ويفعم الأفئدة بالثناء والحمد ، ويغرس فى أطواء القلوب أعمق الحب ، وأصدق المودة ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يفتأ يقول : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ؛ حتى ظننت أنه سيورثه » ، والمعنى يلحقه بالقرابة القريبة التى يؤول إليها مال الإنسان وما يملكه بعد حياته .

فهل بعد هذا احترام لصلات الجوار ، وتقديس لروابطه ؟ وهل بعد هذا حث على أن تقوم العلائق ، وتنهض الصلات بين الجيران على أقوى دعائم الألفة والمودة ؟ ليشعر الجار أنه حين يخدم جاره ، ويبذل له عونه ونصرته إنما يخدم نفسه ، ويحسن إلى شخصه ، وأنه يدخر لنفسه عند الله ثوابا وفيرا ، وأجرا كبيرا .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق . الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الجار الذى له حقان ، فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، والذى له حق واحد الجار المشرك » .

فالإسلام بأسمى تعاليمه ، وأروع آدابه ، يحترم الجار ولو كان مشركا ؛ فإن له حق الجوار ، وهو الإحسان فى المعاملة ، وكف الأذى عنه ، وتقديم الخير له .

أليس مما يوجب أشد الأسف، وأمض الحزن، وأحر اللوعة، ما نراه شائعاً الآن بين الجيرة من تدابر، وما نلمحه فى صفوفهم من تنافر، وما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات، لا تقف عند حد، ولا تنتهى إلى نهاية، وبدلا من أن يدعوهم الجوار إلى الاتحاد والوئام، كان سبب التحاسد والخصام، ومدعاة المنافسات الحاقدة، والمكايدات الآثمة، والاعتداءات الظالمة.

أول ما يجرب الإنسان شروره يجربها بين جيرانه، وأول شرارة تنبعث من آثامه إنما تنقض عليهم، فهو ينتهز فرصة الجوار؛ لينتهك الحرمات، وينهش الأعراض، ويسلب الحقوق، ويكشف العورات؛ كما تفعل أشد الحيوانات شراسة، وأقبحها وحشية، يحقد عليه إن كان قويا عنه، ويستعبده ويستذله إن كان ضعيفا لا يستطيع الثبات أمامه، وما دام يستطيع الإفلات من يد القانون، والهرب من وجه العدالة، فليكثر الإيذاء، ولتتعدد الشرور إلى حد لا يقره شرف، ولا يرضاه دين، ولا تستسيغه رجولة.

فهل عند هؤلاء ذرة من الإيمان الصحيح؟ وهل عندهم لمحة من مراقبة جبار الأرض والسموات؟.

هذا هو منطق الإسلام، صريح لا غموض فيه، مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، وقد دفعهم بقارعته، وسلبهم الإيمان الذى يملأ القلب نوراً، والنفس رحمة.

يقول صلى الله عليه وسلم: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! قيل من يارسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره وظلمه».

فهل بعد هذا صراحة فى سلب الايمان عن شخص لا يكف شروره، ولا يمنع ظلمه عن جيرانه.

ولكن لا يعتبر بهذا، ولا ينصت إليه هؤلاء الذين تسلطت عليهم شرورهم، وامتلكتهم شياطينهم؛ فأخذوا يمطرون جيرانهم وابلا من عدوانهم وإساءتهم.

ألا ما أروع أدب الاسلام، وما ألمع حكمة النبوة الخالدة، وأجمل تصوير الرسول صلى الله عليه وسلم لحق الجار، وشدة عنايته بحمايته! لقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه: «ما تقولون فى الزنا؟ قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال صلى الله عليه وسلم: لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره! فما تقولون فى السرقة؟ قالوا: حرام حرمها الله ورسوله فهى حرام. قال صلى الله عليه وسلم: لأن يسرق الرجل من عشر أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره!».

فهل يتدبر هذا من يتغافلون عن هذه الآداب، ويغمضون عيونهم عن تلك التعاليم؟ وهل يتعقله أولئك الذين يدعون نفوسهم تستجيب لأهوائها، وتخضع لنزواتها، وتضعف أمام أحقادها؛ فيشتد التناكر بينهم وبين جيرانهم، من أجل ذلك تفسد الروابط، وتنفصم العلائق، انفصاما تاما لا ارتباط بعده! يقترب الواحد منهم من أخيه وجاره، ويسمع صوته بل همسه، ويشاهد من أحواله ما لا يطلع عليه إلا أقرب الناس إليه، وأمسهم به رحما؛ فإذا تقابلت الوجوه، تبادرت القطيعة، وتنافرت الألفة، وغابت المودة، ولوى كل وجهه؛ فلا سلام ولا تحية، ولا تعارف ولا اتصال، ولا زيارة فى صحة، ولا عيادة فى مرض.

أليس كل عاقل يدرك أن هذا ضعف فى الخُلق، ونقص فى الرجولة، وجهل بآداب الدين والاجتماع، لقد انعكست الأوضاع، وانقلبت الأمور، فأصبح الجوار وسيلة إلى الإيذاء، وسبيلا إلى الشر، ومدعاة إلى العدوان والظلم، وهاهى دور المحاكم والقضاء شاهدة على ظلم الإنسان لجاره الإنسان، مع أن نبى الإنسانية صلى الله عليه وسلم كان يقول: «يا أبا ذر لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، وإذا اشتريت لحما، أو طبخت قدراً؛ فأكثر مرقه واغرف لجارك منه».

ويجعل النبى الكريم شهادة الجار فى جاره مقياسا لما هو عليه من خير أو شر وصلاح أو فساد؛ سأله رجل فقال: يارسول الله كيف لى أن أعلم إذا

أنا أحسنت أو أسأت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » .

وهل فى أى شرع من الشرائع ، أو أى دستور من الدساتير ، دعوة إلى تقديس الجار وحمايته ، واحترامه والإحسان إليه . مثل هذه الدعوة الكريمة التى جاء بها الإسلام على لسان رسوله العظيم ؟

يقول صلوات الله عليه : « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطل عليه بالبناء ؛ فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فادخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ؛ ليغيظ بها ولده » .

هذا هو الدين الحق ، والأدب الكريم ، والخلق المستقيم ، والمعاملة الطيبة ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

الاستبانة والتبيين

قال على بن الحسين رضى الله عنهما :

« لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى فضل التبيين ، لأعربوا عن كل ما يتلجلج فى صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن درك ذلك كان لايعدمهم فى الأيام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم » .

نقول لقد كشف الإمام عن أشد أدواء القلوب ، وعن أشفى علاج لها ، وهو أن الجاهل لا يستبين مالا يعلمه ممن يعلمه ، فيبقى طوال حياته غريقا فى جهالته مصروفا عن علاج علته .

علماء المسلمين وتقدم العلوم *

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

حمل العلماء المسلمون العبء الأكبر فى البحث والإنتاج من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، وكانت اللغة العربية هى لغة العلم والمعرفة — قبل عصر النهضة — كما كانت لغة الثقافة عامة ، لا للمسلمين فحسب ، وإنما لجميع الأمم والمجتمعات التى أخذت المدنية الإسلامية ؛ كالمسيحيين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الشام ، والبربر ، والأتراك .

والنشاط العقلى ، فيما يدلنا التاريخ ، ليس حقا وراثيا لأى جنس أو مجتمع ، وإنما هو نتيجة استقرار الحياة ، وخلوها من كوارث الطبيعة أو الحروب أو الطغيان . والحياة جادت بالعباقرة حيث وجد السلام والرخاء ، فى كل عصر ، وفى كل جنس ودين . وكلما ساد السلام ، وعمت الطمأنينة والرخاء ، فى مجتمع ، كلما استطاع أن يحقق قدراً أكبر من الإنتاج العلمى .

ومن المأثور عن الحكم الإسلامى — فيما يروى التاريخ — تشجيعه للزراعة والتجارة ، ورعايته للعلوم والفنون ، فكان من نتائج هذا أن ساهم المسلمون ومواليهم بقدر كبير فى تقدم العلوم .

وترك لنا المؤرخون ، وكتاب السير والعلماء ثروة ضخمة ، أضاع الكثير منها المغول فى الشرق ، ومحاكم التفتيش فى إسبانيا فى الغرب ؛ وما بقى ظل فى أيدى بعض الجهال من المسلمين ، فاحتفظوا به ، بوصفه من آثار السلف ، أو باعوه ، فذهب إلى المكتبات الأجنبية .

(*) من مجلة Islamic Review أغسطس سنة ١٩٤٩ : نصيب علماء المسلمين فى تقدم العلم ، للأستاذ محمد عبد الرحمن خان مدير أكاديمية حيدر أباد .

ومن هنا كنا مدينين للمستشرقين من الغربيين ، حين نشروا وشرحوا بعض كتبنا التى طال عليها النسيان ، فخدموا المدنية عامة ، والثقافة الإسلامية خاصة .

بدأ المسلمون بعصر الترجمة عن اللغات الإغريقية والفارسية ، وما لبثوا حتى بدت شخصيتهم واضحة جلية ، فبحثوا وألفوا ، وما إن حل القرن التاسع الميلادى ، حتى تميز بأنه « عصر إسلامى » . فقد كان العلماء المسلمون فيه يحملون لواء العلم ، كما كانوا هداة المدنية ورعاة الحضارة . وذهب صيت الكندى والخوارزمى والفرغانى وغيرهم ، يدوى فى أرجاء العالم العقلى : فى الرياضيات والفلك والفلسفة والموسيقى وغيرها من الفنون . وظلت أبحاث الفرغانى الفلكية حجة علماء هذا الفن ، حتى القرن الخامس عشر ، وترجمت إلى اللاتينية والعبرية ، فقد قاس محيط الكرة الأرضية ، وعرف كثيراً عن المسافات بين الكواكب ، وقدّر أحجام ومحيطات بعضها .

أما أبو مشعر ، ويعرفه الغرب باسم Albumasar ، فقد شرح تأثر المد والجزر بالقمر .

وفى النصف الثانى من نفس هذا القرن ، عرف العالم الغربى مسائل أرخميدس وكتابات أبولونيوس [1] ومينالوس عن طريق المهنى ، وهلال الحمصى ، وأحمد ابن يوسف ، كما أتم الخوارزمى مسائل هندسية دقيقة . وصنف البطنى ، ويعرفه الغرب باسم Albatelgnius ، قائمة تضم ٨٨٠ نجما ، كما عرف المجموعة الشمسية ، واكتشف اكتشافات فلكية هامة حققها العلم الحديث أخيراً . وكان أبو كامل ابن أسلم ، وإبراهيم بن سنان ـ والأول من علماء الجبر ، والثانى من علماء الهندسة ـ أشهر رياضيين ، زانا عصر المسعودى أعظم المؤرخين قاطبة .

ونجد الفلاسفة المسلمين على علم واسع غزير ، ألموا بنواصى العلوم ، وتمكنوا من دقائق الفنون ، فلم يكن أبوزكريا الرازى ، وهو الـ Rhazes الذى شاد بذكره الغربيون ، طبيباً متمكناً فحسب ، وإنما كان عالماً تجريبياً فى الطبيعة والكيمياء أيضاً ، وترك أبحاثاً رائعة خالدة فى الطب ، وسبق لافوازييه [2] فى أبحاثه عن طبيعة العناصر الكيميائية .

---

(١) أبولونيوس دوبرجا ، عالم هندسى إغريقى عاش فى الاسكندرية فى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

(٢) عالم فرنسى كيميائى شهير من مؤسسى علم الكيمياء الحديثة ، له نظريات كثيرة : ولد عام ١٧٤٣ وقتل على الجيلوتين عام ١٧٩٤ .

وإن أى عصر ليفخر بأمثال عبد الرحمن الصوفى ، وابن يونس ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن سينا ، وعمر الخيام ، وابن رشد . كان الأول راصداً فلكياً ممتازاً ، لا يزال كتابه « صور الكواكب » . منبعاً لدراسة الظواهر السماوية . ووضع ثانيهم جداول فى القاهرة أدت إلى استكشافات فلكية هامة . أما الثالث فهو إمام الرعيل الأول من علماء الطبيعة ، وكتابه فى علم الابصار صحح أخطاء نظريات كثيرة عن طبيعة الابصار .

وأبحاث البيرونى تضعه فى الصف الأول من صفوف علماء الفلك ، كما كان باحثاً منهجياً فى الظواهر الطبيعية ، كما يظهر من وصفه لضوء الشفق ، وارتفاع المياه فى الجداول ، وتاريخ وادى نهر السند . وما زال قانون ابن سينا فى الطب إنجيل القرون الطبى ، وقد اكتشف أن بعض الأمراض تنتقل عدواها عن طريق الماء ؛ وإن شهرة « عمر الخيام » كعالم رياضى لتفوق شهرته الواسعة كشاعر بهر العالم برقة شعره ومعانيه .

ولم يكن ابن رشد ندا لارسطو — مثله مثل الفارابى — فحسب ، وإنما تميز باكتشافات عدة منها معرفته البقع الشمسية ، وابتكاره آلة قياسية دقيقة .

وكانت تراجم محمد الاصفهانى لخمسة كتب من سبعة ألفها أبولونيوس ، هى المصدر الوحيد الذى عرفها به العالم . وكان « نصير الدين الطوسى » أول علماء هولاكو ، وكتب كتابه الذائع الشهرة : « المتوسطات وشكل القطع » ، وناقش نظريات إقليدس مناقشة أخذها عنه « سيرولانوساكيرى » ، وبنى عليها أساس الهندسة غير الإقليدية . وشرح أحد تلامذته تكوين قوس قزح فسبق ديكارت [١] بثلاثة قرون .

وكم من دقائق اقتصادية وجغرافية وجنسية نجدها فى رحلات ابن الحوقل وابن جبير ، وابن بطوطة ، وما زالت أهمية كتب ياقوت والإدريسى قائمة تؤتى ثمارها .

وكان الزهروى أكبر علماء عصره فى التشريح ، وذكر فى كتابه « التصريف »

---

(١) فيلسوف وطبيب وعالم هندسى فرنسى ، كتب : « مقال عن المنهج وتأملات ميتافيزيقية » ومات فى استكهولم وهو يعالج ملكتها سنة ١٦٥٠ .

حقائق كثيرة ، وطبع منه الجزء الخاص بالجراحة فى جامعات البندقية وبال وأكسفورد .

وكتب ابن النفيس فى الحديث وأمراض العين والتغذية ، وبين فى كتابه « شرح تشريح ابن سينا » وظيفة القلب فى توزيع الدم . وكان الأطباء المسلمون حجة فى أمراض العيون ، فكان كتاب « نور العيون » لصلاح الدين بن يونس مرجع الأطباء لقرون بعد وفاته .

ونظراً لرخص المنتجات اليدوية - فى القرون الوسطى ، ورخص حيوانات النقل ، وقلة الحاجة الى الكماليات ، فإن العناية لم تتجه الى الابتكارات الميكانيكية . ومع ذلك نرى العرب عرفوا الساعة المائية ، وبحثوا فى قوة الماء والنافورات ، وعرفوا البارود ، واستخدموا البوصلة المغناطيسية فى الملاحة . وقاد ابن مجيد سفينة فاسكودا جاما [1] الى الهند .

وعرف العرب الأعشاب الطبية ، وطوفوا فى أنحاء العالم بحثاً عنها . ولسنا نبالغ إذ نقول : إن العرب بدأوا الزراعة فى أسبانيا على أسس علمية ، ومنها انتشرت إلى أوربا . ولم يقتصر اهتمامهم بالنبات ، وإنما تعداه إلى عالم الحيوان ، فاهتموا بالناقة والجواد خاصة ، وعرفوا نظرية التطور ، عرفها النظام « المتوفى سنة ٨٤٥ م » ، وما « حى بن يقظان » لابن طفيل إلا قصة علمية سطحية عن التطور .

وبجانب شهرة جابر بن حيان فى علم الجبر ، فإنه كان أكبر باحث - فى عصر ما قبل النهضة - فى الكيمياء .

وإن هذه المعلومات وأمثالها ، إنما نستقيها ، من دوائر معارف إسلامية لأمثال ابن النديم الوراق ، وابن أبى أصيبعة ، وياقوت وابن خلكان وغيرهم . ولسنا ننسى أخيراً أبحاث ابن خلدون فى علم الاجتماع التى سبق بها أوجست كونت [2] الذى يقولون - زوراً - إنه مبتكر هذا العلم .

---

(١) ملاح برتغالى اكتشف سنة ١٤٩٨ م طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقية ، إلى الهند .

(٢) العالم الرياضى والفيلسوف الفرنسى المعروف ، وصاحب المذهب الوضعى عاش بين ١٧٩٨ — ١٨٥٣ م .

إعجاز القرآن :



مذهب الصرفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر بالسودان

- ٣ -

إذن فليس أمامنا — مما يمكن أن نطمئن إليه اطمئنانا كاملا — إلا هذا النص الذى وقع لنا فى كتاب الحيوان للجاحظ ، ولكى نفهم هذا النص فهما أقرب إلى الصواب ، نحب أن نقدم بين يديه ما يسدد رأينا فى فهمه ، وما يلقى لنا ضوءا على المقصود منه .

يكاد يكون من الأمور المشتهرة عن الجاحظ أنه يرى فى إعجاز القرآن ، رأى أهل العربية . ذكر صاحب المواقف فى كتاب النبوات ذلك فقال : « وقيل - أى فى إعجاز القرآن - كونه فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، وعليه الجاحظ » . وفى كتب الجاحظ ما يؤيد ذلك ، وهو تارة يقول : إن القرآن معجز من ناحية أسلوبه ، وتارة يقول من ناحية نظمه ، والمطالع لكتبه يجده تحدث بذلك فى مواضع كثيرة ، ومن قوله فى ذلك بعد ما ذكر ما كان من شأن النبى مع قومه : « وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفياً » ويقول فى موضع آخر : « وفى كتابنا المنزل الذى يدل على أنه صدق ،

نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد . . . الخ ، بل إن الجاحظ يرى أن العرب لا يستطيعون أن يساموا النبى صلى الله عليه وسلم فى فصاحته ، وأن يجاروه فى بلاغته ، ويشيع هذا المعنى فى كتابه البيان والتبيين ، ومن ذلك قوله : « فإذا رأت مكانه - يريد النبى - الشعراء ، وفهمته الخطباء ، ومن تعبد للمعانى ، وتعود نظمها ، وتنضيدها وتأليفها وتنسيقها واستخراجها من مدافنها ، وإثارتها من أماكنها ؛ علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم واستغرق مجهودهم ، وبكثير ما قد خولوه قليلا مما يكون معه على البداهة والفجاءة من غير تقدم فى طلبه ، واختلاف إلى أهله » .

على أن النظام نفسه له رأى فى إعجاز القرآن غير القول بالصرفة ، فإن كل الذين نقلوا عنه من غير أصحابه يضمون إلى القول بالصرفة قوله : إن القرآن معجز لما فيه من الإخبار بالأمور الماضية والآتية ، ومعنى هذا أنه يرى أن العرب غير قادرين على الإتيان بمثل القرآن ؛ لما فيه من الإخبار بالمغيبات ، وقد قرأت كلمة لبعض الكاتبين فى مجلة الأزهر [1] يقول : « فذهب النظام إلى القول بالاعجاز البيانى كما يقول أهل العربية ، فإن كان لهذا القول مصدر فهو مما يؤيدنا فيما نذهب إليه .

ثم نسوق نص الجاحظ [2] : تكلم فى تفسير قوله تعالى « وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؛ لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » ، ثم أورد اعتراضا محصله أن الله تعالى أعطى سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فلكه على الجن فضلا عن الإنس ، وعلمه منطق الطير وسخر له الريح ، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها ، واتصال بلادها ، ثم يجيب : إن الدنيا إذا خلاها الله وتدبير أهلها ومجارى أمورها وعاداتها ؛ كان لعمرى كما تقولون ، ولكن لله تدبيراً تعجز عن فهمه العقول ، ثم ساق أمثلة على ذلك : أن يعقوب كان أنبه أهل زمانه ، وكان يوسف وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذى لا يدفع ، وله البرد وإليه يرجع جواب الأخبار ، ثم

---

(١) هو الشيخ يوسف البيوى فى العدد الخامس من السنة ١٣٦٣ ص ٢٦١ .

(٢) الحيوان ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها طبعة ساسى .

لم يعرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام دهرا من الدهور . ثم قال : « وكذلك القول فى موسى بن عمران ومن كان معه فى التيه ، فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عاما فى مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون الى المخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاعبهم ومتنزهاتهم ، ولا يعدم مثل العسكر الأدلاء والجمالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار ، ولكن الله صرف أوهامهم ، ورفع ذلك القصد من صدورهم ، وبعد أن ساق أمثلة أخرى قال : « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب ، وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ، فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بنى النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن ، فسلبه وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له » .

ولا يفوت الرافعى — رحمه الله — هذا النص ، وأنه يناقض المشهور عن الجاحظ . فيقول : « وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شىء ينزل على حكم الملابسة ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه ، أو قد يكون ناقلا ولا ندرى ، ولكننا لو فرّغنا أذهاننا مما قاله الأقدمون فى معنى الصرفة ، ونظرنا إلى هذا النص على ضوء ما قدمنا لوجدنا أنه ليس غريباً على الجاحظ ، بل ولا على الرافعى نفسه ، فليس الصرف هنا عن الإتيان بكلام يكون فى مرتبة القرآن ، ولكنه عن الإتيان بكلام يمكن أن يجادل عنه ، ويناضل دونه ، ويقال فيه كما قال الجاحظ نفسه فى موضع آخر « فلم يرم ذلك — يريد المعارضة — خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ، ويحامى عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، وبهذا النص نبعد كلام

الرافعى فى أن ما قاله الجاحظ من أمر الصرف ، إنما جاء استطراداً ، على أننا نلاحظ أن الجاحظ لم يرد فى نصه هذا شىء عن الإعجاز ، ولا ذكر لفظه ، فمن أين جاءهم أن المراد بالصرف ، الصرف عن الإتيان بمثل القرآن ، فيكون هو وجه الإعجاز .

والمسألة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا التواء ، : العرب لا يستطيعون أن يجيئوا بمثل القرآن لأنه فوق مستواهم ومحال — أكرمك الله — أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم فوق مستوى العرب ، ولا يرى بلاغة القرآن ، ولكى تبعد كل شبهة عن القرآن ، رفع الله من أوهام العرب — ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، والكلام سيد عملهم - رفع من أوهامهم أن يحاولوا أن يجيئوا بشىء فى معارضة القرآن ، أعنى شيئا من مثل كلامهم البليغ بعنوان المعارضة ، وهذا يفسر لنا خلو الكتب من شىء صدر عن العرب ذى بال فى معارضة القرآن ، وهذا المعنى عبر عنه ابن حزم فقال : فما منهم — يريد البلغاء — أحد يتكلف معارضته إلا افتضح وسقط ، وصار مهزأة ومعيرة يتماجن به ، وبما أتى به ويتطايب عليه ، منهم مسيلمة ابن حبيب الحنفى ، لما رام ذلك لم ينطق لسانه إلا بما يضحك الثكلى ، وقد تعاطى بعضهم ذلك يوما فى كلام جرى بينى وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فإن الله تعالى قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، والله لئن تعرضت لهذا الباب باشارة ليسلبنك الله هذه النعمة ، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة ، كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لى : صدقت والله وأظهر الندم والإقرار بقبحه ، وكلام بن حزم هذا إنما نسوقه على مقدار ما يؤدى لنا من غرض فى هذا الذى نحن بصدده ، أما تفسيره للصرفة فله منا موقف آخر ، قلت : والرافعى يسترسل — على حسب تعبيره — إلى هذا المعنى فيقول عن المتنبى ومعارضته : « ولم يكن المتنبى كاتبا ولا بصيرا بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربى قح من فصحاء البادية ، وان كان فى حفظ اللغة ما هو ، فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذى نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة : لأنه لو أراده فى معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه » .

بقي هنا شيء وهو أنه ربما قال قائل : إن المعارضة للقرآن قد وجدت ، وإن الجاحظ أثبتها هنا ، وذكرها هناك في الكلام على الضفدع ، فكيف تقولون إن معنى الصرفة أن الله صرف العرب عن أن يعارضوا ؟ والجواب : أن معنى المعارضة هو ما ذكره صاحب الطراز ؛ بل المقصود من التحدي إنما هو الإتيان بما يظن كونه مثلا أو قريباً من المثل ، وامارة ذلك وقوع الاختلاف بين الناس في كونه مثلا أو غير مثل ، والجاحظ نفسه يسخر من كلام مسيلمة ، ويجعله مما لا يشك السامع في نزوله عن درجة الاعتبار ، ونحن نقول : إن العرب ما كانوا ليستطيعوا أن يقولوا شيئاً في مرتبة القرآن ، وإنما كان في مقدورهم أن يقولوا كلاما يشتبه فيه الأمر على الأعراب وأشباه الأعراب ، وأنهم عجزوا عن الأولى لأنها فوق طاقتهم ، وصرفوا عن الثانية لئلا يكون القرآن موضع جدل ومحاكمة وتراض ، وعلى هذا نفهم رأى النظام والجاحظ في الصرفة ، ونجلهما أن يقولا إن بلاغة القرآن في متناول العرب ، ولا نلزم بهذا الفهم ، ولا تدعى أنه الحق وحده ، بل نتقبل من كل من يرى أننا تعسفنا الطريق ، أو تنكبنا الجادة أن يرشدنا ويهدينا . أما الذين يصرحون من المتأخرين بمعنى الصرفة على ما فهمه العلماء فلنا معهم حديث آخر ، وتعالى الله وكلامه .

معاوية

وصف الوليد بن عتبه معاوية بن أبي سفيان فقال : « إنه لبعيد الغور ، ساكن الفور ، وإن العود من لحائه ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لا يُخلف ، ونجل فحل لا يقرف .

(اللحاء) قشر العود والمراد أنه مؤصل . (قَرَفه) أى اتهمه وعابه من كلامه : أفضل ما أعطى الرجل العقل والحلم ، فإذا ذُكِّر ذَكَر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وعد أنجز .

الإسلام والتبنى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة

أخذ كثير من المسلمين أخيراً يتبنون أطفالا من أبناء الملاجىء ، أو من اللقطاء ، ويعطون هؤلاء الأطفال أسماءهم وألقابهم ، ويعتبرونهم كأبنائهم الشرعيين الحقيقيين فى كل شىء ، فهم يعاشرونهم ويخالطونهم ويورثونهم ، ويتخذون من الإجراءات الرسمية والفعلية ما يؤيد هذا الادعاء ، دون أن يقدروا أن الإسلام لا يرضى عن هذا الافتعال الآثم والتصرف الذميم ، ويعتبره كبيرة من الكبائر المحرمة ؛ حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كفر من تبرأ من نسب وإن دق ، أو ادعى نسباً لا يُعرف ! » .

لقد كان التبنى أسلوباً من أساليب الجاهلية التى دفعت إليها الهمجية والاضطراب فى الحياة ، والاختلال فى نظام المجتمع ، فقد كان الواحد منهم يختار من الأولاد المجاهيل من يشاء وينسبه إلى نفسه ، ويجرى عليه جميع الحقوق التى يتمتع بها الأبناء ؛ فلما طلع فجر الإسلام بنوره الوضاء على ظلام الغبراء ، أراح اللاغبين الحائرين من هذا التزوير فى الأنساب والأرحام والقرابات ، وهداهم إلى صراط الحقيقة والواقع ، فحرم عليهم تبنى من ليسوا بأولاد حقيقيين لهم ، فقال القرآن المجيد : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ؛ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . وبذلك حرَّم الإسلام ذلك التلاعب الخطير ، وأوجب أن ينسب الولد إلى أبيه إن كان معروفا ، وإن لم يعرف له أب ، بأن كان لقيطا أو مجهول النسب ، جعلناه أخا لنا فى الدين ، ومولى من موالينا فى الملة ، يعامل بشرعة العدالة والإحسان ، وليس وراء ذلك إصلاح أو تنظيم ! ..

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقضى على هذا المنكر الجاهلى فى معرض مشهور وموقف ملحوظ ، فاختار لهدمه فى سبيل القضاء عليه أحب الخلق إليه رسوله محمداً صلوات الله عليه ، فقد كان للرسول عبد مملوك اسمه زيدبن حارثة ، وكان قد أسر وبيع كما يباع الرقيق ، وانتهى به الأمر إلى عشرة الرسول ، فرأى من مكارم النبوة مافضل معه حياة العبودية على حياة الحرية ، وكان العرب حسب عادتهم يسمونه « زيد بن محمد» على طريقتهم فى التبنى ، وعلم أهل زيد بوجوده عند الرسول ، فأرادوا افتداءه وتخليصه من الرق ، فأقبل أبوه وعمه وأخوه إلى رسول الله يعرضون عليه الفداء ، ولاقوا فى الطريق زيدا فسألوه : كيف صنع مولاك إليك ؟ فأجاب : إنه يؤثرنى ويفضلنى على أهله وولده !. . . فذهب والده حارثة إلى الرسول وخاطبه قائلا : يا محمد ! أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته ، تفكون العانى وتطعمون الأسير ، وابنى زيد عندك ، فأمنن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه فإنك ابن سيد قومه ، وإنا سنرفع لك فى الفداء ما أحببت فأجاب الرسول الكريم النبيل : بل أعطيكم خيراً من ذلك ، فاستشيروه ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن أختارنى فكفوا عنه !. . . فأثنوا عليه وفرحوا فدعاه الرسول قائلا : أتعرف هؤلاء يا زيد ؟ . قال : نعم . هذا أبى وعمى وأخى فقال الرسول : هم من قد عرفتهم . فإن أخترتهم فاذهب معهم ، وإن أخترتنى فأنا من تعلم ؛ قال زيد : لست بمختار عليك أحدا أبدا أنت منى بمكان الوالد والعم ! . وعير زيداً أهله بالعبودية ليفضل عليها الحرية فأبى زيد فراق الرسول ، فرجعوا يائسين ، ثم أعتقه وجعله بمنزلة ابنه ، واشتهر ذلك بين الناس ؛ فأنزل الله تحريم ذلك كما سبق ، فأطاع الرسول أمر ربه ، وخضع لتوجيه السماء ، وأوجب أن لا يناديه أحد إلا باسمه زيد بن حارثة ! .

ثم أراد الله أن يستأصل شأفة هذا النظام الفاسد باستئصال أهم نتائجه ، وهى تحريم زوجة الولد المتبنَّى على الرجل المتبنِّى ، فاختار رسوله مرة أخرى ليهدم ذلك بنفسه ، فقد كان زيد هذا متزوجاً من زينب بنت جحش ، وهى قرشية رفيعة ، فكانت تتعالى عليه ، فشكاها زيد إلى رسول الله وعزم على طلاقها ،

فنصحه الرسول أولا ، بأن يمسك عليه زوجه ، فأصر زيد على الطلاق ، وكان الله قد أراد لنبيه أن يتزوجها ، بعد أن قضى زيد منها وطرا ، حتى يهدم بذلك عقائد العرب الوهمية السخيفة ، فوجد الرسول من تنفيذ ذلك الأمر شيئاً فى نفسه أول الأمر ، وأخفى عواطف كانت تضطرم فى فؤاده خوفاً من قالة الناس وافترائهم ، ولكن الله غالب على أمره ، فأمر رسوله بتنفيذ ما أراد ، فتزوجها رسول الله بعد طلاقها من زيد ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ؛ وإلى ذلك أشار القرآن الكريم حيث يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ، وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » .

وقد يعترض متفلسف فيقول : ولماذا يحرم الإسلام « التبنى » مع أنه من وسائل العطف والحنان ، والعناية بطائفة من البائسين والمحرومين ؟ . فنقول : « إن ميادين البر والإحسان فى الإسلام كثيرة عديدة ، وقد فتح الله أمام الناس ما فتح من مسالك الصدقة والهبة ، والعطية والمعاونة ، والخدمة الاجتماعية ، والمساعدة الإنسانية ، والرحمة البشرية ، ولكنه حرم « التبنى » لأنه ينطوى على كثير من الأخطاء والآثام التى تضر بالصالح العام ، فهو أولا قائم على الافتراء والكذب ، ومحاولة صبغ هذا الافتراء بصبغة واقعية دائمة ، مع أن المجتمع الإسلامى قائم على الحق والصدق حتى فى أقل الأمور ، فلو كذب الرجل على الطفل الصغير بلا ضرورة لكان مسئولا ؛ ولذلك وصف القرآن الكريم التبنى بأنه ادعاء وقول بالأفواه ، لا نصيب له من الواقع ، والله يقول الحق الثابت ، الواقع فى نفس الأمر ، وهو سبحانه يهدى إلى السبيل القوى ! . . والافتراء الموجود فى التبنى يؤدى اليوم أو غداً إلى اختلاط الأنساب ، واضطراب القرابات ، والروابط العائلية الأصلية ، مع أن حفظ الأنساب أصل من أصول

الإسلام ، وقد كان أحد الأسباب التى حرم الله من أجلها الزنا ، والاشتراك بين أكثر من رجل واحد فى امرأة ؛ فالتبنى إذن افتراء تتبعه أخطاء ! .

ومن أخطار التبنى إيقاع العداوة غالبا بين الأولاد الشرعيين ، أو الأقارب الحقيقيين وبين الولد المتبنى بسبب النفقات أو الميراث ، وكثيرا ما يختل تصرف الرجل فى التبنى ، فيؤثر الدعى اللقيط بخيره وبره ، ويقدمه على أولاد صلبه ، وقد يحرمهم بسببه من الميراث ، وقد حدثت فعلا حوادث كثيرة فى هذا الباب ، أدت إلى جرائم قتل ، ونشبت عنها قضايا كثيرة معقدة ، ضاعت فيها جهود وأموال ، وتقطعت بسببها أواصر قربى ، وروابط محبة ، وعلائق أسر .

ومن أخطار التبنى سوء الاستغلال ، فقد يتبنى الرجل بنتا يبالغ فى إكرامها أولا ، ولكن عاطفة البنوة الحقيقية لا توجد ، فقد يسىء معاملتها على أخطاء لها مسرفا فى ذلك ، أو تشذ نفسيته فيتصل بها اتصالا غير شريف ، أو سوى ذلك من مواقف التحول عن جادة الطريق إلى التقصير أو الفجور ؛ ومن الممكن الميسور لمن يريد أن يكون حنونا عطوفا أن يفيض أنهار بره ، وأن يسبغ أثواب خيره على من يشاء ، جهرا وسرا ، دون لجوء الى هــذا التبنى الذى يحرمه الإسلام لما فيه من آثام .

وحسب التبنى شناعة أنه تشبه بالكافرين ، وتغيير لما صنعته يد الله ، وتحريف لما نظمه الخالق الكريم ، ولذلك قال الرسول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » . وقال : من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا (أو توبة ولا فدية) .

إن ميادين المساعدة كثيرة عديدة ، ومن أراد الخير والبر فلن يعدم ـ والله ـ لها طرقا وسبلا ، فما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإنها مدرجة الهاوية ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، وما وضعته يد الحكيم الرحمن لا تنقضه أبدا يد الإنسان ! . .



دوحة النور

لسماحة الأديب الكبير الأستاذ « السيد »

شجرة صناعية مورقة ، أقيمت فيها ثريات النور ، مقام الثمر والنوْر ، وقد جُعل عند أصلها طائر جميل الصنع ، هذه الكلمة فى وصف تلك الشجرة :

لقد أبدع الحسن حتى استلب ... وخف له القلب حتى وثب !

ومنها فى وصف الشجرة الصناعية :

نقل دجى الليل عن دوحة ... جرى النور فى زهرها فانسكب
لقد أورق الغصن حتى زها ... وشف به الزهر حتى التهب
لمن فن يحمل المبدعات ... كما يحمل العود حلو الطرب ؟
سرى من الحسن فى مترف ... من الغصن يزهى بنور عجب
عن السلك أومض نواره ... فهل مس قلبي حتى وجب
يحوم على حسنه للقلوب ... فراش إلى زهره يجتذب
جميل التوقد بدع الخنور ... كما لاح ثم تهاوى الحبب !
أزاهير تصدق وعد الضياء ... وما صدق الفجر حتى كذب

* * *

ومزهرة من بنات الرياض ... كما حليت غادة بالذهب !
من الدوح نزالة بالقصور ... كأن بها طفلة تغتصب !

سماء تألق بالنيرات فنجم أضاء ونجم غرب !
ثريات نور كمهر الجوى يغض الجوانح لاعن لهب !
تحلى بها الجنح حتى انجلى وخف بها الليل حتى ذهب
تجلت حلى وانثنت فجأة كما بودرت قبلة تنتهب
ضياء فكف كغمز الجفون ووجه تهلل ثم اكتأب
سناء صدعت به الداجيات مراحا كما شق ثوب الطرب
كأن الدجى نهبة للجمال فمكحوله منه والمختضب
مضى العلم يلعب فى دوحة وكم نزل الجد بين اللعب
فلو أعطيت حسنها المثمرات لأثمرن سلب النهى كالعنب
كست ظلها طائرا لو يفوه لأنشد فى حسنها بل نسب
زهته الملاحة حتى بدا وأطعمه الزهر حتى ارتقب

* * *

طريف الحياه وأين الطريف لا فى الجمال ولا فى النشب ؟
غنيت فساءلت أين الثراء وزهدت فى الحسن حين اقترب !
حسان العشيات أين الجمال أحين بدا أم غداة احتجب ؟
سئمت المعاد وأن الحياة كأنفاس أبنائها تستلب
حياة توقد بالفاجعات فنطعمها نحن جزل الحطب
كأن المنى قبلات البريد بنفسى لو غازلت من كثب
فوا كبدى هل يدوم الحديث وأين بفتانه المنتخب
فتنا وكم نعبد الزائفات بزيف الجمال وزيف الأدب
فتى لقبوه أمير البيان فأقبل يرزح تحت اللقب
هو الحق مطلبه فى الوفاق ضلال فسائل به من شغب !

في عالم المؤلفات الجديدة

اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم

منى الناس منذ القدم بالخلط بين الخصائص النبوية وبين الصفات الإلـٰهية ، وقد تمادت كثير من الامم فى هـذا الشطط حتى ألّهوا رسلهم ، وهذا ضلال بعيد تردى فى حمأته أكثرهم مبالغةً فى تعظيمهم ؛ لذلك شُرع آخر الأديان وهو الإسلام بالعلاج الحاسم لهـذا الشر المستطير ؛ فـكثر فى كتابه المنزل ما يدفع هذا الوهم عن العقول البشرية ، حتى لم يدع لوناً من ألوان البيان إلا أتى به حماية للنفوس من أن تلتاث بهذه العقيدة الباطلة . وقـد حمى الله المسلمين من شر هذا الكفر الصراح ، بحيث لا يخشى معه أن تروج لهذه البدعة دعوة مهما أوتى الداعى إليها من سحر البيان ، وخلابة اللسان ، ومهما تستر بالتمويه ، وتترس بالتأويل ، فإن النصوص التى وردت فى هذه المسألة لا تحتمل التضليل بأى وجه من الوجوه .

نعم إن رجالا من المضللين ظهروا فى عصور مختلفة روجوا بدعا من هـذا القبيل ونشروها فى فئام من صغار العقول ، إما مبالغةً منهم فى تقديس الرسول ، وإكبار شأنه ، وإما محاولةً منهم إفساد عقائد العامة لتمزيق وحـدة المسلمين ، فلم يوفقهم الله لبلوغ أربهم ، وبقيت العقيدة الإسلامية على نمائها الأول عنـد جمهور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبقيت بقايا من هذه الفرق تعانى الانحلال تحت تأثير النهوض الأدبى للمسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض .

ومن أفعل ما يعين هـداة هذه الشراذم على نجاح حركتهم التطهيرية كتاب جليل الشأن ألفه وطبعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المصلح الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر شيخ كلية اللغة العربية أسماه (اجتهاد الرسول) ، جمع فيـه كل

ما قاله أئمة المسلمين فى التفرقة بين الخصائص النبوية وبين الصفات الإلـهية ، فجاء أجمع كتاب فى هـذا الباب . وقد أجاد تبويبه وترتيب مباحثه حتى إن القارىء لا يكاد يتم فصلا منه حتى يشتاق لقراءة تاليه .

ويحسن بنا أن ننقل كلمة للأستاذ لتكون نبراسا لكل مسلم وهى :

« فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم ، ويرون أن الدنيا والآخرة من فضل جوده صلى الله عليه وسلم ، أو يعتقدون أنه كان يعلم كل ما كان وما يكون ، يعكسون آية رسالته ، ويضعونه فوق الرسول ويشبهونه بالله ، أو يجعلونه شريكا له . وليس ذلك مما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تحديد منزلته كما أمره ربه ، وليس ذلك يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

هـذا هو الاسلام

هذا كتاب حافل بالبحوث الدينية ، والمناقشات الفلسفية المتصلة بالاسلام وحكمته الاجتماعية ، وضعه الاستاذ النابه محمد عبد القادر العمارى للدفاع عن الدين من حيث هـو دين ، وعن الإسلام من حيث هو خاتم الأديان السماوية . سلك فيه سبيل التحليل الفلسفى للتيارات الفكرية التى كان لها أكبر الآثار على تطورات العقلية البشرية وإجماعها على مخاصمة الدين ، وبدأ بثورة أوروبا على الكنيسة ، التى كان طابعها الاعتماد على العقل وحده فى النظر إلى الأشياء والناس والكائنات على طريقة الفلسفة اليونانية ، حتى انتهى الأمر إلى عهد فولتير الفيلسوف الفرنسى الذى أبلغ العقل الى منزلة من التقديس لم يكن يحلم بها .

ثم عرج على الثورة الروسية التى جرت على تعاليم (كارل ماركس) وهى أشد عداء للدين من سابقتها ، ومر بثورة تركيا وأثبت من تعاليم أقطابها أنها هى الأخرى منابذة للدين ، ومتهمه إياه بأنه العامل الرئيسى فى دهورة الشعوب وتضليلها . وفاته التنويه بالثورة الفكرية فى مصر التى اختمرت فى عقول عدد

لا يستهان به من المتعلمين ، وأصبحت تهدد بالانتشار والذيوع كغيرها بين الطبقات المتعلمة فى العالم كله .

بعد هذه المقدمة شرع يبحث عن علة تأدّى الحالة النفسية للشعوب ، إلى ما آلت إليه من الالحاد . فقال : « إن الذى يتحمل المسئولية وتنصب عليه كل التبعات فى الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصمه بكل هذه الصفات كما رأيت ، إنما هم رجال الدين أنفسهم ، لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلية حرة تجديدية ، وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء الخ » .

وأنا هنا أخالف المؤلف كل المخالفة ، لا لأبرىء رجال الدين ، ولكن لأثبت أنهم لو كانوا قابلوا هذه الثورة على العقائد بكل ما يمكن أن يؤتوه من إحاطة بالعلوم ، ومن لسن ماض وبيان فياض ، لما استطاعوا أن يقفوا هذا السيل الجارف من التيار الإلحادى ، الذى يشكو منه المؤلف ، لأنه قائم على أصول فلسفية ومقررات علمية ليس فى وسع أحد زعزعتها إلا بالوسائل التى تماثلها أو تتفوق عليها تأثيراً فى النفوس ، وإقناعا للعقول .

ذلك أن العلم قرر ، بعد أن بلغ أشده ، فى دستوره الرسمى ، أن كل قول لا يستند إلى دليل محسوس لا يجوز الأخذ به ولا اعتباره علما ؛ فإن كان يحل بعض الاشكالات العلمية ، ولا يتعارض مع بعض المقررات السابقة ، يمكن اعتباره رأيا علميا ويضم إلى أمثاله من الآراء العلمية ، حتى يثبته دليل محسوس أو يلفظ نهائيا لحلول رأى آخر محله .

ولا يجهل أحد أن الدين يقوم على عقيدة ثابتة بوجود خالق للكون دبر عوالمه بقدرته ، وأرسل للناس رسلا ليهديهم إلى الصراط السوى من الأخلاق والمعاملات ، وأنه يعيدهم بعد الموت ويحاسبهم على ما فعلوا من خير وشر . والعلم الذى له السلطان اليوم على العقول يقرر أن كل هذه المقررات دعاوى أوجدتها الأهواء الإنسانية ، ودانت لها بدافع حبها للبقاء وإنها بقية من وساوس أهل القرون الخالية ، أوجدتها الجهالة ، وارسختها السذاجة الفكرية .

فكان لانتشار العلم فى هذه العصور المتأخرة ، وفيما تم على يديه من الفتوحات العظيمة فى عالم المادة ، أثر كبير فى خضوع العقول والقلوب لسلطانه ، وفى تلقف أحكامه وفلسفته الإلحادية بالقبول البالغ درجة التقديس .

فما دام العلم الذى يدرس فى جامعات العالم كله يقف من العقائد هذا الموقف ، فلا أمل فى إعادة سلطان الدين على العقول مهما بلغ نشاط دعاته ، إلا إذا غير العلم موقفه وخضع لسلطان الأدلة العملية القاطعة التى أثبتت أخيراً وجود العالم الروحانى ، وخلود الإنسان بعد الموت ، وقرر صحة النتائج التى وصل إليها العلماء الذين اشتغلوا بهذا البحث فى أوروبا وأمريكا ووصلوا منها إلى وجدان الأدلة الحاسمة الحاصلة على جميع الشرائط العلمية فى إثبات هذه الحقائق . وأى مانع يحول بين المسلمين وبينها وقد دخلت الجامعات الكبرى فى انجلترا وأمريكا ، وقال بها الوف من رجال العلم فى العالم كله ؟

هذه هى السبيل إلى إثبات صحة المقررات الدينية فى هذا العصر ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة للحد من شطط بعض شذاذ العلماء الذين لا يزالون ينشرون الفلسفة المادية فى أرجاء الأرض . وكل وسيلة غيرها لن تجدى نفعا ولو تذرع صاحبها بجميع المغريات الكلامية .

هذه الحقيقة يشعر بها على وجهها الصحيح كل من يشتغل بالعلم فى هذا العصر طالبا كان أو أستاذا .

هذا رأينا والكتاب الذى نحن بصدده وإن كان قد أغفل الالمام بهذا الحائل الشديد أمام كل دعوة دينية مهما كانت بالغة ، إلا إنه جدير بالقراءة لانه ألم بكثير من الشؤون العقلية والاجتماعية ، ونظر إليها نظرات صائبة ، وحاكمها محاكمات عادلة ، وهو حافل بآراء كثير من الذين سبقوه بالكتابة فى هذا الموضوع وقد ناقشها مناقشات قيمة دلت على منطقه السليم ، وعقليته الخصبة . فنحن لذلك نوصى بالاطلاع على هذا الكتاب فقد يفيد المتكلمين فى الدين فوائد قيمة .

تحقيق كلمة الاخلاص

هذه رسالة قيمة للحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ ، حققها وضبطها وعلق عليها صاحب الفضيلة الشيخ محمود خليفة المدرس بكلية الشريعة ، والشيخ أحمد الشرباصي المدرس بالأزهر جاء في مقدمتها قولهما :

« وبعد ، فإن كتاب (تحقيق كلمة الإخلاص للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي من نوادر الكتب ، فهو على صغر حجمه جليل الأثر ، حميد الثمر ، من حقه أن يكون تحفة دينية يتهاداها أبناء الإسلام ويجيلون فيها أبصارهم ، ويعملون في معانيها بصائرهم ، ولا غرو فقد بسط فيه ابن رجب ما انطوت عليه كلمة الإخلاص وهي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من أبكار المعاني وإسرار الأفكار » .

وقد وفاه حضرتا ناشريه الفاضلين حقه من تحقيقه وضبطه ، والتعليق عليه ، والترجمة لرجاله ، وشرح ما يحتاج إلى شرح من ألفاظه وعباراته . فجاء حافلا بهذه التحقيقات والشروح حتى زادت على مادة الأصل نفسه ، وكلها مما يحتاج إليه تاليه ، من معاني الألفاظ ، ومؤديات العبارات ، وتراجم الرجالات ، على ورق جيد ، وطباعة متقنة ، فجاء كما قالا تحفة يتهاداها أبناء الإسلام ، فنشكر لهما ما بذلاه من جهد في نشرها ، وما عنيا به من إتقان في طبعها .

تصحيح خطأ

حدث خطأ في المقال الافتتاحي صفحة (٥٧٨) فسقط بعد كلمة (الحاجة) في السطر العشرين منها هذه العبارة وهي (على وجه لم يرضه أصحاب رءوس الأموال) فنرجو القارىء أن يضعها بالقلم بين السطرين ليستقيم المعنى .

مصائب الدخان

هذه رسالة تقع فى مائة وعشرين صفحة أتى فيها مؤلفها حضرة الأستاذ محمد عبد الغفار الأفغانستانى فى تعداد مضار التبغ، على فصول كثيرة فى التنديد به وبمدخنيه. ومما ذكره نقلا عن حضرة الدكتور صلاح الدين عبد النبى الإخصائى فى الأمراض العصبية هذه الفذلكة وهى:

«كانت عادة التدخين منتشرة فى أمريكا حينما اكتشفها (كريستوف كولومب) إذ كان أهلها يضعون بعض الأعشاب فى مواقد النار ثم يستنشقون الدخان المتصاعد منها ويخرجونه من أفواههم وأنوفهم. ثم نقلت بعد ذلك شجيرات التبغ إلى أوروبا وعرفت باسم (نيكوتينا) نسبة إلى نيكوتين سفير البرتغال فى جنوب أمريكا، وذاعت منذ ذلك الحين عادة التدخين حتى سيطرت على جميع شعوب العالم».

ثم نقل عن حضرة الدكتور المذكور قوله: «إذا أصبح الإنسان أسير عادة الدخان فانها تؤثر تأثيراً سيئاً فى صحته من غير شك وبخاصة فى القلب إذ تضطرب دقاته والدورة الدموية، ويشعر الإنسان بالدوار من آن لآخر نتيجة تقلص شرايين الدماغ، وقد يتعرض مع تقدم السن لضعف الدم المرتفع والذبحة الصدرية، كما ان جهازه الهضمى والتنفسى يتأثران بالتدخين فيفقد المدخن شهية الأكل وينتابه السعال المعروف بسعال التدخين. وإذا تأثر الجهاز العصبى يشعر المدخن بتنمل وخدر فى الأطراف وبآلام فى الأعصاب.

وقال جوزيف برن مدير دار التجميل الامريكى: «ان وجوه السيدات المدخنات تغدو ظمآنة عجفاء هزيلة ضامرة وضعيفة ومخروطة ما دام قد تمكنت منهن عادة التدخين. وتجتمع الغضون حول زوايا أفواههن، وتمتد شفتهن السفلى إلى الأمام، وتبرز تحت الشفة العليا، وتحملق عيونهن، وتسترخى جفونهن».

وقال الدكتور تسارلس باير من مدينة شيغا الأمريكية: «إن طفل المرأة المدخنة يولد ضعيفا منهوك القوى فهو متسمم الجسم، وقد يموت فى غضون الاسبوعين الأولين من ميلاده حيث تبين من الوصفات التشريحية أن أسباب الموت فى أطفال المدخنات كانت ترجع إلى تلف الكبد والقلب وغيرها من الاعضاء الرئيسية».

وكتاب الأستاذ الأفغانستانى يحتوى على كثير من الفوائد المليئة بمكافحة آفة التدخين فنشكره على همته فى وضعه ونرجو له التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

فى عيد الجلوس الملكى

احتفال البعوث الإسلامية للأزهر

احتفلت البعوث الإسلامية بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول فى يوم السبت السادس من شهر مايو سنة ١٩٥٠ فى فناء كلية اللغة العربية ، فأمه عدد كبير من العظماء ، وأصحاب الفضيلة العلماء ، وكبار الموظفين ومئات من طلاب العلم تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر ، وشرف ذلك الاحتفال مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، حضرة صاحب العزة أحمد حسن بك السكرتير الخاص المساعد لجلالته .

وقد بدأت هذه الحفلة وختمت بتلاوة آيات من القرآن العظيم ، ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة ، فافتتح الحفلة بكلمة بليغة ذكر ما يخامر قلوب أفراد البعوث الإسلامية من الشعور بالعناية الملكية ، التى تحوطهم بالعطف والرعاية ، وتمكنهم من طلب العلم والعيش فى ظلاله ، بما رتبت لهم من المخصصات الشهرية والهبات السخية .

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبدالحميد طاهر مراقب تلك البعوث ؛ فألقى كلمة بين فيها ما لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم من الأيادى البيضاء على هذه البعوث ، بما يمدهم به من عطفه السامى ، وما يخصهم به من الرعاية العظيمة خدمة للدين ، وعناية بهؤلاء الطلبة الأنجاب الذى هاجروا بلادهم ، وفارقوا أهلهم طلباً للتفقه فى الدين ، ورغبة فى نشره بين أقوامهم إذا رجعوا إليهم ، فقوبلت هذه الخطبة بالإعجاب والتقدير .

وبعد ذلك توالى على منبر الخطابة نحو ستة وثلاثين خطيباً من نجباء طلاب البعوث الإسلامية فألقى كل منهم كلمة، شكر الله تعالى فيها على ما حباهم من عناية جلالة الملك المعظم، فأمكنهم بفضل رعايته أن يبلغوا أربهم من تلقى العلم، ويسر لهم وسائل التوفر عليه، بما جادت به مكارمه عليهم من المرتبات الشهرية، فكان اجتماعهم فى صعيد واحد، وإجماعهم على ما يجدونه من جود جلالته وعنايته بهم، من المشاهد التى تثير الإعجاب، وتوجب الإكبار.

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر [1]

شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى

أبنائى طلاب البعوث الإسلامية:

السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد: فلقد سرنى وأثلج صدرى أنكم فى هذا اليوم السعيد المبارك، قد جمعتكم محبة مولانا الفاروق العظيم، فجئتم على قلب رجل واحد، تحتفلون بعيد جلوسه السعيد الذى فاض على البلاد بمقدمه الخير العميم، وعم بمطلعه اليمن والبركات، وامتدت هوارفه فشملت البلاد الإسلامية جميعها؛ فأصبحت كلها تستظل بظله الوارف، وتنعم بعطفه السابغ، وتستضىء بنوره الهادى.

وإنى إذ أقدر فيكم شعوركم بالوفاء لولى النعم، مولانا الفاروق المعظم الذى جمع شمل أبناء المسلمين من شتى بقاع الأرض فى صعيد واحد، ليربطهم جميعا برباط الأخوه الإسلامية، ويقوى بينهم أواصر المحبة والألفة والتعاون، وليملأ قلوبهم بمحبة الله، وعقولهم بالعلم والحكمة، وينير بصائرهم، ويرشدهم فى دين الله ليكونوا خير هداة لشعوبهم وأممهم إذا رجعوا إليهم، وأصلح دعاة ومرشدين تتحقق بهم أمنية الملك الصالح العظيم، من رفع لواء الإسلام فى الخافقين،

---

[١] طبعت خطب البعوث الإسلامية ووزعت على الموجودين بعد الحفلة، وقد قدمها فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى بهذه الكلمة القيمة.

والنهضة بالشعوب الإسلامية ، نهضة تعيد لها سالف مجدها ، وتضمن لها مكانا رفيعاً ، تتصدر به أمم الأرض فى توطيد المحبة والسلام .

أرجو أن تعكفوا على العلم ، وأن تستزيدوا من المعرفة ، وأن تحرصوا على كتاب الله وسنة رسوله وفضائل دينه الحنيف ، وأن تفيدوا من هذه الفرصة الذهبية التى طوعتها لكم أريحية الملك العظيم ، بما لم يعرفه التاريخ من قبل . فقد رعاكم مولانا العظيم - رعى الله عرشه وأيد ملكه - ويسر لكم سبل الحياة ، وأفاض عليكم النعم ، وهيأ لكم كل ما يوفر لكم الانصراف إلى العلم هادئين مطمئنين . . . فاعملوا يا أبنائى جادين لترضوا الله ورسوله ، وتحققوا أمل الفاروق العظيم فيكم ، فإن الأمة الإسلامية كلها تعقد على شباب الإسلام فى ظل الفاروق المحبوب أكبر الآمال .

وإنى لأتوجه فى هذه المناسبة الكريمة باسمكم واسم الشعوب الإسلامية جمعاء ، والأزهر الشريف علمائه وطلابه ، بالتهنئة الصادقة ، إلى مولانا المعظم الملك فاروق الأول - أعزه الله - بهذا العيد السعيد ، رافعاً أكف الضراعة إلى الله أن يصون ملكه ، ويحفظ عرشه ، ويحقق للإسلام والمسلمين على يديه المجد والعظمة ، وأن يحييه حياة طيبة مباركة يعم نفعها البلاد والعباد .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك

سادتى ، أبنائى :

نحتفل اليوم بعيد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول أعزه الله ، وقد طلب أبناؤنا طلاب البعوث الإسلامية بالأزهر أن يكون لهم شرف الاحتفال بهذا العيد الميمون ، للإعراب عما تكنه نفوسهم من الحب والولاء والإخلاص لصاحب العرش المفدى .

ولما رفعت إلى مسامع جلالته هذه الأمنية تفضل حفظه الله ، فشمل هذا الحفل برعايته السامية ، وأرسل سعادة المندوب ليكون للحفل مظهر الشرف والتكريم ، وأمر بأن تهدى صورته الكريمة للطلاب رمز حبه لهم وعطفه عليهم .

وفى الحق أن تنظيم أمور البعوث الإسلامية بالأزهر لم يكن إلا جانبا من جوانب الإصلاح العامة ، التى تمت فى الأزهر بإرشادات حضرة صاحب الجلالة الملك .

فمنذ سنة ١٩٤٤ تقرر بقانون ، إنشاء قسم للبعوث الإسلامية بالأزهر وأصدر المجلس الأعلى لائحة بتنظيم هذا القسم . وبهذا التنظيم أصبح من الممكن للطالب الذى يحضر من بلاده لتلقى العلم بالأزهر أن يدخل الكليات أو المعاهد إذا أراد أن يتعلم على النظام الحديث ، أو أن ينتظم فى هذا القسم الجديد إذا أراد أن يتعلم على طريقة الأزهر الأولى .

ومع هذا فقد أعدت دراسات خاصة للطلاب الذين لا يعرفون اللغة العربية تؤهلهم للدخول فى الكليات أو المعاهد أو للسير فى هذا القسم .

وبإرشاد جلالة الملك وتوجيهاته السامية ، أعدت للبعوث مساكن مؤقتة ، ومضاءة بالكهرباء يجدون فيها راحتهم وطمأنينتهم ، كما رتبت لهم إعانات شهرية تنفعهم فى معيشتهم وتعينهم على طلب العلم .

وجلالته يتعهدهم دائما بالسؤال عن أحوالهم ، وما هم عليه من راحة وهناءة . ولما بلغ إلى مسامع جلالته أن ميزانيتهم أصبحت لا تكفى أمر - حفظه الله - بصرف مبلغ عشرة آلاف جنيه مرة ، وفى هذه الأيام القريبة أمر بصرف خمسة وعشرين ألفا حتى تصدر ميزانية الأزهر العامة .

فحقيق بهم وهم ينعمون بهذه المزايا العظيمة ، والعطف السابغ ويعيشون تحت وارف ظله ، أن يذيعوا على الملأ ما يملأ قلوبهم من صادق الولاء وخالص الحب لذاته الكريمة . وأنى أكتفى بهذا وأترك لهم الفرصة لينالوا أكبر قسط من الوقت فى إذاعة كلماتهم التى أعدوها .

حفظ الله الملك ، وجعله ذخرا للإسلام والمسلمين ، ومنارا للعلماء والطلاب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة

مراقب البعوث الإسلامية

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد طاهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

فى مثل هـذا اليوم منذ أربعة عشر عاما ، جلس على عرش أجداده الأمجاد ، عرش الأسرة العلوية المجيدة ، ملك إسلامى عظيم ، وملك شرق جليل ، هو حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، الملك فاروق الأول ، حفظه الله وأبقاه .

حقاً إنه ملك إسلامى بعيد المدى عظيم الأثر ؛ إذ ما كاد يتولى الملك وهو فى إبانه ونضرة شبابه ؛ حتى أخذ فى خدمة الإسلام والمسلمين ، وفى رفع شأنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكم من المشاكل الكبيرة الكثيرة التى وقعت فى هذه السنين الأخيرة ؛ والفضل فى حلها وتبسيطها وتذليلها ، عائد إلى جلالة الملك فاروق ، بما أعطاه الله من جاه ونفوذ وشجاعة ، وسداد رأى ومحبة وإيمان .

وإنها لمزايا خص الله بها جلالة الفاروق ، حتى جعل عرشه ملاذاً للمسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، كما جعل شخص جلالته رمزاً لآمانيهم ومعقداً لرجائهم وقبلة لأفئدتهم ؛ وحتى صارت محبة الفاروق جزءاً من حياتهم . وإنك مهما تمش فى مناكب الأرض ، فلن تجد مسلماً يجهل الفاروق ، بل إنك لتجد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ينطقون باسم الفارق ، ويتعلقون بشخصه المحبوب ويعقدون الآمال عليه ، ويزينون بيوتهم بصورته ، ويباركون أبناءهم باسمه ، ويبعثون إليه بتحياتهم ، ويدعون له فى صلواتهم .

وليس عجيباً أن ينعقد إجماع المسلمين والشرقيين على حب الفاروق ، هذا الحب النادر الفريد ، فقد مرت بالناس ظروف من الشدائد والمحن ، وتوارت

فى النفوس ، دينية واجتماعية ، كادت تهدد كيان الأسرة الإسلامية الكبرى ، وتقلب الأوضاع الاجتماعية ، والأسس الدينية ، لولا نجدة الفاروق ومبادرة جلالته بإحياء القوة المعنوية ، والأخذ بالشعائر الإسلامية والتقاليد الشرقية ، وإبرازها فى أجل مظاهرها ، والحث عليها ، والدعوة لها ، والعمل بها ، فكانت بذلك حركة الإنقاذ الحاسمة ، وما ذلك إلا بفضل عناية جلالته ، ودقة توجيهاته وسرعة إرشاداته العالية الغالية النفاذة .

حقا : حقا لقد أنقذ الإسلام والشرق من تلك الأباطيل المادية ، والمبادىء الهدامة ، ورفع من معنويات المسلمين والشرقيين ، فشعروا بالقوة الكامنة فيهم ، كما شعروا بقيادة الفاروق وبعد نظره .

ولقد كتب جلالة الفاروق منذ اليوم الأول أنصع صفحة فى التاريخ ، وسيبق على الأجيال المتعاقبة أعظم مثل لشباب الملوك فى وثباتهم ورزانتهم وتجاربهم .

وإنى وقد جئت إلى هذه الصفات النادرة فى الملوك ، فلن يفوتنى أن أذكر بالتمجيد والتعظيم ملك مصر الراحل العظيم فؤاداً الأول ، أسكنه الله فسيح جناته ، وما كان له من الأيادى البيضاء التى تذكر فتشكر : هو مؤسس النهضة الفكرية والاستقلالية ، وواضع الحجر الأساسى للنشاط الثقافى والاجتماعى ، وموطد الحركة الدينية والتعليمية ، وهكذا : هذا الشبل من ذاك الأسد .

سادتى :

هذه هى جماعات البعوث الإسلامية الناضرة بالأزهر ، وفدت من جميع أنحاء العالم ؛ تلك الشبيبة التى هى عدة الإسلام فى المستقبل ، هم سفراء أممهم إلينا كما هم سفراؤنا إلى أممهم ، هم رسل الإخاء الإسلامى ، وهم رسل التوحيد الإسلامى .

هذه الشبيبة الفتية إنما هى بعوث الأمم الإسلامية ، جاءوا فى هذا اليوم السعيد ، يحتفلون بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق ، ملك لا يرتبط ملكه بعرش دون عرش ؛ فهو ملك لكل واحد منهم ، إذ قد تملك على الأفئدة بما أغدق عليها من نفحاته وما منحهم من تعطفاته ، حتى أكمل لهم دواعى راحتهم فى معيشتهم ودراساتهم . ولا غرو إذا كانوا ألسنة تلهج بفضل الفاروق والإشادة بعظمته وعنايته ، إخلاصاً وولاء ومحبة إلى يوم يبعثون .

وقد تجلت نتائج هذا الاهتمام الملكى السامى ، فتنوعت البعوث وازداد عديدها ، وازدهرت فبلغت أقصى مابلغت إليه ، إذ وصل عددهم اليوم ألفا وستمائة طالب نجيب ؛ فى حين أنه لم يبلغ فيما مضى أكثر من نصف هذا العدد ، مع زيادة العناية بتنظيم حياتهم الاجتماعية والتعليمية والمعيشية .

سادتى :

إنى أتشرف بأن أرفع إلى المقام الملكى السامى فروض الشكر على تفضل جلالته برعاية هذا الحفل ، وإيفاد مندوبه السامى تكريما لهذه البعوث ؛ كما أدعو الله تعالى أن يحفظ جلالته ، ويديم ملكه ، ويبقيه ذخراً للإسلام والشرق .

ذكرى وفاة الملك العظيم فؤاد الأول

فى يوم الجمعة الموافق ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٠ اجتمع عدد كبير من كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء وطلاب الجامعة الأزهرية ، للاحتفال بذكرى المغفور له الملك العظيم فؤاد الأول ، فى فناء كلية اللغة تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبدالرحمن حسن وكيل الأزهر، وقد شرف هذا الاحتفال سعادة أحمد حسن بك وكيل ديوان صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول .

بدأ الاحتفال بتلاوة آيات من الكتاب الكريم ، ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر وألقى كلمته القيمة فى مناقب الملك فؤاد ، وما تم على يديه من اصلاحات مادية وأدبية للأمة وللبلاد، فكان لها وقع حسن فى الأسماع والقلوب . ثم أعقبه ثلاثة خطباء من الطلبة المنتهين ، وألقى كل منهم كلمة فى تعداد مآثر المغفور له الملك الكبير على الأزهر والأزهريين .

وبعد أن تم إلقاء الخطب نهض سعادة وكيل الديوان الملكى فوزع على الأوائل المتقدمين جوائز من نقود وصور ، وتم الاحتفال بقراءة آيات من القرآن العظيم والدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق بطول البقاء .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة وكيل الازهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك .

أيها السادة :

فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ لحق بالرفيق الأعلى عاهل مصر ساكن الجنان ، المغفور له الملك فؤاد الأول ، بعد أن أدى لشعبه الوفى خير ما يؤديه ملك عظيم لأمته ووطنه .

كانت الحماية البريطانية على مصر شغله الشاغل ، كما كانت كذلك بالنسبة للأمة ، فعمل بما وهبه الله من الجلد ، والصبر وحسن التدبير لاستخلاص مصر من هذه الحماية ، وكان لعمله أثر عظيم فى تقوية روح الأمة فى جهادها وثباتها فى هذا السبيل ؛ حتى كانت منه ومن الأمة قوة عظمى ، حفزت الحكومة البريطانية على إعلان رفع الحماية واستقلال مصر ، ثم أعلن هو للملأ أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنه اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر ، وأصدر الدستور على أحدث النظم الدستورية ، وافتتح البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

كانت هذه الفترة من حياة الملك فؤاد منذ تولى عرش مصر من أشد الأيام وأشقها ، ولكن كان له من قوة نفسه ، وحسن سياسته وتقديره للأمور ما جعله ينهض بالعبء ، ويناصر الأمة فى جهادها ، ويخطو بمصر إلى الأمام حتى صارت دولة مستقلة دستورية ، تبوأت مكانتها بين أمم العالم المستقلة .

وكان للملك فؤاد أعظم الله مثواه ، شغف عظيم بالإصلاح فى شتى مرافق الأمة ، فسارت الحكومة مسترشدة بآرائه وحسن تدبيره فى الإصلاح بخطى محمودة موفقة ، حتى عم الإصلاح النواحى المختلفة من الصحة والرى والزراعة والصناعة والتشريع والتعليم وغير ذلك .

وكان للإصلاح التعاونى فى عهده الزاهر أثر ملحوظ فى سريان الروح التعاونية بين طبقات الشعب ، وإقدام الجماعات على إنشاء الجمعيات التعاونية على اختلاف أنواعها مما أفاد الأمة إفادة عظمى ، خصوصا فى الأوقات الحرجة التى مرت بها .

والتعليم ، وإن كان قد خطى فى عهده الميمون خطوات طيبة ، حيث ارتفعت فيه نسبة المتعلمين من ستة إلى ١٨ ٪ ، وفى الذكور إلى ٢٦ ٪ إلا أن هناك أمران جديران بالتنويه والإشادة بمآثره فيهما وهما : الجامعة المصرية والأزهر .

أما الجامعة المصرية التى تعد مفخرة من مفاخر مصر ، بل هى بحق مفخرة فؤاد العظيم ، فقد أشرف على تأسيسها منذ كان أميرا وعمل على إنجازها ، ومع ما صادفه وأعضاء اللجنة من الصعوبات ، أمكن افتتاحها فى سنة ١٩٠٨ ، ثم أخذ

يرعاها ويتعهدها ويقويها بكل ماله من نفوذ وجاه إلى أن صارت جامعة فؤاد الأول ، ووضع بيـــده حجر الأساس لبنائها الفخم القائم الآن ، واستمرت فى رعايته الى آخر حياته .

أما الأزهر فكان رحمه الله شديد الاهتمام بشأنه ، وكان من أعز أمانيه أن تصلح أموره على الأسس الصالحة التى تمكنه من القيام برسالته على وجه يحقق الفائدة المرجوة منه ، وذلك بنشر تعاليم الإسلام بين الناس فى مصر وغير مصر ، وتعريفهم جميعا ما فيها من خير وهدى ونور .

زار جلالته الأزهر عقب توليه عرش مصر بأيام ، ووهب طلابه مبلغاً عظيما من المال ، ولم يلبث أن أصدر أمره الكريم بترتيب جائزة سنوية للمتفوقين فى شهادة العالمية ، وهى الجائزة التى توزع اليوم على الطالبين الاولين من كل كلية من الكليات الثلاث .

كان لهذه الرعاية الكريمة أثر بالغ فى نفوس الأزهريين ، لما فيه من مظهر التكريم لهم ولمعهدهم العظيم من الجالس على عرش مصر ، وقد أصدر عدة قوانين ومراسيم إصلاحية ، كان من أهمها القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٢٣ ، وهو القانون الذى نظم أقسام التخصص فى الأزهر ، فكان له أثر عظيم فى تعويد العلماء على البحث العلمى المستقل والتأليف . وفى الأزهر الآن مئات المؤلفات من الكتب والرسائل التى ألفت فى عهده الزاهر . وما الحركة الوعظية المباركة التى انتشرت فى أنحاء البلاد ، فكان لها الأثر المحمود فى إصلاح النفوس وتوجيهها إلى الخير ، إلا من آثار هذا الإصلاح فى عهده .

وبعد هذه الخطوات المباركة ، كان الإصلاح الشامل الذى قصد به أن ينهض الأزهر نهضة قوية يساير فيها النهضة العامة فى العصر الحاضر ، مع المحافظة على آثار الفكر الإسلامى وما فيه من علم ومعرفة ، فأصدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذى نظم الأزهر تنظيما جامعيا ، وأدخلت فى تعليمه اللغات الأجنبية والشرقية ، وأمر طيب الله ثراه بإعداد المبانى الفخمة ، التى تناسب هذا النظام ، فكان ما أراد ، ورصدت الحكومة مئات الألوف من الجنيهات لهذا الغرض .

وها هو ذا الفاروق العظيم — أعزه الله — يتم ما بدأه والده العظيم من هـذه المنشئات، وقريبا تتم إن شاء الله.

كان من أثر هذه النهضة الإصلاحية المباركة، التى رباها فؤاد العظيم، وأحاطها بعنايته وحسن رعايته، أن اتصل الأزهر بأوربا وغيرها، فأرسل عـدة بعوث من العلماء إلى جامعات أوربا للتزود من العلم، وأرسل بعوثا أخرى إلى بعض البلاد لنشر الدين والثقافة الإسلامية، وتعريف الناس ما فى الإسلام من خير وصلاح للمجتمع.

وفى الحق أن للملك فؤاد مآثر عظيمة على الأزهر والأزهريين، ولو ذهبنا نعدد مآثره من إنشاء المعاهد والأبنية الفخمة، ورفع ميزانية الأزهر إلى أضعاف ما كانت عليه، وغير ذلك من الشئون، لما وسعنا هذا المقام.

رحم الله فـــؤاداً العظيم، وجعله فى أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

بينا فى مقالنا السابق ، ما للرابطة الأدبية من تأثير على حياة الاجتماع ، وانتظام وجوده ، واطراد ترقيه ، فإذا تأثرت بأقل عارض اضطرب له جثمان المجتمع ، وتزلزلت أركانه ، وآذنت بالتصدع والانهيار ، إذا لم يبادر حفظة تلك الرابطة إلى إزالة ذلك العارض . وما الثورات التى يشب أوارها فى المجتمعات ، فتندلع ألسنته فى جميع نواحيها ، وتأتى على الأخضر واليابس منها ، إلا نتيجة كما قلنا ، لتأثر تلك الرابطة . وهى تتألف من ركنين عظيمين : دين الأمة وعاداتها المألوفة ، وتقاليدها الموروثة .

ولما كان من المحال أن تقيم الأمم على حالة واحدة من الحياة والعادات والتقاليد ، ما دام ناموس الترقى عاملا رئيسيا فى حياة الأمم ، فلا مندوحة من طروء تأثرات متوالية من ناحيته عليها ، فلا تنقطع مادة الثورات والانقلابات الاجتماعية فى أدوار متقاربة أو متباعدة من حياتها .

نعم ، قد يظهر أن ناموس الترقى عديم التأثير فى بعض الجماعات البدائية ، فإن منها من مضى عليها عشرات من القرون ، وهى ملازمة لحالة واحدة لاتريم عنها ، ولكن لذلك أسباباً طبيعية ، وهى أنها تقيم بعيدة عن العمران ، وتعيش فى بيئات مجدبة لا تحصل فيها على مقومات حياتها إلا كدا ، فلا تجد أى حافز يدفعها ، لأن تتقدم خطوة واحدة فى مجال الحياة . فإن طرأت انقلابات اقتضت أن تقرب منها جماعة أخرى أرقى منها ، وحدث اتصال بينهما ، كان ذلك فاتحة انتقال لها من حال إلى حال أخرى أرفع منها ، بما تقتبسه من وسائل جارتها ، وما تستفيده من تجاربها ، ووجد ناموس الترقى مجالا له فى بعثها من رقادها . على أنه قد شوهد أن من الجماعات من جمدت على ما هى عليه ، فأصبحت تستعصى على الترقى ولا تقبله مهما كان جذابا ، كهنود أمريكا الشمالية والجنوبية

فقد احتلتهما الدول الأوربية منذ قرون ، ففضل أهلها الأولون البعد عن المتمدنين والعيش على أسلوبهم متوحشين ، على أن يحسنوا من شأنهم باقتباس ماهم فى حاجة اليه من نظم الاجتماع ، وما هم محرومون منه من وسائل العيش الرغيد ، ولا يزالون يعيشون على طريقتهم القديمة بعيدين عن العمران ، وتحت تأثير عـــوامل الانقراض والفناء .

فناموس الارتقاء هـو الحافز الأول فى بث روح الثورة فى الجماعات ، وهى وإن كانت تسبب كثيرا من المتاعب لها ، إلا أنها بما تستتبعه من الانتقالات الأدبية والمادية تعتبر من الضروريات للجماعات . على أنها من العوامل الخطرة ، وخاصة إذا كانت تشب فى طائفة تجاور أخرى مزاحمة لها فى البقاء ، فإنها بما تحدثه من التفكك فى رُبُطها ، وما تستدعيه من الفوضى فى نُظمها ، تسهل لجاراتها الإجهاز عليها .

وإذا تأملنا فى بواعث الخلاف الذى يؤدى إلى تناحر الآحاد فى الجماعة الواحدة ، تحت تأثير عوامل الارتقاء ، وجدناه يرجع إلى أسباب دينية وعادية . فالأديان بما تشاب به من الخرافات ، والعادات بما تلتاث به من الجمود ، قد تصبح عوامل معطلة للارتقاء ، وقد يدرك هـذه الحقيقة جمهور من النبهاء ويعملون على التجديد ، فيخيل للجامدين أنهم أصبحوا خوارج على تراث الآباء من عادات ومعتقدات ، فيحقدون عليهم ، ويتداعون إلى الإيقاع بهم ، فتشب نار الثورة بين الإخوان ، ثم تخمد بغلبة أحد الفريقين ، فإن كان الفائزون هم المحافظون ، ازدادت الجماعة تقهقرا فى مجال الحياة ، وإن دارت الدائرة عليهم استطاع المجددون أن يخطوا بمجتمعهم خطوة أو خطوات فى سبيل الارتقاء . وهـذا التدافع الاجتماعى لا مناص منه حتى فى أدوار الرسالات السماوية . ألم تصادف رسالة الإسلام ، وهو الدين العام ، من هذا التدافع ، مع نصوع أدلتها ، وتجلى حكمتها ، ووضوح الحاجة إليها ، ومن التألب على أبطالها ، ما يعتبر من أغرب أطوار الحالات النفسية والعقلية للجماعات البشرية ؟

كل هذا مسلّم به ، ولـكن تأمل فيما حدث بعد أن تكونت أول جماعة للمسلمين : تألفت هذه الجماعة من شتى القبائل العربية ، ولكل منها عقائد موروثة ،

وتقاليد مألوفة ، وعادات امتزجت بنفوسهم ، كـكل جماعة بدائية لم يهذبها علم ، ولم تقوّمها حكمة ، فهى وإن كانت قبلت الدعوة المحمدية ، فلم تتجرد من شخصيتها البدوية ، فكان المعقول أن تفهم ما يلقى إليهـا من التعاليم على أسلوبها ، فتحوّله إلى ما درجت عليه من سيرتها ، وتجمد عليه كما جمدت على موروثاتها قروناً طويلة ، وتقع من جـديد تحت سلطان ناموس الـترقى ، فتكابد من جمودها وعوامله ، ما تكابده كل جماعة فى مثل عقليتها . ولـكن الأمر لم يجر على هذه السنة الطبيعية ، بل جاءت سيرتها خارقة للعادة ، تعتبر بحق أكبر معجزة وقعت فى هذا العـالم . ذلك أن هذه الجماعة أخذت تزداد كل يوم عدداً ، وما مضى عليها سنوات معدودة حتى انقلبت إلى أمة فاتحة ، ذات نعرة إصلاحية مدوّية ، وما هى إلا ثمـانون سنة حتى أصبح لهـا أمبرطورية لم تتبَـغ لأمة قبلها ولا بعـدها ، وما بلغت سنها مائة وخمسين سنة حتى آلت اليها خلافة الله فى الأرض ، فصارت جامعاتها العلميـة محجاً لطلاب العلم من جميع بقاع المعمورة ، ودورها الصناعية مورداً عِذًا لطلاب الفنون الجميلة ، ومكتباتها الفخمة ملتقى لعشاق المعرفة ، وفلاسفتها وأطبـاؤها وفلـكيوها وكيماويوها ومشترعوها أئمـة لـكل راغب فى الغايات القصية .

حدث كل هذا دون أن يحدث شىء من التدافع بين طوائفها ، إلا ما لابد منه عنـد ميلاد كل رأى جديد ، أما الثورات المسلحة ، وأما الدماء المهراقة ، وأما التطاحن الماحق لطيبات الأمم ، بسبب التنافس بين أنصار القديم ، وأصحاب الجديد ، فلم يكن له أثر فى تلك الملايين الـكثيرة من المسلمين فى تلك العصور البعيـدة . فأين ما ذكرناه من أفاعيل ناموس الترقى فى الجماعات البشرية ، وقد بدأ المسلمون جماعة أميـة لا عهد لها بكتاب ولا علم ، وما زالت تتطور بسرعة لم تعهد فى تاريخ أمم العالم أجمع ، حتى وصلت إلى ماوصلت إليه من سعة فى الملك ، وكثرة فى العدد ، حتى صارت أكبر دولة فى الأرض ؟ فأين التـدافع الاجتماعى الذى يصيب الجماعات عند كل مرحلة من مراحل التطورات المدنية ؟ بل أين الانقلابات المدوّية التى تصاحب كل حضارة فى أدوار الانتقالات التجديدية ؟

عجب لا يشبهه عجب ! لقد اتبعت هذه الأمة من سنة التطور ما يكابده الطفل من يوم ولادته حتى يبلغ أشده ، دون أن يصيبه مرض يقفه عن النمـو ، ولم

تؤثر عليها الفواعل المحيطة بها ، بما يحول بينها وبين بلوغ غاية نموها ، على كثرة العوامل العالمية التي كانت تحتوشها من كل جانب ، حتى صدق عليها قوله تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

نعم إن الذين يؤمنون بالتأييد الإلهى ، والتوجيه السماوى للأمم ، هم وحدهم الذين يفهمون فى هذا الموطن معنى هذا التأييد الإلـهى ؛ أما الذين لا يؤمنون به ، ويرون أن العـالم يجرى على السنن الطبيعية ، دون أى تأييد فوق الطبيعة ، فلا يستطيعون أن يفهموا سر تطور المسلمين من أول مراحل الاجتماع ، حتى يصلوا إلى خلافة الله فى الأرض ، بعد سنين معدودة لا تكفى لنقل جماعة سوام درجة واحدة من درجات الرقى ، دون أن يمنوا بانقلابات تتزلزل لها الأرض التى تحت أقدامهم ، وتضيق لها المنادح التى أمام أعينهم !

نعم إن هذا الأمر المعجز أثر ناطق للتأييد الإلهى المباشر ، وللتوجيه السماوى المحكم ، ليكون لأهل القرون المتأخرة آية تخر لهـا العقول ساجدة ، وتؤيدها العلوم جاهدة ، فتتغلب على الشبه والشكوك التى يثيرهـا الملحدون حول أمثال هذه المعجزات الخالدة . ولـكن أنّى لهم إنكارها ، وقد ملأ الخافقين لألاؤها ، وعم العالمين سلطانها ، وبقيت إلى اليوم آثارها ، فلا يتسنى لأحد إنكارها ؟

قلنا إن الروابط الأدبية للأمم تتألف من ركنين : أديانها وعوائدها ، فإذا كانت الأمة الإسلامية قد مثلت معجزة اجتماعية تعتبر غاية الغايات فى الجلالة ، فإنما يرجع ذلك إلى دياناتها دون عوائدها ، لأنها أعلنت بإسلامها أنها قاطعت جميع عوائدها ، اكتفاء بما تمدها به دياناتها من آدابها ، وبذلك ينحصر سر نهضتها بتلك السرعة والثبات المحيرين للعقل ، فى دياناتها ، فرأينا أن نبدأ فى دراستها من الناحية التى نحن بصددها من العدد المقبل إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

السنة التشريعية :

ولاية المرأة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي بكرة نفيع بن الحارث ، قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى ، قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

* * *

يتصل بهذا الحديث واقعتان هامتان توضحان معناه ، وترشدان إلى الغرض المقصود منه ، وتفيدان إلى حد كبير في بيان موقف بعض من كانت لهن في الماضي ولاية أو قيادة ، ومعرفة مدى نجاحهن أو فشلهن في ذلك ، وإحدى هاتين الواقعتين تتعلق بسبب ورود الحديث ، والأخرى تتعلق براويه .

فأما الأولى : فهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كتب إلى كسرى كتاباً يقول فيه : « سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت ، فعليك إثم المجوس » ، ثم دفع بهذا الكتاب إلى عبد الله ابن حذافة السهمي القرشي ، وأمره أن يدفعه إلى المنذر بن ساوى العبدي عظيم البحرين ، ونائب كسرى عليها ، فذهب إليه ، وأعطاه الكتاب ، فدفعه هذا بدوره إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليه بقوله : « اللهم مزق ملكه » ، فاستجاب الله دعاءه ، وسلط على كسرى ابنه فقتله ، ثم قتل إخوته ، وأفضى الأمر بهم إلى تأمير المرأة ، فجر ذلك إلى ذهاب

ملكهم ، وتمزيق شملهم ، وإدبار الدنيا عنهم ، وانقراض أمرهم فى خلافة عمر رضى الله عنه . ذكر أصحاب المغازى أن كسرى هذا ، لما علم بأن ابنه شيرويه يعمل على قتله ، احتال هو أيضاً على قتل ابنه بعد موته ، فوضع فى بعض خزائنه المختصة به حُقا مسموما ، وكتب عليه : « حُق الجماع » — من تناول منه كذا ، جامع كذا — فلما عثر عليه شيرويه ، وقرأ ما كتب فوقه ، تناول منه كمية كبيرة ، فكان فيها هلاكه ، فلم يعش بعد أبيه سوى ستة أشهر ، ولم يخلف أخا ، لأنه كان قد قتل إخوته حرصاً على الملك ، ولم يعقب ذكرا ، وكرهوا أن يخرج الملك عن هذا البيت ، فملكوا أخته ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

وأما الواقعة الثانية المتعلقة براوى الحديث ، فهى أنه لما قتل عثمان ، وبويع على بالخلافة ، خرج طلحة والزبير إلى مكة ، فوجدا عائشة — وكانت هناك للحج — فاتفق رأيهم على التوجه إلى البصرة ، يستنفرون الناس للمطالبة بدم عثمان ، فبلغ ذلك علياً ، فخرج إليهم ، فكانت الوقعة المشهورة المنسوبة إلى الجمل الذى كانت عائشة قد ركبته ، وهى فى هودجها تدعو الناس إلى الإصلاح .

ولما قيل لأبى بكرة — راوى الحديث — : ما منعك أن تقاتل مع أهل البصرة يوم الجمل ؟ — ذكر كلاما سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن — ، ثم قال : لقد نفعنى الله أيام الجمل بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كدت ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم ، ثم ساق الحديث الذى معنا ، وزادت بعض الروايات فى آخره أنه قال : فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا ، وفى رواية عن الحسن أن عائشة أرسلت إلى أبى بكرة ، فقال : إنك لأم ، وإن حقك لعظيم ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يفلح قوم تملكهم إمرأة » .

فهاتان الواقعتان مع اختلافهما فى الزمان والمكان ؛ والبيئة والوسط ، والعقلية والتفكير ، تدلان بصفه عامـــة على صواب نظر الحديث وصحة وجهته ، وتشيران إلى أن كل قوم يجعلون قيادتهم فى يد إمرأة ، ويرسلون لها الحبل على الغارب ، ويعطونها مطلق الحرية ، ويتركون لها سلطة التصرف

فتستبد بالأمر دون الرجال ، تفعل ما تشاء ، وتدع ما تريد بلا رقيب ولا حسيب ، ولا ناصح ولا مشير ، ولا مدبر ولا مفكر ، فلا بد أن طبيعة المرأة ستؤدى حتما بهؤلاء القوم إلى الوقوع فى الفشل والإخفاق .

نعم قد وجدت فى العصور الحديثة بعض الدول الكبرى التى كان يحمل تاج الملك فيها بعض النساء ، وقد بلغت هذه الدول فى عهدهن من الرقى والتقدم والفلاح والنجاح شأوا بعيدا ، ولكن الواقع أن تلك الدول لم تكن محكومة للمرأة حكما مطلقا ، بل كانت دولا ديمقراطية ، تعتبر المرأة فيها رمزا للتاج فقط ، وتمارس شئون الملك بواسطة رجال الهيئات المختلفة الممثلين فى السلطات : التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وفى المجالس العليا فى الجيش والبلاط والتعليم وغيرها ، وبواسطة التقاليد المرعية ، والأنظمة الدبلوماسية ، والأحكام الدستورية الكفيلة بوضع الأمور فى مواضعها ، فالحاكم فى الحقيقة هو الرجل لا المرأة .

على أن المرأة — حتى فى مثل هذه الحالة أيضا — لا يمكن لها أن تنسى طبيعتها ، ولا أن تتخلى عن سجيتها ، فلا بد من أن يفرط منها ما قد يدعو إلى إثارة المشاكل والصعاب ، ويؤدى إلى تفويت ما يراه المصلحون والمفكرون من خير وفائدة ، فإبعادها عن معترك الولايات العامة أنفع وأجدى على البلاد والعباد .

* * *

يدعونا التحقيق العلمى ، والإنصاف التاريخى بعد هذا إلى التعقيب على الواقعة الثانية بما يجلو الغامض ، ويزيل الشبهة ، فقد فهم البعض من كلام أبى بكرة أن فيه شيئا من التضعيف لموقف عائشة ، والملاحظة على رأيها ، والنقد لتصرفها ، فراح يدفع ذلك ، ويوضحه ويبين وجهته فيه ، فقال : إن ظاهر حديث أبى بكرة يوهم توهين رأى عائشة ، فيما فعلت ، وليس كذلك ، لأن المعروف من مذهب أبى بكرة ، أنه كان على رأى عائشة فى طلب الإصلاح بين الناس ، ولم يكن قصدهم القتال ، ولكن لما انتشبت الحرب ، لم يكن لمن معها بدّ من المقاتلة ، ولم يرجع أبو بكرة عن رأى عائشة ، وإنما تفرّس بأنهم يُغلبون ، لما رأى الذين

مع عائشة تحت أمرها لما سمع فى أمر فارس ، ويدل لذلك أن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا فى الخلافة ، ولادعوا إلى أحد منهم ، ليولوه الخلافة ، وإنما أنكرت هى ومن معها على علىّ منعه من قتل قتلة عثمان ، وتركه الاقتصاص منهم ، وكان على ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان ، أقتص منه ، فاختلفوا بحسب ذلك ، وخشى من نسب إليهم القتل أن يصطلحوا على قتلهم ، فأنشبوا الحرب بينهم إلى أن كان ما كان ، فلما انتصر علىّ عليهم ، حمد أبو بكرة رأيه فى ترك القتال معهم ، وإن كان رأيه موافقا لرأى عائشة فى الطلب بدم عثمان .

ولكن المعتمد من مذهب أبى بكرة غير هذا ، فإنه كان يرى الكفّ عن القتال فى الفتنة ، فليس هو على رأى عائشة ، ولا على رأى علىّ فى جواز القتال بين المسلمين أصلا ، وإنما كان رأيه ترك القتال وفاقاً لسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم ، ولهذا لم يشهد صفين مع عائشة ، ولا مع على ، ولما لقى الأحنف بن قيس خارجا بسلاحه لنصرة علىّ ، نهاه عن القتال ، فهو إذن ليس متحاملا على عائشة ، ولا متعصباً لعلىّ ، وما ذكره فى الحديث من انتفاعه بكلمة الرسول ، وعدم خروجه مع أصحاب الجمل ، إنما هو تأكيد لرأيه فى وجوب اعتزال القتال بين المسلمين ، وترك الدخول فى الفتنة ، وإن كان هذا الرأى يخالف ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين من وجوب نصر الحق ، وقتال الباغين ؛ قال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل ، وكسر السيوف ، لما أقيم حق ، ولا أبطل باطل ، ولو وجد أهل الفسوق سبيلا إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال ، وسفك الدماء ، وسبى الحريم ، بأن يحاربوهم ، ويكف المسلمون عنهم أيديهم بأن يقولوا : هذه فتنة ، وقد نهينا عن القتال فيها ، وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدى السفهاء .

ولشيوع هذا الرأى بين جمهور المسلمين فى ذلك الوقت ، كان عدد الذين توقّفوا عن القتال فى واقعتى الجمل وصفين أقل كثيراً عن عدد الذين قاتلوا ، والكل متأول مأجور إن شاء الله تعالى ، فقد اتفق أهل السنة على وجوب منع

الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عرف المحق منهم ، لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب إلا عن اجتهاد ، وقد عفا الله عن المخطىء فى الاجتهاد ، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً ، وأن المصيب يؤجر أجرين ، وقد حملوا أحاديث الوعيد الواردة فى ذلك على من قاتل بغير تأويل سائغ ، بل لمجرد طلب الدنيا والملك .

* * *

أهل فارس : هم أمة الفرس المعروفة فى التاريخ ، وفارس تطلق على الفرس ، وعلى بلادهم ، فعلى الأول يصرف إلا أن يراد القبيلة ، وعلى الثانى يجوز الأمران كسائر البلاد ، وقد جوّز بعض أهل اللغة صرف الأسماء كلها .

وملكوا عليهم : جعلوها ملكة عليهم ، والملك : هو المتصرف بالأمر والنهى فى الجمهور ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ، ولا يقال : ملك الأشياء ، والملك : ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم . والملك ضربان : ملك هو التملك والتولى ، وملك هو القدرة على ذلك تول أو لم يتول ، والملك كالجنس للملك ، فكل ملك ملك ، وليس كل ملك ملكا ، والملكوت : مختص بملك الله تعالى ، والمملكة : سلطان الملك وبقاعه التى يتملكها ، وأما الملك : فالنحويون جعلوه من لفظ الملائكة ، وجعلت الميم فيه زائدة ، وقال بعض المحققين : هو من الملك ، والمتولى من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له : ملك بالفتح ، ومن البشر ، يقال له : ملك بالكسر .

وبنت كسرى : هى بوران بنت شيرون بن كسرى بن برويز ، وكسرى بفتح الكاف وبكسرها ، وقال ابن الجواليق : الكسر أفصح ، وهو فارسى معرب خسرو ، ومعناه بالعربية المظفرى ، وقال الجوهرى : جمعه أكاسرة على غير قياس ، لأن قياسه كسرَون بفتح الراء ، وهو لقب لكل من ملك الفرس ، كما أن قيصر لقب لكل من ملك الروم .

استنبط العلماء من هذا الحديث أن المرأة ليست من أهل الولايات، وأنه لا يحل لقوم أن يولوها شيئاً من الأحكام العامة بين المسلمين، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب.

والجمهور على أنها لا تلى القضاء، لأنه يحتاج إلى كمال رأى، ورأى المرأة ناقص، ولا سيما فى محافل الرجال.

وأطلق ابن جرير الجواز فى توليتها القضاء، ونقل ذلك عن بعض المالكية. وذهب الحنفية إلى جواز توليتها القضاء فيما عدا الأحكام التى لا تقبل فيها شهادة النساء، كما فى الحدود والقصاص.

ومن العلماء من أخذ من هذا الحديث أنه لا يجوز للمرأة أن تزوج نفسها، ولا أن تلى العقد على غيرها، مستندا فى ذلك إلى العموم الموجود فى قوله: «ولوا أمرهم»، فإن المراد به كل أمر، والأمر فى اللغة هو الشأن، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، ولكن الظاهر أن الحديث وارد فى الشئون العامة لا الخاصة، كما يشعر به سبب الورود، وكما تلائمه حكمة التشريع، ولأننا لو حملنا العموم على إطلاقه، لتعطلت وظيفة المرأة فى المجتمع؛ ولتعارض ذلك مع ما أثبته الشارع لها من أنها راعية فى بيت زوجها، وفى شئون عيالها.

سحر البيان

عن عبد الله بن عباس قال: وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهتم. فقال الزبرقان: يارسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم، آخذ لهم بحقهم وأمنعهم عن الظلم، وهذا يعلم ذلك منى.

فقال عمرو: أجل يا رسول الله إنه مانع لحوزته، مطاع فى عشيرته، شديد العارضة فيهم. فقال الزبرقان: أما والله يارسول الله قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدنى شرفى. فقال عمرو: أما لئن قال ماقال، فوالله ماعلمته إلا ضيِّق العطن، زمن المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى. فرأى الكراهة فى وجه رسول الله لما اختلف قوله: فقال: يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ماعلمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الثانية.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة.

ناحية من أسلوب القرآن في القصص

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

مما يتصل ببيان الأسلوب القرآنى فى القصص ، ما جاء فى قصة موسى والعبد الصالح فى سورة الكهف ، حيث اختلف النسق فيما أجاب به العبد الصالح عن اعتراضات موسى ؛ ففى أمر السفينة قال : « فأردت أن أعيبها » ، فأسند الإرادة والتعييب إلى نفسه ، وفى أمر الغلام قال : « فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما » . فأسند الخشية والإرادة إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه ، أو معه غيره مع إسناد الإبدال إلى الرب جل جلاله ، وفى أمر الجدار قال : « فأراد ربك » فأسند الإرادة إلى الله جل شأنه .

وقد ذكرت أوجه كثيرة فى تخريج ذلك ، والذى أراه بعد التأمل ومراجعة ما قيل فى هذا الشأن ـ وقد يتلاقى فى بعض جزئياته مع آراء الآخرين ـ أن يقال :

١ — فى أمر السفينة ، علم العبد الصالح ، أن ملكا غاصباً سيقدم على هذا الموضع ، وأنه يجمع السفن الصالحة ، ولما كانت هذه السفينة لمساكين ليس لهم غنى عنها ، اجتهد فى وسيلة يدرأ بها ذلك عنهم ، فأداه ذلك إلى أن يعيبها عيباً يمكن إصلاحه فيما بعد ، حتى إذا رآها الملك ، ظنها غير صالحة ، فيتركها فيصلحها أصحابها وتسلم لهم .

وهذا التصرف يمكن أن يلجأ إليه الناس عادة ، فهو من فعله ، ومن جهة أخرى كان اعتراض موسى على خرقه السفينة بأسلوب قد يدل على أنه موجه إلى النية والقصد من هذا الفعل ، لا إلى الفعل نفسه ، وذلك أن موسى عليه السلام قال للعبد الصالح لما رآه خرق السفينة فى موضع يؤدى إلى غرقها : « أخرقتها لتغرق أهلها » فكأن موسى يشير أن هذا قصد اعتدائى ، ونية سيئة ، فأجابه العبد

الصالح بكلام يفهم منه أنه فعل ما فعل قاصدا به أمرا حسنا ، بناء على ما تبين له من أمر الملك الغاصب ، ومن حال المساكين ، فإسناده الفعل إلى نفسه طبيعى ، لأنه تحديث عن الواقع ؛ إذ كان هـذا هو ما لجأ إليه تحايلا على تحقيق مصلحة رآها . ووصفه لهذا القول الذى هو « فأردت أن أعيبها » بين ما سبقه من أنها « لمساكين يعملون فى البحر » وما لحقه من أنه « كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فيه إيحاء بأن إرادة تعييبها تصرفٌ قد اكتنفه سببان حملا عليه ، وأنه لم يكن عن نية فاسدة ، وقصد اعتدائى .

بقى أن يقال : إن قوله فى آخر القصة « وما فعلته عن أمرى » يدل على أن ذلك بأمر الله لا برأيه وتصرفه هو ، والجواب أن اجتهاد المجتهد لتحقيق مصلحة من المصالح فى دائرة ما علّمه الله هو استلهام لأمر الله ، وتطلب لحكم الله .

٢ ـــ أما فى أمر الغلام فقد كان العبد الصالح يعلم عن أبويه وعنه ما لا يعلمه موسى ، فأبواه مؤمنان . والغلام ـ فيما يظهر ـ كانت تظهر عليه علائم الفساد منذ الصغر ، ولعله كان معروفا فى البيئة التى كان فيها بذلك ، ولعل هذه البيئة كانت تخشى منه ضررا على أبويه إذا كبر ، وكانت تتوقع أن يرهقهما طغيانا وكفراً إذا عاش ، وكانت تتطلع إلى موته : رفقا بحال هذين الأبوين ، فلذلك فعل العبد الصالح ما فعل ، وعلل ذلك بقوله « فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ؛ فأردنا أن يبدلهما ربهما » فالخشية ليست منه فقط ، والإرادة ليست منه فقط ، وإنما كان ذلك هو إحساس من يعرف الغلام وأبوى الغلام ، وكانت هذه هى إرادتهم ـ أى رجاءهم وتطلعهم ـ فالإرادة هنا بمعنى الرجاء ، وما يكون من حديث النفس فى مثل هذا الشأن ، حيث يلتمس من الله أن يريح مثل هذين الأبوين المؤمنين ، من مثل هذا الغلام الشرير ، ويرزقهما بدله مولودا أبر بهما وأرحم ، أما إبدالها خيرا منه ، فقد أسنده إلى الله وهو يتضمن معنيين : معنى اهلاك الغلام ومعنى تعويضهما خيرا منه ، وكلاهما لا يكون إلا بأمر الله ، وقد أمر الله العبد الصالح بقتل الغلام تحقيقا للشطر الأول ، بدليل قوله فى آخر القصة : « وما فعلته عن أمرى » ولم يحدثنا عن تعويضه إياهما من هذا الغلام المقتول ، كما هى سنة القرآن فى عدم استقصائه من الحوادث إلا ما تدعو إليه العبرة ، وتتطلبه الحال .

فالحاصل أن قوله « فخشينا » وقوله « فأردنا » الضمير فيهما للعبد الصالح ومعه غيره من عباد آخرين يلمح الله لهم؛ ولا يصرح بذكرهم، وليس فى الكلام ما يدل على أن العبد الصالح كان منفردا بهذا العلم عن غير موسى .

٣ — أما فى قصة الجدار فالأمر ظاهر ، حيث أسندت الإرادة إلى الله فى قوله « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ، ولا شك أن إرادة بلوغهما أشدهما لا تكون إلا لله ، لأنهما بمحض قدرته ، وأن إرادة استخراجهما كنزهما كذلك ؛ لأنهما حكم بما يكون فى الغيب المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله ، فأمر الله العبد الصالح ببناء هذا الجدار وإقامته ، ليكون ذلك وسيلة عادية فى حفظ الكنز على صاحبيه ، وتنبيها على أن الله فى رحمته ولطفه قد يكرم الأبناء إكراما لآبائهم الصالحين ، ولا يأخذهم بما فشا فى مجتمعهم من فساد واعوجاج .

النبـــوغ

لما استخلف عمر بن عبد العزيز ، قدم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فاشرأب منهم غلام للكلام .

فقال عمر : ياغلام ! ليتكلم من هو أسن منك .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه ، فإذا منح الله عبده لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد أجاد له الاختيار : لو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ، فهذا هو السحر الحلال .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة ، لا وفد الترزئة ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنا قد أمنّاا فى أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

وكان محمد بن كعب القرظى حاضراً ، فنظر إلى وجه عمر بن عبد العزيز قد تهلل عند ثناء الغلام عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك ، فإن قوما خدعهم الثناء وغرهم الشكر ، فزلت أقدامهم فهووا فى النار ، أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالف هذه الأمة .

فبكى عمر بن عبد العزيز حتى خيف عليه ، وقال : اللهم لا تخلنا من واعظ .

من توجيهات القرآن

فى تربية الخلق

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

ا — « إن المتقين فى جنات ونهر »
ب — « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار »

قف معى أمام هاتين الآيتين ، واستشعر بوجدانك بُعد ما بين الفريقين ، ثم صاحبنى فى الموازنة بين المقامين ، علنا نهتدى من وراء ذلك إلى ما هنا من توجيه نحو أخلاق هى ذات الشأن فى التفريق بين فريق وفريق .

شعار هذا المقال ينم عن وعظ ، ويوحى بأنه للترغيب والترهيب ، ولئن كان ذلك المعنى شاخصا فيما أكتب ، فأن القصد الذى عنيته بالذات ، وأردت القارىء على أن يؤازرنى فيه هو أن نواصل ما بدأنا من تتبع ما هنا من توجيهات خلقية سيقت إلينا فى تأكيد من القول ، ولكننا على جفوة منها أو تجاهل ، حتى كأنها لم تكن لنا وبنا ، أو كأننا فى حل منها عملا والتزاما .

ا — ينساق إلى بعض الأذهان أن القرآن حينما يتحدث عن المتقين ، إنما يقصد خصوص القائمين برسوم الإسلام من صلاة وزكاة ونحوهما ، وإن وهن فيهم جانب الأخلاق ، وأنه حينما يتحدث عن نقائص المنافقين لا يعنى بهم سوى المنافقين فى الإسلام ، على عهد الرسول عليه السلام ، وإن توفرت كثرتهم بيننا فى هذه الأزمان .

ولو صح ذلك لكانت الفضيلة أرخص ما يدعيه الأدعياء ، ولوجدتَ جمهرة الأشرار يزحمون خيار الناس فى مناقبهم ، ويحتلون من الشرف منازلهم .

ولكن القرآن وضع للفضيلة حدودها ومعالمها ، وماز الخبيث من الطيب ، بما ذكر من خصائص النفوس ، واختلاف النزعات ، فإذا توارت عن بعض العقول حدود الفضيلة ، أو تعامت عن معالمها بصائر ، أو تطاول نفر من الحمق فزعموا لأنفسهم أكثر مما لها ، فلن يكون ذلك طامسا لما رسم القرآن ، ولن يخلط الأوضاع التى تأبى أن تتبدل ، والتى ستظل فى حماية الدين ، وفى رعاية العلم ، وستظل كذلك ما دام عقل يزن ، وضمير يحكم .

ليس الأمر كما فهم أولئك الذين زعموا أن دعوة القرآن إلى الخير ، تقف عند فرائض قد يؤديها من لا يحسنها ، وقد يباهى بها من يسير فى حياته على مناهضتها ، ولا يستشعر بشىء مما توحى به فى رسمها ، وفى معناها وأهدافها ، وإنما القرآن أوسع رحاباً مما تخيلوا وأسمى مأرباً مما فهموا .

فهو ينظر فى الإنسان إلى عقيدته وعمله ، ويعتبر الخلق جانبا من العمل ، ناظرا إلى أثره فى الوجود ، وما ينجم عنه من خير أوشر ، فهو لايحكم على الخلق ، ولا يرتب عليه جزاء إلا بمقدر ما يتحقق من ورائه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ثم يرى القرآن فيما علمنا أن الخلق ـ العمل ـ من متعلقات العقيدة وفيه تتمثل قوتها ، أو يبدو ضعفها ، وعلى ذلك ترى القرآن حينما يذكر المتقين ليشيد بهم ، وحينما يبشرهم بما أعد لهم فى أخراهم ، إنما يقصد بهم أولئك الذين صحت عقيدتهم ، وسلمت من شوائب الدخل طويتهم ، فكان مظهرها خالصاً وصادقاً فيما يبدو من خلق كريم ، وما يبدو من عمل حميد .

وما من شك فى أن العقيدة مصدر الإلهام للجوارح ، وصاحبة السلطان فى التوجيه ، فتدفع إلى الخير وتحببه إلى النفس ، أو تذود عنه وترغب عن سواه . .

وإلى هنا يتضح أن العقيدة وحدها ، أو عملا طيبا لا تكون العقيدة مبعثه ، أو لا يكون مشفوعا بخلق حسن ، شىء من ذلك وحده لا يكفى لانتظام صاحبه فى المتقين ، ولا ينهض شأنه أن يأبه القرآن لذكره ، والإشادة به ، واستنهاض العزائم ، وإيقاظ النفوس لأن ترسم آثاره ، وتتأسى بصنيعه .

وقد تقرر عند أولى العلم أن الإيمان عقيدة ، وقول ، وعمل ؛ فإذا ما اعتور النقص واحداً من هذه الثلاث امتنع أن يوصف بالتقوى ؛ إذ التقوى هى كمال الإيمان .

نعم تكون تقوى نسبية فى مقابلة من يكون أقل من ذلك منزلة ، ولكن ليست التقوى التى يردد القرآن امتداحها ، ويقام لها الوزن الراجح فى اصطلاح علم الأخلاق .

ولدينا المثل لتطبيق هذا ، فإن خيار الناس الذين امتلأت الدنيا بذكرهم ، وجرت على لسان الزمن سيرتهم ، كان امتيازهم بعد العقيدة بادياً من ناحية الخلق .

وكانت أخلاقهم نماذج للإنسانية الكاملة ، ومعالم وضاءة لهداية الناس ، لا فى جانب دون جانب ، بل فى جوانب الحياة عامة ، وفى كل شأن يتصل به شئون الجماعات ، وقد رأينا القرآن حينما يعرض الثناء على المتقين ، يذكر أول ما يذكر ناحية الخلق : فهو يمتدح فيهم كظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والإعراض عن اللغو ، وعفة اللسان ، ويذكر لهم الإيثار ، والقناعة ، والإخلاص وحب الخير للناس والوفاء ونقاء السريرة ، وقوة العاطفة ، والصبر ، والرضا ، ويذكر كل ما يعتبره الدين من كمال الدين وكل ما يراه علم الأخلاق من محاسن الأخلاق .

ونرى القرآن حينما يختص النبى محمداً صلوات الله عليه بذكر مناقبه ، يمتدح فيه الرحمة ولين الجانب وسعة الحلم ، وجميل الصفح ، ويجمل ذلك وما إليه من شمائله الكريمة فى قوله « : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وفى ذلك توجيه لنا إلى أن المسالمة ، ورقة الطبع ، ولطف المعشر أقرب الوسائل إلى امتلاك القلوب ، وتأليف الجماعات .

ثم فى مقام آخر يعمد القرآن الى الإحاطة بكل ما يتأتى أن يمدح به النبى ، ويطوى ذلك فى أيسر عبارة تجرى على اللسان فيقول « : وإنك لعلى خلق عظيم » .

فهذا نمط القرآن حين يتحدث عن التقوى والمتقين ؛ إذ يذكر أعمالهم وخصالهم ، ولا يقف عند ذلك التحديد الضيق الذى يقف عنده الذهن الكليل .

ومع أن القرآن ينثر أوصاف المتقين فى مواضع كثيرة من آياته ، ويبث

مدائحهم فى ألوان عدة من الثناء ، فقد نراه يوجز كل ذلك فى وعد كريم يشف عما لهم عند الله من قدر ، كفاء ما تحملوا به من خلق . أفرأيت قولا أحفل بالرضا ، وأدل على سمو المنزلة من قوله ، فقال : « إن المتقين فى جنات وعيون » « إن المتقين فى جنات ونعيم » ، « إن المتقين فى جنات ونهر » ؛ بل هناك من حسن التقدير ، وبالغ الوصف ما هو أحفل وأعجب ، وحسبك قوله عز شأنه : « لهم ما يشاءون عند ربهم — الآية » فكأنهم غير مجزيين بقدر أعمالهم فحسب ، بل لهم الآمال الفسيحة ، والمطامع الممتدة ، والرغبات المستجابة — ذلك جزاء المحسنين .

فليتنبه إلى ذلك من كان يظن أن التلون بلون الدين فى عبادة جافة ، أو فى زهادة لا يؤازرها خلق ، أو فى تزمت وغرور ، أو فى تكاسل مع الإسراف فى حسن الظن بعفو الله ، من كان يظن أن شيئا من ذلك يرقى به إلى مكان يروقه من الايمان ، أو ينهض به إلى منزلة أعدت لمن عرفوا الدين دينا وخلقا ، فهو دون الفهم الصحيح ، والنظر الصائب ببون شاسع وأمد بعيد .

ب — ذلك هو المقام الكريم من مقامين ، فأين منه مقام آخرين على طرف مضاد ؟ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ؟

وضح فى كلمة سبقت لنا : أن القرآن فى دعوته إلى تزكية النفس ، يستحثنا على الصدق فيما ننتحل من قول وعمل ، وينآى بنا عن مساوىء الدعوى المصطنعة ، والتقنع بالكمال المدخول ، مع الركون إلى سفساف الخلق ، والاحتيال فى جلب الثناء من غير طريقه .

يرى القرآن فيما يتجه إلينا به أن هـذا اللون الزائف من الخلق المموه ، شر ما يطمس معالم الإنسانية وقد كرمها الله ، وأقبح ما ينتاب المجتمع من تحلل النفسيات ، والتبجح فى قلب الأوضاع ، والطغيان على المبادىء القويمة التى هى موازين الكرامات والتى تعتبر من مباهج الحياة .

وما كانت أقدار الناس متمايزة فى قياس العقل ، ولا كانت القيم الأدبية على تفاوت بين أنسان وأنسان ، بل بين الإنسان والحيوان الأعجم إلا لأن هناك

مدارك وحساسية توفرت فى جانب دون جانب ، وبرزت آثارها فى فرد أو جماعة أكثر مما توفرت وبرزت فى آخرين .

فهذا انسان أينع فيه الخلق الفاضل ، حتى ارتقى فى مكانته لدى من يقدره ، واقترب فى إنسانيته أن يكون ملائكيا ، وذاك آخر هبطت فيه المدارك ، والحساسية ، وذبلت نفسيته حتى ارتكس إلى سفل ، وكان محسوبا على الإنسانية وهو ثقل على عاتقها ، ومخزاة فى وجهها ، أو كانت حياته شقوة تلحق بمجتمعه ، وتكدر العيش على من يبتغون العيش مطمئنا فى ظلال رفيهة من حسن الأخلاق .

يسوقنا ذلك ، أو يسوقنا إلى ذلك ما صنع القرآن فى حديثه عن النفاق وأهله ، فقد انتهج مع المنافقين أقسى مما انتهج مع أهل الكفر الصراح .

ليس لأن الكافرين بدعوة القرآن أحب إليه ممن نافقوا ، ولكن لأن الكفر الصراح يعتبر من الوجهة الاجتماعية عنادا سافرا وعداء مكشوفا . أما النفاق فعداء ملفوف ، وضغن كامن ، فيه ما فى الكفر الصراح من قبح ، وفيه فوق ذلك مكر يبيتونه ، وشباك ينصبونها وراء ذلك الود البراق .

وكثيرا ما يقع المسالم المطمئن فى حبال النفاق ، إذا استنام إلى ظاهره ، ولم يفطن إلى خباياه أنه من الهين على المرء أن يتحاشى عدوا سافرا أكثر مما يتحاشى عدوا كامنا .

لذلك كان النفاق مهينا غاية المهانة ، وكان بغيضا نهاية البغض ، فليس فيه شيء يخفف من سوء ما به ، ولا يجتمع مع النفاق اعتزاز بشخصية ، ولا احتفاظ بكرامة ، ولا خشية من معرة .

ذكر القرآن من أوصاف المنافق ما كشف عن شخصية متأرجحة ، لا تماسكها عقيدة ، ولم يثبتها إيمان ، فهى بين وسوسة وقتية ، ورعدة لازمة ، ويظل المنافق بين وسوسته وخوفه مفكك الشخصية ، مائع الخلق ، غير متماسك الرأى ، وهو إزاء اضطرابه ذلك يحاول أن يستند إلى غيره ؛ كمن يلعب برأسه دوار ، أو كمن خارت قواه عن الوقوف ؛ فلم يتمالك أن ينهض على قدميه ، فمد يده إلى جانب ، والأخرى إلى جانب ، ثم ترهل فى حركته ليقف كما يقف الأقوياء ، وليس هو من الأقوياء .

يحرص المنافق على أن يمالىء هـذا وذاك ، ويلتمس الرضا هنا وهناك ، فهو مع كل زامر يرقص ، ومع كل منشد يطرب ، وأنى يكون إنسانا من كان كذلك ، أو على شىء من ذلك ؟

وليس أصدق من قول الله فيمن ينافق « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هـؤلاء » ، ولا يحسبن حاسب أن النفاق جملة نقائص تتجمع فى شخص ، بل النفاق خصال وضيعة ، فمن تجمعت لديه فهـو ممن فى نفاقه ، ومن ابتلى منها بشىء فهو منافق إلى حد ما . والنفاق شر كله وإن كان هينـاً على من اقـترفه أو اقترف منه طرفا يسيرا .

ذكر القـرآن أوصاف النفاق فى مناسبات من آياته : فأنت تراه يقول عن المنافقين « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » ، ويقول : « فى قلوبهم مرض » ، « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » ، « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » ، « ينفقون أموالهم رئاء الناس » ، « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون » ، « يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » ، « فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » ، « يخادعون الله وهو خادعهم » .

وهـكذا من الآيات التى تشهد على المنافق بالضعة ، وتعطيك من صوره أنه ، مراء وكذاب ، ونفعى ومتصنع ومريض القلب ، وما إلى ذلك مما يعافه السمع الكريم ، وتتأوه من هوله الجماعات ، فهل بعد هاته الدنايا يعرض للمنافق شأن أو يقام له حساب ؟ .

من كان كذلك فهو دون الغير فى الاعتبار ، بل هو دون الغير حتى فى الهوان ، فقد يكـون خصم له قدر ، وقـد يكون خصم تتخطاه الأنظار ، ويتجاوزه الحديث حتى فى عداد الخصوم لو كانوا شرفاء ، فإذا رأيت القرآن يؤكد لك أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار فقد سلك بهم مسلكهم ، ووضعهم فى آخراهم حيث وضعوا أنفسهم فى دنياهم ، وجعل قرارهم فى الدرك الأسفل ، بعد أن جعل مثوى المتقين فى مقام أمين ، ولم يكن هناك بين هؤلاء وأولاء سوى كرامة وأخلاق . . والبوم يابعد ما بين مقام ومقام !.

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

مستشزرات

يورد علماء البلاغة بيت امرىء القيس فى وصف شَعَر من يتغزل بها :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مثنّى ومرسل

وهم يعنون كلمة مستشزرات ، يجعلونها مثلا للكلمة فى تأليفها تنافر وثقل يخلّ بالفصاحة ، ويبدو أن ذلك من قِبل تقارب الأصوات لأحرف هذه الكلمة ، فالسين والشين صفيريّان والشين قريبة من الزاى ، وقد تقرّر ثقل التأليف من الحروف المتقاربة .

والذى يعنينى فى هذا المقام بيان معنى مستشزرات فى اللغة . والمستقرّ - إخال - فى أذهان الدارسين ما كتبه شرّاح البلاغة . وأذكر من هذا قول السعد التفتازانى فى شرحه للتخليص : « مستشزرات أى مرتفعات إن روى البيت بالكسر على لفظ اسم الفاعل ، أو مرفوعات إن روى بالفتح . استشزره : رفعه . واستشزر أى ارتفع ، يتعدّى ولا يتعدّى » ، والقارىء لهذا يقرّ فى نفسه لا محالة أن الاستشزار هو الرفع والارتفاع ، وأنه فى سعة من أن يقول : استشزرت الكتاب أى رفعته ، واستشزر البيتُ : ارتفع ، وهو يرى أنه جار على سنن أهل اللغة والبيان . وقد ارتبت فى هذا ولم استسغه أن يقال فى معروف الكلام ، وكان على بالى من هذه المادة « النظر الشزْر » أى النظر بمُؤخر العين أو جانبها ، وهذا المعنى لا يتفق مع هذا الذى ذكرته للاستشزار ، فكان أن بحثت هذا الذى أسطره فى هذا الموطن . ورجعت إلى معاهد التنصيص — وهو شرح لشواهد التلخيص — عسى أن أجد فيه تعقيبا على كلام السعد فإذا فيه :

« الاستشزار : الرفع والارتفاع جميعا ، والفعل منه لازم إن كسرت زايه ، ومتعـدّ إن فتحت » وترى أنه يقـرّا لسعد على تفسيره ويؤيده فى قوله .

وقد تبينت أن مصدر هذا كلام الزوزنى الحسين بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ فى شرح المعلقات ، إذ يقول : « الاستشزار : الرفع والارتفاع ، فيكون الفعل منه تارة لازما ، وتارة متعديا » . ورأيت أن أقف على كلام الكاتبين على المعلقات غير الزوزنى ، فوجدت النحاس يقول : « المستشزرات : المفتولة شَزْرا ، أى على غير جهته لكثرتها . وروى ابن الأعرابى مستشزِرات بكسر الزاى ، أى مرتفعات » وقد تبعه فى هـذا أبو بكر عاصم بن أيوب فى شرحه للمعلقة ، إذ يقول : ومستشزَرات ـ بفتح الزاى ـ : مفتولات على غير جهة الفتل ، وذلك لكثرتها ، وبكسرها : مرتفعات » وترى هذا بعينه فى العينى [1] فى شرحه للشواهد .

ويرى القارىء فى هذا النهج الذى سنه أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ تفريقاً بين استشزره واستشزر . فاستشزره : فتله على غـــير جهة الفتل ، واستشزر : ارتفع . والمعروف أن اللازم فى مثل هذا ، يكون مطاوعا للمتعدى ، فلا يخرج عن معناه ، بل يظل بسبب من المتعدى وعلى سمته وأمه ، كما يقال : جبر الله الكسير فجبر هو . قال العجاج : قد جبر الدين الإله فجبر . فإذا كان استشزره : فتله ، فإن استشزر يجب أن يكون : انفتل . تقول على هذا : استشزرت الحبل ، أى فتلته على غير جهة الفتل فاستشزر الحبل . وهذا ما يؤخذ من كتب اللغة . فشَزْر الحبل ـ وما جرى مجراه كالشعر ـ واستشزاره : فتله إلى جهة اليسار أو إلى فوق على خلاف دور المغزل الذى يكون إلى تحت . ومادة الشزر فيها الانصراف عن سَنن القصد ؛ تقول : فتله شَزْرا : فتله على غير استقامة ، بل فتله إلى جهة اليسار . وفى اللسان : « الشزر من الفتل : ما كان عن اليسار ، وقدشزره ، واستشزر الحبل واستشزره فاتله ، وروى بيت امرىء القيس بالوجهين جميعاً :

غدائره مستشزِرات إلى العـلا تظلُّ المدارى فى مثنًّى ومرسَل

ويروى مستشزَرات . . . والشَّزْر من الفتل ما كان إلى فوق خلاف

---

(١) هامش الخزانة ٤/٥٨٧ .

دورة المغزل ، يقال : حبل مشزور وغدائر مستشزرات ، فترى أن الاستشزار لا يخرج عن الفتل ، فاستشزار الغدائر أى ذوائب الشعر فتلها ، وإذا قيل : استشزرت المرأة الشعر فمعنى ذلك فتلته إلى جهة اليسار ، ويرى بعضهم أن السين والتاء فى استشزر اللازم كأنهما للطلب كأن الحبل مثلا سأل ذلك من الفاتل .

ويتجلى من هـذا البحث أن تفسير الاستشزار بالرفع والارتفاع ليس على ما ينبغى ، وإنما الاستشزار الفتل ، وكأن الذى أوقع الزوزنى ومن تابعه فى ذلك قول الشاعر : مستشزرات إلى العلا فقرن الكلمة بالعلا أوقع فى الوهم أن الاستشزار الارتفاع والرفع . والله أعلم .

الوقائع والأحوال :

تذكر الوقائع فى جمع الواقعة للحادثة تقع وتنزل . فيقال : جرت اليوم واقعة من الوقائع الحسنة تذكرنا بالوقائع القديمة . وصحيفة « الوقائع المصرية » صحيفة قديمة كان من الكاتبين فيها الشيخ حسن العطار صاحب المؤلفات فى شتى الفنون ، وقد أنشئت ليدون فيها ما يجد من الحوادث ويسن من القوانين فى نظام الدولة ، وما زالت تضطلع بهذه المهمة إلى اليوم . وقد جرى كلام فى جمع الواقعة على الوقائع ؛ فقياس جمع الواقعة الأواقع وأصلها الوواقع ، ويقضى قانون الإبدال بقلب الواو الأولى همزة ؛ كما يقال فى جمع واقية أواق وواصلة أواصل ، وقد جاء الأواقع فى قول الشاعر :

فإنك والتأبين عروة بعد ما دعاك وأيدينا إليه شوارع
لكالرجل الحادى وقد تلع الضحا وطير المنايا فوقهن أواقع

وعلى هذا فالأوفق بقواعد العربية أن يقال « الأواقع المصرية » غير أن الناس استمروا على هذا ، وأصبح من العسير تغييره .

والوقائع ترد فى اللغة جماعا للوقيعة ، وهذا قياس جمعها . والوقيعة ترد فى اللغة لثلاثة معان : فالوقيعة التعيب وأن تنال أمرأ بما يشينه ويثلم عرضه ، والوقيعة القتال والحرب ، والوقيعة نقرة فى الجبل تمسك الماء . ومن سجعات الأساس : فى فم الوقائع الوقيعة ، أعذب من ماء الوقيعة . فالوقيعة الأولى الشتم والعيب ، والوقيعة الثانية منقع الماء .

وقـد يشهد لصحة استعمال الوقائع فى النوازل والحوادث ما ورد فى الأساس : « نزلت به وَقْعة من وقعات الدهر ووقائعه » وظاهر هذا أن واحد الوقائع وقعة ، وهذا جمع على غير قياس ، كما جمعوا الضرة على الضرائر والكنة على الكنائن ، وأيًّا ما كان الأمر ففيه استعمال الوقائع فى الحوادث ، وهو ما جرى به العرف والاستعمال .

مهما أسأت إلىّ فلن أصدف عن ودك

يجرى هـذا فى الاستعمال ، وترى فيه مهما مستعملة فى عموم الأحوال ، فالمعنى لن أصـدف عن ودك لإساءتك إلىّ أبدا . ويقضى النظر الإعرابىّ بأن تعرب مهما ظرف زمان ، وكأنه قيل : أىّ وقت أسأت إلى فيه فلن أصدف عن ودك . وإنكار مثل هـذا قديم ، فإن المعروف استعمال مهما فى عموم الأفراد ، وعلى ذلك يجرى بيانها ببعض الأشياء ، كما فى قوله تعالى : وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فقوله من آية بيان لمهما ، وقال زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

فترى أن مهما بيّنت فى البيت بخليقة ، ولكن بعض الناظرين فى العربية رأى استعمالها فى الأحوال فلقى نكيرا شديدا من العلماء ، ويقول الزمخشرى فى التنديد بهذا الرأى عند قوله تعالى : وقالوا مهما تأتنا به من آية : « وهـذه الكلمة — يريد مهما — فى عـداد الكلمات التى يحرّفها من لا يَدَ له فى علم العربيّة فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى مَتا [1] ما ويقول : مهما جئتنى أعطيتك . وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربيّة فى شىء » ، وقد أخذ بهذا الاستعمال المنكر المناطقة فجعلوا مهما سورا للكلية الموجبة من الشرطية المتصلة ؛ ككلما نحو مهما جئتنى أكرمتك فهى فى معنى كلما جئتنى أكرمتك ، ويعترف علماء المنطق بالنقل والتحريف لوضع العربيّة فيقول السعد فى شرح الشمسيّة : « ولفظ مهما — بحسب اللغة — إنما هو لعموم الأفراد حتى يصلح سورا للكلية الحمليّة . وهم قد نقلوها إلى عموم الأوضاع وجعلوها سُور المتصلة الكلية » .

على أن ابن مالك — وعلمه بالعربية لا ينكره أحد ، وحسبك بمن يقول

(١) يرى ابن درستويه كتابة متى بالألف إذا اتصلت بها لتوسطها . راجع شرح القاموس .

للزمخشري إنه نحوى صغير - يرى مجيء مهما ظرفا ، ويسند ذلك إلى العرب . فهو يقول فى شرحه للكافية الشافية إن جميع النحويين يجعلون مهما مثل مَن فى التجرّد عن الظرفيّة مع أن استعمالها ظرفية ثابت فى أشعار الفصحاء من العرب .

وأورد من ذلك قول طُفَيل الغَنَوى :

نبئت أن أبا شُتَيم يدّعى مهما تعش تسمع بما لم تسمع

وقول حاتم الطائىّ :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذمّ أجمعا

ومن طريف مايذكر هنا أن ابنه بدر الدين أنكر عليه ، وقال : إنه لاحجة فيما أورده على أن مهما ظرف ، فقد يجوز أن تكون مهما مفعولا مطلقاً ، ففى قوله مهما تعط بطنك سؤله ، المعنى أى إعطاء تعط بطنك . . . وهذا أمر لا يعنينا فى مقامنا هذا ، وإنما يعنينا ورود هذا الأسلوب ، وهو يوافق ما يجرى على ألسنة الناس ، وينكره الزمخشرى ومن شايعه .

ومما جاء فيه مهما فى غير الأفراد ، كما يرى ابن مالك قول ساعدة بن جُؤيَّة فى وصف الصوار - وهو القطيع من بقر الوحش ، المذكور فى بيت سابق - :

قد أوبيت كلّ ماء فهى صاوية مهما تصب أفقاً من بارق تشِم

أو بيت [1] : مُنِعت ، وصاوية : يابسة من العطش ، يقول : إن الصوار حُمِيت الماء فأصبحت قاحلة من العطش ، وهى متحرقة للماء متشوفة له ، فإذا أحست برقًا فى أفق وناحية شامته ، ونظرت إليه ترجو أن يعقبه المطر فتروى منه ، وقوله تصب أفقاً من بارق ، على القلب أى تصب بارقاً - وهو السحاب يبرق - من أفق أى ناحية .

وكان بعض الفضلاء لدهر مضى ، زعم أن من هذا الاستعمال قول المتنخل الهذلى يرثى أباه عويمراً :

إذا سُدْته سُدت مطواعة ومهما وَكَلْتَ إليه كفاه

يقول [2] : إذا سُدته وكنت فوقه أطاعك ولم يحسدك . والأمر فى هذا ليس على ماظن ، فمهما مفعول به مقدّم لوكلت ، والمعنى : أى شيء وكلت إليه كفاه .

(١) أنظر شعر الهذليين ١٩٨ / ١ طبع دار الكتب . وقوله صاوية بالصاد المهملة ، وجاء فى المغنى ومواده ضاوية بالضاد المعجمة ، وهو تحريف (٢) انظر شعر الهذليين ٣٠ / ٢ طبع دار الكتب .

مفردات فلسفية

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

كنا اعتزمنا أن تكون مفردات هذا المقال هى كلمات : الواقعية ، الاسمية ، التصورية ، أو المفهومية ، ونحوها مما يتصل بنظرية المعرفة والكليات أو المفاهيم العامة . لكن مسألة هذه الكليات كان لها شأن كبير لدى فلاسفة اليونان ، وبخاصة أفلاطون ، ثم صارت فى العصور الوسطى محور التفلسف والفلسفة . وعرفها أيضاً المفكرون الإسلاميون ، وأخذت قسطاً كبيرا من تفكيرهم ؛ لذلك رأينا من الخير ، بل من الضرورى أن نقدم بين يدى هذه المفردات كلمة عن هذه المشكلة الأساسية ، نعنى مشكلة الكليات .

* * *

كان يراد فى العصور الوسطى باسم الكليات : المعانى أو المفاهيم العامة التى تعتبر أنواعا أو أجناساً للكائنات الفردية الجزئية ؛ وذلك مثل الإنسانية ، أى الحيوانية الناطقة ، التى هى ماهية كل فرد من أفراد الإنسان ؛ والحيوانية التى هى الماهية العامة لكل حيوان ، أى الكائن النامى الحساس المتوالد .

وهذه الكليات هى الأمور المساعدة التى لابد منها للفكر والعلم ، وفائدتها - لهذا - ليست موضع شك أو تساؤل ، لأنه بالتصنيف والتعميم للموجودات ، أى جعلها أنواعا وأجناسا ، يمكن أن تصل إلى مبدأ من المبادىء أو قانون من القوانين العامة .

ولكن يجب أن نعلم ما إذا كان لهذه المعانى العامة ، التى لا نستغنى عنها فى أحاديثنا ، وجود حقيق خارج عنا ، أو ما إذا كانت ليست إلا اختراعات ذهنية وأعطيناها أسماء ، ليكون من السهل علينا ترتيب معارفنا .

مثلا ، ماهية الإنسان التى نطلقها على جميع أفراده ، وهى الحيوان الناطق ، هل لها وجود فى العالم الطبيعى ؟ أى هل لها حقيقة خارج أفرادها ؟ أو إنها لا توجد إلا فى الفكر أو الذهن بفضل الاسم الذى أعطيناه لها ؟ هذه هى المشكلة التى نشأت عنها هذه المذاهب : الواقعى ، والاسمى ، والتصورى .

ومن الهام جدا أن نلاحظ أن اختيار جانب من تلك الجوانب ليس عملا يسيرا من أعمال العقل ، بل هو على الضد ، قرار خطير يتخذه العقل ، وذو نتائج كبيرة ضخمة ؛ ذلك بأنه يجر مباشرة انحيازنا إلى هـذا التصور أو ذاك من التصورات الخاصة بالكون والعالم ، وإلى طريقة خاصة لمعالجة أو حل أى مشكلة من المشاكل .

فإذا كنا حقيقيين أو واقعيين ، كان العالم المعقول الذى نفكر فيه موضوعا أو شيئا Objet حقيقيا موجودا ، شيئا هو نتاج الخلق الخارج عنا ، ويكون وجوده لا يتعلق بنا ولا يتوقف علينا لأنه يبقى هو هو ، رغم المظاهر الخادعة غالبا التى تخلعها عليه حواسنا .

إن هذا الوجود الواقعى الذى يفرض نفسه علينا كيقين لا شك فيه ، يجب إذاً ـ ما دمنا من أنصار المذهب الواقعى ـ أن يكون الأساس القوى المتين لتفكيرنا وضروب استدلالنا ، ونقطة الارتكاز ، التى بفضلها نصل بالاستنتاج إلى الأشياء والظواهر الجزئية التى تعطينا حواسنا صورها .

وعلى الضد من هذا كله لو كنا إسميين : إن الكائنات الفردية والأشياء المحسة التى ندركها نحن ، مثل هذا الإنسان وهـذا الحصان الذى أراه الآن ، تكون هى وحدها الموجودات الواقعية الحقيقية ؛ وكل ما عدا هذه الموجودات المحسة لا يكون إلا خيالا لا حقيقة له ، ولا تكون الماهيات العامة ، مثل نوع الإنسان ونوع الحصان وجنس الحيوان ، إلا عملا من أعمال العقل لا حقيقة له ، أى لا تكون إلا مجرد أسماء .

ومن ثمَّ ، يرتقي الاسميون ، بالسير من ملاحظة الحوادث الفردية الجزئية ، وبالطريقة التجريبية الاستقرائية ، من الإدراك الحسي إلى معرفة المبادىء والقوانين بواسطة التجربة والمقارنة والتجريد .

٢ — ولهذه المشكلة والحلول التي تحلّ بها ، أهمية كبيرة في الحياة العامة في العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، ويكفي في هذا أن نذكر أنها تحصر بين طرفيها ، الواقعية والاسمية ، كل النزعات التي يتذبذب بينها التفكير الإنساني ؛ وذلك حسب اعتباره أن الموجود الحق هو الخاص أو العام ، الفرد أو الكلي ، الذاتيّ أو الموضوعيّ ، النسبي أو المطلق ، العرضيّ أو الدائم ، الممكن أو الضروري ؛ ثم حسب تفضيله ، في سبيل الوصول إلى المعرفة ، التجربة أو المبادىء الموضوعة ، الملاحظة أو الحدس ، التحليل أو التركيب ، الاستنتاج أو الاستقراء ، الأمر المدلل عليه أو الموضوع وضعا ، المحسوس أو المعقول ، المشخص أو المجرد ، الصيرورة أو الكائن الموجود الدائم .

وقد يبين بوضوح أكبر أهمية هذه المشكلة وحلولها في الحياة العملية ، أن نشير إلى السوفسطائيين اليونان - على أن لكل عصر نصيبه من السفسطة والسوفسطائيين ، ولعصرنا الحالي حظ من ذلك موفور ! - وسقراط . فقد كان السوفسطائيون لا يرون وراء مدركات الحواس المختلفة ، باختلاف الشخص والزمان والمكان ، حقائق عامة ثابتة ، ومن ثم كان مذهبهم في الأخلاق مذهبا هدّاما . بينما كان سقراط يعترف بالحقائق أو الماهيات العامة الثابتة للأشياء ، هذه الماهيات الكلية التي يستخلصها العقل من مدركات الحواس ، وذلك بالملاحظة والمقارنة والتصنيف للمدركات الجزئية .

٣ — وهذه المشكلة تصعد من الناحية التاريخية ، كما رأينا إلى أيام اليونان ، بل إلى أول عهد الناس بالتفلسف والفلسفة ، ولكنها لم تأخذ أهميتها الحقة البالغة إلا في العصور الوسطى ، إذ أمكن للمفكرين استخلاصها من ترجمة نص من الأفلاطونية الحديثة ، نعني به إيساغوجي أو المدخل لفورفوريوس الصوري الذي كان يعيش في القرن الثالث للمسيح عليه السلام ، وهذا النص يثبت قبل

كل شيء أن هـذه المشكلة التي ليست إلا مشكلة موضوعية أو ذاتية معارفنا ، شغلت الأذهان قبل العصور الوسطى بزمن طويل .

حقيقة ، إننا نجد هذه المسألة في مذهب أفلاطون وأرسطو ، لأن الأول بنظريته الشهيرة عن المثل ، يقدم أكمل نموذج للحل الحقيقي أو الواقعي ؛ بينما الثاني ، بطريقته التجريبية ، فتح الطريق للمذهب التجريبي المعتدل ، الذي نجده لدى كثير من مفكري العصر الوسيط الواقعيين .

وإذا أردنا أن نرجع في التاريخ الى ما قبل أفلاطون وأرسطو ، نجد من اليسير استخلاص النزعة الواقعية من مدرسة فيثاغوراس ، التي كانت ترى أن للحقائق الرياضية وجودا واقعيا خاصا غير وجودها في الأشياء المحسة المشخصة . كما نجد من اليسير أيضا أن نرى في مفكري المدرسة الإيونية أو الذرية ، الماديين ممثلين للنزعة الاسمية .

هذا ، وها هو ذا نص فورفوريوس الذي أشرنا اليه :

« سوف لا أبحث عما إذا كانت الأجناس والأنواع توجد بنفسها ، أو أنها ليست إلا مفاهيم وتصورات مجردة ؛ ولا في حال ما إذا كانت حقائق واقعية ، عما إذا كانت جسمية أو لا ، أو عما إذا كانت توجـد مفارقة للأشياء المحسوسة أو مختلطة بها . هـذا البحث عسير كل العسر ، ويتطلب مناقشات طويلة ليس هذا موضوعها » .

من هذا النص نجد أن هذه هي القضايا الثلاثة ، التي تعرض حتما لمن يتصدى للبحث في الكليات : وجود هـذه الكليات ، هل هو حقيقي أو متوهم ؟ جسمي أو غير جسمي ؟ مفارق أو غير مفارق ؟ وأخيراً ليس من همّنا في هذه الكلمة التمهيدية ، أن نبحث فيما ثار من جدل ، وفيما كان من حلول لهذه المسائل ، طوال العصور الوسطى ، ولا في أثر هذه المذاهب في السياسة والاجتماع . وحسبنا أن ذلك كان تمهيداً لابد منه ، لفهم ما سنعرض له من مفردات فلسفية خاصة بهذه المشكلة ، وبما يتصل بها .

باب الأسئلة والفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

لى أخ مدرس بكلية الزراعة ومنتدب لمهمة علمية فى أمريكا أرسل إلى يستفتى فيما يلى :

ورد فى القرآن الكريم آيات تحرم الأكل فى مختلف السور (١٧٣ البقرة ٩٣ آل عمران ٣ المائدة ١١٩ الأنعام ١١٥ النحل) . كما أحل طعام أهل الكتاب فى قوله تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات . . . . ٥ المائدة » .

١ — إن السائل يقيم فى دار غربة وهى بلاد بعض أهل الكتاب ، ولا يدرى نوع ما يُقدم إليه من لحم حلال هو أم حرام . فهل يجوز له أن يأكل ما يقدم إليه ولو كان لحم خنزير وهو لا يعلم حقيقته ، أو من ذبيحة لا يعرف طريقة ذبحها

٢ — وهل يكون السائل حيث يقيم فى حكم المضطر « غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

٣ — ورد فى حديث الدار قطنى عن عائشة ومالك رضى الله عنهما : أن أناساً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لاندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال رسول الله : سموا عليه وكلوا » .

فهل يسرى هذا النص على أكل أهل الكتاب « الذبيح الذى لا يعرف نوعه ولا طريقة ذبحه ، وهل ذكر اسم الله عليه عند الذبح أم لا ؟ ، وهل يجوز أكله أم لا ؟ نرجو الإفادة .

محمد عمر الخطاب
مصلحة المجارى الرئيسية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد أطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد بما يلى :

قال الله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب » .

وقال تعالى: «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم»

فقد حرم الله بالآية الأولى تناول شيء مما ذكر فيها إلا ما أدرك قبل زهوق روحه ، وذبح من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . فإن هذه إذا أدركت وفيها حياة أية حياة ، وذبحت وسال الدم الأحمر منها فإنها تكون حلالا .

وما حرم الله مما ذكر فى هذه الآية على نوعين .

الأول : ما كانت علة تحريمه إرادة حفظ العقيدة وحمايتها من الشرك وعبادة غير الله تعالى ، ويشمل هذا ما أهل به لغير الله وما ذبح على النصب .

والثانى : ما كان تحريمه لمعنى فى الحيوان نفسه ، ويشمل بقية المحرمات المذكورة فى الآية من الميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع .

وتحريم جميع ما اندرج فى هذين النوعين عام يشمل ما يكون للمسلم ولغيره . فكما يحرم على المسلم تناول شيء من حيوان قتله بالخنق، أو بالوقذ مثلا يحرم عليه تناول ذلك كله إذا حصل شيء منه عند غير المسلم أو بفعله ؛ فموقوذة غير المسلم كموقوذة المسلم كلتاهما محرمة على المسلم .

وهذا هو الحكم فى أخوات الموقوذة مما ذكر فى الآية الكريمة .

أما قوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » فالغرض منه رفع الحرج عن المسلمين فى تناولهم ما يصنعه أهل الكتاب ، من طعام وما يذبحونه من حيوان ، فقد كان المسلمون قبل نزول الآية يتحرجون من طعامهم وذبائحهم لمخالفتهم إياهم فى العقيدة ؛ فبين الله تعالى أن ذلك حلال لهم كجميع الطيبات من

المآكل والمشارب ، وأرام أن اختلاف العقيدة لا يمنع تبادل أسباب المعيشة ، فيطعم المسلم من طعام الكتابى كما يطعم الكتابى من طعام المسلم .

وبهذا يتبين أن الآية الثانية واردة فى غير ما وردت له الآية الأولى ، وأن طعام أهل الكتاب الذى أحله الله للمسلمين لا يصح أن يتناول ما وردت بتحريمه الآية الأولى من الميتة والخنزير والموقوذة والمنخنقة وما إليها .

فالطعام الذى يصنعه أهل الكتاب من الحيوان الذى يحل أكله ، لو ذبحه المسلم كالبقر والغنم حلال ، ما لم يعلم أن هذا الحيوان من الميتة وأخواتها . فإذا علم أن الحيوان مذبوح ولو بعد ضربة قاتلة ببلطة أو نحوها ، وأنه ذبح ذبحا مخرجا للدم الأحمر ، وكان وقت الذبح حيا أية حياة ولو غير مستقرة حل أكله . وكذلك يحل أكله إذا جهل أنه ذبح بعد الضرب أو لم يذبح متى كان غالب الأمر عندهم هو الذبح ، ولو بعد الضرب على نحو ما قدمنا . فاذا لم يعلم المسلم ما هو الغالب عندهم ، ولم يعلم كذلك حال ما يقدم له فى أحد مطاعمهم أهو من الحلال أم من الحرام حل له التناول أيضا .

أما إذا علم أنهم لا يذبحون ، أو كان الشأن عندهم عدم الذبح ؛ بل يضربون الحيوان حتى تزهق روحه ، فإنه لا يحل فى هذه الحالة لأنه يكون إذا من الموقوذة المحرمة .

هذا وما لم يعلم أنهم سموا عليه غير اسم الله تعالى فهو حلال ، وهذا يتناول ما إذا علم أنهم يذكرون عليه اسم الله ، وما علم أنهم يتركون فيه التسمية أصلا ، وما جهل فيه الحال .

وخلاصة ما تقدم جميعه أنه إذا كان المسلم فى بلد من بلاد أهل الكتاب « اليهود أو النصارى » . وكان لا يعرف حال ما يأكلون أو يبيعون من لحوم الحيوان أهو من الحلال كالبقر والغنم المذبوحة على نحو ما تقدم . أم مما حرمه الله من الخنزير والحيوان غير المذبوح ؛ فإنه يحل له أن يأكل ما يقدم له فى أى مطعم من مطاعمهم ؛ إذا لم يعلم أن ما قدم له هو من المحرم ، أو يعلم أن الغالب عندهم هو المحرم ، لأن الأصل فى طعام أهل الكتاب هو الحل ، والأحكام تبنى على الأصل ما لم يعلم خلافه .

هذا هو المأخوذ من قواعد العلامة ابن رجب الحنبلي، كما يعلم بالرجوع إلى صفحة ٢٣٨ و ٣٤٤ من هذا الكتاب.

ويؤيد هذا أن الصحابه رضوان الله عليهم كانوا بعد نزول قوله تعالى: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم»: يتناولون من أطعمة أهل الكتاب ولم ينقل أنهم كانو يتحرجون من أكلها أو يسألون عنها حينئذ.

هذا. وإذا أراد المسلم أن يدفع عن نفسه ما يجده من ريبة وشك، فليسأل من يثق به، ولا يتهمه بالكذب، وليعمل بخبره ولو كان غير مسلم، دفعاً لما يجده فى نفسه من الريبه والشك.

هذا والمضطر الذى تناول الميتة ونحـوها هو الذى يخشى على نفسه أو تلف عضو من أعضائه لو لم يتناول الميتة ونحوها ما لا يجد من الطعام الحلال ما يدفع هده الخشية.

هذا ما اختارته اللجنة من أقوال الفقهاء، لأنه هو المتفق مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية من التيسير ودفع الحرج والمشقة.

وبهذا علم الجواب عن السؤال. والله أعلم.

الجمع بين التعزية والتهنئة

أول من فتح الباب فى الجمع بين التعزية والتهنئة: عبد الله بن همام فولجه الناس جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا.

ومن جيد ما قيل فى ذلك قصيدة لأبى تمـام الطائى يمدح الواثق بالله ويرثى المعتصم من خلفاء بنى العباس، يقول فيها:

إن أصبحت هضبات قدس أزالها قدر فما زالت هضاب شمام
أو يفتقد ذو النون فى الهيجان فقد دفع الإله لنا عن الصمصام
أو كنت منا غارباً غدوا فقد رحنا باسمى غارب وسنام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

الحكماء السبعة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر فى جزء ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هـ من المجلد الحادى والعشرين مقالا للدكتور الفاضل أحمد فؤاد الأهوانى تحت عنوان - الحكماء السبعة - قال فيه : ولست أدرى أعرفهم العرب فى الإسلام أم لا ؟ نعنى أسماء الحكماء السبعة وصفاتهم وأقوالهم ، وأنهم يمثلون أول ظهور الحكمة أو الفلسفة ، وقد ذكر القفطى فى أخبار الحكماء[1] أساطين الحكمة ، تكلم عنهم عند ما تعرض لانباذقليس ، فقال : إنه « حكيم كبير من حكماء اليونان ، وهو أول الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة ، وأقدمهم زماناً ، والخمسة هم : أبيذقليس هذا ، ثم فيثاغورس ، ثم سقراط ، ثم أفلاطون ، ثم أرسطاطاليس ، ولم نقع على نص آخر فى الفهرست ، أو طبقات الأطباء أو كتب فلاسفة العرب يدل على أنهم عرفوا الحكماء السبعة ، نقول وليس فيثاغورس حكيما ، بل هو متأخر عن الحكماء السبعة ، وإليه يعزى القول « لست حكيما ولكنى مؤثر للحكمة » والمؤثر للحكمة هو الفيلسوف ، كأن الفلسفة فى اليونان نشأت فى أحضان الحكمة العملية التى جرت على لسان الحكماء السبعة[2] .

ولو أن الدكتور الفاضل بحث فى كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لوجد فيه نصاً عن أولئك الحكماء السبعة ، ولعرف منه أن العرب عرفوا أيضاً هؤلاء السبعة من الحكماء القدماء ، كما عرفوا الخمسة الذين أتوا بعدهم ، وكانوا يسمون أساطين الحكمة .

---

(١) يعنى كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء .

(٢) ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ من المجلد الحادى والعشرين من مجلة الأزهر .

وهذا النص يوجد فى ص ٤٤٧ من الجزء الثانى من كتاب كشف الظنون [١] وهذا عند الكلام على علم الحكمة ، فقد عرفها أولا ، ثم قسمها إلى حكمة عملية وحكمة نظرية ، وذكر فى ذلك كلاما كثيرا ، ثم تكلم على تاريخ الحكمة عند الأمم القديمة من الكلدان والقبط والسريان واليونان والروم والفرس ، إلى أن قال : وأول من تكلم فى الفلسفة على زعم فرفوريوس الصورى فى تاريخه السريانى سبعة : أولهم ثاليس ـ طاليس ـ وقال آخرون : فوتاغورس ، وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، لأن جالينوس كان يكتبها بالذهب ، ثم تكلم على الفلسفة سقراط من مدينة آتنه — أتينا — بلد الحكمة ، ومن أصحاب سقراط أفلاطون ، كان من أشراف يونان ، وكان فى قديم أمره يميل إلى الشعر ، فأخذ منه بحظ عظيم ، ثم حضر مجلس سقراط ، فرآه يثلب الشعراء فتركه ، ثم انتقل إلى قول فيثاغورس فى الأشياء المعقولة ، وعنه أخذ أرسطاطاليس ، وألف كتبا ، وترتيب كتبه هكذا : المنطقيات ، الطبيعيات ، الإلهيات ، الخلقيات ، وقد مضى بعد هـــذا فى الكلام على كتب أرسطاطاليس ومن ترجمها فى الإسلام الخ .

والمهم فى هذا النص هو القول الأول الذى يجعل ـ طاليس ـ لا فوتاغورس هو أول الحكماء السبعة ، لأن هذا يوافق كل الموافقة ما نقله الدكتور الفاضل من الأقوال فى هؤلاء الحكماء ، لأن الأقوال التى نقلها متفقة فى جعل ـ طاليس ـ على رأسهم ، كما تتفق فى ثلاثة آخرين ، وهم بياس وبتاقوس وسولون ، وإنه ليكفى ذلك فى معرفة العرب بهؤلاء الحكماء ، وإن كان صاحب كشف الظنون قد اقتضب النص الذى نقله عن فرفوريوس ، ولم يذكر من هؤلاء الحكماء إلا حكيما واحداً ، وهو — طاليس — لأنه يذكر فى أولهم ، ومن المرجح أن هناك نصوصاً أخرى غير هذا النص الموجود فى كشف الظنون فى الكتب العربية التى تعنى بالكلام على الفلسفة ، ومن المرجح أيضاً أن هذه النصوص قد توسعت فى الكلام على هؤلاء الحكماء ، وذكرت أسماءهم كلهم ، كما ذكرت الأقوال المختلفة فى تعيين أسمائهم ، على نحو ما ذكر الدكتور الفاضل ، وكان هذا سببا فى اقتصار

---

[١] مطبعة العالم بالأستانة

صاحب كشف الظنون على ذكر ـ طاليس ـ وحده ، اكتفاء به عن ذكر غيره ، لأن كتابه لا يعنى إلا بذكر إلمامات صغيرة من كل علم ، على أنه مع هذا ينقل عن كتاب لفرفوريوس ذكرت فيه أسماء هؤلاء الحكماء ، ولم يقتصر فيه على ـ طاليس ـ وحده ، فلا بد أن يكون صاحب كشف الظنون قد اطلع عليهم فى هذا الكتاب ، ولا بد أن يكون غيره من فلاسفة العرب قد اطلع عليهم قبله ، لأن فرفوريوس كان معروفا لهم ، وكذلك كانت كتبه معروفة لهم لترجمتها إلى العربية .

وقد كان فرفوريوس الصورى من فلاسفة القرن الثالث الميلادى (٢٣٣ - ٣٠٥ م) ولد فى صور ، وأخذ على أفلوطين ، وقد شرح محاورات أفلاطون الكبرى ، وشرح من كتب أرسطاطاليس المقولات والأخلاق والطبيعة والإلهيات ، ووضع كتاب إيساغوجى ، وهو كتاب المدخل إلى مقولات أرسطاطاليس ، وقد نقله إلى العربية أبو عثمان الدمشقى ، وله أيضا كتاب أخبار الفلاسفة ، وقد ذكر القفطى فى كتابه — أخبار العلماء بأخبار الحكماء — أنه وجد منه المقالة الرابعة بالسريانى ، والظاهر أنه هو الكتاب الذى نقل عنه النص السابق صاحب كشف الظنون .

ومن هذا يتبين أن الحكماء السبعة عند العرب غير الحكماء المعروفين عندهم بأساطين الحكمة ؛ لأن هؤلاء الحكماء خمسة متفق عليهم عندهم ، أولهم ابيذقليس ، وقد قيل إنه كان فى زمن داود عليه السلام ، وآخرهم أرسطاطاليس ، وقد كان موجودا فى القرن الرابع قبل الميلاد (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) .

وأما الحكماء السبعة فأولهم طاليس ، وقد كان موجودا فى القرن السادس والسابع قبل الميلاد . (٦٢٤ — ٥٤٦ ق م) وما نقله العرب من ذلك يوافق مانقله فلاسفة أوربا بعدهم ، وإنى أرى أن معرفة الحكماء السبعة ليست من الدقة بحيث تخفى على فلاسفة العرب ، وقد عرفوا كثيرا من دقائق الفلسفة ، فأهون بهذه المسألة أن يعرفوها أيضا .

على بن أبى طالب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى

وكيل معهد أسيوط

لو أن لى نبعا من ينبوع بلاغتك ، أو قبسا من نور هدايتك ، أو رشفا من ديم مزاياك . أو مرقى إلى مستوى علياك ، لملكت تصويرك للقراء الكرام ؛ وإنما يُحسن التصوير ولا سيما لمثلك بليغ منطيق ، وإنما يقدم حكيما عليا مثلك حكيم عالم ، ولكننى محب معجب ، أراد أن يوفى بعض الحق لإمام من أئمة الإسلام ، هو فى الحق مجمع لعدة إمامات ، وشمس سطعت على الكائنات ، فبحق أقول : إنه عالم ربانى أوتى من ظاهر العلم وباطنه ما استعصى على غيره بعد النبيين ، ومتكلم حكيم تطرق إلى أبواب لا يحسنها سواه من الناطقين فى عذوبة خلابة ، وأسلوب بديع .

أيها الإمام المظلوم : مثلك من غبن حقه فى هذه الدنيا فلم تصف له ، ومثلك من جمد على الحق غير مبال أن ينفض مَنْ حوله ، ومثلك من عرف قيمة هذه الحياة فشجع ولم يبال بالموت ! يا إمام الأتقياء ومن أوتى الحكمة ؛ فكان أخطب خطباء هذه الأمة بعد السيد الرسول صلوات الله عليه . هل درى الناس بم نلت هذه المزايا ؟ وكيف اكتسبت تلك المواهب والعطايا ؟ أحاولت أن تكون عليا فكنته ؟ أم ذلك محض فضل من الله نلته ؟ وما من شك فى أن الكل من الله ، ولكنه حين يريد يؤتى الأسباب ، وييسر الطلاب .

أيها القارىء الكريم : هذا هو على بن أبى طالب بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره الذى حاول معاوية بن أبى سفيان أن يفتخر عليه فقال لغلامه أكتب إليه :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها ... فأيكمُ له سهم كسهمي
سبقتكمو إلى الإسلام طرا ... غلاما ما بلغت أوان حلمي

ولد والرسول صلى الله عليه وسلم رجل يرشحه الله سبحانه للنبوة فى الثانية والثلاثين من عمره، ونشأ فى بيت محمد بن عبد الله لفقر أبى طالب إذ ذاك، وما ظنك بناشىء فى بيئة محمد، تربيته على العلم، والأدب والحكمة، والكمال والجد والرجولة، لهذا كرم الله وجهه فما سجد لوثن قط، وما عرف طريقا لم يسلكه الرسول قط، لهذا أحبه وآثره وآخاه، فقال: أنت منى بمنزلة هرون من موسى، غير أنه لا نبى بعدى. وهذا حق ـ وأبيك ـ فهى أخوة نسب، وأخوة صداقة، وأخوة اتفاق فى المزايا والصفات، إلا ما خص الله به عبده محمدا، وهو ذو الفضل العظيم، لقد أفاد على بهذه الصلة الخاصة الكريمة ما لم يجتمع لسواه، وهو من أبوين طيبين من عنصر بنى هاشم وهم صفوة الله من عباده، أبوه أبو طالب المعروف، وأمه فاطمه بنت أسد بن هاشم جد هذا البيت الكريم. فلا غرو إذا أفاد من ذلك القران وتلك الصحبة.

لقد أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان إذا غضب لم يخاطبه أحد سواه، ولقد بذل له من النصح والإخلاص فى التعليم والتربية ما صار به عالما ربانياً، لا يتسامى إلى منزلته غيره. أخرج ابن سعد عن على أنه سئل بم كنت أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا؟ فقال: «إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكت ابتدأنى»، لقد أثمر ذلك الحب الخالص بين على وبين ابن عمه، ذلك العلم القلبى النافع، لا العلم اللسانى الضار، فكان على يؤثر غيره بالدنيا على نفسه، ويطعم الطعام على حبه، مسكينا ويتيما وأسيرا حتى قيل: إنه طوى ثلاثة أيام، وفى الثالث جاءه رزق فأتاه ضيف وهو على مائدة الإفطار مع زوجه وابنيه الحسن والحسين؛ فرفع الطعام من فوق المائدة وآثر به السائل، ولم يطعموا ليلتهم على ما بهم من مسغبة ومجاعة، فضرب المثل الكريم لأهل الإيثار، وعلم الناس كيف

يروضون النفوس ويملكونها ، ومن ملك نفسه وشهوته فهيهات أن يذل أو يسفل يوما ، كان على يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويقوم حتى يقال لا ينام ، يضرع إلى الله ربه ويبكى من ذنبه ، ويحاسب نفسه على كل ما يصدر منه ، ولهذا كانت نفسه مرآة صافية ، وواضحة خالصة لا يغش ولا يكذب ولا يظلم ، صريحا لا يعرف المواربة وواضحا لا يقبل المخادعة ، وقويما لا يرضى المداورة . إذا سمع خطة لا يؤمن بها قال : لا بملء فيه ، يدور مع الحق أنى كان ، ومع من كان ، لا يطلب الخلافة لأنها ملك ودنيا يصيبها ، ولكن ليضع الحق فى نصابه ، خليا من كل خطر نفسى ، ومأرب دنيء « والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما أخذ الله على العلماء ألا يقاربوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ؛ لألقيت حبلها على غاربها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عطفة عنز ، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت لكم به لاضطربتم اضطراب الأرسية فى الطوى البعيدة ، لقد أفاد من تلك الصلة الكريمة مع ذلك الاستعداد الخصيب ؛ فكان جريئا فى الحق ولو على نفسه ، أو من هو فى احتياج ملح إلى نصره ، والاعتزاز به فبشر قاتل خصمه ، والمؤلب عليه وتبرأ منه ، لأن ذلك الخصم من خيرة أصحاب محمد ومن كانوا موضع تقديره : اغتال عمرو بن جرموز المجاشعى الزبير بن العوام وهو نائم ، وأقبل برأسه على ابن أبى طالب فما كان من على إلا أن قال : أبشر بالنار . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بشروا قاتل الزبير بالنار » . فخرج عمرو وهو يقول :

أتيت عليـا برأس الزبير   وكنت أحسبها زلفـة
فبشر بالنار قبل العيان   فبئست بشارة ذى التحفـة

ثم أتى بسيفه فنظر إليه مليا وقال : رحمه الله الزبير لطالما فرج به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رحمك الله يا على لقد كنت موئلا للشريعة الإسلامية ، تأرز إليك كما يأرز الضب إلى حجره ، ولقد كنت مصدرا أمينا من مصادر التشريع ، اتخذك الشيخان أبا بكر وعمر مستشارا لهما ، لا يفصلان فى معضلة إلا بعد فصلك ، ولا تختلف واحد منها عليك فى رأى ، إلا رجع إلى قولك ، حتى ضرب الناس المثل بك فى معضلات الأمور ومشكلاتها ، فقالوا : قضية

ولا أبا حسن لها - وكان ذلك مصداق ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلى بابها »[1].

ولقد كنت تقول فصلا وتحكم عدلا ، حتى قل أن يترك لك قول الحق صديقا ، ولو كان ابن عباس حبر هذه الأمة ، وابن عمك المخلص الأمين إن صح ما يقول المؤرخون .

وقد أفاد من ذلك خصمك معاوية ، ورزأك بتسامحه ولينه فى خلصائك ونصحائك، حتى فى أخيك عقيل الذى طلب منك فقلت : أصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين ، فلما ألح بك ، قلت لبعض القوم : خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق ، فليدق الأقفال وليأخذ ما فى الحوانيت ، فقال لك : تريد أن تتخذنى سارقا فقلت له : كما أردت أن تتخذنى سارقا آخذ أموال المسلمين ، فأعطيكها دونهم ، ولما ذهب إلى معاوية أعطاه مائة ألف ثم قال له : اصعد على المنبر فاذكر ما أولاك به على وما أوليتك ، ولكن الفتى الهاشمى المطلبى عقيلا لم يبع كرامته من معاوية ، ولم يقبل خطة الضيم فى أخيه ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنى أخبركم أنى أردت عليا على دينه فاختار دينه ، وأردت معاوية على دينه فاختارنى على دينه . ولله أنتم يابنى هاشم .

إن على بن أبى طالب لو قيل أن يستبقى معاوية على إمرة الشام ، ويغضى على بعض أمره ، لقد كان ذلك جديرا أن يخفف ضائقة العداء القائم ، وربما غير ذلك وجه السياسة ووجه الدفة وجهة على ، ولكن رفض كل الرفض من جميع الساسة والعظماء الذين أخلصوا له ، لأنه لا يؤمن إلا بوحى ضميره ، ولأنه على بينة من ربه ، فلم يرض أن يقره ولا أحدا من عمال عثمان ، حتى يستتب الأمر وما ظنك بالاستهداف لخصومة الرؤساء . ولكنه الذى لا يبالى ، والذى يقول حين يناقش : « ما شككت فى الحق منذ أريته من وقعه بماء لم يظمأ » .

وقد اتصل بهذا التمسك العجيب والتماسك الطايب ، ورع وزهادة ونبل ومجادة ، وتعفف أعجب العدو والصديق ، وكذلك من رأى الحق رأى العين ، وكان

---

(١) اختلف المحدثون فى الحديث فمن قائل بوضعه كابن الجوزى ، وقائل بصحته كالحاكم والأقرب أنه حسن .

مع الله ولله . قال المؤرخون : إنه نهى أصحابه يوما عن انتهاب الأموال بعد أن أثخنوا فى أعدائهم الجراح ، فجعلوا يمرون بالذهب والفضة ، فلا يعرض له أحد إلا السلاح الذى قاتلوا به ، والدواب التى حاربوا عليها فندبوا من يناقشه لعله يرحم أطماعهم ويبل ريقهم : يا أمير المؤمنين : كيف حل لنا قتالهم ، ولم يحل لنا سبيهم وأموالهم . ويقول على : « ليس على الموحدين سبى ، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون والزموا ما تؤمرون ، رحمك الله يا باب العلم والأمانة ، إنى أعلم أن أحكام الخارجين من المسلمين ومعاملتهم وما فى ذلك من غوامض أنه مصدره ومرجعه فى الفقه الإسلامى بما شرعت للناس من أحكام لم تعرف من قبلك .

فأما شجاعة على واستبساله فقد تواتر حتى دخل فى حد الأوليات ، وأول موقف عجيب له كان ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين مكرت قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يخرجوه أو يثبتوه ، وجاءوا يتربصون خروجه لصلاة الفجر ، وأقام عليا فى مكانه ، يستهدف لخطرهم ، ويفدى النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه من مكرهم . وكان نوماً هادئاً جميلا لا أرق فيه ولا تفكير ، لأنه نوم الذى يصف نفسه « ما أبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على ، والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الصبى بثدى أمه ، ويخرج على إلى الصلاة فلا يجدون سواه . . »

ولقد بارز فى كل غزوة بما تنبئك كتب السير بعجائبه ، وخوارقة التى لولا ما يصح بالرواية منها لدخل فى حد الخرافات .

وهو إلى ذلك مهذب مؤدب ، متواضع ينزل عن بعض صفاته لخيرة أحبابه ، ويقوم على ذلك بحجته . أخرج البزار فى مسنده عن على أنه قال : أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت : قال أما إنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ولكن من أشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم فمن ؟ قال : أبو بكر إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشا ، فقلنا من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوى إليه أحد ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه . فهذا أشجع

الناس . رحمك الله يا علي لقد فتن الناس بمواهبك لما كان يظهر من عبقريتك ، فعلمك كميثة المكنون وشجاعتك تحار فيها الظنون ، وفصاحتك لم يتطلع إليها المتطلعون ، وزهدك أعيى به الراهبون ، وقد كان يلذ لخصمك معاوية أن يسمع من أصحابك عنك ، وهو من أعلم الناس بك ، ويلح في الطلب وما أبدع وأوجز ما وصفك به عدى بن حاتم في كلمته الطويلة التي يقول فيها عنك : « يقول فصلا ويحكم عدلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عزيز الدمعة طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ويحاسب نفسه على ما مضى ، يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن العيش ما خشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، يعظم أهل الدين ، ويتحبب إلى المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فاقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه ، وأرخى الليل سدوله ، وهو يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأني الآن أسمعه وهو يقول : يادنيا غرى غيرى إلى تعرضت ؟ أم إلى تشوفت ؟ هيهات عزى غيرى! طالق يادنيا، طالق ثلاثاً لارجعه بعدها » وقد كان معاوية يبكى حين يسمع وصف علي ويترحم عليه ، وبعد فلعل لى رجعه إلى التنويه بالإمام بوصف فصاحته ، وما خلف من أدب هو الذخيرة لمن أراد الثراء الادبي النفيس .

من كلام الامام

من كلام علي عليه السلام قوله : رأى الشيخ خير من مشهد الغلام . الناس أعداء ما جهلوا . بقية عمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك ما فات ، ويحيي بها ما أمات .

أخذ معنى هذه الفقرة الأخيرة أبو الفتح علي بن محمد البستى من مجيدى شعراء القرن الرابع الهجرى المتوفى سنة (٤٠٠) هـ فقال :

بقية العمر عنـدى ما لهـا ثمن   وإن غدا وهو محبوب من الثمن
يستدرك المرء فيها ما أفات ويحـ   ـيى ما أمات ويمحو السوء بالحسن



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الحديث عن الشعر فيه من الطرافة والحسن ، والجمال والروعة ، والنزوع والرغبة ، والحنين والشوق ، ما يثير الإحساس المرهف ، والوجدان المتيقظ والقلب اللماح ، والفكر المتوثب ، وأنا من هؤلاء الذين يهيئون له من الفراغ ، ويعدون له من البال ، وينظمون له من الدراسة ، بمقدار ما يجعله منهم كالداء الملح ، والعلة التى يستعصى علاجها ، ويتعسر التطبيب لها ، وربما اعثرت بالبيت والأبيات فوددت لو تكلمت من بوق عظيم لأنغمه للناس ، أسمعه لمن فى الأرض جميعا ، وأعتقد أنه إذا كان للأشياء من مسمياتها نصيب ، فإنه سمى بهذا الاسم ؛ لأنه يمتاز عن غيره من أساليب الكلام بكونه يخاطب الشعور ويلهب العواطف ، ويحرك أوتار الحس ، ولولا هذا لما قالت قريش حينما دهشت للقرآن الذى ملك عليها أقطار البلاغة ، وقطع دونها طريق المعارضة : « إنه شعر » .

والحق أنه ، إذا تكاملت لصاحبه الملكة ، وتوفرت له الدواعى ، وأسعفته الألفاظ ، يبلغ فى سفارته للعقول ، وفعله بالأفئدة ، ولعبه بالأهواء ، وسلطانه على الضمائر ، مالا تبلغه التعاويذ والرقى ، والسحر والحيلة .

ولهذا جعلته الأمم فناً من فنون الجمال ، يحتفلون به ، وتهزهم العناية له والانكباب عليه ، ويباهى الرجل أو المرأة بما يربطهم به من نسب ، ويصلهم به من وشائج ، وإذا كان لأحدهم تذوق له ، وفهم فيه ، طاول بعنقه ، ولوى عطفه

واشمخر بأنفه، وزها زهو الملوك الفاتحين ، والقواد الظافرين ، وسجل التاريخ أن الشعر لعب دوراً هاما فى نهوض الجماعات والشعوب ، وتقدم الأفراد والأمم وأن البيت الواحد كان يقيم دولة ، ويخفت صولة ، ويوجه رأياً، ويناصر مذهباً ، ويقضى على سياسة ، ويناهض فكرة .

ومن أجل ذلك أُثِرَ عن العرب أنها ما كانت تغتبط لشىء مثل اغتباطها بشاعر يولد ، أو خرسٍ تُنتَج ، وكانوا يقيمون له الأسواق، كما تقيم الدول المتمدينة المعارض الدولية ؛ لتبرز فيها أحسن ما صنعته أيدى الصناع فيها من كل مايدل على تقدمها ونبوغها ، وصلاحيتها لأن تجارى ركب الحضارة والتقدم ، والسياسة والعمران ، وكثيراً ماتتجلى لنا القضايا العلمية ، والمسائل العقليّة ، فى لباس الوزن الموسيقى ، والجرْسِ التوقيعى ، والتفاعيل الخليليّة ، فنتناقلها معجبين ، ونتدارسها فرحين ، ثم لا تلبث أن تدوى فى الخافقين ، وتطير من غير جناحين ، وإذا الألسنة تردّدها ، والآذان تصغى إليها، ولأمر ما كان الخلفاء يحتفلون بالشعراء يترضّونهم ، ويخطبون مودتهم ، ويغدقون عليهم من العطاء ، ما يطلق ألسنتهم بالثناء ، وقد عرفنا ممن بلغ به الترف والنعمة ، والثراء والسعة ما جعله أشبه بأصحاب الجاه والملك ، فى مأكله ومسكنه ، وسمته ومظهره ، وحديث المتنبى مع سيف الدولة ، وافتراضه أوامره عليه ، وتحكّمه فيه ، ليكون له قصر مثل قصره ، فيه من العبيد والخدم ، والجوارى والإماء ، والنمارق والبسط ، ما يخيل للرائى أنه لا فرق بين الرجلين ، ولا خلاف فى مظهر الشخصين ، يؤيد هذه النظرية إلى أبعد حدود التأييد ، وإذا كان بعض الناس يتهمون الشعر بأنه من لهو الحياة وفضولها، وعبث التفكير ومجونه ، وأنه لا يشتغل به ، ولا يلتجىء إليه ، إلا أولئك الذين صرفهم الله عن الواجب ، ولوى عنانهم عن الجادة الصحيحة ، والمهيع المستقيم ، لأنهم يفرقون فى الخيال ، ويبعدون فى الوهم ، ويعيشون فى أضغاث الأحلام ، فإنهم يسرفون ولا ينصفون ، ويتحاملون ولا يتجاملون ، ويخبطون خبط العشواء فى الليلة الظلماء .

وقد عبد القاهر الجرجانى حين سئل فى ذلك ، فقال : هو من الكلام جيده جيده ، ورديئه رديئه ، ونقل حافظ إبراهيم عن المرحوم الأستاذ الإمام فى مقدمة ديوانه هذه الجملة : « لو أنهم سألوا الحقيقة أن تختار لها بيتاً تشرف منه على الوجود لما اختارت غير بيت من الشعر » .

ومن الغريب أن الذين يعيبون الشعر وينكرونه على الناس ، لا يلبثون إذا أعيتهم مسالك التعبير ، وضاقت بهم دروب المنطق ، وأعجزتهم أساليب البيان ، أن يطلبوا منه الشواهد ، ويستعينوا به على الإفهام ، معتقدين أنه « جهيزة » التى قطعت قول كل خطيب ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : خير ما يقدمه الرجل بين يدى حاجته الأبيات من الشعر يهزبها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم ، وكلنا يعرف أن التراث العلمى الذى وصل إلينا من الأندلسيين كان خاليا من الجفوة ، بعيداً عن الغلظة ، سالما من غرابة التأليف ، وتعقيد التراكيب ؛ لأن أهله غلب عليهم الطابع الأدبى ، والأسلوب الشعرى .

وإذا صح ما يقول القائلون من أن أصحاب المواهب والملكات ، والعقول والأفكار ، لهم رسالة فى الحياة ، لا شك فى أنه يجب عليهم أن يؤدوها على أكمل وجه ، وأحسن مثال ، فإن رسالة الشعراء أنبل وأشرف ، وأثمن وأغلى ، وأخلد على الزمن ، وأبقى على الأيام والليالى ، لا لأنهم أقدر على التعبير ، وأملك لعنان القول ، وأعرف بمواطن الشعور ، ومسارب الأحاسيس ؛ بل لأنهم — مع ذلك — أشد الناس معرفة بمعنى الحياة ، وأكثرهم فهما لما لابد أن يهدف إليه الأحياء ؛ليؤدوا ضريبة وجودهم فى هذا الكون الفسيح ، ونحن نرجو أن ينفخوا فى روع المعاصرين ، ويأخذوا بأيدى المدلجين ، لتستقيم بنا السبيل ، وتعتدل المحجة . فليس الشعر آهة تلتهب ، وأنفاسا تحترق ، وليلا يطول ، وحالا تحول ، ومعانى تحمل على الضعف ، وتغرى بالفسوق والعصيان ، ولكنه الاتجاه إلى أنبل الأهداف ، وأسمى المقاصد ، وأحسن الغايات .

أعلام الأزهر

المنفلوطى

١٨٧٦ – ١٩٢٤ م

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بكلية اللغة العربية

– ٢ –

المنفلوطى الناقد :

« والمنفلوطى ، إذ نقد الأحوال السياسية أو الشئون الاجتماعية أو الأدبية ، أو تناول نقداً شخصياً بينه وبين مصاول كان بارع النقد ، لماح الفكر ، يعالج الموضوع فى تحليل مستوعب ، وإلمام شامل ، ولا يجمح قلمه فيما ينقد ، أو يتجاوز العفة والنزاهة وتوخى الحق فيما يرى ، وقد أثر عنه كرم القلم ، وترفع الأسلوب ، ونزاهة الرأى ، على رغم ما ارتصد له من عقارب تنفث سمومها على الصحف وفى المجتمعات ، ولكنه كان يعتصم دائما بقوله : « إن الله وحده هو الذى يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان » .

ومهما يكن من شىء ، فالمنفلوطى ، فى الأدب أمة وحده ، نهج فيه نهجاً رفيعاً مبتكراً ، وخلد بهذا الفن الرائع ذكره ، واستحق أن تصفه صحيفة « الهلال » بأنه « أمير النثر العصرى » وأن يقول فيه الأستاذ أحمد الزيات : « فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله ، يجعله فى النثر بمنزلة البارودى فى الشعر »[١] .

---

(١) مجلة الرسالة السنة الخامسة العدد ٢١٠ .

شعره :

« للمنفلوطي » شعر جمع بين الجزالة والسهولة ، رصين القافية ، فخم التعبير ، وله قصائد رائعة ، متينة السبك ، محكمة النسج ، لطيفة المعنى ، بارعة الوصف ، وله فى الوجديات غرر ، وفى الحكم بدائع ، غير أنه مقل ، لم يتجه إلى الشعر اتجاهه إلى النثر الذى ملك عليه نفسه ، واستأثر بقلمه ، ولو أنه ولع بالنثر ترفق به وخلى بينه وبين الشعر أحيانا أخرى ، لكان من أبرع الشعراء وأنبه الفحول.

آثاره الأدبية :

النظرات : وهى مقالاته الفذة الرائعة الأسلوب ، التى كان ينشرها فى « المؤيد » تباعا ، ويعالج فيها شئون المجتمع ، وقد كانت مثار شهرته ، وبعد صيته ، وهى مطبوعة طبعات متعددة .

العبرات : مجموعة روايات موجزة ، وضع فريقا منها ، وترجم فريقا آخر ، وقد ساقها عظة وتذكرة ، وهى اليتيم ، والشهداء ، والحجاب ، والذكرى ، والهاوية ، والجزاء ، والعقاب ، والضحية ، ومذكرات « مرغريت » ، وهى مطبوعة تكرر طبعها .

الشاعر أو « سيرانودى برجراك » : رواية أدبية تهذيبية ، غرامية تمثيلية ، استخلصها من روايات « أدمون أوستان » تكرر طبعها أيضا .

ماجدولين : أو تحت ظلال الزيزفون . ألفها الكاتب الفرنسى (الفونس كار) ونقلها عن الفرنسية إلى العربية « المنفلوطى » فى قالب قصة خيالية تخيل وقائعها فى ألمانيا ، وأملى عليه ترجمتها الحرفية صديقه الأستاذ « محمد فؤاد كمال بك » ثم تصرف فيها « المنفلوطى » بأسلوبه وهذبها بحذف ما يجافى الذوق العربى منها مع حفاظه لطابع الرواية ومغزاها [1] .

وقد كتب الأستاذ « خير الدين الزركلى » خلاصة شعرية لهذه الرواية ، وهى نسخة فى مجلد واحد تكرر طبعها .

---

(١) إذا قلنا نقل هذه الرواية من الفرنسية إلى العربية المنفلوطى فإنما نعنى أنه كلف من نقلها لجهله الفرنسية .

الانتقام : رواية أدبية اجتماعية أخلاقية ، تصور حكاية المسيو « كاپريني » وكيف قضى شطرا طويلا من حياته سعيدا بزوجته وثروته ، حتى عصف الدهر بهما ، مع تصوير ما وقع لابنته مع زوج أبيها من بؤس وتعس إلى غير ذلك من مشاهدها طبعت بمطبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٣ م وغيرها .

فى سبيل التاج : ألف هذه الرواية الشاعر الفرنسى الشهير « المسيو فرانسو كوبيه » ثم نقلها « المنفلوطى » إلى العربية ، وقد وقعت أحداث هذه الرواية فى القرن الرابع عشر بين العثمانيين وشعوب البلقان ، وأراد مؤلفها أن يجارى بها « كورنى » و« راسين » عميدى الشعر التمثيلى فى القرن السابع عشر ، طبعت بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٠ م ثم توالى طبعها .

الفضيلة : رواية ألفها الكاتب الفرنسى الشهير المسيو « برناردين دىسان بيير » ثم نقلها « المنفلوطى » إلى العربية بتلخيص وتهذيب ، وهى من الروايات الأدبية الأخلاقية الاجتماعية التى تؤرخ لحوادث غريبة ، كتبت عن جزيرة « موريس » إحدى جزر إفريقية الواقعة فى المحيط الهندى قريباً من « مدغشقر » وقد وصفت طبيعة هذه الجهة ، وصورت الاستعمار الأوربى بها ، وتحدثت عن أشخاص عاشوا بهذه الأصقاع ، وبآخرها قصيدة فى العظة والعبرة خاطب بها « پول » و « فرجينى » سنة ١٩٢٣ م ثم أعيد طبعها .

مختارات المنفلوطى : هى روائع من النظم والنثر مما استجاده واهتز له فؤاده ، ووقف عنده معجباً بأسلوبه وتصويره ، وقع عليها من كثرة ما يجيل النظر فى الكتب العربية وآدابها ، وهى دالة على حسن ذوقه ، وروعة اختياره .

نماذج من نثره

الحرية : نبذة مما كتبه بهذا العنوان .

« إن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به هذه الهرة المحبوسة فى الغرفة ، والوحش المعتقل فى القفص ، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص ،

أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه ؛ بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ، ويتلذذ بآلامه وأسقامه .

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها : يكون الحيوان الأعجم أوسع فى الحرية ميدانا من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤما عليه وعلى سعادته ؟ ، وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته ، كما كان قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً ؟

.... « ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه ، أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

« لو عرف الإنسان قيمة الحرية المسلوبة منه ، وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد فى القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعا من أشعة الحرية ، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها .

« لا سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ، ووجدانه وفكره إلا أدب النفس .

نماذج من شعره

قال فى الوجديات ، وشعره فيها أشبه بشعر البدو :

سقاها وحيا تربها وابل القطر ... وإن أصبحت قفراء فى مهمه قفر

طواها البلى طى الشحيح رداءه ... وليس لما يطوى الجديدان من نشر

مرابض آساد ومأوى أراقم ... تجاور فى قيمانها الفيل بالجحر

يكاد يضل النجم فى عرصاتها ... ويزور عن ظلمائها البدر من ذعر

لقد فعلت أيدى السوافى بنؤيها ... وأحجارها ما يفعل الدهر بالحر

وقفت بها فى وحشة الليل وقفة ... أثار شجاها كامن الوجد فى صدرى

ذكرت بها العهد القديم الذى مضى ... ولم يبق منه غير بال من الذكر

وعيشا حسبناه من الحسن روضة ... كساها الحيا منه أفانين من زهر

فأنشأت أبكى والأسى يتبع الأسى
إلى أن رأيت الصخر يبكى إلى الصخر

وما حيلة المحزون إلا لواعج
تفيض بها الأحشاء أو عبرة تجرى

إلى أن قال :

وفى القصر بين الظل والماء غادة
تميس بلا سكر وتنأى بلا كبر

تريك عيونا ناطقات صوامتا
فما شئت من خمر وما شئت من سحر

لهوت بها حتى قضى الليل نحبه
وأدرجه المقدار فى كفن الفجر

لعمرك ما راحت بلى صبابة
ولا نازعتنى مهجتى سورة الخمر

ولا هاجنى وجد ولا رسم منزل
عفاء ولكن هكذا سنة الشعر

ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة
من الهم لا يعنى بوصل ولا هجر

كأنى ولم أسلخ ثلاثين حجة
ولم يجر يوما خاطر الشيب فى شعرى

أخو مائة يمشى الهوينى كأنه
إذا ما مشى فى السهل فى جبل وعر

إذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه
وشاب هواه وهو فى ضحوة العمر

حييت بآمالى فلما كذبتنى
قنعت فلم أحفل بقل ولا كثر

وأصبحت لا أبغى سوى الجرعة التى
أذوق إذا ما ذقتها راحة القبر

كفاك شره

من كلام الإمام على أمير المؤمنين :

خير المال ما أغناك ، وخير منه ما كفاك ، وخير إخوانك من واساك ، وخير منه من كفاك شره

أخذ هذه الحكمة أبو الحسن محمد بن لنكك البصرى وهو من أدباء القرن الرابع الهجرى فقال وأجاد :

عدينا فى زماننا عن حديث المكارم
من كفى الناس شره فهو فى جود حاتم

المروءة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاعى
مفتش الوعظ بالأزهر

المروءة كلمة لفظها كمعناها حلو جميل ، إن قرعت السمع فعظمة وجلال ، وإن نفذت إلى القلب فنبل وسمو وشعور بالكرامة والكمال ، ولست أعدو الحق إن قلت : إن المروءة هى جماع الفضائل ، ورأس المكارم ، وعنوان الشرف ، بها يسمو المرء ، ويرتفع ذكره ، وبفقدها يفقد كل مكرمة ومحمدة وفضل ؛ فهى ميزان الرجال ، وأصل الجمال ، فالمروءة تجمل النفس بما يزينها ، وتحصنها مما يعيبها ويزرى بها ، بحيث تكون للمحامد أهلا ، وعن النقائص بمنأى ومبعد ، ولا يكون ذلك إلا لمن راض نفسه على التخلق بالحسن من الصفات ، والتجمل بأحاسن العادات ، حتى يصبح التطبع جبلة ، والتعود غريزة ، وليس يستطيع ذلك إلا من جاهد نفسه ، ونازع هواه ، رغبة فى حسن الأحدوثة ، والذكرى الجميلة ، وحذراً من شين يزرى بسمو النفس وينقص من كمالها ، ولذا قيل من شرائط المروءة : أن يتعفف عن الحرام ، ويتصلف عن الآثام ، وينصف فى الحكم ، ويكف عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحق ، ولا يستطيل على من لا يسترق ، ولا يعين قوياً على ضعيف ، ولا يؤثر دنيـاً على شريف ، ولا يُسر ما يعقبه الوزر والإثم ، ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه   ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

وتكاد لا تجد ذا مروءة إلا إذا كانت نفسه شريفة ، وهمته عالية ؛ إذ شرف النفس يدعو إلى إعزازها وإكرامها ، بالبعد عما يحط من شأنها ، وينقص من قدرها . فشريف النفس لا يقبل الهوان ، ولا يتحمل المذلة من أى إنسان ، متمثلا قول الأول :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها | هواناً بها ، كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن | عليك لها ، فاطلب لنفسك مسكناً
وإياك والسكنى بمـــنزل ذلة | يعد مسيئاً فيه من كان محسناً

وعلو الهمة يحمل المتحلى به على الترفع عن الدنايا من ظلم الناس والكذب عليهم ، وخلاف مواعيدهم . وكيف يكون عالى الهمة من يجور على غيره ، ويفترى الكذب فى حديثه ، ولا يفى بما يعد ، إن هذا إلا وصف اللئام ، وحلية الأدنياء من أشباه الرجال ؛ ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره دنيها وسفسافها » . وفى حديث آخر يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من عامل النـاس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ووجبت أخوته » .

ولأصحاب المروءات علامات تدل عليهم ، وأمارات ترشـــد إليهم كما قال الأول :

ومعشر صيد ذوى تجـلة | ترى عليهم للنـدى أدلة

فهم لأرحامهم واصلون ، ولأموالهم فى إغاثة المحتاج باذلون ، وبتقوى الله عاملون يتعففون عن المحارم ؛ كما يترفعون عن المـآثم ، لا يقربون الفحشاء ولا يخوضون فيما لا يعنيهم ، شغلهم كرم نفوسهم عن الناس إلا فيما يعود على العباد بالخير والنفع . يروى أن معاوية بن أبى سفيان سأل عمرا عن المروءة فقال : هى تقوى الله تعالى وصلة الرحم ؛ وسأل المغيرة فقال : هى العفة عما حرم الله تعالى ، والحرفة فيما أحل الله تعالى ؛ وسأل يزيد . فقال : هى الصبر على البلوى ، والشكر على النعمى ، والعفو عند القدرة ، فقال له : أنت منى حقا .

وقال حكيم لابنه : الكامل المروءة من حصن دينه ، ووصل رحمه وأكرم إخوانه . ولعمر الحق ، ما المروءة إلا فى التمسك بأهداب الفضائل ، والعمل بأوامر الدين ، فالدين يأمر بالإحسان ويرغب فيه ، ويحث على إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج ، بعبارات تستدر عطف البخيل، كما تراه يأمر بصلة الأرحام ، وضبط الفرج والبطن عن الحرام ، فالمروءة هى الدين ، والدين هو المروءة ، وليست المروءة أن تعين إنسانا بمالك أو جاهك فحسب ، ولكن أن تكون تقوى الله

أساس عملك والعمل على مرضاته أول همك ، فلا تعمل عملا فى السر تستحى منه فى العلانية ، فإن ذلك برهان خبث النفس ، ودليل لؤم الطبع وعلى مارسمنا من حد المروءة وشرائطها ، صح لذلك الذى رأى ما عليه الناس من النقص ، وفقد المروءة أن يقول :

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت علام تنتحب الفتاة ؟
فقالت كيف لا أبكى وأهلى جميعا ، دون خلق الله ماتوا

واعلم - هديت الرشاد - أن صيانة النفس عن الابتذال ، وذل السؤال بالجد والكفاح فى الحياة لتحصيل مايصلحك ، ويقوم بأود من تعول ، هو لب المروءة وسنامها ، ولن يضير ذوى المروءة أن يعملوا لكسب العيش ، وإصلاح الحال من أى طريق ما دام سبيلا مشروعا ؛ بل هـذا هو الذى حث عليه الدين ورغب فيه سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، حفظا للكرامة ، وصيانة للنفس من الهوان الذى يلحقها بذل السؤال وذهاب ماء الحياء بالتطلع إلى ما فى أيدى الناس ؛ ولذا نرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجروا - عرض عليهم الأنصار أن يقاسموهم أموالهم وضياعهم ، أبت عليهم عزة نفوسهم قبول ذلك ، وقالوا لإخوانهم الأنصار : دلونا على السوق ، نبيع ونبتاع ، ونأكل من عمل أيدينا ! تلك وربى هى العزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، فبالعمل يتمكن المرء من إصلاح شأنه وبر إخوانه ، والعطف على جيرانه ، ونيل عظيم الثواب بصلة أرحامه ، ومن تمام المروءة إيثار الغير على النفس .

ومما يروى من عجائب المتقدمين فى الإيثار ، ماحدث به أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ، قال : كان لى صديقان أحدهما هاشمى وكنا كنفس واحدة ، فنالتنى ضائقة شديدة وحضر العيد ، فقالت امرأتى : أما نحن فنصبر على البؤس والشدة ! وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمة لهم ؛ لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا فى عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ؛ فلو احتلت فى شىء فصرفته فى كسوتهم . قال : فكتبت إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة علىّ بما حضر . فوجه الى كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم - فما استقر قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبى الهاشمى ؛ فوجهت إليه

الكيس بختمه ، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتى مستحييا من امرأتى ، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان منى ولم تعنفنى عليه ؛ فبينا أنا كذلك إذ وافى صديق الهاشمى ومعه الكيس كهيئته . وقال لى : أصدقنى عما فعلته فيما وجهت به إليك . فعرفته الخبر على وجهه فقال لى : وجهت إلىّ وما أملك على وجه الأرض إلا ما بعثت به إليك ، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة ، فوجه إلى كيسى بخاتمى . قال الواقدى : فتواسينا ألف درهم ، وأين من يفعل ذلك أينا ؟ أولئك قوم شروا الثناء فى الدنيا والنعيم فى الآخرة بعرض زائل ، فرّجوا به عن إخوانهم الكربات ، فنالوا الحسنيين وفازوا بالسعادتين .

يبقى الثناء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال

ولو ذهبت أحصى لك أخبار أهل المروءة ، ومواساتهم لمن يعرفون ومن لا يعرفون ، لما اتسع لى ولك المجال . ولكن ينبغى أن تعرف :

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة يبنى الكريم بها المكارم باعها

ومروءة الرجل ذخيرة لأولاده من بعده ، ينالون بها جميل العطف ، ويدفع بها عنهم كثيرا من حوادث الدهر ونوائبه . حكى أن الإمام على كرم الله وجهه قال : لما أتينا بسبايا طىء ، كان فى الناس جارية حسناء تقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يا محمد هلك الوالد وغاب الوافد ، فإن رأيت ألاّ تخلى عنى ، فلا تشمت بى أحياء العرب ؛ فأنى بنت سيد قومى ، كان أبى يفك العانى ، ويحمى الزمار ، ويقوى الضعيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طىء . فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » .

العقيدة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس بكلية الشريعة

الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة المقربين أصل من أصول الدين ، فقد قرن الله الإيمان به بالإيمان بهم « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » . وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » .

وجميع الكتب السماوية تثبت وجودهم ، وتوجب الإيمان بهم ، فهم الصلة بين عالم السماء وعالم الأرض وعالم الغيب وعالم الشهادة « ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ملكا « فيوحى بإذنه ما يشاء » « الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » .

بل إن المشركين أنفسهم كانوا يعتقدون وجودهم ويرونهم أحق بمقام الرسالة إلى البشر من الأنبياء والمرسلين « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون » بل إن الأمم العريقة فى القدم والمدنية ، كانت تؤمن بهم وتراهم مضرب المثل فى الكمال والجمال ، قال تعالى حكاية عن صواحب يوسف « وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

ولا عجب أن يؤمن الناس من قديم الزمن بوجود الملائكة ، فإن الملائكة ـ وإن كانوا غير مرئيين لنا ـ لا ينفى العقل وجودهم . فالفطر السليمة والعقول الصحيحة لاتدعى أن الإنسان قد أحاط بكل شىء علما ، ففى كل يوم يكشف لنا العلم

عن كائنات حية لم تكن نعلمها من قبل . فهل كانت قبل اكتشافها عدما ثم وجدت يوم اكتشفها الإنسان ؟ .

إنه لا ينبغى للإنسان أن يبلغ به الغرور مبلغا يفكر معه وجود ما لم يره . فما يعلم جنود ربك إلا هو ، وإذا كان العقل لاينفى وجود الملائكة وقد أخبرنا الصادق المعصوم بوجودهم ، وجعل الإيمان بهم قرين الإيمان بالله تعالى وجب أن نؤمن بهم ، فإن الكفر بهم كفر بجميع الشرائع السماوية التى فيها هداية البشر إلى خيرى الدنيا والآخرة .

وإن أولئك الذين ينكرون وجودهم لو رأوا الملائكة يمشون بينهم مطمئنين « لقالوا إنما سكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ؛ وأمثال هؤلاء مهما حاولت إقناعهم فلن يزدادوا إلا جحوداً لأنهم لايطلبون الإقناع والاقتناع ، فإن كانوا لايؤمنون بالله فكيف تطلب منهم الإيمان بما لا يعرف إلا من الله . وإن كانوا يؤمنون به فكيف يكذبونه ؟ .

ولما كان لاسبيل إلى معرفة الملائكة إلا عن طريق الوحى السماوى ، وجب أن يكون إيماننا بهم على الصورة التى جاء بها القرآن الكريم لا تزيد ولا تنقص . فإن الزيادة عما ورد فتح لباب الخيال الكاذب ، وتهجم على عالم الغيب من غير حجة أو دليل ، والانتقاص عما ورد تكذيب لله ورسوله .

والمتتبع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن الملائكة مخلوقات عاقلة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » ، « والذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » .

والقول بأنهم قوة مجردة ملهمة للخير لامخلوقات عاقلة ، ومحاولة تأويل الآيات التى وردت فى الملائكة تأويلا يبطل معناها قول يناقض نص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية المطهرة ، فإننا إذا تتبعنا الآيات الكريمة التى ورد عنها ذكر الملائكة

المقربين يتبين لنا بوضوح أنهم مخلوقات ناطقة مفكرة خيرة . وهانحن نسوق إليك بعضاً من هذه الآيات : لترى أيمكن تأويلها بأنهم قوى مجردة كقوة الكهرباء والمغناطيسية ، ولعلك تخرج معي بعد سرد هذه الآيات بأن مثل هذا القول إنكار مقنع لوجود الملائكة ، ولا أدرى ما الذى يحمل هؤلاء القوم على ركوب متن الشطط فى التأويل مع أنه لم يقم برهان ولا شبه برهان على استحالة وجودهم ، والتأويل لا يكون إلا إذا كان ظاهر النص قد عورض بدليل أقوى منه . وماذا هم قائلون فى مثل قوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » فأية قوة هى التى قالت لمريم هذا ، وفى مثل قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » . وهل القوة المجردة تكون ذات أجنحة ؟ وفى مثل قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » .

وهل كان هذا الحوار بين الله سبحانه ، وبين قوى مجردة غير عاقلة ، وهل تطمع فى عمران الأرض بدل الإنسان قوى مجردة ؟ ولو ذهبنا نعدد أمثال هذه الآيات لطال المقام . .

وإذا كان القرآن الكريم قد حدثنا عن المادة التى خلق منها الإنس والجن فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم » فإنه لم يحدثنا عن المادة التى خلق منها الملائكة فليس لنا أن نقول إنهم خلقوا من نور أو من غيره من العناصر ، وإلا كان ذلك جرأة على عالم الغيب من غير سند أو برهان .

ويشير القرآن الكريم إلى أن الإنسان العادى لا يستطيع رؤيتهم على الصورة التى خلقوا عليها ، وأن فيهم استعداداً لئن يتشكلوا بغير صورهم قال تعالى جوابا على تمنى أولئك الذين طلبوا أن يكون الرسول ملكا : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم مايلبسون » . وقد تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم

من طرق مختلفة أن جبريل عليه السلام ، كان يأتيه فى بعض الأحايين بصورة رجل ؛ فيسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويجيبه ، ليعلم الناس الدين على طريقة السؤال والجواب . والله سبحانه يعطى من شاء من خلقه ماشاء من الخصائص والمميزات ، فكم لبعض النباتات والحيوانات من مزايا قد تصل إلى درجة المعجزات .

وليس لنا أن نبحث عن حقيقتهم أو نظام حياتهم، أو كيفية تكاثرهم فإن الله سبحانه قد زجر قوماً قالوا فيهم قولا عن خيال سقيم كاذب ، فوصفوهم بالأنوثة فقال : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا ، أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » . وهذا أدب من الله سبحانه لعباده أن لا يقولوا فى الأمور الغيبية بما توحيه إليهم عقولهم ، أو تصوره لهم أخيلتهم، فما كان العقل ليستقل بدرك ما هو مغيب عنه إلا عن طريق الإخبار ممن يقطع بصدقه .

وقد سمى لنا القرآن أسماء بعضهم كجبريل وميكائيل « قل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » كما سمى منهم مالكا خازن النيران قال تعالى : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون » . وحدثنا كذلك إن للموت ملكا : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » وإن منهم كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ، كما أن منهم حملة عرشه « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا » .

كما حدثنا أن منهم خزنة للجنة وآخرين للنار « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة » ، « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين »

وبعد فإذا كان الخير وسطا بين شرين ، فإن المسلم الحق لا يجوز له أن ينكر وجود الملائكة إنكاراً صريحا أومقنعاً ؛ كما لا يجوز له أن يخلع عليهم من الصفات مالم ينزل به الله سلطانا ، بل يقف عند حد ما ورد ويقول كما قال المؤمنون الصادقون : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

الصنع البديعي في مدرسة السكاكي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

حكومة الخطيب على البديع :

وزّع أبو يعقوب السكاكى البلاغة على علمين اثنين : المعانى والبيان ، وجعل البديع — وإن لم يسمّه بذلك الاسم — متضافراً مع مباحث العلمين فى الوصول بالكلام إلى أعلى مراتب التحسين ، وكان صنيعه هذا فى بادىء النظر مؤذنا باستقلال مباحث البديع عن علمى البلاغة ؛ فكان بذلك الممهّد الأول لمن يؤلفون فى البلاغة من بعده ، أن يجعلوا البديع فناً مستقلا عن أخويه ، وإن كان لم يعمد إلى ذلك ، ولا إليه قصد كما أسلفنا ذلك فى تبيان منهجه ؛ وقد سنّ للناس سنة الاختصار ، حيث اختصر القسم الثالث من كتابه فى كتاب دعاه التبيان ، كما لفت أذهانهم إلى وضع الحواشى والتقريرات ، بعزمه على إملاء حاشية تكشف عن قصده بعد الفراغ من تأليف كتابه ؛ ولا إخالك قد نسيت ما جره على البلاغة من عقم وتعقيد بأخضاعها لقوانين المنطق والفلسفة ، وما أصاب البديع على يديه من وضعه فى ذيل العلمين الآخرين وضعا سهّل على من خلفوه على كتابه أن يجعلوه ذنبا لهذين العلمين ، ومن جعله مساوياً للمفردات اللغوية فى الاقتصار على التعريف ، وسوق مثال واحد لا يصور ذلك اللون ، ولا يكشف عن جماله ولا يركزه فى الأذهان ، فهما أستعين على مصطلحات البديع بالرد والتكرار فآلها إلى التفلت والزوال ؛ ذلك إلماع خاطف إلى موقف السكاكى من البديع والبلاغة ، فهو وإن كان برزخا بين المتقدمين والمتأخرين فى العرض والتصوير ، لا يستطيع باحث أن يعفيه من تحمّل التبعة فى عقم البلاغة وجمودها ، وإلجائها إلى مضايق التـــدهور والانحطاط ، وجعلها ضحيّة المختصرات والحواشى والتقريرات .

وقد أحصى صاحب كشف الظنون [1] عددا وافرا ممن توفروا على القسم الثالث من المفتاح بالاختصار ، أو النظم ، أو الشرح ، إلا أن يمن الطالع ، وسعادة الحظ ، وتمام التوفيق ، لم تكتب لغير متن التلخيص الذى صنعه قاضى قضاة الأقليمين [2] : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ، الذى ينتهى نسبه إلى أبى دلف العجلى القزوينى ، ثم الدمشقى الشافعى ، والذى شهر بالخطيب القزوينى ، وكان مولده بالموصل سنة ٦٦٦ هـ وتفقه على أبيه ، وأخذ الأصلين [3] عن الاربلى ، وسكن الروم مع أبيه واشتغل فى أنواع العلوم ، وسمع من أبى العباس الفاروقى وغيره ، وولى الخطابة بدمشق ، ثم القضاء بها ، ثم بالديار المصرية ، ثم نقل إلى قضاء الشام ، وبقى كذلك حتى قضى سنة ٧٣٩ هـ [4] .

وقد نال تلخيص المفتاح للقزوينى قسطا وافرا من الشهرة والرواج ، حتى غطى على أصله منذ ظهوره إلى يومنا هذا ، وقد استبدّ بجهود يتضاءل أمامها ما بذل فى القسم الثالث من المفتاح ، قال صاحب كشف الظنون [5] ، ولما كان هذا المتن مما يتلقى بحسن التلقى والقبول ، أقبل عليه معشر الأفاضل والفحول ، وأكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول ؛ فصار كأصله محط رحال تحريرات الرجال ، ومهبط أنوار الأفكار ، ومزدحم آراء البال ، فكتبوا له شروحا . . ، ثم مضى يعدد هذه الشروح ، فساق جملة وافرة منها ، تنبىء عن عناية فائقة ، واهتمام معدوم النظير ، ولست آتيا بجديد إذا سردتها هنا ، وما عليها من حواش وتقريرات ، فهى - والحمد لله - متعالمة مشهورة ، حالفت جمهور قراء هذا البحث منذ سلكوا طريق التعليم إلى يومنا هذا .

وقد كان الباعث على تأليف هذا المختصر ، ما يحدثنا به الخطيب بقول : لما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا ، وأدقها سرا ؛ إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن أستارها ،

---

(١) جـ ٢ ص ٤٨٠ (٢) الشام ومصر (٣) أصول الفقه والتوحيد

(٤) وله ترجمة وافية قارة فى موطنها من كتاب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب

(٥) جـ ١ ص ٣٢٢ .

وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذى صنفه الفاضل العلامة : أبو يعقوب يوسف السكاكى ، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً ، لكونه أحسنها ترتيباً ، وأتمها تحريرا ، وأكثرها للأصول جمعا ، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلا للاختصار ، ومفتقرا إلى الإيضاح والتجريد ، ألفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ، ولم آل جهدا فى تحقيقه وتهذيبه ، ورتبته ترتيباً أقرب تناولا من ترتيبه ، ولم أبالغ فى اختصار لفظه تقريباً لتعاطيه ، وطلباً لتسهيل فهمه على طالبيه ، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت فى بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم أظفر فى كلام أحد بالتصريح بها ، ولا الإشارة إليها ، وسميته « تلخيص المفتاح » .

وإن المتصفح لهذا الكتيب والقسم الثالث من المفتاح ، ليدرك مبلغ التساهل فى تسميته تلخيص المفتاح ، وقد أحس ذلك القزوينى نفسه فنبه عليه كما رأيت فى مقدمته ، ولو أن مثل هذا البحث يتسع لغير هذا المسلك الذى وضعناه لأنفسنا ؛ لرجعنا كل مسألة من مسائله إلى منبعها الذى منه نبعت ، ولكن حسبنا أن نقول : إن الخطيب القزوينى قد تأثر فوق تأثره بالقسم الثالث من المفتاح بأبرز الكتب التى سبقته ، وأخصها سر الفصاحة للخفاجى ؛ ولا سيما فى المقدمة ، وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز للجرجانى ، والمثل السائر لابن الأثير ، والعمدة لابن رشيق ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، والبديع لابن أبى الأصبع ، وبغير أولئك مما أعان القزوينى على إبراز هذا الكتاب ، الذى جمع فيه مسائل البلاغة نقلا أو استنباطا ، ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها أدق تبويب ، ولولا متابعته السكاكى بأخضاعه البلاغة للحد والتقنين ، وخلطها بالمنطق والفلسفة ؛ وإخلائها من الشواهد الأدبية الغزيرة التى تعين على تربية السلائق ، وتكوين الملكات لعاد صنيعه هذا على البلاغة بأحمد النتائج ، وأطيب الثمرات ، ولكن التقليد غلب عليه ، فكان ثانى اثنين أسهما بأوفر قسط فى تجريد البلاغة من حلى الأدب والبيان ، وسلكاها فى سلك العلوم النظرية التى لا تربى ذوقا ولا تعود بيانا .

أما محتويات هذا المختصر فحسبنا أن نقول : إنه رتبه على مقدمة ، وثلاثة فنون ، وخاتمة ، فالمقدمة فى شرح معنى الفصاحة والبلاغة ، والفن الأول فى علم المعانى ، والثانى فى علم البيان ، والثالث فى علم البديع ، والخاتمة فى السرقات الشعرية وما يتصل بها .

ونظرة إلى هذا الصنيع تقفنا على مبلغ تجديد الخطيب بالنسبة إلى البديع ، فقد جعله علما مستقلا عن أخويه اللذين طالما خالطهما جميعا ، أو جمهور مسائلهما منذ عهد التأليف فيه إلى عصر الخطيب ، فكان بهذا العمل أول الجانين على أصباغ البديع ممن ألفوا فى البلاغة بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض ، وانظر إلى تعريف علم البديع بقوله : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، كيف قضى على ألوانه بأن تكون حلى مزينة ، تكسو الكلام بهجة بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وأنها عرضية ليست بالذاتية ، ولعل الخطيب نظر نظرة غير ممعنة إلى صنيع السكاكى ، فخدع به وحكم عليها هذا الحكم الجائر الذى قلل من شأنها ، وهون من خطرها فى نظر من لفوا لف الخطيب تأليفاً وتعليما ؛ ولم يلتفت إلى مغزى كلمة السكاكى فى العلاقة بين هذه الألوان ، وبين ما تقدمها من مسائل علمى المعانى والبيان .

وقد ألمعنا إلى عذر السكاكى فى هذا الصنيع فى كلمة سابقة ؛ ونمسك الآن عن تهجين خطّة القزوينى التى قضت على هذه الألوان ، بجعلها أذنابا وذيولا للبلاغة ، وهى منها فى الصميم ، بل فى أكرم موضع ، وأعز مكان ، إلى موطنه من هذا البحث ، ثم نمضى فى الكشف عن الجديد فى البديع على يد الخطيب فنقول : إن السكاكى قسم ألوان البديع إلى قسمين : معنوى ، ولفظى ، وساق من المعنوى عشرين لونا من بينها : الاعتراض والالتفات ؛ والإيجاز ، والإطناب ، وجعل الطباق والمقابلة نوعين يستقل كل واحد منهما عن صاحبه ، فتابعه الخطيب فى تقسيم المحسنات إلى القسمين المذكورين ، سوى أنه عدّ من المعنوى ثلاثين لونا فى التلخيص ، وواحدا وثلاثين فى الإيضاح ليس من بينها : الالتفات

والاعتراض ، والإيجاز . والإطناب ، واكتفى بعدّها ضمن مباحث علم المعانى ، وجعل الطباق مشتملا على المقابلة ، متأثراً بطريقة ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة حيث اختار إطلاق الطباق على جميع أنواعه : من السلب والإيجاب ، والمقابلة ، وغيرهما ، كما أنه ضم الأشباه بعضها إلى بعض ، وحدّد الألوان ، وقسمها ، تحديدا وتقسيما أدنى إلى الضبط العلمى مما صنع السكاكى ، مع الإشارة إلى عدة الأسماء التى تكون للنوع الواحد ، وقد أربى على السكاكى فى المحسنات المعنوية : بالإرصاد ، والعكس ، والرجوع ، والاستخدام ، والتجديد ، والمبالغة ، والمذهب الكلامى ، وحسن التعليل ، والتفريع وتأكيد الذم بما يشبه المدح ، والإدماج ، والهزل الذى يراد به الجد ، والقول بالموجب ، والاطراد ، والاستطراد ؛ وكذلك فعل فى المحسنات اللفظيـة فزاد : الموازنة ، والتشريع ، ولزوم ما لا يلزم ؛ وهو فى كل أولئك مسبوق ، وليس بالمبتدع المبتكر كما يرى من ساير هذا البحث من مطلعه إلى الآن ؛ غير أن الذى يهمنا التنبيه عليه هو : أن نظرة إلى ما صنعه الخطيب فى تلخيصه بالنسبة للبديع تقفنا على مبلغ تأثره بغير القسم الثالث من المفتاح ، وترشدنا إلى حسن استخدامه لجمهور الكتب التى سبقته مع إحكام الترتيب ، ودقة التبويب ، وضبط الأقسام ، ومهارة الاستنباط ؛ وقد أحسّ الخطيب بالغموض يشيع فى عبارات تلخيصه ، فعمد إلى شرحه فى كتاب دعاه « الإيضاح » أوضح فيه غامضه ، وشرح مبهمه ، وأربى عليه بكثرة الأمثلة والشواهد ، وبعث فى كثير من أنحائه الحياة والقوة بما نقله عن عبدالقاهر ، وأودعه ثورته على السكاكى ، واعتراضه عليه فى كثير مما يكتب ، ولم يزد فيه شيئا من ألوان البديع على ماذكره فى التلخيص سوى الاستطراد ، وقد استحوذ هذان الكتابان على حظ وافر من الشهرة والرواج ، فلقيا كل أعجاب ملك على الناس حواسهم ، وسيطر على مشاعرهم واستنفد منهم موفور جهودهم ، ولا يزالان موضع القداسة والتقدير إلى يومنا هذا .

أما أثر التأليف فى حياة البديع الأدبية ، وكيف انتهت به هـذه الحياة إلى البديعيات فذلك ما سنعالجه فى كلمة تأتى إن شاء الله .

الفضيلة عند أرسطو

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

تتلمذ أرسطو على أفلاطون فى الأكاديمية حقبة من الزمن ، خرج بعدها وفى جعبته منهج منظم للتفكير فى مجالى الكون ، كان من نتيجة استخدامه مذهب فلسفى متماسك الأطراف متشعب النواحى متسق الجوانب ، فهذا رأى فى الطبيعة يفسر لنا ما غمض من أسرارها ، وهذا وضع لعلم المنطق ينظم ما تواضع عليه الناس فى نقاشهم وحججهم ، ويصوغه فى قضايا مبوبة وفصول منمقة يبدو للناس أنه اختراع ، وما هو فى الحقيقة إلا تأمل نفذ إلى الصميم ، واستنباط عما يلازم العلماء والعامة على السواء فى خطابهم وجدالهم ، إلى غير ذلك من الآراء التى يطول شرحها وتخرجنا عن الموضوع الذى نحن بصدده .

ولئن كان « المعلم الأول » كاد يتملكه اليأس ـ شأن كثير من العلماء الذى يكتبون بعمق ـ من عدم إقبال أهل زمانه على ما يكتب ، إلا أن الناحية الإنسانية التى تبدت فى كوامن نفسه ، دفعته إلى أن يعالج علما يهدف به إلى خير الذى يعيش فيه ، والمجتمع الإنسانى بوجه عام إن لم يتحقق خيره فى زمانه ، فلا بد أن الأجيال القادمة ستنتفع به ، ذلك هو علم الأخلاق .

ويطول بنا المقام إذا حاولنا أن نعرض لعلم أرسطو الأخلاقى وأسبابه ونتائجه ، ولكننا سنكتفى بناحية واحدة منه هى كلامه عن الفضيلة ، وحتى هذه سنقصر كلامنا على الجانب العملى منها ، مشيدين بوجه خاص بفضيلة أطال فيها القول ألا وهى فضيلة العدالة .

يشترط « المعلم الأول » لفهم الفضيلة ، أن يدرك المرء ما هى السعادة ، وهذه لا تدرك إلا بدراسة النفس دراسة تحليلية ومعرفة نوازعها ، والنفس فى رأيه ، تتكون من جزءين متميزين ، بصرف النظر عن الملكات الأخرى : الجزء الأول العقل ، والثانى هو الذى نطيع به العقل ، وبالتالى تصبح الفضائل قسمين : القسم الأول الفضائل العقلية كالتبصر مثلا ، والثانى الفضائل الأخلاقية كالشجاعة .

والتبصر وإن بدا أنه هو والعقل شيء واحد ، إلا أنه لا يزيد على كونه جهة من جهاته ، أما الشجاعة فلا يمكن أن تقوم بذاتها وهى لا تصبح كذلك بدون العقل الذى يهذبها ويهديها ، وإلا تجاوزت الطور وضلت وأصبحت تهورا ، ومن هذا نرى أن المعلم الأول سار على هدى أستاذه أفلاطون ، حين قرر أن فى الإنسان ، إلى جانب القوة الشهوية أو الغضبية قوة عاقلة ، هى التى توجه تصرفاته وتقربها نحو الكمال ، ولكن أرسطو لم يتعمق تعمقا كافيا فى تقسيمه للفضائل إلى نوعين ، وبدا وكأنه ضحى بنظريته فى الفضائل العقلية لنظريته فى الفضائل الخلقية ، مع اعترافنا بأن تقسيمه هذا جدير بكل تقدير ؛ والرد على بعض من نقدوه بقولهم : إن خواص العقل هى بذاتها خواص القلب ولا فرق بينهما ؛ مع وضوح التمييز بينهما فى مجالى العلم والحياة .

والتعليم والتجربة ، فى رأى أرسطو ، واجبان لنمو الفضائل العقلية ، أما نمو الفضائل الأخلاقية فبالعادة التى هى طبيعة ثانية على حد تعبيره ، فالفضيلة والرذيلة إذن لاتولدان مع الإنسان ، ولكنهما مكتسبتان ، فالفطرة أو الطبع خير فى ذاته ، والمرء يمكنه تنميته ، وبذلك يسير مع الفضيلة أو يتنكب الطريق ، ويكون قد سار وفق الرذيلة ، وهنا يقرر المعلم الأول مبدأ الاختيار ، فالإنسان عنده قادر على تغيير عاداته إلى ما شاء ؛ لأنه ليس خاضعا للقوانين الثابتة ، والتى لا تصدق عنده إلا على المادة ، ولذا كانت التربية عاملا مهما فى بناء الفضيلة لأنها توجه إلى طبع الطفل منذ البداية ، وقول أرسطو : إن القوانين الثابتة لا تصدق إلا على المادة ، وإن الإنسان خير بطبعه ، يخالفه فى الأولى زعيم علم الاجتماع الحديث العلامة «دوركهيم» الذى يقرر أن الظواهر الاجتماعية تسير وفق قوانين عامة ثابتة لا تقبل التخلف ، وفى الثانية العلامة الإيطالى «لامبروزو» فى نظريته الشهيرة فى الجريمة التى تقول : إن الشخص يولد ولديه استعداد عام لنوع من الجرائم ، وباستئصال جزء خاص فى المخ ، تزول منه الدوافع نحو ارتكابها .

والفعل الفاضل عند المعلم الأول لا بد لتحقيقه من ثلاثة شروط : هى علم الفاعل بما يفعل ، واختياره لفعله دون توقع منفعة ، وتصميمه تصميما جازما على عدم وقوع الفعل على غير ما يقصد ، والشرط الأول نجده بوضوح فى فلسفة

شيخ فلاسفة الإغريق سقراط وتلميذه أفلاطون ، مما يظهر أنهما اهتما به وجعلاه نصب أعينهما ، وكان الأجدر - ونحن فى ميدان الأخلاق - أن يهتما بالأخيرين إذ أن الفعل هو الأساس .

هذه هى نظرية أرسطو فى الفضيلة بوجه عام ، من المستحسن أن نعرف مدى تغلغل نظرية الإرادة فيها قبل أن نتوسع فى الكلام عن الفضائل . لقد كان أرسطو أول من فصل فى القول فى الحرية ، وجعلها نظرية من النظريات الواجب دراستها ، فقد ميز بين الفعل الإرادى والفعل اللاإرادى ، وجعل شاهده فى هذا وجدان الإنسان ، الذى هو فى رأيه العلة فيما يصدره من الأفعال فى كثير من الأحوال ، وأيضا الذوق العام الذى يمجد بعض الأفعال ويذم بعضها الآخر ، وسنة الشارعين التى تقرر العفو والعقاب لمرتكب الفعل حسبما يتراءى لها من نية حسنة أو سيئة . وهذا التفصيل لنظرية الإرادة ، أتى بعد أن نقد أرسطو نظرية أستاذه أفلاطون ، التى تقول بأن الاثم غير إرادى ، فلم يرهذاالرأى ؛ بل الإنسان عنده حر التصرف لا بد أن يحاسب على أعماله . ومن أسف لم يسر المعلم الأول فى نظريته إلى نهاية الشوط ، ولم يخطر بباله أن هذا الامتياز الذى منحه الإنسان لا بد له من كنه ، وأن حريته فى أفعاله تجر إلى المسئولية بعد الموت أيضا ، فلم يكلف نفسه عناء البحث عن علة الحرية ولا غايتها ، بل وقف عند هذه الظاهرة مما يتسق مع مذهبه فيما وراء الطبيعة .

والفضيلة بعد ، هى ضرب من الوسط بين افراطين ، فالشجاعة مثلا هى اقتحام بعض الأخطار واتقاء البعض الآخر ، لكن تجشم جميع الأخطار بلا تمييز أو ترو يعد تهورا ، كما أن خشية جميع الأخطار كيفما كانت يعد جبنا . ويجب ألا يفهم من الوسط الذى ذكره أرسطو الوسط الحسابى بالمعنى الدقيق ، فإن المعلم الأول لم يقصد البته أن كل فضيلة واقعة على مسافة متساوية من رذيلتين متضادتين . فإنه لو أراد ذلك لما أسعفته اللغة ، ولكنه يقرر أن الضابط الحق للفضيلة هو أنها وسط يعينه العقل .

بقى علينا أن نعرض لإحدى الفضائل التى تناولها أرسطو ، وهو كما قلنا فى صدر المقال يميز بين نوعين من الفضائل ، فضائل نظرية وفضائل عملية ، وسنتكلم هنا عن إحدى الفضائل العملية ، التى أولاها المعلم الأول عنايته وفصل فيها القول ،

بعكس جميع الفضائل ، اللهم إلا فضيلة التبصر وهي إحدى الفضائل النظرية ، ولعل السياسة التي عاش فيها ، وخبرها هي التي أوحت إليه بهذا ، فأراد أن يرسم صورة مثلى لما تكون عليه العدالة في معاملة الفرد والمجتمع .

والعدالة في رأي أرسطو حد وسط بين الظلم والانظلام ، ولقد ميز تمييزاً واضحاً بين جهتيها ، أي بين العدالة السياسية والعدالة القانونية ، ومهمة الأولى الإشراف على توزيع الحقوق والأموال ، والسعادات بين أفراد المجتمع ؛ ومهمة الثانية تعويض الفرد عما يلحقه من ضرر نتيجة فعل فرد آخر ، وأحسب أن هذا التمييز أو هـذا التقسيم هو الذي سارت عليه الأمم فيما بعد ، ويظهر بوضوح في الدساتير الحديثة . والعدالة السياسية تشمل الأشخاص والأشياء جميعاً ، وهي في ذاتها مساواة تناسبية . فلأجل أن تتحقق يجب أن تقرر بين الناس بالتساوي ، ولكن هذا التقرير أو هذا التوزيع ، مع ما فيه من ضبط ، لا يتيسر عملياً ، وإن تيسر لا تستقيم معه الأمور ، ولقد كان الأجدر بالمعلم الأول ، أن يكتفي بالقول بتكافؤ الفرص ، ويترك بعد ذلك للملكات والمواهب أن تبرز وتعمل وتفيد ، لكي تستقيم أمور المجتمع . أما أن توزع المناصب على النابهين والخاملين على السواء فما أحسب المجتمع يسير بهذا نحو الكمال .

ولئن كان المعلم الأول قد فاته ذلك الذي نأخذه عليه فإنه قد بلغ أوج عظمته في كلامه عن العدالة القانونية ، فالكل ـ عنده ـ سواء أمام القانون ، لا فرق بين كبير وصغير ، لأن القانون لا يهدف إلى عقاب الأشخاص ، بل إن هدفه الأول ، القضاء على الجريمة ، ولما كان القانون لا يستطيع أن يحيط بكل الجرائم المتوقعة ، فإن عدالة القاضي وذكاءه تساعدان على الفصل في القضايا ، أي أنه يجب أن يكون القاضي كفؤاً ، واسع الحيلة ، حاد الذكاء ، وهذا يبرر نقدنا له فيما سبق أن قررره عند الكلام عن العدالة السياسية ، من أنها يجب أن تشمل الأشخاص والأشياء جميعاً. وقول أرسطو إن الهدف هو القضاء على الجريمة ، هو المبدأ الذي سارت عليه المدرسة الاجتماعية الفرنسية والعلامة «دور كهيم» ، في جميع أبحاثها في باب الاجتماع القضائي .

وبعد فهذا عرض سريع لنظرية الفضيلة عند أرسطو ، تظهر فيه مقدار أصالة المعلم الأول ، ونظراته الصائبة .

الدين والسياسة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

— ٢ —

إنما تحيا الجماعات الإنسانية حياة كريمة مهذبة ، وتستشعر في أعماقها جلال النظام ، وقدس الأخوة ، وسمو المحبة ، وشدة العطف والحدب ، وتوقير الكبير ، ورحمة الصغير ، واحترام القانون والطاعة لأحكامه ، والامتثال لأوامره حين يبسط الدين سلطانه على النفوس ، ويتغلغل بنوره إلى أغوار القلوب .

وكل قانون لاتسنده رقابة الخالق ، ولا تحيطه الرهبة والخوف من رب العالمين ؛ لا يمكن أن يجنى الناس من ورائه سعادة ، أو يحصلوا على أمن واطمئنان !

والجماعة التى تساس بالدين ، وتحكم في مشا كلها وأحوالها تشريع أحكم الحاكمين ؛ لا يمكن أن يصيبها الضعف ، أو يدخل إليها الوهن ، أو يستذلها عدو ، أو يستبد بها دخيل . وحين يستعرض المرء مظاهر التشريع ، ويتأمل فيما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم من سياسة وأدب ، يرى أن الإسلام وضع الدواء الناجع لكل داء ، والبلسم الشافى لكل جراح ، وعالج كل مشكلة ، يمكن أن تصيب الجماعة بالتصدع ، والانهيار ، فى الأمور التافهة البسيطة لايغفل الإسلام علاجها ، ولا يهمل وضع قوانينها ، ولنستمع إلى الرسول الكريم يقول : « ألا أخبركم بشراركم . ؟ . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم . ؟ من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه » .

وفى الأمور التى يخشى على بناء المجتمع من سطوتها ، وطغيانها يقول الله عز وجل : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، فهذه دعوة صريحة مؤكدة إلى حماية الجماعة من نهب الأموال ، واستلاب حقوق الناس .

ولعلنا ألممنا إلماما عابرا بهذه النواحي في مقالنا الأول ، على أنا نحب هنا أن نؤكد تأكيداً قاطعاً أن الإسلام لم يضع هـذه النظم ، ولم يشرع تلك الأحكام والقوانين للعبث ؛ إنمـا شرعها ليأخذ الناس بها ، ويحملهم عليها ، ويجعل راعى المسلمين مسئولا عن تنفيذها ، وسياسة الناس بهـا .

والمطلع على تاريخ الإسلام ، والمتتبع لسيرة المسلمين منذ أشرق هـذا الفجر على الدنيا يجد أن سيرة النبي والخلفاء ، وسيرة السلف الصالح كانت تهدف إلى أخذ المسلمين بهذه السياسة ، وإقامة دعائم حياتهم على أسس متينة من شرائعه الحكيمة وآدابه السامية ، ولقد ظلت دولتهم قوية البنيان متينة الأركان ، لايتسرب إليهـا ضعف ، ولا يداخلها وهن ماقامت فيها تعاليم الإسلام ، وسار حكام المسلمين على هدى الدين وتعاليم الشريعة .

فلما انحرفوا عن الجـادة ، وتهاونوا في تنفيذ ما أمر الله أن ينفذ ، ولمـا تراخوا في إقامة الحدود الإسلامية والضرب على أيدى العابثين الآثمين ، ضعف شأنهم ، وتفرقت وحدتهم ، وقلت هيبتهم ، ووهنت عزيمتهم ونال منهم أعداؤهم كل منال . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما لم تحكم أئمتهم بمـا أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

فليتعرف المسلمون إلى تاريخهم ، وإلى ماضيهم ؛ ليدركوا أن دينهم يحمل فى ثناياه أروع الأنظمة ، وأحكم السياسات ، وأجمل القوانين لدولة عادلة مهذبة نابضة بالقوة والسمو والعظمة ؛ وإن رغمت أنوف ، وكابر فى ذلك جاحدون .

هـذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجيش فى الحروب ، ويشن الغارات على أعدائه ، ويقسم الفيء ، ويوزع الغنائم ويسن للمحاربين من أتباعه وأوليائه أبلغ سنن الحرب ، وأقوم قوانين القتال وأسمى آداب الخصام .

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، فرغ إلى أمته يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ويديل من قويهم لضعيفهم ، ويعاقب المقصر على قصوره ، ويثيب المحسن على إحسانه ، ويقيم حدود الله من قارف خطيئة أو لابس جريمة ، أو أقام على عصيان .

أليس ذلك سياسة لهذه الأمة الإسلامية على وفق ما شرع الله من أحكام ، وبمقتضى ما وضع من حدود وآداب ؟

أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصر نفسه على العظة والتذكير، دون أن يأخذ الناس بسياسة الإسلام، ويحملهم حملا على التزام حدود الله ؟

إن بعض الواهمين المفتونين، يتعلقون ولأهامهم ببعض ما لم يفهموا من كلام رب العالمين. مثل قوله جل شأنه لرسوله صلى الله عليه وسلم: «إن عليك إلا البلاغ»، «إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب». وفاتهم أن أمثال هذه الآيات لارتباط لها بسياسة الأمة، ولا صلة لها بما كان يأخذ به الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من حملهم على الجادة، وتسديدهم على النهج القويم، والصراط المستقيم، إنما أراد بها المولى أن يسلى نبيه ورسوله عن إعراض قومه، وتأبيهم عن الهداية واستكبارهم عن الطاعة؛ إذ أن ذلك يشق عليه، ويؤلم نفسه، ويحزن قلبه؛ فأنزل عليه المولى أمثال هذه الآيات؛ ليعلمه أنه ليس عليه هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، وأنه وإن بخع نفسه ليس فى طوقه أن يحولهم من كفر عات إلى هداية سمحة، ومن طغيان أثيم إلى عدل كريم: «وإن كان كبر عليك إعراضهم؛ فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء؛ فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين». فلما دخل الناس فى الدين، وأصبحت للمسلمين جماعة كونت دولة، رعى محمد صلى الله عليه وسلم هذه الدولة، وأخذها بأدب الإسلام، وأمضى فيها شريعته كما أوحى إليه ربه، وأمره مولاه.

ولما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم راعى هذه الأمة، والمدبر لشئونها، والمنظم لأمورها؛ قام بالأمر من بعده خليفته أبو بكر، ولكنه لم يكد ينهض بالعبء وينوء بالمهمة؛ حتى وجد أن الشيطان قد نزغ فى العرب نزغاته، ونفث فيهم سمومه، فإذا بالبعض منهم يرتد عن الإسلام، والبعض يمنع الزكاة، ويضن بالبر على من يستحق البر، ويبخل بالمعروف على من يستأهل المعروف، ويشير بعض المشيرين على أبى بكر أن يلزم بيته، ويعتكف فى مسجده، وأن يدع الناس فيما هم فيه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة. ولكن أبا بكر وهو رئيس هذه الأمة، والمسئول عن سياستها يسخر منهم أبلغ السخرية، ويقول لهم فى ثبات وقوة إيمان: «أو كلكم رأيه هذا؟ والله لأن آخر من السماء فتخطفنى الطير أحب إلى من أن يكون رأيى هذا!

والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لحاربتهم عليه حتى ينصرنى الله أو أهلك دونه . أليس هذا كلام رجل يؤمن أعمق الإيمان أنه مسئول عن سياسة الأمة ، وأخذ الناس بتعاليم الإسلام ، وحملهم حملا على التزام الحدود والسير على الطريق المرسوم .

وهذا عمر بن الخطاب يقول بملء فيه : « والله لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل عنه آل الخطاب » .

فهل يصح هذا القول إلا من رجل يدرك أنه فى مقام الرياسة ، وأنه مسئول عن أمن الناس وراحتهم ، وإقامة العدل ، وإشاعة النظام بينهم .

خبرونى أيها الناعبون الداعون إلى فرقة الأمة ، وتشتيت شملها ، وتمزيق وحدتها ، واختلال صفوفها ماذا تريدون بالسياسة ؟ وإذا تحددت معانى الألفاظ سهل علينا الوصول إلى مقطع الحق ، والاهتداء إلى مفصل الصواب ؟

ألستم تريدون من كلمة السياسة ، أخذ الأمة بأحسن الأنظمة ، وأروع الأساليب فى حكمها وإصلاح نواحى الحياة فيها بما يكفل لها الرخاء والأمن ، ويضمن لها السعادة والراحة والاطمئنان ؟

ألستم تريدون بسياسة الأمة أن تطبق فيها القوانين التى تجعل الفرد عضوا عاملا نافعا فى الجماعة ، يأمن على نفسه وعرضه وماله ، ويجد القوة التى تحميه من عدوان العادين ، وظلم الظالمين ؟

ذلك كله مما أمر به ديننا الحنيف ، ودعت إلينا شريعتنا السمحة .

إن الدين فى كل تعاليمه وجميع أحكامه يهدف إلى تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، ويضع لذلك أحسن الأسس ، وأروع النظم ، وهو لا يدع ناحية من نواحى الحياة إلا أفاض عليها من بهائه ونوره ما يبدد ظلامها ، وينفض غبارها ، ويقيم العدل فيها مقام الظلم ، والنور مكان الظلام .

وشتان بين نظام يضعه الرحمن ، وأنظمة يلفقها الإنسان !

فليعد الناس إلى نظام رب العالمين ، وشريعة الإنسانية الفاضلة ، والمدنية المهذبة ، وهم لا شك واجدون فيها السعادة الدائمة ، والنعيم المقيم .

الإسلام والصين *

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

[الصين بلاد عظيمة الاتساع ، تزيد مساحتها قليلا عن ٤½ مليون ميلا مربعاً ، وسكانها حوالى ٤٥٠ مليون نسمة ، كانت مسرحا لمدنية من أعظم مدنيات العالم ، كما كانت وحدة ثقافية رفيعة . وتشمل الآن أربعة أقاليم هى : الصين ، منغوليا ، سنكيانج ثم التبت ، وقد تناوبتها فى العصور الأخيرة أمور جسام ، فإن أوربا حاولت أن تفتح أبواب الصين وخزائنها ، فنشبت بينهما حروب ، كانت نتيجتها منح الأجانب امتيازات جائرة بحقوق الوطنيين ، ثم غزتها اليابان ، فكان أن نشبت فيها ثورة انتهى بها حكم أسرة مانشو ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩١٢ . وتطورت الحوادث ؛ حتى كانت الحرب الأخيرة والصين بجانب المنتصرين ، فخرجت منها اليابان ، ولكن دخلها الخطر الشيوعى ، الذى استنسر بها ، فأصبح للشيوعية فيها دولة]

الصين بلاد لها وضعها الخاص ، فى سائر الأمور ، وفى الدين خاصة ، فإنا نجد فيها أديانا مختلفة ، ونجد النظم الأخلاقية فيها تتخذ سمة الدين . ومع ذلك فلسنا نستطيع أن نصف الفرد الصينى العادى بالتدين ، على الرغم من أنه قد يمارس طقوس عدة أديان معا . وإن انطبق هذا الوصف على الصينيين بمختلف أديانهم ، فإنا نستثنى من بينهم المسلمين ، وإن كانوا أقل من مسلمى البلدان الأخرى تقى

(*) بعض مما فى هذا المقال مأخوذ عن بضعة أعداد من مجلة Islamic Review لسنة ١٩٤٩ .

وتمسكا بالدين . ومهما يكن من أمر فإننا إن وصفنا أى فئة فى الصين بالتدين ، لا ينصرف الذهن توا إلى مسلميها .

ونجد بجانب الإسلام ، فى الصين أربعة أديان أخرى ، على الأقل : التاوية ، والبوذية ، وعبادة السلف ، والكونفشيوسية ؛ كما عرفت الصين الدين المسيحى ، وان لم ينتشر بها ، رغم أن الكثيرين خارج الصين يظنونه ذائعا هنالك . وقد تأتى هذا الظن الخاطىء من أن المتعلمين فى الصين يسمون أنفسهم بأسماء مسيحية أوربية ، وإن كان لا شأن للاسم عندهم بالدين ، فلست بمستطيع تمييز دين فرد بمعرفة اسمه .

* * *

أنشأ « التاوية » فى القرن السادس ق . م « كنج فو — تزو » من معاصرى كنفشيوس ، ويعرف أيضاً باسم « لاو - تزو » ، ومعنى كلمة « تاو » : طريق ؛ والتاوية تمثل الطبيعة غير المجسمة التى نجدها فى كل مكان ، والتى ترجع إليها جميع الأشياء ، وهى طريقة صوفية تنكر وترفض الحاجات الدنيوية ، وقد خرجت التاوية اليوم عن صورتها الأصلية ، فلا يمارسها كما كانت إلا نفر قليل ، ولها معابد تنتشر فى الصين جميعاً ، تمتلىء بتماثيل وصور متباينة ، ويقوم كهنتها بطرد الأشباح والجن ، ويحضرون الأرواح ، يسألونها ألا تصيب الناس بضر . والتاوية مختلطة بأوهام وخرافات بدائية ، مثلها مثل الهندوكية فى الهند ، حافلة مثلها بالأساطير ، متطلعة إلى الخيال أكثر منها إلى الشعور الدينى .

أما البوذية : فقد دخلت الصين منذ نحو عشرين قرنا ، وازدهرت منذ ذلك الحين ، خاصة وأنها لا تتعارض مع التاوية . وللبوذية مدارس لا عداد لها ، على عكس التاوية التى يسودها الغموض . وكلتا الديانتين تعترفان بالأشباح والجن ، ويمارس العوام شعائر الديانتين معا فى معابد كل منهما . وجوهر البوذية هو تنقية الروح بالتغلب على شهوات الجسد ، والتخلى عن لذات الحياة ، والرغبة فى التقرب من الله ، وتعاليمها كثيرة تتضمن الأعمال الطيبة ، والرأفة بالكائنات جميعا . وعلى الرغم من أن الصينى يحب الحيوان والطير ، إلا أنه قد يقسو على أخيه الإنسان ؛ فما زال الرق قائما يلقى أسوأ معاملة ، والبوذية تحرم القتل ،

ولكن الصينيين يقتلون الإنسان والحيوان، وقطاع الطرق عندهم، قدت قلوبهم من حجر صلد، تضرب بقسوتهم ووحشيتهم الأمثال.

وليست الكنفوشوسية فى حقيقة الأمر دينا، على الرغم من وجود معابد لها، كان الناس يتعبدون فيها فى سالف الأيام، وما هى إلا نظام أخلاق وسلوك إجتماعى، تتميز بصبغتها الفلسفية، وتلتزم حدود التقاليد، والولاء الأبوى، بما فيه من احترام وطاعة للأكبر سنا، وللعرش، وللسلطة. وتتبين طبيعتها من قول كنفشيوس حين سئل عن السماء: «إنا لا نعرف الأرض، فلم نعنّى أنفسنا بأمور السماء». ومن ثم فإن كنا لا نعرف شيئاً عن الحياة الدنيا، فليس ثمت ضرورة للبحث فى الحياة الآخرة. وتنبنى مبادىء كنفشيوس على عبادة السلف أكثر منها على المبادىء الدينية.

وعبادة السلف أقدم صور الأديان فى الصين، ترجع إلى العصور البدائية حين كان الناس يظنون أن الآباء هم ما نحو الحياة. وما زال هذا الاعتقاد يسود الصين على شكل ما، فتخصص فى كل منزل حجرة توضع فيها صور ومخلفات الموتى، ويتعبد فيها أهل الدار بين وقت ووقت. وكانوا — قديماً — يدفنون زوجات الملوك وخدمهم وحاشيتهم مع الملك المتوفى، ويضعون معهم النبيذ والطعام وغير ذلك؛ بل كانت الأرملة تنتحر مفضلة الموت، على حياتها بعد وفاة الزوج، ولكن كنفشيوس منع هذه العادات، واستبدلت فيما بعد بدفن تماثيل مختلفة مع الميت، وإن لم يمكن منع الزوجات الراغبات فى تضحية أنفسهن بعد وفاة أزواجهن، ويحتفل الصينيون بموتاهم احتفالات رائعة بجنازات فخمة، ومدافن جميلة.

ونرى أن المسلمين عامة يشاركون فى احترام الموتى، وأبلغ مظاهر هذا الاحترام، هو قراءة فاتحة القرآن على أرواح الموتى، ولكن الأمر بالنسبة للصين جد مختلف، فإن احترام الموتى مبدأ دينى.

وبجانب عبادة السلف، نجد نوعا آخر بدائى من الدين هو عبادة السماء، وهى عبادة مبنية على مبدأ اتحاد السماء بالأرض؛ فقبل مولد المسيح بآلاف من السنين، رأى أحد الأباطرة تنينا يخرج من الماء، يحمل على ظهره نقوشا خاصة،

وتكررت رؤية الأباطرة للتنين حتى صارت حقيقة واقعة، وصار من حق الأمبراطور أن يصلى للسماء نيابة عن الشعب بأجمعه، وهو حق الأمبراطور، ليس لسواه أن يقوم به. وبقيت هذه العبادة قائمة - تمارس فى معبد فى بكين - حتى سنة ١٩١١م ولهذا السبب كان أباطرة الصين يسمون أنفسهم «تين - تزو» : ابن السماء.

° ° °

هذه هى الصورة التى وجد الإسلام الصين عليها، فى القرن السابع الميلادى، أو الأول الهجرى، حينما جاء العرب عن طريق البحر إلى كانتون وهانجشو، وجاءها المسلمون عن طريق إيران وتركستان. والعلاقات التجارية بين العرب والصين، علاقات قديمة، ترجع إلى عصور لا يذكرها التاريخ. يقول «ا.م. ويرى» : «كان للعرب مصالح تجارية قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بعصور، فى الهند وجزر الهند الشرقية والصين : كانوا يحملون الأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل والحرير، يحملونها بحرا إلى الخليج الفارسى والاسكندرية، ومنها تنقل إلى أوروبا».

وتقول المصادر الصينية الإسلامية : إن الإسلام دخل الصين فى بدء الدعوة الإسلامية، وإن كان الأكثر احتمالا أنه دخلها بعد ذلك بزمن، وتروى المصادر أن «تاى تسونج» (٦٢٧-٦٥٠م) استقبل مندوبين عن الفرس والروم، ينبئانه بهزيمة الدولتين أمام العرب، وأرسل الأمبراطور الصينى حوالى عام ٥٦٠ م مبعوثا عنه إلى الخليفة الإسلامى، عثمان بن عفان.

وما انقضى قرن، حتى عرف الصينيون قوة العرب، فقد أرسل أمبراطورهم جيشا من ٢٠٠٫٠٠٠ رجل هزمه قتيبة بن مسلم، وما لبث قتيبة حتى أرسل للإمبراطور يسأله الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية. ولولا موت يزيد ابن عبد الملك، واغتيال قتيبة، لكانت الصين الآن من البلاد الإسلامية.

كانت نتيجة هذا كله، أن اعتنق بعض الصينيين الإسلام، ومن بين هؤلاء قبيلة «هوى تشى» فأطلق اسمها على المسلمين : وظل الأمر كذلك حتى عصر المغول، فعرف المسلمون باسم «هوى هوى»، ويعرفون الآن باسم «تشنج جن»، كما يعرف الإسلام باسم «تشنج جن جياو». ومن ذلك الوقت تفتحت أبواب الصين للإسلام، فاعتنقه منها عدد جم غفير.

وثار أحد الأمراء ضد أمبراطوره الصيني ، فاستغاث هذا بالخليفة العباسي ، فأرسل إليه ، أبو جعفر المنصور ، جيشا من عشرة آلاف جندي تام العدة ، أقر النظام وأعاد الهدوء ، ولم يرجع الجنود إلى خراسان : بل أقاموا بالصين ، وتزوجوا بها فكانوا نواة مسلمي الصين الحاليين .

وجاء الصين مسلمون آخرون عن طريق البحر إلى كانتون ، وهانجشو ونشروا الإسلام في الجنوب ، كما نشره الأولون في الشمال والشمال الغربي . ومن بين هؤلاء سعد بن أبي وقاص ، الذي لا يزال مسجده قائما في كانتون ، وتوالت بعثات المسلمين إلى الصين ، وقد لاقوا فيها معاملة حسنة ، انتشر خبرها بين مسلمي التركستان والبلدان المجاورة ، فنزح منهم عدد كبير الى الصين ، شغلوا وظائف هامة ولقوا من ملوكها عطفاً وحدبا .

ونزح إلى الصين - في عهد المغول - عدد عظيم من المسلمين ، كان من بينهم كثير من العلماء : فلكيين وأطباء وفقهاء ، وزارها ابن بطوطة وتحدث عنها في رحلته المعروفة ، وظهر أثر المسلمين في حياة الصين واضحاً ، فاقتبس الصينيون الفن والنقوش العربية ، وما زالت باقية في آثارهم .

ولم تستمر الصين أرض سلام للمسلمين دائما ، فقد لقوا فيها عنتاً واضطهادا ، وقاسوا عسفاً وظلما تحت حكم أسرة مانشو ، منذ سنة ١٦٤٤ م .

ولكن المسلمين عموما ، تميزوا بالنشاط ، وشغلوا مناصب هامة عسكرية ومدنية ، وأقاموا شعائر دينهم في حرية ، وعملوا على الاتصال بالمسلمين في جميع أنحاء العالم .

ولعل أبهر مظاهر هذا الاتصال ، كان اتصالهم بمصر التي أوفد أزهرها بعثة تعليمية ، واستقبل بعثة منها ، تلقت علومها به ثم رجعت إلى بلادها تنشر الهدى والعرفان .

وأجمل ثمرات هذا الاتصال ، كانت المكتبة التي أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى الصين ، وهي باقية تحمل اسمه في بكين يؤمها طلاب العلم ، فيذكرون مليكنا الراحل ويذكرون أرض النيل .

السوفسطائيون فى نظر العرب

نقد حملة جائرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

كما تنال أستاذى الدكتور « غلاب » مذهب المتكلمين فى المفاهيم الذهنية ، وفى الصفات الإلهية بالنقد الجائر والمناقشة القاسية على النحو الذى عرضناه ، ثم عارضناه فى مقالنا السابق ، فقد تناول كذلك رأى العرب فى السوفسطائية بالطريقة نفسها ، فخطأهم فى إطلاق السفسطة بمعنى المنطق الفاسد القضايا ، الباطل الجزئيات . ورماهم بالتخبط لاعتبارهم أتباع بروتاجوراس ، وأصحاب جورجياس : مدرستين منفصلتين أو مذهبين مختلفين ، وغلطهم فى عدهم « اللا أدرية » أتباع بيرون من السوفسطائية ، وإليك بعض ما قاله فى ذلك ص ١٥٢ ج أول من كتابه الفلسفة الأغريقية . « تحولت كلمة « سوفسيم » إلى « سوفيستيك » وأصبحت مرادفة لكلمتى التضليل والتهريج تمام المرادفة ، وما زالت كذلك حتى ترجمت الفلسفة الأغريقية إلى اللغة العربية ، فلم يلحظ تراجمة العرب المعنى القديم للكلمة فأصبحت السفسطة عندهم : عبارة عن المنطق الفاسد القضايا الباطل الجزئيات ، وهذا حق من بعض الوجوه ، ولكنهم تخبطوا فى تقسيم رجال هذه المدرسة تخبطاً لافتا للنظر ؛ فزعموا أنها تنقسم إلى ثلاث فرق : العندية والعنادية واللاأدرية . فالعندية ترى أن حقائق الأشياء تابعة لعقائد المؤمنين بها ؛ لأنهم هم أقيسة الحقائق . والعنادية تجزم بأن لا حقائق فى الكون لا فى ذاتها ولا بالقياس إلى المؤمن بها . وأما اللا أدرية فهى التى تتوقف عن الحكم فى كل شىء فهى لا تجزم بوجود ولا بعدم .

ثم علل الدكتور هذا الخطأ من العرب فقال : وهذا خطأ أوقعهم فيه اختلاف لفظى جاء فى جملتين شهيرتين ، لزعيمى هذه المدرسة « بروتاجوراس وجورجياس حيث قال الأول : كل شىء حق . فرد عليه الثانى قائلا : لا شىء بحق .

وهذان التعبيران ، وإن ظهرا مختلفين إلا أنهما متفقان تمام الاتفاق ، لأن جملة بروتاجوراس « كل شيء حق » أي فى نظر من يعتقده ، ومعنى جملة جورجياس « لاشيء بحق » أى فى ذاته ، وكل منهما يؤمن تمام الإيمان بمذهب صاحبه ، ومن ظن من فلاسفة العرب وممن نهجوا منهجهم من المحدثين ، أنهما مذهبان مختلفان فهو واهم . أما ما يسميه العرب بفرقة اللا أدريه فى هذه المدرسة ، فهو خلط منهم . هل السبب فيه هو التباس إنكار الحكم العام الذى قال به السوفسطائيون بالتوقف عن أى حكم كان ، وهو الذى قالت به المدرسة اللا أدريه التى ظهرت بعد عصر أرسطو » . انتهى كلام الدكتور بحروفه ، وقبل أن نبدى رأينا فى هاته الحملة الشعواء على العرب ، نحب أن نذكر للدكتور غلاب أنه فى الوقت الذى

كنا نستمع إليه فيه يقرر هذا عن العرب ، كنا نختلف إلى زميل له من أساتذة الفلسفة بكلية أصول الدين ، فنتلقى عنه فى هذه المسألة عكس ما ذهب إليه أما هذا الزميل فهو صاحب الفضيلة الدكتور « محمد يوسف موسى » وقد تعرض لهذه المسألة فى كتابه « تاريخ الأخلاق » عند الحديث عن الأخلاق فى نظر السوفسطائية ، فقال : وهؤلاء الناس « السوفسطائيون » لنا بهم إلف لكثرة ما يرد من ذكرهم فى كتب علم الكلام ؛ لذلك نرى من الخير أن نبسط الحديث قليلا فى بيان مذهبهم وطوائفهم ، وبعد أن ساق الدكتور نصين أحدهما للطوسى ، وثانيهما للمستشرق « سانتلانا » الحجة فى الفلسفة الإغريقية ، وعلاقتها بالمذاهب الكلامية الإسلامية كما يقول .

قال فى ص ٢٤ من كتابه « تاريخ الأخلاق » ما نصه : ويرى بعض المعاصرين أن من الخطأ التفرقة بين هذين المذهبين بتسمية أحدهما بالعندية ، والآخر بالعنادية ؛ لأن ممثليهما على ما يرى وهما برتاغوراس وغورغياس . كل منهما يؤمن تمام الإيمان برأى صاحبه ، ونعتقد أن هذا بعيد عن الصواب ، فإن بروتاغوراس قال فى كتابه « الحقيقة » : والإنسان مقياس الأشياء جميعا هو مقياس وجود ما يوجد منها ، ومقياس لا وجود ما لا يوجد ، وإن أفلاطون شرح هذه القولة فى محاورته « تيتياس » بأن الأشياء هى بالنسبة لى على ما تبدو لى وهى بالنسبة لك على ما تبدو لك ، وأنت إنسان وأنا إنسان ، فلا شك بعد هذا فى صحة تسمية

مذهبه بالعندية ما دام الحكم على الأشياء مرجعه إلى ما يظهر عند كل إنسان، من صفاتها وخواصها وأحوالها، كذلك زميله «غورغياس» وضع كتابا فى اللاوجود لخص فيه آراءه فى هذه القضايا الثلاث: لا يوجد شىء. وإذا كان هناك شىء فالإنسان قاصر عن إدراكه. وأخيرا إذا فرضنا أن إنسانا أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس؛ وإمعان النظر فى هذه القضايا يجعل المرء مطمئنا إلى أن المتكلمين أصابوا المحز فى تسمية مذهبه بالعنادية ا هـ.

والآن يظهر الصواب فى جانب العرب إذ اعتبروا العندية والعنادية مذهبين منفصلين لشهادة «سانتلانا» الذى تابعه الدكتور غلاب فى ترجيح مذهب أفلاطون فى الكليات على مذهب أرسطو، وإذا فلا عبرة بهذا التوفيق الذى حاول به الدكتور غلاب محو الفارق بين كلمتى «بروتاجوراس» «وجورجياس» فإن التأويل اللفظى لا يصح فى منطق العلم دليلا ولا يغنى فتيلا. بقى على العرب أنهم عدوا أصحاب «بيرون» اللا أدرية فريقا من السوفسطائية وهو ما أنكره منهم «سانتلانا» ووافقه الأستاذان يوسف موسى، وغلاب: ورماه الأخير فى هذا بالخلط والتباس الحق، وعندى أن الحق فى ذلك مع العرب أيضا، وباطل ما فهمه أولئك النقاد من النصوص العربية التى توهموا منها، أن العرب يجعلون أصحاب «بيرون» فريقا من سوفسطائية اليونان فى القرن الخامس بمعنى أنهم عاصروهم، وشاركوهم فى الزمان والمكان، وهو غير لازم لتلك النصوص العربية.

وإنما يعتبر العرب أصحاب بيرون من السوفسطائية، بمعنى أنهم يشاركونهم فى منهج التضليل والمكابرة فى المناظرة، وإذ قد عرف الدكتور غلاب السوفسطائية فى اصطلاح العرب بأنها ترادف المنطق الفاسد القضايا الباطل الجزئيات، ونقل الدكتور موسى عن الطوسى أن كل غالط فى مذهبه سوفسطائى، فإنا نسائل الأستاذين. هل هذا التعريف كما يصدق على أتباع بروتاجوراس وجورجياس ونحوهما من السوفسطائية فى القرن الخامس ق م؛ كذلك يصدق على أصحاب بيرون أم إنه لا ينطبق فى معجم الفلسفة إلا على الأولين فحسب؟ فإن اختارا الأول. قلنا وهذا هو السبب الذى سوغ للعرب عد اللا أدرية من السوفسطائية، وبطل ما ذهب إليه الدكتور غلاب من أنه قد التبس عليهم إنكار الحكم العام بالتوقف

عن الحكم . وكيف ننسب إليهم هذا الإلتباس فى فهم تلك المذاهب ، بعد أن حددوها لنا بهذه التعريفات الدقيقة التى وضحت ماهياتها وميزتها بعضها عن بعض ؟ وإن اختارا الثانى فلا نسلم لهما ، لأن التشابه بين البيرونية وبين العندية والعنادية تام ، فكلها قائمة على الشك فى البديهيات ومكابرة الحقائق الثابتة والمغالطة فى الجدل والإقناع ، والدكتور غلاب قد ذهب فى كتابه الفلسفة الشرقية إلى أن هذا اللون من التفكير المغالط غير خاص باليونان ، فكيف يجعله هنا خاصاً بأتباع جورجياس وبروتاجوراس فقط ؟ وهو فى محاضرته عن البيرونية يعترف بالتقارب بينها وبين العندية ، ومن يمعن النظر فيما قاله فى شرح بعض المأثور عن بيرون يجد توافقا تاما بين البيرونية والعندية . . .

ولو سلمنا جدلا أن اسم السوفسطائية لا ينطق فى لسان الفلسفة إلا على العندية والعنادية لاغير . . لكان الدكتور غلاب نفسه قد تورط فيما أنكره على العرب : حيث أطلق هذا الإسم والسوفسطائية ، على إحدى مدارس الفلسفة الهندية التى ناهضت البرهمانية فى ص ١١٢ من كتابه الفلسفة الشرقية ، مستنداً إلى مثل الإعتبارات التى من أجلها جعل العرب اللاأدرية فريقا من السوفسطائية الإغريقية ، وما زالت السفسطة تظهر فى عالم الفلسفة من حين إلى حين ، حتى فى الفلسفة العصرية فقد انبعثت السفسطة على يد « داوود هيوم » وأصحاب مذهب الذرائع ، ويخطىء من اختصها بالقرن الخامس ق م أو يحصرها فى الفكر الاغريقى وحده .

من حكم الأحنف

الأحنف بن قيس سيد بنى حنيفة الذى قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب له مائة ألف سيف ، له حكم قيمة منها قوله :

من لم يصبر على كلمة ، سمع كلمات . وقيل له من السيد ؟ فقال : هو الذى إذا أقبل هابوه ، وإذا أدبر عابوه .

ومن أقواله : من تسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون .

ومن أقواله أيضا : الكامل من عدت هفواته .

أصداء الذكرى

فى محراب إقبال

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
المدرس بالأزهر

فى كل عام تحتفل الباكستان بذكرى وفاة شاعرها « محمد إقبال » . وعلينا أن نشارك إخواننا فى الذكريات الخالدة .

ولهذا أبعث إلى الروح الطيب ، بتلك التحية ، تذكرة للشرق ، وتخليداً لذكرى شاعر مسلم ، يعد فخراً للعبقرية .

فى محراب إقبال بين رحاب الخلد ، أقف خاشعا ، يحدونى التشوف ، وتهزنى التأملات .

فى محراب إقبال ، أسبح وأسبِّح بأناشيد أرسلها غريد الشرق وصداح الإسلام ، فسرت نوراً يستضاء به فى دياجى الشجون .

فى محراب إقبال ، يكاد سنا الاشراق يخطف بصرى ، فأجد لروحى ملاذاً عند هادى الحيارى ، ومواسى المكلومين ، ومسعد المؤملين .

فى محراب إقبال ، أجد على النور هدى تؤنسنى تلك المثل العليا ، التى نسجت بردتها دعوة الإسلام ، لترفع القيم الإنسانية ، وتقضى على العبودية ، وتأتى على عروش الاستعمار ، وتجتث من النفوس جذور الطمع الآثم ، وتطهر الروح البشرية من أوضار الذلة ، ومسوح الضعف ، وغلائل الأوهام .

في محراب إقبال تأخذني نشوة سَكَرها مشتف من دين الفطرة ، وكأسها في قرارتها عدالة السماء ، وحَبَابها هَدْي النبوة ، ونَدَامَاها أصفياء الرسالة المحمدية ، وشميمها هَبَات من روائح الجنة ، عرفناها بِرَيَّا التَّنْزيل .

في محراب إقبال تقدح الشرارات التي تندلع نارا تأكل العصفَ الخامد ، أو تترسل نورا يضيء الشرق وما حوله ... ولقد مزج الأشراقُ بين الموجتين ، ووصل ما بين المحيطين .

في محراب إقبال هتاف المعالم الإسلامية ، وبث العزة للوطن الإسلامي ، وتوحيد الكلمة بين الموحدين لله تحت راية القرآن .

في محراب إقبال تدفقت جداول الأدب لا تشاب بزيف من الضعة ، ولا تترقرق فيها عبرات اليأس والخمول ، ولا ترنق بكدر من الملق والرياء .

للعاشق في جداوله سلوة وللحائر على شطآنها اهتداء ، وللمتأمل في موجاتها أمان ، وكل من اغترفَ منها لا يمسه نصب الشك ولا ظمأ الإلحاد ولا دوار التردد ، ولا غول التميع .

في محراب إقبال مذكيات الشعور ومرهفات الأحاسيس وموقظات الأمم وباعثات الهمم ، وماأدراك ماقارعات الشاعر وفارعات المجرب ، ومقنعات الخطيب ، ومحكمات الحكيم ، ولمعات الفيلسوف ، وماينطق إلاعن أمل الشرق ووحي الإسلام ، مما علمه ذو القوة المتين ، وتعالى الله ملهم الإنسان وواهبه عبقرية التعمق والخلق والإمعان .

في محراب إقبال وعلى مائدته ما تشتهي من ألوان الخير ، وما تتوق اليه من طرائف فيها للعقول متاع ، وللنفوس غذاء ، وللأرواح شفاء ، تسامى فن لم يبق في زاده القلبي إلا الحب والإخاء والسلام والوفاء ، ولم ينشد من الحياة والأحياء إلا أن تحسم الشرور ، وتمحى الآثام حتى يخلو وجه الفضيلة وضاحا للانسان .

على مائدة إقبال يمتاز الخبيث من الطيب ، ويسفر ضوء الحق كأنه فلق الصبح ، فلا تنساب الأفاعي القاتلات من زيف الحضارة وبهرجها الكاذب الخداع .

فى محراب إقبال تغنى النفس بما وسعها أن تغنى من شبع ورى ، فتستعصم على الآراء الهدامة والنزعات المعوجة ، تلك التى تمحو آية الشرق فى امجاده الموروثة ، وتقاليده التى أقامت عمود التاريخ ، ووجهت ركب الإنسانية فى طريق سوى ، فشاقت ظلا ، وراقت ماء ، وطابت جنى .

* * *

على مائدة إقبال تؤمن النفس بأنها ينبوع الحياة ، وتطمئن بأن الفلاح لمن زكاها ، والخسارة لمن دساها ، فتكبح جماح فجورها ، وتفسح السبيل لتقواها .

* * *

يا شاعر الشرق الإسلامى ! . سلام عليك فى الخالدين وتحيات اليك مع الأبرار الطاهرين .

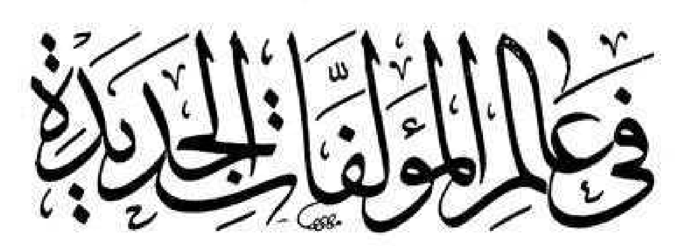
ويا أيها الشرق : هذه مائدة إقبال فاتخذ منها زاد الأجيال وعتاد الآمال ، واحفظ لشاعرك ذكراه فى الخالدين ، وسلام عليه فى عليين ، ونعم أجر العاملين النابغين .

آداب الاكابر

ساير يوما عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح أمير المؤمنين العباسى بظهر مدينة الأنبار ، وهو ينظر إلى بناء قد بناه أبو العباس ، ويدور به ، فأنشد عبد الله :

ألم ترجو سنا لما تبنى ... بناء نفعه لبنى بقيلة
يؤمل أن يعمر عمر نوح ... وأمر الله يحدث كل ليلة

وكان أبو العباس له مكرما ، ولحقه معظما ، فتبسم مغضيا ، وقال : لو عملنا لاشترطنا حق المسايرة . فقال عبد الله : هذه من بوادر الخواطر ، وإغفال المسامح والله ما قلتها عن روية ، ولا عارضنى فيها ذكر ، وأنت أجل من أقال ، وأولى من صفح . فقال له العباس : صدقت ، نخذ فى غير هذا .



أحسن القصص :

لقد وفق الأستاذ الكبير على بك فكرى إلى تقريب ما كان بعيدا عن الناس ومقصورا على المختصين منهم ، من البحوث الدينية ، والمسائل الشرعية ، فجمع ما يهم الجمهور القارىء ، من تلك البحوث والمسائل ، وأحسن تبويبها وترتيبها ، من الموضوعات التى تهمهم ، ويكثر تساؤلهم عنها ، ووضعها على الترتيب والتبويب الذى ألفه متبعوهم ، فكان منه لهم تقريب لما كان بعيدا عنهم ، ووضعه باللغة التى ألفوها فانتشر العلم بها بينهم ، بعد أن كان بينها حجاب لا يستطيعون اقتحامه ، وهذه خدمة لا يقدرها قدرها إلا الذين يعلمون أن فى تعميم العلم بهذه البحوث والمسائل تعميما للعلم بالدين ، ونشرا لفضائله بين من كانوا يجهلونه من أهل الجيل الجديد ، وسيكون فيما نرجى سبباً لرقى خلقى كبير ، وفاتحة لخير أدبى كثير . وقد قرظنا عدداً يذكر من هذه المؤلفات .

واليوم ترانا إزاء الطبعة الثالثة لكتاب من خير كتبه ، وهو أحسن القصص فى تاريخ الأنبياء وهو يقع فى جزءين أولهما تاريخ الأنبياء غدا أولى العزم منهم ، والثانى فى تاريخ أولى العزم منهم ، ولا يخفى أن مقتحم هذا الموضوع يخوض بحراً لا ساحل له ، ويصادف فيه من أوهام المؤلفين ، وأهواء المبالغين ما يقف بالكاتب المتثبت موقف الحيرة ، ويستدعى غاية الجهد فى التمحيص والتدقيق ، وهو عمل شاق ، ذو تبعة لا يقدرها قدرها إلا العارفون . والذى تبين لنا من الاطلاع على ما قام به مؤلفنا النشط أنه سلك سبيلا من التمحيص تضع الأمور فى نصابها ، ولا تجافى الثابت من الأقوال فى جملتها ، فجاء عمله شاقا مضنياً وجهاده عنيفا مجدياً .

وقد ظهر فى هذا المؤلف الطبعة الثالثة فنشكر له عمله الحسن ، وخدمته القيمة ، ونرجو له التوفيق .

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى

يحتفل المسلمون وخاصة فى القرون المتأخرة بالمولد النبوى فى جميع البلاد الإسلامية ويتساءل الكثيرون هل لهذا الإحتفال من أصل فى عاداتنا الدينية، وكان قدماؤنا يحتفلون به، وإلى حد زدنا فيه أو نقصنا منه؟ وقد أورد حضرة الأستاذ الجليل الشيخ حسن السندوبى رئيس مكتبة وزارة الأوقاف بقبة الغورى مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده مثل هذا التساؤل عن بعض إخوانه، وانتهى حوارهم فيه إلى رجائه بوضع تاريخ له، فأجاب دعوتهم ووضع هذا الكتاب الثمين. وكان مما قاله فى هذا الموضوع :

«ولا أريد أن أشرح ما لاقيت — فى تحقيق هذه الفكرة وإبرازها على أفضل ما رأيت من الوجوه الصالحة — من العنت والارهاق، لأن أبواب هذا الموضوع موصدة فى وجه مستفتحها، ومغاليقه محكمة أمام طارقها، وذلك لأن جمهور المؤرخين وكتاب الأخبار لم يعطوا هــذا الأمر شيأ مما يستحقه من العناية والاهتمام».

وليس يعلم ما يعانيه الكاتب المحقق فى سبيل تحرير الصواب فيما يعرض له من بحوث، وما يضحى به فى تقويم أخطاء المؤلفين من قدماء ومحدثين، وما يبذل من دم القلب، ونور البصر وضياع الزمن، إلا من دفع فى أمثال هذه المآزق.

«وهذا كتاب يجد فيه العالم بغيته، والباحث منيته، والأديب لذته، ومحب الاطلاع طلبته، فهو للعارف مسلاه، وللشادى معارف ومعلومات».

وأنا أشهد أنه كذلك. وهو فوق ذلك أثر قيم، لأديب سجلت له الكتب والمجلات من عيون البحوث، وروائع الطرف ما أضاف اسمه الى أسماء الخالدين.

وقد جعل كتابه مرتبا على الدول من عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا هـذا وهذا عمل يجمع إلى المتعة الأدبية، الثقة التاريخية، ولست أذكر للقراء ما جمل أديبنا الكبير هذه البحوث التاريخية من بيانه الساحر، وأدبه الرائع، وطرائفه اليانعة، مما جعل كتابه روضة أدب وعلم وتاريخ، فله منا الشكر الكثير.

بسم الله الرحمن الرحيم

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

قلنا فى المقال السابق : إن الأمم فى انتقالاتها الاجتماعية ، خلال الأدوار المتتابعة التى تتوالى عليها ، إنما تتأثر بعاملين قويين : عاداتها الموروثة ، ودياناتها ؛ وإن كثيراً ما جرها التدافع بين هذين العاملين إلى شرضروب التناحر بين آحادها . وكثيرا ما قضى عليها هذا التناحر بالانحلال والتلاشى . إلا الأمة الإسلامية ، فقد كان أمرها عجبا ؛ بل كان آية خالدة لم يرو لنا تاريخ البشرية ما يشبهها ولا ما يقرب منها : فأقرب الأديان إلينا وأشهرها اليهودية والنصرانية ، فالأولى كانت خاصة ببنى إسرائيل ، دعا إليها موسى صلى الله عليه وسلم ، فاختلف عليه قومه حتى عوقبوا بالتيه ، ولم تقم لهم دولة إلا بعد أدوار شتى . وأما النصرانية فكانت أبطأ خطى من سابقتها حتى أنه لم تتأسس باسمها دولة إلا فى سنة (٣١٣) على عهد الإمبراطور (كونستانتين) الرومانى . أما الإسلام فلم يطل عهد الدعوة إليه أكثر من عشر سنين فى مكة . فلما هاجر منها محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، كان ذلك بداية للدولة الإسلامية ، وهى الديانة العالمية التى أرسل خاتم المرسلين لإعلانها للناس كافة ؛ فأرسل رسولها لعياهل الأمم التى كان يمكن الاتصال بها فى ذلك العهد ، وهى الدولة الرومانية ، والدولة الفارسية ، والدولة الحبشية ، وغيرها ، كتبا يحيطهم علما بقيامها ، ويدعوهم للدخول فيها ، وينذرهم بالمثلات إن هم تنكبوا عنها . حدث جلل لم يعهد له مثيل فى تاريخ البشر ، ولم يقم به محمد صلى الله عليه وسلم إلا بوحى من ربه ، وكيف كان يقدم على ذلك من تلقاء نفسه ، وهو على رأس قلة من الرجال لم يأمنوا على وجودهم بعد ، وكانوا إذا قاموا للصلاة تقدمت طائفة وحرستهم أخرى ، خشية أن يكبسهم أعداؤهم وهم مجردون من أسلحتهم فلا تقوم لهم بعدها قائمة ؟ ولكن الحق جل وعز وعدهم - وهم فى تلك القلة يخشون أن يتخطفهم الناس - بأنه سيمنحهم خلافته فى الأرض ، وأنه سيؤيدهم وسينصرهم على أعدائهم ماداموا موفين بعهدهم الذى عاهدوه

عليه ، وهو قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

هذه آية اجتماعية لم يتم لها نظير فى العالم كله ، وهى أن تتألف جماعة من طوائف شتى ، فتزداد عدداً بسرعة لم تعهد فى أى دور من أدوار البشرية ، ثم تنساح فى الأرض بعد نحو خمسة عشر سنة من تألفها ، فتنشر فيه ديناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتؤسس ملكا قوى الدعائم ، ركين الأركان ، لا تغرب عنه الشمس ، يبلغ أهله فى مائة وخمسين سنة من العلم والصنائع والمدنية ما يفوقون به العريقين فيها أنفسهم ، ويستمرون حاملين لواءها قروناً متوالية ينشرونها حيث حلت أقدامهم من بقاع الارض .

نعم هذه كبرى الآيات الإلهية فى تاريخ الإنسانية ، يرجع الفضل فيها إلى تعاليم الإسلام وإلى الروح التى يبثها فى القلوب ، والأسلوب الذى يسيطر به على العقول والميول . فالأمة الإسلامية التى نالت خلافة الله فى الأرض ، وتولت زعامة العالم نحو ألف سنة ، وإن يكن أصابها من الفتور ما يصيب الجماعات البشرية ، تحت تأثير عوامل شتى ، إلا أنها لا تزال تذكر ماضيها الماجد ، وتحنّ إلى استرجاعه ؛ ولا نشك فى أنها ستستعيده كاملا غير منقوص متى أتم مصلحوها مهمتهم من استخلاص دينها مما شابهُ من البدع ، وما ألحق به مما ليس منه فى شيء .

نرجع بعد هذا الاستطراد الذى كان لابد منه ، إلى تجلية ما كنا بصدده من بيان خصائص الإسلام فى بناء الأمم ، وفى كفايته لتوفيته بحاجاتها من عوامل النهوض ، وتداركه لما يساور هذا النهوض من فواعل التثبيط ، وعلاجه لما يعتور تدرجها فيه من دواعى الانحراف ، دون أن تحتاج الأمة إلى ما جرت به سنن الاجتماع من الخلاف والتناحر الحزبى الذى يجر إليه ، ويدفع بمجموعها إلى التفتت الموجب لتقهقرها أو لتلكؤها فى أداء رسالتها آمادا طويلة ، هذه خاصة فى الديانه الإسلامية ميزها الحق بها دون الأمم كافة .

ذلك لأن الديانة الإسلامية أوحيت خالية من جميع بواعث الشقاق بين العقل والعقيدة ، وبين جميع أطوار الترقى العلمى وأصولها الأولية ؛ فن أية جهة يندس

الخلاف لدى ذويها بين المنقول والمعقول ، أو يتطرق التناقض فى نظامها بين أصولها ومقتضيات الظروف ؟ هذه ناحية تحتاج لتفصيل فإليك :

قرر الإسلام أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها ، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون ، وأنه واحد لاشريك له ، وأنه تعالى عن الأبصار فلا تراه عين ، وعن العقول أيضا ، فلا يدرك كنهه عقل ، فكلما خطر ببالك ، فهو بخلاف ذلك . وأنه متصف بجميع صفات الكمال ، فمهما بالغ المتكلمون ، وأطنب المؤمنون ، فالله لايحيط بكماله وصف ، ولا يبلغ إلى مدى نعته بيان .

فهذه العقيدة لا تقبل أى جدل ، ولا تحتمل أى خلاف ، ولا تتسع لأية منازعة ، وبها أمن أهله كل ما بليت به الجماعات ، من شرور الظنون والأوهام ، ومن الإغراق فى التلاحى والخصام ، فإذا كان كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فمن العبث إضاعة الوقت فى التحديدات والتقييدات ، وفى كل ما يجر إليه محاولة التكلم فى هذا الموضوع من المماحكات .

بهذا الطراز من العقيدة سد الإسلام باب الخلاف سدا محكما لا يجرؤ على محاولة فتحه إلا متعسف أو متزندق ؛ وبسد هذا الباب سلمت جماعة المسلمين من شر مستطير ، هو الانقسام فى أصل العقيدة ، وتفرق كلمتها تبعا لها ، ووقوع الاضطرابات المهددة لكيانها .

نعم لم يسلم المجتمع الإسلامى من متطفلين ومتزندقة ، فحاول بعضهم فتح هذا الباب على مصراعيه ، ولكنها كانت محاولات فاشلة ، لمناقضتها لنص العقيدة مناقضة صريحة ، فلم تصل واحدة منها إلى مستوى تستطيع معه أن تدفع بجماعة المسلمين إلى الفرقة ، فاعتبرت كلها خوارج على الدين ، ثم آل أمرها إلى التلاشى والزوال ، وبقيت العقيدة الإسلامية إلى يومنا هذا نقية قوية ، وجاء العلم فأيدها ، فأصبحت الوحيدة التى لا محيد عنها ، وتابع المسلمون حركتهم الاجتماعية والمدنية لم تحل بينهم وبين بلوغ غاياتهم البعيدة أية عقبة .

يأتى بعد العقيدة فى الله ، العقيدة فى الرسل وفى الأديان ، وهى أيضاً كانت مثاراً لمنازعات بين الجماعات لا تقف عند حد ، والإسلام فى هذه الناحية يقرر بأن النوع البشرى من يوم وجد كان فى حاجة إلى رسل يهدونه الطريق القويم ، ويلقنونه مابه نجاحه فى هذه الحياة ، ونجاته فى الدار الآخرة ؛ وأمر أتباعه بالإيمان بهم أجمعين ، دون أن يفرقوا بين أحد منهم ، ودون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض .

فإن وُجد فى مجتمعهم طوائف من أديان سابقة لا تؤمن بالإسلام ولا بخاتم المرسلين، أمر المسلمون أن لا يتعرضوا لهم بسوء، وأن لا يفرقوا فى المعاملات بينهم وبين المسلمين، وأن يدعوهم أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم وبِيَعهم وكنائسهم، وأن يحموهم حمايتهم لأنفسهم، وأن يذودوا عنهم ذيادهم عن إخوانهم فى الدين.

هذا الوضع الحكيم يحسم من أسباب المنازعات والخلافات مالا يحصيه عد بين أبناء المجتمع الواحد، فما دام المسلمون مأمورين أن يؤمنوا بجميع الرسل وأن لا يفرقوا بينهم، وأن لا يتعرضوا لعقائد من تخلف من أهل الملل عن الدخول فى دينهم، وأن لا يفرقوا فى المعاملات بينهم وبين أهل ملتهم، فأى فتنة يُعقل أن تنشأ فى مجتمع هذا شأن تحفظاته فى هذه الناحية الحساسة؟ وليس فى القراء من ليس يدرى أن هذه الأمور كانت ولا تزال مثار قلاقل اجتماعية فى جميع الأمم، حتى فى الجماعات الأوربية، فإن فى تاريخها حوادث من الاضطهاد أدت إلى مذابح بين البروتستنت والكاثوليك، وبين هؤلاء جميعا وبين اليهود كانت مثالا للوحشية البالغة، والجاهلية المتطرفة، ولا ينسى أحد ما حدث فى فرنسا من قتل نحو خمسة وعشرين ألفاً من البروتستنت فى ليلة واحدة، ومن هجرة خمسمائة ألف منهم من فرنسا سنة (١٦٨٥) هربا من الاضطهاد، حارمين وطنهم من صنائعهم ومعارفهم، وحامليها إلى البلاد التى أووا إليها، فكان فى ذلك خسارة على فرنسا لا تقدر.

وإذا كان هذا فى فرنسا وكانت فى مقدمة الأمم ثقافة وذكاء، فماذا أنت ظان فيما حدث فى سواها من الأمم الأخرى؟ وليس فى قرائنا من يجهل ما كان يحدث لليهود قبل الحرب العالمية الأولى من العسف والاضطهاد والتشريد فى جميع الممالك الأوربية حتى اضطروا لإنشاء وطن قومى لهم، وضنت جميع الأمم عليهم بقطعة من الأرض ولو فى مجاهل إفريقا، وأخيراً تفضلوا عليهم بها ولكن على حساب المسلمين فى فلسطين.

هذا من ناحية سمو التعاليم الإسلامية، وقطعها لذرائع الاضطرابات الطائفية فى جماعاتها من ناحية الخلافات الدينية. بقى علينا دراسة هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية لتجلية عناصر المدنية فيها؟

محمد فريد وجدى

من ذخائر السُّنّة :

في أنهار الجنة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

جاء فى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيحان ، وجيحان ، والنيل ، والفرات ، من أنهار الجنة » .

* * *

أورد القدامى من أصحاب الروايات والأخبار ، آثاراً كثيرة فى مؤلفاتهم ، تدلّ بحسب ظاهرها على أن نهر النيل وبعض الأنهار الأخرى من الجنة ، وقد أكثر الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » عند الكلام على النيل ومزاياه وخصوصياته من ذكر هذه الآثار ، وأتى فيها بالعجب العجاب .

وليس يعنينا فى الواقع من كل هذه الآثار ، إلا ما جاءت به المصادر الصحيحة ، وأخرجته المراجع المعتمدة ، فهذه فى الحقيقة ، هى الجديرة بالنظر والتفكير والخليقة بالعناية والتقدير ، أما ما عداها مما ورد فى مدونات أخرى ، فالخطب فيها سهل ، والأمر فى قبولها أو ردها لا يحتاج إلى جهد أو كبير عناء .

* * *

اتفق البخارى ومسلم فى أحاديث الإسراء والمعراج ، على أن النبى صلى الله عليه وسلم عند ما بلغ سدرة المنتهى رأى أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقال : يا جبريل ما هذه الأنهار ؟ ، فقال : أما الباطنان ، فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران ، فالنيل والفُرات .

وانفرد مسلم عن البخارى بإخراج الحديث الذى أثبتناه فى صدر هذا الكلام ، ولفظه : « سيحان ، وجيحان ، والنيل ، والفرات من أنهار الجنة » .

وإزاء هذين الأثرين القويين الواردين فى مصدرين عظيمين ، اتفق علماء المسلمين فى المشرق والمغرب على أنه ليس بعد كتاب الله تعالى أصحّ منهما ، قد يقف المثقف العادىّ متردداً حائراً متسائلا عن قيمة ما ورد فى هذين الأثرين ، وعن معناهما ومرماهما ، وعن مدى اتصالهما بالحقيقة ، ومبلغ اتفاقهما مع ما تحكم به المشاهدة : من مواقع هذه الأنهار ومنابعها ومجاريها ومصابّها ، بل وقد يقف منهما بعض أصحاب العقليات الحديثة موقف الاستبعاد والإنكار .

ولو تمهل أولئك المتسائلون ، وتريّث هؤلاء المنكرون ، وكلفوا أنفسهم عناء الرجوع إلى آراء العلماء ، وجشموها مؤونة البحث عما قالوه فى تفسير ذينك الأثرين ، وشرْح معناهما ، وبيان المراد منهما ؛ لظهر لهم وجهُ الصواب ، وانبلج أمامهم نور الحقيقة ، ولوفروا على أنفسهم ما يجلبه التساؤل والإنكار من نتائج ومؤاخذات .

قال النووى فى شرح مسلم : إن مياه هذه الأنهار أصلها من الجنة ، وإنها تخرج من أصل سدرة المنتهى ، ثم تسير حيث أراد الله ، ثم تنزل إلى الأرض ، فتستقر فيها ، ثم تخرج منها ، وهذا لا يمنعه عقل ولا شرع ، وهو ظاهر الحديث ، فوجب المصير إليه .

وذكر القاضى عياض فى كوْن هذه الأنهار من ماء الجنة تأويلين :

أحدهما : أن الإيمان عمّ بلادها ، وأن الأجسام المتغذية بمائها صائرة إلى الجنة .

والثانى : أن لها مادة من الجنة . ولكن يخيّل إلينا أن أصحاب « العقليات الحديثة » سوف لا يعجبهم هذا الكلام ، وسوف لا يرضيهم رأى النووى ، ولا يروقهم تأويل القاضى ، وأنهم سيهزّون أكتافهم ، ويثنون أعطافهم ، ثم يمضون سراعا سادرين عابثين .

وإذا كان الأمر لديهم كذلك ، فليسمعوا رأيا آخر فى تفسير الحديث ، عّله يشفى غلتهم ، ويروى ظمأهم ، ويذهب بما فى نفوسهم من ريب وشكوك ،

وهـذا الرأى هو ما حـكاه القرطبي عندما تناول هـذا الموضوع بالشرح والبيان ، قال :

وإنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيها لها بأنهار الجنة ، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة .

ونظن أن فيما حكاه القرطبي ما تهضمه العقلية الحديثة وتستسيغه ، وما يكفى لإرضاء غلوائها ، وإقناع تفكيرها الخاص بها .

* * *

أشير فى أثر البخارى ومسلم إلى وجود نهرين باطنين فى الجنة ؛ وقد وردت الآثار أيضاً بأن فى الجنة عيناً تجرى يقال لها : السلسبيل ، وأنه ينشق منها نهران ، أحدهما : الكوثر ، والآخر يقال له : نهر الرحمة ، فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان المذكوران ، وقال مقاتل : النهران الباطنان هما السلسبيل والكوثر .

فأما النيل ، فهو نهر مصر ، وقـد ذكروا له مزايا كثيرة ، منها أن ماءه من أصح المياه وأخفها وأعذبها واحلاها ، وأرواها وأمراها ، وأعمها نفعا ، وأن أرضه من أخصب الاراضى ، وأغناها زروعاً وثمارا ، وأكثرها غلة وإنتاجا وأعظمها خراجا ، ومنها أنه يأتى أرض مصر فى أوان اشتداد القيظ والحر ، ويبس الهواء ، وجفاف الأرض ، فيبل التربة ، ويرطب الهواء ، ويلطف الجو ، وينعش النفس ، ويعتدل الفصل ، وتزدهر الحياة ، ومنها أنه يأتى من الجنوب إلى الشمال ، فيكون فعل الشمس فيه دائما ، وأثرها فى تنقيته وإصلاحه متصلا ملازما .

وأما الفرات ، فهو نهر بغداد ، وقد خطأ النووى من قال : إنه بالعراق ، وقال : هو فاصل بين الشام والجزيرة ، وكذلك خطأ من يقولونه « الفراة » بالتاء المربوطة ، وقال : إنه الفرات بالتاء المفتوحة فى الخط فى حالتى الوصل والوقف ، والفرات فى اللغة : الماء العذب جدا يقال للواحد والجمع ، ومنه قوله تعالى :

« وأسقيناكم ماء فراتا » ، ولعل فى تسميته النهر المخصوص بذلك الاسم إشارة إلى ما يدل عليه هذا المعنى اللغوى .

وأما سيحان وجيحان ، فنهران عظيمان جدا ، وهما يقعان فى بلاد الأرض ، وسيحان نهر أذنة ، وجيحان نهر المصيصة ، وهو أكبرهما ، قال صاحب النهاية فى غريب الحديث : سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرطوس ، وهما غير سيحون وجيحون ، لأنهم اتفقوا كلهم على أن جيحون نهر وراء خراسان عند بلخ ، واتفقوا على أنه غير جيحان ، وكذلك سيحون غير سيحان ، ولم يذكر هذان النهران فى حديث الإسراء ، لكونهما ليسا أصلا برأسهما ، والاحتمال أن يكونا متفرعين عن غيرهما .

وبعد ، فتلك هى آراء العلماء فى بيان معنى كون هذه الأنهار من الجنة ، فمن استطاعت عقليته أن تهضم مثل رأى النووى ، أو تأويل القاضى ، فليأخذ بهما ، أو بأيهما شاء ، ومن لم تستطع عقليته أن تقبل شيئا من ذلك ، فليأخذ بما حكاه القرطبى ، فإن التشبيه لا حجر فيه ، ولا مضادة فيه بين العقل والمنطق والرأى السليم ، والمقاييس العلمية الصحيحة ، ولم يمنعه أحد مطلقا ، لا من أصحاب العقليات القديمة ، ولا من أصحاب العقليات الحديثة ، بل لقد بلغ من أمره أنه كلما كان أقرب إلى الغرابة ، وأدنى إلى المغالاة ، وأشبه بالمحال ، كان بذلك أدخل فى باب الحسن والجمال والبلاغة ، ولأنه لا يشك شاك فى أن مياه هذه الأنهار عذبة حلوة ، سائغة للشاربين ، مستلذة للمتذوقين ، راوية للظامئين ، وأنها حسنة فى المنظر ، جميلة فى المرأى ، ممتازة فى الموقع ، بديعة فى انسكابها وانعطافها ، بهيجة فى وداعتها وهديرها ، وأنها تعود على البلاد التى تجرى فيها بالخصب والنماء ، واليسر والرخاء ، والخير والبركة ، وهذه المعانى كلها مشتركة بينها وبين أنهار الجنة ، فيكون حمل الحديث على التشبيه أسلم وأحكم ، وأبعد به عن الاندفاع فى تيار الجدل ، وأنأى عن مجال التجريح والتضعيف ، وأرضى للعقليات التى تميل الى الأخذ بالواقع الملموس .

من فقه عمر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهـــر

مما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه منع المؤلفة قلوبهم من نصيبهم المفروض لهم فى الزكاة بقوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم » ، وعمر بن الخطاب كان ذا بصر بالفقه مع ورع وتقوى فى الدين ، فكيف سوغ لنفسه أن يخالف آية صريحة كهذه الآية ، وكيف وقّت حكمها بقوله : « ذاك حين كان الإسلام ضعيفاً ، أما وقد أعزه الله فالسيف بيننا وبين من خرج عليه » .

وقد تمسك بعض الناس بصنيع عمر هذا ، وزعموا أن المصلحة حاكمة على ما سواها من الأدلة ، ولو كان نصاً فى كتاب أو سنة ، وأيدوا هذا أيضاً بتصرف آخر لعمر فى مسألة الطلاق الثلاث ؛ وذلك أن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وفى أول خلافة عمر ، كان يقع طلقة واحدة ، ثم رأى عمر أن يلزم الناس بوقوعه ثلاثا لمصلحة رجحها ، هى أن الناس تتابعوا على ذلك وأكثروا من الحلف به ، واستعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فكانت المصلحة فى أن يمضيه عليهم ، وقد وافقه على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعدهم ، وأصبح ذلك هو الحكم المفتى به ، المعول عليه فى المذاهب الأربعة المعروفة .

قالوا : إن الشارع قد جعل قول الرجل لامرأته : أنت طالق ثلاثاً سبباً فى وقوع طلقة واحدة ، فهذا حكم وضعى ليس لأحد إلا الشارع [1] ، فكيف

---

(١) الحكم الوضعى هو جعل الشىء سبباً أو شرطاً . . الخ والذى يحكم بهذا الجعل هو الشارع ، وذلك كجعل دلوك الشمس سبباً فى وجوب الظهر مثلا ، ومنه ما معنا هنا من جعله لفظ الطلاق بالثلاث سبباً فى وقوع واحدة ، فليس لأحد أن يجعله سبباً فى أكثر .

ساغ لعمر أن يجعل اللفظ سبباً لوقوع ثلاث طلقات وهو ، يعلم أن سببية الشيء لشيء إنما تكون بحكم الشارع ، فهو الذى يجعل صيغة ما سبباً لثبوت حكم ما . وإذن فلا بد أن يكون عمر قد سلك فى الأمر مسلكا آخر ، هو تغليب مصلحة الناس على العمل بهذا الحكم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ذكروه فى ذلك أيضا ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر ينادى « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » فوجده عمر فرده وقال : « إذن يتكلوا » ، وكذلك رد عمر أبا هريرة عن فعل ذلك فى حديث صحيح ، وهو معارضة لنص الشرع بالمصلحة .

وقد خرج بعض العلماء صنيع عمر فى هذه المسائل الثلاث ، ونحوها بتخريج ألخصه فيما يأتى :

١ — قالوا فى مسألة المؤلفة قلوبهم : إن عمر رضى الله عنه لم يبطل النص ، ولم يحكم عليه بالمصلحة ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، فإن النص خالد ، والمصلحة مارآه الشارع ، وإنما فهم عمر أن الله سبحانه وتعالى جعل نصيبا للمؤلفة قلوبهم ؛ حيث كان الإسلام فى حاجة إلى تألفهم واصطناعهم ، لأنهم كانوا أهل جاه ورياسة فى أقوامهم ، فلو أسلموا أسلم من وراءهم من الاتباع فعز بهم الإسلام وكثر سواده ، أما وقد أصبح الإسلام عزيزا ، وأصبح أهله كثرة تخشى وترجى ، فلم يعد به حاجة إلى تألف أحد ، فهو يرى بهذا أن النص على إعطائهم مقيد بهذه المصلحة ، دائر معها وجودا وعدما ، فإذا وجدت مصلحة فى التألف بالمال فى أى عصر من العصور ، جاز للإمام على هذا أن يدفع نصيبا لمن يرى تأليف قلوبهم ، والانتفاع بجاههم وما يفيدون الإسلام والمسلمين ، وإذا لم يظهر فى ذلك مصلحة فلا يجب دفع هذا النصيب ، وكأن النص مصرح فيه بهذا القيد ، وأرى أن عمر قد لمح هذا المعنى من العبارة عنهم بلفظ « المؤلفة قلوبهم » فهو يفيد أن هناك تأليفا لقوم ، والتأليف لا يكون إلا حيث يرى أن المصلحة قاضية به ، وإلا كان صرفا للمال فى وجه آخر قد يسمى إحسانا مثلا ، أو إعطاء أو نحو ذلك ، فحيث سماه « تأليفا » فقد دل بذلك على أنه يريد معنى تقريبهم للإسلام ليفيدوه ، فالعبرة إذن بالفائدة .

ومن هذا يتبين أن عمر رضى الله عنه لم ينسخ النص أو يزعم أنه نسخ ، ولكن النص باق ؛ لأنه لم يكن فى أى وقت نصا مطلقا ، وإنما هو من أول أمره مقيد وقد ظل كما هو وسيظل إلى يوم القيامة .

٢ — وقالوا فى مسألة الطلاق الثلاث : إن عمر رضى الله عنه لم يشرع سببية لفظ لغير ما شرعه الشارع ، وإنما نظر عمر نظرة أخرى ؛ ذلك أنه إذا طلق الإنسان إمرأته طلاقا ثلاثاً فى لفظ واحد ، ووقع بذلك طلقة واحدة كما كان العمل على عهد رسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر وأوائل عهد عمر ، فمعنى ذلك أن للزوج حقاً فى مراجعة زوجته بعد هذا اللفظ ، والمراجعة أمر مباح كسائر ما يباح للناس من طعام أو شراب أو تزوج أو نحو ذلك ، غير أن عمر رأى استخفاف الناس بمخالفة السنه قد استشرى داؤه ، فرأى أن يحرم الناس من هذا الحق الذى كان لهم ، كما لو رأى حاكم لمصلحة ما أن يمنع الناس من إيقاد الأضواء بعد ساعة معينة خوف إغارة الأعداء مثلا ، كما كان يحدث فى زمن الحرب ، فحرمان أصحاب الحق المباح من استعمال حقهم لمصلحة قاضية به لا يعد حكما بسببية صيغة فى شىء لم يجعلها الشارع سبباً له .

وبهذا يتبين أن عمر لم يشرع حكما وضعياً ، وإنما قيد استعمال المطلقين لحقهم فى الرجعة .

٣ — أما المسألة الثالثة فظاهر أن عمر لم يرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف وهو خبر من الرسول الكريم عن الله رب العالمين ، ولكنه لم يجد فى الناس استعدادا حينئذ لتلقى هذا الخبر ، وخاف عليهم أن يتكلوا ، وأن يضعف جهادهم ونصرهم وتضحيتهم فى سبيل الله .

وقد يقول قائل : أليس قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنداء فى الناس بهذا ؟ فما بال عمر يرد هذا الأمر فأقول : لم يكن رد عمر ردا للمعنى الذى قرره الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه رأى رأيه فى مناسبة ذلك لمصلحة الناس ، أو عدم مناسبته فى خصوص هذا الوقت ، وكم لعمر من مراجعات مع الرسول الكريم كان يتلقاها بالقبول ، وشتان بين النظر فى تأجيل الإخبار بحكم أو التخصيص به ، وبين نقضه ورد معناه .



سيبويه

لفضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد محمد بن الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

كنيته ، اسمه ، نسبه :

أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى الحرث بن كعب . وقيل مولى آل الربيع بن زياد الحارثى من أصل فارسى ، وقد جاء اسمه واسم أبيه واسم جده فى شعر للزمخشرى :

ألا صلى الإله صلاة صدق　　على عمـــرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه　　بنو قلم ولا أصحاب منبر

وسيبويه لقب له ، تغلب على اسمه وكنيته فاشتهر به ، وهو لفظ فارسى مركب ، ترجمته العربية « رائحة التفاح » .

وقد اختلف فى توجيه تلقيبه بهذا الاسم ، فقيل : لإن أمه كانت ترقصه بذلك فى صغره ، وقيل : كان من يلقاه يشم منه رائحة الطيب ، وقيل : كان يعتاد شم التفاح ، وقيل : لقب بذلك للطافته . وقال ابراهيم الحربى : سمى سيبويه ؛ لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وكان فى غاية الجمال .

وأهل العربية يضبطون هذا الاسم ونحوه ـ مثل نفطويه ، وخالويه ـ بفتح الواو وسكون الياء . والعجم يقولون : سيبويه ونفطويه ، بإسكان الواو وضم ما قبلها وفتح الياء .

وقد جاء هذا الضبط فى شعر لابن بسام ، يذم فيه نفطويه :

رأيت فى النوم أبى آدما　　صلى عليه الله ذو الفضل
فقال : أبلغ ولدى كلهم　　من كان فى حزن وفى سهل
بأن حوا أمهم طالق　　إن كان نفطويه من نسلى

وما ذكرناه من أن ترجمة « سيبويه » هى « رائحة التفاح » هو المشهور فى كتب النحاة والمؤرخين العرب ، واستظهر بعض المستشرقين : « ف. كرنكور » أن الترجمة الصحيحة هى « تفاحة صغيرة » لا « رائحة التفاح » .

تاريخ ومكان ولادته :

لم يعرف بالضبط تاريخ ميلاده . أما مكان ولادته فقرية من قرى شيراز تسمى البيضاء ، بلدة الحسين الحلاج المتصوف المشهور ، والقاضى البيضاوى المفسر الشهير .

نشأته العلمية :

ترك سيبويه البيضاء ، مسقط رأسه وهو صغير ؛ وذهب إلى البصرة يدرس الفقه والحديث على إمام الحديث ، وشيخ أهل البصرة فى العربية إذ ذاك ، حماد ابن سلمة بن دينار (المتوفى سنة ١٦٧ هـ) وكان سيبويه يستملى عليه يوما .

فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء » فظن سيبويه أن حماداً لحن فى الحديث ، فاستعمل المنصوب مكان المرفوع ، فرد على حماد قائلا : « ليس أبو الدرداء » فقال حماد :

« لحنت يا سيبويه » فقال سيبويه : « لا جرم ، لأطلبن علماً لا تلحننى فيه أبداً » .

ثم لزم الخليل وانقطع لدراسة النحو ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار أعلم أهل عصره ، واستحق بجدارة لقب ، « إمام البصريين » .

وقد خلد اسمه ، وأبقى ذكره فى الناس كتابه العظيم ، الذى لم يسبقه إلى مثله أحد من المتقدمين ، ولم يجاره فى تأليفه أحد من المتأخرين ، فكلهم عيال عليه .

شيوخه :

أشهر شيوخ سيبويه الذين اتصل بهم ، وأفاد منهم خمسة :

١ — عيسى بن عمر الثقفى (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) وكان قد ألف كتابين فى النحو : « الإكمال والجامع » ولم يوقف لهما على أثر . وفيهما يقول تلميذه الخليل .

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

٢ — الخليل بن أحمد ، صاحب كتاب العين ، وواضع علم العروض (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) حكى سيبويه فى كتابه الكثير من المسائل عن الخليل ، وكلما قال فى كتابه : « وسألته » أو قال : « قال » من غير أن يذكر الفاعل فإنما يعنى الخليل . فإذا حكى قولا عن الخليل ثم أردفه بقوله : « وقال غيره » فإنما يعنى بذلك نفسه « سيبويه » ، وهذا مظهر من مظاهر أدب سيبويه مع استاذه ، وكان الخليل يجله ويكرمه . قال ابن النطاح : كنت عند الخليل يوما ، فأقبل سيبويه ، فقال الخليل : « مرحباً بزائر لا يمل » .

قال أبو عمرو المخزومى — وكان كثير المجالسة للخليل — « وما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه » .

٣ — يونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢) ، وكانت له بالبصرة حلقة يختلف إليها الأدباء وفصحاء العرب ، وأهل البادية ، روى عنه سيبوية كثيرا وسمع منه الكسائى والفراء ، وقال أبو زيد الأنصارى : جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة . عاش يونس نحو تسعين سنة لم يتزوج فيها ، ولم يتسر .

٤ — الأخفش الأكبر ، عبد الحميد بن عبد المجيد المتوفى سنة (١٧٧) هـ أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها ، ونقل عنه سيبويه كثيرا فى كتابه فقال : وسألت أبا الخطاب .

٥ — أبو زيد الأنصارى المتوفى سنة (٢١٥) هـ . صاحب كتاب النوادر . وكان عالما بالنحو واللغة ثقة .

قال أبو زيد هذا : « كان سيبويه غلاما يأتى مجلسى ، وله ذؤابتان . فإذا سمعته يقول : « حدثنى من أثق بعربيته » فإنما يعنينى .

تاريخ ومكان وفاته :

اختلف فى تاريخ وفاته : فقيل مات فى سنة إحدى وستين ومائة (١٦١) ؛

وقيل سنة سبع وسبعين ومائة (١٧٧) ؛ وقيل سنة ثمانين ومائة (١٨٠) ، وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة (١٨٨) ؛ وقيل سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤) ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وقيل نيف وأربعون . واختلف أيضا فى المكان الذى مات فيه . فقيل : مات بالقرية التى ولد فيها « البيضاء » . وقال ابن قانع : مات بالبصرة . وقال ابن الجوزى : توفى بمدينة ساوة .

وذكر الخطيب فى تاريخ بغداد عن ابن دريد أن سيبويه مات بشيراز وقبره بها ، ورجح هذا القول ؛ لأن ابن دريد خبير بأخبار البصريين ، ثقة فيها .

قال أبو سعيد الطوال : رأيت على قبر سيبويه هذه الأبيات مكتوبة : - وهى لسليمان بن يزيد العدوى - .

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار ، فأسلموك وأقشعوا

تركوك أوحش ما تكون بقفرة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا

وقضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

وكان سيبويه — رحمة الله — كثيرا ما ينشد هذا البيت .

إذا بل من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

كتاب سيبويه :

لم يؤلف سيبويه إلا كتابا واحداً ، عرف عند أهل العربية باسم « الكتاب » وهو أقدم كتاب وصل إلينا ، مؤلف فى علم النحو .

ولم يصدره مؤلفه بمقدمة كعادة المؤلفين ، ولكنه بدأه بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين .

هذا باب علم ما الكلم من العربية . الخ .

والكتاب شاهد بفضل مؤلفه ، وسعة إطلاعه ، وغزارة علمه ، فلم يترك من مسائل النحو صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ونسب فيه إلى كل من شيوخه أقواله . وكان ثقة فى كل ما قال .

روى عن أبى عبيدة أنه قال : « قيل ليونس بعد موت سيبويه : إن سيبويه صنف كتابا فى ألف ورقة من علم الخليل ؛ فقال يونس : ومتى سمع سيبويه هذا

كله من الخليل ؟ جيئونى بكتابه ، فلما رآه يونس قال : يجب أن يكون قد صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عنى » .

وقال الجاحظ : « لم يكتب الناس فى النحو كتابا مثل كتاب سيبويه ، وجميع كتب الناس عليه عيال » .

شراح الكتاب .

تناول كثير من العلماء كتاب سيبويه بالشرح والتعليق . فمن شراحه : السيرافى ، وابن السراج ، وابن خالويه ، ومبرمان ، وابن الباذش ، والشلوبين ، وابن خروف ، والبَطَلْيَوْسِى ، والرمانى ، وابن الضائع .

وممن شرح شواهده : السيرافى ، وابنه يوسف ، والزمخشرى ، والشنتمرى ، ويحيى بن عبد المعطى صاحب الألفية المشهورة .

وممن تعقب سيبويه أبو بكر الزبيدى الأندلسى المتوفى بأشبيلية سنة ٣٧٩ فقد ألف كتابا سماه « الاستدراك على كتاب سيبويه » . وقد نشر هذا الكتاب بعناية المستشرق الإيطالى « جويدى » وطبعه بمدينة رومه سنة ١٨٩ وصدره بمقدمة باللغة الإيطالية .

طبعات الكتاب .

طبع كتاب سيبويه ثلاث مرات :

الأولى بالمطبعة الأهلية بباريس سنة ١٨٨٣ بعناية المستشرق دِيرَنْبُورْج والثانية بكلكتا سنة ١٨٨٧ . والثالثة بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٨٩٦ .

وتمتاز طبعة باريس بأنها مصدرة بمقدمة طويلة باللغة الفرنسية بينت مسودات الكتاب ، وأمكنة وجودها ، ونبذة من تاريخ سيبويه ، وطائفة من النحاة الذين اشتغلوا بكتابه .

وتمتاز طبعة بولاق بأنها مزينة بنبذ من شرح السيرافى ، وشرح شواهد الأعلم الشنتمرى المسمى « كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب فى علم مجازات العرب » .

وقد ترجم كتاب سيبويه إلى اللغة الألمانية ترجمة المستشرق الألمانى Jahn جهن ، وطبعت ترجمته الألمانية ببرلين سنة ١٨٩٤ م ولا نعرف أنه ترجم إلى لغة أخرى .

مفردات فلسفية

لفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

تحدثنا فى الكلمة السابقة عن مسألة الكليات أو الماهيات العامة ، ونشأتها فى التاريخ ، وكيف صارت مشكلة لها خطرها وبخاصة فى العصور الوسطى ، وأشرنا إلى أن وجه الإشكال فيها ، من ناحية المعرفة والوجود ، هو معرفة ما إذا كان هناك وجود حقيق لهذه الماهيات خارج الأشياء التى توجد فيها وجودا حسيا : أو أنه ليس لها وجود إلا فى هذه الأشياء فقط ؛ أو أنها ليست إلا أسماء لا حقائق لها ولا تدل على أى ضرب من ضروب الوجود . ثم أشرنا إلى أن الخلاف فى هذا كله كان منه هذه المذاهب :

١ — المذهب الواقعى Réalisme

٢ — المذهب الاسمى Nominalisme

٣ — المذهب التصورى Copceptualisme

واليوم نتناول بالبحث هذه المذاهب الثلاثة

* * *

المذهب الواقعى :

يذكر الأستاذ « لالاند - A. Lalande » لهذا المذهب معان ودلالات مختلفة حسب العصور وحسب نواحى المعرفة المتعددة ، ومن هذه المعانى نذكر ما يلى :

ا — مذهب أفلاطون يرى أن الكليات (كالحيوانية والإنسانية) أدخل فى الحقيقة والوجود من الكائنات الفردية المتشخصة (مثل هذا الحيوان

وهذا الإنسان اللذين أراهما أمامى) التى تتمثل فيها هذه الحقائق ، والتى ليست إلا ظلالا وصورا لهذه الكليات أو المعانى العامة "les idées" .

ب — وفى العصر الوسيط صار هذا المصطلح يدل على المذهب الذى يعتبر أن هذه الكليات العامة لها وجود مستقل عن الأشياء التى تظهر فيها . فالإنسانية لها وجود خارجى مستقل عن هـــذا الإنسان ؛ وكذلك الجمال والعدالة مثلا ، لكل منهما ـ كماهية أو فكرة عامـة ـ وجود مستقل عن الشىء الجميل والعمل العادل . وبهذا المعنى ، يكون مقابلا للمذهب الاسمى والمذهب التصورى ، ولـكن من وجهتى نظر مختلفتين على ما سنعرف .

حـ — ويراد به عند الرياضيين المعاصرين الفكرة التى تقول بأن الأشكال والحقائق الهندسية ، أو الرياضية بصفة عامة ، ليست من اختراع العارف العالم بها ، بل إنها موجودة قبله ، وعمله ليس إلا كاشفا لها ، أى ـ كما نقول فى الأزهر ـ عمله ليس إلا مُظهرا ، لا مثبتا لها .

ء — وفى علم الجمال قد يراد بهذا المذهب أن الفن ليس له أن يبحث فى أن يمثّل لنا وجودا أعلى مما هو موجود فى الطبيعة ، أى أنه ليس له إلا أن يبرز لنا الخصائص الحقيقية الأساسية لما هو موجود فعلا .

هذا ما نختاره مما ذكره الأستاذ « أندريه لالاند » ، ومنه نعرف أن أصحاب هذا المذهب يرون بصفة عامة أن المفاهيم العامـة موضوعية ، وأن لها وجودا أقرب للحقيقة من وجود الكائنات المحسة . ومن هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب قبل أفلاطون ومن أخذ اخذه ، من غلو إلى درجة تقرير أن هذه الـكليات لها وجود ومتحقق خارج الذهن سابق على وجودها فى الأشياء التى تتمثل فيها .

ه ه ه

المذهب الاسمى :

يقابل هذا المذهب المذهب الواقعى ، إذ كل منهما فى طرف مقابل للطرف الآخر . ذلك بأن المذهب الاسمى ، هو مذهب الذين ينكرون حقيقة ووجود المعانى أو المفاهيم الكلية ، فلا يرون فيها إلا كلمات وأسماء اصطلح عليها للدلالة على ما تشير إليه من معان ومدركات .

وعلى هذا المذهب ، لا تكون ماهية الإنسان ، أى الحيوان الناطق ، لها وجود خاص ، وحقيقة مجردة يسبق وجودها وجود الأناس نفسها كما يقول أفلاطون . بل لا تكون هذه الماهية إلا « اسماً » يدل على هذا الإنسان ، وذاك الإنسان الآخر ، دون أن تكون حقيقة قائمة وحدها بنفسها .

والخلاف بين هذين المذهبين ، فيما يختص بمسألة المعرفة خلاف خطير ، نشأت عنه معارك عنيفة فى العصر الوسيط . ونعتقد أنه لا يزال لهذا الخلاف أثره حتى اليوم ، ما دام لا يزال لكل من المذهبين ممثلون فى هذه الأيام ، كما نعتقد أن فى كل من هذين مغالاة ، وأن الحق قد يكون فى الاعتدال والتوسط بينهما .

* * *

المذهب التصورى :

لهذا المصطلح ، كأغلب سائر المصطلحات الفلسفية ، دلالات مختلفة ، نختار بعضها هنا :

١ — إنه مذهب من يرى أن الكليات لا توجد فى نفسها ، لا قبل الأشياء ولا فى الذوات التى تكوّن هذه الأشياء . ولكنها ليست إلا من عمل العقل وخلقه ، هذا العقل الذى ينتزع الماهية العامة للشىء من الخصائص الثابتة فى أفراده جميعاً . وإذاً ، فلا تكون الكليات ، حسب هذا المذهب ، موجودة وجوداً مستقلا كما يقول الواقعيون ، ولا مجرد أسماء كما يرى الاسميون ، بل لها وجود ، ولكن فى العقل فقط ، وهذا الوجود ينتزع عن الأفراد كما قلنا .

٢ — ويذكر الأب « إيلى بلان Elie Blanc » فى قاموسه الفلسفى ، أن هذا هو مذهب « أبيلارد — Abélard » الفيلسوف الفرنسى المعروف . وهو كأنه مذهب وسط ، بين المذهب الحقيقى والمذهب الاسمى ، إذ بحسبه تكون المفاهيم العامة تصورات للعقل .

ومثل هذا نجد فى قاموس : « لاروس الجديد » . ثم يزيد أن المفهوم العام إن فُصل من الأشياء التى يتمثل فيها ، لا يكون حقيقة فى نفسه كما يقول الحقيقيون ، ولا مجرد لفظ أو اسم كما يرى الاسميون ، ولكنه يكون تصوراً للعقل يجمع الخصائص الثابتة العامة لأفراد هذا الجنس ، أو الفصل جميعاً .

هذا ، وأخيراً نذكر أن الناظر لشرح المواقف للإريجى وحاشية السيالكوتى ، قد يسمى هذا المذهب بالمذهب الصورى ، لا بالمذهب التصورى . فقد جاء بالجزء ٢ : ص ١٧٠ من طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ م ، عند الكلام على الكلام على المقصد الرابع فى الوجود الذهنى ، بأن « الأشياء فى الخارج أعيان ، وفى الذهن صور » . كما جاء أيضاً « ج ٢ : ص ١٦٩ » ، بأن « الوجود الخارجى أو العينى ، هو وجود للشىء فى نفسه ، بخلاف الذهنى فإنه وجود لصورته » . ولكننا ، مع هذا ، آثرنا تسمية هذا المذهب بالمذهب التصورى ، إذ أخذت هذه التسمية حظاً من الذيوع والقبول هذه الأيام .

الشعر الفحل

من أعلى طبقات الشعر ما قاله أبو عبادة البحترى فى الوزير الفتح بن خاقان يصف مقابلته له ويمدحه :

ولما حضرنا سدة الاذن أخرت رجال على الباب الذى أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله

إلى أن قال :

فسلمت فاعتاقت جنانى هيبة تنازعنى القول الذى أنا قائله

إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما لديه لأضحى حاتم وهو عاذله

فلما تأملت الطلاقة وانثنى إلى ببشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرىء جميل محياه سباط أنامله

صفت مثل ما تصفو المدام خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

صفار اللون

يتردد هذا فى ألسنة العامة . ويظن كثير أن هذا لا يجافى العربية ، فالصفار كالسواد والبياض وعلى وزنهما ، وهـذا يدخل على الوهم صحة استعمال الصفار . ولقد غر هـــذا الاستاذ اللغوى القدير عبد القادر المغربى ، فذكر فى كتابه « عثرات اللسان » الذى نشره فى هـذه الأيام كلمة « الصفار » فيما تخطىء العامة فى شكله وضبطه وأقر الصيغة ، وإنما الخطأ عنده فى فتح الصاد وهى فى العربية مضمومة . على أنه يرى أن هذا الخطأ فى الشكل إنما هو على حسب ما فى المعاجم ، وهو يرى أن لا بأس بتصويب ماينطق الناس بالفتح قياسا على السواد والبياض . وعندى أن الصيغة والزنة خطأ فى اللغة ، وإنما هى الصُّفرة ، وما رأينا أحد ذكر الصفار فى موضع الصفرة . وإنى أسوق كلامه فى كتابه ثم أعقب عليه : « صفار اللون صفرته . وصوابه ضم الصاد وهم يفتحونها ، ويقولون : صفار البيض ، ورجع فلان بصفار الوجه . أقول : لكنى لم أجد كلمة صُفار إلا فى اللسان . وهذه عبارته : والصفار صفرة تعلو اللون والبشرة ، وصاحبه مصفور ، وضبط الصفار بضمة فوق الصاد . وتبعه صاحب أقرب الموارد فقال : الصفار ـ بالضم ـ صفرة تعلو اللون والبشرة ، وانظر لماذا لم تكن صفار بفتح أولها كأخواتها : سواد وبياض وخضار » . وأقول : إن الوارد فى اللسان هو الصفار على أنه داء يصفر منه اللون والبشرة ، ولما كان داء جاء على صيغة الأدواء « فُعال » ، ولم يجىء على صيغة اللون ، وانظر قوله : « وصاحبه مصفور » أى مصاب بداء الصُّفار ، وما عهد فى وصف اللون مفعول ؛ وإنما الوصف من الاصفرار أصفر

كما هو معروف . والصفارداء فى البطن ويقول فيه صاحب القاموس ، إنه الماء الأصفر يجتمع فى البطن ، ويقول ابن القوطية فى أفعاله : « صُفِر صَفْرا . أصابه الصفار : داء فى البطن » فترى أن ليس حديث اللسان فى صَفار اللون كما فهم الأستاذ المغربى . وترى الأستاذ يثبت الخضار لونا للخضرة ، ولم أر هذا ، والخضار - كما فى القاموس - : اللبن يُمذق بالماء ويُخلط . فالخضار والصفار لا سند لهما فى العربية . وصفار البيض لا يقال ، وإنما هو صفرة البيض ، أو مُحّ البيض أو محته أو صفراؤه . ولا يقال : صفار الورق بالفتح ولا بالضم .

على حسن الخُلُق ، وَهْو محبوب

وفى كتاب « عثرات اللسان » أيضا تخطئة العامة فى تسكين هاء هو إذا دخل عليها واو العطف كما فى هذا المثال ، وهو يقول : « (وهو) ضمير هو بضم الهاء ، فإذا أدخلت عليه واو العطف قلت : وهو » أى بإبقاء الهاء مضمومة . لكنا نسمعهم يقولون : وهو ، بتسكين الهاء ، ألا يكون هذا خطأ من قولهم ! بلى ، ولكنه فى علم العروض جائز » يريد أنه جائز فى ضرورة الشعر لا فى النثر والاختيار . وتسكين هاء هو بعد واو العطف جائز فى الشعر والنثر ، وقرىء به فى القراءات المتواترة ، ولهذا حرصت على التنبيه عليه فى هذا الموطن خشية أن يشكر على بعض القراءات الصحيحة ، ويقول الرضى [1] فى شرحه للكافية : « وتسكين هاء هو وهى بعد الواو والفاء ولام الابتداء جائز » وفى تفسير [2] النيسابورى على هامش الطبرى : « وهو وبابه بسكون الهاء أبو جعفر ونافع غير ورش وعلى وأبو عمرو » . وفى تفسير الخطيب الشربينى عند قوله تعالى فى سورة البقرة : وهو بكل شىء عليم : « وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى : وهو بسكون الهاء ، والباقون بضمها » .

لم يسافر محمد بعد ، ما قدم علىّ بعد

يجرى على ألسنة الناس هذا الأسلوب . تقول : هل سافر فلان ؟ فيقول المسئول : لم يسافر بعد . والمفهوم من فحوى هذا الأسلوب نفى الحدث فى الماضى

---

(١) ص ١٠ ج ٢ (٢) ص ٢٠٦ ج ١ .

وتوقعه فى المستقبل ، فإذا قلت : لم يسافر بعد فكأنك قلت : لمّا يسافر . وقد وقع السؤال عما يضاف إليه بعد هنا ، فنى هـذا المثال لم يسافر بعد ماذا ؟ وقـد عىّ كثير بالجـواب فلم يهتدوا إلى الوجه فيه ، وفى الحق أن الأمر فيه غامض غير بـيّن . وقـد توقف بعض الباحثين فيه ولم يجزم بأنه عربى ، فـكان من الواجب تقديمه تجلية أمره من هـذه الجهة . فهل أثر عن العرب منه شيء ، أم هو أسلوب مولد جاء به الناس بعد عصر الاحتجاج . وقـد وقفت على هذا الأسلوب فى خبر رواه ابن هشام فى سيرته[1] وهو : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينا هو جالس فى الناس إذ أقبل رجل من العرب داخلا المسجد يريد عمر ابن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد » . وقال[2] قيس بن ذَريح :

وفى عروة العذرى إن مت أسوة ... وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند

وبى مثل ما ماتا به ، غير أننى ... إلى أجـل لم يأتنى وقته بعـد

وبعد اليقين بعربية هذا الأسلوب يتوجه البحث فى تخريجه . ويبدو لى أن الأصـل : لم يسافر بعد مداناة السفر وكَيْـده ، أى بعد أن كاد يسافر ، وبعدُ هنا فى معنى مع ، كما تقول : علىّ عالم ، وهو بعد هذا رَضىّ الخُـلُق . وهكذا يقدر المضاف إليه فى سائر الأمثلة على هذا النهج . فنى قول عمر : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعدُ أى بعد إظلال الإسلام له وغلبته ، ومقاربة إسلامه لقوة دلائل الإسلام وعظم سلطانه . وقول قيس : لم يأتنى وقته بعد أى بعد أن أشرفت عليه وكاد يدركنى من هول الحب وفرط العشق .

ويبدو لى وجه آخر وهو أن الأصل فى قولك : لم يسافر على بعد جملتان : لم يسافر ، سيسافر بعد أى بعد زمن الحـال إذ كان هذا يفيد نفى المـاضى وتوقع المستقبل كما أسلفت ، واختزل الكلام وميل به إلى الإيجاز ، فحذف فعل الإثبات ، وأصبح الباقى أسلوبا مفهوم الغرض بين المراد .

---

(١) ص ١٣٩ ج ١ على هامش الروض .

(٢) من أمالى القالى ص ٢١٩ ج ٢ طبعة دار الكتب .

وقد عرض العلماء لأسلوبين فيهما بعد لا يبدو فيهما ما فى أسلوبنا من إشكال وهو أن يقال لك : أسافرت ؟ فتقول : أسافر بعد أى بعد ما مضى ، وإذا قلت : لا أسافر بعد فالمعنى بعد ما نحن فيه . نص عليه أبو البقاء فى كلياته [1] ، وكأن ذلك لأن المضارع فى الأول للحال فهو بعد الماضى ، وفى الثانى للاستقبال فالبعدية فيه منسوبة للحال ، وذلك أن [2] لا تخلص المضارع للاستقبال كما يراه سيبويه ومن تبعه ، وإن خالف فى ذلك ابن مالك .

أعطيت لفلان كتابا - أعطيت الجائزة لفلان

يفشو هذا الاستعمال فى ألسنة الناس ، ولا يحس كثير منهم فيه حرجا . وهو بعد مخالف للعربية ؛ فإن فعل الإعطاء يتعدى إلى مفعولين بنفسه ، والشواهد على هذا من الكثرة بحيث تستغنى عن الإيراد والإطالة . على أنه قد جاء فى شعر لليلى الأخيلية تمدح فيه الحجاج قولها :

أحجاج لا تعط العصاة مناهم ولا الله يعطى للعصاة مناها

ويجعل النحويون اللام فى هذا البيت زائدة . ومثل ذلك زيادتها فى قوله تعالى فى سورة النحل : قل عسى أن يكون ردف لكم بعضُ الذى تستعجلون ؛ فردف فى معنى تبع يتعدى بنفسه إلى المفعول ، ولكن زيدت اللام لتأكيد وصول الفعل إلى المفعول ، كما زيدت الباء فى قوله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . ولا يرضى بعض العلماء القول بزيادة اللام فى الآية ويميل إلى تضمين ردف معنى دنا أو أزف أو قرب . وقد جعل من زيادة اللام فى المفعول قوله تعالى فى سورة الحج : وإذ بوأنا لإبرهيم مكان البيت ، فإنما هو : بوأنا إبرهيم مكان البيت أى أقمناه فى هذا المكان وجعلناه له مباءة ومرجعا . وقد ورد تعدية بوأ إلى مفعوليه بنفسه فى قوله تعالى : وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، وقوله تعالى : لنبوئنهم من الجنة غرفا . ويرى بعضهم فى آية الحج أن المفعول الأول محذوف أى بوأنا الناس مكان البيت واللام فى لإبرهيم للتعليل ، وهذا رأى بعيد .

---

(١) ص ٩٥ (٢) انظر شرح الرضى للكافية ص ٢٣١ ج ٢ .

وزيادة اللام ترد باطراد وقياس عند جميع النحويين إذا كان العامل فعلا مؤخرا ، أو كان وصفا ، وذلك كقوله تعالى : إن كنتم للرؤيا تعبرون ، وقوله : هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : فعال لما يريد ، وقوله مصدّقا لما معهم . ويرى ابن مالك تخصيص ذلك بالفعل المتعدى لواحد ، ولا يرضى ابن هشام هذا التخصيص . فأما إذا كان العامل فعلا مقدّما كما فى المثالين اللذين صدرت بهما البحث فجمهرة النحويين على منع الزيادة للام باطراد ، ويقصرون ذلك على السماع ، ومما يوردونه من ذلك قول ابن ميّادة فى عبدالواحد بن سليمان أمير المدينة :

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

قالوا : التقدير أجار مسلما ومعاهدا . ولكننا نرى بعد هذا البيت قوله :

ماليهما ودميهما من بعدما غشى الضعيف شعاع سيف المارد

ويبدو لى أن مفعول أجار هو « ماليهما ودميهما » فاللام فى « لمسلم » ليست بزائدة .

ويرى المبرّد أن لا بأس بزيادة اللام فى قولك : قرأ محمد للكتاب تريد قرأ الكتاب . وإنى أسوق هنا كلامه فى كامله [1] ، قال : « والذى يستعمل فى صلة الفعل اللام ؛ لأنها لام الإضافة . تقول : لزيد ضربتُ ولعمرو أكرمت ، والمعنى : عمرا أكرمتُ ؛ فإنما تقديره : إكرامى لعمرو ، وضربى لزيد ، فأجرى الفعل مجرى المصدر . وأحسن ما يكون ذلك إذا تقدّم المفعول ؛ لأن الفعل إنما يجىء وقد عملت اللام ؛ كما قال الله ـ جل وعز ـ : إن كنتم للرؤيا تعبرون . وإن أخر المفعول فعربىّ حسن ، والقرآن محيط بكل اللغات الفصيحة ؛ قال الله ـ جل وعز ـ وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين . والنحويون يقولون فى قوله ـ جل ثناؤه ـ قل عسى أن يكون ردف لكم : إنما هو ردفكم . وقال كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لى ليلى بكل سبيل

فانظر قوله : « وإن أخر المفعول فعربىٌّ حسن » فهو يجيز أن يقال :

---

(١) ص ٢٤٣ ج ٦ طبعة المرصفى

أعطيت لمحمد كتابا ، وهو يرى أن الفعل يذهب به مذهب الحدث والمصدر ، ولذلك ساغ مجيء اللام فى المفعول . وهذا التخريج لا يعنينا فى هذا الموطن ، وإنما يعنينا تصحيح الأسلوب .

نخرج لنا من هذا البحث أن قولنا : أعطيت لمحمد الكتاب يحظره جمهرة النحويين ولا يجيزونه ، والمبرد يجيزه فى سعة الكلام .

ولا بأس باتباع المبرد فى هذا ، فهو إمام فيه للمؤتسى أسوة ، وناهيك به من نحوى ثقة بصير .

ومع هذا فيحسن بالكتاب ترك زيادة اللام فى فعل الإعطاء فهو المنهج البيّن الذى لا لبس فيه ولا اختلاف .

ومما يذكر هنا أن المثال الثانى « أُعطيت الجائزة لفلان » فيه إنابة المفعول الثانى عن الفاعل ، وهو جائز لفهم المراد كما قال ابن مالك :

وباتفاق قد ينوب الثان من باب كسا فيما التباسه أمن

والله المسئول أن يوفق للسداد .

الوعد والمطل

قال سعيد بن مسلم : وعد أبى الشاعر بشارا أن يصله على قصيدة مدحه بها . فاستعجل بشار الجائزة ولم ينتظر غير يوم وكتب إليه :

ما زال ما منيتنى من همى الوعد غم فاسترح من غمى
إن لم ترد مدحى فراقب ذمى

فقال له أبى : هلا استنجزت الحاجة بغير الوعيد ، فإذ لم تفعل فتربص ثلاثا وثلاثا . فانى والله ما رضيت بالوعد حتى سمعت الأبرش الكلبى يقول لهشام : يا أمير المؤمنين لا تصنع إلى معروفا حتى تعدنى ، فإنه لم يأتنى منك سبب على غير وعد إلا هان على قدره وقل منى شكره .

مكارم الأخلاق

بين الفلسفة والأدب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الفصل الثالث :

والآن وقد عرضنا تلك الفضيلة « فضيلة العدالة » عرضا فلسفيا تاريخيا على قدر ما سمح لنا به الزمان والمكان ، نستعينه تعالى فى معالجة الناحية العملية لهذه الفضيلة ؛ لأن معالجة النواحى النظرية والتاريخية المحضة لا تؤتى من الثمرات كل ما يطمح إليه المصلح الأخلاقى .

وإن عناصر هذا البحث لتستدعى ، بديا ، إيضاح الأسباب والعوامل النفسية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، التى تنحرف بالأفراد والجماعات عن سنن العدل ، وتحملهم على مركب الجور والبغى ، وتلبسهم من رذيلة الظلم لبوسا ما كان أحراهم بأن يلبسوا بدلا منه لبوس العفة والعدالة ، لتظهر إنسانيتهم فى أبهى مجاليها وأسمى معانيها . كما أنها تستدعى ، بعد ذلك متابعة البحث عن أفضل طرق العلاج الأخلاقى ، وعن أنجع الأدوية والمطهرات النفسية التى يرجى منها برء النفوس الإنسانية من أدران تلك الرذيلة الخبيثة القاتلة .

ونعنى هنا بالأسباب والعوامل النفسية تلك الظواهر الفطرية ، التى يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الإنسان منذ سوى إنسانا ، ومن قبل أن تلجئه طبيعة البيئة أو عدوى المجتمع إلى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعنى بالأسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية التى يلجأ بسببها الكائن الإنسانى إلى

العـدوان دفاعا عن النفس ، مضطرا إلى ظلم سواه فى سبيل العيش أو قتل نفسه جوعا وحرمانا إذا كف عن ذلك العدوان . أما الأسباب والعوامل الاجتماعية فنعنى بها تلك النزوات التى تدفع الإنسان إلى العدوان ، متأثرا بروح الجماعة التى يعيش فيها ، ولأجل تحقيق مطامع لا تقتضيها ضرورة الحياة ، وإنما هى ضرب من الأشر والبطر والتجنى وحب الغلب والسيادة والظهور بمظاهر البطولة ، يقلد الصغير فيها الكبير ، ويتبع اللاحق فيها السابق .

وبالرجوع إلى مظاهر التطور الإنسانى فى التاريخ ؛ نجد أن النوع الأول وهو العوامل النفسية هو أقدم الأسباب والعوامل جميعا فى الطبيعة الإنسانية ؛ بل لقد ذهبت بعض الديانات ، واشتط معها بعض الفلاسفة المتشائمين ، إلى أن العدوان والبغى هـو الطبيعة الإنسانية كلها ؛ ولذا أوجبت البرهمية أن تكون نهاية هذا البدن المدنس أن يحرق بالنار بعـد الموت تطهيرا له ، إذ لا سبيل إلى تطهيره مادام ينبض فيه بالحياة عرق . ويقول بعض الفلاسفة المتشائمين :

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنا بنو الخسيسة أوباش أخساء

ويقول :

إذا بكر جنى فتوق عمرا فإن كليهما لأب وأم

أما الحكيم الشاعر المتنبى فيقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ولعل هـذه الحكمة ، على ما يتوثب فيها من ثورة نفسية ، لم تبعد عن الحقيقة كثيرا .

إن الظلم بلا مراء ، هو بعض شيم النفس الإنسانية . وكم فيها من عجائب وغرائب ! كم فيها من خير وكم فيها من شر ، وإنما الموجع فى حكمة المتنبى أنه يضع الظلم فى الكفة الراجحة ، لأن أية فضيلة تقابله لن تستطيع الرجحان إلا ومعها علة تتيح فى الطبيعة الإنسانية مغمزا . وعندى أنه مهما يكن فى تلك الفضائل التى تقابل الظلم من مغامز ، ومهما تكن عللها تعد خيرا إذا ما قورنت برذيلة الظلم نفسها على بشاعتها وقبحها .

وهذه العوامل النفسية التى تمد رذيلة الظلم فى الطبيعة الإنسانية تتنوع وتتشكل؛ فبعضها يرجع إلى الغرائز نفسها حين تتحرك فى الإنسان؛ كما تتحرك فى الذئب والفرد والنمر ثم لا تجد بأزائها من الحصانة العقلية والحكمة ما يرد على ميولها السافلة، ويكسر من شرتها ويلطف من حدتها. والنتيجة العملية لتلك الميول إما أن تكون على النفس أو على العرض أو على المال أو على السمعة التى يمتاز بها ذوو المواهب والفضائل، أو على مواهبهم نفسها.

ولسنا نبالغ إذا ماقلنا إن جميع الناس، خلا المعصومين منهم، عرضة لمقارفة هذه الرذيلة، خطأ نادراً فى الأخيار، وطبعاً وعادة فى الأشرار.

وبهذه الدوافع النفسية كانت أول مأساة من الظلم إذ أزهق فيها قابيل نفس أخيه هابيل؛ غيرة وحسداً دون ذنب أوجريرة تستأهل ذلك العدوان. «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ...» الآيات الكريمة من سورة المائدة.

وقد يكون من تلك العوامل النفسية حالات مرضية طاغية، يزيدها غرور المنصب والسلطة هوسا إلى هوس. ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير الامبراطور نيرون الحاكم الرومانى فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى: أنه أضرم النار فى مدينة روما ثم جلس على مرتفع يطل منه على المدينة منتشياً بمنظر اللهب، يدمر كل شىء تدميراً على حين كانت أنغام الموسيقى تصدح فى مجلسه لتزيده جنونا على جنون. وسواء أصحت الرواية فى هذا أم كانت مبالغة فى تهويل ظلم ذلك الطاغية، فإنها صورة من صور الطغيان جديرة بأن تضرب مثلا لذلك النوع المرضى الجنونى من الظلم. على أنها مع ما فيها من بشاعة ليست أمراً مستحيلا ولا مستبعداً. وقد أسلفنا فى مقال قبل هذا ما كان من أمر فرعون موسى إذ قال: «يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ...» وفى هذا ما يمكن أن يضرب مثلا للهوس وجنون القوة.

أما عن أسباب هذا المرض النفسى نفسها فأمر يجدر بنا أن نترك التعمق فى تحليله لأساطين علم النفس . ومع ذلك فإن الملاحظة التاريخية تشعرنا بأن منها ما هو خلل فى الفطرة نفسها ، كما مر مثاله فى نيرون وفرعون . ومنها ما هو من قبيل « مركب النقص » الذى تبدو أعراضه على كثيرين من الذين يمتون إلى بيئات وضيعة ثم يصلون من طريق الوصولية ، أو سواها ، إلى الرياسة والنفوذ . ولسنا نبالغ إذا قلنا : إن أكثر الصوالين بالظلم هم نبت هذه البيئات ، ولسنا نعنى هنا البيئات الفقيرة ، كما قد يظن ، فكم ينبت منها أحيانا من عظماء وفضلاء حقيقيين ؛ إنما نعنى تلك البيئات المنحلة المسرفة التى لاتعرف قانوناً للحياة يلتزم ، ولا دستورا للأدب يحتذى ، والتى تتردى دائما بعاياتها فى مهاوى الهون . إن نبات هاتيك الأسر لن يكون ، فى غالب الأحيان إلا حسكا وزقوما وعوسجا شائكا كذلك الذى يقول فيه الشاعر .

عذرنا النخل فى إبداء شوك يرد به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكا بلا ثمر نراه

والحق أن الشوك والشوكة سلاح مشروع فى سبيل الدفاع عن العدالة والصالح العام ، أما شوكة الظالمين وأشواكهم فليست أكثر من أذى للإنسانية ليس وراءه من ثمر .

وإذ قد بان لنا أن الظلم فى صورته النفسية ، يرجع فى الأكثر إلى سببين : هما الخلل فى الفطرة ، وسوء المنبت الذى يظهر أثره فى صورة « مركب النقص » يحسن بنا أن نشير الى أن « مركب النقص » قد يكون مرده أحيانا إلى عيب خلقى « بكسر الخاء » كأن يشعر الحاكم الظالم أنه منقوص الحظر من هذه الناحية ، لأنه ضئيل نحيل أو ذو عاهة منفرة ، أو بشع الصورة أو ما إلى ذلك من أسباب يساعدها جهله أن هذه العيوب الجسمانية غير جديرة بأن يؤبه لها فيصور له خياله السقيم أن لا مفر له من تعويض هذا النقص ، باظهار التجبر والعسف ، لينال الاحترام قسرا بعد أن فاته طواعية . ولو كان له من العلم ما يشعره ، أن فضيلة العدالة هى أسمى من كل جمال جسمانى فى هذه الدنيا ، لاختار لبوسها وتزين بها ، فكان من الموفقين .

وتدلنا التجارب على أن « الخلل فى الفطرة » داء عسير العلاج لأنه الحماقة التى تعى من يداويها . أما « مركب النقص » فلا علاج له إلا أن يتنبه الرؤساء إلى ملاحظة مرءوسيهم ، ويتتبعوا سلوكهم وسيرتهم فى الناس ، ويرشدوهم إلى ما هو الأقوم من السلوك مع أبناء مجتمعهم ، وأن يعلموهم بالقدوة فى أنفسهم محاسنة الناس ، واحترام إنسانيتهم وأن الناس ليسوا خدمهم ولا عبيدهم ، وإنما هم مواطنوهم وسبب نعمتهم ، وأنهم بدون أبناء مجتمعهم لن يكونوا شيئا مذكورا . ومن يرجع إلى تاريخ الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يتعلم من فضيلة العدالة ما يغنى عن دراسته أسفار كاملة . وحبذا العمل الطيب لو تنبه وعاظنا إلى هذا السبيل ، وشغلوا أنفسهم به ، ودلفوا إلى كل من ينحرف عن جادة العدالة من عمال الدولة ، وأخذوه بالنصائح الملطفة ومدح التواضع ، وشرح مزية العدل وفوائده للحاكم والمحكوم على السواء ، وقديما أيام العصور المظلمة كان الوعاظ يتحايلون لوعظ الظالمين بوضع حكايات تعنيهم ، على ألسنة الحيوان ، لتقرع أسماعهم فى لطف وتلج الى قلوبهم فى رفق . فهل يعز على وعاظ زماننا ، وهو عصر النور ، والحرية ، والصراحة أن يشنوا حربا سلمية حكيمة على هذه الرذيلة الشنعاء ؛ ليغسلوا من أوضارها قلوب مرضاها ؟

أما الأسباب والعوامل الطبيعية ، والاجتماعية لرذيلة الظلم ، فنوعان يتداخلان ويتشابكان لأن قسوة البيئة وإجدابها مؤثرات مادية تدفع بطبيعتها الإنسان إلى العدوان ، دفاعا عن الحياة ، كما شوهد ذلك فى الجاهلية العربية ، وشعوب الجرمان قديما ، والجزائر البريطانية قبل أن تغزو وتفتح وتستخدم أساطيلها فى السيطرة على الأقطار والأمم المختلفة .

بدأت تلك الأمم وأمثالها الحياة فى بيئات فقيرة ، تدفع أبناءها إلى العدوان؛ فقتلوا وسلبوا ونهبوا حتى تعودوا القتل والسلب والنهب ، ولكن بعض هاتيك الأمم تقدمت فى مدارج الحضارة والعمران خطوات ، بل مسافات شاسعة ، وأصبح مكانها مرموقا بالإعظام ، لما هى عليه من العلم والحضارة والنظام . بيد أن عوامل أخرى للظلم والعدوان ، قد نشأت بنشأة تطورها الاجتماعى وترقت معه كما ترقى . فأصبحت تلك الأمم تنظم ذلك العدوان على الأمم ، وتلبسه

اسماء مخترعة فتسميه « ترقية الأمم المتأخرة » ، « حرية الأقليات » أو « مواقع استراتيجية » . إلى غير ذلك مما عرفه العالم ، حتى أصبح نغمته ممجوجة وحديثا معادا ، وما هو فى الحقيقة إلا أن هذه الامم مع ترقيها تعودت مستوى اجتماعيا من الحياة يقتضيها السيطرة على كل موارد العالم لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ودعوى القوى كدعوى السباع من الظفر والناب برهانها

ولو ذهبنا نحصى تلك الدعاوى وتلك البراهين لدخلنا فى طريق لا ينتهى . وحسبنا هنا أن ندعو تلك الامم بدعوة الإنسانية لكى تثوب الى رشدها وتؤثر العدالة ، وتبذل جهدها فى مساعدة الأمم الأخرى حقا وصدقا ، وإلا فإنها ستظل عادية معديا عليها ، قاتلة مقتولة ، لا تنتهى من حرب إلا لتدخل أخرى ، ولا تظفر بنصر إلا وقد اشترته بأعلى من ثمنه أضعافا مضاعفة . وعسى أن تفيق الإنسانية من سكرتها ، وتحل العدل محل العدوان ، فإن فى ذلك أول دعامة من دعامات السلام والأمن والسعادة . وإن فى تعاليم الإسلام السمحاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء . كما أن من دواعى الفخر بحمده تعالى أن موقف أمتنا المصرية من هذا المعترك العالمى يعد بحق من مفاخر الإنسانية .

وفقنا الله إلى درك الغاية الإنسانية الكبرى فى ظل جلالة مولانا الملك العادل الفاروق الأول أعز الله نصره ، وخلد للعدل ملكه . هـــو حسبنا ونعم الوكيل .

من كلام على بن الحسين

قال على بن الإمام الحسين رضى الله عنهما : « المراء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقدة الوثيقة ، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة ، والمغالبة من أمتن أسباب القطيعة .

ومن دعائه رضى الله عنه :

اللهم ارزقنى خوف الوعيد ، وسرور رجاء الموعود ، حتى لا أرجو إلا ما رُجّيت ، ولا أخاف إلا خُوفت.

المؤمنون الصادقون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ بالأزهر

قال الله تعالى فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

فى هذه الآية الكريمة يصف رب المؤمنين عباده المؤمنين بأوصاف ثلاثة تحققت فيهم ، فأظهرتهم بقوة إيمانهم ، وصدق يقينهم ، وجمّلتهم بثمار تقواهم ، ونجح مسعاهم ، وقصرت عليهم أجد تكريم ، وأعز تأييد ، بأنهم وحدهم هم الصادقون عقيدة ، والصادقون استجابة ، والصادقون عملا .

وصفهم ربهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ، ووصفهم بأنهم لم يرتابوا ولم يجد الشك سبيلا إلى قلوبهم ، ووصفهم بأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

فالإيمان بالله تصديق بوحدانيته وقدرته ، ونفاذ إرادته ، واطمئنان لعدله وبالغ حكمته ، والإيمان بالرسول استجابة للأوامر والنواهى التى يبلغها عن الله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فإنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى « إن هو إلا وحى يوحى » .

فإذا تركز هذا الإيمان بالله ورسوله فى القلب ، وشع بنوره فى جوانب المؤمن ، قويت العقيدة ، وصدق اليقين ، واستبصرت النفس فى إشراق هذا الهدى معالم السكينة والاطمئنان ، فلا يخالجها شك ، ولا يساورها ارتياب .

وكيف يرتاب من اطمأن إلى حكمة مولاه فيما يقدره ، وإلى عدله فيما يقضيه ؟

وهو عز شأنه إنما يصرف الدنيا بما وسعه علمه وفاضت به رحمته ، وقام عليه نظام هذا الكون فى عوالمه ومعالمه .

فالشاكون من أحداث القدر شاكون فى عدل المقدر ، والساخطون من حكم القضاء جاهلون بحكمة المدبر ، ولا والله ليس لله فى تدبيره ولا تقديره إلا أن تكون معدلة يقيمها ، أو محمدة يزكيها ، وإلا أن يكون فضل يسبغه ليجزى به فضلا ، أو قهر يسلطه ليحطم به ظلماً ، أو ما وراء ذلك من اختبار بألوان مما يبتلى به المؤمنون فى شدة ، أو ضيق ، أو مرض ، أو نقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، لتمحيص المؤمنين وتربيتهم ، وإعدادهم لما يريده لهم مولاهم ، قال جل جلاله « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

والمؤمنون بعد هذا الابتلاء والتمحيص ظافرون بالمثوبة والأجر ، ظافرون بتقدير نعمة الله ، ظافرون بقيامهم بجميل الشكر ، لأن من قدر النعمة قام بواجب الشكر ، ظافرون قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله بأن جعلوا من إيمانهم وتصديقهم سياجا يحيط بأفئدتهم ، فلا ينفذ إليها تظنن ولا ارتياب ، فهم راضون ، مطمئنون شاكرون .

ثم يأتى بعد ذلك وصف الله لهؤلاء المؤمنين ببذل للنفس والمال فى سبيل الله ، وتنطق الآية الكريمة فى التعبير عن هذا البذل بأنه جهاد ، ولا عجب فإن أعز شىء يحافظ عليه المرء هو نفسه ، وأن أحب شىء ينافس من أجله فى الحياة هو ماله . فبذلها فى سبيل الله ، والجود بهما فى طاعة الله جهاد ، وأى جهاد .

وجاء هذا الوصف بالبذل كنتيجة لقوة الإيمان بالله ورسوله ، واطراح الريبة والتشكك وراء النفس المؤمنة المطمئنة . المحبة لله ورسوله .

وإذن : فالنفس والمال بعد هذا اليقين ، وبعد هذا الحب ، لا يعدلان فى شىء ما انطوى عليه قلب المؤمن من حب الله ورسوله ، فليبق فى القلب حب

الله ورسوله ، ولبهن فى سبيله ما عز من نفس أو مال ، وفى ذلك وأيم الحق متعة القلب ، يتذوق فيها حلاوة الإيمان وجمال الأذعان .

ويقول فى ذلك سيد هذه الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ولقد تضمن وصف الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ألوانا من العبادات والطاعات فى العمل بها والاستجابة لها ، عزة الدنيا وسعادة الآخرة ، فغزو العدو المحارب ليسلم الدين والوطن جهاد فى سبيل الله .

وكبح جماح الهوى الآثم جهاد فى سبيل الله ، والارتفاع بالنفس عن مظان التهمة جهاد فى سبيل الله ، وتحمل المشاق فى أداء العبادة جهاد فى سبيل الله ، وبذل المال فى الزكاة المفروضة أو الصدقة المبرورة جهاد فى سبيل الله .

وكل عمل إيجابى ، أو سلبى ، يعتز به الدين ، وتسمو به النفس ، ويسعد به الوطن ، وتتوثق به روابط الأهل والعشيرة جهاد فى سبيل الله .

فيأيها المجاهدون بالنفس والمال هنيئاً لكم ما قدمتم وما أخرتم ، وهنيئا لكم ما أسررتم وما أعلنتم ، وهنيئا لكم فى الذروة الرفيعة من الشأن والتكريم ، وصف الله لكم بأنكم صادقون .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

ولله در أبى العتاهية إذ يقول :

تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال أن أنت متا
شقيت به ثم خلفته ... لغيرك بعدا وسحقاً ومقتا
فجادوا عليك بزور البكاء ... وجدت عليهم بما قد ملكتا
وأرهنتهم كل ما فى يديك ... وخلوك رهنا بما قد كسبتا

منهج الإسلام في تربية الأولاد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير المكتبة الأزهرية

أشهى ثمرات الحياة الى الإنسان الأولاد، يعرف ذلك من ذاق حلاواتهم ومن ابتلى منهم بالحرمان. وبشدة مرارة الحرمان يعرف قدر نعمة الله بهم على الإنسان، وعلى الاولاد عمارة الأرض وهى مقصود خالق الله للأكوان. قال تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «الولد ثمرة القلب» ولما بشر علىّ بفاطمة قال: «ريحانة أشمها ورزقها على الله» وحب الولد من طبيعة الإنسان لهذا تمنى الولد جميع الناس حتى الانبياء، وقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يهبه الذرية فقال: «رب هب لى من الصالحين؛ فبشرناه بغلام حليم» وتضرع زكريا عليه السلام فقال: «هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا».

ولقد صور كثير من الأدباء والشعراء أحاسيسهم بحب الأولاد، وهذه الصور على تنوعها وتلونها تصدر عن عاطفة واحدة وطبيعة واحدة، هى طبيعة الحب الخالص والود الصادق. قال الأحنف لمعاوية: وقد غضب على ابنه يزيد فهجره: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وبهم نصول عند كل جليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن سألوك فأعطهم، وإن لم يسألوك فابتدئهم يمنحوك ودهم، ويحبوك دهرهم، ولا تنظر إليهم شزرا، ولا تكن عليهم ثقيلا؛ فيتمنوا وفاتك ويكرهوا قربك، ويملوا حياتك. وقال أبو تمام:

وإنما أولادنا بيننا   أكبادنا تمشى على الأرض

لوهبت الريح على بعضهم   لامتنعت عينى عن الغمض

والولد ليس ملكا لوالديه فقط ، بل هو ملك للأمة ، ويسعد والداه ، وتسعد الأمة بمقدار توفيقهم فى حسن تربيته ، وإعداده لرسالته فى الحياة إعداداً جسمياً وخلقياً ، وعقلياً ، وتربية الولد واجب مشترك ، بين الوالدين وبين الدولة ، فى المنزل والمدرسة ، إلا أن الواجب الأول ، والعبء الأوفى ، يقع على كاهل الوالدين ، وعلى الوالدة بخاصة فى حال الطفولة والصغر ، لأن تأثر الولد بوالدته فى هذه الحالة يكون قوياً .

وقد قدر الإسلام خطورة هذا التأثر ، فمنع أن يتزوج المسلم المشركة ، خوفاً أن يفتتن الأولاد فى دينهم باتباعها ، وكذلك قدر علماء النفس والاجتماع فقالوا :

« إنه على ما يتلقاه الطفل فى المنزل من الوالدين ، يتوقف إلى حد كبير ، تكوينه وإعداده للحياة » . وقال الإمام الغزالى : « والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، وقابل الى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير علمه وعلمه ، ونشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر ، وأهمل إهمال البهائم ، شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه ، الوالى له ، وقد قال الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا » .

وقد أرشد الإسلام إلى قواعد عامة لتربية الطفل جسميا وعلميا وخلقيا ؛ فأرشد إلى ما يقوى جسمه ، ويشد عوده ، بممارسة أنواع من الرياضة كالمسابقة والمصارعة ، والرماية ، والسباحة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم القدوة العملية فى ذلك فعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : مر النبى عليه السلام على نفر من أسلمة ينتضلون فقال : ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بنى فلان قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ قال النبى : ارموا فأنا معكم كلكم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : بينا الحبشة يلعبون عند النبي صلى الله عليه وسلم بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها فقال : « دعهم ياعمر » وصارع النبي صلى الله عليه وسلم ركانة فصرعه .

وعن عمر رضى الله عنه : علموا أولادكم السباحة ومروهم يثبوا على الخيل وثبا .

ودعا الإسلام إلى تعليم الأولاد فى تأكيد فقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ولم يقصرهم على لون منه دون لون الا أنه يرى أن أولى العلوم بالتعليم هو العلم الدينى ، لأنه الوسيلة الى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وبتعاليم الدين تستقر النفوس وتطمئن القلوب ، وتسعى فى شئونها راضية لا يبطرها نجاح ولا يزلها فشل ، لأنها تكل مصائر الأمور الى الله ، وجعل التعليم من حق الولد على والده وعن النبي صلى الله عليه وسلم : حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأن يحسن موضعه ، أى يختار والدته من أصل طيب وأن يحسن أدبه ، وفرض الإسلام العلم على كل مسلم ومسلمة ، ولم يقصرهما على لون منه دون لون فلكل منهما أن يأخذ منه ما يلائمه ويعينه على رسالته ووظيفته ، فللمرأة أن تأخذ منه ما يعدها أن تكون زوجا صالحة تسر زوجها ، وتحسن القيام على شئون منزلها ، وأما صالحة تحسن تربية أطفالها ، وتوجهها الى حياة فاضلة سعيدة ، وللرجل أن يأخذ منه ما يعده للرسالة التى يختارها لنفسه ، ويعينه على تحصيل رزقه .

وأرشد الإسلام إلى قواعد عامة فى الفضائل وآداب الاجتماع هى أسمى ما تصل اليه الآداب فى أرقى المجتمعات ، تتمثل فى آيات القرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعمل أصحابه ، ودعا الآباء الى أن يأخذوا أبناءهم بها لينشئوهم جيلا صالحاً يتحلى بالآداب والفضائل ؛ لتسعد بهم الأسرة وتسعد بهم الأمة ، وتكون كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس قال تعالى :

« ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يابنى إنها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله ،

إن الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، وإذا أبلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

فى هذه الآية يرشد الله الآباء إلى أن يعودوا أطفالهم الاستئذان للدخول عليهم فى أوقات ثلاث هى مظان الراحة ، وعدم التقيد بلياقة فى لبس أو جلوس ، ومظان أن ترفع الكلفة فيها بين الرجل وأهله ، حتى لا يطلع الطفل على مالا ينبغى أن يطلع عليه فى هذه الأوقات وهى : قبل صلاة الفجر ، وعند الراحة فى الظهر ، ، ومن بعد صلاة العشاء ، وعن عمر بن سلمة أنه كان غلاما صغيرا فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يده تطيش فى الصفحة إذا أكل - أى تتحرك فى الطبق دون انتظام - فقال رسول الله : يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك . إلى آداب كثيرة استفاضت بها السنة وثبتت بالنقل الصحيح عن الصحابة .

وأرشد الإسلام الى التلطف بالأبناء فى التربية والتوجيه ، حتى لا ينفروا منها ولا يتبرموا بها ولتنغرس فى نفوسهم فى فيض من العطف الأبوى الخالص : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان اذا رأى فاطمة رضى الله عنها مقبلة قام لها عن مجلسه وأخذ يدها فقبلها . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم ، وقد جاءه أعرابى فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ؟ فقال له : « أوَ أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة » . ؟

وعن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضى الله عنهما قالت . « أتيت رسول مع أبى ، وعلى قميص أخضر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . سنه سنه وهى

بالحبشية . حسنة قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزجرني أبي . فقال رسول : دعها ثم قال : أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي .

وندب الإسلام الى وجوب العدل بين الأولاد فى العطاء ، حتى ينشأوا متحابين متعاونين ، وأنكر أنه يميز بين البنين والبنات ، حتى لا يحملهم التمايز على عقوق الآباء وجفوتهم ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أن ساووا بين أولادكم فى العطية فلو كنت مفضلا أحداً لفضلت النساء ، وعنه أن الله تعالى يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القبل .

وينبغى أن يأكل الوالد مع أولاده تأنيسا لهم وقياما على توجيههم ورعايتهم وعن سفيان رضى الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة .

بهذه التعاليم يدعو الإسلام الآباء أن يأخذوا أبناءهم ، ليسعدوا وتسعد بهم الأمة وهذه السعادة غاية ما يهدف إليه الإسلام .

أجر تسليمة

أرسل دِعْبل من شعراء القرن الثالث لطاهر بن الحسين هذه الأبيات .

أباذا اليمينين والدعوتين ومن عنده العرف والنائل

أترضى لمثلى فتى أن يقيم ببابك مطرح خامل

رضيت من الود والعائدات من كل ما أمل الآمل

بتسليمة بين خمس وست إذا ضمك المجلس الحافل ؟

وما كنت أرضى بذا من سواك أبرضى رجل عاقل

وإن ناب شغل فنى دون ما تدبره شغل شاغل

عليك السلام فإنى امرؤ إذا ضاق بى بلد راحل

ولا ندرى بعد ذلك أسمح له بهذه التسليمة أم لا ؟

أم المؤمنين عائشة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لعل من الطريف الذى لا يُمَلُّ ذكره ، والرائع الذى لا يعتريه السَّخَف ، مهما تناولته الإعادة ، وأصابه التكرار ، الحديث عن بيت النبوة الميمون ، وأهله الكرام البررة . وإذا كان الكلام فيما يتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، شفاء للقلوب من الصدأ ، وجلاء للقرائح من الجهالة ، وذهاباً لما فى الصدور من ضيق وحرج ... فإن ذكرى من وصلتهم به الأسباب ، وربطتهم وإياه الوشائج ، ترطب الألسنة ، وتنير البصائر ، وتعمر القلوب ، وتذهب وساوس الشياطين .

وأول ما يخطر من هؤلاء فى النفس ، وتتحرك له أوتار الحس ، تلك التى أعطاها من قلبه من الفراغ ، ومن فكره من العناية ، ومن هواجسه من النزوع ، ومن وجدانه من الحب ، ما جعله يخشى أن يجور ، وهو الذى يدعو إلى الصراط المستقيم ، أو يظلم وهو الذى يحارب الظلم والطغيان : « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك وتملك » .

والأخبار الواردة فى حبه لعائشة رضى الله عنها من الاستفاضة والشهرة بحيث لا يختلف فيها أحد ، وما كان من الحرج على فضل الله أن تنساب عاطفة رجل لزوجته إلى هذا الحد ، أو تتمكن منزلتها من نفسه إلى درجة أن تشغل من حديثه عنها ، وحنينه إليها هذا المقدار الملحوظ ، فلا يسعها إلا أن تستطيل على ضرائرها ، وتثير فى قلوبهن الغيرة منها ، والحقد عليها ، والقلق والاضطراب الذى كان منه ما كان من تنغيص زُلزلت له أقدام النبى صلى الله عليه وسلم ، وخارت عزيمته ، وضعف احتماله ، وهم أن يطلق وهو الذى يُعلم الناس أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله سبحانه .

وهى مع ذلك أمثلة واضحة لناحية خفية من نواحى الإعجاز فى تلك الشخصية النادرة : إذ استطاعت مع قيام المتاعب ، ووجود المصاعب ، أن تواجه صنوفا من الآلام ، وألواناً من الأذى ، ثم لم يكن شىء من ذلك كله صارفاً عن الرسالة ، أو لاوياً عنانه عن السنن السوى ، وليعلم من لم يكن يعلم أن المرأة التى دل التاريخ وبرهنت الحوادث ، على أنها الثغرة التى يجوز منها الضعف ، ويتطرق الوهن ، ويتهدم بناء الأبطال والعظماء ، لم يطمئن بها خاطره — هدانا الله بهديه — إلا بمقدار لا يساعده على الاستقرار ، أو يعينه على الراحة ، أو يثلج صدره بالهدوء ، والصورة الاستعراضية التى تمر بذهن المتأمل لحياته الزوجية كلها سلسلة متلاحقة الحلقات ، مترابطة الأوصال ، من هذا الطراز وتلك الشاكلة ، وكأنها كانت تربية إلهية أراد له ربه بها أن ينصهر انصهار الجوهر الكريم ، ليصمد للخطوب حين تمتحنه ، وللحوادث إذا أرادت أن تكيد له .

وهكذا كانت حياة الأنبياء والمرسلين ، على أن الذى يلفت النظر فى حياة « أم المؤمنين عائشة » أنها مع ما وهبها الله من نضارة وغضارة ، وجمال وروعة ، وسحر وبهاء ، كانت تبادله صلى الله عليه وسلم حبا بحب ، وإخلاصا بإخلاص ؛ بل كانت تذهب إلى أكثر من ذلك فترى أن ارتباطها به ، واجتماعها معه ، عناية من الله صادفتها ، ورضى أصابها ، ورحمة شاملة أضفى عليها رداءها ، فهى من ذلك كله فى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، ولما نزل قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » ، كانت هى أول من خطر بباله ، خيرّها فقالت : أختار الله ورسوله . وفى الحديث : « إن فضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر أنواع الطعام » .

ولعله صلى الله عليه وسلم لم يعترف بهذا الفضل استجابة لعاطفة ، أو نزولا على إرادة الحب الذى كان يحس به ، ولكنه كان بعد تلك الشهادة من رب الأرباب بطهارتها التى لا يتطرق إليها الشك : « لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

وقد امتازت رضى الله عنها على زوجاته كلهن بالفقه فى الدين ، حتى كأنها كانت تتلقى من الوحى . أو تزاحم النبى على جبريل ، وكان فى الصحابة مكثرون عرفوا بأنهم توفروا على الرواية ، وانقطعوا للتلقى ، كانت هى أكثرهم ضبطا ، وأبعدهم عن مواطن الظن والاشتباه ، ولذلك كان من الأئمة من يقدمها على فحول المحدثين من الحفاظ والرواة .

وليست مبالغتها فى الحدب على رسول الله والحب له ، راجعة إلى ما كان بين أبيها وبينه من مودة عريقة ووفاء صميم ، فإن عمر كذلك كان فى هذا الحب لا يقل عن أبى بكر ، وله من المواقف والمشاهد ما حلى جيد الزمن ، واسترعى عين الدهر ، وكانت ابنته حفصة تساهم مع غيرها من الزوجات فى الكيد ، حتى لقد ذهب أبوها إلى بيتها يعنفها على ما اقترفت ، ويلومها أشد اللوم جزاء ما أثمت .

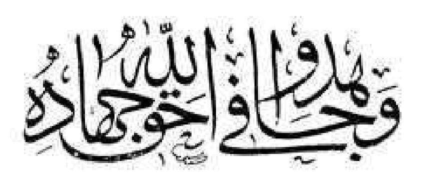
على أن عائشة مع كل هذا لم تكن — وحدها — صاحبة الحسن الرائع ، فقد كانت زينب بنت جحش لا تقل عنها وسامة وحسنا . وجمالا وروعة . وكان غيرها يزاحمها فى هذا الوصف ، ويشاركها فى تلك الميزة ، فتحتم علينا بعد أن نفهم أنها رضى الله عنها لم تبادل بالحب حبا ، والوفاء بالوفاء ، إلا حين وجدت من صاحب الخلق العظيم ما حملها على أن ترد الجميل بمثله ، والمعروف بما يضاهيه ، وكذلك صنع الله سبحانه على عينه هذه الصورة للحياة الزوجية الصحيحة بين زوج طاهر ، وزوجة كريمة ، ليقول لخلقه من أبناء آدم ، وبنات حواء : « وتلك الأمثال نضربها للناس » .

عذر جميل

استبطأ الشاعر المشهور أبو تمام الطائى ممدوحه عبد الله بن مالك الخزاعى فكتب إليه أبياتا يستعجله بها ، فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا   قلا ولو أخرته لم يقلل
فخذ القليل وكن كمن لم يسألِ   ونكون نحن كأننا لم نفعل

نقول هذا من أبدع الاعتذرات وهو يدل كرم وسمو نفس ، وأبو تمام جدير بأن يعتذر إليه بمثل هذا لعلو كعبه فى الشعر ، وبعد أثره فيه .



لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أحمد جميلة

المدرس بكلية اللغة العربية

والجهاد مدافعة ومغالبة ، وانتصار للحق ، وتنكب عن الضلال والبهتان ، وبعد عن الضعف والخور ، ومجافاة للجبن والذلة ، وهو فى الذروة من صرح الإسلام ، وفى السويداء من قلب الإيمان ، وفى القمة من أعمال الأركان ، والمجاهدون أعلى منازل فى الجنة ، وأسمى منازل فى الدنيا ، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة ، لا ينال درجاتهم إلا من سعى سعيهم ، وسلك سبيلهم ، فجاهدوا فى الله حق جهاده بالقلب واللسان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان .

والمجاهدون أرفع الناس ذكراً ، وأعظمهم قدراً ، فهم قوم قد شمروا عن ساعد جدهم ، وأمسكوا بأعنة أفراسهم ، مستجيبين للدعوة مصدقين للوعد ، مؤثرين للجنة على ما سواها من نفس ومال ، فتوجهوا للجهاد ، وحبسوا أنفسهم عليه غير مبالين بما يصيبهم من نصب ، وما يحل بهم من عوج ، حتى يتم النصر ، وتحقق لهم الحسنى .

وهل الإنسان فى الدنيا إلا فى منازعات دائمة ، وحروب قائمة ، تكتنفه من كل مكان وتحيط به من كل جانب ، وتدخل إليه من كل باب لاتغيب إلا لتظهر ، ولا تحتجب إلا لتسفر ، ولا تدبر إلا لتقبل .

فالحياة جهاد متصل الحلقات ، مختلف الألوان ، متعدد الصور ، ترى فى ميدانه نفسك التى بين جنبيك تنازعك وتخالفك ، أو شيطانك الملح فى خصومتك يرجف بك ويسول لك ، أو جاحديك ومنكريك ، يردون دعوتك ، ويكفرون حقك ، ويريدونك على الباطل ، ويحبونك نوالا يرفهون به وينعمون .

وهل هناك خلاص من الجهاد ، وفى الأرض حق وباطل ، وظلم وعدل ، وفضيلة ورذيلة ، وإيمان وكفر ، وتوحيد وشرك ، واستقلال واحتلال .

وليس فى استطاعة الإنسان أن يتخلص من ظلم البعداء ، إلا إذا تخلص من ظلم ذوى القرابة والاتصال ، فنفسك الأمارة بالسوء ، التى تسكن بين جوانحك ، وتشملها ذاتك ، تحتاج لمباراة ومنازلة ، ومصارعة ومقاتلة ، حتى تطمئن وترجع إلى الحق راضية مرضية .

وقتال النفوس عنيف ، لأن النفوس عنيفة بما تزودت به من عُدَد دونها الذريات فى بطشها وفتكها ، وما الرغبة فى استيفاء الحظوظ . وتعلق الإنسان باللذات والشهوات ، إلا مخالب تنتزع النفوس من سلامة الفطر إلى عتامة الغير .

والمجاهد من جاهد نفسه ، لحملها على امتثال الأمر ، واجتناب النهى ، حتى يسلس قيادها ويؤمن عدوانها ، فيتفرغ منها إلى أعدائه العديدين وخصومه الملحين .

وكيف يتمكن من خارج عنه وبداخله عدو شديد المراس ، قوى الحيلة ، قاهر متسلط ، فلا بد من التخلص منه بإخضاع النفس لأحكام الله ، وتخويفها عذابه ، والتعرض لسخطه ، وتحبيبها فيما عنده ، وترغيبها فيما أعده للمتقين .

وهل قولة الحق عند أصحاب السطوة ، وكلمة الإنصاف أمام أهل البغى والعدوان ، إلا من أكمل طرق الجهاد وأشدها ، فهو مفوتة للحظوظ العاجلة ، ومعرضة أصحابها لظلم ذوى السلطان ، وبأس ذوى الجبروت .

وإذا ما استقامت النفس بعد المجالدة ، وأخلصت الدين لله ، فاستمعت الآذان للدعوة ، وتفتحت القلوب للاستجابة ، وتهيأ للرسل أن تنادى وأن تسمع ، وأن تصدع بما تؤمر — أمكنها أن تدفع أعداء عكروا صفو الحياة ، ودنسوا صفاء الوجود ، وأفسدوا فى الأرض ، وتطاولوا على من رفع السماء فأشركوا به ، وكفروا بنعمته ، وجعلوا له أنداداً ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وجهاد الكفار صريح سافر ، لا لبس فيه ولا تضليل ، فهو خفيف المؤنة ، سهل المعالجة . أما جهاد المنافق فهو أشق وأعقد ، إذ المنافق يخفى شخصه وراء التواءاته ، ويستر أمره بما يرى أنه من الجميع ، وما هو من الجميع ، إن هو إلا مخادع كذاب ، لا يلبث أن يفضح أمره ، ويهتك ستره ، وينكشف سره بما يبذله خواص الأمة فى ميسه ، وإظهار زيفه .

أما الشيطان فهو عدو ممن فى عداوته ، كره الناس للناس وأحبهم لنفسه أعوانا وخلاَّنا . وما له بسحابة لا تمطره ، ورحمة لا تشمله ، وجنة لا تقبله ، فهو لا يزال بالإنسان يدور حول حلقته ، ويطوف حول محيطه يأتيه من بين يديه ومن خلفه ومن عن يمينه ، ومن عن شماله ، يثبطه عن جهاد نفسه ، وجهاد أعدائه فى الله ، ويرجف به ولا يزال يخيل له ما فى جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ ، وفوت اللذات والمشتهيات ، حتى يترك نفسه من غير زمام ، ويكون نهبة لأعداء الله فى الأرض ، وطعمة لعذاب الله فى الآخرة .

فالشيطان يجب أن يحارب بخيل تصد خيله ، وعدد يرد عدده ، فهو عدو أمرنا بعداوته ، وناصح أمرنا باتهامه ومخالفته ، وليس هناك ما يرد كيده ويحبط عمله إلا التمسك بأوامر الحق والتعلق بأهداب الدين .

والجهاد فى الله حق جهاده ، كتقوى الله حق تقاته ، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، فحق جهاده أن يجاهد نفسه فيذعن قلبه ، ويصدق لسانه وجوارحه ، فيكون كله لله وبالله ، لا لنفسه ولا بنفسه .

ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ، ومعصيته أمره ، ومخالفة نصحه ، فإنه يعِدُ الفقر ويأمر بالفحشاء ، ويمنى بالكذب ، وينهى عن التقى ، والهدى والصبر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان ، ومتى تم للمرء ذلك أمكنه أن يجاهد أعداء الله بقلبه ولسانه ، ويده وماله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

وحق الجهاد هو استفراغ الطاقة فيه ، وألا يخاف فى الله لومة لائم ، فيعبد الله حق عبادته ، ويجاهد نفسه وهواه ، واعداءه فى الله على قدر ما تحمل طبيعته ، ولا يحصل به جرح فى الدين .

وجهاد النفس يحتاج إلى علم بالهدى وعمل بالعلم ، ودعوة إلى المعرفة ، وصبر على مشاق التحمل ، والتعرض حتى يصير العبد ربَّانيا .

وجهاد الهوى يكون بجحود إمرته ، ومخالفة دعوته ، وإنكار ألوهيته ، وجهاد الشيطان يكون بدفع شكوكه وشبهه ، ورد ما يلقى من إرادات وشهوات حتى يوجد الصبر واليقين ، وهما الدعامة فى إمامة الدين .

وجهاد الكفار بالنفس والمال والعدد والعُدد ، والقوة والإقدام والإخلاص والصبر ، حتى يكون النصر ، أو يقع أجر الله .

وجهاد المنافقين بالكشف والبيان ، والبلاء والتمييز ، فلا تقبل تعلاتهم ، ولا تسمع اعتذاراتهم .

وجهاد المبتدعين ، وأرباب المنكرات ، باليد واللسان ، فإن عجزا فالقلب والجنان ، وهو أضعف الإيمان .

والجهاد من شيم النفوس الحرة ، والقلوب المؤمنة التى تريد أن تعيش فى ظل الفضيلة والحق فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة ، ولا يمكن لأية أمة ذات رأى فى الإصلاح ، أو غرض فى النفع والإفادة ، أن تتوانى لحظة عن الجهاد وإلا كانت هدفا للأطماع وعرضة للضياع .

فالجهاد هو الحراسة القوية للمبادىء الصحيحة ، والعقائد السليمة ، رغبنا الله فيه بشتى الأساليب ، ودعانا إليه بمختلف الطرق والوسائل ، حتى يصان دستور العدل والفضيلة والأخلاق ، ويبقى للأمة طابعها وتقاليدها ، وعقيدتها ودينها ، وقد أجزل الله عطاء المجاهدين جزاء وفاقا ، لما بذلوه من نفس ونفيس مختارين طائعين ، فأبدلهم الله من الموت حياة ينعمون فيها بما يرزقون ، ويفرحون بها ويستبشرون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الأدب والأديب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

يدفعني دفعاً قوياً إلى الكتابة في موضوع « الأدب والأديب » وإطالة الوقوف عنده ما أراه شائعاً في البيئات الأدبية من تناقض واضطراب ، ومن تيه وضلال وبما يسيطر على نفوس الشداة والمتعشقين للأدب من خطل الرأى ، وفساد المذهب ، وظلام السبيل وعقم الدراسة .

فالذين يحبون الأدب أعمق الحب ، ويكلفون بصوره ومذاهبه أشد الكلف ، ويحاولون أن يأخذوا أنفسهم بدراسته وتعمقه ـ هؤلاء يعيشون في حياتهم الأدبية ، وفي أفكارهم وآرائهم تحت رحمة القدر ـ لا يجدون لهم قدوة يسيرون على هداه ، ويأخذون أنفسهم بطريقته ، ولا يعثرون على موجه يرشدهم إلى الطريق اللاحب والنهج الواضح ؛ إذا ضلوا الصوى وأخطأوا السبيل .

قد يتاح لهم أن يدرسوا ، ويفهموا وينتجوا ويصيبوا ما يبغون من هدف ، وما يؤملون من مقصد ، وأن يبلغوا من الجاه والشهرة وذيوع الصيت مبلغاً كريماً ، وقد تقوم أمامهم الصعاب وترسخ العقبات ؛ فتثنى هممهم وتثبط عزائمهم ، وتصرفهم صرفا عنيفاً عما يتطلعون إليه من مجد أدبي وجاه ثقافي ؛ ذلك لأن أولئك وهؤلاء ليس لهم في حياتهم الأدبية ، ودراساتهم الفنية مناهج محدودة معلومة ، ولا مذاهب واضحة مرسومة ، ولا سبيل معبد يجنبهم العقبات ، ويقيهم مغبة السقوط والعثار .

ليس لهؤلاء كما قلت قدوة يحتذون حذوها ، ويسيرون على هديها ونهجها ، ولا يجدون في معترك الحياة ، وزحمة الأفكار بصيصاً من نور ، يضىء لهم الطريق وينير أمامهم السبيل ، ويفتح المغاليق .

فكل فارس فى حلبة الأدب ليس له من هم إلا أن يمضى فى سبيله منطويا على سره ، محتفظاً فى أعماقه بما رآه موصلا لغايته مسدداً لوجهته محققاً لأهدافه .

وأنا أتحدى أدباءنا الكبار ، وأساتذة هذا الفن الذين يشار إليهم بالبنان ؛ أن يكونوا قد طالعوا الناشئين بنصح ، أو وجهوهم إلى هدف ، أو أخذوا بأيديهم إلى غاية ، وتلك فيما أرى خيانة للأدب ، وخذلان للفكر ، واحتكار رخيص للفن يوشك أن يودى به ويرديه فى أعمق هوة .

ولقد أخذت على نفسى فى دراستى الأدبية أن أكشف ما يتراءى أمامى من نقص ، وما أبصره من عيب ، وأن أجلى للدارسين والمتأدبين ، ما أعتقد أنه نافع لدراستهم مسدد لوجهتهم ؛ حتى يتذوقوا جمال أدبنا ويستمرئوا حلاوته ، ويأخذوا صوره بالرغبة التى تحصن بناءه وتجلو رواءه ، وتجعله فى نفوسهم عذب المورد سائغ المذاق .

ولكن قبل كل شىء ما هو الأدب الذى يعنينا ، ومن هو الأديب الذى نعنيه ؟ .

لقد أخذ الناس من قديم يبدئون ويعيدون فى تحديد معنى الأدب ، وتوضيح مدلول هذا اللفظ ، ورسم شخصية الأديب ، وبيان السمات والخصائص التى تفرض على الناس الإيمان به ، وتحتم عليهم أن يخبتوا لبيانه ، ويتطامنوا لسلطانه ، ويعنوا لفنه . وأصبح من المألوف لدى دارس الأدب فى كل مدرسة ومعهد ، أن يفتتح دراسته بتعريف الأدب ، ودرس تاريخ هذه الكلمة ، وكيف تطورت فى استعمالات شتى إلى أن أصبحت ذات دلالة خاصة على ما يؤثر من بارع القول ، ورائع البيان وبليغ الكلام .

بيد أنا فى هذه الكلمة لسنا بسبيل الإلمام بتلك الأطوار ، والحديث عن هذه الألوان ، التى صارت أقرب شبها باصطلاحات العلماء ، وتعريفات المؤلفين ، إنما نريد أن نتحدث عن الأدب الذى يمس الحياة ، ويتصل بها أوثق اتصال ، ويلونها بما هى خليقة به من ألوان ، ويصور ما تحفل به من مظاهر الخير والشر والنعيم ، والبؤس والسعادة والشقاء . نريد أن نتحدث عن الأدب كما ينبغى أن يعرفه الناس ، ويفهمه الأدباء والمثقفون ؛ حتى تتضح روعته وتلتمع بهجته التى لا يكدرها تعقيد المناهج وآصار القوانين .

إن الأدب فوق أنه فن تتعشقه ونهواه ونحبه ، وتتشهاه وتؤثره الطبائع الشفافة ، وترتاح له النفوس الصافية — له غايات وأهداف يسير إليها ويعمل لها — أردنا أم لم نرد ، طاوعنا أم تأبينا — تلك هى تسجيل صور الحياة وإصلاح مظاهرها ، وتخفيف أعبائها والاحتيال على تهوين آلامها ، ورسم غلائل براقة خادعة تلبسها المحن ، وتتشح بها الأحداث الجامدة ، والمظاهر الشاقة العنيفة ، لينخدع بها الحس ، ويهون وقعها لدى النفس ، وتحتمل صدماتها الأفئدة . وذلك عمل الأديب الناضج الذى استوى فنه ، واستحصدت مواهبه يقول المرحوم الرافعى : « فى عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافا إليها الفن ، ويجىء التعبير مزيدا فيه الجمال ، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب ، وحرارتها وشعورها ورنها الموسيقى ، وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب ؛ لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذى هو السر فى ثورة الخالد من الإنسان على الفانى ، والذى هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معا ؛ وبذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة ، التى تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها — وذلك سر الأديب العبقرى ؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب[1] والاجتهاد ؛ كما يراه الناس وإنما يحس به فلا يقع له رأيه بالفكر بل يلهمه إلهاما . وليس يواتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمر فيه بمعانيها ، تعبره كما تعبر السفن النهر فيحس أثرها ؛ فيلهم ما يلهم ، ويحسبه الناس نافذا بفكره من خلال الكون على حين أن حقائق الكون هى النافذة من خلاله » .

إذن فالأدب هو فن الإبانة عما فى النفس من أحاسيس وانفعالات ، وما يجيش فى الفؤاد من صور الكون ومظاهر الحياة ، وما يمر على المرء من أحداث تهيج شجونه ، وتثير لوعته أو توقظ إعجابه وتبعث نشوته .

وحين أقول فن الإبانة أنما أقصد قصدا كلمة الفن بكل ما تحمله من معنى ؛ حتى تتقبل النفوس هذه الإبانة ، وتتفتح لها بكل ما فيها من حس وشعور وعاطفة ؛ إذ أن كل إنسان يستطيع أن يبين عن حاجته ، ويعرب عن رغبته .

---

(١) إطالة النظر وكد الذهن .

فالأخرس لا تعوزه الإشارات ، ولا تستعصى عليه الحركات ، والعيي الحصر يستطيع بعد أن يكد لسانه بالتمتمة ، ويجهد الآذان فى التسمع أن يصل إلى ما يريد، ولكنها إبانة لا تنفعل لها النفس ولا يتأثر بها الحس ، ولا يهش لها الفؤاد ، وأنها لأقرب شبها إلى إبانة الحيوان الأعجم عما يساوره من جوع ، أو ينتابه من عطاش .

ومثل ذلك إبانة بعض الأناسى عن معان تنطوى عليها نفوسهم ، وتحاول أن تصوغها ألسنتهم ؛ فإذا هى لا تطاوعها إلا الألفاظ الخشنة المتعثرة ، والأساليب العاجزة الملتوية التى لم تستطع أن تجمع شمل المعانى ، ولا أن تنظم شتات الأفكار فى سمط ،

أيمكن أن تؤثر هذه الأبانة فى نفس ، أو تثير إعجابا أو تستدر عاطفة ؟ كلا .

لقد يرى الإنسان طفلا ربما صاحبته خفة الروح ، ولطف الشكل ، وجاذبية القسمات ، وحلاوة السمات ، ولكنه يتشح بثياب قذرة غير مهذبة ولا مرتبة ؛ فتعافه نفسه ويجفوه لأول وهلة ذوقه ؛ فإذا ما أخذ سمتا جميلا لا تجفوه الأناقة ، ووضعا مهذبا لا ينبو به الذوق يلقاه المرء لقاء مرحا تهش له النفس ، ويرتاح الفؤاد ؛ كذلك شأن البيان كلما ألبسه المرء حلة من الجمال تضفى عليه حسن الرونق ، وخلابة البريق ، وكلما سوى من خلقه وأبدع فى نظمه ، وصقل من حواشيه ، وهذب من أطرافه ، كان أدعى إلى القبول وأحرى بالاستجابة ، وأخلق بأن تتفتح له منافذ النفس ، فتلقاه مؤتنسة به مبتهجة له أشد ابتهاج .

يقول الأستاذ أحمد أمين بك وهو يفرق بين العلم والأدب : « أكبر ظاهرة فى التفريق بين العلم والأدب أن الأدب يخاطب العاطفة ، والعلم يخاطب العقل ؛ فالكلام إذا لم يثر عاطفة لم يكن أدبا ، وإذا أمعن فى إثارة العاطفة كان أمعن فى الأدب » .

من هذا ترى أن صور الأدب البارعة . وأخيلته اللامعة ، وطرائفه الفريدة خليقة أن تضفى على النفس روحانية وصفواً ، جديرة أن تخلق فيها شتى الأحاسيس ، وتثير له بها ألوانا من الانفعالات ، وتجعلها تجيش بالمعانى وتحفل بالصور الحية البارعة .

أنس بن مالك

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يقول ابن خلكان : وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وهم :

(١) أنس بن مالك (٢) عبد الله بن أبى أوفى (٣) سهل بن سعد الساعدى (٤) أبو الطفيل عامر بن واثلة :

ولم يلق أحدا منهم ولا أخذ عنه ، وأصحابه يقولون : لقى جماعة من الصحابة وروى عنهم ولم يثبت عند أهل النقل ، وذكر الخطيب فى تاريخ بغداد أنه رأى أنس بن مالك رضى الله عنه ،

وأنس بن مالك من الصحابة اثنان : أنس بن مالك أبو أمية ، وأنس بن مالك أبو حمزة الأنصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تعين المصادر التى رجعنا إليها « أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير » ، « والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى » ، « والاستيعاب لابن عبد البر القرطبى » سنة وفاة أبى أمية حتى نعرف هل يمكن أن يكون قد أدركه أو لا ؟ .

وابن الجوزى فى كتابه « المدهش » يسمى من تأخر موته من الصحابة يقول : آخر من مات من أهل العقبة : جابر بن عبد الله بن عمر ، ومن أهل بدر : أبو اليسر ، ومن المهاجرين سعد بن أبى وقاص ، وهو آخر العشرة موتا ، وآخر من مات بمكة من الصحابة : ابن عمر ، وبالمدينة : سهل بن سعد بن معاذ ، وبالكوفة : عبد الله بن أبى أوفى ، وبالبصرة : أنس بن مالك ، وبمصر : عبد الله بن الحارث

ابن جزء ، وبالشام عبد الله بن يسر ، وبخراسان : بريده ؛ وآخر الناظرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا : أبو الطفيل عامر بن واثلة .

وإذا قلنا إنه توفى سنة تسعين — قيل إحدى وتسعين ، وقيل اثنتين وتسعين وقيل ثلاث وتسعين على ما رواه ابن الأثير فى أسد الغابة وعرفنا أن أبا حنيفة ولد سنة ثمانين من هجرة سيد المرسلين يكون قد أدركه وهو ابن عشر سنين .

وروى الزهرى عنه قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينه وأنا ابن عشر سنين وتوفى وأنا ابن عشرين سنه ، ويحدثنا أيضاً عن نفسه يقول : أخذت أمى أم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية الخزرجية بيدى ، فأتت بى رسول الله فقالت : يا رسول الله هذا ابنى وهو غـــلام كاتب . قال : فخدمته تسع سنين فما قال لى لشىء قط صنعته : أسأت أو بئس ما صنعت .

وأم سليم هذه روى عنها ابنها وروت عنه ، وكانت من عقلاء النساء . ومن اللائى لهن أثر يذكر فى تاريخ التشريع الإسلامى ، وفى الغزوات . فكانت تغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى التى جعلت الإسلام صداقا تمهر به الزوجة ، فلما توفى عنها مالك بن النضر والد أنس هذا تقدم إلى خطبتها أبو طلحة الأنصارى وكان مشركا فقالت له : أما إنى فيك لراغبة ، وما مثلك يرد ولكنك كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، فإن تسلم فلك مهرى ، ولا أسألك غيره ، فأسلم فقالت: يا أنس زوج طلحة فتزوجها .

وكان ابنها أنس غلاما مذأبا أى له ذوابه فأراد أن يجزها فنهته أمه وقالت : كان النبى يمدها ويأخذ بها. وداعبه النبى فقال له : ياذا الأذنين . وروى عن قتادة: يحدث عن أنس عن أمه أم سليم قالت : يا رسول أنس خادمك ادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة . ويقول هو عن نفسه : قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثه . فقد كان له بستان يحمل الفاكهة فى السنة مرتين ، وكان فيه ريحان يجىء منه ريح المسك، وقصر بالطف ، ومات وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولدا ؛ وقيل مائة . ويروى ابن الجوزى من العجائب أربعة أنفس رزق كل واحد منهم مائة ولد : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر الليثى ، وخليفة السعدى ، وجعفر بن سليمان الهاشمى ، وكان يحب التجمل فقد كان نقش خاتمه صورة أسد رابض ، وكان يشد أسنانه بالذهب ، ويلبس الخز ويتعمم به .

وكان من أبطال الرياضة البدنية ، حببت إليه لعبة الرمى،فكان فيها أحد الرماة المصيبين ، وكان يحببها إلى أولاد فتارة يرمون بين يديه ، وتارة ينزل معهم فى اللعب ، فيغلبهم بكثرة إصابته . ولعبة الرمى هذه من الألعاب التى كان النبى يشجعها ويشترك فيها ، فيروى البخارى أن رسول الله مر على نفر من بنى أسلم ينتضلون ـ أى يترامون بالقسى للسبق والنضال ـ فأقبل عليهم قائلا : أرموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، أرموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك الفريق الآخر عن الرمى فقال لهم مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم يارسول الله ؟ فقال أرموا أنا معكم كلكم .

وبهذه المناسبة أقول : إن رسول الله كان يحب الرياضة البدنية ، ويشجع عليها فيروى البخارى أيضا أنه كان يسابق بين الخيل بل بلغ من عنايته بهذا النوع من الرياضة أن وضع له نظاما ، فجعل له أمداً معلوماً . وأن تكون الخيل فيه متساوية الأحوال فأرسل الخيل المضمره ـ أى المجوعة ـ أرسلها من الحفياء إلى ثنيه الوداع على مسافة ستة أميال تقريباً ، وأرسل التى لم تضمر من ثنيه الوداع إلى مسجد بنى زريق وأمدها ميل أو نحوه .

وإذا كان يشتبه فى أنس بن مالك من الصحابة اثنان فيشتبه فى إسم أنس وحده كثيرون . ومثل هذه الاسماء المشتبهة إذا لم يصرح فى الحديث ببيانها لم يفرق بينها إلا الناقد الثبت ، وفى الفرق بينها فائدة عظيمة ، وهى أن بعض الرواة ثقة ومشبهه فى الإسم يكون ضعيفا فيطلب الفرق لذلك .

فمثلا رويت أحاديث عن أنس ولم يبين الراوى فى روايته من أنس هذا ؟ من ذلك حديث رواه ابن الجوزى مثلا فى كتابه — المدهش — قال : روى أبو قلابة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن الحامل والمرضع الصيام » ، ثم قال أنس هذا هو ابن مالك القشيرى — اختلف فى نسبة أنس بن مالك أبو أمية هل هو قشيرى أو كعبى —

وكنية أنس بن مالك خادم رسول الله أبو حمزة والنبى هو الذى كناه ببقله يجتنيها — الحمزة الأسد وبقله — وسمى على إسم عمه أنس بن النضر بن ضمضم وعمه هذا قتل يوم أحد شهيداً . يروى عن أنس قال : غاب عمى عن قتال بدر فقال : يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، ووالله لئن أشهدنى

الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ. فقال : أى سعد هذه الجنة ورب أنس أجد ريحها دون أحد . قال سعد بن معاذ : فما استطعت ما صنع فقاتل . قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم . ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفته أخته الرُّبيّع إلا ببنانه . وقال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية — رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه — نزلت فيه وفى أشباهه من المؤمنين .

وإذا كان أنس قد سمى بإسم عمه فأخته الربيع قد سميت أيضاً على إسم عمتها . وهذه العمة هى التى كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فذهب قومها إلى رسول الله يطلبون القصاص ، فأمر النبي به فقام أخوها أنس بن النضر فقال : لا . والله لا تكسر ثنيتها يا رسول الله ، فقال النبي : كتاب الله القصاص ، فرضى القوم وقبلوا الأرش . فقال النبي : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره .

وأنس بن مالك هذا لما استخلف أبو بكر رضى الله عنه بعث إليه ليوجهه إلى البحرين على السعاية ، فدخل عليه عمر فاستشاره فقال عمر : ابعثه فإنه لبيب كاتب ، فبعثه ، وسئل أنس . أشهدت بدراً مع رسول الله ؟ فقال للسائل : لا أم لك وأين غبت عن بدر ؟ ويقول العسقلانى فى الإصابة ولم يذكر فى البدريين لأنه لم يكن فى سن من يقاتل ، وكانت إقامته بعد النبي بالمدينة ثم شهد الفتوح ، ثم قطن البصرة ومات بها فى قصره بالطف وكان آخر الصحابة موتا بالبصرة ودفن على بعد فرسخين منها ، ويروى أنه كان عنده عصية لرسول الله فلما مات أمر أن تدفن معه فدفنت معه بين جنبيه وقميصه .

ذلك هو أنس بن مالك أبو حمزة الأنصارى ، خادم رسول الله صلوات الله عليه مد الله فى عمره حتى أدركه أبو حنيفة النعمان رضى الله عنهما ، أرأيت صحبته لرسول الله وخدمته وامتثاله لأمر أمه حتى تولى تزويجها هو لأبى طلحة بعد موت أبيه ؟ إنه مثل أعلى فى تفانيه لخدمة الحق كان مؤمنا مخلصاً ، وغنيا متجملا . وبطلا رياضياً عظيما . وبهذا السلوك الحكيم ساد المسلمون .

موازنات أدبية :

شاعران يتنا وبان الجائزة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

أما الاول : فشاعر بدوى أكسبته بلاد الشام الجميلة التى تجلو مناظرها العين، وتشحذ الذهن ، وتفسح الخيال ، رقة فى اللفظ وإشراقا فى الديباجة ، وسمواً فى الخيال ، هو البحترى الشاعر الشرقى .

وأما الثانى : فصادح الاندلس وغريد أيكها الرطيب ، هو ابن زيدون شاعر المغرب ، وبين الشاعرين نسب يعرفه الأدباء من قديم ، فقد قالوا : إن ابن زيدون بحترى المغرب ، ولعلهم يرجعون هذه الوشيجة إلى ما لوحظ من اتفاقهما فى الصنعة الشعرية ، من حيث إشراق الديباجة ووضوح المعنى ، فكلاهما رائع النظم ساحر الأداء ، وكلاهما شاعر فنى قبل أن يكون حكيما أو فيلسوفاً ، أو غواصاً على المعانى ، فلفظهما كثير الماء والرونق ، تشيع فيه الموسيق والصنعة المستملحة ، ويتهيأ له كل ما يمكن من وسائل فن الصوت ؛ ويتفق الشاعران كذلك فى كثرة الغزل وتخير أوزانه ، ووضوح فكرة الحب بلا فلسفة أو تعمق ، كما يتفقان كذلك فى كثير من المعانى والصور الشعرية .

وإذا كان البحترى قد اتصل بأبى تمام وعرف منه المناهج الجديدة ، فإنه لم يستطع أن يجاريه فيها لغرابتها على حسه وطبعه ، فوقف تأثره به عند الجوانب الظاهرة التى لا يجللها غموض ، ولا يكتنفها تعقيد .

ومهما يكن من أمر هذه التسمية التى خلعها الادباء على ابن زيدون ، وسواء أكان سببها تأثره بالبحترى وتقليده له ، أم تجاوب فنه مع فن البحترى ، وتوافق

طبيعتهما ، فليس يعنينا الآن أن نحقق ذلك أو نبين إلى أى مدى يمكن أن تصدق هذه التسمية ، وخلاصة القول فى ذلك أنها صادقة إلى حد ما ، وأن لكل من الشاعرين شخصيته وخصائصه وسماته بالرغم من هذا الشبه القوى .

إنما نريد أن نعرض صورتين من هذه الصور التى اشترك فيها الشاعران ، مميزين ملامحهما ، موضحين وجوه الشبه بينهما ، موازنين بين كل منهما .

فالصورة الأولى تهنئة بالعيد تقدم بها كل منهما إلى ممدوحه ، وصوّر فيها عزّ الملك ، وقوة الجيش ، وبسطة السلطان ، وجلال الملك فى مصلى العيد . قال البحترى :

فأنعم بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهَّر
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه ويُنصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها وعين تنظر
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر

وقال ابن زيدون :

وبشراك عيد بالسرور مظلل ... وبالحظ فى نيل المنى متكنَّف
تجرد فيه سيف دولتك الذى ... دماءالعدا دأبابغربيه تُظلَفُ[1]
غدا بخميس يقسم الغيم أنه ... لاحفل منها مكفهرا وأكثف
هو الغيم من رزق الأسنة برقه ... وللطبل رعد فى نواحيه يقصف
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة ... يغاديه منا ناظر أو مطرّف[2]
فإذ نحن طالعناه والأفق لابس ... عجاجته والأرض بالخيل ترجف
رأيناك فى أعلى المصلى كأنما ... تطلع من محراب داود يوسف

(١) تظلف : تهدر (٢) مطرف : مشير بطرف بنانه

البيت الأول عند ابن زيدون أحفل بالتهنئة وأجمع لبشريات العيد، ذلك العيد الذى يطالع الممدوح بالحظ الوافى والأمانى المرموقة، وهو دون ذلك عند البحترى. وكذلك وصف الجيش تجد فيه عند ابن زيدون روعة لا تجدها عند البحترى، روعة شعرية تهز قلبك وتزلزل جوانب نفسك، حتى لتمسك جنبيك حذارا وفرقاً من عجاجة الأفق بغيم الجيش، ورجفة الأرض بخيل الفرسان، وخطف الأبصار ببرق الأسنة، وصم الآذان برعد الطبول. وأين قول البحترى: «والأرض خاشعة تميد بثقلها . . .» من قول ابن زيدون «والأفق لابس عجاجته والأرض بالخيل ترجف»؟ وأين قوله: «حتى انتهيت إلى المصلى . . . .» من قول ابن زيدون:

رأيناك فى أعلى المصلى كأنما ... تطلع من محراب داود يوسف

إنها لروعة أخاذة ليس إلى وصفها من سبيل؛ وهكذا يتفوق ابن زيدون فى هذه الصورة ويفوز على صاحبه.

أما الصورة الثانية فموقف من مواقف الهيبة، هيبة الملوك، ومشهد من مشاهد الجلال الذى يعتاق جنان الشعراء فى حضرتهم. قال البحترى:

ولما حضرنا سدة الاذن أُخرتْ ... رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله
وسلمتُ فاعتاقت جنانى هيبة ... تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة وانثنى ... إلىّ ببشر آنستنى مخايله
دنوتُ فقبلت الندى فى يد امرىء ... كريم محياه سباط أنامله

وقال ابن زيدون:

ولما حضرنا الإذن والدهر خادم ... تشير فيمضى والقضاء مصرّف
وصلنا فقبلنا الندى منك فى يد ... بها يتلف المال الجسيم ويخلف

أى الشاعرين وفق فى تصوير الهيبة وبرع فى وصف الموقف؟ أما أنا فأشهد للبحترى بالسبق، واعترف له ببراعة التصوير ودقة الوصف. فى قوله: «ولما حضرنا سدة الأذن» من الروعة الشعرية ما ليس فى قول ابن زيدون: «ولما

حضرنا الإذن ، وسر الجمال والروعة فى كلمة « سدة » ، وفى قوله : « أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله » لفتة بحترية لازدحام باب الممدوح بالرجال ، ومحافظة الحجاب على النظام ، فلا يدخلون أحدا بغير إذن . وقوله : « فأفضيت من قرب . . . » أروع فى تصوير الهيبة من قول ابن زيدون : « وصلنا » فالبحترى فى غمرة الجـــلال والهيبة يفضى إلى ذى المهابة ، ولا يدرى كيف وصل إليه . وابن زيدون يصور لك قوة الممدوح وعظمته ونفاذ أوامره ، وبسطة سلطانه ، حتى كأن الدهر خادم والقضاء يصرف ما يشير به ، وهو تصوير رائع . ولكن أروع منه هذا التصوير الذى صوره البحترى للهيبة ، فجعلنا نحسها ونستشعرها ونلمسها لمسا ، تلك هى الهيبة التى تعتاق جنان شاعر كبير كالبحترى وتنازعه القول ، وتفحم لسانه ، وتنسيه ما يريد أن يقول ، فهو مأخوذ مبهور ، لا يزيد على السلام ثم ينعقد لسانه ، فلا يسعفه إلا طلاقة الممدوح وبشاشته ، وتهلل أساريره ونضارة جبينه ، وإشراق محياه . وحينئذ يدنو منه فيقبل الندى فى يمينه ، يمين هذا الرجل الكريم المحيا ، السبط الأنامل .

ألست ترى أن البحترى قد صور الهيبة بأروع صورها ، وجمع لها كل ما يمكن من عناصر الفن والجمال ، وجملها بكل ما يمكن من الألوان والظلال ؟

وأخيرا فالندى كل الندى فى يد ممدوحه ، وليس هو بالندى الخاص الذى فى يد ممدوح ابن زيدون ، فقوله « فقبلنا الندى فى يد امرىء » أبلغ وأروع من قول ابن زيدون « فقبلنا الندى منك فى يد » حيث بينه بمن البيانية .

وهكذا يسترد البحترى الجائزة من ابن زيدون ويفوز بها مضاعفة ، ويالها من جائزة ترفع البحترى إلى ذروة الفن ، وتنتهى به إلى أمد الخصل ، فى هذا الوصف الرائع الجميل .

الرأى والظن

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « إنك لا تنتفع بعقل الرجل حتى تنتفع بظنه » . وقد عبر عن هذا المعنى أوس بن حجر فقال :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال بلعاء بن قيس :

وأبغى صواب الرأى أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقادره

الشرط في الفقه الإسلامي

بالنسبة للالتزامات

لحضرة الأستاذ صالح بكير
الأستاذ بكلية أصول الدين

الشرط هو تعليق الالتزام على أمر محتمل الوقوع فى المستقبل، وهو لا ينشىء الالتزام فورا وإنما يؤخره إلى وقت تحقق الشرط؛ فمتى تحقق الشرط نشأ الالتزام ووجد أوسقط أو زال إن كان الالتزام قائما معلقا زواله على تحقق شرط.

ومثل ذلك أن يقول شخص لآخر إن ثبت دينك على فلان فإنى كفيل به فإنه إذا ثبت الدين ثبت التزام الكفالة.

وكأن يقول شخص لآخر إن جاء فلان من الحج سالما فقد ابرأتك بمالى عليك. فجاء فلان هذا من الحج سالما، فإن الدين يسقط. وإذن فالشرط نوعان توقيفى كما فى المثال الأول وفاسخ كما فى الثانى.

والشريعة الإسلامية لا تضفى حمايتها على جميع الشروط التى تلحق الالتزام فنها ما تمنعه ومنها ما تجيزه، ويترتب على المنع إما بطلان أو فساد الالتزام، وإما اعتبار الشرط لاغيا وكأنه لم يكن، وهذا يطابق ما فى القوانين الوضعية من عدم وجوب مخالفة الشرط للقانون أو الأخلاق الفاضلة أو النظام العام.

والمتتبع لأقوال الفقهاء يتبيّن له أنهم قد اختلفوا فى ضابط الشروط السائغة وغير السائغة. وفى ذلك ثلاثة مذاهب:

١ — المذهب الأول: يقرر أن كل شرط يخالف الشرع أو يزيد على مقتضى العقد أو الالتزام ولم يرد به أثر من الشرع فهو لا تقره الشريعة الإسلامية، وهذا هو مذهب أكثر فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية؛ وذلك كما إذا اشترطت

المرأة فى عقد زواجها بأن لا يتزوج الزوج عليها بأخرى ، فإن مثل هذا الشرط لا يقتضيه عقد الزواج ؛ بل هو زائد عليه وإذن فلا يكون له محل اعتبار . وهذا هو معنى المخالفة للنظام العام ؛ إذ من النظام العام فى الإسلام عدم تحريم ومنع ما أحله الشرع .

٢ — المذهب الثانى : يقرر أن كل شرط لم يقم من الشرع دليل على النهى عنه ، أو على عدم اعتباره يكون ملزما يجب الوفاء به ، وهذا المذهب يوافق أصول كثير من الحنابلة ، فأجازوا الشرط السابق فى المثال السابق .

٣ — المذهب الثالث : لا يعتبر الشرط جائزا إلا إذا ورد نص بإثباته ؛ وقام الدليل على وجوب الوفاء به وهذا مذهب الظاهرية .

ويتضح إذن من هذا أن مذهبى الحنابلة والظاهرية على طرفى نقيض ، إذ الأول قد افسح المجال لجميع الشروط التى لم يرد نص شرعى بالنهى عنها ، أو التى لا تخالف القواعد الشرعية ، بينما أن الثانى لا يجيز الشرط مطلقاً إلا إذا ورد به نص شرعى .

ويتضح أيضاً أن مذهب جمهور فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية وسط بين المذهبين السابقين ؛ فإنهم يقسمون الشروط مع مشروطاتها إلى ثلاثة أقسام .

١ — إن كان الشرط مكملا لحكمة المشروط كاشتراط الإمساك بالمعروف ، أو التسريح بإحسان فى النكاح ، فهذا الشرط صحيح شرعا ؛ إذ أنه مكمل لحكمة النكاح وملائم لمقصوده .

٢ — وإن كان الشرط غير ملائم لمقصود العقد كاشتراط عدم الإنفاق فى النكاح فهذا الشرط باطل لعدم ملاءمته للعقد .

٣ — أن لا تظهر فى الشرط منافاة أو عدم ملاءمة وفى هذا تجب التفرقة بين العبادات والمعاملات لاعتبار الشرط صحيحاً أو باطلا .

فما كان من العبادات لا يكتفى فيها بعدم المنافاة لاعتبار الشرط ، بل تجب أيضا الملاءمة ، وما كان من المعاملات أو العاديات فيكتفى فيها بعدم المنافاة لاعتبار الشرط .

وهذه أصول عامة وإن اختلف الأحناف والشافعيه والمالكيه فى التفاصيل.

فيرى الأحناف تقسيم الشروط إلى صحيحة وباطلة وفاسدة . وهذا التقسيم يستند إلى الأسس الآتية :

(ا) كون الشرط موافقاً لمقتضى العقد .

(ب) كونه مندرجا تحت العمومات الشرعية .

(حـ) ورود نص به أو عدم وروده .

(د) إقرار العرف أو عدم إقراره فى حالة زيادته على مقتضى العقد .

(هـ) تأثيره فى العقد بتحقق فائدة لأحد أو عدم ذلك .

وعلى هذا فالشرط الصحيح هو الذى يكون موافقاً لمقتضى العقد، كتسليم الثمن قبل تسليم المبيع ، أو يكون مؤكدا لمقتضاه كاشتراط تقديم كفيل معين بالثمن المؤجل ، أو أن يكون قد ورد به نص من الشارع كاشتراطه خيار الشرط لمدة معلومة، فإن هـذا الشرط غير موافق لمقتضى العقد، وغير مؤكد لمقتضاه أيضاً وإنما ورد به أثر من الشارع . وكذلك يعتبر الشرط إذا جرى به عرف لكن بشرط عدم مخالفته لنص أو أثر شرعى .

الشرط الفاسـد : هو ما كان غير موافق لمقتضى العقد ولا مؤكداً له ، ولم يرد به أثر من الشارع، ولا جرى به عرف وفيه منفعة لشخص، فإن اقتران مثل هذا الشرط بعقود المعاوضات يفسدها، أو أنه يعتبر لاغياً ولا يبقى العقد صحيحا.

الشرط البـاطل : هو ما ليس موافقاً لمقتضى العقد ولا مؤكداً ، ولم يرد به أثر ولم يجر به عرف ، وليس فيه نفع لأحد العاقدين ولا لغيرهما ممن هو من أهل الانتفاع ، كمن يبيع سيارة بشرط أن لا يستعملها إلا فى أحوال خاصة ، فهذا الشرط باطل، ولا يؤثر فى العقد ببطلان أو فساد، فيلغو الشرط ويصح العقد، سواء أكان العقد عقد معاوضة أو كان غير معاوضة .

هذا تقسيم الأحناف ، وأما المالكية : فإنهم يرون أن كل شرط لا يتفق مع ما يشترطونه لصحة العقد الذى اقترن به يكون مفسداً للعقد ؛ لأن العقد

لم يستوف حينئذ شروط صحته ، فلم تثبت حقيقته الشرعية ، كما أن كل شرط يؤدى إلى الغرر أو الجهالة يكون مفسداً للعقد إذا تمسك به صاحبه ، فإن لم يتمسك به لغى الشرط وصح العقد . وأما الشافعية : فيتلاقون فى التقسيم مع الأحناف ، إذ الشرط الذى يقتضيه مطلق العقد يكون صحيحاً ، والذى لا يقتضيه العقد وفيه مصلحة للعقد نفسه ، كشرط الرهن بالثمن المؤجل فهو صحيح أيضاً ، يجب الوفاء به . وأما الشرط الذى ليس فيه مصلحة للعقد ويورث غررا يؤدى إلى التنازع ، كشرط قرض مع بيع ، فمثل هذا الشرط يفسد العقد ، والشرط الذى ليس فيه نفع لأحد يعتبر شرطاً لاغياً والعقد يكون صحيحا غير فاسد .

وأما مذهب الحنابلة : فهو أوسع المذاهب وأيسرها ، لأن أكثرهم يوجبون الوفاء بالشرط طالما لم يقم دليل شرعى على عدم صحته .

آثار الشروط :

العقد المقترن بالشرط الصحيح لا ينشىء ولا ينتج آثاره إلا إذا تحقق الشرط ، لأن العقد المعلق لا ينعقد سببا لأحكامه إلا بعد وجود الأمر الذى رُتّبَ وجوده عليه ، فهو سبب أسمى لأحكامه وليس سببا فعليا ، لأن تأثيره فى إثبات الأحكام لا يكون إلا بعد وجود الشرط المعلق عليه . وهذا هو مذهب المالكية والحنفية . وأما الشافعية فعندهم أن العقد ينعقد سببا فى الحال كالعقد المضاف .

ويلاحظ أن العقود من حيث تعليقها تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

١ — عقود لا تقبل التعليق مطلقا ، وهى العقود التى تفيد التمليك سواء كانت عقود معاوضة أو عقود تبرع ، وبلا فرق بين تمليك المنفعة أو تمليك الرقبة .

٢ — عقود تقبل التعلق بالشرط الملائم كعقود الحوالة والكفالة ، والإطلاقات

٣ — عقود يصح تعليقها بكل شرط ملائم أو غير ملائم ، متعارف أو غير متعارف كعقود الوصية والإيصاء والوكالة .

هذه هى الأقسام الثلاثة لأنواع العقود من حيث تعليقها بالشرط ، ويتضح منها أن الفكرة العامة فى الشرع والقانون ، هى أن الشرط لا يلحق العقد إلا إذا كان موافقا للشرع أو القانون ، وأن العقد أو الإلتزام لا ينشآن إلا من وقت تحقق الشرط .



حديث شريف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ صادق خطاب
المدرس بكلية اللغة العربية

فى الإنسان دوافع خير تصارعها نوازع شر، وعوامل صلاح تجاذبها بواعث فساد، فيه قوة تدفعه إلى الخير من طريق صعب المسلك، كثير المشاق جم العقبات ولكنه مأمون العاقبة، وفيه نزوة تغريه بالإثم وتزين له السوء من سبيل خلاب جذاب، خادع المنظر فتان المظهر، حافل بالمشتهيات والمغريات، ولكنه أليم فى نهايته مهلك فى آخرته — فإذا غلبت فيه دعوة الحق على صيحة الباطل، وعلت صولة الخير على نزوة الشر، وسطع فى فؤاده نور الهداية فمحا ظلمة الفساد، فقد تهيأت له قوة الإيمان وصدق اليقين ومكارم الأخلاق وسماحة الدين، وإذا ضعفت مقاومته للشهوات ولانت ممانعته للآثام والمنكرات، وتمكنت من نفسه وساوس الشيطان، وأسباب الخسران، كان سبة لدينه وعارا لوطنه، وعضوا فاسدا فى جسم الأمة التى يعيش فيها .

من أقبح العيوب وأبشع المنكرات التى تحكمت فى نفوس الناس، وتمكنت من مجتمعاتهم، وكان لها أسوأ الأثر فى حياتهم، وتشويه علاقتهم وتمزيق روابطهم، وإشاعة فرقتهم وتوهين كلمتهم، طغيان الغضب وتحكمه فى أخلاق الإنسان ومعاملته، فليست هناك علاقة بين صديقين ولا مودة بين أخوين، ولا تعاون على عمل من الأعمال، ولا اشتراك فى مظهر من المظاهر إلا وقد دخل فيه الغضب بأسوأ أوزاره وأقبح آثاره .

غريزة من الغرائز الطبيعية، ركبها الله فى نفس الإنسان، ليصون بها عرضه ويحمى بها نفسه، ويحفظ حرمته ويذود عن حماه فتنكب بها طريقها، وحاد بها عن صراطها واستعملها فى هوى النفس، وسخرها لطغيان العاطفة ؛ لذلك عد الإسلام

مجاهدتها وامتلاك النفس عندها من أمارات البطولة ، وعلامات الشجاعة فقال الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » ، وكان الإمام الغزالى رحمة الله يقول : « إن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فية قرابة الشيطان حيث قال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » فالغضب دائما يخرج صاحبه عن حده ويبعده عن وقاره ، وينسيه إنسانيته ويقربه من الوحوش الكاسرة ، ويجعله يستحل كل حرمه ويستبيح كل سلاح . فهو حرب كل مودة ونذير الفرقة لكل صلة . يقول ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرنى بعمل وأقلل ، لعلى أعقله فقال : لا تغضب . وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ينقذنى من غضب الله قال : لا تغضب . ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الغضب يدفع صاحبه إلى الهاوية ويرديه فى الشقاء بقوله : « ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم » وقال له رجل : يارسول الله أى شىء أشد ؟ قال : غضب الله قال : فما يبعدنى من غضب الله ؟ قال : لا تغضب . فهذه كلها آثار ناطقة ، ودلائل قاطعة وبراهين مجمعة على خطر الغضب وقبح شأنه وأنه يجر الإنسان إلى الهاوية ، ويدفعه دفعاً قوياً إلى الهلاك ، إذ يطغى على عقله ويظلم فكره ويذهب لينه ووداعته وبشاشته .

إن نظرة واحدة إلى ما يعانيه المجتمع من آفات ، وما يشيع فى أجوائه من عيوب ، وما يكاد يقضى على بهجته ورونقه من أمراض خلقية تجعل الإنسان يؤمن من أعماقه أن أقسى هذه الآفات ، وأعتى تلك المنكرات الغضب . فنحن نغضب فلا نتذكر خالقاً ولا تعرف فضيلة ولا نقف عند حد ولا نخشى عاقبة . لأقل حادث وأهون سبب ننظر فإذا الغضب يهيج فى النفوس ، واذا الشر يلعب ، بالرءوس واذا الوقار قد خف ، والحلم قد ضاعت آثاره ، وإذا ما كان يتحلى به المرء من سكينة ووادعة قد زال ولم يبق من مظاهره شىء .

نحب فنفرط فى المحبة حتى نحيل السيئات كلها إلى حسنات ، ونتوهم العورات ، فضائل ومميزات ، فإذا غضبنا أصبحت المحاسن مخازى وفضائح ، وانقلبت التسبيحات إلى لعنات ، ولم ندع أديما إلا مزقناه ، ولا عرضا إلا هتكناه ، ولا لحما

بشريا الا أكلناه منتنا متعفنا : تلك ليست صفات المؤمنين . إنما هى سمات المنافقين إذ أن من علامات المنافق أنه إذا خاصم فجر ، ورسولنا الكريم يعلمنا آداب الاجتماع ، وشروط الصحبة بقوله : « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » أما الاستسلام لشيطان الغضب ، والاندفاع وراء النفس الأمارة بالسوء فلا يكسب صاحبه إلا لعنة الله وغضب المجتمع ولقد صدق من قال : « إنى والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمرءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة » .

هذه آداب الاسلام ، وسياسة رسول الإسـلام ، لا نلمس فيها إلا كل ما يبعث السعادة ويثير الانشراح والسرور ، ويذهب الأحقاد والأضغان من الصدور ، ويجعل الانسان يعيش فى دنياه مرح النفس هادىء البال مطمئن الضمير . روى أبو هريرة : أن أبا بكر كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى مجلس ، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت ، والرسول صلى الله عليه وسلم يبتسم ، ثم رد عليه أبو بكر بعض الذى قال ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ثم قام من المجلس ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله شتمنى وأنت تبتسم ، ثم رددتُ عليه بعض الذى قال فغضبت وقمت . فقال صلى الله عليه وسلم : حين كنت ساكتا كان ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ولم أكن لأجلس فى مجلس فيه الشيطان . ثم قال : يا أبا بكر ثلاثة حق إنه ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعزه الله ونصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة .

ليتنا نعتبر بهذا حين نخطىء فنخاصم ! . بل ليتنا عند الخصومة لا نفجر فى مظاهرها ، ولا نعنف فى أسبابها بل نتعفف عن ذكر الأعراض ونبش المدفون من الأسرار ، والمجابهة بأشنع التهم وأبشع النعوت والتقاذف بما تنفر منه الإنسانية ويعافه الدين ولا تقبله المروءة .

لو فكر العاقل فى دنياه لايقن أنها أضيق من أن تحتمل عداوة أو تتسع لخصومة ، ولقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى اتخذ لك ألف صديق والألف

قليل ، ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير . وقال سليمان عليه السلام : يا بنى إياك وكثرة الغضب ! فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحكيم . وقال بعض الحكماء : لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ؛ فرُد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

هذه لمحة من آثار الإسلام فى معالجة غريزة الغضب ، فليحذر الناس أن يستسلموا لطغيانه أو يخضعوا لسلطانه ، وليحذروا مخالفه رب العالمين « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنه أو يصيبهم عذاب أليم » .

من أخبار آل البيت

حج هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فلما أراد أن يستلم الحجر لم يستطع ، فبينا هو ينتظر ، إذ أقبل على بن الحسين فتنحى له الناس هيبة وإجلالا ، فقال رجل ممن كانوا مع هشام : من هذا ؟ فأجابه هشام ، لا أعرف ، وكان الفرزدق الشاعر المشهور حاضرا فقال قصيدة طويلة منها قوله :

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلمُ
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

ومنها يمدحه.

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم الا حين يبتسم

ومنها :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

وختمها بقوله :

وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

إبراهيم والتوحيد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

---

١ — كان إبراهيم عليه السلام رجلا ، وكان بطلا ، وكان صدِّيقا نبياً ، وكان أمة وحده ، وكان مثلا أعلى فى قوة العقيدة ، وعظمة اليقين ، وجلال التضحية ، وطول الجهاد فى سبيل الله والتوحيد والدين الحقّ ، دين الهدى والنور ، وشرعة السماء البارة بالأرض وبالإنسانية جميعها ؛ وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنْعُمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » ويؤكد الذكر الحكيم مكانته عند الله فيقول : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمتُ لربِّ العالمين » ، ويصفه الله جل جلاله فى آية أخرى فيقول : « إنه من عبادنا المؤمنين » وفى آية أخرى يقول الله عز وجلّ : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

وهذا أعظم ما يصل إليه بشر ، ويتطلع إليه إنسان ، ويسمو إليه بإيمانه وأعماله مؤمنٌ كريم ، سلام على إبراهيم ، لقد وقف فى ظلمات الحياة وضلال البشرية ، وانحراف الناس عن كلمة التوحيد والحق ، يعيدُ للأرض صلتها بالسماء ، ويبعث فى النفوس معانى السموّ بالنفس والترفع عن عبادة الأوثان والتحرر من قيود الشرك والأهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوَسْنَى التى تاهتْ فى مجاهل الحياة وبيداء الأوهام ، فنطق بكلمة الحقّ والناس غافلون ، ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الأبطال .

٢ — كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا النور الأبدى الخالد ، نور السماء الذى أشرق على الأرض أحياناً ثم انطفأ ؛ ونشأ تعلو وجهه سمات الشخصية الفذة والبطل المرجىُّ والنبىّ المرتقب .

وعاش فى الحياة ملَكا كريما بأخلاقه وآدابه وشممه وإبائه وطموحه ، وحبه للخير وعمله له ما استطاع .

ولكنه كان فى شقاء بعيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفّت فلا يَرى إلاضلالا وشركا وآثاما ، وأهواء جامحة وأوثاناً معبودة ، وانحرافا تاما عن دعوة الحق وتراث النبيين من قبل : آدم ونوح .

كان يحب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير إلى غاياتها المنشودة فى الحياة الفاضلة الكريمة ، وفى ظلال العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والإيمان بالله ؛ ولكنه لم ير إلا الإثم والوثنية والشرّ والشرك ، وكلمة الشيطان المستجابة المحبوبة من دون كلمة الله ، فشقى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم ، وجنح هو إلى التفكير الطويل فى الدين والقوة العظيمة المسيرة للحياة ، وفى مصير الإنسانية وحاضرها الذليل ، ومستقبلها المرموق .

٣ — رأى والده « آزر » عاكفا هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلّله « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، لأنه كان يؤمن إيمانا ثابتا أن لا إله إلا الله ، وأنه لا يستحق العبادة من دونه شىء .

ولا عجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة ، ونشأه على الإيمان الحق ، وغرس فى نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة ، التى فطر الله الناس عليها .

وكان إبراهيم يفكر تفكيراً طويلا فى الدين بعقله ، وكان عقله دائما يرشده إلى هذه الحقيقة الثابتة الخالدة ، حقيقة الإيمان بالله وحده ؛ بل كان يرجع من تفكيره أكثر إيمانا ويقينا بالله .

رأى الكواكب فى السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضى الجميل الكون فى الليل

البهيم ، ورأى الشمس بازغة تمنح الحياة النور وكل مقومات الحياة ؛ فقال لعقله : ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هى آلهة الكون وربة الحياة ؟ لكنه رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ؛ ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا يصح أن تكون آلهة معبودة ؛ فنطق إبراهيم بهذه الكلمة الرائعة : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وآمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيمانا صادقا حقا ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعينى رأسه ليطمئن قلبه ، فدعا ربه « ربى أرنى كيف تحي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم »

٤ — وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والإنسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

« قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » ؛ ولكن والده لج فى ضلاله واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم « لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليآ » .

ثم دعا قومه طويلا إلى الله وإلى الحق وإلى شريعة الأنبياء ، وكلمة السماء ، ولكنهم لجوا وضلوا وغووا وأصروا واستكبروا استكبارا .

قال لهم : « اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا » ، وقال لهم . « إننى براء مما تعبدون » .

وجادلهم فى أصنامهم طويلا حتى إذا يئس منها ومنهم ، قال لهم فى حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ،

والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وأرشدهم إلى إلههم الحق وأنه رب السموات والأرض الذى فطرهن .

حتى إذا يئس من أن يستجيب قومه لكلمة الحق ؛ ذهب إلى بيت الآلهة الذى نصبت فيه هذه التماثيل والأوثان لحطمها وكسرها « وجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن ابراهيم هو الذى حطمها وفعل بها هذه الفعلة النكراء ، ومن غير إبراهيم يجرؤ على الآلهة هذا الاجتراء العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكموه ، وقرروا أن يعدموه حرقا بالنار ، ولكن الله أوحى إلى النار أن لا تحرق هذا الجسم الطهور ، « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

نجاه الله فخرج من أرض قومه مهاجراً « إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

أقام بالشام يدعو الناس إلى الله ، ويهديهم إلى الحق والإيمان والعقيدة المثلى ، وطفق يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة فى قوة ويقين وجهاد فى سبيل الله .

٥ — ووهبه الله إسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ثم منحه إسماعيل ، فسعى به استجابة لداعى الله إلى الحجاز ، وأقام إسماعيل مع بعض القبائل العربية حول مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هى عين زمزم ، وأخذ قلب إبراهيم الكبير يرفرف بعطفه على ولده إسماعيل ؛ فابتهل الى الله أن يجعل موضع إسماعيل كعبة للناس « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ؛ لعلهم يشكرون » .

وأخذ إبراهيم وإسماعيل يجددان بناء البيت الحرام ، ويطهرانه للطائفين والعاكفين والركع السجود « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » كما أخذ يؤذن فى الناس بالحج إلى هذا المكان الطاهر الكريم « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

٦ — واسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، وفلذة كبد أبيه ، صمم ابراهيم أن يضحى به وهو صغير استجابة لكلمة رآها فى المنام .

قال له ابراهيم : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

استجاب الابن والأب لداعى الله « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

أى عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذى بلغته العقيدة فى نفس إبراهيم .

وهكذا عاش ابراهيم ما عاش مؤمنا قوى الإيمان ، مجاهدا فى سبيل إيمانه بربه ، مشردا عن وطنه ، داعيا إلى التوحيد المطلق ودين الإنسانية المهذبة ، وكلمة السماء الهادية للأرض ومن فيها .

٧ — وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معانى الخير والرحمة ، والبر والحنان والإنسانية الكريمة ؛ كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والإيمان .

أشفق على أبيه أن تمسه النار ؛ فدعاه وحذره فأبى واستكبر فأخذ يدعو الله له أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له : « سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا » ، ولكنه حنان الأبناء ووفاؤهم للآباء « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء » ، ثم أخذ يضرع إلى ربه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » ، « رب اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ؛ ولكن الله لا يرحم مشركا « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » .

ثم أسكن إبنه فى الصحراء فأخـذ يبتهل إلى الله أن يجعل مكان إقامته بلدا آمنا وأن يرزقه وأهله من الثمرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصح المشفق الأمين ، ثم أراد أن يطمئن على مستقبل الإنسانية ، وعلى أن كلمـة الحق والدين ستبقى ، وأن شعلة الإيمـان لن تنطفىء . فدعا الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها ويصلها بالله .

وبعد فدين إبراهيم دين الحنفية البيضاء وشريعته هى الشريعة المطهرة ، التى دعا إليها الأنبياء بعده ، ولقـد عاش إبراهيم عظيما ، ومات كريما وترك ذرية طيبة تعبد الله فى الأرض ، وكان من نسله الكثير من الأنبياء والمرسلين ، حتى لقب « بأبى الأنبياء » ، ولقد تلقى إبراهيم عن ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهن ، وبلغها للناس تامات ووفى بعهد ربه ، ونشر كلمة الإيمـان فى الآفاق ، وذهب راضيا مرضيا « وتركنا عليه فى الآخرين : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين » .

اتقاء الذم

روى عن الحسين بن على رضى الله عنهما أن شاعرا مدحه فأجـزل ثوابه ، فلامه بعض أصحابه على ذلك . فقال :

« أترانى خفت أن يقول : لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، ولا ابن على بن أبى طـالب ؟ ولـكنى خفت أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلى رضى الله عنه ، فيصدّق ويحمل عنه ، ويبقى مخلدا فى الكتب محفوظا على ألسنة الرواة » .

فقال الشاعر : أنت والله يا ابن رسول الله أعلم بالمدح والذم منى .

وقـد أثر عن أخيه الحسن مثل ذلك فقـد روى أنه أعطى مالا كثيرا ، فقيل له : أتعطى شاعرا يعصى الرحمن ويقـول البهتان ؟ فقال : أن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك ، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

الصوم تأديب وتهذيب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

النفس الإنسانية كثيرة المطالب ، متنوعة الحاجات والرغائب ، لا ينتهى طمعها ، ولا يفتر جشعها ، ولا تقف عند حد أهوائها ونوازعها : إذا منعت من شيء غضبت وسخطت ، وأرغت وأزبدت ، وإذا أعطيت طمعت واستقلت ، بل بطرت وأنكرت نعمة الله ، وإحسان الخالق وحاجة المخلوق !

لذلك كان تشريع العبادات ، وفرض التكاليف الإلهية لتهذيبها وترقيق مشاعرها ، وإرهاف حسها ، وتوجيهها إلى الخق ، ولفتها إلى ما يجب لها من قناعة وإسماح ، وما ينبغى من سكينة ورضى ، وحسن إيمان ، وتذكيرها أن الله جل شأنه هو الذى يعطى ويمنع ، ويهب ويسلب ، ويثيب ويعاقب ، عطاؤه لسر ، ومنعه لحكمة ، ولا يدرك ذلك ، ولا يرضى به إلا المؤمنون الصادقون .

فكل ما شرعه المولى من عبادات ، ودعا إليه من تكاليف وطاعات ؛ إنما يرمى إلى تربية الفضائل فى النفس ، وتنمية روح الاجتماع فى الإنسان ، وإعداده إعدادا صحيحا لمواجهة الحياة الكريمة الفاضلة ، وإن فى الإسلام لآدابا وفضائل نحن أحوج الى تدبرها ، والانتفاع بما فيها من سمو العبرة ، وجلال العظة ! .

والصيام عبادة من أجل العبادات ، وطاعة من أروع الطاعات ، شرعها المولى جل شأنه لغرس الرحمة فى القلوب ، وتطهير النفس من الشرور وتعويدها على الرضى بتصاريف القدر ، والصبر حين يفاجئها المنع ويستبد بها الحرمان . فهو

فضيلة من أعظم الفضائل ، ومدرسة حازمة لتربية الإرادة القوية ، والعزيمة النافذة ، والطاعة الحكيمة ، وهو كذلك جُنة من الشهوات ووقاية من ملابسة الخطيئات ، وحصن يحتمي به المؤمن إذا ساوره الهوى ، ونازعته غواية الشيطان .

يقول الله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فغاية الصيام غرس التقوى فى القلوب ، وبعث الخشية فى النفوس ، وتذكيرها بما يحسه الفقير من ألم الحاجة وذل الحرمان ، ومرارة الجوع وقسوته ، وإراحتها من بعض أطماعها ، واشتجار أهوائها . ونحن نقضى أحد عشر شهراً من العام بين لهو ولعب ، وأكل وشرب ، نأكل من غير نظام ولا ميعاد ، ولا تقيد بصباح أو مساء ، ثم نستقبل شهر رمضان ، نستقبل شهراً تتعود فيه حكم هذه النفس التى أسرفت وجازفت ، والتى أكلت حتى ملّت وتعبت ، وشبعت حتى أتخمت ؛ وبذلك يكون الصيام وسيلة إلى حكم النفس وإخضاعها ، وسبيلا إلى زجرها وتخويفها ، والنفس الإنسانيه لقسوتها وتمردها لا يُخيفها شئ ، ولا يُرهبها سلاح بقدر ما يُخيفها الجوع ، و يرهبها الحرمان ! تستطيع أن تصبر على كل حادث ، وتحمل كل ألم إلا ألم الجوع وذله وشدته ؛ لذلك كان هذا السلاح من أسلحة إرهابها وتخويفها ، وتوجيهها إلى رب العالمين ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » .

لو فهم الناس الصيام على حقيقته ، وأرادوه على طبيعته ؛ لكان حرب كل مفسدة ، وعدو كل شر وطغيان ، ومدعاة إلى التراحم والتعاطف ؛ لكن الناس ألفوه على غير وضعه ، وتعودوه على غير طبعه ، وفهموه جوعا تمل منه النفس ، وعطشاً يتأذى منه الإنسان دون حكمه ولا غاية .

انقلبت العبادة فيه إلى عادة يواجهها الانسان بما يخفف وطأتها ، ويسهّل شدتها ، ويهون عليها من مأكل ومشرب ، وهل هناك أسوأ أثراً ، وأقبح خطرا ،

وأشأم عاقبة من أن تنقلب العبادة العظيمة إلى عادة ، تتبلد عندها المشاعر ، وتستغلق دونها الحواس ، ويقابلها الناس بتألم واستكراه ؟ .

إن العبادة إن لم يكن لها أثر فعال فى تهذيب مشاعر الإنسان ، وإدخال الرحمة على قلبه ، وتذكيره بخالقه ، وإثارة دوافع الخير ، وحوافز المعروف فى نفسه ، فلا فائدة منها ولا أثر لإتعاب الإنسان بها ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ! » لقد فهم الناس الصوم لونا من الحرمان يضجر الإنسان منه ، ويصطنع الحيل للتغلب عليه ، وليس غريبا على هؤلاء الغافلين أن يستعينوا على الصيام ، وقضاء رمضان بأكل يرهق المعدة ، وطعام يثقل البطن ، ونوم يستغرق اليوم كله ؛ فالأعمال فيه معطلة ، والحياة جامدة راكدة والوجوه عابسة قاتمة ، لا تعلوها بشاشة ، ولا يداعبها سرور ، والنفقات قد بلغت من السرف والتزيد حداً لا تتحمله طاقة ، ولا تنهض به قدرة !

أتلك هى الحكمة من تشريع الصيام ؟ جنون فى الإنفاق ، وإهدار للزمن ، وقعود عن السعى واستنامة عن العمل ، واستعانة على قتل الوقت بالنوم المستغرق العميق ؟

تعالت حكمة الله عن ذلك علواً كبيراً ! لقد فرض علينا الجوع والحرمان ؛ لنعرف كم من النفوس الإنسانية الحساسة تكابد هذا المنع ، وتقاسى ذلك الحرمان ، وما دام هذا الجوع فى سبيل الله ، وما دام ذلك الإجهاد والتعب فى سبيل التهذيب الخلقى ، والكمال الإنسانى ، فكل مشقة فيه محببة ، والتعب راحة ولذة ، وقرب من الله ، والكريه المرذول سائغ ومقبول ، ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

ظن كثير من الناس أن الصوم إمساك عن الشراب والطعام ، وليس إمساكا عن الفواحش والآثام ، فتركوا ألسنتهم — وهم صائمون — تجول فى أعراض الناس ، وتخوض فى العورات وتنشر السوءات ، وتخترع من مساوىء

الناس مادة للحديث ، وأداة للهو والتسلية ، يفطمون أنفسهم عن الأكل والشرب ، ويغذونها بأسوأ ما يتناوله إنسان من الفضائح والعيوب .

وما جدوى الصيام اذا لم تهذب به الألسنة ، وتتطهر به النفوس ، وتتعود من الأدب الكريم ، والخلق القويم والطبع المستقيم ؟

وما فائدة الحرمان إذا لم تكن من ورائه عفة القول ، وسماحة الكلام ولين الحديث .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فهل يتدبر هذا أولئك الذين جعلوا الصيام إثارة للأعصاب ، وتهييجا للشرور ، وإضعافا لقوة التحمل ، وأكلا للحوم الناس ، وولوغا فى أعراضهم ، لا يكاد الإنسان يتحدث إلى أحدهم حتى تثور ثائرته ، وتشتعل حفيظته ، ويشتد غضبه وصخبه ، ويقذف لسانه بفحش القول وهجر الكلام ! ...

ويقول الناس : معذور إنه صائم .. ! كلا والله ما هو بصائم ، ولو كان صائما لكان مهذب الخلق ، رقيق العاطفة ، حلو اللسان ، يملك نفسه ، ويسيطر على أعصابه ، ويذكر دائما أنه صائم وأنه قائم فى عبادة ربه ، فلا يليق به أن يفحش ، ولا يجمل به أن يسلم نفسه للشيطان ، ويلطخها بالمآثم والعصيان .

يقول صلى الله عليه وسلم : « الصيام جُنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم » .

إن الصيام رحمة فيجب أن نتراحم ، والصيام محبة فيجب أن نتحاب ، والصيام رفع لدرجة الإنسانية إلى مرتبة الملائكة ، فيجب أن نكون فوق الحيوانية ، وفوق الغرائز الجشعة ، والشهوات الثائرة .

قيل للأحنف بن قيس : إنك شيخ كبير ، وإن الصيام يضعفك . فقال : « إنى أعده لسفر طويل ، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » .

مقارنة وتحليل

من طرائف القرآن الحكيم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى

تستطيع أن تلحظ معى بسهولة ان قصة موسى على طولها وكثرة دورانها فى القرآن الكريم، تتلخص فى أربع مراحل هى كل حياة هذا الرسول القوى الأمين.

المرحلة الأولى : وتبدأ بميلاده وتنتهى بفراره من الملأ حين ائتمروا به إلى بلاد الشام.

المرحلة الثانية : وتبدأ بوروده ماء مدين ونزوله على شعيب، وتنتهى بعودته بأهله إلى مصر رسولا إلى فرعون.

المرحلة الثالثة : وتبدأ برسالته إلى فرعون وصراعه معه، وتنتهى بفراره من فرعون وجنوده إلى بلاد الشام.

المرحلة الرابعة : وتبدأ بنزوله وقومه بلاد الشام وتنتهى بانتهاء حياته.

كانت كل مرحلة من هذه المراحل غاصة بالحوادث الجسام، ولقد أخذ القرآن على عادته فى قص القصص، يذكر المرحلة الواحدة والمعنى الواحد فى أكثر من موضع بأساليب تختلف إيجازا وإطنابا وتقديما وتأخيراً، وإبدال لفظ بآخر ونحو ذلك.

لنعد الآن إلى المرحلة الأولى، ولنتقب عما عسى أن يكون فيها من المعانى الواحدة التى حكيت فى موضع بأسلوب وفى موضع آخر بأسلوب آخر، ولنحاول الكشف عن سر ذلك تفصيلا، ملتزمين المأخذ الذى أخذناه على أنفسنا فى سالف هذه المباحث.

هذه المرحلة الأولى بما فى طيِّها من حوادث ميلاده وإلقائه فى اليم.

والتقاط آل فرعون له، ورده إلى أمه، ثم قتله القبطى وفراره بنفسه إلى الشام لم تذكر إلا فى موضعين فى سورة طه من الآية ٢٨ إلى الآية ٤٠ وفى سورة القصص من الآية ٧ إلى الآية ٢٢.

والقدر الذى يتفق ويفترق [1] فى آيات هذه المرحلة، ويمكن عقد المفارقات فيه قليل بحيث لاتزيد المفارقات على أربع، يجرنا البحث فى اثنتين منها إلى التعرض لآيات وإن لم تكن من قصة موسى إلا أنها تتشابه معها وتدخل فى نطاق بحثنا.

المفارقة الأولى: سورة طه «إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت» سورة القصص «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين».

الذى قاله الله لأم موسى بشأن تهريبه من فرعون حيث يتتبع المواليد، يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم كان شيئاً واحدا، فكيف اختلفت حكايته فى سورة طه أنه قال لها: فاقذفيه فى اليم وفى سورة القصص أنه قال لها: فألقيه فى اليم؟ والجواب عن ذلك أن المآل واحد فى الإلقاء والقذف، وإذا كانت الحكاية للمعنى لا للألفاظ ضرورة أنها كانت بغير العربية، وهذا لسان عربى مبين، وكان هذا التخالف بين اللفظين تفنناً بنى على أحسن المناسبات، ورعاية المقتضيات، كان ذلك الصنيع أولى أن يعترض بعدمه من أن يعترض بوجوده، فالإلقاء والقذف وإن كانا فى نهاية المعنى شيئاً واحداً، إلا أن الأول فيه معنى الوضع والحط والثانى فيه معنى الرمى والنبذ والطرح، ففى الأول من العناية واللطف والإحكام ما ليس فى الثانى [2] وعلى ذلك فقد وقع الأول جوابا لقوله تعالى فاذا خفت عليه: لأن ما يخاف عليه، ويشفق يوضع بإحكام ولا يرمى به، ولما لم يذكر الخوف فى الموضع الثانى لم يكن بأس من التعبير بالقذف.

وباعتبار آخر. حيث ذكر الخوف عليه فى سورة القصص من إدراك فرعون له، وكان هذا الخوف مدعاة تعجل فى رميه فى اليم دون عناية وإحكام

---

(١) يتفق معنى ويفترق ألفاظا أو يتفق فى بعض الألفاظ ويفترق فى البعض الآخر.

(٢) فى مفردات الراغب القذف الرمى البعيد، وفى المصباح ألقيت المتاع على الدابة وضعته.

أشير إلى وجوب تحاشى ذلك، بوقوع الجواب من مادة الإلقاء، دون القذف وحيث لم يذكر الخوف عليه فى سورة طه، وقع التعبير بالقذف، سيما وقد كان بجوار القذف ما هو أدخل فى باب نجاته، وإحكام وضعه، وهو التابوت حيث قيل: «فاقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم».

فإن قيل ولم ذكر الخوف معلقا عليه فى موضع دون آخر؟، قلت أيّاً ما كان الأمر من تعدد الوحى إليها فى المحكى أو عدم تعدده، فإن التعليق بما فيه من الخوف قد ذكر فى سورة القصص، دون سورة طه، لما أن الأولى قصد فيها قصدا أوليا إلى اقتصاص هذه المعانى وتفصيلها، على حين أن الثانية ذكرت فيها هذه المعانى على سبيل الاعتراض بها تذكيراً لموسى بنعمة قديمة عليه، حين سأل ربه «هرون أخى أشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى». فأجابه الرب «أوتيت سؤلك يا موسى، ولقد مننا عليك مرة أخرى؛ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم»[1].

وعلى أن الوحى إلى أم موسى قد تعدد — كما أختاره وأميل إليه — بأن كان الأول معلقا صدر لها قبل ميلاده أو بعد ميلاده، وقبل إحداق الخطر به، وكان الثانى ناجزا عند إحداق الخطر به، فقد ظهرت حكمة أخرى للتعبير بالإلقاء فى الأول، والقذف فى الثانى من حيث أن القذف أدل من الألقاء على الإسراع مخافة إدراك العدو له حين هجومه. ألا يرى إلى حروف الفاء المتتابعة المشعرة بهذا المعنى «اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل» وإلى الإصرار على التعبير بالقذف مرتين متجاورتين. اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم؟.

«المفارقة الثانية» سورة طه «إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن» سورة القصص «فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق».

المفارقة ذات وجهين. الوجه الأول: حكاية قول أخت موسى فى سورة طه

(١) راجع القصة فى السورتين

بطريقة « هل أدلكم على من يكفله » وفى القصص بطريقة « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » فاسم الموصول فى العبارة الأولى وهو « من » يقابله فى العبارة الثانية المضافان « أهل بيت » و « يكفله » فى العبارة الأولى ذات ضمير واحد يقابلها فى العبارة الثانية « يكفلونه لكم » هكذا بثلاثة ضمائر ، وقد كان من الجائز أن يكون كل منهما مكان الآخر جملة وتفصيلا ، والجواب بعد ما هو مفروغ منه من التفنن وحكاية المعانى لا الألفاظ، أن المقام فى سورة القصص مقام بسط واقتصاص معمود إليه مفتتح بقوله تعالى « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » .. الآيات : أما المقام فى سورة طه فمقام إيجاز واعتراض بهذه المرحلة من قصة موسى على ما سبق بيانه ، ألا يرى إلى زيادة قوله « وهم له ناصحون » فى المقام الأول دون الثانى ؟ .

« الوجه الثانى » قوله تعالى فى سورة طه « فرجعناك إلى أمك » وفى سورة القصص « فرددناه إلى أمه » ؟ أما ضمير الخطاب فى الأول ، والغيبة فى الثانى فلأنه مقتضى المقام فى كل .. أما وقوع التعبير عن معنى واحد بلفظين مختلفين ، حيث قيل فى الأول « رجعنا » وفى الثانى « رددنا » فأحسبه بعد ما فيه من تلوين وتنويع ، قد وقع الرد حيث هو واقع ، لأنه مسبوق فى الموضع نفسه باللفظ نفسه ، حيث قيل قبله بقليل فى وعد الله لأم موسى « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فكانت حكاية نفاذ الوعد من لفظ حكاية الوعد ذاته ، فإن قيل ولم كان هذا السابق فى الوعد بلفظ الرد ؟

قلت : إنه من تمكين المعنى بجرس اللفظ وهيئته [1] فلا شك أن رجوع موسى إلى أمه ، إنما كان بحيلة تحريم الله المراضع عليه ، الأمر الذى اقتضى رده إلى أمه وهم لا يشعرون ، والحيلة بالنسبة للعباد ، فيها تعمّل وتكلف يشبه ويناسب الثقل ، والتعمل فى الإدغام الواقع فى قوله تعالى : « إنا رادّوه إليك » هذا مع ما بينه وبين قرينه فى قوله تعالى : « وجاعلوه » من المشاكلة فى الحركة والمعنى ، ففى كليهما خروج بالشىء من حال إلى حال .

كما أنه كان سبق هذا الوعد فى سورة القصص هو السبب فى اختصاص

---

(١) سبقت الإفاضة فى بيان هذه الظاهرة فى القرآن الكريم فى مقالات سابقة .

الوضع نفسه بزيادة قوله تعالى : « ولتعلم أن وعد الله حق » دون شيء من ذلك كله في سورة طه [1] .

المفارقة الثالثة : في قوله تعالى في سورة القصص في شأن موسى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » مع قوله تعالى في شأن يوسف في سورة يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين » فقد اختصت قصة موسى بزيادة قوله تعالى : « واستوى » عقب قوله تعالى : « ولما بلغ أشده » والجواب عن ذلك يقتضي أن نقول : إنه قد وقع خلاف كبير في بيان الأشد والاستواء ، وهل هما شيء واحد أو شيئان ؟ فقيل في الأشد : إنه سن البلوغ ، وقيل الواحد والعشرين ، وقيل الثلاثين ، وقيل الثلاث والثلاثين ، وقيل الأربعين . وقيل في الاستواء : إنه سن الأربعين ، وقيل قبل الأربعين ، وقيل بعده ، وقيل هما — الأشد والاستواء — بمعنى استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية ، وكذلك حصل خلاف في المراد بالعلم والحكم . فقيل هما الرسالة ، وقيل النبوة ، وقيل الكمال النفساني من الحكمة العملية والنظرية ، ومهما يكن من هذه الأقوال أو غيرها ، فإن الآية الأولى دلت على أن الله أعطى موسى الحكم والعلم حين بلوغه الأشد والاستواء ، والثانية دلت على أن الله أعطاهما ليوسف حين بلوغه الأشد ، فهاهنا في جانب موسى زيادة الاستواء ، وهي زيادة دالة على زيادة في معنى بلوغه الأشد والاستواء . أما على أن الاستواء قدر زائد عن الأشد ، فظاهر ، وأما على أنه غير مباين له ، فإنه لا محالة دال على زيادة في هذه المعاني ، ومحال أن يكون لغوا . وعلى ذلك فجائز أن تكون هذه الزيادة من قبيل السن ، على معنى أن إيتاء العلم والحكم ، كان ليوسف قبل أن يكون لموسى بحسب عمر كل منهما ، ويؤيده ما هو ملاحظ في قصة يوسف قد أوحى إليه وهو في الجب ، كما قال تعالى : « وأوحينا

---

(١) لنستمع إلى الشيخ زكريا الأنصاري في كتيبه : « فتح الرحمن فيما يلتبس من آي القرآن » حيث يقول في هذه المفارقة : « وجمعناك لتقاوم ثقل الرجع خفة فتح الكاف والرد ليقاوم خفة الرد ثقل ضمة الهاء . وليوافق قوله إنا رادوه » اهـ .

إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، وقد رأى الرؤيا فجاءت مثل فلق الصبح حين قال لأبيه : « يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » وأما موسى فلم تظهر عليه علائم الحكم والعلم مبكرة ، فإنه ظل دون وحى إلى قتله القبطى وفراره إلى الشام ، وقضائه أجل الأجارة وعودته بأهله من لدن شعيب ، فجاءه الحق ، وجاءته الرسالة . وكأن المعنى فى ذلك : أن يوسف من بيت علم ونبوة ، فظهرت عليه مخايل ذلك فى صغره ، ولا كذلك موسى ، فإنه لم يعاجل بذلك بل استؤنى به .

وجائز أن تكون هذه الزيادة لا من قبيل السن بخصوصه ، ولكن من قبيل ما فى الجسم وبنية الشخص ، والمعنى : أن الله أعطى ليوسف الحكم والعلم حين بلوغه الأشد ، وأعطاهما موسى حين بلوغه الأشد والاستواء ، فكأن موسى حين هذا الإيتاء يزيد الاستواء على يوسف ، فكان أقوى جسما وأصلب عودا فيؤول المعنى إلى إثبات زيادة القوة البدنية فى موسى عنها فى يوسف ، فلئن كان يوسف قد أوتى شطر الحسن ، فقد أوتى موسى شطر القوة والفتوة ، وقد حدثنا القرآن أنه وكز رجلا فقضى عليه ، وحدثنا الحديث الصحيح : أنه صك ملك الموت ففقأ عينه ، وقد قالت ابنة شعيب : « ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » ووصفه النبى فى حديث المعراج : بأنه يشبه رجال أزدشنوءة الأشداء الأقوياء ، وكأنما كانت هذه القوة فيه من إعداد الله له ليقوى على ملاقاة ماعاناه من الشدائد فى حياته ، من مقارعة فرعون الجبار وتمرد بنى إسرائيل عليه مرة بعد أخرى ، وهجرته إلى الشام من مصر مرة بعد أخرى .

المفارقة الرابعة : فى قوله تعالى فى سورة القصص « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك . . . » مع قوله تعالى فى سورة يس « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . . . » الأصل فى الفاعل أن يلى فعله لا يعدل عن هذا الأصل إلا لموجب ، فإذا كان ما فى سورة القصص على الأصل من إيلاء الفاعل لفعله ، فما هو الموجب الذى دعا إلى مخالفة هذا الأصل فى سورة يس ؛ حيث فصل بين فاعل المجىء وفعله بالجار والمجرور ؟ الجواب أنه تقدم فى نفس السورة قوله تعالى « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية

إذ جاءها المرسلون . . » فذكر الله القصة ، وبين أن أهل القرية استكبروا وأصروا على الكفر بالرسل وتكذيبهم رغم تعزيز الله لهم ، وتوكيد أقوالهم بكثير من أدوات التوكيد [1] فلما أراد الله أن يذكر بعد تصوير هذا النزاع أن رجلا جاء فصدق الرسل ، ونصح قومه باتباعهم وكانت نفس السامع للقصة قد عرفت إصرار القوم الحاضرين ، وأصبحت مستشرفة لأن يكون هذا المصدق إنما أتى من مكان بعيد ، جاء النظم القرآنى مسعفاً للنفس بما تشوفت إليه وذلك بتأخير الفاعل ، وتقديم المكان الذى جاء فيه فإنه أهم وأولى .

وكم كان ذلك كله على طرف التمام من المناسبة بسابق القصة فى السورة نفسها ، فإنه تحدث عن إصرار أهل مكة على الكفر والتكذيب بخاتم النبيين ، فسواء أأنذر أم لم ينذر فهم لا يؤمنون ، فكانت قصة أصحاب القرية هذه بما فيها من هذا الصنيع الذى نعلل له ، كالبشارة لخاتم النبيين ، فإنه إن أصر على الكفر به من عاينه وباشره فعسى الله أن يقيض له من المؤمنين به من نأت بهم الدار ، وشط المزار من أهل يثرب وهكذا قد كان .

قد يقال بعد ذلك ما بال هذه المدينة سميت قرية فى نفس السورة فى قوله تعالى « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » ؟ وجوابه أن المدلول واحد فالمدينة والقرية والبلدة والمصر ، قد يجوز إطلاقها على مدلول واحد لكن لعل المدينة لما يراعى فيه الكبر والاتساع ، والقرية لما يراعى فيه الصغر والضيق فلما تعلق ببيان كبرها غرض حين بيان أن الرجل الذى جاء مصدقا كان من أقصاها البعيد ، وقع التعبير بالمدينة لإبعاد التهمة بأنه ربما كان له سابق تواطؤ مع الرسل دون شىء من ذلك فى مطلع القصة الذى وقع التعبير فيه بالقرية ، أما المدينة فى سورة القصص فهى هى فى جميع مواضعها « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . . » « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب . . » « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فلا سؤال فى ذلك . والله أعلم .

---

(١) راجع ما يشير اليه من المقامات والسور فهذا الذى نذكره هاهنا ليس أكثر من مفاتيح للبحث توضع بين يديك .

الوحدة فى تعاليم الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر التكريم الذى أسبغه الله على الإنسان ، أن أودع فيه حباً ذاتيا لبنى نوعه ، فجعله يحس بالحاجة الملحة إلى الإقامة فى كنفهم ، وتبادل العون معهم . والاعتصام بحبل مودتهم ، والإذعان بأن وجوده مرتبط بوجودهم ، فلن يدور بخلده أن ينأى عنهم ، ويحيا بعيدا عن محيطهم ، لأنه يعتقد أنهم عوامل بقائه . والعناصر المتممة لوجوده « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » ، وبوحى الفطرة يدرك أنه لبنة فى بناء المجتمع الذى يستظل بلوائه ، ويجنى ثمراته ، وأن هذا المجتمع لا تقوى دعائمه ، ويحكم بناؤه إلا بتضافر القوى وتآزر الأفراد وتماسكهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، لكن هذه الفطرة قد يعرض لها ما يفسد جوهرها ، ويضعف سلطانها ، فجاء الإسلام للفطرة حاميا ونصيرا ، وعضدا وظهيرا ، ولفت الأذهان الى تلك المعانى القيمة المركوزة فيها ، وأوصى بضرورة الاسترشاد بهديها ، والاقتباس من نورها ، وأخذ النفس بقانونها ، وأعلن فى صراحة ووضوح ، أن الاتحاد دعامة الأمة التى تركز عليها قواعدها ، وتشيد صروح عزها وباذخ مجدها ، وعصبها الحساس الذى يشد أزرها ويجعلها رفيعة العماد مرهوبة السلطان ، وروحها القوى الجبار الذى يبعث الحياة الماجدة فى عروقها ، وينشر النهضة المباركة فى جميع آفاقها ، ودرعها الحصين الذى تعتصم به عند الخطوب فتفيض الثقة والأمن فى ربوعها والخور والهلع فى أعدائها .

فلا عجب إذن أن تعنى الدولة بضم صفوف أبنائها أكثر من عنايتها بسلاحها ومعداتها الحربية ، لأن السلاح لا يغنى فتيلا إذا كانت تحمله نفوس متناحرة

متخاذلة ، عندئذ لا يرهب العدو لها بأسا ولا يخاف بطشا ، ويهون عليه أمرها . والأمة إذا هان أمرها على أعدائها كانت عرضة للزوال والانهيار . أنظر إلى تصوير القرآن الكريم لحال قوم وقفوا من المسلمين موقف المحاربة ، وقد أفسدوا ذات بينهم ، ومزقت الفرقة أواصر مودتهم « لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، ثم علل ذلك بقوله « بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

لهذا كله عنى الإسلام بالوحدة عناية فائقة فما ترك عاملا من عوامل الفرقة والإنقسام إلا قضى عليه ، ولا بابا من أبواب جمع الكلمة وتأليف القلوب إلا دعا إليه . وتوجز ذلك فيما يأتى .

(١) عمد إلى بدعة التفاخر بالانساب والمباهاة بالأجناس فهتك حجابها ، وبدد ظلامها وصراعها فى مهدها ، وذكر فى نداء صريح جامع أن البشر جميعا أبناء أب واحد وأم واحدة ، والكل إخوة متساوون فى الانتساب إليهما ، فليس لأمة أن يداخلها الزهو بأصلها ، أو تزعم أنها شعب الله المختار بعد أن يرن فى آذانها هذا الخطاب الرائع الوارد فى قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، فجعلهم شعوبا وأمما إنما هو وسيلة لتعارفهم وتوحيد أهدافهم لخير الإنسانية وهنائها .

يامن تنشدون السلام هذا هو الإسلام يحقق ضالتكم ويعطيكم ملء أيديكم من السلام ، فهو يدعو إلى إخوة شاملة جامعة ، لا تعرف التفرقة بين شعب وشعب ، ولا بين أمة وأمة ويجعل تبادل الإحسان فيما بينهم وفاء بحق القرابة وصلة للأرحام ، فخذوا عنه ولاتولوا وجوهكم شطر مدنيات الغرب فدولهم تتستر بالدعوة إلى السلام ، وتخفى وراء ذلك روغان الثعالب وغدر الذئاب .

أرأيت أبلغ فى الرد على فريتهم من فقد السلام بينهم وهم دعاته ؟

ولقد عجزت إحدى تلك الدول عن التسوية فى الحقوق والامتيازات بين رعاياها ، ففرقت بين لون ولون ، أين هذا مما يدعو إليه الإسلام من المساواة ، وأعلنه نبى الإسلام من فوق منبر دولى عام فى حجة الوداع فقال عليه الصلاة والسلام : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم يفتح الإسلام ميدان التسابق فى الفضائل ، والتزود من المحامد التى منها توثيق أواصر المودة والتآخى بين الشعوب جميعاً فيقول تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول عليه الصلاة والسلام « لا فضل عربى على عجمى إلا بالتقوى » .

(٢) أعلنه فى صراحة وإيضاح أن الأديان كلها تنبع من معين واحد ، وتلتقى فى غاية واحدة وهى توحيد الله تعالى والإخلاص فى عبادته ، والإحسان فى معاملة خلقه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فلا يليق بعاقل بعد هذا أن يعكس القصد من الدين ، ويجعله مادة للشقاق والنزاع الذى يزرع الأحقاد ويقطع الارحام ، إنه إن اقترف ذلك فقد مزق رداء الإسلام ، وتقلص عنه ظله وفارقه برد اليقين « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

(٣) ترفق بخصومه من أهل الأديان ودعاهم إلى التفاهم فى جو مفعم بصفاء المودة ، والإخلاص للحقيقة فطلب من الرسول الأكرم أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة معترف بها من الجميع ، ليست خاصة بفريق ولا تنسب إلى دين دون غيره . فإذا أثير فى نفوسهم المتفق عليه لم يشق عليهم بعد ذلك الإذعان بالمختلف فيه « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

وإنك لو صوبت النظر إلى أى حكم من أحكام الإسلام لوجدت الاتحاد ثمرته وغايته .

فنى العبادات شرع الله الصلاة وحث على الحرص فى أدائها بالجماعة ، ليقف الكل على قدم المساواة ، يقتدون بإمام واحد فى صلاة واحدة متجهين إلى قبلة واحدة ، مخلصين العبادة لإله واحد ، عندئذ تجتمع القلوب فى مناجاته والضراعة إليه والثقة به والتوكل عليه .

ولتحقيق الوحدة فى صورة باهرة دعا الإسلام إلى اجتماع أسبوعى فى صلاة الجمعة ، حيث يتضاعف العدد وتقوى أسباب الوئام .

وزيادة فى تمكين الرابطة الإسلامية وإكسابها متانة وصلابة ، شرع الدين اجتماعين حاشدين كل عام فى صلاة العيدين .

لكن هذه الاجتماعات كلها قد تكون قاصرة على أهل البلد الواحد ، فعقد الإسلام بشرعه للحج مؤتمراً عاما شاملا يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تجاوب شعورهم وتوحدت أهدافهم ، يؤدون عبادة واحدة ، ويطوفون حول بيت واحد ، ويجأرون بالتلبية لإله واحد مغتبطين بالاجتماع على طاعته ، والاعتصام بحبل مودته ، متسابقين فى الشكر على جزيل فضله وعظيم توفيقه إذ أصبحوا بنعمته إخوانا :

وناهيك بمشروع الزكاة الذى هو خير نظام اجتماعى ، يوثق أواصر المودة بين الأغنياء والفقراء ، ويجعل منهما أعوانا متناصرين بل إخوة متحابين ، يكونون جبهة منيعة تسعى جاهدة فى بناء مجد الأمة ، وتصد عنها تيار النزعات الهدامة والمذاهب الجامحة .

ونظام العقود فى الإسلام يحقق الوحدة فى أروع صورها ، لأنه قائم على التزام النصح والأمانة ومجانبة الكذب والتدليس والخيانة ، حتى لقد حكم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بإخراج الغاش من حظيرة الإسلام فقال : « من غشنا فليس منا » .

وأما العقوبات فقد شرعت زجرا للغاوين وردعا للمفسدين وقضاء على فكرة السوء التى تطوف بأذهان المفتونين ، فتدفعهم إلى الاعتداء على الآمنين ، والعدوان أقوى هادم لبناء الوحدة ومثير للبغضاء الحالقة للدين . فرهبة العقوبة تمنع من التوجه إلى اقتراف أسبابها ، وبذلك يصان جوهر الوحدة ويتبادل الجميع الأمن والاحترام والمودة والوئام ، وجعل الكل أمام قانون العقوبات سواء ، لتجتمع كافة الناس على تقديسه وخشية سلطانه ، لا فرق فى ذلك بين شريف ووضيع وغنى وفقير ، ورئيس ومرءوس وسيد ومسود ، كان ابن الأيهم أميراً على الشام وفى أثناء طوافه حول الكعبة داس أعرابى على طرف ردائه فلطمه جبلة ، فشكاه الأعرابى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فحكم عمر بالقصاص وقال لجبلة لابد أن تخضع للطمة مثلها من الأعرابى ، فقال له : أتسوون بين الملوك والسوقة ؟ فقال له عمر : « الإسلام قد سوى بينكما » . هل سمع الناس بمثل هذا التشريع فى سموه وعدالته الخالدة التى تنتصف من الأمير لأحد رعيته ؟

وهل أتاهم نبأ ذلك الدين القيم الذى يجعل شعار الخليفة الإسلامى « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقومه » يعلن هذا أحد الخلفاء فرد عليه أحد الخاضعين لحكمه قائلا : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فيحمد الله تعالى أن جعل فى الرعية من يقوم اعوجاج الخليفة بسيفه .

وهل علموا أروع من أن الإسلام يجيز لأحد أتباعه أن يقاضى الخليفة أمام قاض من قضاة المسلمين ، فلا يبالى القاضى أن يحكم على من ولاه القضاء ؛ إذا كان الحق فى جانب خصمه ، ولا يتهيب أن يرد شهادته إذا لم تتوفر لديه أسباب الأخذ بها ، ذلك لأن نصرته للحق أحب لديه من صلته بالخليفة ، فنصرته للحق اعتصام بربه « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

هذا هو الاتحاد الذى فهمه الرعيل الأول من المسلمين ، وفتحوا له قلوبهم وسكنت جوارحهم ، واتخذوه منهاجا عمليا ، فى كل شئونهم ، فظفروا بعون الله وإمداده وعزه وإسعاده . ونصرهم بالرعب ، وشرفهم بالخلافة عنه ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وجعلهم للعالم أئمة مهتدين ، وقادة موفقين ، فملأوا الوجود حكمة ورشدا ، وعدلا وفضلا ، وتمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما أصلحوا فسعدوا بتحقيق وعده الكريم الوارد فى قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

لكن المسلمين فى هذه الأيام قد فرقت بينهم المطامع والأهواء ، وسدت مسامعهم الشهوات وحجبت عنهم منافذ الهداية ، فقطعوا صلتهم بأسلافهم الأمجاد ، وصاروا شيعا متنافرة ، وأحزابا متناحرة ، فصاروا كثرة لا غناء فيها ، وغثاء كغثاء السيل ، فنزع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم ، وسلطهم عليهم فسلبوهم لذة الأمن ، وساموهم الخسف والنكال ، ووضعوا يدهم على موارد الثروة فى بلادهم ، وتقضى أمورهم فى غيبتهم ، ولا يستأذنون وهم شهود .

ولقد بلغ من انحلال المسلمين أن اتخذ الأعداء من بعضهم مطية ذلولا ، يركبونها لتنفيذ أطماعهم الجامحة ، وأغراضهم الآثمة ، وهذا الصنف من الخونة المجرمين شر ما تبتلى به الأمم ، لأنهم أشد فتكا بأمتهم ، وأسرع فى القضاء عليها

من عدوها السافر ، فهم بالنسبة لها كالنار فى الوقود ، لا تدعه حتى تجعله هشيما تذروه الرياح .

أيها المسلمون : إذا كان الأسى قد أذاب نفوسكم حسرة وكمداً لهوان أمركم على أعدائكم ، وهاجكم الشوق إلى أن تنعموا بما نعم به أسلافكم من عزة الملوك وطهارة الملائكة ، فاعلموا أن محاولتكم لإرجاع حقوقكم المغصوبة ، مع تمزيق وحدتكم صيحة فى واد ، ونفخة فى رماد ، لا يرفع العدو رأساً ، ولا يقيم وزناً .

صوت الشعوب من الزئير مجمّعاً فإذا تفرق كان بعض نباح

ولا عاصم اليوم من هذه الذلة والصغار إلا أن تجمعوا شملكم ، وترأبوا صدعكم ، وتقفوا أمام عدوكم جبهة متماسكة ، لا تذهب الأهواء ريحها ، ولا تلين قناتها . وليس هذا الدواء بعيداً عن أيديكم ، بل هو ماثل فى دينكم الذى يظلكم لواؤه ، فأصلحوا ذات بينكم ، وضموا صفوفكم ، وضاعفوا جهودكم ، ولا تيأسوا من روح الله ، فإنه قادر على إحياء الأرض بعد موتها ، والقادر على ذلك قادر على أقالة الأمم من عثرتها ، وإعزازها بعد ذلها ، وإمدادها بعد التخلى عنها ، وإعطائها بعد سلبها ، فأشعلوا جذوة الإيمان ، وألهبوا الحماس لسعى مجيد ، وعمل رشيد ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

طرائف الشعر

قال محمد بن على لرجل : إنك لتروى طرائف الشعر فكيف قال الأنصارى لأخيه ؟ فأنشده :

لعمرك ما إن أبو مالك بوان ولا بضعيف قواه
ولا بألد له نازع يعادى أخاه إذا ما نهاه
ولكنه غير مخلافة كريم الطبائع حلو ثناه
وإن سدته سدت مطواعة ومهما وكلت إليه كفاه

فقال محمد لأخيه زيد وكان حاضراً : هذه صفتك يا أخى وأعيذك بالله أن تكون قتيل أهل العراق .

العدالة في الإسلام

عدالة أمير المؤمنين على بن أبى طالب

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد على منصور

لما قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين فى فتنة قامت ضده ، هرع الناس إلى على بن أبى طالب ، وطلبوا أن يبايعوه على الخلافة ، فأبى عليهم ، فما زالوا به حتى أقنعوه بضرورة قبولها ، حسما للمنازعات ، وإطفاء لنيران الفتن ، فقبل رجاءهم كارها .

شىء من أعماله :

تمت بيعة على بالأغلبية ، فقام وخطب الناس ، ودعاهم إلى الخير وما فيه سعادتهم وفلاحهم ، وحذرهم الشر وما فيه شقاؤهم وهلاكهم . ونقل العاصمة إلى الكوفة ، وبدأ بتغيير عمال الأنصار ؛ لأنهم داعية الفرقة ، وسبب الشقاق ، ومن نجم من بينهم الاختلاف ؛ واستقبل أمير المؤمنين عهداً مملوءاً بالقلاقل والفتن ، والثورات والحروب ؛ وحكم خمس سنين لم يصف له فيها يوم ؛ وقتل فى النهاية بضربة من سيف مسموم بيد المجرم الأثيم عبد الرحمن بن ملجم الخارجى ، والمقدر واقع لا محالة ، والآخرة خير وأبقى لأمير المؤمنين !

نماذج من عدالته وإنصافه :

١ — جلس كرم الله وجهه ذات يوم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ فدخل عليهما رجل من اليهود ، وطلب من عمر أن يحكم بينه وبين على ؛ فنظر ابن الخطاب إلى على وقال له : قم فقف بجانب خصمك يا أبا الحسن ؛ فقام على ووقف بجانب خصمه والغضب باد على وجهه ؛ فقال له عمر : أتغضب لأنى أمرتك بالوقوف بجانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، إنى غضبت لأنك

لم تسو بيني وبين خصمي ؛ فقد كنوتني[1] وسميت خصمي ؛ وفي التكنية تعظيم فأسف عمر، وقضى بينهما بمنتهى العدالة والقسطاس . !

فهل رأيت أيها القارىء بعد هـــذا عدلا وإنصافاً ؟ يأمر عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله أن يقف بجانب خصمه ؛ وهو رجل من آحاد اليهود ؛ فيسارع علي بالوقوف إلى جانب اليهودي ، ويرى الغضب في وجهه ويعاتب عمر لا لأنه أمره بالوقوف إلى جانب خصمه ، بل لأنه قال له قم يا أبا الحسن ، فكناه وفي ذلك ما يشعر بالتعظيم ، على حين أنه سمى خصمه باسمه المجرد . !

وليس هذا بغريب من عمر وعلي ، رضي الله عنهما ، وهما من أكابر أصحاب رسول الله ، وحاملي لواء الاسلام من بعده ، وقد أشربا في قلوبهما تعاليم الشريعة الغراء ، واهتديا بهدى الرسول الأعظم ، وقد شاهداه يوم بدر وهو يطعن سواد بن غزية بقدح[2] في بطنه وهو مكشوف ليستوى في الصف ؛ فقال : قد أوجعتني يا رسول الله فأقِدْني ، فكشف له عن بطنه . ! ! فقبل مكان الطعنة ونزل عن حقه .

وأعجب من هذا أن رأياه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو في مرضه الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى ، وهو يعلن للناس : أن من له حق عنده فليأخذه ، ومن له مال فليطلبه ، ومن جلده أو ضربه فليقتص منه . وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه ذات يوم ؛ فقال يارسول الله : إنني كنت عاري الكتف أو الظهر ؛ فألقى الرداء عن عاتقه الشريف . !

وشأن الرجلين أن يتمسحا بالنبي العربي الكريم ، ويتوصلا لهـذا الشرف العظيم ، فهل عرف الناس أجمع عدلا يوازى هذا العدل ؟ وهل سمعوا بإنصاف يساوى هذا الإنصاف ؟ وهل يصدر مثل هذا إلا من رسول صادق أمين ، أعدته القدرة الإلهية ليكون المثل الأعلى في العـدل ، والغاية القصوى في الإنصاف ؟

---

(١) الكنية : ما صدرت بأب أو أم . وكنوتني : يعني قلت لي يا أبا الحسن .

(٢) القدح : السهم الذي لا نصل له .

ومن صاحبين جليلين، نسجا على منواله، وترسما خطاه؛ وكان لهما فيه الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة؟!

٣ — لما تمت البيعة لأمير المؤمنين على بالغلبة، وجه عنايته لبيت المال، ونظم دخله وخرجه - ولقد حدث ذات يوم أن حضر إليه أخوه، وطلب منه شيئاً من بيت المال، ولم يكن له فيه حق؛ فرفض على طلبه، ولم يعطه شيئاً؛ فتركه أخوه وانضم إلى أعدائه. فأية أمانة، وأى حرص على مال المسلمين، مثل هذا الحرص، وتلك الأمانة؟ تدفع الحاجة أخاه إلى أن يطلب منه شيئاً من بيت المال يستعين به، فيرفض علىّ طلبه، لأن أخاه لا حق له فيه؛ ويأبى أمير المؤمنين ألا يأخذ من بيت المال إلا من له فيه حق معلوم، وإن أدى الأمر إلى غضب أخيه وانضمامه إلى أعدائه؛ وفى هذا العدل المجسم، والإنصاف العظيم.!

٤ — سار على فى الطريق يوماً يتفقد أحوال الرعية، فوجد فئتين يقتتلان ففرق بينهما؛ ثم مضى بعد ذلك فسمع صوت مستغيث. فخرج يجرى وهو يقول: أتاك الغوث، أتاك الغوث؛ فرأى رجلا ممسكا آخر، فسأله عن حاله؛ فقال: يا أمير المؤمنين، بعت هذا ثوباً بتسعة دراهم، فأعطى دراهم على غير الشرط؛ فطلبت منه استعاضة غيرها بها، فأبى ولطمنى: فقال له على: أبدلها له، فأبدلها. ثم التفت أمير المؤمنين إلى المضروب وقال له: أين بينتك على اللطمة؟ فأحضرها. فأقعد الضارب وقال للمضروب اقتص منه — فقال: إنى عفوت عنه يا أمير المؤمنين؛ فضرب على الرجل تسع درات، وقال: هذا حق السلطان.

فانظر أيها القارىء كيف أقعد أمير المؤمنين الضارب وأمر المضروب بأن يأخذ حقه منه بالقصاص؟ وتأمل بُعد نظره وسداد رأيه فى معاقبة الظالم بعد أن عفا عنه المظلوم كما تفعل النيابة الآن؟ وإنى موقن بأنك متلمس فى هذه الحادثة شدة يقظة على على رعيته، واستعداده لإجابة نداء المستغيث منهم؛ مما يدل على منتهى الشجاعة والجرأة، والشهامة والمروءة، والعدالة والإنصاف.

٥ — كان فى بيت المال عقد نفيس من اللؤلؤ ، فأرسلت ابنة أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الخازن تطلب منه أن يعيرها هذا العقد لتتجمل به يوم عيد الأضحى على أن ترده إليه بعد ثلاثة أيام .

فأرسل الخادم إليها العقد ؛ ولما وضعته فى جيدها ، ورآه والدها عرفه ؛ فسألها فى ذلك ، فقالت : استعرته من خازن بيت المال لأتزين به فى العيد ثم أرده إليه .

فبعث أمير المؤمنين فى الحال إلى الخازن ، ووبخه على تصرفه فى مال المسلمين ؛ ثم أمر برد العقد إلى بيت المال على وجه السرعة — فقالت له ابنته : يا أمير المؤمنين ، أنا ابنتك ، وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه منى ؟ فقال لها : أ كل نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى العيد بمثل هذا ؟ ثم قال : ويل لابنتى ، لو لم تأخذ العقد على أنه عارية مردودة ، لكانت أول هاشمية قطعت يدها فى سرقة . !

فأى عدل أعظم من هذا ؟ وأى إنصاف فوق هذا الإنصاف ؟ يأبى أمير المؤمنين أن تتزين ابنته بعقد اللؤلؤ الذى استعارته من بيت المال ، ويرسل تواً إلى الخازن فيؤنبه ، ويوجه إليه قارص اللوم على هذا التصرف . ولا يكتفى بهذا بل يأمر برد العقد إلى بيت المال فى نفس اليوم .

ولا يفوت ابنته أن تستعطفه ، حتى يسمح لها أن تتزين به فى العيد فيسكتها بجواب فى منتهى الإقناع — وفوق هذا يقرر فى نفسها أنها لو لم تأخذ العقد بصفة عارية ترد بعد ثلاثة أيام لكانت أول هاشمية يأمر بقطع يدها فى سرقة !

فهل وصلت المدنية الحاضرة إلى هذا ؟ وهل يوجد الآن على ظهر البسيطة أناس يشعرون بالمسؤولية ، مثل هذا الشعور العظيم ؛ فيخلد التاريخ لهم ذلك على صفحاته بكل إجلال وإكبار ! ؟

إنا لنبتهل إلى الله العلى القدير ، الذى خلق أبا الحسن وسواه ، وصوره فى أحسن تقويم ، أن يرضى عنه ، وأن يجعل فيه للحكام والرؤساء الأسوة والقدوة ؛ فلقد كان — فوق أخلاقه وسجاياه الطيبة — عادلا ، منصفاً للناس من نفسه ومن خاصة أهله ؛ مبغضاً الاستئثار بما الجميع فيه سواسية ؛ موقناً بأن الله سبحانه للظالمين بالمرصاد .

إساءة تقابل بعطف

من أخبار العباسيين

للأستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

بينما الخيزران أم أميرى المؤمنين الهادى والرشيد فى دارها المعروفة بأساس ، على عهد زوجها أمير المؤمنين المهدى ، وعندها أمهات أولاد الخلفاء ، وغيرهن من بنات بنى هاشم ، وهى على بساط أرمنى ، وهن على نمارق أرمنية . وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبة : فبينا هى كذلك إذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حُسن وجمال فى أطمار رثة ، تأبى أن تخبر ما اسمها ، تروم الدخول عليكن .

فقالت الخيزران للخادم : إئذن لها فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال ولكنها فى أطمار رثه . فتكلمت فأوضحت عن بيان رائع .

فقلن لها : من أنت ؟ قالت : أنا مزينة امرأة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وقد أصارنى الدهر إلى ما ترين ، ووالله ما الاطمار الرثة التى علىّ إلا عارية ، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر ، وصار لكم دوننا ، لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر ، على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالة كانت حتى تأتى دعوة من له الدعوة . !

فاغرورقت عينا الخيزران ، ورقت لحالها ؛ فخافت زينب بنت سليمان أن تقوم الخيزران بإجابة مزينة لمطلبها ، فنظرت إلى مزينة مغضبة وقالت لها : لاخفف الله عنك يا مزينة ، أتذكرين وقد دخلت إليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه ، فكلمتك فى جثة إبراهيم الإمام فانتهرتنى وأمرت بإخراجى ، وقلت ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم ، فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ، ولقد دخلت إليه فحلف أنه ماقتله وهو كاذب وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع إلىّ جثته . وعرض علىّ مالا فلم أقبله .

فلما سمعت مزينة تأنيبها لها قالت : والله ما أظن هذه الحالة أدتنى إلى ما ترينه إلا بالفعل الذى كان منى ، وكأنك استحسنتيه فتحرضين الخيزران على فعل مثله . ولكن كان يجب عليك أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر ، لتستبق

بذلك نعمتها ، وتصون بها دينها . قالت لزينب : يا بنت عم كيف ترين صنيع الله بنا فى العقوق فتحبين التأسى بنا فيه ؟ ثم ولت با كية ! .

هنالك أشارت الخيزران إلى بعض جواريها أن تعدل بها إلى بعض المقاصير، وأن لا تمكنها من الخروج من القصر كاسفة البال ، وأمرتها بتغيير حالها والتلطف بها . وبينما الحال على ما وصفنا وإذا بأمير المؤمنين المهدى . فلما استقر به المكان انصرفت زينب بنت سليمان إلى مقصورتها ، وتقدمت الخيزران وقصت عليه ما حدث . فقال : علىّ بالجارية التى خرجت وراءها وردتها إلى بعض المقاصير ، فلما حضرت سألها : لما ذهبت مزينة الى المقصورة ما الذى سمعتيها تقول ؟ فأجابت الجارية لحقتها فى أحد الممرات وهى تبكى تالية قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » فالتفت المهدى إلى الخيزران أم الرشيد ، وقال لها : والله لو لم تفعلى بها ما فعلت ما كلمتك أبدا . وبكى وقال : اللهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة .

ثم قال إنى أنكر ما فعلته زينب بنت سليمان معها ، ولولا أنها أكبر نسائنا لحلفت أن لا أكلمها ، ثم أرسل إحدى الجوارى إلى مقصورة مزينة وقال لها إقرئى عليها السلام ، وقولى لها : يا بنت عم إن إخواتك قد اجتمعن عندى ، ولولا أنى ابن عمك لجئناك . فجاءت إليه مزينة شاكرة وهى ترفل فى أثوابها فأمرها بالجلوس ، ورحب بها ، ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان ، ثم أفاضوا فى أخبار أسلافهم وأيام الناس والدولة ، وتنقلها فما تركت لأحد فى المجلس كلاما .

فقال لها المهدى : يا بنت عم والله لولا أنى أخشى أن أنغص على من أكرمتك لتزوجتك ، ولكن لا شىء أصون لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى ، لك مالهن وعليك ما عليهن ، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق ، ثم اقطعها مثل مالهن من الإقطاع ، وأعد لها من الخدم من يقوم بحاجاتها ، وأجازها.

فأقامت مزينة فى قصر المهدى إلى أن قضى نحبه ، وأيام الهادى ، وصدرا من أيام الرشيد ، وماتت فى خلافته ؛ وكان لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم . فلما قبضت جزع عليها الرشيد جزعا شديدا ، وأضحت كأن لم تغن بالأمس .

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

بسم الله الرحمن الرحيم

درس ديني بقصر رأس التين

سن حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم الاستماع إلى دروس دينية تلقى بعد صلاة العشاء، يشرف جلالته حلقات بعضها بذاته الكريمة. وقد ألقى الدرس الأول هذه السنة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ علام نصار مفتى الديار المصرية، وألقى ثانيهما حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر بالسراى الملكية فى مساء يوم الإثنين ١١ رمضان سنة ١٣٦٩. وهو كما يرى القراء حافل بالتفصيلات عن فريضة الصوم وآدابه ورخصه وشروط صحته وفضائله، فجاء درساً جامعاً يجب أن يلم به كل مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

«يَأَيُّها الذينَ آمَنوا كُتِبَ عليكمُ الصيامُ كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قَبلكمْ لعلَّكمْ تَتقُونَ. أيّاماً معدُوداتٍ، فمنْ كانَ مِنكمْ مَريضاً أوْ على سَفرٍ فعِدَّةٌ مِن أيامٍ أُخرَ، وَعلى الذينَ يُطِيقونهُ فِديَةٌ طعامُ مِسكينٍ، فمَنْ تَطوَّعَ خيْراً فهوَ خيْرٌ لهُ، وأنْ تصومُوا خيْرٌ لكمْ، إنْ كنتمْ تعلمونَ. شهرُ رَمضانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلناسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الهدَى والفُرقانِ، فمَنْ شَهِدَ مِنكمُ الشهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أوْ على سَفَرٍ فعِدَّةٌ مِنْ أيامٍ أُخرَ، يُرِيدُ اللهُ بِكمُ اليُسرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكمُ العُسْرَ وَلِتُكمِلوا العِدَّةَ وَلِتُكبِّرُوا اللهَ على مَا هَدَاكمْ، وَلعلَّكم تَشكرُونَ».

الصيام فى اللغة : الإمساك والكف عن الشىء ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنى نذرت للرحمن صوماً » ، أى صمتاً وكفاً عن الكلام . وفى الشرع : الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء ، من الفجر إلى المغرب ، ابتغاء مرضاة الله .

وقد فرض الله الصوم على المؤمنين كما فرضه على الأمم السابقة ، فكان ركناً من أركان كل دين ، لأنه من أقوى العبادات ، وأفضل وسائل التهذيب ، وتهيئة النفوس لفعل الخير .

وفى إعلامه تعالى لنا أنه فرضه علينا كما فرضه على الأمم السابقة إشعار بأن جميع الديانات التى أنزلها الله تعالى على رسله واحدة فى أصولها ومقاصدها وإن اختلفت كيفيتها وأزمنتها وأمكنتها .

ثم بين تعالى بقوله « لعلكم تتقون » أنه إنما فرض الصيام علينا لمصلحتنا وسعادتنا ؛ فإنه يعد النفوس ويهيئها لقبول الطاعات والبعد عن المعاصى .

والصائم إذا ترك شهواته التى تعرض له أثناء الصوم امتثالا لأمر الله تعالى ، وراض نفسه على الصبر كلما أغرتها الطيبات والشهوات ، شعورا منه بأن الله تعالى يراقبه وأنه مطلع على سر نفسه ، وتكرر ذلك منه أيام صيامه - فإنه تتربى فى نفسه ملكة خشية الله وتعظيمه ، ومراقبته ، وتزكو نفسه ، وتكون مستعدة لتقوى الله .

ومراقبة الصائم ربه فى صيامه هى فى الحقيقة رُوحُ الصيام الذى أراده الله من المؤمنين ، ليسعدوا بالتقوى ، وهو الصيام الذى يربى الإرادة ، ويكبح الشهوات ، وينشىء عاطفة الرحمة والإحسان .

أما مجرد الإمساك عن الطعام والشراب مع عدم مراقبة الله تعالى ، مما يسهل عليه ارتكاب الآثام ، فليس هو الصيام الذى فرضه الله على المؤمنين . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فصوموا أيها المؤمنون كما أمر الله ، تظفروا بعظيم الجزاء عند الله : قال

رسول الله صلى عليه وسلم « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

* * *

بين الله الصيام الذى كتبه على المؤمنين بأنه فى أيام معدودات . والمحققون من المفسرين كالحسن وابن جرير وأبى مسلم على أن الله جل ثناؤه عنىَ بقوله : « أياما معدودات » أيام شهر رمضان .

وقال بعضهم : الأيام المعدودات صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وكان ذلك فرضاً على الناس قبل أن يُفرضَ عليهم شهر رمضان ، ولكن هذا القول لا دليل عليه . وقال ابن جرير المفسرُ : إنه لم يأت خبر تقوم به حجةٌ بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم رمضان ثم نسخ بصوم شهر رمضان ؛ بل بيّن الله فى سياق الآية أن الصيام الذى كتبه على المؤمنين هو شهر رمضان دون غيره من الأوقات .

ولما كان فرض الصوم عامًّا ، استُثنى منه الذين يشقُّ عليهم الصومُ ، أو الذين هم بمظِنة أن يشقَّ عليهم ، فقال تعالى : « فمَنْ كان مِنكُم مرِيضاً أو على سَفَرٍ فعِدَّةٌ مِن أيَّامٍ أخر » .

فالمريض والمسافر بمظِنة أن يشق عليهم الصيام ، ولهذا رخص لهما فى الفطر . ولكن ليس كل مرض يبيح الفطر ، لأن من الأمراض ما يعالج بالصيام ، ومنها اليسير الذى لا يضر ، وإنما المرض المبيح للفطر هو الذى يؤلم المريض ويؤذيه ، أو يخاف تماديه أو تزيده بالصوم . وهو قول جمهور من العلماء ، ومذهبُ حذاق أصحاب الإمام مالك .

وإذا صام المريض أو المسافر أجزأه الصوم عن فرضه . وإذا أفطر برخصة الله فعليه صوم عـدة أيام أخر مكان الأيام التى أفطرها فى مرضه أو سفره . وذلك معنى قوله تعالى : « فعدة من أيام أخر » .

والآية فى إطلاق الرخصة فى الفطر للمريض والمسافر شاملةٌ للمريض الذى يصيبه المرض أثناء النهار فيفطر ، وللمسافر الذى يسافر أثناء النهار فيفطر .

وكذلك قوله : « فعدة من أيام أخر » عام فى قضاء الأيام التى أفطرها المريض أو المسافر متتابعة أو متفرقة .

* * *

وقوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين » اختلف فى تفسيره أهل التأويل . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الآية خاصة بالشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم ، أو لا يستطيعانه إلا بجهد ، فيفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينا . وفسر قوله : « يطيقونه » بمعنى يطوقونه ، أى يتكلفونه . والوجه فى هذا التفسير أن الإطاقة أدنى درجات المكنة والقدرة على الشىء ، فلا تقول العرب : أطاق الشىء ، إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث لا يقدر عليه إلا مع الشدة والمشقة ، وهذا بخلاف الوسع الذى يدل على اليسر والسهولة .

وجعل ابن عباس المريض الذى لازمه السقم ، والحبلى والمرضعَ إذا خافتا على الجنين والطفل فى حكم الشيخ والشيخة .

وعلى قياس قوله يرخص أيضاً بالإفطار والإطعام للعمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال فى المناجم ، والمسجونين الذين يقضون حياة سجنهم فى الأعمال الشاقة ، كقطع الأحجار وحمل الأثقال .

وقال كثير من المفسرين : إن الله تعالى فرض شهر رمضان ، وأنزل قوله « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فكان من شاء صامه ، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً .

ثم أنزل قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » — إلى آخر الآية : فنسخ به عموم قوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعامُ مسكينٍ » وثبتت الآية فى الشيخ والشيخة اللذين لا يقدران على الصيام ، وصار معنى الآية : الصيام واجب على الصحيح المقيم ، والفطرُ والقضاءُ رخصة للمريض والمسافر ، والفطرُ وإطعام مسكين عن كل يوم رخصةٌ للشيخ والشيخة اللذين لا يستطيعان الصوم .

وقال الأصم : إن الآية راجعة إلى المريض والمسافر فى الآية السابقة ، وذلك لأن المريض والمسافر قد يكون منهما من لا يُطيق الصوم ، ومنهما من يطيق . فالذى لا يطيق بين حكمه بقوله : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر » ، والذى يطيق بين حكمه بقوله : « وعلى الذين يُطيقونه فدية طعام مسكين » .

وقول الأصم لا يتفق مع ما ورد فى السنة من أن الفطر للمرضى والمسافرين رخصةٌ من الله ، من شاء منهم صام ومن شاء أفطر وقضى من أيام أخر . وقول الأكثرين وإن كان يتفق فى النهاية مع قول ابن عباس إلا فى بعض التفريعات ، ولكن تفسير ابن عباس أفضل ، لأنه لا ضرورة للقول بالنسخ فى قوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعامُ مسكين » .

وقوله تعالى « فمن تطوع خيراً فهو خير له » عام فى التطوع بالخير مع الفدية بأن يجمع بين الصوم والفدية ، أو يطعم عن اليوم الواحد أكثر من مسكين ، أو يزيد فى طعام المسكين أكثر من الواجب ؛ كل ذلك من الخير الذى يشمله عموم الآية .

« وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » خطاب عام لأهل الرخص من المرضى والمسافرين وغيرهم ، والمعنى إنكم إذا علمتم وتدبرتم ما فى الصوم من الخير وأنه يورث تقوى الله ، علمتم أن الصيام خير لكم ؛ وهذا إذا لم يضرُّكم الصوم ، لأن الضرر لا خير فيه .

وقوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » بيان من الله تعالى بأن الأيام المعدودات هى شهر رمضان ، وأنه إنما فرض صيامه على الناس لأنه شهر كله خير وبركة ، فقد أنزل فيه القرآن فى ليلة باركها الله وجعلها خيراً من ألف شهر ؛ والقرآن هو الهداية العامة والنور الساطع ، لخير البشر وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وأنه فى هدايته آيات بينات من الهدى ، ومنهج واضح للفصل بين الحق والباطل .

وإذا كان القرآن نعمة عظمى تجلى الله بها على عباده فى هذا الشهر ، فإنه

يكون أنسب أن يجعل هذا الشهر شهر تبتل ورجوع إلى الله بعبادة الصوم التى تزكى النفوس، وتطهر القلوب مما ألم بها، شكراً لله تعالى على هذه النعمة.

* * *

ولما بين الله ما اختص به هذا الشهر من المنزلة عنده، قال «فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» أى يجب على من شهده منكم أى كان حاضراً وقت حلوله - أن يصومه إن كان صحيحاً مقيما، وإن كان مريضاً أو مسافراً وقت حلوله، أو طرأ عليه ذلك أثناء الشهر، حل له أن يفطر، رخصة من الله، ويقضى ما أفطر من أيام أخر.

وهذا التفسير أولى مما قاله بعض المفسرين: إن معنى الآية أن من حل عليه رمضان وهو صحيح مقيم وجب عليه صيام الشهر كله ولو سافر فى أثنائه، ومن حل عليه وهو مريض أو مسافر قضى عدة ما أفطر من أيام أخر؛ لأن تفسير هذا البعض لا يتفق مع عمل النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كان يصوم بعض أيام الشهر ثم يسافر فيفطر.

وقوله «ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» تأكيد للرخصة للمريض والمسافر، لئلا يظن السامع بعد أن بين الله المزايا العظيمة التى فى شهر رمضان، وبعد أن أمر بصيامه بقوله: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» - لئلا يظن أن صيام الشهر كله أمر حتم.

* * *

وهنا يعرض للناظر فى قوله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» أن الآية لا تشمل سكان بلاد الشمال الذين يطول ليلهم ونهارهم، وقد يصل فى بعض الجهات القريبة من القطبين إلى شهور. ومع أن القرآن راعى فى تشريع الحكم الأعم الأغلب من بلاد الله، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك ذلك، بل وضع له أساساً يتبع فى الحكم للمسلمين الذين يصلون إلى هذه الجهات. ففى صحيح مسلم عند ذكر أحداث الدجال، وأن من أيامه يوما كسنة ويوما كشهر ويوما كجمعة - سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل يكفى فى يومه

الذى كسنة صلاة يوم واحد ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ، أى اجعلوا لكل وقت من أوقات الصلاة قدرا من هذا اليوم تؤدونها فيه .

وهذا أصل فى التشريع لكل أنواع العبادات الموقوتة ، ومنها الصيام .

والأظهر أن يكون التقدير حسب الأوقات فى أقرب البلاد المعتدلة .

* * *

أشارت الآيات السابقة إلى ما كان من فضل الله علينا ، وسعة رحمته بنا فى فرض الصيام حيث جعله سبيلا إلى التقوى ، وأزاح عنا المشقة وسهل لنا صيامه بجعله فى أيام معدودات ، لا أبداً ولا فى أكثر الأوقات ، ورخص فى تأخيره للمرضى والمسافرين ، كما رخص لمن يجهدهم الصيام ويشق عليهم فى الإفطار والفدية ، وجعله فى أخطر الشهور شأنا وهو شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هداية للبشر — فناسب أن يختتم ذلك كلّه بالتنبيه على الحكمة فى هذه الألطاف المقرونة بهذا التكليف ، فقال تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبّروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » .

وبيان ذلك أن الله بنى تشريعه على اليسر والرفق ، وما جعل علينا فى الدين من حرج ، ولذلك جعل الصيام ميسراً لا عسر فيه حيث فرضه فى أيام معدودات . ورخص لأصحاب الأعذار من المرضى والمسافرين فى تأخيره . كما رخص لمن يشق عليهم الصوم فى الإفطار والفدية ، ورخص لنا فى إكمال عدة الشهر بقضاء ما فاتنا ، ليكمل لنا الأجر وحسن مثوبة الصوم . وهى منن تدعونا إلى تكبير الله وتعظيم شأنه على ما هدانا إليه من الخير ، وإلى شكره على هذا الفضل العظيم .

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

بينا فى الجزء الماضى أن عقائد الإسلام الرئيسية تمنع تولد الشقاق بين الجماعات، فلا تشتغل الجماعات بنفسها عن توحيد قواها للوصول إلى غاياتها فى ثقة وطمأنينة لابد منهما لبناء الأصول الراسخة، وإقامة المبانى الشامخة؛ واليوم نسرد رؤس الأصول الاجتماعية فى الإسلام، ونبين أنها مستودع آياته الباهرة، ومعجزاته الخالدة، فنقول:

لكل مجتمع أصول تقوم عليها أركانه، كما لكل مبنى وطائد يقوم عليها بنيانه، وبقدر ما تكون تلك الأصول قوية ومستقرة على قرار مكين، يجىء البناء متيناً راسياً لا يتداعى للسقوط، ولا يحتاج للترميم. وقد جرت السنة الاجتماعية على أن هذه الأصول تكون بدائية فى المجتمعات الحديثة الوجود، ثم تأخذ فى التهذب والارتقاء رويداً رويداً تحت تأثير دوافع قاهرة، وعوامل مؤثرة، تظهر أولا على صورة مصادمات جدلية، ثم تتطور إلى ثورات دموية؛ وعقب كل انقلاب من هذه الانقلابات ترتقى الروابط الاجتماعية درجة فى تطورها إلى الديموقراطية المثالية، التى تنقطع معها الفوارق الطائفية فى الأمة الواحدة. من هنا لا تفتأ الجماعات تهب فيها الثورات من حين إلى آخر، مدفوعة إليها بعوامل ناموس الارتقاء، لا بعوامل شر كما يتوهم ذلك من لا بصيرة لهم بعلم الاجتماع.

قلنا: إن الجماعة الإسلامية مضى عليها بعد أن تألفت على حالة ضعيفة ساذجة، ووصلت إلى درجة ممتازة من النظام الاجتماعى، والرقى العلمى والعملى، مما استحقت به خلافة الله فى الأرض - قرون كثيرة، لم تشب فيها ثورة واحدة أثارها ما يثير غيرها من طلب المساواة فى الحقوق والواجبات الاجتماعية، وهى الأسباب التى ولدت فى جميع العصور شر الثورات، وأشدها كلبا، حتى كانت سببا فى حل جماعات، وضياع استقلال أخرى، وجرت وراءها نكبات لا حصر لها لتلك المجتمعات وما جاورها، ولا يزال الناس يعيدون ذكرى الثورات الرومانية والانجليزية والفرنسية والروسية وغيرها مما لا يمكن حصره.

وإنما يردد الناس ذكرى هذه الثورات لأنها إنما شبت لتوليد الحقوق الإنسانية الطبيعية ، وتسجيل نشوئها فى العالم كأصول أولية لكل نهضة اجتماعية ذات أغراض مدنية أو أدبية .

إذا صح هذا وهو صحيح ، بل هو طبيعى محسوس ، فلماذا لم تحدث مثل هذه الثورات فى الأمة الإسلامية ، فيستدعى نهوضها الإجتماعى والمدنى قروناً كثيرة كما حدث لغيرها ؛ بل تألفت ولم يمض على تألفها قرنان حتى أصبحت أعظم أمبرطورية فى الأرض ، وأسست مدنية فاقت جميع ما تقدمها ، وحفظت للعالم تراثه العلمى وزادت عليه من جهودها مكتشفات جديدة ، ومعلومات ثمينة ، أتمت كل هذا فى قرنين لم يتخللهما أقل اعتراك على الحقوق الاجتماعية ، الأمر الذى احتكر جميع الثورات البشرية ، واستوعب تاريخها كله ؟

السبب فى هذا هو ما قدمناه من أن الاسلام جاء مشتملا على جميع حقوق الأفراد بعضهم حيال بعض ، وعلى كل ضروب المساواة التى تتطلبها الحياة المدنية ، ولا تظهر الحاجة إليها فى الشعوب إلا رويداً رويدا ، فنى كل مرحلة من المراحل الاجتماعية يزداد وعى الجماعة بنفسها ، فتطالب الطوائف المحرومة من حقوقها بتلك الحقوق ، ويصر المتمتعون بها على حرمانهم منها ، فيحاول الضعفاء أخذها غِلابا ، فتقع بين الفريقين ثورة قد يتغلب فيها المغتصبون ، فتهدأ الثورات أمداً محدوداً ، ثم تهب من جديد ؛ ولا تزال تتبع هذا الاسلوب إزاء حصولها على حقوقها الاجتماعية ، حتى تحصل عليها كاملة أو تخيب فى منازعة خصومها فتلحق بالمتخلفين .

أرسل الله خاتم رسله بالاسلام ، والأمم فى غيابة من الجهل بحقوقها ، يسوقها رعاتها إلى التناحر ، فتنقاد لهم انقياد الخراف لرعاتها ، فيدفعون بها إلى أى الأغراض شاءوا ؛ فأعلن صلى الله عليه وسلم الأفراد بحقوقهم وواجباتهم وطالبهم بالاعتداد بها والحرص عليها ، وأنهم يحيون حياة طيبة ، ويخدمون أنفسهم والإنسانية أجمع ما داموا عاملين بها ، ومترسمين خطواتها ، فإن انحرفوا عنها انحرفت بهم الأحوال ، فإن لم يتيقظوا أدركتهم أدواء الأمم وهلكوا ولا كرامة .

أول تلك الأصول : المساواة بين الناس كائنة فى جميع الحقوق الإنسانية لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لتركى على زنجى ولا لغنى على فقير ، ولا لوجيه

على صعلوك ، فالجميع متساوون فى الحقوق والواجبات . قال الله تعالى : « يأيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

بهذا الأصل الأصيل سقطت فى العالم الاسلامى فتنة اعتبار الفقراء والعامة محرومين ، أو كأشباه المحرومين من الحقوق الوطنية ، والميزات الاجتماعية ، فلكل مسلم وإن كان معدما وذا ماض بعيد فى الفاقة وخمول الذكر ، من الحقوق الوطنية ما لأثرى الأثرياء ، الممثل لأرفع البيوتات ، وأنبل الطبقات .

فكما فتح الإسلام أمامه باب الارتزاق ، ولم يضع له حدا فى طلب الحلال ، مهد له سبيل الخدم الاجتماعية ، فلم يوصد فى وجهه بابا يمكن أن يلج منه للوصول إلى أرفع الدرجات فى المجتمع ، ولم يضع أمامه من العراقيل ما يصرفه عنه إلى غيره . وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ هذا النظام فولى بلالا - وكان مملوكا حبشيا لواحد من الناس - على المدينة ، ليدبر أمورها فى غيبته ، وكان فيها أبو بكر وعمر وعدد كبير من عظماء الصحابة ، وكبار أصحاب البيوتات .

فهذه ديمقراطية لم يرها العالم المتمدن إلى اليوم ، ولم ينس الناس ما لقى ويلقى السود والهنود وغيرهم من سوء معاملة بعض الأمم المتمدنة إلى عهدنا هذا .

وكما رفع الإسلام عن الضعفاء هذا الأصر ، أشركهم فى جميع مجالات الحياة مع الكبراء ، وجلة الأثرياء . وساوى بين الجميع فى المعاملات ، بينما كانت الأمم فى حين إيحاء الإسلام إلى أواخر القرن الثامن عشر أى إلى عهد الثورة الفرنسية فى سنة (١٧٩٨) ، لا تزال تضع فروقا عظيمة بين الأثرياء والفقراء . جاء فى موسوعة لاروس قوله : « فى سنة (١٧٩٨) كان يوجد عدم مساواة شائك فى توزيع المناصب العمومية ، وعدم الرقابة عليها ، فبذل وزراء لويز السادس عشر جهدهم لإجراء الاصلاحات التى تتطلبها الأمه ؛ فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والنبلاء ، فرأت الأمة أنه لا يجدى فى هذا الأمر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات ، جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين

الجميع ، ا هـ . وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الانقلابات ، وما قررته من الإصلاحات ، وكانت سببا فى إيقاظ شعوب أوروبا جميعا من سباتهم ، فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعا ضد حكوماتهم طالبين التأسى بحكومة الفرنسيين ، فكان لهم ما أرادوا ، فانظر كيف تأخر الاوربيون عن المسلمين نحو اثنى عشر قرنا فى التمتع بالحرية ، وبالأصول المستندة الى الديموقراطية الصحيحة التى أساسها المساواة المطلقة بين جميع أفراد الشعب . والله إنه لأمر جلل !

هذا تأويل عدم ثورة المسلمين على قادتهم طوال عهد ارتقائهم ، فقد كان ذلك لعدم وجود ما يقتضيه من منع حقوق الضعفاء ، وحصر الشؤون العظيمة للطبقات القوية من الأثرياء ، وأصحاب العصبيات . وعدم وجود مثل هذه الثورات فى الاجتماع الإسلامى فى مدى قرون متوالية ، هو الذى مكنهم من تحقيق مدنية راقية فى مدى قرنين اثنين . أليس من المعجزات الباهرة أن تتألف أمة لا عهد لها بوحدة ، ولا بحكومة ، ولا بقانون ، ولا بمثل أعلى ، فتصل فى قرنين إلى أبعد ما وصل إليه غيرها فى عشرة قرون ؟

نعم إن هذا الأمر من المعجزات الباهرة ، وأى إعجاز أعظم من إيجاد أمة من العدم ، وتزويدها بأصول اجتماعية تضمن قيامها على أكمل نظام ، وبمبادئ خلقية تجعل منها أمة مثالية على أرقى حال ؟ ومن العجيب أن هذه الأمة مرت بجميع الأدوار المكونة للاجتماع ، كما يمر الطفل بجميع أدوار الطفولة حتى يصل إلى سن الرجولة . وعند وصولها إلى دور الرجولة تتقلب فى أدوارها دون أن يصاب وجودها بأذى ، إلا بما لا مناص منه من لوازم الحروب والمصاولات ، ولكنها لم يتزعزع لها أساس ، ولم يَهِ لها ركن ، فتحملت جميع عواقب تصرفاتها الحيوية دون أن تصاب فى صميمها بأى عرض .

وقد انتهى بها الأمر فى أدوار الاجتماع الى أن بلغت هذه المرحلة الاخيرة التى تغلب فيها الأجانب على كثير من أقطارها ، ولكنها مع كل هذا شديدة التعلق بدينها ، والحنين إليه ، عازية جميع ما أصابها الى حَيْدها عن صراطه ، ومدابرتها لمبادئه وأصوله ، غير يائسة من العود إليها لاسترداد مجدها الأثيل ، وعزها التليد .

محمد فريد وجدى

إصلاح الأخلاق ورعاية الآداب

[نص الكتاب الذى توجه به جماعة كبار العلماء إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا لمناسبة الحالة الدينية والخلقية فى البلاد ، فتقبله رفعته قبولا طيباً]

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد :

فإن الله جل شأنه أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وأمر المؤمنين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وحذر عباده فى كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم عواقب الفساد والفتن ، التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، وضرب لنا الأمثال بمن كان قبلنا من أمم ، استشرى فيها الفساد وفشا فيها المنكر ، فسكت خاصتها على عامتها حتى أخذوا جميعا بعذاب الله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ، وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وكما أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب على البلاغ والبيان ، أخذ ميثاق أهل الحكم والسلطان أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، ويقيموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، ويكونوا فى شعوبهم قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، يرتادون لهم الطيباب ، ويذودونهم عن مواقع الهلكة ويحمونهم كل شر ، ويقودونهم إلى كل خير .

وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ، ليهوله ما يرى ، ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة عليه ، فقد استهان الناس بأوامر الدين

ونواهيه ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من أخلاق الإباحية والتحلل ؛ جريا وراء المدنية الزائفة ، واغترارا ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء فى البلاد ، ولاسيما أمام ناشئتها وفتيانها المرجوين للنهوض بها ، والأخذ بيدها فى حاضرها ومستقبلها : فمن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافى المروءة والخلق الكريم ، إلى أندية يباح فيها القمار ويسكب على موائدها الذهب النضار ، وتبتز فيها الأموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات إلى ملاعب للسباق والمراهنات ، تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال ، إلى مسابقات الجمال ، إنما هى معارض للفسوق والإثم ، يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ، إلى شواطىء فى الصيف يخلع فيها العذار ، ويطغى فيها الأشرار ، إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر ، وتوصف وتصور ، وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز فى غير تورع ولا حياء إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .

كل هذا يحدث فى البلاد ، ويعمل عمله المتواصل فى أخلاقنا وتقاليدنا ، حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح فى حاجة إلى علاج سريع .

يا صاحب المقام الرفيع :

لقد أورثتنا المدنية الأوربية وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والاباحية ، وما غزينا به فى أخلاقنا وتقاليدنا الكريمة - أورثنا كل ذلك - عرفا فاسدا ، وذوقا مريضا ، ومجتمعا صار ينظر الى هذه المفاسد نظرته إلى شىء مألوف ، فلا يكاد ينكرها فضلا عن أن يغيرها ؛ بل أصبح يراها - إلا قليلا ممن عصم الله - آية من آيات التقدم ، وعلامة على النهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين بل حمتها ونظمتها ، وجبت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم ؛ كما تجبيها من الأعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع فى الفساد ، أن يرى الغى فيه إرشادا ، والضلال هدى ، فإنه حينئذ دليل على تأصل جراثيمه ، وتمكنها من القلوب ، وصيرورة الأمة الى الزمان الذى يرى فيه المعروف منكرا ، والمنكر معروفا . والقبيح حسنا والحسن قبيحا .

وإن لنا فى بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف ، وفت فى عضدها الإنحلال : فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ، ولم تطق صبرا على ما أصابها من بأسهم وقوة شكيمتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الأوان ! وتلاوموا عليه ولكن بعد إن فاتتهم الفرصة ، فأصبحوا على ما فعلوا نادمين !

وقد جعلكم الله - يا صاحب المقام الرفيع - على رأس حكومة الشعب الحريصة على تقويم أمره ، وبث دعائم الإصلاح فيه ، وفى تاريخكم الحافل مواقف مشهودة ، تدل على ما فطركم الله عليه من حب الدين والفضيلة ، والجالس على عرش مصر ملك عظيم ، يحمل بين جنبيه نفسا كريمة ، ويؤمن بالله وكلماته ، ويعمل على إنشاء أمته نشأة صالحة قوية ، عمادها الخلق وقوامها الصلاح والاستقامة ، ويرجو لها من صميم قلبه منزلة من العزة والسمو تعود بها إلى سالف مجدها ، وقد منح الله مصر بين شقيقاتها الإسلاميه والعربية — بفضل توجيهه السامى — مركز القدوة والقيادة ، فهى تنظر إليها وترقب أعمالها وتستن بسننها ، وتهتدى بهدى علمائها وزعمائها ، وفيها الأزهر الشريف ، حصن الدين ، ومثابه العلم ، ومشرق شمس الفضيلة والأخلاق الكريمة .

كل ذلك - يا صاحب المقام الرفيع - يجعلنا أقوى ما نكون فى الاصلاح رجاء ، وأقرب ما نكون الى النجاح سبيلا ، ويحملنا على أن نناشدكم أمانة الله أن تقوموا لله قومة تقر بها عين الدين ، ويذل بها شيطان الفساد والمنكر ، ويحفظها التاريخ لكم صفحة بيضاء، تنشر يوم القيامةفى صحائفكم، وتوزن فى ميزان أعمالكم .

احفظوا ما ضيّعه التهاون والتفريط ، وأشعروا أهل الفساد بوازع السلطان ؛ إذ لم يرتدعوا بوازع القرآن ، وأعلنوها حربا حامية الوطيس على كل منكر وفسوق، وانتشلوا شباب الأمةمن مهاوى العبث، ومواطن الميوعة وأوكار الفجور، وخذوا على يد كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الفضيلة أو الترويج للرذيلة ، أو غرس بذور المجون والخلاعة فى الأمة ، إنكم إن فعلتم ذلك رضى الله عنكم ورسوله ، ورضى عنكم عقلاء الأمة وكرام العشيرة ، وإن ذلك لهو الفوز العظيم .

وفقكم الله إلى نصر الفضيلة ، ودحر الرذيلة ، وأعز بالفاروق دينه وأمته ، وأطال فى طاعة الله حياته ، وبارك فيها للإسلام والمسلمين . آمين .

التساؤل والاختلاف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

جاء فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء ، فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

* * *

لهذا الحديث سبب ، وهو أنه لما نزل قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ـ قام النبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فقال : « أيها الناس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » ، فقام إليه الأقرع ابن حابس ، فقال : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى كررها مراراً ، ثم قال : « لو قلت نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ، وذكر بقية الحديث ، ثم نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » الآية .

وجاء من غير وجه أن آية : « لا تسألوا » إنما نزلت لما أكثروا السؤال له صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها ، وأن منها ما كان يسوء السائل جوابه ، مثل : هل أبوه فى الجنة أو فى النار ؟ وهل أبوه من نُسب إليه أو غيره ؟ ومنها ما كان على وجه التعنت والعبث والاستهزاء ، كما كان يفعله المنافقون والمشركون وأهل الكتاب وغيرهم ، كقول بعضهم : أين ضلّت ناقتى ، وكسؤالهم الآيات والاقتراحات ، وسؤالهم عما أخفاه الله عن عباده ، ولم يطلعهم عليه ، كالسؤال عن وقت الساعة ، وعن أمر الروح ، وسؤالهم عن كثير من

الحلال والحرام مما يخشى ان يكون السؤال سبباً لنزول التشديد فيه ، كالسؤال عن الحج ، وهل يجب كل عام ؟

ومن ثم غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، وصعد المنبر وهو غضبان ، وقال للناس : سلونى ، فجعلوا يسألونه وهو يجيب ، فلما رأى عمر بن الخطاب ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغضب ، جثا على ركبتيه وقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، لا تفضحنا بسرائرنا واعف عنا ، عفا الله عنك ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت إلى الحائط فقال : لم أر كاليوم فى الخير والشر ، أريت الجنة والنار وراء هذا الحائط .

* * *

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس فائدة ترك السؤال عن أشياء لم تقع ، وضرر كثرة السؤال ، لما فيه غالباً من التعنت ، وخشية أن ينزل بسببها وجوب المسئول عنه أو تحريمه ، أو أن تقع الإجابة بأمر يستثقل قد يؤدى إلى ترك الامتثال ، فتقع المخالفة ، فأفهمهم أنه يجمل بهم أن يتركوه بغير سؤال مدة تركه لهم بغير أمر بشىء ، ولا نهى عن شىء ، وألا يكثروا من الاستفصال عن مواضع لا تفيدهم ، ولا من التنقيب عما يفضى بهم إلى الوقوع فيما وقع فيه غيرهم ، ثم ذكر لهم سببين جوهريين من أسباب هلاك الأمم السابقة عسى أن يحذروهما ، ويتقوا آثارهما الضارة .

فأما السبب الأول ، فهو كثرة السؤال عما يعنيهم من غير ضرورة ، وقد اختلف فى المراد بالذين كانوا قبلهم ، فقيل : هم قوم عيسى ، سألوه إنزال المائدة ، ثم كفروا بها ، وقيل : هم قوم صالح ، سألوه الناقة ، ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم قوم موسى ، سألوه أن يريهم الله جهرة ، وأن يبين لهم البقرة التى أمروا بذبحها ، فتعنتوا ، ولم يبادروا إلى مقتضى اللفظ من ذبح أى بقرة كانت ، بل شددوا على أنفسهم بكثرة السؤال عن حال البقرة وصفتها ، فشدد الله عليهم بزيادة الأوصاف حتى لم يجدوا متصفاً بها إلا بقرة

واحدة فاشتروها بثمن باهظ ، وقيل : هم بنو إسرائيل مطلقاً ، كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أخبروهم كذبوهم ، وقيل : هم قريش ، كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يحول لهم الصفا ذهبا ، وأن يبين لهم أنسابهم ، فإذا أخبرهم لم يصدقوه وقالوا : ليس الأمر كذلك .

وأكثر العلماء على أن كثرة السؤال المنهى عنها فى الآية ، هى السؤال عن النوازل والأغلوطات [1] والتوليدات ، فقد نهى الشارع عنها ، وورد أنه سيكون من الأمة أناس يغالطون فقهاءهم ، بعضل المسائل ، وأنهم شرار الأمة . وقال الأوزاعى : إن الله تعالى إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وقيل : المراد كثرة السؤال عن الأشياء كالبحيرة والوصيلة ، والسائبة والحام ، وعن الآيات ، كسؤال قريش أن يجعل الصفا لهم ذهباً ، وسؤال اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، ونحو ذلك .

وأما ما ثبت فى الأحاديث المتعددة وقوع السؤال عنه من الصحابة ، فيحتمل أن يكون قبل نزول آية « لا تسألوا » ، ويحتمل أن النهى فى الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة ، كالسؤال عن الذبح بالقصب ، والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة ، والسؤال عن أحوال يوم القيامة ، وما فيها من الملاحم والفتن ، والأسئلة التى فى القرآن ، كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر ، والقتال فى الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد ، وغير ذلك .

وقال البغوى فى شرح السنة : المسائل على وجهين . أحدهما ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين ، فهو جائز ، بل مأمور به ، لقولة تعالى « فاسألوا أهل الذكر » الآية ، وعلى ذلك تتنزل أسئلة الصحابه عن الأنفال

---

(١) صعاب المسائل وشدادها .

والكلالة وغيرهما ، وثانيهما ما كان على وجه التعنت والتكلف ، وهو المراد فى هذا الحديث .

وقد حرر بعض الأئمة هذا الموضوع ، فقال ما خلاصته : والتحقيق أن البحث عما لا يوجد فيه نص على قسمين : أحدهما أن يبحث عن دخوله فى دلالة النص على اختلاف وجوهها ، فهذا مطلوب ولا مكروه ، بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين .

والثانى أن يدقق النظر فى وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر فى الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس ، بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردى مثلا ، فهذا الذى ذمه السلف ، وعليه ينطبق حديث ابن مسعود : « هلك المتنطعون » ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته ، ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها فى الكتاب ، ولا فى السنة ، ولا فى الإجماع ، وهى نادرة الوقوع جداً ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه فى غيرها أولى ، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع فيما يكثر وقوعه ، وأشد من ذلك البحث عن أمور مغيبة ، ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها ، ومنها مالا يكون له شاهد فى عالم الحس ، كالسؤال عن وقت الساعة ، وعن الروح ، وعن مدة هذه الأمة ، إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الصرف ، والكثير منه لم يثبت فيه شىء ، فيجب الإيمان به من غير بحث ، وأشد من ذلك ، ما توقع كثرة البحث عنه فى الشك والحيرة ، كحديث أبى هريرة : « لا يزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ » .

وقد انقسم العلماء إزاء كثرة السؤال إلى أقسام ثلاثة : فمنهم من سد باب التساؤل ، وأحكم إيصاده ، حتى قل فهمه وعلمه لحدود ما أنزل الله على رسوله ، وصار حامل فقه غير فقيه .

ومنهم من فتح الباب على مصراعيه ، وتوسّع فى توليد المسائل ، وتفريع الفروع ، وأسرف فى ذلك ، واشتغل بتكلف الجواب عنها ، وكثرة النقاش فيها ،

والجدال عليها ، حتى نشأ عن ذلك افتراق القلوب ، واستقرار الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء فيها .

ومنهم من جعل همّه موجّها إلى البحث عن معانى كتاب الله ، وما يفسره من السنن الصحيحة ، وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة صحيحها وسقيمها ، والتفقه فيها وفهمها ، والوقوف على معانيها ، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان فى أنواع العلوم من التفسير والحديث ، ومسائل الحلال والحرام ، وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك ، وهذا هو طريق السلف من فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم ، حتى حدثت الطائفة الثانية ، فعارضتها الطائفة الأولى ، فكثر بينهم المراء والجدال ، وتولدت البغضاء ، وتسمّوا خصوما ، وهم أهل دين واحد ، والتوسط والاعتدال هو الخير فى كل شىء .

وأمّا السبب الثانى من أسباب هلاك الأمم الماضية ، فهو اختلافهم على أنبيائهم ، ومعارضتهم لهم ، وتكذيبهم لشرائعهم ، وخروجهم على وصاياهم ، وانصرافهم عن مبادئهم ، وإهمالهم العمل بتعاليمهم ، والمراد به — على الجملة — كل اختلاف مذموم يؤدى إلى كفر أو بدعة ، ويكون سببا فى تفرّق القلوب ، وتباين الأهواء ، وتعدّد الجماعات ، ووجود الانقسامات ، وتوهين عرى الدين ، وإضعاف شوكة الإسلام ، كما وقع بين الخوارج قديما ، فإنهم كانوا يطعن بعضهم فى بعض ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

وأما الاختلاف فى استنباط فروع الدين ، ومناظرة أهل العلم على سبيل تحقيق الفائدة ، وإظهار الحق ، وإعلاء كلمة الله ، فغير منهى عنه ، بل مأمور به ، وفضيلته ظاهرة ، وقد جرى العمل عليه من عهد الصحابة إلى الآن .

* * *

بعد أن أجمل النبى صلى الله عليه وسلم هذين السببين المؤثرين فى كيان الأمم ووجودها ، أراد أن ينبه الناس على أن الأولى بهم ، والأجدى عليهم أن يتركوا التساؤل عما لا يعنيهم ولا يفيدهم ، وأن يشتغلوا بالأمر الذى يحتاجون إليه عاجلا ،

وأن ينصرفوا عن كل ما يعوقهم عن ذلك ، وهذا لا يكون إلا بالاقتصار على فعل ما يطيقونه مما يأمرهم به ، واجتناب كل ما ينهاهم عنه ، وقد أوضح لهم ذلك فى عبارتين شاملتين ، وجملتين جامعتين : الجملة الأولى قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا أمرتكم بشىء ، فأتوا منه ما استطعتم » فإنها - كما قال النووى - من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التى أعطيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدخل فيها ما لا يحصى من الأحكام ، كالصلاة بأنواعها ، فإذا عجز عن بعض أركانها ، أو بعض شروطها أتى بالباقى ، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل ، غسل الممكن ، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته ، أو لغسل النجاسة ، فعل الممكن ، وإذا وجبت إزالة منكرات ، أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم ، أو نحو ذلك ، وأمكنه البعض ، فعل الممكن ، وإذا وجد ما يستر بعض عورته ، أو حفظ بعض الفاتحة ، أتى بالممكن ، وأشباه ذلك كثيرة غير منحصرة ، وهى مشهورة فى كتب الفقه .

والجملة الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : « وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » ، وهى على إطلاقها فى إفادة اجتناب كل منهىّ عنه ، فإن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة ، وشرب الخمر والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه ، أو نحو ذلك ، فهذا ليس منهيا عنه فى هذه الحال ، كما تدل أيضا على أن اعتناء الشرع بالمنهيات فوق اعتنائه بالمأمورات ، لأنه أطلق الاجتناب فى المنهيات ولو مع المشقة فى الترك ، وقيّد فى المأمورات بقدر الطاقة .

وصفوة ما يقال فى هاتين الجملتين : إن من امتثل ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وانتهى عما نهى عنه ، وكان مشتغلا بذلك عن غيره ، حصلت له النجاة فى الدنيا والآخرة ، ومن خالف ذلك ، واشتغل بخواطره وما يستحسنه وقع فيما حذر منه الرسول من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، وعدم انقيادهم ، وطاعتهم لرسلهم .

بمناسبة الحكم فى قضية كتاب « الفرقان » :



علموهم يكونوا لكم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى

المفتش بالأزهر

فى الشهر الماضى أصدرت « محكمة القضاء الإدارى » بمجلس الدولة حكمها فى قضية كتاب « الفرقان » الذى ألفه محمد عبد اللطيف افندى ، وكانت الحكومة قد صادرته بناء على طلب مشيخة الجامع الأزهر ؛ لما تضمنه من مطاعن فى القرآن الكريم رسما وتلاوة ، وفى السنة المطهرة متنا وسندا ، فطلب مؤلفه من المحكمة أن تلغى هذه المصادرة ، وأن تحكم له بتعويض كبير قدّره بما أصابه من ضرر أدبى ومادى نتيجة لهذه المصادرة .

وقد كان لكاتب هذه السطور وزميلين كريمين له جهد فى فحص هذا الكتاب ، ورفع تقرير عنه ، ثم فى الاتصال بالقضية ومتابعة أطوارها ، ويهمنى أن أبادر بتسجيل شكرى باسم الدين والعلم والأزهر لحضرات أعضاء هذه المحكمة العادلة ، ولا سيما رئيسها الجليل سامى مازن بك ، فقد لمست عنايتها الفائقة بالموضوع ، وحرصها الشديد على تتبع كل ما يتصل به ليتجلى لها الحق ، ويسفر أمامها الرأى واضحاً فى هذا الموضوع الخطير ، حتى لقد علمت أن حضراتهم قرأوا فى موضوع الرسم والقراءات عشرات من الكتب المؤلفة قديما وحديثا ، ووقفوا عند كل موضوع من الموضوعات المتصلة بالقضية موقف الناقد البصير ، والفاحص الخبير ، وإن سعادة الرئيس لم يكن يكتفى بهذا ، ولكنه كان يتناقش شفويا مع العلماء فى كل نقطة يرى وجوب استجلائها قبل الحكم ، وقد زار الجامع الأزهر واتصل ببعض علمائه باحثاً منقباً حتى اطمأن قلبه .

وكذلك فعل حضرة الأستاذ الكبير عبد الحليم بك الجندى المحامى عن الحكومة والأزهر فى هذه القضية ، بل المحامى عن القرآن الكريم ، فقد كان مثال المؤمن بالله وكلماته ، الغيور على كتابه ، الحريص على تجلية الحق ، والظفر له بحكم يسجله التاريخ ، ولست أنسى ما حييت موقفه يوم الدفاع عن كتاب الله ، وقد أخذته حُميَّا الإيمان ، وهزت مشاعره الحماسة الدينية ، فتدفق بيانا بالبراهين الدامغة ، وصدع صوتا بالحق فى إخلاص عميق مؤثر ، حتى لكأن نبراته يومئذ نداء من السماء أن خذوا على يد هذا المسيء ، وعلموه أن كتاب الله لا تنال منه الترهات ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فاللهم أشكرهم على ما سَعَوْا ، وأجزهم بالخير على ما رَعَوْا ، وأكثر فى المسلمين أمثالهم ممن يغارون على الحق ، وينصفون فى الحكم .

* * *

كتبت هذا الكلام اعترافاً بفضل أصحاب الفضل ، وتسجيلا له ، وأقول بعد هذا :

لقد كثر فى هذا العصر التطاول على الدين ، والتجرؤ على حقائقه وأصوله المسلمة ، وأصبحنا نرى كثيراً ممن يريدون الشهرة ، ويلتمسون الرواج ، يجعلون سبيلهم إلى ذلك ما يحاولونه من التشكيك فى الدين ، أو فى قدرة أحكامه ، وتشريعه على النهوض بحاجات الناس ، وكفالته لسعادتهم ، وما هكذا تلتمس الشهرة ، ولا بمثل هذا يكون الظهور . فقد كان سلفنا يقضون أعمارهم فى البحث والتعمق والنظر الصائب ، ويصبرون على متاعب العلم ، ومصاعب التفكير ، ويجعلون لأنفسهم حدوداً لا يتعدونها ، فهم فى فلك الكتاب والسنه يدورون ، وعلى أساس من العقل السليم ، وأصول الشريعة يحكمون ، لذلك كانت تآليفهم

موفقة ، نافعة ، راشدة ، وكانت أخطاؤهم إن أخطأوا مغفورة ، لأنها أخطاء المخلصين الذين لا يبتغون إلا الحق والمعرفة ، فإن أصابوا أجروا ، وإن أخطأوا أجروا « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ، والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين » .

ومن الخير أن نتعرف العوامل التى دعت إلى أن يكثر فينا هذا الصنف من المؤلفين ذوى الدعاوى العريضة ، والأقلام الطائشة .

وأحسب أن الأزهر إذا اكتفى بأن يصادر كتاباً أو كتابين فى كل عام ، فإنه غير مستطيع وقف هـــذا التيار الذى إن بدا اليوم هادئاً بعض الهدوء ، فسيكون غداً جارفاً مكتسحاً .

وفى اعتقادى أن الناس لم يجدوا غذاء دينيا صالحاً يقدم لهم ، فأقبلوا على مثل هذا الغذاء الذى تضوى به العقول ، وهذه سنة الله فى كل مجتمع ، فإن أى تقصير فى بث الأفكار الصالحة فيه ، يستتبع بقدره إقبالا على الأفكار الفاسدة ، أو المخطئة ، فلو أن الأزهر أخذ بوسائل العصر الحاضر فى تنوير العقول ، وتجلية الحقائق أمامها ، ومدّها بزاد طيب لا خبث فيه ولا نكر ، لكانت الأمة كلها كأهل الأزهر ، ولكان بعض أفرادها دعاة ذوى غيرة ، ولوُجد المجتمع الحفيظُ بعضه على بعض من الزلل والضلال .

وقد علمتنا تجارب الأمم فى العصور الأخيرة ، أن الشعوب تصاغ ، وأن العقول تحشد وتجند ، وأن زعيما مخلصاً لفكرة ، مؤمناً بعقيدة ، يستطيع أن يقنع بها جيلا بأسره ، أو أجيالا ، إذا أحسن الدفاع عنها ، وتوجيه العقول إليها .

ونحن فى أيدينا أقوم المبادىء ، وأثمن الشرائع ، وليس فيما عرفته البشرية من الأديان ، ما يقف أمام ديننا موقف المنافسة أو المنازعة ، وبين ظهرانينا

كتاب الله وسنة رسوله ، وفى مكتباتنا خير ما أنتجته العقول ، وجادت به القرائح وقد أوتينا قسطا عظيما من السلطان فى الأمة ، والقدرة على توجيهها بما فى أيدينا من مناصبها وأموالها ، وبما لنا من نفوذ روحى دينى لا يتمتع به حزب . ولا تنافسنا فيه جماعة ، ولكن ينقصنا حسن الانتفاع بهذه المزايا ، وأننا قد شغلنا عن رسالتنا بأشخاصنا ، وتفرغنا للمنازعات والمخاصمات ، من سرية وعلنية ، فأرهقنا بذلك أعصابنا وعقولنا ، وصار الكلال والتخاذل والتراخى من أبرز الصفات فى محيطنا .

يجب أن نعمل ، بل أن نشق ونحفى فى العمل ، حتى نستطيع أن نربى ناشئة منا على فهم الدين والعلم فهما صحيحا ، وعلى عشقهما العشق الذى يجعلنا نفنى فيهما ، ونتلذذ بما يصيبنا من نصب فى سبيل تحصيلهما وترويجهما فى الناس .

يجب علينا أن ننير العقول بما عندنا من العلم ، فقد جربت بنفسى أن كثيرا من المثقفين ثقافة مدنية يقابلون بعض أفكارنا مقابلة فيها جفوة وتنكر ، بل فيها أحيانا سخرية وتهكم ، ثم لا يلبثون إذا شرحت لهم شرحا دقيقا ، أن يتبينوا الحق ، ويفيئوا إليه ، ويكونوا من دعاته .

وليس هذا على المجتمعات بغريب ، فإنه لسنة الله فيها منذ القدم ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمنوا أساطين الشرك ، وأسانيد الكفر ، فاستطاع فرد واحد ، ثم أفراد معه أن يغزوا بهم العالم ، ويغيروا وجه التاريخ .

إننا نشكو من انصراف الأمة عنا ، ونغضب حين نرى رجال الحكم فيها يغضون عن مطالبنا ، ولا وسيلة إلى مداواة هذا وذاك إلا بأن نعمل ونعمل ونعمل ، يومئذ يأتى إلينا الدهر معتذرا ، ويطرق أبوابنا الذين نطرق اليوم أبوابهم فلا يجيبون .

من توجيهات القرآن
في تربية الخلق

ا — وإن تعفو أقرب للتقوى
ب — فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكى
المفتش بالأزهر

ا — هنا : دعوة إلى العفو عن المساءة ، والعفو من صفات الرحمن عز شأنه ، وما يبلغ طرفاً من صفات الله إلا من سلمت إنسانيته من ضراوة الوحشية ، وتسامت به نزعات الخير حتى تهيء له أن يتخلق بأخلاق الرحمن ، ويرقى إلى شيء من أسباب ذلك الكمال المطلق .

ومعذرة إلى القارىء إذا استطردت معه قليلا ، لأبين أن القرآن الكريم حينما يهتف بالإنسان إلى ناحيـــة من نواحي الكمال ، تراه يخاطب فيه مرة إنسانية واعية ، ويعتمد فيه على عقلية تفقه ، فيترفق فى خطابه ، إذ يكون الرفق أشبه بمقام الإنسان ، وبه يكون الخطاب أوقع فى السمع ، وأسلس فى القياد ، وأيقظ لغريزة الاعتداد بالنفس .

ولك شاهد على هـذا أن تقرأ ـ مثلا ـ قوله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » ، « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

فأنت إذ تقرأ هذه الآيات ونحوها يجيش فى نفسك الأمل أن لك عند الله كرامة ، ويهزك الطرب أنك على مقربة من مرضاته ، وتنزع بك الرغبة إلى

الاستزادة من وسائل الزلفى إليه ، أو ليس يحفزك على الأقدام نحو الكمال أن شملك بالخطاب فى قوله ياعبادى ، وأن أكد لك الوعد أنك لا تصادف عنده ظلما ولا هضما ؟ وأنك إذا ركنت إلى جانبه ولم تقنط من رحمته فستغفر لك الذنوب جميعاً ؟

تحس بكل ذلك حينما ترى القرآن يناجيك من ناحية إنسانيتك ، ويفترض فيك الصلاحية للخير ، ويفتح أمامك منافذ الأمل ، ويوحى إليك إذ أنزلك هذه المنزلة ، أنك فوق ما عداك من كائنات أخرى .

غير أنك ترى القرآن فى سياق آخر حينما يتجه إلينا بالبيان ، يلحظ فى الإنسان غرائز جامحة ، ونوازع شاذة ، فيصدف عن الترفق ، ويشتد فى القول ، إذ يكون الإنسان فى هذا الوضع ليس ذلك المخلوق الكريم الذى ترضاه باللين ، وإنما هو العاجز المتعاقى ، والحقير المتكبر ، والضعيف المتجبر ، وحينئذ تكون الصرامة أجدى فى إصلاحه ، وأنجع فى تقويمه ، وأوفق لجموحه ، فإن لم تصلح من شأنه ففيها تصوير لهوانه ، ونزول به إلى مهبط وضيع ، ورجوع به إلى مكانة ذليلة تباين ما افترض لنفسه ، وتصده عن غلوائه ، وتكشف له عن إمعانه فى الباطل .

وشاهدك على هذا أيضاً أن تقرأ - مثلا - قوله تعالى « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » ، « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » ، « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » ، « إن ربك لبالمرصاد » ، « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « وإن للطاغين لشر مئاب » الخ .

فأنت إذ تقرأ هذه الآيات ونحوها مما فيه تبكيت للإنسان ، وغض من كبريائه ، وتنديد بضعفه ، وإبراز لما خفى عليه من شأنه ، وقبح ما تخير لنفسه ، حين تقرأ ذلك لا تحس بشىء مما استشعرته فى الآيات الأولى ، فهناك مثله هدى ، ونصح فى رفق وتكريم ؛ وهنا مثله لوم وتعنيف ، يسمع المرء فيه تهديدا يذيب الحشا ، ويحس أن سيكون فى ردهة الحكم أمام قاض جبار ، ولن يكون فى ساحة العفو بين يدى غفور رحيم .

ذلك استطراد أجملته بين يديك ، لأريك به أن القرآن الكريم ، يقف من الإنسان موقف التكريم فى الخطاب مرة حينما يقدر له إنسانيته ؛ وموقف الزراية به مرة أخرى حينما يهمل ذلك الجانب ، ويقصد إلى ما فى الإنسان من جموح .

ومن القبيل الأول صنيع القرآن فى توجيهنا إلى التجمل بخلق العفو ، فهو يترفق فى الطلب ، ويبين فى إيجاز يسير أن العفو أقرب للتقوى ، تاركا لمداركنا أن تميز الخبيث من الطيب ، ومعتمداً على عقولنا أن تفقه وتستجيب .

على أنه فيما ساق من آيات أخرى ، ركز فى عقولنا أن العفو خلق يرجح كثيراً سواه من أخلاق الفضيلة ؛ فهو وسيلة هامة فى الحفاظ على حسن العلائق ، وحسم الشر ، وصيانة الجماعة من عوادى الخلق الذى تشيع من ورائه ظنون السوء ، وينحدر فى ظلماتها الشيطان يعمل عمله فى إفساد القلوب ، وتفريق الجماعات .

وكأن القرآن — فيما أحسب — أذ يعتبر للعفو هذا الشأن ، يراعى إلى جانب ذلك — فى تقديره للإنسان — أن العفو محتاج إليه حينما يهتاج النفس عدوان يمسها ، أو تحيف يصيبها ، فيكون المرء مدفوعا بالغريزة إلى المقاومة ، ومن حقه ذلك ، فليكن طلب العفو منه ، والتغاضى عما ألم به ، طلبا هينا ، لا يشعره باغتصاب حقه ، وكبت إرادته ، والانحياز به الى الخنوع .

ولينبه فى تلطف إلى أن العفو أقرب للتقوى ؛ إذ فيه عزوف عن الشقاق ، وكف للغضب ، ومجانبة لما يخشى من الإفراط فى الجزاء فتتسع الهوة ، ويندلع الشر ؛ إذ لا يملك نفسه عند ثورتها ، ويطامن من شموخها إلا من نهضت مداركه ، فاعتدل فيه الرأى ، واستقام له التقدير ، واطمأن إلى أن العفو جانب من الرفق ، وما كان الرفق فى شىء إلا زانه كما علمنا الرسول عليه السلام .. وقليل من يفطن إلى ذلك ، والمتتبع لآى الكتاب فى صدد العفو يجدها على هذا النحو سلاسة ، ومرونة وترغيبا ، لا تشعرك بضغط ، ولا تنم عن إكراه ، وهى لذلك فى سياق العرض أدخل إلى النفس ، وأملك للفؤاد .

وإليك ذكر العفو فيما ذكر الله من أسباب مغفرته، ووسائل رضوانه، «فمن عفا وأصلح فأجره على الله»، «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»، «وليعفوا، وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم»، وكذلك أمر نبيه فى غير موضع بالعفو حتى مع ألد أعدائه «فاصفح الصفح الجميل»، «فاعف عنهم واصفح»، «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين».

وجملة القول فيما وصلنا إليه: أن العفو من صفات الله، ومن شمائل الرسول ومن خصال الأخيار، وأن فى الدعوة اليه على هذا النحو كثرة الشواهد، ولطف التعبير توجيها اليه، وإلى اختيار الأسلوب فى الدعوة إلى كل غرض كريم، حتى تكون الوسيلة ملائمة للغاية، وبذلك تظل التعاليم الصالحة فى نمط الدعوة اليها كمعدن نفيس فى حرز كريم، لك دائما من حرزة رواء المنظر، وفيه صدق المخبر، وصدق الله فيما رسم «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

ب — ومع ما أسلفنا من القول فى شأن العفو ديناً، ودنيا فلدينا الآية الثانية تأمر بالانتقام «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فكيف يلتقى هذا مع ذاك؟

الأصل ألا تهدر الحقوق، وأن تكون العدالة ماثلة بين الناس، بادية فى كل شأن عظم أو هان، وسبيل ذلك أن يلقى المسيء جزاءه، وأن يُدرأ الشر بالشر حتى يستقر الأمر فى مجراه، ويستقيم العدل فى نصابه، وعلى ذلك يكون الاقتصاص مشروعا، واستيفاؤه حقاً وأن كان فى غير خطير.

ولكن بين الناس وشائج تدعو إلى التعاطف، وتقضى بالتراحم، وتأبى المشاقة والتنازع، وبين الناس اعتبارات معيشية أحوج ما تكون إلى التسامح؛ فالأمر بحاجة إلى المسالمة، ومجانبة الغلظة والجفاء.

فكان من تمام النعمة أن يكون للتراحم بين الناس إلى جانب العدل شأن فى تدبير الله، وكان من مظاهر الحكمة أن تكون الرحمة أوفر حظاً فى تقدير الله،

وكان فى تقديم العفو على المجازاة ، وترجيح الرحمة على العدل أخذ بسنة الله فيما اختار لنفسه مع خلقه ، وفيما رضى لنفسه من صفات الكمال .

فنحن إذ نرى أنفسنا فى حل من مجازاة المسيء بما فعل ، ونرى ذلك عدلا تتقرر به الحقوق ، وتصان به الكرامات ، نرى دواعى أخرى إلى العفو ، لكبح الضغينة ، وتركيز المحبة ، وتأصيل المودة .

ولعل من وراء ذلك ظفرا بما كان يرجى من العدل والجزاء ؛ مع البعد عما قد يتركه العدل من وحشة وغضاضة ؛ لقيامه على غير المجاملة ، ولتعرضه أحيانا للمبالغة فى التنكيل وتجاوز الحد المشروع .

وأنت اذا تمعنت آيتنا هذه تبينت فيها تحديداً دقيقاً لتشريع المجازاة بما يوحى إليك ، كأن العفو أصل والجزاء استثناء . فهى ـ أولا ـ مبدوءة بقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » ، وهذا قيد سيق أول الكلام للتنبيه على أن المجازاة على العدوان لا تكون ألا بعد حصوله فعلا ، أو بعد الشروع الذى يؤذن حتما بوقوعه على ما هو مبين فى الفقه ، وهى ـ ثانيا ـ تسمى الجزاء اعتداء « فاعتدوا عليه » لا لمجرد المشاكلة اللفظية كما يقال ؛ بل لأن الاساءة فى حقيقتها عدوان ، وإنما اغتفرت فى مقام الجزاء ، وهذه إباحة عارضة لا تغير من حقيقتها أو اسمها . فالخمر خمر وإن صلحت دواء فى حال من الأحوال . وهى ـ ثالثا ـ تقيد إباحة الجزاء بأن يكون مثل العدوان لا أزيد منه . وهى ـ رابعاً ـ مقرونة بالأمر بالتقوى « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » تحذيرا من المبالغة فى الجزاء فلا يكون علاجا للشر ، وانما يكون استرسالا فى الشر .

وكذلك ترى كل آية تؤذن بالقصاص محفوفة بقيود تضيق من دائرته ، وتحذر من الإسراف فيه ، بل وتصرف عن الأخذ به . اقرأ مثلا قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

وقوله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ، ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور » .

وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ففى كل واحدة منها ترغيب عن المجازاة ؛ غير ما رأيت فى كل آية من آيات العفو : من الترغيب فيه والثناء عليه . وإلى جانب هذه التوجيهات ترى آيات القصاص لا تبلغ من الكثرة فى القرآن ما بلغته آيات العفو ، ولا ترى فيها إلزاما بالقصاص كما ترى فى بعض آيات العفو ، بل جاءت هذه فى أسلوب البيان فحسب ، ولذلك اتسع سياقها لأن يذكر معها الصبر ، أو العفو أو التقوى وما إلى هذا .

ورب قائل : أيكون العفو فى كل شىء مجديا ، وفى كل حال مطلوبا ، وتكون الدعوة إليه مطردة ؟

والجواب أن كلا الأمرين — العفو ، والقصاص — منوط بأغراض تعلقت به ، وغايات قصدت منه ، فليس العفو مستحسنا مع من يستمرئه ويكرر عدوانه ، بل ذلك من وضع الندى فى موضع السيف ، وهو مضر بالعلا كما قال الشاعر ،

وليس من متعلقات العفو ما يعتبر من الأمور العامة ، مما له اتصال بحياة الناس ، ونظام المجتمع ، كالسرقات ، وانتهاك الحرمات والأعراض ، وقطع الطرقات ، ونحو ذلك مما له خطر على الأمن العام ، أو سياسة الحكم ؛ فأنها أمور لا تستقيم على الهوادة والتسامح ، بل يعوزها الصرامة والأخذ بالعنف لترجع النفوس الجامحة عن غيها .

ولذلك ترى القرآن يشتد فى الأمر بقطع السارق ، والسارقة « جزاء بما كسبا نكالا من الله » ويشتد فى جلد الزانية والزانى « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله الآية » كما تراه يقسو على قطاع الطريق ، وكما تراه يشتد فى تهديد الشاهد إذا زور ، والحاكم إذا جار ، والقاضى إذا انحرف : كل ذلك مما يأبى التسامح لئلا تختل نظم الحياة ، وليظل الأمن موفوراً ، ولينعم الناس فى دنياهم ، وليرى الله آثار نعمته عليهم فيما يحسنون من عمل ، وفيما يشكرون لله من نعمائه .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

افعلوا الخير ، ذلك خير لكم وأبقى

يرى فى هذا المقال إفراد الكاف اللاحقة لاسم الإشارة فى حين أن المخاطب جمع ، وكان مقتضى هذا أن يقال : ذلكم . وقد جرى فى بعض المجالس حديث فى هذا الشأن . وذكر بعض من فى المجلس - وهو ذو خطر ومكانة - أنه فى حال طلبه العلم وتلقّيه على الشيوخ أورد على شيخه بيتا فيه مثل هذا وهو :

قالوا : كلامك هندا وهى مصغية يشفيك . قلت : صحيح ذاك ، لو كانا

فقال له : كيف قال الشاعر : صحيح ذاك ، وهو يخاطب جمعا . ألا ترى إلى قوله : قالوا . ؟ ويقول محدّثنا : إن الشيخ أجاب بأن الشاعر نزّل الجمع منزلة الواحد لـمّا كانوا متفقين فى الإخبار ، وكانوا ألبا عليه فى القول ، ونازعين فى ذلك عن قوس واحدة . وهو منزع لعمرى حسَن . وقد قيل بمثل ذلك فى قوله تعالى : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ، فقد جاء ظهير وهو مفرد خبرا عن جبريل وما عطف عليه لما كانوا فى المظاهرة يدا واحدة على من يعاديه .

ولكن يؤخذ على هذا المجيب أنه سلم بما يتضمّنه السؤال : أن هذا الأسلوب خارج عن العربية يحتاج إلى تخريج وجواب عنه والتماس وجه له . وهو يرى كاف الإشارة ككاف الضمير يلاحظ فيها دائما حال المخاطبين ، فتكلف هذا الجواب وتجشم مئونة التأويل . وقد بحث ابن هشام فى قول الشاعر :

ولست بسائل جارات بيتى أغُيّاب رجالك أم شهود ؟

وموضع البحث قوله : رجالك ، فإن الواجب أن يقول : رجالكن ، فما باله قال : رجالك بالإفراد ؟ . ويقول ابن هشام فى الخروج من هذا : إنه حين يسأل جارات بيته لا يسألهن دفعة واحدة بل يسأل كل واحدة : أغائب رجلك أم شاهد ؟ فهذا وجه الإفراد . ويقول التبريزى إن محمل ذلك الضرورة الشعرية لم تتح للشاعر أن يقول : رجالكن فقال ما تيسّر له . وأعود لما نحن فيه فأقول : إن الكاف اللاحقة لاسم الإشارة ليست ككاف الضمير ، فالكاف اللاحقة لاسم الإشارة الكثير فيها والغالب أن يلحق بها ما يبيّن حال المخاطبين ، فيقال ذلكم وذلكن وذلكما وهكذا . وقد يقال للجمع ذلك بكاف واحدة ، وعلى ذلك جاء البيت الذى كان موضع السؤال . ومما جاء من ذلك قوله تعالى فى الآية ٨٥ من البقرة : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلكَ منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ، فترى قوله فما جزاء من يفعل ذلك منكم فيه إفراد الكاف والمخاطب جمع ، ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة النساء « ذلك لمن خشى العنت منكم » ، وورد فى الآية ٢٣٢ من البقرة « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، وترى أن المخاطبين فى الآية جمع وقد جاء اسم الإشارة ذلك ثم جاء ذلكم والخطاب لم يتغيّر ، وقد أبعد بعضهم فقال : إن الخطاب الأول للنبى صلى الله عليه وسلم . وفى سورة المجادلة جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » ؛ فترى كيف أتى بذلك والخطاب للذين آمنوا . وذلك أن الكاف قصد بها إلى أن تؤدى معنى الخطاب فقط ، ولا ينظر فيها إلى بيان حال المخاطبين . ويقول النحاة فى هذا الموضع : إن الكاف فيها ثلاث لغات :

اللغة الأولى : أن تتصرف الكاف فيلحق بها ما يبين عن حال المخاطبين .

واللغة الثانية : أن تكون الكاف المفتوحة للمذكر بأنواعه ، والمكسورة للمؤنث بأنواعه .

واللغة الثالثة : أن تكون الكاف المفتوحة للجميع مذكرا ومؤنثا . وعندى أن هذا ليس لغات مختلفة ، وإنما هى أوجه فى اللغة الواحدة ، ولا يرجع إلى اختلاف القبائل واللغات . وذلك أن الشاعر الواحد قد يأتى فى كلامه الوجهان . ففى شعر طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفَلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

حين قال الناس فى مجلسهم أقتار ذاك أم ريح قُطرُ

ومن شعره أيضا :

أخبّرتِ أن الحىّ فرّق بينهم نوى غربة ضرّارة لى كذلِك

إردب ، أرادب

الإردب فى مصر معروف من قديم . ويقول الأخطل يهجو :

والخبز كالعنبر الهندى عندهم والقمح سبعون إردبا بدينار

ويجمع الإردب على الأرادب . والجارى على الألسنة تشديد الباء فى الجمع كما هى مشددة فى المفرد . وقد جاء التشديد فى اللسان بضبط القلم ؛ ففيه : « وجمع الإردب أرادبُّ » ، وتراه فى هذا الضبط ممنوع الصرف . ويرى الشيخ عوض فى تقريره على شرح الخطب الشربينى لأبى شجاع فى فقه الشافعية صرفه . ويعلل ذلك بتعليل غريب ، وذلك أنه يرى أن سكون الباء عارض ، وهو من باب طواعية وكراهية وملائكة . وهذا غير سائغ ولا مقبول ؛ فإن أصل الجمع على هذا أراديب وما عهدنا جمعا على هذه الزنة . هذا إلى أن وزن إردب إفعل واللام سكونها أصلى فليس أصله إرْدَبب وإلا وجب البيان والإظهار ، ولم يجز الإدغام لأن هذه زيادة للإلحاق كما فى قَرْدَد ، وإذا كان سكون المفرد أصليا

كان سكون الجمع كذلك . وهاك كلام الشيخ عوض : « (قوله ستة أرادب) بصرفه ، لأنه بعد ألف تكسيره ثلاثة أحرف وسطها ليس ساكنا أصالة بل عرضا للإدغام ، فهو كملائكة وطواعية » .

وقواعد الجمع الأقصى فى العربية تأبى تشديد باء أرادب وتنفيه البتة . وذلك أن هذا الجمع لا يكون بعد ألف تكسيره ثلاثة أحرف إلا إذا كان أوسطها حرف لين كقناديل وعصافير ، فأما فى غير ذلك فلا يكون بعد ألف التكسير إلا حرفان ، فتقول فى جمع سفرجل سفارج فتحذف اللام ولا تقول سفارْجل لأن هذا لا يستقيم فى العربية ، ويقول الخضرى فى كتابته على ابن عقيل فى آخر مبحث جمع التكسير « لا يقع بعد ألف التكسير ثلاثة أحرف إلا وأوسطها ساكن معتل كمصابيح ، وإذا كان مثل سفرجل يحذف منه اللام فى الجمع ، وهى حرف أصلى فيقال سفارج ، فأولى بذلك الحذف فى إردب وأحد البائين زائد . ويقول صاحب القاموس فى جمع قِرْشَب « وهو المسن والسىء الحال ، قراشب بتخفيف الباء ، وقد جاء هذا الجمع فى كتاب سيبويه ص ٣٣٧ ج ٢ . ومما هو من قبيل الإردب الأُسْطُمَّة ، وأسطمة البحر مجتمعه ووسطه ، وفى اللسان أن جمعها الأساطم ، وفيه أن تميما تقول فى الجمع الأساتم ، تعاقب بين الطاء والتاء فيه . فترى أنه لم يقل القراشب » بتشديد الباء ولا الأساطم » بتشديد الميم ، مع تشديد الحرف فى المفرد ، وذلك لأنه لا يستقيم فى هذا الجمع أن يكون بعد ألف التكسير ثلاثة أخرى أوسطها ليس حرف لين . وقد بحث النحاة جمع مصور فقالوا إن الجمع مصاور ، وذلك أن الواو هنا لما كانت مشددة كانت فى قوة المتحركة فلم تكن حرف لين كما فى كَنَهْوَر وغُرْنَيَق فيقال كناهير وغرانيق .

وبعد هذا يتجلى تمام الجلاء خطأ الناس فى تشديد الباء فى أرادب ، وخطأ الضبط فى اللسان ، وأنه من فعل النساخ أو أثر الطبع . والله الموفق للصواب .

الماسورة ، والمواسير

الماسورة تجرى فى ألفاظ العامّة ، ويجمعونها على المواسير ، وهى تقال للأنبوبة أو للهَـنة المجوفة . وقد كنت لا آبه لهذه اللفظة ؛ إذ كانت من الكلمات الكثيرة التى أصبحت عماد اللغة العامّية التى أصبح من العسير تعرف مأتاها ، وتلمس مناشئها . غير أنى وجدت هذه الكلمة فى حاشية البجيرمى على شرح المنهج فى فقه الشافعية فى باب الحيض فى كلام نقله عن الشيخ على الشبراملسىّ ، فاسترعت نظرى وحدتنى على البحث فيها . ويبدو لى أن أصلها المصير وهو المِعَى ويجمع على المصران كما يجمع الكثيب على الكثبان والرغيف على الرغفان . والمصير أجوف فهو يشبه القصبة الجوفاء ، غير أنه لَدنٌ غير صُلْب . فأطلق المصير على الهنة المجوّفة ، وجرى فيه من التحريف ما أصاره إلى الماسورة .

العينه

تطلق العينة على ما يكون نموذجا للشىء ، فهى قطعة من الثوب ، أو حفنة من الحب ، وما جرى هذا المجرى ، وقد بحثت فى منشئها فبدا لى أن أصلها العِينة والعينة للشىء خياره ، والتاجر يقدم فى العادة النموذج لما عنده كخير بضاعته وأجودها ، وفى اللسان : وعِينة المال : خياره . وهذا ثوب عينة إذا كان حسنا فى مرآة العين . واعتان فلان الشىء إذا أخذ عينه وخياره . وجمع العينة عِيَن .
وقال الشاعر :

فاعتان منها عينة فاختارها   حتى اشترى بعينه خيارها

البلاغة

قال اعرابى : البلاغة التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير .

وقال عبد الحميد الكاتب المشهور : البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام ، من أقرب أقرب وجوه الكلام .

وقال ابن المعتز : البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام .

وقال إبراهيم الإمام : يكفى من البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء أفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

مفردات فلسفية

خلق — أخلاق

لفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

أحببت أن أختم باب « مفردات فلسفية » هذا العام من أعوام المجلة بالكلام عن خلق وأخلاق ، ذلك ما يتطلبه الوقت ، وبخاصة وقد رأت « جماعة كبار العلماء » فى الأزهر أخيراً أن تلتفت التفاتة جادة لسوء الحالة الدينية والخلقية فى البلد ، فترفع فى ذلك كتاب إلى مقام مولانا الملك حفظه الله ، وآخر إلى رفعة رئيس الوزراء .

أحببت إذاً أن أعرض لتحديد كلمة « خلق » وبيان مفهومها وما صدقها ، لأنى ألمح خلافا فى هذا بين بعض من يتكلمون فى إصلاح الأخلاق عندنا وبين الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين بحق ، لهذا يكون من الخير أن نحدد مفهوم هذه الكلمة ، وأن نبين ما صدقها ، حتى إذا ألححنا فى طلب إصلاح الأخلاق نكون على بينة من أمرنا وعما نريد .

* * *

١ — يذكر الجرجانى فى كتاب « التعريفات » أن الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة سميت خلقا حسنا ، وإن كانت بحيث تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت خلقا سيئا .

٢ — ويذكر التهانوى فى « كشاف اصطلحات الفنون » أن الخلق فى اللغة : العادة والطبيعة والدين والمروءة ، والجمع الأخلاق ، وفى عرف العلماء ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدم فكر وروية وتكلف .

ثم الخلق ينقسم إلى فضيلة هى مبدأ لما هو كمال ، ورذيلة هى مبدأ لما هو نقصان ، وغيرهما وهو ما يكون مبدأ لما ليس شيئا منهما .

٣ — ويذكر التهانوى أيضا بعد هذا ، أن « الخلق العظيم » عند السالكين هو الإعراض عن الكونين والإقبال على الله تعالى بالكلية » وأن « الخلق العظيم » المشار فى قوله تعالى مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، هو القرآن على ما قالت عائشة رضى الله عنها . تعنى أن القرآن كان جبلة للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من غير تكلف .

هذا ما يذكره الجرجانى والتهانوى ، وهو لا يختلف عما يذكره غيرهما من أصحاب المعاجم والتآليف الفلسفية . وإذاً ، فلا حاجة للإطالة بذكر نقول أخرى .

٤ — وأخيرا ، تطلق كلمة « خلق » ويراد بها أمر آخر غير الهيئة أو الملكة التى تصدر عنها الأفعال الطيبة أو الخبيثة ، وذلك الأمر الآخر هو الأفعال نفسها مثل العدل والظلم ، والكرم والبخل ، والصدق والكذب ، والبر والفجور . وهذا الإطلاق ، كما نرى ، تجوز فى التعبير .

* * *

من أجل ذلك ، يجب ، إذا أردنا أن نكون منطقيين وعمليين فى طلب إصلاح الأخلاق ، أن نعمد الى الشر نجتثه من جذوره ، وللأمر نصلحه من أساسه ، يجب أن نعمد الى إصلاح النفوس وسجاياها وملكاتها التى تصدر عنها ما نضيق به ذرعا من الأفعال ، أى الأفعال السيئة الخبيثة ، ومتى صلحت هذه النفوس ، امتنع أن يصدر عنها هذا الضرب من الأفعال ، وصارت بحيث لا يصدر عنها إلا الأفعال الطيبة والأخلاق الحسنة ، وذلك لأنها اكتسبت ملكات جديدة طيبة تنأى بها عن الشر وتبعثها إلى الخير .

ونكون مخطئين إذاً ، فيما أعتقد ، إن لم نفعل — حين نرى الفساد الخلق استشرى بين طبقات الامه المختلفة — شيئا آخر غير أن نرفع الصوت عاليا لإصلاح هذا الحال ؛ ذلك بأن هذا الفساد ، الذى يتمثل فيما تنشره الصحف من أعمال تدل على التحلل من التقاليد الطيبة والآداب الدينية ، ليس إلا أمارة على شذوذ فى النفس يجب أن نطبّب له .

الشذوذ فى النفس كالشذوذ فى الجسم ، له سببه الأول وعلته الأصيلة ، ومن الواجب على طبيب الجسم أن يلتمس أولا علة الداء ، فإذا عرفه واستأصله زالت أعراضه ومظاهره بطبيعة الحال . كذلك على طبيب النفس أن يبحث عن علة ما يصيب النفس أحيانا من شذوذ هذه العلة التى يكون عنها ما تعده فسادا وتحللا من الدين والأخلاق ، وسبيل هذا ، فيما يرى المصلحون جميعا ، التربية الطيبة للنفوس ، والقدى الصالحة فى الرؤساء وأولياء الأمور فى هذا البلد ، هذا البلد المنكود بكثير ممن يتصدون للإصلاح الخلقى فيه .

علينا إذاً أن نتعاون فى سبيل تربية جيل جديد ، تربية قوامها الدين والخلق ، تربية تجعل النفس خيرة تنبعث للخير من ذاتها ، وترى الشر فى القول والعمل امتهانا لها ولكرامتها وأمراً قبيحاً تنفر منه بطبيعتها .

* * *

ذلك ، وهناك ناحية أخرى يجب أن نلتفت لها : إن الأخلاق السيئة التى لا بد من التعاون فى سبيل مكافحتها ، بهذه الطريقة أو تلك ، ليست فقط الخلاعة والتهتك وما إلى هذا السبيل . إنها أيضا ، مع هذا سوء فهم العلاقة التى ينبغى أن تكون بين الحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، هذه العلاقة التى تقوم فى غير قليل من الحالات على أسس لا تتفق فى شىء والدين وروح العدالة ؛ هى مع هذا ، سوء استغلال الموظف الكبير لمركزه الذى جعل فيه ليخدم الأمة ؛ هى مع هذا أن يشق صاحب الحق ، فلا يكاد يناله إلا بتضحيات من الكرامة والمال أحيانا يدفعها لمن بيده الأمر !

كل هذا نحسه جميعا ، وكل هذا نخجل له ونألم منه بالغ الألم . وإذا كل هذا ونحوه يجب أن يدخل فى الحساب حين نفكر فى الثورة للأخلاق ، وحين نأخذ فى التعاون لإصلاح الأخلاق ؛ لأنه ليس من الدين ولا من الخلق فى شىء أن يحسن الرجل أداء الصلاة وغيرها من شعائر الدين ، ثم لا يؤدى بعض ما يجب عليه من عمل بحكم منصبه إلا إذا قدم له صاحب الحق أو العمل بين يدى نجواه هدية . . . !

إنى لأعرف كثيرين يحال بينهم وبين حقوق لهم ، ثم لا يجدون لهم معينا أو شفيعا لدى السادة الرؤساء أصحاب الدواوين ، ويكاد هـــذا الحال يقتل

فى نفوسهم الثقة بالله وعدالته ، بالإيمان بالإنسانية ووجود « إنسانيين ، يعملون للخير ولمقاربة المثل العليا .

هذه الحقائق ؛ وهذا الظلم الاجتماعى ؛ وهـذا الفهم الخاطىء من صاحب المنصب لمنصبه ، ومن النائب لرسالته ؛ وهـذه الضمائر التى ماتت أو فى طريقها للموت ؛ وهـذه النفوس التى فسدت طبيعتها فصارت ترى العرف نكراً ، والنكر عرفا - كل هذا وما إليه ، هو ما يجب أن يكون هَمَّ المطالبين بإصلاح الأخلاق ، المشفقين على مجتمعنا وأمتنا .

يجب أن نكون منطقيين وعمليين ، وذلك يقتضينا - نحن رجال الأزهر - أن نعمل على تكوين جيل جديد تصاغ نفوسه على حب الخير فتنبعث إليه ، وعلى كراهة الشر فتنأى عنه من ذاتها . وأن نكون صرحاء شجعاناً ؛ فنطالب أيضا بتصحيح الأوضاع الاجتماعية بجعلها تجرى على سنن الدين والعدل ، حتى يؤدى كل واجبه دون حاجة لزلفى أو قربة من القربات .

يجب أن يتعاون رجال التعليم فى الأزهر والوزارة والجامعة على جعل الغرض من التعليم تحصيل العلم الحق ، وتكوين الخلق الطيب ، وتحقيق الرجولة الناضجة ، وعلى أن تكون دور التعليم باعثة على هذا كله ، بالجو الذى يسود فيها ، والقدى الطيبة والمثل العليا التى تتجسم فى القائمين عليها ، لا فرق بين أستاذ وأستاذ ، لا فرق بين مدرس الدين أو مدرس الآداب أو مدرس العلوم ؛ بذلك تتشرب روح التلميذ ما نريد له من تربية ، وما نحب أن ينشأ عليه من طباع ؛ بحيث يشب وقد اتخذت نفسه هيئة طيبة هى ما نسميها خلقاً حسناً ، وعن هذه الهيئه تكون الأفعال الطيبة الحسنة بسهولة ويسر .

وحتى يكون لنا هذا الجيل الجديد ، لا نجد بدأ من أن نطالب من بيدهم السلطان أن يطبوا لهـذا الفساد الخلق الذى يكاد يعم الأمة ، وذلك بالتشريع والحزم فى تطبيق القانون . كما لا نرى بدأ من أن نختم هـذه الكلمه بالحديث المشهور الذى يقول : « صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

عمار بن ياسر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد

للصحابة فضل عظيم ومقام جليل ، وفيهم القدوة الحسنة والمثل الصالحة للسير على مناهجهم ، وهم يتفاوتون فى الفضل وفى السبق إلى الإسلام ؛ كما يتفاوتون فى التفقه والإلمام بالأحاديث النبوية ، والعلم والحذق فى فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

ولقد كان عمار بن ياسر من هؤلاء الذين علت أقدارهم ، وسمت مداركهم واستناروا وامتازوا بسبق إسلامهم ، ورضى رسول الله عنهم ووصفهم بالأوصاف الكريمة ، فقد روى على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « جاء عمار يستأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبشر عمار تقتلك الفئة الباغية » ، ولقد تحققت تلك النبوءة - وسترى كيف تحققت هذه النبوءة الصادقة . وروت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما » ، وعمار هذا هو ابن ياسر ويكنى بأبى اليقظان وجده عامر الكنانى المذحجى العنسى وأمه سمية .

ولقد كانت أسرة عمار من الأسر المستضعفة فى بدء الإسلام ، حين كانت للمشركين صولة ، وللطاغين دولة ، وللباطل سلطان وللشرك صولجان ، فقد ماتت سمية والدة عمار فى العذاب على يد أبى جهل ، فكانت أول شهداء الإسلام . ولقد مر النبى صلى الله عليه وسلم على أسرة عمار وهم يعذبون فى الله من أجل إيمانهم فقال : « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

ولقد امتاز عمار بنشاط ملحوظ مادى ومعنوى ، فلقد كان جريئا فى إسلامه شجاعا فى الدفاع عن عقيدته ، مضحيا من أجلها بروحه ودمه ، فقد حدّث عن إسلامه فقال : لقيت « صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقلت ما تريد ؟ قال : وما تريد أنت ، قلت أريد أن أدخل فأسمع كلام محمد فقال : وأنا أريد ذلك ، فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وكذلك أسلم والده وأمه وأخيه عبد الله بن ياسر .

ولما سطع نور الإسلام بالمدينة وأصبحت هى القلعة المنيعة ، والحصن المكين للإسلام ، عزم عمار على المساهمة فى اعلاء كلمة الإسلام ، وتمكين دعائمه بيثرب ؛ فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة فأذن له . وكان عمار أول من بنى مسجدا فى الإسلام بناه فى المدينة وسماه قباء .

ولم يكن عمار من الخاملين أو الكسالى الذين يهابون الحرب ، ويرهبون الوغى فقد شهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان ، وبجانب هذه الشجاعة والروح الحربية ، والقوة المعنوية التى امتاز بها عمار كان معروفا بسداد الرأى ، وسعة الحيلة ، والخبرة بالشئون العامة ، فقد ولاه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، أمر الكوفة فكتب بذلك إلى أهلها يقول : «أما بعد فقد بعثت إليكم عمارا أميرا ، وابن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من نجباء أصحاب محمد فاقتدوا بهما » .

فهذه شهادة من عمر الذى كان يعرف أقدار الرجال ، ويعرف كيف ينتخب ولاته وكيف ينقب عن صفات الرجال الذين يصلحون لتدبير الأعمال ، ويمتازون بالخبرة والنزاهة فى سيرتهم ويؤدون للرعية مالها .

ولقد كان عمار يعرف منزلة الكرامة ومكانتها فى دين الرجل ، فما كان يرضى الدنية ولا يقبل الضيم ولا يرضى الذلة ؛ فقد خاصمه خالد بن الوليد يوما فأغلظ له فانطلق عمار إلى الرسول يشكو ، فجاء خالد وعمار يشكو فجعل يغلظ له أيضاً ، والنبى صلى الله عليه وسلم ساكت فقال : عمار يا رسول الله ألا تراه كيف يفعل ؟ فرفع رسول الله رأسه وقال « من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً

أبغضه الله . قال خالد : فخرجت فما كان أحب إلى بعد من رضا عمار فلقيته فاسترضيته فرضى .

والناحية الهامة فى التشريع التى امتاز بها عمار أنه كان مفتيا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد كان خبيراً بالأحكام وعللها ، غواصا على المعانى والبواعث والحكم والتى شرعت من أجلها الأحكام ، فقد كان يسهل عليه الجواب حين يفاجأ بالسؤال فكان الاستفتاء لا يذهله ولا يدهشه ، كما يحدث لمن قصرت مداركهم فلا يحسنون الانتفاع بما يحفظون ، ولا يستطيعون استنباطا مما يروون . ولقد جمع إلى هذا الفكر المستنير والرأى الصائب والفهم الحاذق إحاطة لعدد وفير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى له فى الصحيحين اثنان وستون حديثا .

وقد كان ثبتا ثقة فى خلقه ودينه ، وأخذه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقد روى عنه على بن أبى طالب ، وابن عباس ، وأبو موسى الأشعرى ، وجابر ابن عبد الله ، وعدد وفير من الصحابة ، كما روى عنه من التابعين ابنه محمد وسعيد ابن المسيب ومحمد بن الحنفية وغيرهم .

ولقد تحققت عند موته نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم التى سبق أن أشرنا إليها ، فقد كان عمار فى جيش على ، فقتله أصحاب معاوية فى واقعة صفين التى حدثت بينهم وبين أصحاب على رضى الله عنه سنة سبع وثلاثين من الهجرة ، وعمره أربع وتسعون سنة ، ولما بلغ مقتله عمرو بن العاص قال « والله لوددت أن أكون ميت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » ودفنه على بن أبى طالب ولم يكفنه ، ولم يغسله ، لأنه شهيد .

فرحم الله عمارا فقد كان سباقاً إلى الإسلام ، سباقاً إلى الجهاد ، سباقاً إلى الحق ، مضحياً فى سبيل عقيدته ومبدئه بروحه ودمه ، وجعل الله لنا فيه القدوة الحسنة .

صفايا الرؤساء
في الجاهلية والإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

كان للرؤساء فى الجاهلية صفايا جمعها عبد الله بن غنمه الضبي فى قوله يخاطب بسطام بن قيس من رؤساء القبائل :

لك المرباعُ منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

فكان كل رئيس إذا حارب هو وقومه يختص لنفسه من الغنيمة بهذه الامور ، ينفقها على نفسه ، ويحبس بعضها لما قد يطرأ على القبيلة ، أو يتحمل من النفقات ، والمرباع ربع الغنيمة ، وقد قيل فى ذلك مرباع كما قيل فى العشر معشار ولم يسمع فى غيرهما ، والصفايا جمع صفيّ أو صفية ، وهو ما كان يختاره الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيرهما ، والنشيطة ما يغنمه المحاربون فى الطريق قبل الموضع الذى قصدوه بالغزو ، وقيل : هو ما انتشط من الغنائم ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب ، والفضول : هو ما يبقى من الغنائم بعد القسمة مما لا يصح قسمته على عدد المحاربين ، وقيل هو ما أعجز أن يقسم لقلته ، وكان الرئيس يملك كل ما يأخذه من هذا ملكا خالصا ، فينفق منه على نفسه كيف شاء ، ويورث عنه بعد موته كما يورث سائر الملك .

فلما جاء الإسلام أبطل من ذلك ثلاثة وأبقى واحدا ، فأبطل المرباع والنشيطة والفضول ، وأبقى الصفايا ، ومما جاء فى إبطال المرباع قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم قبل إسلامه : « إنك لتأكل المرباع ، وهو لا يحل لك فى دينك » . وكان عدى يدين بالنصرانية ، والمرباع من عوائد الجاهليه ، وإنما أبطل الإسلام المرباع والنشيطة والفضول ؛ لأنها كانت حقا مقررا يأخذه الرئيس من كل ما يغنم ، ويمتاز به على قومه دائما ، لأنه حق لا ينازع فيه ، وليس

موكولا إلى اختياره ، أما الصفايا فكانت حقا اختياريا ، إن شاء الرئيس أخذه لنفسه ، وإن شاء تركه لقومه ، والإسلام أعدل من أن يجعل من هذه العادات الظالمة حقا مقررا للرؤساء ، يأخذونه من كل مغنم ، ويختصون به لنفوسهم دائما ، وهو حق كثير جدا عليهم ، ولا يصح أن يستأثروا به دون قومهم .

ولما كانت الصفايا ليست حقا مقررا فقد أبقاها الإسلام ، لأنه يمكن إخضاعها لحكم الظروف والأحوال ، وكثيرا ما توجد ظروف وأحوال تقضى بإيثار الرئيس بشيء من المغنم ، ولا يكون إيثاره به خروجا على ما يقضى به العدل ، لأنه يكون حسما للخلاف بين المحاربين على شيء من الغنيمة ، لنفاسته أو لنحو ذلك مما يكون سببا فى إثارة المطامع وتطلع العيون ، فإذا أخذه الرئيس لنفسه حصل الرضا ، وقضى على سبب الخلاف ، وقد اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر سيف منبه بن الحجاج ، وفى يوم المريسيع جويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ثم أعتقها وتزوجها ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله لا يصح أسرهم ، فمنوا عليهم بالعتق ، وكان هذا سببا فى إسلامهم ، فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها ، وكذلك اصطفى لنفسه صفية بنت حيي سيد بنى النضير من اليهود فى غزوة خيبر ، وكان دحية بن خليفة الكلبي قد طلب منه أن يعطيه جارية من السبى ، فقال له : اذهب فخذ جارية . فذهب فأخذ صفية .

فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير — وكانت أمها من بنى قريظة — ما تصلح إلا لك . وهنا وجد النبى صلى الله عليه وسلم أن دحية لم يأخذ جارية من حشو السبى ، بل اختار أشرف نسائه نسبا ، وكانت صفية إلى هذا ذات جمال عظيم ، فإنها كانت من أبهى ما يكون من النساء ، فلا ترضى نفسها بدحية ، وقد استكثرها عليه ذلك الرجل وغيره ، ومثل هذا يؤدى إلى خلاف بينهم ، ولو أنه أخذها منه وأعطاها غيره من كبار الصحابة ، لكان هذا له أثر شديد فى نفسه ، فلم ير إلا أن يأخذها صلى الله عليه وسلم زوجاً له ، فأعتقها وتزوجها ، وقال لدحية : خذ جارية من السبى غيرها . لأنه إنما أذن له فى جارية من حشو السبى لا من أفضلهن ، فلما رآه أخذ أنفسهن نسباً وشرفا ، وجمالا استرجعها ، لئلا يتميز بها على سائر الجيش

مع أن فيهم من هو أفضل منه ، وهذا إلى ما فيه من انتهاكها ، مع علو قدرها ، وربما ترتب عليه شقاق بينهما ، فتسوء عشرتهما ، ولا يكون فيها ما يجب فى عشرة الزوجين من مودة وإخلاص ، ولو تتبعنا غير هذا من صفايا النبى صلى الله عليه وسلم لوجدناه يقوم على مثل تلك المصالح العامة ، ولا يدخل فيه شىء من مصالحه الخاصة ، كما كان شأن صفايا الرؤساء فى الجاهلية .

وقد مات النبى صلى الله عليه وسلم وليس له إلا صفايا ثلاث : بنو النضير ، وخيبر ، وفَدَك . فأما بنو النضير فهى صدقته بالمدينة ، وكانت نخلا لبنى النضير أفاءها الله عليه من غير خيل ولا ركاب ، وأعطى أكثرها للمهاجرين ، بدلا من أموالهم التى أخذها منهم أهل مكة حين هاجروا منها إلى المدينة ، وما بقى منها حبسه لنوائبه ، ولم تكن نوائبه إلا نوائب المسلمين فى حربهم وسلمهم ، وغير هذا من نوائبهم .

وأما خيبر فإنه كان قد قسمها قسمين : نصفها للمسلمين ، ونصفها لنوائبه وحاجته ، فكان يأخذ منه نفقة أهله ، وما فضل ينفقه على فقراء المسلمين ، وفى مشترى السلاح والكراع ، وكان ما يأخذه لنفقة أهله يقدر بسنة ، فإذا أخذه لا يأخذ شيئاً بعده ، وكان لا يكفيه إلى آخر السنة ، فكان يقترض ما يسد به حاجة أهله ، ولهذا مات ودرعه مرهونة عند يهودى .

وأما فدك ـ وهى قرية على ثلاث مراحل من المدينة ـ فكانت للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب كبنى النضير ، فكان ينفق منها ويأكل على قدر حاجته ، وقد سبق أن ما كان يأخذه لا يبقى بها إلى آخر السنة ، وكان يعود منها أيضاً على فقراء بنى هاشم ، ويزوّج أيّمهم ، وينفق على أبناء السبيل ونحوهم .

وقد اختلف أبو بكر وفاطمة رضى الله عنهما فى أمر هذه الصفايا ، فروى أن فاطمة أتته فقالت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لى فدك ، فأعطنى إياها . فطلب منها البينة على هذا ، فشهد لها زوجها على رضى الله عنه ، فسألها شاهداً آخر ، فشهدت لها أم أيمن ، فقال لها : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ولم يحكم لها بما طلبت .

وروى أيضا أنها جاءته فقالت له : أعطنى فَدَك ، فقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لى . فسألها البينة ، فجاءت بأم أيمن ورباح مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، فشهدا لها بذلك ، فقال لها : إن هذا الأمر لا تجوز فيه إلا شهادة رجل وامرأتين .

وروى أيضا أن فاطمة أتت النبى صلى الله عليه وسلم تسأله فَدَك ، فقال لها : ما كان لك أن تسألينى ، وما كان لى أن أعطيك . وهذه الرواية تناقض الروايتين السابقتين .

وهناك روايات أخرى فى ذلك تفيد أن فاطمة طلبت ذلك من أبى بكر لأنه إرثها من النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يطالبها أبو بكر بشهود عليه ، لأن حق الإرث لا يحتاج إلى شهود ، وإنما نازعها فى ذلك الإرث ، فقالت له : من يرثك إذا متّ ؟ فقال : ولدى وأهلى . فقالت : فما بالك ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا ؟ فقال : والله يا بنت رسول الله ما ورثت أباك ذهبا ولا فضة ، ولا كذا ولا كذا . فقالت : سهمنا بخيبر ، وصدقتنا فدك . فقال : يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما هى طعمة أطعمنيها الله حياتى ، فإذا مت فهى بين المسلمين .

وقيل إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبى صلى الله عليه وسلم فى فدك وخيبر ، فقال لهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركناه صدقة ، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال . ثم قال : والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه فيه إلا صنعته .

وقيل إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأله مواريثهن من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وفدك ، فقالت لهن عائشة : أمَا تتقين الله ، أما سمعتن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا صدقة ، إنما هذا المال لآل محمد ، لنائبتهم وضيفهم ، فإذا مت فهو إلى والى الأمر بعدى .

وقد جاء بعد هذا فقهاء أهل السنة والشيعة فاختلفوا فى إرث النبى مطلقا ، فذهب أهل السنة إلى أنه لا يورث . وذهب الشيعة إلى أنه يورث ، ولم يقيدوا

الخلاف بأمر هذه الصفايا التى قام الخلاف فيها بين أبى بكر وفاطمة ؛ و من يطالع هذه الروايات السابقة يجد فيها ما يفيد قصر الخلاف فى إرث النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الصفايا ، وأن أبا بكر كان يرى أنها لم تدخل فى ملك النبى صلى الله عليه وسلم حتى تورث عنه ، وإنما كان له حق النفقة منها فى حياته على الوجه السابق ، ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له ما يملكه غير هذه الصفايا من منقول ونحوه وإن كان قليلا ، وهذا لم يرد فيه نزاع بين أبى بكر وفاطمة ، لأنه لا يصح النزاع فى إرثه ، والحق أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له على هذه الصفايا إلا حق الولاية ، فتكون ولايتها لمن يلى أمر المسلمين بعده .

قلة الكرام

قالت الحكماء : الكرام فى اللئام كالغرة فى الفرس . قال السموءل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال ابو تمام :

ولقد يكون ولا كريم تناله حتى تخوض إليه ألف لئيم

وقال ابن أبى حازم :

وقالوا مدحت فتى كريما فقلت وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومر بى خمسون حولا وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم طول ولا أحد يعود على عديم

وقال دعبل :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم والله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأغلق عينى ثم أفتحها على كثير ولكن ما أرى أحدا

علي بن أبي طالب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

بلاغته :

قال الأستاذ الأديب محمد المرصفى شارح نهج البلاغة ، وهو يتحدث عن اللغة العربية فى مقدمة شرحه : « وبين هذه وتلك منزلة هى عليا منازل الكلام فيما نعلم ، وأشرفها مكانا وأجلها خطراً ، أقام فيها صدر الإسلام وشطرا من خلافة بنى أمية ، جمعوا فيها بين جمال الحضارة الجديدة وجلال البداوة القديمة ، وبشاشة القرآن الكريم . بهذه الخصال الثلاث امتاز الخلفاء الراشدون ومن تأثرهم ، كزياد والحجاج وقطرى بن الفجاءة . وقد كان المجلى فى هذه الحلبة على صلوات الله عليه . وما أحسبنى أحتاج فى إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة ، ذلك الكتاب الذى أقامه الله حجة واضحة على أن عليا قد كان أحسن مثال حى لنور القرآن وحكمته ، وعلمه وهدايته ، وإعجازه وفصاحته .

اجتمع لعلى فى هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء وأفذاذ الفلاسفة ونوابغ الربانيين : من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ومن كل موعظة باهرة وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر .

خاض على فى هذا الكتاب لجة العلم والسياسة والدين ، فكان فى كل هذه المسائل نابغة مبرزا . ولئن سألت عن مكان كتابه من الادب بعد أن عرفت مكانه من العلم ، فليس فى وسع الكاتب المترسل ، والخطيب المصقع ، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية من وصفه ، أو النهاية من تقريظه .

وحسبنا أن نقول : إنه الملتقى الفذ الذى التقى فيه جمال الحضارة وجزالة البداوة ، والمنزل المفرد الذى اختارته الحقيقة لنفسها منزلا تطمئن فيه ، وتأوى إليه بعد أن زلت بها المنازل فى كل لغة ، وسأحاول أن أحلل بعض عوامل هذه

العبقرية العلوية فى بعض نواحيها بما يشوق إلى مطلبها ، حتى لا تهمل تلك الكنوز الثمينة التى عرفها رواد الأدب الرفيع وطلاب الأسلوب السامى .

ولا غرو ، فقد كان على فى الصميم من هاشم من ملكوا زمام الفصاحة فى فى العرب ، واستبدوا بمزايا الأدب .

وقد نشأ على فى بيت النبوة حيث تتلى آيات الله والحكمة ، فيحظى بالنصيب الأوفى من فيوضات الإسلام ، التى هى المادة الخصيبة لكل أديب ، ثم سعد بعد ذلك بغصن النبوة فاطمة الزهراء تزيده أدبا إلى أدبه ، وتمده ببعض ما أخذت عن أبيها من دونه ، وقد حفظ على القرآن كله وقل أن يجتمع ذلك لغيره ، فوقف على أسراره واختلط به لحمه ودمه . والقارىء يرى ذلك فى نهج البلاغة ويلمس فيه مقدار استفادة على من بيانه وحكمته . وناهيك بالقرآن مؤدبا ومهذبا ، يستنطق البكىء الأبكم فيفتق لسانه بالبيان الساحر والفصاحة الغالية ، فكيف إذا كان مثل على فى خصوبته وعبقريته ، واستعداده ممن صفت نفوسهم وأعرضوا عن الدنيا وأخلصوا للدين ، فجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم على ألسنتهم متدفقة كالمحيطات ، تجرى بالسلس العذب من الكلمات ؟

وهل كان الحسن البصرى فى زواجر وعظه ، وبالغ منطقه إلا أثراً من على وقطرة عن محيط أدبه ، ففتن الناس بعبارته وخلب ألبابهم بجمله ، فكيف يكون الأستاذ العليم والإمام الحكيم على بن أبى طالب ؟

لقد كان الإمام على فى خطبه المتدفقة يمثل بحراً خضما من العلماء الربانيين ، وأسلوباً جديداً لم يكن إلا لسيد المرسلين ، وطرق بحوثاً من التوحيد لم تكن تخضع فى الخطابة إلا لمثله ، فهى فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله ، فدانت لبيانه وسلست فى منطقه وأدبه .

وخاض فى أسرار الكون وطبائع الناس وتشريح النفوس ، وبيان خصائصها وأصنافها ، وعرض لمداخل الشيطان ومخارجه وفتن الدنيا وآفاتها ، وتكلم فى الموت وأحواله ، وفى بدء الخلق ووصف الأرض وفى شأن السماء وما يموج فيها من أملاك وما يحف بها من أفلاك ؛ كما عرض لملك الموت ووصفه وأطال فى وصفه .

وخطب على فى السياسة وفى شئون البيعة والعهد والوفاء واختيار الأحق ، وما أحاط بذلك من ظروف وصروف كتحكيم صفين ، وما تبعه من آثار سيئة وتفريق فى الكلمة .

ولم يفته أن ينوه فى خطبه بأنصار الحق وأعوان الخير ، والدعوة إلى الجهاد ، وفيها محاجة للخوارج ونصح لهم ولأمثالهم باتباع الحق ، وغير ذلك مما يكفى فيه ضرب المثل ولفت النظر .

غير أن ناحية عجيبة غريبة امتاز بها الإمام ، هى مما اختص به القديسون من الأنبياء ، ومن على شاكلتهم كانت تظهر فى بعض تجلياته ، وأشار إليها فى بعض مقاماته ولم يسلك فيها سواه إلا أن يكون رسول الله .

فقد ذكر كثيراً من مستقبل الأمة ، وأورد ما يكون لبعض أحزابها كالخوارج وغيرهم ، ومن ذلك وصفه لصاحب الزنج وذكر الكثير من أحواله . وذلك من غير شك لون من الكرامات ، وقد قال له بعض أصحابه إذ ذاك : لقد أوتيت يا أمير المؤمنين علم الغيب . فضحك وقال للرجل وكان كلبيا :

« يا أخا كلب ، ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذى علم ، إنما علم الغيب علم الساعة وما عدّد الله بقوله « ان الله عنده علم الساعة . . . الآية » فعلم الله سبحانه وتعالى ما فى الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل وسخى أو بخيل وشقى أو سعيد ومن يكون فى النار حطبا ، أو فى الجنان للنبيين مرافقا ، فهذا علم الغيب الذى لايعلمه أحد إلا الله ، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ، ودعا لى بأن يعيه صدرى وتضطم عليه جوانحى » .

هذا إلى أنه طرق نواحى من القول ، كانت من خواص الشعر إذ ذاك ، ولكنه ضمنها خطبة ؛ فوصف الطب وعرض للخفاش وما فيه من عجائب ، والطاووس وما يحويه من أسرار ، وما فى الإنسان من عجائب الخلق وآيات المبدع الحق ، وأحيلك فى ذلك كله على نهج البلاغة ، ولكنى أتعجل لك جملا من قوله فى الخفاش وهو يذكر بالله سبحانه « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش ، التى يقبضها الضياء الباسط لكل شىء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حى ، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من

الشمس المضيئة نوراً نهتدى به فى مذاهبها ؟ وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها ، ردعها تلألؤ ضيائها عن المضى فى سبحات إشراقها ، وأكنها فى مكامنها عن الذهاب فى بلج ائتلاقها ، فهى مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجا تستدل به فى التماس أرزاقها ، فسبحان من جعل لها الليل نهاراً ومعاشا والنهار مسكناً وقراراً » .

ووصف الطاوس وهو يتحدث عن الطير . فقال :

« ومن أعجبها خلقا الطاوس الذى أقامه الله فى أحكم تعديل ، ونضد أصنافه فى أحسن تنضيد : بجناح أشرج قصبه ، وذنب أطال مسحبه وإذا درج إلى الأنثى نشره من طيه وسما به مطلا على رأسه . إلى أن يقول : يفضى كإفضاء الديكة ، أو يؤر بملاقحه أرّ الفحول المغتلمة فى الضراب : فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت « جنى جنى من زهره كل ربيع ، وأن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحلل ، أو مرنق عصب اليمن ، وأن شاكلته بالحلى فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل . . . »

وهكذا تجد فى أدب علىّ الدين والسياسة والأدب ، والحكمة والوصف العجب ، والبيان الزاخر .

هذا كتاب إلى شريح القاضى يعظه ، وقد اشترى داراً ويحذره أن تكون من مال المسلمين فى معان عجيبة وأسلوب خلاب ،

وهذا إلى معاوية يجادله فى الأحق بالخلافة ، وقتلة عثمان فى معان لا يحسنها سواه ، وتلك كتب إلى العاملين على الصدقات ، يعلمهم فيها واجباتهم فى جميع ملابساتهم .

وذلك عهده إلى محمد بن أبى بكر حين قلده مصر ، وتلك وصيته الى الحسن عند منصرفه من صفين ، لم يدع فيها معنى تتطلبه الحياة لمثله إلا وجهه فيه أسمى توجيه ، فى فلسفة خصيبة ، وحكم رائعة مفيدة ، وكل تلك النواحى والأغراض فى معان سامية مبسطة ، يعلو بها العلم الربانى الغزير ، والروح السامية الرفيعة وتدنو بها تلك القوة الجبارة على امتلاك أزمة القول ، كأنما نثر كنانته بين يديه فوضع لكل معنى لفظه فى أدق استعمال .

ولعلك لم تنس ما قدمت لك من وصف الخفاش وتفصيل أجزاء الطاووس . فاسمع هذه أيضاً ولم أتعمد فى نقلها اليك اختياراً ولا تعمقاً : قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندرى أى الأمرين أرشد ؟

فصفق إحدى يديه على الأخرى ثم قال : « هذا جزاء من ترك العقدة ، أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيرا ، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثق . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى ، وكلت النزعة بأشطان الركى . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرءوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا ، وصفاصفا بعضه هلك وبعضه نجا ، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون عن الموتى ، قرح العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين ، أولئك أصحابى الذاهبون . » فانظر إلى قوة الحجة والإلجاء إلى المحجة ، وغرابة التشابه وروعة الاستعارات ، وسطوع التصوير وانسجام المعانى وتآخذها .

ولقد يضيق بى القول فأقف حائراً عاجزاً عن شرح مايجول بنفسى من تقدير تلك المعانى السامية ، فيسعدنى تصوير الأستاذ الإمام له وهو يقدم نهج البلاغة حين يقول :

« فكان يخيل إلى فى كل مقام أن حروباً شبت ، وغارات شنت وإن للبلاغة دولة : وللفصاحة صولة ، وإن للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وإن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم الأملج ، وتمتلك المهج برواثع الحجج ، فتفل من دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود ، وإن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو أمير المؤمنين الغالب على بن أبى طالب . . . . »

أما الأسلوب فيتجلى لك ما يأتى .

(١) الثروة من الألفاظ العربية فى مفردها وجمعها ، ومذكرها ومؤنثها وحقيقتها ومجازها .

(٢) المجازات والكنايات فى معرض أنيق وقالب بديع .

(٣) الإيجاز الدقيق مع الاطناب فى مقامه ، ويظهر ذلك فى فقره وسجماته الفريدة التى يجمل بكل أديب أن يحفظ الكثير منها ليكون بيانه التكوين العربى السليم .

(٤) المحسنات البديعية فى نمط ممتاز من جناس إلى طباق وترصيع وإلى قلب وعكس ، تزدان بجمالها البلاغة ويكمل بها حسن الموقع .

(٥) الجرس والموسيقى وجمال الإيقاع مما يدركه أهل الذوق الفنى .

ويحسن قبل الختام أن أشير إلى ما نوه به صاحب الطراز الإمام يحي اليمنى ، فقد تكرر ذلك فى عدة مناسبات ، وأولها تمثيله للبلاغة فى أول كتابه قال وهو فى ذلك الصدد : فمن معنى كلامه ارتوى كل مصقع خطيب ، وعلى منواله نسج كل واعظ بليغ ؛ إذ كان عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومحط البلاغة ومولدها ، وهيدب مزنها الساكب ومتفجر ودْقها الهاطل . وعن هذا قال أمير المؤمنين فى بعض كلامه : « نحن أمراء الكلام وفينا تشبثت عروقه ، وعلينا تهدلت أغصانه ، ثم أورد مثالا من أول خطبة فى نهج البلاغة وقال : العجب من علماء البيان والجماهير من حذاق المعانى ، كيف أعرضوا عن كلامه مع علمهم بأنه الغاية التى لا مرتبة فوقها ، ومنتهى كل مطلب ، وغاية كل مقصد فى جميع ما يطلبونه من المجازات والتمثيل والكناية ، وقد أثر عن فارس البلاغة وأمير البيان الجاحظ أنه قال : ما قرع سمعى كلام بعد كلام الله وكلام رسوله إلا عارضته إلا كلمات لأمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فما قدرت على معارضته وهى مثل قوله : « ما هلك امرؤ عرف قدره » ، « استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره » .

وبعد فقد خرّج هذا الأدب السامى العلوى ، والبيان العبقرى المطلى نوابغ هذه الأمة فى القديم والحديث ، من أمثال ابن عباس والحسن البصرى ، ثم زياد والحجاج وقطرى ثم عبد الحميد الكاتب وابن المقفع .

ثم الأستاذ الإمام محمد عبده ، والزعيم سعد زغلول والهلباوى ، وغيرهم من قادة الفكر والهداة فى كل عصر ، فهل من يسلك نهجهم فى التهافت على ذلك التراث الثمين والكنز الدفين ؛ إن يكن الخير للغة فعسى أن يكون ذلك قريباً .

جزاء وجزاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ بالأزهر

يقول الله عز جلاله فى كتابه الحكيم :

« ولله مافى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الارض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

تنطق هذه الآية الكريمة بوصفين ، وترتب جزاءين ، تنطق بوصف قوم بأنهم أساءوا ، وترتب على الاساءة جزاءها ، وتنطق بوصف قوم بأنهم أحسنوا ، وترتب على الإحسان جزاءه .

والمحسنون ، والمسيئون مملوكون لله خالقهم والله مالكهم ، والله مالك ما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، ومن حقه عز شأنه ، بعد أن منح الناس نعمة الوجود ، وجملهم بأحسن تقويم وأبدع تصوير ، وألبسهم من سابغ فضله ، وحباهم بكريم عطفه ، من حقه أن يطلب إليهم شكر نعمته ، والتزام طاعته وجمال تقواه ، لا لحاجته ـ سبحانه ـ فهو الواحد الصمد ، العزيز بسلطانه ، العظيم بجلاله وقدرته ، الغنى بملكه ، ولكن الناس هم المفتقرون ، فى طاعتهم غناهم ، وفى شكرهم عزهم ، وفى استجابتهم سعادتهم . . . « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » .

فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، وأما من تجاوز حدود الله واستكبر على طاعة الله ، وشمخ بأنفه صلفا وعتوا ، وأما من عاث فى الأرض الفساد ، وضيع حقوق العباد ، واستلهم وحى الشيطان ، فأثم سعيه وساء عمله ، فإن جزاء هؤلاء جميعا ، ذلة تدك من عتوهم ، وغضب يزلزل من مقامهم ، وظلمة تحيط بهم فى دنياهم ، وتعثر يكبو بهم فى مسعاهم ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، قال تعالى : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ألا هل يبلغ أصحاب الأموال ، الذين أساءوا فى حبس زكاتها عن الفقراء ، وأساءوا فى حبس استثمارها لصالح الوطن ، وأساءوا فى منع النفقة المشروعة حتى عن الأهل والعشيرة ، أن جزاءهم حبس رحمة الله عنهم ، وأن جزاءهم لعنة الوطن الذين أعزهم فأذلوه ، وأسعدهم فأشقوه ، وأن جزاءهم بغض الأهل والعشيرة ، الذين تنكروا لهم ، وتبرموا بهم ، ثم بعد ذلك كله حبس الله فى نار جهنم حتى تنمحى كدورتهم ويزول خبثهم « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ألا هل من يبلغ أصحاب الجاه والمناصب ، الذين تصلفت أعناقهم ، وتجهمت أساريرهم ، ولوحوا بالشر ، ونكصوا عن الخير ، أنهم أساءوا الى نعمة الله حين أشاحوا بجاههم عن حاجات المحتاجين ، ورغبات المستضعفين ، وحين استمرأوا فى مناصبهم لذة الأمر والنهى لا لمصلحة ، ولا فى محمدة ، هل يعلم هؤلاء أنهم أساءوا إلى جاههم ، وأساءوا إلى مناصبهم ، وأساءوا إلى نفوسهم ؟ .

ثم أساءوا إلى هذه الآمال المرجوة العادلة فكبتوها وضيعوها ، ورزأوا أصحابها ، ألا وإن جزاء هؤلاء وأولئك كراهية الله والناس ، وفى كراهية الله العذاب ، وفى كراهية الناس المقت والازدراء . . .

أما أن يجزى الله المحسنين بالحسنى ، ويؤتيهم بالخير والمثوبة ، فى الأولى والآخرة ، فذلك جمال الإحسان فى الإحسان ، وذلك وعد الله الذى لا يتخلف وبره الذى يشمل الأبرار الأخيار ، يمتعهم فى الدنيا بنعمه الرضا ، والقناعة . والاطمئنان ، وحب الله ، وحب الناس ، ولا والله لا يطاول شىء فى الدنيا هذه المتعة ، ولا يهفو قلب الى أبعد من هذه الغاية .

أما فى الآخرة فروضة المحبين ، وجنة المتقين وسعادة الخالدين ، وصدق الله العظيم « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وليس شىء أدل على فضل الله من رحمته ومغفرته لأولئك الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وهى الذنوب التى فحشت وخبثت ، إذا ألم هؤلاء بشىء من صغائر الذنوب فإن ربك يتجاوز عنها فضلا ورحمه « إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم من يوم أنشأكم بنشأة أبيكم آدم من الارض ، وهو أعلم بكم فى الخفاء المستور وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم إدعاء ولا رياء ؛ بل زكوها طهارة وكرامة وصفاء ؛ فإنه سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمتقين .

كتب رجل إلى أبى العتاهيه رحمه الله يقول :

يا أبا إسحاق إنى واثق منك بودك
فأعنى بأبى أنت على عيبى برشدك

فاجابه أبو العتاهيه بقوله :

أطع الله بجهدك راغبا أو دون جهدك
أعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك

سؤال الناس

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

يعنى الدين الإسلامى فى تربيته للأفراد والجماعات عناية تامة بتقوية روح العزّة والكرامة ، والإباء والشمم ، والتعالى والسمو ، بحيث يتحقق فيهم ذلك المعنى الذى تقصد اليه الآية « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وإذا كانت التكاليف التى تعبّدنا سبحانه وتعالى بها ، تنتهى بالإنسان إلى أن يكون عبداً لله وحده لا شريك له ، يخُصه بالخضوع والتواضع ، والانكسار والذلة ، والابتهال والزلفى ، والرجاء والخوف ، وعلى قدر ما يكون الإخلاص فى ذلك كله تقوى آصرته بربه ، وتزيد علاقته بمولاه ، حتى لكأنه سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، « وإذا سألك عبادي عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ، فإنها ـ كذلك ـ توجّه الفرد إلى أن يبذل للأسرة الآدمية بره ومعروفه ، ومعونته وإحسانه ، وأن يكون فى سبيل ذلك أشبه بالجندى المجهول الذى ينسى نفسه من أجل المصلحة العامة ، ويقدّمها رخيصة للنهوض بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وليس معنى هذا أن يتواكل غيره فى مقابلة جده ، ويتكاسل سواه لأن هنالك من يكفيه مؤونة العمل ، بل إن فيه من صريح النصوص ما يبغّض فى الحياة على حساب الناس ، وتحت رحمة المخلوقات ، ويرى أن السعى فى طلب الرزق ، والكد لتحصيل القوت ، من أفضل أنواع العبادة ، وخير أبواب الطاعة . . .

وقد صح أن جماعة سألوا الصادق المصدوق فى رجل تبتل لله ، واعتكف فى المسجد ، وانقطع عن أعمال الدنيا يريدون أن يعرفوا قيمة صنيعه ، وجزاء عبادته ، ومقدار ما وصل إليه من الرضا والقبول .

فقال : ومن يصلح له أمره ، ويكفيه ما يهمه ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ! فقال : كلكم خير منه ، وبهذا الفهم درج السلف الصالح من هذه الأمة منذ فجر الإسلام ، فلم يكن فيهم متسول ، ولم يظهر من بينهم مستجد ، ولم ينبئنا التاريخ أنهم كانوا عالة على الناس .

والقرآن الكريم يمدح المتعففين ، ويشيد بمنزلة الزاهدين ، ويغالى فى الثناء على الذين يعتزون برب الأرباب ، يعوّلون عليه ، ولا تتحول وجوههم إلا إليه « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » لأنهم بهذا الخلق يطرحون بآمالهم بين يديه وكفى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ومن النظريات المسلم بها فى طبائع الفطر ما يقول جل جلاله : « وأحضرت الأنفس الشح » ولذلك دأب أصحاب المال ألا يجودوا به إلا للملحف الملح ، والراجى الذى يصعر خده ، ورأينا الشعراء يستدرون الندى بما يصل بهؤلاء إلى درجة الألوهية ، ويسمو بهم عن مستوى الإنسانية ، وهو كفر يستوجب اللعنة والغضب ، والنقمة والسُّخَط .

وكان من أدبه صلى الله عليه وسلم « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . ولعل ذلك مما يتعلق بنظام العمران أكثر من تعلقه بالدين والأخلاق ، والإباء والكرامة ، فإننا نعلم أن التكافؤ الاقتصادى ، والمساواة الأدبية ، من أسباب الروابط ، ودوام الوشائج ، والأمم فى ذلك كالأفراد ، ولا يجىء الاستعمار ، وتستيقظ مطامع الاحتلال ، إلا من ناحيه الضعف والحاجة ؛ والسُّعار القائم الآن على وجه الأرض ، لا يعدو أن يكون صراعا بين طرفين ، لا يتلاقيان عند قوة واحدة من الغنى والفقر .

ولا يظنن ظان أن السؤال فى الحديث بمعناه المتعارف ، إذ يرفع المسلم يده

بالدعاء، ويوجه قلبه بالرجاء، وإلا كان من عنام عمر بن الخطاب بكلمته « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، وهو يقول اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، بل هو عام فى كل ما كان أخذا فى الأسباب ، وطرقا للأبواب .
ولعَلَّ من النبوءات الحكيمة ، والفلسفة البعيدة المدى ، قول النبى العظيم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع ، قالوا أمن قلة نحن يارسول الله ؟ - حينئذ - قال : « لا ولكنكم كثرة كغثاء السيل ! » .

وربما كانت هى هذه الكثرة الفاشلة ، والسواد الذى تزيد به الأمة فى الكم لا فى الكيف ، حيث تسود البطالة ، ويفشو التواكل ، وتخور العزائم ، وتضعف الثقة ، ويسأل الإنسان الإنسان ، ويعبد المخلوق غير الخالق ، ويتفنن فى الملق ، ويتأنق فى الرياء ، ويبالغ فى النفاق ، ومن هـــذه يستشرى خراب الضمائر ، وفساد الذمم .

فمن للمسلمين أن يتأدبوا بهذا الأدب ، وينهلوا من ذلك المعين ، ويسيروا على هداية نبيهم ، وصراط رسولهم « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، لأن أسلافهم الذين تقدموا ، وأجدادهم الذين مضوا ، ساروا على هذا الدرب ، وخفّوا على ذاك الأثر ، فتطامن لهم جيد الزمن ، وتلفت إليهم عنق الأيام ، ودانت لهم الأرض ، وصافحتهم تيجان الملوك ، وسجلت الحوادث حياتهم بمداد من النور ، وها هى ذى لا تزال فى الأفواه حلاوة ، وفى الأسماع نغما ، وفى الأبصار متعة ، يتمثل بهم المتمثل ، ويتطلع إلى غايتهم المجد ، ثم يرجع خائر الحس ، واهى النفس ، كما يرى السارى القمر دون أن يناله ، وينظر الظمآن إلى الماء فى الزجاجة ولا يصيب منه بُلالةَ .

ولله تلك الأمثال يضربها الله للناس فلا يتصورونها إلا من السحر ، ولا يتخيلونها إلا من الشعر :

يمشون تُغضى الأرض منهم هيبة ولهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا دانت لهم أطرافها لم يطغهم ترف ولا نعماء

أعلام الأزهر

الشيخ عبد الكريم سلمان

المتوفى سنة (١٣٣٦ هـ.) (١٩١٨ م.)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس فى كلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ولد رحمه الله فى القاهرة يوم الخميس غرة شعبان سنة ١٢٦٥ هـ من أبوين ألبانيّ الأصل ، فقد وفد إلى مصر من « ألبانيا » جده لأبيه المرحوم « سلمان افندى أغاً فى عهد « محمد على باشا » ووظف بجنده ، وكان ابنه « حسين افندى » قد اتصل بأسرة من جنسه بقرية « جنبواى » من أعمال مركز « إيتاى البارود » بمديرية « البحيرة » فأصهر اليها ، ولبث بهذه القرية على هوى منه ، وزهد فى وظيفته بما اشتراه من عقار فى هذه الجهة ، وقد رزق عدة بنين كان المرحوم « الشيخ عبد الكريم » ثانيهم سناً ، وقد أصيب « الشيخ عبد الكريم » بالجدرى وهو طفل فكاد يذهب ببصره ، لولا أن القدر هيأ له أخاه فى الطفولة ، فبينما كانا يلعبان على سطح الدار إذا بأخيه يقذف به فيهبط من حالق وتشج جبهته وحاجبه ، ويتدفق منها دم غزير انكشفت به غشاوة عن إحدى عينيه ، فأبصر بها .

وقد حال ضعف بصره دون إلحاقه بالمدارس ، فالتحق بكتاب القرية ، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة وأتم القرآن بها ، ثم أشرب حب الأزهر وتملكه هواه فتسلل خفية إليه ، وقد التقى فى طريقه إلى الأزهر برجل من قريته ، فسأله الرجل عن مقصده فعمّى جوابه ، وإذ ذاك عاد به الرجل إلى القرية وأسلمه لوالده ، ولم يشأ والده أن يصرفه عن حبه الأزهر ، فأوفده إليه فى سنة ١٢٨٨ هـ فانكب على العلم وطالعه برغبة وشوق ، وكان معروفا بالذكاء والتفوق على الأقران ،

وجمعته صداقة الصبا بجمهرة من نابغى الأزهر كالطلاب «سعد زغلول»و«محمدعبده» و «ابراهيم الهلباوى»، وغيرهم .

وفى أواخر دراسته بالأزهر وفد إلى مصر «السيد جمال الدين الأفغانى» فوصل بينهما «الشيخ محمد عبده» وأكد ودّهما ، فتلقى «الشيخ عبد الكريم» عن الأفغانى ما كان ينشره بمصر من العلوم ، ودرب فيمن دربهم على الكتابة ومعالجة الشئون ، ومنذ ذلك الحين شرع يكتب فى الصحف ، ويتناول النواحى الوطنية والخلقية والاجتماعية ، وذاع اسمه بين الكتاب النابهين ، وكان قلمه يدر عليه اليسر والرغد ، ونال شهادة العالمية من الدرجة الأولى فى سنة ١٣١٥ هـ .

أعمـــاله :

اتجهت رغبة المرحوم «رياض باشا» وكان ناظر النظار إلى إصلاح جريدة «الوقائع المصرية» فقلب بصره باحثا عن تحارير الكتاب وجهابذتهم ، فاختاره فيمن اختارهم لتحريرها «كسعد زغلول» و «سيد وفا» وغيرهما تحت رئاسة «الشيخ محمد عبده» سنة ١٨٨٠ م . وكان «رياض باشا» قد اهتدى إليه بمقال كتبه قبل ذلك تناول فيه بالنقد بعض أعمال الحكومة ؛ فدعاه على أثر ذلك وخيره بين الكف عن الكتابة والتزام قريته ، فآثر الثانيـة ، ثم دعاه منها لهذا العمل ، فكان أحد الذين سموا بلغة الوقائع ونهضوا بتحريرها ، وخلصوها مما كانت ترسف فى أغلاله من السجع المرذول والصناعة المستكرهة .

ولما حوكم «الشيخ محمد عبده» عقب الثورة العرابية ، وقضى بنفيه إلى الشام حل «الشيخ عبد الكريم» محله فى رئاسة الوقائع ، وظل بها إلى أواخر سنة ١٨٩٧ وهى السنة التى ألغى فيها القسم الأدبى من الوقائع ، فعادت إلى ما كانت عليه صحيفة أوامر وقوانين .

ثم عين فى أول يناير سنة ١٨٩٨ م عضواً بالمحكمة الشرعية العليا ، وكان قد حصل على شهادة العالمية فى فقه الاحناف لأنه نشأ شافعى المذهب ، ولا يتقلد قضاء مصر إلا الحنفية ، وقد أبدى ذكاءً غريبا فى دراسة فقهه الجديد ، فإنه تضلع فيه واستمكن ، فى وجيز من الزمن .

وفى أول أبريل من سنة ١٩١٠ م عين مفتشا عاما بالمحاكم الشرعية، وطاف بمحاكم البلاد جميعها، وكتب تقريرا مبدعا بين فيه ما شاهده من علل ونقص، وأشار بكثير من ضروب العلاج والإصلاح الإدارى والفقهى، ثم لقى عنتا آثر به الاستقالة فى نوفمبر سنة ١٩١٢ م.

صلته « بالشيخ محمد عبده »:

وقد نشأ ملازما للشيخ محمد عبده متآخيا معه، لا يغادر أحدهما الآخر منذ صباه. ولقد ضرب الشيخ محمد عبده فى أثناء دروسه مثلا يصوّر به تلازمهما فقال: كأن يسأل السائل هل رأيت الشيخ « محمد عبده »؟ فتقول: ولا « الشيخ عبد الكريم سلمان »، وكان بينهما تقارب فى الرأى وتناسب فى الفكر، وتشابه فى الشعور، وكأنهما أرادا أن تدوم صلتهما فى الآخرة كما دامت فى الأولى؛ فابتنيا قبرا واحداً ضم رفاتهما، فما أبلغ ذلك وفاء.

لازم « الشيخ عبد الكريم » صديقه الإمام أكثر من عشر سنين بذلا فيها معا جهوداً موفقة فى خدمة الأزهر وإصلاح شئونه، وكثيرا ما عاون الشيخ « عبد الكريم » زميله الإمام فى مشروعاته المثمرة وعاضده فى إنجاحها، على رغم ما يدبر له من كيد أعدائه وأعداء الإصلاح، حتى أنجز فى ظلالهما ورعايتهما للأزهر إصلاح واسع الأفق فصله « الشيخ عبد الكريم » فى كتابه الذى سماه « أعمال مجلس إدارة الأزهر » وقد طبعه المرحوم « السيد رشيد رضا » مجرداً من اسم صاحبه لما حواه من حقائق تتصل بالخديوى إذ ذاك، ولما قدم الإمام استقالته من مجلس إدارة الأزهر قدم هو الآخر استقالته فى الأسبوع نفسه [1] ومما قال الإمام فى تقديره « وأكننته كنّى فأدنيته منى، وجعلته فى مكان النحو من ابن جنى ».

وما زال كذلك حركة دائبة فى الإصلاح؛ وآية فذة فى العلم والأدب حتى

---

(١) تاريخ الامام جـ ٣ ص ١٦٥ وقد تبعهما بالاستقالة عضو آخر هو الشيخ سيد أحمد الحنبلى؛ كانلا هذه الاستقالات استقالة الشيخ على الببلاوى شيخ الأزهر لعهده. وسبب ذلك معارضة الخديوى لمحمد عبده فى إصلاحات الأزهر لأنه كان يريد أن يتخذ منه أداة لتقوية نفوذه السياسى وكان محمد عبده يقف فى سبيل ذلك. [تاريخ الامام جـ ١ ص (٥٦٢ - ٥٦٦)]

قبض رحمه الله فى يوم الجمعة السابع عشر من مايو سنة ١٩١٨ ، على أثر نوبة قلبية لم تمهله ، وقد نقل جثمانه من « الرحمانية » إلى القاهرة فى حفل رهيب ، وسعى إليه سعد زغلول وعلماء الأمة وعظماؤها وأدباؤها وكبراؤها .

أخلاقه :

هذا وقد كان رحمه الله أبلغ الأمثال فى الإباء والاعتزاز بالكرامة ، رحيما يرثى للمنكوبين ، ويغدق خفية على المعوزين ، ويسعى لقضاء مصالح الناس فلا ترد له كلمة ولا تنتكس له شفاعة ، يؤثر غيره على نفسه ، ولو كان به خصاصة ، ويقدم سواه فيما هو أهل له ، رجا صديقيه الإمام وسعدا يوما مافى تعيين بعض الأصدقاء ، وقد توسط به فى منصب كبير فقال له الإمام : إننى و « سعدا » ندخر هذا المنصب لك وأنت أجدر الناس به ، فقال : لا . لن أقبله ، إنما هو لصاحبى فقد أعطيته كلمة .

وبلغ من الرثاء للمحتاجين البائسين أنه كان يجمع من كثير من الأغنياء صدقة يوزعها عليهم ترفيها عنهم .

كتابته :

اشتغل رحمه الله بالكتابة والتحرير فى الصحف وهو يطلب العلم فى الأزهر ، وبكّر صيته بالكتابة الأدبية القيمة التى نشرها فى « الوقائع المصرية » ، « والمقطم » و « الجريدة » ، و « الآداب » ، و « المؤيد » وغيرها من الصحف . ومما يذكر له بالفضل ما بذله من صادق المجهود فى تخليص الكتابة من ربقة السجع والمحسنات والزخرف ، وكان أشد الناس بغضا للتهويل والمبالغة ، ميالا إلى القصد والاعتدال فى الكتابة ، واضح الغرض ، سهل العبارة ، فصيح التعبير ، مسلسل الفكرة ، قوى الحجة ، سليم المنطق .

وإننا لنجد فى بعض كتابته طرفا من السجع ولكنه قليل ضئيل ، بالنسبة لما كتبه مما استرسل فيه وأتى به طلقا مشرق الديباجة ، أبلج الغرض ، مسايرا سجيته وطبيعته التى لا تميل إلى السجع إلا إن وافاها عفوا دون طلب .

نماذج من كتابته

كتب إلى كريمته « السيدة رابعة » ، وقد انتقلت إلى منزل زوجها في بلد آخر ، وكان يحبها حباً لم يطق معه توديعها .

« عزيزتي رابعة ، سلام عليك وعلى من تحبين .

وبعد

فيعلم الله يا عزيزتي أنني ما سافرت لمنفعة أستجلبها ، ولا لمضرة أتنكبها ، ولكنني أشفقت أن أراك وأنت تبرحين بيتي إلى بيتك الجديد ، وهذا لا يستغرب مع شيخوختي وضعف عزيمتي ، عن مقاومة التأثرات ، ولقد أحسست اليوم عند خروجي بما عراك ، ثم رأيته بعيني عندما قبلتك قبلة التوديع ، ووجدت من نفسي هزيمة كبيرة أمام هذه الحالة ، ولكنني عدت فآمنت بأن هذه سنة الدهر ، وأدركت أن هذه الفرقة إنما هي فرقة الجسم ، أما الصلة القلبية ، والمودة الأبوية ، والشفقة والحنان ، فكل هذا دائم لا يزول .

ولقد أخفيت أمر سفري وجعلته لسببي ، والحقيقة ما كاشفتك به وهو خشية ذلك الموقف الخطير ، والصدق يا عزيزتي هو أفضل الفضائل ، وأنت تعلمين محافظتي عليه ، ولذلك لم أستطع بقائي مصراً على ذلك الكتمان ، فأعلمتك بأمري ، وانهزام صبري ، وعلى الله أجري والسلام » .

وكتب في صفحة أخرى من الخطاب إلى صهره :

إنني وضعت أمانتي بين يديك ، ورضيتك لها حافظاً أميناً ، فعليكم بتقوى الله في العناية بها ، والاهتمام بشأنها ، وما أريدك إلا آخذاً بحقك فإنما بواجبك ، ولم أوصها بمثل هذه الوصية لأنها منك بمنزلة الأمانة ، وليس للوديعة في يد المودع إلا الحفظ ، وما عليها وهي في يده إلا أن تكون حيث يضعها من أمكنة الحفظ والصيانة .

وقد سهل علي أمر فراقكما أن هذه سنة الله في خلقه ، واحترام كل منكما صاحبه كامل الاحترام ، أدام الله لكما هذا التوفيق السار ، المخفف لآلام البعد ، وصعوبة الافتراق .

وأهدى كتابا إلى صديق له وكتب إليه :

« الإنسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كماله ، وزاد إقباله .

كتابى إلى الأستاذ والهدايا تزيد فى التواد ، وتوسع فى قوة الارتباط ، إن كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم ، والشيخ منى بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيه ، ولا داعية لى إليه سوى الصلة به ، ولا أريد منه غير الوداد « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » ، وقد اخترت لك من كتب الأدب العربى القديم كتابا حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك معترفا بأنه نموذج فضلك ، ومعنى أدبك ، يعترف لك مهديه ، بأنه لاحظ المناسبات ونظراً إلى الرغبات ، وقبل أن تشتغل بالبحث فيه عن اسمه والأوصاف ، أعلمك بأنه كتاب المنسوب والمضاف ، فهنيئاً له بالشيخ يقدره حق قدره ، وهنيئاً للشيخ به يزيده فى أمره ، وإن قبول الأستاذ لهديتى مكفول بحق أخلاقه ، وطهارة أعراقه ، وبعلمه بأن النفع بها وهى عنده أهم وأوفى ، فله الحمد على ما قبل ، والشكر على ما أولى » .

لا يفوته

لم يقل أحد فى معنى عدم إمكان الإفلات منه أحسن من قول النابغة الذبيانى الشاعر المشهور من قصيدة للنعمان بن المنذر ملك العرب :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا البيت ضمن أبيات أخرى هى :

أتانى أبيت اللعن إنك لمتنى ... وتلك التى تصطك منها المسامع

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع

كلفتنى ذنب امرىء وتركته ... كذى العر تكوى غيره وهو راتع ،

والعُر هو الجرب .

الأدب والأديب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

يتساءل الباحث ويجهد نفسه فى بحثه وتساؤله : من هو الأديب الذى يستطيع أن يقوم برسالة الأدب وينهض بأعبائه ؟ وكيف يكون الأديب المبين الذى يخلق من القبح حسناء ، ومن الدمامة جمالا ، ويجعل الحياة المظلمة العابسة المتجهمة أمام أعيننا ضاحكة مشرقة تنبعث منها البهجة والمتعة ؟

ما هى الحدود والفواصل التى تفرق بين الأدباء والأدعياء ، بين الفن الحر والفن الزائف ، بين من يمدون أعناقهم إلى منازل الأدب الرفيع وأعينهم كليلة وقلوبهم هواء ؟

إن مما يدعو إلى الأسف ويثير اللوعة والمضاضة أننا لا نرى ميدانا أوسع فوضى ، وأشد اضطرابا ، وأكثر ادعاء ، وأحفل بالمزاعم الكاذبة من ميدان الأدب ! فكل من يحمل قلما يزعم أنه أديب له فى دولة الأدب صولة ، بل صولات وفى أرباضه ومروجه جولة بل جولات ، وكل من يستطيع تحرير خطاب تأخذه العزة به ، ويداخله الغرور ، ويستولى عليه الزهو ، ويظن فى نفسه أنه يستطيع أن يكون من كبار الكتاب وأعلام المؤلفين :

فكل يدعى وصلا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

ولكن ما دامت المعالم غير واضحة ولا معروفة ، والحدود غير مستبينة ، ولا مرسومة ، فليدع من شاء ما شاء ، فلعل بعض الادعاءات أن تصيب لها من بعض الغافلين سميعا .

إن الأديب الذى ننشده ونعنيه هو الذى يستطيع أن يستشف صور الحياة ، ويكتنه أسرار الكون ، ويصوغ من كل ما يحيط به ويتصل بحسه ويثير نوازعه

وهواجسه صورا نابضة بالحياة ، مشرقة بالعبرة مضيئة بجلال العظة ، نافذة إلى القلب حتى يسكن إليها ، محكمة الأواصر بأغوار النفس حتى تطمئن لها وتنفعل بها.

الأديب هو الذى يفتح عيونه لكل ما يمر به من مناظر وصور ، يحاول أن ينتفع بخيرها ويأخذ العبرة من شرها ، ويلقى ببيانه الساحر وتصويره البارع لونا براقا ، يجعل الصعب من الأمور سهلا والعسير يسيراً والمر حلوا ؛ لتخف أعباء الحياة . والأديب البارع هو الذى ينتزع صوره ويبدع فنه مما يحيط به من المظاهر ، وما يستشفه من خلجات الأفئدة ونزعات النفوس وهمسات القلوب ، وما يسيطر على بيئته من تشاؤم وظلمة ، أو يغمرها من تفاؤل ونور .

ثم هو يجيل خياله ويعمل فنه فى سوق هذه الأحاسيس والانفعالات ، وعرض تلك الصور والرسوم : لتحرك فى القلوب ألوان الرضا والابتهاج ، أو تثير فى النفوس أسباب الإشفاق والرثاء .

لكننا نعود إلى تساؤلنا من جديد ما السبيل إلى تكوين الأديب على هذا الوضع ؟ وما الطريقة التى نستطيع بها تنمية فنه ، وصقل مواهبه ؟ هل السبيل إلى ذلك العكوف على الكتاب والإقبال على الدرس فحسب ؟ هنا يكون الخطأ فى الرأى ، والضلال فى الفكرة ، وهنا سر ما نلمحه من تهافت واضطراب فى أدب بعض الأدباء ، وتفكير بعض المفكرين ؛ إذ يعيشون فى بيئة ويفكرون بتفكير بيئات أخرى عفى عليها الزمن وطوتها صحائف التاريخ .

إنما السبيل إلى تكوين الأديب تكوينا صحيحاً ترتجى ثمرته ، وترتقب فائدته ، الإحساس الحق بالحياة التى نحياها ، والإيمان العميق بالبيئة التى نعيش فيها ، والشعور بما تشعر به ، والتفكير فيما تفكر فيه . فالذى يعيش فى بلد أداة الرحلة فيه القطار والسيارة والطيارة ، لاينبغى له أن يتخيل أنه قطع المفاوز وجاب القفار على متن :

مكر مفر مقبل مدبر معاً … كجلمود صخر حطه السيل من عل

… … … … … … منجرد قيد الأوابد هيكل

… … … … … … أو عوجاء من قال تروح وتغتدى

فليست هذه الأوصاف ولا تلك النعوت ولا هاتيكم الموصوفات مما يتصل بحياته بسبب أو يمت إليها بنسب .

ولا يظن أحد أنني أدعو إلى أن نسقط من حسابنا هذه الأوصاف، ونغضي عن تلك النعوت التي صاغها الفكر المبدع، والذهن الصافي، والخيال الوثاب، ونقضي على تلك الثروة الأدبية الفاخرة التي تعتز بها لغتنا، ويشرق أدبنا، ويحتفظ بها التاريخ في سجل المجد والفخار، ولكني أدعو جاهداً مخلصاً لتصح أداتنا، وتستقيم وجهتنا وتخلص غايتنا؛ أدعو إلى الصدق في التصوير، أدعو الأديب الذي رحل في طائرة، أن يصف الطائرة أو ركب متن دابة، أن يصف الدابة، أو قطع البحار في باخرة، أن يصف هذه الباخرة، وسيجد في كل منها منبعاً فياضاً لا يغيض معينه، ولا تنفد ذخيرته، لأنه يتصل بنفسه وإحساسه، وما لقيته من سرور وبهجة، أو كابدته من إجهاد وإرهاق؛ وإن الذي يصف واقعاً أو يتحدث عن عيان ومشاهدة جدير ألا يقع في اضطراب، وألا يصيب فكرته أو أسلوبه ضعف أو خلل.

يأتي بعد ذلك — بعد تصحيح الفكرة واستيفاء المعنى — دور الصياغة وطريقة الأداء وبها تأخذ الفكرة سمت القبول والرضا والاستساغة، أو تقابل بالتجهم والسخط والامتعاض.

إن الفكرة تصبح أحرى بالرضا وأدعى إلى القبول واكتساب الأنصار، إذا لبست ثوبا قشيباً وسمتا أنيقا من اللفظ العذب الجميل، والحبك المستوى والأداء المستقيم والأسلوب الرائع الذي ينفذ إلى القلب، ويمازج النفس ويثير المشاعر الغافية، ويوقظ الأحاسيس الهاجعة، وكلما كان السمت الذي تلبسه الفكرة مونقا مشرقا متلائم النسج متلاحم الصلة، لا تساوره جفوة اللفظ ولا تداخله وعورة المنزع ولا غرابة التخيل ولا بعد المأخذ، كانت الفكرة أمسّ اتصالا بالنفس وألطف مدخلا إلى القلب وأدعى إلى إثارة الأعجاب والتقدير.

والسبيل إلى ذلك دائماً، هو القراءة والارتياض بفنون القول، وطول الصحبة لأساليب الناس، والوقوف طويلا عند صورهم البارعة، التي اجتمع فيها سمو البيان، وجمال الفن، وجودة الصياغة.

وأذكر أن أحد كبار الأدباء كان يختار القطعة الفريدة النادرة من كلام الجاحظ أو غيره، ثم يأخذ في عرض ألوان جمالها، وحسن شياتها، والميزات

التى أفاضت عليها البهاء ، والرونق من استعارة جميلة ، ومجاز بديع ، وخيال محلق طريف ، وأسلوب سلس ، ولفظ جذاب ، ثم يقف طويلا عند منزع الفكرة ، ومعرضها يتملى ويستملى ، ويقيس شيئاً بشىء ، ويقرن معنى إلى معنى ، ويولّد خاطرة من خاطرة ، ويقتبس فكرة من فكرة ، ويحاول بعد ذلك أن يخلق صورة تشبه هذه الصورة ، وينمق قطعة تطاول هذه القطعة ، أو تفرعها ، حتى يصيب الخير الكثير من وراء هذه المحاكاة وتلك المسابقة .

يقول المرحوم الرافعى (١) :

« فسر النبوغ فى الأدب هو التوليد ، وسر التوليد فى نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه إلى المجهول ومعانيه ، كما تتجه كل آلات المرصد الفلكى إلى السماء وأجرامها .

« وبذلك العنصر الذهبى يزيد النابغة على غيره ،كما يزيد الماس على الزجاج ، والجوهر على الحجر ، والفولاذ على الحديد ، والذهب على النحاس ، فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد فى سر تركيبها ، ويتفاوت النوابغ أنفسهم فى قوة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعض ، وتمتد لهم فى الخلاف أحوال أزمانهم ومعايشهم ونحوها ، وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية ، وتتسق له طريقة ، وبذلك تتنوع الأساليب ويعاد الكلام غير ما كان فى نفسه ، وتتجدد الدنيا بمعانيها فى ذهن كل أديب يفهم الدنيا ، وتتخذ الأشياء الجارية فى العادة غرابة ليست فى العادة ، ويرجع الحقيق أكثر من حقيقته » .

نخلص من ذلك كله إلى أن الأديب الخالد لا يتهيأ له الخلود ، ولا يستوفى لديه السمو والابداع إلا حين تتاح له الفكرة النافذة ، والمعنى السديد والرأى الناضج ، ثم يتهيأ له الاسلوب المشرق ، والعباره التى تزينها خلابة البيان وروعة المنطق وسمو الخيال .

وسبيل ذلك كله الاندماج فى الحياة وتمحيص ظواهرها ، وإرهاف الحس لكل ما يضطرم فيها من خوالج وما يمر بها من صور .

---

(١) ص ٢٧٠ ج ٣ وحى القلم .

وسبيله كذلك إدمان القراءة ومواصلة الاطلاع ، ومحاولة الخلق والإنتاج والإبداع ، ومتابعة نتاج الفكر حتى يقف المرء على كل جديد .

ولقد رسم القدماء هذه الطريقة المثلى لتكوين الأديب ، واستمعوا إلى ما يقوله الجرجاني في الوساطة ص٢١ : « أنا أقول أيدك الله : إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ، ولست أفضل في هذه القضية ابن القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد ، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر » .

أما ما ينبغي أن يسلكه الأديب من سبل تزيد ثقافته ، وتنمي معرفته ، وينضج فنه ، فلنا إليه عودة .

جوهرتان

أنشد علي بن الجهم جعفر المتوكل شعره الذي أوله : هي النفس ما حملتها تتحمل ، وكان في يد أمير المؤمنين جوهرتان ، فأعطاه التي في يمينه جائزة له على ما أنشده من مدح : فأطرق ابن الجهم متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره فقال له الخليفة مالك مفكراً ، إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى . خذها لا بورك لك فيها . فأنشأ ابن الجهم يقول :

بسر من رأى امام عدل	تغرف من بحره البحار
يرجى ويخشى لكل أمر	كأنه (جنة) ونار
الملك فيه وفي بنيه	ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضرتان	عليه كلتاهما تغار
لم تأت منه اليمين شيئاً	إلا أتت مثله اليسار

الإخلاص في العمل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ صادق خطاب

المدرس بكلية اللغة العربية

كل إنسان له فى الحياة رسالة يجب أن يقوم بها، ومهمة ينبغى أن ينهض بأعبائها دون إهمال أو تكاسل، ومهما كانت قيمة العمل الذى يؤديه المرء، ومهما صغر وضعه وقل شأنه؛ فهو عمل تنتظم به الحياة وتستقيم الأمور، وتسير الأمة به فى سبيل الرقى والكمال، فالمعلم والصانع والتاجر والزارع كل منهم يضع لبنة فى بناء أمته، ويقيم حجراً فى صرح وطنه. إن أقامه بإخلاص ووضعه بحكمة وأمانة، استقام للأمة أمرها وصلح حالها، واتجهت بطبعها ووضعها إلى طريق الكمال وسبيل السعادة، وما دام كل إنسان يقوم بدوره وينهض بواجبه: فمحال أن تقف دورة الأمة أو يحول بينها وبين العظمة والسيادة حائل.

أما إذا أهمل كل إنسان فى عمله، وتراخى فى مهمته وتغافل عن وظيفته، فلا بد أن تختل الأوضاع وتفسد الطباع، وتتبلد الأحاسيس والمشاعر، ويعترى الأمة حالات من الفتور والإعياء والضعف الاجتماعى الذى يسلبها قوتها، ويمتص حيويتها ويقضى على ما فيها من عزة ونخوة. نحن نشاهد أن هناك دولة قوية ناهضة وأخرى ضعيفة متخاذلة، نشاهد أن هناك دولة تبسط سلطانها وسيادتها، وتفرض على الأمم احترامها وإجلالها، وقد تخطو خطوة أخرى فتستعمر وتحكم، وبجانب ذلك دولة أخرى خاضعة نائمة غافية مستسلمة لا تحس هضما ولا تنكر ظلما ولا تظهر ألما؛ لأن كل ما فيها من حس وشعور قد تبلد وخمد؛ بل استحال إلى عبودية راضية قانعة. هناك دولة تهمس بكلمة فتهتز الدنيا وترتجف، ودولة تملأ الآفاق صراخا وعويلا فلا يحس لها أحد صوتا، ولا يرى أثرا، فما هو

السر فى ذلك؟ ما هو السر الذى لم نفهمه؟ والعامل الذى لم نعلمه؟ بل ما هى الحكمة التى لم نأخذ بأسبابها، ولم ننفذ إلى مسالكها وأبوابها؟

ليس للقوة أسباب ولا أسرار، وليس للسيادة عوامل ولا دوافع، إلا الإخلاص فى العمل وحسن انتظامه وصدق القيام بالواجب، وعكوف كل إنسان على شأنه وإقباله على عمله يؤديه فى دأب، وينهض بأعبائه فى صبر وتعهده لنفسه يقمع شهواتها، ويحد من مطامعها وأهوائها ونزواتها.

وليس للضعف والهزال بواعث إلا الاستهانة بالواجب، والتوانى فى أداء الأعمال، وعدم الإخلاص فى الرسالة التى يكلف بها الإنسان فى الحياة؛ وبهذا تتأخر الأمم وتنتكس، وتضعف وتموت.

يجب أن يدرك الإنسان أنه حين يكسل عن عمله ويفرط فى واجبه إنما يضر نفسه، ويؤذى معيشته وفضلا عن ذلك يضر أمته ويؤخر عوامل التقدم والارتقاء فيها.. قد يستهين بعمله لأنه صغير ضئيل ويزدريه لأنه فيما يرى ليس بذى قيمة تذكر، ولكن هذا العمل على ضآلته وحقارته وعلى قلة جدواه وهزال ثمراته، هو من متممات الحياة للأمة بل من عناصر البقاء فيها، فإذا لم يؤد هذا العمل الصغير، تعطل ركن من أركان الحياة وجانب من جوانب البقاء فيها.

فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وفى كلام رب العزة جل شأنه: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون».

يقرأ الإنسان هذه العظات البالغات، ويفهمها حق الفهم ويرى عواقب الكسل وآثار الإهمال، ضعة وتأخرا وضعف شخصية وانحلال ذاتية، ومع ذلك ومع هذه العبر التى تلاحقه فى كل مظهر، وتأخذ عليه سبيله فى كل ناحية تتحكم فيه نوازع الإهمال، ويتمكن منه إيثاره للراحة وإخلاده للدعة، فإذا به يتهاون فى مهمته فلا يؤديها بصدق رغبة وحرارة إخلاص، وقد ينام عن أدائها كما ينام عن عاقبة التفريط فلا يحسها، ولا يشعر بمرارتها إلا بعد أن تصدمه صدمة مرهقة، وتظهره عاطلا متبطلا خائر النفس متخاذل القوة.

وهكذا تكون آثار الإهمال وجنايات الإهمال على الأمة : نبت يصوح وهو فى شباب حياته وربيع نمائه ، وزهور تذبل وهى فى إبان النضوج والتفتح، وغرس يتهشم ويتحطم عوده قبل أن يؤتى ثمره ! ألا نشعر جميعا بالألم والخيبة وبالمرارة وشدة الفجيعة حين ترى جموعا حاشدة تزحف فى الشوارع كالجيوش الجرارة الزاخرة تلتمس المسألة ، وتبغى التكفف ولا تحاول أن تجرب العمل !؟ تذل ما أعزه الله ، وتهين ما أكرمه ، وتريق ماء صانه وعظمه ! ولو سئلت أن تعمل لتأبت ! ولو طلب منها أن تشتغل لادعت العجز واصطنعت الضعف والإعياء !

إن ميادين العمل التى تتطلبها الحياة كثيرة متنوعة ، لا ترد طالباً ولا تغلق دون راغب ، ولكن الشيطان أعماهم ، ودافع الجشع أضلهم وأغواهم ، فلم يعرفوا إلا السؤال وذله وامتهانه ، لأنه سهل مريح مربح لا عناء فيه ولا كلفة ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » .

نرى بجانب هؤلاء السائلين المتكففين نوعا آخر من الناس مردوا على التسكع وألفوا البطالة ، وأخلدوا للدعة والراحة ، هم صناع ، صناعاتهم فى أيديهم ، لكنهم لا يعرفون العمل إلا حين يقتلهم الجوع ويجهدهم العرى ؛ إذا تهيأ القرش لهم ، وأخذ سبيله إلى أيديهم أنساهم ربهم وواجبهم ، وألهاهم عن كل طاعة وكل هداية ، وبجانب أولئك وهؤلاء شباب ناضر قوى ، يفيض صحة وقوة ، ويقطر حيوية وفتوة واكتمال شباب ، ولكن ليس لهم عمل إلا التسكع فى الطرقات ، والتمرغ فى القهوات ليلا ونهاراً كأنما ليس لهم بيوت تحتاج إلى كدهم وعملهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفى الفارغ » (أى العاطل الذى يكفيه غيره طعامه وشرابه) ، فما أجدر المسلمين وهم يرون الأمم تستبق فى ميادين الرقى والتقدم ، بالقضاء على هذه الآفات والتغلب على تلك العورات والزلات ؛ لتقوى نفوسهم ، وتعز أممهم وتسعد أوطانهم .

الحج

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى
كل ضامر يأتين من كل فج عميق »
قرآن كريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

ما من عبادة شرعت فى الإسلام ، وما من طاعة دعا إليها القرآن ، إلا كان لها أبلغ الأثر فى تطهير النفوس ، وتهذيب الأخلاق ودعوة الناس إلى السعادة الدائمة ، والعزة الكريمة .

دعا الإسلام إلى الصلاة وجعل ثوابها فى جماعة أفضل من ثوابها على انفراد بسبع وعشرين درجة ؛ ليكون اجتماع المسلم بأخيه ، ووقوفه بين يدى الله إلى جانبه ، داعيا إلى التآلف والتآزر ، موجبا للتعاون والتناصر ، باعثا على المحبة وصدق المودة ، قاضيا على ما فى النفوس من حقد أو ضغينة أو نفرة .

كذلك أمر الله باجتماع أكبر ينعقد كل أسبوع ، يتذاكر فيه المسلمون فى كل بلد عيوبهم ، ومحاسنهم ، ويعالجون عللهم وأمراضهم ، ثم ينفض الاجتماع وقد اطمأن كل إلى حال أخيه وزوده بالعظة النافعة ، أو اكتسب منه النصيحة الخالصة .

نلتمس هذه المعانى الكريمة بما فيها من سمو وجمال وجلال وقداسة فى الجمعة والعيدين ، وتقوى هذه المعانى ، وتعظم العبرة فيها ، وتشرق المنافع منها فى الاجتماع الأعظم ، والموقف الأكبر عند بيت الله ، الذى جعله مثابة للناس

وأمنا ، وألف حوله القلوب ، وجمع إليه النفوس ، وحبب فيه أفئدة الناس ، وجعلهم ينسلون إليه من كل صوب ، ويفدون نحوه من كل فج عميق : ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

ودائما لا يلتقى المؤمن الصادق بأخيه إلا استفاد منه حكمة نافعة ، أو كلمة طيبة أو رأيا ناصحا ، أو تجربة فى الدنيا ، أو تبصرة فى الدين .

وفى الحج يجتمع المسلمون من كل أطراف الدنيا ، ويلتقى المؤمنون من جميع بقاع الأرض ، وليس فى القلوب إلا الطاعة الخالصة ، والرغبة الصادقة فى عفو الله ورحمته ، فهو اجتماع ليس فيه تنافس على دنيا ، ولا تزاحم على باطل ، ولا اندفاع إلى هوى ، ولا انقياد لشهوة ، وهو اجتماع تزول فيه الفوارق بين الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، وتهون فيه قيمة الدنيا ، ويصغر ما فيها من جاه ومتاع .

هنالك يشعر المسلم بالفروق الأرضية وقد زالت ، والحواجز الجنسية وقد انمحت ؛ فليس هناك إلا رابطة الإسلام ، تسيطر على النفوس ، وراية الدين ترفرف فوق الرءوس ، وغرض واحد يأتلف حوله جميع الناس ، غايتهم الطاعة ، وهدفهم العبادة ، قلوبهم خاشعة ، ونفوسهم ضارعة ، يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

الحج مؤتمر إسلامى لم يدع إليه صاحب هوى ، أو ذو غرض من الناس ، يلتمس من ورائه جاها ، أو يبتغى شهرة ، إنما دعا إليه رب العالمين — وهو الغنى عنهم — ؛ ليتعرف المسلمون إلى ماضيهم وحاضرهم ، ويستعرضوا حالهم ، وما تتطلبه من إصلاح ، وتستدعيه من نهوض .

وقد جعله الله تعالى ركن الإسلام وتمام الإيمان فقال : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ثم قال : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » تنبيها للناس إلى أن عدم الحج مع القدرة عليه كفر أو بمنزلة الكفر .

فالله جل شأنه يقول : « وأتموا الحج والعمرة لله » والرسول الكريم يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

فالإسلام ليسره وسماحته ، ورحمته بالعباد ، ورفقه بالناس بنى جميع تكاليفه على السهولة واللين ؛ فلم يكلف أحداً بما يشق احتماله ، أو يعسر أداؤه ، أو يتعذر فعله « ما جعل الله عليكم فى الدين من حرج » ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » فمن استطاع الحج فقد لزمه الفرض ، وتعلق به الواجب ، ومن لم يستطع فليس عليه إلا العزم الطيب ، والاتجاه الصادق ، والله يهيء له الأسباب ، ويمهد له الوسائل ويسدد الخطوات .

وتيسيراً على الناس ورفقاً بهم لم يكلفهم ربهم بالحج إلا مرة واحدة فى الحياة مع القدرة والاستطاعة . خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها النـــاس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : ذرونى ما تركتكم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

إن بعض ضعفاء الإيمان يظنون أن الحج أمر ثانوى لا عقوبة فى تركه ؛ لأنه عسير الأداء كبير المشقة ، وفاتهم أن وجوبه كوجوب الصوم والصلاة ، وأن من تركه دون عذر قاهر ، لا يستطيع دفعه ؛ فعقابه صارم وذنبه عند الله عظيم .

وبعضهم يزعم أنه لا يستطيع الحج ويفسر الاستطاعة على حسب هواه ، ووفق ميوله : يكون فى سعة من الرزق وبسطة من العيش والغنى ، ويظن أنه عاجز عن نفقات الحج . وفى الوقت نفسه يمنح نفسه ما تشتهى من المناعم واللذات ، وما تطمح إليه من الأهواء والشهوات ، عجز عن طاعة الله ، وإسراع وخفة إلى إرضاء الشيطان .

وبجانب هذا رجل لا يستطيع الحج ولا يقدر على أدائه ، ولكنه يندفع إليه رياء وتفاخرا ، والتماسا لحسن السمعة ، وجريا وراء اللقب : يتعرض بالربا ويجمع من حرام ليحج وهو يعلم أن الحرام لا يوصل إلى ثواب ، ولا ينتج إلا أسوأ العواقب .

إن الحج واجب على القادر الذى ليس فى ماله شائبة من حرام ، فمن قدر عليه ثم نام عنه فإيمانه ناقص ، وعمله أبتر ، وإذا مات لقى الله وهو عليه غضبان !

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانيا » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بفرض الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا » .

هذا مع أن الجزية لا تفرض إلا على ممتنع عن الدخول فى الإسلام .

وكان بعض التابعين يقول : لو علمنا رجلا غنيا ، وجب عليه الحج ثم مات ولم يحج ما صلينا عليه !

وبعض العلماء الصالحين كان له جار من الأغنياء مات ولم يحج فلم يصل عليه !

قال ابن عباس رضى الله عنه : « من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا ، وتلا قوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

رزقنا الله فهم ديننا والفقه فيه إنه سميع مجيب .

الجـود

الجود صفة من أعلى الصفات رتبة ، وقد خصها الناس بالإجلال والإكبار فى كل زمان ومكان ، لأنها أدل شىء على سمو النفس . ألا ترى أن قيس بن عاصم المنقرى المشهور بالجود ، لما وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال هذا سيد الوبر . ولما توفى قيس قال فيه الشاعر .

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من ألبسته منك نعمة ... إذا زار عن شحط بلادك سلما
وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

من دول الاسلام :



الباكستان (*)

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

[فى اليوم الأخير من عام ١٦٠٠ م تكونت فى انجلترا شركة الهند الشرقية ، لتقوم بأعمال تجارية ، انتهت باحتلال انجلترا للهند ، بعد صراع عنيف مع البرتغاليين والفرنسيين والهنود .

وفى الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ صفت انجلترا أمبراطوريتها ، وخرجت من الهند ، التى انقسمت بدورها الى دولتين : الهندوستان ، والباكستان]

تبلغ مساحة الباكستان ما يقرب من ٣٥٨ ألفا من الأميال المربعة ، وهى مساحة تعادل مساحة فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا معا . أما سكانها فيبلغون حوالى ٧٦ مليونا من الانفس .

وتتكون الباكستان من إقليمين : الباكستان الشرقية والباكستان الغربية ، تقعان فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من شبه جزيرة الهند . تحتضن الباكستان الغربية وادى نهر السند وفروعه وروافده ، بينما تغطى أرض الباكستان الشرقية ، أدنى وادى نهر براهما بوترا . ويفصل الإقليمين عن بعضهما نحو ألف ميل من الأراضى الهندوكية ، كما توجد مقاطعة هندوكية[1] غرب الباكستان الشرقية . وأغلبية السكان العظمى فى الإقليمين من المسلمين ، وللأقليمين مصالح اقتصادية متكاملة ، وتربطهما ، فوق ذلك ، روابط متينة من الدين والثقافة والعادات .

(*) أخذت بيانات هذا المقال من « هذه هى الباكستان ، Introducing Pakistan نشرها المعهد الباكستانى للشئون الخارجية ـ كراتشى سنة ١٩٤٨ »

(١) هى مقاطعة أسام ، يحدها التبت وبورما والبنغال وعاصمتها شيلونج ، وبها كثير من المسلمين .

الباكستان الغربية : تقرب مساحتها من ٣٠٤ ألفا من الأميال المربعة ، ويبلغ سكانها حوالى ٣٢ مليونا ، وتتكون من مقاطعات البنجاب الغربية ، والسند ، وبالوخستان ، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية ، وعدد من الولايات والمناطق القبلية على حدود أفغانستان. وتعتبر ولايتا كشمير وجامو من الباكستان جغرافيا وثقافيا ودينيا ، ولكنهما اضطرتا إلى الإنضمام إلى الهند على غير رغبة السكان فيهما .

والباكستان الغربية موطن عريق للمدنية ، دلت الحفريات فى بعض مدن السند وغرب البنجاب على قيام حضارة ، ازدهرت منذ خمسة آلاف عام ، عاصرت حضارات وادى النيل والدجلة والفرات . وبدأ اتصال هذا الاقليم بالغرب حينما غزاه « كسرى » ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ ق . م) وضم إلى بلاده الأراضى الواقعة حول بيشاور . ثم أرسل « دارا » حملة بحرية إلى السند ، واستولى « اجزركسيس » على بعض الإمارات ، وظل الحال كذلك حتى القرن الرابع .

وعرفت أوربا هذه المناطق حينما غزاها الإسكندر الأكبر ، فأخذت مكانها فى أدب الإغريق وتاريخهم ، اخترق الإسكندر جبال هندكوش ثم نهر السند ، واستولى على الأرض التى تعرف الآن باسم غرب البنجاب ، ونزل جنوبا فى نهر السند حتى بحر العرب ، مبحراً إلى بابل .

وأعظم الحوادث أثراً فى تاريخ وادى السند هو غزو العرب لها سنة ٧١٢ م . إذ نزل محمد بن القاسم أمير البحار العربى فى دلتا السند ، ليقضى على القراصنة الذين كانوا يهددون تجارة العرب البحرية . ومنذ ذلك الحين بدأ الإسلام يسود جزيرة الهند ، وهى سيادة ظلت أكثر من ألف عام ، حتى جاء الإنجليز ، وظلت الباكستان الغربية طيلة هذا الزمن تحت الحكم الإسلامى ، عدا فترة وجيزة ، حكم السيخ فيها أرض البنجاب . وسادت الثقافة والعادات الإسلامية هذه المناطق وما زالت قائمة عزيزة الجانب .

واعتنق الكثيرون من الوثنيين الإسلام ، وتزايد عددهم ، وانضم إليهم المسلمون الذين جاءوا عبر الحدود فى جماعات كبيرة ، كان يدفعهم إلى الهجرة ،

عدم الاستقرار فى أواسط آسيا ، بسبب غارات المغول ، كما كان يجىء مع كل غاز مسلم : جنوده ومرافقو جيشه ، وكلهم مسلمون ، أقاموا جميعاً فى هذه الأرض الطيبة ، كما وفد على هذا الاقليم الكثير من العلماء : والعرب إذ ذاك هم قادة العالم وهداته : فنا وعلماً ومدنية ، ومن هنا صارت أغلبية السكان العظمى من المسلمين حتى بلغوا حوالى ٧٦،٥ ./. من عدد السكان سنة ١٩٤٧ ، وإن كانت هذه النسبة قد ارتفعت نتيجة لهجرة الهندوس منها ، وهجرة المسلمين إليها .

وأرض هذا الاقليم خصبة ، من أغنى الأراضى الزراعية ، يسكنها قوم أقوياء البنية ، ملاح الوجوه ، كرام النفوس ، فلاحون ممتازون ، وجنود لا يضارعون .

وأهم مدن الباكستان الغربية هى « كراتشى » عاصمة أقليم السند والباكستان جميعا ، من أهم موانئ آسيا يسكنها حوالى المليون ، وتمر بها عدة خطوط جوية حيوية ، وفيها جامعة كبيرة بها كليات للآداب والعلوم والهندسة والطب والزراعة ، وتتلوها فى الأهمية « لاهور » عاصمة مقاطعة غرب البنجاب ؛ ثم « بيشاور » ، وفى كليتهما جامعة كبيرة .

* * *

الباكستان الشرقية : تشمل مقاطعتى البنغال الشرقية وسيلهت ، وتزيد مساحتها قليلا عن ٥٤ ألف ميل مربع ، وسكانها ٤٤ مليونا ، ٧١ ./. منهم من المسلمين . خضع هذا الاقليم لمؤثرات عدة على مر التاريخ ، بدأت بالمدنية الصينية ، ثم أقام فيه الهندوس والبوذيون قبيل العصر الإسلامى ، وانتشر الإسلام فيه لنفس العوامل التى أدت إلى انتشاره فى الباكستان الغربية . وظهر أثر الإسلام قويا واضحا ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى حين غزاها قائد من قواد قطب الدين أيبك أول ملك مسلم لامبراطورية دلهى ، وظلت تحت الحكم الإسلامى - منذ ذلك الحين حتى جاءها الانجليز سنة ١٧٥٧ م - ، سواء كمملكة مستقلة ، أو مقاطعة فى أمبراطورية دلهى .

والباكستان الشرقية على الرغم من التلال التى تكتنفها شمالا وشرقا ، أرض سهلية ترويها مياه براهما بوترا وفروع نهر الكنج ، وتسقط عليها أمطار غزيرة ،

تكسو أرضها الخضرة طول العام فتكسبها منظراً بديعاً فاتناً ، وتمخر أنهارها السفن ، ويعيش الأهلون فى قراهم على الزراعة وصيد الأسماك . وأهم المدن فى هذا الاقليم هى « داكا » ، ثم « شيتاجونج » فى خليج البنغال .

° ° °

الإسلام دين توحيد ، لا يعرف النظام الكهنى ، وليست به هيئة كنسية ، من أهم تعاليمه الإخاء ، فلا يعرف نظام المنبوذين ، ويتميز بما فيه من تسامح دينى عظيم . تجلى هذا التسامح فى أيام الرسول عليه السلام ، وتميز به المسلمون بعده ، فى كل مكان ، وحجتنا ما تلقاه الأقليات المسيحية فى البلدان الإسلامية من معاملة ، يساوون فيها مع المسلمين فى الحقوق والواجبات .

طبقت الباكستان هذا المبدأ الدينى أروع تطبيق ، حينما وقف رئيسها الراحل « محمد على جناح » أكرم الله مثواه ، يعلن أنه لن يفرق بين الناس بسبب الدين أو الطبقة أو اللون ، وأنه سيكون للباكستانيين جميعاً نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

الجـــود

ما أطلق ألسنة الشعراء ، وألهمهم روائع المعانى مثل الجود . قال القاسم ابن عيسى فى أبى دلف العجلى من أهل القرن الثالث الهجرى :

تكاد عطاياه يجن جنونها ... إذا لم يعوذها بنغمة طالب
تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

وقال أبو الطيب المتنبى فى بدر بن عمار :

طربت مراكبنا فخلنا أنها ... لولا حياء عاقها رقصت بنا
لو تعقل الشجر التى قابلتها ... مدت محيية اليك الأغصنا

وقال البحترى :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لمشى إليك المنبر

كنوز الأدب الفاطمى

لحضرة الأستاذ محمد حسن الأعظمى
عميد كلية اللغة العربية بالباكستان

تقوم دار الكتب الملكية الآن بطبع ديوان الأمير تميم ابن المعز لدين الله الفاطمى بانى القاهرة ومشيد الأزهر ، وهذا الديوان كنز من كنوز الأدب الغالية ، استطعت أن استخرجه أولا من مكتبة الفاطميين المحفوظة فى الهند لدى خلفائهم وورثتهم ، وهم أحفاد أولئك الذين حملوا تراثا وفيرا من العلم والأدب إلى هذه الأقطار بعد انهيار الدولة الفاطمية فى مصر ، وتغلب الدولة الأيوبية على البقية الباقية منها . وقد عاش هذا التراث بين جبال اليمن عدة قرون ، ثم رأى هؤلاء الحافظون لتركة الفاطميين أن يغتربوا بها فى أرض لا يعرف أهلها العربية ؛ وذلك لكى يبقى هذا الكنز بعيدا عن متناول الأيدى ، مجهول القيمة والقدر حتى لا يفطن اليه أحد ، فيصيبه ما أصاب غيره من الكنوز التى تبددت بين تلاعب الأيدى وعبث الرواة وتحريف الناقلين ، وقد دفعنى شغفى بالبحث وحبى للاطلاع إلى أن أجوب معاهد الهند ومكاتبها الموزعة بين طوائفها المختلفة ، ولم يكن يعنينى من ذلك كله سوى محاولة العثور على وثائق تاريخية أو أدبية يفيد منها المعنيون بالدراسات الاسلامية ، وكانت مملكة الفاطميين الصغيرة فى الهند احدى المناطق التى زرتها واختلفت اليها ، وأمكننى أن استنسخ منها عددا من المخطوطات الهامة ، والكتب العلمية الأثرية مما صنفه ملوك الفاطميين ووزراء الدعاية فى دولتهم ، فمن منثورها محاضرات المؤيد الشيرازى الثمانمائة التى ألقاها بالأزهر منذ ألف عام ، وهى نماذج رائعة فى الأدب الكلامى وبلاغة النثر العربى ، والحوار المنطقى والفلسفى ، ومن منظومها ديوان هذا الأمير الذى يتكنى باسمه

المعز لدين الله إذ يقال له أبو تميم ، وكان لهذا العاهل الفاطمى الأول فى مصر أبنان أكبرهما تسنم دولة الشعر ، وكان أصغرهما ولى عهد أبيه وهو العزيز بالله .

وقد أتيح لى أن أراجع ديوان تميم هذا على سبع نسخ مخطوطة أخرى ، ثم كان لزاما على أن أقوم بشرح وتعليق لبعض المصطلحات والألفاظ الغريبة ، وأن أضع للكتاب مقدمة مسهبة تكشف النقاب عن تسلسل هذه الدولة الفاطمية إلى أن شكلت حكومتها فى القاهرة .

أما الديوان نفسه فهو قبل كل شىء صورة من الأدب المصرى ، فيه الخصائص المصرية بقدر ما فيه من الخصائص العربية ، فهو شاعر مصرى صميم . وإن لم يكن مصرى المولد والنشأة والتربية .

يرى المتتبع هذا الديوان أسماء لمواطن وأوصافا لجهات معروفة بالقاهرة وضواحيها حتى اليوم ؛ كما يكشف هذا الكتاب عن الحالة الأدبية فى العصر الفاطمى ، وكذلك المذاهب الإسلامية والحوار المذهبى فى ذلك العهد ، والاحتفاظ بهذا الديوان ضرورى للتاريخ والأدب المصريين ، ولا سيما إذا عرفنا أن العصر الفاطمى قد ذهبت آثاره ، وانطوى سجل التاريخ على مخلفاته ، فلم يفتح إلا على القليل منها . فقد تقرأ فى المصادر التاريخية أن مائة من الشعراء هنأوا أو رثوا أو مدحوا أحد الخلفاء الفاطميين ، ثم لا تجد هؤلاء الشعراء ولا أشعارهم فقد أحرقت مكتبات وضاع بعضها بين تموج الحوادث وأعاصير الانقلاب السياسى ، فكل ورقة تعثر عليها الآن تعد ذات قيمة غالية بالنسبة لموضوع الأدب المصرى بالذات ، وهذا هو الذى دفعنى لتقديم الكتاب الى الحكومة المصرية ، بمناسبة العيد الألفى للقاهرة والأزهر .

وقد عينت الحكومة منذ اثنى عشر عاما لجنة من أعلام الأدب فى مصر لمراجعة هذا الديوان ، ثم انتهى الأمر باقرار طبعه ونشره ، وتولت دار الكتب القيام بذلك ، ولم يحل دون اتمام الطبع ، وإنجازه سوى أزمة الورق أثناء الحرب الأخيرة ، وكانت تلك اللجنة الموقرة مشكلة من الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، والدكتور طه حسين بك والأستاذ أحمد بك .

ولما عدت إلى القاهرة لتشكيل فرع لمؤتمر العالم الإسلامى الدائم ، رأيت

أن أضيف إلى عملي لخدمة الإسلام جهداً أدبياً آخر، وهو أن أذكر إدارة الكتب بمعاودة العمل على نشر ديوان تميم، وقد أبدت دار الكتب نشاطاً ملحوظاً في استئناف طبع الديوان، وقطعت في ذلك شوطاً كبيراً، ولعل في هذا ما يبعث الطمأنينة إلى من ينتظرون صدور هذا الكتاب سواء أكانوا من الحريصين على ترقب كل جديد من الأدب المصري، أم كانوا من طلبة كلية الآداب باعتباره مادة من موضوع الآداب المصري ومثالا من انتاج القومية المصرية؟ فأني أول من يرى في هذا الديوان ظاهرة جديرة بالنظر، وهي أن تميم مع كونه نشأ في بلاد المغرب وتلقى ثقافته الأولى في عهد آبائه وأجداده نراه ما يكاد يحل بمصر حتى تصبح وطنه وأنشودة آماله وأغنية أحلامه وقبلة تفكيره، فكأنه قد نسى كل شيء في وجوده ليذكر شيئاً واحداً هو أنه في مصر التي يعيش بها، ويترجم عن حبه لها وشعوره بجمال الحياة فيها.

وإلى أن يجد القارىء هذا الديوان منشوراً، فإني أضع بين يديه هذه النماذج دون تعليق أو شرح استكمالا لهذه العجالة القصيرة التي قدمتها للتعريف بتميم.

قال الأمير يصف القرافة ويتضرع إلى الله :

إذا كنت مصطفياً مربعاً	فخص القرافة [1] بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفاف	ومخصوصة بالتقى والبهاء
كأن العبير لها تربة	تضوع في صبحها والمساء
ولا خيرة في حياة امرىء	إذا لم يخف فصل يوم القضاء
رجوتك يا رب ألا أنني	أطعتك طوع أولى الانتهاء
ولكنني مؤمن موقن	بأنك رب الورى والسماء
وما لي يا رب من شافع	إليك سوى خاتم الأنبياء

(١) القرافة في الأصل بطن من المعافر بن يعفر بن الحارث بن مرة. وعامة المعافر بمصر، ولهم خطة تعرف بالقرافة وهي على إسم أمهم (شرح القاموس مادة قرف). وجاء في ابن خلكان : ومن بني غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا أسطح المقطم أيام الفتح العربي، ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين. فسميت المقبرة في مصر نسبة لهؤلاء القوم.

وقال أيضاً :

حارب الناس قبلنا الأعداء حين كانوا أعزة أكفاء
أترانا أذلة ومن اللؤ م بنا أن تنازل الجبناء
هل تروم الثعالب الليث أم هل تطمع الأرض أن تطول السماء
لا ومن صير الأئمة من نسـل وصى النبى لى آباء

وقال يمدح العزيز بالله أخاه :

لكل ملك من الورى شبه وما أرى للعزيز أشباها
أقول يا مالك الملوك ولا أقول فى مدحه شهنشاها
سمى وطال النجوم مبتدئا بهمة يستقل مسعاها
نفس كأن السماء مسكنها وهمة كالزمان أدناها
دانت الأرض والعباد معاً والوحش فى وعرها وصحراها
فهو لسان التقى ومقلته وهو يمين العلا ويسراها
صور من جوهر النبوة إذ كان الورى طينة وأمواها

وقال يمدح الخليفة المعز لدين الله فى وقت تمام عمل الشمسية لبيت الله الحرام :

إليك مدت رقابها العرب والملك ماء عليك منسكب
وأنت من دوحة النبوة لا تألف إلا عداتك الريب
وحبذا الشمسية التى نصبت يقصر عنها المديح والخطب
كأنما درها وجوهرها نجوم ليل سماؤها ذهب
كأنما رصعت مناقبك الغـ ر عليها وأفرغ الحسب
فى كبد المسجد الحرام لها شوق وللبيت نحوها طرب

كلمة الحق

لفضيلة الأستاذ الشيخ على حسن العمارى
المدرس بالمعهد العلمى بأم درمان

لا أجد شيئاً فى هذه الحياة طيب الذكر، حسن السيرة، طاهر الذيل، كثير النفع قليل الضرر، جميل الوجه، سامى النفس، وهو مع ذلك يلاقى من ظلم الناس وشرهم، وبغضهم له، وكراهيتهم لوجهه الجميل، ونفورهم من روحه السامية ككلمة الحق؛ كل يدعى وصلها ويزعم أنه متيم فى هواها، يحبها ويؤثرها ويمجدها ويقدسها، فإذا وقفت فى سبيل أغراضه، أو اعترضت طريق مطامعه وأهوائه كرهها أشد الكراهية، ومقتها أشد المقت، ولا ينسى فى هذا الوقت نفسه أن يشيد بحبه للحق، وخضوعه له وإيمانه به.

والناس — إلا أقلهم — يعيشون بعيداً عن هذا الوجه الجميل، وهذا العبير الحبيب، لأن أكثر أغراضهم وميولهم وأهوائهم — وعليها يعيشون — لا تتفق والحق، ولا يجمعها معه طريق وهم يخوضون الباطل إلى أغراضهم خوضا، لا يبالون أين وقعوا.

والمحبوب عندهم الأثير لديهم هو الذى لا تجرى كلمة الحق على لسانه، ولا يخطر معناها الجميل فى قلبه، فهو إذا قدس أعمالهم، وآمن بمواهبهم، واخترع لهم المحامد والمكارم وتكذب وافترى، وزين كل عمل يعملونه، وحارب كل رأى يحاربونه، إذا كان كذلك فهو الظريف اللطيف المهذب، أما إذا كان يسير على نهج قويم؛ ويجرى فى قوله وفعله على خط مستقيم فلا يصف الليل فى السرار بأنه يسطع بدره، ويشع نوره؛ ولا ينكر على شمس الصيف نارها ونورها ولا يقول فى الشىء إلا ما فيه، ولا يعطيه من الثناء أكثر مما يستحق؛ إذا كان كذلك فهو ثقيل الظل، سىء الخلق، ضعيف التربية فاسد الذوق، يجب أن يطرح قوله، وأن تجتنب معاشرته، وأن يكاد له عند من يملكون أن يبطشوا به؛ حتى يستقيم على الجادة، ويعرف كيف يحترم الناس، ويحسن الأدب معهم.

وإذا كنت ممن يحبون الإنصاف ، ويؤثرون العدل ، ويؤمنون بالأخلاق الفاضلة ، فجعلت تنافح عن هذا الرجل ، وتجادل دونه ، وتبرر عمله ، وتشد أزره ، رموك بالهوى والغرض ، والمساعدة على إفساد الأخلاق ، ثم قالوا لك : الناس كلهم كذلك فلماذا يشذ هو ؟ أهو — وحده — الذى يغار على الحق ويعرف قدر العدالة ، وما دام الزمن يسير على رأسه ، فلماذا يحاول هو أن يسيره على رجليه ؟ وإذا كان الناس يعبدون عجلا فلماذا لا يقدم له الطعام مع المقدمين ؟ ولا ينسون أن يقولوا لك : يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ... وهكذا .

وقد تجد رجلا عيبة جهل ، ومستنقع فساد وإفساد ، قد اتخذ الادعاء والتدجيل طريقا للشهرة ، يدعو الناس فيؤمن به كثير منهم ؛ ويسخرهم فى أغراضه ، فيلبون بإيمان عجيب . فإذا جمعك وإياه مجلس لا يبالى بك مهما كنت خبيراً بشئون الحياة ، عارفا بأغراض النفوس ، مسلحا بأنواع العلوم والمعارف ويبدأ يدجل ويشعوذ ، ويزعم لنفسه الفضائل ؛ ويحيطها بهالة من النور والقداسة ، فإذا ضاق صدرك ونفذ صبرك ، وقلت له : يا هذا . نحن فى عصر النور والمعرفة ومثل هذا الأسلوب إن جاز على بسطاء العقول فلا يجوز أمام المثقفين العارفين ، إذا قلت ذلك لا تشعر إلا وأنت مرفوع على الأيدى ، ملق على قارعة الطريق !

ومن عجب أن بعض الذين حصلوا قدراً من العلم ، لا يزال يجهل الطريق الصحيح الذى يؤدى إلى احترام الناس ، وإكبارهم .

ترى الواحد من هؤلاء لا يكاد يعترف بغير ما يقوله هو ، فإذا ناقشته فى مسألة علمية ، أو جادلته فى ظاهرة اجتماعية فالقول قوله ، والحق ما ينطق به لسانه ، ومهما برهنت له على خطئه ، ومهما سقت من الحجج على وجهة نظرك فإنك لست بمزحزحه عن موقفه ، وكيف يخضع لرأيك ، أو يعترف بأن الحق معك وهو عند نفسه أعلم الأولين والآخرين .

وربما أدهشك وأنت تسمعه يجادل أن ينحرف عن الحق ، والحق كفلق الصباح ، وأن يتمسك بالباطل ، والباطل يصيح به أنه الباطل ، وترجع إلى نفسك وتسائلها ، كيف يقف هذا الرجل مع علمه وفضله ، مثل هذا الموقف المخجل ، ولكنك تذكر لساعتك قصة ذلك الرجل الذى كان يسير مع أحد أصحابه فرأيا

حيوانا بعيداً عنهما، فقال صاحبه: هذه إوزة، وقال الرجل: بل هي عنزة. وتجادلا طويلا، وكل منهما يصر على قوله، حتى وصلا إلى الحيوان فهاجه الصاحب فطارت الإوزة، فالتفت إلى الرجل قائلا: أصدقت أنها إوزة؟ وظن أنه بذلك ألزمه الحجة، وأوقفه على الدليل، ولكن الرجل قال في برود ظاهر: عنزة ولو طارت!

وهكذا شأن هذا الصنف من الناس لا تطمع فيهم أن يرجعوا إلى الحق، ولو جهدت جهدك، وحملت نفسك مالا تطيق في سبيل إقناعهم.

على أن هذا التمسك بالباطل لا يعود عليهم بفائدة، بل بالعكس يجلب عليهم احتقار المنصفين وسخريتهم، ولعل أعجب ما في الأمر أنهم يتمسكون بالباطل، وهم على يقين من أن مجادلهم يدرك كل الإدراك أنهم يتمسكون بباطل، ولا يخالجه أدنى شك في أنهم يخضعون لشهوة المراء، وحب الغلب، ولو في الظاهر.

ويظهر أن هذا الصنف من الناس قديم الميلاد، وجد في كل عصر، عاش فيه علماء لم يطلبوا العلم لله، ولم يؤمنوا بأن فوق كل ذي علم عليم، وأن الحق أحق أن يتبع، ولذلك نجد الإمام الجليل أبا حامد الغزالي، رحمه الله تعالى يحدثنا عن هذا الصنف، وهو يتحدث عن شروط المناظرة النافعة المفيدة التي هي من شأن العلماء العاملين فيقول: «أن يكون - يريد المناظر - في طلب الحق، كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصما، ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق، ومناظر زماننا يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه، ويخجل، ويجتهد في مجاحدته بأقصى قدرته ويذم من أفحمه طول عمره».

أليس هذا الصنف جديراً بأن تكرهه، وأن تحتقره، وتسخر منه ماوسعتك الكراهة والاحتقار والسخرية، ثم أليست هذه الكراهة تزداد إذا علمت أن هذا المناهض للحق هو ممن يفخرون بنصرة الحق والذب عنه؟

لقد قال حكيم العرب أكثم بن صيفي: إن قول الحق لم يترك لي صديقاً. ومن قبله قال فيلسوف اليونان لصاحبه: أنت صديق، والحق صديق، ولكن الحق أحب إلي منك.

لمحة فى التشريع المقارن

لحضرة الأستاذ فخر الدين الصاحب
خريج الأزهر وجامعة باريس

---

١ — نظرية الحق المكتسب فى الاحكام الجزائية فى الوقت الحاضر .

لقد ازدهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى أوربا مدرستان هما المدرسة التقليدية ، والتقليدية الحديثة ، ووقفتا بجانب الفرد ضد المجموع ، ووقفت من جهة أخرى المدرسة الوضعية تخالفهما الرأى فى ذلك ، وذهبت إلى تفضيل حق المجموع على حق الفرد ، وإن الذين غالوا بهذه الفردية توصلوا فى مغالاتهم إلى النظرية المسماة بنظرية الحق المكتسب (Teorie de droit acquis) [1] التى تحتم احترام الأحكام الجنائية حتى ولو كانت مبنية على الخطأ إذا كان ذلك فى صالح المتهم وفقا لنظرية القضية المحكمة (Respect de la chose jugée) وقد اعتبروا أن للمتهم من هذا الحكم حقا مكتسباً ، ولم يقبلوا إلا النقض لمصلحة القانون ، وقد أخذ التشريع السورى المعمول به الآن بهذه النظرية فى المادة (٣١٥) من أصول المحاكمات الجزائية التى تنص على أنه « عند براءة المتهم يسوغ أن يطلب المدعى العمومى نقض الإعلام المتضمن الحكم بذلك ، ونقض ما حواه من المعاملات والتحقيقات بوجه التمييز ، وذلك لمجرد إحسان مجرى القانون على شرط أن لا يطرأ خلل على حكم البراءة .

وكذلك المادة (٣٤٧) و المادة (٣٤٨) من نفس القانون ، والمادة (٤٤٢) من أصول المحاكمات الجزائية الفرنسية أخذت بنفس النظرية ، فقد جاء فى شرح المادة (٣٤٧) لسليم بازمايأتى [2] : إن نقض الإعلام بالاستناد إلى هذه المادة لا يمكن أن يؤثر فيما اكتسبه المحكوم عليه ، وصار حقاً مقرراً له بمضى المدة القانونية ، ولكنه يؤثر فيما سوى ذلك وبالخصوص فيما كان عائداً على المتهم بالضرر

---

(١) قانون الجزاء للعلامة جارو (R. Garraut) الجزء الخامس ص [٥٤٨] .

(٢) ص (٨٤٦) .

وعلى هذا لو نقض الإعلام لأن الجزاء المحكوم به أخف من الجزاء القانونى، أو لأن المحكمة برأت المظنون فيه أو حكمت بعدم مسؤوليته، فلا يمس الحكم بل يبقى على حاله لأن ما أولاه المحكوم عليه أصبح حقاً مقرراً له باكتساب الحكم الدرجة القطعية، فلا يجوز أن يسلب منه، أما لو كان نقض الحكم مقيدا للمحكوم عليه فيمكنه أن يستفيد منه. لأن من شأن القانون أن يتلافى الظلم ولو رضى به المظلوم.

٢ — نظرية الحق المكتسب فى الأحكام الجزائية فى الشريعة الإسلامية.

إذا ألقينا نظرة خاطفة على الأسباب الداعية لوضع هذه النظرية؛ لذهبنا إلى عدم صحتها وأجحافها بحق المجموع، ولقمنا بمخالفتها للمنطق والقياس، وقد ذهبت خطأ إلى القول إلى أن علماء الإسلام ورجال التشريع منهم لم يذهبوا إلى الأخذ بهذه النظرية [١] إلا أننى قد توفقت الآن إلى نصوص تثبت عكس ذلك، وتشير صراحة إلى أن الشريعة الإسلامية، تدين بهذه النظرية بالفعل، فهى إذن تحترم الأحكام الجزائية حتى ولو كانت مبينة على الخطأ، إذا كان ذلك فى صالح المتهم وفقا لنظرية القضية المحكمة، وأنى لتبيان ذلك أورد مادار فى إحدى القضايا المشهورة فى صدر الإسلام، والتى قضى فيها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبى الأمى.

فقد أخرج البخارى وأبو داوود والترمذى عن أبن عباس رضى الله عنهما،

أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء، فقال النبى: « البينة أوحد فى ظهرك ». . فقال يارسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ »، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول: « البينة أوحد ظهرك ».

فقال الرجل — « والذى بعثك بالحق أننى لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرىء ظهرى من الحد، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه، والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه أن كان من الكاذبين، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين، الآية.

---

(١) راجع ما كتبته فى مجلة نقابة المحامين بدمشق أيلول سنة ١٩٤٧ ومجلة الأزهر سنة ١٩٤٨.

فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما ، وجلس للحكم ، — فجاء هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ، الله يعلم أن أحدكما ، كاذب فهل منكما تائب ، . . . ثم قامت الزوجة فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا لها : إنها موجبة ، قال ابن عباس — ، فتلكأت ونكصت وظننا أنها ترجع ثم قالت ، والله لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، أبصروها ، فان جاءت به أ كحل العينين ، سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك ابن سحماء ، فجاءت به كذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم — : ، لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن ، — ا ه .

ففى هذه القضية إشارة صريحة إلى أن المحكمة إذا فصلت دعوى جزائية وانتهى أمر النظر فيها ، لا يمكن رؤيتها مرة أخرى حتى ولو ثبت عدم صحة ما دار فيها من التحقيقات والافادات أثناء المحاكمة ، فقد جلس نبينا محمد بن عبد الله للحكم فى هذه القضية ، وطبق قانون السماء الوارد فى آية اللعان ، وكان أحد الطرفين فى الدعوى عند رؤيتها وفصلها كاذبا لا محالة ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم — ، الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ، — فالزوج يجب عليه حد القذف إن كان كاذبا بما رماها به من الزنا ، والزوجة يجب عليها حد الرجم إن كانت غير صادقة فى إيمانها ، وقد تأيد كذب الزوجة بعد اكتساب الحكم الدرجة القطعية ، ومرور (٩) أشهر ونيف على انتهاء القضية حيث ثبت أن الزوجة هى الكاذبة ، لأن الولد كان لشريك لا لهلال ابن أمية ، ومع ذلك لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد المحاكمة ، ويقيم عليها الحد ، بل ذهب إلى عكس ذلك ، واعتبرها قضية محكمة ، وقضية مقضية واحترم اكتسابها الدرجة القطعية ، رغماً عن ثبوت الكذب والخطأ بها ، وقال كلمته المأثورة : ، لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن ، الحديث .

وهكذا يكون الإسلام قد سبق علماء الغرب ومحاكمها فى هذه النظرية ، وطبقها بالفعل قبل ألف سنة ونيف ، حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن ، وأننى سأطرق حكمة مشروعية هذه النظرية عند المسلمين فى بحث مستقل والله أعلم .

الشعر والحيـــــــاة

بقلم الشيخ سعد الدين موسى كاه

بين الشعر والحياة صلة وثقى وعروة لا انفصام لها . . ولا أكون مبالغا إذا قلت : إن الشعر ميزان الحياة ومفتاحها . . فما لم تشعر وتدرك وتتفتح آفاق شخصيتك على معالم الكون وما فيه من روائع ومباهج ؛ فما أنت بحى وإن عددت فى سجلات الأحياء ! . . ومن هنا كان الشعر مشتقا من الشعور ، وهو منطقة الحساسية الدافقة الدقيقة فى الإنسان ، ومن هنا كان الشاعر الفنان المجيد هو الشخص المثالى ، الذى تقف بحَرَمه عرائسُ الخواطر وزهور المعانى ؛ فتداعب خياله وتستنزل وحيه : فيتدفق إحساسه ، ويتفتق ذهنه الولود عن الغوانى الأبكار من الأغاريد والتصورات والأفكار ! . . ومن هنا أيضاً كانت رسالة الشعر هى تطهير الغرائز من أدرانها المادّية ، وعلائقها الترابية ؛ حيث تسبح بالنفس فى أجواء سامقة من الملائكية والأمثلة العليا ، ثم إبهاج الأفئدة الحزنية ، والكبود المحترقة على سفود الحادثات بما تطوى بين جوانحها من ترويض ، وانبساط ومتعة وعذوبة ، وتسلية وترفية ، وسموّ وإشراق ، ومرح وانطلاق . وأحسب أنه من الخطأ أن يقال إن الشعر بمعناه العام ، وهو الادراك والإحساس ، أو التخيلات والخاطرات مقصور على فئة من البشر . . كلا . . فإن ينابيع الشعر كائنة فى كل إنسان ، مودعة بوساطة يد الخلاق العليا فى الصدر والجنان . .

ألا تنبسط أسارير الناس جميعا إذا فوجئت بنبأ سار ، أو حديث مبهج ، أو فكاهة حلوة أو نكتة بديعة ؟ . ألا تنقبض الصدور وتكلح الأوجه ، وتتجهم العيون إذا دهمتها نازلة من بنات الأيام أو مسّها القضاء بترح ؟ . . ولكن لما كان عامة الناس لا يستطيعون التعبير عما يجيش بنفوسهم من أفراح وأتراح بلغة ذات ألفاظ وأصوات ، وحروف ومعان يترجمونها عن الخاطر

والوجدان . ، وكان تعبير العقل الساذج إذا ابتأس أو طرب هو الاكتئاب والبكاء ، أو الرقص والانتشاء . . كان من الضرورى وجود طائفة أخرى أقوى شعوراً ، وأسمى إدراكا ، حلقت فى سماء الخيال ، وغاصت فى مناجم الحقيقة ، وضربت بسهم فى البلاغة والفصاحة ، واطلعت على معارف الحكماء ، وثمرات القرائح ورياض الأدب ؛ فصقلت حواشيها وصفت مرآتها ، وترقرق بماء الجمال والبهاء أسلوبها ، وتنضر بنضرة النعيم بيانها ، حتى ذهب عنها ما كان يعروها من حُبْسة واستغلاق ، وعىّ وحصر فأضحتْ ذات ملكة راسخة متغلغلة فى الأعماق ، تتقبل من اللقاح الفكرى الخصب ما يشحذ قواها ، ويجمع قوّتها ، ويحفظ عليها شبابها وجدّتها ، . . هذه الملكة تتفتّح بعدُ عن براعمها وأكامها ، فتؤتى أكلهـا كل حين بإذن ربها ، وتجود على الظامئين بحلو ريّها ، وثمار غرسها ، كشجرة طيبة تؤدى رسالتها فى صمت الفيلسوف الناطق ، ووقار الشيخ الناسك ! .

ولا تحسبن أنى أغرب عليك ، فإنها ملكة الشعراء رسل الخيال وأنبياء الجمال ، يجوبون مسرح الحياة فيحسون آلامنا : فيصورونها بعواطفهم ، ويلونونها بريشتهم فتبكى العيى والمنطيق ، والجامدات من الكائنات ، ويشعرون بآمالنا فيسجلونها على أسطوانة مخيلاتهم ليهذبوا من أطرافها ، وبعدئذ يصوغونها فى عبارات مشرقات كأنها الروحانيات العلوية أو التسابيح الفجرية ! .

وما الشعر إلا روح عنصره المادة أو مادة عنصرها الروح ؛ إذ هو الوثبة السماوية الخاطفة ، أو اللمعة البرقية السارية فى حنايا الضلوع الإنسانية ، تصهرها فى بوتقة الفكر ، ثم تضعها فى قالبها اللغوى المصنوع لها لتخرج إلى الناس بشراً سويا ، وتطلع عليهم كائنا حيا . . . ومن أجل ذلك كان الشعر الرفيع الحى هو هذا الكلام الطلى المشرق المحيّا ، العطر الأردان ، الجميل المعطف الصافى البشرة ، سواء كان موزونا مقفى ، كما اشترط الأولون أم كان منطلقاً حراً أبيا على القيود والسدود ، متمرداً على الوزن والتقفية . . . بيد أن الشعر لما علم أنه شقيق الموسيقى بما له من رنات وأصداء ، ونغم وتوقيع ولحن وتطريب وحسن أداء وجميل إلقاء ، كان من تمام هيكله ، وتحسين هيئته ، وبديع أمره أن يكون حبيس الأوزان والقوافى ، لا سيما شعر الهزج والإنشاد ، والمطارحة والشدو والغناء .

وبعد فالحياة هي الشعر ، والشعر هو الحياة ؛ فكن شاعرا لتحيا وتخلد في الخالدين ، واعلم أن الشعراء بيننا هم أول من يغبط ويستحق الحياة ، لذلك كانت مرتباتهم فوق أجواز الفلك ومناط الثريا ، وإن كانوا بيننا يسعون على الأرض ، يأكلون الطعام ويشربون الماء ويمشون في الأسواق !.

وما قيمة الوجود في نظرة البصير إذا كان كله أشواك جوارح لا زهور فيها ؟. والشاعر هنا هو الزهرة الغضة التي تنضح بالعطر الأفيح ، والحسن الآسر ، والروض الباسم الغرد ، إذا صافح هزاره ، وتناول قيثاره ، وجمع حوله بلابله وأطياره !.

ولأمر ما نعى الله على جامدي العواطف ، من متحجري الفكر وراكدي الإحساس غفلتهم ، وإلغاءهم عقولهم عن اجتلاء وحدانيته من وراء سطور الكون ، وهو كتابه العريض الأعظم ، وضلالهم وعمايتهم عن آياته الشاهدات بقدرته النواطق بقوته ، فدعوا من دونه أحجاراً خرسا لا ينبغي للفكر الشاعر ، أو الحس المفكر أن يشعر حيالها برهبة أو سلطان ! . . نعى عليهم ذلك فقال لصفوة دعاته صلوات الله وتسليماته عليه : « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » ! وقال : « وما أنت بمسمع من في القبور » ، وقال : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » ، فقد سماهم أمواتا وجردهم من فضيلة الشعور !

وكل ما في الطبيعة من ناطق وصامت ، لو أنعمت النظر فيه يوحي إليك بالتأملات والتصورات البهيجة والأخيلة البارعة الجميلة ، كما يبعثك على التفكر واستنباط العبر . فكيف يقال إذن إن رجلا ركب رأسه واتبع هواه ، فأوغل في ظلمات الأرض ووثنياتها ، وضل عن أبواب الروح وأنوار السماء ، فخلا قلبه من الأذواق المرهفة ، والمشاعر الحية ، واقفرت نفسه من الخواطر المؤمنة ، والأحاسيس المشرقة ، والوجدانيات الرقيقة ! كيف يقال إنه حي في الأحياء ، أو هانيء من السعداء ؟ هيهات هيهات .

حول الاذان المحمدى

للشيخ جاويد صونار

حملت إلينا الصحف نبأ القرار الصائب الذى اتخذته حكومة الجمهورية التركية بشأن قراءة الآذان المحمدى ، بلسانه الخاص ، أى بالعربية .

لا أقصد بكلمتى هـذه التعليق على الموضوع من ناحية الترجمة بالذات ، وإمكان قراءة الآذان المحمدى بالتركية ، فإننى مع اعتقادى بأن أية ترجمة قد تؤدى أغراضها على الوجــه الأكمل ، أترك الإدلاء بالرأى فى ذلك إلى أهل الاختصاص فى اللغات ؛ ليقرروا ما إذا كان ممكناً أن تؤدى الترجمة من لغة لأخرى مهمتها تماماً من حيث المعـانى ــ لأعرض للموضوع من ناحية أخرى جوهرية .

فإننا إذا استثنينا العلوم المادية أى المثبتة ، ولغتها الواضحة المبسطة الخاصة بها ، فهل فى استطاعتنا أن نعبر تمام التعبير عن أفكارنا ، وخلجات نفوسنا بلغتنا الأصلية ، فى ميادين العلوم المعنوية ؟ وبعبارة أخرى هل تستطيع المدلولات التى هى وسائل الفهم والتفاهم ، والكلمات التى هى قوالبها المادية ، والسطور التى تتألف من تلك الكلمات ، هل تستطيع هـذه الوسائل أن تعبر عن حياتنا المعنوية كل التعبير ، وأن تلم بها كل الإلمام ؟ ليس فى وسعنا إلا أن نجيب بالنفى على مثل هذا السؤال ، لأن العلوم المعنوية ، تخاطب عقولنا وأرواحنا أكثر مما تخاطب حواسنا الخمس ، أى أنها متصلة بكياننا المعنوى ، لهـذا كانت الرموز والأمثال ، فى مثل هـذه المعنويات هى وسيلة التفهيم والتفاهم ، ولهذا أيضاً كانت بحاجة إلى التفسير والتأويل .

وإذا نظرنا كذلك إلى علم الحقيقة أى الدين وهو أرقى العلوم المعنوية شأناً ، نجـد ما للتفسير والتأويل من أهمية خاصة فى إدراك معناه ، وبالأخص فى الإلمام بحقيقة الأفعال والحركات الملازمة له . وإنه لفرض علينا أن نعمل بعلم الحقيقة فى أفعالنا وحركاتنا التى نتجه بها الى الحقيقة العظمى أى الدين ؛ وكما أن العلم بلا

عمل فى حكم المفقود كذلك العمل بلا علم لا يفيد أى معنى ، من هذا يتضح جلياً وجوب معرفة اللسان الحقيقى لذلك العلم أى علم الحقيقة ، وهو الدين بالطريقة التى تؤدى الى الفهم بالرمز والمثال أكثر من لغة التخاطب .

مثال ذلك أننا نجد فى قراءة الآذان بأداء مخصوص ، وكيفية مخصوصة من المعانى أكثر مما تدل عليه الألفاظ المجردة . فإن المؤذن عند ما يتجه إلى القبلة ويكرر جملة (الله أكبر) أربع دفعات ، يرمز إلى المراتب الالهية الخمس الموجودة فى الفاتحة الشريفة التى هى أم القرآن ، كأنما يريد المؤذن أن يقول : الله أكبر من تلك المراتب التى تنتظم فى سلك (الحمد لله — وهى مرتبة الألوهية) و (رب العالمين — وهى مرتبة الربوبية) و (الرحمن — وهى مرتبة الرحمانية) و (الرحيم — وهى مرتبة الرحمية) و (مالك يوم الدين — وهى مرتبة المالكية) . ذلك لأن مرتبة الالوهية أكثر عموماً وتشملها جميعاً .

ويرمز المؤذن فى ندائه : (أشهد أن لا إله إلا الله) دفعتين إلى الجمع الظاهر والجمع الباطن ، كأنما يقول للملأ أشهد ألا إله غيره فى الظاهر والباطن ، والظاهر هو مقام الشريعة أما الباطن فهو مقام الحقيقة ، ويرمز بقوله دفعتين : (أشهد أن محمداً رسول الله) إلى دعوة الانس فى الأولى ودعوة الجن فى الثانية إلى الإيمان برسالته . ويريد المؤذن بقوله : (حى على الصلاة) دفعتين وهو يلتفت إلى يمينه ، دعوة سعداء الانس ثم سعداء الجن وبقوله : (حى على الفلاح) دفعتين وهو يلتفت إلى اليسار دعوة أشقياء الانس وكذلك أشقياء الجن إلى الوحدة . أما جملة (الله أكبر) التى يكررها المؤذن وهو يتوجه الى القبلة فإنها إشارة إلى حضرة الغيب ، ثم إلى حضرة الشهادة والى أن الغيب أكبر من الشهود . أما جملة (لا إله إلا الله) التى يقولها أخيراً فإنها تفيد أحديته تعالى فى ذاته .

هذه هى الفكرة فى الآذان بأبسط صورها ومعانيها ، فكم يبلغ عدد المسلمين الذين يستمعون إلى الآذان ، وقد شملتهم هذه الفكرة المعنوية ، ثم يقومون بعدها إلى أداء فريضة الصلاة التى تحمل الشىء الكثير من المعانى السامية ، بنفس اللذة المعنوية التى استشعروها فى نفوسهم عند الاستماع للآذان ؟

فهرس

المجلد الحادى والعشرون

(لسنة ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م)